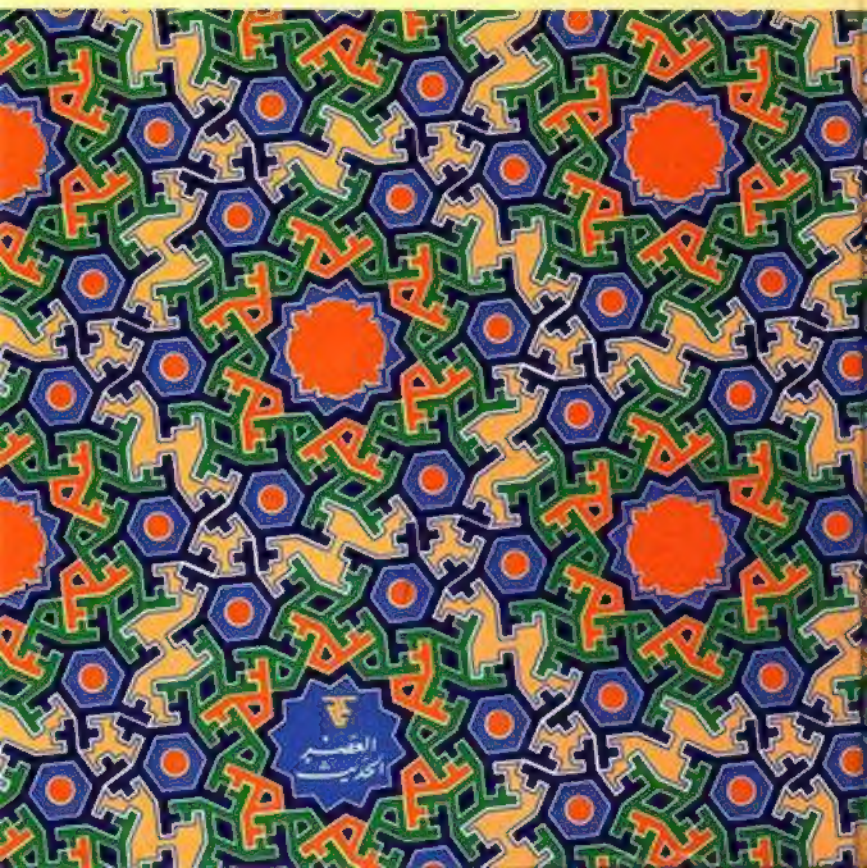


الدكتور حسين مؤنس

تاريخ الفقه الإسلامي



تَاجِ مَحْمُودِ قَرِيشُهَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

د. حُسَيْنُ مَوْلَسُ

سَلَامَةُ مَخْرُجَاتِ قَرْشَمَا

شبكة كرسى الشريعة

في أصغر قبيلة عربية
أعظم قبيلة في تاريخ البشر



mohamed khatab

رابطہ بتاریخ « mktba.net »



العصر الحديث
للنشر والتوزيع



دار المناجل
للطباعة والنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م



دار المنهل

للنشر والتوزيع

DAR EL-MANAHEL

ص.ب. 2080 - 1105 (5645 - 14)

هاتف: 314716 (01) فاكس: 314220 (1)

تصدر هذه الطبعة من " تاريخ فريش "

تحيةة وفاء وتقدير

للمؤلف العلامة الدكتور حسين مونس - رحمه الله -

بعد أعوام على رحيله



mohamed khatab

مقدمة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، الرحمة المهداة .
أما بعد، فهذه دراسة لقريش وتاريخها أعان الله عليها، ويسر أسبابها،
فتمت بمعونته، وتيسرت بسابغ فضله، فله - سبحانه - الفضل والمنة بداية
ونهاية .

وفكرة القيام بدراسة لقبيلة قريش وتاريخها، وأسباب قوتها وتغوّقها على
غيرها من قبائل الجزيرة العربية قبل الاسلام وبعده، وصراعها مع الاسلام رغم
طلوع رسول الله من بين أظهرها، ثم دخولها فيه ووصولها إلى رياسة دولته، وما
جرى عليها بعد ذلك من تصاريف الزمان وما كان لذلك من آثار في تاريخ أمة
الاسلام، هذه كلها موضوعات دارت في ذهني من زمن طويل، لأن قريشاً كانت
العمود الفقري للتاريخ الاسلامي في معظم عصوره، ولا يتأتى فهم هذا التاريخ
على وجهه إلا إذا درس الباحث شأن قريش - وهي كانت دائماً من أصغر قبائل
العرب حجياً، وكيف ظهرت في التاريخ وكيف تمكنت من بناء نفسها وسيادة
غيرها من قبائل الجزيرة، وبينها قبائل ضخمة كالشعوب، من أمثال غيم والأزد
وقضاعة وعبد القيس وهوازن وغطفان، وصمودها في صراع القبائل في بحر
الرمال والصخور قبل ظهور الاسلام . هذه كلها موضوعات مباحث شائقة وشاقة
في نفس الوقت، ولكنها ضرورية لمن يريد أن يدرس السيرة النبوية الجليلة
وموقف قريش منها وانقسامها إلى قريش الإيمان وقريش الكفر، وما كان من
صراع بين القرشيين، وانتصار قريش الإيمان، وهي الأقل عدداً وثروة . واندراج

قريش الكفر فيها. ثم كيف وصلت عدوة الاسلام التي دخلت الدين في السنة الحادية عشرة كما يقولون، واقتدرت رغم ذلك على الوصول إلى رئاسة أمة الاسلام، واستطاعت تحويل الأمة المجاهدة إلى دولة ذات ملك وسياسة وغايات دنيوية وما كان لذلك كله من آثار بعيدة المدى في تاريخ أمة الاسلام.

ولم أكن لأقدم على ولوج هذا الباب وأنا منصرف بكليتي إلى انجاز أطلس تاريخ الاسلام وكتابة السيرة النبوية، وكل منهما مطلب يستنفد العمر الطويل، ولكن الظروف شاءت أن أكون في مدينة الرياض في خريف ١٩٨٢ وضمني مجلس أدب وعلم مع الأخ الأستاذ علوي طه الصافي في دار الفیصل، ويقترح الصديق أن أكتب عن قريش دراسة خاصة لمجلته «في نحو عشرين صفحة» وأمضي وأشرع في العمل، وبعد حين أستاذن الأخ في أن نجعل الدراسة كتاباً صغيراً في نحو مائتي صفحة، ولا يزال الموضوع يتفتح أمامي والدراسة تستدرجني من مطلب إلى مطلب، ومن مرجع إلى مرجع، وخدعني البحث عن نفسي وعن نفسه فأجد نفسي في النهاية أمام مادة بلا نهاية، ويكون شأني معها شأن واضح أي قاموس أو معجم، فإن المشكلة مع واضح القاموس ليست: ماذا يضع فيه، بل ماذا لا يضع؟

ثم يلغاني الأخ الصديق الأديب الناشر محمد بن علي الوزير ويقول: ضع كل ما تحب وأنا بنشر ذلك زعيم، فأتشجع وأمضي حتى أصل بالبحث إلى ما نرى، وقد حررته وعدت عليه بالمراجعة والتدقيق وإعادة الكتابة مرة بعد أخرى، ودفعت به إلى المطبعة وأنا جد متخوف، فإن الميدان واسع، والموضوعات متعددة معظمها جديد على البحث والموضوع في جملته بالغ العسر، ولكنني أطمع دائماً في كرم القارئ وإحسانه، وهذه على أي حال أول محاولة لمؤرخ عحدث في التأريخ لقريش منذ ظهورها على مسرح التاريخ إلى يومنا هذا، ومن هنا فإن احتمالات الخطأ كثيرة، والقارئ مرجو أن يحسب حساب هذا كله وهو يقرأ هذا الكتاب، وإذا شاء أن يعتبر هذا الكتاب كله مجرد بداية لدراسة تاريخ قريش فذلك فضل

منه وأرجية. وهذه المطالب يحاولها الباحث مرة بعد مرة، ويراجع ما يقوله الناس فيه طوراً بعد طور والعلم لا يعرف شيئاً اسمه الكلمة الأخيرة وخاصة في موضوع بهذا الاتساع والأهمية.

والكتاب في ذاته ضخم، ولا يحسن أن أزيده طولاً بالاسراف في التقديم، وإنما لا يحسن بي أن أختتم هذه الكلمة دون أن أتقدم بالشكر إلى الأخوين الكريمين إبراهيم الوزير ومحمد الوزير والصدیق الدكتور محمود علي مكّي الذي أعانني في مراجعة بعض تجارب الطبع وتلميذي محمد فخري الوصيف الذي شاركني في مهمة مراجعة الكتاب وتصحيح تجارب الطبع والإشراف على المراحل الأخيرة للفراغ منه، والله سبحانه من وراء القصد والنية.

خادم العلم
حیدر خان

القسم الأول

قرنثين قبل الميلاد

الفصل الأول

ظهور قريش
وأوليات تاريخها

مكدخل

من مصاعنا الكبيرة مع الأصول العربية التي نعتمد عليها في إنشاء دراساتنا التاريخية أنها تقدم لك الكثير جداً عما لا تحتاجه. والقليل جداً مما تحتاجه، ومادتها في ذاتها غنية ووافرة ولكن هذه المادة لا تعطيك إلا جانباً ضئيلاً من الإجابة على الأسئلة التي تبحث عن جواب لها، لأن هذه الكتب لم تكتب على الحقيقة لنا بل لأبناء عصورها، وإذا كان كل كتاب يعتبر إجابة على سؤال أو أسئلة، فإن الأسئلة التي وضعت هذه الكتب للإجابة عليها ليست أسئلة عصرنا. والمادة الكثيرة التي نحسبها أنت زائدة أو ذات غناء قليل لك، إنما هي في الحقيقة مادة طيبة ونافعة وحافلة بالفوائد، وفي استطاعة الباحث الدؤوب أن يعيد قراءتها مرة بعد أخرى ليظفر بطلبتها، وبعد الجهد الشديد والصبر الطويل يجد جواب بعض أسئلتك بين يديك أو تجد على الأقل بدايات هذه الأجوبة أو مفاتيحها وعلى أي حال فأنت مع مراجعتك العربية في غابة أو بستان، فهنا كل الأشجار وعليك أن تبحث عما ينفعك منها، وهنا معظم الزهور، وعليك أن تبحث عما يروقك.

وعندما أحسست بالحاجة إلى جمع أكبر قدر من المعلومات عن قریش وأصولها وتركيبها وتاريخها كنت أحسب أن المادة عن كبرى القبائل العربية وأعظمها قدراً وأهمية في تاريخ العرب على أطراف الأصابع، ولكن بدايات البحث دلّني على أن أمامي طريقاً أطول مما قدرت، والأسئلة التي طرحها على الموصوع يبدو أنها لم تخطر على بال مؤلفي الحشد الكبير من الأصول التي كنت أتوقع الجنى الوافر الميسر منها، والغابة بدت لي بلا نهاية ولا نور، فلم أحس أنني

وصعت قدمي على بداية الطريق الا بعد جهد شديد

وقد وجدت هذه البداية في كتب المتأخرين زماناً دون السابقين ، ويدو أن
الأسئلة التي تدور في أذهاننا اليوم قريبة مما كان يدور في ذهن رجال مثل أبي محمد
علي بن أحمد بن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ وابن عمر يوسف بن عبد البر الحنبري
المتوفى سنة ٤٦٣ هـ وأبي الفتح محمد بن محمد بن سيد الناس الأندلسي المصري
المتوفى سنة ٦٧١ هـ في الغالب فهؤلاء والكثيرون من أمثالهم كانت لديهم
الأصول كلها - ما وصل إلينا وما لم يصل - فكانوا في سعة من المادة والوقت
يبحثون ويختارون ، وابن حزم بالذات بعد أن أنفق من الجهد ما أنفق في انشاء
كتاب «الفصل في الملل والأهواء والنحل» وعمد الى تأليف كتاب «جمهرة أنساب
العرب» كان قد جمع علماً واسعاً حقاً واتضح الأمور في ذهنه فيها يتصل بالسيرة
النبية وأنساب العرب على نحو ممكن له من انشاء كتبه الكثيرة التي جمع فيها ما
أراد جمعه من كتب السيرة وما أراد البيان عنه من أنساب العرب ، وملاحظاته
التاريخية الصغيرة التي يزين بها شجرات أنسابه تعطينا في أحيان كثيرة جداً مفاتيح
الاجابة على أسئلة كثيرة ، وبالمفاتيح تفتح مغاليق الأبواب ويهون العسير ، ولولا
هذا الكتاب العظيم وما يعطينا ابن حزم في كتبه التاريخية الأخرى وخاصة كتاب
جوامع السيرة لأنفقت في هذا البحث أضعاف ما أنفقت .

والذي كتبه العرب عن فريش بحر بلا ساحل ، وما من كتاب عربي قديم
أو نصف قديم أياً كان موضوعه الا وفيه طرف عن فريش ، وليس ذلك بفريش
فريش - محور التاريخ العربي كله - وهي ذؤابة المجد العربي ومناطه ، والخشد
التهليل المتجمع لك من المعلومات بعد السحث الطويل هو في الحقيقة ركام من
قطع القصصاء عليك بعد ذلك أن تفحصها وتصنفها وتبويبها وتجمعها في صورة
ها شكل مفهوم ومعنى نافع ، ولا يستبعد بعد ذلك كله أن تتبين بعد العناية أن
مساحات كبيرة من الصورة ظلت خلاء بلا رسم ، ولا بد من تركها على حاها لأن
المهج العلمي لا يأذن للمزورح في أن يملأ الفراغات . والفراغات - أي النواحي

التي تظل مجهولة من التاريخ الذي يكتب - تكون في الغالب دليلاً على أمانة المؤرخ وإحجامة عن اللجوء في ملء الفراغات الى الافتراضات وهباء الكلام الذي لا يعتد به ولا عناء فيه .

وفي محاولتنا لكتابة تاريخ لقريش تلقانا ظاهرة الفراغات هذه بصورة واضحة جداً فيها يتعلق بأصل قريش وأوليات تاريخها، لأننا هنا - فيما يتعلق بالأصول والأوليات - نتلمس طريقتنا في ليل التاريخ الذي تختفي فيه كل المعالم الصحيحة للطريق، وتزيدنا حيرة معالم كثيرة وضعها وألقى عليها الضوء مؤلفون من الطراز الذي يصعب عليه أن يقول لا أدري، أو قصاص تغنوا للناس - وأصحاب السلطان خاصة - بما يشتهون، ثم اندرجت قصصهم في كتب التاريخ، أو ناس كانت لهم أهواء سياسية وعصبية اصطنعوا لها ما يؤيدها من أحداث الماضي . وشيئاً فشيئاً نخرج من الظلام الى منطقة ظل، وعندما نقرب من أوان البعثة المحمدية نجد أنفسنا في منطقة شبه ظل نبصر طريقنا فيها، ولكن الرؤية تظل دائماً غير واضحة وغير كاملة، ولا ضير في هذا فإن المؤرخ يكتب على قدر ما تساعفه به أصوله التي يثق فيها، ولا تثريب عليه إذا هوترك النواحي على حالها دون اعتساف ما يملأها، فربما وجد مؤرخ لاجئ مادة سليمة يكمل بها الصورة دون أن يضطر إلى إزالة ما وضعه غيره على غير أساس .

أُولَيَاتُ تَارِيخِ الْعَرَبِ : الْعَرَبُ الْبَائِدَةُ

ومن البداية نجد أنه لا بد لنا لكي نجد أول المحيط من أن ندخل غابة القبائل التي ظهرت قريش من بينها، فقريش لم تكن شجرة مفردة في بَرية وإنما هي كانت شجرة في غابة من القبائل كباراً وصغاراً، وهذه الغابة كانت كثيفة جداً في العصر الذي مدأت قريش تتراعى لنا فيه في فترة لا تبعد أكثر من قرنين قبل البعثة المحمدية، وهي فترة الجاهلية الثانية، أو ما يمكن أن نسميه قبل

الهجرة، فالقائل كثيرة جداً تغطي سطح الجزيرة كله ومساحات واسعة من بلاد الشام وجنوب العراق وشبه جزيرة سيباء وصحراء مصر الشرقية، فلا يخف زحام الناس إلا في مناطق الرمال السائلة التي لا يست فيها زرع لأن الرمال تبتلع كل قطرة ماء تسقط عليها من مثل صحارى النعود والصّمان والربع الخالي الذي يسمى في بعض أجزائه بالبحر الصافي، لأن الصحراء عند العرب هي بحر الرمال، ومواطن العمران فيها جزائر وهي لا تسمى واحات، لأن الواحات لا توجد إلا في صحارى مصر، لأن لفظ واح في اللغة المصرية القديمة معناه الماء، والبحر الصافي هو البحر الذي لا توجد فيه جزر.

وأصولنا تقدم لنا مادة وافرة عن القبائل العربية خلال عصر الجاهلية الثانية. وهذه المادة متفرقة في معظم كتبنا القديمة، فما في العربية كتاب قبل العصر الحديث ليس فيه ذكر لقريش أو فائدة عنها، ومن حسن الحظ أن جانباً عظيماً منها متشابه أو منقول بعضه عن بعض ولكن الخلافات بينها فيما يتصل ببدايات قريش قليلة مما يسهل المهمة أحياناً ويزيدها صعوبة في أحيان أخرى. ونبدأ من البداية فنقول إن كلّ مراجعنا متفقة على أن تاريخ العرب قبل الإسلام - باستثناء عرب اليمن - مر في ثلاث مراحل أو طبقات: العرب البائدة والعرب العاربة والعرب المستعربة، ولا خلاف بينها حول العرب البائدة، ولكن التفريق بين العاربة والمستعربة - بحسب كلامهم - غير واضح، فالعارب لغوياً هو المستعرب على وجه التقريب، وقريش نشأت في قولهم من المستعربة وهم العدنانيون الإسماعيليون.

ونلقي نظرة على رأي العرب القدامى في هذا الموضوع فنقول إن آراءهم مجمعة على أن العرب البائدة هم أقدم من سكن وسط الجزيرة وشمالها، وأنهم انقرضوا، وبعضهم ناد تماماً مثل عاد وثمود فقد قال الله تعالى في محكم كتابه ﴿وإنه أهلك عاداً الأولى وثموداً فما أبقى﴾ (الحجم ٥٠/٥١)، ويفهم من نص الآية على بعض التفاسير أن هناك عاداً ثانية هي بقية الأولى. وباستثناء ثمود يمكن

القول بأن نقايا تحملت عرس باد من العرب البائدة مثل عاد وطسم وجديس وأميم وقطورا وإرم والمؤتمكة وأهل الرأس وأصحاب الأيكة وهذه البقايا القليلة احتللت بالعرب العارة وذات فيهم .

وقد قرأنا فيما كشفت عنه أبحاث الجيولوجيين عن نقبوا عن نقايا ما قبل التاريخ في جزيرة العرب، أن الجزيرة كانت عامرة بالزروع والنباتات والشجر والوحش وحيوان الصيد في بدايات العصر الرابع من عصور عمر الأرض المعروف باسم الكواتيرناري Quaternary وهو الذي جاء بعد أحقاب الجليد المعروفة باسم البلايستوسين Pleistocene الذي جاء بعد العصر الثالث أو الترسياري Tertiary . والبلايستوسين مصطلح علمي جيولوجي مركب من لفظين (Pleistos + Kainos) ومعناها معاً الأحدث أي العصر الأحدث ويراد بذلك أحدث عصور عمر الأرض الطويل أو أقربها إلينا، وقد دام نحو مليون سنة، وقد تغطت فيه مساحات شاسعة من النصف الشمالي من كرة الأرض بالثلوج مرة بعد أخرى حتى نصف آسيا وأوروبا وأمريكا الشمالية، فقد زحف الجليد من أماكنه الحالية في القطبين الشمالي والجنوبي حتى غطى المساحات التي ذكرناها . فنقلت طبقاته في بعض الأحيان حتى بلغ سمكها ثلاثين متراً ونخت طبقاته في أحيان أخرى حتى ذابت الثلوج وأصبحت المساحات المذكورة غامرة بالماء العذب، ولهذا يعرف البلايستوسين بالعصر الجليدي glacial epoch ، فأما الأحقاب التي نزل فيها الجليد وجمد فتسمى بأحقاب الجليد glacial ages وأما التي خف فيها فتعرف باسم أحقاب الجليد البينية Interglacial ages وآخر هذه الأحقاب الثلجية البينية هي التي استمر ذوبان الجليد فيها ولم يعد إلى التجمد مرة أخرى، وقد استمر ذوبان الثلوج خلال تلك الحقبة الأخيرة بضعة مئات من آلاف السنين، ولم يكن الجليد في عصر البلايستوسين ثابتاً، بل كان يتحرك حروباً في نصف الكرة الشمالي على هيئة ثلاثيات أو وديان ثلج Glaciers تتحرك في ببطء شديد، فصارت تلك الثلاثيات سيولاً تنحدر إلى

الجنوب أو قيعانا هائلة الحجم مليئة بالماء ، أخذت هذه القيعان تصغر في الحجم بعد انسحاب الجليد إلى الشمال شيئاً فشيئاً ، وحلفت وراءها بحيرات شاسعة الحجم كما نرى في البحيرات الواسعة شمالي الولايات المتحدة و جنوب كندا وبحيرات شمال ووسط أوروبا ووسط آسيا ويدخل فيها بحر الخزر (قزوين) و بحر خوارزم (آرال) وبحيرة بيكال وقد ملّح ماء بعض هذه البحيرات بالبحر وارتفعت نسب الأملاح في الماء بل إن البحر الميت (بحيرة لوط أو البُحيرة المَيّتة) بقية بحيرة من تلك البحيرات المتخلفة عن عصر ذوبان الجليد، وقد انفجرت كل بلاد أوروبا وآسيا بهذا الماء الذائب الذي سال ودياناً وأنهاراً أو ظل مكانه في الوهاد، وسالت منه أنهار ووديان أخرى غمرت جنوبي آسيا وبه جزيرة العرب . وكلما انقشع الماء وانحسر عن بقعة من الأرض نمت فيها النباتات وطلعت الأشجار وظهر الحيوان ، وبين هذا الحشد الكبير من الحيوان ظهرت لنا آثار الإنسان الذي لا بد أن يكون قد عاش على الأرض من أحقاب سحيقة في القدم ، وانسحب مع غيره من الحيوان والنبات إلى الجنوب ثم عاد إلى المواطن التي عمرت بالحياة بعد أن كانت خافية تحت الثلوج أو غامرة بالماء .

وقد دامت عصور انقشاع الماء عن بعض اليابس وازدهار الحياة بضع مئات الألوف من السنين حتى إذا كان ما بين ثلاثمائة ألف ومائتين وخمسين ألفاً من السنين من عصرنا الراهن هذا بدأنا نتعرف على معالم الأرض وملاعها وآثار الإنسان والنبات والحيوان والطير والأسماك والحفلاتي الأخرى التي نعرفها إلى اليوم .

وكانت تربة الأراضي التي انقشع عنها الماء شديدة الخصب لأن ركام الثلوج والأمواه خلّفت عليها طباقاً من الطفل Clays والصلصال Silts والأملاح Salts ، ويؤرخ علماء طبقات الأرض والجيولوجيا لهذه الأحقاب بدراسة ما يعثرون عليه فيها من الكربون Carbon والكربون المشع - Radio carbons الذي يعرف باسم كربون ١٣ وكلاهما أخشاب متفحمة ، ولهذا

الكربون المشع وما يخرج منه من إيزوتوبات الكربون المشعة Radionisotopes of المشع وما يسعث منها في الهواء من ثاني أكسيد الكربون Carbon dioxide وقد جود العلماء أساليب التأريخ بدراسة الكربون المشع حتى أصبحوا يؤرخون لقشرة الأرض والأحياء التي عاشت عليها وفي قشرتها خلال المائة ألف سنة الماضية وهذا هو أمد تاريخ نستطيع أن نؤرخ فيه للحياة في جزيرة العرب على وجه قريب من التأكيـد . ومن حسن الحظ أن نفرأ من العلماء درسوا ما تسر لهم دواسته من تاريخ تربة الجزيرة العربية خلال هذه المدة . وقد ثمت حفائـرهم على السواحل وما قرب منها وفي أقصى الشمال والجنوب والشرق وجدير بالذكر أن أبا الريحان البيروني تنبه إلى أن مساحات شاسعة من شبه الجزيرة كانت غامرة بالماء ، وقد استنتج ذلك مما كان يصادفه في تربة الجزيرة من أصداف وحفريات أحياء بحرية في مواضع من الحجاز والطريق إليه . ودون أن أخرج كثيراً عن السياق أقول إن استخدام الكربون المشع في التأريخ لطبقات الأرض يقوم على دراسة ما بقي من اشعاعه فيعرف بذلك قدر ما ضاع وتبدد ، وما داموا يعرفون سرعة تبدد الاشعاع فهم يعتمدون على هذا في التأريخ ، وذلك أيضاً ينطبق على المعادن المشعة مثل اليورانيوم والأيتونيوم والراديوم . وخلال أحقاب ثقل طبقات الجليـد وخفتها طوال عصر الجليـد أو البلايستوسين هلك - حتى ندر - الكثير من صنوف الأحياء الذي كان يعيش في تلك الأقاليم من حيوان الأرض ونباتها ، ومن بين ما هلك حتى ندر أو انسحب إلى الجنوب أمام طوفان الجليـد ، الحصان والجمل . فقبل عصر الجليـد كان يعيش في الجزيرة الحصان والجمل وبعض أصناف الوعول والثيران والأسود والزواحف ، قد نُدِّرَت حتى اختفت حفائرها من طبقات الأرض في جزيرة العرب والشمال الأفريقي إلى ما قبل ٢٥ ألف سنة ، لأن قرب الجليـد وكثافة طبقاته وما كان يسبح منه وينحدر إلى الجنوب من الماء المثلوج بَرَد جو نصف الكرة الشمالي إلى درجة لم تستطع تلك الأحياء أن تعيش فيها ، فهلكت جماعاتها ولم يبق منها إلا ما اعتصم بما ارتفع من القمم حتى أعاد من الشمس وما انخفض وخفي من الوهاد ليعود مرة أخرى إلى الظهور والتكاثر

عندما انقشع الماء وعاد دفء الأرض، وهو عندما عاد إلى الظهور كان صعب الحجم دقيق العظم فأول ما عثرنا عليه من حفائر الحمال جنوبي العراق وشمال اليمن كانت صغيرة الحجم في حجم الجحش الصغير، وينطبق هذا على الحصان الذي عاد إلى الظهور في حجم الكبش الكبير في صحراء جوبي شمال الصين، وهناك كان موطن ذلك الحيوان الذي سيكون له ولاستثناسه أثر ثوري في تاريخ البشر. أما الحمل فسرى فيما يلي من هذا الحديث ما سيكون لاستثناسه من دور عظيم في تاريخ الجزيرة العربية. وعاصر عودة ظهور الأبل والوعول والثيران على حفا في الجزيرة وكذلك الشياه والأعناز والوعول وبعض الكواسر منها أسود أقرب إلى القطط البرية الكبار نشأ عنها الأسد الآسيوي وهو الغضنفر أو الرثبال الذي أدركه الشعر العربي وأورد ذكره.

ولم ينته عصر الجليد أو البلايستوسين دفعة واحدة، بل إن الجليد توقف عن الذوبان وعاد إلى الثبات على مجده، ثم سال وبعد مرة بعد أخرى خلال مائتين أو ثلاثمائة ألف من السنين، لأن الأحوال المناخية في جو الأرض لم تستقر إلا بعد زمن طويل، وكان باطن الأرض يتفجر بالبراكين في كل مكان، فما كانت البراكين تخمد ولا سطح الأرض يستقر، والزلازل والهزات الأرضية لا تتوقف، فهي إذا قرئت في مكان تحركت في آخر، وما كان من الممكن أن تستقر الأرض أو جوها على حال إذا كان هذا الغطاء الجليدي الثقيل يجم على ما ذكرناه في نصف الكرة الشمالي، وقد أخذ وقتاً طويلاً جداً في ذوبانه وانحساره إلى الشمال، هذا كله كانت تصاحبه رعود وبروق وعواصف ثلجية وأعاصير ورياح عاتية، وأعاصير دوارة Typhoons تدور وتنتفل من مكان لمكان، وهذا كله كان يخرب ما عسى أن يكون قد نما من مظاهر الحياة على أي بقعة من الأرض تستقر فيها الأحوال زماناً، وإذا كنا نتكلم عن أحقاب من عمر الأرض تطول مئات الآلاف من السنين فإن فترات الاستقرار الطارئة ها وهناك من الممكن أن تطول بصع البوف من السنين ثم تعود القلقلة من جديد، وخلال

هذه الألوف من السنين من الاستقرار كانت تنشأ أجيال من المخلوقات من كل نوع، وكلما بعدنا عن عصر الجليد طالت فترات الاستقرار واتصلت أجيال المخلوقات دون أن يمنع ذلك من عودة التجمد والقلقلة واشتداد هياج البراكين. وشيئاً فشيئاً تطول فترات الهدوء والاستقرار النسبي واتصال الحياة، ولا يمنع ذلك من عودة التقلقل والاضطراب وهياج البراكين وانتشار الحرائق وموت الكثير من مظاهر الحياة. ويقدر العلماء أن ذلك الحال القلق استمر إلى ما قبل ٥٥ ألف عام من أيامنا هذه، وخلال العشرين أو الخمسة وعشرين ألف من السنين صاعدين مع الزمن نحو عصرنا هذا استقرت الأحوال في وسط آسيا وجنوبها نسبياً فازدهرت الحياة واتصلت الأجيال قروناً متطاولة مع هبوب العواصف وثوران البراكين بين الحين والحين، وقد هبأت وسط جزيرة العرب وكل وسط وجنوب آسيا وشمال أفريقيا من ذلك طويلاً، وتحطمت الحياة مرة بعد أخرى، ولكن الحياة كانت تعود إلى الإزهار بقوة كلما أتيحت لها الفرصة، فالتربة بالغة الخصوبة والمياه وفيرة وحرارة الجو مهيبة إلى الاعتدال، وإذا كانت البراكين والعواصف والسيول تقضي على الأحياء فهي كذلك تدفع الحياة في كيان الأرض وتحمل بذور النبات وأصول الأشجار من مكان إلى مكان، والبراكين بما تخلص من الحمم وتنشئ تربة بالغة الخصوبة، وفي أيامنا هذه يثور بعض البراكين ويقذف الحمم، فلا تكاد هذه تبرد حتى تنفجر الحياة من باطنها في سنوات قلائل، وقد شهدنا نحن ذلك بأنفسنا ورأيناها مصوراً مرة بعد أخرى.

ولا بد أن جماعات العرب البائدة عاشت في وسط الجزيرة وشمالها خلال فترات من الاستقرار فيها بين خمسين وثلاثين ألف سنة من الآن، ولا مد أن طوفان نوح وقع خلال هذه الفترة، ففصت المياه على الحياة وعادت بأمر الله، ونوح عليه السلام قاد تجديد الخلق بما حمل معه في الفلك. ونوح بدأت رسالات السماء واتصلت إلى الخلق الجديد، ونوالى ظهور الأنبياء بالبشارات

والنذر كما هو وارد في القرآن الكريم ، وكلما اشتد عصيان قوم واستشرى كفرهم وفسادهم أسادهم الله أو أباد غالبهم بما رأينا من الزلازل والبراكين والصواعق والنيران والفيضانات ، وأطراف من أوصاف ذلك كله واردة - بأجلى بيان - في القرآن ، فقوم نوح كذبوه وأسرفوا في عصيانهم ﴿فكذبوه﴾ فأنجيناها والذين معه في الفلك ، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين ﴿(الأعراف ٦٤/٧)﴾ . وقوم عاد كذبوا أخاهم هوداً ﴿فأنجيناها والذين معه برهة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين﴾ (الأعراف ٧٢/٧) . وثمود كذبوا رسالة نبيهم صالح وهددوه وأنذروه واشتدوا في غيهم وعقروا الناقة ﴿فأخذهم الرجفة فاصبحوا في دارهم جائمين﴾ (الأعراف ٧٨/٧) . وقوم لوط كذبوه وعصوه ﴿فأنجيناها وأهلكه إلا امرأته كانت من الغابرين ، وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ (الأعراف ٨٣/٧ - ٨٤) . وأهل مدائن استكبروا ورفضوا ما قال لهم أخوهم شعيب ﴿فأخذهم الرجفة فاصبحوا في دارهم جائمين﴾ (الأعراف ٩١/٧) . وفي سورة الفرقان (٣٨/٢٥ - ٣٩ - ٤٠) نقرأ ﴿وعاداً وثموداً وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً . وكلاً ضربنا له الأمثال وكلاً تبرأ تنبيهاً . ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشوراً﴾ .

وفي سورة ص (٣٨/١٣ - ١٤ - ١٥) : ﴿وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب . وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق﴾ . وفي سورة فصلت (١٦/٤١ - ١٧) نقرأ عن عاد وثمود : ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الحزني في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأليم لا ينتصرون . وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون﴾ .

وهكذا تتوارد الآيات مؤكدة ما انتهى إليه العلم بعد طول البحث والتحقيق، فمن المُجْمَع عليه بين العلماء أن هؤلاء الأقوام جميعاً كانوا يعيشون في شمال الجزيرة العربية أو في غرب نجد كما نرى في حالة أهل الرُّس، وكانت بين بعضهم قرون كثيرة كما رأينا من تعاقب الجليد والذوبان وازدهار الحياة ثم اندثارها خلال القرون التي أعقبت نهاية عصر البلايستوسين، وهنا امطار وسيول وصواعق ورياح وكلها من الظواهر الجوية في تلك الأعصر، ويكون العرب البائدة قد عاشوا في شبه الجزيرة قبل خمسين ألف إلى ثلاثين ألف سنة، ثم باد معظمهم بما رأينا وظل شمال الجزيرة ووسطها يساباً Wasteland لا يعمره إلا قليل من الناس والمخلوقات حتى دخلها العاربة.

العَرَبُ العَارِبَةُ ؛ الجَمَلُ :

ويمكن القول إن العرب العاربة دخلوا جزيرة العرب مع الجمل . والجمل كما قلنا حيوان قديم جداً توجد حفائره في أواخر عصر البلايستوسين وكان يعيش في الجزيرة وجنوب الشام حيواناً وحشياً، ثم ندرت حفرياته حتى لم تعد توجد في الشمال الأفريقي . أما في الجزيرة العربية فلم نعث له على حفريات إلا من عصر العرب البائدة أي قبل قرابة الثلاثين ألف سنة ثم ندر حتى لم نجد له حفريات إلا في جنوب العراق وشمال اليمن، وقبل خمس وعشرين ألف سنة على وجه التقريب استؤنس الجمل جنوبي العراق وتبين للناس ميزاته وخصائصه، وقد كان يعيش هناك وحشياً بعيداً عن العمران . وهو بطبعه حيوان نفور شديد الخوف شديد الحياء فيما يتصل بمخاضه وحمله وولادته . وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون في «المقدمة» في كلامه عن أجيال العرب وكلامه هنا عظيم القيمة بالنسبة لأسلوب حياة العرب في العصور التي نحن بصددتها وإن كان هو لا يقصدها بالذات في كلامه عن أحيال من أولئك البدو القدماء ظلت على حالها من الإيغال في التوحش والبداءة إلى أيامه في

جزيرة العرب وبلاد المغرب. وسأورد كلامه واقسمه إلى فقرات لكي نستطيع الاستفادة منه بعد ذلك، ونحن هنا مع قراءة حديدة لتاريخ العرب قبل الإسلام فيقتضي الأمر ما التوسع في القراءة وتمعن النظر فيما نقرأ، لعلنا بذلك نستطيع سوق الكلام مسافاً منطقياً متتداً نصل به إلى ما نريد من معرفة بدايات قريش وعالم العرب الذي ظهرت فيه.

قال ابن خلدون في الفصل الثاني من الباب الثاني من «المقدمة» وعنوانه: في «أن جيل العرب في الحلقة طبيعي»:

١ - قد قدمنا في الفصل قبله أن أهل البدو هم المتحلون للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الأنعام، وأنهم مقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس المساكن وسائر الأحوال والعوائد، ومقصرون عما فوق ذلك من حاجي أو كمالي، يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة غير منجدة، وإنما هو قصد الاستظلال والبر، لا ما وراءه. وقد يأتون إلى الغيران والكهوف.

٢ - أما أقوامهم فيتناولون بها يسيراً بعلاج أو بغير علاج البنة إلا ما مسته النار. فمن كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلح كان المقام به أولى من الظعن، وهؤلاء سكان المذر والقرى والجبال وهم عامة البربر والأعاجم.

٣ - ومن كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظعن في الأغلب لا رتياد المسارح والمياه خيواناتهم، فالتقلب في الأرض أصلح بهم، ويسمون شايئة، ومعناه: القائمون على الشاء والقر، ولا يمتدون في القفر لعمدان المسارح الطيبة، وهؤلاء مثل البربر والترك وإخوانهم من التركمان والصفالبة.

٤ - وأما من كان معاشهم في الإبل فهم أكثر ظعنًا وأبعد في القفر مجالاً،

لأن مساح التلول ونباتها وشجرها لا تستغني بها الإبل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر وورود مياه المُنْحَة والتقلب فصل الشتاء في مواجيه مراراً من أذى البرد إلى دفء هوائه وطلباً لما خضر التاج في رماله، إذ الإبل أصعب الحيوان فصلاً ومخاضاً وأحرجها في ذلك إلى الدفء، فاصطروا إلى إبعاد النُحمة. وربما زادتهم الحامية عن التلول أيضاً^(١)، فأوعلوا في القفار نفرة عن البُصة منهم^(٢)، فكانوا لذلك أشد الناس توحشاً، ويتزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوان العجم، وهؤلاء هم العرب، وفي معناهم ظعون البربر وزناتة بالمغرب والأكراد والترك والتركمان بالمشرق إلا أن العرب أبعد نُجعة، وأشد بدواة لأنهم يختصون بالقيام على الإبل فقط، وهؤلاء يقومون عليها وعلى الشاء والبقر معها. فقد تبين لك أن جيل العرب طبيعي لا بد منه في العمران والله سبحانه وتعالى أعلم^(٣).

وهذه الفقرة كلها عظيمة الأهمية بالنسبة لدراستنا كلها لا بالنسبة لهذه المرحلة منها فحسب. لأن كل صور البدواة التي يصفها ابن خلدون هنا هي نفس صور الحياة العربية البدوية في العصر الذي نتكلم عنه، إذ إن البدواة ليست مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي كما قال ابن خلدون في فقرات تالية لما نقلناه عنه هنا، وإنما هي نوع من الحضارة مستقل بذاته. وهو نتيجة ظروف محددة من الحياة في البيئة الصحراوية، فبدو العرب الذين تخلفوا في الجزيرة عن العرب البائدة لا بد أنهم عاشوا في مواطنهم في الجزيرة على صورة أهل الفلح والشاوية العرب الذين كانوا يعيشون على أطراف بلاد الحضارة والاستقرار في بلاد العراق والشام، ولا بد أن هذا أيضاً كان أسلوب الحياة في مواطن الماء في الجزيرة، فحين نتكلم عن عصور كانت الجزيرة فيها غنية بمواطن العشب بل

(١) يريد أن حاميات الدول أي جمودها يتدفون أولئك البدو عن الأراضي المزروعة الداحلة في

طاعتهم

(٢) أي مورداً من صفة الحصون لحود الدول والأدى على أيديهم

(٣) ابن خلدون، المقدمة، طبعة دار الشعب بالقاهرة ص ١١١ (بلون تاريخ)

النبات والشجر وحيوان المرعى من الشاء والبقر قبل استئناس الجمل. فكانت كل جماعة تعيش في مواطنها حياة بدوية مقتصرة على الضروري لحفظ الحياة كما قال ابن خلدون. وكانت تلك الجماعات تعيش حياة كاملة، أي لا تعتمد على غيرها، فهي في مواطنها في مواطن العشب في الجزيرة قادرة على مواصلة حياتها مكتفية بالضروري آمنة من العدوان لأنها قادرة على الدفع عن نفسها، ثم إن جماعاتها كانت تعيش متباعدة بعضها عن بعض، ولا مطعم لإحداها في الأخرى، فلا ثروة ولا إبل كثيرة تحمل الناس في القفار، ولا خيل يعتمدون عليها في الغارة. ولا بد أن الذين عاشوا منهم قرب مواطن العمران كانوا يعيشون على النسق الذي وصفه ابن خلدون فيما يتعلق منهم بأهل الفلح القليل أو المرعى القريب.

ثم كان استئناس الجمل فأحدث انقلاباً شاملاً في حياة الجماعات التي استأنسته على أطراف العراق والشام الجنوبية. لأن الجمل حيوان فريد في بابه متعدد الخصائص فهو بحكم خوفه من غيره لقله سلاحه الطبيعي الذي يمكنه من الدفع عن نفسه يُعبد في القفر ولا يطمئن إلا في الموطن الموحش الذي لا يستطيع الحياة فيه غيره، فتعود الحياة على الحشائش والنباتات بما في ذلك الشوك والصبار، وآتاه الله القدرة على هضم ذلك، فهو يأكل من ذلك ما يتيسر له على عجل ثم يمض في القفر حيث يمتدح في أمان. وهو صبور على العطش قادر على الاستغناء عن الماء الأيام الطويلة بفضل ما ركبه الله في خلقته من الخصائص، وقدمه مهياة للسير في الرمال المسافات الطويلة، لأنها تحولت إلى خُف لا يسوخ في الرمال، فالجمل إذا وجد الماء استطاع أن يشرب ما يقرب من ١٤٠ ليترًا دفعة واحدة. وهذا الماء لا يستقر في حوضه ماء زلالاً بل يتحول إلى مادة هلامية تخزن في جهاز خاص في جسده من الأوعية والشراسيف، وحسده يعيش على تلك المادة بعد ذلك شيئاً فشيئاً حتى إنه إذا شرب وارتوى استطاع أن يصبر دون ماء سبعة عشر يوماً ونصفاً متوالية، والذين يتحدثون عن أن العرب كانوا إذا

أرادوا عبور صحراء لا ماء فيها سقوا الإبل حتى ترثوي ثم ساروا بها، فإذا احتاجوا إلى ماء ذبحوا منها حاجتهم وشربوا ما في بطونها يتحدثون عن وهم لا عن واقع، ونحن إذا دبحنا الجمل وفتحنا بطنه لم نجد فيه من الماء إلا ما يجده في بطن غيره من الحيوان. أما الماء الكثير الذي يشربه فيتحول كما قلنا ويستودع في الجسد، ويخالد من الوليد لم يستق الجمال التي عبر بها البيداء وصار يذبح منها ويشرب هو ورجاله، وإنما هو سار في دروب يوجد الماء فيها على المراحل المعقولة. وقد تتبع الباحثون هذه الدروب ووصفوها وأبطلوا تلك الأسطورة. وقد تكونت هذه الخصائص في الجمل لأن تاريخه في الخلق أشبه بالأسطورة فأصله البعيد في أمريكا الجنوبية في أعالي جبال الإنديز، وهو من عائلة اللاما والالبكا ثم سار مع الجبال صاعداً حتى وصل إلى صحراوات أمريكا الشمالية وتبحج في صحراء الأريزونا ورمالها، وهناك - وعلى مدى مئات الألوف من السنين تكون له السنام والخف وجهاز خزن الماء المتحول إلى مادة هلامية، ثم عاود الرحالة حتى بلغ آلاسكا ومنها عبر مضيق بيرنج إلى كمتشكا، ثم انحدر حتى صحراوات شمال الصين، وهناك استقر وهذا واكتمل تكوينه وانقسم إلى جبل ذي سنامين في النواحي الباردة وجبل ذي سنام واحد. والأول غزير الشعر يسمى بالبخى bac-trian نسبة إلى بكتريا ذات الجبال العالية، والثاني هو جملنا المعروف dromedary ثم دخل الهند ومنها إلى فارس والعراق، وعندما وصل إلى حافة الجزيرة العربية وجد طلبته وهي الرمال التي يهرب إليها ويظمتن فيها، وهناك استأنسه الإنسان وتبين فضائله.

والجمل كذلك يخزن الطعام دهناً في سنامه، فهو صبور على الطعام أيضاً، فإذا حاجه الطعام اعتدى بما لا يقدر عليه غيره، فقلت متوته وأصبح رغم عظيم فوائده من أقل الحيوان كلفة وأكثره عطاء.

ثم إن الجمل يعطي الإنسان أصعاف ما يعطيه غيره، فهو عزيز اللب تعطي اللبون مه قدر ما تعطيه البقرة الحلوب، ولبنه دسم كثير العذاء. وأهل

البادية يكتفون بشربة منه مع قليل من التمر فيكفيهم ذلك عامة اليوم .

ويعطي الجمل صوفاً وافرأ يقدر بخمسة عشر الى عشرين كيلو جراماً في السنة ينفضه عن جسده نفصاً دون حاجة الى حَزْ أو مع جَزَ قليل إذا حاج الأمر، وهذا الصوف لين لطيف اللمس، يغزل ثم ينسج فيكون منه نسيج صوف يصلح للبس وصنع الخيام والبسط، فإذا كان لدى البيت البدوي عشرة من الإبل كان له منها نصف طعامه وعامة حاجته من بيوت الشعر، وكل حاجتها من الملابس وليس غريباً في هذه الحالة أن يسمى البدو بأهل الوَتر، والوتر هو صوف الإبل وغيرها .

فإذا احتاج البدوي إلى اللحم ذبح من الإبل وأكل . وفي تفاصيل السيرة النبوية ما يفيد أن الجمل الواحد إذا ذبح أعطى اللحم اللازم لمائة من الناس في اليوم إلى جانب القليل من اللبن والتمر .

وإذا ن فالجمل في ذاته، بطبعه وخلقه وخصائصه - أسلوب حياة، وهذا هو الذي اكتشفه الإنسان عندما استأنس الجمل في الأرض المعشوشبة جنوب غربي العراق، وعملية الاكتشاف والاستئناس هذه لا بد قد استغرقت مئات السنين، لأن الإنسان في مثل هذه الحالات يعثر على حيوان صغير ضعيف لا يستطيع الهرب، فيرق لحاله ويعني به وينشأ معه ويغلب أن يكون الذي يفعل ذلك امرأة، فهي بطبعها تعطف على الحيوان الصغير كما تعطف على الطفل وتعني به وتغذوه حتى يكبر ثم تبدأ خصائصه في الظهور، فإذا كانت أنثى درّت لبناً ثم يكتشف الناس وبر الجمل وفوائده، ويبحثون عن حيوان آخر مثله ويربونه ليتم تكاثره ثم يصبح هذا الحيوان الكثير الفصائل جزءاً من حياة الناس شيئاً فشيئاً - ومع التكاثر - يزداد الاعتماد على الجمال، ويتبين الإنسان أن هذه الحيوانات تستطيع الإيقال في الصحراء، ومن الممكن الدخول بها إلى موضع قعر ليس فيه إلا شيء من الماء قليل والعيش به وحده، فإذا الجمال نرعى الحشائش والنباتات الخشنة وتحملها إلى لبن وصوف ولحم، والإنسان

يعيش على ذلك كله . وعندما وصلت بعض الجماعات الإنسانية الصغيرة إلى ذلك أوغلت بجملها في الصحراء ونزلت حيث لا يدركها أذى وعاشت مع حاملا واعتارها وشائها، وهكذا ينشأ طراز من الحياة جديد هو طراز البداوة الطاعة المعتمدة على الجمل أساساً والتي تستكمل مطالب حياتها من قدر حائبي من التخيل والماعز والضأن . وهذا هو طراز الحياة الذي تحدث عنه ابن خلدون في الفقرة الرابعة من الكلام الذي نقلناه عنه : طراز البداوة القائمة على الإبل أساساً، وهي البداوة التي نشأت عنها أجيال العرب العاربة . فإن الجماعات التي استأنست الجمل وعرفت خصائصه وأفادت منها وأوغلت في القفر واستقرت في بعض مواطن الماء القليل كانت طلائع العرب العاربة، فهم لم يكونوا جميعاً عرباً، بل فيهم عرب وغير عرب، وقد جمعهم بعضهم إلى بعض الإبل وأسلوب الحياة الذي ينشأ معها ومنها، ودخلت الجزيرة التي كانت قفراً إلا من بقايا البائدة المتناثرين هنا وهناك في الشمال وعندما تكتشف الجماعات الإنسانية شيئاً كهذا فإن العملية تسرع في خطوها بعد طول بقاء وينشأ منها طراز من الحياة جديد تتحدد معالمه وخصائصه مع الزمن .

كثرت الإبل إذن وزادت العناية بها، وأخذت جماعات الناس تزحف إلى الجنوب داخلية الصحراء، فقد تبينوا أن فيها مجالات واسعة للحياة اعتماداً على الإبل أساساً ثم على ما ينضاف إليها من أسباب الحياة بعد ذلك، وإذا كانت الحياة في الصحراء عسيرة قاسية فإن فيها ما يعوّض الإنسان عن لين العيش ويُسرّه : فيها الأرض الواسعة دون مالك يتحكم في الناس، وفيها الفيافي الرحبة التي لا سلطان فيها للملك أو مستبد أو جامع ضرائب، وفيها شعور الجماعة الصغيرة من الناس بعزتها وحريتها، هنا - أي في جزائر صغيرة تقوم على عيون ماء قليلة - تستطيع القبيلة المهاجرة أن تحط وتطلق إبلها وشيائها وأعانها يتبعها راع أو غلام ينتقل وراءها ويحرسها ويوجهها ويعود بها آخر اليوم إلى منازل القبيلة . في أثناء ذلك ينعم رجال القبيلة بالخلوس في الظل والشم وربما

قول الشعر، فالوقت واسع لا شغل ولا حطر من عدوان ولا حاجة للمال، فالقبيلة تعيش على ما لديها وأما ما لا تملكه فهي في عبر حاجة إليه. أما النساء فيفضين وقتهن في غزل الصوف وسج القماش للملابس لبوت الوبر أو الخيام، وفي المساء يعود الرعاة بتلك الإبل الكريمة التي تعطي لبناً وافراً لديداً يُشرب دافئاً ساعة خروجه من الضرع أو بارداً إذا ترك إلى الليل. وشباب القبيلة طول النهار يتسارى في المصارعة أو اللعب بالسيف، وأسلوب الحياة الجديدي يتسع نطاقه ويتكامل مع الزمن، ويزداد الناس علماً بشؤون الإبل من حمل وغضاض وولادة وتدققة وحماية ورعاية، بالولائد، وهذه تطورات تأخذ كما قلنا مئات السنين ولكن أسلوب حياة البداوة أثبت أنه أسلوب مقبول وعملي، والنظرية الأساسية التي يقوم عليها هي أن الإبل تعيش في ظروف الحياة القاسية في البرية، تغتذي بالنبات القاسي مع القليل من الماء وتقطع المساحات البعيدة دون أن تشعر بكبير تعب. وقد أثبتت الأبحاث اليوم أن الجمال أكثر الحيوان احتمالاً للألم الجسماني فالإبل تحتمل مضغ الشوك والقتاد وأعواد النبات الجافية، لا لأنها لا تشعر بالألم بل لأنها تحتمله والرجل الخشبي يوضع على سنامها ويشد بالجلد ويركب الرجل والجمال يتألم ولكنه يتحمل لأن غدته النخامية التي تقوم بين فصي المخ في قاع الرأس Pituitary gland تفرز شيئاً يساعد على احتمال الألم، فالإجهاد يبلغ بالجمال أشد مبلغ ومع ذلك فهو يحتمل ويواصل السير، ويخفف تتناوره الصخور وتدميه وهو يسير، ويدركه النوم وهو سائر بحمله ينفو وهو يسير، فإذا حط شرب الماء الأجاج وقد رأسه على الرمل وأخذ يجتر طعامه ونام ملء عينيه.

فإذا نحن فكرنا في الإبل وخصائصها وأسلوب الحياة الذي تعيش به أدركنا بعضاً من مغازي قول الله تعالى في سورة العاشية (١٧/٨٨): ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾. وأدركنا لماذا اختصها الله بالتساؤل في هذه الآية الكريمة، فإن خلق الله كله عجيب يدعو إلى التأمل وإطالة الفكرة، ولكن

الإبل بعد الذي يباه من خصائصها من أعجب العجب، فهي ليست مجرد حيوان بل هي أسلوب حياة كامل في أقاليم شاسعة من أرض الله، وهي النخيل والقمح.

النخلة :

وما دما قد تحدثنا عن الجمال فلنقل كلمات عن النخلة وهي تالية للجمال في الأهمية بالنسبة لسكان الصحراء . فنخلة التمر - وهي التي تمنا هنا تشبه الجمل في خصائصها وعظيم منفعتها وقلة مؤونتها . والنخل في عالم النبات كثير، وفصائله كثيرة جداً يدخل فيها نخيل الجوز أو النارجيل ونخيل الموز ونخيل الزيت وكلها أشجار استوائية لا تمش إلا بالماء الكثير . أما نخلة التمر فشجرة قديمة جداً ترجع حفاثرها إلى مئات الألوف من السنين وربما ملايينها، وقد مرت بتطور طويل حتى وصلت إلى صورتها المعروفة . والنخيل كله يتميز بساق طويلة منسرحة لا فروع لها، ولها هي تنطلق في الهواء حتى إذا استوفت طولها نشأت الغصون تحمل الأوراق، والأوراق رقيقة طويلة ولكنها قوية سطحها شمعي متين، والنخلة على هذه الصورة أجمل الأشجار التي خلقها الله، فإن أغصانها تنفرع في صورة هندسية زخرفية متوازنة، وبين الفروع التي تسمى بالسعف وعن أصولها يكون الطلع وهو مخ النخلة والجهاز الذي ينظم حياتها كلها، وداخل هذا المخ يكون شراب لهذه الطعم هو أشبه بالنخاع للنخلة .

ونخيل التمر متعدد الأنواع وأشكال التمور وأصنافها، والتمور تخرج في سباط تندى تحت ثقل ما تحمل من البلح، والبلح مرحلة من مراحل نمو الثمرة . ومهما احتلعت أنواع التمور وأشكالها فهي متشابهة بالنسبة لخصائصها البيولوجية، ففيها نسبة عالية جداً من السكر ومعادن نافعة للجسد منها الكالسيوم والبوتاسيوم، ولحم الثمرة غني بالبروتينات . وقد قدر الباحثون أن الإنسان يستطيع أن يحصل على معظم حاجته من الغذاء من ٤٠٠ جرام من

التمر والنخلة الكاملة النمو تعطي نحو طن من التمر، والتمر يبدأ أخضر طرياً ثم يحمر أو يصفر حتى يسود أو يأخذ لوناً يشبه لون العسل الداكن، وهو إذا ترك على أمه حف نصف حفاف وبقي بعد ذلك طرياً بفضل ما يتبقى فيه من الماء، وتبرز النخلة سائلاً شمعيّاً لا يلبث أن يتجمد، وهو قشر الثمرة وعطاؤها. وقد تعود العربي أن يحمل معه قدرّاً من التمر ويعيش عليه أياماً على المعدل الذي ذكرناه. ولذلك قيل في مأثور حديث العرب أن البدوي يعيش على الأسودين: التمر والماء. فأما الأسود الأول فهو التمر الذي يسود لونه عندما يطول مكثه، ولكنه لا يتلف أو يفقد طاقته الغذائية إلا بعد عام من قطافه.

ونخلة التمر ذات جذر طويل يفرس في الأرض باحشاً عن الماء إلى أعماق بعيدة، وكما أن ساق النخلة منسرح طويل فكذلك جذورها، وهي قادرة على الوصول إلى الماء بخاصية عجيبة ركبها الله في خلقتها، ولهذا فإن النخلة لا تروى إلا وهي فسيل، فإذا نمت وصلب عودها واخشوشب الساق تغطى بلحاء قاس صلب لا يستطيع أي حيوان أكله، وحول اللحاء ينمو نسيج متين يحمي اللحاء. وتعيش النخلة ما بين ستين وثمانين سنة ثم تشيخ وتبدأ في الموت، ولكنها على طول حياتها تلد الولائد التي تطفر من الأرض قربها، ولا تزال تنمو حتى إذا بلغت سن البلوغ فصلت عن الأم ونقلت إلى مكان قريب، لأن النخلة الواحدة تحتاج إلى ثمانية أمتار مربعة مجالاً لحياتها.

فإذا تأملنا هذا كله فهمنا لماذا يقال إن النخلة هي ناقة الأشجار، فهي صبور مثينة شديدة الاحتمال تعيش على أقل الماء، وهي تعطي رطباً ثم تمرّاً جنيّاً فيه غداء عظيم، وكل ما فيها نافع، فإن جريدها تصنع منه الأقفاص وأشياء أخرى وسعفها تصنع منه أدوات بيتية كثيرة وخشبها متين يصلح للبناء وعمل السفوف وأسافين البيوت. والعربي الذي يملك النخلات العشر يعد من المياسير وكما أننا لا نستطيع تصور حياة عرب الصحراء بدون الجمل فإننا لا

نستطيع تصورها بدون التحيل ومن الإنسان والجمال والنخلة معاً تتكوّن حياة كاملة. فإذا أضيف إليها الحصان اجتمعت لنا عناصر حياة الصحراء بكل خصائصها، وهي كما قلنا حياة كاملة وأسلوب معاش متكامل وطراز حضارة قائم بذاته.

البدو والبداوة؛ للحمل في حياة البدو:

أما طراز الحياة الذي يقوم على الإبل فهو البدو والبداوة. وهو طراز من الحياة كامل لا يحتاج إلى شيء من خارجه إلا ما لا يتمصر صنعه في الصحراء مثل السلاح والآنية المعدنية أو الخشبية وأدوات ركوب الخيل، وعندما تدخل الخيل حياة البدو تدخل معها تطوراً حاسماً في حياتهم، وستكلم عن ذلك في حينه من ذلك البحث. فهذا الطراز من حياة البداوة طراز كامل يتصل أجيالاً بعد أجيال دون تطور يذكر لأن الحياة في الصحراء لا تتطلب تطوراً، فهي متكاملة بذاتها على النحو الذي ذكرناه. ثم إنها من القسوة والشظف بحيث تستنفد جهد الإنسان كله، فلا يستطيع ذهنه بعد ذلك إلا الفعود والحديث والتفكير المطلق دون غاية محددة. إنما هي الرمال الممتدة بلا نهاية والتلال والوهاد والصخور مختلفة الألوان والأشكال والسماء الزرقاء وهذه الإبل وما يلحق بها من صفار الأنعام ولا زيادة. وهذه الحياة تقوم أساساً على الإبل: هي تغتذي بنبات الصحراء القاسي، والإنسان يعيش عليها، ولهذا جعل آرنولد توينبي حضارة البداوة واحدة من الحضارات الموقوفة Arrested Civilisations، مثلها في ذلك حياة الأسكيمو في صحاري الجليد والثلج وحياة البولنيزيين Polynesians في بحار شرق آسيا الشرقية والمحيط الهادي، ولكي نقدم هنا وصفاً لإطار حياة البداوة هذه في أجمل صورها نردد قول الله سبحانه وتعالى في نفس سورة العاشية، ومن آلاء إعجاز القرآن أن هذه الآيات سابقة على آية الإبل فتكون هنا ذات وقع ومعنى حضاري عظيمين. ومسحان الله! ما يتفكر الإنسان في أي القرآن وإحكام مساقها إلا تبين له منها آلاء وآلاء.

والآيات تعطينا مقابلة بين حياة طائفة من الناس هم البدو في الجنة في صورة يلمسونها ويمسونها، فهي قريبة جداً لأهل ما في أذهانهم من صور نعيم الحياة فيكون ذلك أدعى الى تعميق ايمانهم، وفي القرآن صور أخرى من نعيم الجنة قريبة الفهم والتصور لجماعات أخرى، والقرآن روض المعاني وجامع الصور كلها، وهو للناس كافة، ففيه لكل عقل وفهم أبلغ الخطاب . قال الله تعالى :

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاهِيَةٌ

لِسَعِيدٍ رَاضِيَةٍ

فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ

لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاحِيَةً

فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ

فِيهَا سُرُورٌ مَرْفُوعَةٌ

وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ

وَمَنَارِقُ مَصْفُوعَةٌ

وَزُرَّاقٌ مِثْقَالُ ذَرَاةٍ

أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ .

فكل ما في هذه الآيات من جميل الصور ميسور للبديوي في خياله والقفز الذي يتأبد فيه ، ثم نحيء آية الإبل في آخرها فتكون كالجواب المقنع على سؤال عمير . ثم تكتمل الآيات بعد ذلك بصور من اطار الحياة البدوية المتكاملة هذه :

﴿وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ

وَالِى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ

وَالِى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ

فَذَكِّرْ ، إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ

لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾

وإذن فقد أدى استئناس الحمل وكشف فضائله إلى دخول جماعات من الناس جديدة في الجزيرة، وقد بدأ الدحول بطيئاً ثم اتسع مداه ثم تدفق، لأن الداخلين استكشفوا في حياة الصحراء فضائل أخرى وميزات كبرى، فهنا يعيشون أحراراً في مساح شاسعة بلا حدود، وهنا الأرض طليقة فهي كلها أرض الله لا تناع ولا تشتري، كل حبرها شيء من الحشائش وصغار الأشجار ترعاها الأبل والشياه والماعز. والإبل هنا تتكاثر دون خوف، فسالبة ملائمة لها، والسباع التي تعيش في الصحراء سباع صغار لا تخشاهم إلا كالدواب والثعالب وبنات آوى مما يطرد ويذاد بالكلاب، وجزائر الصحراء فيها ماء يصل أحياناً إلى أن يكون عيوناً جارية أو ودياناً غنية بالماء. وامكانيات الزرع موجودة ولكنها قليلة، وهنا نجد صورة أخرى من البداوة هي التي يصفها ابن خلدون في الفقرة الثانية من كلامه الذي أثبت به، فهنا ظعن محدود، أي أن النازلين هنا بدو ظعن أيضاً ولكنهم لا يبعدون في القفر لأنهم مرتبطون بالقرية الصغيرة التي يأوون إليها آخر النهار، فهي نصف بداوة أو نصف استقرار Semi-Sedentary.

وهؤلاء الداخلون الجدد في الجزيرة هم العرب العاربة فيها نرى، فقد دخلوها كما قلنا قبل خمسة وعشرين ألف سنة على التقريب كما قلناه، وهذا توقيت مقبول يتفق مع ما ذكرناه من تطور الأرض وما عليها في هذا الجزء من العالم. وهذا هو الزمن الذي دلت الحفائر على أن الحمل عاد فظهر فيه وتكاثر في شبه الجزيرة. والحركة كما قلنا كانت حركة تاريخية سارت ببطء كما كان كل شيء على الأرض يسير فيها يتعلق بالتطورات الجيولوجية الوثيدة والتغيرات المناخية ثم إن التغيرات الاجتماعية البشرية كانت كذلك بطيئة جداً وهذا الطراز الجديد من البداوة المرتبط بالإبل عندما عرف الناس كيف يتحملون مضائكه ويتمتعون بميزاته اتسع مداه وأصبح تياراً من المحرة من جنوبي العراق وبلاد الشام إلى الجزيرة. والذين دخلوا الجزيرة على من كان فيها من العرب

القتال من بقايا البائدة لم يكونوا عرباً خالصاً عندما دخلوا، ولكنهم عَرَبُوا مع الزمن، وجاوروا بقايا البائدة حيث وحدوهم وصاهروهم واختلطوا بهم، وتغير طراز الحياة في البدو على أيامهم وطال عهدهم بالجزيرة فكانوا عرباً عاربة.

وقد أورد اليعقوبي نصاً عظيم القيمة لنا وإن كان فيه خلط بشأن معظم الأخبار التي يروىها هو وأمثاله من مؤرخينا القدامى عن عرب الجاهلية في عصورهم البعيدة وهم أهل الجاهلية الأولى وفيهم العرب العاربة. قال: «وانتمت قضاة إلى مُلك حمير. وقضاة - فيما يقال - ولد على فراش مَعَدٍّ، وكان مَعَدٍّ أول من وضع رَحْلاً على جبل وناق، وأول من زَمَّها بالنَّسْع»^(١) وسنعود إلى تحليل هذه الفقرة من تاريخ اليعقوبي مرة أخرى فيما بعد، ولكن الذي يعنينا منها الآن هو قوله: أن قضاة من أبناء معد، وسنرى فيما بعد أن العكس ربما كان هو الصحيح، أي أن معد بن عدنان وعدنان نفسه من سلالة قضاة، وسنرى بعد قليل أن أسلم الآراء في أمر قضاة أنها من العرب العاربة الذين نحن بصدد الكلام عنهم، والربط بين معد واستئناس الجمل هنا ربط بين هذا الاستئناس وقضاة أي العرب العاربة على ما سنراه بعد قليل وفي هذا تأييد لما قلناه واستتجناه من أن دخول العرب العاربة شبه الجزيرة مرتبط باستئناس الجمل واستخدامه.

مشكلة قضاة :

ولكي نوضح هذا بعض الشيء نقول إن مشكلة قضاة وحيرة النسابين في نسبتها إلى عدنان أو قحطان ربما كانت دليلاً على صحة ما يقوله ابن حزم من أن قضاة قوم من العرب منفردون بأنفسهم، لا في قحطان أو عدنان، وإليك نص كلامه: «وأما قضاة فمختلف فيه، فقوم يقولون هو قضاة بن معد بن عدنان، وقوم يقولون: هو قضاة بن مالك بن حمير، والله أعلم».

(١) تاريخ اليعقوبي ٢٢٣/١

ووجدنا في كتب بطليموس وفي كتب العجم القديمة ذَكَرَ القضاعيين ونبذة عن أحبارهم وحروبهم، فالله أعلم. أُمُّ أوائل قضاة هذه وأسلافهم أم هم غيرهم. وبلاد قضاة متصلة بالشام وبلاد يوسان والأمم التي مادت عمالكها بعلبة الروم عليها، وبلاد بني عدنان، ولا تتصل ببلاد اليمن أصلاً. إلا أن الذي يُقطع به ويثبت ويحقق ويوفى هو أنه ليس على ظهر الأرض أحد يصلُ نسبُه بصلّة قاطعة ونقل ثابت إلى اسماعيل ولا إلى إسحاق عليهما السلام. نعني أبي إبراهيم خليل الله ﷺ - فكيف إلى نوح؟ فكيف إلى آدم؟ عليهما السلام - هذا ما لا مرية فيه^(١).

أما انتهاء قضاة إلى اليمن فمن الثابت أنه كان في أيام معاوية بن أبي سفيان وسياسة بني أمية: السفبانيين أولاً ثم المروانيين بعد ذلك غيرت نظام الكثير من القبائل العربية في الشام، وقضاة ولخم وطىء وكل القبائل التي نظن أنها تندرج تحت العرب العاربة من عرب الشام مسها هذا التغيير، فألحقت كلب بن وبرة (وهم من قضاة) باليمنيين، ودُون منها في الديوان ٢٠٠٠ مجند كل منهم يتقاضى ٢٠٠٠ درهم، وهذا هو شرف العطاء أو أشرف العطاء وتزوج منهم معاوية وأنجب له امرأته ميسون ابنة يزيد، وأصبحت كلب العماد الأقوى لمعاوية وآله وخاصة بعد أن كسبوا نصر مرج راهط. واستقر في أذهان الناس أن كلب بن وبرة من اليمن، وانسحب الحكم على قضاة، لأن بني كلب بن وبرة كانوا من أكابر القضاة. وليس بين أيدينا أي دليل على نسبة قضاة إلى اليمن إلا هذا، ويدخل في قضاة مع كلب بن وبرة: جُهينة وِيلَ وبهراء والغَيْن أو دالفين وجَرْم وثَنُوخ وثُعَيْن.

ولكن من المؤكد - كما رأينا عند ابن حزم - أن قضاة قدماء في بلاد الشام وأن مواطنهم الأولى كانت حول دومة الجندل ويمتدّون إلى تبوك ووادي القرى. ودومة الجندل وتبوك مدينتان قديمتان جداً، وهما في الغالب من انشاء

(١) ابن حزم، المحمّدة ٨ - ٩

القضاعيين وكذلك المواضع التي كانت عامرة ونرى آثارها باقية إلى اليوم في وادي القرى . ومن المؤكد أن هذه المدن ليست من انشاء قوم نعرفهم ، فهي أقدم من الانباط ، فلم يبق إلا أنها من انشاء أولئك العرب القضاعيين الذين نتحدث عنهم . ومن الثالث أن قبيلتين من قبائل قضاة كانتا في بلاد الشام منذ زمن قديم يصعب تحديده ، الأولى كلب بن وبرة التي ذكرناها ، فاسمها وارد في النصوص النبطية القديمة ، والثانية هي تنوخ وموطنها غرب العراق وجنوب غربه في المنطقة التي قلنا إن الجمل استؤنس فيها ومن هنا بدأ زحف العرب العاربة إلى داخل الجزيرة ، وتكون بعض بطون قضاة من أولى القبائل الداخلة أي من أولى العاربة ، وهذا في ذاته يحمل لنا إشكال أوليات قضاة ونسبها ويعينا على التعرف بعض الشيء على بعض قبائل العاربة ، وكتاب العرب أنفسهم يقولون إن تنوخا فرع من قضاة . وإنها وجدت في مواطنها من زمن سحيق في القديم . واسمها نفسه مستمد من التَّنُوخ وهو الاستقرار في موضع فهي كانت مستقرة في مواطنها في بلاد الشام ، وفي مواطنها استؤنس الجمل ، وكان الزحف إلى داخل الجزيرة .

ومن الثابت أن قضاة وتنوخاً كانت في مواطنها قبل أن تدخل عليها حُسان ولخم وما إليها من القبائل التي يقال إنها بمينة أي هاجرت من اليمن ، ونحن نشك اليوم في كل ما يقال عن بمينة حُسان ولخم وكندة والأوس والحزرج ، فليس لدينا دليل قاطع على الأصل اليمني لهذه القبائل إلا أقوال النسابة وقدماء القصاص . وجدير بالذكر أن العرب في الجاهلية لم يعرفوا هذا الانقسام الكبير إلى مُضَرّ واليمن أو قيس وكنب ، واليهمية المحققون عندنا هم السبئيون ومن سبقهم من أصحاب الدول في اليمن ، ثم كندة ثم حمير الأولى ، أما ما عدا ذلك فأقوال قصاص وتصنيفات نسابة ، والرأي عندنا أن العدنانية وهم سلائل العرب المسمون بالاسماعيلية وَجَدُوا في الجزيرة على ما سئرى مجموعات من القبائل القديمة فطنوها بمينة لأنهم هم أنفسهم أتوا من الشمال ، والشام عند

العرب القدامى معناه الشمال أما اليمن فمعناه الجنوب . ولهذا قالوا إن خثعم بين
والأوس والخزرج بين ، والمعنى هنا أنهم كانوا في الجزيرة قبل دخول الاسماعيليه
وهم المستعربة ، وما دما نعرف ان القبائل التي نحن بصدها ليست من البائدة
فهؤلاء هم العاربة ، أي العرب القدامى الذين كانوا هناك قبل المستعربة ،
وجماعاتهم المعروفة لنا قليلة على أي حال ، أشهرها وأهمها قضاة وتوحي وطيء
وربما الأزدي ، أما كندة التي وجدت في شمال الجزيرة فمن الثابت انها يمنية وهي
فرع من كندة التي توجد مواطنها الأولى إلى غرب حضرموت . وقد سبق أن قلنا
إن جماعات قبلية مثل قضاة تكبر وتتمد أراضيها حتى تشمل مساحات واسعة ،
ثم تنكمش بعد ذلك على ما رأينا وما ستراه وتنفرد قطعاً ، وتبقى هذه القطع في
أماكن متباعدة وتظل تحمل اسم أمها الأول ، ومن هنا يقع الاختلاف والشك في
الأصول الجغرافية للقبائل ، ولكن المؤكد أن هذه القبائل التي نقول إنها من
العاربة كانت بدواً جمالة ، فتتوخ أهل جمال ، وربما كان أصل تسمية تنوخ أنها
مناخ الجمال ، وقضاة جمالة وكذلك طيء وعلى أي حال فهذا فرض قائم على
الاستنتاج في البحث عن العرب العاربة ، فهم على الجملة عرب جمالة دخلوا
الجزيرة مع الجمل ، وامتدوا فيها من مواطنهم في الشام وجنوبي العراق ، وهناك
اختلطوا ببقايا البائدة ، ونشأت عن ذلك جماعات قبلية كبيرة ، وهذه الجماعات
عاشت في شمال الجزيرة ووسطها في عصور كان نبات المرمي فيه قليلاً لا تقدر
على العيش عليه إلا الجمال والماعز وما إليها . ولما كانت صادرة من بلاد استقرار
أو نصف استقرار Semi - Sedentary فقد أقامت في مواطنها مراكز عمران
أصبحت مدناً صحراوية مثل دومة الجندل وتبرك وبعض مواضع وادي القرى .

ورمما جاء القول بأن العمالقة يدخلون في جملة العرب العاربة أو أنهم كانوا
من بدو بادية الشام الذين عاشوا فيها منذ أزمان موعلة في القدم ، أو من انحدر
مهم إلى جزيرة العرب وأصبحوا في الجزيرة عرباً عاربة لأن شمال جزيرة العرب
كان يسمى في القديم بلاد عريبي ومنه جاءت تسمية العرب ، فهم سكان بلاد

عربي . ولما كان تاريخ العمالة في بوادي الشام طويلاً فليس هناك ما يمنع من أن يكون الهيكسوس الذين غزوا مصر في أواخر عصر الدولة الوسطى منهم ، ولكنهم لم يكونوا من استأنس الجمال لأن المصريين القدماء لم يصفوا الهيكسوس أو الرعاة بأنهم جمالة . ولا وحود لرسم الجمال على الآثار المصرية . أما الذين تمكنوا من الإيعال في حرية العرب من هؤلاء البدو فهم العرب العاربة على ما ذكرناه وهم على هذا الفرض أبناء عمومة العمالة . وليس من الضروري أن يكون رحب العاربة الى داخل الجزيرة قد وقع في نفس الوقت الذي تحرك فيه العمالة الى مصر ، فهذه شعوب ضخمة وأزمان متطاولة ، ونحن نستكشف أمرها كما ينظر الانسان الى التلال والجبال البعيدة التي تتراءى في الأفق ، ولا يمكن التمييز بين ما تقدم منها وما تأخر .

على أي حال فهذه مجرد محاولة لحل مشكلة العرب العاربة ، فعل الرغم من أن كل مراجعنا تذكرهم الا أن مرجعاً واحداً منها لا يذكر لنا قبيلة واحدة من قبائلهم ، ونحن عندما نقول إنهم دخلوا جزيرة العرب نتيجة لاستئناس الجمال والانتفاع به فاننا نحل في نفس الوقت إشكالين لا اشكالاً واحداً : إشكال عودة الجمال الى جزيرة العرب وإشكال العرب العاربة وأوجدنا شيئاً من الارتباط والتناسق بين نتائج الأبحاث الجيولوجية ونتائج استقراء نصوص أصولنا التي نعتمد عليها ، ومهما يكن الرأي فيما قلنا فنحن قد فتحنا اتجاهات جديدة من اتجاهات التفكير في تاريخ العرب قبل الاسلام . ولنضيف الى ذلك أننا ألقينا ضوءاً على حقيقة قضاعة . وقضاعة ليست مشكلة صغيرة من مشاكل تاريخ العرب والإسلام . ويكفي أن نعيد هنا ما ذكرناه من قبيلة كلب بن وبرة وهي كبرى القبائل التي توصف بأنها بمنية منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان إنما هي قضاعية في الأصل ، وما يصدق على كلب بن وبرة قد يصدق أيضاً على غيرها من القبائل التي توصف بأنها بمنية مثل غسان ولخم والأوس والخزرج وخزاعة ، وكل تلك القبائل التي لم يعرف النسابون أين يضعونها من شجرات الأنساب فالحقوها

بقحطان بخيوط» هي أوهى من نسج العنكبوت»، كما يقول اس حزم وليس لدينا دليل واحد يُعتمد عليه على صلتها باليمن أو أصولها اليمنية. والحكاية كلها فيما يبدو اتمعلت من أيام معاوية بن أبي سفيان بعد ارتباطه الوثيق ببني كلب بن وبرة وزواجه من ميسون ابنة بحدل الكلبي ثم ما كان من إنجاب ميسون ليزيد بن معاوية الذي صار ت إليه الخلافة، ووقوع الخلاف بين القيسية المضرية والكلبية التي وصفت بأنها يمنية بعد موت يزيد وتأييدها لمروان بن الحكم وإقامتها للبيت المرواني بعد انتصارها في مرج راطط على الضحاك بن قيس الفهري في المحرم ٦٥ هـ. واتساع نطاق العداوة بعد ذلك بين العرب وقبل هذه الأحداث ما كان هناك وجود لخلاف واسع المدى بين شامين ويمنين أو كلب وقيس أو كلب ومضر أو قحطان وعدنان.

العرب المستعربة (الإسماعيلية) - الخيّل :

وقبل أن نتكلم عن العرب المستعربة نقول إن هناك اتجاهاً عند نفر من أعلام مؤرخي العرب المحدثين الى القول بأن العرب العاربة جميعاً قحطانيون أي أن الذين عمرو الجزيرة بعد خلاء الكثير من نواحيها بسبب الجفاف جاء من الجنوب، ومن هنا فانهم لا يكتفون بالقول بأن لحيا وغسان وخزاعة والأوس والخزرج يمينون بل إن قضاة وتنوخا يمينون عندهم، وأصل هذا الرأي عند مؤرخي اليمن وخاصة الهمداني فقد قال به في كتابه الاكليل، ولكن يضعف من رجاحة هذا الرأي ما تقوله بينات الأثرين الذين كشفوا عن حفريات الجمال - وتبعوا توغلها في الجزيرة من الشمال : من المنطقة التي كانت تسكنها تنوخ أولاً ثم من منازل قضاة ويؤيد الأثرين في هذا أن قضاة نفسها لم تكن يمنية أصلاً بل شامية ولم تدرج ضمن اليمنيين الا لأسباب سياسية في العصر الأموي .

ولما كانت حمريات أهل الآثار قد دلت على أن الجمال استؤس في شمال اليمن كما استؤس في جنوب غربي العراق، فهذا يمكن القول - دون محاولة للتوفيق بين الاتجاهين - إن جانباً من العارة زحفوا من الجنوب، ومن هذه

القبائل كندة وخزاعة والأوس والحزرج ثم حمير فيما بعد، وبعضها زحف من الشمال مثل تنوخ وقضاة، وبعض بطونها، وعامة المضربة وهذه كلها تدخل في العارة وإن كانت قد ألحقت فيما بعد بشجرات الأنساب العدنانية أو القحطانية. ولكن الذي نتوقف فيه ولا نستطيع تأييده لأننا نملك عليه بيّنة هو القول بأن لحياً وغسان مثلاً أصولها يمنية، فليس لدينا دليل واحد على ذلك إلا ما يقوله السابعة، وما ابنه على أقوال النسابة من أشعار وأخبار كلها مختلق مفضل.

والآن ننتقل إلى المستعربة فنجد أن تحديد الأمر أسير لأن معلوماتنا عنهم أوفر وأوضح، فغالبية مؤرخينا مجمعون على أن المستعربة هم الاسماعيلية وهم العدنانية، وإن كان هناك خلاف في مساق النسب من اسماعيل بن إبراهيم عليه السلام إلى عدنان.

وعند كلامنا عن العرب المستعربة والاسماعيلية ينبغي أن نلاحظ أن تقسيم العرب إلى قحطانية وعدنانية يرجع أصله إلى شيخ نسابة العرب وهو محمد هشام بن السائب الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ على اختلاف، والكلبي في كتاب النسب الكبير يذكر أن أصول العرب ترجع إلى أصلين: يقطان وقيدار، ويقطان هو قحطان، وأما قيدار فهو أصل العدنانية أو الاسماعيلية.

والاسماعيلية - أولاد قيدار هذا يربطون في الروايات التي بين أيدينا بالعدنانية والخلاف في مساق النسب من اسماعيل إلى عدنان، فأما أهل الاحتياط من نسابة العرب فلا يتعدون في خط الأنساب عدنان وهم يعولون في ذلك على حديث نسب إلى رسول الله ﷺ خلاصته أنه كان لا يجاوز في نسبه عدنان بن أدد ويقول كذب النسابون، قال الله عز وجل: ﴿وقرونا بين ذلك كثيراً﴾ (سورة العرقان ٣٨) والاستدلال بالآية الكريمة هنا في غير موضعه مما يدل على أن الحديث كله ضعيف بل مكذوب، لأن تمام نص الآية ﴿وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية، وأعدنا للظالمين عذاباً أليماً﴾. وعاداً وثموداً وأصحاب الرّس وقرونا بين ذلك كثيراً. وكلا ضربنا له

الأمثال، وكَلَّا نَبْرَنَا تَبِيرًا (الفرقان ٣٧ - ٣٩) فلاشارة هنا الى قوم نوح وبعض من جاء بعده وكلهم من العرب البائدة ولا علاقة له بإسماعيل وعدنان وما بينهما. وربما يكون هذا هو الذي جعل ابن حزم في كلامه عن العدنانيين لا يشير الى ما بين عدنان وإسماعيل مع نصه على أن عدنان من نسل إسماعيل وقال: «وأما كل من تناسل من ولد إسماعيل عليه السلام فقد غبروا ودرثوا، ولا يعرف أحد منهم على أديم الأرض أصلاً حاشا ما ذكرنا من أن بني عدنان من ولده فقط»^(١) أما المتأخرون الذين لا يجتاطون فيما يقولون فيتكلمون عما نقل هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن التوراة فيصلون بسيافة النسب إلى آدم عليه السلام^(٢)، ولكنهم في سيافة النسب يذكرون أنه «ابن حل بن قيدار بن إسماعيل الذبيح بن إبراهيم الخليل...» أي أنهم يجعلون قيدار من أبناء إسماعيل، ويوجز جرجي زيدان أقوال نسبة العرب في ذلك الأمر بقوله: «وأقدم ما ذكره العرب من أخبار الإسماعيلية مأخوذ أكثره عن اليهود وعليه صبغة عربية خلاصته أن إسماعيل لما نزل مكة كان فيها بقية من جرهم، وآخرهم مضاض بن بشير فتزوج إسماعيل من بناتهم، وتعلم العربية منهم وتناسل فيهم، وأولاده هم العرب الإسماعيلية، ويسمونهم المستعربة لأنهم دخلوا في العرب وهم ليسوا منهم، كما فعل القحطانية في اليمن قبلهم. وأشهر أولاد إسماعيل قيدار تَوَجَّهَ أحواله وعقدوا له الملك عليهم بالحجاز، واسمه وارد في التوراة. وتناسل من قيدار أعقاب كثيرة حتى ولد عدنان... ومن عدنان تناسل العرب الإسماعيلية. فعندهم أن عدنان ولد عَكَأً وَمَعْدَأً، وَمَعْدَأُ هو أبو القبائل العدنانية كما سنرى»^(٣).

وفي بقية كلام جرجي زيدان تفاصيل مما استخرجته من التوراة وكتب العهد القديم من ذكر العرب، وأهم ما فيه

(١) ابن حزم، المحمزة ٧.

(٢) انظر الويري نهاية الأرب، ١٦/٣ والمراجع التي يعتمد عليها.

(٣) جرجي زيدان، تاريخ العرب قبل الإسلام الطبعة الثانية مراجعة وتعليق صاحب هذا الكتاب دار الهلال القاهرة

- جاء في سفر التكوين في أثناء قصة يوسف عليه السلام بعد أن طرحه إخوته في الشر قوله . ثم جلسوا يأكلون، ورفعوا عيونهم، ونظروا فإذا بقافلة من الإسماعيليين مقبلة من جلعاد وحاملها محملة بكعة، ولباساً ولاًذاً، وهم سائرون لسنرلوا مصر - (سفر التكوين ص ٣٧ عدد ٢٥). وكان ذلك في القرن الثامن عشر قبل الميلاد وكان الإسماعيليون يحملون التحارة إلى مصر، وهم الذي اشترى يوسف وباعوه بمصر

- ثم جاء ذكرهم في سفر القضاة بعد ذلك الحين بخمسة قرون. وهم بحاربون الإسرائيليين، ويسمون هناك تارة بنو المشرق وطوراً الإسماعيلية (القضاة ص ٦ عدد ٣٣ و ٧ عدد ١٢ و ٨ عدد ٢٤ و ٢٦).

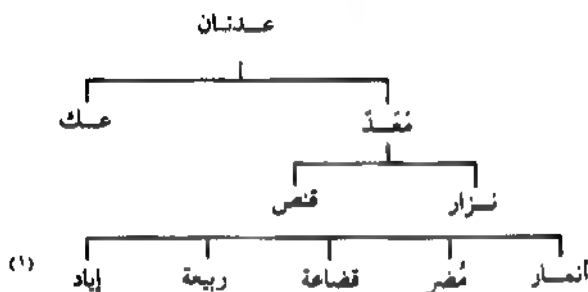
- وبعد ذلك بخمسة قرون أخطر ذكر أولئك العرب في سفر أشعيا باسم قيدار، وهو في التوراة ابن إسماعيل، فيراد باسمه قبيلة الإسماعيلية على الأقل. وهو يتنبأ بقرب زوال عيهم (أشعيا. ص ٢١ عدد ١٦، ١٧).

- وأصبح الإسماعيلية في عرف التوراة من ذلك الحين قبيلتين: قيدار ونبيت. وظن بعضهم أن المراد بالنبيت والنبيط الأنباط، أصحاب بَطْراً وعارضهم آخرون.

- وبعد أشعيا بنحو القرن وبعض القرن - في القرن السادس قبل الميلاد - جاء نبوخذنصر، الذي يسميه العرب بَنُحْتَنَصْر. واكتسح شمالي جزيرة العرب وغلب على الإسماعيلية أو بني قيدار أو بني المشرق في البادية (يهوديت ص ٢ عدد ٣، نبوة أرميا ٤٩ ع ٢٨. القضاة ٨ عدد ٢٤، ٢٦).

وقد استخرج جرجي زيدان من نصوص العهد القديم أن الإسماعيلية كانوا إلى ما قبل ظهور المسيح عليه السلام زمن طويل أهل خيام ورحلة ورعي وماشية وتجارة وثروة، ثم يقول إن ذكرهم حفي بعد أيام مختصر وكان مختصر أصعهم، فنفروا وذبحت شهرتهم أو خفيت أخبارهم، ثم تكاثروا

وعادوا إلى الطهور في أوائل الصمرانية أو قبيلها، وهم قبائل أمم وأمم دات شان، ملأوا نهامة وتفرقوا فيها إلى الحجاز ونجد وبادية الشام وغيرها في أزمان متفاوتة، القبيلة بعد القبيلة. وترجع كلها إلى خمسة أصول لكل أصل منها فروع عديدة أما الفروع الخمسة المشار إليها فيتصل نسبها بعدنان على هذه الصورة:



وفي كلام جرجي زيدان فوائد كثيرة أهمها:

- ١ - إن الاسماعيلية الذين يعتبرون عرب الشمال أو أبناء عدنان شعب قديم من البدو عاش في صحاري وسط الشام وجنوبه، وكانوا رعاة ظاعنين وبعضهم كانوا يعملون بالتجارة يكسبون من ذلك مالاً وفيراً.
- ٢ - إنهم كانوا أقوياء مرهوبين، وإن العبرانيين كانوا يرهبونهم ويحذرون منهم.
- ٣ - وإن هؤلاء الرعاة كانوا يذهبون في متاجرهم ورعيهم إلى بعض نواحي شمالي جزيرة العرب ومصر. وكانوا يعيشون قبائل.
- ٤ - إنهم كانوا يسمون أحياناً بني المشرق والاسماعيلية أحياناً أخرى.

(١) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام ١٨٩ - ١٩٠

فأما سر المشرق فهو تعريب خاطيء من حرجي زيدان للفظ Saracenos الموجود في النقوش اليونانية، وهو لفظ عبر يوناني ومعناه غامض، فمن قائل أن أصله «سرقيسوس» وهي التي جعلها حرجي زيدان بني المشرق، ومن قائل أن أصله «سَرْقيسوس» ويكون معناه في زعمهم في هذه الحالة: السُّراق، لأنهم بدو مغفرون. وعلى أي حال فإن هذا اللفظ استعمل زمناً طويلاً دلالة على العرب والمسلمين في العصور الوسطى والعصر الحديث، فقالوا في الانجليزية Saraccns وفي الفرنسية Sarasins وفي الإيطالية Saraceni. وأطلق هذا اللفظ على العرب والمسلمين.

ويستوقف نظرنا من كلام حرجي زيدان قوله إن أول ذكر جاء للإسماعيلية في العهد القديم جاء في سفر التكوين بمناسبة ذكر يوسف عليه السلام، وقوله إن ذلك كان في القرن الثامن عشر قبل الميلاد.

وإذا رجعنا إلى تاريخ مصر القديمة نجد أن غزو الهيكسوس لمصر كان حوالي سنة ١٦٧٥ قبل الميلاد. أي بعد ورود ذكر اسمهم في العهد القديم بقرن وربع تقريباً. والهيكسوس كانوا رعاة أي بدوا أغاروا على مصر من ناحية جنوب الشام وجزيرة العرب، وقد دام سلطانهم عليها فوق القرنين حتى تجرد الملك أحسن منشيء الأسرة السادسة عشرة وطردهم من مصر. ويستوقف نظرنا هنا أن هؤلاء الرعاة الذين عاصروا على وجه التقريب ظهور اسم الاسماعيلية في العهد القديم هم الذين أدخلوا الخيل مصر، وقبل ذلك لم يعرف المصريون الخيل، وبعدهم أصبحت الخيل جزءاً من الحياة المصرية واستخدمها الفراعنة في حروبهم، وكان دخول الخيل والعجلة الحربية بلاد مصر سبباً من أسباب التوسع المصري في بلاد الشام وإنشاء ما يسمى في تاريخ مصر القديمة بمصر الامبراطورية، وسنرى بعد قليل أن العرب الاسماعيلية هم الذين حلوا الحصان المستأنس من بلاد العراق. وكان قد أتاهما من موطنه الأصلي في صحاري وسط آسيا. والاشوريون أخذوا الخيل والعجلات الحربية مما يليهم

من بلاد وسط آسيا، وعنهم أخذ الرعاة الهيكسوس الخيل والعجلات الحربية وأدخلوها مصر. ولا تعارض بين هذا وما ذكرناه عن الهيكسوس في كلامنا عن العرب العاربة، فإن الهيكسوس هم الرعاة وقد طال مكثهم في بلاد الشام قروناً متطاولة. وفي بعض عصور قوتهم غزوا مصر واحتلوها ثم طردهم منها الملك أحس.

فإذا رجعنا إلى حمريات الأثريين نجد أن هذا الوقت على وجه التقريب هو الذي ظهرت فيه حفائر الخيول في نواح شق من أطراف الجزيرة العربية الشمالية. وقد انتشرت الخيول بين العرب الاسماعيلية من ذلك الحين وركبوها واشتد ساعدتهم بها. وأصبحوا من ذلك الحين قوة يُحشى بأسها في بلاد الشام وما بين النهرين. ويمكن القول بأن غزوة الملك بختنصر لبلاد الشام كان غرضها القضاء على قوة أولئك العرب الرعاة الاسماعيلية الذين أصبحوا قوة مرهوبة في بلاد الشام، وكانت الحروب بينهم وبين العبرانيين متصلة. وامتدوا من ناحية أخرى فأغاروا على مصر، واستقرت منهم جماعات في شبه جزيرة سيناء وصحراء مصر الشرقية التي تعرف إلى الآن بصحراء العرب.

أما بالنسبة لبلاد العرب فإن استخدام الخيل أضاف إلى أولئك الاسماعيلية قوة فرسان كبيرة، وعندما تكاثرت أعدادهم وحاولوا التغلب على ما جاورهم من البلاد فطاردتهم - على أوقات متفرقة - الأشوريون من بلاد ما بين النهرين والمصريون من مصر.

ووجد أولئك البدو الرعاة عندما تكاثرت أعدادهم مرة أخرى الطرق مفتوحة أمامهم للامتداد في وسط الجزيرة وجنوبها. إما بسبب مطاردة الملوك لهم أو لأنهم كانوا في عصر قوة وكثرة عدد واتجاه إلى التوسع في الأراضي

ومن غريب ما يتفق لنا من النصوص العربية أن اليعقوبي يقول في كلامه على «ولد اسماعيل بن ابراهيم». ذكرت الرواة والعلماء أن اسماعيل بن

ابراهيم أول من نطق بالعربية وعمر بيت الله الحرام بعد أبيه ابراهيم، وقام بالتمسك وأنه كان أول من ركب الخيل العتاق. وكانت قبل ذلك وحوشاً لا تُركب. وقال بعضهم إن اسماعيل أول من شق الله فاه باللسان العربي، فلما شب اعطاه الله القوس العربية، فرمى بها فكان لا يرمي شيئاً إلا أصابه. فلما بلغ أخرج الله من الحرم مائة فرس، فأقامت ترعى بمكة ما شاء الله. ثم ساقها الله إليه. فأصبح وهي على بابها، فرسنتها وركبها، وانتجها: وكانت دواب الناس البراذين. وركبها اسماعيل وبنيه وولده. وفي اسماعيل يقول بعض شعراء معدّ:

أبونا الذي لم تُركب الخيل قبله ولم يسُدّ شَيْخ قبله كيف تُركب

ويقال إنما سميت «أجياد» مكة لأن الخيل كانت فيها. فأوحى الله عز وجل إلى اسماعيل أن يأتي الخيل فأتاها فلم تبق فرس إلا أمكته من ناصيتها، فركبها، وركبها ولده، فكان اسماعيل أول من ركب الخيل، وأول من نفى أهل المعاصي عن الحرم، قال «أغرّبه» فسميت «العربة» بذلك^(١).

وهذه أخبار أسطورية الطابع، ونحن نأخذ هنا بمجمليها أو دلالاتها فهنا إشارة إلى علاقة اسماعيل بالخيل، ونحن لا نستنتج من هذا أن اسماعيل هو الذي استأنس الحصان كما يريد هذا النص أن يقول، ولكننا نجد فيه تأكيداً لما دلت عليه أبحاث الأثريين من أن دخول الخيل جزيرة العرب كان مرتبطاً بالاسماعيلية كما كانت عودة الجمل إلى داخل الجزيرة مرتبطة بالابل.

وتجمع الشواهد التاريخية على أن العرب الاسماعيلية أو المستعربة دخلوا الجزيرة من الشمال على أهلها من العرب العاربة، وهم دخلوها معتمدين على

(١) من البعقوبي ما لا يعبر حقائق تاريخية محدثة وإنما هي إشارة أسطورية الطابع تأخذ بحسب معاصرها في عمله. أما التفاصيل فليس لدينا دليل هل صحتها فلا نعتقد بأن هناك علاقة بين اسم أجياد الموضع المعروف بجوبي مكة، والخيل أو الأجياد، وليس هناك كذلك ما يؤيد زعم البعقوبي أن لفظ أعربة معناه أطهره بنفي المعاصي عنه. والمعروف أن لفظ العربة - اسم الجزيرة العرب - له اشتقاقات أخرى تاريخ البعقوبي ٢٢١/١

سلاح جديد كان له أثر الانقلاب في كل ناحية ظهر فيها وهو الحصان، فقد كان استئناس الحصان في صحاري منغوليا ووسط آسيا إيذاً بميلاد امبراطوريات مناطق الأعشاب Les empires des steppes أو امبراطوريات قامت على ظهور الخيل les empires à dos des chevaux والمصطلحان من ابتكار العالم الفرنسي جروسيت Grousset وهو أول من كتب مؤلفاً جامعاً عن دول البدو الآسيويين واعتمادها على الحصان. والحصان وصل إلى غرب آسيا من إلام الآشوريين ومنهم أخذه العرب - الرعاة في صحاري الشام، واعتمد عليه الهكسوس في غزوهم مصر على ما قلناه. ومن غربي آسيا الصغرى على الأغلب انتقل الحصان إلى اليونان والرومان وأصبح من القرن الرابع قبل المسيح حيواناً أوروبياً، وقد تطور هناك بحسب ظروف البيئة ومطالبها وظهر الحصان الأوروبي القوي الثقيل العظام الضخم الجسم الغليظ الأرجل. وقد عرف أهل أوروبا منذ الزمن القديم نوعين من الخيل: خيل العمل الزراعي والحمل الثقيلة البطيئة الحركة الكثيرة الطعام المعروفة باسم Caballus ومنه لفظ Cheval الفرنسي، وحصان القتال الخفيف بعض الشيء الذي يتميز بصفات قتالية عظيمة، وهو المعروف باسم equus وهو أقوى وأمضى أداة حرب عرفها الرومان. والفرسان Equestri كانوا معدودين في طبقة النبلاء بسبب قدرتهم على الحرب على ظهور الخيل وكلا هذين النوعين من الحصان يدخلان ضمن ما يسمى بالحصان الكبير The big horse نظراً لضخامة حجمه وثقل وزنه وقدرته على العمل في الحقول والمدن وشجاعته في ميادين الحروب. وعمل أي حال فإن الحصان كان دائماً أكبر معين للإنسان على بناء الدول والحضارات تبعاً لذلك، وليس هناك دولة كبرى أو صغرى أو حضارة كبيرة أو صغيرة إلا وللحصان فيها نصيب.

وهذا أيضاً ينطبق على العرب قبل الإسلام وبعده. فإن الحصان الذي دخل صحاري الشام آنياً من بلاد ما وراء النهرين أو من آسيا الصغرى وجد

في علوات بلاد الشام ومراعيها بيئة أنشأت نوعاً جديداً من الخيل . فإن الحصان المغولي الأول والذي يعتبر أباً للخيل كلها حيوان صغير الحجم نسبياً قصير الساقين غليظ العنق ، ولكنه حصان قوي متين العظام شديد الاحتمال ، فلما دخل مناطق الحشائش الطويلة في شمال الشام وجزيرة العرب وجد بيئة جديدة تطور فيها مع الأحقاب ، فنشأ الخواد العربي الصغير الحجم نسبياً الطويل الرجلين ، الطويل العنق ، القصير الشعر ، العصبي المزاج ، السريع الحركة ، المتين العظام ، الصحيح البدن ، الواسع الصدر الصغير البطن ، المتين الظهر ، الخفيف العُجْز ، الطويل الرقبة مع انحناء جميل فيها ، ورأس صغير في غاية الانسجام مع الرقبة الأنيقة وانسراح الجسم كله مع لمعان الشعر وزهاء اللون . وتميز ذلك الحصان إلى جانب ذلك في معظم الحالات بالغرة ، وهي الشارة البيضاء البيضاء في الجبهة التي تمتد حتى الأنف أحياناً ثم الخُجَل وهي المنطقة البيضاء عند رُسُغ القروادم والخطافي ، وقد يقتصر التحجيل على ثلاث قوائم ويضاف إلى ذلك كله معرفة جميلة تُكْمِل جمال العنق الصغير والرأس وفيل أنيق يتدلّى من آخر ظهر الحصان كأنه شعر الحسنة .

وهذا هو الحصان العربي الذي يعتبر من أفضل صنوف الخيل وأكثرها امتيازاً . فهو إلى جمال هيئته يمتاز بذكاء لا بأس به . وإذا كانت الخيل تعتبر رابعة في الذكاء في عالم الحيوان بعد الفيلة والقردة والكلاب فإن الحصان العربي يختلف مستواه من الذكاء بحسب استعماله ، فهو إذا أحسن استعماله وعومل برفق ومحبة واحترام شجيداً ذكاًؤه وأصبح من أعون الحيوان للإنسان ، فهو يتعرف من تلقاء نفسه على مواقع الماء باطنه وظاهره بغير رِيْزَة صافية ، وهو مطواع لصاحبه شديد التعلق به وإذا أحسن تدريبه اقتحم النار والماء وقفز من حائق دون تردد . وقد كان العربي الجاهلي من أحسن الناس معاملة للخيل ومحبة لها وحنو عليها وعناية بها ولهذا وصف الحصان العربي في الجاهلية برفع الصور ، لأنه كان صديق صاحبه ورفيقه وأكبر معين له في الحياة ، ويتجل ذلك

في الشعر العربي بأجل بيان وقد كانت عناية رسول الله ﷺ والعمرين بالخيـل عظيمة، ويكفي أن رسول الله ﷺ جعل نصيب الفارس من الضيعة ثلاث مرات قدر الرجل: واحد للفارس نفسه، وواحد لطعام الحصان وثالث للعناية به.

وهذا الحصان العربي شريك بحق النصف في الفتح العربية، فمعظم انتصارات المسلمين يرجع الفضل فيها إلى أنهم كانوا ركباً يحسنون معاملة الخيل وقيادتها والعناية بها. وقد ظهر اهتمام رسول الله ﷺ بالخيـل بعد ما رأى من فتكها بالمسلمين في يوم أحد، وبعد انتصاره على بني قريظة واستيلاء المسلمين على أنواطهم استعمل الرسول معظم خمس الله ورسوله في شراء الخيل من نجد وتربيتها وائتاجها في أحوال المدينة.

وهذا الحصان العربي الذي قام بهذا الدور الكبير في تاريخ العرب والإسلام هو الحصان الذي تربى وتطور على أيدي العرب في الشام، وعلى صهوته دخلوا الجزيرة واستفروا في شمال الجزيرة ووسطها. وقد تمكن العرب المستعربة الذين سميناهم بالاسماعيلية من التفوق على من وجدوه فيها من جماعات العاربة وانتشروا في نواحيها وتجبجحوا في مراعيها، وكثرت فيها فروعهم وقبائلهم واستعربوا أي صاروا عرباً.

ولدينا نص لليعقوبي يؤيد هذا الذي قلناه وإن كان اسطوري الطابع. قال: وكان وَلَدُ جُرْهُم بن عامر لما صار إخوانهم من بني قحطان بن عامر إلى اليمن فملكوا، صاروا هم إلى أرض عسامة فجاءوا اسماعيل بن ابراهيم، فتزوج اسماعيل الحنفية بنت الحارث بن مُضاض الجُرْهمي فولدت له اثني عشر ذكراً هم: قيدار ونات وادبيل وميشام ومسمع ودوما ومسا وحداد وتيبا ويطور ونافس وقيدما. وهذه الأسماء تختلف في الهجاء واللغة لأنها مترجمة من العبرانية، فلما كملت لاسماعيل مائة وثلاثون سنة توفي فدفن في الحجر، فلما توفي اسماعيل ولى البيت بعده نابت بن اسماعيل، ويقال وَلِيَّه قيدار، وبعد

قيدار نابت بن اسماعيل . وافترق ولد اسماعيل يطلبون السعة في البلاد،
وحبس قوم أنفسهم على الحرم . فقالوا: لا يبرح من حرم الله! ولما توفي نابت -
وقد تفرق ولد اسماعيل - ولي البيت المصاغر بن عمرو الجُرهمي ، حد ولد
اسماعيل وطغت حرهم وبغت وطلمت وفقت في الحرم ، فسلط
الله عليهم الذر ، فأهلكوا به عن آخرهم . وكان ولد اسماعيل مستشرين في البلاد
يقهرون من ناوأهم ، غير أنهم كانوا يسلّمون بالملك لجُهرهم للخنوثة . وكانت
جرهم تطيعهم في أيامهم . ولم يكن أحد يقوم بأمر الكعبة في أيام جرهم غير ولد
اسماعيل تعظيماً منهم لهم ومعرفة بقدرهم . فقام بأمر الكعبة بعد نابت : أَيْيَنُ ،
ثم يشجب بن أَيْيَنُ ثم الهُمَيْسَع ، ثم أدد فعظم شأنه في قومه ، وجعل قدره . وأنكر
على جرهم أفعالها وهلك جرهم في عصره . ثم ولي عدنان بن أدد ثم معد بن
عدنان . ثم افترق ولد عدنان في البلاد ولحق قوم منهم باليمن منهم
حك (١)

وقد أوردنا معظم هذه العبارة لأننا استئنأناها بالتحليل والدراسة على
ضوء ما عرفنا وما نعرف الآن عن تاريخ العرب . وهي عبارة غنية بالفائدة
حافلة بالمعاني ، وقد اختصرنا ما وجدناه مسرفاً في القصصية والأسطورية .
ونلاحظ قبل أن ندخل في الدراسة أن هذا النص نموذج من طريقة معظم
مؤرخي العرب في سياقة تاريخ ما قبل الإسلام ، فهم يبدأون من النهاية ، أي
يبدأون من الحقيقة الواضحة أمامهم وهي أن عمداً ﷺ هو القمة التي انتهى
إليها تاريخ العرب قبل الإسلام ، ومن القمة يسبرون إلى بني هاشم
فبني عبد مناف بن قصي فعدنان فأولاد اسماعيل . ثم يصوغون التاريخ
كله بادئين من اسماعيل وموجهين للحوادث في الاتجاه الذي يشتهي بهم إلى
الدروة المحمدية ، وتلك هي الصياغة العكسية للتاريخ . وإذا نحن قرأنا كتب
التاريخ التي كتبها المسيحيون في العصور الوسطى وجدنا التوجيه ينتهي منذ

(١) البغوي تاريخ ١/ ٢٢١ - ٢٢٣ .

البداية عند عيسى عليه السلام ثم الخواريين وبولس خاصة، وعندما كتاب
القديس أوغسطين المسمى مدينة الله Civitas Dei وهو المثال التقليدي الذي
يضره أساتذة علم التاريخ في الغرب نموذجاً للرؤية التاريخية المنظورة من
النهاية التي يريد أن ينتهي إليها صاحب التاريخ أو ما يسمى باسم
Retrospective view of history .

ونعود إلى الفقرة التي نحن بصدددها من كلام البعقوبي لتحليلها
ونستخرج ما فيها من الدلائل التاريخية على ما نحن بصددده من تتبع تاريخ
العرب المستعربة.

واليك أهم ما نخرج به من هذا النص وما مردنا به من الظروف:

١ - أن أولئك العرب الاسماعيلية أو المستعربة دخلوا الجزيرة من بلاد الشام .
وليس من الضروري أن يكونوا جميعاً من أولاد اسماعيل ، فإن هجرة
اسماعيل كانت هجرة إلى داخل الجزيرة : تحرك قوم من عرب الشام إلى
داخل الجزيرة فتبعتهم أقوام ، وكان منهم نفر من أبناء اسماعيل بن ابراهيم
عليهما السلام . وليس من الثابت على أي حال أن اسماعيل أقام في الحجاز
بعد أن كبر ، وقد يكون القوم الذين دخلوا الجزيرة وسموا بالاسماعيلية نفراً
من أولاده أو المنسوين إليهم ، وعلى أي حال فقد غلب اسم الاسماعيلية على
حركة هجرة العرب المستعربة من خارج الجزيرة إلى داخلها .

٢ - وهجرة أولئك الناس من الشام إلى الجزيرة مرتبطة باستخدامهم الخيل ،
فقد ركبوها واعتزوا بها وغلبوا على غيرهم ، وانفسح أمامهم المجال
للهجرة إلى الجزيرة معتزين بالخيل .

٣ - ومن الواضح من النص أن أولئك المهاجرين لم يكونوا عرباً ولا كانت
اسماؤهم عربية . وليس من الضروري أن يكونوا جميعاً عرابين بل كان

فيهم من أهل الشام وجنوبي العراق من سُريان وأنباط وبقايا الكلدانيين .
فأساء الاعلام التي أوردناها فيها العسري والسرياني والنطبي والكلداني
وفيها ما لا يمكن التعرف على هويته بسبب التحريف الشديد في
المخطوطات .

٤ - وقد مر أولئك المهاجرون في هجرتهم بمكان في طريقهم من العرب
العاربة ما بين قضاة وتُسوخ، وبعضهم كان من فروع هذه القبائل،
فاندفعوا مع المهاجرين إلى داخل الجزيرة . وكانت قضاة ممتدة إلى بلاد
الحجاز، فقلبهم أولئك المهاجرون الجدد وتسلطوا عليهم .

٥ - وفريق من هؤلاء اتجهوا إلى الحجاز، ومن هؤلاء العدنانيون الذين مروا في
طريقهم بأرض جذام وجهينة وبلي وبقية فروع قضاة في الحجاز،
فاختلطوا بهم اختلاطاً متصلاً يتجلى في أنساب العدنانيين الاسماعيليين
وأولئك الاسماعيليون هبط نفر منهم غربي جبال السراة في الحجاز وانتشروا
كذلك في شمال شبه الجزيرة ووسطها، وبعضهم استقر في شرقها، وليس
من الضروري أن يكون كل أولئك الاسماعيلية المستعربة عدنانية، أي
منحدرين من عدنان، فقد تكون هذه قراءة متأخرة لشجرة النسب، أي
محاولة من النسابة لربط جميع الاسماعيلية أو المستعربة إلى عدنان واسماعيل
عن طريق مضر بن نزار بن معد بن عدنان . وواضح أن هذه الأسماء كلها
ليست لرجال انحدرت منهم قبائل، بل هي أسماء القبائل نفسها، بل ليس
من الضروري أن تكون قد انحدر بعضها من بعض على الصورة التي
يصورها لنا النسابة ويحكىها المؤرخون، فهذا الذي نراه من التفرق والتجمع
ثم التجمع ثم التفرق وجماعات تحتمي وجماعات تظهر إنما هو نتيجة لما
حكىناه من أسلوب تكوين المجموعات القبلية وتفرقها تبعاً لقانون الحياة في
الصحراء، فالأغلب أن بني إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان كانوا
قبلاً آخر يختلف عن قبيل قيس عيلان المسوب إلى مضر وما تفرع منه ثم

ارتبط بعضهم ببعض لدواعي البقاء في الجزيرة أولدواعٍ سياسية بعد الاسلام فقبل ان أبناء مضر فرعان كبيران : قيس عيلان بن مضر، والياس ابن مضر، والحقيقة أن البون بعيد بين بي الياس ومن تفرع منهم وبالذات وأولاد امرأته خندف، وبين قيس بن عيلان أوقيس عيلان ومن تفرع عنهم أو انتسب اليهم، ولأول قيام الاسلام ستحد مروع قيس عيلان معادية لدعوته التي نادى بها رجل من قريش بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة ابن مدركة بن الياس بن مضر. والكلام هنا يتعلق ـ منطقياً ـ بوحدات قبلية يرتبط بعضها ببعض بعلاقات لا نعرف حقيقتها على وجه التحقيق، فهي في شجرات الأنساب روابط قرابة ودم، ولكنها في واقع الحياة ودلالات التاريخ علاقات مصالح، وما دامت علاقات مصالح فهي ليست ثابت بل متغيرات، ومن هنا نفهم مثلاً كيف كان بنو قيس عيلان بن مضر يفتنون أندادا وأعداء لقبائل قيس عيلان الياس بن مضر قبل الاسلام، ثم انضموا اليهم وأيدوهم وصاروا معهم أوائل العصر الأموي ثم صاروا أعداءهم في آخره.

وقد تكون بعض الأسماء الكثيرة الواردة في شجرات الأنساب مجموعات من العرب المعاربة انضمت الى الداخلين الجدد واختلطت بهم اختلاط أنساب فظهرت لنا في شجرات الأنساب من جانب كنانة مع أن كل البيئات تقول إنها ليست منها مثل غُضَل والحَوْن والغَارَة فهذه تبدو لنا وكأنها غريبة عن كنانة بن خزيمة وكان عداؤها لكنانة وقريش أوائل الدعوة الاسلامية عظيماً حتى إن رسول الله ﷺ دعا ربه أن يعينه عليها ومن ماثور قول رسول الله ﷺ في بعض مغاريه: اللهم على مضر، فعلى أي مضر يستعين رسول الله ﷺ بالله سبحانه؟ وهو نفسه ذؤابة مضر؟ الحواب. على بي قيس عيلان بن مضر وهو أخو الياس بن مضر

فَرَجَ قَيْسِ عَيْلَانَ بْنِ مُضَرَ :

والذي يعني هنا هو أمر كنانة، فإن قریشاً منها وكنانة تحدر من - أو تنسب نفسها إلى - خزيمة، وخزيمة من مدركة، ومدركة من إلياس، وإلياس هو المرقع الثاني من مضرب بن نزار بن معد بن عدنان.

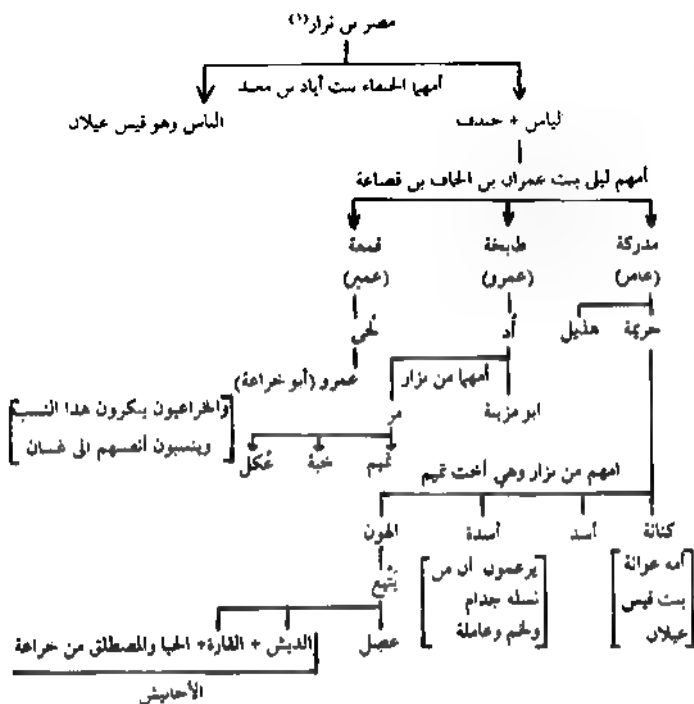
ويستوقف نظرنا أن إلياس وقيس عيلان أمهما فيها يقول السابعة أسمى بنت سؤد بن أسلم بن الحارث من قضاعة، فهما مضربان من ناحية الأب وقضاعيان من ناحية الأم.

وإلياس بن مضرب يتزوج فيها يقولون امرأة من قضاعة هي خندف ذات الصيت البعيد في شجرات الأنساب، فكل أولاد إلياس مضربون أباً، قضاعيون أمّاً، وكلهم خندفيون قضاعيون من ناحية الأم. وكل المضربين كانوا فخورين بهذا النسب الخندفي حتى إن نصر بن سيار آخر عمال بني أمية على خراسان وهو من جندع بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة يفتخر بنسبه إلى خندف:

أنا ابن خندف تنمي قبائلها للصالحات، وعى قيس عيلاناً^(١)

ويزيدنا المصعب الزبيري معرفة بخندف القضاعية هذه، وسأورد كلامه في هذا الشأن في صورة جدول تتضح به خيوط النسب وتسلسله بأكثر مما تتضح في النص المكتوب (نسب قریش ص ٧ - ٨).

(١) ابن حزم، الجمهرة ١٠.



وإذن فخندف القضاعية هذه كانت جذع شجرة ضخمة أنجبت من قبائل الياس بن مضر عدداً كبيراً جداً من القبائل، ونحن لا نأخذ بأقوال هؤلاء النسابة، فمن الواضح أن كلامهم هنا تجميع وتصوير خفائق جُذت بعد الإسلام، سواء في حياة الرسول ﷺ أم بعده، فنحن نجد في أحفاد خندف مزينة، ومزينة طهر أمرها في مطلع خلافة أبي بكر، فهم كانوا أول من وقفوا معه وأيدوه عند الردة، ونجد من ولدها المون وعصل والقارة والدبش مع أن هؤلاء كانت لهم أعمال ومواقف غير محمودة في معارضة الإسلام وأدى أهله

(١) انظر جهرة أنساب العرب لاس حرم، ص ١٠ وانظر الحدول الكبير لأنساب عدنان الملحق بهذا الكتاب

حتى فتح مكة، وكان لا بد من تحسين صورتهم بعد انتصار الإسلام فُرِطوا إلى شجرة النسب النبوي عن طريق خندق القضاعية وعضل ودبش والقارة والحيا والمصطلق، والاثنتان الأحرى من هذه القبائل تنتسبان إلى خزاعة وهم من الأحابيش الذين حرحوا مع قريش لقتال أمة الإسلام في المدينة في غزوة الأحزاب وهذه حظية تعطي عليها شجرة الأنساب بالربط بالشجرة السوية عن طريق خندق. أما بنو المصطلق الخزاعيون فهم أصحاب ماء المُرَيْسيع وهم فرع خزاعة الذي خرج على إجماع خزاعة في تأييد أمة الإسلام وأرادوا الإضرار بالتوازن القبلي الذي أقامه الرسول بالنسبة للقبائل النازلة على الطريق بين المدينة ومكة. وأقوى هذه القبائل خزاعة (وقد أخذت ناحية الإسلام) وبنو عبد مناة من كثافة بفروعهم العديدة وأهمهم بنو كعب الذين وقفوا إلى جانب قريش ضد الإسلام، فريد الحارث بن ضرار سيد بني المصطلق الخزاعين أن يخلخل هذا التوازن جهلاً منه وسوء تقدير، فيسارع الرسول إلى توجيه ضربة بالغة العنف إلى هذا الرجل البدوي المفرور الجاهل بما يدور حوله وتكون غزوة المريسيع أو بني المصطلق، ويفيق الحارث بن ضرار وقومه من غفلتهم ويتخرج موقفهم فيبادر الرسول ببعد نظره واتجاهه العام إلى إخراج شيوخ البدو من عنادهم وغرورهم وكسبهم للإسلام بعد ذلك، فيكون زواجه من جويرية بنت الحارث بن ضرار وإطلاق أسارى بني المصطلق جميعاً لأنهم أصحاب الرسول، وينضم بنو المصطلق إلى إخوانهم من خزاعة ويقفون في صف الإسلام ويمسح إسلامهم، فهم حلفاء أصحاب، ويلحق بهم في الحلف أبناء عمومتهم بنو الحيا ابن المصطلق. وهذا كله يترجم تاريخياً على أبدي النسابة عن طريق خندق القضاعية، وليس هذا بكثير - ولا مستغرب - بالنسبة لخزاعة. فإن دور خزاعة في تاريخ الإسلام عظيم مستمر حتى الحركة العباسية. وخزاعة كانت عصياً قوياً جداً من العصبية التي شددت أركان الدعوة العباسية وخاصة عن طريق أولاد بُرَيْدَة بن الحُصَيْب الأسلمي صاحب رسول الله ﷺ، وصاحب راية أسامة بن زيد من حارثة في سريته إلى النبي للانتقام لقتل أبيه في مؤته، وهو

كذلك من اكار حلفاء علي بن أبي طالب .

والذي يهنا ونحن نتبع هنا خطوة خطوة - خط نسب كنانة أم قريش - هي تلك العلاقة الوثيقة بين كنانة وقضاة، وهي علاقة استمرت على طول تاريخ كنانة وقريش قبل الإسلام وبعده

ونصل إلى كنانة بن خزيمه بن مدركة . وكنانة هي أم قريش وأم كل قريش ورسول الله ﷺ ينسب إلى كنانة . وكتاب العرب يقولون إن كنانة كان رجلاً، ولكننا بناء على ما بيناه فيما سلف نقول إنها قبيلة انحدرت عن قبيلة أخرى هي خزيمه وتلك عن قبيلة أخرى هي مدركة أو عامر . والانحدر هنا معناه تفرق القبيلة الأم بعد تجمعها نتيجة لظروف العيش في الصحراء على ما ذكرناه، ثم تجمعها مرة أخرى تحت اسم جديد هو اسم فرع من فروعها قام بعملية التجميع، وليس من الضروري أن يتم التجميع في مواطن القبيلة الأم، بل قد يحدث في مكان بعيد هو مواطن القبيلة التي قامت بالتجميع، وليس من الضروري كذلك أن تكون الفروع التي يتكون منها التجمع الجديد هي نفس فروع القبيلة الأم أو من بعض هذه الفروع، بل تدخل هنا فروع جديدة لقبائل أخرى تفرقت، وهذا ما يعبر عنه النسابون في مصطلحهم بلفظ «الدخول» فيقولون إن بني فلان دخلوا في بني فلان، والمراد به أن ذلك الفرع ترك جذع الأم وانضم إلى تكوين قبلي جديد . لأن القبائل كانت تتكون من وحدات قبلية صغيرة، ولا تزال تنمو حتى يصل حجمها إلى درجة يصعب معها المحافظة على الوحدة فتبدأ في التفرق، ثم تتجمع القبيلة المتفرقة تحت اسم جديد على يد أحد بطونها، فتأخذ اسم البطن الذي قام بالتجميع الجديد . وليس من الضروري أن يكون التجمع الجديد من نفس بطون المجموع الذي تفرق بل تدخل في تكوينه وحدات أخرى من أصول شتى . وهذه الظاهرة تسمى التجمع والتفرق Integration and desintegration .

وقد طالما حيرتنا الأسماء المردوجة لكثير من الفضائل، فيقال مثلاً: فولد إلياس بن مضر مدركة واسمه عامر، وطابحة واسمه عمرو وقمعة واسمه عُمير^(١) فكيف يكون اسم الرجل مدركة ثم يقال أن مدركة هو عامر، أو أن اسمه طابخة ثم يقال إن طابخة هو عمرو، أو إن اسم الرجل قمعة ثم يقال إن قمعة هو عُمير؟ لقد قرأت عند المصعب الزبيري سطرأً أظن أنه يحل لنا هذا الإشكال، قال في سياق كلامه عن فروع اثمار بن نزار «ومهم خزيمية وهم يشكر، وقد انتسبوا في الأزد، ومهم خثعم وهو أقييل بن اثمار بن نزار، وإثما خثعم جبل تحالفوا عنده فنسبوا إليه. وهم بالسراة على نسبهم إلى اثمار بن نزار. «١١». وإذا فقبيلة أقييل بن اثمار تسمى خزيمية، لا لأن خزيمية هو أقييل بل لأن خثعم جبل تحالفوا عنده فسموا به. ونسأل: من الذين تحالفوا؟ والجواب: جماعة أقييل أو يشكر، وربما كانت أقييل جماعة ويشكر جماعة فتحالفوا عند جبل خثعم وأطلق على الحيين معاً خثعم وأصبحت بذلك جلفاً جديداً هو الذي حمل الاسم الجديد، وانطوت تحته الجماعات التي تحالفت عنده. ومثل هذا الكلام يقال عن مدركة مثلاً الذي يقال إن اسمه عامر بن إلياس بن مضر، فهذه جماعة من حلفاء جماعة إلياس بن مضر تحالفوا وأصبح اسمهم جميعاً مدركة، وقد يكون مدركة اسم جبل أو عين ماء أو سهل أو ما شئت، ولكنه أصبح من ذلك الحين علماً على الناس الذين تحالفوا عنده أو تحت اسمه وقد يكون مدركة اسم طوطم أو صنم تحالفوا عنده، ومثل ذلك يقال في طابخة الذي يقال إن اسمه عمرو، وقمعة الذي يقال إن اسمه عُمير، فهذه كلها أحلاف أو جماعات لقضائل ممن انقسم إليهم بنو إلياس بن مضر، ثم تجمعوا في وحدات جديدة ذات أسماء جديدة يربط بينها الانتساب إلى أصل واحد هو إلياس بن مضر بن نزار، وهذا يزيد - ما قلناه من أن الأسماء التي لديها في شجرات الأسساب ليست كلها أعلام أشخاص أو أعيان رجال وإنما هي في الغالب أعلام أحلاف

(١) المصعب الزبيري، ص ٧ قريش ٧

(٢) من المصدر ٧

قبلية، أو أن كلا منها حُماح نسب أي اسم تتَّخِصُّ تحته اسباب كثيرة كما سنرى في حالة قريش، وهذه الأحلاف القبلية التي تسمى عند الساسة قنائل من تجمعات يخلف بعضها بعضاً على أساس التجمع ثم التفرق ثم عودة التجمع تحت اسم حديد وهكذا، وهذا لا يعني بالضرورة أن الأعمار بينها متطاولة، أي أن التجمع الذي نسميه قبيلة يتجمع ويشد أمره ثم يتمكك وتقوم مكانه أو من بين مفرداته جماعة أخرى يتم في أمد قصير، فقد تتجمع الوحدة القبلية وتتفرق ثم تتجمع في ثلاثة أجيال، فتكون أعمار الجماعات هنا في مثل أعمار البشر ويكون حجمها صغيراً نتيجة لذلك، وهذا يصدق على الجماعات الصغيرة، أما الكبيرة مثل قضاة فلا بد أنها احتاجت في تجمعها إلى أجيال متطاولة، ثم تفرقت على أجيال أيضاً، وظهرت الوحدات الجديدة المنسوبة إليها مثل جهينة وبلي وكلب بن وبرة على أجيال، وهذا يفسر لنا لماذا نجد القضاة لا يعرفون أصلهم معرفة الواثق، وكذلك فرعها جهينة وبلي، لأن هذه التطورات تتم على أجيال تنسى معها - الأصول، وخاصة بين أقوام من البدو يعيشون على الفطرة حياة هي في الحقيقة مجرد محافظة على البقاء أو ما يسمى أو يعرف بلفظ Survival فإن قضاة قامت في بوادي الشام، ثم امتدت إلى بوادي جزيرة العرب والحجاز، وتفرقت وقامت على بقاياها وحدات جديدة في الحجاز وشمال الجزيرة. وبقيت من قضاة بقية في مواطنها الأولى التي ظلت تعرف باسم صاحبة قضاة عند دومة الجندل والقرينات وما يليها شمالاً حتى بلاد كلب بن وبرة وهم أيضاً من نشأ عن تفرق حلف قضاة.

وقد خصص أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبد البر فصلاً لقضاة في كتابه «الانباء على قنائل الرواة» بين السبب في حيرة هذا القبيل الضخم من العرب بين قيس واليمن، وبعد كلام طويل عن أصول شتى يقول ابن عبد البر: «وقال محمد بن حبيب - إنما سب قضاة بالحرب التي كانت بالشام أيام حميد بن حريث (بن محمد الكلبي) وعمر بن الحباب (السلمي)، وذلك أن

خالد بن يربد (بن معاوية بن أبي سفيان) قال لأخواله من كلب، وكان - مطاعاً فيهم - وهم سادة قضاة: أطيعوني وحالفوا اليمس وانتسبوا إليها فإنكم تذلون بذلك بني مروان ومن انحط في أهوائهم من قيس وغيرها، فأطاعه بعضهم وعصاه آخرون، فكان بعضهم يقول: حالفنا اليمس، وبعضهم يقول: مل نحن منهم^(١).

وقبل أن ننتقل إلى كثانة وتركز الكلام عليها، لا بد أن نقول إن كل ما ذكرناه من ظواهر حياة القبائل وتطورها وحقائق اسمائها ينطبق على قيس عيلان ابن مضر - أو من مضر - وهم الفرع الكبير الثاني من الاسماعيلية أو المستعربة الذي سار موازياً لأبناء إلياس بن مضر: فأبناء إلياس بن مضر دخلوا الحجاز ثم تهامة، أما من انحدروا عن قيس عيلان فقد انتشروا شرقي السراة وعمروا وسط الجزيرة وشمالها فيما عدا عوالي نجد، أي الأرض المرتفعة المؤدية إلى قلبها، فهذه كانت بلاد كندة وبعض النسابين يقولون إنهم كانوا من جملة الزاحفين من الجنوب وإن مواطنهم الأولى كانت عند حضرموت عند موضع يسمى كندة، وهذا فرض مقبول، ولكن من الممكن كذلك أن يكونوا شماليين أصلاً بدلالات التاريخ ونوع الحضارة وانتشار النصرانية فيهم، ربما من بلاد لحم، فليس لدينا بينة من التاريخ تؤيد بنية كندة الشمالية تأييداً قاطعاً، أما أن نستند في ذلك إلى وجود موضع في حضرموت يسمى كندة، فلا يمكن اعتباره حقيقة تاريخية مقطوعاً بها، وقد لا يكون أصل اسم الموضوع الموجود في حضرموت «كندة» أصلاً بل شيئاً قريباً منه فمعروف رسمه النسابون والمؤرخون. وسنعود إلى قيس عيلان وندرسها بالقدر الذي يمتنا على تتبع تاريخ قريش. ولكننا لا نكتفي هنا بالإشارة إلى ما يقال: من أن قيس عيلان ليس اسم الجماعة وإنما نشير إلى قول اس حزم في الجمهرة تحت عنوان: هؤلاء بنو قيس بن عيلان بن مضر: «وقال قوم: إنما هو

(١) ابن عبد البر البعري، الألباء على فرائد الرواة، طبعة مكتبة المعارف الطاليف (مدون تاريخ)

الياس بن مضر، وأنه ولد قيساً ودهمان، وهم أهل بيت في قيس والأصح أنه قيس بن مضر وأن عيلان عبد حصّته فنسب قيس إليه فولد قيسَ حصّته، وفيه العدد، وسعد وفيه البيت، وعمر^(١) .

فهذه عبارة تثير أكثر من مشكلة ولا يمكن فهمها وتفسيرها بعض الشيء إلا على الوجه الذي ذكرناه. فهنا نرى أن قيس عيلان اسم عام أطلق على فريقين من ولد مضر، وهم إما أن يكونوا قد نشأوا متفرعين عن مضر بن نزار أو يكونوا أبناء إلياس بن مضر بن نزار، وهم على أي الحالين ليسوا جماعة واحدة، بل جماعتان إحداهما تسمى قيس، والثانية تسمى دهمان، ثم تحالفتا أو انضمتا في حلف قبلي واحد سمي قيس عيلان، وقيس عيلان هذا ليس اسم قبيل بل اسم الحلف أو جماع نسب الحلف، واسم الحلف أتى من اسم عبد حصن قيساً، وعلى هذا فيكون عيلان هو اسم العبد الحاضن، وهذا غير مقبول على علته، لأن الغالب أن اسم عيلان جاء من اسم المناطق التي انتشر فيها حلف قيس وهي فيما حسب المتأخرون من الرواة بلاد الجوع على اعتبار أن عيلان مشتق من العَيْلَة أو الجوع بدليل النص التالي وهو أيضاً عند ابن حزم: «وقال حصين بن المنذر بن الحارث بن ولة يحضرة وجوه العرب وقتيبة بن مسلم في حديث طويل: لو رأها قيس لُسمي قيس شُبَّعان ولم يسم قيس عيلان^(٢)»، والغالب أن عيلان هذا اسم الموضع الذي تحالفوا عنده أو اسم الشارة التي اتخذوها للحلف ولا علاقة لها بالشعب أو الجوع. وعند أبي العباس المبرد نص يدلنا على مقدار الشك في صحة الأنساب والأسماء، يقول: «وأما قيس فهو الناس بالنون بن مضر ويقال إن عيلان كان عبداً لمضر حصن ابنه الناس فنسب إليه قيس قليل: قيس بن عيلان بن مضر^(٣)»، وإذن فقيس هو في نفس الوقت

(١) ابن حزم، الجمهرة ص ٢٤٣.

(٢) ابن حزم، الجمهرة ١٠.

(٣) أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، سب عديان وقحطان طعة مكتبة المعارف - الطائف (بدون تاريخ) ص ٢٠.

«الناس» ونحن لا نعرف كيف يقرأ لفظ الناس هذا: هل هو إلتاس قياساً على إلتاس أو التأس، وعلى أي حال فيمكن القول بأن الناس هذا - أياً كان نطقه هو اسم القبيلة التي صنعت التجمع أو الحلف، ويكون قيس عيلان هو اسم جماع النسب الذي اطلق على الحلف.

فَرَعُ الْيَاسِ بْنِ مُضَرَ: كِنَانَةٌ - أَوَّلُ ظُهُورِ قَرِيْشٍ:

عند النسابة أن كنانة هو ابن خزيمة بن عامر بن إلياس بن مضر، وليس لدينا ما يمنع من قبول هذا التسلسل في النسب لأن الأصح أن يقال إن كنانة قبيلة انحدرت عن قبيلة أخرى تفرعت عن قبيلة تسمى مدركة أو عمرو وأن هذه نشأت عن بني إلياس بن مضر. وقد رأينا أن خننف أم إلياس قضاعية وكذلك كانت أم خزيمة فهي سلمى بنت أسلم بن إلخاف بن قضاعة. وليس عندنا تفسير للفظ خزيمة ولكنه في الغالب اسم تجمع قبلي، أما اسم القبيلة التي صنعت الحلف فهو أسد لأن خزيمة تكنى أبا أسد. وبين خزيمة وقصي - وهو أول رجل نعرفه بعينه وصفته وعمله في شجرة النسب - تسعة آباء - فإذا نحن جرينا على ما يقوله النسابة من أن شجرة النسب شجرة آباء فهذه تسعة أجيال تحتاج إلى ثلاثمائة سنة على حساب من يقولون إن الجيل ثلث قرن، وثلاثمائة وستون سنة لمن يقولون إن الجيل ربع قرن، وهذا أمد طويل يصعب معه تذكر الأسماء فضلاً عن صفاتها، ولكن نسبة خزيمة إلى أم قضاعة تحمل بنا إلى القول بأن قبيلة خزيمة نشأت عن حلف من فرع من إلياس بن مضر وفرع من قضاعة. وقضاعة كانت أثناء هجرة الاسماعيلية قد بدأت تنفك وتنتثر وبدأت بناتها من الأحلاف القبلية التي نشأت عليها تظهر، فظهرت كلب بن وبرة في الشام وجُهينة وبيلى وغيرها في شمال الحجاز. وقد سلك هذا القبيل من العدنانية المضربة طريقاً يمر بأرص انتشرت فيها القبائل القضاعية، ومن هنا فإنه من الطبيعي أن نجد القبائل الواردة في شجرة النسب ذات طابع قضاعي واضح وفي هذه الحالة تكون كنية أبي

أسد التي تطلق على خُزَيْمة خطوة نحو تعرب هذا القبيل من المستعربة.

وعندما نصل إلى كنانة نجد الأثر الكبير لصناعة النسابة في تصوير شجرة النسب السوي، فكانت عند الساسين رجل واضح العين في كتاب «الخبر عن البشر للمقريزي وفي شرح السيرة للخشني أن «أبا عمرو العدواني - والمراد ذا الأصبع - قال لابنه في وصيته: يا بُني! أدركتُ كنانة بن خزيمة، وكان شيخاً مُبِيناً عظيم القدر، وكانت العرب تحج إليه لعلمه فقال - يريد كنانة - إنه قد أن خروج نبي بمكة يدعى أحمد يدعو إلى الله وإلى البر والإحسان ومكارم الأخلاق، فاتبعوه تزدادوا شرفاً إلى شرفكم أوجزاً إلى عزكم، والا تتعدوا ما جاء به فهو الحق»^(١) وأنه لعجيب أن يكون بين كنانة ورسول الله تسعة أجداد ثم يقول ذو الأصبع العدواني هذا أنه رأى كنانة وأن كنانة قال إنه أن خروج نبي بمكة، فكيف يقول: إنه أن ظهوره وبينه وبينه تسعة أجيال، أي ثلاثمائة سنة أو أربعمائة؟ وكيف يتنبأ بظهوره في مكة ومكة كانت إذ ذاك قرية لم يسمع بها إلا قليل من العرب فضلاً عن القادمين من خارجها! وهذا كلام يقوله المقريزي وهو معدود بين ذوي النظر والحس التاريخي بين المؤرخين. وأقرب إلى المنطق أن نقول إن كنانة كانت قبيلة أو اسم لجمع أو حلف قبلي.

وكنانة كانت قبيلة طويلة العمر، وقد عُمرت طويلاً بفضل فرعين من فروعها هما النضر وعبد مناة. والنضر حلقة هامة من حلقات شجرة نسب عدنان، وأول ما تلقى كنانة نلقاها قرب مكة إلى غربها، ولا نعلم كيف وصلت إلى هناك ولكننا نستنتج من مصاهراتها ومصاهرات أمها خزيمة أنها مرت في هجرتها في بلاد قضاعة وفروعها التي كانت منازلها تتصل من جنوبي الشام إلى الحجاز: حبيشة وبلي واسلم وبهراء وخشين وسعد هذيم وما إليها من فروع

(١) المقريزي، الخبر عن البشر، مخطوط دار الكتب المصرية ج ٣/٣ قسم أول، وشرح السيرة للخشني ٣/١

قضاة التي امتدت جنوباً بغرب، ويدو أن منارل القضاءيين لم تتجاوز منطقة مكة جنوباً، لأننا بعد ذلك مدخل في ملاد خزاعة، وبقايا من حرمهم من بقايا العاربة واستقرت كنانة بعد طول تحوال غربى مكة .

ولا ينبغي أن بصرفنا تتسع أصول قریش عن حقيقة هامة تغيب عن القدامى في تسعهم لخط النسب القرشي، وهي أنه في نفس الوقت الذي كانت فروع العدنانية الأخرى تنتقل فيه وهي في طريقها الذي نجدتها فيه عشية البعثة المحمدية، كانت جموعها تتنقل وتتجمع وتنفرد على النحو الذي وصفناه حتى تستقر كل منها في موضعها الذي سنجدها فيه أوائل القرن الخامس الميلادي، وسنحاول أن نقدر لتاريخ استقرار كنانة في الحجاز تاريخاً تقريبياً جداً عند كلامنا على قصي وتقدير التاريخ هذا أساسي في بحثنا هذا فلا تأريخ بدون حساب زمني، ولو تقريبي، ونحن إذا قدرنا أن بين كنانة وقصي ثمانية أجداد أو تسعة فمن الممكن جداً أن يكون سير كنانة في الحجاز واستقرارها قرب مكة كان في القرن المسيحي الثاني، وفي ذلك الوقت ربما لم يكن اسم مكة بتلك الصورة قد ظهر، ربما كان اسمها إذ ذاك هو الذي أثبتة بطليموس: ماكورابا أو مكرابا أو مقربة وأن الموضع المحدد الذي كان موجوداً إذ ذاك هو بكة، وهو اسم الموضع الذي رفع فيه إبراهيم عليه السلام قواعد البيت. والبيت أقدم من ذلك بكثير ولكن إبراهيم هو الذي رفع قواعده أي جدد بناءه على قول المفسرين. كانت هناك بكة وحولها محلة صغيرة هي ماكورابا، وكانت تنزل بها بقايا من جرهم من قبائل العرب العاربة، ويسميتها نسابة العرب جرهم الثانية، لأن جرهم الأولى في عرفهم من البائدة.

وفي موطنها الذي استقرت فيه استمرت كنانة تتجمع، ثم أخذت تتفرق وتغل محلات وحديات قليلة جديدة يذكر منها النسابة ستاً، ولكن أكبرها وأهمها الضُر، وعد مناة. ولا بد أن ملاحظ هنا أن كل قبيلة تتفرق يبقى اسمها أمداً طويلاً أو قصيراً على قبيل من النام، وقد يختفي الاسم بعد ذلك، فليس

لدينا على خريطة النسب قبيلة تسمى كنانة، لا ولا نجد اسم عبد مناة، بل الذي لدينا مروع كثيرة منها أهمها من الناحية التاريخية بكر وكمب. وهذان الفرعان من بني عبد مة هما اللذان صادفها أيام قصي وما بعدها.

ونتبع فرع النصر أي قبيلة النصر في طريقنا إلى قریش فجدد أن المتأخرين من مؤرخي يقولون لنا إنه اسم رجل، بل يرعم أبودر الخشني في شرحه للسيرة^(١) أنه يعرف لماذا سمي النصر بهذا الاسم، فهو يقول: «النصر الذهب الأحمر، وهو النصار سُمي النصر بذلك لوضائه واشراق وجهه، وهذا انعكاس من أضواء النبوة واشراقها على أجداده ﷺ». وهنا يعود النسابة إلى التسمية المزدوجة لنفس العلم فيقولون إن اسم النصر قيس، وعلى هذا وتشيأ مع منهجنا يكون النصر هو اسم رئيس الجماعة وقيس هو اسم التجمع لها. ويقول النسابة إن امه برة بنت مُر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر، وهي اخت تميم بن أد. وهذه أول مرة نسمع فيها عن صهر لخط النسب بهذا البعد، فإن جماعة طابخة التي ترأسها عمرو بن إلياس بن مضر قد اختفت عنا من زمن طويل وأخذت طريقاً آخر انتهى بها إلى مواضعها المعروفة جنوب وجنوب شرقي نجد فيما يعرف بأعالي نجد، وهناك اندرجت بحكم ظروف البيئة - كما سنرى - في جملة الأعراب أو الأعاريب، ويقال إن مواطن تميم امتدت في وقت من الأوقات حتى شملت البحرين.

مشاكل تتعلق بأصل قریش

وهنا تبدأ المشكلة الكبرى: مشكلة قریش.

فإن بعض نسانتا يقولون لنا إن النصر هو قریش، وبمعصهم الآخر يقول إن إبه فهر هو قریش، وهم أنفسهم في حيرة من أمرهم بشأن النصر وفهر

(١) شرح السيرة لأبي در الخشني ٣/١

وقريش جميعاً والسب واضح ، وهو أننا كلما اقتربنا من رمس النبي ﷺ خرجنا من ضباب التاريخ إلى نور الحقيقة ، وتحت السور يفتش الصاب ويجد المؤرخون القدماء أنفسهم في حرج ، فهم لا يستطيعون أن يقولوا إسم لا يعرفون حقيقة أمرهم كهذا من أمور السب السوي فيمضون يتلمسون المادة في القصص الشعبي ، إلا لا بد أن هذه الأسماء كلها ظهرت أولاً على ألسنة القصاص ، فلم يكن عند العرب قبل قصي خاصة سجلات أو دفاتر أو حتى نقوش ، وفي هذه الحالة لا بد أن ننبه إلى أن كل ما نحكيه في هذا الصدد إنما هو ما يستطيع المؤرخ العثور عليه من معالم تمكسه من تتبع الطريق الذي يختفي في ليل التاريخ ، وهو يتبعه دون أن يقرر فيه شيئاً بصورة حاسمة . وقد حكينا ما حكينا إلى الآن مع الحذر الذي لا مفر منه ، وعندما نخطو على أرض صلبة يطمئن له المؤرخ مع قصي بن كلاب سنغادر درجة من درجات هذا الشك المتعب الذي سرنا فيه إلى الآن .

مع النظر اذن يظهر اسم قريش أول ما يظهر . ففيس كما جلب على ظننا قبيل او تجمع قبلي والنضر اسم رئيسه الذي رأس ذلك التجمع .

ويؤكد أبو العباس محمد بن يزيد المبرد أن النظر هو قريش ويقول :
 « فمن قبائل خندف قريش ، واسمه النظر بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر . وتفرعت قبائل قريش من بني فهر بن مالك ، فيقال لهم بنو فهر ، قال الخطيب :

وإن الذي أعطيتهم أو منعتهم لكالنمر أو أحلى لحلف بني فهر^(١)

وفي هذا الخبر نقرأ مرتين عبارة « بني فهر » مما يدل على أن فهر اسم قبيلة أو تجمع قبلي .

وعند ابن عبد البر مقرأ: «النضر بن كنانة كان يقال له القرشي»، وفي نفس الصفحة مقرأ: «كان النضر بن كنانة يسمى القرشي»^(١) ووصف وتسمية النضر بن كنانة بالقرشي يدل على أن الوصف كان موجوداً من قبل أو يكون قد وجد في أيامه، وفي هذه الحالة يكون حلف قريش قد تكون من بعض فروع كنانة أيام النضر أو قبله بقليل.

ويقول ابن عبد البر: «وقد اختلف في قريش، فقال أكثر الناس: كل من كان من ولد النضر بن كنانة فهو قرشي، وحجتهم في ذلك حديث الأشعث ابن قيس الكندي، قال: قَدِمْتُ على رسول الله ﷺ في وفد كِنْدَةَ فقلت: أَلَسْتُمْ مِنَّا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: لا. نحن بنو النضر بن كنانة. لا نفقوا أُمَّنَّا، ولا ننتهي من أبينا»^(٢).

وعندنا على أي حال أربعة أقوال في أول من سمي بقريش من ولد عدنان.

الأول يقول إن النضر أول من لقب بالقرشي، فهو على هذا قريش. وهذا القول يكرره ابن عبد البر مرتين إحداهما بسند من الواقدي ورواته: النضر بن كنانة كان يقال له القرشي^(٣). والثاني ينسب إلى المصعب الزبيري ويكاد أن يكون أصل آراء معظم أصولنا وهو يقول: «كل من لم ينتسب إلى فهر فهو ليس بقرشي وقال علي بن كيسان: فهر هو أبو قريش، ومن لم يكن من ولد فهر فهو ليس من قريش وهذا أصح الآراء في النسبة لا في المعنى الذي من أجله سُمِّيَتْ قريشٌ قريشاً. والدليل على صحة هذا القول أنه لا يُعلم اليوم قرشي في شيء من كُتُب أهل النسب ينتسب إلى أب فوق فهر، دون لقاء فهر، ولذلك قال مصعب وابن كيسان والزبير بن بكار، وهم أعلم الناس بهذا الشأن وأوفق من

(١) ابن عبد البر، لا إمام، ص ٧٦

(٢) ابن عبد البر، لا إمام، ص ٧٥

(٣) ابن عبد البر، ص ٧٦

يسبب علم ذلك إليه - أن فهر بن مالك جُماع قريش كلها بأسرها وذكر أبو عبد الله أحمد بن محمد العدوي في كتابه في نسب قريش قال: جُماع قريش كلها فهر والحارث ابنا مالك بن النصر بن كنانة. وزعم أن الصلت بن النضر بن كنانة ليس من انتسب إليه بقرشي. . .

وقال علي بن كيسان: وُلد النصر بن كنانة مالكا والصلت ويحلبا، أمهم امرأة من جرهم.

وقال ابن الكلبي: وُلد كنانة بن خزيمة النضر، وهم قريش، ثم ذكر سائر بني كنانة أكثر من عشرة^(١).

وأصل هذا الكلام عند المصعب الزبيري. قال: وقد قالوا: اسم فهر بن مالك قريش، ومن لم يلد فهرأ فليس من قريش، فولد مالك بن النضر فهرأ، وهو قريش وأمه من جرهم^(٢).

والثالث ورد في كتاب الإنشاء لابن عبد البر، وهو يقول إن قصي بن كلاب هو أول من سمي بقريش، وإليك الفقرات التي تمنا من كلامه: وقال آخرون قصي كان يقال له القرشي. وذكر الواقدي أن عبد الملك بن مروان سأل محمد بن حبيب بن مطيع: لم سُميت قريش قريشاً؟ فقال: لتجمعها في الحرم بعد تفرقها. فقال عبد الملك: ما سمعت بهذا، ولكن سمعت أن قصياً يقال له القرشي، ولم تُسم قريش قبله. وذكر الواقدي أيضاً باسناد له عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: لما نزل قصي الحرم وغلب عليه فعل أفعالاً جميلة، فقبل له القرشي. فهو أول من سمي بذلك^(٣).

والرابع تردده معظم الأصول وإليك نص المصعب الزبيري فيه: فاما

(١) ابن عبد البر، الإنشاء ص ٧٥

(٢) المصعب الزبيري نسب قريش ١٢

(٣) ابن عبد البر، الإنشاء ص ٧٦

يخلد (ابن النصر بن كنانة وهو أخو مالك بن النصر فهو عم فهر بن مالك بن النصر) فهم في بني عمرو بن الحارث بن مالك بن كنانة، ومنهم قريش من يلد بن يخلد بن النصر، وكان دليل بني مالك في تجارتهم، فكان يقال: قدمت عبر قريش. فسميت قريش بذلك^(١).

بدايات ظهور قريش وانفصالها عن كنانة من بني إلياس بن مضر:

وهذا الاختلاف كله يرجع إلى أن كنانة القبيلة بعد استقرارها في الحجاز بدأت تتفرق وتتفكك أمام ضغط القبائل التي وجدت في منازلها الجديدة وأهمها خزاعة، وخرجت من أبنائها فروع كثيرة أهمها النصر وعبد مناة، وبني النصر أخذوا يتحولون إلى قبيلة باسم قريش، وهذا التحول بدأ يظهر في فرع من فروع النصر هو فهر بن مالك، واستمر التحول والتجمع حول فرع من فروع فهر هو عامر ثم فرع آخر هو لؤي بن غالب بن فهر وانقسمت القبيلة التي كانت في دور التكوين إلى قسمين رئيسيين: لؤي بن غالب وعامر بن غالب، ومن هذين القبيلتين نشأت نواة قريش، ولهذا فإن هذين الفرعين من فهر يقال لهما البطاح، ثم استمرت عملية التجمع وبناء القبيلة أيام مرة بن كعب وكلاب بن مرة، وجاء قصي، وهو أول رئيس واضح الشخصية التاريخية من رؤساء قريش، فجمع ما استطاع جمعه من فروع قريش، وخاصة فرعاً كعب بن لؤي وعامر بن لؤي، ودعاهم إلى خوض معركة مع خزاعة وانتزاع مكة منهم، ولجئوا حوله ودخلوا مكة واستقروا فيها، وكانت نواة الداخلين كعباً أو عامراً فرعياً لؤي بن غالب فنزلوا البطاح أي قلب مكة، ثم تلاحق بهما بنو فهر بن النصر بن مالك وهم بقية الفروع المجددة من النصر بن كنانة وهؤلاء الأخيرون ظلوا في الغالب أعراباً حول مكة وأطلق عليهم اسم المهريين، وهم منسوبون إلى قريش.

(١) المصنف الرميحي - سب قريش ص ١٢

أما قريش فكان اسم التجمع، وربما كان موضعاً، وربما كان اسم رمز لا يعرف كنهه، وربما كان اسم حيوان أو شجرة أو أي شيء، وربما كان أيضاً اسماً لمكان، ولهذا فقد احتلط الأمر على رواتنا فقالوا: «إن قريشاً هو النضر أو هو فهر أو هو قصي». ويؤيد هذا قول محمد بن حبيب السبابة أن قريشاً ليس اسم أب ولا أم ولا حاضن أو حاضنة وإنما هو جماع سبب. وهذه هي حقيقة اسم قريش ويكون الكلام الكثير الذي نقرأه في النصوص عن معنى قريش وعلى من أطلق أول ما أطلق مجرد فروض أو محاولات للإجابة على سؤال ليس له مكان، فليس هناك شخص اسمه قريش وإنما هناك قبيلة تسمى قريش.

وإذا رجعنا إلى الوراء قليلاً وجدنا النسابة يجعلون لكثانة أحد عشر ولداً منهم أربعة من أم واحدة هي برة اخت تميم بن مُر، وستة من أم يمنية وواحد من أم قضاعية، وعلى رأس أبناء التميمية النضر الذي ينحدر منه القرشيون أما الستة أبناء اليمنية فلم يكن من بينهم واحد ذا شأن، ولكن عبد مناة ابن القضاعية هو الذي كان صنو النضر ومنافسه ومنه انحدر بنو بكر وبنو كعب فرعا عبد مناة بن كنانة، وقد ظلا يمثلان كنانة في الحجاز في وجه بني النضر الذين أصبحوا قريشاً وسادوا أهل الحجاز. وتفصيل أولئك الأبناء عند المصعب الزبيري في نسب قريش^(١). وفي كلامه عنهم يقول: عن النضر بن كنانة وإخوانه أبناء التميمية وهم فرسان، وإذا جاز أن نستنتج شيئاً من هذه العبارة قلنا إن فرع النضر وإخوته من أبناء كنانة - أو فروعها. بتعبير أصبح - كانوا فرساناً، ولهذا سادوا غيرهم وخاصة اخوتهم في القضاعية، وقضاعة كما رأينا من العرب العاربة، وقد سادها المستعربة بقوة الخيل التي دخلوا بها. وهذه الحقيقة الواحدة تؤيد ما قلناه من علاقة المستعربة بالخييل، وتفسر لنا كيف أن فرع النضر، ساد بقية فروع كنانة لأنه كان فرع فرسان.

(١) المصعب الزبيري، نسب قريش ص ١٠.

والآن وقد وصلنا إلى قصي فلا بد أن نلقي نظرة على خزاعة التي وجدها القرشيون الكتابيون تسود مكة وإقليمها، وكان عليهم أن يخوضوا معركة معها لكي ينتزعوا مكة منهم ويتخذوها لهم قاعدة ومركز قوة.

خُزَاعَة : أَصُولُهَا وَمُورَفُولُوجِيَّتُهَا:

في دراستنا لتكوين قريش أو مُورَفُولُوجِيَّتِهَا أخذنا فكرة عن تعقد تركيب القبائل العربية، فنحن نحسب أننا نعرف كل شيء عن تركيب قريش لأنها رهط رسول الله ﷺ، ولكننا ما كدنا نتفحص تركيبها عن قرب حتى تبين أن فكرتنا التقليدية عن المورفولوجية الحقيقية لقريش يدخل فيها وهم كبير، وأن العوامل السياسية كان لها أثر بعيد في عمل الصورة التي وصلتنا بها القبيلة عن طريق النسابة وأصحاب التاريخ.

وهذا الكلام ينطبق على معظم القبائل إن لم يكن جميعها، وقد رأينا مثلاً معروفاً لنا جميعاً في قضية واختلاف الآراء في أصلها ونسبتها إلى اليمن أو معد. ولا بد لنا في هذه الدراسة من أن ندرس تكوين خُزَاعَة، لأن خُزَاعَة وثيقة الصلة بقريش وبني هاشم منها بصفة خاصة، وهذه الصلة كانت تحالفاً قَبْلِيّاً قبل الإسلام، أما بعد الإسلام فقد تزايدت أهمية خزاعة لأنها ظلت على ولائها لفرع بني هاشم وحلفائهم، ووقفت معادية لمن عادى بني هاشم والإسلام من قريش، وكان لها ولائها نتيجة لذلك دور عظيم في تطور الأحداث في العصر النبوي وبعده.

ولن ندخل هنا في مناقشات طويلة حول تعقد تركيب خزاعة، وإنما ما يهمنا هي الأسباب التي أدت إلى ذلك التعقد، لأن شجرات الأنساب كما وصلتنا إنما هي صورة لأحداث وظروف سياسية أحاطت بالقبائل قبل الإسلام وبعده، وكان لها أثر في تشكيل هذه الصور في شجرات أنساب سياسية واثولوجرافية في نفس الوقت.

والذي نستطيع قوله هو أن السواة الأولى لخزاعة يمنية، فإن أصلها فيما يقول النسابة من جماعة غسان اليمنية التي هاجرت من الجنوب، وفي الطريق إلى الشمال اختارت بعض بطون غسان أن تنزل بين مكة والمدينة في موضع غدير الأشطاط شمال مكة، وهذه المجموعة عُرفت باسم خزاعة، وهي مجموعة البطون الأساسية في تكوين القبيلة وهم بنو كعب وبنو مليح وبنو سعد وبنو عوف وبنو عدي وهم أبناء عامر بن لُحَي بن حارثة بن عامر. وكُلِّي المذكور هنا يسمى أيضاً ربيعة.

وبعد أن استقرت هذه البطون الخمس في موطنها الذي ذكرناه انضمت إليها فيما يقول النسابة ثلاثة بطون من بني أفضى بن إلياس بن مضر وهي أسلم ومالك وملكان. وتلك هي البطون التي يقال إنها انخزعت أي انفصلت عن بني إلياس بن مضر ولنا على يقين من أن انخزع معناه انفصل، ولكن هكذا يقول الرواة.

أما بقية البطون التي تراها في شجرة نسب خزاعة فيقال إنها من أبناء خنيدف وخنذف هي امرأة إلياس بن مضر فيما يقول النسابة وأبناؤها هم بنو إلياس بن مضر ويسمون لهذا خنيدف أو الخنيدفون.

وعلى هذا فتكون النواة الأساسية من خزاعة يمنية أضيف إليها نواة ثانية من بطون قمعة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ثم نواة ثالثة من مضر أيضاً ولكن عن طريق خنذف امرأة مضر. وخزاعة إذن قبيلة ثلاثية النواة.

وقد بينا ذلك كله على شجرة النسب التي رسمناها لأنساب تلك القبيلة وذكرنا مرجعاً في كل قول، وسرى في سياق هذا التاريخ الأسباب السياسية التي جعلت النسابة يُدخلون هذا التعقيد كله على نسب خزاعة^(١)

(١) ابن عبد البر. الاباء، ص ٩٨

واطر عن خزاعة

اس هشام سيرة رسول الله (القاهرة ١٩٣٣) ١/٧٨.

خُزَاعَةُ وَقُرَيْش :

لا نستطيع أن نستكمل تاريخ قريش دون أن نلم بتاريخ خزاعة في ايجاز، فتاريخ قريش شديد الاتصال بتاريخ خزاعة والتأثر به قبل الاسلام وبعده . وهذه العلاقة الوثيقة بين قريش وخزاعة كان لها الأثر الكبير في تكوين شكل شجرة نسب خزاعة ، لأن قصي بن كلاب عندما عادى خزاعة واجتهد في انتزاع مكة منها اذاع القرشيون عن خزاعة أخباراً لا يرضى عنها الخزاعيون مثل قولهم إن خزاعياً وهو حُلَيْل بن حُبْشَةَ باع الكعبة من قصي بزق حمراً ، وبعد أن استقر قصي في مكة وعمل هو وابنه عبد مناف على استرضاء خزاعة واجتهد القرشيون في ربط خزاعة اليهم ، ومن هنا جاء ما يقوله ابن اسحاق والمصعب الزبيري من أن خزاعة عدنانون خندفيون من أبناء مضر وامراته خندف وهم على هذا في جملة أبناء مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

ومن هذا ايضاً ما يقال من أن خزاعة ينحدرون من أفضى بن هاجر بن قمعة بن الياس بن مضر ، وهذا هو قول أبي عبيدة معمر بن المثنى ويتابعه فيه ابن حزم .

أما الخزاعيون فيرون أنفسهم من اليمن ، ويسوقون نسبهم من حارثة بن

■ البلاذري ، أنساب الأشراف . الجزء الأول بتحقيق محمد حميد الله (القاهرة ١٩٥٩) ص ٣١ .

الفاشي : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (القاهرة ١٩٥٦) ٤٤/٢ - ٤٥ .

المصعب الزبيري : نسب قريش (القاهرة ١٩٥٣) ص ٧ - ٨ و ١١ .

ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، بتحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة .

القلقشندي : نهاية الأرب ، في معرف قبائل العرب ، بتحقيق الأبياري ص ٢٤٤ .

ابن الكلبي ، كتاب السب الكبير ، الجزء الأول بتحقيق عبد الشار فراج ، الكويت (في صفحات متفرقة)

ابن دريد ، الاشتقاق ، بتحقيق عبد السلام هارون (١٩٥٨) ص ٤٦٨

الحارمي ، عحالة المنتدى بتحقيق عبدالله كون (القاهرة ١٩٦٥) ص ٥٤

محمد بن حبيب السابة ، المسنن ، ٣٤٦ - ٣٤٧

أما المراجع الخاصة بتاريخ حراة بعد الإسلام سترد ميا بعد

عمرو مزريقاء بن ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد - وابس الكلبي - وهو المسؤول الأول عن الشكل الهندسي الذي وصلت اليه أنساب العرب قبل الاسلام خاصة - ينكر أنه كان لقمة وهو في رأي النسابة عمير بن مصر خندف - ابن يسمى ربيعة، وأن ربيعة هذا هو لحى جد الخزاعين، وهو يقول إن لحيا ابن حارثة بن عمرة مزريقاء بن عامر ماء السماء ابن حارثة الغطريف، ويسوق بقية النسب الى مازن بن الأزد.

والمأمل في هذا الاختلاف الشديد في مسلق نسب خزاعة يرى بوضوح أن النسابة وجدوا أنفسهم أمام جماعات من خزاعة تسوق نسبها الى قمة بن مضر وخندف بن الياس بن مضر، وجماعات أخرى من خزاعة تقول انهم ينحدرون من النسب اليماني الصرغ أي من حارثة بن عمرو مزريقاء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بينما تقول جماعة منهم انهم ينحدرون من أفضى بن عامر بن قمة بن إلياس بن مضر.

وما دامت الأقوال كلها تتفق على أن جد خزاعة هو لحى بن حارثة وأن لحيا هذا اسمه عمرو وابنه المسمى بربيعة هو ربيعة بن عمرو فاننا نستطيع القول بأن لحى بن حارثة بن عمرو مزريقاء هو اسم جد الخزاعين الذي انفصل بجماعة من الأزديين كانوا مهاجرين من اليمن مع جماعة هي التي سميت بجماعة غسان، واستقرت هذه الجماعة - قرب مكة وهناك تحالفت مع فريقين من المضريين من فرع الياس بن مضر، جماعة تنحدر من أفضى بن عمرو بن قمة، وجماعة تنحدر من ربيعة بن قمة بن مضر، ومن هنا جاء القول بأن ربيعة بن قمة هو نفسه لحى بن قمة، ومن هذه الأصول الثلاثة أو النوى الثلاث تكون ذلك المجموع الكبير المسمى خزاعة. وخزاعة هذا قد يكون اسم مكان أو جبل أو طوطم أو ماء أو شجرة. وقد سبق أن رأينا أن قريشا نفسها تكونت من نواتين رئيسيتين احدهما عدنانية والثانية قضاعية، فهذه خزاعة قليلة تتكون من ثلاث نويات.

وما دمنا قد وصلنا الى هذه النتيجة، فلنقص حكاية خزاعة كما يرونها

النسابة على اختلاف بينهم في مساق القصص فنقول إن الجماعة اليمنية التي انفصلت عن عسان وانضمت الى جماعات أخرى تحت اسم حراة استقرت الى جوار مكة حيث كان السلطان لقييل قديم جداً في هذا الموضوع من العرب العارة يسمى جرهم، وجرهم هذه هي بقية من فريق من العرب البائدة حمل نفس الاسم، ولهذا نسميها الروايات بجرهم الثانية.

وطالب آل لحي من جرهم الثانية أن تاذن لهم في الاستقرار الى جوار مكة حتى يجدوا مرعى مناسباً ينتقلون اليه، فرفضت جرهم، ودارت حرب بين الحيين انتهت بانتصار لحي بن عمرو وأوربيعة بن عمرو، وانضمت اليهم جماعات أخرى من العرب الذين كانوا تحت سلطان جرهم، فنشأ جمع جديد هو الذي أخذ اسم خزاعة. وهناك رواية تقول انه لم تحدث حرب بين جرهم وتجمع لحي بن عمرو الذي أصبح يسمى في صورته الجديدة باسم خزاعة وأن الذي حدث هو أن جرهم وخزاعة اتفقا دون حرب على أن تزوج فهيعة بنت الحارث بن مضاخ الجهمي من ربيعة بن عمرو (الذي هو لحي على قول النسابة) وابنها عمرو بن ربيعة بن عمرو وورث سدانة الكعبة، فهو عمرو بن ربيعة.

وهؤلاء الذين يقال لنا انهم ابناء عمرو انما هم أهم الوحدات القبلية التي تكون منها التجمع الجديد تحت اسم خزاعة، وكان تجمعهم عند مَرَّ الظهران، ولا معنى هنا للقول بأن خزاعة اسم اشتق من التخرع بمعنى الافتراق، أي أن خزاعة قبيل انخرع عن جماعة غسان الأزدية. ودليلنا على ذلك قول ابن الكلبي: فولد عمرو بن ربيعة (يعني عمرو بن لحي) كعباً، بطن وعدياً بطن وعوفاً وسعداً، فليس من المعقول أن ينجب رجل واحد أربعة رجال يصبح كل منهم بطاً وأما الأمور الى المطلق التاريخي أن هذه البطون تجمعت وكوت حلفاً يسمى خزاعة وهذا الحلف هو الذي اخذ زعامة مكة وسدانة البيت من جرهم اما بالحرب أو سلماً عن طريق الصهر. وفي أثناء سلطان خزاعة في مكة انفصلت قريش عن كنانة وظهرت في صورة قبيل حديد متحالف مع خزاعة أو مع بني

كعب من خزاعة بتعبير أدق. وتقاربت لهجة الحيين حتى صارت لهجة عربية واحدة، ولهذا يقول ابن عباس: نزل القرآن بلفظة الكعبيين: كعب بن لؤي وكعب ابن عمرو بن لحي (من خزاعة). وذلك أن دارهم كانت واحدة.

الوضع السكاني في الحجاز قبل البعثة

ونتهي من هذا الباب نظرة عامة على الوضع السكاني في منطقة الحجاز عندما ظهر قضيي وبدأ عمله الكبير في تجميع قريش واحتلال مكة وانتزاع سدة الكعبة فنقول إن خزاعة كانت القبيلة القوية في الميدان. وأقوى الخزاعين كانوا بني كعب بن عمرو بن عامر بن لحي، وهؤلاء كانت مساكنهم ممتدة شمالي مكة وفي الطريق منها إلى المدينة المنورة، ثم كانت هناك بقايا كنانة وهي أم قريش وكانت منازلها ممتدة غربي مكة وربما إلى جنوبها وأقوى بطونها بنو عبد مناة بن كنانة.

وبقية الحجاز من المدينة فصاعداً حتى بلاد الشام كانت تسكنها بطون قضاعة التي تفرعت عنها وهاجرت من بلادها جنوباً بغرب إلى الحجاز أو إلى شبه جزيرة سيناء بعد تفرق قضاعة. هناك كانت تنزل جُهينة وبَليّ وأسلم وسعد هذيم، وبراء ومهرة وما إليها، وقد مرت كنانة بمنازل هذه القبائل في طريقها إلى منازلها الجديدة قرب مكة وتأثرت بها تأثراً شديداً. فاختلطت الأنساب وتوالى المصاهرات حتى لمكننا القول بأن كنانة كانت بسبب المصاهرات قضاعية - من ناحية الأمهات - بقدر ما كانت عدنانية من حيث الصلب أو الصليبية، والوحدات الرئيسية في هذه الفروع القضاعية هي من الشمال إلى الجنوب: بنو القين وبَليّ وجُهينة وبراء وعُدرة. وقد تركت جانباً الكلام عن عرب منطقة المدينة حتى يجيء موضعها من هذه الدراسة.

وإلى شمال الحجاز وما يليه شرقاً أقبلت جماعات يهودية فاستقرت في مواضع عيون ماء كانت صغيرة ولكنها نمت مع الزمن بفصل من استقر فيها من اليهود وما قامت به من جهد في الزراعة والصناعة. ومن هنا نشأت مراكز

عمراية في خيبر وأم القرى ثم في فذك إلى الشمال الشرقي من خيبر في مداخل نجد. وتقدم بعضها فاستقر في سهل المدينة، وهذه الجماعات ظلت على يهوديتها فلم تندرج في غمار الوثنية التي كانت هي ديانة القبائل الإسماعيلية المستعربة أما القبائل القصاعية فقد بدأ بعضها يدخل المسيحية مد القرن المسيحي الثاني.

والى شرقي جبال السراة امتدت جماعات الإسماعيلية من فرع قيس عيلان بن مضر وستحدث عن أهم جماعاتها، ولكن يكفي أن نقول الآن إن الأراضي الرملية المشبعة الواقعة جنوبي صحراء النفوذ القاحلة امتدت فيها جماعات كبيرة من قيس عيلان أهمها غطفان (حول خيبر) وعُيس وذبيان ولحيان ومحارب وأسد وهوازن (في محاذة المسافة من المدينة إلى مكة)، وشرق هوازن وجنوبها امتدت بلاد نعيم. وهذه القبائل كانت فروعا من قيس عيلان وكلها ظلت أعرابا بسبب البيئة الصحراوية التي تميل إلى الجذب وقلة المطر في منازلها بل إن معظم ما كان ينزل من المطر كان يفيض في الرمال: هنا بلاد الأعراب أو أعراب نجد فيما يعرف عند كتابنا باسم عوالي نجد أو العوالي. وبعض أولئك الأعراب أو الأعراب دخلوا الحجاز من منافذ الجبال مثل بني سليم بن منصور الذين استقروا عند معدن بني سليم، وبني هلال بن عامر بن صعصعة الذين جاؤوا بني سليم وانتشرت جماعات قوية منهم في مواضع متباعدة من الصحراء، ومن هؤلاء الأعراب سعد بن بكر إلى الشرق من مكة، وهم من هوازن.

وهؤلاء الأعراب أنشأوا فيما بعد علاقات حلف وصهر مع بطون من قريش ممن لم يسكنوا بطن مكة مع قصي بن كلاب، ولكنهم تأخروا وطلوا أعرابا أو أصناف بدو يسكنون طواهر مكة من بني الحارث ومحارب من فروع فهر، أما فرع غالب بن فهر، فهم نواة قريش وهم الذين انحدر منهم قصي بن كلاب وفروع قريش البطاح وصلهم كعب بن لؤي وعامر بن لؤي كما سنرى.

وبلاد هؤلاء الأعراب كانت شديدة الفقر بطبيعتها، وأهلها كانوا يعيشون في فاقة وجوع دائمين تقريباً، ولهذا فهم ينظرون بعين الطمع الى جماعات المستقرين أو أنصاف المستقرين التي كانت تعيش في الحجار من خير وفدك ووادي القرى حتى المدينة المنورة وفي تهامة في اقليم مكة وهذه الجماعات كانت من أصول شتى وتكوين سكاني يختلف من موضع لموضع، فهم يهود مهاجرة من الشمال في منطقة خيبر وما يوازيها، وهي المنطقة التي تيسر فيها الخيرات ومادة الحجاز، فقد كانت خيبر تسمى ريف الحجاز، وإلى هذه الجماعات اليهودية انضمت جماعات عربية قليلة وتهودت أم لم تهود، وهي قضاعية، في المساحات الواقعة بين جنوب الشام والمدينة، وبنية الأصول كما نجد في الأوس والخزرج أصحاب المدينة، وهم لم ينفردوا بها بل نزلت قبلهم ومعهم جماعات من قضاة وعذرة وغفار ويهود، ثم جماعة خزاعة المتنوعة الأصل، وقاعدتها عند مر الظهران في حين أن ينبع كانت أكبر مراكز الجهنيين. ثم جماعة قريش ومن استقر معها في مكة من قضاة وعذرة وخزاعة وبقياء جرهم. وحول مكة كانت منازل كنانة وخاصة بني عبد مناف منها، وإذا سرنا الى الجنوب في تهامة بدأنا نلقى طلائع القبائل اليمنية من حد بيشة، وأول من نلقى من تلك القبائل في ذلك العصر خثعم.

والى الجنوب الشرقي من مكة نجد الطائف وهي منزل قبيلة ثقيف وأحلافها، وهي قبيلة مستقرة وان لم تفقد خصائص البداوة، وهي قبيلة فيسية يرتبط رجالها بالمكنين أشد الارتباط، وثقيف كانوا أهل زرع وضرع وزروع وأشجار وفواكه ونخل وكروم، وكانوا يتحصنون في مدينتهم الطائف على جبل وج، وهذا الجبل كان حصصهم وملأهم. وقبل الاسلام لا نسمع كثيراً عن ثقيف ولكن أمرها طهر بفضل الاسلام الذي قاومته طويلاً فلما دخلت فيه بدأت مواهب رجالها تظهر

والخط الفاصل بين الحجاز وتهامة يمر شمال مكة بقليل. والمتأمل لأحوال

هذا الجزء من الجزيرة خلال القرن الذي سبق البعثة المحمدية - وهو القرن الذي تم فيه بناء قريش وبلغت أوج قوتها وانتظامها - يشعر أن الحجاز وتهامة معاً كانا عامرين بالسكان وإن لم تكن هناك كثافة سكانية، ولكننا نشعر أن كل موضع هناك مسكون وأن القبائل شديدة الاحساس بما يجري حولها، وسنرى بعد أن ندخل في العصر النبوي أنه لم يكن من الممكن أن يتحرك إنسان أو قبيل في أي بقعة من الحجاز وتهامة إلا أحسّت به قبائل الموضع، والأخبار تنتقل في سرعة تستلفت النظر وكأنها أرصدت هذه القبائل ناساً يرقبون الطريق ويتحسسون الأخبار ويطيرونها.

ويشعر الإنسان كذلك أن الاستقرار والأمن سائدين بصفة عامة، وذلك بفضل النظام الذي وضعته قريش ومتحدث عنه، وإذا قارنا أحوال الحجاز وتهامة بأحوال بقية الجزيرة خلال الجاهلية الثانية أحسنا أن المستوى الحضاري أرفع مما في غيره من نواحي الجزيرة. وستزداد هذه الحقيقة اتضاحاً كلما سرنا في هذا البحث، وفيما عدا تسلاّت فروع صغيرة من فيس عيلان وأعاريب نجد من أمثال أسد ومغارب والهون والديش والقارة نجد أن الوضع الأمني يشبه ما كان عليه الحال في بلاد الدول القائمة، بل هناك مناطق كانت غاية في الأمن مثل منازل عذرة وهذيل شمالي مكة، ولا غرابة والحالة هذه أن نجد أن تلك القبائل قالت أعذب الشعر العربي وأرقه.

الفصل الثاني

بناء قُريش
سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا ودينيًا

تَهِيد

والآن وقد تمتعنا خروج قريش من كنانة وافرادها بوحدة قبلية قائمة نفسها مستقلة عن كنانة ، نعود الى الوراء قليلاً لكي نتبع خط النسب المحدر من لؤي بن غالب بن فهر . وقد سبق أن ذكرنا أن الأسماء الواردة في خط النسب - قبل فهي - هي في الغالب أسماء تجمعات قبلية اشتهرت في التاريخ بالأسماء التي تراها في خط النسب، وهذا لا يدخل أي تغيير في خط النسب، فالأسماء تظل على حالها ولكن طبيعتها هي التي تتغير، وقد سبق أن بينا أن كنانة لا يمكن أن يكون اسم رجل بل هو اسم تجمع قبلي . ونفس الشيء ينطبق على النضر بن كنانة، والنضر هذا فيما تقول النصوص اسمه قيس وكنيته أبو يخلد ويخلد اسم ابنه الثاني لا الأول، وابن يخلد يسمى بدر، وبدر هو قريش فكيف نفسر هذه الأهمية؟ ولماذا يكون لكل علم اسمان؟ وقد حللنا ذلك الاشكال بقولنا ان قيس هو اسم الرجل وإن النضر هو اسم التجمع القبلي، وهذا لا يمنعنا من أن نقول مالك بن النضر، فيكون مالك منحدرًا من التجمع القبلي والمسمى بالنضر.

ولا حاجة بنا والحالة هذه إلى أن نبحث في معنى «النضر»، فما دام علماً على تجمع قبلي أو جماع نسب فقد يكون أي شيء.

وبعد مالك بن النضر يجيء فهر بن مالك، وهنا وقد اقتربنا من منطقة التاريخ وخرحنا من منطقة الغلام إلى منطقة شبه الظل لا يستطيع المؤرخون الاستمرار في ذكر أسماء القبائل على أنها أسماء أشخاص، ففهر ليس اسم رجل معرد ولا قريش كذلك، ولكن فهر هو حُجّاع قريش في قول هشام الكلبي برواية الربيع بن بكار، هما لا نشك في أنها أمام قبيلة انفصلت عن كنانة وفي ذلك يقول

السابعة: «ومن حاوز فهرا فليس من قريش» أي أن قريشا ظهرت إلى الوجود قبيلة مستقلة أيام ظهور اسم فهر، وربما كان هو الرئيس الذي طهر التجمع في أيامه بعد ذلك يختفي اسم فهر وكذلك تختفي النسبة إليه في عمود السبب، فنحن لا نقول قصياً الفهري أو عبد المطلب الفهري، وإنما انعدت باسم فهر جماعة الحارث بن فهر وعارب بن فهر، ومن هذين الفرعين ومن انضم إليهما تكونت مجموعة قريش الظواهر، وأما الذين لزمهم اسم قريش فهم أولاد لؤي بن غالب. وخاصة كعب بن لؤي وهامر بن لؤي، وهذان الفرعان ومن انحدر منها هم البطاح أي المجموعة التي تزعمها قصي وقام بها بعمله الكبير، فكأننا في الحقيقة من أيام لؤي بن غالب أمام مجموعتين انفصلتا عن كنانة وكناتهما تنسب إلى فهر، ولكن واحدة منها انعدت باسم قريش والنسبة إليها والأخرى احتفظت باسم فهر وانتسبت إليه، وإذا نحن قلنا أن قريشا ظهرت وتميزت بنفسها من ذلك التاريخ في حين أن غالبية الكنانيين من فرع النضر أصبحوا هم الفهريين لم نجاوز الحقيقة بكثير بدليل أن الفهريين - رغم انضمام بعضهم إلى قصي فيما بعد ودخولهم مجموعة قريش تحت اسم الظواهر - ظلوا بدوا يحومون حول مكة، وسنجد أن زعيماً من زعمائهم يسمى كرز بن جابر الفهري يعتدي على مسرح المدينة أيام الرسول ﷺ ويطارده الرسول حتى قرب موقع بدر ولا يدركه فيعود. ونتابع سيرنا مع الفرع الذي أصبح الآن يسمى قريشا ونقف عند غالب أوبن غالب بن فهر، فنجد أن اسم قريش يلزم أنه فرعاً منهم هو فرع بني لؤي، أما هم الأدم الذي يذكر على أنه ابن - أو فرع - من بني غالب فينصل عن التيار ويقول عنه ابن قتيبة: «بنو الأدم من أعراب قريش ليس بمكة منهم أحد»^(١) ويقول الربير بن بكار: «وسو الأدم هؤلاء هم أعراب مكة وهم من قريش الظواهر لا من قريش البطاح»^(٢).

وهكذا يرى أن قريشاً في تكوينها كانت تُسقط من تكوينها من المروع ما

(١) المعارف، ص ٣٢ - والروص الألف للمهمل ٧١/١

(٢) انظر: ابن حبان، المحرر ص ١٦٨

يفصل عنها ويرعب عن الدحول في حماها . وتدخل أبصاً في حلمها - بل في صُلها - من رعب في حلمها والانضمام إليها ، وذلك لأن انفصالها عن كثانة وقيامها بأمر بمسها ورعامة حلمها الحديد ، كل ذلك أوقع الغور بينها وبين بعض أحواتها من فروع كثانة وأظهر مثل لذلك ما كان بينها وبين فروع عدد مائة بن كثانة ، فقد خالفت قريش بني بكر بن عبد مائة بن كثانة على بني الحارث بن عبد مائة بن كثانة لأن القبيلة في العصر الجاهلي لم تكن كياناً اجتماعياً تربط أفرادهم إلى بعض روابط القرابة والدم وحدها ، بل كانت تكويناً سياسياً مرناً يقوم على المصالح ، فهي تضم إلى كيانها من يحالفها وينفعها من القبائل والأفراد أو البطون ، وتعادي ، بل تفصل من كيانها من يضرها أو يخرج على إجماعها من أهل غصبتها أنفسهم ، وهي دائمة في تجمع وتفريق ثم تجمع ، تحت نفس الأسماء أو تحت أسماء أخرى ، وسنرى أمثلة من ذلك كله فيما يلي من تاريخ قريش .

وعلى طول تاريخ قريش يستمر العنصر القضاعي نشيطاً في كيانها ، فكعب بن لؤي مثلاً أمه قضاعية ، واسمها ماوية ، وحيثما ورد اسم ماوية نبادر إلى الذهن أنه تحريف لماوية ، كأنما أراد النسابون فيما يتعلق بتاريخ كثانة وقريش تخليص قبيلتي الرسول الكبرى وهي كثانة ، والصغرى وهي قريش من كل أثر مسيحي .

وكلاب بن مرة اسمه حكيم وكنيته أبو زهرة . مرة أخرى نعود إلى الاسم المزدوج ، ومن الواضح أن كلاباً اسم تجمع صغير نشأ داخل قريش واستمر خط النسب أما القاون فقد احتفظوا باسم فهر ، وكأنما ثقل على النسابة أن يجدوا في خط النسب لفظ كلاب ، فقالوا إن اسم كلاب كان حكيماً أما كلاب فتسمية غلبت عليه لأنه كان كثير الصيد بالكلاب فكان إذا مر بكلابه قالوا : هذه كلاب ابن مرة فغلب عليه وهذا تكلف لا معنى له . وأم كلاب كانت من بني الحارث ابن فهر بن مالك بن كثانة

وقد تفرق الكثير من البطون التي تفرعت عن لؤي وانفصلت عن خط

السبب الذي مير قريشاً عن غيرها. فإن اسم قريش احصر كما رأينا في فرعين من لؤي هما كعب وعامر اما لؤي بن غالب، ومن هذين البطير ومسروعها تكونت الكتلة الأساسية التي أيدت قصياً وحملت اسم قريش ودخلت به مكة، واحتلت قدها أو بطحاءها، وهؤلاء هم قريش الطاح أو الاطحيون، أما بقية بطون لؤي فمعصها انضم إلى مجموعة بني الحارث وبني محارب المتفرعين عن مالك - وهي مجموعة فهر - وبعضها دخل في مجموعات قبلية أخرى، فبنو سامة بن لؤي أصبح اسمهم بني ناجية واستقروا بنواحي عمان^(١)، وبنو خزيمة بن لؤي أصبح اسمهم بني عائذة ودخلوا في بني أبي ربيعة الشيبانيين، وهذا إن دل على شيء فهو يدل على أن بطون كنانة التي تفرعت عنها قريش كانت تنتقل على مهل من الشام جنوباً، وهذه القبائل لم تنتقل كلها إلى الحجاز دفعة واحدة بل كانت تسير في بطاء كأنها مبر الثلج، وعلى طول الطريق كانت تنفصل عنها فروع وتستقر في مواطن جديدة وتدخل فيها فروع ويتغير اسمها بحسب ما يجد من الظروف.

ومرة بن كلاب يمثل مرحلة حاسمة في تاريخ قريش. وهو كما قلنا اسم تجمع، وفي هذه المرحلة تحدد تكوين صلب قريش من فرع كعب بن لؤي وعامر بن لؤي وما تفرع عنهما، وبدأت تظهر الوحدات الأساسية التي تكون منها صلب قريش وهم الذين سيصبحون أيام قصي قريش البطاح، ويدخل في جماعة قريش بنو سهم وبنو جهم وبنو جهم فرعاً مخصص بن كعب، وهو فرع معادل لفرع مرة. وهنا أيضاً يظهر فرع عدي - رهط عمر بن الخطاب - وهم فرع صغير.

ومعظم البيوت التي تفرعت عن مرة ستكون من غصنة قريش الأساسية، وهنا يلقي ثلاثة بيوت تستحق كل منها وقعة قصيرة منا، فهي يظهر ست بقطة من مرة، وهو البيت الذي سيعرف فيما بعد باسم محروم أما بيت

(١) في الأصل عد المصعب الزبيري. نزلوا بعدد نصح العيين وعدم شديد لميم إلى عمان الشام

القَلَمُسُ اخي كلاب بن مرة فإنه يدعو للتأمل . ومن أغرب ما يقرأ عند
 المصعب الزبيري أن القلمس هذا ابن أخي سُرير بن مرة، وعلى هذا فلا بد
 أن يكون اسمه القَلَمُسُ من فلان بن مُرة بن كعب بن لؤي وهكذا إلى كنانة،
 ولكن المصعب الزبيري يقول إن اسم القلمس عدي بن عامر بن ثعلبة بن
 الحارث بن كنانة، وهذا أمر غريب، فليس لدينا بين أسماء أولاد كنانة أو العروع
 التي تفرعت عنه ابن أومر يسمى الحارث، والذي لدينا هو الحارث بن فهر بن
 مالك بن كنانة، وهؤلاء دخلوا في مجموعة فهر دون أن يكون أصلهم في كنانة،
 ومن أين أتى عدي هذا وما نسبه؟ وكيف يذكر المصعب الزبيري هذا دون أن
 يستوقفه الأمر؟ وكيف يكون الرجل اسمه القلمس بن فلان بن مرة بن كعب ثم
 يقال لنا إنه عدي بن عامر وينتهي به إلى كنانة؟ ثم إن القَلَمُسُ هذا لا بد أن
 يستوقف نظرنا لأنه فينا يقال لنا ابن أخي سرير بن مرة وهو أول من نساُ الشهور،
 وقد انقرض سرير وورث ونساُ الشهور بعده ابن أخيه القَلَمُسُ
 واسمه عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن كنانة . والقلمس هذا هو الاسم
 الثاني لعدي، ولا يمكن أن يكون اسماً، خصوصاً إذا قبل لنا إنه ورث النسب
 عن عمه سرير، والنسب هذا هو حساب الأيام والشهور والأموال والربوات،
 والقرشيون كانوا أميين في غالبيتهم، فكان الذي يكتب ويحسب لهم في البيع
 والشراء وحساب الأيام والربوات القلمس هذا . ونظرة على هذا الاسم نرى
 أنه الصنورة العربية للفظ Calamus اللاتيني ومعناه القلم، ومنه جاء لفظ القلم
 العربي وهو أداة الكتابة والحساب والنسب . وسُرير بن مرة، وهو عم قصي كان
 هو الذي يحسب لقريش، فلما مات ورث العمل عنه ابن أخيه : عدي صاحب
 القلمس والقلمس الكاتب بالقلم . ومن هنا فليس من الضروري أن يكون
 ابن أخيه لحاً، وإنما ابن أخيه في صفة الكتابة والحساب والنسب . وفي أيام
 قصي بن كلاب بن مرة وبعد أن تستقر قريش في مكة وتنظم أمورها وتزدهر
 تجارتها متزدد الحاجة إلى النساء القلامس، أي أصحاب الأقلام، وسيكون
 لهم دور كبير نعرفه جميعاً فهم الصيارفة الكُتَّبة الحَسْبَةُ المراسون

قصي بن كلاب والبناء العسكري والسياسي لقريش أخبار قصي حتى توليه زعامة قريش

وأخيراً وصل إلى قصي بن كلاب وهو دون شك شخصية تاريخية واضحة
المعالم.

ومعه نخرج من خباب الأساطير والقصص الشعبي إلى حقائق التاريخ .
وليس من العسير أن نستبعد القصص الشعبي ونركز كلامنا على الشخصية
التاريخية وما قامت به من دور تاريخي .

فالروايات التي بين أيدينا تقول أن قصياً ليس اسمه الحقيقي وإنما اسمه
زيد، وإن أباه كلاباً، أنجب ولدتين: زيدا هذا وزهرة . وقصي كان الولد الأكبر
وبله زهرة - وهو هنا اسم رجل أو قد يكون اسم البيت، وزهرة نفسه غير
معروف لنا مما يوحي فعلاً بأنه اسم بيت، ولكن معظم أفراد بيت زهرة
معروفون لنا وهو على الجملة بيت سيكون دائماً حليفاً لبيت قصي قبل الإسلام ،
أما بعده فإن بني زهرة كانوا - إلا فيما يتعلق بعبد يغوث بن وهب بن عبد مناف
ابن زهرة وابنه الأسود بن عبد يغوث - من أكابر بيوت الإسلام في عهد النبي
ﷺ وبعده . ويكفي أن منهم أمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة أم الرسول
ﷺ وهالة بنت وهيب بن عبد مناف وقد تزوجها عبد المطلب بن هاشم في
نفس الوقت الذي تزوجت فيه أمنة بنت وهب عبد الله ، وأنجبت هالة حمزة بن
عبد المطلب عم الرسول وصاحبه ، بطل الإسلام المشهور .

ويبدو أن قصياً سمي بهذا الاسم من مولده ، ولا داعي للقول بأنه سمي
كذلك لأنه تربي قصياً أي بعيداً عند آل أمه وهم من قضاة ، أما اسم زيد فلا
معنى له في الحقيقة ، فعمرو وريد وامرؤ كلها العاظ بمعنى شخص أو رجل
والنحويون أنفسهم استعملوا لمظي زيد وعمرو في أمثلتهم الحورية ، فهم
يقولون ضرب زيد غمراً يريدون ضرب رجل رجلاً ، وما الذي كان يوجههم

إلى اختيار اسم عمرو هنا ليكون مضرب المثل مع صعوبة رسمه في حالة النصب مثلاً. ولكن الذي يعيننا أكثر هنا هو ما نقوله الروايات من أن قصياً تربي في منازل فرع من فروع قضاعة هو فرع بني عذرة بن سعد هذيم المشهورين في عالم الشعر واليهام ينسب الشعر العذري، ومنهم حميل بن مغمسر صاحب بثينة، وهذه حقيقة تهمننا هنا فلنقف عندها بعض الوقت

فإن القصة تقول إن كلاب بن مرة والد قصي تزوج فاطمة بنت سعد بن سيل وهو خير بن حمالة بن عوف بن عثمان بن عامر (وهو الجادر) بن جعثمة وهو يشكر من الأزدي، فولدت له زهداً وزهرة، ثم توفي عنها فتزوجت فاطمة - أم قصي - ربيعة بن حرام بن ضنة بن عبد كبير بن عذرة بن سعد (هذيم) بن سعد بن زيد بن قضاعة. وهذا هو كلام السهيلي^(١).

وعلى الرغم من أن بعض أئمة مؤرخينا مثل الطبري وابن الأثير وابن عبد البر رواوا هذه الحكاية وعدّلوا بعض الشيء في سياق نسب قصي إلا أننا لا بد أن نقرر أن القصة كلها لا نستقيم، وكلات تزوج فاطمة القضاعية ومات عنها مخلفاً ابنه قصياً وزهرة فتزوجت الأرملة رجلاً من بني عذرة القضاعيين، وكل هذا التعقيد لجأ إليه المؤرخون وأقروه ليبرروا تسمية قصي بأنه البعيد. أو الذي تربي بعيداً عن أهله قريش.

وأصحاب هذه القصة يفترضون أن كلاباً كان في مكة وأن قصياً ولد ونشأ بعيداً عنها مع أن قريشاً لم تدخل مكة إلا على يدي قصي، وقريش في أيام كلاب كانت قد وصلت في تنقلها في الحجاز إلى قريب من منازل بني سعد هذيم من قضاعة غير بعيد عن مكة.

والذي أوقع أولئك المؤرخين في هذا الخطأ هو قولهم إن فاطمة أم قصي ازديّة لأنها ست سعد بن سيل - واسم سيل في قولهم حمالة بن عوف بن عثمان

(١) السهيلي، الروض الأم ١/ ٨٤، وانظر ابن الأثير ٢/ ٨، والطبري في أحبار قصي

ابن عامر (وهو الحادر) بن جعثة وهو يشكر من الأزدي في قولهم، فإذا رجعنا إلى شجرة النسب وجدنا أن بني عذرة أصلهم من قضاعة، فهم بنو عذرة بن سعد هذيم بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة ووجدنا أن عذرة نشأت عنها ثلاثة بطون: عامر وكبير ورفاعة بنو عذرة، وهذه البطون كلها دخلت أي امتزجت ببني يشكر الأزدية: يقول ابن حزم: «ومن بطون بني كبير بن عذرة بنو رزاح بن ربيعة بن حرام بن ضنة بن عبد بن حرام بن عذرة، ووراح هذا هو أخو قصي بن كلاب لأمه»^(١) لأن فاطمة أم قصي بعد وفاة زوجها تزوجت ربيعة ابن حرام بن ضنة فولدت منه رزاحاً فكان رزاح أخاً لقصي لأمه، ويورد لنا ابن حزم بعد ذلك عبارة في الغاية من الأهمية بالنسبة لقصي وبنائه قريش، قال: «ومن بطون بني كبير بن عذرة بنو رزاح بن ربيعة بن حرام بن ضنة بن عبد بن كبير بن عذرة، ورزاح هذا هو أخو قصي بن كلاب لأمه، وهو الذي نصر قصي ابن كلاب على بني بكر بن عبد مناة، وهو الذي أخرج بني عبد ويثي جرهم وبني خزاعة من بلاد قضاعة، وهو الذي أخرج أيضاً بني عمه رفاعة بن عذرة من جيلة بلاد بني عذرة، وبنو حن بن ربيعة أخي رزاح بن ربيعة لأبيه وأمه وهما من قبيلة عذرة فبنو حن هؤلاء أخوال قصي وهم عذريون قضاعيون ومنهم جميل بن عبد الله بن متمر الشاعر وصاحبه بثينة أيضاً.

وهذا الكلام كله يعطينا حقائق جديدة عن أوليات قصي، فإن قصياً نشأ في بلاد أمه فاطمة العذرية القضاعية، ولا بد أن بلاد بني عذرة في ذلك الحين لم تكن بعيدة عن مكة، فهم أبناء عم جهينة القضاعيين، وبنو جهينة كانت منازلهم تصل إلى ذي شُشْب، وعندما كبر قصي واشتد عوده وجمع قومه بني كعب وبني عامر أولاد لؤي الذين استمر فيهم اسم قريش دخل في صراع مع بني بكر بن عبد مناة الذين كانوا يمثلون كتلة كنانة، فنصره أخوه لأمه رزاح بن ربيعة العذري القضاعي وانضم قومه إلى قريش وحارب الإنسان معاً بعض

(١) ابن حزم، الحمرة ص ٤٤٨

بطون قضاة مثل بني هذ وبني جرّم وبني حوتكة ثم بني رفاعة وأحرحوهم من
 بلاد عذرة وتوسع قصي وقومه وحليفه حرام بن ربيعة بن حرم بن صة في
 أرض بني عبد ماسة بن كنانة بعد أن انتصروا عليهم وأرداد مركرة ومركز قريش
 ثانياً.

لا معنى إذن للقول بأن قُصياً سمي بذلك الاسم لأنه شأ وتربى قُصياً
 عن قومه. قُصياً عن ماذا؟ حقاً إنه نشأ وتربى فعلاً في بلاد أمه العذرية ولكن
 عندما اشتد عوده وتنازع مع بقية كنانة استعان بأخيه لأمه وقومه القضاة على
 بني بكر بن عبد مناة بن كنانة، واستقر بقومه في موضع قريب من مكة ثم أخرج
 بعض بطون عذرة من مواطنها أثناء هذا الصراع الذي خاضه قصي لكي يبي
 جاء قبيلته قريش ويسلخها نهائياً من بدن أمها كنانة، ومن أمثلة قصور مؤرخينا
 قولهم إن قُصياً سمي بذلك لأنه كان قاصباً عن مواطن أهله.
 قال النويري ناقلاً عن الرُّشاطي - وهو من فقهاء الأندلس - أن قُصياً وقع بينه
 وبين أخيه ربيعة خلاف فعبره بالغبرة، وهم يفترضون أن أهله كانوا يسكنون
 مكة مع أنهم لم يدخلوها إلا على يد قصي! فلما قال ذلك لأمه قالت له: يا
 بني، أنت أكرم منه نفساً وأباً. أنت ابن كلاب بن مرة وقومك بمكة عند البيت
 الحرام، فاجمع قصي على الخروج، فقالت له أمه: أقم حتى يدخل الشهر
 الحرام، فتخرج في حاج العرب، فلما دخل الشهر الحرام خرج مع حاج
 قضاة إلى مكة، فحج وأقام بمكة^(١). وهذه غفلة من الرُّشاطي والنويري، فإن
 قُصياً وآله لم يستقروا في مكة إلا على يد قصي نفسه. وعندما كان قصي صغيراً
 كان يعيش في منازل قبيلته قريش إلى الشمال من مكة مجاورين لمنازل أبناء
 عمومته العذريين القضاة. وبلاحظ هذا أن النص يقول إن قُصياً خرج
 مع ركب حجاج قضاة مما يدل على أن الصلة كانت وثيقة بين مروع قريش
 التي انتسب إليه قصي ومروع قضاة

(١) النويري نهاية الأرب ٢١/١٦

وندع هذه الأقاصيص كلها لنقول إن قُصياً بن كلاب ولد ونشأ في
 المنار التي وصل إليها فرع كنانة الذي أصبح يسمى قريشاً في رحلته الطويلة
 من بلاد قضاة جنوبي الشام إلى الحجاز وكانت منار قريش هذه وهي
 بطون كعب بن لؤي وعامر بن لؤي قد حالقت بعض بطون بني عُدرة من
 قضاة مثل ضنة قبيلة أحيه لأمه حرام بن ربيعة بن ضنة، وتحكى الاثنان من
 اخراج بعض بطون قضاة من منازلها ليتوسعا فيها، وفي هذا الوقت انفصل
 قصي بن كلاب بقومه قريش عن كنانة وتوسع كذلك في أراضي بني عبد مناة
 ابن كنانة، واقترب بقومه من مكة.

الصراع بين قصي وخزاعة :

في ذلك الحين كانت خزاعة سيدة مكة، وقد سبق أن ذكرنا أن
 الخزاعين تفرعوا فيما يقول الرواة عن أزد شنؤة أو أزد السراة، وأن أصلهم من
 اليمن، وقد رأينا في الفقرة التي ادناها على خزاعة أننا لا نستطيع أن نقطع
 بهذا الأصل اليمني لخزاعة ولا نستطيع أن ننفيه أيضاً. والذي يهمنا على أي
 حال هنا ليس أصل خزاعة وإنما هو أمر سيطرتها على مكة، فقد غلبت
 الجرميين عليها وأخرجتهم منها. وسواء أكان استيلاء خزاعة على مكة قد تم
 بعد حرب أم تم سلمياً باتفاق الحيين فإن النصوص تذكر أن رئيس خزاعة وهو
 ربيعة بن حارثة تزوج فُهيرة بنت الحارث بن مضااض الجرهمي. وأنجب منها ولداً
 يسمى عمرو بن ربيعة وهو لُحَي بن قمعة بن مضر بن نزار على رأي أو
 ابن حارثة بن عمرو مزيقياء على رأي ثان أو عامر بن قمعة على رأي ثالث^(١)،
 وكان ذلك قبل دخول خزاعة مكة وقد أصبح لعمرو بن عامر بن ربيعة
 (أي لُحَي) الحق في أن يرث مفاتيح الكعبة من بيت الحارث بن مضااض
 الجرهمي، ويبدو أن الحارث هذا لم ينحسب من الأولاد إلا فُهيرة هذه، وإلا

(١) انظر جدول أسلاف خزاعة والفقرة التي ادناها على خزاعة في الفصل الأول

فكيف صار إلى روجها مفتاح الكعبة؟ وتقول النصوص إن جرهم كانت قد طغت وبعث فأناها الله سبحانه . وهذا طبعاً قصص فإن الله لا يعذب قوماً أو يبيدهم بأنهم ما لم يبعث رسولاً . وذلك نص القرآن ولم يسمع عن رسول أرسل إلى حرهم فعصته بحق عليها العذاب . ولكن الحقيقة المسطّقة التي يقبلها المؤرخ هي أن الخراعيين قصوا على الحرهم بعد أن انتزعوا منهم مكة ولا نستطيع القول إن جرهم بادت تماماً كما يقول الرواة ، إنما المعقول أنها غلبت على أمرها وحلت محلها خزاعة ، وذابت بقايا الجرهميين في الغالبين من خزاعة وأحلافهم ، وليس من الصواب أن نركز على أهمية مفتاح الكعبة وسدانتها من الآن . لأن الحقيقة أن أهمية الكعبة وتنظيم العبادات حولها والحج المنظم إليها كل ذلك تم على يد قصي بن كلاب نفسه وخلفائه حتى عبد المطلب بن هاشم كما سرى . والغالب أن الكعبة كانت إذ ذاك بناء غير مسقوف يحيط بالحجر الأسود . وكان بعض العرب يحجون إلى الكعبة وهي في صورتها هذه ، ومن استولى على مكة كان عليه أن يُعنى ببيكة وهي الموضع الذي تقوم الكعبة والحجر الأسود في وسطه ، وستحدث عن الكعبة والحجر الأسود فيما بعد .

وهناك رواية يرويها الزبير بن بكار تقول إن ولاية البيت قبل خزاعة كانت لمضر بن إباد . والزبير بن بكار من القائلين بأن خزاعة ترجع في نسبها إلى إباد بن مضر عن طريق عك بن معد بن عدنان . وهذه الرواية تقول إن أصحاب مكة الأولين كانوا من إباد بن نزار بن معد بن عدنان . ثم نيزاع إباداً مضر ابن أخيه نزار وغلبت إباد ، ورضيت إباد أن تخرج من مكة شريطة أن نساء مضر المتروحات من إباديين لمن الحق في أن يلحقن بمضر إذا أردن ، ومن بين المصريات اللاتي عُدن لمضر امرأة من خزاعة تسمى قُدّامة وكانت إباد قبل معادرتها مكة قد دسّت الحجر الأسود في موضع أحفته عن الناس قبل رحيلها لأنها لم تستطع حمله معها وكانت قُدّامة الخزاعية تعرف موضع الحجر ، فأبلغت به قومها وقالت لهم . قولوا لمضر إننا ندفعهم على موضع الحجر إذا هم تركوا لنا .

أي للحزاعيين - سدانة البيت ووافق المضربون، وهكذا احتفظت خزاعة بسدانة البيت حتى دخول قصي مكة^(١). وهناك رواية ثالثة تقول. إن الذين أخرجوا خزاعة من مكة كانوا بني عبد مناة بن كنانة وبني غبشان الخزاعيين.

قصي يستولي على مكة :

وصل قصي بقومه قريش إدن إلى قرب مكة متحالفاً مع بعض بطون بني عذرة القضاة ومعادياً لبني عبد مناة بن كنانة. وكان قصي رجلاً طموحاً تنبه إلى أهمية مكة والحرم فيها، فاستقر رأيه على أن ينتزع مكة وبكة والبيت والحجر من خزاعة. وتذهب النصوص إلى أن خزاعة هي التي أفسدت ملة إبراهيم وأدخلت عبادة الأوثان إلى مكة، ويقولون إن عمرو بن ربيعة الخزاعي وهو خُفي، هو الذي أتى بهبل ووضع في الكعبة. ولكن هناك كذلك من يقولون إن الذي أتى بهبل كان خزيمه بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وربما كانت هذه الرواية الأخيرة أقرب إلى القبول. لأن هُبَل إله أصله فينيقي (إله بعل) وما دامت كنانة قد أتت من الشام في جملة من أتى من أولاد معد بن عدنان فتكون هي التي أتت معها بهذا المعبود الوثني. ويؤيد ذلك أن ابن الكلبي يقول إن هُبَل كان يسمى هبل خزيمه، أما عمرو بن عامر بن ربيعة الخزاعي وهو خُفي فالغالب أنه أتى من الجنوب، ربما من اليمن أو من داخل الجزيرة حيث لا وجود لإله اسمه منسوب إلى بعل الفينيقي.

وتمكن قصي من اجتماع له من قريش وهم أبناء كعب وعامر بن لؤي بن غالب ومن انضم إليه من قوم أخيه رزاح بن ربيعة العذري من احتلال مكة

(١) الصاسي : شفاء العرام بأخبار البلد الحرام ج ٢ / ص ٢٦ وما يليها، وتاريخ العقرب ٢٣٨/١

- محمد بن حبيب السادة، الملقب في تاريخ قريش بتحقيق حورشيد أحمد فاروق حيدر آباد الدكر ١٩٦٤ ص ٣٤٤

- القصاعي، بسط النجوم العوالي القاهرة ١٣٨٠ هـ ج ١/ ١٨٣

واخراج حراة مها، ودخلت بطون كعب وعامر مكة واستقرت بداخلها أي ببطحائها فسموا الأبطحيون، وانضم إليهم من حالهم ودخل معهم من بني عذرة القضاعيين. ويطون كعب وعامر بن لؤي كانت إذ ذاك كثيرة، فهي تشمل بني مرة وبني هُصيص وبني غدي أبناء كعب بن لؤي، وبني كلاب بن مرة (رهط قصي) بني سُرير وبني القلمس وبني تيم بن مرة وبني يقطعة بن مرة وهم محزوم.

ويضاف إليهم بنو زهرة بن كلاب أبناء عم قصي بن كلاب. وأراد قصي أن يكثر جمعه فاستدعى إلى مكة بني فهر بن مالك بن النضر، وهم فروع فهر ابن مالك بن النضر التي احتفظت باسم فهر وهم:

بنو الحارث وبنو محارب بن فهر وفروعهم.
وبنو محارب وبنو الحارث هم أبناء فهر بن مالك بن النضر.
وبنو تيم بن غالب وهو تيم الأدرم. وبنو خزيمة وبنو سعد وهم بُنانة، وبنو الحارث بن لؤي.

وهؤلاء هم قريش الظواهر الذين يطلق عليهم في مجموعهم اسم فهر.

وقد نزل هؤلاء حول مكة وظلوا بدواً في مجموعهم وإن كانوا حلفاء لقريش وجزءاً منها. فالفهريون جميعاً قرشيون، ولكن القرشيين ليسوا فهرين إلا من ناحية انحدرهم من فهر بن مالك. ولكن هذا الفريق من بني النضر بن خزيمة بدأ انفصاله بنسبه وتسميته بقريش من أيام النضر بنفسه وإن كان الانفصال قد حدث في أيام فهر بن مالك. ولزم اسم قريش لؤي بن غالب وخاصة فرعاه كعب وعامر.

ويبدو أن الحرب بين قصي ومن معه من قريش، ومن بني عذرة القضاعيين من ناحية والخراعيين من ناحية أخرى كانت - طويلة عيية، قال اليعقوبي: فاقتلوا قتالاً شديداً بالأبطح (أي سطحاء مكة) حتى كثرت القتلى في

العريقين ثم تداعوا الى الصلح، وأن يَحْكُمَ بينهم رجل من العرب فيما اختلفوا فيه، فحكّموا يعمر بن كعب بن ليث بن بكر بن كنانة فقضى بينهم بأن قصياً أولى بالبيت وأمر مكة من خزاعة، وأن كل دم أصابه قصي من خزاعة وبني بكر موصوع يشدحه تحت قدميه، وإن ما أصابت خزاعة وسو بكر من قريش فقيه الدية، فودوا خمساً وعشرين بذة وثلاثين خرجاً^(١) وإن يُخْلُوا ما بين قصي والبيت ومكة، فسمي يَغْمُرُ الشُداح^(٢).

وهذا حكم في غاية القسوة على خزاعة، مما يدل على أنها غلبت في الحرب فكان عليها أن تترك مكة وتتحمل الغُرم كله. والغريب أن يصدر هذا الحكم من كناني من بني كعب بن ليث بن بكر بن خزاعة، لأننا سنرى بعد، أن بني كعب كانوا من ألد أعداء بني هاشم بن عبد مناف وهم قادة قريش

وكان قصي رجل سياسة وحرب، فعرف بعد انتصاره كيف يستفيد منه فاحتل مكة بقومه واتخذها منزلاً وكان الخزاعيون ومن قبلهم لا يسكنون مكة بل يكونون فيها بالنهار فقط، أما في الليل فيكونون في خيامهم. قال اليعقوبي: «ولم يكن بمكة بيت (كذا في الأصل، والأصح: مبيت)، وإنما كانوا يكونون بها نهاراً. فإذا أمسوا خرجوا، فلما جمع قصي قريشاً - وكان أدهى من رؤي - من العرب - أنزل قريشاً الحرم، وجمعهم ليلاً، وأصبح بهم حول الكعبة فمشت إليه أشراف كنانة وقالوا: إن هذا عظيم عند العرب ولو تركناك ما تركتك العرب، فقال: والله ما أخرج منه فثبت^(٣)».

ومعنى هذه الرواية - إذا صدقت - أن قصياً وقومه كانوا أول من اتخذ مكة ومكة من حولها سكناً ومقاماً، وليس ذلك بمُستغرب لأن المكان لم يكن به من عيون الماء شيء، وقصبي كما سنرى أوتي ملكة التعرف على مواقع الأبار،

(١) في الأصل حرجاً وهو تصحيف والأصح حرج كما أنشأه ويراد به وعاء يوضع فيه الطعام

(٢) اليعقوبي تاريخ ٢٣٨/١

(٣) اليعقوبي، تاريخ. ٢٣٨/١ - ٢٣٩

وهي ملكة توحيد في بعض الناس، وخاصة أهل المناطق الجافة وسرى أن قصياً كشف مواقع آثار في موضع مكة، ولكن حميده عند المطلب سيكون أكبر مه ملكة في هذا الشأن فيكشف موقع زمزم وغيرها، وحدير بالذكر هنا أن التعرف على مواضع الماء كان من الصفات التي تؤهل الرجل ليسود قومه إذا كان من طلاب السيادة - والرياسة ثم يقول اليعقوبي . ونحن نتابع هنا روايته لأنها مختصرة جامعة للكثير مما يتفرق في المطولات - وحضر الحج، فقال لقریش: لقد حضر الحج، وقد سَمِعتُ العرب ما صنعتم و هم لكم معظمون ولا أعلم مَكْرَمَةً عند العرب أعظم من الطعام فليخرج كل رجل من ماله خرجاً، ففعلوا، فجمع من ذلك شيئاً كثيراً. فلما جاء أوائل الحج نحر على كل طريق من طرق مكة^(١) جُزُورا، ونحر بمكة، وجعل حظيرة، فجعل فيها الطعام من الخبز واللحم، وسقى الماء واللبن، وغدا على البيت فجعل له مفتاحاً وحَجَبَه وحال بين خِزَاعَة وبينه، فبِت البيت في يد قهي ثم بنى داره بمكة وهي أول دار بنيت بمكة، وهي دار الندوة^(٢).

وهذه العبارة حافلة بالمعاني، وهي تصور لنا الخطوات الكبيرة الخامسة التي قام بها هذا الرجل الطموح البعيد النظر لبناء مجد قریش وعمران مكة، فقد كان موضع مكة غير مسكون أو مسكوناً بقليل من الناس، فعمره قصي بقومه ولا شك في أنه كان هناك بعض السكان في الموضع، ولكن قصة هاجر بعد ميلاد ابنها اسماعيل هناك تدل على أن الموضع كان شبه مهجور، وأن الناس كانوا لا يُلمون به إلا نهاراً للتبرك بالحجر الأسود وكانوا لا يلمون به كل يوم بل في بعض الأيام بدليل أن هاجر عندما سمعت بين الصفا والمروة بحثاً عن الماء لأنها اسماعيل لم تجد انساناً يهب لموها. وفي أول الأمر كانت شر رمرم معروفة ولكن سمرى في تاريخ عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي

(١) المراد عن كل طريق من الطرق المؤدية إلى مكة

(٢) اليعقوبي، تاريخ ٢٣٩/١

أن الجرهميين طعموا البشر قبل حروجهم ويفهم من قولهم أن قصياً أطمع الطعام وسقى الماء للحجاج أنه وجد مواضع للآثار وكانت فكرته في تقديم الطعام للحاج فكرة ذكية اجتذبت الناس للحج إلى البيت ببكة ومكة وسرى بعد قليل أن حاج البيت عندما يكثرون سيقوم قصي بهدم سائنه القديم وساء منى جديد. وعندما تمكن قصي من مكة حال بين حراة ودحوها إلا بأذنه وإذن قريش وبني لهمة فيها داراً وأنشأ دار الندوة لكي يتشاور فيها مع قومه فيما أهمهم من الأمور وسرى عند كلامنا على الأحابيش أن عبد مناف بن قصي سيخطو خطوة أخرى كبيرة لتدعيم مركز قريش في مكة.

وفهم من رواية اليعقوبي أن قصياً بعد أن تمكن من أمر مكة اتجه إلى استتلاف خزاعة التي اتخذت مساكنها شمالي مكة وأخذت تمتد على الطريق منها إلى المدينة فتزوج حُبي بنت حُلَيْل بن حُبْشبة سيد خزاعة، فكان هذا أول الارتباط بين قريش وخزاعة بعد الذي كان بينهم من الحرب. وقبل أن يموت حُلَيْل أقر لقصي برياسة مكة وحجابة البيت، وحُبي أنجبت لقصي أبناءه الأربعة الكبار عبد مناف وعبد الدار وعبد العزى وعبد قصي.

ولبعض المؤرخين رواية أخرى قصصية الطابع، نذكرها هنا لمجرد الإحاطة بها لا لأننا نفضلها على الرواية التاريخية التي نتابعها الآن. وقد أوردها اليعقوبي أيضاً وقال: إن قصياً لما تزوج حُبي بنت حُلَيْل بن حُبْشبة الخزاعي وولدت له أولاده الأربعة الذين ذكرناهم دفع حُلَيْل بن حُبْشبة المفتاح إلى أبي غبشان وهو سليمان بن عمرو بن بؤى بن ملكان بن أفضى بن حارثة بن عمرو ابن عامر الخزاعي فاشتراه قصي منه وولاية البيت نزل وقعود (ناقعة عحوز) فقيل: أحسر (أو أخسر) من صعقة أبي غبشان، ووثت خزاعة فقالت: لا نرضى عما صنع أبو غبشان، فوقعت بينهم الحرب، فقال بعضهم:

أبو غبشان أظلم من قصي وأظلم من بني مھر خزاعة

لَا تُلْحُوا قُصْبًا فِي شِرَاهٍ وَلَوْ مَوَا شَيْخَكُمْ إِذْ كَانَ مَاعَهُ^(١)

ويوجز البعقري بعد ذلك أهم أعمال قصي، وسوحرها فيها يلي من كلامه

١ - أن قُصْبًا ساد مكة وحكمها وتولى أمر البطون التي أيدته وأمرها في بطن مكة أو بطحاتها فعرفت هذه البطون بالاطمحين أو قريش البطاح، وكانوا متفرقين في رؤوس الجبال، فقسم بطن مكة على تلك البطون أرباعاً، ولهذا سمي قصي بالمُجْمَع. وقريش البطاح كما قلنا هي بطون كنانة التي استمر فيها نسب قريش ومعظمها بطون كعب بن لؤي وأهمها هنا:

١ - كعب بن لؤي

٢ - عامر بن لؤي

٣ - مرة بن كعب

٤ - مُضَيْص بن كعب بفرعيهم:

٥ - سهم بن مُضَيْص

٦ - وجم بن مُضَيْص

٧ - تميم بن مرة

٨ - بقطلة بن مرة، وهم مخزوم

البطون والبيوت التي انحدرت من قصي وهي:

٩ - بنو عبد مناف بن قصي

١٠ - بنو عبد الدار بن قصي

١١ - بنو عبد العزى بن قصي

١٢ - بنو عبد بن قصي

١٣ - ثم سوزهرة بن قصي ومن نعرع عنهم وهم:

١٤ - بنو عبد الحارث بن زهرة

(١) البعقري، تاريخ ٣٤٠/١

١٥ - بنو عبد مناف بن زهرة بفرعهم : وهب بن عبد مناف بن زهرة ،
وهب بن عبد مناف بن زهرة .

ومن عبد مناف بن قريش يتفرع :

١٦ - بنو هاشم بن عبد مناف

١٧ - بنو المطلب بن عبد مناف

١٨ - بنو عبد شمس بن عبد مناف

١٩ - بنو نوفل بن عبد مناف

وفي أيام قصي اقتضرت قريش البطاح على البطون من ١ إلى ١٩
وانضمت إلى قريش البطاح بيوت بني ضنّة من بني عذرة وهم قوم حرام بن
ربيعة بن ضنّة أخي قصي لأمه .

ولكن هؤلاء ذابوا في جماعة قريش البطاح ، ولا بد أنه اندرج في قريش
البطاح من بقي في مكة من جرهم ومن خزاعة ، وسرى فيها بعد أن بقايا قوبة
من هؤلاء وأولئك ظلوا أقوياء في مكة وسيكون لهم دور في تاريخ قريش ومكة .

وعلى نداء قصي أقبلت بقية فروع كنانة التي انحدرت عن فهر وظلت
تحمل النسبة الفهرية وهؤلاء هم :

١ - بنو محارب بن فهر

٢ - بنو الحارث بن فهر

٣ - بنو تميم بن غالب وهو تيم الأدرم

٤ - بعض بني عامر بن لؤي

وهؤلاء هم قريش الطواهر ، وقد ظلوا سدوا في حين أن قريش البطاح
أصبحوا أنصاف بدو أو أنصاف حصر Semi-Sedentaries مع الرمس

٢ - أن قصياً بعد أن استقر بقومه من قريش السطاح بطر مكة . بنى لنفسه في

بطن مكة بيتاً وتمعه بقية بيوت قريش الطلاح مساوا البيوت فانتهى بذلك عصر البداوة في تاريخهم

وكان بطن مكة كثير الشجر القصير مثل العضاة والطرفاء والأدحر، وكان الناس يتحاشون قطعه، فبدأ قصي فقطع الشجر بيده، وتبعه الناس فاتسع العمران بمكة قال اليعقوبي وكانت قريش قبل متفرقة الدار قليلة العمر ذليلة البقاع، حتى جمع الله ألفتها وأكرم دارها وأعز مثاها وقسمها بين قريش.

٣ - فلما استقر السلطان لقصي في مكة، واستقامت له الأمور ونفى خزاعة، هدم البيت، ثم بناء بنياناً لم يبنه أحد قبله. وكان طول جدرانها تسعة أذرع، فجعله ثمانية عشر ذراعاً، وسقفها بخشب الدوم وجريد النخل.

٤ - وبني دار الندوة. وكان لا ينكح رجل من قريش ولا يتشاورون في أمر، ولا يعقدون لواء للحرب، ولا يُقدِّرون غلاماً إلا في دار الندوة.

٥ - وكانت قريش في حياته وبعد وفاته، يرون أمره كالدين المتبع.

٦ - وكان أول من حفر بمكة بعد اسماعيل بن ابراهيم، فحفر «المجول» في أيام حياته وبعد وفاته، ويقال إنها في دار أم هانئ بنت أبي طالب.

٧ - وكان قصي أول من سعى الدابة الفرس. وكانت له دابة يقال لها العقاب بالسوداء.

٨ - وكان لقصي من الولد:

عبد مناف، وكان يدعى القمَر أو هو السيد المهر. واسمه المخيرة.

وعبد الدار

وعبد العزى

وعبد قصي

ويقال إن قصياً قال: سَمَّيْتُ اثْنَيْنِ بِالْهَي، وآخر بداري وآخر سمِّي

٩ - وقسم قصي بين ولده:

محمل السقاية والرئاسة لعبد مناف

والدار لعبد الدار

والرهادة لعبد العري

وحافق الوادي لعبد قصي

١٠ - وقال قصي لولده: من عظم لثياً شاركه في لؤمه، ومن استحسن مستفحاً

شركه فيه، ومن لم تصلحه كرامتكم فداووه بهوانه، فالدواء يحسم الداء.

١١ - ومات قصي فدفن بالحجون^(١).

وقد أثبت هنا برواية البغوي عن أعمال قصي، لأنها تجمع أهم أعماله في إيجاز وسأضيف عند دراسة هذا النص أهم ما نجد في مراجعنا الأخرى.

والحق أن الأعمال التي قام بها قصي هي الأساس الذي قام عليه مجد قريش ومكة بعد ذلك، فقد كان قائداً عسكرياً وسياسياً ومفكراً بعيد الغور، وكان إلى جانب ذلك يتميز بميزة اكتشاف مواضع الآبار، وكان رجل تنظيم وإدارة.

وقد أشرنا إلى أن قصياً استعان ببعض بطون قضاة، وخاصة من بني عذرة على ما طلب من الاستيلاء على مكة، والطبري يؤيد ذلك ولكنه يقول هنا إن قصياً عندما أراد دخول مكة دخلها ببني النضر جميعاً وأحياء من قضاة (هم من بني عذرة) والذي نعرفه أن الذين دخلوا مع قصي كانوا القرشيين من بني النضر، أما الفهريون فقد أتوا بعد ذلك وأصبحوا قريش الطواهر ويكرر

(١) البغوي، تاريخ ٢٤٠/١ - ٢٤١

وانظر نص الطبري ٢٥٤/٢ وما يليها

الطبري حكاية بيع أبي غبشان لمفتاح الكعبة وهو سليم بن عمرو بن بُوي بن ملكان بن أفضى بن عامر بن أفضى بن قمعة بن الياس بن مضر. وسنرى في كلامنا على خزاعة أن أبا غبشان خزاعي، فالقول بأنه من بني أفضى ربط مفتعل لخزاعة إلى شجرة نسب الياس بن مضر، وهي الشجرة التي انحدرت منها قريش والحقيقة أن خزاعة مركبة الأصل كما رأينا، وعامة السابيين يجهلونها من اليمن وواضح أن حكاية بيع أبي غبشان لمفتاح البيت سرق حمر وقعود، رواية فيها ازراء بخزاعة وإظهار لامتياز قريش عليها. ويردد الطبري ذلك البيت الذي نجده في كل المراجع في تسمية قصي بالمُجمَع :

أبوكم قصي كان يُدعى مُجمَعاً به جمع الله القبائل من فهر

والمراد بفهر هنا بقية بطون قريش من غير أبناء لؤي بن غالب.

ويذكر الطبري هنا حكاية قبيلة صوفة التي كانت تشرف على مناسك الحج وتسيء معاملته الخبيث. وحكاية صوفة هذه كلها أسطورة، لأن صوفة فيما يقول النسابة هم بنو مُز بن أد بن طابخة، وطابخة هو مر بن أد بن الياس ابن مضر، ومن بني مر بن أد قبائل كثيرة منها تميم، ولا ندري ما الذي أنى بطابخة أي مر بن أد بن الياس بن مضر هنا، مع أن المضربة لم يعرفوا مكة إلا على يد قصي - من أبناء النضر الذي نتحدث عنه. ومن الغريب أن كل مراجعنا تقبل هذه الأسطورة، بل إن ابن حزم يضيف هنا: «وأما صوفة فإنهم كانوا يميزون بالحاج، لا يجوز أحد حتى يجوز وإلى ذلك منهم ثم انفرسوا عن آخرهم في الجاهلية فورث ذلك آل صفوان بن شجنة من بني سعد بن زيد صاة بن تميم»^(١) وهذه حكاية مخترعة أيضاً ويطول بنا الأمر لو مضينا ساقش أقوال النسابة، ومن المؤكد أن مناسك الحج لم تنظم على النحو الذي عرفه الجاهليون إلا على أيدي القرشيين ابتداء من قصي بل إن عبد المطلب هو

(١) ابن حزم، المحممة ٢٠٦.

الذي سيحدد بصفة دقيقة ماسك الحج في الجاهلية كما سئرى^(١) أما قبل قصي فلم يكن لأي قرشي أو كناني أو عدناني أي دور في تاريخ الحج

ويقول الطبري في روايته إن قصياً وأحلافه من كنانة وقصاعة تخبروا وقت الحج للهجوم . فعندما اشتد تعسف رجال قبيلة صوفة في تقديم أنفسهم على الناس في النفر وبلغ ضيق الناس مذاه انقض قصي ومن معه وغلب صوفة على المناسك وانتزعها لنفسه وعندما رأت خزاعة وبنو بكر بن عبد مساة (من كنانة) توجسوا أن يحول بينهم وبين الكعبة ، فبادؤوه الحرب التي انتهت بتحكيم يعمر ابن عوف «من بني كعب بن لئث بن بكر بن عبد مناة» الذي عرف بالشداخ ، فحكم لقصي على ما رويناه^(٢) .

بذلك أصبح قصي سيد مكة ودخل البلد في ولاية قريش ، وكان قصي رجلاً ذكياً فاتحاً بعد نصره إلى استئلاف القبائل الضاربة حول مكة . قال ابن اسحاق برواية الطبري «فأقام قصي بمكة حل شرفه ومترلته في قومه ، لا ينازع في شيء من أمر مكة إلا أنه قد أقر للعرب في شأن حجهم ما كانوا عليه ، وذلك لأنه كان يراه ديناً على نفسه لا ينبغي تغييره .

- وكانت صوفة على ما كانت عليه حتى انقضت صوفة فصار ذلك من أمرهم إلى صفوان بن الحارث بن شحنة ورائة .
- وكانت عدوان على ما كانت عليه (وعدوان من قيس بن عيلان) .
- وكانت النساء من بني مالك بن كنانة على ما كانوا عليه .
- ومرة بن عوف على ما كانوا عليه .
- فلم يزالوا على ذلك حتى قام الإسلام ، فهدم الله به ذلك كله^(٣)

J. Wellhausen, Reste arabische Heidentums, p. 68

(١)

Snouck Hurgronje, Net mekkanische Feest, Leiden 1880

(٢) الطبري، تاريخ ٢٥٨/٢

(٣) الطبري، تاريخ ٢٥٩/٢

ثم يذكر ابن اسحاق إنشاء قصي لدار الندوة ومن سياق الكلام نفهم ان دار الندوة والمشاركة فيها لم تكن قاصرة على أنصار قصي من القرشيين والقضاعيين وبني كنانة بل اشترك فيها الجميع ، فكان شيوخ قبائل الموصل جميعاً يلتقون فيها للتشاور واتخاذ ما يرون من الرأي .

ويحكى ابن اسحاق عبد الطري أيضاً كيف أن قصياً عندما كبرت منه رأى أن يترك ولده وهو عبد الدار لا يصلح لوراثته مركزه وأنه كان يفضل عليه ابنه عبد مناف فاختاره لوراثته ولكنه عوض عبد الدار خيراً فأعطاه مظاهر الديانة فجعل إليه مفتاح الكعبة وجعل له اللواء في الحرب والسقاية والرفادة ، وجعله رئيس دار الندوة . ومعنى ذلك أن عبد الدار بن قصي أصبح بعد قصي شيخاً شرفياً للجماعة في حين أن السلطان الفعلي صار لعبد مناف ، وهذا أيضاً دليل على ذكاء قصي وبعد نظره السياسي .

واذن فهذا الرجل قصي بن كلاب هو الذي وضع أساس قوة قريش ومكانتها ، فهو الذي أقرها في مكة ونقلها من البداوة إلى الحضارة والاستقرار ، ووضع لها من عنده نظاماً شورياً فيه إنصاف للقبائل جميعاً ، وهو كذلك صاحب الفضل في تنظيم أمور مكة وتقسيمها رباعاً بين بيوت أبنائه وحلفائه ، ومن أكبر فضائله تلك الشورى التي سار عليها وانفرد بها من بين رؤساء العرب قبل الإسلام وتميزت بها قريش عن الكثير من زعماء العرب بعد الإسلام .

وسرى أن كل عمل من أعمال قصي سيتممه ويكمله واحد من خلفائه وسرى في النهاية أن قريشاً أقام بناءها قبل رسول الله ﷺ أربعة رجال : رجل سياسة وحرب وتنظيم وهو قصي ورجل سياسة وتنظيم وسلام وهو عبد مناف ورجل تجارة ومال هو هاشم بن عبد مناف ، ورجل دين واتجاه روحي غالب هو عبد المطلب بن هاشم .

عبد مناف بن قصي أكمل البناء السياسي والاجتماعي لقريش

بعد أن توفي قصي خلفه في الرياسة ابنه عبد مناف، فسار في طريقه وأكمل ما استطاع من عمله السياسي. وكان عبد مناف رجل سياسة وتعمير، فقد انتهت مرحلة الحرب وأن أُستكمل العمل عن طريق السياسة والاستتلاف. قال ابن سعد في طبقاته: «أخبرنا محمد بن هشام بن السائب الكلبي عن أبيه قال: لما هلك قصي بن كلاب قام عبد مناف بن قصي على أمر قصي بعده، وأمر قريش إليه واختط بمكة رباعاً بعد الذي كان قصي قطع لقومه^(١)».

ونقرأ عند ابن هشام: قال ابن اسحاق: ثم إن قصي بن كلاب هلك، فأقام أمره في قومه وفي غيرهم بنوه من بعده، فاخططوا بمكة رباعاً - بعد الذي كان قطع لقومه بها، فكانوا يُقَطِّعُونَهَا في غيرهم من حلفائهم ويبيعونها، فأقامت على ذلك قريش معهم، ليس بينهم اختلاف ولا تنازع، ثم إن بني عبد مناف بن قصي: عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفلاً أجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدي بني عبد الدار بن قصي مما كان قصي جعل إلى عبد الدار من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة، ورأوا أنهم أولى بذلك فهم لشرفهم عليهم وفضلهم في قومهم، ففترقت عند ذلك قريش، فكانت طائفة مع بني عبد مناف على رأيهم، يرون أنهم أحق به من بني عبد الدار لمكانتهم من قومهم. وكانت طائفة مع بني عبد الدار، يرون ألا ينزع منهم ما كان قصي جعل إليهم^(٢)».

ويبدو أن قول محمد بن السائب الكلبي أن عبد مناف تولى أمر قريش

(١) طبقات ابن سعد، القسم الأول ٤٢/١

(٢) ابن هشام السيرة ١٣٨/١

ومكة بعد أبيه قصي أصبح مما يقوله ابن اسحاق من أن أنباء قصي الأربعة تولوا أمر مكة معاً لأن اليعقوبي يقول إن عبد مناف كان يلقب بالقمر، وهو السيد النهر: وهذه تسميات تدل على أنه كان أعلى من بقية إخوته مكانة. ويؤيد ذلك قول اليعقوبي بعد ذلك. وقسم قصي بين ولده فجعل الرقادة والرياسة (كدا في الأصل المطبوع وهو تحريف إد المراد السدانة) والدار لعبد الدار وحافتي الوادي لعبد قصي^(١) وهذه العبارة الأخيرة غير مفهومة فنحن لا نعلم المراد (بحافتي الوادي).

ثم يورد اليعقوبي بعد ذلك خبراً طويلاً نفهم منه كيف أن عبد مناف صار بالفعل رئيس مكة بعد أبيه قصي واجتهد في اكمال عمله السياسي. قال: ومات قصي هذفن بالحجون، ورأس عبد مناف بن قصي، وجعل قدره وعظم شرفه. ولما كبر أمر عبد مناف ابنه جاءته خزاعة وبنو الحارث بن عبد مناة (من كنانة) يسألونه الخلف ليعزوا به فعقد معهم الحلف الذي يقال له حلف الأحابيش. وكان مدبر بني كنانة الذي سأل عبد مناف عقد الحلف عمرو بن هلال بن معيص بن عامر. وكان تحالف الأحابيش على الركن: يقوم رجل من قريش وآخر من الأحابيش، فيضعان أيديهما على الركن، فيحلفان بالله القاتل^(٢) وحرمة هذا البيت والمقام والركن والشهر الحرام على النصر على الخلق جميعاً، حتى يرث الله الأرض ومن عليها^(٣)، أو على التعاقد وعلى التعاون على كل من كادهم من الناس جميعاً ما بلّ بحر صوفه وما قام حرى وتبير، وما طلعت شمس من مشرقها إلى يوم القيامة^(٤). فسمي حلف الأحابيش. فولد عبد مناف ابن قصي هاشماً واسمه عمرو. . وعبد شمس والمطلب ونوفلا وأنا عمرو وحية

(١) اليعقوبي، ٢٤١/١

(٢) كدا في الأصل المطبوع وهو وصف غير مألوف أو مقبول حتى للغة في الحاملية.

(٣) هـا معنى اسلامي لم يعرفه الحامليون وطى انه مدسوس

(٤) اليعقوبي، ٢٤١

وتماضير وأم الأحثم وأم سفيان وهالة وقلابة، وأمههم جميعاً (الاسودلا وأما عمرو) عاتكة ست مرة بن هلال بن فالح بن ذكوان بن ثعلبة بن هشبة بن سليم، فولدت له هؤلاء، وهي التي حرّث جلف الأحابيش (١).

وهذه صورة طريفة عن كيفية عقد الأحلاف بين العرب في الجاهلية وعن الأحابيش نفراً عند المصعب الزبيري في سب قريش. وأما الهون بن خزيمة فهم عضل وديش والقارة، بنو يثيع بن الهون؛ وهم وبطنان من خزاعة يقال لهما الحيا والمصطلق حلفاء لبني الحارث بن عبد مناة بن كنانة وهم كلهم يقال لهم الأحابيش، أحابيش قريش لأن قريشاً حالفت بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة على بكر بن عبد مناة (بن كنانة)، فهم وأحلافهم حلفاء قريش، وليأهم عنى كعب بن مالك الأنصاري في قوله في وقعة أحد:

وجئنا إلى موج من البحر وسطه أحابيش منهم حاسر ومقنع (٢)

وإذن فيكون تكوين الأحابيش كما يلي:

من كنانة: عضل وديش والقارة من بني الهون بن خزيمة وبني الحارث بن عبد مناة بن كنانة.

من خزاعة: الحيا والمصطلق حلفاء بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة.

وذلك هو بيان موضوع الأحابيش الذي أطال الكلام فيه المستشرق هنري لامانس في إحدى دراساته المقدمة المفروضة عن الإسلام والمسلمين. فقد زعم هذا الرجل أن الأحابيش هم قوة من الأحباش أو السود كانت قريش تستعين بهم في حربها لعجزها عن القتال وقد اسحمر هذا الرجل الحاقدة وبحث وفحص وحرّح برأي دحضه بعد ذلك علماء كثيرون ما بين مسلمين

(١) البغوي، تريح ١/٢٤١-٢٤٢

(٢) المصعب الزبيري، سب قريش

وغير مسلمين. فالأحابيش ليسوا أحباشاً وإنما هم بعض قبائل من العرب ومعظمهم من كنانة وحراة انضم بعضها إلى بعض وتحالفت للدفاع عن نفسها، وقد تنصم إليها بطون من بدو تهامة ممن انفصلوا عن قبائلهم، وهذا تفسير وصفهم بأنهم «لا نسب لهم». وعندما استقر قصي بمكة وأقام نظامه على ما بنا، تمكن ابنه عبد مناف من أن يعقد حلفاً مع أولئك الأحابيش الذين أطلق عليهم هذا الاسم لأنهم تحمّش بعضهم إلى بعض، أي تجمعوا، والأحبوش أو الأحبوشة هي الجماعة من البدو ينضم بعضهم إلى بعض ويكونون قوة واحدة للأمن والإغارة والتعاون، ولا علاقة لهم بالأحباش أو الحبش أو السود أو الجند المرتزقة^(١).

وقد استمر حلف الأحابيش مع قريش - فصار يطلق عليهم أحابيش قريش. وتقرأ في أخبار الخندق مثلاً أن قريشاً أقبلت مع أحابيشها. وهذا لا يمنع من القول بأن مكة كان فيها أحباش أو حبشة أي سود يقدون إليها من افريقية ويعيشون فيها ويخدمون أهلها في أغراض الحرب والسلم. وقد اشتهروا بإجادة الرمي بالقناة أي الحربة الطويلة.

وقد كانت جماعة الأحابيش مكوّنة قائمة عندما أقام قصي نظامه في مكة، ولكن حلف قريش مع الأحابيش على يد عبد مناف أعطى مجموعة الأحابيش شخصية وقيمة وكياناً سياسياً، فمن الآن فصاعداً نجد الأحابيش يذكرون كوحدة سياسية عسكرية قائمة بذاتها ولها رئيس يتكلم باسمها. وسيكون الأحابيش على الجملة إلى جانب قريش لأنها اجتهدت دائماً في ربط أولئك الاثنات من القبائل البدوية الصغيرة إليها حتى لا يضطرب الأمن في منطقة

(١) عن الأحابيش والمناقشة في أمرهم انظر

J. Wellhausen, *Mekka vor Mohammad*

H. Lammens, *Les Ahabish et L'organisation militaire de la Mecque au siècle de l'hégire*. *Journal Asiatique*, 1916, PP 425-482

W. Montgomery Watt, *Muhammad at Mekka*, Excursus A PP 154-157

مكة، وسيظل الأحابيش إلى جانب قريش حتى صلح الحديبية فيكون لرئيسهم شأن في المحادثات بين رسول الله ﷺ وأهل مكة ثم سيدخلون في الإسلام بعد ذلك ويكون لهم دور محمود في تأييد أبي بكر عند الردة وهم المذكورون في النصوص إلى أيام خلافة معاوية بن أبي سفيان.

ويعود إلى عبارة اليعقوبي التي ناقشنا منذ حين فنستنتج منها غير ما ذكرنا ما يلي:

- إن عبد مناف ورث أباه قصياً في الرياسة وإنه اتجه إلى اكمال عمل أبيه، فسمح لغير آخر من بطون قريش الظواهر وغيرها بالاستقرار في مكة وأعطاهم أحياء من مكة لكي يكثر بهم جمعه، ومعظم أولئك الداخلين انضم إلى بني قصي واندرج مع الزمن فيهم.

- واتجه بعد ذلك إلى استئلاف خزاعة بعد ما كان من حرب قصي معها وأخراجه إياها من مكة، فاستعاد عبد مناف صداقتها وعقد معها ومع بعض بطون عبد مناة بن كنانة، من فرع عمرو بن عبد مناة - حلفاً على التعاهد والتظاهر، وهذا هو حلف الأحابيش.

- واستعان عبد مناف في ذلك بأمة عاتكة بنت مرة وهي من بني سليم بن منصور، مما يستنتج معه أن بعض بني سليم بن منصور دخلوا في حلف قريش.

- ووصف لنا اليعقوبي كيف كان العرب في الجاهلية يعقدون أحلافهم عند الكعبة. وقد سبق أن علقنا على ذلك.

وحلاصة ذلك أن عبد مناف كان رجل سياسة، فعرف كيف يتألف من كان أبوه قد عاداه من القبائل ويكسب ودها وخاصة خزاعة وبعض بني عبد مناة بن كنانة. وعندما مات عبد مناف وخلعه ابنه هاشم كان مركز قريش

قد استقر في مكة وما حولها وأصبحت صاحبة السيادة والرياسة في تهامة . ولهذا نَعُدُّ عبد مناف من مؤسسي مجد قريش .

هَاشِمُ بْنُ عَبْدِ مَنْفٍ وَبَنَاءُ التَّجَارَةِ الْمَكِّيَّةِ :

ونتفل الآن إلى الرجل الثالث من بناء مجد قريش وقوتها وهو هاشم بن عبد مناف . ونلاحظ أننا نتابع الآن تطور قبيلة واحدة هي قريش لا كما كان الحال قبلاً عندما كنا نؤرخ للوحي بن غالب أو لغالب بن فهر، فهناك الأسماء تشير إلى مجموعات قبلية وتفرعاتها والأسماء التي لدينا هي أسماء زعماء هذه المجموعات فنحن عندما نتكلم عن فهر مثلاً كنا نتكلم عن قبيل قديم لا نعرف زمانه على وجه التحديد، ولهذا فنحن لا نعرف كم من الزمن استلزم بناء مجموعة بني فهر واستقلالها بنفسها عن بقية كنانة وانفرادها باسم قريش تحت لواء غالب بن فهر ومن انضم إليه من الوحدات القبلية الكنانية مثل الحارث بن فهر ومُحَارِبُ بن فهر، وانفصالها عن بقية فروع مالك بن النضر التي انفردت باسم فهر .

وفي كلام اليعقوبي عن هاشم بن عبد مناف عبارة يمر بها الفارسيء دون أن يظفن إلى معناها، ولكن قراءة ثانية لها ربما اعطتنا واحداً من الأسباب التي أدت إلى عقد حلف الأحابيش، قال في ذكر أولاد عبد مناف فولد عبد مناف ابن قصي هاشماً وعبد شمس والمطلب ونوفلاً وأبا عمرو وخيئة ومُخَاضِر وأم الأخشم وأم سفيان وهالة وقلابة، وأمهم جميعاً - إلا نوفلاً وأبا عمرو - هاتكة بنت مرة بن هلال بن فالح بن ذكوان بن ثعلبة بن بهثة بن سليم، فولدت له هؤلاء، وهي التي جُرَّتْ حلف الأحابيش^(١) ومن أسف أن النسخة المطبوعة التي نعتمد عليها تجعل بعد ذلك بياصاً في الأصل، ولو أن الكلام اكتمل لعرفنا شيئاً جديداً عن ذلك الحلف، ولكن العبارة التي أوردناها

(١) اليعقوبي، تاريخ ٢٤١/١

دات معنى بعيد إذا صح تأويلنا: لها: فإن عاتكة المذكورة هنا تنسب إلى بني سليم من منصور من أكبر مجموعات قبس عيلان مضر، وكانت قبائل قبس عيلان قد بدأت تنفس على بني عموميتها المجددة من إلياس بن مصر ما وصلت إليه من قوة واستقرار في الحجاز بعد أسبلاء قصي على مكة، وبدأت بعض فروعها تتسلل إلى الحجاز من الشرق، وصاهر عبد مناف واحدة منها هي بنو سليم بن منصور ليكسيها إلى جانبها أو ليتقي أداها، ولكن بقية قبائل بدو الحجاز شعرت بالخطر وسعت لهذا إلى الارتباط بقريش فكان حلف الأحابيش وأمنت به تلك القبائل الصغيرة، ولكن العداء والحسد بين عرب قبس عيلان على قريش ظل يتزايد حتى كان سبباً من أسباب حرب الفجار كما سنرى.

ولكننا الآن نخرج من عصر الأساطير والقصص الشعبي وندخل في عصر التاريخ ونؤرخ لقبيلة واحدة هي قريش وزعمائها وبناتها ومجدها وقوتها، وكل من سيرد ذكره من فروعها إنما هي بيوت أو عائلات لا قبائل كما يفهم البعض من النصوص، فبقظة بن مرة وهي مجموعة مخزوم - بيت لا قبيلة، وزهرة بن كلاب بيت أو عائلة لا قبيلة، وعبد شمس بن عبد مناف بيت لا قبيلة، وكذلك هاشم بن عبد مناف، وهاشم شخصية تاريخية محددة المعالم وكذلك عبد شمس، وكل منهما رأس بيت أو عائلة من البيوت أو العائلات التي تكونت منها قبيلة قريش التي نؤرخ لها. ولا بد أن ننص على ذلك هنا منعاً للبس ومحاذاة للوقوع في الخطأ في فهم تاريخ قريش، فلا زهرة ولا عبد مناف ولا مخزوم ولا عبد شمس كانت قبائل، وإنما هي بيوت وعائلات من قريش. وهاشم عندما خلف عبد مناف في رئاسة قريش أصبح رئيساً لهذه البيوت كلها، ولكن رياسته لم تكن رئاسة ملك أو سلطان أو قوة عالية بل رئاسة تفاهم واتلاف على المعنى الخاص لرياسات القبائل كما سحدد ذلك تفصيلاً عند كلامنا على عبد المطلب بن هاشم

ويدو أن هاشماً لم يصل إلى رياسة قریش بعد عبد مناف دون معارضة بعض إخوانه وبعض رؤساء البيوت القرشية الأخرى، وذلك طبعاً لأن ریاسات القبائل لم تكن حقاً ليت بعينه ولا هي كانت تراثاً، وإنما كان يصل إلى الرياسة من يشاء أنه أحق بها على أساس استعداده المتصححة في سبيل القبيلة وقدرته على الوفاء بالتزامات الرياسة ومسئوليتها ويجب أن نذكر هنا أساً نؤرخ لقبيلة لا لدولة، فهنا مجموع قبلي لا يتميز فيه واحد على واحد إلا بالفضائل القبلية من شجاعة وكرم وعقل وبذل للمال وحكمة وتجربة، فالرياسة هنا رياسة ترشيح وتأييد لهذا الترشيح، فلا جيش ولا قوة عسكرية أو حق موروث تؤيد أي مرشح، فكان الرئيس إذا مات تنافس من يرون أنفسهم جديرين بالرياسة في إظهار فضائلهم التي أشرنا إلى بعضها، والقبيلة في مجموعها تؤيد ترشيح من تراه أهلاً للمسئولية، ويكون القرار في دار الندوة، وليس من الضروري هنا أن نفترض انتخاباً أو تصويتاً، بل الذي يحدث هو أن واحداً من المرشحين أنفسهم يتفوق على أقرانه ويفوز بأكثر قدر من التأييد في مكة كلها، ثم يكون اجتماع رأي الرؤساء على الفائز في دار الندوة، وعلى الفائز بعد ذلك أن يستمر في إظهار فضائله وإثبات أنه جدير بالرياسة فعلاً.

شيء من هذا حدث عندما مات عبد مناف، إذ تطلع للرياسة عدد من رأوا أنفسهم أهلاً للمسئولية من رؤساء البيوت، وهنا نجد اثنين من إخوة هاشم هما عبد شمس والمطلب يقفان مع أخيهما هاشم ويشدان من أزره في وجه غيره من المنافسين. ومن هنا كانت رياسة هاشم قد ثبت بتأييد قوي من أخويه المطلب وعبد شمس. فأما المطلب فقد وقف هو وبيته إلى جانب بيت هاشم إلى أن جاء الإسلام وبعده، ورسول الله ﷺ كان إذا جاء ذكر بيت المطلب شبك أصابعه وقال ما معناه: نحن - يقصد أن بني هاشم وبني المطلب يد واحدة.

وأما عبد شمس فقد وقف بقوته كلها إلى جانب أخيه هاشم. ولا صحة

لما ترعنه المراحع من أن العداوة بين هاشم وعبد شمس بدأت منذ ميلادهما وصباهما، بل قبل الميلاد، فتذكر المراحع أن هاشماً وعبد شمس كانا توأمين وأنها نرلا من بطن أمهما وأصبح احدهما ملتصقة بجهة الآخر أو بكمه، وكان لا بد من الفصل بينهما بالسيف أو السلاح. فكان هذا أول دم سال بين هاشم وعبد شمس فهذا نظر رجعي أي رجعة شيء طهر بعد الإسلام إلى ما قبله والتماس أصوله هناك. فالحقيقة أن العداوة بين هاشم وعبد شمس ظهرت بعض الشيء بعد بعثة محمد ﷺ ثم تأكدت في وقعة بدر كما سنرى؛ أما قبل ذلك فقد كان هاشم وأخوه عبد شمس والمطلب بدأ واحدة. ويؤيد هذا الرأي قول الطبري: وَحُدِّثْتُ عَنْ هِشَامِ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ السَّائِبِ الْكَلْبِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ هَاشِمٌ وَعَبْدُ شَمْسٍ - وَهُوَ أَكْبَرُ وَلَدِ عَبْدِ مَنَافٍ - وَالْمَطْلَبُ - وَكَانَ أَصْغَرَهُمْ - أُمَّهُمْ عَاتِكَةُ بِنْتُ مَرَّةَ السُّلَمِيَّةِ - وَنُوفَلٌ - وَأُمُّهُ وَاقِدَةُ - بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ - فَسَادُوا بَعْدَ أَبِيهِمْ جَمِيعاً، وَكَانَ يُقَالُ لَهُمُ الْمُجْبِرُونَ، قَالَ: وَيُقَالُ فِيهِمْ:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُحُولُ رَحِلْهُ أَلَا نَزَلْتُ بِدَارِ عَبْدِ مَنَافٍ^(١)

أما الذي ميز هاشماً وقدمه على إخوته للرياسة، فكان تفضله إلى أهمية الناحية التجارية بالنسبة لمكة، وقد فصل أمر ذلك نفر من مؤرخينا أوضحهم في هذا المعنى اليمقوبي، وسأورد هنا عبارته على تواليها لأهميتها وأقسامها إلى فترات حتى يسهل الاستدلال بفقراتها واستخراج كل مغازيها التاريخية، قال:

١ - وَشَرُفَ هَاشِمٌ بَعْدَ أَبِيهِ، وَجُلُّ أَمْرِهِ، وَاصْطَلَحَتْ قُرَيْشٌ عَلَى أَنْ يَتَوَلَّى هَاشِمُ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ الرِّئَاسَةَ وَالسَّقَايَةَ وَالرَّفَادَةَ، فَكَانَ إِذَا حَضَرَ الْحَجَّ قَامَ فِي قُرَيْشٍ خُطِيباً فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَنْتُمْ جِيرَانُ اللَّهِ وَأَهْلُ بَيْتِهِ الْحَرَامِ، وَإِنَّهُ يَأْتِيكُمْ فِي هَذَا الْمَوْسَمِ زُورُ اللَّهِ مَعْطَمُونَ حَرَمَةَ بَيْتِهِ، فَهَمَّ

(١) هذا البيت هو الذي جمعنا بقرأ لفظ المحيرين الوارد في العبارة السابقة على هذا النحو. وقد قرأها وشكلها أبو الفصّل إبراهيم المجبرين، ولا يتفق هذا مع معنى البيت

أضياف الله، وأحق الصيغ بالكرامة صيفه^(١)، وقد ميزكم (في الأصل المطبوع خيركم) الله بذلك، وأكرمكم به، ثم حفظ منكم أفضل ما حفظ جار من حازه، فافكرموا صيفه وزواره، فإسهم يأتون شعثاً غراً من كل بلد على صوامر كالقداح، وقد أعبوا وتغلبوا وقملوا وارملوا، فاقروهم واغثوهم، وكانت قریش تُرافِد على ذلك.

٢ - وكان هاشم يخرج مالاً كثيراً، ويأمر بحياض من آدم، فتجعل في موضع زمزم ثم يسقى فيها من الآبار التي بمكة، فيشرب منها الحاج، وكان يطعمهم بمكة ومنى وعرفة ونجف. وكان يترد لهم الخبز واللحم والسمن والسويق ويحمل لهم المياه، حتى يتفرق الناس إلى بلادهم، فسُمي هاشماً.

٣ - وكان أول من سن الرحلتين: رحلة الشتاء إلى الشام، ورحلة الصيف إلى الحبشة، إلى الجاشي. وذلك أن تجارة قریش [كانت] لا تعدو مكة، فكانوا في ضيق، حتى ركب هاشم، فنزل ببصرى، فكان يذبح في كل يوم شاة، ويضع جفنة بين يديه، ويدعو من حواليه.

وكان من أحسن الناس وأجملهم، فذكر لقبصر، فأرسل إليه، فلما رآه وسمع كلامه أعجبه، وجعل يرسل إليه، فقام له هاشم، فقال له: أيها الملك: إن لي قوماً، وهم تجار العرب، فتكتب لهم كتاباً يؤمنهم ويؤمن تجارتهم حتى يأتوا بما يستطوف من آدم الحجاز وثيابه. ففعل ذلك قيصر وانصرف هاشم، فجعل كلما مر بحي من العرب أخذ من أشرفه الإيلاف أن يأمنوا عندهم وفي أرضهم، فأحدوا الإيلاف من مكة والشام (الأصح: من مكة إلى الشام).

(١) يربد صيف الله

٤ - وخرج^(١) هاشم بتجاراة عطيمة يريد الشام، فجعل يمر بأشراف العرب فيحمل لهم التحارات، ولا يلزمها لها مؤونة حتى صار إلى غزة فمات بها.

٥ - ولما هلك هاشم من عند مناف جرعت قريش وحافت أن تعلبها العرب، فخرج عبد شمس إلى النخاشي ملك الحشمة، فحدد بينه وبينه العهد، ثم انصرف، ولم يلبث أن مات بمكة ودفن بالحجون.

وخرج نوفل إلى العراق، وأخذ عهداً من كسرى، ثم أقبل بموضع يقال له سلمان.

٦ - وقام بأمر مكة المطلب بن عبد مناف^(٢).

فأما الفقرة الأولى من هذه العبارة ففيها اسراف في تقدير هاشم ومبالغة في تعظيم هيئته، وهي مثال للنظرة الرجعية إلى التاريخ أي النظرة إلى ما مضى من الأحداث ومن الرجال على ضوء ما كان فيا بعد، فاليعقوبي هنا يصور هاشماً على ضوء ما كان من ظهور محمد رسول الله ﷺ من أعقاب، فهو يبالغ في تجميله وتعظيم هيئته، ولعله أراد بذلك أن يرضي غرور حلفاء بني العباس - وهم هواشم، ولكننا نكتفي بخلاصتها، وهي أن هاشماً تنبه إلى أهمية مكة ووجود الكعبة فيها، فحفز قومه على اجتذاب الناس إليها، ولا يجتذب الناس في تلك العصور شيء في جزيرة العرب مثل الطعام والماء، فحضر قومه على بذل أقصى ما يستطيعون من الأموال وحسن اللقاء والضيافة لمن يقد على مكة من زوار الكعبة، وليس معنى ذلك - بالضرورة أنه فعل المكارم التي يذكرها اليعقوبي، ولكن يكفي أن يعرف الناس أنهم إذا قدموا مكة وجدوا شيئاً من زاد وماء وقرى حتى يتوافدوا عليها وقد سقه أبوه عبد مناف وجدته قصي إلى ذلك، ولكنه هو الذي وجه همه بصفة خاصة إلى اجتذاب الناس إلى مكة،

(١) نرتك قبل ذلك فقرة طويلة من العمص الشعبي قليلة المحصلة التاريخية

(٢) تاريخ اليعقوبي، ٢٤٣/١ - ٢٤٤

ومن الطبيعي ألا يفد الناس صفر البدين، بل كانت العادة أن يقبل كل وافد بما عنده من أدم أو تمر أو صوف أو ماشية أو حبل فيكون هناك تادل وتقوم تجارة ويكون المكيون أصحاب السوق وأكبر المعيدين مه حاصة وأن تعطيم الكعبة كان يصمي على منطقة مكة أمناً يشجع الناس على الوفود إليها.

والفقرة الثانية تفصل أمر ما كانت قریش تتوجه من هاشم - تقدمه للوافدين عليها ومن الممكن أن تكون أصاف الطعام التي يذكرها مثل الخبز واللحم والسمن والسويق وهو الدقيق تقدم لسادات العرب عند وفودهم أو حضورهم الطعام في بيوت هاشم وغيره من القرشيين.

والفقرة الثالثة هي التي تمنا هنا في المكان الأول، فهي تقول إن هاشماً اجتهد في توسيع نطاق تجارة مكة والوصول بها إلى الشام، فإن التجارات كانت تقف عند مكة، وهاشم هو الذي فكر في الوصول بها إلى الشام، ولا بد أنه كان قد ذهب إلى بلاد الشام قبل ذلك وعرفها، ولا بد كذلك أنه أحس أن هناك طلباً على بضائع معينة يستطيع هو وقومه أن يأتوا بها إلى بلاد الشام، وهذه البضائع لا تقتصر على ما يخرج من الجزيرة مثل الأدم أي الجلود والتمور، والصوف، فإن هذه الأصناف مهما عزت فإن لها بدائل في بلاد دولة الروم، فلا بد، إذن أن تكون الحاجة مست إلى أنواع من البضائع يحتاج إليها الناس في بلاد دولتي الرومان ثم الروم ولا بد أن تأتيها من بعيد، وهذه البضائع هي التوابل والعطور والمسك والمرّ واللبان والحرير مما لا تستغني عنها الكنائس في طقوس العبادة ولا يستغني عنها الملوك وسرورات الناس في حياتهم كالحرير والقطن والأحجار الكريمة والعاج وهو سس الفيل واليشب وهو المعروف باسم jade وهو يأتي من الصين، والمرجان والزعفران وما إلى ذلك، وبعض هذه الأصناف توجد في بلاد العرب نفسها - في اليمن خاصة - مثل اللبان والمر، ولكن الحرير والتوابل والصدل والعود والعسر والأحجار الكريمة واليشب تأتي من الهند والصين وبحارهما، أما العاج وبعض التوابل وريش العمام وحلود بعض

الحوانات السمكية فتأتي من بلاد آسيا وإفريقية، وكذلك العطور والدهون وبعض أصناف الربيوت.

وكان بعض هذه الأصناف يصل إلى مكة، والباقي يمكن جلبه إليها إذا مست إليه الحاجة وهذه الحاجة هي التي لمسها هاشم في بلاد الشام وعرف أنه يستطيع موافاة التجار أو رجال الدولة البيزنطية في الشام بها، ومن ثم فطر بحسه التجاري العملي إلى أنه يستطيع أن يسد هذه الحاجة، ومن هنا فقد اجتهد في مداخلة رجال الدولة وكبار التجار لكي يعرض عليهم تزويدهم بما هم بحاجة إليه من هذه البضائع، فتكلف المظهر العظيم وجعل يذبح كل يوم شاة ويصنع طعاماً حتى يشتهر أمره ويجتذب أنظار رجال الدولة ويكسب احترامهم وثقتهم، فإن التجارة التي كان يريد أن يعرضها غالية الثمن، ونقلها بضائع قيمتها، فلا بد أن يكون المتعهد بجلبها قادراً على ذلك.

ولا بد أن تكون الظروف قد واثت هاشماً أو دفعته إلى ذلك، ومن قديم الزمان كان معظم هذه الأشياء يصل إلى بلاد الرومان ثم الروم عن طريق بلاد فارس إما عن طريق الطرق التجارية وسط آسيا أو عن طريق البحر وموانئ الخليج الذي كان إذ ذاك يعرف باسم خليج فارس. وكانت الحروب بين دول الفرس والرومان ثم الروم هي السبب الأكبر في انقطاع وصول هذه المتاجر إلى بلاد الشام وقد حدث هذا أثناء الحروب بين الباثيين والرومان، ثم تمهد في أيام الساسانيين ومن عاصرهم من قهاصرة الروم البيزنطيين، وموضع النزاع بين الأخيرين كان التنافس على سيادة بلاد أرمينية شمالي العراق، وكانت قد دخلت المسيحية وأصبحت بذلك في نطاق النفوذ البيزنطي، ثم امتدت المسيحية في شمالي الشام والعراق فزاد الاحتكاك بين الدولتين وتجددت فرص النزاع، لأن الفرس لم يدخلوا المسيحية بل عادوها، خاصة وقد استولى ملوك الساسانيين على أرمينية والموصل واضطهدوا المسيحيين، وكان ذلك في عصر الملك سابور الثاني (٣١٠ - ٣٧٠ م) وهرام الخامس (٤٢٠ - ٤٣٨ م).

وزيد جرد الثاني (٤٣٨ - ٤٥٧) وبلغ دروته في أيام حستيان من أباطرة الدولة البيزنطية الذي تجرد لنصرة المسيحية وانفق في ذلك معظم أيام حكمه من ٥٢٧ إلى ٥٦٥ ميلادية

فلا بد إذن أن توقف وصول متاخر الشرق إلى بلاد الدولة البيزنطية قد بدأ أيام سابور الثاني واشتد أيام بهرام الخامس وزيد جرد الثاني، وحلال حكم هذين الملكين الساسانيين المتعاقبين امتدت الحروب ١٣٥ سنة، وهنا لا بد أن تكون الحاجة قد مست، إلى بضائع الشرق، ويمكن القول بأن تلك الحاجة ظهرت بشكل واضح أثناء حكم يزيد جرد الثاني (٤٣٨ - ٤٥٧)، وفي تلك الفترة يمكن القول بأن هاشماً وصل بلاد الشام وبدأ نشاطه الواسع في النهوض بالتجارة الملكية. وهذه الفترة تعدل من سني حكم ملوك الروم البيزنطيين فترة حكم الامبراطور ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨ - ٤٥٠ م) ثم فرسيان أو مرقيان (٤٥٠ - ٤٥٧ م) وكانت بالفعل فترة اشتعال الحروب بين دولتي الروم والفرس، فقد كانت هذه الحرب قد سكنت قليلاً خلال حكم الامبراطور جوفيان الذي عاد إلى المسيحية بعد جوليان المرتد (٣٦٣ - ٣٦٤ م) الذي ارتد عن المسيحية وعقد صلحاً مع الفُرس تنازل لهم فيه عن أرمينية. ولكن الروم زعموا أن الفرس يضطهدون النصرانية فيها خضع لهم من أرمينية، وثارت الحرب من جديد أيام ثيودوسيوس الثاني الذي ذكرناه. وأعقب ذلك قيام الدولة الأيسورية في دولة الروم على يد القائد زينون (٤٧٤ - ٤٧٥ م) ثم ٤٧٦ - ٤٩١ م) وهي دولة محاربة واصلت الحرب مع الجرمان في الغرب والفرس في الشرق، واستمرت حتى قيام دولة هرقل بن هرقل سنة ٦١٠ ميلادية وهي المعروفة بصراعها الطويل مع الإسلام، ومن أكره أباطرة الدولة الأيسورية جستنيان الكبير الذي اشتهر بنصرة المسيحية والحرب الطويلة في سيلها على الجبهة الشرقية خاصة.

وإذن فقد كان الانقطاع الطويل الحاسم للتجارة الشرقية عن الوصول

إلى أسواق دولة الروم قد وقع في الشام خلال النصف الأول من القرن الخامس الميلادي ، وخلال هذه الفترة نستطيع أن نضع حياة هاشم بن عبد مناف وعمله ، لأنه كما رأينا من نص اليعقوبي وحد عددهم قسولاً وترحياً بما عرض عليهم من إتيانهم لتحارة المشرق . فقال هاشم : أيها الملك إن لي قوماً ، وهم تجار العرب فتكتب لهم كتاباً يؤمنهم ويؤمن تجارتهم حتى يأتوا بما يُستطرف من أدم الطائف وثيابه ، ففعل قيصر ذلك . وانصرف هاشم فجعل كلما مر بحي من العرب أخذ من أشرافهم الإيلاف ، أن يأمنوا عندهم وفي أرضهم ، فأخذوا الإيلاف من مكة إلى الشام .

وإذن فقد وجد هاشم الفرصة مواتية ليوسع نطاق تجارة مكة ، فاتفق مع رجال الروم على أن يأتيهم بما يحتاج إليه أسواقهم من بضائع الهند والصين وأفريقية ، وقد ذكرناها فحصل منهم على كتاب يؤمنهم ويؤمن تجارتهم ما داموا في بلاد الروم ، وهذا الكتاب هو في ذاته إذن هاشم ومن معه في دخول أرض الروم وقتها شاموا ، وهذا الكتاب أو الإذن المكتوب وهو ما يسمى بإذن المرور الأمان *Sauf Conduit* وإذن المرور *Passe-port* وتسميه بعض النصوص العربية بالعَصْم أو العاصم وجمعه عَصَم أي ضمان السلامة ، فلما حصل على ذلك الإذن أكمل عمله فصار لا يمر بقبيلة في الطريق إلا حصل من رجالها على إيلاف أو ضمان أمان وسلامة المرور .

وهذا هو ما تنص عليه الفقرة الرابعة من نص اليعقوبي الذي نحن بصده : « وخرج هاشم بتجارته عظيمة يريد الشام ، فجعل يمر بأشرف العرب فيحمل لهم التحارات . ولا يلزمهم لها مؤونة حتى صار إلى غزاة فتوفي بها » وإذن فالإيلاف اتفاق يتكون من شطرين :

الأول : المرور بأرض القبيلة أما من الأذى والمكروه بما معه من تحارة .

الثاني : حمل تجارات القائل دون أن يلزمها مؤونة أي نفقة ، وهذا الجزء الثاني

من الإيلاف أي إتفاق التآلف والمودة والأمن والإلف على أكر جانب من الأهمية ذلك أن القائل الضاربة في الصحاري لا تستغي قط عن الإنصال بالعالم الخارجي ، وإذا هي انقطعت عنه تدهورت ونوحشت ولم تلبث أن تنمك وتتلأشي .

لأن القائل السادية - مهما بلغ حجمها وقوتها - لا تستغي عن أشياء وأدوات حيوية لها ولا يتيسر لها أن تصنعها في مضاربها ، وأهم هذه الأدوات السيوف والآنية المعدنية وسروج الخيل وآلة ركوبها وماعون الطبخ . فهذه أشياء لا يمكن أن تعيش القبيلة بدونها ويستحيل عليها صنعها في مضاربها ، ومن أين لها الحديد لصناعة السيوف ، وإذا تيسر لها الحديد فكيف تحميه وتطرفه وتصوغه سيفاً باتراً يصلح للقتال ، والسيوف بطبعها بضاعة مستهلكة رغم ما يبدو من متانتها ، فالسيف ليس مجرد قطعة من حديد بل هو مقبض ونصل ذو شفرة أو شفرتين وذباب وهو طرف السيف المدبب ، وهذه كلها تصدأ وتثلم ، ولا بد من سنن بين الحين والحين ، ومع توالي السن يتآكل نصل السيف ويخف وزنه وتتناقص صرامته ، ومن هنا فللسيف المستعمل عُمر ، أضف إلى ذلك أن مقبض السيف لا يكون في العادة من نفس قطعة الحديد . بل هو يصنع على حدة ثم يثبت المقبض في النصل . وهذه كلها صناعة ذات فنون لا تيسر للقبيلة في مضاربها .

وأما الآنية فإن أمرها ليس أقل شأناً وهي أصعب صناعة من السيوف ، فلا بد للقبيلة من أن تحصل على الآنية والقدر بشئ أنواعها من الخارج ، والآنية كذلك أدوات مستهلكة خصوصاً في مضارب البدو حيث يوضع الإناء على أثافي الأحجار ليصنع فيه الطعام ، ثم يطف بعد ذلك بالحك بالرمال أو الحجارة فيسرع استهلاكه ولا يلبث أن يتق ، ورمال الصحراء لا تصلح في الغالب لصنع حرار الفخار ، وآنية الفخار مع ذلك سريعة العطب ، فلا عى للقبيلة عن الإنصال بالعالم الخارجي للحصول على الآنية

وأما أدوات ركوب الخيل من قرايبس ومهاميز فمسيرة الصنع على مستوى كبير من الخودة في الصحراء، فهي صناعة تتكون من حشب متين ومعدن وأصناف من الجلد والخش لا تتيسر سهولة في الصحراء. ولا ننس هنا الدروع، فإن الدو يستطيعون صنع دروع الجلد، وهي الدرقات، ولكن كيف يصنعون دروع الحديد وهي تحتاج إلى حدادين مهرة وحديد أو نحاس أو برونز كثير.

فإذا حرمت القبيلة من هذه الأشياء فليس هناك ما ينجيها من الهلاك. قد تستطيع الاكتفاء بغزلها عن الوارد من الأقمشة، وقد تستطيع العيش إلى ما لا نهاية في خيام الصوف والجلد، وقد يستطيع الاعتماد في غذائها على التمر واللبن واللحم والماء وشيء من الدقيق، ولكن الحياة في الصحراء ليست مجرد غذاء وكساء ومأوى. إنها صراع متصل للبقاء، فليست هناك حياة وإنما نجاة متصلة من الموت أو ما يسمى باسم سرفايقال Survival وهذا لا يتأتى إلا بالدفاع عن النفس وخوض المعارك بالسيوف والدروع والخيل والحرايب والنبال والبيضات، وليس من الضروري أن تخوض القبيلة معارك البقاء كل يوم، ولكن يكفي أن تعرف القبائل الأخرى أن لديها سلاحاً وخيلاً وفرساناً ومقاتلين مستعدين أبدأ إلى الطيران إلى ميدان القتال فيتمحاشوا العدوان عليها وتأمين على نفسها. ويكفي أن تعرف القبيلة أن حماها لا يمكن أن ينتهك دون قصاص سريع وأن سيوف رجالها يواتر وسواعدهم قوية وضرباتهم مضجبة وأن فرسانها لا يشق لهم غبار لفرط سرعتهم يكفي أن يعرف الناس ذلك حتى تضمن القبيلة سلامتها. ولهذا فإن القبيلة تكسب نصراً اليوم وتعيش عليه دهرأ لأن شعراءها لا يزالون يذكرون الناس بسيوف القبيلة وقوتها وانتصارها، وهذا هو سلاح الفخر وهو امتداد كلامي للقوة العسكرية.

لهذا لا تستغني القبيلة عن مدد متصل من السيوف والآنية وأدوات ركوب الخيل بما فيها حدوة الحصان، فإذا انقطعت صلة القبيلة بالعالم الخارجي

قل عتادها من السيوف والة الخيل وصعفت عن الدفاع عن نفسها، ثم يهزل
سيان أسائها الحسدي بطول الاعتماد على الدس واللحم والتمر، فلا بد من
شيء مطبوخ بين الحين والحين، واللحم نفسه لا ينضج إلا في آية وإلا فإن
الاستهلاك منه يصبح عظيم الكلفة إذا اقتضت معالجة اللحم على الشيء، فلا
مد من غليه للاستعادة بالمرق وثرده الحرفيه أو طهوه الشعير أو احشيش أو
الدقيق.

وتحصل القبيلة على المدد اللازم من السلاح والأنية من القوافل المارة
بأراضيها أو من أي مركز عمران مستقر قريب منها، وفي الغالب يكون هذا
المركز قرية كبيرة أو صغيرة أو واحة ذات سوق دائم أو موسمي يلم به التجار
أو طالبو السلع التي لا تصنع في الصحراء، ولهذا فلا غنى للقبيلة عن طريقة
للاتصال المباشر بطريق من طرق التجارة مع الاعتماد على مركز مدني قريب.
هذا إلى أن الاتصال بالعالم الخارجي في ذاته ضروري لمحافظة الإنسان على
مستوى معقول من الحضارة وإلا استوحش وتدهور وطال شعره وتشتت
واغبرت هيئاته وغلبت عليه القذارة القاتلة مع الزمن كما ترى في
حال بعض قبائل الدواخل في الصحاري والغابات الاستوائية أو المعتدلة أو
الباردة واستمرار الحياة على مستوى معقول من التحضر مستحيل بدون
الاتصال بالعالم الخارجي بواسطة الطرق إما بالوقوع عليها أو إمكانية الاتصال
بها بأي سبيل. أضف إلى ذلك أن هذا الاتصال يعرفها بما يدور في العالم من
حوادثها ولو عن طريق السماع المتأخر والصدى البعيد، وبدون ذلك تنقطع
الجماعة عن مجرى الحياة وتنفصل عنها وتدهور ثم تتفكك وتتلاشى أو تختفي
في غيرها.

ثم إن القبائل البدائية لديها كذلك ما تعطيه أو تبيعه أو تبادل به: لديها
فائض الصوف والتمر والكثير من الأدم أي الجلود ولديها أيضاً ماشية تباع من
غنم أو أعزاز أو جمال، وأحياناً محصولات زراعية أو معادن مثل الملح أو الحديد
أو التبر وما إليها مما يتحصل للقبيلة من موطنها بملاح يسير

ولهذا تهتم القبائل البادية - دون تفريط في بداوتها وتمسكها بعزة العيش في الصحراء مع شططها وقسوتها وأخطارها - من الاتصال بطريق تجاري والاعتماد على مركز عمري، ومن هنا فإن قبائل البدو تحرص أشد الحرص على تأمين القوافل المارة في أراضيها مخفارة أو دون خفارة، فإذا سمعنا عن بدو يقطعون الطرق ويعتدون على القوافل والتجار، فهؤلاء ليسوا رجال قبائل محترمة ذات كيان، بل بقايا قبائل تدهورت وتوحشت أو خلعاء قبائل ومطاريذ مجتمعات بدوية أو لصوص وسراق عاديون يشبهون اللصوص في كل مجتمع، وهؤلاء جميعاً خسار على نظام العيش المقرر في الصحراء ولا يحسب لهم حساب، والقبائل المحترمة الحريصة على سمعتها وبقاتها تطارد هؤلاء السراق وتقضي عليهم كلما تيسر لها ذلك.

وهذا الذي نقوله حقيقة معروفة لكل من يعرفون حياة البداوة والصحاري. ورسول الله ﷺ عندما استولى على خيبر وفدك وتيساه قضى في نفس الوقت على كل مقاومة لقبائل غطفان وأسد وطيء وذبيان وما إليها، وعندما ضم مكة إلى أرض الإسلام أحست هوازن أن مصيرها في الميزان فأنبرت لمحارب الإسلام لأن مكة كانت مركزها العمراني، ومن هنا تبدولنا موقعة حنين منطقية بل لم يكن منها مفر للقضاء على معارضة هوازن للإسلام ثم ضمها إليه أولاً ثم ثقيف بعد ذلك.

الأسواق والمواف وطرق التجارة :

وإذن فهذا الذي فعله هاشم من الحصول من دولة الروم على المعصم وعلى الإبلان من رجال القبائل الضاربة على الطريق إلى الشام كان عملاً بالغ الذكاء، وهو كان حجر الزاوية في بناء قريش اقتصادياً، لأن الناحيتين السياسية والعسكرية - وهما بناء قصي وعبد مناف كانتا أساسيتين، ولكن القاعدة الاقتصادية التي بناها هاشم مستصح العمود الفقري في بناء قريش،

فإن المال كما هو معروف عصب القوة . وقريش انتقلت بعمل هاشم من قبيلة عادية الثروة إلى قبيلة غنية ، وبالمال ، تيسرت لقريش أمور السياسة واقتدرت على ساء قوتها العسكرية ، وبالمال كذلك استطاعت أن تقيم الركن الرابع من أركان قوتها بعد التصوق العسكري والسياسي والمالي ، وهو القيام بأمور الدين ، لأن الدين في تلك العصور كان يؤمن الحياة والاستقرار والانتظام والرخاء ولكم غالي التكاليف يتطلب النفقة والبذل على ما سراه .

وقد تحدث عن الإيلاف والعصم وتجارة العرب وأسواقهم في الجاهلية بتفصيل الأستاذ محمد سعيد الأفغاني في كتاب مشهور عنوانه «أسواق العرب» يعتبر منذ صدوره من الأصول التي لا يستغني أحد عن الرجوع إليها في دراسات جزيرة العرب قبل الإسلام وبعده ، وقد اعتمدنا عليه اعتماداً رئيسياً (إلى جانب الأصول) فيما كتبنا عن عمل هاشم بن عبد مناف .

والفقرة الخامسة من كلام اليعقوبي الذي أتينا به تبين لنا كيف أن قريشاً كلها عرفت قدر ما فعل هاشم وحرصت على استمراره بل اشتركت في اكماله . قال اليعقوبي :

«ولما هلك هاشم بن عبد مناف جزعت قريش وخافت أن تغلبها العرب ، فخرج عبد شمس إلى النجاشي ملك الحبشة ، فجدد بينه وبينه العهد . ثم انصرف فلم يلبث أن مات بمكة ودفن بالحجون . وخرج نوفيل إلى العراق وأخذ عهداً من كسرى ، ثم أقبل فمات بموضع يقال له سلمان ، وقام بأمر مكة المطلب بن عبد مناف^(١) ، ومعنى ذلك أن أبناء عبد مناف أكملوا شبكة العصم والإيلاف وقصوا بمهارتهم وذكايتهم ونشاطهم على ذلك المصدر العظيم من مصادر القوة ، وعلى أيديهم تفتحت واتسعت آفاق عصر حديد في تاريخ التجارة في جزيرة العرب ، فبينما كانت التجارة في الجزيرة تقتصر على عدد من

(١) اليعقوبي ٢٤٤/١

الأسواق الداخلية تبدأ عند هَجْر والمُشَقَّر على ساحل الخليج وتتوالى بعد ذلك في نسق من موضع إلى موضع من شرقي الجزيرة إلى جنوبها حتى عدن ثم تصعد إلى مكة معتمدة في ذلك على ملاحه غير منظمة مراكزها موانئ صغيرة مثل هَجْر وصُحار - والمُكَلَّا وعدن والحديدة والشعيبة، وتसारح تجار البحر إلى شواطئ الجزيرة قادمين من آسيا وأفريقية حاملين المتاجر المطلوبة ومن الموانئ تنتقل إلى الأسواق، ويخف إليها التجار وتتوالى الأسواق على نسق على مدار العام حتى تكون أسواق الحجاز في ذي القعدة وذو الحجة في آخر العام القمري وهو نهاية سلسلة الأسواق وأكبرها وأهمها، وفيها يتجمع التجار من كل مكان ليعقدوا الصفقات الكبيرة مع رجال قريش الذين أصبحوا رجال أعمال كبار، لا يقتصر تعاملهم على المبادلة والمقايضة بل عرفوا الذهب والفضة والدينار والدرهم، وفي أسواق الحجاز ومكة نشأت الصيرفة العربية ومهر فيها القرشيون وتجمعت في مكة المتاجر والبضائع والأموال، فأصبح القرشيون مياسير، ونشأ فيهم تجار كبار أصحاب رؤوس أموال ضخمة، ومع التجارة والمال تفتحت الأذهان واتسع العلم وزادت الخبرة، واحتاج التجار إلى الكتابة والحساب فتطورت الكتابة على أيدي التجار وظهر الصيارفة المتخصصون في تجارة المال وصرف الذهب والفضة ونشأ الكتبة والحُصَّبة وهم أهل النسيء، وهو حساب الزمن ومواعيد الديون ونسب الربوات، وأخذ الكتاب أصحاب القلم (القلامس) أهمية كبرى على ما ذكرنا، وأصبحت قريش قبيلة غنية وسط عالم من القبائل يعيش معظمه على الكفاف، وثروات مسادات القبائل الأخرى كانت نخيلاً وقسطعان حمال وشيأه واعتزاز مع بعض القُر في المواضيع التي تصلح لحياة البقر في الواحات الكبرى والصغرى وأراضي المرتفعات العالية مثل حبيلى طيء (جبل شمس) حيث كانت منازل قبيلة طيء وجاراتها أسد وعُسن وذُبيان وكبدة وغطفان وهوازن، وكلها قائل رعاة وظعن أو نصف استقرار Semi-sedentaries، وكل ذلك تم على مدى نصف قرن من أيام هاشم

وإخوته، لأن عجلة التقدم إذا سارت ووجدت ما يدفعها أصبحت كالسفينة هبت عليها ريح موأية، ونفوس البشر إذا نعمتحت على امكانات الغنى واليسار والرخاء اشرأت للمزيد وشحذت المم وتفتحت الأدهان وآفاق التقدم، وتلك هي فترات القفزات الحصارية في تواريخ الشعوب وقصة الحضارة، فهنا، ونحن نتكلم عن قفزة التجارة والعمران معها من أيام هاشم وإخوته ثم بنيه، نحن نشهد عجلة الحضارة وقد انتظمت وسارت إلى الأمام على يد القرشيين وأصحاب الملكات التجارية من أهل الجزيرة وخاصة شعوب البحر على سواحل الخليج وجنوبي الجزيرة، وانتقلت الجزيرة كلها من حال إلى حال على يد قریش تؤيدها وتشد أزرها كبار القبائل ورجالها لأن التجارة حضارة فهي تبادل متاجر وخبرات ومهارات وصناعات وأفكار.

واليك بياناً عن أسواق العرب ومواقيتها كما صارت وانتظمت في النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي، وهو الوقت الذي بدأت فيه قریش عصر الذروة في تاريخها قبل الإسلام، وهو عصر هاشم وإخوته ومعاصريه وحلفائهم من رجالات العرب ثم عصر عبد المطلب وستكلم عليه :

وفيما يلي بيان الأسواق والموانئ وخط مسير التجارة ومواقيت الأسواق، والمواقيت هنا تقريبية، لأنها وردت في النصوص في مواقيت مختلفة، وقد قربناها على سبيل التيسير، وأتينا بترتيب الأسواق هنا بحسب ما هو وارد في أصولنا العربية وإن كنا نرى أن البداية المنطقية لدورة الأسواق تكون في هجر في ربيع الثاني أما سوق دومة الجندل (التي تقول الأصول العربية إنها أول سوق في العام) فتكون في ربيع الأول من العام التالي :

اسم السوق أو البناء	الموعد التقريبي	القبيلة أو القبائل صاحبة السوق أو الدولة التي تأخذ العشور أو المكوس إن وجدت	ملاحظات
دومة الجلندل	ربيع الأول وقد تمتد إلى آخره	بنو كلب بن وبرة من قضاة وقبيل الإسلام استقل بها أكيد الكلبي	نظن أن ربيع الأول هذا يكون من العام الجديد بعد انتهاء أسواق الحجاز في ذي الحجة
هجر المشقر صحار	ربيع الثاني ربيع الثاني أو جمادى الأول ميناء على ساحل البحر في عمان الأسبوع الأول من رجب	بنو عبد القيس بنو عبد القيس يشرف عليها الأزدي في العصر النبي كان متولي السوق الجلندي بن المستكبر	هنا نظن أن دورة الأسواق تبدأ كل عام
دبا الشحر	ميناء على ساحل بحر العرب آخر رجب أو آخر يوم فيه ميناء صغير في حضرموت منتصف شعبان	الأزد أصحاب حضرموت	
عدن	أوائل رمضان أو اليوم الأول منه	أصحاب السلطان في جنوب اليمن	

اسم السوق أو الميناء	تعريف به وموعده	القبيلة أو القبائل في منطقة السوق أو السلطة التي تهي المكوس والعشور	ملاحظات
صنعاء	أول رمضان أو منتصف رمضان أو آخره	أصحاب السلطان على وسط اليمن وشماله	
حباشة حجر الهمامة	جنوبي تهامة في شهر رجب من عاشوراء إلى آخر محرم	قبائل شمال اليمن بنو حنيفة وغميم	لم تذكرها معظم المراجع
ذو المجاز	موضع بمى على فرسخ من عرفة أو ذي الحجة ومنها يتوجه الناس إلى الحج	هذه هي أسواق الحجاز الثلاثة وكلها تحت إشراف قريش	بهذه الأسواق ينتهي موسم الحج وتنتهي دورة الأسواق
عكاظ	بين مكة والطائف من أول ذي القعدة إلى ٢٠ منه بعد عكاظ		
بجينة البنطاة	بخيبر آخر المحرم	يهود خيبر	

ومن الواضح أن هذا النظام لم يوضع ويتنظم على هذه الصورة دفعة واحدة. وإنما هو تكامل مع الزمن بعد أن نهضت قريش بأسواقها وجعلتها أكبر الأسواق في الجزيرة وآخرها في دورة الأسواق كل سنة. ورطنتها بالحج أيام عبد المطلب، حتى يفرغ الناس من الأسواق ثم يتوجهون للحج في مكة ومناسك الحج الأخرى، وكلها تحت إشراف قريش وهي التي تفيد منها مادياً ومعنوياً.

وقد أبدى الأستاذ سعيد الأفغاني ملاحظات قيمة على أسواق العرب ، ولا بأس من إيرادها ملخصة هنا .

ونحب أن نبه قبل هذا أن بياننا هنا الذي اعتمد أساساً على بيان الأستاذ سعيد الأفغاني أضاف أسواقاً ، لا ترد عند سعيد الأفغاني . وقد أتينا بالأسواق هنا على أساس ما يباه في خريطة التجارة في جزيرة العرب قبل الإسلام في أطلس تاريخ الإسلام الذي اعتمدنا في عمله على أقصى ما استطعنا الاطلاع عليه من الأصول والمراجع العربية وغير العربية . وفيما يلي موجز لأهم ملاحظات الأستاذ سعيد الأفغاني :

نستطيع أن نقسم أسواق التجارة في جزيرة العرب قبل الإسلام إلى الأقسام التالية :

أ - أسواق عربية تقع في مناطق تسيطر عليها دول عربية ، أي عربية على أطراف الجزيرة . ويدخل في هذه الأسواق أحياناً أسواق الحيرة وهجر البحرين وعمّان ، فهذه كانت في كثير من الأحيان خاضعة لسلطان الفرس ، ولأنهم على مواضع الأسواق كانوا يشرفون على السوق ويأخذون من الناس العشور والمكوس . وقبل الإسلام كان سلطان فارس يمتد على أسواق العرب على الساحل الشرقي فيما عدا أسواق الحيرة التي كانت تشرف عليها دولة المناصرة ، وأشرفت على أسواق دومة الجندل قبائل قضاعة وخاصة كلب بن وبرة وقد انفرد بها آل أكيذر قبيل العصر النبوي . ويدخل سعيد الأفغاني هنا بصرى وأذرعات وغزة وهي في بلاد هسان ، وكلها خارج جزيرة العرب ، ولكنها متصلة بأسواق الجزيرة ، وكان العرب يترددون عليها . وكما أشرنا سابقاً يجعل الأفغاني دومة الجندل أول الدورة السنوية للأسواق كل عام . ولكننا نرجح أن سوق دومة الجندل يجيء بعد سوق النظاة في ربيع الأول من العام التالي .

ب - أسواق أنشأها العرب في بلادهم بحكم الحاجة، فصارت - مع الزمن - تمثلهم أصدق تمثيل في عاداتهم في البيع والشراء والمخاصمات وعقود الصلح وتحكيم الحكام وعقود الزواج التي تتم فيها وتقرير حقوق كل من الروحاني، ويشرف على كل سوق منها رؤساء القبيلة أو القبائل المضاربة في الاقليم. وهذه القبائل لا تعشر المتاجر أو تأخذ عليها مكساً، ولكنها كانت تتقاضي خمارات وتفيد من الأسواق فوائد عظيمة. وهذه الأسواق واردة في البيان السابق وفي خرائط أطللس التاريخ الإسلامي ومنها أسواق ذات طبيعة خاصة بسبب مواقعها الجغرافية، وهي التي تكون على البحر كمدن ومُحار ودُبا. وفي هذه يجتمع تجار الحبشة والهند والصين وفارس ويتضاءل فيها الطابع القومي بمقدار شأنها التجاري. وهذه الملاحظة أرى بها الأستاذ سعيد الأفغاني استنتاجاً، ولكننا نعرف بحكم اطلاعنا على نظام أمثال هذه الموانئ والثغور في العالم كله في تلك العصور أن الموانئ تختلف في نظامها من ناحية لناعية، ففي بعضها تكون الضرائب مناصفة بين قبائل المنطقة وإحدى الدول ذات السلطان على المناطق المجاورة كما نرى في ميناء عيذاب مثلاً حيث كانت المكوس تؤدى لرئيس البجة ويتقاسمها مع سلطان مصر. وفي العادة يكون في مثل هذه الموانئ جماعة من التجار المحليين هم الذين يتولون تنظيم السوق وتأمينه وحماية المكوس أو الضرائب وأداء جزء منها إلى القبائل المسيطرة على المنطقة أو للدول صاحبة السلطان. وأكبر مثال لذلك البندقية وغيرها من الموانئ الإيطالية التي تحولت إلى جمهوريات تجارية لأن تجارها اشتروا الحقوق على السوق من الدول الغالبة بمبالغ سنوية تؤدى لها، ثم استغلت بنفسها وامتنعت عن أداء أموال لأحد، بل تحولت إلى قوى بحرية ذات جيوش وأساطيل مسلحة كما نرى في حالة البندقية. وبالنسبة لموانئ الجزيرة قبل الإسلام لم تتطور إلى هذا الحد، ولكن كان في كل ميناء منها جماعة من التجار المظمين يرأسهم شيخ التحار أو الشاه بدر رأي رئيس البندر، وهذا الرئيس هو الذي يتولى أمر الميناء والسوق ويشرف على

دور صناعة السفن بالاشتراك مع غيره من التجار، هكذا كان الحال في صحار ودبّا والشحر والمكلا وعدن وما إليها، وإن كانت التفاصيل لدينا عن ذلك قليلة جداً.

ويضيف الأستاذ الأعماني أنه اقتصر على ذكر الأسواق العامة دون المحلية الخاصة بكل قبيلة أو بمجموع من القبائل، فلا شك أنه كان لكل قبيلة سوقها المحلي الدوري فقد تكون السوق اسبوعية أو شهرية أو سنوية. ويضرب مثلاً بذلك سوق بدر فقد كانت سوقاً محلية يتجمع فيها تجار المنطقة كل عام في موسم معين، وهذا صحيح كما نرى في تفاصيل غزوة بدر الكبرى وغزوة بدر الموعد بصورة خاصة.

ولم نذكر هنا المدن الكبرى أو مركز العمران، فكل مدينة سوق كبيرة دائمة ومثال ذلك مكة وغزة ودومة الجندل وخيبر، وهناك أسواق صغيرة محلية، ولكنها دائمة اشتهرت بتجارات معينة، مثل دارين في منطقة الخليج. وقد اشتهرت بأنها مجمع تجار العطور، ومن أراد العطور ذهب إليها، وقد اشتهرت سوق دارين بالمسك وعطور الهند التي كانت تجلب إليها، وبلغ من ذلك أن نسبة الداري أصبحت اسماً لتاجر العطور في كل مكان وجاء في الحديث الشريف: مثل المجلس الصالح مثل الداري إن لم يحدك من عطره علقك من ريحه. ومثل هذه الأسواق يقصدها من يريد أصنافاً معينة. ومن أمثلة ذلك أيضاً رُدينة وهي فُرصة على شط البحر في شرقي الجزيرة. وقد خفي موضعها علينا الآن، ولكنها كانت مركزاً لصقل واعداد نوع من الرماح كان يؤق بسنانها من الهند، فليل رماح ردينية وهناك أيضاً الرماح الخطية منسوبة إلى موضع يسمى الخط في شرق الجزيرة أيضاً.

ومن البلاد التي اشتهرت بتجارة أصناف معينة فأصبحت سوقاً دائمة الطائف حيث حادت صناعة ودع الجلود واشتهر البلد بأدم أو أهب (جلود) الطائف واشتهر البلد كذلك بزيبه وفواكهه.

وكان بعض أصحاب النفوذ من الدول المحيطة بشبه الجزيرة ينظمون قوافل - تجارية خاصة بهم تسمى الواحدة منها لَطِيْمَة، وهي لفظة غير عربية، والغالب أنها سريانية أو نبطية وقد اختلف العرب في معنى اللطيمة فيقال إنها القافلة أو التجارة التي تحملها القافلة.

وهذا يكفي عن أسواق العرب وتطور التجارة المكية في هذا المقام^(١).

وستتكمّل كلامنا عن تلك النهضة الكبيرة في مكة على يد قريش وما اتصل بها من تطورات أخرى في شرق الجزيرة في سياق كلامنا عن عبد المطلب، رابع مؤسسي مجد قريش قبل الاسلام.

كَلِمَةُ خَتَامِيَّةٍ عَنْ هَاشِمٍ وَأَعْمَالِهِ :

ونختتم كلامنا عن هاشم وإخوته وأعمامهم بالفقرة الثالثة من الطبري يسوقها عن هشام بن محمد بن السائب الكلبي يتحدث عن هاشم وإخوته عبد شمس والمطلب ونوفل قال : «فسادوا بعد أبيهم (عبد مناف) جميعاً، وكان يقال لهم المجرّبون» قال : ولم يقال : «فكانوا أول من أخذ لقريش العِصَمَ فانتشروا من الحرم : أخذ لهم هاشم حبلاً من ملوك الشام الروم وغسان.

وأخذ لهم عبد شمس حبلاً من النجاشي الأكبر، فاختلفوا بهذا السبب إلى أرض الحبشة.

(١) انظر :

« سهد الأفغاني : أسواق العرب في الجاهلية والاسلام » الطبعة الثالثة دار الفكر، بيروت

١٩٧٤

الكتاب كله هام هنا ولكن انظر بصفة خاصة باب إيلاف قريش ص ١٤٦ وما بعدها.
- طاهر القاسمي . الإيلاف أو المعونات عبر المشروطة - مجلة المحمع العلمي العربي بدمشق، نيسان (أبريل) ١٩٥٩ وحسب لا توافق صاحب المقال على رأيه في معنى الإيلاف - وانظر الى جانب مراجعنا الواردة في آخر الفصل ثبت المراجع الوافي الذي لورده سعيد الأفغاني ص ١٥ وما بعدها

وأخذ لهم نوفل جبلا من الأكاسرة، فاختلفوا بذلك السب إلى العراق وأرض فارس. وأخذ لهم المطلب جبلا من ملوك حمير، فاختلفوا بذلك السب إلى اليمن فحجّر الله بهم قريشاً فسموا المحجّرين

وقيل إن عبد شمس وهاشمياً توأمان، وإن أحدهما ولد قبل صاحبه وأصعب له ملتصقة بجهة صاحبه، فنَحَّيت عنها فسال من ذلك دم، فتطير من ذلك، فقيل: تكون بينهما دماء. وولي هاشم بعد أبيه السفاية والرفادة^(١).

ويلاحظ أن الطبري يستعمل كلمة الحبال في معنى العصم، وأبو الفضل إبراهيم محقق نسخة الطبري التي نعتد عليها هنا يقول في الهامش: العَصَم - بكسر ففتح. الحبال ويراد بها العهود، والمقرد في هذه الحالة هو العَصَم ومعناه الحبل وهو العهد.

ولا نتعجب في هذه الحالة من أن الله سبحانه وتعالى يقول في سورة آل عمران (١٠٣/٣): ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ لأن القرآن نزل بلسان عربي، مبنٍ أي باللغة العربية التي يفهمها كل العرب، فلا بد أن كلمة الحبل بمعنى العهد كانت مفهومة تماماً لكل العرب. وكذلك فعل «اعتصم» بمعنى تمسك به كان واضحاً لكل العرب، وهذا يدل على أن استعمال الحبال بمعنى العهود التي كان الناس يتفقون على عقدها فيما بين بعضهم وبعض كما فعل هاشم وإخوته مع الملوك كانت شائعة جداً عند العرب، وكانت تجري على كل لسان، وقد استعمل كلمة الحبل بمعنى العهد رسول الله ﷺ في الصحيفة التي كتبها بين المسلمين والمؤمنين من مهاجرين وأنصار في يثرب، ومن انضم إليهم وحالفهم أي اعتصم وتمسك بالعهد من اليهود.

وننتقل الآن إلى الحديث عن عهد المطلب ودوره في بناء قريش قبل الإسلام مرحّتين ببقية الكلام على نتائج عمل هاشم إلى ما بعد الصراع من

(١) الطبري، تاريخ، ٢٥٢/١.

الكلام عن عبد المطلب وجهوده في بناء الركن الرابع من أركان قوة قريش وهو الدين .

عبد المطلب بن هاشم ودوره في بناء الركن الرابع من أركان قوة قريش قبل الإسلام وهو الدين :

بعد موت هاشم تقول النصوص إن أخاه المطلب بن عبد مناف وقام بأمر مكة وهي عبارة لا نفهم المراد منها على وجه الدقة، فما كانت مكة بدولة حتى يقوم بأمرها رجل، وإنما هي كانت مستقر قبيلة، والقبيلة ترأسها جماعة ساداتها، ورئيس القبيلة لا يقوم بأمرها، بل هو ليس رئيسها بالمعنى الدقيق، ثم إن قريشاً لم تكن سالكة لمكة ولا منفردة بأمرها وإنما هي دخلتها وانتزعت السيادة عليها من خزاعة، ولكنها لم تملكها إذ إن دخول قريش مكة لا يمنع من أنه كان بمكة ناس آخرون من قبائل أخرى لا يخضعون لرياسة القرشية فالخزاعيون الذين بقوا بمكة والقضاعيون الذين دخلوها مع قصي لم يكونوا خاضعين لقريش . إنما رياسة قريش هنا كانت زعامة قبلية شرفية، وصاحبها لا يقال فيه إنه قام بأمر مكة، وسرى أنه عندما يقترب أبرهة من مكة سيخفي له عبد المطلب الطريق قائلاً: إن للبيت ربا يحميه، ولو كان يتولى أمر مكة فضلاً لحارب الأحباش أو لجمع قومه وتشاور معهم في الأمر، أو لتفاوض مع أبرهة على الأقل، كما فعل زعماء المكين عندما أراد الرسول ﷺ دخول مكة للعمرة عام الحديبية، ومحمد رسول الله ﷺ عندما أزمع العمرة لم يكن يرى أنه يقتحم بلداً على أهله، بل كان يريد العمرة ويطوف بالبيت في بلد المفروض أنه مفتوح لكل العُمر والحجاج - إنما هم القرشيون الذين اعترضوا واعتبروا دخوله مع المسلمين انتهاكاً لحرمة قبيلتهم وعندما اعتمر رسول الله وأصحابه من قابل ترك البلد رعاء القرشيين، ولكنهم لم يجاروا، لا ولا حاربوا يوم فتح مكة، لأن حقيقة وضع قريش بالنسبة لمكة لم تكن حقيقة قبيلة تملك بلداً. وقريش قبل

الإسلام لم تكن ندير مكة أو تتولى أمورها أو تعتبر نفسها مسئولة عن مرافقها أو حماية أهلها، ولو قُتل رجل من أهل مكة من غير القرشيين مما كانت قريش لتقوم بدور ولي القتل، وما كانت لها رئاسة أو سيادة على البلد بالمعنى الدقيق لهذه الألفاظ، بل ليس لديها دليل على أن قريشاً كانت تملك أرض مكة أو - الأرض من حولها، إنما ملك القرشيون دورهم، وملك كل ساكن في مكة داره، والوطائف التي كان القرشيون يتولونها لم تكن وطاقف سلطة وإنما مناصب شرف ومسؤوليات قبلية بعيدة كل البعد عن الوظائف الإدارية أو وظائف أعضاء المجلس البلدي مثلاً، كما كان الحال في المدن والموانئ الأوروبية أول ظهور المدن في الغرب الأوروبي، ولم تكن مشيخة قريش بمجلس بلدي أو مجلس حاكم كما ذهب بعض الباحثين الغربيين، نعم إنها كانت قريبة من هذا المعنى ولكنها ليست به أصلاً.

وهذه كلها معان ينبغي أن تكون في ذهننا لفهم على وجه الدقة حقيقة وضع قريش في مكة وعلاقتها بها قبل الإسلام، وهو وضع فريد في بابه، وعلاقات قريش بمدينة مكة تنبع من قريش بصفتها قبيلة لا بصفتها دولة أو تنظيمًا إداريًا، واليعقوبي عندما يقول إن عبد المطلب قام بأمر مكة ينظر إلى الموضوع نظرة رجعية، أي أنه يرجع بصورة مكة الداخلة في دولة الإسلام ويطبقها على مكة قبل الإسلام. وعبد المطلب في الحقيقة إنما قام بأمر القبيلة واحلافها لا بأمر المدينة. والفرق بين المعنيين كبير. والمطلب بن عبد مناف عندما قام بأمر القبيلة بعد أبيه لم يرث ملكاً ولا سيادة ولا إمارة ولا سلطاناً، وإنما هو ورث مسئولية، والمسئولية لا يتنازع عليها الناس، سقاً إن حمل تلك المسئولية كان يجلب معه سُودداً أو شرفاً، ولكن السُودد هو المعنى الروحي للسيادة، والشرف يطلبه من يريده ويقوم بتكاليفه، والتكاليف هنا واضحة معروفة، فهي غرم مالي متحدد، فهي تلزم صاحبها بالرفادة والسقاية وهما عملان كانا يجتذبان الناس إلى مكة، ولكن صاحبهما كان يتحمل معظم

الغرم، أما الأرباح فكانت تنصرف في أهل مكة كلها، كل بحسب اجتهاده وملكانته ومساهمته في التجارة وقدراته على الإفادة مادياً من الحجاج، وهاشم وإخوته حولوا مكة إلى مركز تجاري كبير، وجمعوا من ذلك مالاً وفيراً، ولكن غيرهم من القرشيين ممن نظروا إلى الناحية التجارية والمالية وحدها كسبوا أكثر، وواحد من هؤلاء وهو جدعان بن عمرو بن كعب ثم ابنه عبد الله بن جدعان وهما من بيت نهم بن مرة جمعا من المال أضعاف ما جمع هاشم وأخوته دون أن يتحملا نفقات شرف أو تكاليف سودد، وبيت عبد العزى بن قصي ضاهى بيت جدعان بن عمرو في المال والغنى، وكذلك كان الحال مع بيت المغيرة من بني مخزوم بن يقطنة بن مرة ونوفل بن عبد مناف، وهو أخو هاشم كان أغنى وأكثر مالاً من المطلب، ولكنه لم يتقدم للرياسة والمطلب نفسه لم يكذب يأنس في ابن أخيه عبد المطلب بن هاشم استعداداً لحمل هذا الشرف وذلك السؤدد حتى تنازل عنه له طواحية عن طيب خاطر، وعبد المطلب نفسه عندما تولى هذا الشرف وجد نفسه وحيداً وكان عليه أن يحمل معظم العبء لا يساعده في ذلك أول الأمر إلا ابنه الحارث، وكان عليه أن يجهد ويجتهد حتى يحصل على المال الذي يمينه على حمل العبء، وعندما تتقدم بنا الدراسة في حياة عبد المطلب سنرى حكاية اجتهاده في حفر بشر زمزم والبحث عما كانت جرههم قد ألقت فيها قبل طمها على ضوء جديد.

قام المطلب بن عبد مناف إذن مقام أخيه هاشم، وكان المطلب من أكثر إخوة هاشم اجتهاداً في انمام عمل أخيه مع أنه كان أصغرهم سناً فيها يقول الطبري - وهو الذي أخذ العيصم من الحميريين سادة اليمن - وغريب من الأمر أن عبد شمس أختا هاشم لم يتطلع للرياسة مع ما يقال من أن أمية ابنه حند هاشماً على ما نال من سؤدد وشرف. وكان - أي ابنه - ذا مال فتكلف أن يصنع صنيع هاشم وعجز عنه، فشمت به ناس من قريش ففضب ومال من هاشم، ودعاه إلى المفارقة، فكره هاشم ذلك لسنه وقدره، ولم تدعه قريش واحفظوه،

قال: فإني أناظرك على خمسين ناقة سود الحلق تنحرها بطن مكة أو الجلاء عن مكة عشر سنين، قرصي بذلك أمة وجعلا بينها الكاهن الخزاعي، فقُرْ هاشماً عليه أي حكم هاشم على ابن أخيه، فأنخذ هاشم الابل فنحرها وأطعمها من حضره وخرج أمة إلى الشام، فأقام بها عشر سنين، فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمة^(١) وإنما أحرث هذه الحكاية مع أن موضعها كان في حياة هاشم لأنني غير مطمئن إلى صحتها لأن ابن الأخ لا يتارع عمه وأبوه موجود، وإذا كان أمة بن عبد شمس على صغر سنه إذ ذاك ذا مال، فلا بد أن أباء وهو الذي أخذ العصم من النجاشي صاحب الحبشة أغنى من ابنه فلماذا لم يُرد ابنه أمة عن هذه الحماقة وكيف ترك الكاهن الخزاعي يستجيب لما طلبه هاشم من جلاء أمة عن مكة عشر سنين، والحقيقة فيما يبدو أن أمة قد يكون قد نفّس على عمه مكانه فوقعت بينها مفاخرة أو تحَدّ وتدخلت قریش للصالح، وقد يكونوا طلبوا رأي هذا الكاهن فافق بأن من عليه الحق أو المخطيء يغرم خمسين ناقة سود الحلق تنحر للناس، وخسر أمة وغرم وترك مكة ليطلب المال والغنى عن طريق التجارة في الشام، وخرج إلى الشام وليس من الضروري أن يكون قد نفّس من البلد أو ظل بعيداً عنه عشر سنين، لأن معظم أولاده ولدوا ونشأوا بمكة، وعبد شمس في هذا كله مع أخيه دون ابنه، وسيظل معه وعندما يتوفى هاشم لن يطلب عبد شمس الرئاسة، بل تركها للمطلب، ربما لأنه لم يشأ أن يتحمل مغارمها، ثم جاء الرواة بعد الإسلام وبعد شبوب العداوة بين بني أمة وبني هاشم، فنظروا في الحكاية وصاغوها صياغة رجعية، فجعلوا عبد شمس أولاً يولد مع هاشم وأصبح أحدهما لاصقة بحبته الآخر فكان لا بد من الفصل بينهما بالسلاح، فكانت تلك مما رعموا أول عداوة بين بني أمة وبني هاشم إذ ذاك ثم بالعوا في تصوير ما كان بين هاشم وابن أخيه ووضعوا في ذلك كلاماً مروراً كثيراً. والحق أن

عداوة بني هاشم وبني أمية إنما أخذت صورتها الدموية يوم بدر، وقد تولى اثنان من أبطال بني هاشم هما علي بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب تحطيم بيت أمية، وهما معاً قصيا في ذلك اليوم على نحو خمسة عشر من كبار بني أمية وأحلافهم، فكانوا أحفل الناس بالمصيبة بعد بيت محروم الذي تحطم بصورة حاسمة يوم بدر وعلي وحمزة لم يجتهدا هذا الاجتهاد في ضرب بني أمية لاسيما كانا يحملان ضغناً لبني أمية وإنما كانا يحاربان في سبيل الإسلام ويقضيان على خصومه، وهما نظرا إلى ما فعلا يوم بدر على أنه جهاد في سبيل الإسلام ونصر له، وكذلك نظر إليه رسول الله ﷺ، ولكن المصاب المكلوم ينطوي دائماً على الغيظ والحقد، وأبو سفيان بن حرب الذي لم يحارب في بدر سيتولى قيادة الجبهة المعادية للإسلام بدافع الرغبة في الثار لا غضباً لفريش وسيكون حقد بني أمية على بني هاشم ابتداء من يوم بدر نقطة من نقاط الاختلاف الجوهرية بين طبيعة بيت بني هاشم وطبيعة بيت بني أمية وموقف كل منهم في أمة الإسلام فالأولون أهل عقيدة ومبدأ والآخرين أهل عصبية وأحقاد قبلية تحولت بعد الإسلام إلى أحقاد سياسية.

قام المطلب بن عبد مناف بما كان يقوم به أخوه هاشم. والمطلب وبنيه كانوا من أصغر بيوت قريش، ولم يعرف عنهم مال ولا ذُكروا بعلو المكانة في قريش يوم ذاك. كان للمطلب أولاد كثيرون لم يظهر منهم إلا أبو الحارث عبيدة ابن الحارث بن المطلب وهو من قدماء المسلمين، اسلم قبل أن يدخل رسول الله دار الأرقم ويدعو فيها، وكان أسن من رسول الله بعشر سنين، ولم يكن في المسلمين يومئذ من يكبر رسول الله في السن إلا عبيدة هذا، وقد أقامه الرسول على شاي سرية أرسلها، وهي السرية التي اتجهت إلى الطريق التجاري وتعرضت للعبد الذي كان فيه أبو سفيان. وتحاجز الحيان ولم يقع قتال إلا ما كان من رمي سعد بن أبي وقاص بسهم يقال إنه أول سهم رمي في الإسلام. وقد حضر عبيدة بن الحارث بدراً وجرح فيها ومات متصرفه منها. وقد اقتطع

الرسول بني المطلب خطة في المدينة بعد الهجرة واشتهر منهم ركانه بن عبد يزيد ابن هاشم بن المطلب الذي صرعه رسول الله ﷺ والسائب بن عبد يزيد بن هشام مشهور عندنا لأنه الجد الأعلى للفقير الكبير محمد بن ادريس الشافعي

لا غرامة إذن أن يثقل عبء تراث هاشم بن عبد مناف على أخيه المطلب، وغريب أن عبد شمس لم يتقدم ليحتل هذا المنصب الذي طلبه ابنه، ومن الممكن أن يكون قد مات بعد وفاة أخيه بقليل لأن سياق خبر موت هاشم يفهم منه أن عبد شمس مات بعد موت هاشم مباشرة، ولكن المطلب على أي حال تحمل هذا العبء حتى تنازل عنه لابن أخيه عبد المطلب بن هاشم. وهذا التنازل في ذاته غريب لما نعلم من حرص العرب على المناصب مهما تواضعت، فكيف يركز كهذا هو أشبه برياسة - ولو شرفية مكلفة - لقريش كلها.

وليس هذا هو الأمر الغريب الوحيد في سيرة عبد المطلب، لأن قصته كلها أشبه بالأسطورة، وخبره في حفر بئر زمزم يروى بالفعل في صورة أسطورة من القصص الشعبي، وعندما رواها د. طه حسين بأسلوبه البديع جعلها بالفعل على هامش السيرة كأنها في إحساسه - ليست من صلب السيرة.

ولكن جماعة رواتنا يروون القصة كلها وكأنها تاريخ صحيح، ونحن هنا نتابعهم دون أن نعلق على هذا القصص، لأنه في الحقيقة لا يمس لباب الموضوع لأن لبابه هو عبد المطلب نفسه وما فعل بعد أن صارت له الرفادة والسقاية ثم رياسة قريش بعد ذلك.

وأم عبد المطلب فيها يقال خزرجية من المدينة، وهي سلمى بنت عمرو ابن زيد من بني غنم بن عدي بن الحجار، وهذا هو اسمها عند ابن حزم^(١)، ويستوقف نظرنا أن ابن حزم عندما ذكر أنساب بني عدي بن الحجار لم يذكر سلمى فيهم، كأنها كانت مذكورة في أنساب قريش ولا ذكر لها في أنساب

(١) ابن حزم، جمهرة ص ١٤

الخزرج . وقد تزوج هاشم من خنجرية أخرى هي هند بنت عمرو بن ثعلبة من بني غنم من عوف بن الخزرج . ولم يجمع رجل من العرب في نسائه التنوع الذي نجده في نساء هاشم ، فها هو قد تزوج اثنتين من الخزرج وواحدة من بني المصطلق من خزاعة وواحدة من بني سعد من قضاة وواحدة من بني مازن ابن صعصعة من قيس عيلان وواحدة من ثقيف ، فهؤلاء ست نساء أنجب لهن أربعة ذكور وخمس إناث ، ولم يكن لهاشم من سلمى بنت عمرو الخزرجية هذه إلا ولد واحد هو شيبة (الذي سيصبح عبد المطلب) وجارية تسمى رقية ماتت صغيرة ، ولم يكن شيبة أكبر أبناء هاشم ، بل كان أكبرهم عمراً وأمه هند بنت عمرو وهي الخزرجية الأولى ، وسلمى هي الثانية^(١) .

فكان هاشماً التاجر السفار ، كان في نفس الوقت مزواجاً ينزويج في القبائل التي يتاجر معها ، ولا نجد بين نسائه قرشية .

وكان هاشم قد رأى سلمى في السوق في المدينة وهي تباع وتشتري ، فأعجب بها وبجمالها ، وكانت - فيما يقول ابن هشام - لا تنكح الرجال لشرفها في قومها حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها ، إذا كرهت رجلاً فارقت^(٢) ، فأنجبت منه ولداً هو شيبة ، وابنة هي رقية التي ذكرناها ، فتركه هاشم عندها فتشاً وكبر في بني عدي بن النجار الخزرجيين في المدينة . وهذا هو السبب فيما يذكر عادة في كتب السيرة من أن بني عدي بن النجار أخوال النبي ﷺ ، وهم ليسوا أخوالاً مباشرين له على الحقيقة ، وإنما هم أخوال جده عبد المطلب ، ولكن الأمر انسحب عليه ﷺ تمهوزاً ، وأصبحت له أهمية خاصة فيها بعد ، أي بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ونزوله في منازل بني النجار ويبدو أن العلاقة اتصلت بين بني النجار وبني هاشم ، لأن عبدالله والد الرسول ﷺ أُمُّهم في

(١) ابن الكلبي ، برواية ابن هشام في السيرة ١٢/١ ورواية السويدي في نهاية الأرب ٣٨/١٦ -

(٢) ابن هشام ، السيرة ١٤٥/١

رحلته ، وعندهم توي في المدينة

وشأ شبة في المدينة في كَنَف أمه ، فلما أصبح وصيباً أي في حوالي الثانية عشرة من عمره ، ظهرت منه بحانة وشعوف على إخوانه ، وكان يعرف أن أباه هاشم بن عبد مناف ، فلما بلغ المطلب ذلك قرر الخروج إلى المدينة ليأتي بابن أخيه حتى لا يشب بعيداً عن قوم أبيه ، وللقصاصين في ذلك قصص وشعر كثير ، والمهم أن المطلب ذهب بنفسه وأتى بابن أخيه إما بموافقة أمه أو خلسة منها ، فلما عاد به إلى مكة أودفه خلفه على الناقة ، وصار إذا سأله الناس : من هذا معك؟ قال هذا عبدي يريد هذا ملكي ، ويقال إنه كان يقول : هذا عبد ابتعته بيشرب ، ومن هنا غلب عليه اسم عبد المطلب ، مع أنه لم يلبث أن صارحهم بأنه شبة ابن أخيه عمرو - وهو هاشم - نشأ عند أخواله وذهب هو فأتى به حتى لا يشب غريباً عن قوم أبيه وهم قريش .

وشب عبد المطلب ودخل مداخل الرجال وأصبح من شباب قريش الذين تتعلق بهم الأمال ، والنصوص لا تذكر لنا هنا كيف ولي عبد المطلب السقاية والرفادة بعد هاشم ، وكل ما نقوله هو أن عبد المطلب كان جسيماً وسيماً ، طويلاً فصيحاً ما رآه أحد إلا أحبه . قال الواقدي : وأقام عبد المطلب بمكة حتى أدرك ، وخرج المطلب بن عبد مناف تاجراً إلى أرض اليمن ، فهلك بردمان من أرض اليمن ، فولي عبد المطلب بعده الرفادة والسقاية ، فلم يزل ذلك يده وهو يطعم الحاج ويسقيهم في حياض الأدم (الجلد) حتى حفر زمزم ، فترك السقي في الحياض وسقاهم من زمزم ، فكان يحمل الماء من زمزم إلى عرفة ، فيسقيهم ، والله أعلم^(١) .

ومن الآن فصاعداً سنلاحظ انعكاس صورة رسول الله ﷺ وخلال له - كما تخيلها الرواة على جده عبد المطلب ، ومن ها أيضاً إلى وفاة عبد المطلب سنجد

(١) السويدي ، نهاية ١٦ / ٤٣

صعوبة في العثور على حيط التاريخ وسط فيض القصص والشعر الشعبيين، وابن اسحاق هنا يفقد حاسته التاريخية، فهو يحفن من القصص والشعر الشعبيين بكلتا يديه ويضع في جعبة سيرته، وقد تعرض بسبب ذلك لنقد كثير من حصومه، ونقل عنه معظم ذلك ابن هشام، وربما زاد فيه، والنقاد هنا على حق، لأن هذا الفيض من القصص أضرب في الحقيقة بصلب التاريخ، ومن أمثلة ذلك أن ابن اسحاق - برواية ابن هشام - يورد قصيدة في رثاء المطلب بن هاشم يصوره وكأنه كان أغنى الناس وأنه كان ينفق من ماله العريض في إطعام الحجيج وسقيهم، ولم يكتف بذلك بل أضاف أن الشاعر الذي قال هذا الشعر بعد أن فرغ من شعره قيل له - واسمه مطرود - دون اسم أو كنية أو نسب غير هذا - لقد قلت فأحسنت، ولو كان أفحل مما قلت كان أحسن، فقال: انظراني ليالي فمكث أباماً ثم قال... ثم يورد نص قصيدة تتخطى الصفحات الثلاث^(١).

والحقيقة أن عبد المطلب كان شاباً طموحاً وكانت له مواهب كثيرة أهمها بالنسبة لنا الآن هي قدرته على التعرف على مواضع الماء تحت الأرض وهي موهبة توجد عند قليل من الناس إلى يومنا هذا في بعض رجال مناطق الصحاري، وفي النواحي المصابة بالجفاف، وفي جنوب فرنسا وشمال اسبانيا إلى يومنا هذا رجال - معروفون بذلك يستدعيهم الناس للبحث عن مواقع الماء ليحفروا فيها ويجدوا الماء، وقد اشتهر بذلك ناس في اقليم أرتوا في جنوب غرب فرنسا حيث تسمى الأبار بالأرتوازية، وعند العرب الجاهليين كان الناس يرون شيئاً من الكهانة والعلم في الرجال الذين توجد فيهم هذه الملكة وكانوا عندهم موضع تجميل وتقدير.

وعبد المطلب كان يتمتع بتصيب كبير من هذه الموهبة، واليه تنسب آبار كثيرة في مكة وفي الطرق إليها، تعرف على مواضعها وحفرها بنفسه ووهبها

(١) ابن هشام، السيرة ١٤٧/١ - ١٥٠

غير أن عمله الأكبر في ذلك المجال هو حفر زمزم، والصوص تقول هنا إنه رأى في منامه طائفاً يأمره بحفر زمزم ويحدد له مكانها في الحجر بين صنمين لأساف ونائلة، فذهب مع ابنه الوحيد إذ ذاك وهو الحارث - وهذا يدل على أن عبد المطلب كان شاباً في ذلك الحين ولم يكد يحفر إلا قليلاً حتى طهر «الطي» وهو كثر فيه مثالا غزالي من ذهب وسيوف - كانت فيها يقال لجرهم، فلما اضطرت جرهم لمغادرة مكة رموا هذا الكنز في بئر زمزم وطموها. ونحن نقول إن أخبار ما فعلته جرهم لا بد قد وصلت عبد المطلب فقرر الحفر عنها، وكان من قبله يتهمون ذلك، لأن موضع زمزم كان بين صنمين لإلهين من آلهة العرب، ولكن عبد المطلب كان شاباً واسع الذهن بأسلاً لا يخاف، فتحدى قريشاً - كلها وحفر موضع الطي، ووجد الكنز ثم استمر يحفر حتى كشف عن ماء زمزم، وهذا العمل كان كبير الأثر في تاريخ عبد المطلب، فقد رأوا حسن طالعه بكشف الكنز ودقة علمه بالعثور على أكبر آبار مكة، . فَعَلَّتْ مكانته بين الناس، وأحسن هو التصرف، فضرب بعض الذهب صفائح خَلَّ بها أبواب الكعبة، ونازعه قريش في ملكية بئر زمزم، فأنبت لهم سعة علمه وحسن طالعه وحفر بئراً أخرى في موضع مغارة معطشة كانت قوافلهم تسير فيها^(١) فثبت لهم امتياز، فاعترفوا له بحقه في ماء زمزم، فلما اطمأن إلى ذلك جعل ماءها مشاعاً بين الناس، وأخذ يسقي الحجيج منها، وكانت زمزم أكبر حين في مكة وأحسنها ماء، فلم يبق في مكة من ينازع عبد المطلب الشرف والرياسة، وتولى الرفادة والسقاية وأصبحت له في مكة مكانة تشبه مكانة أبيه هاشم وجده قصي .

وكانت معرفة عبد المطلب بمواضع المياه جانباً مما امتاز به من الميل إلى

الدين والكهانة، فلما فتح الله عليه هذا الفتح اتجه ببعد نظره إلى الحج واهتم
بمناسكه مطمئناً بالاشتراك مع بقية القرشيين ووضع نظم الحج التي أعطت
بيت عبد المطلب مكانة رفيعة بين قريش وانتفع القرشيون بملكاتهم التجارية في
تحويل ماسك الحج إلى مصدر قوة ورزق عظيم وكسب لهم

وقد كانت في مكة آبار قليلة حفر بعضها رجال قريش بعد استقرارهم
فيها، ولكنها كانت آباراً صغيرة تختص بالواحد منها القبيلة الواحدة وتملكها،
فكانت لبني عبد شمس بئر تسمى الطوي، وكانت بأهل مكة عند البيضاء،
وحفر هاشم بن عبد مناف بئر بدر على قم شعيب بن طالب، وكان هاشم قد
جعلها للناس كلهم، وحفر أمية بن عبد شمس لنفسه بئراً تسمى الحفر، وحفر
بنو أسد بن عبد العزى بئر سقيفة، وحفر بنو عبد الدار بئر أحراد، وسبحفر
المطعم بن عدي بئر سجله. ولا بد أنه كانت في الموضع قبل ذلك آبار أخرى،
وإلا فكيف كان موضع مكة مسكوناً منذ الزمن القديم؟ ولكن هذه الآبار كلها
كانت صغيرة لا تكفي الواحدة منها إلا النفر القليلين، فلما اكتشف عبد
المطلب موضع زمزم وأعاد حفرها حظي البلد بمصدر ماء غزير فاتسعت أمام
أهلها سبل العمران، واستطاعوا أن يمدوا بأعهم في العناية بالحجاج بسقيهم
الماء الوفير ولهذا تعد إعادة حفر زمزم على يد عبد المطلب خطوة كبيرة نحو
بهوض مكة في ظل قريش.

وكذلك كان القرشيون قبل دخولهم مكة قد احتفروا آباراً بمنازهم خارج
البلد منها بئر ترجع إلى أيام مرة بن كعب وكلاب بن مرة، وإلى كلاب بن مرة
أيضاً تنسب بئر خم، وهي المشهورة باسم غدير خُم، وحفروا بئراً أخرى
تسمى الحفر، وكان ذلك قبل دخولهم مكة كما قلنا^(١).

ونسترسل بعض الشيء مع القصص الشعبي فنقول إن عبد المطلب نذر

(١) ابن هشام، السيرة ١٥٧/١-١٥٨

لله أنه إذا أعطاه عشراً من النبيذ يقصون معه ويعربهم أمره ليتحرون آخرهم
 للكعبة، وبالفعل رزق تسعة أساء آخرين غير الحارث، وكان آخرهم عبدالله
 والد الرسول ﷺ، وكان هو وأخوه الربيع شقيقين، أمهما فاطمة بنت عمرو بن
 عائد من بني مخزوم بن يقطعة، فلما أراد تقريبه لبليل إله قريش - وكان صممه في
 حويف الكعبة - قامت قريش تعترض عليه بحافة أن يصبح نحر الولد وهاء بندر
 عادة جديدة يجري عليها القرشيون، وكان أشد الناس اعتراضاً بهو مخزوم، لأن
 عبدالله ابن أختهم، واتفق أمرهم على أن يسألوا في الأمر امرأة عرافة بالحجاز
 كانت تسكن بالمدينة، لأن مكة في نهاية، فذهبوا إليها فوجدوها في خيبر لبعض
 شأنها، فذهبوا إليها واستشاروها فطلبت إليهم أن ينظروها يوماً حتى يأتيها
 تابعها، فلما جاءوها من الغد قالت لهم إن تابعها قد أتاها وأقنى بأن يضرب
 عبد المطلب بالقداح، فإذا خرج القدح على ابنه عبد الله زاد في دية الدم عشرة
 من الأبل، وكانت الدية عشرة من الأبل حتى ذلك الحين، ففعل عبد المطلب
 وما زال يزيد الأبل عشراً كل مرة حتى بلغت الدية مائة من الأبل، ثم خرج
 قدح الأبل ففرح عبد المطلب بنجاة ولده وأصبحت دية الرجل من ذلك
 الحين - فيها تزعم القصة - مائة من الأبل، ولما استرسلنا مع هذه القصة لنرى
 كيف كان القرشيون في ذلك الحين يلجأون إلى الكواهن والعرافين والعرافات
 في كل ما أهمهم من الأمر، وقد ذكر محمد بن حبيب النسابة في كتاب المنطق
 في أخبار قريش أمثلة كثيرة من هذا النوع.

ونظر عبد المطلب بعد أن صارت له الرفادة والسقاية والندوة في أمر
 الكعبة فوجد أنها محج العرب، يجتمعون فيها للحج والتجارة بعد الأسواق،
 ولاحظ أن العرب حريصون على الحج إلى هذا البيت، ثم إن مناسك الحج
 كانت مورعة بين أيدي قبائل مختلفة، فهناك قبيلة تسمى صوفة كانت تنزل
 ساحية عرفات وتشرف على إقامة الحج من هناك، ويقال إن صوفة من فروع
 إلياس بن مضر ويقال أيضاً إن صوفة من بقايا حريم، ولكن الغالب أنها من

قيس عيلان من مضر، وكانت حماة من بني عَدَوَان من قيس عيلان ضاربة بناحية مُزْدَلْجَة، فكانت تشرف على أمور الحجيج عند مزدلفة ثم أن صوفة كانت تأخذ محرر الحجيج من مبي بعد انتهاء الحج فلا يطلق أحد إلا بإدائها، فضايق الناس بأمرها، فرأى عبد المطلب أن يجمع ذلك كله في يده، فاتفق مع حراة وغيرها من القبائل هناك على أن يتولى هو وبنوه بالاشتراك مع خراة الاشراف على شئون الحج كلها، وقد ذكرنا أنه كان قد ساد منطقة الحرم بمكة بما كان ينفق على الحجيج من ماله في الرفادة والسقاية وراحة الحجاج، هذا بالإضافة إلى ما كان له من رئاسة دار الندوة، وهي مجمع القرشيين ودار شورايم، لا يقررون أمراً من أمورهم إلا فيها، بل كانوا يعلنون فيها بلوغ البنات أي وصولهن إلى سن الزواج، وفيها كانت تعقد الأنكحة، وإذا أرادت قریش أن تتخذ قراراً بالحرب كان ذلك في دار الندوة، وفيها يعقد اللواء، أي لواء الحرب، وذلك كله كان يكلف عبد المطلب مالاً كثيراً، فلما عرض عليهم أمر تنظيم الحج وافقوه، وقام بتنظيم أمر المناسك والمواقف في عرفات ومزدلفة ومبى وحراسة الطريق من العقبة وهي الجمرات الصغرى حتى مكة، وفي هذا الموضع كانت تنزل بعض بطون كنانة في المساحة المعروفة بالمخضب وتعرف أيضاً بخيف كنانة أو بطحاء مكة، فنظم عبد المطلب أمر ذلك كله بالاشتراك مع القبائل الضاربة في كل موضع، وكان عبد المطلب ذكياً فكان لا يدخل في نزاع مع قبيلة ما دام يصل في النهاية إلى ما يريد وهو الاشراف الأعلى، فتم له ما أراد - وضبط أمور الحج وقدم للحجاج الماء في عرفات ومزدلفة ومبى على النحو الذي كان عليه الحج قبل الإسلام، وهو قريب مما صار عليه بعد الإسلام كما نرى في كتاب الأصنام للكلبي والفرق الجسيم ها هو أن الحج قبل الإسلام كان إلى الكعبة والأوثان التي وصعتها الفئائل حول الكعبة ويقال إن عددها كان ثلاثمائة وستين صنماً، أما بعد الإسلام فقد أصبح الحج لبيت الله .

والغالب أن عبد المطلب هو الذي جعل كل قبيلة تصنع عند الكعبة

صورة من وثنها أو معبودها حتى تحج إليه عند إمامها بمكة في الموسم، وكانت كل قبيلة لها صمها في مارها أو قرياً منها، وكانت تطوف به وتقوم سطقوس معينة خاصة بها كما نرى في كتاب الأصنام للكلي، فكانت فكرة عبد المطلب في وضع صور من تلك الأوثان أو رموزها حول الكعبة فكرة صائبة، فصار الحج إلى الكعبة حجاً لقبائل العرب جميعاً بعد انتهاء الأسواق في ذي الحجة من كل عام، وإن كان هناك ما يدل على أن بعض القبائل كانت تحج في ذي القعدة، فعلا أمر عبد المطلب وازداد جاه قريش نتيجة لذلك، وانضاف إلى عناصر قوتها عنصر الدين بالإضافة إلى التجارة وحسن السيادة والاجتهاد في كسب ود القبائل مما كان قصي وابنه عبد مناف قد حققاه على ما ذكرناه، وبذلك يكون عبد المطلب قد خطا الخطوة الحاسمة في بناء مجد مكة وجاهاها بين القبائل، وأظن أن هذا هو الذي أراده ابن اسحاق عندما قال بعد كلامه عن إنشاء عبد المطلب لدار الندوة قرب بيته وأمره على ما كان يتقرر أو يعمل فيها، «فكان أمره في قومه من قريش في حياته ومن بعده كالدين المنيع لا يعمل بغيره، واتخذ لنفسه دار الندوة، ففيها كانت قريش تقضي أموراءها»^(١). وفي موضع آخر يقول ابن اسحاق: «ثم ولي عبد المطلب بن هاشم السفاية والرفادة بعد عمه المطلب، فأقامها للناس، وأقام لقومه ما كان أبائهم يقيمون قبله لقومهم من أمرهم، وشرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه، وأحبه قومه وعظم خطره فيهم»^(٢).

- ولكن قريشاً - كما سنرى - أدخلت شيئاً من التغيير في هذا النظام - ربما في أواخر أيام عبد المطلب وكان ذلك لأسباب تجارية في الغالب، والمهم لدينا أن عبد المطلب أكمل بناء قوة قريش بما نظمته من أمور الحج، فارداد اقبال الناس على مكة في الموسم. وعرفت قريش كيف تفيد أعظم الفائدة من التجارة

(١) ابن اسحاق، رواية ابن هشام ١٣٢/١

(٢) ابن اسحاق، رواية ابن هشام ١٥٠/١.

ومن الدين معاً، هذا بالإضافة إلى ما كان القرشيون قد أضافوا إلى قوة بلدهم، كل بحسب ما استطاع.

وقد عُمِّر عبد المطلب طويلاً، فيقال إنه توفي عن اثنتين وثمانين سنة، وكانت سن رسول الله ﷺ إذ ذاك ثمانين سنة، إذ إن عبد المطلب حضنه أي أخذَه في رعايته بعد وفاة أمه السيدة أمة بنت وهب، قال ابن اسحاق: «وكان رسول الله ﷺ مع أمه أمانة بنت وهب وجده عبد المطلب بن هاشم في كلاءة الله وحفظه ينبتُه نباتاً حسناً لما يريد به من كرامته، فلما بلغ رسول الله ﷺ ست سنين توفيت أمه أمانة بنت وهب بالأبواء، بين مكة والمدينة، وكانت قد قدمت به على أخواله بني عدي بن النجار تزيهه إليهم، فماتت وهي راجعة به إلى مكة. قال ابن هشام: «أم عبد المطلب بن هاشم سلمى بنت عمرو النجارية، فهذه الختلة التي ذكرها ابن اسحاق لرسول الله ﷺ»^(١)، فانفرد عبد المطلب برعاية رسول الله ﷺ. وظل الرسول برعاية عبد المطلب سنتين حتى توفي عبد المطلب، جاء في التويري: «وكانت وفاة عبد المطلب بن هاشم لثمان سنين من عمر رسول الله ﷺ بالحجون وهو يومئذ ابن اثنتين وثمانين سنة، وقيل ابن مائة وعشر سنين، حكاه السهيلي قال: وهو أول من خضب بالسواد من العرب»^(٢)، وقد رجعنا إلى نص السهيلي فوجدناه يقول إن عبد المطلب توفي عن مائة وأربعين سنة، ولم نجده يعتمد على شيء يعول عليه وقد نقل ذلك الزرقاني في شرح المواهب اللدنية ولا سند له كذلك، وفي السيرة الحلبية أقوال أخرى.

فإذا أخذنا بأقرب هذه الأقوال إلى الاحتمال قلنا إن عبد المطلب إذا كان قد توفي وسنه ٨٢ سنة، فتكون وفاته قد وقعت سنة ٥٧٩ م. لأن رسول الله ولد سنة ٥٧١ م وكانت سنه ثمانين سنة عند وفاة عبد المطلب، ويكون عد

(١) ابن اسحاق، بروايه ابن هشام ١٧٨/١

(٢) انظر السهيلي، الروص الأم ٥/١.

وشرح المواهب اللدنية للزرقاني ١٨٩/١ والسيرة الحلبية ١١٢/١

المطلب قد ولد سنة ٤٨٧ ميلادية على وجه التقريب . وتولى رئاسة قريش في الغالب بعد ذلك بحوالي ٢٥ سنة ، لأنه لم يكن له من الولد عندما حفر زمزم إلا الحارث ، أي أنه - أي عبد المطلب - كان إذ ذاك شاباً وأنه الحارث كان يعاونه وهو بعد علام في العاشرة مثلاً ، ومعنى ذلك أن عبد المطلب عندما حفر زمزم كان في الثلاثين من عمره إذا سرت مع أقرب التصورات إلى الاحتمال ومن الممكن أن نقول إنه تروح في السادسة عشرة لكي يحب ويصبح ابنه في العاشرة وهو في السادسة والعشرين من عمره والفرق قليل على أي حال .

تحقيق في تاريخ عام الفيل :

وهذا الذي نقوله يدعونا إلى أن نحاول تحديد عام الفيل . والرأي عند مؤرخينا أن عام الفيل كان عام ولادة الرسول ﷺ ، وهو مستبعد لأن عام الفيل على هذا القول كان وسن عبد المطلب ٧٤ سنة على الأقل ، وإذا تابعنا قول الزرقاني في المواهب من أن عبد المطلب توفي وسنه ١٠ سنوات فأكثر فيكون عام الفيل كان وسن عبد المطلب ١٠٢ سنة ، لأن عبد المطلب مات وسن رسول الله ثمان سنوات أي سنة ٥٧٨ ميلادية .

وقد استبعدنا أن يكون عام الفيل هو عام مولد رسول الله لأن عبد المطلب لا بد أن تكون سنه في هذه الحالة إما ٧٤ عاماً أو ١٠٢ من الأعوام ، وسنرى بعد قليل أن غزو أبرهة للحجاز لا بد أن يكون قد وقع وسن عبد المطلب أقل من ذلك بكثير وواقع الحال أن غزو أبرهة - وهو إبراهيم - للحجاز كان وعبد المطلب شاب .

وأراجع مع القارئ تفاصيل ما وقع لأبرهة في الحجاز لعلنا نستطيع تقدير سن عبد المطلب على وجه التقريب إذ ذاك ، فإن أبرهة عندما أزمع المسير إلى الحجاز هدم الكعبة بعد أن بنى القليس^(١) وهي كنيسة نجران . وكان رحل

(١) تركت لقط القليس دون شكل وموصفاً تشكله هكذا القليس وهو فيها نطير حطالان =

من أهل اليمن يسمى ذا نعر قد تعرض لجيش أبرهة فانهزم وأسر وحمله أبرهة معه، وقصد أبرهة الطائف ليهدم صمم مائة لها حاسباً أنه الكعبة، ولكن الثقيفين يرشدونه إلى كعبة مكة، ويتطوع رجل يسمى أسا رعال أو أبا رغال ليكون دليل الأحباش. وقد مات أبو رغال قرب مكة فرحمت العرب قبره.

والأخبار التي لدينا عما كان بين أبرهة وعبد المطلب وكذلك ما دار بينهما من الحديث لا تدل على أن عبد المطلب كان شيخاً مسناً في السبعينات أو الثمانينات من عمره. ونحن نتكلم هنا عن عصور بعيدة كان الرجل فيها إذا بلغ الخمسين أصبح شيخاً.

يقول الخبر الذي يرويه ابن اسحاق عن هذه الغزوة إن أبرهة عندما اقترب من مكة وصل موضعاً يسمى المغس، ومن هناك بعث رجلاً من قواده يسمى الأسود بن مقصود فاجتاح نواحي مكة بخيله، وساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم، وهو يومئذ كبير قريش وسيدهم، فهتت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بهذا الجزء من سائر الناس بقتاله، ثم عرفوا الا طاقة لهم به فتركوا ذلك. ثم أرسل أبرهة رسولاً يسمى حناطة الحميري إلى مكة وكلفه بأن يسأل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها ويقول له إن أبرهة لا يريد قتالهم ويأتيه بكبير القوم، وتحدث حناطة الحميري إلى عبد المطلب، فقال له عبد المطلب: «والله ما نريد حربه وما لنا بذلك طاقة. هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام -

« القليس كان كيسة، والكيسة في اللاتينية واليونانية Ecclesia (اكليسيا) وهذا قريب من رسم قليس إذا نحن شكلناه هكذا وهو المقول هنا وفي بلاد الشام يذكر العرب أماكن كثيرة اسمها القليس أو القلس، وكلها تعريبات للفظ اكليسيا ومن هذا القبيل أيضاً ما يقوله النصوص من أن اسم العيل الذي كان مع أبرهة محمود وهذا مستغرب لأن أبرهة لم يكن ليعطي فيه الذي أن به من الحشة اسم محمود ولكن هذا اللفظ قريب من اسم لاتيني للعيل الكبير momoth وهو العيل الوحشي الكبر اما الاسم الذي عرف به اليونان العيل المستأنس الذي نعرفه فهو elephant وهو اسمه في اللغة المصرية القديمة، ومن المعروف أن اليونان أول ما عرفوا العيلة كان في حوث مصر عند حرية العيلة وهي إلفانتين

أو كما قال - فإن يمنعه منه فهو بته وحرمة ، وإن يُخل بينه فوالله ما عندنا دفع عنه - فقال له حنطة : فانطلق معي إليه ، فإنه أمرني أن آتيه بك ،

وانطلق عبد المطلب مع حنطة للقاء أبرهة ، وكان معه بعض بنيه مما يدل على أن ذلك وقع في منتصف حياته بعد أن أصبح له من الأبناء عدة ، ولو كان عبد المطلب طاعاً في السن كما يفهم من المصوص التي تقول إن غزو أبرهة للحجاز كان عام مولد رسول الله ﷺ لما سار معه ليكلمه في أمر مائتي من الأبل واكتفى بارسال بعض بنيه . ووصل عبد المطلب إلى معسكر أبرهة وسأل عن ذي نجر اليماني الذي كان أسيراً في جيش أبرهة وسأله إن كان يستطيع معاونته ، فقال ذو نجر إنه أسير لا يستطيع شيئاً ، ولكن له صلة بسائق فيل أبرهة واسمه أنيس ، وأنه يستطيع سؤال أنيس أن يتوسط لدى أبرهة ليأذن لعبد المطلب في لقائه ليكلمه في أمر المائتي ناقة التي استاقها جيش أبرهة فوعده أنيس بذلك وأدخله على أبرهة . وهذا الموقف المتطامن جداً من عبد المطلب لا يدل على أنه كان على قدر عظيم من المكانة ، ثم إنه عندما لقي أبرهة لم يطلب منه إلا المائتي بعير التي استاقها جنوده ، وهو لم يطلب من أبرهة مثلاً أن يرد ما استاق جنده من أبل غيره من القرشيين وأموالهم ، وهو يتكلم عن نفسه لا عن قريش أو مكة ، بل هو لا يسأل أبرهة أن يرد أموال حلفاء قريش من خزاعة والأحابيش . ولو أن عبد المطلب كان إذ ذاك سيد قريش كلها وأكبر شخصيات مكة لطالب بأموال قومه وحلفائهم ، هذا فضلاً عن أنه لم يقل شيئاً عن الكعبة وحرمتها والمفروض أن عبد المطلب كان سادتها والقائم بأمرها ، وكان المفروض أن يذكرها ولو مجرد ذكر ويجتهد في دفع الضرر عنها .

ولكن الذي ذكر البيت كان أبرهة ، فقد أدهشه أن يقال له إن عبد المطلب كبير قريش وسيد الطحاء وسادن الكعبة ثم نجده يتخلى عن مسئوليته ولا يكون له هم إلا بوقه التي غنمتها قوات أبرهة ، وسأله في ذلك ، فكان رده «إي أنا رب الأبل ، وإن للبيت رباً سيمنعه» ويقول أبرهة : «ما كان ليمنع مني» ويرد عبد المطلب : «أنت وذاك»

ويستوقف النظر أنه في حين أن عبد المطلب تختل عن البيت لأن له - فيما قال - رما سحيميه تقدم رئيسان عريبان آخران هما معمر بن نفاقة بن عدي سيد بني بكر بن عبد ماة من كنانة وخويلد بن وائلة المهدي سيد هذيل وفعرصوا على أبرهة ثلث أموال ثمامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت، فأبى عليهم. يقول ابن اسحاق: واللّه أعلم أكان ذلك أم لا. فرد أبرهة على عبد المطلب الإبل التي أصاب له. فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في شعب الجبال^(١) مخوفاً عليهم من معرة الجيش، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله، ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب وهو أخذ بحلقة باب الكعبة:

لا هُم إن العبد مـ نزع رحله فامنع خالك
لا يُفْلِنُ صليهم ومخالهم عدوا عمالك

وأصحاب السيرة يسوقون الخبر هذا المساق تمهيداً لما كان من هلاك جيش أبرهة بالطير الأبايل التي ترمي بحجارة من مسجيل كما قال الله سبحانه في سورة الفيل. والقرآن هو الحق فيما قال، ولكن أصحاب السير ليسوا على حق أو منطلق فيما ذهبوا إليه.

لأن عبد المطلب لم يكن نبياً أو رسولاً أو يعلم الغيب حتى يكون على ثقة مما سيحدث لجيش أبرهة. بل هو كان رجلاً وثنباً يقف في مواجهة رجل مسيحي هو أبرهة أو إبراهيم، وأبرهة لم يكن يريد هدم البيت لأنه بهت الله الحرام الذي بناه إبراهيم عليه السلام فما كان له بذلك علم، ولو علمه وأيقن به لما فكر في هدمه وهو المسيحي الذي يعرف عن إبراهيم عليه السلام أحسن مما يعرف عبد المطلب - وفي العهد القديم - ولا بد أن يكون أبرهة على علم به

(١) أي في رؤوس الجبال وأطوائها

إذا كان مسيحياً تقياً يبنى الكنائس كما تقول النصوص . وليس من المعقول أن رجلاً يبلغ به الإخلاص للمسيحية أن يبني كنيسة في محران ثم يقدم على هدم بيت بناءه نبي الله ابراهيم الخليل . ولكن أبرهة أتى ليهدم بيتاً قيل له إنه رمز الوثنية وجميع الأوثان .

ولكن روايتنا يسوقون الأخبار ويبرهون منا أن نفهمها على طريقتهم وروايتهم للأخبار كما رأينا سقيمة لا تستقيم مع المنطق وتفسيرهم لها ساذج .

والذي نستطيع قوله - متمشين في ذلك مع ما جاء في القرآن الكريم - وهو قول الحق الوحيد في هذا المقام - هو أن أبرهة كان ملكاً يوسع ملكه ، ويريد الناس جميعاً أن يدخلوا في دينه ويصلوا في الكنائس فأحب أن يقضي على ذلك المذبح الوثني في رأيه دون أن يعلم أنه بيت الله الذي بناه ابراهيم عليه السلام فرده الله سبحانه عن ذلك بما أرسل على جيشه حفاظاً على بيته المكرم .

والمهم لدينا هنا أن عبد المطلب أو أن هذه الغزوة لم يكن قد أصبح سيد قريش أو سيد البطحاء أو أكبر رجل في تهامة . إنما كان سيداً من سادات قريش إذ كان في تهامة إذ ذاك سادات عرب آخرون أكبر منه وأقوى ، منهم سيد بني بكر بن عبد مناة بن كنانة وسيد هذيل ، وهما اللذان تقدما لانقاذ البيت من التدمير فعرضاً ثلث أموال - تهامة ، وهو أمر لم يستطع عرضه - ولا عرض جزء منه - عبد المطلب لأنه بحسب استنتاجنا من النصوص كان لا يزال يبني مركزه ومكانته . وقد وصل إلى الرفادة والسقاية وسدانة الكعبة بعد ذلك وإنشاء دار الندوة لكي يشترك مع بقية رؤساء قريش في إكمال عمل قصي وعبد مناف وهاشم مما حمل مكة أكبر مركز مالي ديني حضاري في الحجاز أولاً ثم الحرية كلها بعد ذلك .

وهذا كله وصل إليه عبد المطلب فيما بعد وعندما أتم عمله هذا كان قد

وصل إلى الشجوحة وأصبح بمواحه التي ذكرها بعضها سيد قريش وصاحب
المكانة الرئيسية في مكة، وهنا وهو يقترب من الشمالين - ولد رسول الله ﷺ،
وكانت قد مضت على عام الميل سنوات طوال.

وقد تنعما هما الأخبار كما يروها أوثق مؤرخينا فيما يتصل بهذا الحادث
والسيرة النبوية وتاريخ قريش قبل الإسلام، أما ما يرد بعد ذلك في تاريخ مكة
للأزرقى وفي تفاسير المفسرين فقد جاء كله بعد ذلك وهو قد أوغل في القصص
الشعبي من بعض تفاصيل ابن اسحاق. وقد تتبعنا رواية هذا الأخير والتزمناها
بغاية الدقة والتزمنا كذلك المنهج التاريخي الدقيق في تفسيرها والاستخراج
منها، فخرجنا بغير النتيجة التي قدروها. ولا تعارض مع عاطفة أي مسلم - فيما
أظن - إن يقال أن رسول الله ﷺ لم يولد في عام الفيل، وإنما بعده بثلاثين سنة على
أقل تقدير^(١).

قريش في أوج قوتها قبل الإسلام :

نجت مكة وحررها من التخريب على أيدي أبرهة بفضل الله سبحانه
وعادت قريش تواصل صعودها، لأن أبرهة الصباح عاد إلى اليمن ببقايا جيشه

(١) ابن اسحاق، السيرة برواية ابن هشام ٤٤/١ وما بعدها - الأزرقى، أخبار مكة. وشفاء الغرام
بأخبار البلد الحرام للفاسي بتحقيق فستفالد في كتابي:

Wüstenfeld, Chroniken der Stadt mekka.

الجزءان الأول والثاني. وقد فصلت الرجوع إلى هذه الطبعة على طبعي القاهرة للكتابين لأنها
أصح وأقرب، وسيرة ابن هشام في المواضع المشار إليها آنفاً، وأظهر فهارس الأحياء طبعة بولاق
الذي عمله المنشرق جويدي - وترجمه محمد مسعود، لأن الطبعات المصرية للأحياء لا
فهارس لها، والعقد الفريد طعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بتحقيق أحمد أمين وأحمد
الريان - وآخرين، وأسلب الأشراف للأزرقى، الجزء الأول بتحقيق محمد حميد الله، طعة
دار المعارف، وتاريخ البعقري طعة بيروت، والبكري معجم ما استعجم بتحقيق
مصطفى السقا المقدمة ومواد مكة والحجاز ونهامة، والطر كذلك Henri Lammens, La

Méque à la veille de l'Hégire. Beyrouth 1910

ولم يحاول غزو الحجاز مرة أخرى، واستتم حكمه ٢٣ سنة وحلفه ابنه يكسوم
أو يقسوم محكم ١٩ سنة ثم خلفه مسروق محكم ١٢ سنة.

وفي نهاية حكم مسروق هض من أمراء حمير رجل يسمى سيف بن ذي
يزن واستطاع أن يتغلب على الأحباش بمعاونة كسرى فارس الذي أرسل إلى
اليمن قائداً من قواده يسمى وهذب عاون سيف بن ذي يزن على التخلص من
سلطان الأحباش، ثم عاد إلى بلاده بعد أن اطمأن كسرى إلى أنه أبعد
الأحباش حلفاء الروم عن اليمن.

وبعد أن استتب الأمر لسيف بن ذي يزن قضى على بقية الأحباش وأعاد
سلطان حمير ولكن الحميريين لم يعودوا إلى سابق قوتهم قبل أن يفزوا الأحباش
ببلادهم واقتصر سلطانهم على صنعاء أما بقية نواحي اليمن وعافدها فقد استبد
بالأمر في كل منها رجل من الأذواء جمع هذو وهو السيد أو صاحب السلطان
وتلك هي نهاية الطبقة الثانية من ملوك حمير التي يذهب المؤرخون أنها انتهت في
حدود ٥٣٣ ميلادية أي في نحو العصر الذي نتكلم عنه^(١). وكل هذه الأحداث
وقعت قبل ميلاد الرسول! ثم بصرون بعد ذلك على أن الرسول ولد عام الفيل!

وقد كانت دولة سبأ القديمة في اليمن دولة حضارة وتجارة، وإليها يرجع
الفضل في فتح طرق التجارة مع الهند والصين وشرق إفريقيا وإنشاء أسواقها.
أما دولة حمير التي جاءت بعدها وبدأت حكمها سنة ١٢٥ ق. م. فقد كانت
دولة حروب وفتوح، وقد طالت أيامها وابتليت اليمن في عصر الطبقة الثانية
من ملوكها بالتدخل الحبشي الذي أضرنا إليه ودخول المسيحية، وما أدى إليه
ذلك من محاولة أبرهة بن الصباح غزو الحجاز لهدم الكعبة. وفي ذلك العصر
تراحت أمور التجارة اليمنية، ثم توقفت طرق التجارة من آسيا إلى بلاد الدولة
البيزنطية عن طريق وسط آسيا، فاشتدت حاجة الأسواق في بلاد الشام وبقية

(١) انظر موجز تاريخ اليمن في كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام خرجي ريدان وتعليقا عليه ص

بلاد دولة الروم وهي الدولة البيزنطية إلى بضائع آسيا وأفريقية وما كانت - نواحي
 جوب جزيرة العرب تخرجه من حاصلات مطلوبة في الأسواق مثل الصمغ
 واللبان والمر والزباد وهو عطر يستخرج من نوع من القسط الرية لا زال بعضها
 يعيش إلى اليوم في جزيرة سقطرى، وتلك هي الظروف التي انتفع بها هاشم
 ابن عبد مناف وإخوته في الدحول بالتجارة المكية في عصرها الراهر، فذهب
 اثنان من اخوة هاشم إلى الحبشة واليمن وعقدا العصم مع ملوك الحبشة
 والحميريين في اليمن والإيلاف مع القبائل العربية على الطريق من اليمن إلى
 مكة، فاكتمل بذلك طريق التجارة من اليمن إلى الشام وانتظمت رحلتا الشتاء
 والصيف المذكورتان في القرآن الكريم. وما يستلفت النظر إلى معجزات ما في
 القرآن الكريم أن سياق سورة قريش يدل على أن مرحلة تنظيم الأمور الدينية
 كان بعد الإيلاف أي تنظيم التجارة، ومن المعروف أن وثنية قريش كانت لا
 تنكر أن الكعبة بيت الله وأنه سبحانه خالق السماوات والأرض ولكنهم اشركوا
 آلهتهم مع الله سبحانه في العبادة، فقالوا إن آلهتهم بنات الله وإنها وسطاء
 بينهم وبين الله وأنهم يعبدونها زلفى. وإليك سورة قريش لنقرأها ونفهمها على
 ضوء الحقائق التاريخية:

﴿ لإيلاف قريش

إيلافهم رحلة الشتاء والصيف

فليمدوا رب هذا البيت

الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾

فإيلاف قريش سابق هنا على رحلتي الشتاء والصيف وهما مصدر الخير
 الذي أطعمهم بعد جوع وآمنهم من خوف وكان عليهم أن يعبدوا رب هذا البيت
 سبب تلك النعمة التي جاءتهم ولكنهم لم يعبدوه حالصاً وأشركوا به، وهذا هو
 التنظيم للوثنية العربية الذي أدخله عبد المطلب وسماه ابن اسحاق دين عبد
 المطلب، ثم جاء محمد ﷺ ليظهر دين الله الذي أدخله إبراهيم عليه السلام

إلى الحجاز ثم تناساه العرب - وأدخلوا فيه وثنياتهم وألتهنهم فصار شركاً بالله، جاء محمد صلوات الله ليزيل دين عبد المطلب ويحل دين الله محله، وجدير بالتأمل أن محمداً الذي بعثه الله ليزيل دين عبد المطلب كان حفيده وأحب الناس إليه وترى في كفه وقصى الستين الأخيرتين من حياة عبد المطلب في حجره، وكان عبد المطلب لا يحب أحداً من بني وحفدته حبه لمحمد ﷺ، وكاناً كان رسول الله وهو بعد بين الطفولة والصبا يشعر بذلك. قال ابن اسحق: «وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه هذا حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له. وكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام حتى يجلس عليه، فيأخذه أحماه ليؤخروه عنه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني فوالله إن له لساناً ثم يجلسه معه عليه، فيمسح ظهره ويسره ما يراه يصنع^(١)».

ويريد ربك سبحانه أن يكون هذا الشأن هو إزالة دين عبد المطلب وإحياء دين جده إبراهيم أبي الأنبياء وأول المسلمين، وفي نشأة رسول الله ﷺ في كنف عبد المطلب ملامح من نشأة موسى في كنف فرعون، وتلك آيات من إعجاز الله في خلقه وقرآنه وتعريفه لشئون عباده، سبحانه لا رب سواه.

ونعود إلى ما وقفنا عنده من تاريخ عبد المطلب فنقول إنه واصل عمله بعد انصراف أبرهة ونجاة مكة من مَعْرَةِ الجَيش كما يقول ابن اسحاق، ولا شك أن مَهَابَةَ البيت زادت في قلبه بعد الذي رأى من عظيم صنع الله، ولكنه استمر وثياً مشركاً على ما كان عليه هو وقومه، يعرفون أن الله خالق الكون ولكنهم يشركون معه سبحانه ألتهنهم وأكبرهم هبل، وفيهم إناث مثل نائلة ومناة والعُزَّى يسمونهن بنات الله ويستشعرون بهم وبين هند الله. ولا شماعة لأحد عند الله إلا باذنه وبجشيتة ورضاه كما ورد في الآية ٢٦ من سورة النجم

ولا يتسع المجال هنا للكلام على وثنية العرب التي نظمها عبد المطلب

(١) ابن اسحاق، برواية البوري، نهاية الأرب ١٦/٨٨

وجعل أمرها كالدين المتبع، فهذا لا يدخل في نطاق بحثنا هذا، والدراسات عنها كثيرة جداً، ولكننا نجتريء من الكلام عنها بأيّتين من كلام الله سبحانه فيهما عاء. وهما قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَ اللَّهُ فَأَن يُؤْفَكُونَ﴾ (العنكبوت ٦١/٢٩) - وقوله سبحانه في سورة الزمر (٣/٣٩): ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

كان عبد المطلب هو الذي نظم تلك العبادات الدينية، وأكمل بتنظيمه هذا بناء قوة قريش السياسية والاقتصادية والدينية فزادت مهابة قريش في أعين العرب، فقد توالى على رئاستها أربعة من الموهوبين على نسق من عمود نسب واحد: قصي وعبد مناف وهاشم وعبد المطلب، وكانت الظروف مواتية لقريش، فالحرب بين الفرس والروم على أشدها والتجارة بين الشرق والغرب منقطعة إلا عن الطريق من اليمن إلى الشام ومكة مركزها الأكبر، والقريشيون أذكى مهرة عرفوا كيف ينظمون أمر هذه التجارة ويربطون بينها وبين العبادات الوثنية، فلم تعد مكة سوق الجزيرة الأكبر فحسب بل محجها الأكبر أيضاً، وقد أحسنوا سياسة أمورهم فزاد توافد الناس على بلدهم للحج والتجارة والاستمتاع وتناشد الأشعار والتعارف وتغارب الألسنة والأفكار كما سنرى بعد قليل.

وقد كان الجانب الأكبر من التجارة المكية تجارة مرور أي نقل التجارة من اليمن والحبشة إلى مكة وأسواقها، ومنها إلى الشام حسب نظام الرحلتين الدقيق. وإلى جانب الأسواق الموسمية في ذي الحجار ومجنة وعكاظ كانت مكة سوقاً دائماً لكل أصناف هذه المتاجر، وكانت تجارهم في مكة تجارة تخصص لا تجارة دكاكين ومخازن، أي أن كل مشغل بالتجارة في مكة كان له تخصصه والبضاعة في بيته، فهذا متخصص في العطور وذلك في الجلود أو العود أو

الصنديل أو العاج أو الأبنوس أو الحرير أو القطن أو السيوف أو الذهب أو الفضة وما إلى ذلك، فإذا وفد التاجر الغريب على مكة قصد المتخصص فيها في بيته فباع منه أو اشترى وعندما يقول إن رسول الله كان يشتغل بالتجارة فهذه صورة ممارسته لها، ولم يكن صلى الله عليه وسلم بصاحب دكان كما حاء في المادة التي أداروها عليه في إحدى طبعات دائرة المعارف البريطانية وكما يرفع المستشرق مكسيم رودانسون في كتابه المعروف عن الإسلام والرماسمية.

وكان عبد المطلب وبنو هاشم وحلفاؤهم معهم يُلزمون التجار بسلوك أخلاقي دقيق من حسن المعاملة والأمانة وإحسان لقاء التاجر واستضافته وقامينه وأدائه حقه. وعلى هذا انتظمت أمورهم وزادت ثرواتهم واتسعت تجارتهم. وكان المشرفون على التجارة ونظمها وسلوكياتها بيت عبد المطلب وبنو وخاصة بني هاشم والمطلب ابني عبد مناف وبيت زهرة بن كلاب وبيت تيم بن مرة وبيت الحارث بن فهر وبيت أسد بن عبد العزى. ويضيف بعض الرواة بيت عُدي بن كعب، ولكن وجود بني عدي في هذه الجماعة مختلف فيه، ويبدو أن الرواة أضافوه فيما بعد إكراماً لعمر بن الخطاب حتى يجتمع بيت رسول الله وبيتا أبي بكر وعمر في جانب واحد.

وعندما كبرت سن عبد المطلب وشاخ وهُطلَ عن العمل انتقلت الرئاسة الاسمية إلى ابنه الزبير، ولم يكن بالزبير بن عبد المطلب بأس، فقد كان رجلاً ذا كفاية ولكن بيوت قريش الأخرى انجبت رجالاً غلب عليهم الطمع في مكاسب التجارة والجشع في خيراتهم وخاصة بنو عبد شمس بن عبد مناف وبيت نوفل بن عبد مناف وبيت مخزوم وهم بنو يقطلة بن مرة وبيت سهم وجمع ابني عمرو بن هُصيص بن كعب.

ورجال هذه البيوت شرهت نفوسهم إلى المكاسب وجمع بعض رجالها ثروات ضخمة وبهذه الثروات ازداد جاههم واستبدادهم وفسادهم، فتحلوا عن أخلاقيات عبد المطلب وظلموا صغار التجار وغرباءهم، وعندما مات عبد

المطلب في حدود ٥٧٩ ميلادية (لأنه توفي ورسول الله ابن ثمان سنين) انتقلت
الرياسة فعلاً إلى الزبير ابنه، وهو شقيق عبدالله والد رسول الله ﷺ ولا نظن
أنه كان أكبر ولده بعد الحارث. وعجز الزبير عن كبح جماح هذا النسر من
القرشيين الذين سيطروا على مكة بأموالهم واتباعهم وخالفوا كل قاعدة كان
وضمها عبد المطلب وأبوه هاشم وجده عبد مناف. والبلاذري يعطينا في جزء
من أجزاء أنساب الأشراف، نشر حديثاً، كلاماً طويلاً عن الزبير ولكنه لا يجيبنا عن
سؤال واحد مما يهمنا من أمره، ولكنه يقول إنه أول من تكلم في حلف الفضول
ودعا إليه.

ثم يعطينا البلاذري أسباب عقد هذا الحلف فيقول: «إن الرجل من
العرب أو العجم كان يقدم بالتجارة فربما ظلم بكفة فقدم رجل من زبيد (من بني
سعد العشرة) بسلة فباعها من العاص بن وائل السهمي فظلمه فيها وجحدته
لحمها فأنشده الله فلم ينفعه ذلك عنده، فنادى ذات يوم عند طلوع الشمس
وقريش في أندية:»

يا آل فهر لمظلوم بضاعته يبطن مكة نسائي الحمي والنخري
وعمر أشعث لم يقض عمرته يا آل فهر بين الركن والحرم

فقال الزبير: ما لهذا مترك، فجمع إخوته، واجتمعت:

بنو هاشم

وبنو المطلب بن عبد مناف

وبنو أسد بن عبد العزى بن قصي

وبنو زهرة بن كلاب

وبنو نهم بن مرة بن كعب

في دار أبي زهير عبد الله بن جدعان القرشي ثم التمي فتحالفوا على ألا
يجدوا بكفة مظلوماً إلا نصروه ورمدوه وأعانوه حتى يؤدى إليه حقه ويصغى ظالمه

من مظلّمته وعادوا عليه بفضول أموالهم ما بَلَّ محرّ صوفه، وأكّدوا ذلك وتعاهدوا عليه وتماسحوا قياماً، وشهد رسول الله ﷺ ذلك الحلف فكان يقول: ما سرتني بحلف شهدته في دار اس جدعان محرّ النعم فسمى الحلف حلف الفضول ليذلهم فضول أموالهم^(١).

ثم يعطي البلاذري تفسيراً آخر لاسم الفضول قال: لَتَكْلِفُهُمْ فضولاً لا يجب عليهم وتفسيراً ثالثاً ظاهر الافتعال.

ثم يضيف انهم قاموا على العاص بن وائل السهمي حتى رد على الرجل ماله وقال الزبير في ذلك شعراً.

ثم يضيف مثلاً آخر من ظلم صغار التجار بمكة، والضحية فيه تاجر من بارق، وبارق هم بنو سعد بن عدي بن حارثة من اليمن، والمعتدي أبي بن خلف الجمحي - جمع أبناء عم بني سهم - وهنا أيضاً نجد أهل حلف الفضول يأخذون للرجل حقه.

وحادثة ثالثة ضحيتها رجل من خثعم (من اليمن) والمعتدي من بني سهم ابن عمرو هصبص فقد غصب الرجل ابنته فقام أصحاب حلف الفضول بارغام السهمي على إعادة البنت لأبيها. فالعدوان في تلك الحالات الثلاث التي يذكرها البلاذري جاء من ناحية فرعي هصبص بن كعب، وهم في حساب المسعودي من قريش الظواهر^(٢)، وقريش الظواهر هم في الغالب أولئك الذين لزمهم اسم فهر فيها قلناه، ويؤيد ذلك أن الزبيدي الذي ظلم أولاً عندما استجار بآل فهر، قوم العاص بن وائل السهمي، فلما لم يجد نصفه استجار بآل قصي، وهم صلب قريش فانصفه أهل حلف الفضول وكلهم من صميم قريش وقال :

(١) نشر هذا الخبر من أساليب الشيخ محمد باقر المحمودي دون أن يحدد أي حرم يكون من الكتاب، ولكنه يقع في الجزء الأول من تقسيم أحوال أساليب الأشراف الذي أورده د محمد حميد الله في الجزء الأول من أساليب الأشراف الذي نشرته له دار المعارف في القاهرة ١٩٥٩

(٢) المسعودي، مروج الذهب، طعة القاهرة ١٩٦٤ ٥٩/٢

بآل قصي ! كيف هذا في الحرم وحرمة البيت وأحلاق الكرم
أظلم لا يبع مي من ظلم!

فكان هذا الرجز هو الذي حرك الربير من عبد المطلب إلى عقد حلف
المعضول على ما قلناه .

ولكن يبدو أن قيام حلف الفصول، والحلف المناهض له وهو حلف
الأحلاف - كانت لها أسباب أعمق وأبعد، فإن قريشاً في طريقها إلى التَّكُونِ،
وقع فيها الصدع الذي فرق بين جماعة قريش وجماعة فهر، ثم عمل قصي على
لم الشعث عند دخوله مكة فأوى بيوت فهر المنفصلة عن قريش وجمعها وأسكنها
ظاهر مكة، فكانت قريش الظواهر. فإن المسعودي يذكر جلفاً يسميه بالمطيين
يتكون من :

بني عبد مناف بن قصي
وبني أسد بن عبد العزى بن قصي
وبني زهرة بن كلاب أخيه قصي
وبني نهم بن مرة بن أخيه كلاب والد قصي
وبني الحارث بن لؤي من قريش الظواهر

والظاهر أن كتلة المطيين هنا هي كتلة ترتبط أشد الارتباط بقصي، ولنا
على ذلك دليل وهو انضمام بني الحارث بن لؤي إليهم، فبنو الحارث هؤلاء كانوا
بيتاً مخلصاً انضم فريق منه يسمى جشم إلى بني هزاع من ربيعة. والبقية فيما يبدو
انضمت إلى جماعة قصي. والمطيون أحدوا اسمهم من خفة طيب عمسوا
أيديهم فيها تأكيداً للحلف. وأقرب ما يقال في هذا الحلف أن قصياً عندما استقر
له الأمر في مكة وجمع قريشاً فيها عقد هو وخاصة قومه حلف المطيين فكانوا نواة
قريش وصميم قوتها. فلما حدث التخلخل أيام الربير من عبد المطلب وأحسن

أنصاره بالخطر على مجتمعهم المكي وتقاليده قام الزبير بتوكيده في صورة حلف الفضول وهو في أحسن التصيرات حلف أهل المصل أو الأفاضل، ولا غرامة والحالة هذه من أن يذكر رسول الله هذا الحلف الجاهلي بالخير، مع أنه ﷺ ألقى الأحلاف والتكتلات داخل الجماعة الإسلامية بحديثه المأثور: لا حلف في الإسلام. أي لا تحالفات فرعية داخل أمة الإسلام الواحدة.

والصدع داخل قريش بدأ بعد موت قصي، فإن كبير أولاده عبد الدار أراد أن يخلفه في الرياسة، ولكن أخاه عبد مناف تمكن من انتزاع الرياسة منه، واعتز في ذلك بعصبة أبيه قصي وهم حلف المطيين التي ذكرناها، واعتز عبد الدار بجماعة أخرى من قريش هم:

بنو يظفة بن مرة بن كعب وهم مخزوم

بنو سهم بن هصيص بن كعب

بنو جمح بن هصيص بن كعب

وهذا هو حلف الأحلاف أو لعقة الدم الذي انضم إليه بنو عبد شمس فيما بعد. وقد تمكن عبد مناف من رأب هذا الصدع وجمع قريشاً كلها إلى جانبه. ولكن الصدع عاد فظهر أيام هاشم عندما تحده أمية ابن أخيه عبد شمس وناقره، فانتصر عليه هاشم وتمكن من جمع الشمل وخلفه عبد المطلب فعرف كيف يقوّي وحدة قريش ويرفع شأنها ويزيد جاهها بما أضافه من عنصر الدين، فأصبح أمر قريش كلها معقوداً - بلواء بني عبد المطلب بن هاشم. ولكن جماعة حلف الأحلاف رفعت لواء التحدي بعد عبد المطلب وقيام الزبير بالأمر فكان هذا داعماً له لأحياء حلف المطيين فعقد حلف الفضول، وهو توكيد لحلف المطيين. ولكن الانكسار الحاسم في وحدة قريش كان قد تجسد وأصبح حقيقة، وقبل مبعث رسول الله ﷺ كانت قريش فعلاً قد انقسمت إلى جماعتين. جماعة بني هاشم وأحلافهم يمثلون تقاليد عبد المطلب وقواعده

الأخلاقية والدينية، وحماعة بني عبد شمس وأحلافهم عس ذهبوا مع الإفادة من مكاسب التجارة إلى أقصى مداها مما كاد يفسد المجتمع المكي ويعرضه للخطر، وهاتان الجماعتان تتركان كما يلي :

الأحلاف أو لعقة الدم	حلف الفضول وهم أصلاً حلف المطيين
بنو عبد شمس بن عبد مناف بنو مخزوم بن يقظة بنو سهم بن هصيص بنو جح بن هصيص بنو عبد الدار بن قصي	بنو هاشم بن عبد مناف بنو المطلب بنو زهرة بنو تميم بن مرة بنو الحارث بن فهر

والغالب أن حلف المطيين عُقد في أيام هاشم بعد أن استقر له الأمر وتخلص من تحدي ابن أخيه أمية بن عبد شمس إياه. وفي أيام الزبير بن عبد المطلب دعت الضرورة إلى إحياء هذا الحلف لمواجهة حلف الأحلاف أو لعقة الدم، فعقد حلف الفضول من أنصار بني هاشم، وظلت جبهة الأحلاف قائمة يتزعمها بنو عبد شمس وبنو مخزوم ومن انضم إليهم. وقد اختلط أمر الحلفين - المطيين والفضول على البلاذري فقال: «وكان هاشم بن عبد المطلب حاضراً حلف المطيين فكيف يحضره رسول الله ﷺ إلا أن بطون المطيين هم الذين تعاقبوا أيضاً على حلف الفضول، فأحسب هذا الحلف نسب إليهم أيضاً»^(١) وقد وضحنا حقيقة ذلك.

(١) أنساب الأشراف، ١٥/٢

انقسام قريش الى معسكرين ودخول الفساد إليها:

وقد ضربنا أمثلة لما نال البناء الأخلاقي والمعنوي لقريش في أواخر أيام عبد المطلب وعجزه في شيخوخته عن ضبط الأمور في مكة وقد رأينا أن الأمر استشرى بعد عبد المطلب وعجز الزبير ابنه عن الحفاظ على سلامة البناء، فاضطر إلى عقد حلف الفضول للوقوف في وجه التدهور وتخطي القواعد التي رسمها بناء قريش الذين ذكرناهم، ومن هذه الناحية استشرى الوهن في المجتمع القرشي، ولم تعد مكة بقيادة قريش ذلك المركز التجاري العمراني القائم الذي رأيناه أيام عبد المطلب.

والأمثلة التي ذكرناها كلها ترجع إلى أيام الزبير، فلما انتهت رئاسة الزبير بوفاته في الغالب - انتقل الأمر إلى أخيه أبي طالب، ولم يكن بأقوى من أخيه الزبير، بل زاد الفساد وكثر التعدي على صغار التجار الغرباء، وتجمعت ثروات ضخمة في أيدي أولئك الذين قبضوا على زمام التجارة، ومعظمهم من حلف الأحلاف أو لعنة الدم، وهم حزب بني عبد شمس ومخزوم ومن انضم إليهم. وقد وقع ذلك في سنوات شباب رسول الله ﷺ، وقد حضر بنفسه حلف الفضول في دار عبدالله بن جدعان شيخ بني تميم بن مرة قبيل أبي بكر الصديق. ولم يكن بنو تميم بن مرة من كبار بهوت قريش بل ربما كانوا في الأصل من قريش الظواهر، ولكن عبدالله بن جدعان كان رجلاً ماهراً تجمعت له ثروة كبيرة جداً تأتت فيها قيل من كنز عثر عليه ولكن ذلك مستبعد، والغالب أن الرجل جمع تلك الثروة من التجارة وسررى بعد قليل أن الكثيرين ممن استفلوا الناحية التجارية إلى أقصى حد استطاعوا أن يجمعوا ثروات تزيد على ما جمعه عبد الله بن جدعان.

وبلاحظ أن قيادة القوافل انتقلت من بني هاشم إلى رجال آخرين من

بني عند شمس ومخروم وحلفائهما، ولما كان بنو هاشم يضطلعون بالمسئوليات المكلفة مثل الرقادة والسقاية والحجامة والدوة فإن ثرواتهم كانت في تناقص في حين أن ثروات حصومهم ازدادت ضخامة عن طريق الاستبذاد بأمر التجارة أولاً ثم عن طريق المظالم والقهر والعدوان على الضعفاء وأموالهم وسترده أمثلة كثيرة على ذلك في الفصل التالي الذي ستكلم فيه عن موقف قريش من الإسلام.

ولكننا نقف هنا عند مظهر آخر من مظاهر الوهن والفساد الذي دب في كيان النظام القرشي، وهذا المظهر سينجلي في ناحية التنظيم الديني. وكان عبد المطلب قد جمع العقائد الوثنية وغيرها ووضع أصنامها جميعاً حول الكعبة وجعلها على قدم المساواة بين الأوثان وأصحابها، وأسقط الامتيازات التي كانت تتمتع بها بعض القبائل في بعض نواحي مناسك الحج مثل هرفات ومنى. وقد اعتبر عبد المطلب مواقع الحج ومواقعها كلها داخلة في الحرم حتى هرفات، أي أن أراضيها وسكانها يتمتعون بحرمة الأراضي المقدسة وأمانها، فالتجهرت هذه الفئة المستبذة بأمر مكة إلى تمييز نفسها على غيرها وقصر منطقة الحرم على بطن مكة، وما عدا ذلك فقد جعلوه من الحل أي المناطق التي لا يجرّم فيها القتال أو العدوان أو الصيد وما إلى ذلك. ونقول: إن هذا الانحراف جاء على أيدي الجبهة المعارضة لبني هاشم، لأننا سنرى أن بني هاشم وممثلهم أبو طالب كانوا دائماً إلى جانب العودة بمناسك الحج إلى ما كانت عليه في الزمن القديم، وسنرى أن رسول الله ﷺ في حجة الوداع التي تُبنت فيها مناسك الحج الإسلامي بصورة دائمة أعاد لكل مواقع المناسك حتى عرفات حرمتها فيما عدا وادي عُرنة ووادي مُحسر، ونص على هذه المناسك في عمله وفي خطبة الوداع وشدد في تحريم الربا والنسيء والتعرفة بين مواقع الحج.

وفي صفة حجة الوداع عند الواقدي نقرأ الخبر التالي عن ابن عباس. وإن رسول الله ﷺ وقف بالمضاب من عرفة فقال: كل عرفة موقف إلا بطن عُرنة

وكل المزدلفة موقف إلا بطن محسر، وكل منى منحر إلا خلف العقبة. قالوا: وبعث رسول الله ﷺ إلى من هو أقصى عرفة فقال: الرمو مشاعركم، فإنكم على إرث من إرث ابراهيم^(١)، وهذا يدل على أن هذا الموضع من عرفة كان من بين مواقف الحج الأصلية أيام ابراهيم عليه السلام، ولكن قريشا غيرت ذلك في الجاهلية، فقد روى الواقدي عن أحد رواة أنه رأى رسول الله ﷺ وقد دفع من عرفة إلى جمع (المزدلفة). والبار توفد بالمزدلفة وهو - أي رسول الله ﷺ - يؤمها حتى نزل قريباً منها، وأضاف: وأن سليمان بن عبد الملك رأى تلك النار عند المزدلفة في حَجِّهِ فسأل رجلاً يسمى خارجة بن زيد عنها قائلاً: متى كانت هذه النار يا أبا زيد؟ قال: كانت في الجاهلية، وضعتها قريش (وقالت): لا تخرج من الحرم إلى عرفة^(٢)، تقول: نحن أهل الله! ولقد أخبرني حسان بن ثابت وغيره في نفر من قومي أنهم كانوا يحجون في الجاهلية فيرون هذه النار^(٣).

وقال الواقدي بشأن ذهاب رسول الله ﷺ إلى عرفة في حجة الوداع: وقالوا: وكانت قريش لا تشك أن رسول الله ﷺ لا يجاوز المزدلفة يقف بها. فقال له نوفل بن معاوية الديلي، وهو يسير إلى جنبه: يا رسول الله: ظن قومك أنك تقف بجمع (المزدلفة)، فقال رسول الله ﷺ: لقد كنت بعرفة قبل النبوة خلافاً لهم وقال جبير بن مطعم: رأيت رسول الله ﷺ يقف بعرفة قبل النبوة، وكانت قريش كلها تقف بجمع إلا شيبه بن ربيعة، وأن موسى بن عقبة حدثني عن عمه عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان، عن أسماء بنت أبي بكر، قالت: كان شيبه ابن ربيعة من بني قريش يقف بعرفة عليه ثوبان أسودان، وزمام بعيره من شعريين غرزيين أسودين حتى يقف مع الناس بعرفة، ثم يدفع بذفعهم، وكانت قريش تقول: نحن لا نتكلم مع الناس - يعني العرب - فقد كانت العرب تقف بعرفة،

(١) الواقدي، مغاري ٣/ ١١٠٣ - ١١٠٤.

(٢) أصاب الناشر المستر مارسدن حور لفظ (الا) بين معقوفتين قبل لفظ نقول، ولا مجال لهذه الريادة مل هي تعدد المعنى انظر حـ ٣/ ١١٠٥.

(٣) الواقدي، مغاري ٣/ ١١٠٥.

وقريش يجمع تقول نحن أهل الله^(١).

ومعنى ذلك أن قريشاً في الحاهلية ميزت نفسها بالوقوف بجمع في حين أن بقية الناس يقفون بعرفة، وهذا التمييز لا بد أن يكون قد تم بعد عبد المطلب، بدليل أن رسول الله كان إذا حج في الحاهلية وقف بعرفة مع بقية الناس، ويدفع منها مع الناس إلى جمع وهي المردلة، والمراد بقريش هنا هي جماعة الذين أدخلوا التغيير على دين عبد المطلب بدليل أن الخبر يستثني من ذلك التغيير شيعة بن ربيعة بن عبد شمس وهو من كبار رجال الأحلاف، وفيهم عبد شمس.

وتفصيل هذا الخبر وارد عند ابن هشام نقلاً عن ابن اسحاق وهو وارد في المحبر لمحمد بن حبيب النسابة وفي كتاب الأصنام للكليبي وفي أخبار مكة للأزرقي، ولكن نص ابن اسحاق هنا أوضح وأكثر تفصيلاً، وهو وارد تحت عنوان حديث الخمس، وهو يعطينا فكرة عما أحدث نفر من القرشيين من التغيير في القواعد التي ضبطها عبد المطلب والمراد بقريش هنا جماعة المعارضين الخارجيين على بني عبد المطلب، ومن هنا فإن هذا التغيير وابتداع أمر الخمس حدث بعد عبد المطلب.

قال ابن اسحاق تحت عنوان حديث الخمس:

١ - وقد كانت قريش - لا أدري أقبل الفيل أم بعده - ابتدعت رأي الخمس، رأياً راوه واداروه. فقالوا: نحن آل ابراهيم وولاية الحرم، وولاية البيت قُطان مكة ومساكنها، فليس لأحد من العرب مثل حقنا، ولا مثل منزلتنا، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف.

٢ - فلا تعظمون شيئاً من الحِلِّ كما تعظمون الحرم، فإنكم إن فعلتم ذلك

(١) الواقدي، معاري ١١٠١/٣ - ١١٠٢ (انظر ج ٣ ص ١١٠٥)

استخفّت العرب بحرمتكم، وقالوا: قد عظموا من الحل مثلما عظموا من الحرم

٣ - فتركوا الوقوف على عرفة، والإفاضة منها، وهم يعرفون ويقولون أنها من المشاعر والحج ودين ابراهيم ﷺ ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها وأن يفيضوا منها.

٤ - إلا أنهم قد قالوا: نحن أهل الحرم، فليس ينبغي لنا أن نخرج من الحرم ولا نعظم غيرها كما نعظمها. نحن الحُمس والحُمس أهل الحرم.

٥ - ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكن الحل والحرم مثل الذي لهم. بولادتهم إياهم يحلُّ لهم ما يحل لهم، ويحرم عليهم ما يحرم عليهم.

٦ - وكانت كنانة وخزاعة قد دخلوا معهم في ذلك، قال ابن هشام: وخذني أبو عبيدة النحوي قال: إن بني عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن دخلوا معهم في ذلك، وأنشدني لعمر بن معد يكرب:

عباسٌ لو كانت شبار جنادنا

بتثليث ما صبأت بعدي الأحامسا

قال ابن هشام: تثليث موضع من بلادهم، والشبار الحسان.

ويعني بالأحامس بني عامر بن صعصعة. وعباس عباس ابن مرداس السلمي، وكان أغار على بني زبيد بتثليث.

وأنشدني اللقيط بن زرارة الدارمي في يوم جيلة:

اجدم إليك إما بنوعس المعشر الحلة في القوم الخمس

لأن بني عس كانوا يوم جيلة حلفاء في بني عامر بن صعصعة. . .

٧ - ثم ابتدعوا في ذلك أموراً لم تكن لهم حتى قالوا. لا ينبغي للحمس أن

يَأْتِقُطُوا الْأَقْطَ وَلَا يَسْلُتُوا الشَّمْسَ وَهَمَّ حَرَمٌ ، وَلَا يَدْخُلُوا بَيْتاً مِنْ شَعَرٍ ،
وَلَا يَسْتَلُّوهُ إِذَا اسْتَظَلُّوا إِلَّا فِي بَيْتِ الْأَدَمِ مَا كَانُوا حَرَمًا .

٨ - ثُمَّ رَفَعُوا فِي ذَلِكَ فَقَالُوا : لَا يَنْبَغِي لِأَهْلِ الْحِلِّ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ طَعَامِ حَرَمِهِ
بِهِ مَعَهُمْ مِنْ الْخَلِّ إِلَى الْحَرَمِ ، إِذَا حَرَمُوا حَرَمًا أَوْ عُثْمَارًا .

٩ - وَلَا يَطُوفُوا بِالْبَيْتِ إِذَا قَدِمُوا أَوَّلَ طَوَافِهِمْ إِلَّا فِي ثِيَابِ الْخَمْسِ فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا
شَيْئًا طَافُوا بِالْبَيْتِ عُرَاةً ، فَإِنْ تَكْرَمَ مِنْهُمْ مَتَكْرَمٌ مِنْ رَجُلٍ أَوْ امْرَأَةٍ وَلَمْ يَجِدْ
ثِيَابَ الْخَمْسِ ، فَطَافَ فِي ثِيَابِهِ الَّتِي جَاءَ بِهَا مِنَ الْحِلِّ أَلْقَاهَا إِذَا فَرَغَ مِنْ
طَوَافِهِ ثُمَّ لَمْ يَنْتَضِعْ بِهَا وَلَا يَسْهَأْ هُوَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِ أَيَّامًا . فَكَانَتْ
الْعَرَبُ تَسْمِي تِلْكَ الثِّيَابَ اللَّفْزَ .

١٠ - فَحَمَلُوا عَلَى ذَلِكَ الْعَرَبُ فِدَانَتَ بِهِ ، وَوَقَفُوا عَلَى عُرْفَاتٍ وَأَفَاضُوا مِنْهَا ،
وَطَافُوا بِالْبَيْتِ عُرَاةً ، أَمَّا الرِّجَالُ فَيَطُوفُونَ عُرَاةً ، أَمَّا النِّسَاءُ فَتَضَعُ
إِحْدَاهُنَّ ثِيَابَهَا إِلَّا دِرْعًا مُفَرَّجًا عَلَيْهَا ثُمَّ تَطُوفُ فِيهِ .

وَمَنْ طَافَ مِنْهُمْ فِي ثِيَابِهِ الَّتِي جَاءَ بِهَا مِنَ الْحِلِّ أَلْقَاهَا فَلَمْ يَنْتَضِعْ بِهَا لَا هُوَ وَلَا
غَيْرُهُ . فَقَالَ قَائِلٌ مِنَ الْعَرَبِ يَذْكُرُ شَيْئًا تَرَكَهُ مِنْ ثِيَابِهِ فَلَا يَقْرَبُهُ ، وَهُوَ
يُحِبُّهُ :

كَفَى حَزَنًا كَرَى عَلَيْهَا كَأَنهَا لَفْزٌ بَيْنَ أَبْدِي الطَّائِفِينَ حَرِيمٍ
يَقُولُ : حَرِيمٌ أَيُّ لَا خَمْسَ .

١١ - فَكَانُوا كَذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ فَأَنْزَلَ عَلَيْهِ حَبِينَ أَحْكَمَ لَهُ دِينَهُ
وَشَرَعَ لَهُ سُنَنَ حَجَّهِ ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ، وَاسْتَغْفِرُوا
اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الْبُقْعَةُ ١٩٩/٢ يَعْنِي قَرِيشًا ، وَالنَّاسُ الْعَرَبُ ،
فَرَفَعَهُمْ (كَذَا فِي الْأَصْلِ وَالْأَصَوِّبِ هَا - فَرَجَعَهُمْ) فِي سَنَةِ الْحَجِّ إِلَى
عُرْفَاتٍ وَالْوُقُوفِ عَلَيْهَا وَالْإِفَاضَةِ مِنْهَا .

١٢ - وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيمَا كَانُوا حَرَمُوا عَلَى النَّاسِ مِنْ طَعَامِهِمْ وَلِبَاسِهِمْ عَدَدَ الْبَيْتِ

حين طافوا عراة، وحرّموا ما جاءوا به من الحل من الطعام. ﴿يا بني آدم، خذوا زيتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا، ولا تسرفوا، إن الله لا يحب المسرفين قل: من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل: هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾.

فوضع الله تعالى أمر الخمس، وما كانت قريش ابتدعت منه على الناس بالإسلام حين بعث الله به رسوله ﷺ.

١٣ - قال ابن اسحاق: حدثني لقد رأيت رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحي، وأنه لواقف حل بعير له بعرفات مع الناس من بني قومه حتى يدفع معهم منها، توفيقاً من الله له ﷺ^(١).

والآن نفصل ما في هذه الفقرة الطويلة على ضوء ما ذكرنا من الحقائق فنجد فيها تفصيلاً وتوضيحاً لبعض الذي قلناه في أمر اتجاه فريق من قريش - هم الذين يعادون الفضول وحلفهم - إلى تحقيق منافع خاصة بهم من وراء الحج.

وينبغي أن نلاحظ أن شراح سيرة ابن هشام - القدامى منهم مثل السهيلي في الروض الأنف، والمحدثون ومنهم من نشر سيرة ابن هشام وحققوها ذلك التحقيق الجيد المتداول بين الناس - لم يفتنوا إلى ما وراء هذه التفاصيل حاسين أن قريشاً فعلت ما فعلت كفرأ منها بدين إبراهيم وجهلاً وطمعاً حتى أعاد الله الأمر إلى نصابه وعاد بالحج وناسكه إلى سنة الله التي كان عليها إبراهيم الخليل.

وهؤلاء جميعاً يضعون قريشاً كلها في الخمس مع أن رسول الله ﷺ وبعض قومه من بني هاشم وحلفائهم رفضوا الانسحاق مع جبهة المبتدعين لهذه

(١) ابن هشام، السيرة ١/٢١١ - ٢٢١.

الأمور المخالفة لسنة الحج الأولى، وهي التي التزمها رسول الله ﷺ وقومه قبل الإسلام وكان التزامهم إياها جزءاً من المحافظة على التقاليد الدينية التقليدية التي ضبطها وأحكم أمرها عبد المطلب بن هاشم (انظر الفقرة ١٣) من النص الذي أتينا به .

١ - فأما الفقرة الأولى فنخص على أن قريشاً ابتدعت الخمس هذا من عند نفسها بدافع الأنانية والغرور، فقد زعموا أنهم سكان مكة وسادتها، ولهذا فهم أفضل من بقية العرب وأنهم أعرف الناس بشئون المناسك . فأما ما ورد في هذه الفقرة من النص من أنهم قالوا إنهم بنو إبراهيم وأهل حرمة ، فإضافة من الرواة لأن قريشاً قبل الإسلام لم تكن تقول بأنهم أبناء إبراهيم . إنما وجد هذا الإحساس عند عبد المطلب ومن كان على دينه وهم الطيحيون ثم الفضول ومع ذلك فما كانت فكرة الله الواحد واضحة عند عبد المطلب، ولا كانت فكرة الانتساب إلى إبراهيم واضحة عنده . وقريش المذكورة في هذه الفقرة هم فريق قريش المبتدع - المباعد لقواعد الخلق الفاضل والمساواة بين الناس ، هم المناهضون لرأي الفضول الذين أتى رسول الله على حلفهم وقال إنه لا يعدل به حر النعم ، فكيف يقول ذلك إلا وهو يرى فيه تأييداً لما كان هو وقومه يقومون به من الالتزام - بمكارم الأخلاق والتزام سنة عبد المطلب في الحج وغيره وهذا المعنى للفظ قريش جديد هنا وهو أثر من النظرة الرجعية من جانب المؤرخين على عاداتهم من العودة بما كان قبل الإسلام إلى ما كان بعده وقد نبهنا إلى هذا المعنى مرة بعد أخرى .

وإذن فقريش التي ابتدعت نظام الخمس بتفاصيله ليست قريش حلف الفضول، فإن الفضول - أي الأفاضل - لا يقولون إنهم خير من سواهم من العرب، وإهم يعني أن يميزوا أنفسهم بأشياء وإهم إذا ساروا في ركاب غيرهم وفعلوا فعلهم استحمت بهم العرب

٢ - ولهذا فقد قصرُوا الحرمة كلها على مكة، ورفضوا أن يمتد نطاق حرمة مكة وكنعتهَا حتى عرفات. وإذا حرحوا للحج لم يتجاوزوا جمعاً وهي مزدلفة كما رأينا في كلام الواقدي الذي أورده عن حجة الوداع

ثم أطلقوا على أنفسهم اسم الحُمس أو الأحامس، وهو لفظ لا نعرف معناه على وجه التحديد وإن كان شراح السيرة من القدماء والمحدثين يزعمون أنهم يعرفون هذا المعنى حق المعرفة وتفسيره على وجه التقريب لا التحديد في رأينا أنهم زعموا أنهم أفضل العرب وأهل الحرم والحرمة وأعرف الناس بمناسك الحج، أو أن لهم فيه مناسك أخرى يتميزون بها عن الناس (أنظر الفقرتين ٣، ٤).

وفي الفقرة الخامسة نجد هذا الفريق من القرشيين الذين قالوا بامتياز أنفسهم على غيرهم وقصر الحرمة على مكة، وما رأوا من الاقتصار من مناسك الحج على جمع دون عرفات. فإذا وصلنا إلى الفقرة الخامسة بدأنا نرى بعض الدوافع لابتداع فكرة الحُمس أو الأحامس. وقد قررنا فيما سلف أن الذين ابتدعوا ذلك لم يكونوا أصحاب حلف المطيبين أو الفضول فإن محمداً ﷺ كان من هؤلاء، وقد حضر حلف الفضول وأثنى عليه. وهذا الحلف مناهض لاتجاه الانحراف عن القواعد الأساسية التي وضعها قصي وخلفاؤه لقريش في مكة وأقاموا بها مجد القبيلة بأسرها، فأدت الغيرة بنغر من خصوم هاشم وبنه إلى تحديهم ومحاولة التقليل من شأن ما كانوا يعملون من الرفادة والسقاية ورعاية الحاج وإكرام ضيوف مكة ومعاملتهم بالحسنى دون تفرقة اجتذاباً لهم واستثلاًفاً لقلوبهم فقوي مركز قريش كلها، فلما نزع الجماعة المهاضة لبي هاشم وجماعتهم نزوع التحدي والتطاول بالمال وحدوا أنهم لا يشبثون لبني هاشم فسعوا إلى تكثير عددهم بأن يضموا إلى صفوفهم ناساً من غير قريش، وأدخلوهم معهم فيما زعموا لأنفسهم من تميز عن غيرهم، ثم جعلوا لمن ولدوا

من العرب من ساكن الحل والحرم مثل الذي لهم، فبولادتهم إياهم يحمل لهم ما يحمل لهم، ويحرم عليهم ما يحرم عليهم فدخلت معهم في ذلك بعض كنانة وحراة وبنو عامر من صعصعة (وهؤلاء جميعاً يسكنون الحجاز) وهذه كلها حقائق تنفعا في فهم مواقف العرب من أهل الحجاز من الدعوة الإسلامية، من كفار قريش ومن لف لفهم نظروا إلى الدعوة الإسلامية على أنها دعوة هاشمية أراد بها بنو هاشم استعادة مركزهم والوقوف في وجه منافسهم من الأحلاف أو لعنة الدم.

وفي الفقرتين ٧ و ٨ نرى جوانب من الدوافع الاقتصادية وراء القول برأي الحمس. فهم يريدون أن يستغلوا الحجاج وزوار مكة إلى أقصى حد، ويستخرجوا منهم أقصى ما يستطيعون من مال:

أ - فهم يحرمون على أنفسهم الزبد وهو الأقط هنا وذلك لكي يبيعوه من الحجاج كما سئري، وكذلك لا يصفون السمن من أوشابه لكي يبيعوه بكل ما فيه ويزداد ربحهم منه، ولهذا فقد حرموا على زوار مكة القادمين من خارجها وهم الحل أن يدخلوا مكة بطعام أتوا به معهم من خارج مكة وفرضوا عليهم ألا يطوفوا إلا في ثياب يأخذونها - أي يشترونها أو يكتسبونها من الحمس أي هذا الفريق القرشي، ومن لم يشتري من غير المكين ثياباً أو يكتسبها ليطوف بها طاف عريانا، فإذا هو لبس ثياباً من مكانه أثناء الطواف كان عليه أن يلقبها بعد الطواف فلا يستعملها هو أو غيره بعد ذلك والناس في هذه الحالة مضطرون إلى شراء الثياب من القرشيين كما كانوا ملتزمين بشراء الطعام منهم وبلغ من تشدهم في ذلك أن بعض الناس ممن اضطروا إلى القاء ثيابهم المزيزة عليهم قالوا شعراً يشكون به من هذا الاستداد

ب - ولهذا كله، وعندما جاء الله بالإسلام النفي ذلك كله فالنيت حكاية

الاقتصار في الحرم على مكة وامتدادها إلى جمع وهي مردلة وأمر القرشيين بأن يفيضوا من حيث أفاض الناس، وكان محمد ﷺ وقومه لم يغيروا السنة الأولى.

ثم ألغى القرآن الكريم تلك القيود التي وضعها هذا النفر من القرشيين، وأطلق للناس حرية المطعم والمشرب بلا قيود إلا الاعتدال لأن الله لا يحب المفسرين، ثم يسأل القرآن الكريم - في معرض البيان - «ومن الذي حرم على الناس زينة الله (من الملابس وما يتصل بها) وكذلك الطيبات من الرزق» ويجب الله سبحانه - مزيداً في البيان فيقول: «قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة». كذلك تفصل الآيات لقوم يعلمون أي يريدون أن يعلموا الحقائق، ويؤكد ابن اسحاق ذلك كله فيقول في ختام هذه الفقرة: «فوضع الله تعالى أمر الخمس، وما كانت قریش ابتدعت منه على الناس بالإسلام. حين بعث الله به رسوله ﷺ»^(١). فرأى الخمس أو مذهبه هذا كله كان ابتداءً من هذا النفر من القرشيين الذي ذهب بهم الجشع كل مذهب فلم يقنعوا بالرزق الحلال بل استبد بهم الجشع، فأرادوا من الناس ألا يأكلوا ولا يلبسوا أثناء مقامهم بمكة في أثناء الموسم إلا ما يشترونه من قریش في مكة وذهبوا مع الربا إلى غايات بعيدة ظلموا فيها الناس ظلماً بيناً، ضلّلوا الناس بالنسيء أي في التغيير في تواريخ الشهور وتواريخ استحقاق الديون مبالغاً منهم في استغلالهم، وغالطوا الناس في حساب الشهور ليطلبوا أمد الحج أو يقدموه أو يؤخروه كيف شاءت مطامعهم. وهذا كله بالإضافة إلى منكر البحرى زادت في ثروات المستغلين والمرايين والمغالطين في الحساب والمطففين في الكيل، وباد بذلك الفش في أمر القياس عامة. فكان هذا النفر الماهض للفضل وأهله وهم الفصول هم الذين أفسدوا أمر المجتمع القرشي الذي أنشأ قصي وعد مناف وهاشم وعبد المطلب. وأراد المطييون أو الفضول أن يتمسكوا به فناهضهم

(١) ابن هشام السيرة ٢١٦/١

الآخرون، وقد رأينا أن السيء كان في بني القلمس أي أصحاب القلم، وكان هؤلاء جميعاً في حاسب المعدين للنظام المكي القويم.

وهذا التفسير من جانبنا لكلام ابن اسحاق وما يتضمنه من معلومات عن استبداد جماعة المال في المجتمع المكي يصر لنا اتجاه ذلك المجتمع إلى التدهور والفساد بعد أيام عبد المطلب. فأما الفساد وترايبه حقيقة بقول بها القرآن الكريم وتأييدها كل المعلومات التي لدينا عن المجتمع المكي خلال الخمسين سنة التي سبقت البعثة النبوية، فقد لاحظنا أن الأحوال انجهدت إلى السوء عندما كبرت سن عبد المطلب وهطل عن العمل ولم يعد قادراً على كبح جماح جماعة القبائل التي تسارع في كيانها الفساد فدفعت المجتمع المكي كله في طريق التدهور، وقد كان ذلك المجتمع أول أمره سليماً يتميز بعلامات واضحة من الصحة والسلامة، وقد رأينا خطوات بناء ذلك المجتمع وخصائصه الأخلاقية التي نعت من إيجابيات الخلق العربي الجاهلي من ناحية، ومن اتجاه عبد المطلب بالمجتمع المكي كله نحو الدين. ثم رأينا كيف أن تجمع مكاسب التجارة بين أيدي فريق المال مال بهم إلى الجشع فانطلقوا في طريق جمع المال ولم يعرفوا لذلك حدوداً وطوعوا كل شيء لمصالحهم المادية، ولما كثر المال بين أيديهم انجهوا إلى القول بأنهم أفضل من غيرهم زاعمين أنهم حماة الحرم وسدنة الكعبة. ومن المعروف أن المجتمع عندما يسوده الاتجاه إلى الثراء وجمع المال تتداعى فيه النواحي الإنسانية وتضعف فيه نوازع الخير والفضل ويتزايد فيه الجشع إلى المال وما يستتبعه المال من امتيازات، ويهون فيه أمر الفقراء والضعفاء ويكثر العدوان عليهم ويضعف سلطان القانون ويغلب النزوع إلى جمع المال والاستمتاع به على كل شيء آخر. ولنا في حاجة إلى الاتيان ببراهين على ذلك ولا نتاع كذلك كلام غالبية مؤرخينا فيما يذهبون إليه من الإسراف في تشويه صورة الجاهليين ومجتمعهم ظناً منهم أن ذلك يزيد قدر الإسلام والبعثة المحمدية. وهم محطون في ذلك، لأن المجتمع المكي إذا كان

بهذا الفساد البالغ الذي يصورونه به وذلك الجهل البين الذي يجعل أئمة
الشرك من الكفار في درجة من الغباء تجعلهم أشبه بالمحماوات، فإن ذلك
يقلل من فضل الإسلام في الانتصار عليهم.

ولكنا نأتي هنا آيات من القرآن فيها سور مُبينات عمن يسميهم في سورة
المرمل «بأولي النعمة» (آية ١١).

يقول الله تعالى في تصوير أشكال هؤلاء المتطهرين المفسدين في سورة
المدثر: (١١/٧٤ - ٢٤).

﴿ذُرِّيٍّ وَمَنْ خَلَقْتَ وَحِيدًا

وَجَعَلْتَ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا

وَبَيْنَ شُهُودَا

وَمَهَّدْتَ لَهُ تَمْهِيدًا

ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ

كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا

سَأَرْهُقَهُ صَعُودًا

إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ

لَفَقَطَ كَيْفَ يَدْرَأَ

ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ يَقْدَرُ

ثُمَّ نَظَرَ، ثُمَّ حَسِبَ وَيَسِرُ

ثُمَّ أَدْبَرَ، وَاسْتَكْبَرَ

فَقَالَ: إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ بِؤْتَرُ﴾

والمفسرون يجمعون على أن المراد بهذا الوصف الوليد بن المغيرة
المخزومي ويقصون في ذلك قصصاً^(١)، وليس من الضروري أن يكون المراد

(١) انظر ام كتبر ٢٩٢/٨.

هنا ذلك الرجل وحده، ولكنه مثال من هذا الطراز المتعالي المتكرر المعرور بماله ومركزه من القرشيين .

واقرا الآيات التالية عن موقف هذا نفر من الصغفاء والمساكين :

﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرَمُونَ الْيَتِيمَ
وَلَا تَحَاضُونَ عَلَىٰ أَعْيُنِ الْمَسْكِينِ
وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثُ أَكْلًا لَّمًّا
وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ الفجر ١٧/٨٩ - ٢٠

وعن معاملتهم للناس وغشهم إياهم في الكيل والبيع والشراء :

﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ
الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ
وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ
أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة المطففين ١/٨٣ - ٥)
وفي سورة الحمزة نقرا :

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ
الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ
يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ
كَلَّا لَيُبَدِّلَنَ فِي الْخِلْعَةِ﴾ (سورة الحمزة ١/١٠٤ - ٤)

وعن النسيء والنساء وما كانوا يفعلون :

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ، يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا، يَحْلُونَهُ عَامًا وَيُخْرِمُونَهُ
عَامًا لِيُؤْثِرُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُولُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ، رِينَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ . (التوبة ٣٧/٩) .

وهنا وعلى ضوء ما قلناه نعمم لماذا سأل رسول الله ﷺ الناس في أول

خطبة الوداع الثانية في منى يوم التحرر عن الشهر والبلد واليوم لكي يشت مواقيت الحج والوقوف بالمواقف^(١) فلا يعود أحد إلى المغالطة في ذلك. ويؤكد هذا قوله أن الزمان قد استدار حتى عاد كهيئته الأولى. والمراد بذلك أن عصرًا جديدًا من عصور تاريخ الإنسانية - وهو عصر الإسلام - قد بدأ وأن الزمان عاد كما كان يوم خلق الله السماوات والأرض ليبدأ من جديد.

والآن وقد أعطينا فكرة عن ذلك الفريق من القرشيين فلنلق نظرة على أحوالهم ومعيشتهم، فمن المعروف أن التجارة في ذاتها من أكرم أبواب الرزق، فما بالك إذ لجأ التاجر إلى الغش والتزوير وغالط في الحساب وغير في المئدة وفسد ضميره فلم يتورع عن أكل أموال الناس وإنكارها! لا غرابة أن ثروات أولئك الناس بلغت مبالغ وأرقاماً عسيرة على التصديق لولا أن البيان عنها جاءنا من رواية يستبعد منهم الكذب، ثم إن كلاً منهم يؤيد كلام الآخر، وانظر مثلاً ما يقوله محمد بن حبيب النسابة في كتاب المحبر تحت عنوان «أزواد الركب» أي أولئك الذين يقومون بتزويد القوافل من مالهم، من أمثال عثمان بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة الذي كان يلقب بسشارب الذهب وأبيه عمرو بن كعب الذي كان يلقب بالسيال، وعبدالله بن جدهان الذي بلغ من غناه أن الناس زعموا أنه عثر على كنز، والوليد بن المغيرة وأبي جهل عمرو ابن هشام. وابن حبيب يلقي علينا قصة تعطينا فكرة عن سعة ماله وكرمه على الناس لا من جانب الإنسانية بل من باب التعالي والغرور والتباهي بالغنى^(٢).

حُرُوبُ الْفَجَارِ وَأَشَارَهَا عَلَى قُرَيْشٍ :

قلنا فيما سبق من كلامنا على الإسماعيلية العدنانية - وهم العرب

(١) الواقدي، معاري ٣/ ١١١١.

(٢) انظر المحبر، ص ١٣٧ وما يليها

المستعرة أهم انتشروا في الحجار وشمال الجزيرة ووسطها من الخليج إلى البحر الأحمر، وهناك خصصوا لسلطان حجير، وكان للملك حجير سلطان ضعيف رمزي على عرب وسط شبه الجزيرة، وكان هذا السلطان يتناقص مع الزمن حتى إذا كانت أواخر القرن السادس الميلادي ناقت نفوسهم إلى التخلص من بقايا هذا السلطان الحميري الذي كان يتمثل في تأمين قوافل التجارة الداهية من ساحل الخليج إلى الحشة وخفارتها. وكان ملك اليمن قد ولَّى على بكر وتغلب زهير ابن جناب بن هبل الحميري المشهور في أيام العرب، والمراد بتولية ملك حجير إياه أنه اعتبره ممثلاً له لأن زهير بن جناب كان في الحقيقة قضاة ولم يكن حجيرياً، وكان من أشرف العرب في عصره - وهو أواخر القرن السادس الميلادي - وقد تميز فيها بقول الأخباريون بعشر خصال من اجتمعت فيه لقب بالكامل وهي السيادة والشرف والخطابة والشعر والوفادة على الملوك والطب والكهانة والفروسية وكثرة الولد وشرف البيت، وقد طال عمره وأثرت عنه حكم كثيرة وأشعار أكثر وتوفي في أواخر القرن السادس الميلادي بعد مولد رسول الله ﷺ وقبل بعثته ﷺ^(١).

وعاصر زهير بن جناب هذا كليلاً بن وائل الفارس المشهور وكان سيد بكر وائل أكبر قبائل ربيعة الضاربة في شرقي الجزيرة، وكانت لزهير بن جناب أرض مراعى واسعة فكان يتقاضى إتاوة من القبائل التي ترعى في أرض قضاة (المراد بعض أرض قضاة وكانت في منطقة نفوذها في مقابل النجعة والكلأ والمرعى، وأصحابهم في بعض السنين ضيق وجذب وحمل فشكوا إلى زهير عجزهم وأبانوا عذرهم فلم يصغ إليهم ومنعهم النجعة والمرعى أو يؤدوا ما عليهم فصرخوا حتى كادت ماشيتهم تهلك، وكانت هيئة الدولة قد ذهبت من نفوسهم، فلما أصابهم ذلك الظلم - الذي يتناقى مع ما يزعمه له الأخباريون عنه

(١) الألويسي، مدوع الأرب في معرفة أحوال العرب، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٢٤ ج ٢ ص

من شرف وشهامة وفروسية - ونقموا على زهير ورجاله فهدسوا رحلاً منهم اسمه زبابة من بني تميم الله وكان فاتكاً وأوعزوا إليه أن يقتل زهيراً. (العاتك في مصطلح الجاهليين هو القاتل المحترف الذي يقتل لقاء أجر) وأوصوه أن يقتله غيلة ويتحين فرصة بعده عن جنده، فأتاه زبابة وهو نائم قطعته ورحع إلى قومه وأحرمهم أنه قتله، والحقيقة أن السيف مر بحانب الطل ولم يصب من زهير مقتلاً. فلما انصرف زبابة أوعز زهير إلى قومه أن يظهر موتهم ويستأذنوا بكرأ وتغلب في دفنه لأن الحادث وقع في أرضهم، فلما أذنوا لهم في دفنه دفنوا ثياباً ملفوفة وفروا به إلى قومهم، فجمع زهير جموعه وأزمع عقاب بكر وتغلب وسار إليهم وهزم بكرأ ثم تغلب ووقع في أسرهم كليب ومهلل ابنا ربيعة، وولوا على أنفسهم ربيعة والد كليب ومهلل وهاجروا رجاله واستنقذوا الأسيرين، لكن زهيراً عاد فانتصر عليهم وألزمهم الأتاة.

وفي أواخر القرن السادس الميلادي توفي ربيعة بن كلاب وقام بأمر القوم ابنه كليب وأثل وقد أزمع الانتقام من زهير بن جناب واليمن الذين يتأصرونه، فجمع من استطاع جمعهم من قبائل معد وربيعة وقضاعة ومضر وإياد ونزار ولأقى اليمن وأنصارها في يوم خزاز وانتصر عليهم. وكانت هذه نهاية سلطان حبر الاسمي على قبائل شبه الجزيرة.

ولكن العدنانيين لم يستم استقلالهم بعد ذلك لأن غلبة البدواة عليهم حالت دون اتحاد صفوفهم، فظلوا بعد ذلك يدينون بالطاعة لمن جاورهم من الدول وذلك لحاجتهم إلى بلاد الحضارة وما لا بد لهم الحصول عليه من الأدوات والآنية والسيوف وسرح الخيل ومن هنا فقد طاعوا لكسدة أو لحم أو غسان حسب الظروف، وكانت تلك الطاعة اسمية لا تكلفهم إلا شيئاً قليلاً، وأهم ما كانت تكلفهم إياء خفارة قوافل تلك الدول أو لطائمها دون مقاسل وخاصة القوافل الذاهبة إلى أسواق الحجاز والصادرة منها.

ومن هنا نفهم لماذا رحلت تلك القبائل بما عرضه عليها هاشم من

الإيلاف، فقد ربح وربحوا، والإيلاف كان مرتبطاً بالعصم، وهي الاتفاقات مع الدول خارج الجزيرة لتيسير التبادل التجاري وفتح الأبواب أمام التجارة المكية إلى الشام حيناً وإلى العراق حيناً ثانياً وإلى اليمن والحبشة حيناً ثالثاً.

وقد اعتمدنا في هذا التلخيص المترابط على ما أورده جرحي زيدان في كتابه القيم: العرب قبل الإسلام^(١). وهو يجعل معركة خزار أو البيضاء في أواخر القرن الخامس الميلادي ولكننا نرى أن الأوفق لتسلسل الحوادث أن تكون في بداية النصف الثاني من القرن السادس أي بعد أيام قصي بقليل وقبل أيام هاشم، لأن القول أنها كانت قبل سنة ٥٠٠ ميلادية يجعل العهد بعيداً جداً بينها وبين العصر الإسلامي وهنا يكون من العسير أن نحفظ ذاكرة العرب أخبار حروب وقعت قبل قرن ونصف من الزمان. ولهذا عدلنا التاريخ على هذا النحو.

ويتصل بيوم خزار يوم يسمى يوم البيضاء، والغالب أنه جاء بعد عام الفيل، فهو في وقت قريب من يوم خزار، لأن يوم البيضاء كان يوماً انتصرت فيه جماعات من المعدية بقيادة عامر بن الظرب العدواني على مجموعة من القبائل اليمنية أكبرها مذحج كانت تحاول الانتجاع في أراضي العدنانيين فاجتمعوا ووقفوا في وجهها وفي وجه أي تقدم للقبائل اليمنية من الجنوب.

وإنما استوردنا مع هذه التفاصيل لنتهي إلى حرب الفجار وهي مدار هذه الفقرة من بحثنا لنقول إن حروب الفجار كانت جزءاً من حركة وعي عام وشعور بالذات شمل العدنانية جميعاً نتيجة لتكاثر عددها وازدياد قوتها وتحسن أحوالها نسبياً، وكان لانتظام التجارة واستقرار أسواقها أثر بعيد في ذلك فبأن ديب الحياة في الطرق الرئيسية التي نطم أمرها القرشيون كان حرياً أن يبعث

(١) جرحي زيدان تاريخ العرب قبل الإسلام، طعة جديدة بمراحمتنا وتعليقاتنا (بدون تاريخ مكتوب عليها ولكنها كانت سنة ١٩٥٧) من ٢٥٢ - ٢٥٣

الحياة في الطرق التجارية الثانوية التي تمر بمنارل القبائل في داخل الجريبة، ومن المعروف أن التجارة ليست مجرد تبادل تجارة بل تسادل أفكار ومظاهر حضارية وثقافية، وانتظامها وازدهارها يؤدي إلى وعي بشري ونهوض حضاري يصل إلى آفاق لا تصدق، ومن أكبر العوامل التي أدت إلى النهضة الأوروبية كان انتظام التجارة ونهوضها ونشاطها في البحر المتوسط، وانتظام تجارة هذا البحر زاد في ثروات الجمهوريات والممالك الإيطالية وفرنسا وإسبانيا والبرتغال والجزر البريطانية وتقدم صناعة السفن وفنون الملاحة البحرية وعمل الخرائط، وهذا كله أدى في النهاية إلى كشف العالم الجديد وما أعقبه من تغير حاسم في تاريخ البشر.

ومعظم ما تذكره الكتب من أيام العرب راجع إلى تلك الفترة الزمانية، وهي في ذاتها فترة وعي القبائل وإحساسها بنفسها، وإذا نحن تأملنا تفاصيلها نجد أنها من الناحية العسكرية لا تكاد تذكر فحرب داحس والغبراء بين عيس وذبيان وهي الحرب الطويلة التي ظهر فيها أمر عترة العبي لم تسفر إلا عن خسائر لا تزيد على أصابع اليدين في الجانبين، وفي النهاية ملئت القبيلتان القتال وتصالحتا وتولى الصلح بين الجانبين رجل من الحكماء ودفعت دييات قليلة وانتهى الأمر.

وحروب الفجار التي نحن بصددنا جزء من ذلك الوعي العربي الهام وأسبابها - كما ترونها المراجع - تبدو نزاعات صيبانية ولكن الحقيقة أن السبب الرئيسي هو غيرة قبائل قيس عيلان من قريش لما بلغت من الثروة والازدهار بفضل التجارة، وكان شريان رئيسي من طرق التجارة، وهو الطريق من مكة إلى العراق يمر بمنازل قيس عيلان، فأرادت بعض بطونها (من هوازن) إيقاف تجارة قريش، وتعمدت حادثاً صغيراً لإثارة الحرب، فاستعانت قريش بكنانة (أمها) وأمكن في النهاية حصر القتال وإيقاف أعمال العداوة وتلك هي حرب الفجار الأولى، وإنما سميت بحرب الفجار لأنها وقعت في الأشهر الحرم، فكانت إما في رجب أو في ذي القعدة أو ذي الحجة أو المحرم.

وحرب العمار الثانية أيضاً كانت بين قريش وكنانة في جاب وبعض قائل قيس عيلان في جاب ينزعهم عروة بن عامر الكلابي وهذه الحرب مؤرخة، لأنها كانت ورسول الله ﷺ شاب في العشرين وقد حضرها وقال إنه كان يجمع السهام التي يطلقها العدو ولا تصيب ويساوها لأعمامه، وتقول الأخبار إن رجلاً خليعاً فائكاً يسمى البراض الكناني عرض على العمان بن المنذر بن قابوس سيد بني لحم أو ملك المخافرة كما كان يسمى أن يقود لطيمة له كانت ذاهبة إلى سوق عكاظ وذو المجاز فكبر ذلك على عروة الكلابي سيد بني كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وأنف أن يميز هذا الكناني الخليع القتال لطيمة العمان، وتوعد البراض، ولكن البراض غدره وقتله فثارت الحرب بين بطون بني قيس عيلان من ناحية وقريش وكنانة من ناحية أخرى، وكان برأس قريشاً في ذلك الحين - كما تقول النصوص - حرب ابن أمية سيد بني عبد شمس وهو والد أبي سفيان وكادت كنانة وقريش أن تمزما حتى هرب رجالهما واقتحموا الحرم طلباً للنجاة، ولكن حرب بن أمية نادى رجال قريش فبرز منهم عمرو وسفيان وأبو سفيان وأبو حرب وعتبة بنو أمية الأكبر بن عبد شمس وهم المسمون بالعنابس لأنهم ثبتوا ثبات الجبال في ذلك اليوم، وانضم إليهم العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص والعويص، وهم المسمون بالأعياص أي الذين يستعصون على أن يقودهم أو يسودهم أحد. وقد تمكن هؤلاء من كسب النصر لقريش وكنانة وارتد بنو كلاب ومن معهم من قيس عيلان منهزمين.

وفي فرار كنانة وقريش في أول هذه الحرب ولخوئها إلى الحرم يقول شاعر يسمى خدّاش بن زهير، وكان اللقاء أولاً في نخلة:

يا شدة ما شددنا غير كادبة على سخية لولا الليل والحرم

(ويشكل اللفظ الأخير الحرم) وكانت العرب تسخر من قريش وتسميها

سخينة، والسحينة لون من العصائد يعمل من الدقيق ويؤكل ساخناً، وكان العرب نادراً ما يأكلون طعاماً ساخناً، فأنكروا على قريش كثرة أكل السخينة، مع أن السخينة لم تكن طعاماً ممتازاً إنما كان يؤكل ساخناً.

وفي هذه الفحار الثانية أيضاً ظهر أمر عبدالله بن جدعان فقد رود مائة مقاتل بالخيـل والسلاح من ماله سوى من ألبس من قومه وانضمت الأحابيش إلى قريش وعلى رأسهم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وكان اللقاء الأخير في موضع يسمى شُـمَـطَة قرب عكاظ وكذلك غـيـر بعيد عن نخلة الشامية موضع اللقاء الأول، واجتمعت من قيس عيلان بنو سليم بن منصور وبنو عامر بن صعصعة وبقيـة هوازن، وكان اللقاء عنيفاً دامياً خسر فيه القيسيون ما بين مائة وثمانين قتيلاً ولم يقتل من قريش وكنانة والأحابيش أحد، ويبدو أن هذا النصر لم يتم إلا بعد لقاءات أخرى في موضع يسمى العبلاء وموضع يسمى الحريرة، وفي هذه اللقاءات قتل أبو سفيان بن أمية الأكبر وهو غير أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية الذي سيكون له دور كبير في تاريخ قريش في الإسلام، وفقدت كنانة ثمانية من رجالها. وقد استقرت قدم قريش في ذلك اليوم وثبت أمر بني أمية الأكبر، وكان لبني المغيرة وهم مخزوم دور كبير أشاد به ابن الزبير شاعر قريش^(١).

وقد اكتفيت هنا بموجز الأحداث دون استطراد مع التفاصيل لأن غالب ما لدينا منها مبالغات وقصص وأشياء وضعت بعد الإسلام، ثم إن جرحي زيدان فصل أمرها تفصيلاً جيداً وزدنا عليه في تحقيقنا له تعليقات نافعة. والمهم لدينا هي النتيجة: فقد استقرت قريش وثبتت أقدامها وازداد حياها، وظهرت من بين بيوتها بيوت الأحلاف المناهضين لبني هاشم، وحدير بالذكر أن بني هاشم كانت لهم الرياسة الشرفية متمثلة في الزبير ثم أبي طالب ابني عبد

(١) انظر الزوري، نهاية الأرب ج ١٥ ص ٤٢٢ وما بعدها وجرحي زيدان تاريخ العرب قبل الإسلام ص ٢٧١ وما بعدها

المطلب، ولكن الآخرين تخطوهم وظهروا عليهم وأصبحت لهم الرياسة الفعلية في مكة وإن لم يتعرضوا لبني هاشم في رفاقتهم وسفائهم

استبد إدن أهل القوة والمال بأمور مكة والحرم والحج، ولم يجدوا أمامهم قوة تردعهم فبسطوا سلطانهم على كل شيء وسطوا أيديهم على الناس، فاردادوا ثراء وقوة وارداد الضعفاء بؤساً وفقراً وسادت مكة حالة من عدم الرضا والتذمر أو عدم الرضا الاجتماعي أو ما يسمى باسم *Malaise* وتزايدت أعداد المستضعفين وهم الذين يعيشون دون حماية من قانون أو أخلاق أو عرف اجتماعي محترم. والزعامة الفعلية القرشية لم تعد زعامة النشاط والاجتهاد والعمل لما فيه صالح الجماعة ورعاية التجارة والحج وخدمة المجتمع العربي كما كان الحال من قصي إلى عبد المطلب بل أصبح المجتمع كله في خدمة جماعة بعينها من الناس من أصحاب المال والجاه وأهملت القواعد الأخلاقية والأسس المعنوية التي قام عليها ذلك المجتمع المكي القرشي والحجازي عامة. وستعرض هذه الحالة في الفصل التالي الذي ندرس فيه موقف قريش من الإسلام.

والآن نلقي نظرة على المجتمع المكي تحت قيادة قريش وهو في ذروته غنى وازدهاراً، ونلم بما كان للتجارة والأسواق والحج من أثر بعيد في تطور اللغة العربية والفكر العربي عامة.

المجتمع القرشي في أوجهِ قبل الإسلام:

لا تصرفنا النواحي السلبية لذلك المجتمع المكي القرشي عن الالتفات إلى نواحيه الإيجابية، فإن الغنى الذي وصلت إليه بيوت بني عبد شمس ومحزوم وسهم ومُجَّح وناس أفراد من بيوت قرشية أخرى كانت له نواحي إيجابية لا بد من الإلمام بها حتى تكتمل لنا صورة قريش في أوجها قبل الإسلام.

ذلك أن وبرة المال في أيدي هذا النمر من القرشيين جعلت مكة، ذلك البلد الذي يقوم نواد عبر ذي ررع فعلاً ملتقى تجارات العالم وصاعته كلها، وإذا كان - كبار المكين قد ظلوا من ناحية المظهر قريبيين من البدو في مظهر حياتهم، فإن خيرات الدنيا كانت عندهم حقاً لإنهم لم يتحذوا القصور أو مظاهر الترف المفسد الفاسد الذي كان شائعاً في عواصم الدولتين الكبيرتين اللتين سادتا تاريخ ما يعرف بالشرقين الأوسط والأدنى وبقية أوروبا خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين، ولكن كل شيء كان في بيوتهم؛ كانوا يملكون مبالغ ضخمة من دنانير الذهب ودرهم الفضة، وكانت لديهم أقبية الحرير والصوف والخز وكانت لهم الضياع والبيوت في مكة نفسها وفي الطائف وتبالة ونجران وتيماء وحوران حتى بصرى وغزة. وقد حرص كبار المكين على أن يكون لكل منهم حائط أو بستان في الطائف حيث يقضون الصيف وما شاءوا من شهور السنة في حياة رغبة يسودها الكسل والشعور بالامتياز عن الناس، وكان العباس بن عبد المطلب وهو من الهاشميين القلائل الذين دخلوا عالم التجارة وجمعوا أموالاً طائلة وملك ضيعة في جنوب الشام تسمى بقبش أو بقبش. وكان تجار العطور من المكين يعرفون أغل عطور العصر وأنفسها من المسك والذبرة والغالية، ويعطينا محمد بن حبيب في المحبر صورة دقيقة لأبي جهل عمرو بن هشام وهو في فسطاطه يطعم الناس. وقد بسط انطاعاً على الأرض وضعت عليها جفان الثريد مع اللحم ودعي الناس للأكل فدخلوا دون هرج وأصابوا ما شاءوا من الطعام^(١)، وقد عاصر أولئك الأجواد القرشيين أجواداً من قبائل عربية غير قريش، ويلاحظ أن الكثيرين من الأجواد غير القرشيين هؤلاء كان في بعضهم ميل إلى الخير، فمثلاً كان هناك رجل من بني عماشع يسمى صعصعة بن ناجية يشتري البنات من آبائهن ليحميهن من الواد، وفي فصل أجواد قريش من كتاب المحبر الذي أشرنا إليه أمثلة من هذا الطراز.

(١) المحبر لمحمد بن حبيب ص ١٤٢ - ١٤٣، وانظر ما أعواد العرب في العملية كنه ابتداء من ص ١٣٧

ورغم تغير الكثيرين من رؤساء العرب على القرشيين في فضائل الجود والكرم فإن قريشاً كانت تزعم لنفسها امتيازاً على بقية العرب بفضل وحود الكعبة في ديارهم وقيامهم بأمرها ويحاول بعض مؤرخينا تمييز القرشيين على غيرهم بخصائص الحلم والحدود والدكاء وبعد النظر، ولكن هذه كلها مبالغات سببها النظرة الرجعية التي أشرنا إليها، فكأنهم يأخذون من عهد قريش بعد الإسلام ويضيفون إليها قبل الإسلام حاسيين أن ذلك تأصيلاً لمجد قريش بعد الإسلام. يرون في ذلك تصديقاً لما قال به - في زعمهم - الرسول أن قريشاً أفضل العرب، أو أن القرشي يعدل غيره من العرب مرتين، أو أن قريشاً أولى الناس بإمامة المسلمين، وما إلى ذلك مما لم يقله الرسول ولا يمكن أن يقوله، لأن أي قول يصدر عن الرسول ينبغي أن يكون له أصل في القرآن، والقرآن لا يفضل إنساناً على إنسان إلا بالتقوى.

ولكن القرشيين فعلاً تميزوا بالبدنية الحاضرة وسرعة الجواب وحسن التصرف في الخطاب، وهذه بالذات هي الخصائص الذهنية التي تتأق من التجارة، فإن التاجر بحكم صناعته لبق متصرف في الكلام يحسن تزيين ما يبيع، وهذا شيء يختلف تماماً عما زعمه بعض الكتاب المسلمين من أن قريشاً أرجح العرب أحلاماً أو أنهم كانوا أحلم الناس، لأن الحقيقة أن عرباً آخرين كثيرين كانوا يرجعون القرشيين في الحلم.

وتميز القرشيون كذلك في نظر الأعراب في شبه الجزيرة بأنهم كانوا أصحاب نظام سياسي قائم يقارب ما عرف بعضهم من أحوال الدول خارج شبه الجزيرة ونظمها، ورغم الخصومات التي كانت قائمة بين بيوت المكيين إلا أنهم تميزوا فعلاً بالوقوف حية واحدة أمام غيرهم، وهذا شعور بالتساند لم يعرفه أي قبيل آخر من العرب فقد كان القرشيون يدون للناس قبلاً واحداً ويهسون جميعاً للدفاع عن مصالح قبيلهم إذا دهمهم خطر وقد رأينا ذلك في حروب العجار.

ولكن الامتياز الذي اعترف به العرب جميعاً لقريش كان امتياز الغنى والمال وقد كان بعض رؤساء العرب يملكون من الإبل والخيل والماشية فوق ما ملك كبراء قريش ولكن ثروة القرشيين كانت ذهباً وفضة وعروضاً أي أشياء ذات قيمة مالية فعلية كالأقمشة والعطور والصمغ واللبن والقرقة والتواصل وما إلى هذا من الأشياء التي كانت في تلك العصور تعدل الذهب والفضة، وثروة الإبل والخيل والماشية لا تعطي صاحبها قوة على غيره، لأنه - أولاً - لا يستطيع حمايتها من البدو إلا بالسماح لهم بأن يصيبوا منها ما تحس إليه حاجتهم عند الضرورة، وإلا فكيف يستطيع رجل أو قبيلة - حراسة ألف ناقة ترعى في منازل القبيلة وكيف يمكن حماية ألف نخلة مثلاً تمتد على مسافة تتراوح بين ثلاثة كيلومترات وخمسة؟ ولهذا فقد كانت ثروة الإبل والماشية والخيل ثروة جاء وسؤدد ومجد ولكنها ليست ثروة قوة يستطيع صاحبها أن يستخدم بها الناس أو يرغمهم على طاعته، في حين أن ثروة المال ثروة «مركزة» في صورة ذهب وفضة وما يشابهها من حيث قلة المساحة التي تحتلها، فهي ثروة يمكن حمايتها والتصرف فيها واستعمالها في استخدام الناس مثلاً أو سيادتهم. وهنا حيث يوجد الذهب والفضة يوجد الظلم والاستبداد والاستغلال، ولهذا وجد الظلم في بلاد الرومان والفرس نتيجة لوجود ثروات الذهب والفضة عند الملوك والأمراء ورجال الدول والأغنياء وذوي الجاه. ولم يوجد الظلم في جزيرة العرب لعدم وجود الثروة المركزة التي يمكن تخزينها وحفظها واستخدامها في استئجار الجند مثلاً.

وقد كانت قريش تملك المال، فقد قدرت ثروة الوليد بن المغيرة بما يقرب من مائة ألف دينار وثروة هشام بن المغيرة والد أبي جهل بما يقارب ذلك، وثروة أبي أحيحة سعيد بن العاص كانت تصل إلى حوالي مائتي ألف دينار إذا أضيف إليها ما كان لديه من عروض وكانت القافلة الواحدة من كسار قواصل المكيين وواحدتها العير - تتكون - من ألف جمل محملة بالبضائع، ورأس المال المستخدم

فيها يقرب من خمسين ألف دينار في زمان كان الدينار يشتري زوجاً من الإبل، وكان الرجل وأهل بيته يحتاجون إلى ما بين درهم ودرهمين في اليوم ليعيشوا في سعة. حقاً كان كثيرون من أوساط القرشيين يشاركون في العير بالدمابر العشرة وربما الخمسة، ولكن الرجل الذي كان يملك عشرة دنانير يستخدمها في التجارة خارج مطالب حاجته كان يعد في المياسيرهما نالاً بمن كان يملك الألوف إلى جانب الخواطر (البساتين) في الطائف وغيرها؟

كان القرشيون متميزين على غيرهم من العرب بالغنى من هذه الناحية، وتميزوا كذلك بكل ما يجره المال من سليات مثل الجشع والطمع والرغبة في زيادة المال وتثميته ولو على حساب الآخرين. من هنا عرف القرشيون بالربا والمنالطة والتطفيف والإخسار في الكيل والميزان والقياس وكان هذا يثير غضب الأعراب الذين لم تكن تنقصهم الخوافز لكراهة الأغنياء فضلاً عن المرايين والمستغلين، وهذا كان شعوراً عاماً عند كثير من العرب نحو القرشيين وبجأعة المال بصفة خاصة. والبيتان التاليان مثال على ما كان يقال عن قريش:

أهلى قريشاً عن المجد الأساطير ورشوةً مثلها ترشى السفافير
وأكلها اللحم محضاً لا خليط له وقولها ذهبت عبر أنت عبر

والرشوة عند الجاهليين هي كل مال حرام سواء أكان إتاوة زائدة أو ربا أو مالاً مسروقاً أو مالاً مقدماً لإفساد الخلق.

بل زعم بعض العرب أن قريشاً تتحدى الآلهة بمالها غير مقدرة لها حرمة:

رعمت سحابة أن ستعلب رها ليغلبن مغالب الغلاب

ولكن مركز قريش بين العرب ظل على ما هو عليه ودون تغيير لأن التدهور الذي أشرنا إليه كان داخلياً لم يظهر للناس على حقيقته إلا عندما جاء

الإسلام وتمهدت قريش بسب الدعوة المحمدية بالتصديق، لأن الدعوة الإسلامية أظهرت وجوه التدهور في المجتمع المكي، وعندما كثّر المسلمون أصبحت في مكة جبهة معارضة قوية صمت المستضعفين ونعراً من الساخطين على سيطرة قريش. ووقف بنو عبد المطلب وسو المطلب عمه إلى جانب محمد والإسلام لا إيماناً بالإسلام بل حملتهم على ذلك العصية في الغالب، وظن أصحاب حلف الأحلاف أن الدعوة المحمدية دعوة هاشمية هدفها إعادة ميزان القوى لصالحهم فازدادوا عناداً للإسلام كما سنرى في الفصل التالي، ولكن مركز قريش داخل مكة انتابه الوهن، وكان هذا من الأسباب التي حفزت خصوم الإسلام على مزيد من التماسك، فاشتدت المعارضة للإسلام وتزايدت حتى تمكن القرشيون من إيقاف تقدم الإسلام داخل مدينتهم وأطمأنوا إلى ذلك.

وظلت لقريش في مكة مكانتها في عالم العرب، ومضت قريش في طريقها زعيمة لقبائل العرب في مسائل التجارة والدين. ولم يتغير هذا الوضع تغيراً محسوساً حتى الهجرة النبوية إلى المدينة.

ونتابع دراسة بقية نتائج الزعامة القرشية بين القبائل العربية فنقول إن قريشاً عندما وصلت إلى هذه المكانة وأصبحت أغنى قبائل شبه الجزيرة وأكثرها سلطاناً في مسائل التجارة والدين أظهر رجالها كياسة ومهارة ضمنت لهم استمرار هذا التميز، فهم مثلاً لم يفخروا بمجاهم على غيرهم من القبائل ولا هم استخدموا المال أو الإشراف على شؤون الكعبة والحج مجالاً للفخر على غيرهم، وإنما هم استمروا يحسنون معاملة الوافدين على بلادهم من كبار أهل القبائل وأكثرهم والاحتفال بهم، وفي مكة في موسم الحج وفي أسواق الحجاز كان زعماء القرشيين يجتمعون بكبار أهل القبائل على بساط المودة، وهذا مطهر من مظاهر مهارتهم التجارية، ومن أظهر الأمثلة على كياسة القرشيين أنهم عندما احتفظوا لأنفسهم بولاية الكعبة وموسم الحج تركوا ولاية سوق عكاظ والقضاء

فيه لتميم، ويسمى هذا عند محمد بن حبيب في المحبر: «عكاظ على حدة والموسم على حدة»^(١) والبيان الذي يعطينا إياه محمد بن حبيب عن تولى سوق عكاظ والقضاء فيه يلاحظ منه أنهم لم يكونوا جميعاً من تميم بل اشترك فيه ناس من عماشع، والطاهر أن المراد بالموسم في عكاظ هو رياضة الذاهبين للحج من عكاظ، وكانت قريش كما رأينا قد اقتصرت في الحج على مزدلفة لا تتعداها إلى عرفات في حين أن بقية العرب كانوا يقفون عند عرفات، ولهذا فقد كان الناس من غير قريش في حاجة إلى رئيس للموسم يفيض بالناس من عرفات، فإذا وصل الناس إلى المزدلفة واستمروا إلى بقية مناسك الحج دخلوا الحرم وهنا تكون الرياضة لقريش.

أثر انظمام التجارة والحج في النمو الحضاري لقريش وتطور اللغة العربية :

خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين - وهما اللذان شهدا معظم الحوادث التي نتاولها في هذه الدراسة ظهرت اللغة العربية في صورتها النهائية التي ثبتت عليها بعد ذلك دون تغيير يذكر عبر القرون وذلك بفضل القرآن الكريم الذي نزل بها، فكان نزوله بها بركة عليها، فإن المسلمين حرصاً منهم على المحافظة على القرآن بالفاظه ومعانيه جعلهم يحرصون على المحافظة على اللغة العربية في صورتها التي كانت عليها أيام نزل فيها القرآن الكريم. ومن الواضح أن اللغة العربية لكي تصل إلى تركيبها الكامل لفظاً وتركيباً ونحواً لا بد أن تكون قد خلقت وراءها قرونًا طويلة من التطور والتنقل من موطن لموطن حتى اكتمل نضوجها وتكوينها في الحجاز منذ بدايات القرن الخامس الميلادي، إذ إن أقدم شواهد هذه اللغة الناقية إلى اليوم لا يمكن أن ترجع إلى ما قبل القرن الخامس الميلادي.

(١) محمد بن حبيب، المحبر ١٨٢

ونظراً لأن أصول اللغة العربية وتكوينها وتطورها تمت كلها في مناطق صحراوية ونصف صحراوية لا يعرف أهلها التدوين ولا تعمر فيها المدونات طويلاً بسبب حفاف الجو، فإن تاريخ اللغة العربية ظل إلى يومنا هذا سرّاً مغيباً في تصاعيف الرمال والصحاري وصخورها. وقد بذل العلماء جهوداً مضنية في تتبع أصول العربية، وفي وقت ما من القرن التاسع عشر الميلادي اجتمعت جهود عشرات من أعظم الأثريين وعلماء الكتابات على الأحجار وغيرها (Paleographers, epigraphers) من بلاد الغرب كله وتضافرت للكشف عن سر اللغة العربية، وخلفوا لنا مؤلفات ذات قيمة علمية كبرى ولكن النتائج التي وصلوا إليها جدّ قليلة ولا تتناسب قط مع الجهد المبذول فيها، وفي نهاية هذه الفقرة من بحثنا سنورد ثبناً بأهم تلك الأعمال.

وأقدم ما عثرنا عليه من معالم العربية حوالي ٤٠ اسم علم وردت في نص سرياني يتكلم عن قتال دار بين الآشوريين والعرب على الحدود الشمالية لشبه الجزيرة ويُذكر العرب في هذا النص باسم عريبي أو عروبو أو عُرْبِي، وقد نشر هذا النص كالآغان: O'Callaghan, Aram Nahrain, 95

ويرجع تاريخ هذا النص إلى الفترة بين ٨٥٣ و ٦٢٦ قبل الميلاد، ثم عثر بعد ذلك على نصوص أخرى ترجع إلى نفس الفترة ونشرها T. Weiss Rosmarin في مجلة مدرسة الأبحاث الشرقية في لندن JSOR سنة ١٩٣٢ ص ١ - ٣٧ وأعاد نشرها وتحققها فريتز هومل F. Hommel: *Ethaologie und Geographie des Alten Orients*, 1926, pp 578-589 وقد ذهب Landsberger و Bauer في بحث نشره في مجلة الدراسات السريانية Zeitschrift der Assyriologie سنة ١٩٢٧ إلى أن أسماء الأعلام الواردة في النص آرامية وقد يقض هذا الرأي B. Montz و Paul Haupt فدهبا إلى أن المراد بلفظ أرمو في النص هم العرب. ومن أمثلة هذه الأسماء خُذَان وزبيد وخَزَعِلُ

وهي صور قديمة لأسماء عربية معروفة. وهذا أول ذكر لعرب في نصوص التاريخ.

وقد عثرنا في نصوص ترجع إلى فترة قريبة من هذه على أسماء أعلام عربية في نصوص وجدت في ناحية ددان قرب مدينة العلا الحالية، وفي نصوص لحيانة من بينها اسم مسعود. وقد جمع هذه النصوص وحققها وترجمها وعلق عليها علماء آخرون منهم:

Jaussen et Savignac, Mission archéologique en Arabie, 1904-

Winnett, Study of the Lihyanite and Thamudic Inscriptions.

Museon مجلة سنة ١٩٣٧ ص ٢٣٩ وغيرها.

ولما أشرنا إلى هذه النصوص لأنها تتضمن أول ذكر مكتوب ومنقوش للعرب، ومن الواضح أن العرب وجدوا منذ الزمن القديم في جزيرتهم، ولكن اتصالهم بالعالم الخارجي كان قليلاً، وهذه بعض شواهد.

ومنذ القرن الرابع قبل الميلاد يكثر ذكر أسماء الأعلام العربية في النصوص النبطية وترد الأسماء كذلك في النصوص التدمرية التي ترجع إلى القرن الأول قبل الميلاد وتتوالى بعد ذلك النصوص التي يرد فيها ذكر لأسماء أعلام عربية وهي آشورية وأكادية وعبرانية وسريانية ويونانية ولاتينية، ويستوقف النظر في ألوف أسماء العرب التي وجدت في هذه النصوص أنها تدل على ثبات صور تلك الأسماء على مر العصور.

وقد استنتج الباحثون من تلك النصوص أن اللغة العربية القديمة كانت لغة حُرَّهم وهي إحدى قبائل العرب النائدة التي تحلقت عنها قبيلة اندرجت في عداد العرب المستعربة وكان لها ذكر في تاريخ العرب قبل الإسلام هي المسماة حُرَّهم الثابتة وقد ورد ذكرها في هذا البحث. وقد أورد أبو عبيد القاسم بن

سلام المتوفى سنة ٢٢٣هـ/٨٣٨م. نحو ثلاثين شاهداً من لهجة جرهم هذه في كلامه عما دخل القرآن من الألفاظ بلهجات القائل العربية

وقد كانت للعرب البائدة لغة ولا شك، وقد أورد الرواة بعض ألفاظ تخلعت عن قائل العرب البائدة تعطينا فكرة عنها، وهذه الألفاظ قريبة في مبناها من أسماء الأعلام التي وردت في النقوش الأتفة الذكر، وهذه وتلك هي كل ما بقي لنا من العربية العتيقة أو ما سماه الباحثون باسم Ur - Arabish .

وعندما دخل العاربة اتخذوا هذه اللغة وتكلموها بلهجات مختلفة، وبعض هؤلاء العاربة أوغلوا في الصحراء من الجنوب حاملين معهم لهجاتهم، وهي لهجات من العربية القديمة أو السبئية أو القنانية وكلها متقاربة لأنها كلها من أسرة لغوية واحدة، وفي كلام ياقوت عن جبلي أجأ وسلمى يقول: (١/١٣٧ من الطبعة الأوروبية) إن طيئاً عندما هاجرت من الجنوب استقرت في الجبلين المنسويين إليها وإن جد هذه القبيلة المسمى طيء وجد في جبل أجأ شيخاً هرمًا قال له: «نحن من بقايا صحار، غنينا بهذين الجبلين عصراً بعد عصر، أفنانا كمر الليل والنهار». وطيء كما ذكرنا من جماعات العرب العاربة التي انتشرت في شبه الجزيرة بعد خلائها بفناء معظم البائدة وقد أخذوا ما وجدوه من بقايا لهجات البائدة وبنوا عليه.

ويؤخذ من كلام اللغويين العرب أن العربية القديمة كانت لها لهجتان رئيسيتان، لهجة أهل غرب الجزيرة ولهجة أهل شرقها. ولدينا شواهد من لغة قضاعة - وقضاعة كما انتهينا إليه في هذا البحث هي إحدى جماعات العرب العاربة - وهي وطيء والأرد أكبر جماعات أولئك العرب العاربة وكانوا أقرب إلى الشعوب، لأن البلاد كانت لا تزال تحتغط بشيء من حضرتها، فالسهول كانت أراضي استب أي حشائش قصيرة أما نواحي الجبال والمرتفعات من مثل جبلي طيء وبلاد السراة والجسل الأخضر في عمان فكانت غنية بالزروع والمياه والأشجار، ويقول ياقوت في كلامه عن جبلي طيء: «ونظر عمرو بن طيء -

والمفروض هنا أنه رجل - إلى بلاد واسعة كثيرة المياه والشجر والنخل والريف، فرجع إلى أبيه وأخبره، فسار طيء، بإبله وولده حتى نزل الجبلين فراهما أرضاً لها شأن. (ياقوت مادة أجا) وهذا الكلام يمكن أن يقال عن حبال السراة أو سراة غامد في منطقة عسير الحالية والجبل الأخضر في عمان وجبلي طيء. وهما اليوم حال شمر، فهذه وأمثالها كانت دائماً مواطن عامرة بالناس وما يقول ياقوت من أن طيئاً وجد جبلي أجا وسلمي نخاليين من السكان مستعد، والغالب أن طيئاً أقامت في الجبلين من زمن طويل لأنها من جبل العرب العاربة كما قلنا، شأنها في ذلك شأن قضاعة والأزد. وقد سبق أن نبهنا إلى أن كتاب العرب تركوا مسألة العرب العاربة مبهمة لأنهم لم يعرفوا التطور الجغرافي والسكاني لشبه الجزيرة، فقالوا دون اتفاق بينهم أو دليل إن العاربة هم مهاجرة اليمن من الجنوب وأهل اليمن عرب منذ البداية: عاصروا البائدة والعاربة وكانت لهم هجرات وامتدادات بعد استئناس الجمل وعودة العمران إلى وسط الجزيرة وشمالها ولكن ليس إلى الحد الواسع المدى الذي يريدون أن يقنعونا به، فلا قضاعة كانت يمنية ولا طيء ولا لحم ولا غسان ولا كل خزاعة كما رأينا، وقد أن الألوان فيها نعتقد لأن نتخلص من الكثير من أوهام ابن الكلبي وأمثاله فيها بتعلق بأصول القبائل العربية.

وأصول العربية ترجع بلا شك إلى اليمن. وقبائل البائدة والعاربة أخذوا بقايا العربية عند انتشارهم في الجزيرة العربية وساروا بها إلى الأمام، وقضاعة بالذات كان لها الأثر البعيد في ذلك التاريخ، فقضاعة كانت وتبدأ عربياً في بلاد الشام وعلى مشارف الجزيرة الشمالية، وفي بلاد قضاعة أخذت العربية الفاظاً كثيرة من العربية والآرامية وقد أثبت أ. كوهين في بحث شره في الدورية اليهودية سنة ١٩١٢ أي قبل أن تقع الواقعة بيننا وبين الصهيونية بحثاً له قيمته حافلاً بتلك الشواهد:

A. Cohen, Aramaic Influence on Arabic, Jewish Quarterly Review, 1912

حيث نحد الأصول الآرامية لبعض العبارات التي أوردها اللغويون العرب من لهجات قصاعة وطبيء وعبد القيس وغيرها، وانظر:

S. Fraenkel, Aramaische Fremdwörter im Arabisch, 1886.

وقد أبدت بحوث علماء آخرين من أمثال H Mueller وكارل بروكلمان وبولدكه الآراء التي تقول بأن اللهجة العربية التي تكونت وانتشرت بين عرب الشمال والوسط هي اللهجة الرئيسية التي نمت وازدهرت في نجد وأصبحت الأصل البعيد للعربية الفصحى، وهذه اللهجة أخذت الكثير من الألفاظ اللاتينية والسريانية والفارسية واليونانية - بالإضافة إلى الحبشية، وأدخلته في صميم اللغة الفصحى ومن أمثلة ذلك ألفاظ قنطار (في السريانية قنطيرة، وهذه من اللاتينية Centenarius أي وزن مائة رطل) ومنديل (من السريانية منديلة وهذا من اليونانية Uasndn (منديل)، ولفظ صراط من اللاتينية Strada (الطريق ومنه الإيطالية Strada والألمانية Strasse والانجليزية Street)، وقصر (من اللاتينية Castra وهي الحصن ثم أطلق على كل بناء بالحجارة)، وغير ذلك كثير، وكل هذه دلائل على حيوية اللغة وقوتها، فإن اللغة الحية القوية تأخذ من غيرها وتعطي ما دامت جارية على الألسن مستعملة، (وانظر في ذلك كتاب العرب للجوالقي، بتحقيق ادوارد سخاو في ليدن، وانظر في ذلك كله كتاب فوك Fück المشهور عن العربية وقد ترجم إلى العربية لتبع هذا التاريخ).

وقد جمع د. ناصر الدين الأسد في كتابه: «مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية» (الطبعة الأولى - دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٦) وهو من أمهات الأبحاث الحديثة في تاريخ اللغة والأدب العربيين التي يمكن أن سميها كلاسيكيات الدراسات العربية الحديثة التي ينبغي أن نعطيها نفس الأهمية التي نعطيها لكلاسيكيات الأصول العربية مثلها في ذلك مثل الاشتقاق لابن دريد والعرب للجوالقي والمصاحف لأبي داود السجستاني وما إليها، ومثل

كتاب ناصر الأسد هذا كتاب أسواق العرب لسعيد الأفغاني وبلوغ الأرب
لمحمود شكري الألوسي وتاريخ العرب قبل الإسلام وتاريخ الأدب العربي
لجرحي ريدان وتاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف ومجلداته العظيمة القيمة
وأبحاث عالم الجزيرة للشيخ حمد الحاسر وتحقيقاته الكثيرة الرصينة في جغرافية
الجزيرة وتاريخها وكتاب تاريخ العرب قبل الإسلام الحفيل لجواد علي، وتلك
كلها وأمثالها أصول لا تزال نرجع إليها ونستنير بما فيها على طول هذا البحث.

وقد احتفظ لنا القدماء بأمثلة قيمة من لهجات القبائل التي صبت في
النهاية في نهر العربية الفصحى فلدينا نماذج من لهجات عرب نجد وحميم وأسد
وطيء وعبد القيس وقبائل الحجاز مثل جهينة ويلي وبراء، وهذه الثلاثة فروع
من قضاة بالإضافة إلى ألسان من لهجات الأزدي وهذيل. وهذه البقايا تتجمع
في مجموعة لهجات قبائل الشرق من أمثال عبد القيس وبكر وتغلب وقبائل
الوسط مثل حميم ومجموعة قبائل غرب الجزيرة. فأما لهجات الشرق فصبت في
لهجة نجد، ولهجات الغرب صبت في لهجة كنانة ثم قريش.

ويذهب علماء اللغة إلى أن لهجات الغرب والوسط تقاربت حتى صارت
في أقصى صورها عند قبائل أعراب نجد، وقد كان علماء العربية يلتصقون
النطق الصحيح للألفاظ عند النجديين، وليس المراد بذلك بالضرورة كبار
القبائل، بل إن اللهجة العربية التي يفهمها أكبر عدد من العرب وجدت عند
بطون من غطفان وهوازن وحميم، وجدير بالذكر أن السيدة آمنة أم رسول الله
ﷺ اختارت أن تبعت بولدها الرضيع إلى منازل بني سعد بن بكر وهم من
هوازن حتى تتعود أذنه النطق السليم. ومن بطون القبائل النجدية تلك كانت
غالبية الوافدين على أسواق الحجاز وأعدادهم الكثيرة هي التي حملت اللهجة
النجدية أشيع اللهجات على الألسن في سوق عكاظ وإذا كانت نصوص
القصائد والمعلقات الجاهلية التي وصلت إلينا أصيلة لم يدخلها تحريف كثير،
فإن اللغة الفصيحة التي يفهمها كل العرب لا بد أن تكون قد تطورت هناك

من أصول نجدية ومؤثرات حجازية، وقد اشتهرت قبيلة هذيل - وهي من قبائل شمال الحجاز وهم مضربون من بني مدركة بن الياس - سلاسة اللغة وحسن النطق وشاعرية الأسلوب، وديوان الهذليين حاضر بين أيدينا شاهد على ذلك وأبو الأسود الدؤلي واضع علم الحركات من بني عبد القيس اختار رجلاً عبسياً من بني عبد القيس وقال إن لهجته أصفى ما أعجبه من ثلاثين رجلاً.

وتلك اللهجة النجدية من العربية أصبحت شيئاً فشيئاً لغة عامة يفهمها الناس من كل القبائل أو ما يسمى باسم الكويني Koiné وهذا المصطلح يطلق على كل لهجة أو لغة تستعمل بين الناس من أصول شتى في منطقة معينة، وهذه اللهجة أصبحت شيئاً فشيئاً تسمى قرشية لأن قريشاً كانوا أصحاب السوق، وهم الذين كانوا ينظمونه ويتفاهمون مع أهله.

وهذه اللهجة النجدية الحجازية أصبحت بفضل الشعراء لساناً مفهوماً من العرب جميعاً، فقد يكون الشاعر مخمياً أو أسدياً أو هذلياً، فإذا نظم ففي تلك اللغة العامة التي أصبحت لغة تفاهم بين العرب جميعاً واستحقت أن يصفها القرآن الكريم بأنها لسان عربي مبين نزل به كلام الله حتى يكون حجة على العرب جميعاً. والقرآن رفع شأن هذه اللهجة وجعلها هي العربية الصافية ولا يعرف العرب أصفى منها.

وإذن فالقرشيون: أولئك التجار الأذكياء العمليون عرفوا كيف ينتزعون من أعاريب نجد شرف وضع اسمهم على هذه اللهجة التي نشأت في بلاد غيرهم فنسبت إليهم العربية المصحى ولم يقل القرآن إنها لسان قريش، بل قال إنها لسان عربي مبين ولكن القرشيين سيطرتهم السياسية على أمة الإسلام نسبوا إلى أنفسهم، وظهر الكثيرون من المؤلفين ممن يؤيدون هذا القول. ومن المعروف أن كل قبيلة من قبائل العرب تدعي جابية من الفخر في ساء لغة القرآن، وربما كانت قريش أقل من غيرها نصيباً في صنع هذه اللغة، ولكن

هذا هو التاريخ وتصاريحه، بل إن الكتاب المواليين لقريش اشركوا حللاء قريش من حزاعة في هذا الشرف، فزعم أبو عمرو بن العلاء أن القرآن نزل بلغة الكعبيين: كعب بن لؤي بن غالب بن قريش وكعب بن عمرو بن عامر من حزاعة

ولكن قريشاً فازت في النهاية بكل الثمرات، فإن مصيبتها في تطوير اللغة العربية لا يرجع إلى امتيازها على غيرها من القبائل في اللغة والشعر ولكنه يرجع إلى التجارة التي جذبت العرب جميعاً إلى أسواق الحجاز وإلى الدين الذي جعل العرب جميعاً يتصورون أن القرشيين كهنة العرب وسدنة أوثانها وأهل الإشراف على كل ما يتصل بأديانهم، وعندما نزل القرآن أنكر ما فيه معظم القرشيين، وكان الأوس والخزرج وحزاعة وبطون كثيرة من قضاة أكثر نقبلاً للإسلام من قريش، ومع ذلك فعندما تم نصر الإسلام وتقبلت قريش المكية القرآن زعمت قريش أن القرآن نزل بلغتها أو بلهجتها وهذا غير صحيح في جلته إذ الحقيقة أنه نزل بلسان عربي مبين يفهمه كل العرب، ورسول الله ﷺ عندما كان يكتب كتبه لشيوخ القبائل وسادة الناس من العرب يدعوهم لدخول الإسلام أو يفرهم على ما طلبوا من الأمان لدخول أمة الإسلام كان يكتب لهم مستعملاً المصطلح الذي يفهمونه في لهجتهم لأن المهم هو الوضوح، والوضوح هو البيان والبيان هو البلاغة، ولهذا فإن رسول الله ﷺ في حديثه وكتبه يبلغ أعلى مستوى من البلاغة. وقد جرى الباحثون على أن يعتبروا الشعر الجاهلي هو أكبر شاهد على لغة العرب قبل الإسلام وفي العصر النبوي، ولكن تبين لنا الآن أن الشاهد الأكبر هي كتب الرسول ﷺ وهي كثيرة ومتشوعة ودراساتها تعطي فكرة أصدق عن تلك اللغة لأنها كتبت بلغة تعامل، وفيها من مصطلح الحياة والمال والتعاون أكثر مما نجد في الشعر الجاهلي الذي يشوبه الانتحال والوضع وقد درسنا لغة كتب الرسول في بحث آخر واسترحنا منها الشواهد والبيات التي تؤيد ذلك. وقد درس معظمها قبلنا محمد حميد الله في كتابه عن

وثائق العصر النبوي والعصر الراشدي، ولكننا الآن أضفنا كتباً أخرى كثيرة وواصلنا ما قام به من جهد مشكور.

ومهما يكن من الأمر فإن قريشاً ذهبت بالمجد كله لأن الاتجاه العام بعد الإسلام كان يتجه إلى تعظيم قريش من باب المحبة لرسول الله والبر بأهله، فقال الناس إن قريشاً أبلغ العرب وخلطوا بذلك بين محمد ﷺ وقبيله، فإنه كان فعلاً أبلغ العرب، ولكن قريشاً لم تكن أبلغها ولا أضمرها ولا أعلمها، فلم يكن لقريش شاعر ذو قدر يقارن بشعراء غيرها من القبائل حتى نجم فيها عمر بن أبي ربيعة وهو شاعر كبير ولكنه في النهاية لا يعد في الفحول. وقد أجلنا في هذه السطور آراء عشرات الكتاب والباحثين الذين بذلوا جهوداً ضخمة في دراسة أصول اللغة العربية، وقد أوردنا الكثير منها في موارد هذا الكتاب.

قُرَيْشُ وَالْكِتَابَةُ الْعَرَبِيَّةُ :

أحصى الدكتور ناصر الأسد في كتاب مصادر الشعر الجاهلي النصوص العربية التي وجدت في كتابات على الأحجار وصورها. فالنصوص الثلاثة الأولى وجدت في سبأ وهي مؤرخة بين سنتي ٢١٠ و ٢٥٣ للميلاد، والنص الرابع وجد في الحجر وهي مدائن صالح وتاريخه ٢٦٧ م. وذكر كذلك نقشاً خامساً في حوران غير مؤرخ ولكن المستشرقين إينوليمان والكونت دي فوج يرجحان أن تاريخه يرجع إلى ٢٧٠ م. هذه كلها نصوص ترجع إلى القرن الثالث الميلادي، وهي نصوص عميرة القراءة ولكن أشكالها تقترب من هيئة الخط العربي وكلها دون نقط أو إعرام

أما نقوش القرن الرابع الميلادي فأولها نقش وحد على قبر امرئ القيس بن عمرو الذي يوصف بأنه ملك العرب في النمارة في إقليم حوران بجنوب فلسطين وهو مؤرخ سنة ٣٢٨ م. وهيئة الكتابة في هذا النص قريبة من هيئة الحروف

والكلمات في الكتابات الإسلامية الأولى . وهذا النص يمثل مرحلة واضحة من مراحل تطور نشوء الخط العربي لأن الكلمات عربية وأشكال الحروف عربية تقريباً .

ومن نصوص القرن السادس الميلادي أورد د . ناصر الأسد نص حربة زبد بين قسرين (حلب) ونهر الفرات وتاريخه ٥١٠ م ، وعليه ثلاث كتابات : يونانية وسريانية وعربية ، والعربية قريبة من رسم الخط العربي الكوفي .

والنص الأخير الذي يورد تاريخه ٥٦٨ م . وقد وجد في اللجأ من حوران في المنطقة الشمالية من جبل الدروز وهذا النص يضم كتابة عربية واضحة .

وقد ذكر البكري نصاً عربياً آخر مؤرخاً سنة ٥٦٠ للميلاد وقد وجد في كنيسة هند في الحيرة . وتذهب المستشرقة نبيه عبود الأمريكية^(١) إلى أن الكتابة العربية الأولى اخترعها الرهبان النصارى الذين كانوا يعملون على نشر المسيحية في الحيرة والشام بين العرب كما فعل غيرهم الذين اخترعوا كتابات أخرى ليكتبوا بها ما يترجمونه من نصوص الكتاب المقدس إلى لغة القوم الذين يعيشون بينهم وهي تذهب إلى أن أول مكان كتبت فيه تلك النصوص العربية كان في الحيرة أو الأنبار ، وقد عثر الباحثون على قطع من مزامير داود مترجمة إلى العربية ولكنها مكتوبة بحروف يونانية ، ومن هذا النوع نصان آخران عثر عليهما وفك رموزهما المستشرق Baumstarck وكل هذه النصوص عربية قريبة جداً من اللغة العربية الفصحى أو ما يسميه المستشرقون بالعربية القديمة Classical Arabic وهي نفس اللغة التي تجدها في نصوص أوراق الردي الأولى أنظر

(١) Nabia Abbot, Rise of North Arabian Script, 1939.

ويذهب يوليوس فلهاوزن في كتابه القيم عن الحج قبل الإسلام وعلاقته
J. Welhausen, Reste Arabische Heidenlums, 2 ed. ملحق الإسلام
1927 إلى أن العربية القديمة ظهرت أول الأمر بعد تطور طويل في الحيرة ويؤيد
هذا القول ما يذكره أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني من أن أول شعر عربي فصيح
ظهر وكتب كان في الحيرة وأول من قال هذا الشعر وكتبه زيد بن حماد العبدي
وهو والد الشاعر العبدي المشهور عدي بن زيد. ويقول الأصفهاني إن شعر
عدي بن زيد لا يعد في الفصح تماماً ومعنى هذا أن العربية الفصيحة القديمة
كانت لا تزال في دور التطور، ويذهب المرزباني في شرح المفضليات المعروف
باسم الموشح (القاهرة ١٣٤٣ ص ٧٣) إلى أن عدي بن زيد كان يختار ألفاظه من
بين لهجات قبائل شتى وأنه كان في ذلك شبيهاً بالقرشيين الذين كانوا يستعملون
في لهجتهم ألفاظاً وعبارات من لهجات القبائل، وأن قريشاً كانت تفعل هذا
ليستطيع رجالها التفاهم مع رجال القبائل الوافدين على مكة وبهذا تكون قريش
قد أسهمت بنصيب كبير في بناء العربية القديمة انظر: K. Vollers,
. Volksprache und Schriftsprache in alten Arabien, 1906.

ومن الواضح أن معظم النصوص الشعرية التي وصلت إلينا قد أدخل
عليها تعديل بعد الإسلام لتكون قريبة من الفصحى التي ثبت القرآن الكريم
صورتها ومستواها. وهنا تتجلى لنا أهمية الرواة ودورهم في تطوير اللغة
العربية، فإن الراوي كان رجلاً من قبيلة الشاعر يفهم شعره لأنه يصرف
لهجته، وهو عندما يروي شعر صاحبه يجتهد في تقريبه من اللغة المشتركة التي
قلنا إنها تسمى الكويني Koiné العربية وهذا واضح فيما يعرف عن حماد
عمرود الراوية وأبي الأسود الدؤلي فقد كانا راويتين للشعر من شتى القبائل
لإلزامهما باللهجات، وتلك التعديلات التي أدخلها الرواة على شعر الشعراء

ليكون معهوداً لأكثر عدد من العرب هو الذي فتح باب الوضع والإضافة، ومادام الراوي يعدل ويعبر ويدل فهو يصيف أيضاً ويضع من عده، ولكن هذا الوضع لم يصل قط إلى الدرحة التي ذهب إليها طه حسين في الطبعة الأولى من الشعر الجاهلي حينما قال إن معظم الشعر الجاهلي موضوع، وهي نظرية قال بها من المستشرقين مارجوليوث، وقد عدل طه حسين نظريته وآراءه فيما بعد، ولكن الذي يخرج به هو أن ما وصل إلينا من شواهد الشعر الجاهلي وبعض العبارات التي نجدها في تفاصيل حرب البسوس مثلاً يحمل الطابع اللغوي القرشي أو المكي أو الحجازي الذي أصبح الميزة الكبرى للعربية القديمة أو الفصحى .

وفي اللغة المكتوبة قام الكتبة أو الكتاب بدور الرواة، فإن الكتابة العربية التي ولدت في الحيرة دخلت الجزيرة على أيدي دعاة المسيحية، وكانت تلك الديانة منتشرة بين عباد الحيرة واللخميين والقضاعيين والغساسنة وعرب طيء ومعظم النصوص المكتوبة التي ذكرناها وجدت في بلاد انتشرت فيها المسيحية أي في بلاد من تسميهم النصوص بنصارى العرب أو عرب الروم، وعدي بن زيد وأبوه زيد بن حماد وابنه زيد بن عدي كانوا نصارى، وكانت المسيحية تزحف ببطء في شمال شبه الجزيرة، وكانت المسيحية منتشرة بين كثير من بطون قضاعة وخاصة كلب بن وبرة وجبراء وبلي وسليح وكذلك انتشرت المسيحية بين الجذاميين وبعض الجهنيين وهذيل في شمال الحجاز، وفي منازل هذه القبائل كتب رجال الدين العربية بالخط العربي البدائي الذي أشرنا إليه، وقد ذكرنا أن بعض نصوصه وردت في الحجر من مدائن صالح، وكانت تقع في بلاد جبهة أي أنها أوعلت في الحجاز حتى قرب المدينة

ومن تلك النواحي أحد القرشيين الكتانة العربية وكانوا في أشد الحاجة إليها لشئون تجارتهم، وقد اهتمت بعض بطون قريش بالكتابة حتى سمي بيت من بيوت مرة باسم القلمس ومغناه القلم كما ذكرنا ومن بين الكتاب طهر

السأة وهم الحاسون الذين يحسون الشهور والأيام والمواقيت ويكتبون ذلك كله. وقد أساء النساء استخدام الكتابة والحساب فزوروا ودلسوا دون أن يخشوا بأساً، فقد كانوا يكتبون لقوم أميين لا يقرأون ولا يكتبون. ولكن الكتابة انتشرت في قريش وخاصة بين البطون التي اشتهرت بالمساهمة في الأعمال التجارية نصيب أكبر من غيرها مثل بني هاشم وبني عبد شمس وبني محروم وبني سهم وجميع من بني ههيمس. وقد اشتهر بيت أسد بن عبد العزى بكثرة من عرف القراءة والكتابة من أبنائه.

ولمست لدينا فكرة واضحة عن شكل الكتابة العربية قبيل الإسلام وإن كان من الثابت أن قريناً كانت أكثر قبائل العرب كتاباً وقراءً وستلحق بمكة المدينة في هذا المجال ولكن ذلك سيكون بعد الإسلام وبفضله ولكن إذا كنا سنقبل من حيث الشكل - بعض صور كتب الرسول ﷺ إلى الملوك والرؤساء العرب فإن هذه الكتب يمكن أن تعتبر نماذج للخط العربي كما كان القرشيون يكتبونه وإن كنا نلاحظ فروقاً جسيمة بين خط كتاب الرسول ﷺ إلى المنذر بن ساءل وكتابه إلى المقوقس فالثاني أقرب إلى الرسم الجاهلي للكتابة الذي نجده في أقدم المخطوطات العربية، أما الأول فهو أقرب إلى نقش القاهرة الذي أورد د. ناصر الأسد رسمه في ص ٣١ من كتابه الأنف الذكر، وهذا النص الأخير يرجع إلى سنة ٣١ هـ في عهد الخليفة عثمان بن عفان.

ونضيف إلى ذلك عدداً من النصوص نشرها الأستاذ محمد حميد الله صاحب الأبحاث والدراسات القيمة عن العصر النبوي وناسر مجموعة وثائق العصر النبوي والعصر الأموي . وقد وجد تلك النصوص على قمة الطرف الجنوبي لجبل سلع في المدينة المنورة خارج سورها الشمالي ورحح أنها ترجع إلى القرن الخامس الهجري أيام معركة الخندق وخط هذه النصوص يشبه خط كتاب الرسول ﷺ إلى المنذر بن ساءى^(١).

(١) انظر د. ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي القاهرة ١٩٥٦ ص ٣٢ وانظر =

ونقف عند هذا الحد من تتبعنا لتاريخ اللغة العربية والخط العربي الذي كنت به . وحسبنا النتائج التي وصلنا إليها فيما يتعلق بقبيلة قريش ودورها في تاريخ الجاهلية .

وحلاصة كلامنا فيما يتعلق بدور قريش في تطوير العربية وكتابتها أن هذه القبيلة التي نعتز من أصغر المسائل العربية حجماً استطاعت بفصل دورها الكبير في التجارة وديانات الجاهليين أن تكون صاحبة دور حاسم في تطور اللغة والخط ، حقاً إنها لم تخترع هذه ولا ذاك ولكن مقدرتها التجارية وسيطرة رجالها على طرق التجارة والأسواق مكنتها من جمع ثروات طائلة وتحصيل مدينتهم الصغيرة في ذلك الحين إلى واحدة من أكبر أسواق الدنيا . ففي مكة كانت توجد في العصر الجاهلي - وخصوصاً في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي - بضائع لا توجد في غيرها من كبريات المدن في الدنيا . وقد كانت أرباح هذه التجارة عظيمة وبفضل ثروات المكين وما تيسر لهم من سبل الاتصال بالناس خارج الجزيرة وفي شتى نواحيها اتسعت معارف القرشيين وزاد هذا العلم المتجمع لهم عن طريق قنوات عملية قائمة من الاحتكاك المباشر بالناس واقتباس العلم بالدنيا وأهلها منهم ، هذا العلم زاد ذكاء القرشيين حدة ، وعندما تطلع شمس الإسلام ويطغ نورها سجد قريشاً في مستوى ثقافي وفكري وحضاري أعلى بكثير من قبائل أكبر حجماً وأوسع منازل وأقرب إلى مواطن الثقافة في العالم القديم . وما تجددر ملاحظته أن أمة الإسلام عندما قامت في المدينة وجدت الكتاب ومعظمهم من قريش بل كان القرشيون المهاجرون هم الذين وسعوا نطاق الكتابة والقراءة بين الثريين ، فعلى أيدي القرشيين تعلم كتاب يثرب من أمثال زيد بن ثابت وأبي بن كعب وأسر من مالك الكتابة والقراءة وأصبحوا من نواخ كتاب الرسول ﷺ ، وعلى يد

القرشيين سيتعلم مهاجرة المسلمين إلى المدينة من أمثال أبي در الغفاري وأبي هريرة الدوسي، وبعد معركة بدر نجد أن رسول الله ﷺ يكلف أسرى بدر غير القادريين على أداء الدية بأن يقوم كل منهم بتعليم عشرة من غلمان المدينة القراءة والكتابة في مقابل فديته بل إن الرسول ﷺ وجد في مكة ناساً يسفرون له عبد الروم والفرس وقط مصر والأحباش. والقول بأن رسل النبي أصبح كل منهم وهو يعرف لغة القوم الذين يذهبهم الرسول ليحملوا رسالته إليهم قول بعيد عن التصديق، وأقرب إلى المنطق منه أن نقول إن أولئك النفر كانوا يعرفون لغات الأقوام ولهذا اختارهم الرسول ﷺ لحمل رسائله.

وسنرى عند دراستنا لموقف قریش من الإسلام نواحي أخرى كثيرة تكشف عن جوانب من قوة قریش أو العوامل التي وضعتها في هذا الموضع من الصدارة، ومع أن جبهة القرشيين لم تحسن استقبال الإسلام ولا هي أقبلت عليه إلا أن قریشاً كانت - من كل ناحية - أكثر قبائل العرب استعداداً لتلقي الرسالة، وكان فيها - على الأقل - جماعة أثبتت أنها أهل لحمل الرسالة. حقاً إنهم كانوا أقلية ضئيلة جداً، ولكن مستواهم العقلي والخلقي والإنساني كان عالياً جداً. وصدق الله سبحانه وتعالى في كلامه عن المكين وعنادهم فقد كان بعضهم يرى أنه حقيق بأن تنزل عليه آيات كذلك التي كانت تنزل على رسول الله ﷺ، وهذا غرور من أولئك المكين ولكنه كذلك إحساس بالامتياز واقرأ قوله سبحانه في سورة الأنعام: ١٢٣/٦ - ١٢٤

﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها،

وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون

وإذا جاءتهم آية قالوا: لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل الله

الله أعلم حيث يجعل رسالته

سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا

يمكرون﴾

والمراد من الجملة الأخيرة من الآية ١٢٤ هو أن أولئك الذين يتعاضمون ويرون أنهم أهل لأن تنزل عليهم الآيات سيعرفون أنهم أصغر من أن يحملوا الرسالة، والله تعالى أعلم بحالهم وما كانت قلوبهم تنطوي عليه من الشر، وسيعذبهم الله بذلك كله.

مُورفولوجية قبيلة قريش قبل البعثة النبوية:

بعد أن ألمنا بتاريخ قريش قبل الإسلام نقف لحظات في نهاية هذا الباب لنلقي نظرة خاصة على دواخل قريش، على تركيبها الداخلي والطريقة التي كانت تعمل بها وتحافظ على قوتها، أي أننا سنتحدث في هذه الفقرة على ديناميكية هذه القبيلة وكيف كان نظامها الذي ذكرناه يعمل بنجاح إلى حد كبير. بل سنرى أن تركيب هذه القبيلة وطريقة العمل والحركة بداخلها سببها قوة وصلابة تمكّنها من الثبات لخدمة الإسلام خلال الفترة المكية من حياة رسول الله ﷺ، وستمكّن لها من المحافظة على كيائها كتلة واحدة أثناء السنوات الثمان الأولى من التاريخ الهجري، فقد صمدت كتلتها بقوة تستلفت النظر وتُسكت بموروثها، وعندما دخلت مكة في نطاق أمة المدينة دخل معظم القرشيين الإسلام بنظام يستوقف النظر كما سنرى.

وقد أكثر العرب من الكتابة في الأنساب، وما من عالم جليل من علماء العرب إلا وله في الأنساب كلام كثير أو قليل، ولكن كلامهم الكثير هذا يعرفنا بتفرع قبائل العرب بعضها عن بعض، ثم أقسام القبائل ثم أفراد الأقسام ثم أنساب الأفراد وهو التعريف بأبائهم وإخوتهم وأمهاتهم أحياناً.

والمصعب الزبيري في نسب قريش في كلامه عن أنساب قريش يتبع في أحيان كثيرة أنساب النساء فيقول إن فلانة أمها فلانة وأم فلانة فلانة.

ولكن كل اهتمام مؤرخنا موجه نحو الشكل الخارجي للقبيلة

وتقسيماتها السطحية، ونادراً ما نجد عندهم لمحات تميزنا في معرفة التركيب الداخلي للقبيلة. ما هي أساساً وكيف تتكون ومم تتكون؟ وكيف تعيش القبيلة وتعمل بصفتها كياناً اجتماعياً وسياسياً مستقلاً بذاته إلى حد ما؟ سحاول هنا أن سدرس ماخصار تحليل القبيلة ونشرمجها أو أساتوميتها Anatomy of the tribe ووصف تركيبها الداخلي وأجهزتها التي تمسك بمعصها بعض أو سورفولوجيتها Tribe Morphology وسرى كيف تعمل الأعضاء الداخلية للقبيلة أو فيزيولوجيتها Tribe physiology متخذين قريشاً مثلاً، لأنها موضوع دراستنا في هذا الكتاب، ولأنها القبيلة العربية التي نعرف عنها أكثر مما نعرف عن غيرها.

وكتابات العرب هنا وصفية خارجية ومعظمها يتعلق بالأنساب أي تسلسل أفراد القبيلة، بعضهم من بعض مع التركيز المطلق تقريباً على القصبات أي أنساب الذكور، ومعظم ما لدينا من المعلومات هنا يرجع إلى أصول قليلة جداً، وإليك فيما يتصل بتلك الأصول كلام أبي عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالله النمري الأندلسي القرطبي (المتوفى سنة ٤٦٣ هـ عن خمس وتسعين سنة) في كتاب «الإنباء عن قبائل الرواة» فمن ذلك كتاب أبي بكر محمد بن اسحاق وكتاب أبي المنذر هشام بن محمد بن الكلبي وكتاب أبي عبيدة معمر بن المثنى وكتاب محمد بن عبدة بن سليمان وكتاب محمد بن حبيب وكتاب أبي عبدالله أحمد ابن محمد بن عبيد العدوي في نسب قريش وكتاب الزبير بن بكار في نسب قريش وكتاب عمه مصعب بن عبدالله الزبيري في ذلك وكتاب علي بن كيسان الكوفي في أنساب العرب قاطبة، وكتاب علي بن عبد العزيز الجرجاني وكتاب عبد الملك ابن حبيب الأندلسي، إلى فقر قيذتها من الحديث والآثار ونوادر اقتطعتها من كتب أهل الأخبار^(١) وهذه - بالإضافة إلى كتاب حمرة أنساب العرب هي أهم الأصول التي نعتمد عليها في الأنساب.

(١) أبو عمر يوسف بن عبد الر، الإنباء عن قبائل الرواة - طعة دار الشعب بالقاهرة ص ٥٧

أما تحليل تركيب القبيلة وتقسيمها فمن أحسن ما يصور كلام هؤلاء
الساكنة فيه فهو قول ابن عبد البر النمري :

«وقال أهل السب :

الشعوب الجماهير والجرائم التي تفرقت منها العرب

ثم تفرقت القبائل من الشعوب

ثم تفرقت العائلات من القبائل

ثم تفرقت البطون من العائلات

ثم تفرقت الأفخاذ من البطون

ثم تفرقت الفصائل من الأفخاذ

وليس دون الفصائل شيء : فصيلة الرجل رهطه الأهل وبنو أبيه»

(الانباء ص ٥٦ - ٥٧) .

ويكمل هذه العبارة مثلها للزخشي يقول : «والشعب الطبقة الأولى من
الطبقات الست التي عليها العرب وهي الشعب والقبيلة والعمارة والبطن
فالشعب يجمع القبيلة ، والقبيلة تجمع العائلات ، والعمارة تجمع البطون ،
والبطن تجمع الأفخاذ ، والفخذ تجمع الفصائل : خزعة شعب وكنانة قبيلة ،
وقريش عمارة وقصي بطن وهاشم فخذ والعباس فصيلة وسميت الشعوب لأن
القبائل تشعبت منها»^(١) .

وهذا كله كلام سطحي وصفي لغوي ، فكل الذي فيه هو إيجاد اسم
لكل فرع من الفروع التي تشعب إليها الجماعات القبلية ومع ذلك فالكلام ليس
دقيقاً ولا كاملاً ، فماذا - مثلاً - فوق الشعب ؟ أو ماذا نقول في عدنان
وقحطان ؟ والمعروف إن عدنان وقحطان جدمان ، فالخدم إذن فوق الشعب ، ثم
إن أحداً لم يقل أن قريشاً عمارة لأنها قبيلة ، ثم ماذا تحت العصيلة ؟ ألا يوحد

(١) هامش الاساء ص ٥٦

هناك البيت أو «أهل بيت» وذلك ما نسميه العائلة أو الأسرة .

ثم إن اس حرم يستعمل مصطلحي البيت والعدد ويقول : «عبي بالبيت حيثما ذكرناه الشرف وبالععدد الكثرة» وإذا ففي كل قبيلة بيت أي أسرة أو فرع فيه الشرف أي الرياسة وفرع آخر - أو فروع - تتميز بالكثرة، فقريش مثلاً بيتها في هاشم وعددها في عبد شمس .

وكما هي العادة نجد كتابنا القدامى ونسابتهم يقفون دائماً عند السطوح ولا يدخلون في الأعماق إلا نادراً، وكتابتهم في الغالب أفقية ونادراً ما تكون رأسية . والبلاذري أراد أن يؤرخ لدولة الإسلام أفقياً فكتب فتوح البلدان درس فيه اتساع الدولة أفقياً، ثم خطر له أن يؤرخ لها رأسياً فكتب أنساب الأشراف .

وفي قواميس اللغة أن القبائل لا توجد إلا في العرب، جاء في لسان العرب والقبيلة من الناس بنو أب واحد . التهذيب : أما القبيلة فمن قبائل العرب وسائرهم من الناس . ابن الكلبي : الشعب أكبر من القبيلة ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ . قال الزجاج : القبيلة من ولد اسماعيل عليه السلام، كالسبط من ولد اسحاق عليه السلام، سموا بذلك ليفرق بينهما . ومعنى القبيلة من ولد اسماعيل معنى الجماعة، يقال لكل جماعة من واحد، ويقال لكل جمع من شيء واحد قبيل . قال الله تعالى : ﴿إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾ أي هو ومن كان من نسله، واشتق الزجاج «معنى لفظ قبيلة» من قبائل الشجرة، وهي أخصانها، وقال أبو العباس المبرد : أخذت قبائل العرب من قبائل الرأس لاجتماعها وجماعتها : الشعب والقبائل دوماً . ويقال : رأيت قبائل من الطير أي أصنافاً، وكل صف منها قبيلة، فالعربان قبيلة، والحمام قبيلة، قال الراعي :

رأيت ردافي فوقها من قبيلة من الطير يدعوها أحم شحوح

يعني الغربان فوق الناقة وكل جيل من الجحش والناس قبيلة.

ويقول قبل ذلك: «القبيلة واحدة قائل الرأس، وهي القطع المشعوب بعضها إلى بعض تصل بينها الشئون، وبه سميت قبائل العرب، الواحدة قبيلة، وكذلك قبائل القدح والحمة إذا كانت على قطعتين أو ثلاث قطع وقبائل الرحل أحنأؤه المشعوب بعضها إلى بعض وقبائل الشجرة أغصانها وكل قطعة من الجلد قبيلة والقبيلة صخرة تكون على رأس البئر» (اللسان ١٢/٢).

وهذا كل ما نجده في معاجم العربية عن القبيلة، ومهما تبحث في أصولنا العربية فما أنت بواجد تعريفاً أوسع من هذا للقبيلة، وأنت لا تعرف علام تطلق القبيلة: هل على الناس الذين تربطهم رابطة الدم، أم على جماعة من الناس ينضم بعضهم إلى بعض ويتكاملون فيها بينهم كما تتكامل أعضاء الرأس هي وشئونها أو الجماعة من الناس الذين يتفرع أفرادها بعضهم عن بعض كما تتفرع أغصان الشجرة وهل كل صنف من الطير والحيوان قبيلة، وما هو الرابط بينها.

وهذا الاجمال في ذكر القبيلة وتعريفها يدل على أن القدماء لم يجدوا ما يدعوهم إلى الوقوف في نظام جنسهم وأصوله ونظامه، وهكذا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام هذا الطراز من الغموض الذي يكتنف التاريخ البعيد للعرب ولغنتهم وكتابتهم وكان علينا أن نتقبل كل شيء عن الأصول والجدور على أنه بداية كلام لا آخر ما يقال في الموضوع لأن كل شيء يتصل بأصول العرب يميناً ولا نستطيع الوقوف فيه عند السطوح. وكما فعلنا في بحثنا عن أصول اللغة والكتابة كان علينا أن سنتج كل شيء من المصوص استنتاجاً، وإن كان يستوقف بظننا ما يقوله الرجاء من أن فروع العرب سميت قبائل في مقابل الأساطير وهم أثناء اسحقاق.

حتى اس حلدون وهو المعني شئون الاجتماع لا يعيدنا في هذا المجال

فهو في كلامه عن العمران البدوي يضع عنواناً هو: «في العمران البدوي والأمم الوحشية والقائل وما يعرض من ذلك من الأحوال وفيه فصول وتمهيدات» (ص ١١٠) وكلامه في هذا الباب يفصله الكثيرة قائم على أننا نعرف سلفاً ما هي القبيلة وكيف تتكون والأسباب وتفرعها وبقاءها صريحة سليمة واحتلاطها وما إلى ذلك أما إذا دهرت تسأل عما وراء ذلك فانت لا تجد حواشياً. هل تسلسل الناس في القبيلة يكون بالعصبات فقط أي بالنسل من الذكور أو أن السلسل من البنات أيضاً يدخل ضمن ما يعرف عادة بالرحم؟ وما الفرق بين الأرحام الناشئة عن خط الذكور والأرحام الناشئة عن الزوجات والبنات والأخوات البنات؟، وهل مر العرب بدور سيادة الأم في الجماعة وما يسمى باسم matriarct ثم غلب الرجال بعد ذلك ودخلت الجماعة في طور سيادة الرجال المعروف باسم patriarct كما هو الحال مع كل من نعرف من الجماعات القبلية.

والظاهر الذي يمكن التعميل عليه في هذا المجال هو أن العرب الذين يعرفهم التاريخ يظهرون فجأة في صورة جماعات قبلية رجالية أو باترياركية، وهذا هو المعقول لأن أصول العرب البعيدة تلك لا بد أن تكون قد وجدت في عصور البائدة الذين لا نعرف عنهم شيئاً، أما العاربة والمستعربة فقد رأينا أنهم دخلوا الجزيرة قبائل باترياركية ذات ماضٍ بعيد خلفته وراءها في أوطانها الأولى، وقد رأينا الزنجاج يقول إن القبائل مصطلح لا يكون إلا في العرب وإن هذا المصطلح يقابل الأسباط عند أولاد اسحاق. وفي كلامنا عن دخول المستعربة رأينا اليعقوبي يقول إن قبائل العرب الذين انحدرت منهم قريش أي الاسماعيلية دخلوا الجزيرة بأسمائهم العبرية أو السريانية ثم عرت بعد ذلك. وقد قلت أهمية كل العظم الاجتماعية العربية التقليدية بمجيء الإسلام وحلول شريعته وأخلاقياته محل النظام الاجتماعي الذي كان سائداً قبل ذلك. وفي أطوار الكتب نعتز على بعض العادات القديمة مثل زواج الولد من امرأة

إليه مما يترتب عليه أن يكون له إخوة وأولاد من نفس المرأة، وورثة الأخ لكل ما يتركه أحوه المتوفى دون أولاد أو عن أولاد صغار، وكان الأخ كان هو الوريث الشرعي في تلك الحالة. وقد نص القرآن نصاً صريحاً جداً على ترتيب القرابات وما هو محرم منها وما ليس محرم، ومن الذي يعتبر حراً من العائلة يؤذن له الدخول على نسائها دون أن يتحجب دونه ومن لا يجوز. وكذلك فصل القرآن والسنة أمر الميراث ونظامه وحصصه وقصي بذلك على كل ما كان قائماً قبلاً.

ومن أكثر من مائة سنة كتب روبرتسون سميت كتابه المشهور عن تطور النظام الاجتماعي للعرب، فقال بوجود الطوطمية عند العرب القدماء أي ارتباط الناس بعضهم ببعض برابطة عبادة شيء أو حيوان أو نبات يسمى طوطماً. والطوطمية لا تتعارض مع خطوط النسب، فإن القبيل من القبائل الأفريقية أو الأسترالية والهندية الحمراء أو المغولية كانت تتربط برباط الدم والنسب ثم يتضح القبيل بعد ذلك بانضمام جماعات أخرى إليه تعبد نفس معبود القبيل، ومع الزمن تصبح الجماعة الطوطمية قبلاً واحداً.

ولا بد أن العرب الموعلين في القدم عرفوا الأسرة الماترياركية التي تتكون حول الأم دون الأب وتكون السيادة فيها للأم، وهذا ظاهر في أسماء القبائل المؤنثة الاسم مثل خزاعة وكندة وقمعة وخزيمة، ومن أمثلة بقايا الطوطمية أسد وتعلب وتعلبة وكلب وما إليها. وقد أنكر الباحثون العرب آراء روبرتسون سميت من زمن بعيد غير على أنفسهم وترفعاً عن أن تكون أصولهم مشابهة لأصول القبائل البدائية ذات المستوى الحضاري الخفيض، ولكننا لا نرى الآن ما يدعو إلى ذلك، لأن العرب نشر كثيرهم لا بد أنهم ساروا في تطورهم السحيق في نفس الخطوط العامة لكل الجماعات البشرية وإن كان ذلك أيام البائدة أو حتى قبلها، وربما تكون مراحل هذا التطور قد تمت قبل دخول موجات الواعدين من طبقات العرب كالعاربة والمستعربة

وقد تكلم مونتجو مري واط في أحد ملحقات الجزء الثاني من حياة محمد ﷺ التي كتبها عن بعض ممارسات العرب الجاهليين في مسائل الزواج والعصابات والأرحام ونقايها ذلك في الإسلام، وقد تحامى الكثير من آراء روبرتسون سميث، وكلامه معيد ولكنه لا ينفعا في مطلبها هنا، وقد رأينا أن مركز الكلام هنا على ما يعنى على معرفة التركيب الداخلي لقريش وكيف كان نظام القرابات والولاء والتبني والإخاق يعمل، وكذلك ستناول بالكلام علاقات الناس بعضهم ببعض داخل القبيلة وخارجها. ولن نذكر من ذلك إلا ما يفيد بحثنا تاركين بقية ذلك لمن يريد أن يصرف إليه جهده، ولكننا نشير هنا إلى المراجع التالية التي تنفع القارئ في هذا المطلب^(١)، هذا مع العلم بأن مؤلفي تلك الكتب يعتمدون أساساً على مراجع عربية، ولكن الخطأ يدخل عليهم من ناحية التفسير وسوء الفهم وكلاهما متوفر عندهم.

وقبل أن أدخل في صميم ما يهنا هنا من كلام ابن خلدون في الفصل الثامن من الباب الثاني من مقدمته وعنوانه: «في أن العصبية إما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه» (ص ١١٧ وما بعدها) قال:

«وذلك أن صلة الرحم (أمر) طبيعي في البشر إلا في الأقل. ومن صلتها النُصرة (= الغيرة) على ذوي القرابة وأهل الأرحام أن يناهض ضيم أو تصيبهم هلكة، فإن القريب يجد في نفسه غضاظة من ظلم قريبه أو العداء عليه، ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك، نزعة طبيعية في البشر مذ كانوا فإذا كان النسب المتواصل بين المتناصرين قريباً جداً بحيث حصل به الاتحاد والالتحام كانت الوصلة ظاهرة، فاستدعت ذلك بمجردا ووضوحها وإذا بعد النسب بعض الشيء ربما تنوسي بعضها، ويبقى منها شهرة، فتحمل

Robert son Smeth, Kion ship and Marraige in pre-islamic Arabia- London 1906 (١)
G M Stern Marraige in Early Islam- Leiden 1945
W Montgamer Watt, Muhammad at Medina, Oxford 1956
Exewrous J Marraige and family in pre- islamic times pp 377

على البصرة لدوي سبه بالأمر المشهور منه فراراً من الغضاضة التي بتوهمها في
نفسه من ظلم من هو منسوب إليه بوجه . ومن هذا الباب الولاء والخلف ، إذ
بكرة كل أحد على أهل ولاته وحلفه ، للآلفة التي تلحق النفس من اهتمام
حارها أو قريبها أو سببها بوجه من وحوه النسب ، وذلك لأجل اللحمة
الحاصلة من الولاء مثل لحمه السب أو قريباً منها . ومن هنا نفهم معنى قوله
ﷺ : «تعلموا من أسابكم ما تصلون به أرحامكم» . بمعنى أن النسب إنما فائدته
هذا الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام ، حتى تقع المناصرة والنعرة ، وما فوق
ذلك مستغنى عنه إذ النسب أمر وهمي لا حقيقة له . ونفعه إنما في هذه الوصلة
والالتحام فإذا كان ظاهراً واضحاً حمل النفوس على طبيعتها من النعرة كما قلنا
وإذا كان إنما يستفاد من الخبر البعيد ضعف فيه الوهم وذهبت فائدته . وصار
الشفل به مجاناً (أي بدون فائدة) ومن أعمال اللهو المنهي عنه . ومن هذا
الاعتبار معنى قولهم : «النسب علم لا ينفع وجهالة لا تنضر» بمعنى أن النسب إذا
خرج عن الوضوح وصار من قبيل العلوم ذهبت فائدة الوهم فيه عن النفس .
وانتفت النعرة التي تحمل عليها العصبية . فلا منفعة فيه حيثذ والله سبحانه
وتعالى أعلم .

وفي الفصل التالي لهذا وهو التاسع (ص ١١٨) حيث يتكلم على سلامة
الأنساب وصحتها وصراحتها عند العرب الساكنين داخل الصحراء في حياة
الشفظ والجوع حيث لا يرغب غريب في اللحاق بهم : «واعتبر ذلك في مضر
من قريش وكنانة وثقيف وبني أسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة ، لما كانوا
أهل شظف ومواطن غير ذات زرع ولا ضرع . وبعدوا من أرياف الشام
والسراق ، ومعادن الأدم (مصادر ما يؤتد به من الطعام) والحبوب ، كيف
كانت أسابهم صريحة محفوظة ، لم يدخلها احتلاط ولا عرف فيها شوب . وأما
العرب الذين كانوا سائلول وفي معادن الخصب للمراعي والعيش من حير
وكهلان ، مثل لحم وحدم وعسان وطيء وقصاعة وإياد ، فاحتلطت أسابهم ،
وتداخلت شعوبهم . فهي كل واحد من بيوتهم من الخلاف عند الناس ما

يعرف . وإنما جاءهم ذلك من قبل العجم^(١) .

وهذا الكلام من ابن خلدون مبني على المطلق والاستنتاج ، فهو لم يعرف من تاريخ قريش القديم ما يؤكد عنده أن تكوينها كله كان من صميم مضر من فرع إلياس ، وهو الفرع الذي سكن الحجاز . فقد رأينا أن كنانة أم قريش قد مرت في طريقها إلى الحجاز ببلاد قضاة واحتلّطت بها وأخذت منها ، ورأينا كذلك أن مضر كلها بفرعها قيس عيلان وإلياس كانوا في الزمن السالف وقبل دخول الجزيرة يعيشون في صحاري بلاد الشام والعراق فيها يسميه ابن خلدون بالأرياف ولهذا لم يكونوا بدوا خالصين ولو كانوا بدواً خالصاً لما تطلّعوا إلى دخول مدينة - هي مكة - والاستقرار فيها وهم لم ينشأوا في الصحراء من الأصل ولا كانوا في بداية أمرهم بادية ظاعنة متوحشين في القفار ، وإنما هم دخلوا الصحراء فأنفوا بأنفسهم من الخضوع للدول الكبيرة التي كانت تحرص على بسط سلطانتها عليهم وفرض الإتاوات والمغارم عليهم . وهذا الأصل الحضري البعيد للعرب الاسماعيلية جيعاً كان له أبعد الأثر في أسلوب حياتهم فأما من أبعد في القفر منهم وسكن البوادي بعيداً عن مهاد الحضارة فهم أهل البدو حقاً لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي وبعدهم عن الحماية وانتبذهم عن الأسوار^(٢) وهؤلاء هم العرب أو الأعراب .

ولهذا فإن قريشاً وكنانة وكل قضاة من فرع إلياس بن مضر بدو وحضر أو أنصاف حضر Semi-nomads ، فهم بدو بنظامهم الاجتماعي أي بانتظامهم في صورة قبائل مترابط أفرادها بالأنساب lineages وعلاقات الرحم consanguinal kin واعتمادهم على النظام القبلي في ضمان أمنهم وسلامتهم أفرادهم وهذا الطراز من القبائل يدخل ضمن ما يسمى باسم Clans لا tribes وحتى قبل انفصال قريش من كنانة ودخولها مكة كانت قريش مستقرة

(١) ابن خلدون ، المقدمة طبعة دار الشعب ص ١١٨

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ص ١١٤

في موضعها إلى حد ما، ولا بد أنها قضت وقتاً طويلاً في جوار بني عذرة من بني سعد هذيم القصاعير. ولا بد كذلك أن مقامهم طال قرب مكة وخارجها حتى استقر رأي قصي على اقتحام المدينة على خراعة واستراع السلطان على المدينة منها، ولهذا فقد كانت قريش وكل كنانة من طراز الكلاتات التي يطلق عليها اسم local clans أي ذات المنازل المحددة الموضع.

ومنذ البداية نلاحظ أن قريشاً لم تكن ذات نظام معين متبع في الزواج والمصاهرات فمن القبائل ما يكون فيه الزواج من داخل القبيلة فقط، فيكون خط النسب مزدوجاً bilateral lineage ومنها ما يكون الزواج فيه مطلقاً، أي أن أفرادها يستطيعون الزواج من داخل القبيلة أو خارجها exogamous وهنا يكون النسب في خط واحد هو خط الذكور unilateral agnate lineage.

وقد تتبعنا بالدراسة خط نسب قريش وانحدارها من كنانة حتى انفصالها عنها وقد رأينا صعوبة الأخذ بما يقوله النسابة من أن كل الأسماء التي ترد في خط النسب هي لرجال بل معظمها لقبائل أو كلاتات، فهي أسماء جماعات أو جماعات أنساب، وقد يكون الاسم الذي لدينا اسم الموضع الذي تم فيه الحلف وقد أوردنا فيما سبق أمثلة من ذلك، وقد عثرت عند ابن عبد البر في الإنباه على مثل آخر في آخر كلامه عن بجيلة وخثعم، فبعد أن يورد قول ابن إسحاق والمصعب الزبيري: وعن جبير بن مطعم أن خثعم وبجيلة ابنا الحار بن نزار بن معد بن عدنان، يقول في نهاية الكلام: «تحالفا لقتل ابن أعمار وجماعة معه على جبل يقال له خثعم فسموا خثعم»^(١).

وهذه المناسبة نسوق إليك مثلاً يدل على فوضى شجرات الأنساب وقلة الجدية فيها أحياناً، فمن المعروف أن خثعم تدخل ضمن القبائل المسماة باليمينية ولكن بعض النسابة مثل ابن إسحاق والمصعب الزبيري أرادوا أن

(١) ابن عبد البر الإنباه على قبائل الرواة ص ١٠٥

يلحقها بالمعدانية فقالا: «وأكثر أهل السب يقولون إنها أبا غمار من نزار بن معد بن عدنان وإسما لحقا باليمن وانتسبا عن جهل منها إلى غمار بن أراش بن عمرو... بن كهلان من ساء»^١.

وعلى هذا الأساس قلنا إنه لا يمكن قبول ما يزعمه النسابة من أن خزيمة كان رجلاً تزوج امرأتين واحدة من قيس عيلان أنجب منها كنانة وأخرى من بني ثميم أنجب منها أسداً وأسدة والهون وأن هؤلاء الأربعة أصبحوا قبائل وخثعم نفسه أصبح قبيلة (وحده منفصلاً عن أبنائه) والهون وحده أنجب خمس قبائل هي ديش وعضل والقارة وهؤلاء الثلاثة بالإضافة إلى الحيا والمصطلق من بني سعد الخزاعيين يتكون منهم حلف الأحابيش الذي ذكرناهم.

ولكننا إذا صعب علينا قبول هذا القول من الرواة فإننا على الأقل نستطيع أن نفيد من التزيجات التي يذكرها الرواة في سياق النسب فنقول إن حلف خزيمة قبل أن تنفر عنه على مر سنوات طويلة أربع قبائل هي كنانة وأسدة وأسدة والهون صاهروا أبناء عمومتهم قيس عيلان، وأن بني كنانة صاهروا قضاعة من ناحية وبني ثميم من قيس عيلان من ناحية أخرى، ولهم كذلك بنو ساعدة الخزرجيون رهط سعد بن عبادة والخزرج عند النسابة يمنيون.

وفي دور النظر بن كنانة - من أدوار تسلسل فرع قريش من كنانة الأم كنانة، وهو الدور الذي بدأ اسم قريش يظهر فيه نجد أن لدينا صهراً مع

(١) ابن عبد البر، الاستبصار، ص ١٠٣ - وسأ المذكور في النص هو أبو الأرد (جمهرة ابن حزم ص ٣٨٧) وخثعم هي قبيلة أسباء بنت عيسى الصحابية (ص ٢٩١) ولعل هذا هو الذي حدا بالنسابة إلى نقل قبيلتها إلى عدنان، وابن حزم معه يجعل خثعم مرة في غمار من ساء (ص ٣٩٠) ومرة في الأرد (ص ٣٣٠).

عدوان من قيس عيلان وأحر مع هذيل بن مدركة وهم اهذليون وصهرا مع جرحم، وكانت حرهم (الثانية) إذ ذاك في طريقها إلى التلاشي.

وفي دور فهر يبدأ انقسام خط مالك بن النضر إلى فرعي غالب وفهر، فغالب هم الذين يستقر فيهم اسم قريش، أما فروع الحارث ومحارب وحسدة فيستمر فيهم اسم فهر، وفروعهم هي التي ستعود إلى الخلف مع فرع قريش بعد دخول قصي مكة، وهؤلاء هم قريش الظواهر.

وفي طور لؤي بن غالب نجد أن الصهر مع قضاعة، فيذكر النسابة أن لؤيا تزوج امرأة تسمى مارية بنت كعب من بني القين، واسمها يدل على أنها كانت نصرانية، وبنو القيم من فروع قضاعة المنتصرين الذين يدخلون فيمن يعرفون بنصارى العرب، وهم غير عرب الروم وكانوا منتصرة أيضاً وأكبرهم غسان وهم معدودون في اليمن.

وفي هذا الطور تنفصل أربعة فروع من لؤي وتخرج من قريش وكنانة جملة، وهم الحارث بن لؤي (يدخلون في همدان اليمنيين) وسامة بن لؤي وهم بنو ناجية وهؤلاء يستقرون في عمان - والأرجح أن المراد هنا عَمَّان الشام بالفتح لا عَمَّان الجنوب بضم العين - وبنو سعد بن لؤي وهم بُنَّانة يدخلون في بني شيبان (بن محارب بن فهر في الغالب) وبنو خزيمية بن لؤي وهؤلاء أيضاً يدخلون في بني شيبان. ويبدو أن بني شيبان بن محارب بن فهر - وهم من قريش الظواهر - كانوا قريبيين جداً من بني لؤي بن غالب لأن كعب بن لؤي يتزوج منهم، وكلاب بن مرة الذي يستمر فيه عمود النسب يصهرون في بني سرير بن الحارث من كنانة ويصهرون إلى بني سعد وهم سارق (لا تعرف من المرادون هنا)، ويصهرون كذلك إلى بعض فروع الأزد.

وعندما نصل إلى طور قريش نجد أن المصعب الزبيري لا يذكر له إلا امرأة واحدة هي حُمَي بنت حليل بن حبشية وهي حراعية كما نعرف. وعلى

الرغم من الصلة الوثيقة بين قصي وني عذرة فإن المراجع لا تذكر له صهراً فيهم .

واستداء من عبد مناف بن قصي يتعدد الصهر وتكثر الزوجات وبعد القرشيين يتوسعون في الصهر ربما لأسباب سياسية فنجد عبد مناف يتزوج امرأة من بني هلال من عامر بن صعصعة من قيس عيلان، تسمى عاتكة وأمها تسمى مارية، فهي نصرانية في الغالب، وهذه هي ثاني امرأة بهذا الاسم في صهر كنانة وقريش ومارية هذه ينتهي نسبها إلى سلول من بني معاوية بن بكر ابن هوازن إخوة بني سعد بن بكر الذين استرضع الرسول فيهم .

والخلاصة هنا أن كنانة وقريش حتى عبد مناف كانوا يتزوجون من خارج قبائلهم في الغالب، ليكثر جمعهم وأنصارهم، وبعد استقرار قریش في مكة نجد أن الصهر يتوسع، فهم يتزوجون في كل القبائل المحيطة بهم وخاصة خزاعة وفروع القضاة وبني هلال بن عامر بن صعصعة، وهاشم يتزوج امرأة خزرجية هي سلمى من بني عدي بن النجار. وعند هاشم نجد أول مثال من زيجات القرشيين يمكن أن يوصف بأن العصمة فيه للزوجة uxorical فسلمى التجارية تشترط أن تظل في أهلها في المدينة وهي تحتفظ بابنها منه وهو شيعة الذي سيمى عبد المطلب حتى يبلغ السنوات العشر فيذهب عمه ويأتي به . ولكن هذا النوع من الزواج كان نادراً بين القرشيين .

وهذا التمدد في الصهر والإكثار من الزيجات طلباً للإكثار من الأولاد زاد قريشاً قوة، فإن الصهر واشجة رحم وهو في نفس الوقت رابطة سياسية بين الناس في النظم القبلية فلا شك أن آل الزوجات كانوا يترددون على مكة لزيارة مناتهم وأساء البسات، وبخلاف ذلك نجد أن أحبار زواج القرشيات خارج مكة أو خارج نطاق القبيلة كانت قليلة، لأن ذلك كان يستدعي انتقال الزوجة إلى منازل قبيلة زوجها، والقرشيات - بعد أن استقر بهن المقام في مكة وتمعنوا الحياة فيها - لم يعد من السهل عليهن أن يرتدن إلى حياة الظعن والبدوة .

ومع أن المجتمع القرشي المكي كان مجتمع رجال فهم سادته وأصحاب الكلمة فيه فإن القرشيات كن يتمتعن بمكانة محترمة، وكثير من الرجال كانوا لا يستكبرون من أن ينسوا إلى أمهاتهم، فأبو جهل كان يسمى أيضاً ابن الحنظلية، ونوفل بن خويلد وهو المعروف بأسد قريش وأسد المطيبين كان يسمى ابن العدوية، وعمر بن الخطاب كان لا يأنف من أن يقال له ابن حنثمة. (والحنظلية أم أبي جهل هي أسماء التميمية وكانت ناحرة عطور معروفة)، واشتغال النساء بالتجارة كان أمراً معروفاً في مكة، والمثال الأكبر لذلك هي خديجة بنت خويلد أم المؤمنين. وأم الجلوس بنت مخربة خالة أبي جهل لا بد أنها كانت امرأة ذات مكانة بين كفار قريش لأنهم أودعوا صحيفة مقاطعة بني هاشم عندها. وفي الصراع بين الإسلام وكفار قريش، نجد النساء يقمن بدور كبير على الجانبين، فبنات عبد المطلب وخاصة صفية وأروى وعاتكة يقمن بدور ظاهر في مناصرة الإسلام ونشره وفي ناحية أخرى نجد نساء يقدن الحرب ضد الإسلام والمثل الكبير لذلك هي هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان، وهناك كذلك أم مصعب بن عمير وأم عثمان بن طلحة فقد حاولت كل منهما عقاب ابنتها على دخول الإسلام. والأمثلة هنا كثيرة جداً.

والذي يعنيننا من ذلك كله هو أن المجتمع المكي في ظل سيادة قريش كان مجتمعاً مفتوحاً مطلقاً من كثير من القيود التي خضعت لها قبائل عربية أخرى معاصرة لها فقيدت حريتها وضيق أفقها، فتميم مثلاً كانت تعيش في مساحاتها الشاسعة مغلقة على نفسها لا يصلها بالعالم الخارجي إلا التجارة التي كان يتولى القرشيون الجانب الأكبر منها، ومعظم نزواج التميميين كان فيما بين سطونهم بعضهم وبعض لا يكادون يجاوزونها. وبينما كانت مكة بلداً مفتوحاً يعد عليه الناس من كل ناحية للحج أو للتجارة فيجدون هناك نظاماً موضوعاً لاستقبال الغرباء وإيوائهم وتقديم الطعام والماء لهم نحد أن دخول الغرباء بلاد تميم كان قليلاً جداً، وكذلك رحلاتهم إلى خارج منازلهم، وعندما يجيء الإسلام ويدخل بلادهم نجد التميميين يعيشون في شبه عزلة في منازلهم

يحسون أنهم أذكى الناس وأبلغهم وأشهرهم وقد دهش وعدهم عندما قدم على رسول الله ﷺ من مستوى التحضر والبلاغة شعراً وشرأ في المدينة ومعظم القاطنين عليه كانوا قرشيين، بل إن أهل يثرب أنفسهم كانوا يعيشون في مدينتهم شبه منقرئين، حتى دخل القرشيون يشرب مع رسول الله ﷺ فتحرك كل شيء، وفتحت الأبواب وترقى اليثريون في مدارج التحضر بفضل الإسلام ومع أن رسول الله ﷺ ساوى بين أصحابه ولم يعزل مهاجرين على أنصاري إلا أننا نلاحظ أن القيادة الاجتماعية والحضارية كانت في يد القلة القرشية، وما ذاك إلا لأن أولئك القرشيين كانوا أحسن نظاماً وأوسع آفاقاً وأعرف بأحوال الدنيا والناس منهم. وبعد وفاة الرسول ﷺ وما حدث في اجتماع السقيفة نرى بكل وضوح تفوق القرشيين في التقدير والتدبير والكلام على الأنصار، وهم الذين فازوا بقيادة الجماعة بعد الرسول وأحسنوا القيام عليها في أيام أبي بكر وعمر وجزء من خلافة عثمان على الأقل.

أما الفرق بين المستوى الحضاري بين قريش ومجموعات قبلية مثل غطفان وهوازن وأسد وما إليها فظاهر لا يحتاج إلى شرح طويل، والفرق في العقلية والنظرة إلى الأمور بين زعماء مكة حتى في أيام الكفر من أمثال عيينة بن حصن سيد فزارة ورخيلة بن عائذ بن مالك شيخ أشجع من ريث بن غطفان كان عظيماً جداً حتى ليحسب الإنسان أن هذا شعب وذاك شعب آخر وأن فرقاً زمنياً شامعاً يفصل بين الاثنين. وفي أثناء المغازي والسرايا حينما ينتقل المسلمون بين رجال القبائل في منازل أقوامهم نحس أن القرشيين كانوا بالفعل أعلى حضارياً من مستوى نظرائهم ومعاصريهم درجات وكل ذلك من آثار التجارة والاتصال بالعالم، ووعي القرشيين بأنفسهم وإحساسهم بمكانهم وحس إدراكهم لمصالحهم وما يريدون، هذا إلى تميز طاهر في الدكاء هو نتيجة الاتصال بالدنيا والحركة والتنقل وما يؤدي إليه ذلك من حركة الأفكار

ويستوقف النظر في مكة قبل الإسلام استقرار الأمر وانتظام سير الأمور،

فالسلد أمر من حارج ومن داخل وحوادث العدوان على الأنفس والأموال قليلة والسلام مستقر بين الوحدات القبلية أو البيوت رغم المداخلات السياسية التي لا بد منها بين تلك البيوت، يحس الإنسان دائماً أن هناك نظاماً مستقراً وأن سكان مكة ومن حولها من القبائل يتمتعون بسلام ورخاء مسيين كأن النظام الإداري السيط الذي ذكرناه وهو نظام تقاسم المسئوليات المدنية والجماعة مثل الرفادة والسقاية والندوة واللواء وما إليها كان في مجموعه نظاماً صالحاً وكافياً إلى حد ما للقيام بشئون مدينة مكة وما حولها.

والسبب في ذلك فيما نرى هو أن قريشاً في انتقالها من البداوة وحياة الظعن إلى الاستقرار في مدينة لم تتحول إلى مجتمع مدني بل حافظت على نظامها القبلي. والنظام القبلي العربي رغم بساطة تركيبه، نظام اجتماعي وسياسي متكامل وواف بحاجات الجماعة التي يقوم فيها. إنه نظام بسيط ولكنه ليس بدائياً وحاجات القبيلة في ذاتها قبلية والعصية القبلية تكفي لحماية الإنسان داخل القبيلة ولحماية القبيلة كلها بين القبائل، لأن كل بيت داخل القبيلة مترابط متماسك وكاف لإيقاف العدوان على أي فرد من أفرادها، فإذا عجز البيت عن تسير أموره أو تعرض للعدوان من بيت آخر تدخلت القبيلة كلها للحماية وإيقاف العدوان وإقرار السلام. والقانون البدوي عرفي ولكنه قانون كاف لحماية الناس وأموالهم، والأفراد والجماعات الصغيرة داخل القبيلة تطيعه وتنفعه بأمانة، والغش والخداع والخيانة لا تترك دون عقوبة أبدًا، وثروات البيوت قليلة فهي لا تخرج عن أذواد من المشايبة وبعض التخيل وشيء قليل من الزراعة السريعة في بعض الأحيان، ويراد بتلك الزراعة شيء من الشعير والمحاصيل السريعة النمو والحصاد، والقبيلة كلها مسئولة عن ثروتها الجماعية من ذلك كله، وكل ملكية معروفة، وكل حق طاهر، والقبيلة كلها تعيش في حالة تأهب مستمر للدفاع عن النفس أو الرحلة وشيوخ القبيلة مطاعون والخلافات بينهم تسوى دائماً على عجل ولا تترك لتعمق. وأي فرد من أفراد القبيلة يرفض النظام ويتكرر حروجه عليه يقتل أو يجلع ويعلن أمر خلعه للقبائل المجاورة

للقبيلة إعماء لمستولية القبيلة عه ويصبح دمه مهدوراً إلا إذا لجأ إلى قبيلة أخرى وقبلت جواره . والمحالعات والعهود بين القبائل المتجاورة مرعية بعباية والبدوي العادي متعود على حياة الشظف قانع بما يقدر له من الرزق . ومعظم العمل تقوم به النساء ، وإذا كان الرجال أو الصبيان هم رعاة الإبل والماشية خارج مضارب القبيلة فإن كل شيء عدا ذلك تقوم به النساء . والنساء يرثن المهارات المعنية البسيطة من غزل ونسج وحلب الماشية وصنع الخبز أو اختزان الثوبة من التمر والزبيب وهن محفوظات محميات من العدوان .

وقريش عندما استقرت في مكة لم تتخل عن هذا النظام فاستمر يعمل بنظام فلكل عشيرة من عشائر القبائل شعبها أو حبيها ، وشعاب العشائر تجمعها شعاب الفصائل وهكذا . والدور كلها من اللبن فلا نسمع عن بنيان بالحجر إلا فيها يتصل بالكعبة ، وإلى جانب البيوت القرشية عاشت في مكة بيوت من الأغراب عنها ولكنها حليفة ، وبديل بن ورقاء الخزاعي كانت له دار بمكة ، والدار هنا معناه القسم من البلد يعيش فيه الخزاعيون من أصحاب بديل وكلهم حلفاء المكين وجيرانهم ، وكان في المدينة أيضاً ثقفيون وهذليون وعذريون وكل جماعة تعيش حياتها في أمان نظام الحلف والإجارة والعرف القبلي العام .

ومهما كانت أقوال كتاب العرب فإن رجال مكة قبل الإسلام كانوا في جبلتهم عقلاء أكفاء لأن نظام القبيلة وحياة الخطر التي يعيشها الناس دون حكومة لم تكن تأذن بولاية عاجز . وقد رأينا قصياً يوصي برياسة مكة قبل موته لابنه عبد مناف ولم يكن أكبر ولده إنما كان الأكبر عبد الدار ، وأمثال هذه الأمور لا تتم إلا باتفاق بين الشيوخ ، ولهذا نجد عبد الدار يسلم برياسة أخيه والقبيلة تعوضه عن ذلك بعض المستويات الشرفية مثل اللواء . وبعد وفاة هاشم تصير الرياسة لأخيه المطلب ولكسا لا نلبث أن نراه يتنازل عن هذه الرياسة لابن أخيه عبد المطلب وكان شاعراً ولكن الأمر هنا أمر سلامة القبيلة ، والسلامة تحتاج إلى كفاية ، ولهذا فإسنا نجد بقية بيوت مكة تسلم برياسة عبد المطلب بعد

معارصات طعيفة . وعندما ظهر عجز أبي طالب عن سياسة أمور مكة وأهلكت بيوت أصحاب المال من غزوم وعبد شمس وهيصص نجده يسلم بالأمر ويقنع بالرياسة الشرفية والسقاية والرفادة تاركاً شئون التجارة لمن هو أقدر منه ، وخصومة بني عبد شمس لبني هاشم لم تصل قط إلى العدوان السافر وحلف الفضول لم يدحل قط في صراع فعلي مع حلف الأحلاف لأن الحير نظراً أولاً لحير قريش كلها . ورغم كل شيء فإننا نرى أن قريشاً تحرص أشد الحرص على علاقات حسن الجوار والمصلحة المشتركة بين قريش وخزاعة والاحابيش وثقيف في الطائفت سارت دائماً سيراً طيباً ، وإن كان بنو كعب الخزاعيون ظلوا دائماً على علاقات ود متينة مع بني هاشم الذين ينحدرون من كعب بن لؤي ، والاثنان معاً كانا يعرفان بالكمين . أما حلف الأحلاف فقد اعتز دائماً بتأييد بني بكر بن عبد مناة الكنانيين وسيظل الوضع على تلك الحال بعد مجيء الإسلام وحتى فتح مكة على ما سنراه .

وسنرى عند اصطدام قريش مع دعوة الإسلام أن القبيلة كلها تتصرف في عقل وبنظام ، فكبار الشيوخ يتولون الأمر ولكنهم يدعون التصرف للجيل الذي يليهم من كهول القبائل ، ولكن عندما يعجز الكهول ويتفاقم الأمر وتتهدد وحدة القبيلة ومصالح قريش سنرى أن الشيوخ يتولون الأمر بأنفسهم ويحاولون التفاهم في كثير من الروية مع محمد ﷺ وأبي طالب ، وتكون لقاءات طويلة ستحدث عنها في حينها . وعلى الرغم من اجتهاد المؤرخين بعد الإسلام في تشويه صورة قريش الوثنية ظناً منهم أن ذلك يزيد من قدر الإسلام علواً فإن حقيقة الصورة عندنا واضحة ، فالنظام مستتب وهناك قانون صرفي عام متبع ، ولعله يبدو غريباً أن ساكن مكة كان أمر على نفسه وماله قبل الإسلام مما أصبح عليه في العصر الأموي .

وإذا أردنا أن نمصّر كفاية النظام المكّي قبل الإسلام نقارنه بالنظام في يثرب فبينما كانت مكة بالفعل تتمتع بنظام مستقر متماسك نجد أن يثرب

كانت مسرحاً لراعات وصدمات قلبية خطيرة، وواقعة بعث الدامية وقعت قبل هجرة الرسول إلى المدينة وهي تصور قلق المجتمع البشري بالمقارنة مع المجتمع المكّي، ثم إن وجود الجماعات اليهودية القوية في يثرب وسيطرتها على الحياة الاقتصادية للمدينة يدل على أن الأوس والخزرج كانت تنقصهما الكفاية والحكمة والنظام، وأكبر دليل على ذلك أن الوحدات القبلية داخل يثرب كانت تعيش في أمن أطامها أي حصونها وكل قبيلة تعتصم من الهجمات والاشتباكات داخل أطمها. ويبدو كذلك أن القبيلة كانت تضع ذخائرها وربما نساءها وولدها في الأطم بالليل. ومن هذا كله لا نجد شيئاً في مكة، لأن المكّيين عرفوا كيف يسيطرون على العدوان داخل بلدهم واجتهدوا في حل مشاكلهم فيما بين بعضهم وبعض وكذلك وثقوا العلاقات مع القبائل حول مكة فأمنوا في بلدهم، ولم يعودوا يحتاجون إلى الحصون.

وقد لاحظنا في كلامنا على حرب الفجار كيف أن قريشاً عرفت كيف تنظم أمورها، وعندما تخرج الأمر اختارت للقيادة بني أمية الأكبر فقاموا بواجبهم خير قيام، وقد أظهرت هذه الحرب قدر بني أمية بجماعتهم الأعياص والعنابس، وبعد هذا النصر أصبح بنو أمية بالفعل أنداداً لبني هاشم وسيكون لذلك كله أثر في موقف المكّيين من الإسلام.

والخلاصة، وقبل الدخول في مجيء الإسلام وموقف قريش منه نقول إن قريشاً في مجموعها كانت قبيلة ناجحة وسط القبائل: عرفت كيف تمهي لنفسها مكاناً صديقاً بين القبائل في الجزيرة كلها قبل الإسلام، وكان نظامها الداخلي يجمع بين النظام القبلي وبعض خصائص الحضرة، وقد أفاد القرشيين من الطام القبلي وما تأق عن استقرارهم في مكة من حصائن الحضرة، وعرفوا كيف يسوسون بلدهم ويفومون بمسئولياتهم تجاه التجارة وتجاه الكعبة، وأفادوا من الوجهين أكر الفائدة.

القِسْمُ الثَّانِي

قُرْآنُ بَعْدَ الْإِسْلَامِ

الفصل الأول

قُرَيْشُ وَالْإِسْلَامُ فِي مَكَّةَ

الفَترَةُ المَكِّيَّةُ الأولى : مِن نَزُولِ الوَحْيِ إِلَى الخُرُوجِ مِنْ دَارِ الأَرْقَمِ :

نعودنا أن نتتبع تاريخ الإسلام من داخل الجماعة الإسلامية . وتعودنا أن ندرس تطور الجماعة الإسلامية ونحن وقوف إلى جانب رسول الله ﷺ ومن معه ونحاول الآن أن ندرس هذا الشطور في المعسكر الآخر أي من ناحية المكين ونتبع تطور نظرة القرشيين إلى الإسلام وجماعته .

خلال الشهور الأولى من البعثة وبعد انتهاء فترة الوحي وتتابعه استوثق محمد من أنه رسول الله إلى الناس ، وتوالت آيات القرآن تفصل له أمر رسالته وفحواها . والقطع العشر الأولى من القرآن الكريم ، وهي التي نظن أنها أوحيت إلى رسول الله ﷺ خلال الأشهر الأولى للبعثة بما في ذلك «الفترة» هي :

(١) الآيات الخمس الأولى من سورة العلق .

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم﴾ السورة (٩٦) .

(٢) والآيات السبع الأولى من سورة المدثر ، وهي رقم (٧٤) :

﴿يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تكن تستكبر ، ولم يك فاصبر﴾ .

وتلك هي الآيات التي نقلت محمداً ﷺ من النبوة إلى الرسالة أصح نبياً رسولاً أصح الآن مكملاً بحمل رسالة إلى البشر ، فعليه من الآن أن ينذر

ولكني ينذر لا بد أن يتطهر ويهجر الرجز ولا يتعجل الوحي أو يستكثر منه فكل كلام الله سيأتيه بحسب تقدير الله ، وعليه الآن أن يصبر على أمر الله سبحانه .

٣) سورة قريش وهي رقم ١٠٦ في المصحف :

وفيها يذكّر الله سبحانه قريشاً بنعمة الإيلاف التي مهدت الطريق لرحلتي الشتاء والصيف وهي أساس رخاء قريش ونعمتهم ، وعليهم لذلك أن يعبّدوا الله رب هذا البيت وهو الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

وتلك هي المرة الأولى التي يذكر فيها القرآن قريشاً دون أن يمس ديانتها ولكنه يأمرها بأن تعبد الله رب البيت .

٤) سورة الضحى وهي الثالثة والتسعون في ترتيب المصحف .

وكلها موجهة نحو محمد ﷺ والمسلمين تبعاً لذلك وهي تذكرهم بنعمة الله عليهم بالهدى وما تولى به محمداً من العناية ، وتأمره بالرفق باليتيم والمساكين والتحدث بنعمة الله .

٥) سورة الشرح، أو ألم نشرح لك صدرك، وهي الرابعة والتسعون في ترتيب المصحف :

وهي تذكر الرسول بما شرح الله به صدره من القرآن والهدى وكيف وضع الله عن رسوله أوزار الجاهلية وأزال من نفسه الخوف الذي اعتراه أول الرسالة ، ورفع بذلك كله ذكره وبعده بأن بعد العسر يسراً وعليه لهذا أن يرغب إلى الله سبحانه .

٦) سورة العصر وهي الثالثة بعد المائة في ترتيب المصحف :

وهي من قصار السور وهي سورة تذكير من الله للإنسان بصورة عامة بأنه خاسر إلا إذا آمن وعمل صالحاً وتواصى بالحق والصبر .

٧) سورة الشمس وهي الحادية والتسعون من سور القرآن:

وهي تلفت نظر الإنسان إلى بديع خلق الله وآيات الخلق من الشمس وضحاها والقمر الذي يطلع بعد تعيها والنهار والليل والسماء ومن بناها والأرض ومن سسطها، ثم نفس الإنسان وكيف خلقها الله خلقاً سوياً ووضع أمامها طريق الشر وطريق الخير وكيف أن الذي يركي نفسه أي بطهرها يصلح، ومن يدنس نفسه ينجب، ثم يذكر الله الناس بما أصاب ثمود وكيف أساء إليها أشقياءها، ويشير الله إلى الناقة التي عفروها فنزل بهم من الله عقاب شديد.

٨) سورة الماعون وهي السابعة بعد المائة في ترتيب المصحف:

وفي أول هذه الآية أول ذكر لخصوم الدعوة وبعض ضعفائها، فهناك من يكذب بالدين، وهذا هو الجاني القلب الذي يسيء إلى اليتيم ولا يدهو إلى اطعام المسكين، وفي المؤمنين من يسهون عن الصلاة ويрамون الناس ويمتنعون تقديم العون للمحتاج.

٩) سورة الطارق وهي السادسة والثمانون في ترتيب المصحف:

وهي من أولى سور التذكير بعجيب خلق الله سواء في الكون المادي: خلق الكون والإنسان. أو سر النفس الإنسانية وما خصها به الله من الإيمان، وإشارة إلى قدرة الله على بعث الناس يوم البعث والنشور يوم يمتحن الله الناس بما في سرائرهم وما تنطوي عليه نفوسهم، وفي الآيات الأواخر من السورة تذكير بالسما ذات الرجوع والأرض التي تتصدع إذا شاء الله وتؤكد بأن كلام الله هذا فصل بين الضلالة والهدى وهو حد صارم وليس موضع هزل، وفي نهاية السورة إشارة إلى أن هناك من يكيدون للإسلام والمسلمين وتذكير بأن الله يكيد لهم كيلاً وفأمهل الكافرين واصبر عليهم رويداً وهذه السورة من سور عجائب الخلق وقد أكد القدامى القول في تفسير أسرارها ومعانيها، وجاء

المحدثون يرون فيها إشارات بينات إلى عجائب ما يكشف عنه العلم من أسرار الكون والفس

١٠) سورة التين وهي الخامسة والتسعون في ترتيب المصحف :

وهي من السور التي كثر اختلاف المفسرين حولها، فهل الله سبحانه يقسم هنا بالتين أم بحبل يسمى جبل التين، وباليون أم بحبل الزيتون ثم يقسم بطور سيناء، أي جبل سيناء وكل هذه تمهيدات ذات معان وأسرار تخلص منها السورة إلى البلد الأمين، ويختلف المفسرون هنا مرة أخرى، فهل المراد مكة أم غيرها. ثم حقيقة كبرى تتصل بالعقيدة الإسلامية وخصائصها، فإن الله سبحانه خلق الإنسان في أحسن صورة في الجنة ثم أهبطه إلى أسفل سافلين أي الأرض حيث ضل ضلالاً بعيداً إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات واجتهدوا في عمارة الأرض فهؤلاء هم عند الله أجر عظيم وما شأن أولئك الذين يكذبون بالدين الا يعرفون أن الله سبحانه أحكم الحاكمين؟

١١) سورة الزلزلة وهي التاسعة والتسعون في ترتيب المصحف :

وهي من السور المنذرة التي تدعو الناس إلى الإيمان بالله عن طريق تصوير أهوال يوم القيامة مع التوكيد الواضح على أن الله سبحانه هو الذي يزلزل الأرض فتخرج أثقالها فينساءل الإنسان عما جرى لها فيصرف أن الله سبحانه هو الذي أوحى لها. وهنا يبعث الناس ويخرجون جماعات ليروا أعمالهم، فمن يعمل مثقال ذرة من الخير خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة من الشر شراً يره ويحاسب عليه.

١٢) سورة القارعة، وهي الأولى بعد المائة في ترتيب المصحف.

وهي شبيهة بالسابقة من حيث المضمون والغاية، فهي تصور جوابات أخرى من القيامة والبعث والحساب. وفي نهايتها ذكر للدار الحامية مصير الكافرين والمكذبين.

(١٣) سورة العاديات، وهي المائة من سور القرآن بحسب ترتيب المصحف.

وهي تسير في نفس اتجاه القارعة من حيث تنبيه القلوب والعقول إلى مرور الأيام بالإنسان سريعة دون أن يشع، والصور التي تفتح بها السورة تشير إلى عدو الخيل أو الخمال في الطريق إلى مناسك الحج حتى «جمع» وهي مزدلفة ثم تبه الإنسان إلى حجوده، وهو يعلم أنه حجود وهو شديد الحب للمال وهو لا يعلم أنه إذا جاء البعث - كان مصيره إلى الله الذي يعرف عنه كل شيء.

وهذه السور جميعاً بكل ما فيها من تنبيه إلى الحق يبرز القلوب ويبحث فيها الخوف لا تشير عند الجاهليين أي انتباه جاد، فمحمد في رأيهم إلى الآن رجل لا يدرون ماذا أصابه ولا حقيقة ما يقول، فهو يتحدث إلى من يصغي إليه، إلى الفئة القليلة التي التفت حوله، وليس عليهم في ذلك بأس، فإن الكلام الذي يتلوه محمد كلام وعظ تصوروا أنهم يسمعون مثله من الكهان، وهم لم يفكروا فيه ولماذا يفكرون؟ إن محمداً وجماعته قليلون وهو يقول إنه يدعو إلى الخير ومكارم الأخلاق، وهم يحسبون أنهم أخيار وأنهم على مكارم أخلاق وهو رجل كريم حسن المعشر طيب القلب لا يضيرهم في شيء وهم منصرفون إلى تجاراتهم وأموالهم فماذا يعنيهم من أمره؟ وربما شعر بعض كبارهم بعدم الارتياح لرؤية نفر من الفقراء والرفيق يجلسون حول محمد إلى جوارهم في الكعبة، ولكنهم كانوا مستعدين لاحتمال ذلك ولكن سورة الليل، وهي الرابعة عشرة في ترتيب النزول والثانية والتسعون في ترتيب المصحف حملت شيئاً جديداً، ففيها إشارة وتحذير وإنذار لمن بحلوا واستغفوا وكذبوا بالحسنى، وهي من هنا كانت حديرة ما نعيم القرشيين على إعادة النظر في الكلام الذي يقول محمد إنه يتلقاه من السماء، فهو ليس كلام كهان أو سحرة وإنما كلام له معان بعيدة ومرام حقيقية تستحوذ على القلب والدين دخلوا في دعوة محمد متأثرون به تأثراً عميقاً، وقد تبدل فيهم كل شيء وأحدثهم الدعوة أخذاً وهذا

أمر لا يمكن أن يكون هيباً ولا هزلاً ، ولنقرأ سورة الليل هذه لنرى مصاديق ذلك :

﴿فأما من أعطى واتقى
وصدق بالحسنى
فستيسره للمعسر
وأما من بغل واستغنى
وكذب بالحسنى
فستيسره للمعسر
وما يغني عنه ماله إذا تردى
إن علينا للهدى
وإن لنا للأخرة والأولى
فأنذرتكم نارا تلقى
لا يصلها إلا الأشقي
الذي كذب وتولى
وسيجنبها الأتقى
الذي يؤتي ماله يتزكى
وما لأحد عنده من نعمة تجزى
إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى
ولسوف يرضى﴾

فهنا إشارات واضحات إلى أن هناك ناساً بغلوا واستغنوا وكذبوا بالحسنى ، وهؤلاء سيلقون من الله عذاباً ويعانون عسراً ، والغنى منهم لن يفيدهم ماله إذا تعرض لعضب الله ، وها إنذار بار تلقى لا يصلها إلا الأشقي

فلا بد أن الاحتكاك والتذامر بدأ بين المسلمين والكفار ، بين العقراء إلى

اللّه - وهم الأعياء بالإيمان - والأعياء بالمال - الفقراء من الإيمان - فالأولون
سيجزون أحسن الجزاء والأخرون سيلقون شر العقاب .

هنا نرى بدايات التفات كفار قريش إلى هذه الدعوة وما تعنيه وما تندر
سه ، وقد كانوا كما حكما أذكيا ذوي فهم وكانوا أغيا والغيا شديدا
الحساسية عماله وماله . والذين يتلون هذا الكلام بعد محمد كان فيهم الكثيرون
من الفقراء والضعفاء ممن كان المكبون لا يكادون يحفلون بهم أو يرون لهم
قدراً .

وهكذا ، شيئاً فشيئاً وخطوة بخطوة ثور الشكوك والمخاوف في نفوس
القرشيين . فهذا الكلام الذي يتلوه محمد وأصحابه موجه إلى الناس أجمعين ولكنه
يعنيهم بصورة خاصة ولا بد أن بعضهم كذب الدعوة ويخل بماله واستغنى ، فهذا
ولا شك مقصود بالانذار ، والنار التي ترد فيها يتلوه محمد تنتظرهم مع أمثالهم
وتؤكد هذه المعاني وتزداد المخاوف عندما تنزل سورة الانشقاق وهي الخامسة
عشرة من حيث التنزيل والرابعة والثمانون في ترتيب المصحف فنجد فيها نذيراً
يرهب القلب لكل من سمع أذنيه عن هذه الدعوة ، وخاتمتها تقول :

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ

وَاللَّهُ أَهْلَمُ بِمَا يُوْهَوْنَ

فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾

فها هنا ذكر لبدايات الصراع بين القرشيين والإسلام ، فبعضهم يكذب
وبعضهم يزري بالمؤمنين وبعضهم يستصغر الدعوة وأهلها .

ثم نجيء سورة الأعلى وهي التاسعة عشرة من ترتيب التنزيل والسابعة

والثمايون من ترتيب المصحف وهي تستهل بالدعوة إلى تسبيح الله الأعلى الذي خلق كل شيء وقدر مهدي وأطلع السات ثم جملة هشياً، وكل هذا يقرنه الله سبحانه لرسوله، وتنتهي السورة بأيتين تكشفان عن جانب من حقائق الدعوة

﴿إن هذا لقبي المصحف الأولى﴾

صحف ابراهيم وموسى ﴿

فهنا نتأكد الصلة بين دعوة ابراهيم وما يتلوه محمد فقد ورد بعضه في المصحف الأولى، صحف ابراهيم وموسى، ومحمد ليس بساحر ولا كاهن ولا مجرد واعظ، بل هو نبي رسول وما يقوله كلام سماوي عظيم كمثل المصحف الأولى، صحف ابراهيم وموسى. ومثل هذا الكلام لا يمكن أن يؤخذ مأخذاً هيناً، ومحمد لا يمكن أن يقف عند مجرد القراءة بين أصحابه، ومن ثم فلا بد من اتخاذ موقف منه ومن دعوته.

إن معظم مؤرخي السيرة وعلماء القرآن يقولون إن بداية العداوة بين المسلمين والمشركين كانت عندما أمر الله محمداً بأن ينذر عشيرته الأقربين:

﴿وانذر عشيرتك الأقربين﴾

واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين

فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون

وتوكل على العزيز الرحيم ﴿ (الشعراء ٢٦/ ٢١٤ - ٢١٧).

ولكننا في دراستنا لموقف فريش من الدعوة لا رلنا بعيدين جداً عن آيات سورة الشعراء تلك، حقاً إن تلك الآيات وبعض ما سبقها ولحق بها من سورة الشعراء تعتبر السورة السادسة والعشرين في ترتيب التزيل، ولكنها تعين مرحلة بعيدة من مراحل تطور الدعوة، ففيها إشارات إلى أشياء كثيرة وقعت بين

المسلمين وحسومهم وهي إذن كانت بعد أن بدأ الصراع الصريح بين الحائنين وبعد أن استقر الخوف من الدعوة فعلاً في قلوب مر كبير من القرشيين .

فبعد سورة الأعلى التي ذكرناها وهي السادسة عشرة من حيث التنزيل نجيء «عس وتولى» وهي السابعة عشرة في التنزيل والثمانون في ترتيب المصحف، ثم تكون سورة التكويد وهي الثامنة عشرة في التنزيل والحادية والثمانون في ترتيب المصحف ثم الانشقاق وهي التاسعة عشرة في التنزيل والرابعة والثمانون في ترتيب المصحف ثم النازعات وهي العشرون في التنزيل، والتاسعة والستون في ترتيب المصحف ثم الغاشية وهي الحادية والعشرون في النزول حتى نصل إلى الآيات التي ذكرناها من سورة الشعراء، وفي هذه السور كلها آيات تتحدى وأخرى تنذر وثالثة تدل على أننا قد أوغلنا بالفعل في الصراع وتحددت المواقف. ويصعب تحديد الآيات التي يمكن اعتبارها إنذاراً بتغير حاسم في موقف غلاة القرشيين، لأن المتتبع لآيات القرآن على النحو الذي ذكرناه يحس أن ثوران العواطف جاء شيئاً فشيئاً، فالقرآن ينزل ورسول الله يقرئه أصحابه، وأصحابه يزدادون إحساساً بأنفسهم ووعياً بدينهم . وهم يجلسون إلى نبيهم حول الكعبة خاصة فيقرأون قرآنهم ملتفين حول نبيهم وهم يزدادون عدداً وجراً يوماً بعد يوم، والقرشيون الذين نظروا إلى تلك المشاهد أول الأمر في غير اكتراث بدأوا يضيّقون الآن بهذه الجماعة التي لا تكفي بقراءة ما تقرأ في صمت، بل يتجمع بعضها إلى بعض ويقرأون جماعة وفي صوت عال، وكان القرشيون يظنون أول الأمر أنه سجع لكهان أو نجوى جماعة من الباحثين عن الحق أو الخفاء، ولكنهم عندما أصنوا إلى لفظ القرآن ومعابه المثة في السور والآيات التي ذكرها بعضها أحسوا أن هذا الكلام يتضمن تحدياً وتهديداً لهم وإرراء بهم، فجعلوا يسخرون من المسلمين وما يقرأون، وأخذ بعضهم يكذب ما يسمع ويستصغر شأنه، وربما دخل في مناقشات مع المسلمين وعندما أنزل الله آيات سورة الكافرون وهي الخامسة

والأربعون مما أنزل من القرآن والتاسعة بعد المائة في ترتيب المصحف نجد أننا قد قطعنا بالفعل مرحلة طويلة من مراحل مسيرة الدعوة وأن الموقف قد انحسم بين الإسلام وخصومه بشكل واضح، خاصة وقد سبقتها سورة الإخلاص (الرابعة والأربعون في الترتيب)، الثانية عشرة بعد المائة في ترتيب المصحف) وهي سورة التوحيد الخالص الجامع المانع. وسور أخرى مثل الهمزة والمسد والكوثر، والمدثر وأنعماتها وكلها سور واضحة المعاني بينة الإشارات تدل على أن المعركة كان يحمى وطيسها يوماً بعد يوم. ثم تحيى سورة الكافرون لتحديد أن هناك دينين متعارضين غير متصالحين وهما دين الله الحق ودين الكفر، والمسلمون يرفضون رفضاً باتاً عبادة ما يعبد الكافرون وهؤلاء من ناحيتهم لن يعبدوا ما يعبد المسلمون ما دام الكافرون على موقفهم من العناد. وكل من الجانبيين له دينه. هنا نشعر أن السورة فاصلة في مسار تطور انتشار الدعوة وموقف القرشيين منها، وهم يوصفون الآن بأنهم الكافرون، وهي كلمة دامغة لا يرضى عنها القرشيون.

وهذه الآيات والسور كلها - السابقة على - «الكافرون» يبدو من أسلوبها وسياقها ومعناها أنها نزلت متلاحقة في وضع متقارب لكي يبنى عليها إيمان المؤمنين ويثبت لهم منها حقيقة ما يؤمنون به - وفيها كذلك نلحظ وتلميحات وإشارات إلى بعض الممارسات الجاهلية الخارجة عن الأخلاق مثل سورة المطففين. وكلها تنزلت في الدور الأول من الفترة المكية، التي تشمل سنتين سابقتين على دار الأرقم وثلاث سنوات في دار الأرقم لأن الخروج منها كان - كما سنرى - في الشهور الأخيرة من السنة الخامسة للبعثة^(١).

(١) رجعت في عمل هذا الترتيب إلى أمهات ما كتب المسلمون في أسباب النزول وترويضه، وأهمها بحسب اعتمادنا عليها

السفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل القاهرة ١٣٤٤ هـ

القمي التفسير طهران ١٣١٣ هـ

وبعد هذا التتبع لزول السور والآيات الأولى ووقعها عند المسلمين من ناحية والكافرين من ناحية أخرى، نعود إلى القرشيين لتتبع تطور موقعهم من الإسلام.

يذهب مؤرخو السيرة إلى أن القرشيين لم يكتفوا بالدعوة الإسلامية إلا

= الرزي: مفاتيح الغيب القاهرة ١٣٢١ هـ.

السيوطي: الإتقان في علوم القرآن. القاهرة ١٢٧٣ هـ.

الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن. القاهرة ١٣٢٢ - ١٣٣٠ هـ.

طنطاوي الجوهري: الجواهر في تفسير القرآن. القاهرة ١٩١٣ هـ.

الواحدي: أسباب الزول. القاهرة ١٩٤٥ م.

وكتاب تاريخ القرآن الذي ألوه بالامانية تولدكه وشغالي واشترك معها فيه علماء المان آخرون

مثل برجنسبر وشروه في ثلاثة أجزاء بياض كما يلي:

الاسم العام للمكتتاب:

Theodor Noeldeck, F. Schwally Geschichte des Qorans

وتفصيل الأجزاء كما يلي.

المجلد الأول عن أصول القرآن

1. Noeldecke u. Schwally, Verber den Ursprung des Qorans, Leipzig 1919

والمجلد الثاني عن جمع القرآن

2 Schwally, Die Sammlung des Qorans Leipzig 1919.

والجزء الثالث هو الذي يتضمن ترتيب آيات القرآن من حيث الزول

3. g. Brgstraesser und O. Praezel, Die Geschichte des Qoran Texts, Leipzig 1939.

وهذا المجلد الثالث يقع في ثلاثة مجلدات صغار.

ويضاف إلى هذه الكتب الاستشرافية كتاب يعتبر من أهمها في ذلك الموضوع هو:

Regis Blachère, Le Coran, traduction selon un Essai d'arrangement des Sourates, Paris 1947 - 1951

ويقع في ثلاثة أجزاء. والجزء الأول منها مقدمة

وعني عن البيان أنني لم اعتمد على مؤلفات المشرقين إلا للإفادة والاستئناس ولاستطلاع،

وأراهم في الموضوع معرضة صادرة عن سوء بنة وهذا هو رأيي كذلك في كتاب يحتل به

المستشرقون ويولوه اهتماماً كبيراً رغم ما فيه من النصف الظاهر والاسفاف الواضح وهو

Richard Bell, The Quran, With a Critical rearrangement of the Suras

عندما تناول الرسول آلهتهم بما لا يرصيههم ، وقال عنها انها أحجار لا تنفع ولا تضر وان عبادتها هباء يدل على عاء . ولكن الحقيقة هي أن كبار القرشيين كانوا قد بلغوا درجة من العنى والغرور بالنفس بلغت بهم كل مبلغ ، ولم يكن كبرياؤهم ليسمح لهم بأن يتحملوا من محمد ﷺ أي نقد لهم أو لآلهتهم ، وهم لم ينتظروا حتى يسب محمد آلهتهم بل كان تحركهم لأذى وأذى أصحابه قل ذلك بكثير . وقد رأينا أن أبا جهل وجماعته من أنصار محمد ﷺ في السن لم يوقفوا في تصديهم له وكادت تقع فتنة فأسرع كبار القرشيين لتلافئها ، وكانوا يصطافون في ضياعهم في الطائف ، فروعتهم أخبار الفتنة بين المسلمين وخصوصهم فأقبلوا وحاولوا استرضاء رسول الله وكسبه الى جانبهم ظناً منهم أنه طالب سلطان أو مال أو طامع في لعاعة من لعاعات الدنيا ، فوجدوه شيئاً آخر لم يخطر على بال ، وجدوا أنفسهم أمام رجل يقول انه نبي مرسل لا صلاح الدنيا وأهلها ، وسمعه يتلو القرآن ، فراقهم معناه ومبناه وأحسوا أنه لا يمكن أن يكون كلام بشر . فقالوا انه ساحر ومضوا يدبرون أمرهم ليحتموا أنفسهم من دعوته ، وقد مس شعورهم ونال من كرامتهم الكلام الذي يقوله ولم يطبقوا عليه صبراً .

ذلك أن أولئك الناس ذهبوا مع الغنى وقوة الحياة مبلغاً بعيداً بسبب ما تحصل لهم من الأموال وما أوصلتهم اليه الأموال من سيادة على الناس . وقد تحدثنا عن التجارة المكية وما وصلت اليه من الانتظام بفضل ما وضع لها هاشم ابن عبد مناف من نظم مكثت لهم مع الزمن من أن يجمعوا من وراثها ثروات طائلة ازدادت قوتها على الناس نتيجة فقر المجتمع من حولهم . ولما كان أولئك السروات هم في نفس الوقت أصحاب السلطان في ذلك المجتمع المكي فاهم لم يجدوا من يوقفهم عند حدودهم اذا هم طلموا أو تحمروا ومن ها فقد غلت عصاة الأحلاف أو لعقة الدم على جماعة بني هاشم وأصحاب العصور ، فازدادت كبرياؤهم ولم يعودوا يحتملون من أحد نقداً ، ومن ها فان الاشارات القرآنية

التي نعدت ملكهم ووصفتهم بالكفر والفسوة والظلم والتطيف في الكيل وعش الناس كانت كافية لأن تنبر عضهم وتجعلهم يطرون الى محمد ﷺ على أنه عدو والى الذي يدعوه على أنه حركة معادية

وقلنا إن أولئك الدس وصعوا لهذه التجارة نظاماً محكماً فكان كل قرشي أو قرشيه يريد المساهمة يسهم بما يريد ويدون ذلك في سجل ، فلذا عاد رئيس القافلة - وكانت تسمى العبر أو اللطيمة - كان أول ما يعمل هو التوجه إلى دار الندوة حيث يعطي - إذا استقام هذا التعبير الحديث هنا - بياناً عن نتائج رحلته وخاصة مقدار الربح الذي تحصل . وفي بعض الأحيان كانت الأرباح تصل إلى قدر رأس المال ، أي مائة في المائة كما نقول ، فمن دفع عشرة دنائير استردها عشرين ، وكان ذلك ربحاً عظيماً جداً ، يدل على ذكاء ومهارة وكان معظم التعامل بالدنانير الذهبية المسماة بالهرقلية ووزنها نصف وزن الجنيه الإنجليزي الاسترليني الذهبي الحالي ، وكذلك بالدراهم الفارسية وكانت من الفضة . وكان الدينار الذهبي يعدل أربعة عشر درهماً من الفضة ، وكان التعامل يتم أحياناً بالمقايضة أو بالعروض كالأقمشة والألنية والأسلحة وما إليها مما يمكن تقييمه مالياً أو ما يمكن اتخاذه قاعدة للتبادل التجاري . وقد درس موضوع التجارة المكية الويس سبرنجر في كتابه عن محمد ﷺ وهو كتاب سيء فيه تعصب بالغ من الناحية الدينية ، ولكنه فيها خلا ذلك لا يخلو من حقائق ذات أهمية وقد قدر أن قيمة التجارة والأموال التي كانت تتداول في مكة على طول العام بربع مليون دينار من الذهب ، وقد بلغ من ثقة أولئك الناس بأنفسهم أن أحدهم روي عنه أنه قال : لقد حسبت أنني لو رفعت حمراً وجدت تحتها مالاً ، وكان يقال ' من ليس بتاجر فليس شيء ، وعبر أبي سفيان التي كانت تمهيداً لموقعة بدر كان فيها ألف رجل موسوقة بصاعة ، وهذه الجمال نفسها كانت قد صدرت من قريش قبل قليل عملة صناع أهـ والصبر والصبر وحقت ربحاً عظيماً ثم عادت مرة أخرى لتقوم بعملية تجارية مماثلة

وتظهر مستويات الأرباح التي كانت تحققها تلك التجارة في حكاية عبد الله بن جددان شيخ بني نيم بن مرة، فقد بدأ حياته فقيراً، فلما اكتمل كان قد أصبح من أغنياء مكة، وقد زعم الناس أنه وحده كنزاً، وهذا الكثر في حقيقته كان النجارة، وعبدالله بن جددان كان من كبار رحالها وكان حليماً لبني عبد شمس، وحصصاً بالتالي لبني هاشم، وكان كسار القرشيين ينفقون عن سمحاء لكي يطهروا بمطهر التاجر الموسر الساجح الذي يوثق فيه، فكان ابن جددان يقدم للناس الجفان المترعة ثريداً ولحماً يأكل منها من يريد، وكذلك كان يفعل أبو جهل.

وهذا الثراء الضخم الذي وصل إليه أولئك الناس كان بغريهم بالاستزادة من الربح بأي ثمن، ومن هنا كانوا يقرضون المال دون وازع، فقد روي عن بعضهم أنه كان يقرض المائة دينار لمدة ثلاثة أو أربعة شهور ويتقاضاها مائتين أو ثلاثمائة دينار، وانتشر ذلك حتى عم الربا وتفاقم وأصبح هو القاعدة، فشقي الفقراء والمحتاجون. وكان أولئك التجار إما يكتبون بأنفسهم أو يستخدمون كتاباً حاسبين يسمون النساء وكان الربح في هذه الحالة يسمى نسباً أو نسبة، وكان النساء يغالطون الضعفاء وخاصة الأميين فيزورون في حساب المال وحساب الشهور أو المدد ويبيعون اليوم ما يجرمونه غداً حسب هواهم، ولهذا وحماية للإنسانية الإنسان حرم الله الربا، بل أعلن الحرب على المرايين (فأذنوا بحرب من الله ورسوله) ولم يرد في حق أي من الكبائر مثل تلك اللعنة على المرايين، لأن الجرائم كلها لها حدود. فالقاتل يقتل والمسارق تقطع يده أو يعاقب أما المراهي فإنه يعتدي على كرامة الإنسان ويقتله حياً.

وهذا الجشع في جمع المال هو الذي أثار في مكة روحاً من التدمير والإنكار فإن معظم الناس كانوا مساكين أو فقراء، ولا يحملو إنسان من الحاجة إلى المال في وقت ما، وهنا يقع تحت رحمة أولئك الطعنة، خاصة وأهم - أي كبار التحار - يستهينون بالتاجر الصغير الغريب، فكانوا يأكلون أمواله أو

يسوفون في أداء الرجل حقه حتى يجوع ويعرى، وقد يؤدي الدين بعض الناس إلى أن يصبحوا أرقاء للدائنين حتى يؤدوا ما عليهم. وكان أكثر الناس إقداماً على سوء معاملة الفقراء وصغار الأغراب رجال مثل الوليد بن المغيرة وعنتة بن ربيعة وأبي الحكم عمرو بن هشام (أبي جهل).

وفي الناحية الأخرى وقف بنو هاشم - ربما فيما عدا العباس - وحلفائهم يمثلون تقاليد عبد المطلب في الإحسان إلى الفقراء برعاية صغار التجار الغرباء، ولكن توفيقهم في ذلك كان قليلاً نظراً لقوة خصومهم أولاً ثم لحاجة الجبهة الهاشمية إلى شخصيات تستطيع سرداد القيادة في مكة، وهذا يفسر لنا موقف بني عبد شمس وبني مخزوم وحلفائهم من الدعوة إلى الإسلام، فقد ظنوا محمداً ﷺ يرمي في النهاية إلى إعادة للقوة إلى بني هاشم، وهذا كان مفهوم أبي جهل للإسلام، ولم يستطع أبو جهل تغيير هذا الموقف إلى أن مات.

ويلغ من جشع أولئك الناس وحرصهم على أن يفيدوا من الحج أعظم فائدة مالية ممكنة، أنهم ابتدعوا ما عرف بالخمس والحلة، وكلام مؤرخينا القدامى مهم جداً فيما يتعلق بالخمس والحلة، فهم اعتبروا هذين المصطلحين وما جرى مجراهما مثل الطلّس ندخل ضمن شؤون الدين والوثنية الجاهلية، والحقيقة كما تتجلى لمن يقرأ بإمعان أنها من تنظيمات قريش للإفادة من الحج، فمن المعروف أن الناس كانوا يحجون بعد نهاية الموسم في عكاظ، فيقصدون بما معهم من مال إلى مكة للحج، فكان هم القرشيين استخراج أكبر قدر من المكاسب من الحجاج، فالخمس فيها يروي ابن سعد عن الواقدي وفيها يقول الأزرقى عن ابن اسحاق عن الكلبي عن ابن عباس هم قريش وكساة وخزاعة ومن ولدته قريش من سائر العرب ويؤكد ذلك السكري فيقول إن الخمس هم قبائل قريش كلها وخزاعة لسزولها مكة ومجاورتها قريشا وكل من

نزل مكة من قبائل العرب، وأما الحلة فهم بقية قبائل العرب، والطلس هم أهل اليمن وأهل حصر موت

فماذا كان الخمس يفعلون في موسم الحج؟ فيما يقول الأديبي عن ابن اسحاق عن الكلبي أنهم كانوا لا يمحسون اللس ولا يأكلون الربيد ولا يلبسون الوبر ولا الشعر ولا يستظلون به ما داموا حرمًا، ولا يغسلون الوبر ولا الشعر ولا ينسجون به وإنما يستظلون بالأدم ولا يأكلون شيئاً من نبات الحرم، وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ولا يخفرون فيها الدمة ولا يظلمون فيها، ويطوفون في البيت وعليهم ثيابهم . . . ومعنى ذلك أنهم كانوا لا يتمتعون بشيء من الخيرات، بل يدخرون ذلك لبيعونه من الحجاج، وكانوا يزعمون ذلك نسكاً. أما الحلة وهم بقية العرب الوافدين على مكة فكانوا في قول السكري «محرمون الصيد في النسك ولا يحرمونه في غير الحرم، ويتواصلون في النسك ومنع الغني ماله أو أكثره في نسكه ولا يدخلون من باب بيت ولا يؤرمهم ظل ما داموا محرمين، وكانوا يدهنون ويأكلون اللحم وأخص ما يكونون أيام نسكهم، فإذا دخلوا مكة بعد فراغهم تصدقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم، ثم اشتركوا في ثياب الخمس تنزيهاً للكعبة أن يطوفوا حولها إلا في ثياب جدد، ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء، يباشرونها بأقدامهم، فإن لم يجدوا ثياباً طافوا عراة، وكان لكل رجل من الحلة حرس من الخمس يأخذ ثيابه، فإن لم يجد ثوباً طاف عرياناً، وإنما كانت الحلة تستكري الثياب للطواف في رحوعهم إلى البيت . ٢

وخلاصة هذا الكلام أن القرشيين رمسوا أنفسهم على ألا ينفقوا من أموالهم ولا يستعملوا من أطعمتهم ولا يلبسوا من الثياب الحدد إلا القليل جداً لكي يبيعوه من الحجاج، أما الحلة وهم الأعراب - وهم معظم الحجاج فكانوا يشحون على الإنفاق، حتى الطواف كان القرشيون يخفرونهم على أن يكون الطواف في ثياب حدد، ومن لا يستطيع شراء ثوب جديد أكثرى ثوباً، وإلا

طاف عربياً وهذا هو التفسير الذي يقله العقل بالنسبة لهذه الظم التي كانت سائدة في مكة قبل الإسلام، أما ذكرها بالصورة المهمة التي تخلو من المعنى والتي حدها في الأصول فأمر لا يقله العقل، خاصة وأن القرشيين كانوا أساساً عمليين وماديين في تفكيرهم، فكل شيء كان عندهم مطلق وحساب ويسمى كان قصي وهاشم وعبد المطلب يعرضون على القرشيين ما لا يعق على الحجاج تقديراً منهم لجلال الحج وما يضيفه على مكة من الاحترام والتبجيل أصبح سادة مكة الجدد يذلون أقصى وسعهم في استخراج أكبر كسب من الحجاج، مما أساء إلى مكة وقريش. وكان الفقراء فيما مضى يفيدون من الحج فيأكل الجائع منهم ويحصل المحتاج على ما تيسر له من حاجاته، فساء حال الفقراء أيام سيادة بني عبد شمس ونخزوم وأحلافهم، وذلك كله واضح في التفاصيل التي يوردها المؤرخون في مقدمات البعثة المحمدية.

ونج عن ذلك أن كثيراً من العرب كرهوا قريشاً وعبروها بالبخل والقعود عن الكرم، بل رماها بعضهم بالجبن، وعبروا قريشاً بكثرة الطعام، فسموها سخينة لأن السخينة كانت من أحسن ما يأكل الناس قبل الإسلام وأغلاء ثمناً وكان القرشيون يكثر من أكل أطيب الطعام من اللحوم والثرائد والعصائد والسخينة بسبب وفرة أموالهم في حين كانت غالبية العرب تنضور جوعاً.

ولكن كتلة قريش ظلت سليمة، ومحور هذه الكتلة كان بني هاشم وبني عبد المطلب وأحلافهم، وهؤلاء هم الذين حافظوا لقريش على أحسن خصائصها الخلقية والمعنوية، وعندما ضاقت بقية العرب باستغلال قريش وأمرادها شئون المال وتجمعت بقية قائل قيس عيلان لتكسر بالقوة احتكار المكيب، وقامت حروب الفجار، كان الذين تصدوا للقيادة هم الذين تمسكوا بالولاء والفة والأعنة وما إليها من مسؤوليات الحرب، وهم سو عبد شمس وأحلافهم، وكان هؤلاء كذلك هم المسيطرون على شئون التجارة والمال، وابلو

في هذه الحروب بلاءً عظيماً فظهر أمر الأعياص وهم أبناء أبي أحيحة العاص بن أمية، والعنابس وهم أبناء حرب بن أمية، وها انتقلت القوة فعلاً إلى بني عبد شمس وأحلافهم، بل أصبح لفظ الأعياص يطلق على أهل الملك والقوة بصفة عامة، وابن خلدون يستخدم دائماً مصطلح «أعياص الملك» وأما العنابس - أي الأسود - فهم حرب بن أمية وأولاده وأهمهم أبو صفيان صخر بن حرب بن أمية، وقد أصبح هؤلاء جميعاً سادة أغنياء وأقوياء إلى درجة كبيرة، وزاد استبدادهم بالفقراء والضعفاء وصغار الأعراب، وكثرت مخالفاتهم للأصول الأخلاقية التي وضعها الذين أسسوا مجد قريش وأسرفوا في الربا وغالطوا الناس في الحساب وظلموهم ظلماً بئياً، وعندما جاء الإسلام ليقضي على ذلك كله وقفوا من الإسلام صفواً واحداً كأنهم البنيان المرصوص. وقد أنكر الإسلام ذلك كله إنكاراً بالغا، فدعا إلى إطعام المسكين ورعاية اليتيم وإكرام ابن السبيل (وهو الغريب المار أو الوافد) وقال بالمساواة بين الناس، فالغني والفقير متساويان، وكذلك القرشي وغير القرشي والعربي والعجمي (أي غير العربي)، وأنكر الوثنية وتقديس الأوثان والنصب وكل ما كانت تلك الطائفة قد جعلته اختصاصاً لها وامتيازاً وسبيلاً لجمع المال، ولهذا كانت مقاومة كتلة قريش للإسلام عنيفة وبغضهم له عظيماً لأنه دعا إلى هدم كل تلك النظم والقيم التي كانت كلها تدور حول الأغنياء والأقوياء وتخدم مصالحهم وتؤيد الوثنية لأنها مورد مال وكسب.

وعندما جاء الإسلام وجد نواة بناء قريش سليمة قوية، فلا زال في القرشيين من يؤمن بالمبادئ الأخلاقية ويتمسك بالبنيان المحكم السليم الذي وضعه قصي وعبد مناف وهاشم وعبد المطلب وخلفاؤهم، ولهذا نجد أن الله سبحانه وتعالى يأمر نبيه كخطوة أساسية من خطوات نشر الدعوة بأن ينذر عشيرته الأقربين، وهنا لا بد أن نذكر الآية وما قبلها وبعدها مباشرة حتى يتضح لنا معناها ومغراها، إذ إن تفتيح الآيات لا يعين قط على فهمها الفهم الكامل الصحيح: ﴿فلا تدع مع الله الهاً آخر فتكون من المعذبين، وأنذر

عشيرتك الأقربين، واحفظ حياض لمن اتبعك من المؤمنين، فإن عصوك فقل
 إني بريء مما تعلمون» (الشعراء ٢٦/ ٢١٣ - ٢١٦) فهذا نجد الدعوة موجهة
 إلى رسول الله بالاعتماد أولاً على عشيرته الأقربين، لا لأهم أقرانه بل لأهم
 هم الدين ظلوا متسكين بالقواعد الأخلاقية الأولى التي وضعها قصي وعند
 مناف وهاشم وعند المطلب ومن أيدهم، لأن هؤلاء يكسون هذا الوصف
 أقرب إلى فهم الإسلام والدخول فيه. والآيات تأمره في نفس الوقت بأن
 يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين فقد كان هؤلاء قلة، ولكنهم كانوا قلة قوية
 بإيمانها رغم أن الكثيرين من أفرادها كانوا فقراء لا حول لهم في حياتهم.

وقبل أن ننقل إلى دراسة موقف قريش من الإسلام لا بد أن نقول شيئاً
 عن الدور العظيم الذي قامت به أسواق الحجاز في توكيد مركز قريش،
 ويستتبع ذلك الكلام على دور قريش في تطوير اللغة العربية. وقد سبق أن قلنا
 بعض هذا الكلام فيما تقدم من فصول هذا الكتاب، ولكن لا بد من ذكره الآن
 معدلاً بحسب ما يقتضيه تطور الأفكار في هذا البحث.



كانت أسواق العرب كما ذكرنا آنفاً نظاماً محكمًا تكامل مع الزمن، وهمل
 على ترتيبه التجار والقبائل معاً، فكل قبيلة أو مجموعة من القبائل المتجاورة أو
 المتحالفة نظمت لنفسها سوقاً سنوية في منازلها، ولما كان التجار من أقدم
 العصور إلى يومنا هذا أكثر الطوائف تفاهماً فيما بينهم لضمان مصالحهم - دون
 أن يمنع ذلك روح المنافسة الطبيعية بينهم - فلأنهم اجتهدوا في إقناع القبائل
 بحمل موعد السوق مناصباً لهم، لأنهم حريصون على أن يحضروا أكبر عدد
 ممكن منها، إما بصفته الشخصية أو عن طريق زملائهم في شتى السواحي،
 وإذا كانت قريش في مجموعها هي أعظم تجار مكة أو أعظم الهيئات المشتغلة
 بالتجارة، فقد عرفت كيف تجعل آخر أسواق العام في مسقطها حتى تربط بين
 التجارة والحج (في ذي الحجة - ومن هنا جاء اسمه، والاسم سابق على

الإسلام)، فقد حرصت على أن تكون أسواقها الثلاثة عكاظ ودو المحازز ومجة أعظم هذه الأسواق وأحملها بالضائع والناس، وقد اتجهت العناية بصورة خاصة إلى سوق عكاظ بسبب قربها من مكة، فجعلتها قريش أكبر أسواق الجزيرة وأكثر الأسواق احتداداً للناس، فلما وقعت في ذلك أصبحت عكاظ كذلك ملتقى العرب، ولم تعد مجرد سوق تجار، بل أصبحت مساسة للتنسليه واللهو والتفريج عى النفس، وهذا هو الذي اجتذب الشعراء إليها، وهذا يفسر لنا كيف أصبحت عكاظ سوقاً سنوية للأدب والشعر وقد نتجت عن ذلك نتيجة لم تقصد إليها قريش قطعاً، ولكنها كانت نتيجة طبيعية لظروف أسواق قريش ومكانة مكة الدينية والتجارية ثم لمهارة القرشيين في الحصول لأنفسهم ولمدنيتهم مكة على أعظم المكاسب والمغانم من كل شيء.

وقد تبسر ذلك لقريش لأب عندما استقرت في مكة وسيطرت عليها لم تفقد طبيعتها القبلية قط، فقد ظلت في حياتها وتنظيمها واتجاهات أفرادها قبيلة واحدة محفوظة الأساب تحكمها قواعد الحياة القبلية وعاداتها وتقاليدها وأخلاقها، وقد كان فريق من قريش وهم قريش البطاح أو الأبطحيون - يسكنون المدينة وينزلون الدور في أحياء خصصت لهم عرفت بالرباع وعرفت امتداداتها خارج البلد بالشعاب، وظل فريق آخر من القرشيين يعيش في الخيام خارج البلد أو في ظاهرها وهؤلاء هم قريش الظواهر، وظلت قريش تستوعب في كيانها من تريد استلحاقه من قبائل العرب الصغيرة التي رأت أن مصلحتها تقضي باستلحاقها، فإما تصاهرت معها وأدخلتها في كيانها أو اكتفت بالحلف معها، وكان معظم المستلحقين من فضاة وكنانة، وكانت العادة أن تشرط القبيلة المستلحقة نفسها بسبب قريش عن طريق فهر، وهذا يفسر لنا لماذا سجد وصع بطون مثل محارب بن فهر ولؤي بن غالب بن فهر غير واصحة العلاقة بقريش وهذه القبائل المستلحقة بحدها مفردة بدون تسلسل سبي لأن قريشاً مثلها في ذلك مثل غيرها من القبائل القوية كانت تمتص القبيلة المستلحقة فلا

يُقى منها إلا اسمها، ويقول النسابة في هذا إن محارماً مثلاً انقضت ولا عقب لها أو أن بني عامر دخلوا في لؤي، وهكذا كانت قريش تزداد قوة عن طريق قريش الظواهر، ومن قاتل قريش الظواهر كانت قريش تعوض ما يصيب أعدادها من نقص، وأما القبائل المتحالفة التي أصبحت تبعاً لقريش ومثلها معظم خزاعة والكثير من بطون قصاعة وخاصة أسلم.

عن طريق هذا الباب المفتوح على القبيلة حافظت قريش - رغم استقرار معظم بيوتها - على خصائصها القبلية، فكان أولاد القرشيين يدرّبون على القتال وركوب الخيل، وكانوا يرسلون إلى البادية وهم صفار ليشبوا أقرباء أصحابهم على طبيعة البدو وعن طريق هذا الباب المفتوح أيضاً ظلت أعين القرشيين مفتوحة على من حولها من القبائل، فكان القرشيون يعرفون كل كبيرة وصغيرة عما يجري في خيام هذه القبائل، وكان شيوخ القبائل معروفين للقرشيين يستقبلهم القرشيون ويصاهرونهم، ومنهم من كان له بيت في مكة إلى جانب خيامه في الصحراء، مثل بُذيل بن ورقاء شيخ بني كعب من خزاعة فقد كان له بيت كبير في مكة، وقد عُرف هؤلاء الرؤساء المقربون بلفظ الندماء أي الأصدقاء المقربين، فيقال إن فلاناً كان نديماً لهاشم أو لعبد المطلب، وقد عقد محمد بن حبيب النسابة فصلاً خاصاً في كتابه المحبر عن الندماء، ونظرة على أسماء الندماء وقبائلهم تؤكد للقارئ ما نقول.

وهكذا ظل أولئك القرشيون قبلين مديين في نفس الوقت، وبينما كان رؤساء قريش يحسبون الأموال والأرباح والربوات ويسجلون ذلك في سجلات حفظوها، وأنفق الكثيرون منهم القراءة والكتابة والحساب لهذا الغرض نحدهم لم يفقدوا قط خصائص البدو ولا هم قطعوا علاقاتهم بهم ولا أهملوا أحلافهم مع القبائل، فكان رجال الأعمال هؤلاء بدواً محاربين في نفس الوقت وعندما ندقق في أحوال السيرة النبوية وهي المناسبة الكبرى التي أتاح لنا أكبر قدر من المعلومات عن قريش مكة، والعرب عامة نجد أن كبار الس من

القرشيين من أمثال الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة وأبي أحيحة بن العاص كانوا يسكنون بزمام القبيلة ويكتفون بالإشراف من بيوتهم أو مواضع راحتهم في بيوتهم التي اشتروها في الطائف تاركين الحيل التي لهم يصرف الأعمال، وعندما ظهر رسول الله ودعا بدعوته كان أنداده في السن من أبناء زعماء القرشيين هم الذين تصدوا له أول الأمر من أمثال أبي جهل وأبي سفيان وعقبة ابن أبي معيط وأمية بن خلف والأسود بن عبد يغوث والحارث بن قيس بن عدي والنضر بن الحارث بن كلفة ومن إليهم، أما كبار القوم فلم يتدخلوا إلا فيما بعد عندما بلغ الصدام بين محمد ﷺ وأولئك المعاندين من نظرائه في السن أو أبناء جيله مبلغاً أصبح يهدد بالفتنة. هنا يتدخل الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة وأبو أحيحة العاص بن سعيد بن العاص والعاص بن هاشم وعبد الله ابن جدعان ومن في طبقتهم من سادات قريش الذين كانوا إذ ذاك في مصطفاهم في الطائف فأسرعوا ليتداركوا الموقف، وقد تصرفوا بذلك.

وأكثر ما يستوقف النظر في قريش هي روح الجماعة *Esprit de corps* التي كانت تتصرف بها، فهم كتلة واحدة أمام أي عدو وأمام أي خطر، وقد أشرت فيما سبق إلى أن أكثر ما أخاف قريش من دعوة رسول الله هو أنها فرقت جماعتهم ويُنجل لها إحساس كبار القرشيين بوحدة قريش وحرصهم على صالحها في خبر عتبة بن ربيعة عندما ذهب يفاوض رسول الله ليفهم منه ما يريد، وكان بصفته تاجراً قد ذهب يساوم محمداً ظناً منه أنه مستعد للمساومة، فلما سمع القرآن وجده كلاماً جديداً جداً عليه، وأحس بأنه كلام له عمق ومعنى وأثر في النفوس، فلما سألوه ما وراءه قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وحلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، هو الله ليكون لقوله الذي سمعت منه ما أعطيتم، فإن نصبه العرب فقد كُفيتموه بعيركم، وإن ظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم، وكُتِم

أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه... هذه عبارة إن صدقت فليها تدل على حرص قريش على وحدتها وتماسكها لخدمة مصالحها، فهذا الرجل لا يصح القرشيين بقول دعوة محمد ﷺ، ولكنه يقول لهم إنه يتوقع لهذه الدعوة النجاح، ويقول إنه من صالح قريش أن تحلي بين محمد وما يدعو إليه، فإذا غلبته العرب لم يصب قريشاً ضرر. وإذا انتصر محمد سارعت قريش إلى المشاركة في الثمرات بل جنتها كلها، وهذه العبارة تبدو لي وكأنها تصوير لما فعلته قريش مع الإسلام في الواقع، فقد خلت بين محمد والعرب، فلما انتصر عرف رجالها كيف يفوزون بمعظم ثمرات النصر.

الوليد بن المغيرة هنا يمثل العقلية القرشية أصدق تمثيل، فهي عقلية واقعية فهذا الرجل أعجب بالقرآن دون أن يفكر في الدخول في الإسلام، لأن الإسلام بدا له مغامرة وهو لا يشك في أن القرآن الذي سمعه من محمد سيكون له أثر بعيد، ولكنه - أي الوليد بن المغيرة - غير واثق من أن الدعوة ستنجح، ولهذا فقد آثر الوقوف بعيداً ونصح قومه بعدم التعرض لمحمد فلعل دعوته تنجح وتجلب على قريش خيراً كثيراً.

ذلك أن قريشاً كانت عند أولئك القرشيين أهم من أي شيء آخر، فقد عاشوا في مكة ولكنهم ظلوا قرشيين قبلين في تفكيرهم وأسلوبهم في العمل وإذا كنا لا نستطيع القول بأن قريشاً بعد سيطرتها على مكة لم تعد قبيلة بدوية خالصة مثل غطفان وهوازن، فكذلك مكة في أيدي القرشيين لم تكن مدينة بمعنى الكلمة، فقد كان القرشيون يعرفون المدن وما تتميز به من منشآت وعمائر وقصور، فقد كانوا يروون مدن العالم القريبة منهم من طيئمون - وهي المدائن - إلى الإسكندرية، ولكنهم لم ينشئوا في بلادهم منى فحماً ولا اتحد واحد منهم قصرأ، وإنما ظل شيخاً بدوياً يعيش في مدينة، وقد كانت هذه هي الصفة التي غلبت القرشيين حتى بعد الإسلام، فقد أصبح معاوية مثلاً خليفة

ولكنه لم ينشئ قصرأ عظيماً ولا اقتنى ريشاً رفيعاً أو اتخذ مطبخاً ملوكياً، بل ظل يعيش بدوياً، لا يريد طعامه على طعام قريش في الجاهلية: الثرائد والعصائد.

بهذا المزاج من القبلية والمدنية نحج القرشيون، فهم من فئائل الحريرة شيوخ بدو يعيشون عيشة شيوخ بدو يتخلفون بأخلاقهم ويتعاملون بقواعد التعامل السائدة في الجزيرة، فإذا دخلوا بلاد الروم أو الفرس عرفوا كيف يجالسون الرؤساء والكبراء من القادة والإداريين والحكام ويكسبون احترامهم، وفيما يتعلق بفارس كان العرب يعرفون كسرى وله من بين رؤسائهم أصدقاء - وبدويتهم تلك هي التي حمتهم من الخضوع لفارس أو لدولة الروم وقد حكينا ما حدث لعثمان بن الحويرث عندما أراد أن يسود قريشاً باسم القيصر، أما إباء العرب للخضوع للفرس فيصوره يوم ذي قار، ولم يكن لقريش نصيب في يوم ذي قار ولكن القرشيين بنشاطهم التجاري الواسع وبما كان في أيديهم من عهود القبائل التي تضمن لهم سلامة المرور وما حازوه من الإيلاف الذي فتح لهم أبواب بلاد الفرس والروم والحبشة قد عاونوا معاونة فعالة في تقريب أفكار العرب بعضهم من بعض وتقريب لهجات العرب والوصول في النهاية إلى اللسان العربي المين... الذي يفهمه العرب كافة، وبه نزل القرآن.

ذلك أن أسواق قريش كانت أعظم أسواق العرب، وعكاظ كانت ذروة لقاءاتهم وإلى جانب البضائع والتجارات كان يخف إليها الشعراء ليلقوا قصائدهم وبطبيعة الحال كانت هذه عملية طويلة وإن كنا نحن لا نعرف إلا نهايتها فقبيل الإسلام كان أعظم شعراء العرب يخفون إلى عكاظ بقصائدهم يشدونها أمام حكام أو نقاد ليرنوها وليختاروا أحسنها، وهذا يقتضي أن أولئك الشعراء كانوا يقولون قصائدهم بلغة عربية واحدة حتى يمكن الموارسة بينها، وهذه هي الصورة الأخيرة التي أشرنا إليها، ولكن لا بد أنه قد سبقت هذه الصورة تمهيدات طويلة، ذلك أن لحمة قريش، وهي سيدة السوق وسادنة الكعبة كان لا بد أن تكون هي اللغة المشتركة بين الوافدين على السوق، وإذا

أمكن القول بأن لغة الأسواق سهلة لا تخرج عن عبارات البيع والشراء
 والتعامل اليومي، وتلك هي البداية أي أن قائل العرب الوافدين إلى عكاظ
 ثم على مكة كانت تتفاهم بينها بلغة مشتركة، أي ما يسمى في اليونانية
 بالكوي Koiné أو هي اللغة المشتركة التي كان اليونان يتفاهمون بها أول الأمر
 إذا تلاقوا عند نصب دلف أو في ميادين الألعاب في سهل أوليمبيا، وهذه اللغة
 المشتركة التي يفهمها اليونان جميعاً سواء في ذلك الأثينيون والإسبرطيون
 والميجاريون كانت لغة أثينا، وشيثاً فشيثاً أصبحت لغة أثينا هي اللغة اليونانية.
 مثل ذلك حدث بالنسبة لللهجة قريش، فقد فرضت قريش لهجتها العربية على
 السوق وزواره، ثم تطورت هذه الكوي التجارية السوقية حتى أصبحت لغة
 تعبير أدبي كان لا بد أن ينشئ الشعراء فيها شعرهم لكي يفهمه النقاد والناس
 وينقدوه، وتنتشر هذه القصائد بين العرب ويحملها العائدون من الأسواق إلى
 منازل قبائلهم، وعاماً بعد عام تعود الناس في نواحي الجزيرة كلها سماع هذه
 اللغة وفهمها، وأصبحت لغة الشعر بعد لغة الأسواق - لغة المثقفين وأهل
 الشعر، وشيثاً فشيثاً نشأت بين العرب لغة عربية مشتركة واحدة مفهومة بنى
 مبنية لهم جميعاً، وذلك هو اللسان العربي المبين الذي نزل به القرآن ووصل به
 إلى ذروته بلاغة وسهولة وضبطاً. وذلك فضل كبير لقريش، وهو كان أول
 سبب من أسباب قوتها حتى أصبح من أكبر عناصر قوة العرب. فقد قريت
 اللغة المشتركة بين أفهامهم وأذواقهم، وإذا كانت تميم مثلاً تتحدث لهجتها في
 منازلها فإن شعراء تميم ما كانوا لينظموا إلا في لهجة قريش، والشيميون
 أنفسهم ما كانوا يتفاهمون مع غيرهم من قبائل العرب إلا بلغة قريش، تلك
 الفصحى المستنة. ويكفى أن نلفت النظر هنا إلى مرثي الخنساء بنت عمرو بن
 الشريد في أخويها، فقد كانت المرثي تلقى بلغة قريش في عكاظ، ومن هنا
 تنتقل إلى نواحي الحيرة العربية حيث يتناشدها الناس ويفهمها منهم من
 يستطيع هذا الفهم ويحاوله من لا يستطيعه وفي النهاية أصبح العرب جميعاً
 يفهمون لهجة واحدة من العربية وإن تكلموا بلهجات شتى، ثم جاء القرآن

الكريم ونزل بلعه فريش فأصحت لغة العرب جميعاً

وكان لفريش كذلك فصل عظيم في إنشاء الكتابة العربية لقد كان القرشيون بطبيعة معاملاتهم المالية والتجارية من أحوج الناس إلى الكتابة وأصل الكتابة العربية نبطي ، أي أن قريشاً - أو غيرها من القبائل العربية التي احتاجت إلى كتابة شيء - كتبت ما تريد كتابته بحروف نبطية وبالفعل لدينا نقش كتابة يعرف بنقش وادي المكنب في سيناء وتاريخه سنة ٢١٠ ميلادية ، وفي هذا النص نقرأ الفاظاً عربية صريحة والنص كله مكتوب بحروف نبطية قريبة بعض الشيء من حروف اللغة العربية ، وبعد ذلك اكتشف الباحثون نصاً آخر في وادي تيران في بركة سيناء أيضاً ، ثم اكتشف نقش النمازة في إقليم حوران ، وتاريخه سنة ٣٢٨ ميلادية ومعظمه ألفاظ عربية مكتوبة بحروف نبطية معدلة وقريبة من حروف لغتنا العربية ثم نجد بعد ذلك نقشاً عظيم الأهمية في قرية زبد قرب قنسرين إلى جنوبي حلب ، وتاريخه سنة ٥١١ ميلادية وحروفه عربية وقريبة من الخط الكوفي بالفعل ، ثم يجيء النقش المعروف بنقش القاهرة لأنه محفوظ في متحف الفن الإسلامي فيها وتاريخه سنة ٦٥٥ ميلادية وهو أول نص عربي متميز بشخصيته وجدناه ، وأخيراً نهيء نقوش جبل سلع في المدينة وهي مكتوبة بحروف عربية كوفية واضحة قد كشفها محمد حميد الله ، وهكذا نرى أن الكتابة العربية التي نعت في الأصل من النبطية تطورت شيئاً فشيئاً حتى وقفت على يداية الكتابة العربية في الحجاز .

ولا شك في أن الجاحظ أخطأ حين قال إن الدين كانوا يعرفون الكتابة من العرب قبل الإسلام لم يرد عددهم على عشرة أو عشرين ، وكذلك لم يوفق ابن عبد ربه عندما قال في «العقد» إن العرب كانوا في الحامية يستعملون الحصى في العد ، لأنهم كانوا أميين لا يقرأون ولا يكتبون فكانوا يحسبون الأعداد

بالخصا أي قطع الحجر الصغيرة، فهذا كلام يقال في محال تفسير لفظ «الأمين»
الوارد في القرآن بمعنى من لا يكتبون ولا يقرأون فحسب، واللفظ يحمل هذا
المعنى، ولكن له معاني أخرى. والعرب الذين كانوا يقومون بعمليات تجارية
تقدر بالآلاف الدنانير لا يمكن أن يكون قصارى معرفتهم بالحساب هو استعمال
الحصا كما يعدد البعض الأرقام على أصابعه، والحقيقة أنه كان في العرب
كثيرون يقرأون ويكتبون ويحسبون. والحق أن معاني كلمة «أمي وأميون» في
حاجة إلى مزيد من البحث، وإلا فكيف نفسر قول الله تعالى في سورة البقرة
﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَخْتَصِمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخُنُونَ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ
يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا،
فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ، وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (البقرة ٢/ ٧٨ - ٧٩)، فمن
الواضح هنا أن تفسير الأميين بأنهم هم الذين لا يقرأون ولا يكتبون لا يعين
كثيراً على تفسير هاتين الآيتين تفسيراً تظمن إلى النفس، ولا يكون المراد بلفظ
«أمي» من لا يقرأ ولا يكتب فحسب إلا فيها يتصل برسول الله ﷺ.

فإذا كانت بين العرب قبيل الإسلام جماعة تحتاج فعلاً إلى القراءة
والكتابة فهي فريش بسبب اتساع أعمالها التجارية وعلاقاتها ونشاطها المتعدد
النواحي الذي ذكرناه، وحتى فيما يتعلق بالناحية الأدبية، فإن لفظ المعلقات
مهما كان تفسيره ومعناه، فهو يدل على أنه كانت هناك قصائد تكتب وتعلق ولن
ندخل هنا في الإجابة على أسئلة مثل: تكتب على ماذا؟ وتعلق أين؟ لأن
المهم عندنا الآن أن هناك شعراً كان يكتب ويعلق، وما دام يكتب ويعلق فلا
سوء أنه كان هناك من يكتبه ومن يقرأه، ولا بد أن القراء كانوا كثيرين وإلا
فلمماذا تعلق؟ وكيف يقول الملاحظ مع هذا إن عدد من يقرأ ويكتب من العرب
قبل الإسلام لا يريد على عشرة أو عشرين، وكيف يستقيم هذا وأول آيات
أوحيت لرسول الله ﷺ لتكون فتحاً لسان الدعوة للدين الجديد واستلغافاً
لأسماع الناس تقول: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ،

اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم﴾ . . .

كانت قريش إذن قبيلة فريدة في بأسها ببر القبائل التي تعرفها في التاريخ ، فهي جماعة قلبية مدنية في ان معاً ، وهي جماعة سياسية متماسكة بشيطة متفتحة الذهن واعية لنفسها مدركة لما تريد وما لا تريد ، وهي - اجتماعياً وسياسياً - مكونة تكويناً قوياً متيناً ، ورجالها يعرف بعضهم بعضاً بقدرته ومكانته وخصاله وهي منظمة تنظيمياً اجتماعياً وسياسياً واضح السمات والخطوط ، وهي قبيلة غنية تولى أمرها قبيل الإسلام رجال أعمال ذوو إدراك وفهم وإحساس واضح بمصالحهم وتمسك شديد بها ، وهي واسعة الاتصال بالدنيا من حولها ، سواء في جزيرة العرب أم خارجها ، ورؤساؤها يعرفون كيف يسوسون أمورهم ، وأفرادها محترمون لهم أقدار محفوظة ، يشترك في هذا صفيهم وكبيرهم وهم ماديون أنانيون يغلب عليهم حب المال ، وهم في معاملاتهم المالية لا يعرفون رحمة ولا إنسانية ، وهذا هو جانب الضعف الأكبر الذي جعل المجتمع المكي يتدهور تدهوراً خطيراً قبيل انبلاج نور الإسلام وهو أيضاً جانب من حوائب القوة والتمسك ، ولا يعرف التاريخ قبيلة ذات ثروة ومال ومعاملات وحسابات إلا قريش .

قُرَيْشٌ وَدَوْرُهَا فِي النُّهْوضِ :

هذا ما كان من أمر اسواق الحجاز ودورها في تطوير اللغة العربية ، فما الذي حدث لقريش عندما جاء الإسلام ؟

الذي حدث أن عوامل قوة قريش نفعت القرشيين كأفراد ولكنها لم تنعمهم كقبيلة لقد نجح القرشيون كأفراد في قيادة الجماعة الوثنية ، ولكن الصدام ببر قريش والإسلام حطم عناد قريش ولكنه لم يحطم قوتها القلبية ولا اعتزاز أهلها بأنفسهم ومن أكبر أسباب تحطيمها صلابة ومتانة تكوينها ، فلكي ينتصر الاسلام كان لا بد من تحطيم عصبية قريش مع الابقاء على شخصية

القبيلة أو عزة أفرادها. وليس من الصحيح أن محمداً ﷺ قصد إلى تحطيم قريش بل العكس هو الصحيح، فقد احتشد في الحفاظ عليها، وقد كان يتمنى لو دخلت الاسلام كتلة واحدة، ولكن القبيلة كانت صلبة التكوين جداً، وفي تصادمها مع الاسلام تحطمت واشترت ميوتاً وأفراداً.

وقبل أن نحتم الكلام على الفترة الأولى من الفترة المكية وندخل في الكلام على الثانية لا بد من وقفة عند دار الأرقم التي انتهت بها تلك الفترة الأولى لنرى أثرها في تطور الجماعة الاسلامية وعلاقتها بكفار قريش.

فَتْرَةُ دَارِ الْأَرْقَمِ :

ندر من بين مؤرخينا الأوائل من تنبه إلى أهمية الفترة التي قضاها رسول الله ﷺ في دار الأرقم مع عظيم أهميتها في تكوين الجماعة الاسلامية الأولى في مكة. وهذه النواة ظلت على طول القرن الهجري الأول عماد الدعوة وقيادتها الدينية. والسبب هو أن أصحاب السير يكتبون السيرة على أساس ما كان من نصر الاسلام الحاسم عندما انتقلت الجماعة الاسلامية إلى المدينة واتخذتها قاعدة لامة الاسلام ومجتمعها ونظامها ونشاطها وجهادها، وتندفع صاعدة في معارج القوة والنصر، ولهذا تصغر في نظرهم تفاصيل جهاد الرسول الأولى وما أبدى من ذكاء وحسن تصرف حتى ينشئ النواة الأولى من المؤمنين.

وأسباب تفكير رسول الله ﷺ في دخول دار الأرقم ترجع إلى أن الدعوة الاسلامية لقيت لأول علم الناس بها نجاحاً عظيماً إذا عرفنا أن الداعين إلى الاسلام لم يزدوا على أفراد قلائل من المؤمنين أكبرهم أبو بكر الصديق الذي وهبه الله إيماناً عميقاً شاملاً برسول الله ورسالته، وكان الرجل إذ ذاك في الأربعين من عمره أو دونهما، وكان نشيطاً ذكياً واسع العلاقات قريش محسوباً من جماعتها، وكان - مثله في ذلك مثل رسول الله ﷺ - تاجراً أميناً مأموناً يحبه

الناس ويشقون في سلامة نفسه وسريته . هذا الى أن رسول الله ﷺ كان موضع محبة وثقة واحترام من أهل مكة كلها ، وعلى أساس من هذه الثقة فيه وأسلوبه الرقيق في الدعوة دخل في الدعوة رحال من جلة القوم من أمثال أبي سلمة بن عبد الأسد (محزوم) وأبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الحراح (الحارث بن فهر) وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ، وسعيد بن عمرو بن زيد بن نعل (عدي بن كعب بن لؤي) ومن في طبقتهم .

وخلال السنة الأولى للبعثة اجتمع حول رسول الله ﷺ من المؤمنين ما لا يقل عن خمسين أو ستين رجلاً وامرأة من أهل مكة ، وكانوا يلقون رسول الله عند المسجد أو في بيته أو خارج مكة ، ولدينا أخبار تدل على أن رسول الله كان يلقى بعض أصحابه أحياناً عند غار حراء ، فقد كان يلزم به أحياناً أثناء تجواله خارج مكة حيث يشعر أنه بعيد عن أعين الكافرين لدعوته . وهنا يتفرد أبو الفتح محمد بن سيد الناس في «عيون الأثر» بتفصيل عظيم القيمة فيما يتعلق بسلام عبدالله بن مسعود المعروف بابن أم عبد . وخبر اسلام هذا الرجل - وكان شاباً راعي غنم لأم عبد عندما دخل الاسلام - وارد عند قدماء رواتنا ، ولكن ابن سيد الناس يقول - راوينا عن عبد الله بن مسعود - «فبينما نحن عنده على حراء إذ نزلت عليه سورة الرسائل . فأخذتها وانها لرطبة بفيه ، أو إن فاه لزطب بها ، فلا أدري بأي الأيتين ختم» «وإذا قبل لهم اركعوا لا يركعون» أو «فبأي حديث بعده يؤمنون» (الآيات ٤٨ و ٥٠ من سورة الرسائل وهي السابعة والسبعون) . . ثم يقول ابن مسعود : فبينما نحن نيام على حراء أو على الجبل ، فما نبهنا الا صوت النبي ﷺ (يقول) ' منعها منكم الذي منعكم منها ! قلت يا رسول الله وما ذلك؟ قال : حية خرجت من ناحية الجبل^(١) وهذه صورة أخذة تعطينا مثلاً من حياة الجماعة الاسلامية الأولى خلال فترة ميلاد الأمة الاسلامية قبل دخول دار الأرقم

وشاب مثل عبدالله بن مسعود دخل الدعوة وهو خارج مكة ، وكان يرعى

الغنم لسيدة مكية . ولو كان بداخلها لما استمتع بتلك الحرية التي نراه عليها بعد أن آمن ، ومثله في ذلك مثل الكثيرين من الضعفاء الذين دخلوا الدعوة حفية عن سادتهم أو أقاربهم من كبار المكين . ومع أن هؤلاء المكين لم يكونوا قد اتحدوا بعد موقف العداء من الدعوة إلا أنهم - بداهة - لم يكونوا ليرصون أن يدخل اتاعهم أو أولادهم في تلك الدعوة الناشئة .

ومحمد ﷺ كان رجلاً مفكراً واسع الذكاء، ولم يكن يرضيه أن تسير الدعوة على هذا النحو، فهو يريد لأصحابه أن يكونوا أحراراً من الخوف أو الحرج سواء في دخولهم الاسلام أم اجتماعهم برسولهم، خاصة وأن المكين كانوا يتجمعون معظم الوقت في فناء الكعبة يتسامرون ويتحدثون ويضاهقهم أن يروا محمداً ﷺ جالساً ناحية ومن حوله أصحابه، وهو يقرأ عليهم القرآن ويملأ آياته عليهم ويشرحها لهم، وكانت الصلاة اذ ذاك صلاتين: صلاة الفجر (دلوك الشمس) وغروبها (غسق الليل)، فإذا جاء وقت صلاة المغرب اصططف المؤمنون حول رسول الله، فصل وكان هذا اثقل شيء على نفوس المكين . فكانوا احياناً يتفوهون بما لا يليق، وحياناً يحاول بعض سفهائهم تقليد الرسول في كلامه تقليداً مشوهاً . وقد بينا في الفقرة السابقة أن تصدي القرشيين للمسلمين بالأذى وانتكارهم على رسول الله ما كان يقول لم يبدأ الا عندما ذكر آباءهم وسفه أحلامهم، بل المعارضة بدأت قبل ذلك . فان الجماعة المكية كانت بدناً اجتماعياً وفتياً جاهلياً متماسكاً، وهذه الجماعة الجديدة التي التفت حول رسول الله كانت جسداً غريباً يريد أن يعيش داخل البدن القرشي المكي، فكان لا بد أن يواجه ظاهرة الطرد الاجتماعي Social rejection وهي عملية متبادلة، ان الجسد الكبير يتحرك من تلقاء نفسه للتخلص من الجسم العريب، وفي نفس

(١) عيون الأثر لابن سيد الناس، طعة القدسي بالقاهرة مقولة كما هي بالتصوير ومسوبة الى ما يسمى مدار الحبل في بيروت الطعة الثانية ١٩٧٤ ح ١ ص ٩٨ .

الوقت يحاول الجسم الدحيل أن يتخلص من الجسد الكبير، ونحن إذا زررنا كلية حارجية بدل كلية تالفة في جسم، فإن الجسم يبدأ في الحال في طرد الكلية الجديدة - وفيها محتاته - وفي نفس الوقت تبدأ الكلية المروعة في طرد الجسم الكبير نفسه. وهذا يفسر لنا بعض أسباب نفور المكين من الجماعة الإسلامية الأولى وتفكير رسول الله ﷺ في تأمين جماعته من عوامل الطرد المتبادل هذه

وعندما اسلم الأرقم بن أبي الأرقم واسمه عبد مناف بن أسد بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم بدأت فكرة اختيار مكان مفضل آمن يكون مركزاً للدعوة وأماناً للداحلين فيها. فيها يجتمعون وينبهم ويقراون القرآن دون حرج. ولم يكن الأرقم ابن أبي الأرقم موسراً، ولكنه كان يعيش مع أبيه الأرقم في بيت كبير على الطريق بين الصفا والمروة، ولم يكن في البيت إلا الأرقم وأبوه، وأبوه هذا شيخ ضرير، والأرقم الابن متحمس للدعوة يريد أن يقدم لها شيئاً، ولا ندرى كيف تم الاتفاق بينه وبين رسول الله على أن تكون داره الموضع المختار للجماعة.

وعلى أي حال فقد دخل رسول الله دار الأرقم في أواخر السنة الثانية للبعثة، وهناك وجد الرسول وصحابته حريتهم التي يتوقون إليها. ومن الواضح - عن تفاصيل اسلام عمر بن الخطاب أن رسول الله كان يقضي هناك معظم ساعات النهار، فقد تكاثر المقبلون على الدعوة بعد أن وجدت سائمتها، وأصبحت الجماعة تستريح إلى التجمع في تلك الدار حيث يلقون رسولهم ويسمعون منه القرآن أو يكتبون آياته ويستمعون إلى تفسير الرسول لها في جلسات حرة آمنة في دار واسعة شبه خالية من السكان.

هنا دخلت الاسلام جماعات بعد جماعات. وتحدثنا النصوص عن أسلموا بعد دخول الرسول دار الأرقم ودعائه ساء بحسب تعبير ابن سعد الذي يتردد في سير الكثيرين من أوائل المسلمين. وهنا في هذه الدار أتى أبو بكر الرسول نفر من أعظم أفراد الجماعة فيهم سعد بن أبي وقاص وعثمان بن مطعم وحياب بن الأرت بن حندلة وأصله من بلاد ما وراء النهر وهو ذاك مولى لني زيد مائة من

تيمم الخزاعيين . وعمر بن أبي وقاص أخو سعد وعياش بن أبي ربيعة (محزوم)
والزبير ابن العوام بن حويلد (عند العزى بن قصي) وعبد الرحمن بن عوف
(زهرة بن كلاب) وغيرهم من قدماء المسلمين أعمدة الاسلام الأولى

في هذه الدار نمت الجماعة الاسلامية الأولى نمواً عظيماً، وقارب عددها
الثلاثمائة، ومع نمو حجمها ازداد شعور أفرادها بالقوة والعزة ورادت جراتها على
المشركين، فكان لا بد أن يتزايد رد فعل المكئين، فبدأوا في اضطهاد من قدروا
على اضطهاده من المسلمين، وساورتهم الشكوك في أمر هذه الجماعة. فبدأوا
يحمون حولها ليتعرفوا أخبارها.

وعندما نقرأ في خبر إسلام حمزة بن عبد المطلب أن أبا جهل مر برسول
الله ﷺ عند الصفا فأذاه وشمته ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه
والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله ﷺ وجارية لعبد الله بن جدعان في
مسكن لها تسمع ذلك. . . . الى آخر الخبر. ينبغي أن نفهم من ذلك أن أبا
جهل كان يترصد محمداً ﷺ على الطريق الى دار الأرقم وقلبه يغلي بالكراهة
والحقده، وحفزه حقداً على أن يمضي يتجسس أخبار الجماعة، فلما بصر بمحمد
انفجر مرجل حقده وخرج عن طوره فقال ما قال. ثم مضى أبو جهل إلى
مجلس قريش عند الكعبة وملك رسول الله ﷺ زمام نفسه فلم يرد على أبي جهل
بكلمة ومضى الى دار الأرقم في الغالب.

ويبلغ الخبر حمزة على ما نعرف فأخذته الحمية لابن أخيه، فمضى الى حيث
كان أبو جهل في مجلس قريش فضربه بالقوس على رأسه فشجّه وقال: «أنت شتمه!
فأنا على دبه أقول ما يقول فردّ ذلك أن استطعت» وتدخّل بينهما نفر من القرشيين
واعترف أبو جهل انه تعدى على رسول الله ﷺ وسه ساء قبيحاً. ومضى حمزة الى دار
الأرقم فتم اسلامه

كان هذا في نهاية العام الأول لدار الأرقم، الثالث للبعثة وشعر المسلمون بعد انضمام حمزة اليهم انهم يستطيعون الآن مغادرة دار الأرقم والتجمع عند الكعبة دون حرج، وكان صاحب الفكرة هو أبو جهل، فخرج المسلمون في شبه مظاهرة اسلامية وانتهوا الى مجلس قريش فكبروا وهلموا واخذوا يشدون القرآن، فثارت ثورة المكيب فهضوا للرد على تلك الجماعة، ووقع شجار عنيف وأحاط المسلمون برسول الله ﷺ وأخذوه الى داره، أما أبو بكر فقد احتمل الصدمة وبرك عليه نفر من المشركين وضربوه ضرباً شديداً حتى فقد الوعي، وأسرعت أم جميل فاطمة زوج سعيد بن زيد بن نفيل تدأويه حتى عاد الى نفسه، فكان أول ما سأل: كيف حال رسول الله ﷺ. فطمأنته بأنه بخير، فلم يكذب يستطيع المشي حتى مضى الى رسول الله ﷺ في داره.

وهكذا فشلت المحاولة الأولى للخروج من دار الأرقم. وعاد المسلمون الى ما كانوا عليه من الاجتماع في دار الأرقم حول رسول الله. ووجد رسول الله أن ينصح المستضعفين من أصحابه بالهجرة الى أرض الحبشة فبدأت الهجرة الى هناك، وكانت على دفعتين كبيرتين، ولكن تيار الهجرة كان مستمراً من ذلك الحين حتى هجرة الرسول الى المدينة.

واستمر الرسول وأصحابه يجتمعون في دار الأرقم بعد ذلك نحو سنتين، وكان الشيخ أبو الأرقم قد ضاق ذرها بجماعة المسلمين التي كانت تملأ داره، وكان هو مشركاً لا يطبق سماع القرآن أو أحاديث المسلمين.

وفي حديث اسلام عمر بن الخطاب في آخر السنة الخامسة للهجرة - بخلاف ما يقوله بعض الرواة من أنه اسلم في السنة الثالثة للهجرة - معلومات طيبة عن دار الأرقم وحياة المسلمين فيها، فإنه لما بلغه اسلام اخته فاطمة وهي زوجة سعيد بن زيد بن نفيل اتجه الى بيتها فوجدتها هناك تقرأ القرآن فشتها وصرها حتى حرقها وسال دمها فطمعت تكفي، فرق لاخته، وطلب منها أن

تناوله الصحيفة التي كانت تقرأ فيها مع خباب بن الارت، فطلبت إليه أن يعتسل ففعل ووعدها نالاً بمسها بسوء، فلما جلس يطالع ما فيها وهذات نفسه أحد القرآن محامع نفسه، وكانت الآيات التي قراها على بعض الأراء، أول سورة طه، وسورة الحشر على بعض الأراء الأخرى، وهما تحرك قلب عمر ومالت نفسه للإسلام وخاصة عندما قالت له أخته فاطمة إن رسول الله ﷺ كان يدعو بأن يعز الإسلام بأحد العمرين: أبي الحكم عمرو بن هشام (أبي جهل) وعمر بن الخطاب، فسأل ابن يكون محمد ليذهب إليه ويسلم، قالت هو في بيت في أسفل الصفا - تريد دار الأرقم - ووصفوه له فاتجه إليه ودق الباب، ونظر بعض المجتمعين هناك وقالوا لرسول الله إنه عمر بن الخطاب، ولم يكن رسول الله قد عرف أنه جاء ليسلم، فأمر أصحابه أن يفتحوا له، فدخل، وكان في الدار (على قول ابن اسحاق، ابن هشام ٣٦٨/١) ما بين رجال ونساء، ومع رسول الله عمه حمزة بن عبد المطلب وأبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب في رجال من المسلمين رضي الله عنهم ممن أقام مع رسول الله بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة، فقال حمزة بن عبد المطلب، فأذن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه، فقال رسول الله ﷺ اثذن له، فأذن له الرجل، وقام إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة، فأخذ بحجزته أو بمجمع رداءه، ثم جبله جبذة شديدة، وقال: ما جاء بك يا ابن الخطاب، فوالله ما أرى أن تنتهي حتى يُنزل الله بك قارعة، قال عمر: يا رسول الله، جئت لأومن بالله ورسوله، وبما جاء من عند الله فكبر رسول الله تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم وقد عزوا في أنفسهم بالإسلام عمر.

وفي رواية ابن كثير أن عمر عندما أسلم بعد حمزة كلم رسول الله في الخروج من دار الأرقم، فلم يعد الاجتماع فيها ضرورة، وقد عزت الآن وقويت، ثم إن الشيخ أبو الأرقم أساء إلى المسلمين مرة وغص بهم وطلب اليهم

أن يجرحوا من بيته ولعن الله، فخرج المسلمون جملة واحدة يتقدمهم رسول الله وأبو بكر وعمر واتجهوا الى الكعبة وأخذوا مكانهم عندها فلم يجرؤ المشركون على التعرض لهم، وقد كثروا وعزوا ولم يعودوا يحشون المشركين. وها تنتهي فترة دار الأرقم التي كانت ذات اثر حاسم في تأسيس نواة أمة الاسلام في المدينة. وبعد خروج المسلمين من دار الأرقم بدأت الفترة الثانية في الحقبة المكية التي ستستمر حتى وفاة خديجة رضي الله عنها وأبي طالب ثم الخروج الى الطائف. ويعود الرسول ﷺ الى مكة تبدأ الفترة المكية الثالثة من سنة ١٠ الى سنة ١٣ هـ.

الفترة المكيّة الثانية :

الصراع بين الاسلام وقريش حتى موت السيدة خديجة أم المؤمنين وأبي
وأبي طالب :

لدينا فيما يتصل بتطور العلاقات بين قريش والاسلام بضعة أخبار أو فقرات على أعظم جانب من الأهمية توضح لنا تطور موقف قريش، لأن مواجهة قريش للاسلام لم تأخذ من أول الامر شكلاً واحداً جامداً، بل تغير هذا الموقف وتطور تطوراً منطقياً تمشى مع اتساع نطاق الدعوة أخفياً ورأسياً. أي اتساع مداها من حيث الانتشار وامتداد عمقها من حيث تكامل جوانبها.

والخبر الأول يرويه ابن سعد في طبقاته عن الزهري يقول: «دعا رسول الله ﷺ الى الاسلام سرّاً وجهراً، فاستجاب لله تعالى من شاء من أحداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن بالله، وكفار قريش غير منكرين لما يقول، فكانوا اذا مر عليهم في مجالسهم يشيرون اليه ان غلام بني عبد المطلب ليكلم من السماء، فكان ذلك حتى غاب الله عنهم التي يعبدونها دونه، وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر، فعد ذلك عادوا رسول الله ﷺ وناكروه وأجمعوا خلافه^(١) .»

(١) الطبقات لابن سعد ١٣٣/١ السيرة ١٦/١٦

ومعنى ذلك أن القرشيين لم ينكروا دعوة رسول الله أول ما علموا بأمرها، فكانت في نظرهم شيئاً غريباً. فهذا رجل يقول إن السماء تكلمه وهو أمر غير مفهوم عندهم ولا هو يسمهم، فتركوه يدعو. ولم يحفلوا لانضمام بعضهم إليه، واستمر عدم الاكتراث هذا حتى برلت الآيات التي تنفذ أخلاقهم ومسالكتهم في الحياة وتعيب آلتهم ونمس آباءهم فأنكروا عليه وبدأوا يتحركون لمعارضته.

والخبر الثاني يرويه ابن اسحاق، وهو يقول: «فلما نادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام، وصدع به كما أمره الله لم يبعد منه قومه، ولم يردوا عليه - فيما بلغني - حتى ذكر آلتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه، وأجمعوا خلافه وعداوته إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام، وهم قليل مستخفون».

«وحذب على رسول الله ﷺ عمه أبو طالب، ومنعه وقام دونه ومضى رسول الله ﷺ على أمر الله، مظهراً لأمره لا يرد عنه شيء، فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يُعْتَبَهُمْ من شيء أنكروا عليه من فراقهم وعيب آلتهم، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حذب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم، مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب: عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، وأبوسفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر^(١)».

وهذا الخبر نستنتج منه النتائج التالية المتعلقة بموقف قريش من الإسلام:

١ - أن قريشاً لم تنفر من دعوة الإسلام طالما كانت دعوة دينية خالصة لا تمس مصالح القرشيين، فقد كان القرشيون لا يعيهم من أمر الدين عامة إلا ما تمس مصالحهم، والدين عندهم كان مصلحة وحرءاً من أعمالهم

(١) روه الطبري ح ٢/٢٢٣

الكثيرة التي تدر عليهم المال وتقوي مركزهم السياسي في جزيرة العرب، فهم لم يكن يعينهم أن يكون الإنسان على مذهبهم في الوثنية أو كان نصرانياً أو يهودياً ما دام ذلك لا يضر بمصالحهم المادية الملموسة المباشرة

٢ - ولكن محمداً ﷺ عندما ذكر الهتهم وعماها، وعندما سزلت آيات القرآن تبين فساد رأي القرشيين وسوء رأيهم وهباء دياتهم وانحطاطها وسحقها تحركوا للدفاع عن دياتهم والهتهم لأنها جزء من رأس مالهم وعماد من أعمدة قوتهم.

٣ - ويستقى من ذلك من عصم الله منهم بالإسلام، أي من دخل فيه، وهم قليلون، وجدير بالذكر هنا أننا نريد بفريش رياستهم وأصحاب الرأي فيهم وزعماء بيوتهم وهؤلاء لم يدخل منهم في الإسلام أحد، ولا يتغرب هذا على من يعرف طبيعة رؤساء القرشيين كما وصفناهم واتجاهاتهم فكرهم أو ما كان يعينهم وما كان لا يعينهم.

ولنأخذ مثلاً لذلك أبا الحكم عمرو بن هشام، وهو أبو جهل فهذا الرجل كان يمثل الكهول من سادة القرشيين بعد جيل الشيوخ من أمثال الوليد ابن المغيرة وعتبة بن ربيعة وأبي أحيحة العاصي بن سعيد بن العاص. وأبو جهل كما يفهم من كلام محمد بن حبيب النسابة في المحبر كان فعلاً من سادات فريش، كان كريماً وسيداً كبيراً، ولولا ذلك لما ثمنى رسول الله أن يفتح الله قلبه للإسلام، فقد أثر عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «اللهم أعز الإسلام بأحد الصمرين»، والأول منها هو ابن الخطاب أما الثاني فأبو الحكم عمرو بن هشام وقد كان أبو جهل لا يحب محمداً ويفر من دعوته ولكنه في عدائه له لم يتدنَّ قط إلى مثل ما كان يتدنن إليه رجال مثل عُقبة بن أبي معيط والأسود بن عبيد يغوث وإنما كان حصياً صريحاً، لقد كان فيه حق وحدة ولكن ذلك لا يمنع من القول بأنه كان سيداً شريفاً، وأنه كان إذا تروى في أمر نفسه اعترف

بخطئه، ودليلنا على ذلك أنه بعد أن تجرأ بالعدوان على رسول الله عندما لقيه على الصفا في الطريق إلى دار الأرقم مما أدى إلى إسلام حمزة وذهاب حمزة إلى أبي جهل - قال محمد بن إسحاق: «فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فصر به فشمجه شحة منكرة ثم قال أنتشمت؟ فأسأ على دبه أقول ما يقول، فردّ على ذلك إن استطعت»، فقام رجال بني غزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: «دعوا أبا عماراً، فإنني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً وهذا كلام رجل يأسف على ما بدر منه ويعتذر عنه».

أما لماذا وقف أبو جهل من الإسلام هذا الموقف فلأن أبا جهل كان يمثل المجتمع الجاهلي الذي حكم القرآن بفساده، ودعا إلى تغييره، ومهما كان من مساوئ هذا النظام فقد كان أبو جهل من عمده وكان من أكبر المفيدين منه، وما دام الله يفتح عليه أو يُزَيِّرُ بصيرته فقد ظل يؤمن بأن نظامه الجاهلي خير نظام، ولماذا يتخلى عنه وهو أساس قوته وغناه وماذا يبقى له إذا هو أسلم وتخل عن جاهه وثروته ومكانته وجالس أمثال عبدالله بن مسعود وبلال بن رباح وغباب بن الارت وعمار بن ياسر؟

٤ - ولكن أبا طالب عم رسول الله ﷺ وقف إلى جانبه وأيده. وأبو طالب لم يفعل ذلك عن إيمان بالإسلام أو فهم له، ولكنه تولى حماية محمد ﷺ بدافع العصبية، فهو رأس بني هاشم ومحمد من بني هاشم، ويستبعد أن يكون أبو طالب قد تنبأ بانتصار الإسلام، ولكن المؤكد أن دعوة محمد قد أعجبت من حيث إنها دعوة تولاهها هاشمي هو ابن أخيه، فهي مهما كانت حقيقتها ترفع من شأن بني هاشم وتقويهم في صراعهم الذي دكرناه مع خصومهم من القرشيين وإذا كان أبو جهل قد ظل عمره كله لا يرى في دعوة محمد إلا دعوة هاشمية قلبية، فإن أبا طالب لم يعد عن ذلك كثيراً وإن اختلفت النظرة باختلاف الموقف الذي يطر منه صاحبه، ثم إن

أما طالب رغم كراهته لرؤساء مكة الحدد . كان حراً من التنظيم الجاهلي لقريش ومكة ، فهو من سادات قريش ، وهو رئيس بيت بني هاشم ، وهو صاحب الرفادة والسقاية أي المتولي شئون الدين وهو غير مستعد للتحلي عن شيء من ذلك في سبيل دعوة لم يرزقه الله الفهم لها ولا الصيرة لأدراك غاياتها .

٥ - فلما رأى رؤساء قريش أن محمداً مستمر في دعوته وأنه لا يكثرث بموقفهم منها ، ساروا إلى عمه أبي طالب .

أما الخبير الثالث فيرويه الطبري ، وهو خبر حافل بالمعاني والحقائق لمن يريد أن يفهم نظام قريش ، ومن يريد أن يفهم الفترة المكية من السيرة النبوية الشريفة ، قال الطبري رايماً عن هشام بن عروة عن عروة (ابن الزبير) أنه كتب إلى عبد الملك بن مروان^(١) :

١ - أما بعد ، فإنه - يعني رسول الله ﷺ - لما دعا قومه إلى ما بعثه الله له من الهدى والنور الذي أنزل عليه لم يبعدوا عنه أول ما دعاهم وكادوا يسمعون له .

٢ - حتى ذكر طواغيتهم .

٣ - وقدم ناس من الطوائف من قريش لهم أموال أنكروا ذلك عليه .

٤ - واشتدوا عليه وكرهوا ما قال .

٥ - وأغروا به من أطاعهم .

٦ - فانصفق عنه عامة الناس ، فتركوه إلا من حفظه الله منهم ، وهم قليل .

٧ - فمكث كذلك ما قدر الله له أن يمكث .

٨ - ثم ائتمرت به رؤوسهم أن يقتلوا من تبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم .

(١) ساقم العارء إلى هفراء ءفى سهول علها ءعللها والءروج مها بالءاءع الءى نهم سءنا هءا

٩ - فكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول الله ﷺ من أهل الإسلام.

١٠ - فافتش من افتش، وعصم الله من شاء.

١١ - فلما فعل ذلك بالمسلمين أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة.

١٢ - وكان في الحبشة رجل صالح يقال له النجاشي لا يُظْلَمُ أحدٌ بأرضه وكان يثني عليه مع ذلك بصلاح.

١٣ - وكانت أرض الحبشة متجراً لقريش، يتجرون فيها، يمدون فيها رفاغاً من الرزق وأماناً ومتجراً حسناً.

١٤ - فأمرهم رسول الله ﷺ، فذهب إليها عامتهم لما قهروا بمكة وخاف عليهم الفتن.

١٥ - ومكث هو فلم يبرح، فمكث على ذلك سنوات.

١٦ - يشتدون على من أسلم منهم.

١٧ - ثم فشا الإسلام فيها ودخل فيه رجال من أشرافهم^(١).

ففي الفقرة الأولى نرى قريشاً لم تنفر أول الأمر من دعوة الاسلام لأنها لم تر فيها خطراً على كيانها أو مساً بمصالحها ولجارتها، بل انهم - أي من كتلة قريش - كادوا يسمعون له.

وفي الفقرة الثانية نرى أن محمداً ﷺ ذكر طواغيتهم أي هاجم مصوداتهم، وهذا يكون قد مس مصالحهم وهددها وقد تصدى له في هذه المرحلة أمداده في السن والمركز الاجتماعي في المجتمع المكي واشتدت الخصومة بينهم من ناحية ومحمد وأتباعه من ناحية أخرى.

(١) الطبري، تاريخ، (المطبعة الميرية) ج ٢ ص ٣٢٨ - ٣٢٩.

وفي الفقرة الثالثة يرى تطوراً حاسماً يدخل على الموقف . فقد دخل فيه عنصر جديد وهذا العنصر يتمثل في أولئك الناس الذين قدموا من الطائف لهم أموال أنكروا عليه واشتدوا عليه وكرهوا ما قال .

واضح أن أولئك الناس يحتلمون عمن كانوا يعادون رسول الله ﷺ في مكة قبل ذلك ، فهؤلاء القادمون ناس لهم أموال ، وكاسوا في ذلك الحير في الطائف (بصطافون في الغالب) . ويمجرد وصول أولئك الناس فقد دخل الصراع بين الاسلام وخصومه من القرشيين في دور جديد ، فانهم أنكروا واشتدوا عليه وكرهوا ما قال . وهؤلاء الناس هم بالفعل سادة قريش الحقيقيون ، والمراد بهم كبار رجال القبيلة وسادة مكة ، ودليل ذلك أنه بمجرد أن أنكروا عليه وكرهوا ما قال انصفق (أي انفض) عنه معظم أهل مكة لأنهم أغروا به من أطاعهم ، فلا بد أن يكون أولئك الناس هم رؤساء القوم ولهذا أطاعهم الناس وتلك هي الحقيقة الرئيسية التي تمسنا هنا ، فهؤلاء هم أصحاب الأموال في مدينة يحكمها المال وأهله والناس طاعة لهم ، فخافهم عامة المكيين وانصفقوا عن محمد ، إلا من حفظه الله منهم وهم قليل . ومثل تلك السيطرة التي كانت لأولئك الناس على مكة تدل على أنهم كانوا يمارسون سلطاناً منظماً على المدينة وأهلها ، فإنهم بمجرد أن أغروا بمحمد ﷺ من أطاعهم انصفق عنه معظم الناس ولم يبق معه منهم إلا القليل .

وبعد ذلك بفترة ائتمروا فيما بينهم وانفقوا على أن يفتنوا عن الإسلام من تبعه من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم (الفقرة الخامسة) ، فكانت فتنة شديدة الزلزال على من تبع رسول الله ﷺ من أهل الإسلام فافتن من افتن وعصم الله من شاء . مما يدل على أن الإجراء الذي اتخذته أولئك الرؤساء كان إجراءً حاسماً وحطراً على جماعة الإسلام مما اضطر الرسول إلى أن يقرر إيقاد دين من بقي على الدين بإرسالهم إلى الحبشة (الفقرة ١١) أي أن رؤساء مكة هؤلاء استطاعوا أن يخرجوا من بلدهم معظم الجماعة التي خرجت عن طاعتهم واتبعت ديناً لم يرضوا عنه دون أن يؤدي ذلك إلى انشقاق في رئاسة القبيلة أي

الجماعة التي كانت تملك المال والقوة. وانصياع الناس لما يأمر به هذا النمط يدل على أنهم كانوا سلطة حاكمة فعلاً تمارس سلطاناً قوياً جداً على الناس إذا تعلق الأمر بالأموال والمصالح الرئيسية للجماعة المكية وقد رأوا بدكائهم أن دعوة محمد لم تكن بالدعوة اليسيرة التي يسهل التغلب عليها، فقد كانت دعوة رديئة إنسانية تستهوي القلوب بزيدها قرآن محكم إذا استمع له الإنسان تأثر به ووصل إلى أعماق نفسه ولم يملك إلا أن يقتنع به، ويتصور لنا هذا في صورة مفصلة في حديث إسلام عمر بن الخطاب، فإذا كانت هذه الرياسة قد تمكنت من أن ترغب معظم من أقنع محمد من أهلهم ورجال قبائلهم على الانصراف عن الإسلام فإن هذا دليل على أن رياسة قريش كانت رياسة فعلية، فلم يبق مع الرسول إلا القليل، وحتى هذا القليل خاف عليه رسول الله ولم يأمن عليه من البقاء في مكة، فقرر إخراجهم منها لكي يسلموا من الفتنة.

وقد أثبت بهذه الفقرة وفمت بتحليلها لكي أصور بالنص الناطق نوع السلطان الذي كان القرشيون يمارسونه على مكة، وقوة تماسكهم بعضهم مع بعض، فلم تنشق صفوفهم أمام هذه الفتنة، ولم يتزلزلوا بها وإنما الذين زلزلوا كانوا جماعة الإسلام، ولو كان السبب فيما حدث أمراً يسيراً لكان من المفهوم أن يستطيعوا التغلب عليه والمحافظة على وحدتهم أو جبهتهم ولكن السبب هنا كان قوياً جداً وهو تلك الدعوة الإسلامية الغالبة. وقد ثبتوا لها واستخدموا العنف مع أتباعها كأنهم سلطة حقيقية تستطيع أن تضغط وتعاقب وتخرج من البلد من لا تريده فيها.

وقد أثبت ببقية نص خطاب عروة إلى عبد الملك بن مروان حتى يرى القارئ كيف كانت الحشة محال تجارة واسعة رابحة للقرشيين. يجدون فيها رفاغاً (سعة) من الرزق وأمنأ ومتحرراً حسناً. والحشة كانت الميدان الذي يحصل منه القرشيون على بضائع أفريقية من زبوت وعاج وجلود وأبسوس وتوابل ورفيق، فإذا كانت تجارة مكة مع الحشة بهذا الاتساع فكيف كانت إذن

تجارنتهم مع اليمن والشام والعراق .

والآن وقبل أن نخفي في بَئع مو الدعوة ونطور موقف قريش منها بلقي نظرة على سير الدعوة نفسها وتكوين جماعتها الأولى في هذا الدور من أدوار سيرها .



رأينا من كلام الزهري الذي رواه ابن سعد في طبقاته أن أوائل الذين دخلوا الإسلام كانوا من أحداث الرجال وضعفاء الناس وهذه ملاحظة لها أهميتها، فقد كان أوائل الذين آمنوا بدعوة رسول الله ﷺ يتكونون من ثلاثة أصناف من الناس :

١ - فهناك جماعة من يسميهم الزهري أحداث الرجال، والمراد الشباب وغالبية هؤلاء كانوا بين الخامسة أو السادسة عشرة والخامسة والعشرين (فيها عدا علي بن أبي طالب الذي كان في العاشرة عندما دخل الإسلام) ومعظم هؤلاء كانوا من أفراد بيوت مكة كريمة ولكنهم كانوا لصغر سنهم يعيشون في فراغ، لأن التفاليد المكية كانت تجعل الأهمية كلها للولد الأكبر، فهو الذي يرث أباه في المكانة ومعظم المال إذا مات، أما الابن الثاني ومن يليه فكان يعيش في سعة وفراغ معاً ومن أمثلة هؤلاء الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وعمر بن الخطاب نفسه وسعد بن أبي وقاص وأبو عبيدة عامر بن الجراح، فكل هؤلاء وغيرهم كثيرون كان لهم إخوة كبار يحجبونهم، فكان عليهم أن يعيشوا حياة فراغ، ومعظمهم كانوا ينفقون وقتهم في الصيد أو ركوب الخيل وما إلى ذلك، فلما تسمعوا بدعوة الإسلام أعجبتهم ووجدوا فيها ميداناً جديداً ينفقون فيه نشاطهم المعطل ولهذا فقد كانت الحركة الإسلامية في مجموعها حركة شباب أو حركة شابة كما نقول، ولم يكن في الجماعة الإسلامية الأولى من يكبر الرسول في السن إلا عبيدة بن الحارث بن المطلب، فكان يكر الرسول بحومت سنوات . وكان من بيت المطلب حلفاء بني عبد المطلب في كل موقف .

وأما ضعفاء الناس فيراد بهم بعض الأرقاء والموالي وحلفاء بيوت قریش وهؤلاء معرفهم جيداً، وأمثلتهم المعروفة لنا بلال بن رباح الحبشي وخباب بن الأرت وعامر بن ربيعة حليف آل الخطاب وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق .

يضاف إلى هذين الصنفين صنف الباحثين عن الحق ممن يمكن أن نسميهم الخنفاء وإن لم يكونوا جميعاً منهم وأمثلتهم عثمان بن مظعون وزيد بن نفييل، فهؤلاء كان من الطبعي أن يجدوا في الدعوة الإسلامية طلبتهم، فما كادوا يسمعون بها حتى دخلوا فيها، وبعضهم أراد الإسراف على نفسه بالتبذل، ولكن الرسول نهاهم عن ذلك، لأن الإسلام دين اعتدال .

ونلاحظ أن معظم هؤلاء دخلوا الإسلام مع نسائهم، فزاد بذلك حجم الجماعة الإسلامية وأصبح أعضاؤها طرازاً خاصاً من أهل مكة ما بين قرشيين وغير قرشيين . وفي جماعتهم الجديدة أو حركتهم الجديدة تميزوا بالابتماد عن الأوثان والتزام الطهارة والصدق والأخوة ومكارم الأخلاق، وكل هذه أشياء كانت لا تعجب المكيين وبدت لهم غريبة غير مستحبة خاصة وأنهم كانوا من كل بيوت قریش، فما بقي منها بيت إلا وفيه من دخل في دعوة محمد وانفصل روحياً على الأقل - عن قومه وأصبح غريباً بينهم ينظر في إنكار لكل ما كانوا يعيشون عليه وبه، وهذا أيضاً كان يثير غضب المكيين، فلم يكن من المريح لأي قرشي وثني أن يرى ابنه (أو ابنته) يتجه انهماجاً جديداً في حياته ويباين قومه ويألف أصحابه الجدد ويخالسهم ويتبع محمداً .

وهذا بالذات كان يغيظ المكيين وخاصة أنداد محمد في السن والمكانة فهؤلاء كان من الطبعي أن يكونوا أشد الناس إكباراً له . فهذا ابن عم لهم كان واحداً منهم وقريباً لهم وصاحباً إلى الأمل فما ماله يزعم اليوم أن الله اصطفاه واحتاره لرسالة فجعله - على الأقل - طرازاً من الناس يختلف عنهم، إن لم يحسوا أنه يرى نفسه أحسن منهم، فهو لا يشاركهم أسلوب حياتهم أو هوهم

ويسأى نفسه عنهم، ويجمع حوله طائفة من الشبان والصغماء والحلفاء والغرباء، وقد تصوروا لجهلهم بالدعوة ورفضهم أن يصعوا لها أنه يطلب بذلك مكاة أعلى من مكاتهم ولهذا فقد كان إنكارهم له عداوة في حين أن ذوي الأسنان من القرشيين من أمثال الوليد بن المعيرة وعثة وشيبة أبي ربيعة وأمية بن خلف كانوا أكر من محمد ساء فهم ليسوا جلساء ولا أئداده .

ولا ينسج المقام هنا لإحصاء من دخلوا الدعوة ومن عادوها في دورها الأول هذا فالأولون قريبون من الستين أو السبعين رجلاً وامرأة، وبيانهم نجده - مثلاً - عند النويري في نهاية الأرب (١٦/ ١٨٧ وما بعدها) وقد ذكرت هذا المرجع المتأخر - زماناً - لأنه جماع يحصي ما وجده في الكتب الأولى والتي كتبت بعدها، ومع أننا لا نثق في أمثال هذه البيانات لأن المسلمين غيروا وبدلوا في أسماء هؤلاء المسلمين الأول التماساً للمكانة والجاه عند الناس، ولكنك إذا تأملت البيان وجدت أنهم يمثلون كل بيوت قريش، فليس هناك بيت من قريش البطاح أو قريش الظواهر إلا وكان منه مسلمون، فكان الإسلام لم يغادر بيتاً من بيوت المكين إلا دخله، مما يدل على أن الدعوة وجدت قبولاً كبيراً عند الناس، ولم يكن على أحد ضمير في ذلك، فهي دعوة نبيلة يفوز الإنسان منها بخير كثير دون أن يتعرض لأي ضرر، ومن كبريات مميزات إذ ذاك أنها تحمل للإنسان مكاناً في جماعة خيرة طاهرة تلتف حول نبي كريم كله فضل وخير وعجة وحنو على البشر أجمعين وخاصة من استجاب لدعوته . وفي مجتمع مادي تغلب عليه الأنانية مثل المجتمع المكي الذي وصفناه كان الدخول في الإسلام يرفع الإنسان في نظر نفسه درجات ويشعره بشخصيته وقيمته ويرسّطه بخالق الكون سبحانه ويجعله من قراء القرآن وكلامه عذب جميل ومعانيه رفيعة فوق مستوى ما عرفه الناس بكثير، أي أن الدخول في الإسلام كان دحولاً إلى عالم حديد أو قل هو هجرة إلى دينا حديدية . هجرة إلى الله ورسوله وهذا هو سر حماس المسلمين الأول لما دخلوا فيه وتمسكهم واعتزازهم به .

ولم يكن الإسلام قد سمي باسمه بعد، فكان الناس يدخلون في دعوة محمد أو في دين محمد، أو يتابعونه أو يقولون قوله، أما القرشيون فكانوا يقولون إن فلاناً قد صبا أو دخل في أمر محمد. وإذا أخذنا بما كان محمد ﷺ يحب به من كانوا يريدون الدخول في دين الله مثل عتبة بن غروان المازني السلمي وحدنا أن الإسلام كان يقتصر على التصديق بالوحدانية ورسالة محمد ﷺ وترك الأوثان وحقق الدماء وصلة الأرحام^(١) وكانت الصلاة صلاتين، واحدة في الصباح والثانية بعد مغيب الشمس يسبق كلا منها وضوء أو طهارة.

١١ أما من تصدى لدعوة محمد وعاداه دون داع فهم أنداده في السن من معظم بطون قريش وعلى رأس هؤلاء أبو الحكم عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي وهو أبو جهل وأبو هب عبد العزى بن عبد المطلب والأسود بن عبد يغوث (من بني زهرة) والحارث بن قيس (من بني عدي بن كعب بن لؤي وهم رهنط عمر بن الخطاب وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة (من مخزوم) والعاصي بن وائل السهمي والنضر بن الحارث بن كلدة بن عبد مناف والعاص بن سعيد ابن العاص (من بني عبد شمس) وعتبة بن أبي معيط (من بني عبد شمس)، ويضيف أصحاب السيرة أن معظم هؤلاء لم يكونوا أنداد رسول الله ﷺ في السن فحسب بل كان الكثيرون منهم جيرانه. وهؤلاء وأمثالهم تصدوا لمحمد والمسلمين بمجرد أن أحسوا أن القرآن يقصد ديانتهم وآباءهم وما كانوا يعبدون. هؤلاء جعلت عداوتهم للرسول وأصحابه تتزايد حتى لجأ الرسول وجماعته إلى دار الأرقم، وفي دار الأرقم أسلم مسلمون كثيرون منهم حمزة بن عبد المطلب، وكان إسلامه في آخر العام الثالث للبعثة، وعقب إسلامه تشجع المسلمون وخرجوا من دار ابن الأرقم وأسرعوا إلى متدى قريش حول الكعبة حيث كبروا ودعوا بإسلامهم، فتنحى عليهم المشركون وصربوهم ضرباً مبرحاً كاد أبو بكر يهلك منه. وعادوا إلى دار الأرقم حتى أسلم عمر وأواخر السنة

(١) انظر الاستيعاب لاس عبد الر الحري ٤٤٣/١ وأسد الغابة لاس الأثير ١٢٠/٤ والبرقي

الخامسة للبعثة، وبإسلام عمر ترك المسلمون دار الأرقم هائياً وبدأت المواجهة الحاسمة بينهم وبين القرشيين وتحرح الموقف وهنا كان عبيد بن جراح قريش من ذوي الأسان من الطائف، ويمثلهم الوليد بن المغيرة وعنتة وشيبة ابن ربيعة وأمية بن خلف السهمي، وهؤلاء هم الذين يشبه إليهم خطاب عروة بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان الذي عرضاً له بالدراسة والتحليل وفيه إشارة إلى نصيح الرسول أصحابه بالمهجرة إلى الحبشة، فبدأت حركة الهجرة.

وبقي رسول الله في نفر قليل من المؤمنين وثبت للمحنة، وهم لم يستطيعوا إيذائه أو إيذاء حمزة أو أبي بكر أو عمر ومن إليهم لأنهم كانوا يتمتعون إلى بطون كبيرة من بطون مكة ذات السلطان والعزوة. وقد أدرك أولئك القرشيون أنهم لو آذوا رسول الله أو واحداً من كبار المسلمين من حوله لحدث صدمع في بنيان قريش، وهي صاحبة السيادة على البلد، وكانوا أكيس وأبعد نظراً من أن يحدثوا ذلك الصدمع.

ومع أنهم كانوا يستطيعون ترك الأمور على ما هي عليه بعد اضطراب هذا العدد العظيم من المسلمين إلى الخروج من بلدهم إلا أن خوفهم على سلطانهم دفعهم إلى محاولة التخلص من ذلك الخطر.

وهكذا يتجلى لنا جانب جديد من سياسات أولئك القرشيين، فقد وجدوا في رسول الله ودعوته خطراً حقيقياً لا بد من تلافيه فبدأ كبارهم وشيوخهم يتصلون بأبي طالب للتفاهم معه، فهذا رحيل من كبارهم وقد تصوروا أنهم يستطيعون التأثير على محمد عن طريقه بعد أن فشلوا في محاولتهم الأولى إيقاف دعوة محمد بالعنف لجأوا إلى المفاوضة مع أبي طالب وقد تعودنا أن ننظر إلى أولئك القرشيين على أنهم حفنة من الأغبياء أو الحمقى، وما أظن أن ذلك يكفي لتفسير أسلوبهم في العمل، فإن القرآن نفسه لا يعطيهم هذا الوصف، وهو لا ينكر عليهم الذكاء أو القدرة ولكنه عرا عبادهم في المكان الأول إلى أن قلوبهم كانت غلماً مغلقة دون الدعوة لأن الله طبع على قلوبهم

وأصارهم لا ترى الحق لأن عليها غشاوة .

وهذه الغشاوة التي حالت بينهم وبين النظر السليم إلى الإسلام هي النظام العام الذي كانوا هم سادته والمتردين بكل خيراته وميراته وما دام هذا هو وضعهم فيه فكيف يسلمون بأنه نظام فاسد ينبغي استبدال غيره به وإذا كانوا يعتقدون أنهم سادة الناس وأفضل الناس ، فكيف يؤيدون دعوة تقول إن خير الناس هم أتقى الناس لا أغصاهم وإن أبا الحكم عمرو بن هشام يتساوى مع خباب بن الأرت ذلك القين الفقير الطارىء على مكة ويجتمعها والذي كان إلى دخوله الإسلام يعتبر في مراتب العبيد والأرقاء .

عندما ننظر إلى الموقف من هذه الزاوية نفهم لماذا نفر أبو جهل ومن معه من دعوة الإسلام . لقد كان الثمن الذي يتمن عليهم أن يدفعوه أكثر مما يستطيعون أدائه . نعم أسلم رجال مثل حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب ومصعب بن عمير ، ولكن هؤلاء لم يكونوا سادة قومهم ، إنما كانوا سادة في قومهم والفرق كبير بين الوضعين ، ويتجل لنا ذلك في موقف أبي طالب ، فقد كان هذا الرجل يحمي رسول الله ﷺ ويحذب عليه ولكنه كان سيد قومه فلم يستطع التضحية بهذه السيادة ، والسيادة في هذه الحالة كانت غشاوة على عينيه ، وإذا كان قد رأى شيئاً في الدعوة المحمدية فهي أنها كانت في آماله سبيلاً يستعيد لبيهاشم وبني عبد المطلب مكانتهم في المجتمع المكي ويستعيد إليهم قوتهم وسلطانهم وهنا نجد أن أبا طالب يقف في نفس الصف مع أبي جهل ، فقد كان أبو جهل لا يشك في أن الإسلام حيلة من محمد لكي يستعيد بنو هاشم مكانتهم عن طريقها وله في ذلك كلمة مشهورة ، قال : «تنازعنا نحن ورسولنا مناف الشرف . أطعموا ، فأطعمنا وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاثبنا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا : ما نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمضى يدرك هذه^٩ والله لا نؤمن به أبداً ولا بصدقه»

ورما حاز لنا أن نقول هنا إن فريشاً هي التي حالت بين أولئك الناس

ودخول الإسلام لقد كانت قريش بناء صحياً عربياً ساء القرشيون جيلاً بعد جيل ووصلوا بقبيلتهم إلى أن تكون أغنى قبائل الجزيرة وأكثرها تماسكاً وأحسنها بقعة وموطأ، وبسببها كان رؤساء كبريات القبائل من أمثال نعيم وخطمان وهوازن وشيوخ جماعات بدوية فقيرة إلى حد كبير كان سادات قريش رجالاً على مستوى رفيع من الغنى والمكانة والقوة كانوا يداخلون بطارقة قيصر وأساوره كسرى ونجاشي الحبشة ويتعاملون بالسوف الدسائير ثم يطالبهم محمد بأن يتركوا ذلك كله ويدخلوا عقيدة جديدة تنزع عنهم هذا العز كله وتدخلهم في مغامرة لم يستطيعوا قط أن يدركوا معناها أو مغزاها وحتى عندما بسط لهم القرآن الأمر وقربه إلى أفهامهم وخاطبهم بلغة التجار وقال على لسان نبيه: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم: تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن، ذلك الفوز العظيم، وأخري تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين﴾ (الصف ١٠ - ١٣).

وهذه اللغة الواضحة المنطقية لم يفهموها أو يقبلوها بالذات لأهم تجار أخصياء وأصحاب سلطان. فبن تجاراً من طراز تجار قريش في ذلك العصر لا يبادلون شيئاً مادياً ملموساً هو في أيديهم بوعده معنوي غير ملموس ليس في أيديهم، وأما أهل السياسة والسلطان فلا يتنازلون قط عن سلطان يتمتعون به. وليست هناك شهوة هي أقوى في نفوس الرجال من شهوة السلطان والقوة والتمسك على الآخرين.

يشس إذن رسول الله ﷺ من قريش، ويشت منه قريش ولكن الغلق أخذ يساور القرشيين لأن دعوة الإسلام كانت تنسج يوماً بعد يوم، لأن مكة كانت حافلة بأقوام كانوا في أشد الحاجة إلى هذه الدعوة فهم مظلومون يطلبون العدل، وهم غمتمون يطلبون الكرامة، وهم فقراء في حاجة إلى ماب من أبواب

الامل بفتح لهم، وفيهم الكثيرون ممن كانوا لا يطمشون إلى الوثنية الغالبة، فوحدوا في دعوة الإسلام عقيدة رفيعة تملأ القلب والضم وتريح قلب الحائر، وكان فيهم كذلك شباب متطلع يبحث عن طريق للعمل وإظهار المواهب ولم يكن أمامهم طريق لذلك في ظل النظام القائم الذي يجعل للابن الأكبر معظم ميراث أبيه من المال وكل ميراث أبيه من المكانة والأهمية الاجتماعية أو السياسية في ذلك المجتمع القبلي الروح والنظام كما ذكرنا، وأمثلتهم عندنا كثيرة أظهرها حمزة بن عبد المطلب وكان من أصغر أولاد عبد المطلب ولا سبيل له إلى مكانة أو قيادة مع عظيم مواهبه، وعمر بن الخطاب، كان يحجبه أخوه الأكبر زيد. فهؤلاء عندما فتح الله قلوبهم للإسلام دخلوا فيه وما لبثوا أو وجدوا فيه المكانة والرسالة التي تجعل لحياتهم معنى وقيمة.

ورأى القرشيون أنهم لو تركوا الأمور تسير على ما كانت تسير عليه فإن الإسلام سيتلهم ابتلاءً، فإن الاستعداد للإقبال عليه عظيم، وأنا أعني بالقرشيين هنا رؤساء قریش وأصحاب الثروة والسلطان فيها. وهنا نجدهم يتصرفون تصرفاً قُبلياً، فهم ليسوا حكومة ولا دولة، وهم لا يملكون - تبعاً لذلك - أدوات للسلطة من مثل شرطة أو أداة تنفيذية أو عسكر قائم، وإنما كانت قوتهم في تسير أمورهم الداخلية في النظام القبلي وما له من تقاليد هي في ذاتها تقوم مقام الهيئات التنفيذية القائمة في نظم الدول، كان هذا النظام - مثله في ذلك مثل الدستور الانجليزي - يقوم على ضوابط وموازنات - Checks and balances - تعمل بطريقة عرفية في ذلك المجتمع القبلي تحافظ على سلامته وأمنه.

فلننظر هنا كيف واجه الرؤساء المكيين مشكلة خطر الدعوة المحمدية، فهم من ناحية ضغطوا على من استطاعوا الضغط عليه من أفراد الجماعة الإسلامية حتى أحافوهم أو «زلزلوهم» كما تقول النصوص، فافتس منهم من افتتن وبقي من عصم الله وهم قليل، وبعد أن «أخرجوا» من بلدهم عدداً من المسلمين وهم الدين هاجروا إلى الحشة اتجهوا إلى معالجة موضوع محمد بن

عن طريق عمه ورئيس قبيلته وحاميه أبي طالب، وها نجد تصرفهم يسير وفق
مطلق واضح يقوم على تفكير سليم

وها نورد نصاً عظيم القيمة لابن إسحاق، ولاحظ هنا أنه أخذ فقرات
من حطاب عروة بن الربير إلى عبد الملك بن مروان دون أن يشير إليه قال

١ - «فلما نادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام وصدع به كتباً أمره الله لم
يبعد منه قومه، ولم يردوا عليه - فيها بلغني - حتى ذكر آهنتهم وعابها، فلما فعل
ذلك أعظموه وناكروه، وأجمعوا خلافه وعداوته، إلا من عصم الله تعالى منهم
بالإسلام، وهم قليل مستخفون».

٢ - وحذب على رسول الله ﷺ عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه.

٣ - ومضى رسول الله ﷺ على أمر الله، مظهراً لأمره لا يرد عنه شيء.

٤ - فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يُغَيِّبُهُمْ (يستمع لعبهم
ويستجيب له) من شيء أنكروا عليه من فراقهم وعيب آهنتهم، ورأوا أن عمه
أبا طالب قد حذب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم، متى رجال من أشراف
قريش إلى أبي طالب: عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن
قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب وأبو سفيان بن حرب بن
أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي
ابن غالب بن فهر.

قال ابن اسحق، وأبو البخترى واسمه العاص بن هشام بن الحارث بن
أسد بن عبد العزي بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي قال ابن
هشام أبو البخترى: العاص بن هشام.

قال ابن اسحق: والأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزي بن
قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي.

وأبو جهل واسمه عمرو، وكان يكنى أبا الحكم بن هشام بن المغيرة بن
عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي والوليد بن المغيرة
ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي .

وسيه ومنه أمنا الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم بن عمرو
ابن هُصَيْن بن كعب بن لؤي .
والعاص بن وائل .

قال ابن هشام : العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو
ابن هُصَيْن بن كعب بن لؤي .
قال ابن اسحاق : أو من مشي منهم .

ثم يأتي ابن اسحق بحديث اللقاء الأول بين مثلي قريش هؤلاء - وليس
فيهم من الهاشميين إلا أبو لهب - وبين أبي طالب، وستكون لهم معه ثلاثة
لقاءات أخرى قبل أن تقع القطيعة بينهم وبينه . وكل لقاء من هذه الأربعة
يعني مرحلة من مراحل الحوار بين قريش وأبي طالب له محور يدور حوله أي أن
قريشاً كانت تتقدم إلى أبي طالب بعرض وتناقشه فيه، فإذا لم تفلح انصرفت
وفكرت في محور آخر أو عرض جديد تعرضه على أبي طالب، وهكذا حتى
أصبحت اللقاءات والعروض أربعة، فلما يئست قريش من أبي طالب لجأت
إلى العنف، وهذا مسلك ناس عقلاء يواجهون مشكلة ويحاولون أن يجدوا لها
حلاً . وهذا الأسلوب في البحث عن حل عن طريق التفاهم والحوار يكشف لنا
عن عقلية القرشيين وطريقتهم في العمل، وهي طريقة بعيدة جداً عن الحمق
والعناء .

وقد أوردت أسماء الرجال الذين مشوا إلى أبي طالب يكلمونه ليتبين
القارئ خلباتهم القبلية ومراكزهم الاجتماعية والآن ننظر في هذا اللقاء
الأول لسنرى ماذا كان فيه .

٥ - «فقالوا. يا أبا طالب، إن اس أحيث قد سب الهتنا وعباد ديسا
وسفّه أحلامنا، وصلل آباءنا، فلما أن تكلمه عا وما أن تخلي يسا وبسه فإسك
على مثل ما سحر عليه من حلافه. فكميكه. فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً
وردهم رداً حميلاً. فأنصرفوا عنه».

ونلاحظ هنا أن وفد قريش الذي ذهب للقاء أبي طالب يمثل طبقاتهم
جميعاً، الشيوخ والكهول والشباب، ولكن ليس فيهم واحد من السعفاء من
أمثال عقبة بن أبي معيط أو النضر بن الحارث بن كلدة ومن إليهم. وابن اسحاق
يحرص على أن يرينا أنهم كلهم يرجعون إلى لؤي بن غالب بن فهر أي من
صميم عمود قريش، وهو عمود النسب النبوي.

وهم في كلامهم مع أبي طالب يتحدثون في رزاة وحكمة، وهم يخبرونه
بين أن يكفه عنهم أو يتولوا هم الأمر بأنفسهم، ويذكرونه بأنه مثلهم: «فإنك
على مثل ما نحن عليه من خلافه».

ولا شك في أن هذا اللقاء سر أبا طالب، فقد رأى نفسه موضع اهتمام
كل القرشيين وخاصة زعماء البيوت المنافسة التي كانت قد غصبت الرئاسة
القبلية في مكة وما دام أبو طالب على مثل موقفهم من الإسلام أي لم يتابع
محمداً فيها يدعو إليه فهو حري بأن يستجيب لهم.

ولم يفعل أبو طالب شيئاً وفي نفس الوقت زادت دعوة الإسلام انتشاراً
ووضح الخلاف بين أهل مكة حول دعوة محمد ﷺ وأصبحت المشكلة تهدد
وحدة قريش، قال ابن اسحاق: «ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه يظهر
دين الله ويدعو إليه ثم سرى الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتضاعوا
وأكثر قريش من ذكر رسول الله ﷺ بيها، فتدأمرؤا فيه، وحص بعضهم
بعضاً عليه»

وها وأمام هذه الفتنة نجد زعماء قريش يقصدون أبا طالب مرة أخرى،

وهذا هو اللقاء الثاني بينه وبينهم ولكنهم الآن لا يتحدثونه على أنه واحد منهم بل هم يخاطبونه مخاطبتهم لرحل يوشك أن يصبح خصماً لهم، فهم يهددونه وينذرونه ولكم مع ذلك يدعون له التصرف قبل أن يقدموا على شيء. «يا أبا طالب، إن لك ساء وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد استهيناك من ابن أخيك فلم تنبه عا وانا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب ألفتنا حتى نكفه عا أو ننزله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين، أو كما قالوا له، ثم انصرفوا عنه، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطلب نفساً بإسلام رسول الله ﷺ لهم ولا خذلانه».

وهنا نرى أبا طالب في موقف عسير، فهو من ناحية يرى أن قومه يهددونه ويخبرونه بين أن يستعمل سلطانه على محمد فيكفه عنهم أو يحاربون حتى يهلك أحد الفريقين.

وأبو طالب يرى أنه إذا أصر على تأييد محمد فإن قريشاً ستعلن عليه الحرب، وهو يشعر أنه لا يستطيع الثبات لهم، ثم أنه لا يريد أن يفقد مكانته في قريش أو في بني هاشم، ومعظمهم متعاطفون مع محمد، ويتجمل موقفه من الكلام الذي قاله لمحمد ﷺ عندما استدعاه ليتحدث معه بعد أن هددته قريش: «إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا، للذي كانوا قالوا له، فأبقى علي وعلى نفسك، لا تحملني من الأمر ما لا أطيق». وإلى هنا ولم يكن أبو طالب يدرك معنى الرسالة المحمدية ولا هو أدرك أن ابن أخيه يشر بدين جديد، وأنه مستعد للتضحية بنفسه في سبيل رسالته، وهذا هو الذي قاله محمد ﷺ في رده المشهور على عمه: «يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته» ثم يقول ابن اسحاق: «فاستمبر رسول الله ﷺ، فبكى، ثم قام، فلما وثى ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا ابن أخي، فأقبل عليه، فقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً».

وهنا أدرك أبو طالب أن الأمر وصل بينه وبين بقية قريش إلى حد ليس معه إلا المواجهة بالعنف، وبالمعل بدأ خصوم محمد في إيذاء من يستطيعون إيذاءه ممن بقي في مكة من أصحاب محمد، قال ابن اسحاق «فحقب الأمر وتنابد القوم وعادى بعضهم بعضاً، قال: ثم أن قريشاً تذرهم بينهم على من في القبائل منهم من أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا معه، فوثت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يضربونهم ويمقتونهم عن دينهم، ومع الله تعالى منهم رسوله بعه أبي طالب».

ووجد أبو طالب أنه في حاجة إلى عون عشيرته من بني هاشم وأراد أن يستوثق من نصرهم إياه، قال ابن اسحاق: «وقد قام أبو طالب حين رأى قريشاً يصنعون في بني هاشم وبني المطلب فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ والقيام دونه، فاجتمعوا إليه وقاموا معه وأجابوه إلى ما دعاهم إليه إلا ما كان من أبي لهب».

واذن فقد حدث ما كانت قريش تحشاء ووقع شرخ خطير في بنائها وقيادتها ووقف بنو هاشم وأبو المطلب، وهم من سادتهم - بقيادة واحد من كبار قادتهم وهو أبو طالب، وقفوا معادين لبقية قريش وقادتها.

وآرنولد توينبي يقول إن الجماعات والدول تأخذ في التصدع عندما يقع كسر في الرأس أي في الصفوة القائدة أو بحسب تعبير a breach in the leadership وهو يضرب الأمثلة لذلك من تاريخ الرومان مثلاً عندما انقسمت الصفوة القائدة على نفسها ووقع الصراع بين الأخوين جيراكوس وبقية قيادة الرومان، ووقعت الحروب بين ماريوس وسولا، وبين قيصر وبومبي وبين أوكتافيوس وأنتونيوس. هنا حدث الصدع العميق الذي وضع حداً للجمهورية الرومانية وقيام الإمبراطورية الرومانية وتحكم العرد الواحد imperator في شئون الدولة وهذه هي البداية الحقيقية لتصدع دولة الرومان وتدهورها...

وهذا هو ما أحست به قريش وأرادت أن تتلافاه بهذه اللقاءات، وقد فصلنا الكلام في واحد منها، فلنكمل الكلام عن اللقاءين الباقيين. ماذا تم فيهما؟ وقرأ من خلالها أفكار قريش وتعرف موقفها من الإسلام وكيف كانت طورتها إليه.

واللقاء الثالث لم يكن بين أبي طالب وقريش، بل بينها وبين محمد نفسه، ويبدو أن قريشاً عندما وجدت أن أبا طالب لا يستطيع عمل شيء أو هو لا يريد أن يحمل. فكر الوليد بن المغيرة المخزومي - وكان من أجلاء القرشيين وأصحاب السنن والرأي منهم - أن يخلووا بمحمد ﷺ ويكلمه في رفق لعله ينتهي معه إلى حل يراضى عليه الناس. وكان الوليد شيخاً ذا مكانة عالية وكان لا يخلو من خبث. وكان يرجو أن يجد طريقاً ينفذ به إلى نفس محمد، وهو لم يفكر قبل ذلك في أن يروي أمر محمد فيها بينه وبين نفسه أو يهني إلى القرآن ويسمع من محمد ما يقول فلعل ذلك يعينه على الاقتراب منه ودعوته وفهمها، فإن هي أعجبت دخل فيها وإلا كان له شأن آخر، ولكنه ذهب ليكلم محمداً بعقلية الجاهلية وينطق أمثاله من سرورات المكين الذين يحسبون أن كل شيء تجارة أو مال أو أشياء مادية.

ونخبر هذا اللقاء برويه ابن اسحاق ويجعله بعد إسلام حزة، أي أنه كان على حسابنا - خلال السنة الثالثة للبعثة وقبل هجرة المسلمين إلى الحبشة، وكان محمد إلى ذلك الحين يدعو في دار الأرقم - وفترة دار الأرقم على قصرها، فهي لم تزد على ثلاث سنوات - كانت من أبرك أدوار الفترة المكية، لأن دخول الرسول إليها ودعوته ولقائه أصحابه فيها شجع الكثيرين على الدخول في الدعوة، فقد كانت أمامهم الفرصة ليحتمعوا برسول الله ﷺ آمنين حالين به فيسمعون منه القرآن ويصفون إلى كلامه ويستفسرون منه عما يريدون ويحسون بذلك المساح العائلي الإنساني الذي كان يشمل هذه الجماعة ورسول الله في وسطها أبا حانبا

ورسولا هاديا وقلبا كبيراً عظيماً يحدث الناس جميعاً في رفق وأناة، وكان من أجل الناس هيئة وأباهم طلمة وأحرصهم على حسن مطهره ومطافة ثيابه، هذا إلى ليس جانب ومودة وحذب على الناس ورعة في مساعدتهم على حل مشاكلهم، وهذا طراز من حياة اجتماعية لم يألها العرب أو يعرفوها، فإزداد الناس إقبالاً على الإسلام ليصحبوا أعضاء في تلك الحياة الجديدة ثم للدخول في الإسلام والفوز بنعمته.

ولم يحاول الوليد بن المغيرة وأضرابه قط أن يعرفوا الدين الذي يدعو إليه محمد والمجتمع الذي ينشأ عن الإيمان بهذا الدين، وإنما هو صم أذنيه عن القرآن وأغلق عينيه عما كان يستطيع أن يرى، ولهذا فقد كان مدخله في الحديث مع محمد مدخلاً جاهلياً يعارض كل المعارضة ما يدعو إليه رسول الله.

فقد وجد الوليد بن المغيرة هذا محمداً في مجلس قريش منتحياً بنفسه عن الكعبة فافترح على من كان حوله من القرشيين أن يقوم إلى محمد فيعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها منها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا. فأقروه على رأيه ومضى ليكلّم محمداً، فلما جلس إليه كان كلامه معه جاهلياً أو قل قرشياً صرفاً فهو لا يحاول أن يفهم شيئاً مما يدعو إليه، وإنما بدأ - في رفق طبعاً - فذكره بما فعل بقومه - في رأيه - «وانك قد أثيت قومك بأمر عظيم: فرقت به جماعتهم، وسفحت به أحلامهم، وعبت به آهنتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تظر فيها لعلك تنقل منها بعضاً، قال: قل يا أبا الوليد، اسمع. وهنا يبدأ فيعرض على محمد السيادة فيهم «حتى لا تقطع أمراً دوماً، أو المال حتى يكون أكثرهم مالاً. والنص يقول إنه عرض عليه الملك، وهذا مستبعد فإن قريشاً لم تكن تنقل الملك أو ترصاه وبعد ذلك يعرض عليه أمراً مهياً حقاً يدل على أنه كان أبعد الناس عن فهم محمد: «وإن كان هذا الذي

يأتيك رثياً تراه لا تستطيع رده من نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نعالجك منه، فإنه ربما غلب التاع على الرجل حتى يداوى منه. أو كما قال^(١): «فاستمع له رسول الله هادئاً مستحجماً نفسه ثم قال له: فرعت يا أبا الوليد؟ قال: نعم قال: اعمل وثم قرأ رسول الله ﷺ أول سورة فصلت وهي الثانية والسبعون في ترتيب السور والحادية والأربعون في ترتيب المصحف: ﴿حَمْدٌ تَزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كَتَبَ فَصَلَّتْ آيَاتِهِ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ومع أننا نعلم أن مطلع هذه السورة كان نزوله فيها بعد الفترة التي نوردخ لها الآن إلا أنها تصور تماماً المعاني التي لا بد أن يكون رسول الله قد ألقاها إلى الوليد بن المغيرة، ذلك السيد القرشي الذي كان ينتمي إلى فزوة ما كان العرب يسمونه بالشرف أي علو المنزلة في الجماعة، وهذه المعاني كانت غائبة تماماً عن ذهنه وعندما تلا عليه رسول الله ﷺ ماثلاً من الآيات كانت تلك فيها نرى من النص أول مرة يستمع فيها الرجل إلى آيات من القرآن ملياً فأدرك معناها ومغزاها وأثرت في نفسه، وأدرك أنه لا يحدث رجلاً طالب مال أو سيادة أو نساء أو متاع أو رجلاً مريضاً وإنما هو رجل في الغاية من العقل وسلامة الخواص واستجماع الرأي، والمعاني التي فهمها من معاني القرآن - وهي لا تخرج عن معاني فاتحة سورة فصلت التي أتينا بها - كان لها وقع عظيم في نفسه. فلم يرد على محمد كلاماً، وعاد إلى قومه متغير الوجه، ولاحظ قومه ذلك. ولكن نتيجة لقائه مع محمد ﷺ ندل دلالة واضحة على أن هذا الرجل وأضرابه لم يكن لديهم أي استعداد للدخول في دعوة محمد، وأقصى ما كانوا مستعدين له هو مهادة الحركة الإسلامية أو عدم التعرض لها، قال: «ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط. والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش! أطيعوني واحملوها بي. وحلوا بين هذا الرجل وما هو فيه. فاعتزلوه فوالله ليكون لقوله الذي سمعت

(١) ابن اسحاق برواية ابن هشام ٣١٤/١

نبأ عظيم . فإن تصه العرب فقد كُفيتُموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب
مملكه ملككم وعزه عركم ، وكنتم أسعد الناس به^(١) .

فقالوا : سحرك والله يا أبا الوليد ، قال : هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا
لكم^(٢) .

وهذه مقالة رجل أناني مادي جامد القلب ، فهو قد عرف الآن أن محمداً
ليس بساحر ولا كاهن ولا مسحور ولا طالب ملك أو جاه أو متاع . وإنما هو
رجل يطلب ما هو أرفع من ذلك وأسمى : إنه صاحب رسالة عظمى . وبدلاً
من أن يحاول أن يزداد علماً بها وربما دخل فيها فهو ينصح قومه بأن يدعوا محمداً
وشأنه فإذا دخل العرب في دعوته أفادوا هم من ذلك لأنهم قومه ، وإذا قضى
العرب عليه كفاهم ذلك مشقة الصراع معه .

وخبر هذا اللقاء الثالث بين قيادة قريش المعارضة للإسلام والإسلام إما
مباشرة مع محمد ﷺ أو غير مباشرة عن طريق أبي طالب ، تكشف لنا عن
طبيعة القرشيين وخبثهم والأنانية والحرص على أنفسهم وقبيلتهم ومراكزهم فيها
بالتالي فهم لا يريدون أن يتنازلوا عن شيء ولكنهم يريدون كسب كل شيء بل
نفهم من كلام هذا الرجل أنه لا يريد أن يستغل محمداً والإسلام لما فيه خيره وخبر
نظامه الاجتماعي . والغريب أن شيئاً من هذا سيحدث بعد الإسلام عندما
استعملت قريش أمة الإسلام لخبرهم .

والاجتماع الرابع كان بين محمد ﷺ وملاً قريش . وهو فيما يبدو اللقاء
الأخير بين الحانئين قبل أن تكون القطيعة . وقد روى لنا خبر هذا اللقاء ابن
اسحاق ورواه لنا ابن هشام في السيرة^(٣) .

(١) ابن اسحاق ، رواية ابن هشام ٣١٤/١

(٢) ابن هشام ، السيرة ٣١٥/١ وما بعدها

وقبل أن يروي لنا ابن اسحاق نبأ هذا اللقاء يقول إن الإسلام «جعل
يفشو بمكة في قائل قريش في الرجال والنساء، وقريش تحس من قدرت على
حسه، وتفتت من استطاعت فتته من المسلمين ثم اجتمعت أشرف قريش من
كل قبيلة كما روى عن سعيد بن جبير وابن عباس، قالوا . . .»

وبهم من هذا الكلام أن محمداً والإسلام أصبحا محور الاهتمام
والكلام كله في مكة، فقد كانت اللقاءات التي ذكرناها تزيد من تنبيه الناس
للإسلام فلا يكاد الواحد منهم يستمع لكلام رسول الله حتى يدخل فيه، وقد
كان الأمر أولاً أمر جماعة صغيرة تمارس عباداتها واجتماعاتها فيما بينها أما الآن
فقد اتسع النطاق وتحول الأمر بالنسبة للقرشيين من مجرد حركة محدودة لا
يسريح إليها القرشيون ولكنهم لا يخشونها إلى حركة واسعة النطاق تشمل الآن
مئات الناس. فمعظم بيوت مكة فيها إسلام وفيها قرآن، والدعوة التي ينادي
بها محمد يتسع مداها وتصل إلى معظم الناس فيجدون فيها جاذبية ويمسكون
نحوها بميل، والكثيرون منهم يدخلون في الدعوة وسادات قريش يرون هذا
كله بعين الجزع والخوف، فالحركة الجديدة تزرى بهم وبأديانهم وأهنتهم
وآرائهم وتسفه أحلامهم وأحلام آبائهم ومعنى هذا أن الزمام بفلت من
أيديهم. ثم إن الأمر الآن يتعلق بأديانهم وبيوتهم وأحسابهم، وتحول بذلك إلى
خطر حقيقي عليهم وعلى ثرواتهم ومراكزهم وقد بذلوا ما استطاعوا مع أبي
طالب ثم مع محمد، ولم يبق أمامهم إلا القيام بعمل حاسم، ولكنهم بعد أن
تشاوروا في الأمر رأوا أن يتصلوا بجماعة بمحمد ويتحدثوا معه في الأمر ملياً،
فيحاولوا أن يعرضوا عليه الصلح، في مقابل عرض مادي فإذا لم يسمع تحذوه -
في ظنهم - في صميم الرسالة الإلهية والدعوة التي يشر وينذر بها وأعجزوه
وقامت عليه بذلك الحجة الفاصلة. وأحس القوم التدبير فيما ظنوا، ودعوا
محمداً إلى المناقشة بعد غروب يوم من تلك الأيام غير بعيد من الكعبة. وكان
المحتمون يمثلون كل طوائف الجبهة القرشية. فيهم المعتدل الذكي العبد

الطرفة من ربيعة وأخوه شيعة وابن عمهما أبو سفيان شرب محمد وابن حنبل - وكان إلى الآن يقف في الصفوف الخلفية للمعارضة إلا إن دوره لم يكن قد حان بعد - وكان فيهم الخصم الصريح العبد أبو جهل، وكان هناك ممر من الجماعة التي يسميها أصحاب السيرة «المؤدين» ومثلهم ربيعة بن الأسود ونبيه ومنه أساء الحجاج السهميان، وحضر محمد ﷺ مادراً فلما كان يجيد عن أي لقاء، وهما محدوه وقالوا له ما معناه إن كنت سيئاً حقاً فإننا مستعدون بالتسليم لك إذا أتيتنا بدليل مما كان الله يؤيد به الأنبياء قللك. نريدك أن تأتي الساعة بمعجزة، بشيء يؤكد ما نقول من أن الله معك ومؤيدك وناصرك، والذي طلبوه منه وارد بأبلغ بيان في الآيات ٨١ - ٩٣ من سورة الإسراء التي أنزلت بعد ذلك بسنوات، ومعظم آيات هذه السورة تصوير للجدل المجهد والتعبير السيء والتهديد الخطر الذي كان يواجه الرسول صلوات الله عليه وهو صامد وحيد تقريراً أمام تلك العصبية العنيدة القوية من كفار قريش الذين تصدوا - في تصورهم - لحماية مجتمعهم من الخطر الذي تمثل لهم في محمد ﷺ ودعوته. قال تعالى: (الإسراء ٨٨ - ٩٣):

﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فآبأ أكثر الناس إلا كفوراً،

وقالوا: لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً
أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً
أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً
أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً
أو يكون لك بيت من زخرف
أو ترقى في السماء
ولن نؤمن لربك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه﴾.

وقد تصوروا أنهم بهذا التحدي المتوالي والمتصاعد في تعجيز محمد ﷺ
أهم واصعوه في حرج لا مخرج له منه وهم في موقفهم هذا ومن قاعدتهم
الوثنية على حق. فإن النبي تؤيده معجزات ربه لكي يري حصومه أن ربه مبره
وأبيده ومجده من قدرته شيئاً يقنع المكابر وغاب عنهم أن عصر رسل
المعجزات قد انتهى بمعجزات عيسى وإذا كانت معجزات عيسى بن مريم لم
تفلح في دفع الناس جميعاً في طريق الهداية فلمماذا تتكرر؟ لأن المعجزة ربما
اقنعت من يراها تحدث أمام عينيه فما بال من لم يرها؟ أبطل الله سبحانه يرسل
أنبياء بمعجزات لاقتناع كل إنسان على وجه الأرض وكل جيل من أجيال البشر؟
لقد فعلت الكاثوليكية هذا واضطربهم الأمر في النهاية إلى القول بعقيدة
استمرار المعجزات، زعموا أن القديسين يأتون بمعجزات وأن الكنيسة هي التي
ينبغي أن تحكم في أمر ما يدعى من معجزات فإذا أقرت مجالسها ذلك فالمعجزة
قد وقعت وصاحبها قديس ولو كان صبية ساذجة مثل برناديت التي قالت إن
مريم العذراء ظهرت لها وهي عند نبع الماء عند قرية لورد في جنوب فرنسا.
والمجلس الكنسي أيد صحة ما قالتها الصبية وجعلوها قديسة وقرية لورد
أصبحت مزاراً مسيحياً. أما الإسلام فقد وقف الموقف الحاسم المعقول من هذا
الأمر كله، وإذا كان لا بد من معجزة لاقتناع البشر فهذا هو القرآن معجزة
محمد ومعجزة الإسلام المتجدد على مر العصور، فإن كان هناك من يريد أن
يكذب بها فليأت بمثله، ومحمد لن يأتي بمعجزة مما طلبوا وفي يده بينة القرآن،
ولهذا فإن تمام هذه الآيات يقرر هذا المعنى:

﴿قل: سبحانه ربي﴾

هل كنت إلا بشراً رسولاً

وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى

إلا أن قالوا: أبعث الله بشراً رسولاً

قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً .

قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم

إنه كان بعباده خبيراً بصيراً

ومن يهد الله فهو المهتد

ومن يضل الله فلا تملج لهم أولياء من دونه

ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم غيباً وبكياً وصماً ماوَاهم جهنم .

كلما خبت زناهم سميراً ﴿ الإسراء ١٧ / ٩٣ - ٩٧ ﴾ .

ورواية ابن اسحاق تقول إن ملا قريش هذا طلبوا إلى محمد معجزات وبيّنات أخرى، وليس من الضروري أن يكون هذا كله قد وقع في هذا المجلس لأن التحدي والجدل لم يسكن قط بين محمد وخصومه خلال تلك المرحلة فقد طلبوا منه مثلاً أن يسأل ربه أن يبعث من الموت رجلاً من كبار أجدادهم مثل قصي بن كلاب فإنه كان شيخ صدق، فساهم عما تقول: أحق هو أم باطل، فإن صدقوك وصنعت لنا ما سألناك عرفنا به منزلتك من الله وأنه بعثك رسولاً كما تقول! فقال رسول الله ﷺ، ما بهذا بعثت إليكم . وإنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن قبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم^(١)

وهذا الكلام من رسول الله وضع نهاية للحدث، لأنه لم يأثم بما طلبوا منه فهو إذن بمنطقهم الوثني ليس بنبي . فهو كما قالوا لا يفضلهم في شيء، فهو يقوم بالأسواق كما يقومون ويلتمس المعاش كما يلتمسون وكيف يعرفون منزلته من ربه إن كان رسولاً كما يزعم؟ ويقوم محمد أسفاً فيشعه عبدالله بن أمية بن المغيرة

(١) انظر خراس اسحاق كله عداس هشام السيرة ٣١٥/١ وما بعدها

ابن خلف الحمحي وهو من أترابه في السن ويقول له إن قومه أنصفوه فلم ينصفهم، وطلبوا إليه أن يأتيهم بيينة على أنه نبي فلم يأتيهم وهم لهذا لم يصدقوه أبداً وهذا فصل الخطاب بينهم، وقد قال هذا الكلام لرسول الله في لهجة بالغة الكراهة والحقد كأن قلته كان بالفعل يتلظى عيطاً من محمد وكراهة له، ولو أنه اتاهم بكل معجزات الدنيا لما صدقوا.

وانتهى كل حوار بين محمد ﷺ وخصومه، فقد أيقنوا - فيما بدا لهم - أنهم على حق في رفضهم دعوته وإبائهم الدخول فيها، ولم يبق بعد هذا إلا الخصومة الصريحة والعداء في غير هوادة.

والتأمل لكل هذا الحوار الطويل الذي تم على أربع مراحل ولا بد أنه استغرق شهوراً يرى أن أولئك المكين كانوا بالفعل جبهة واحدة فيما يتصل بالدفاع عن مصالحهم.

وهم يتصرفون في عقل وروية وفي نظام أيضاً، فهم يجتهدون في تلافي الصراع الصريح بالحوار والأخذ والرد، وهم يتقلون من مرحلة من مراحل الحوار إلى الأخرى انتقالاً منطقياً متمسكين برأيهم مثابرين عليه كأنهم رجال دولة يدافعون عن مصالحهم. وفي أثناء كلامهم مع محمد ﷺ كان اضطهادهم للأصاغر والمستضعفين من أصحابه مستمراً، وهم بهذا يمارسون ضغطاً على محمد حتى يلين معهم، وأهل الصغار والحق منهم وفيهم رجال مثل عقبة بن أبي معيط والأسود بن عبد يغوث يؤذون النبي بدنيهم الأفاعيل من مثل إلقاء الوقر أمام بيته أو إلقاء سلاء الشاة عليه وهو يصلي في حين أن المستهزئين من أمثال النضر بن الحارث بن كلدة يستهزئون به ويمسك النضر معظم بال ويفرعه ويقول ساحراً - يزعم محمد أن ربه يحمي العظام وهي رميم، وكل هذه أساليب من الضغط والتبئيس والتهمين لا تنفي أهميتها وآثارها على رجل غير محمد فكان قريباً جدت كل قواها لمحاربة هذه الدعوة التي رفضتها تماماً، وهي في

هذا تعطينا مثلاً من ظاهرة الرفض الاجتماعي Social rejection وهي رفض المجتمع لكل ما نحس أنه غريب عليها ضار بسمعته، وليس من الضروري أن يرفض الجسم ما يضره مما يحس أنه غريب عن كيانه فقط بل هو يرفض ما ينفعه أيضاً، كما يرفض الجسم الكلية السليمة التي تزور فيه وساجها ويقتلها وفيها حياته. وهذا ما كانت قريش تفعله الآن: كانت تهاجم الإسلام وتلفظه وهو حياة لها، ولكن الإسلام في نفس الوقت كان لا يقنع بأقل من تغيير نظامها كنه وعقليتها كلها ويبنى مكان ذلك نظاماً جديداً وعقلية جديدة. وهذا كان عند القرشيين مستحيل القبول.

حصار بني هاشم وبني المطلب في الشعب :

بست قريش إذن من التأثير على محمد ﷺ وكفه عما كان سادراً فيه بالمناقشة فلم يبق أمامها إلا العنف. وقد لاحظنا أن أهم ما كانت تحرص عليه قريش هو ألا يتصدع بناؤها بحرب دامية بين بني هاشم وأنصارهم وهم المطليون وبقيّة قريش، ولهذا فقد رأوا أن خطوة جديدة هي دون الحرب ولكنها خطوة خطيرة: مقاطعة بني هاشم ومحاصرتهم في شعبهم أي حبيهم.

فقد اجتمع رؤساء قريش في ناديهم وقرروا حصر بني هاشم وبني المطلب في شعبهم أي حبيهم من مكة، وقرروا مقاطعتهم اجتماعياً واقتصادياً، وقاموا هم بأنفسهم بتنفيذ ذلك القرار، ونفذوه بالفعل بإحكام وفاعلية هما أقوى وأفضل من المحاكمة والسجن والبطش، والخبر مشهور نعرفه برواية ابن اسحاق ولكن ابن سيد الناس في (عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير) يرويه بصورة أكمل برواية ابن اسحاق وموسى بن عقبة معاً^(١)، قال :

(١) كان محمد بن اسحاق بن يسار المسيحي المطلبي يرى نفسه أصديق رواية السيرة ويقول أنا بيطار السيرة ولكن مالك بن أنس ومن تبعه من العقهاء كذبوه واتهموه بالتدليس وقالوا إن موسى بن =

١ - ثم إن كفار قريش أجمعوا أمرهم واتفق رأيهم على قتل رسول الله ﷺ وقالوا: قد أفسد أساءنا ونساءنا فقالوا لقومه خذوا منادية مصاعفة ويقتله رجل من غير قريش أو تريحوسا وتريحون أنفسكم، فأبى قومه بنو هاشم من ذلك، فطاهرهم سو عند المطلب بن هاشم.

٢ - فاجتمع المشركون من قريش على منابذتهم، واخرجهم من مكة إلى الشعب.

٣ - فلما دخلوا إلى الشعب أمر رسول الله ﷺ من كان بمكة من المؤمنين أن يخرجوا إلى أرض الحبشة. وكان (كذا) متجراً لقريش فكان يثني على النجاشي بأنه لا يظلم عنده أحد. فانطلق إليها عامة من آمن بالله ورسوله.

٤ - ودخل بنو هاشم وبنو المطلب شعبهم مؤمنهم وكافرهم، فاللؤم من ديناً، والكافر حية.

٥ - فلما عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد منعه قومه أجمعوا على ألا يبيعهم، ولا يدخلوا إليهم شيئاً من الرقيق، وقطعوا عنهم الأسواق ولم يتركوا لا طعاماً ولا إداماً ولا بيعاً إلا بادروا إليه واشتروه دونهم.

٦ - ولا يناكحوهم.

٧ - ولا يقبلوا منهم صلحاً أبداً ولا تأخذهم بهم رافة حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل.

= عفة هو شيخ المعاري أما ابن سيد الناس فهو فقيه أنطلي الأحملي مصري المولد والسكن والحياة وأسمه محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن سيد الناس توفي في القاهرة سنة ٧٣٤ هجرية وهو من أعظم علماء القرن الثامن الهجري في العالم الإسلامي كله.

٨ - وكتوا بذلك صحيفة وعلقوها على الكعبة .

٩ - وتمادوا على العمل بما فيها من ذلك ثلاث سنين .

١٠ - فاشتد البلاء على بني هاشم في شعبهم وعلى كل من معهم .

١١ - فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم قوم من قصي بمن ولدتهم بنو هاشم ومن سواهم ، فأجمعوا أمرهم على بقص ما تعاهدوا عليه من الفدر والسراة (منه) .

١٢ - وبعث الله على صحيفتهم الأرضة فأكلت ولحست ما في الصحيفة من ميثاق وعهد .

١٣ - وكان أبو طالب في طول مدتهم في الشعب يأتي رسول الله ﷺ فيأتي فراشه كل ليلة حتى يراه كل من أراد به شراً أو غائلة ، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوته أو بني عمه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ ، وأمر رسول الله ﷺ أن يأتي بعض فرشهم فيرقده عليها .

١٤ - فلم يزالوا في الشعب على ذلك إلى تمام ثلاث سنين .

١٥ - ولم تترك الأرضة في الصحيفة اسماً لله عز وجل إلا لحسته وبقي ما فيها من شرك أو ظلم أو قطيعة رحم .

١٦ - فاطلع الله رسوله على ذلك ، فذكر رسول الله ﷺ ذلك لأبي طالب ، فقال أبو طالب : لا والثواقب ما كذبتني .

١٧ - فانطلق في عصاية من بني عبد المطلب حتى أتوا المسجد وهم خائفون لقريش .

١٨ - فلما رأتهم قريش في جماعة أنكروا ذلك ، وظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء ليسلموا رسول الله ﷺ برمته إلى قريش .

١٩ - فتكلم أبو طالب فقال: قد حرت أمور بيننا وبينكم نذكرها لكم، فأتوا بصحيفتكم التي فيها مواقفكم فلعله أن يكون بيننا وبينكم صلح

٢٠ - وإنما قال ذلك أبو طالب خشية أن يظروا في الصحيفة قبل أن يأتوا بها.

٢١ - فأتوا بصحيفتهم معجبرين، لا يشكون أن رسول الله ﷺ يدفع إليهم فوضعوها بينهم، وقالوا لأبي طالب: قد آذ لك أن ترجعوا عما أحدثتم علينا وعلى أنفسكم.

٢٢ - فقال أبو طالب: إنما أتيتكم في أمر هو نصف بيننا وبينكم: إن ابن أخي أخبرني، ولم يكذبني - أن هذه الصحيفة التي في أيديكم قد بعث الله عليها دابة فلم تترك له فيها اسماً إلا لحته، وتركت فيها غدركم وتظاهركم علينا بالظلم فإن كان الحديث كما يقول فأبقوا: فلا والله لا تموت حتى نسلمه من عند آخرنا، وإن كان الذي يقول باطلاً دفعنا إليكم صاحبنا فقتلتم أو استحييتم.

٢٣ - فقالوا قد رضينا بالذي تقول. ففتحوا الصحيفة فوجدوا الصادق والمصدوق ﷺ قد أخبر بخبرها قبل أن تفتح.

٢٤ - فلما رأته قریش صدق ما جاء به أبو طالب عن النبي ﷺ قالوا: هذا سحر ابن أخيك. وزادهم ذلك بغياً وعدواناً.

وتلي هذا الخبر رواية أخرى للجزء الأخير منها لا يختلف عما أوردناه إلا في قليل. وإنما أوردت هذا الخبر مقسماً إلى فقرات ليسهل علينا تحليله واستخراج كل ما فيه من الحقائق والمعاني التاريخية وهذا التقسيم في ذاته جزء من التحليل أو هو الخطوة الأولى منه والنصوص التي بين أيدينا مادة خامه - وقدرة المؤرخ تتبين من قدر ما يستخرج منها من الحقائق بعد أن يستوثق من أنها نصوص صحيحة تحتوي على مادة علمية يمكن الاستفادة منها. وأهم ما يعيننا في

دراسة هذه الفقرات هو أن نعرف الطريقة التي كان نظام قريش يعمل بها أو ما يسمى بميكانيكية النظام أو ما يسمى باسم System Mechanism وكيف أن هذا النظام الذي يبدو لنا من أسماء وطائفه مثل الرقادة والسقاية واللواء أنه نظام شكلي أو ما يسمى في التحليلية باسم decorum وأن تلك الوظائف كانت شكلية مجرورها أصحابها للشرف والمظهر، بل كانت وظائف أو أجهزة ذات عمل حقيقي functional. حقاً إنها لم تكن وظائف بمعنى الكلمة ولكنها كانت أجهزة Organisms تقوم بعملها بفاعلية حقيقية، وهدفها الأخير هو حماية قريش وتمكين سلطانها على مكة، وهو سلطان عام كما رأينا أي أنه لا يتركز في أشخاص معينين، بل في أن أهل مكة كلهم مشتركون فيه مسارعون إلى تنفيذه بأسلوب قبلي لا إداري، فالتناس هنا يعملون لحماية كيانهم الفردي والجماعي طواعية وعن احساس بأنهم يخدمون أنفسهم لا سادة قريش فحسب، فإذا أخطأ واحد منهم أو قصر حوسب على نقصه أو إهماله أو مخالفته. وسنرى في النهاية أنه لم يكن نظاماً جامداً خالياً من النوازع الإنسانية، لأن قريشاً كانت مترابطة الأوشاج والأرحام وكانت علاقات الصهر شاملة متشابكة لا دخل فيها لطبقية أو تفاضل، فقريش يصاهر أخاها بعضها بعضاً دون حرج، والقرشيون يصاهرون غير القرشيين دون شكليات، والجار يصاهر المجير والسيد يتزوج الأمة، وسنرى مصاديق ذلك بعد تحليلنا لهذا النص الطويل الخافل بالمعاني والحقائق التاريخية وقد تعود الناس أن يمجروا به مسرعين ناظرين إلى نهايته أي إلى انفراج أزمة المسلمين ونهاية الحصار، وهذه النظرة الأخيرة لا تعين على إدراك قوة الإسلام وما وضعه الله سبحانه فيه من الحيوية والفضائل بحيث استطاع أن يقوض دعائم نظام قومي متماسك مثل النظام المكي القرشي، وما تميز به رسول الله ﷺ من خلل وشمائل وعقل راجع وخلق متين وعزيمة تزلزل الجبال، فهذا الرجل - رسول الله ﷺ - أقصد - وقف معظم هذه الفترة وحده تقريباً أمام هذا النظام المتأصل، يحمل القرآن العظيم والإيمان الثابت في قلبه ويعمل في صبر ودأب على إزاحة هذه الصخرة من طريقه دون

أن يحطمها، لأنه ﷺ كان يعرف قدر القرشيين وما يمكن أن يقدموه من الخدمات للإسلام، وكان يدرك حقيقة كبرى غابت عن معظم مؤرخينا القدامى والمحدثين أيضاً، وهي أن ذلك النظام الذي كان الإسلام يواجهه كان يقوم على رجال لا على وظائف، فالرفادة هنا ليست وظيفة الرفادة، بل هي شخصية من يقوم بها، وكذلك السقاية واللواء، فالقوة الحقيقية في هذا التنظيم كانت في رجاله وصواب اختيار الناس لهم اعتماداً على ما يعرفون من مواهبهم، ويكفي أن نلاحظ أن رسول الله ﷺ احتفظ لأصحاب هذه الوظائف - بما لا يتعارض مع الإسلام - بوظائفهم حتى بعد إسلامهم، فهو في صراعه مع قريش بعد الهجرة يحتفظ لبني عبد الدار باللواء، ففي موقعة بدر كان حامل لواء المسلمين من بني عبد الدار ويبدو أن رسول الله قد أخذ عليهم يومذاك شيئاً، فلما كان يوم أحد أراد أن يعطي اللواء لغيرهم ففضبوا وتمسكوا بهذه الوظيفة تمسكاً شديداً، فسلم لهم الرسول بحقهم وأعطى اللواء مصعب ابن عمير، ومن غريب ما نلاحظ أن حامل اللواء في معسكر المشركين يوم أحد كان من بني عبد الدار أيضاً، وكذلك كان فيهم لواء المسلمين، مما يدل على أن اللواء لم يكن مجرد شيء شرعي، بل وظيفة حقيقية لها دورها في تنظيم قريش، ودورها يعتمد على أصحابها، لأن النظام المكي كان نظام رجال، لا نظام وظائف كما قلنا، فالوظيفة بالرجل لا الرجل بالوظيفة، ومما يدل على عمق نظرة الرسول ﷺ أنه بعد أن عاد من معركة بدر ودخل المدينة ظافراً سمع سلمة بن سلامة بن وقش يقلل من أهمية النصر العظيم ويقول في سذاجة: إن لقينا إلا رجالاً ضلعماء. فقال له رسول الله ﷺ: يا ابن أخي، أولئك هم «أهل» أي أولئك هم الرؤوس المفكرة المدبرة، أولئك هم مستقر القوة القرشية سلهم القوة نفسها، وبالفعل لقد كانت معركة بدر معركة أولئك الرجال، وكان القرشيون يدركون ذلك تماماً، والدور الثالث كله من معركة بدر كان معركة أبي جهل، وقد أدرك المحروميون ذلك فقاموا دون ذلك الرجل يدفعون عنه وكأنه «بيضتهم» حتى قتل منهم أكثر من سبعة عشر رجلاً قبل أن يصل المسلمون إليه

ويقضوا عليه . ولم تغب هذه الحقيقة عن المسلمين قط ، فقد كان كل منهم يريد قتل أبي جهل حتى إننا لا نعرف في النهاية من الذي قتله منهم ، فإذا قلت إن أبا جهل لم يقتله فلان أو فلان بل قتله الإسلام لم تعد الحقيقة ، وبالمثل كان مصرع أبي جهل هو مصرع العصر الجاهلي كله ، فلم يكن أسوأ جهل مجرد رجل ، بل كان رمزاً لنظام أو روحاً له ، فلما قتل انتهى النظام كله

وهذا يبين لنا جانباً من جوانب عبقرية الإسلام وعبقرية محمد معاً ، فإن الإسلام بتنظيمه الاجتماعي وقوامه القانوني وتركيزه على الفضائل الإسلامية والقوى الكبرى التي أودعها الله فيه هو الذي هدم النظام القرشي كله . ومعركة الإسلام مع النظام الجاهلي كانت أعنف وأطول مدى من معركته مع نظامي الروم والفرس ، لأن نظم الفرس والروم كانت تقوم على وظائف يملؤها رئيس الدولة ، وفي عصور تدهور النظم يجري شغل الوظائف على أساس الهوى أو القرابة أو الوراثة أو ربما الرشى ، فيضعف النظام كله رغم ضخامة هيكله ، ولا يصمد في الدفاع عنه إلا أصحابه والمفيدون منه ، وما أقلهم في عصور التدهور . أما النظام المكّي القرشي فكان نظاماً جماعياً يفيد منه معظم أفراد القبيلة . ومعظم خصومه كانوا من نزلاء مكة والطارئين عليها والملاحقين بالقرشيين ما بين عبد وحليف أو أسير أو تاجر ضعيف . ولهذا طالت المعركة ، وكلما زاد ضغط الإسلام زاد إحساس قريش بالخطر وزاد تماسكها ، وانتهى الأمر قبيل خروج الرسول ﷺ إلى الطائف إلى تجمد النظام القرشي في مكانه بدافع الخوف . وهنا أدرك الرسول أنه لم تعد هناك فائدة ترجى من ذلك النظام ، لأن الخوف يشل التفكير والحقد يوقف الذهن عن التصرف ، وهذا هو الذي عناه الله سبحانه وتعالى بآيات بيّنة مثل قوله سبحانه ﴿أَنَا جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ أَكْثَةً أَنْ يَفْقَهُوهُ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْءَانٍ نَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذْ أَبَدْنَا﴾ (الكهف ٥٧) و﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتوراً ، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكْثَةً أَنْ يَفْقَهُوهُ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْءَانٍ وَإِذَا ذُكِرَتْ

ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً﴾ (الإسراء ١٧/٤٥ - ٤٦) فهذه صورة أساس شل الخوف قواهم الفكرية، فوقفوا مدعورين متماسكين. ﴿وقالوا: قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون﴾ (فصلت ٥) أي أننا لن نغير من موقفنا هذا مهما فعلت، وكان كل ما بقي لهم أن يقولوه للرد على القرآن ورسول الله أن تصوروا أنه ساحر أو مسحور: ﴿إذ يقول الظالمون أن تنبئهم إلا رجلاً مسحوراً﴾ وفي سورة المدثر آيات تصور هذا الموقف ببلاغة يعجز عنها الوصف، وذلك حين يقول الله سبحانه: ﴿فما لهم من التذكرة معرضين، كآبهم هم مستنفرة، فرت من قسورة﴾ (٤٨ - ٥٠).

والقسورة: - أي الأسد - هنا هو الإسلام.

وعسى من يحسب أن في هذا الكلام زيادة لقدر القرشين أعداء الإسلام، وليس أبعد عن الصواب من هذا الظن، فإننا عندما نقلل من أهمية القرشين ونجعلهم جماعة من الحمقى، فإننا في نفس الوقت نقلل من قيمة نصر الإسلام وتفوق محمد ﷺ عليهم، وما قيمة التغلب على خصم حقير لا يساوي شيئاً؟ حقاً إن الرجل بأنصاره، ولكن الرجل أيضاً بخصومه، وما جعل الناس يعيدون عن إدراك قدر الفترة المكية من حياة الرسول صلوات الله عليه إلا مثل هذا التصوير البعيد عن الحقيقة، فما معنى هذا الدأب على محاوره نفر من الأغبياء والحمقى؟ لقد ظل رسول ﷺ يشد عليهم وحده حتى ضاقت عليهم الأرض، وأوقع في قلوبهم بشخصيته وخلقه وتصرفه هيئة كبرى، وتلك الهيئة هي الحماية التي أضاعها الله على رسوله فلم يجرؤ خصومه عليه، أو هل تحسب أنهم لم يقتلوه خوفاً من أبي طالب وبني هاشم؟ إن أقصى ما كان عليهم أن يؤدوه إذا هم عدوا عليه هي الدية أو الدية المضاعفة وقد عرصوها فعلاً، وما كان سو هاشم وبنو عبد المطلب وأنصارهم بقادرين على الثبات لخصومهم

الاقوياء طويلاً. ومهما كان الأمر فقد كانوا سيقبلون الدية مهما حاربوا. كان ذلك واضحاً في كل مرحلة من مراحل الصراع، فما الذي أوقعهم عن أن يقدموا على تلك الجناية؟ هيبة محمد ورسالته في قلوبهم حقاً إن الله عصمه من الناس ولكنه عصمه بالهبة التي كانت له في النفوس، وهي جانب من عصمة الله إياه مرة أخرى نرى اهم كانوا همرا مستنفرة فرت من قسوة، والقسوة ها هذه المرة هو رسول الله ﷺ الذي أوتي من الشجاعة والثقة في الله وفي نفسه ما جعله يظل رابضاً في مواجهة أولئك القوم يطاردهم فعلاً، حقاً لقد قال الله سبحانه وتعالى له: «يا أيها النبي بلغ رسالتك والله يعصمك من الناس، ولم يكن هو يشك في أن الله سبحانه وعصمه، ولكن إليك خبراً يسوقه ابن كثير يوضح لك جانباً من معنى هذه العصمة، فقد كان رسول الله لا يياس أبداً من استجابة المكيين لما كان يدعو إليه. كان أبو جهل يتجنب لقاءه وهو يلاحقه طمعاً في هدايته وقبل الهجرة بقليل لقي أبا جهل فقال له: أما أن لك أن تشهد ألا إله إلا الله وأني رسول الله؟ فرد عليه أبو جهل قائلاً: «أما تريد أن تقول إنك بُلِّغْتَ. فقد بُلِّغْتَ».

وهذه مقالة رجل يريد أن يتخلص من موقف يشعر فيه بضعف أو حرج، فهو لا يكابر ولا يناقش ولا يعنف وإنما يريد أن يتخلص، إنه حمار مستنفر يفر من قسوة. وقد عبر ابن إسحاق عن هذه الهبة المحمدية تعبيراً بليغاً حين قال: «وقد كان عدو الله أبو جهل بن هشام مع عداوته لرسول الله ﷺ وبغضه إياه وشدة عليه بذله الله إذا رآه»^(١)، ونعود إلى تحليل رواية ابن إسحاق عن حصار قریش لبني هاشم وبني عبد المطلب في شعبهم ومقاطعتهم إياهم.

ففي الفقرة الأولى نرى القرشيين من أعداء الإسلام يعرضون على بني

(١) ابن إسحاق رواية ابن هشام، ج ١ ص ٣٨٨

هاشم اقترحاً يرون أنه معقول من وجهة النظر الحاهلية وهي أن يوعروا إلى رجل غير قرشي بقتل رسول الله ﷺ حتى لا تكون هناك عداوات وثرارات وفي نفس الوقت يقومون هم بدفع الدية إلى بني هاشم، وهم براء منهم أو منهم الدم.

ولم يكن من الممكن أن يقبل أبو طالب وبني هاشم وبني المطلب معه اقترحاً مثل هذا، لأن معناه أنهم يبيعون رجلاً من أبناء قبيلتهم بطريقة خسيسة مهينة ثم إن بني هاشم وبني عبد المطلب أدركوا أهمية الدعوة المحمدية بالنسبة لهم، وخاصة أولئك الذين لم يؤمنوا فقد تصوروا كما قلنا أن تلك الدعوة تعيد إليهم هيبته ومكانتهم، ومن ثم فإنهم لم يكونوا مستعدين للمساومة عليه. هذا في حدود المنطق العادي، ولكننا ينبغي أن ندخل هنا في حسابنا هبة محمد في قومه وقد أشرنا إليها فيما سبق، لقد كان أبو طالب شيخهم، ولكن شخصية أبي طالب تضاءلت جداً أمام شخصية محمد، فالذين آمنوا به منهم تمسكوا به لأنه رسول الله ﷺ، والذين لم يؤمنوا تمسكوا به لأنه بدا لهم قوة كبرى تزيد قدرهم، وقد كانت هيبته في قلوبهم أجمعين عظيمة.

وتتحدث الفقرة الثانية عن انصاف قريش على منابذة بني هاشم أي حصرهم في الشعب، ولا يظن ظان أن دخول الشعب أنه كان محظوراً عليهم الخروج منه فإن منعهم من الخروج والدخول غير متصور. ولكن القرشيين كانوا يستطيعون منع غير الهاشميين وغير المطلبين من دخول الشعب، لا بقوة حراسة أو شرطة بل باستنكار ذلك واعتباره عملاً لا ترضى عنه القبيلة. وكان لقريش من القوة المعنوية ما يمكنها من جعل القرشيين من غير بني هاشم يتجنبون دخول الشعب تفادياً للمتاعب. أما بنو هاشم وبني المطلب فإن الذين يخرجون منهم من الشعب لا يجدون من يكلمهم أو يعاملهم أو يبيعهم أو يشتري منهم شيئاً، فهم مقاطعون مقاطعة فعلية، ومن هاهنا فسر الطيحي أن

نجدهم يقيمون في شعهم أي حبيهم لا يرحلون منه .

وقد نجح الحصار فعلاً وآتت المقاطعة ثمراتها بعد شهر، فندر الطعام في بيوت بني هاشم حتى حاق الأطفال والنصاف وتآذى الشيوخ، وأسوأ من ذلك أن المقاطعة أكلت أموال بني هاشم وبني عبد المطلب، فهؤلاء كانوا جميعاً تجاراً يعيشون من البيع والشراء . ولم يكسبوا في حملتهم من الأثرياء ذوي رؤوس الأموال الكبيرة فإن عليهم الفقر وجاع الناس حتى كان يسمع بكاء الأطفال، مما يدل على أن الحصار والمقاطعة كانا محكمين أي أن قريشاً دون شرطة أو سجون استطاعت أن تسجن - جذمين كبيرين من أجدانها سجناً فعلياً وتكبدتهم خسائر جسيمة هي أشبه بالمخارم المألمة التي توقعها المحاكم على الناس، ومعنى ذلك أن قريشاً كانت لها بالفعل سلطة تنفيذية حقيقية تستطيع بها أن تعاقب وتؤدب من تريد عقابه وتأديبه، وإذا كان العقاب قد وقع هذه المرة بالفئة الصالحة التي كانت تريد لقريش خيراً عظيماً لم تتببه بصائر رجالها، فإنه لا بد أنه كان كفيلاً بحماية قريش مما يرى رجالها وملؤها أنه خطر يهددها .

وفي الفقرة الثالثة نرى حديثاً عن هجرة من بقي من المسلمين الذين خاف عليهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى الحبشة، ونظن أن المراد بذلك الهجرة الكبيرة الثانية إلى الحبشة التي ذكرها المؤرخون، وقد تبين لنا من الدراسة أن الهجرة إلى الحبشة بدأت بعده كبير من المسلمين بعد وقوع المواجهة الصريحة بين المسلمين والمكبيين عقب خروج المسلمين من دار الأرقم بعد إسلام عمر وتخليد قريش بالمحاضرة بالإيمان والصلاة وقراءة القرآن في الكعبة ثم استمرت في صورة تيار صغير متصل، فقد انفتح باب المحبرة وعرف المسلمون إلى أين يتجهون للنجاة بدينهم بعد أن أدن لهم رسول الله ﷺ في ذلك ثم كانت هذه المحبرة الكبيرة الثانية عندما اشتدت المقاطعة وحاف رسول الله على من بقي من أصحابه مكشوفاً لعدوان القرشيين، وتلك هي الموجة

الثانية الكبيرة من المهاجرين إلى الحبشة، وعددهم ٨٣ رجلاً وإحدى عشرة امرأة من قريش وسبع «عرائث» أي عريبات عن قريش وقد أورد لنا ابن هشام بياناً وافياً به نقله عن ابن اسحاق^(١).

والفقرة الرابعة تدل على تماسك بني هاشم وبني عبد المطلب، فقد دخلوا جميعاً الشعب وتمسكوا بقومهم، فالمؤمن منهم تمسك ديناً وغير المؤمن تمسك حمية، ومن الممكن تعميم ذلك على بقية بطون قريش، فإن الجانب الآخر - أقصد المشركين - وقف متمسكاً مصرّاً على ما قدره من أوغام المخالفين على طاعة القبيلة والتخلي عن محمد وإسلامه، وأغلبيتهم فعلت ذلك اقتناعاً والبقية نفذته اتباعاً على سبيل التمسك بالمعصية القبلية.

وفي الفقرة الخامسة نرى كيف كانت عملية الحصار والمقاطعة تتم، فالفقرة تتحدث هنا عن تشديد قريش لإجراءات الحصر والمقاطعة، ونرى هنا كيف فعلت قريش ذلك، فهي لم تصدر إلى أفرادها قراراً بمقاطعة الهاشميين والمطلبين بل تفاهم رجالها على ذلك ضمناً: قرره الملا ونفذه الباقون، وبدلاً من أن يحرموا التعامل مع من اعتبروهم خصومهم، فلم تكن لديهم الأداة التنفيذية لذلك بل كانوا إذا أراد الهاشميون شراء شيء من الطعام والميرة (الرّفق) يادروا إلى شرائه من دونهم، وإذا أراد الهاشميون بيع شيء لم يجدوا من يشتريه منهم، فركدت سوقهم ونوقف التعامل معهم، وحرّموا دخول الطعام إلى المحصورين لا بإيقاع عقوبة عليهم وإنما بتذكير من يقدم على ذلك بأنه يفعل شيئاً معادياً للجماعة ويُعرّض نفسه تبعاً لذلك للعقوبة بالمقاطعة وربما أشد.

والفقرة السادسة تروى نوعاً آخر من أنواع العقوبات التي قررت قريش

(١) انظر سيرة ابن هشام ٣٤٤/١ وما يليها، والنويري، نهاية الأرب ٢٤٣/٦ وما بعدها

إسزأها تلك العنة التي اعترتها خارحة على نظامها مهددة لسلامتها وأمنها
وسمعتها وهو إيقاف المعاهدات بين بني هاشم وبني عبد المطلب وبين بقية
قريش وسكان مكة وتلك عقوبة قاسية ومهينة، لأنها تعتر بني هاشم وبني
المطلب أعداء الداء لبقية قريش وتبهم لأنها تعترهم أذى مقاماً من بقية
القبيلة ولا ندرى إن كانت تلك العقوبة قد نفذت أم لم تنفذ، ولكن وقعها لا بد
أنه كان أليها على المقاطعين على أي حال.

والفقرة السابعة تبين الشروط التي وضعتها قريش لرفع هذه العقوبات
القاسية عن بني هاشم وبني المطلب فهي لن تصالحهم ولن تأخذهم بهم رافة
حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل، وهذا الشرط يبين لنا مقدار ثقة قريش في
نفسها وإصرارها على إذلال بني هاشم وبني المطلب إلى أقصى درك يمكن
تصوره بالنسبة لبطنين رفيعي القدر في أنفسهم مثل بني هاشم وبني المطلب
ومن الواضح أن هذين الحين ما كان من الممكن أو حتى من المتصور أن يلقي
مثل هذا الهوان، فإنها كانا فريقين قويين لهما قوة وحسب وجلال ومكانة ولهذا
فإن هذا الشرط من جانب قريش كان شرطاً أملاً السفه والغرور، وما كان من
الممكن أن يرضخ المحاصرون لهذا العنت والشطط.

والفقرة الثامنة تقرر أن قريشاً كتبت بهذا القرار أو العهد كتاباً علقوه على
الكعبة، وهذا هو الغالب، ولا معنى للإنكار إمكانية كتابته وتعليقه في الكعبة
بحجة أن قريشاً كانت قبيلة أمية في الغالب والواقع أن قريشاً كانت غالبيتها
العظمى من الأميين، فما كانت هناك حاجة لهذه الغالبية إلى أن تكتب، ويكفي
أنه كان من القرشيين من يكفيهم حاجتهم من القراءة والكتابة.

أما ما يرد في الفقرة التاسعة من أن العمل بما في هذه الصحيفة استمر ثلاث
سنوات فجائر وإن كان الأقرب إلى المنطق وحساب توقيت الفترة المكية أن مدتها
كانت سنتين كما ورد في بعض الروايات.

والفقرة العاشرة تقرر أن البلاء اشتد على بني هاشم ومن كان معهم في شعبهم ، أي أن سلاح الحصر والمقاطعة بلغ ذروة تأثيره وسريانه .

وإنه لما بدعوا إلى التأمل كيف أن قريشاً استطاعت دون عف ودون وجود قوة تنفيذية طاهرة من أن تسرل عقاباً شديداً لجماعتين من جماعات قريش القوية هما بنو هاشم وبنو المطلب ، فقد نال الجماعتين أدى شديد ، وأثبتت العقوبة فاعليتها ، فإلى جانب ما ذكرناه من أسباب الجماعتين من فقر ومقاطعة كاملة توقف دخول الناس في الإسلام خوفاً من أن يصيبهم ما أصاب من لا يرضى عنهم ملأ قريش ، ومع أن المحاصرين والمقاطعين لم يكونوا سجناء في حيههم فقد كانوا يستطيعون الخروج والدخول إلا أنهم إذا خرجوا لم يجدوا من يبيعهم أو يشتري منهم أو حتى يكلمهم مما أدى بهم في النهاية إلى لزوم شعبهم والشعب هو الحي كما قلنا . وهذا يدل على أن سلطان قريش في مكة لم يكن مجرد رمز ، وهذه حقيقة ينبغي أن ننبه عليها . وهنا يتحرك عصب آخر من عصبات تكوين قريش ويبدأ في العمل فقريش لم تكن دولة وإنما هي قبيلة ، والقبيلة تكوين اجتماعي أولاً وسياسي ثانياً ، وروابط القرابة بين الأفراد ووئائج الرحم والصهر بينهم هي أساس تكوينه وقوته ، فالناس يعملون فيه بالولاء للقبيلة في مجموعها أولاً أو في اتجاه الخارج ، ثم بعواطف القرابة والولاء للعواطف والعلاقات الفردية ثانياً ونحو الداخل . وهذا الولاء هو في نفس الوقت الولاء للقبيلة وهما أساس قوتها كوحدة سياسية واجتماعية ، والقرار الذي اتخذته قريش حيال بني هاشم وبني المطلب قرار سياسي يتعارض أساساً مع العواطف القبلية العصبية الفردية أي أنه يتعارض مع التكوين الداخلي للقبيلة وتنظيمها .

ثم إنه كان قراراً ضد اثنين من أكر البطون المكونة لقريش هما سو هاشم وسو المطلب ، وعلاقات الصهر والقرابة بين هذين البيتين وبقية بيوت قريش كانت وثيقة فأم محمد رضي الله عنه من بني زهرة كلاب بن مرة بن كعب بن

لؤي بن غالب بن فهر، وزوجته أم المؤمنين خديجة من بني أسد بن عبد العري
 ابن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، وحمة بن عبد
 المطلب وهو أخ أصغر لأبي طالب كان أمّاً لآمنة عم أمّة وهي هالة بنت وهب
 ابن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وعمر بن الخطاب هو ابن حنمة بنت مقبل
 من بني عدي بن كعب بن لؤي، وهو أخو فاطمة روح سعيد بن زيد بن عمرو
 ابن نفيل بن عبد العري من بني كعب بن لؤي، وأبو سلمة بن عبد الأسد كان
 ابن عم لأبي جهل، فهو عبدالله بن عبد الأسد بن هلال بن عمر بن مخزوم بن
 يقظة بن مرة، وأبو جهل هو أبو الحكم عمرو بن هشام بن عبد الله بن عمر بن
 مخزوم بن يقظة، وعثمان بن عفان هو ابن أبي العاصي بن أمية الأكبر بن عبد
 شمس، فهو ابن عم لأبي سفيان بن حرب، والأرقم بن أبي الأرقم كان ابن
 عم لأبي جهل، يجتمع نسبهما في عبدالله بن عمر بن مخزوم، وهكذا. فلم يكن
 أحد من أولئك المحصورين المقاطعين إلا قريباً لواحد أو أكثر من المقاطعين
 المحاصرين.

وكان طبيعياً والحالة هذه أن يتحرك نفر من القرشيين لعون بني هاشم
 وبني المطلب وأقاربهم من المحصورين بشيء من الطعام، وكان أكثر الناس
 إقداماً على ذلك هشام بن عمرو بن الحارث العامري وكان قريباً لخديجة، فقد
 كان يغافل قريشاً ويدخل أحوال الطعام إلى بني هاشم في الشعب، فعرف
 القرشيون ذلك وكلموه فيه، وكان قد حل في ليلة واحدة ثلاثة أحوال طعاماً،
 فلما كلموه في الصباح قال: إني غير عائد إلى شيء خالفكم! ثم عاد يغافل
 قريشاً حتى حل إلى المحصورين في ليلة حملاً أو حملين من الطعام، يريد الفمخ
 فغالطوه وهموا به فتدخل أبو سفيان وقال: دعوه، رجل وصل رحمه، أما والله
 إني أحلف بالله لو فعلنا مثل ما فعل كان أحسن

وحرّض على تحطّي قرار المقاطعة - بدافع الرحم - حكيم بن حرام وكان
 ابن أخ لخديجة فهي عمته، فحمل إليها في الليل طعاماً، فعاتبه في ذلك أبو

جهل، فتدخل أبو البختری العاص بن هشام بن الحارث بن أسد بن عد
العزي وهو ابن عم لخديجة، وقال لأبي جهل: طعام كان لعمته عده أتمنعه
أن يأتيها طعامها؟ خلّ عن الرجل. فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من
صاحبه، فأخذ البختری لحي معبر، فصر به فشقّه. ووطئه وطئاً شديداً^(١).

وشيثاً فشيثاً بدأ القرشيون من ذوي المروءة والإحساس الإنساني
يتحركون لإيقاف هذا العقاب الأليم لنفر من ابنائهم وبناتهم وأبناء عمومتهم
بسبب متابعتهم لمحمد رسول الله على ما كان يدعو إليه، وكان أكبر المتحمسين
لذلك المظلم بن عدي وكان كذلك قريباً لخديجة وأبو البختری العاص بن
هشام الذي ذكرناه، وزهير بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي وزمعة بن الأسود
ابن المطلب وهو ابن عم لرسول الله ﷺ وكان عضواً ظاهراً من بيت المطلب بن
عبد مناف المحاصر المقاطع.

وهنا يأتي تعليقنا على الفقرات الحادية عشرة وما يليها وكلها تتعلق
بنقض الصحيفة فيما عدا الفقرة الثالثة عشرة التي تدور حول خوف أبي طالب
على ابن أخيه محمد من أن يناله أذى أثناء الحصار، فكان يطلب إليه إن يغير
مكان نومه كل ليلة، وهو خوف مفهوم، لأن عمداً ﷺ قد أصبح بدعوته فخر
بني هاشم ورمز عزتها، فمن آمن به من بني هاشم كان يتبعه ويصدق فيه قال
ويعتبر نفسه من رجاله، ومن لم يؤمن به بعد منهم كان يتحمس له خيبة واعتزازاً
بالقربة والعصية، ولا شك في أن أبا طالب كان يحرص على سلامة محمد
بدافع العصية أولاً ثم بدافع من الإحساس بأهمية ما كان يدعو إليه ابن أخيه
بعد ذلك، فهؤلاء عدة كبير من بني هاشم رجالاً ونساءً يؤمنون به، ثم إن
الدعوة في ذاتها أعطت بني هاشم أهمية كبرى بعد أن أخلفهم غيرهم بعد موت

(١) ابن سيد الدس، عيون الأثر ١/١٣٠ والخبرها عن محمد بن اسحاق برواية أبي عمر بن
عبد البر السري بسند متين يختلف عن سند الكافي في روايته لمس ابن اسحاق وهي الرواية
السائدة عند الناس وهي التي اعتمد عليها ابن هشام

عد المطلب، وقد سبق أن قلنا إن محمّد أبي طالب لمحمد كان محمّساً عصبياً سياسياً، فهو لم يؤمن بالإسلام وهو من قله، ولكنه ظن أن الدعوة الإسلامية طريق لنبي هاشم للانتصاف من خصومه واستعادة مكانتهم.

ويروي ابن سيد الناس خبر نقض الصحيفة في أسلوب له طعم القصص وقد مهدنا لنقض الصحيفة تمهيداً تاريخياً منطقياً بعيداً عن حديث الأرضة وأكلها لكل شيء كتبت في قریش في الصحيفة إلا اسم الله سبحانه وتعالى أو أكلها لاسم الله سبحانه وتعالى لأننا في معرض التاريخ الصريح لا نحتاج إلى هذا القصص ولكننا لا نرى إنكار هذه الأخبار التي تعطي لبعض فقرات السيرة طابع المعجزات أو تصورها بصورة خارجة عن المألوف ولا ضير على من يريد أن يرددها فهي على أي حال لا تدخل في صميم التاريخ، ثم إننا هنا نتحدث عن نبوة ورسالة وسيرة نبي مرسل كريم اختصه الله برسائله السماوية، والإيمان بها عقل وعاطفة، وليس من الضروري إذن أن نستبعد الأخبار الصادرة عن فيض العاطفة وإن كانت قصصية الطابع، والقصص الذي يصدر عن العاطفة الصادقة مثل هذا الخبر يضيف إلى التاريخ عنصراً عاطفياً إنسانياً لا غنى له عنه، فمن أراد أن يأخذ بحديث الأرضة ودورها في نقض الصحيفة فهو وذاك. وأنا أجد في هذا الحديث وأمثاله طلاوة وتعبيراً عن عاطفة كريمة. وأنا إذ أقول ذلك لا أنكره ولكني أقول إن السياق التاريخي للحوادث لا يحتاج إليه دون أن يشكك فيه من يريدون الأخذ به. ولا محل للشك في تفاصيل تنصل بالنبوة، ومقامها عندنا وعند غالبية المسلمين وإنكارها على أساس أنها لا تجري مع المنطق إنكار لا معنى له. وما بال أقوام يقرأون خبر شق صدر النبي وتطهيره على يد ملكين مثلاً فيكرونه ويحتكمون فيه إلى المنطق مع أن التسليم بذلك لا يجرح في طبيعته ومعناه ومغراه عن التسليم بسزل الوحي، وحديث جبريل وإقرائه القرآن إن أصحابها ها ينسون أن الموضوع كله يتعلق برسالة سماوية وبرسول احتاره الله لحمل هذه الرسالة وقرآن

كريم لا يشك مؤمن في أنه كلام الله سبحانه الذي تنزل على محمد صلوات الله عليه بالصورة التي وصفها لنا ﷺ دون أن يكون لدينا دليل على ذلك إلا إيماننا برسول الله ﷺ وصدقه وأمانته وتبيننا من النظر في القرآن الكريم وتأمل آياته وما فيها من الحق والحكمة والإعجاز والخبر العميم للشعر أجمعين . هذا مع علمنا بأننا إذا أنكرنا الوحي والرسالة والوحيية القرآن فقد خرجنا عن نطاق الإيمان حلة ولم يعد لنا سبيل إلى الكلام في الإسلام والرسالة والرسول . أما حديث شق الصدر وتطهير القلب فهو تفسير لقول الله سبحانه إن الله اصطفى محمداً وطهره قبل أن ينزل عليه الرسالة، فإذا كانت الأحاديث الصحيحة المسندة ترى كيف طهر الله نبيه بشق صدره على يد ملكين وإخراج الشر من صدره فما وجه العجب في ذلك، ولماذا نستنكر أن يكون تطهير الله لنبيه عليه الصلاة والسلام قد تم على الصورة التي تجمع عليها الأحاديث الصحيحة التي رواها البخاري ومسلم وبقية أصحاب الصحاح والمسانيد وأصحاب كتب السنن . وقد روينا أخبار نقض الصحيفة رواية تاريخية منطقية، فإذا أراد بعض مؤرخي السيرة أن يضيفوا إلى ذلك حديث القلب والعاطفة والقصص فأي بأس في ذلك؟!

إن من أجمل خصائص سيرة المصطفى ﷺ أن رسول الله لم يعتمد في إدخال الناس في الدين على معجزات أو كرامات مع تسر إجرائها على يديه إذا شاء ذلك رب العالمين، والقرآن نفسه يؤكد ذلك مرة بعد أخرى، لأن المعجزة أو الكرامة قد تذهل من يراها وتدفعه إلى التسليم دفعاً، فماذا يكون الحال مع من لم يروا وقوع المعجزة؟ وماذا يكون حال الأجيال التالية لمن لم يروا المعجزة أو الكرامة؟ هنا تقول المسيحية الكاثوليكية باستمرار المعجزات والكرامات بعد عيسى صلوات الله عليه ومن هنا جاءت ظاهرة القديسين عندهم، وهي طاهرة برأ الله الإسلام منها وحماها بها اكتفاء بمعجزة واحدة كسرى هي القرآن الثابت المتواتر بصحة وسلامة إلى يومنا هذا، فمن لم يؤمن بإعجاز القرآن الخارق فهو لئيم يؤمن بأي شيء آخر، فأي فعل خارق يعدل القرآن في القوة والإقناع؟ وكل

معجزة قام بها نبي قل محمد هي أدنى بكثير من معجزة القرآن نفسه بما في ذلك إحياء الموتى وشفاء المرضى وما إلى ذلك وتحول العصا إلى حية وجمع أشلاء الطير المعروق وبعثه حياً بإذن الله مما يحدثنا القرآن به عن غير محمد ﷺ من الأسياء والمرسلين ، وفي القرآن في ذلك آيات بينات لعل أقربها إلى الدهش قوله تعالى

﴿قُلْ لِّئِنْ أَحْتَمَعْتَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً

ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل
فأبى أكثر الناس إلا كفوراً

وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً
أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً
أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً

أو تأتي بآفة والملائكة قبلاً
أو يكون لك بيت من زخرف
أو ترقى في السماء

ولن نؤمن لربك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه
قل سبحان ربي : هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴿ (الإسراء ٨٨ - ٩٣)

فهنا نرى كيف كان القرشيون يتحدثون محمداً ﷺ طالبين إليه أن يأتيهم بمعجزة لكي يصدقوه ، وهم يشتغلون في مطالعهم ، بل ينصون على نوع المعجزة التي يطلبونها حتى يطلبوا إليه أن يرقى إلى السماء ، وحتى لو رقى إلى السماء أمام أعينهم فهم لن يصدقوه حتى ينزل إليهم كتاب من السماء يقرأونه ، ويكون رد القرآن على هذا التحدي كله إعحاراً في ذاته فهو يأمر محمداً بأن يقول لهم ذلك القول الذي يعتبر وحده معجزة محمدية ينمرد بها الإسلام : ﴿قل هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾ فما هو مصانع معجزات وإعما هو نبي ، لأن معجزته الكبرى هي هذا القرآن ، ولهذا فقد بدأت الآيات بقوله تعالى ﴿قل لئن احتمعت الإس

والجن على أن يأتوا مثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً أي معيناً وهو لهذا معجزة مستمرة الحدوث والتأثير يتبينها الإنسان كلما قرأ القرآن، ومن هنا فلا حاجة لمحمد إلى معجزة أخرى. وهذا كله لا يمنع من القول بأن من يريد أن يدخل المعجزات في صميم السيرة فهو وما يريد، ومذهبه في هذا لا يتعارض مع صميم المنهج التاريخي.

إن الأمر هنا يتعلق بنبوة ورسالة، فالتصديق بها يكون بالإيمان أولاً ثم بالمنطق، وفي الآيات السابقة نرى مثلاً لذلك. فالقرآن هنا يقول لمحمد صلوات الله عليه أن يرد على المتخذين له بأنه بشر رسول، فإذا لم يؤمنوا بالرسالة اعتماداً على ما يرون من إعجاز القرآن وصدق الرسول فلا معنى لإقناعهم بإجراء معجزة، وعبرة: «قل سبحان ربي، هل كنت إلا بشراً رسولاً»، فيها بلاغ، فمن صدقه في قوله هذا فقد آمن، ويدون هذا التصديق فلا إيمان، وما دمت قد صدقت بالرسالة والوحي فهذا هو المهم والأساس، والبخاري ومسلم عندما يرويان حديث شق الصدر فهما يصدران في تصديقه عن إيمانها بصحة الرسالة، ونحن نروي السيرة النبوية دون حاجة إلى الاستشهاد بمعجزات. وليس من الضروري في هذه الحالة أن نقول إن شق الصدر مستحيل، لأن شق الصدر وإخراج العلقه للتطهير لا يختلف في طبيعته عن نزول القرآن ووحيه إلى محمد، وهذا من ذاك، وفي إمكانك أن تروي السيرة رواية سليمة دون أن تعرض لحديث شق الصدر لأن الدعوة تعتمد أساساً على القرآن الكريم وعلى شخصية محمد صلوات الله عليه وخلاله وشماله ومنهجه في الدعوة وذكائه البعيد وخلقه العظيم ورسالته في أداء رسالته وقدرته على اجتذاب الناس وإقناع من يهديه الله منهم بالكلمة الطيبة والحكمة والموعظة الحسنة وحموه السالغ على المسلمين وحرصه الشديد على المحافظة عليهم في ثباته في مواجعة الخصوم مع الحلم والشجاعة، ولا شك في أن اجتماع هذه الخلال كلها في رجل واحد أمر عجيب، وحسن استخدام محمد

لهذه الحلال كلها أمر معجز حقاً وخارق لما نعرفه من حلال الناس

ونعود إلى ما استطرّدنا عنه ليقول إن الحصر في الشعب والمقاطعة انتهيا بعوامل تتصل ببعض عوامل قيامها وهي العصية القبلية، فإذا كان القرشيون قد قرروا المقاطعة فقد دفعهم إلى ذلك الخوف على مصير قريش، وإذا كان بعض رؤسائهم قد قرروا إيقاف المقاطعة والحصار فإن دافعهم إلى ذلك كان الخوف على مصير فريق من قريش أشرفوا على الهلاك وكان أسلوبهم في تنفيذ قرار المقاطعة قبلياً عصبياً يعتمد على الطاعة الواعية لرياسة القبيلة وهي الملا. ولهذا كانت للقرار قوة تنفيذية وفاعلية، فقد قوطع بنو هاشم وبنو المطلب مقاطعة فعلية وسجنوا في شعبهم سجنًا أفعل من السجن وراء القضبان.

وكان الذين نادوا بنقض الصحيفة وإنهاء المقاطعة من صميم ملا قريش، أي من كبار القوم ممن لهم قوة إبداء الرأي، وقد استندوا في ذلك إلى حجج قبلية أيضاً وإن كانت لها خلفية إنسانية. فهشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث (من بني عامر بن لؤي) كان ابن أخي نضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه «فكان هشام لبني هاشم واصلًا، وكان ذا شرف في قومه» وزهير بن أبي أمية ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن غزوم كانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب، فهو ابن عمه رسول الله ﷺ وكانت عاتكة هذه قد أسلمت سرًا، وهي صاحبة الرؤيا المشهورة التي أخافت قريشًا من الهزيمة قبل بدر، وكانت اختها صفية بنت عبد المطلب مسلمة في السر كذلك، وكانت من الشخصيات ذوات المكانة الكبيرة في مكة، ولها دور كبير في نشر الإسلام بين المكين. وكان زوجها الأول في الحاهلية الحارث بن حرب بن أمية أخا أبي سفيان وله منها أولاد، ومات عنها فتروحها العوام بن خويلد وأنحت منه الرير بن العوام صاحب رسول الله ﷺ.

أما المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، وهو ثالث من قاموا في

نقض الصحيفة فقد كاد أبوه نوفل أحاً لهاشم جد النبي ، وقد دفعه إلى التحرك خوفاً على بني هاشم وهم قومه فقد قال له هاشم بن عمرو زعيم المتكربين لأمر الصحيفة : « فقد ، رضيت أن يهلك سلطان من بني عبد مناف ، وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه ، أما والله لو أمكنتموهم من هذه لتحدثهم إليها مكم سراعاً^(١) » وإذن فقد اعتمد هشام بن عمرو في تحريك المطعم بن عدي على عنصر العصب ، وخوفه من مغبة التهاون في أمر بني هاشم لأنه لو سكت على هذه لأسرع أعداء بني هاشم إلى القضاء على بني نوفل بن عبد مناف وهم أبناء عم بني هاشم .

وبالفعل تحرك هشام بن عمرو (من بني عامر بن لؤي) وزهير بن أمية (من بني غزوم وأمه عاتكة بنت عبد المطلب عممة الرسول ﷺ) والمطعم بن عدي (من بني نوفل بن عبد مناف) والبختري بن هشام ، ثم انضم إليهم زمعة ابن الأسود بن المطلب بن أسد ، تحركوا لنقض الصحيفة أي لكسر قرار قريش وطالبوا بشق الصحيفة ، فتعرضت لهم قريش في شخص أبي جهل ممثل قريش كلها والجاهلية ، وقال أبو جهل ، وكان في ناحية المسجد : كذبت والله لانشق (والكلام هنا موجه إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد الذي تصدى للكلام باسم المعارضين) ، قال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب . ما رضينا كتابتها حيث كتبت . وقال البختري : صدق زمعة ، لا نرضى ما كتب فيها ولا نقرأ به . وقال المطعم بن عدي : صدقتما ، وكذب أبو جهل فما كان محمد ليرضى بأن يوقف الدعوة ، وما كان على أي حال مستعداً لقبول حماية من أبي جهل ، إذا كان هذا يتطلب منه التوقف عن الدعوة .

ولكنه يعود إلى مكة الآن ويريد أن يستمر في دعوته ، ولهذا فقد فكر في أن يدخلها في جوار واحد من كبار أهلها ، قال ابن اسحاق : إن رسول الله ﷺ

(١) ابن هشام ٣٧٥/١

بعث إلى الأحسن من شريق ليحييه، فقال: أنا حليف والحليف لا يجبر، فبعث إلى سهيل بن عمرو فقال إن بني عامر لا تجبر على بني كعب، فبعث إلى المطعم ابن عدي فأجابه: "والخبر على هذه الصورة يبعث على كثير من التساؤل فإن رسول الله ما كان يطلب الحوار من الأخسن من شريق وهو يعرف أنه حليف أو من سهيل بن عمرو وهو من حسل بن عازم بن لؤي، وهم يدخلون في قريش الظواهر، وقريش الظواهر لا يجبرون على قريش البطاح ولكن طلب الجوار من المطعم بن عدي معقول لأن عدياً والد المطعم هو نوفل بن عبد مناف، فهو ابن عم لرسول الله ﷺ، وكان من أهل الشهامة والشرف، قال فيه ابن حزم: وكان شريفاً، وهو الذي أجاز رسول الله ﷺ منصرفه من الطائف^(١)، والذي يعني هنا في تنظيم قريش أن سلطانها على مكة بلغ من القوة بحيث لم يكن أحد يستطيع أن يدخلها إلا في جوار رجل منها أي في حمايته، فكان مكة كانت فعلاً مدينة قريش وهي صاحبة السلطان الأعلى فيها. بل إن بطون قريش البطاح هي نواة قريش وهي الأصل وقريش الظواهر نخب في المرتبة الثانية.

على أي حال لم يكن رسول الله في حاجة إلى جوار أحد، وقد كانت له من الثقة في ربه وفي نفسه ما لا يحوجه إلى حماية بشر، ثم إنه وقد نفّض يده من قريش ما كان ليدعو أحداً منها إلى الإسلام كي لا يزيدها خوفاً، فاتجه ببصره نحو الأعراب حول مكة وإلى الواردين عليها من الغرباء، ولم تكن قريش لتخشى شيئاً من هذه الناحية لأنه لا يمس كيانه أو يهدد وحدتها ومصالحها.

وقد أحسّت قريش أنها انتصرت على محمد بذلك وأمنت على وحدتها وديانتها ونظامها الاجتماعي من دعوته، فاطمأن بال رجال قريش من هذه الناحية وتركوا محمداً يخرج من مكة إلى الأسواق وإلى منازل القبائل يدعوها ثم

(١) بن إسحاق في نهاية الأرب للسير، ج ١٦ / ص ٢٨٢

(٢) حمزة اساب العرب ص ١١٥

يعود، وقد يخرج وحده أو قد يخرج معه أبو بكر، وقد سذل أبو بكر في ذلك الوجه جهداً عظيماً، وحفف عن محمد بعض ما يلقى من رفض الأعراب وقلة اكترائهم لما يقول أو عدم استحسانهم له . . . ومن الواضح أنهم كانوا في ذلك تبعاً لقريش في الرأي . فقريش تنزعهم فكريباً وديبياً واقتصادياً، ثم إسم أوغل في القبيلة من قريش وما دامت قريش وهي قبيلة محمد ﷺ قد أكرت دعوته، فالأعراب أيضاً ينكرونها . وظل محمد يخرج إلى القبائل البدوية ويدعو بينها بلا نتيجة تذكر فيعود إلى مكة ويدعو من يطراً عليها من الضرباء والحجاج، لأن الله سبحانه وتعالى ادخر الإسلام ونعمته الكبرى لقوم من أولئك الطائفتين على مكة وهم أهل يثرب من الخزرج فيهم أسعد بن زرارة بن عدس وعوف بن الحارث بن عفراء ورافع بن مالك وقطبة بن عامر بن حديدة ومن إليهم من أهل العقبة الأولى من استمعوا إلى الرسول ﷺ وصدقوه ووعدوه بأن يحدثوا قومهم بأمره ثم يعودوا وهم بهذا اللقاء الحسن الذي هداهم الله به إلى الإسلام قد فتحوا لأنفسهم ولقومهم أبواب الخير والهداية وباب التاريخ أيضاً . وإذا كان تماسك قريش وحرصها على مصالحها قد حرمها من أن تكون حاملة راية الإسلام هذه المرة، فإن اختلاف أمر أهل المدينة كان الباب الذي فتح للإسلام أبواب المدينة ليدخلها ويستقر فيها، لأن صالح أهل يثرب وصالح الإسلام اتفقا بسبب هذا الخلاف القبلي الداخلي . فقد كانت المدينة في حاجة إلى من يلم شعثها، وكان الإسلام في حاجة إلى قوم يلتصقون راية محمد ﷺ وقيادة توحدهم وطريقاً جديداً يسرون فيه، فكانت المدينة وأهلها حلاً لمشكلة الإسلام، وكان الإسلام حلاً لمشكلة المدينة . ومن هنا كان هذا اللقاء السعيد الذي يعتبر من أسعد لقاءات التاريخ، وبسبب كانت قريش تشكر لاهتها نصرها على محمد ودعوته كانت لا تعلم أن هذه الألهة نفسها أو قل تمسك قريش بها قد حال بينهم وبين أن تكون قبيلتهم الساقية الأولى إلى الإسلام وحاملة نعمته وبركته .

نساء قریش والدعوة الإسلامية :

استراحت قریش إذ من ناحية محمد، ولكن عيون رحاها طلعت عليه فإذا كان هو قد اتجه بالدعوة إلى عبر القرشيين أو عبر المكيين، فإن الدعوة كانت تدب ديباً رقيقاً إلى قلوب من لم تكن لديهم دوافع خاصة أو مصالح مادية تربطهم إلى النظام القديم أو تجعلهم يحرسون على بقائه، فكان الكثيرون من القرشيين يسلّمون بقلوبهم، وربما اتصلوا بمحمد وأعلنوا إليه إسلامهم أو أسروه في نفوسهم مخافة القرشيين حتى تحين الفرصة لإعلانه. وقد كان لعلاقات القرابة هنا دور كبير، لأن الأقارب يتلاقون ويتربطون بوشائج الرحم، ومن وشائج الرحم تنشأ مصالح وارتباطات. وهنا نتبين أن نساء قریش كان لهن دور كبير جداً في نشر الإسلام بين القرشيين في هذه الفترة وهي السنوات الثلاث الأخيرة من الدور المكي، لأن الدعوة الإسلامية لم تجد عند هؤلاء النسوة ما يمنعهن من اعتناقها، ففيها رحمة ومودة وفيها أمل في حياة أسعد من الحياة الدنيا وفيها مثالية تجذب القلوب الرقيقة وفيها - أخيراً - حقوق للمرأة وأبواب لحرية نفسها وملك زمامها لا وجود لها في النظام القرشي القائم.

وستأخذ هنا مثلاً من بيت عبد المطلب الذي ينحدر منه رسول الله ﷺ لنرى كيف أن نساء قریش قمن بدور واسع المدى في نشر الإسلام بين قریش وأحلافها من أهل مكة.

ونبدأ فنعطي هنا بياناً بأولاد عبد المطلب بن هاشم وبناته وأمهاتهن، ونظراً لكثرة الأولاد فنسوردهم في جدولين:

عبد المطلب

عبد المطلب	عبد مناف	الريمير	أم حكيم عبد الله مرة	أمية أروى حمزة المقوم	حجل صفية
			 البیضاء		 المغيرة

والد الرسول ﷺ

أبو طالب ————— (تؤمنان)

<p>أمهم : فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمرو بن مخزوم</p> <p>أمها فاطمة بنت عبد الله . . .</p> <p>من عدوان</p>	<p>أمهم : هالة بنت أميب من بني زهرة</p> <p>أمها العيلة بنت المطلب بن عبد مناف بن قصي .</p>
--	--

بقية أولاد عبد المطلب

<p>أبو لهب</p> <p>عبد العزي</p> <p>أمه</p> <p>لبنى بنت هاجر خزاعية</p> <p>من خزاعة</p> <p>أخوه لأمه</p> <p>هوف بن هوف</p> <p>من</p> <p>زهرة بن</p> <p>كلاب</p>	<p>الحارث</p> <p>قثم</p> <p>(أكبر ولده)</p> <p>أمهما صفية بنت جندب</p> <p>من عامر بن صعصعة من</p> <p>بكر بن هوازن أخوهما لأمهما</p> <p>الأسود من خزاعة</p>	<p>العباس</p> <p>ضرار</p> <p>أمهما قتيلة بنت</p> <p>جناب من النمر</p> <p>بن قاسط</p>
--	--	--

بعد المطلب جد الرسول ﷺ تزوج ستاً من النساء : واحدة من بني مخزوم وواحدة من بني زهرة بن كلاب وواحدة من بني عبد مناف من قصي، وواحدة من بني زهرة بن كلاب، وثلاث خراعات وواحدة من الحر بن قاسط من قيس عيلان

وهؤلاء النسوة أنجب له ثمانية عشر منهم أحد عشر ولداً وسبع بنات .
فأما الرجال فلم يلم منهم حتى نهاية الفترة المكية إلا واحد هو حمزة . وأما النسوة فلدينا ما يدل على أنهن جميعاً أسلمن إما قبل هجرة الرسول إلى المدينة أو قبل فتح مكة على أي حال ، بل لدينا ما يدل على أن بعضهن مثل صفية وعاتكة كن عاملات نشيطات في نشر الدعوة داخل قريش نفسها . وصفية بالذات كانت تحب رسول الله ﷺ وتفخر به ، وكانت سيدة قوية بأسلة وثيقة الإيمان وكان أحب أخواتها إليها حمزة رضي الله عنه ، وكتب السيرة كلها تذكر حزنها عليه وإصرارها على رؤيته بعد استشهاده والتشبيل بجسده في أحد .
وهي أم الزبير بن العوام حواري رسول الله ﷺ . وأسلمت بعدها أختها أروى وهي أم طلّيب بن عمير ، وفي طبقات ابن سعد أنها كانت بعد إسلامها : تمضد النبي ﷺ وتعينه بلسانها وتحض ابنها على نصرته والقيام بأمره^(١) . وأما عاتكة فهي صاحبة الرؤيا التي أرعدت القرشيين وتبأت بمصارعهم في بدر .

وكتب الصحابة حافلة بأخبار الصحابيات من بني هاشم وبني عبد المطلب بل من بني عبد شمس ومخزوم ممن أسلمن قديماً ، كما يقول أصحاب كتب السيرة . وما كن يقمن به من الجهد في الدعوة بين النساء والرجال من قرابتهن . وقد زاد إقبال أولئك القرشيات على الإسلام بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة وانتشار دعوته وارتفاع شأن المدينة وأمة الإسلام بها ، كأنهن كن يرين أنهن القرشيات أولى بهذه الرتبة وعلو المكانة من غيرهن ، وبعد الحديبة بالذات وانفتاح الطريق بين مكة والمدينة اندفعت أولئك القرشيات في طريق

(١) طبقات ابن سعد ٢٨/٨

الدعوة وكثرت وفودهم على المدينة وما ممن إلا أدخلت في الإسلام أولادها وروجها وأهل قرائتها، وقد كان رسول الله يعرف ذلك ويتوقعه عندما قبل صلح الحديبية، فقد كان يعرف أن تفتح الأبواب سيقوض قوى المكيين المكابرين دون أن يشعروا، وبالعقل ما كاد الرسول صلوات الله عليه يدخل مكة فاتحاً حتى سعد العالبية العظمى من قريش قد دخلوا في الإسلام، لأن الدعوة كانت ماثية في طريقها على طريق القرشيات ما بين هاشميات وعبر هاشميات

وهذا الانتشار المستمر للإسلام لم يدع لقريش أمناً، وزاد من يقظتهم، وكان رسول الله ﷺ يحس بهذه اليقظة ويعمل على حماية أصحابه من جرائرها ويتجمل لنا ذلك في حرص رسول الله على أن يتم لقاء العقبة الثانية في خفية من قريش، قال محمد بن سعد إن وفد المدينة الذين أتوا لهذه البيعة سلموا على رسول الله، ثم وعدهم منى وسط أيام التشريق ليلة النفر الأول إذا هدأت الرجل أن يوافوه في الشعب الأيمن إذا انحدروا من منى بأسفل العقبة وأمرهم ألا ينهوا نائماً ولا ينتظروا غائباً قال: فخرج القوم بعد هذا يسلمون: الرجل والرجلان، وقد سبقهم رسول الله ﷺ إلى الموضع معه العباس بن عبد المطلب ليس معه غيره^(١) ولا يكون هذا الحذر كله إلا إذا كانت هناك نقطة من قريش، فكان هذه القبيلة كانت بالفعل شديدة اليقظة دائمة الحرص على سلامتها، وكانت تمارس على بلدها سلطاناً ورقابة لا تغفلان عن سلطان الدول القائمة ورقابتها.

ولكن يبدو أن تفاصيل ما تم في لقاء العقبة الثانية غاب عن قريش، ولكن السبب في ذلك لم يكن قلة نقطة من قريش بقدر ما يرجع إلى بعد سطر محمد صلوات الله عليه. أما كبار أصحابه من لم يحضروا العقبة فإن رسول الله أعلمهم خبرها، ويتجلى لنا هذا فيما يقال على لسان العباس في هذا اللقاء، وقد سبق أن شككتنا في خروج العباس مع رسول الله ﷺ في هذا اللقاء، والغالب

(١) طبقات ابن سعد ١/١٤٩

أن قائل هذا هو الرسول ﷺ فهو وحده في هذا المقام كان صاحب الأمر والتوجيه، وإذا نحن تأملنا الكلام في اجتماع العقدة تبينا أن العباس لم يكن له أي سلطان في قومه ليقول للمسلمين، وهو مشرك: «أخفوا جُرمكم فإن عليا عيوناً، وقدموا دوي أسانكم فيكوسون هم الذين يلون كلاماً منكم، وإنا نحاف قومكم عليكم، ثم إذا بايعتم فتفرقوا إلى محالكم، وهذا حرص بالغ على المسلمين من جانب رجل ليس مسلماً، أما من أقحم العباس هنا فهم الذين حرصوا في ظل الحكم العباسي على أن يجعلوا للعباس سابقة في الإسلام، فأشركوه مع رسول الله في مثل هذه المشاهد الجليلة، ومثال ذلك قولهم إن رسول الله عندما أصلح بين بطون قريش التي كانت تحتصم فيمن يضع الحجر الأسود مكانه، فكان رسول الله صاحب الفكرة الحصيفة في خلع ثوبه وطلبه إلى القرشيين أن يضعوا عليه الحجر ويرفعوا الثوب جميعاً، ثم نجيء تلك الدعاية العباسية فتقول إن الحجر عندما وازى موضعه من ركن الكعبة كان العباس هو الذي حمله من الثوب ووضع في مكانه وكان ذلك أيام عبد المطلب والأرجح أن عبد المطلب هو الذي فعل ذلك ولكن دعاة العباسيين هم الذين أعادوا صياغة الخبر على هذه الصورة. ومثل هذا كثير.

المهم لدينا أنه كان هنا احساس بأن على المجتمعين عيوناً، والعبارة هنا مقصودة بمعناها الكامل والعيون هنا هي عيون قريش. فكان هذه القبيلة كان لها من التنظيم ما يجعل لها عيوناً على الناس، يوافونها بالأخبار لتكون دائماً على بيئة من أمرها في كل حين.

ولا بد أن نذكر هنا أن هذا الخبر الذي أقحم فيه ذكر العباس أصح نتيجة لذلك مضطرباً لا تستقيم فقراته بعضها مع بعض، مثال ذلك: «فلما أصبح القوم عدت عليهم جلة قريش وأشرافهم حتى دخلوا شِعْبَ الأنصار، فقالوا. يا معشر الخرج، إنا بلغنا أنكم لقيتم صاحبنا البارحة وواعدتموه على أن تباعوه على حربنا، وأيم الله ما حَيُّ من العرب أغض إلينا إن شئت بيننا

وبينه الحرب منكم، قال: فاني بحث من هناك من الخروج من المشركين يحلفون لهم: ما كان هذا وما علمنا. « وسياق الخبر هنا وبقية يدل على أن ذلك كان في المدينة، وهو لا يصح، لأن الكلام ينص على أن هذا كان غداة ليلة العقبة، فكيف يسام قوم في مكة ويصحون في المدينة؟ ثم إن بقية الخبر نقص كيف تمت قريش رحال المدينة في عودتهم إلى بلدهم بل إننا نقرا هنا أن أهل مكة أدركوا سعد بن عباد وضربروه، وجعلوا يده إلى عنقه بنسقة، أي ببرباط من سعف النخل أو الخوص، وكيف يجوز لقريش أن تقيده يدي سعد بن عباد وتضربه؟ وفي النهاية نقرا وفرحل القوم جميعاً إلى المدينة^(١) ومثل هذا الاضطراب في نسق الخبر قولهم «نبرأ إلى الله منها وما كتب فيها. قال هشام بن عمرو نحواً من ذلك».

ومعنى ذلك أن قريشاً عندما قررت المقاطعة والحصر استعملت الضغط على المعارضين من ملئها، فوافقوا على رغبتهم، وها هم الآن يفررون ذلك.

وكان رد أبي جهل عظيم المعنى بالنسبة لتنظيم قريش، قال: «هذا أمر قضي بليلى، تشوور فيه بغير هذا المكان» أي أن قرارات قريش كانت تتخذ وتتم الموافقة عليها علناً، وفي مكان معين هو دار الندوة في الغالب، وقوله «تشوور فيه بغير هذا المكان» يعني أن هذا المكان مكان المشاورة والقرارات، فإذا بحث أمر خارج هذا المكان - دار الندوة - أو موضع آخر حول الكعبة، فهو أمر غير قانوني مخالف لما ينبغي أن تكون عليه الأمور.

المُسْتَهْزِئُونَ - الخروج إلى الطائف:

نقضت الصحيفة إذن فكان ذلك نصراً لني هاشم وبني المطلب، ولكنه لم يكن نصراً للإسلام فقد ظلت قريش على موقفها وازداد أمر المسلمين ضيقاً، فإن قريشاً شددت من موقفها، وظلت رغم نتيجة الحصار محتمة بوحدها

(١) طبقات ابن سعد ١/ ١٤٩ - ١٥٠

وموقفها المعادي للإسلام، ولكن رجالها أيقنوا أنهم لا يستطيعون شيئاً حيال محمد ﷺ، فلحقوا إلى أساليب جديدة فقد استعملوا العنف والاضطهاد والحصار ووقفوا فيما أرادوا ولكنهم كما قلنا ظلوا يخامون محمداً والإسلام، فأرادوا أن يزيدوا أنفسهم حصاة فالحقوا إلى الاستهزاء بالإسلام وأهله، وكانت السخرية من أساليب العرب المعروفة في صراع الفئائل بعضها مع بعض، وفي صراع الناس بعضهم مع بعض، ومن هنا جاء الهجاء وشعره، والقائض وكلها أسلحة صراع تقوم على السخرية والاستهزاء ها أثرها الفعال.

وكان الاستهزاء بالدعوة وصاحبها سلاحاً ظنت قريش أنه ينال من الإسلام، لأنه يجعله هزوا وسخرية ويجعل كلام محمد مدعاة للتقليل من شأنه وكلنا نعرف فعل الرسوم الهزلية المعروفة بالكاريكاتورية في الصراع السياسي اليوم، وبطبيعة الحال كان الساخرون الذين تصدوا لذلك من أهل الفكاكة والنادرة واللسان اللاذم، وكان بعضهم من سادات قريش ومن يحسبون أنفسهم أذكاء.

وعندما نقرأ كلام أولئك الذين يسميهم القرآن الكريم بالمستهزئين يستوقف نظرنا إغفالهم في الرفض والعناد وما يجري على لسانهم من كلام، كان المعركة مع الإسلام زادتهم تمسكاً بأرائهم، وهنا تتجلى لنا خاصية من خصائص الحياة القبلية وهي تشترك في تلك الخاصية مع الحياة القروية، وهي خاصية طرد أي غريب يطراً عليها، مثلها في ذلك مثل الأجساد، وكلنا نعرف هذه الظاهرة البيولوجية التي تعرف في الإنجليزية باسم Rejection وجسد الكائن الحي يرفض أو يطرد أو ينفي كل كيان يحس أنه غريب عنه، وهو في هذه الحالة يطرد كل ما يحس أنه غريب ولو كان مفيداً له، فإن الجسم يطرد القلب السليم الذي يزرع في مكان قلب المريض، ويرفض الكلية السليمة مع أنها تزرع فيه لحمايته وشفاؤه. وقريش كانت قبيلة تعيش في - وحول - مدينة صغيرة كأنها قرية، والقرآن الكريم سماها أم القرى أي أكبر القرى، ولم يقل

أنها مدينة، والقرآن دقيق الدقة كلها في استعمالاته، فقد سُمي المدينة باسمها، وهو اسم ووصف في آن واحد، وسُمي مكة والطائف بالقرتين لأن الطائف أيضاً كانت قرية وقبيلة، وهذا محث آخر لا نريد أن نستطرد فيه هنا، والمهم لدينا أن ظاهرة الطرد هذه كانت قوية جداً في مكة لأنها قرية وقبيلة، وكانت أقوى وأظهر في الطائف، لأنها كانت قرية أصغر من مكة. وهذا يفسر لنا رفض أهل الطائف وهم قبيلة ثقيف - رفضوا مجرد الاستماع لرسول الله ﷺ، لأن الإسلام الذي أتى يبشر به بدا للثقيفين عنصراً غريباً جداً عن طبيعة تكوين قريتهم، فكانت ميكانيكية الطرد أشد وأقوى، ومن ثم فإن أهل الطائف رفضوا مجرد الاستماع ومارسوا الطرد حرفياً، فلم يستريحوا حتى أخرجوا رسول الله من مدينتهم بالقوة، قال ابن اسحاق: «وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط لعنته بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى حُبلة من عنب، فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف»^(١)

وهنا، رسول الله يجد نفسه خارج الطائف - وخارج مكة أيضاً، فكلا المجتمعين المكّي والطائفي قد خاف منه - أو بتعبير أدق من الدعوة الإسلامية التي يقول بها - هنا نفهم الدعاء الذي دعا به رسول الله ﷺ ربه في ضوء جديد، فنحن نقرأ هنا الدعاء بإعجاب وتأثر بالغين لما فيه من صدق الإيمان والإخلاص التام لله سبحانه، وما ينطوي عليه من تمسكه بأداء رسالة لنبي مرسل من الله سبحانه، وكما نحسب أن هذا قصارى ما يكون من إدراكنا لمعاني هذا الدعاء، والآن تعطينا دراستنا هذه معنى ومغزى آخرين له فهو هنا سؤال (في صورة دعاء) من الرسول إلى من أرسله (الله سبحانه وتعالى) خلاصته. الآن يا ربي قد بذلت عاية جهدي مع أهل مكة (الذين أرسلت

(١) سيرة النبي لأبي هشام ٦١/٢، والحيلة شجرة العنب أو نقصانها

فيهم) وأهل الطائف (الذين أردت أن أذهب بالدعوة إليهم) فماذا أعمل؟ .
 إنني مخلص لك الإخلاص كله، مؤمن بك الإيمان كله . وقد وصلت من
 أولئك الناس إلى أقصى ما استطعت الوصول إليه عمداً أعمل الآن؟ وإلى أين
 أنجى؟ إنني لا أبالي إلا بك، فما دمت راضياً عني غير غاضب عليّ فما أبالي بشيء .
 وأنت سبحانه بقوتك وحولك تستطيع أن تفتح لي سبيلاً جديداً، وأنا يا ربي
 طوع أمرك، ورحمتك مشيتك ولن أدع هذا الأمر ما حييت، فماذا أصنع الآن؟
 وإليك نص هذا الدعاء الذي يعتبر أجمل وأصدق وأخلص دعاء توجه به نبي
 مرسل إلى الله الذي أرسله، وسأقسمه إلى فقرات لكي تسيّر المعاني التاريخية
 والدلالات الاجتماعية التي أشرت إليها آنفاً:

١ - اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس .

٢ - يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي

٣ - إلى من تكلني؟

٤ - إلى بعيد يتجهمني (يريد أهل الطائف)

٥ - أم إلى عدو ملكته أمري (يريد قريشاً) .

٦ - إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي .

٧ - ولكن عافيتك هي أوسع لي .

٨ - أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا

والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل عليّ سخطك . لك العُتْبَى حتى

ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك^(١) .

المفروض في ترتيب حوادث السيرة أن الخروج إلى الطائف كان بعد
 وفاة أبي طالب وخديجة، ووقوف محمد صلوات الله عليه وحده بعد هذه
 المرحلة الثانية الطويلة من مراحل كفاحه لنشر دعوته وقوله: «أم إلى عدو
 ملكته أمري؟» .

(١) اس هشم، السيرة ٦٢/٢

ويكون جواب الله سبحانه وتعالى على هذا الدعاء الذي توجه به إليه عبده الصادق ورسوله الأمين أبلغ برهان على صدق الرسالة ومحبتها من عند الله وتأيد لها سبحانه الإسراء والمعراج، وكان الله سبحانه أراد أن يقول لنبيه: هؤلاء كذبوك ورفضوا دعوتك وقفوا صمًا واحدًا من دوك؟ لا عليك إنقض في رسالتك وأنا عصمتك من الناس، أما أسري بك ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير^(١)، والإسراء ثابت بنص القرآن الكريم، وأما المعراج فثابت أيضاً من حديث ثابت البناني بإسناد متصل عن مسلم بن الحجاج، وهو مؤيد ضمناً بما ورد في سورة النجم من الآية الأولى إلى الثامنة عشرة، وقد اجتمع رأي المفسرين على أنها تأيد وتفصيل لخبر العروج برسول الله ﷺ إلى السماء وليرجع من يشاء الاستزادة من ذلك إلى كتاب الشفاء للقاضي عياض بن موسى اليحصبي ففيه غناء للمستزيد.

وهكذا تكون أدنى درجات اليأس من الناس هي بداية أرفع درجات التكريم والتأييد من الحق سبحانه وتعالى، ويكون بأس رسول الله ﷺ من قريش فتحاً عليه من الباري، فقد وجهه ربه إلى غير القرشيين فسمى واجتهد وسعى واجتهد، ثم كانت بداية النصر هي اللقاء الأول مع أهل يثرب وببعية العقبة الأولى وما أعقب ذلك من آلاء كرم الله سبحانه، وتأيد للإسلام وأهله. ولكن هذه هي السيرة ونخشى أن تصرفنا فتتها عن حديث قريش، فلنعد إلى ما كنا فيه.



يستوقف نظرنا في خبر عودة رسول الله ﷺ إلى مكة بعد ما لقى من إغراض أهل الطائف عن دعوته وإخراجهم إياه من بلدهم، قول ابن اسحاق

(١) سورة الإسراء آية ١

إن رسول الله في طريق عودته توقف بنخلة والمراد هنا نخلة اليمانية، فهي التي يمكن المرور بها للوارد من الطائف، وهنا يسأله زيد بن حارثة، وهو كان رفيقه الوحيد في تلك الرحلة القاسية: كيف تدخل عليهم وهم أخرحوك؟ والسؤال هنا لا وجه له إذا أحدهما على طاهره، لأن الذي نعرفه إلى الآن هو أن محمداً ﷺ لم يجرحه أحد، وإنما كان هو الذي خرج من تلقاء نفسه ساحتاً عن ميدان آخر لنشر الدعوة، بعد أن وقفت قريش منه هذا الموقف الرافض المعاند ولم تتحرك منه خوفاً على نفسها. ولكن يبدو أنه بعد وفاة أبي طالب وانتقال الرئاسة بني هاشم إلى عبد العزى بن عبد المطلب وهو عم رسول الله، لم يكن عبد العزى وهو أبو لهب وموقفه من الرسالة والرسول معروف مستعداً لحماية محمد إذا هو استمر في دعوته التي تشير مخاوف المشركين، وهو منهم. وتذكر بعض النصوص أن أبا لهب عندما انتقلت إليه الرئاسة أعلن لمحمد أنه يحميه إذا هو ترك الدعوة في مكة، فخرج رسول الله بمحاول مع أهل الطائف، والآن هو لم يصل إلى شيء مع الثقفين فهو مضطر إلى الرجوع إلى مكة. وكأنه وقد خرج قد نحل عن حماية أبي لهب وهذا هو المفعول، وفي الأخبار كثير عند ابن سعد.

وقد شهدت هذه الفترة تطوراً حاسماً في تاريخ قريش، وهو صعود أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية إلى الرئاسة الفعلية لقريش، أو بتعبير أدق إلى قيادة المقاومة للإسلام. وقد قلنا هنا «صعد»... ولم نقل «ولي» أو «ولي» لأن نظام قريش كان نظاماً قَبلياً لا وظائف فيه ولا رئاسة، وإنما كانت الملكات هي التي تقدم أصحابها، وفي معظم القبائل كان التنافس على الرئاسة مشكلة دائمة بسبب نفور الأسداد من الاعتراف بالتفوق بعضهم على بعض، ولكن الأمر كان ينتهي دائماً بالتسليم للأوفق والأقدر. لأن المسؤولية في الحياة القبلية مسئولية مباشرة وواضحة وغير الكفؤ لا بد أن يفسح الطريق لغيره. وفي قريش خاصة، حيث كان الشعور بالصالح العام مرهفاً، كان المثلأ يسلم بالمسئولية لمن يستحقها دون مشاحنة، وقد رأينا كيف تراجع أبو طالب عملياً - وحل محله في

رياسة قريش رجال اكما منه في سياسة أمور القبيلة في شتى الميادين، وهؤلاء الرجال هم الدين تولوا حماية قريش مما توهّموا أنه خطر الإسلام على القبيلة

وفي أسد الغابة لابن الأثير إشارة ذات معنى ترد في ترجمة أبي سفيان بن حرب تقول: «وقيل: كان أفضل قريش رأياً في الجاهلية عتة وأبو جهل وأبو سفيان، فلما أتى الله بالإسلام أدبروا في الرأي»^(١). وعتبة هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وقد كان ذا رأي حسن فعلاً ولكنه كان ينتمي إلى جيل ذوي الأسنان من القرشيين، مثله في ذلك مثل الوليد بن المغيرة وأمية بن خلف وعبد الله بن جدعان، وهؤلاء وأهل طبقتهم هم الذين كانوا يتولون أمر قريش فعلاً حتى ظهرت دعوة الإسلام، ونشأت الأزمة واحتاج الأمر إلى رياسة شابة تواجه الموقف، جيل محمد ﷺ أي أنداده في السن وبرز من بينهم أبو جهل، ولكنه لم يستطع قيادة المعارضة بالهدوء والرزانة المطلوبتين، مما جعل أصحاب الأسنان والأموال يسرعون من مصطافهم في الطائف كما ذكرنا، فتولوا الأمر وحاولوا التفاهم مع محمد ﷺ أولاً ثم مع أبي طالب ثم مع محمد مرة ثانية، ثم قادوا قريشاً في مقاطعة بني هاشم وبني المطلب، وعندما انتهت المقاطعة بدأ أمر أبي سفيان بن حرب يقوى، وكان أول ظهوره ما كان من تميزه في شئون التجارة، فكان هو الذي ينظم القوافل ويجمع الأموال، وقد يخرج بها، وقد لا يخرج. وقد أبدى في هذا الباب مهارة كبيرة، فأصبح المستول عن هذه الناحية الهامة من نواحي الحياة المكية. وخلال الحقبة الأخيرة من الفترة المكية من البعثة النبوية نجد أن أبا سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس يتولى قيادة قريش في صراعها مع الإسلام، وسيظل في هذه المكانة حتى معركة الخندق في السنة الخامسة للهجرة.

(١) أسد الغابة، ترجمة أبي سفيان ٤٤٨/٢ وما بعدها

المرحلة الثالثة الأخيرة من الفترة المكية :

بعد انتهاء مقاطعة بني هاشم وبني المطلب وخروجهم من الشعب بقليل، توفي أبو طالب، وبعد قليل توفيت خديجة رضي الله عنها أم المؤمنين. وكان ذلك بإجماع المؤرخين قبل الهجرة بثلاث سنوات، أي في سنة ١٠ من البعثة وبقي رسول الله ﷺ وحيداً وإن أحاطت به قلة من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعليّ وزيد بن حارثة، وبدأت الحقبة الثالثة من الفترة المكية ومدتها ثلاث سنوات.

وواضح أن خديجة رضي الله عنها ماتت من أثر الجهد الذي عانته أيام الحصر والمقاطعة. وقد كانت سنّها يوم تزوجت رسول الله أربعين سنة بإجماع الروايات، ومكثت معه قبل البعثة خمس عشرة سنة هي أهنأ سنوات عمرها، فقد كان ﷺ نعم الزوج ونعم السكن لزوجته، وخلال هذه الفترة أنجبت له أولاده: القاسم (وقد درج صغيراً وبه كان يكنى) ثم زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة وهي صغرى بناته، ويقال إنه أنجب غلاماً ثانياً يسمى الطاهر، درج أيضاً، ولم ينجب لرسول الله إلا خديجة ثم مارية القبطية.

ثم جاء الوحي وبجاء دور خديجة رضي الله عنها، ووقوفها معه وتثبيتها له. ومن عجب أن بعض مؤرخينا يتساءل إن كان أبو بكر أول المسلمين مع أن خديجة آمنت به قبل أن يعرف أنه نبي، فبمجرد أن أبلغها نبأ الوحي، عرفت أنه بشرى خير فوقفت إلى جانبه وشجعتة وعملت على تثبيت فؤاده وأخذت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل فطمأنه، ولازمته بعد ذلك خلال الفترة مؤيدة حانية، فلما نزلت الآيات الأولى من المدثر وبها أصبح رسول الله نبياً رسولاً ازداد إيماناً به، وكانت أولى المصليات خلفه، وهنا كان دخول أبي بكر وعلي ابن أبي طالب في الإسلام.

وكانت سن خديجة إذ ذاك خمساً وخمسين سنة، ثم قضت معه بعد البعثة

تسع سنوات وثمانية أشهر، عانت فيها معه متاعب الدعوة كلها وكانت له خير الزوجة وأحسن الأمن والسكن، ونجرت معه رعب الحصر والمقاطعة، فلما انتهت المقاطعة كانت سن خديجة أربعاً وستين سنة وثمانية أشهر، وقد هاضها الشعب والإجهاد، فماتت بعد هاية الحصرِ بقليل وسنها أربع وستون سنة وتسعة أشهر أو عشرة.

وأما أبو طالب فقد مات عن سن عالية، ربما كانت الثمانين، وفقد رسول الله بموته صديقاً كريماً وحامياً ثابتاً، ظل إلى جواره وإن لم تحمله نفسه حل الإيمان فمات كافراً.

وعمت أبي طالب بقي رسول الله ﷺ وحده تقريباً كما قلنا، وتولى رئاسة بني هاشم عبد العزى أبو لهب بن عبد المطلب، وقد تحدثنا عن موقفه من رسول الله ﷺ والإسلام.

وما بقي لرسول الله ﷺ في مكة، مدته ثلاث سنوات من ١٠ إلى ١٣ للبعثة وهي الحقبة الرابعة والأخيرة من الفترة المكية التي تقسم كما يلي:

من سنة ١ إلى نهاية ٢ للبعثة: الحقبة الأولى، الدعوة السرية ثم العلنية حتى دخول دار الأرقم من سنة ٣ إلى نهاية ٥ للبعثة: ومدتها ثلاث سنوات انتهت آخر سنة ٥ للبعثة بعد إسلام عمر بن الخطاب وخروج المسلمين من دار الأرقم والدعوة العلنية والصراع مع قريش.

من بداية سنة ٦ إلى ثمانية أشهر من السنة التاسعة للبعثة أي سنتان وثمانية أشهر هي مدة الحصر والمقاطعة

من ١٠ إلى ربيع الأول هجرية وهي الحقبة الأخيرة التي نحن بصددتها ومدتها ثلاث سنوات وشهران و١٢ يوماً، وهي الحقبة التي بلغ فيها اضطهاد

قريش لرسول الله ذروته، وفيها كان الخروج إلى الطائف والعودة منها، ثم الإسراء والمعراج، ثم الدعوة للأعراب داخل مكة وللأعراب خارجها حتى كان الاتصال الأول بوفد الخزرج من أهل يثرب وبيعة العقبة الأولى، وكانت قبل الهجرة بستين، ثم لقاء وفد اليثريين من الأوس والخزرج وفسر من الحننيين وبيعة العقبة الثانية قبل الهجرة بستين، ثم إرسال رسول الله ﷺ مصعب بن عمير إلى مكة وانتشار الإسلام في يثرب ثم هجرة رسول الله ﷺ إلى قباء في ١٢ ربيع الأول سنة ١ للهجرة / ٢٤ سبتمبر ٦٢٢ م.

أَبُو سَفْيَانَ صَخْرُ بْنُ حَرْبٍ وَبَنُو عَبْدِ شَمْسٍ يَتَوَلَّوْنَ قِيَادَةَ قُرَيْشٍ فِي صَرَاعِهَا مَعَ الْإِسْلَامِ :

بعد ذلك الفشل في مواجهة دعوة الإسلام، كان لا بد لقريش من سياسة جديدة حياله . وتلك السياسة كان لا بد لها من زعيم جديد يبرفها . ولم يكن قد بقي لقريش إذ ذاك من الزعماء من يصلح لهذا الأمر إلا أبو سفيان صخر بن حرب .

وكان أبو سفيان رجلاً ذا مواهب واضحة في شئون المال، لأنه بطبعه كان رجلاً هادئ المزاج عملي التفكير واقعي النظرة، ولم يتصف قط بخصائص إنسانية أو روحية أو فكرية . ومن تصرفاته ترى أنه كان رجلاً بارد العواطف ذا طموح إلى السلطة والمال . ونظراً لموقفه المناهض للإسلام وللشك في صحة إسلامه بعد فتح مكة، فإن المراجع لا تطيل الحديث عنه، وإن كنا نحسد لأصحابها أنهم أعطوه جانباً لا بأس به من العناية، واقتصدوا في تشويه صورته على مذهبهم في الكلام عن الصحابة ممن لا يرضون عنه، إذا كان في صحة ضمايرهم شك، والاكتفاء بذكر محاسنهم، وكان من حسن حظ أبي سفيان أنه أسلم وإن ظل إسلامه سطحيّاً إلى آخر حياته، ولم تعمل المراجع شيئاً لصقل

صورته كما فعلت مع العباس بن عبد المطلب، لأن سلطان بني حرب بن أمية سرعان ما انتهى بعد وفاة يزيد بن معاوية، واتجهت العناية إلى بني مروان بن الحكم بن أبي العاصي، والدولة السفياوية حلت محلها الدولة المروانية، فلم يعد هناك ما يدعو إلى تحميل صورة السفيايين، أو قل لم يعد هناك من يدفع أجر ذلك، وإلا فإننا إذا تأملنا واقع الأحداث نجد أن العباس لم يكن خيراً من أبي سفيان فيما يتصل بالموقف من الإسلام، وفي السطور التالية ستكشف لنا حقائق أخرى تتعلق بهذا الموضوع وهو في انساب الاشراف للبلاذري.

في أكثر كتب التراجم تفصيلاً لا نجد شيئاً يشفي الغلة عن أبي سفيان ومروان بن الحكم، أكثر مما نجد في الكتب التي ألقت في الصحابة، وكلها مختصرات، وغلاصتها كلها أن أبا سفيان أسلم يوم الفتح وأن إسلامه حسن بعد ذلك، وإن كان هناك الكثيرون ممن يشككون في صحة هذا الإسلام، وشهد بعد إسلامه بعض المشاهد مع رسول الله، وفقد إحدى عينيه في حصار الطائف، واستمر يحارب في صفوف المسلمين في أيام الراشدين، حتى فقد عينه الأخرى في موقعة اليرموك، وتوفي سنة ٣٢ أو ٣٤ هـ. في خلافة عثمان بن عفان وثمانين سنة أو نحوها، وإذا نحن حسبنا عمره على هذا الأساس وجدنا أن سنه كانت عند بعثة محمد ﷺ في الحادية والأربعين أو الثالثة والأربعين من العمر، فهو إذن من جيل رسول الله مثله في ذلك، مثل أبي جهل وأبي لهب عبد العزى.

ولكن الذي يهمنا هنا هو أبو سفيان قبل إسلامه، فهو إلى هذه المرحلة من دراستنا يقف في صفوف أعداء الإسلام، ولكن المراجع لا تنسب إليه خيراً واحداً عن أعمال السعاية التي كان يتركها غيره من أبناء جيله. مثل عقبة بن أبي معيط وهو ابن عم أبي سفيان وشيبة بن ربيعة وهو الأخ الأصغر لعنة بن ربيعة بن عبد شمس، وهو أيضاً ابن عم أبي سفيان، فكان الرجل كان ينأى

نفسه عن هذه الصغائر رغم كفره، بل كان أهدأ من أبي جهل طبعاً وأذكى فؤاداً، ويتجلى ذلك في مقدمات موقعة بدر.

وهذا الاتزان إلى جانب الانصراف إلى المال وحسن تديره له ومهارته في الشئون التجارية، هي التي وصلت بأبي سفيان إلى قيادة قريش بعد محرة رسول الله ﷺ وقيام أمة المدينة، وبداية الصراع المسلح حيناً والسياسي حيناً آخر بين الجانبين.

وسبب وصول أبي سفيان إلى القيادة - إلى جانب خصاله التي ذكرنا بعضها، ويأتي الباقي في سياق الكلام، ذلك أن رسول الله ﷺ بعد استفراره في المدينة وقيام أمة الإسلام، لجأ إلى الضغط على قريش عن طريق إيقاف تجارتها مع الشام، أي حرمانها من مورد الرزق الأساسي لها، وذلك بالسيطرة على طريق التجارة إلى الشام أولاً ثم إلى العراق ثانياً، لأنه كان يحتاج إلى تحطيم قريش عسكرياً، ولو أراد لفعل، ولكنه ﷺ كان يعرف قدر قريش وملكات رجالها، بل كان يعرف سبب عنادها، فأنجحه بصره إلى حربها حرباً اقتصادية، ولما كان أبو سفيان هو رجل المال ومنظم القوافل وقائد معظمها، فقد أصبحت المشكلة مشكلته، أي أنه أصبح الزعيم القرشي الذي تعين عليه الخروج بقريش من تلك الأزمة، فحاول حلها بالحرب (بدر ثم أحد) ثم بالسياسة والحرب (الخندق) ثم أنجحه لحلها عن طريق السياسة، وهو طريق التاجر فنجح وأنقذ قريشاً، وتغطفن إلى ما كان الرسول ﷺ يسمي إليه من كسب قريش إلى الإسلام دون تحطيمها أو إذلالها أو كسر أنفها، فسار في ذلك الطريق ونجح فيه كما قلنا، وكما سنرى.

ويبدو أن أبا سفيان كان منصرفاً باهتمامه كله إلى شئون المال. فلا نلاحظ أن له دوراً واضحاً في صراع التضيق على المسلمين وربما كان السبب في ذلك أن احساسه بخطر الإسلام على قريش كان أقل من إحساس غيره،

نظراً لضخامة بيته وكثرة أفرادها وانصرافهم التام إلى مصالحهم ومصالح بيتهم . وقد كاد أبناء أمية الأكبر وأمية الأصغر وعبد أمية من أبناء عبد شمس وحدهم أن يكونوا قتيلاً قائماً بذاته . وفي الجداول الملحقه بذلك الكتاب شجرة نسب أو جدول نسب عبد شمس بن عبد مناف بن هاشم وهو يوضح لك هذه الصورة .

ولمّا أوردنا هذا البيان عن بني عبد شمس وفروعهم الكثيرة ، لأننا وصلنا في هذا التاريخ ، إلى دخول أبي سفيان ميدان الحوادث التي قدمته ورشحته للقيادة ، وبتقدمه هذا يبدأ تطور بعيد المدى في تاريخ قريش ، لأن قيادة أبي سفيان لقريش لم تكن أمراً خاصاً به ، بل ببني عبد شمس جميعاً . ومن ذلك الحين سبطل بنو عبد شمس قوة من القوى المحركة لتاريخ قريش ، فإن بني عبد شمس بن عبد مناف يدخلون الآن ميدان الزعامة في قريش ممثلين للوثنية العربية في مواجهة الإسلام ، ودخولهم هذا يفتح أبواب القوة لعنصرين رئيسيين من عناصر القوة والقيادة : عنصر المال وعنصر السياسة . لقد كان المال دائماً عاملاً أساسياً في الحياة القرشية ، ولكن بني هاشم وعبد الله بن جدعان سيد بني تميم بن مرة والمطعم بن عدي وشيخ بني نوفل بن عبد مناف ، وبقية الجيل القديم من بني عبد شمس ومخزوم وبيوت قريش التي ذكرناها كانوا يستخدمون المال للفخر والشرف والسؤدد ، والسؤدد هو السيادة الشرفية المعنوية التي تستخدم المال لاجتذاب القلوب واجتلاب المحامد ، فكل زعماء قريش إلى الآن كانوا أغنياء ولكنهم لم يحولوا المال إلى قوة أو يترجموه إلى سيطرة على الآخرين . وأبو سفيان أيضاً كان غنياً وهو لم يصل إلى الزعامة بالمال وحده ، بل بالعقل كذلك والرزامة وطول الفكرة ، ولكنه لم يكن يحفل كثيراً للسؤدد أو الفخر ، وهو لهذا كان يدخر ماله لأنه يعرف قدر المال . وفي كعبه نشأ ابنه معاوية وعرف - عندما قام النزاع على السلطان - كيف يستخدم ماله في الوصول إلى السلطان أي كيف يترجم المال إلى قوة ، وهي حقيقة لم يبه عليها

أحد من مؤرخينا، فالذي لا شك فيه هو أن يزيد بن أبي سفيان وأخاه معاوية ابن أبي سفيان، عندما دها إلى الشام أثناء الفتح الإسلامي وبعده كانا غنيين، وقد استثمرا مالههما استثماراً طيباً في كسب الناس وجمعهم حولهم، وعندما مات يزيد عامل الشام لعمر بن الخطاب، ورث مكانه وشيئاً من ماله أخوه معاوية، وكان سو أمية بنوعيه قد أوعوا في الهجرة إلى الشام والمشاركة في فتحها، فجمعهم معاوية حوله ومضى يصطنع الألبار بالمال، ولم يقل أحد إن معاوية عدا على مال الجباية، وما كان عمر ليتهاون معه في ذلك، ولكن معاوية كان ينظر إلى ما بعد المال: إلى القوة السياسية، وقد أنفق في ذلك جانباً عظيماً من ماله في تأثيل سلطانه على بلاد الشام. وفي أيام عمر نفسه كان معاوية يتصرف في بلاد الشام تصرف الأمير المستقل العظيم المظهر، وفي أيام عثمان أصبح يتصرف تصرف الملوك، ولو أن رجلاً آخر غير علي بن أبي طالب خلف عثمان في الخلافة فإن النزاع كان لا بد واقعاً بينه وبين ملك الشام هذا، لأن بني عبد شمس بن عبد مناف بأعدادهم الكثيرة كانوا قد ضربوا في أرض الشام جذوراً عميقة، ذهبت كل مذهب، بحيث أصبح اقتلاعهم من السلطان في الشام اقتلاعاً للأرض نفسها، والمطالبة بدم عثمان لم تكن إلا ستاراً، والاعتراض على عزل عليّ إياه عن الشام كان مجرد ذريعة ونكأة، أما الحقيقة فهي أن آل عبد شمس كانوا قد ذهبوا بالشام، ولم يكن هناك سبيل لاسترجاعه منهم إلا بالحرب، وفي هذه الحرب استشهد علي بن أبي طالب الذي تمسك بالإسلام وتولى الخلافة للإسلام، وأراد أن يزيل أولئك الملوك الذين تربعوا في قلب الدولة الإسلامية. وفي الحرب أيضاً ضاع أمر عبدالله بن الزبير وأخيه مصعب، ولم يكن عبدالله بن الزبير في مستوى عليّ من حيث الالتزام بالخط الإسلامي الخالص، وإنما هو رجل من رجال الحيل الثاني من الصحابة، طلب الخلافة لدانها ولنفسه، ولم يوهب موهبة استخدام المال لاجتلاب القوة، بل كان مقراً شديداً بالحرص، فسهل على عبد الملك بن مروان إراحتة عن الطريق رغم أن غالبية المسلمين، كانوا يفضلون آل الزبير على آل مروان

وهذا التطور البعيد المدى في مصائر قريش وأمة الإسلام معها، بدأ قبل ظهور أبي سفيان على مسرح السياسة القرشية لأن بداياته كانت مع شوب النزاع والتنافس بين هاشم وعبد شمس أبي عبد مناف بن قصي، وقد ذكرنا ذلك وحكيًا أن أمية بن عبد شمس هو الذي تصدى لعنه هاشم ونجداه، ثم خسر أمامه فنفى نفسه إلى الشام فيما يقول الرواة. أما أسوة عبد شمس فقد وقف إلى جوار هاشم وأيده لأن هذا الجيل القديم من القرشيين كان يؤمن بوحدة قريش. وأبناء عبد مناف كانوا يبدأوا واحدة على من عداهم، أما أمية بن عبد شمس فلم يكن لديه هذا الإحساس. ولا نستطيع أن نؤكد أنه نفى نفسه إلى الشام فعلاً، فقد يكون الذي حدث هو أنه انصرف بكله إلى التجارة مع الشام فكثر أسفاره إليه، ولكن مكة كانت مستقره الدائم بدليل أنه لم يتزوج امرأة واحدة من نساء الشام، ولكن المهم أنه جمع مالاً كثيراً وأصبح بذلك من أهل القوة في مكة، واعتماداً على هذه القوة زادت قدرته وقدرته بني بيته، على التنافس مع بني هاشم وبني عبد المطلب، ولم يكن أحد من بني أمية الأكبر نداءً لعبد المطلب ولهذا لا نسمع عن بني أمية في أيامه. ولكننا نجد بني عبد شمس بين الجماعة الذين أساءوا التصرف وتعدوا الحدود، مما أدى ببني هاشم إلى تكوين حلف الفضول، ثم نجدهم بعد عبد المطلب في حلف الأحلاف أو حلف لعقة الدم مناهضين للمطهين وعلى رأسهم بنو هاشم، وفي أيام أبي طالب استمر تقدم هذه الجماعة وهي جماعة بني عبد شمس ومخزوم وبني سهم وبني جمح وبني عبد الدار وبني تميم بن عبد مناف، أي جماعة المال.

والآن وقد اتضح أن أبا الحكم عمرو بن هشام وهو أبو جهل لم يستطع قيادة المعارضة للإسلام ومحمد صلوات الله عليه، يدخل الميدان أبو سفيان رحل المال والتجارة.

ولو نظرنا إلى جدول نسب بني عبد شمس لوحدها أن أبا سفيان كان فعلاً واسطة هذه الوحدة القبلية الكبيرة، وأمه صفية بنت حزن وكانت من بني

هلال بن عامر بن صعصعة، ومن أولادهم سيكون الهلاليون المشهورون في تاريخ العرب الإسلامي، وغريب أمر بني هلال هؤلاء، فهاهم أصهار أبي سفيان بن حرب، وسيصاهرهم رسول الله ﷺ مرتين، فهم قوم أم المؤمنين زينة بنت حزيمة من عقب عبدالله بن أبي سفيان مناف بن هلال، وهم رهط أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث بن حزن من بني عبدالله بن هلال، وإذن فصفيّة بنت حزن أم أبي سفيان صخر بن حرب هي عمّة أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث. والحارث بن حرب هو أخو أبي سفيان، والحارث هذا كان زوج صفية بنت عبد المطلب عمّة رسول الله ﷺ، ثم تزوجها بعده العوام بن خويلد والد الزبير، وخويلد هذا هو أبو خديجة أم المؤمنين، وهذا التداخل في الأرحام والأوشاج يعطينا فكرة ترابط القرشيين جميعاً بواسطة الصهر وترابطهم مع من حولهم من قبائل العرب، وخاصة النُجَـر بن قاسط وهلال بن صعصعة وخزاعة بالصهر أيضاً، وهذا التداخل يرينا أيضاً كيف أن أبا سفيان هذا كان وسطاً في قریش كلها، فهو قريب كل قرشي ذي مكانة، وفي الوقت الذي نتحدث عنه ربما يكون أبو سفيان قد أصبح صهر رسول الله ﷺ، فلنسا نعلم على وجه التحديد متى كان ارتداد عبيد الله بن جحش زوج أم حبيبة بنت أبي سفيان عن الإسلام، ومتى كان زواج رسول الله ﷺ منها، ولكنه لا بد أن يكون قد حدث في الوقت الذي نتحدث عنه أي قبيل الهجرة بقليل، ولكن الذي نعرفه أن أبا سفيان عندما قيل له إن محمداً قد نكح ابنتك قال: «ذلك الفحل الذي لا يجده» (أو يقرع) أنفه. مما يدل على عظيم تقدير أبي سفيان لمحمد على ما كان بينهما من الاختلاف والتعارض.

صارت رئاسة قریش إذن لأبي سفيان قبل الهجرة بقليل، ولا نعني بذلك رئاسة سياسية، وذلك أمر لم نعرفه القائل العربية في الجاهلية إلا الرئاسة كانت اعتبارية أو عرفية، بمعنى أن أبا سفيان أصبح صاحب الرأي أو منفذ ما يستقر عليه رأي الملأ في الدولة، والأمور هنا كانت تجري طواعية شس المعفو،

فنحن لا نحس بأن أبا سفيان أصبح رجل قريش إلا قبيل الهجرة، ومع ذلك فنحن نعرف - وسنرى - أن أما جهل سيتدخل في الأمور تدخلاً يفسد تدبير أبي سفيان بعد هجرة الرسول، وسيفرض مزاجه الغاضب الجلف على الأمور، مما سيؤدي بذلك إلى معركة بدر وفيها كان حظه ونهاية الجاهلية، وسبحانه جل وعلا يصرف الأمور بتدبير لا تحيط به البصائر، وهو سبحانه غالب على أمره.

قريش تلجأ إلى سلاح القول بأن محمداً ساحرٌ

وخلال الحقبة الأخيرة من الدور المكي للبعثة المحمدية بلغت قريش أكثر ما بلغت من أذاها لرسول الله ﷺ وكان ذلك في الغالب بعد موت أبي طالب وخديجة رضي الله عنها، ولا نعرف إن كان ذلك قبل خروجه إلى الطائف أو بعد عودته منها، وجدير بالذكر أن مراجعنا لا تعيننا قط على ترتيب الحوادث، فلأنهم لم يدققوا بالقدر الكافي في توقيت الحوادث مع أهمية ذلك بالنسبة لنا. إنما هي تذكر الحوادث بعضها في أثر بعض، دون نظر إلى منطق التاريخ أو منطق الحوادث. ونحن هنا نبذل أقصى وسعنا في ترتيب الحوادث على نسق تاريخي مقبول. والخبران اللذان سنرويهما فيما يلي مؤرخين إلى حد ما. فإن بعض الروايات تقول إن الترمذي يجعل هذين الخبرين بعد وفاة أبي طالب. وتلك هي الرواية التي نقول بها هنا.

يقول الترمذي إن قريشاً اجتمعت بعد وفاة أبي طالب بثلاث، فأرادوا قتل رسول الله ﷺ فأقبل هذا يماه وهذا يتلبيه^(١)، فاستغاث النبي ﷺ فلم يفته أحد إلا أبو بكر وله ضميرتان، فأقبل يماه هذا وينتلل ذا، ويقول بأعل صوته: ويلكم! اتقتلون رجلاً إن يقول ربّي الله! والله إنه لرسول الله! فقطعت إحدى ضميرتي أبي بكر يومئذ فقال علي: والله ليوم أبي بكر خير من مؤمن آل فرعون، ذلك رجل كنتم إيمانه، فأثنى الله عليه في كتابه، وهذا أبو بكر أظهر

(١) هذه إحدى معارفات النص الذي يرويه الترمذي، وهي أصح مما في المتن بثلثة.

إيمانه ويدل دمه وماله الله عز وجل^(١).

وطاهر أن هذا الموقف من قريش كان نتيجة لموت أبي طالب، فقد جرؤ القرشيون عليه حتى أدوه كل الأذى ويدو أنهم وجدوها فرصة ليتخلصوا منه وهم آمنون من غضب بني هاشم، فلما رئيسهم وهو أبو لهب من أشد الناس عداوة لرسول الله . ويستوقف نظرنا أننا لا نسمع عن موقف هنا لعمر أو لحمة مع أن هذا هو الوقت الذي احتاج الرسول إلى وقوف أصحابه معه، ولم يعرض نفسه للأذى إلا أبو بكر كما رأينا . وكان علي بن أبي طالب إذ ذاك في حوالي العشرين من عمره . فلم يكن يُنتظر منه الكثير في مواجهة شيوخ قريش، ولكنه اقتدر على أن يشهد هذه الشهادة الكبيرة في حق أبي بكر.

ويضيف ابن هشام رواية تقول: إن أشد ما لقي رسول الله ﷺ من قريش أنه خرج يوماً فلم يلقه أحد من الناس إلا كذبه وآذاه، لا حرّاً ولا عبداً، فرجع ﷺ إلى منزله فتدثر من شدة ما أصابه، فأنزل الله عليه ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ وواضح إن أول سورة المدثر لم ينزل على رسول الله ﷺ في هذه المرحلة من الفترة المكية، أي بعد وفاة أبي طالب وخديجة، لأننا نعرف أنها ثانية ما أنزل عليه من قطع القرآن على ما ذكرناه آنفاً، فقد قلنا أن (اقرأ) جعلته نبياً، ثم جاءت الآيات الأولى من المدثر فجعلته رسولاً.

ولكننا نرى هنا أن قريشاً نجحت في أن تحصر رسول الله ﷺ وتوقف انتشار الدعوة، فهاهم الناس يجرؤون عليه ويؤذونه، وفي هذه الظروف لا يجرؤ أحد آخر على الدخول في الدعوة، وخاصة بعد حصر بني هاشم ومقاطعتهم وما أصابهم نتيجة لذلك وهذه الظروف القاسية هي التي جعلت رسول الله يعكر في الخروج إلى الطائف.

ولكن قريشاً لم تطمئن، فقد كانت تحس أن كلام رسول الله وما يتلوه

(١) البوري، نهاية الارب ١٦/٢٠٧

من القرآن يؤثر في قلوب الناس تأثيراً عميقاً، وكانت مكة قلة لآلوف من الحجاج والأعراب، وكان محمد واسع النشاط لا يدع إلا قصده وثلاً عليه القرآن ودعاه، فكيف يوقفون أثر كلامه ويطمثون إلى أن أحداً لن يقبل منه ما يقول؟

وسر هذا الخوف من جانب قريش، هو أن مواسم الحج والتجارة إلى مكة كانت لا تزال عامرة بالناس، وكان رخاء مكة كله وثراء شيوخها معتمداً على هذه الجماعات التي تغد على المدينة من كل نواحي الجزيرة، وقريش لا تأمن أن يستمع بعض أهل هذه الوفود إلى محمد ﷺ ويتأثر بكلامه، ويكون لذلك أثره، إذ إن الكثير من القبائل كانت تكره قريشاً وتحسدها، ولا يستبعد أن يدفعها الحسد إلى الانضمام إلى الدعوة المحمدية، فتكون من وراء ذلك مناهب لقريش وهم يريدون أن يقفلوا هذا الباب ويطمثوا، فأخذوا يفكرون في وسيلة يجاريون بها محمداً ويوقفون تأثيره على الناس. قال ابن اسحاق: ووصدت العرب من ذلك الموسم^(١) بأمر رسول الله ﷺ (والمراد هنا بخبر نبوته، وما يتلوه من القرآن، وهو خبر خريء بأن يستشير تطلع الناس ورغبتهم في رؤية صاحب هذه الدعوة والاستماع إليه)، فانتشر ذكره في جزيرة العرب كلها. قال - ابن اسحاق - ثم ابتدأت قريش في عداوة رسول الله ﷺ ومن أسلم معه منهم، فأغروا به ﷺ سفاههم، فكذبوه وآذوه، ورسول الله ﷺ مظهر لأمر الله لا يستخفي به مباد لهم بما يكرهون من عيب دينهم واعتزال أوثانهم وفراقه إياهم على كفرهم^(٢)، وابن اسحاق هنا غير دقيق في قوله ثم ابتدأت قريش، لأنها لم تبدأ أذاه منذ الآن فقط، ولكن المراد أن القرشيين عندما رأوا كثرة الوفود وكلامها في أمر محمد ﷺ وما جاء به، زادت في أذاه، ولما كانوا لا

(١) لم يحدد النص في أي موسم كان هذا، ولكن السياق يدل على أنه كان بعد موت السيدة خديجة وأبي طالب.

(٢) ابن اسحاق مرواية ابن هشام ١ / ٣٠٩ - ٣١٠، وابن سيد الناس، حيون الأثر ١ / ١٠١.

يستطيعون العدوان عليه مراعاة لحماية المطعم بن عدي إياه فقد أغروا به سفهاءهم، ففعلوا به ما ذكره وهو صار على الأذى ماص فيما كان فيه من نقد دينهم وعيه وتسفيه أحلامهم.

وفي أثر ذلك يروي ابن اسحاق حبراً هاماً - وهو بيت القصيد من هذه العقرة من دراستنا - يقول فيه رواية عن يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه عن أبي عروة وهو الزبير بن العوام عن عبدالله بن عمرو بن العاص عن أبيه قال: قلت: ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابوا من رسول الله ﷺ فيها كانوا يظهرونه من عداوته؟

فقال إنه حضر مجلساً لقريش في الحِجر عند الكعبة فذكروا رسول الله وما ناهم من أذاه وقالوا: ما رأينا مثلاً صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط: سفه أحلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب أئمتنا؛ لقد صبرنا منه على أمر عظيم... ثم أهل عليهم رسول الله ومز بهم فغمروه بالقول وهو يطوف بالبيت، ثم مر بهم في طوافه ثانية فغمروه كما فعلوا أولاً، ثم فعلوا به ذلك ثالثة، فوقف بهم وقال: «أتسمعون يا معشر قريش؟ أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح! وفي رواية أبي نعيم في دلائل النبوة أنه ﷺ أشار بيده إلى حلقه. قال: قال ابن اسحاق: فأخذت كلمته القوم حتى ما منهم رجل إلا على رأسه طائر واقع، حتى إن أشدهم فيه وصاة - أي شدة في الأذى - ليرفؤه - أي يبدئه - بأحسن ما يجيد من القول. حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، فوالله ما كنت جهولاً (أي غضوباً) فانصرف رسول الله إلى بيته، فنهض رجل منهم يعبرهم بجنهم عندما واحهم الرسول بالخزم المرهب خافوا منه ومضوا بترصونه، فأدركهم من ذلك حجل، فلما كان اليوم التالي ورأوه عند الكعبة همصوا وأرادوا آذاه بأيديهم ليرووه أنهم لا يحافونه، وبلغ الأمرهم أن همض أحدهم وأخذ يجمع رداءه أي بمحقته وحمل يقول له: أنت الذي تقول كذا وكذا... ورسول الله يجيب: نعم، أما الذي أقول ذلك فأسرع أبو بكر

وحال بين الرجل ورسول الله وبكى وهو يقول: ﴿أُقتلون رجلاً أن يقول ربي الله﴾ ثم انصرفوا عنه وهذا في رأي راوي الخبر كان أشد ما رأى قريشاً نالوا من رسول الله قط^(١).

ودلالة هذا الخبر هي أن قريشاً كانت فعلاً في حالة خوف دائم من محمد ودعوته فقد بذلوا أقصى ما استطاعوا في مطاردة أصحابه واضطهاد من استطاعوا اضطهادهم منهم، وأوقفوا تقدم الدعوة في مكة ذاتها ولكنهم رغم ذلك ظلوا يخشون دعوته، ذلك مع عظم هيئته في نفوسهم وعجزهم عن مواجهته وأنه كان على استعداد لمواجهتهم بأقصى مما يواجهونه به، فهو لا يعرف الخوف ويمضي في طريقه غير هباب، وهو على استعداد لأن يخوض معهم المعركة وانغماً من أن ذلك سيكون فيه هلاكهم، وهذا ما عناه رسول الله بالذبح. وهم لا يُقدمون على العدوان الخطير عليه خشية ما يمكن أن يقع من الصراع والحرب والفوضى داخل مكة نفسها، وهم حريصون على ألا يحدث ذلك حتى لا تتأثر مصالحهم.

ثم اجتمعوا بعد ذلك وأخذوا يفكرون في طريقة يُتفرون بها الناس منه دون اللجوء إلى العنف الدموي، فجعلوا يقلّبون الأمر على وجوهه فاستبعدوا أن يشيعوا عنه أنه كاهن أو مجنون أو شاعر، وأخيراً قال لهم الوليد بن المغيرة: والله إن لقوله خلالة وإن أصله لعنق - أو عُنْبَق، أي غني بالمني، وإن فرعه لجناة - أي بالغ التأثير لخلالوته - وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً - أي اتهامه بالكهانة أو الجنون أو الشعر - إلا عُرف أنه باطل. وإن أقرب القول فيه أن تقولوا إنه ساحر جاء بقول هو سحر يعرف بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته، ففرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبيل الناس حين قدموا الموسم. لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا له

(١) اس هشام السيرة ٣٠٩/١ وشرح المواهب للزرقاني ص ٢٥١/١، ونهاية الأرب للويري

أمره، فأنزل الله تعالى في الوليد من المغيرة. ﴿ذُرِّي وَمَنْ خَلَقْتَ وَحِيداً
وجعلت له مالاً محدوداً. . .﴾ إلى قوله. ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ من سورة
المدثر (١١/٧٤ - ٢٥).

وقد استراح القرشيون لهذا الرأي ووجدوا فيه سلاحاً فعالاً في صراعهم
مع محمد ﷺ لأن كل الناس في الجزيرة كانوا يعرفون أن السحر مهارة يكتسبها
بعض الناس في التأثير على عقولهم وحواسهم، فيجعلون الناس يحسون ويرون
ويسمعون ما لا حقيقة له، فهي قوة تخيل مؤقتة، فإذا أحس إنسان أنه يتأثر
من كلام محدثه فإن ذلك ليس بصحيح، والإحساس لا يرجع إلى أن الكلام
آت من السماء أو من قوة علوية، بل إن الإحساس وهم أو توهم يحدته الساحر
في عقل سامعه أو إحساسه لما يسمع من القرآن الذي لا يلبث أن يزول.
ويصور القرآن طبيعة السحر في سورة الأعراف في مجال المبارزة بين موسى عليه
السلام وسحرة فرعون: ﴿قَالَ: أَلْقُوا، فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ
وَامْتَرَهُوهُمْ وَجَاءُوا بِسَحَرٍ عَظِيمٍ. وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ
تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف ١١٦/٧ -
١١٨). وإذن فسحرة فرعون سحروا أعين الناس أي جعلوا عيونهم ترى ما لا
حقيقة له، وامترهوهم، أي جعلوهم يشعرون برهبة شديدة دون أن يكون
معنى ذلك أنهم بالفعل عندما ألقوا عصيهم تحولت إلى أفاعٍ. أما موسى فعندما
ألقى عصاه تحولت فعلاً إلى أفعى بأمر الله فلقفت ما ألقوا فوق الحق وبطل ما
كانوا يعملون.

وقد حرصوا على أن يقولوا لكل من يجالس محمداً أنه ساحر يؤثر بكلامه
في مشاعر سامعيه دون أن يكون هذا الكلام حقيقة من الله. وكان لهذا الكلام
أثر فعال في زوار مكة، وتأثر سير الدعوة في مكة بذلك كثيراً

وقد روعت قريش كما رأينا لما كان من الاتفاق بين محمد ﷺ وأهل

يثرب، ولكن الأمر لم يعتما، فقد علمت بأمره ولكنها لم تفعل إلا القليل. وما كان بيدها أن تفعل أكثر من ذلك، فإن بقية جماعة المسلمين قد أخذت تهاجر إلى المدينة كما هاجرت جماعات إلى الحشة، ولم يكن هناك ما يدل على أن هذه الجماعة المهاجرة سيكون لها شأن كبير في مهجرها الجديد، ولعل الكثيرين من القرشيين استراحوا لذلك، ولكن شيئاً ما في نفوس أهل الفطمة من أولئك التجار الحاسيين المهرة ألقي في روعهم أن شيئاً ما سيحدث، فتركز اهتمامهم على مراقبة محمد، فما دام هو تحت أعينهم في المدينة فلن يحدث أي شيء، أما إذا انتقل إلى يثرب فهنا قد يكون الخطر، لأن البشريين قد يتجمعون حوله، وهم - أي القرشيين - بعقليتهم البدوية لم يستبعدوا أن يلتف البشريون حوله ويؤيدوه ويدخلوا في دعوته وتنشأ عن ذلك متاعب، ولكن أحداً منهم ما كان ليتوقع شيئاً كبيراً، ولكنهم بطبعهم البدوي متخوفون، شأن صاحب المال، ويتجلى لنا هذا التخوف من جانب قريش من تفاصيل ما حدث بعد اجتماع العقبة الثانية في خبر رواه ابن سعد، وقد سبق أن أشرنا إليه وشككنا في صحته ولكننا قد نشك في الخبر بنصّه وتفصيله أحياناً، ولكننا نقبله بمغزاه ومجمله وهنا - في ذلك الخبر الذي يسوقه ابن إسحاق رواية أخرى له تختلف عن رواية ابن سعد. في هذا الخبر نقرأ أن معبد بن كعب بن مالك (الأنصاري) يقول: «فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاءونا في منازلنا فقالوا: يا معشر الخزرج: إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم، منكم» وواضح أن الخبر وصل إلى قريش محرّفاً، فإن القوم لم يبايعوا محمداً على حرب قريش، بل كانت المايعة على الحماية فقط والنصرة على من يعتدي على محمد وأصحابه في يثرب، ولكن وسواس قريش ذهب بها هذا المذهب، وهو أمر معقول في تلك الظروف.

وعلى أي حال فما نطّل أن حركة هجرة كهذه من مكة إلى المدينة كان

يمكن أن تخفى على قريش، ولكن قريشاً كما قلنا لم يكن يهملها أن يهاجر من بلدتهم من يشاء الهجرة ما دام محمد نفسه باقياً في مكة حتى حبر احتيال أبي جهل وأخيه هشام على عياش بن ربيعة (وكان ابن عمهما وأحاهما لأمهيا) واسترجاعه إلى المدينة والصفط عليه حتى افتت من دينه، حتى مثل هذا الخبر يمكن الشك فيه، بل إن سياقه مضطرب، وسنده عن نافع عن ابن عمر.

ونلاحظ هنا أن كل رجال قريش من أعداء الإسلام كان لهم عدوان باللسان على الأقل على رسول الله ﷺ، إلا أبا سفيان صخر بن حرب فليس لدينا خبر يتضمن عدواناً منه بالفعل أو القول على رسول الله أو الإسلام، ومرد ذلك فيها نحسب هو أن الرجل كان عملياً لا ينصرف إلى ما لا طائل وراه، نعم إنه سيقود قريشاً في أحد وسيقودها في الخندق، ولكن ذلك شيء آخر، فهذه حرب حقيقية بين جبهتين متعاديتين: جبهة مكة وجبهة الإسلام في المدينة، فاما في أحد فقد كانت مكة قد انكسرت في بدر انكساراً خطراً على مصيرها، وكان لا بد من الرد، ثم إن قيادة أبي سفيان هنا لم تكن سيئة بحال، وأما في الخندق فقد أعد أبو سفيان العدة وخرج ومعه أحلاف أقوياء، ولم يكن في حسبان أنه سيلقى غيرة تفوق كل ما كان يتوقع، وقد عبر أبو سفيان عن ذلك تعبيراً صريحاً كما سئرى. وبعد الخندق وتأكد أبي سفيان أن جماعة المدينة قوة معنوية ومادية لا تقاس إليها كل قوى الجزيرة بحال، وأن على رأسها قائداً هو الغاية في الإيمان بقضيته والتفاني واليقظة والذكاء والبسالة، بعد ذلك نجد أن أبا سفيان يتجه في مواجهته لأمة الإسلام اتجاهاً هافلاً يدل على ذكاء وحسن تصرف، وهو في تصرفه هذا كان يسير في الطريق الذي رسمه رسول الله ﷺ، طريق استسلام مكة دون حرب حتى تدخل بقية قريش الإسلام بقواها كاملة عزيزة الجانب محفوفة الكرامة، فتكون قوة للإسلام

حتى فيما يتعلق بهجرة الرسول ﷺ وأبي بكر إلى المدينة، وهي هجرة أشبه بالهروب المدر المحسوب، لا نجد لأبي سفيان فيها أي تدخل يذكر، كان

الأمر لم يكن يعنيه . كانت قريش قد تبينت بتوالي هجرات الصحابة أن هناك شيئاً خطيراً يجري وأن محمداً يدبر بإحكام، فاستيقظت فيها كل ملكات الحذر والترقب، واذكت العيون على رسول الله حتى لا يفلت من يديها . وهنا وقريش ترى أن حركة الإسلام تأخذ شكلاً من الممكن أن يصيبها منه شر، ها يكون تكبير رؤسائها في قتله والخلاص منه جملة . وهنا نجد أن ملأ قريش - بما فيهم أبو سفيان - يجتمعون ويتشاورون، فقد أدركوا بفراستهم أن ما يجري في المدينة من الممكن أن بآتيهم منه ضرر، ولا شك في أنهم علموا بما أدركه مصعب بن عمير من نجاح في عمله داعية للإسلام في يثرب ولا نزاع في أن مصعباً يعتبر - بعد رسول الله ﷺ - أكبر داعية للإسلام، فقد ذهب ليدعو للإسلام في بلد غريب عليه، ولكنه كان رجلاً عميق الإيمان، إذ هو من أولئك الشبان الذين أنشأهم الإسلام نشأة أخرى، فقد كان قبل الإسلام من أكثر شباب قريش تنصباً بالحياة، قال فيه محمد بن اسحاق: بلسان سعد بن أبي وقاص: «وكان مصعب بن عمير أنعم غلام بمكة وأجلهم صلة مع أبويه، ثم رأته جهد في الإسلام جهداً شديداً حتى لقد رأيت جلده يتحشف كما يتحشف جلد الحية^(١)» وكانت أمه - وهي خناس بنت مالك بن المظرف من بني عامر - من الموسرات، وكذلك كان أبوه هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، فلما نذبه الرسول ﷺ بعد بيعة العقبة الثانية لذهب إلى المدينة ليُعَلِّم أهلها الإسلام اجتهد في ذلك اجتهداً شديداً حتى لقب بالمقرئ، وبلغ من نجاحه أنه لم يعد هناك بيت في المدينة إلا وفيه إسلام . ثم تبعه في الهجرة بقية المهاجرين وفيهم عمر وحزرة ومن في طبقتهم، وأخذت جماعة الإسلام في المدينة هيئة وكياناً قبل هجرة الرسول إليها، فكان ذلك قميناً بأن يثير مخاوف قريش فاشتدت رقابتهن على رسول الله ﷺ مخافة أن يفلت منهم، ثم رأوا أن يحسموا الأمر بقتله، وكان صاحب الرأي في ذلك أبو جهل، وكان من رأيه أن تنتخب كل قبيلة شاباً

(١) ابن الأثير في أسد الغابة ١٨٢/٥ .

ليضربوا محمداً سيوفهم ضربة واحدة مجتمعين ، لينفرك دمه في القبائل ولا يستطيع بنو هاشم حرهم جميعاً ويرضون بالعقل ، فيعقلوه جميعاً .

وكان ذلك ممكناً لا في هذه المناسبة فقط ، بل في أي وقت مضى منذ بدأت العداوة بين رسول الله ﷺ وقريش ، ولكن الله أنجى رسوله وخرج به من مكة على النحو الذي نعرفه ووصل به إلى المدينة على النحو الذي تروييه كتب السيرة لكي يقوم ببناء أمة الإسلام في المدينة .

وبقيام أمة الإسلام في المدينة تغير الموقف بالنسبة لقريش . وكان عليها أن تواجه تحدياً لم يكن ليخطر لأحد من رجالها على بال . ومن حسن حظ مكة أن كان على رأسها في ذلك الحين أبو سفيان صخر بن حرب .

الفصل الثاني

قُرَيْشُ وَأُمَّةُ الْإِسْلَامِ فِي الْمَدِينَةِ

الدَّورُ الْأَوَّلُ مِنَ الصَّرَاحِ بَيْنَ قَرِيْشٍ وَالْإِسْلَامِ مِنَ الْهَجْرَةِ إِلَى مَوْقِعَةِ بَدْرَ :

من بداية استقراره في المدينة وشروعه في إقامة أمة الإسلام ، كان رسول الله يعرف أن قضية جزيرة العرب وادخالها في الإسلام كانت قضية قريش وادخالها في الإسلام . لقد كانت الجزيرة نبع بالقبائل ما بين كبيرة وصغيرة : كانت هناك قبائل كبرى تسكن مساحات شاسعة من الأرض وتتعدد بطونها وأفخاذها ، حتى لتكاد تكون شعوباً : هناك إلى شرقي الحجاز كانت غطفان وهوازن ، وكل منها تعدل قريشاً عشرات المرات حجاً وعدداً ، وإلى شرقيهما كانت منازل تميم ، وهم البدو الخُلُص ، وكانوا قبائل وبطوناً شتى ، ويصفهم ابن حزم بأنهم «قاعدة من أكبر قواعد العرب» . وإلى شمالهم على أطراف نجد الغربية كندة وغيرها من قبائل العالية ومنهم باهلة وسُلَيم بن منصور وليث بن بكر بن عبد مناة وهلال بن عامر بن صعصعة ومن إليهم من بطون قيس عيلان ، وكانت تميم في البداية تمتد حتى البحر ، ولكنها انحسرت إلى الداخل وحل محلها عبد القيس وبكر وتغلب وغيرها ، وهم بدو أعراب ينتشرون على طول الطريق من الحجاز إلى العراق ، وإلى الشرق كانت منازل بكر وتغلب ثم عبد القيس وهذه القبائل التي ذكرناها كانت جماعات قوية فيها بيوت وأعداد ورجال سيغفرون وجه التاريخ بعد الإسلام . وكانت هناك كذلك طيء ولخم وجدام في شمال وسط الجزيرة ، وبعضها من المجموعة التي تسمى باليمية الأصل . وكانت قبائل قوية ذات خطر ، وهناك قبائل أخرى صغيرة

الحجم ولكنها مرهوبة الحجاب مثل عس وذبيان ولحيان وغيرها كثير، أما شمالي المدينة فكانت هناك جهينة وبقية بطون قصاعة مثل بلي والقيين وعذرة وحشين، وكانت بطون قصاعة تمتد من الحجار إلى الشام جماعات متوالية.

ووسط هذا البحر من قبائل وسط الجزيرة، وشمالها، عاشت قريش في قاعدتها مكة، وهي من أصغر قبائل الجزيرة ولكنها كما رأينا كانت أظهرها وأبعدها صيتاً وأكثرها صلة بمعظم القبائل وبالعالم الخارجي، ومن هنا فقد كان رجالها أوسع العرب علماً وأبعدهم تأثيراً، ولهذا فقد كان رسول الله ﷺ يعرف أن قريشاً إذا انضمت لأمة الإسلام تبعته في ذلك معظم قبائل شبه الجزيرة.

وبحلول رسول الله ﷺ في المدينة تحولت جماعة المسلمين شيئاً فشيئاً وبسرعة لم يكن أحد يتصورها، إلى أمة واحدة ذات عقيدة واحدة. ومثل أعلى واحد، فأصبحت خلال العام الأول من الهجرة وحدة دينية فكرية واجتماعية لم تعرف لها جزيرة العرب مثيلاً من قبل. وليس هنا مكان تفصيل كيف تم ذلك، ولكن الذي يهمنا هنا هو النتيجة. كان هناك اليهود ومن لم يدخلوا الإسلام من أهل المدينة، ولكن كتلة البلد وخيرة رجالها دخلوا في الإسلام ونهضوا بأمر أمته، وتوالى نزول آيات القرآن تهديهم وتعلمهم وتنور بصائرهم فأصبحوا في أبسر الزمن أعلى أهل الجزيرة ثقافة وفكراً وأرفعهم روحاً معنوية. ولم تكن المدينة قبل الإسلام مدينة واحدة، بل كانت قرى منتشرة في سهل المدينة مثل قباء وشرب ورائع والسُّنح وحُصَيْكَة، فربط الإسلام بينها ودفع الناس إلى تعمير الغامر من الأرض وهو كان أغلب أرض سهل المدينة، فتزايد عمران البلد وتزايد سكانها بالهجرة إليها. وأدخل الرسول صلوات الله عليه المؤاخاة بين المهاجرين من قريش وغيرهم وأهل المدينة، وشرع معهم في إنشاء الصحيفة، وهي الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار ومن شاء الدخول في حلف أمة الإسلام من يهود ومن كان نارلاً بالمدينة من

قبائل حهينة وبطون قصاعة، بين فيه قواعد التعامل والتعاون بين الوحدات القليلة التي تؤلف الأمة، ثم إن رسول الله كان يقوم فيها هادياً ومعلماً ومشيراً ونبيراً وداعياً إلى الله بإذنه، فكان بالفعل سراجاً مبيراً، خرج بهم من ظلمات المحامية وأشاهم الإسلام بشاة أخرى وفي نهاية العام الأول للمهجرة كانت المدينة قد أصبحت أقوى وحدة دينية وسياسية وفكرية واجتماعية في شبه الجزيرة، واتجهت إلى احتواء بقية الهجر والمكة وقريش.

وقد أكدت معركة بدر (١٩ رمضان ٢ هـ ١٥ مارس ٦٢٤م) مكانة المدينة في الهجر، واتجهت أبصار قبائل شبه الجزيرة جميعاً نحو القوة الجديدة الصاعدة، ولم تؤثر معركة أحد (١٠ رجب سنة ٣ هـ / ٢٣ مارس ٦٢٤م) أثراً بعيداً في صعود المدينة، ولكن فشل الأحزاب في دخول المدينة وارتدادهم عنها منهزمين في ذي القعدة سنة ٥ هـ / إبريل ٦٢٧م) حسم الأمور وأثبت أن أمة الإسلام في المدينة أقوى قوة في الجزيرة كلها، وهبطت مكانة قريش وتدهورت مكانتها الاقتصادية نتيجة للمحصار المصروب عليها.

ومن الواضح أن رسول الله ﷺ - عندما قامت أمة المدينة - رسم خطته كاملة للتغلب على قريش، بمعنى أننا لا ينبغي أن ننظر إلى غزواته وسراياه واتفاقاته مع القبائل في الهجر وخارجه على أنها أعمال مفردة منفصل بعضها عن بعض، بل كانت كلها حلقات من سلسلة واحدة أو سياسة واحدة وضعت بإحكام حتى تنتهي حتماً بوضع قريش في موضع لا تستطيع معه إلا التسليم أو الاستسلام. حقاً إنه يبدو لنا أن موقعة بدر قد نتجت عن تمهيد أبي جهل وأمثاله من القرشيين المنغضين للإسلام ورسوله وإصرارهم على تحدي المدينة، والاحتمال نحلة العير وتنبيه الأذهان إلى أن طريق التجارة مفتوح، ولكن ذلك الاحتفال وحروح قريش بالقبان والدخوف وصرها خيامها خارج سهل بدر، وبحرها الحر، كل ذلك لم يعن أن طريق التجارة قد فتح، وأن مكة تستطيع أن تواصل تجارتها كما كانت قلاً، لأن عير أبي سفيان إذا كانت قد أفلتت فإن

الطريق ظل مغفلاً، والعبر التالية كان لا بد أن تقع في أيدي المسلمين إلا إذا رافقها جيش كبير، وفي هذه الحالة كان لا بد من وقوع صدام مسلح بين الحانين، وموقعة بدر كان لا بد أن تقع على أي حال، إما في التاريخ والمكان اللذين وقعت فيهما أو في مكان وزمان آخرين. كانت لقاء محتوماً ولا مفر منه. وكان لا بد أن تنتصر فيه أمة الإسلام لأنها حرجت إلى تلك الواقعة سلاح جديد لم يكن يدخل في حسابان قريش، هو سلاح الإيمان والتفاني ووحدة الإيمان والاستعداد وبيع النفس في ميدان العقيدة والشرف، وأساطين قريش الذين خرجوا إلى الميدان يختالون كبراً وثقة في أنفسهم لم يكن لديهم شك في أن النصر في أيديهم، ويتجنى لنا هذا مما يذكر على لسان عمير بن وهب الجُمَحي وأبي أسامة الجشمي، وكانا في جيش المشركين وكانا من أهل المعرفة بالحرب واحتمالاتها، وكلام أبي أسامة الجشمي هنا أبلغ وأدل على طبيعة قوة المدينة التي كان على القرشيين لقاءها، قال بعد أن طاف حول جيش المسلمين من بعيد واستوثق من أنه لا كمين لهم ولا مدد. قال يصف المسلمين: «والله ما رأيت جُلُداً ولا عدداً، ولا حُلقة (سلاح كثير) ولا كراعاً لكن والله رأيت قوماً لا يريدون أن يؤبوا إلى أهلهم، قوماً مستميتين ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، زرق العيون كأنهم الحصى تحت الحجف (= التروس)»^(١)، وتلك هي الناحية التي لم يرها أبو جهل بنظرنه الجاهلية الصرفة، ولكن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس رآها، وتوقع الهزيمة ونصح قريشاً بالعودة إلى المدينة، ولكن أبا جهل أصر على اللقاء. والذي فات قريشاً ولم ينبه عليه مؤرخ، هو أن قريشاً القبيلة الجاهلية سارت إلى بدر على طريقة الجاهليين: جمعل من الناس يسير بغير نظام معتمداً على المارزات الفردية عند اللقاء. فقوجت بأنها تلاقي جيشاً مدرباً نظامياً يقف رجاله صغواً متراصة يلي بعضها بعضاً. وقد دَرَبَ الرسول أمته على هذا الطراز الجديد من الحرب خلال المغازي والسرايا الثمانية التي سبقت

(١) الواقدي، مغازي ١/٦٢٢

معركة بدر. وكل الغزوات والسرايا الثمانية السابقة على بدر من سرية سيف البحر، إلى سرية نخلة كانت كلها تؤدي إلى بدر، ونخلة بالذات كانت على أبواب مكة ومدخل حرمة، وقد قصد رسول الله ﷺ من بعث عبدالله بن جحش وأصحابه إليها إلى اشعار قريش بأن مكة نفسها في متناول المدينة، وهو صلوات الله عليه لم يأمر عبدالله بن جحش أميرها بالقتال، ولكن القتال كان احتمالاً كبيراً جداً، وواقف بن عبدالله، أحد رجال سرية نخلة، عندما فوق سهمه إلى عمرو الحضرمي وقتله في بداية الشهر الحرام مخالفاً بذلك أمر الرسول، كان يشعر أنه لا يخالف بعمله هذا حتمية الظروف، فالقتال بين أمة الإسلام وقريش كان واقعاً لا محالة والمساءلة مسألة وقت وظروف، وكان رسول الله ﷺ يعرف ذلك معرفة تامة، ثم لم تلبث أن نزلت الآيات التي أحلت القتال في الشهر الحرام دفاعاً عن النفس ﴿يَا لَوْلَاكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٌ فِيهِ. قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ. وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامِ وَخُرُوجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ. وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَمْزُجُوا دِينَكُمْ مِنْكُمْ وَإِنْ اسْتَطَاعُوا. وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَتٍ وَهُوَ كَافِرٌ، فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١) والآية تدل على أن هناك حالة حرب قائمة دائمة بين المسلمين وبين من يصدون عن سبيل الله ويكفرون به ويصدون عن المسجد الحرام ويحولون بين المؤمنين وبينه.

الدور الثاني من الصراع بين قريش والإسلام من بدر إلى أحد :

الذي يهمني هنا هو أن قريشاً وجدت نفسها في طرف لم تكن تتوقعه قط : فطريق تجارتها مقطوعة، ثم إن الكثير من قبائل الحجاز مالت إلى حلف المدينة أو وقفت على الحياد وللمرة الأولى منذ أيام قُصي وقفت قريش وحدها،

(١) الفرة ٢/٢١٧

فبمجرد استقراره في المدينة عرف رسول الله كيف يجتذب جهينه إلى صفه ويجعلها من حلقاته في الحجار، فقد كانت مارها تمتد من يسع إلى قرب نيهاء واستشعرت قريش الخوف، وبعد هزيمتها في بدر وقتل الكثير من رؤسائها وكبار ملتها، وفي مقدمتهم أبو جهل وعنه وشية اسا ربيعة، أحست قريش أن الدنيا من حولها تعبرت، وفي هذه الظروف صار مصير قريش كله بين يدي أبي سفيان بن حرب.

وقد أحب أبو سفيان أن تشعر قريش بأن بلاك الأمر بيده فقام بغارة السوق (٥ ذو الحجة سنة ٢هـ / ٣٠ مايو ٦٢٥) وهي غارة سريعة قُتل فيها اثنان من الزراع خارج المدينة وعاد سريعاً، وبلغ من سرعته في العودة، أن كان أصحابه يلقون جُرب السوق (أي غارات الدقيق) لينتخفوا منها ويستطيعوا العودة إلى مكة قبل أن يدركهم أهل المدينة، وما نحسب أن أبا سفيان إلا أراد بهذه الغارة أن يؤكد بها رياسته، مخافة أن يصير الأمر إلى رجل غيره من زعماء قريش، فلا يستطيع قيادة الأمور في الاتجاه الذي كان يتصور أنه الصحيح.

وبعد ذلك كانت سرية القرظة، والقرظة على الطريق من مكة إلى العراق، وكان هدفها قطع طريق التجارة العراقية على قريش، وكان الذي فكر في سلوك طريق العراق ثم الانحراف إلى الشام بعد خيبر، لكي يتخلص من سيطرة المدينة على طريق الشام صفوان بن أمية، ونص الواقدي هنا عظيم الأهمية والدلالة فنورده هنا بنصه، وننقسمه إلى فقرات على عادتنا في مناقشة مثل هذا النص الذي نرى أنه جدير بالدواصة المثبتة:

- ١ - حدثني محمد بن الحسن بن أسامة بن زيد عن أهله قالوا: كانت قريش قد حذرت طريق الشام أن يسلكوها.
- ٢ - وخافوا من رسول الله ﷺ وأصحابه، وكانوا قومًا تجاراً
- ٣ - فقال صفوان بن أمية: إن محمداً وأصحابه قد غَوَّروا علينا متجرنا فما نرى

كيف نصنع بأصحابه، لا يبرحون الساحل.

٤ - وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه، فما ندرى أين سلك.

٥ - وإن أقمصاً يأكل رؤوس أموالنا، ونحس في دارنا هذه، ما لنا بها من نفاق

(يريد ما لنا من سوق تنفق فيه متاجرنا) إنما نرلناها على التجارة، إلى الشام في

الصيف، وفي الشتاء إلى أرض الحبشة.

٦ - قال له الأسود بن عبد المطلب: فكتب عن الساحل، ونُخذ طريق

العراق.

٧ - قال صفوان: لست بها عارفاً.

٨ - قال أبو زمعة (الأسود بن عبد المطلب) فأنا أدلك على أخبر دليل بها

يسلكها وهو مغمض العينين إن شاء الله^(١).

وكان هذا الدليل هو فرات بن جبان العجلي. فاتفق صفوان مع هذا

الرجل على أن يكون دليله على قافلة يخرج بها إلى الشام، فيسلك طريق العراق

حتى يخرج من منطقة المدينة فينثني غرباً حتى يلقى أحد طرق الشام ويسلكه.

وبالفعل أعد صفوان قافلة فيها فضة كثيرة. ويبدو أن قريشاً أرادت أن تشتري

بذلك المال أزواداً تستعين بها على الحصار. وسلكت القافلة طريق ذات عرق.

فُنمي الخبر إلى محمد صلوات الله عليه فأسرع بانتداب زيد بن حارثة وإرساله

في مائة فارس أدركوا القافلة عند ذات قرد أو القرقة على ذلك الطريق، وأفلت

أعيان القوم، ولكن المسلمين استولوا على البضائع وأسروا رجلين وقدموا بالعير

على النبي ﷺ. فخمسها، فكان الخمس يومئذ عشرين ألف درهم، وقسم ما

بقي على أهل السرية، وكان في الأسرى فرات بن جبان (الدليل) فأتى به فقبل

له. أسلم. إن نسلم نتركك من القتل. فأسلم فتركه من القتل^(٢).

وهذه السرية تعبر الكثير من مفهوماتنا التقليدية عن مغاري رسول الله

(١) عبارة إن شاء الله على لسان أبي زمعة بن عبد المطلب تدور عربة ها الواقدي ١٩٨/١

(٢) الواقدي، المغاري ١٩٨/١

وسراياه، مها نحن نرى أنها أدت في مجموعها إلى ذلك الحين (قبل أحد) إلى سيطرة المسلمين عاماً على طريق التجارة المكية إلى الشام ثم العراق. ولولا أن رسول الله ﷺ سار في مغازيه على حطة محكمة مرسومة مقدماً لما وصل في الرمن القصير إلى إيقاف التجارة المكية، فإن الأمر لم يكن محرد إيقاف التجارة، بل رمت الخطة كذلك إلى كسب قبائل الساحل إلى جانب المدينة وإخراجهما من حلف مكة، مما انتهى إلى حصرها على بلدها على النحو الذي وصمه صفوان ابن أمية. وعندما أرادت قريش أن تتسلل إلى الشام عن طريق العراق بإحدى الرسول بإيقاف هذه الطريق أيضاً، مما يدل على أن أمة المدينة كانت لها الأرضاد والعيون من أصدقائها والداخلين في حلفها، فكانت الأخبار تصل إلى رسول الله في أقصر وقت فيبادر إلى العمل. ويكون عمله حاسماً يوفي على الغاية المطلوبة.

وسرية الفرزة وما وقع فيها تربنا كيف أن غزوة أحد لم يكن منها مفر، فقد كانت قريش أمام أحد خيارين ولا ثالث لهما: إما الاستسلام (ولم يكن أوانه قد آن بعد) أو خوض معركة أخرى هدفها تحطيم قوة المدينة وفتح طريق التجارة.

فلما عجزت قريش عن فتح طريق آخر للتجارة إلى الشمال والشمال الشرقي، أدرك أبو سفيان أنه قد جاء وقت العمل. وكان هذا الرجل قد احتبس أموال العير التي نجا بها قبيل معركة بدر وجعلها في دار الندوة لا يحركها، وكان الكثير من أصحابها ممن قتل أو أسر في بدر. فلما فشلت محاولة الذهاب إلى الشام اجتمع الساقون من صلاً قريش إلى أبي سفيان وطلبوا إليه التصرف في تلك الأموال وعرضوا عليه أن يُعَد بها جيش يسير إلى المدينة. وكان هذا ما يريده أبو سفيان، ويشهد بذلك قوله

« وقد طالت أنفوس قريش بذلك قالوا: نعم، قال: فإنا أول من أجاب إلى ذلك، وسو عبد مناف معي، فإنا والله الموتور الشائر قد قتل انبي حنظلة

بدر وأشراف قومي». واتفق رأيهم على أن تتاع المتاجر التي كانت في العير وترد رؤوس الأموال إلى أصحابها وتستخدم الأرباح في تجهيز الجيش ولم تكن الأرباح قليلة فقد كان المكيون يرمحون للديار دياراً، فإذا كانت هذه العير ثمنها خمسون ألفاً كما تقول النصوص فإن أرباحها كانت حمير ألفاً من الذهب العيين «بحسب نص الواقدي»، وأحد أقوام من أهل مكة أهل ضعف لا عشائر لهم ولا متعة كل ما كان لهم في العير. فهذا يبين أن القوم ردوا رؤوس الأموال إلى أصحابها من الضعفاء واستخدموا الباقي مع الربح في تجهيز العير وفيهم نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(١) الآية.

وهذا التصرف من أبي سفيان يدل على فكر سليم وتدبير صحيح، فقد كان الرجل يعرف أنه مقبل على معركة حاسمة وأنه يحتاج فيها إلى أموال، فتحصلت له الأموال للسلاح والعدة. فلما استوثق أبو سفيان من عزيمة قريش على المسير واطمأن إلى أن الرئاسة له، أخذ يشاور ملا قريش في أمر الحملة، ولدنيا بيان بمن كان مع أبي سفيان في هذا التدبير، وهم يمثلون معظم بيوت قريش، وانضم إليهم بنو عبد مناة بن كنانة بن خزيمة والأحباش وثقيف. وبعث قريش ناساً إلى قبائل العرب لدعوتها إلى الاشتراك في حرب المدينة، ونحس رجاءها حتى قرروا أن يخرجوا بنسائهم ليحفظنهم ويذكّرهم قتل بدر وقال: «فإن العهد حديث ونحن قوم مستميتون لا نريد أن نرجع إلى دارنا حتى نذكر ثأرنا أو نموت دونه»^(٢). وهذا كلام صفوان بن أمية بن خلف بن وهب ابن خديجة بن نخع، وكان هو الشخصية الثانية في قريش يومذاك... وخرجت قريش وأحلافها في ثلاثة آلاف مقاتل معهم ٣٠٠٠ بصير وفيهم ٧٠٠ دارع و٢٠٠ فارس، وهذا جيش ضخم نظر أنه أكثر قوة عسكرية عرفها العرب حتى ذلك الحين، ومثل ذلك الجيش الضخم يحتاج إلى قيادة وإدارة، وكانت

(١) الأمل ٣٦

(٢) الواقدي، المعازي ٢٠٢/١.

للجيش ثلاثة ألوية . لواء لقريش ولواء للأحباش ولواء لقيية من اعصم إلى قريش غير هؤلاء ، وحدث خلاف بشأن لواء قريش ، « فإن أب سميان تردد في اعطائه لسي عبد الدار فعصوا وأعلطوا لأبي سفيان بعض الاغلاظة فترك لهم اللواء .

وقد عرف أبو سميان كيف يفود هذا الجيش الكبير حتى وصل به إلى ظاهر المدينة يوم الخميس لحمس ليال خلون من شوال ، وكانت الواقعة لسبع خلون من شوال (سنة ٣ هـ / ٢٣ مارس ٦٢٥ م) وكان أهل المدينة قد ررخوا البعرض شعيراً ، والعرض أرض مزروعة تمتد من الجُرف شمال المدينة حتى السطاء أسفل أحد ، فرعت جمال القرشيين الشعير كله في يومين ، وفي يوم اللقاء ، لم يكن في العرض عود واحد أخضر .

وقبل أن يصل المشركون كان النبي ﷺ قد نذر بهم ، فأسرع إلى العمل على عادته ، ومشاورة أصحابه وقتاً طويلاً فيما إذا كانوا يقاتلون في المدينة أو يخرجون للقائهم خارجها . وكان هو أول الأمر يرى تحصين المدينة ورفع النساء والولدان في الأطام والقتال في شوارع البلد ، وقد رأى ذلك حرصاً منه على ألا يتعرض المسلمون لقتال ذلك العدد الضخم في لقاء مكشوف ، ولكن شباب الأنصار من أمثال محمد بن مسلمة وأسيد بن الحضير وسعد بن الربيع وسعد ابن خيثمة ، أصروا على الخروج للقاء العدو في الميدان ، وأنفوا أن تُدخل عليهم المدينة ، ووجد الرسول فيهم حماساً عظيماً فقرر ألا يخذلهم واستعد استعداداً تاماً ، فأحسن تنظيم رجاله بعد التشاور معهم ، ورسم لهم خطة العمل فقرر أن يخرج بمن يريد الخروج معه ويجعل ظهره إلى أحد ويجعل تل عينين القليل الارتعاع بينه وبين المشركين ، ويقف بالمسلمين إلى غربي عيسى متأخرين عنه قليلاً ويجعل الرماة على التل حتى يردوا خيل المشركين . وكانت الخيل إذاً ذلك تُقابل الدبابات التي تهاجم مدافعها اليوم ، والسهام التي يرمي بها الرماة للدبابات كانت تقوم مقام المدافع المصادة اليوم . وقد لحا الرسول إلى ذلك

الحل ليظل مبرة المشركين الكبرى وهي الحيل، فقد كان لديهم مائتان من
 الفرسان عليهم مقاتلون ذوو خبرة وبسالة وقوة، مثل خالد بن الوليد وضرار
 اس الخطاب وعكرمة بن أبي جهل. والفعل لم يستطع المشركون اقتحام
 صفوف المسلمين خلال الدور الأول من المعركة، بل انهم المشركون وأخذوا
 يتهاربون وكاد أبو سفيان يحصر المعركة، وهنا وقع المسلمون في الخطأ الذي
 حذر منه الرسول أشد التحذير، إذ إن الرماة غرهم النصر الأول فخالفوا أمر
 قائدهم عبدالله بن جبير، واندفعوا بطمعون في نصيب من الغنائم، ولم تفت
 هذه الفرصة خالد بن الوليد القائد المطبوع، فاندفع بخيله فاجتاح بقية الرماة
 وانصب بخيله على من بقوا في مواقعهم منهم، دون أن ينطلقوا في إثر الهاربين
 من رجال العدو، فاضطربت صفوف المسلمين وداخلتهم خيل العدو وتفرقوا
 وضاع الحزم. وتبين الرسول خطورة الموقف فثبت مكانه ثباتاً يروع النفس،
 وفي وقت من الأوقات من هذا الدور الثاني من المعركة كان يقاتل وحده حتى
 ثاب إليه قليل من المسلمين، وجعلوا يتادون المسلمين فعادوا إليه وتجمعوا حوله
 وأصبحت شفاه زرد المغفر في وجنتيه وشج في رأسه، فلم يبال بذلك
 وثبت لا يتزعزع، وما أسرع ما تلاحق به المسلمون وأحاطوا به ودفعوا عنه وهو
 يقاتل، فلما استطاع بثباته إعادة المسلمين إلى الثبات، بعد أن قتل منهم من
 قتل، لم يعكر لحظة في العودة إلى المدينة والقتال فيها (كما كان الرأي أولاً) ولو
 غيره لفعل ذلك، ولكن رسول الله أدرك ببصيرته أن أحسن ما يفعله الآن هو
 السبر بالمسلمين إلى لجف جبل أحد، ويجعلوه وراء ظهورهم والاعتصام به
 والثبات هناك إلى آخر النهار حتى لا يعطي المشركين فرصة للتفكير في دخول
 المدينة، ولو دخلوها في تلك الظروف لما اقتصر الأمر على القتال في الأزقة، كما
 كان سيحدث لو أن المسلمين رسموا خطتهم على هذا الأساس، فإن أهل
 المدينة الآن غير مستعدين للقتال بداخلها ولا هم أعدوها لذلك، ومعظم
 مقاتلي المسلمين في حارج البلد. ثم إن النساء والولدان كانوا دون حماية، فلو
 دخل المشركون لاجتثوا المسلمين احتثاً واحتلوا البلد وأرغموهم على التسليم

مما يريدون، وهذا هو الذي حדרه الرسول ﷺ، فقرر أن يثبت بمن معه عتمين بأحد فيمكوا المشركين هناك إلى آخر النهار، وقد نحح الرسول في ذلك، وقوت على المشركين الفرصة وحمل الدور الثالث من المعركة نصراً للمسلمين بعد أن كانوا أشرفوا على الهزيمة

وسمها كان رسول الله ﷺ ينظر هذا النظر البعيد ويعمل على المحافظة على قوة الإسلام في المدينة سليمة لا تمس، ويحرص أشد الحرص على تلافى الخطأ الذي وقع فيه بعض المسلمين عندما خالفوا أوامره، فاستطاع بسرعة بديته وبعد نظره تحويل الهزيمة إلى نصر. كان أبو سفيان - وهو هنا أذكى من كان في قريش من الرجال - لا يفكر إلا في الثأر لبدر ويحرص أشد الحرص على قتل رسول الله ﷺ ظناً منه أن ذلك ميور له، وحسباً منه أن مصير الإسلام كله مرهون بحياة محمد، غافلاً أشد الغفلة عن أنه يحارب عقيدة قُدر لها بفضائلها الذاتية وصدقها وحنمية نصرها، أن تغير صورة الحياة والمجتمع في جزيرة العرب كلها أولاً ثم فيها يستطيع المسلمون ادخاله في دين الله من أرض الله، وعندما ترددت في ميدان المعركة صيحة تقول إن رسول الله ﷺ قد قتل، نجد أبا سفيان يستطيره الفرح ويمضي يسأل: «يا معشر قريش، أياكم قتل محمد؟» قال ابن قميئة: «أنا قتلته، قال: نُسُورُك^(١)» كما تفعل الأعاجم بأبطالها، وجعل أبو سفيان يطوف بأبي عامر الفاسق في المعارك / ويسأل / هل يرى محمداً / بين القتل /، فمر بخارجة بن زيد بن أبي زهير الخزرجي، فقال: يا أبا سفيان، هل تدري من هذا القنيل؟ قال: لا، قال: هذا خارجة بن زيد بن أبي زهير الخزرجي. هذا سيد بلحارث بن الخزرج. . . .^(٢) ولم يلبث أن استبان خطأ ظنه وأن محمداً لم يقتل، وقال له خالد بن الوليد: «رايته أقبيل في نفر من أصحابه مصعبين في الجبل». «قال أبو سفيان: هذا حق، كذب ابن قميئة رعم أنه قتله»^(٣).

(١) أي سلسك سواراً من ذهب في دراعك

(٢) الواقدي، المعاري، ٢٣٦/١ - ٢٣٧

(٣) الواقدي، معاري، ٢٣٧/١

وإلى آخر يوم أحد كان المشركون ما يزالون يرحون قتل رسول الله ﷺ واحداً بعد واحد فيخبيون، ويلقون منهم في هذه المحاولة مصرعه من حان حيله، وقد دل الرسول يوم ذلك على سالة وثبات وهدوء جنان وثقة في الله وفي النفس لا ندري كيف لم يتفطن إليها أولئك الذين يزعمون أنهم يسировون على سنته ويتبعون عَزْزَهُ، وقد استهلك في الذود عن رسول الله من المسلمين نفر يمكن اعتبار حكاياتهم مُثَلاً تحذري في البسالة والقداء، وبهنا هنا أن نذكر مشهداً واحداً من عشرات، نرويه هنا لندل على أن كفار قريش لم يفظنوا إلى وجه العبرة في استبسال أصحاب محمد ﷺ فغابت عنهم بذلك عبرة الإسلام كله، وقتل الكثيرون منهم عن الشرك بعد ذلك ودخل الإسلام منهم كثيرون، بعد أن انتصر الإسلام ونجلى نوره، قال الواقدي: «وكان عباس بن عباد بن نضلة، وخارجة ابن زيد بن أبي زهير، وأوس بن أرقم بن زيد. وعباس رافع صوته يقول: يا معشر المسلمين! الله ونبكم! هذا الذي أصابكم بمعصية نبيكم! فبوعدكم النصر فما صبرتم! ثم نزع بفقره عن رأسه وخلع درعه فقال لخارجة بن زيد: هل لك في درعي ومفقرتي؟ قال خارجة: لا! أنا أريد الذي تريد، فخالطوا القوم جميعاً، وعباس يقول: ما عذرنا عند ربنا أن أصيب رسول الله ومنا عين تطرف؟ يقول خارجة: لا عذر لنا عند ربنا ولا حجة. فأما عباس فقتله سفيان بن عبد شمس السلمي، ولقد ضربه عباس ضربتين فجرحه جرحين عظيمين، فارتث يومئذ جريحاً، فمكث جريحاً سنة ثم استبل، وأخذت خارجة بن زيد الرماح، فجرح بضعة عشر جرحاً، ففتر به صفوان بن أمية، فعرفه، فقال: هذا من أكابر أصحاب محمد وبه رمق. فأجهز عليه، وقتل أوس بن أرقم^(١)».

تنمة الخبر تدل على تمكيد القرشيين خلال ذلك الثلث الأخير من المعركة: «وقال صفوان بن أمية - من رأى حبيب بن يساف؟ وهو يطله ولا

(١) الواقدي، معاري ٢٥٨/١

يقدر عليه، ومثل يومئذ بخارحة وقال: هذا من أعرى بأبي يوم بدر - يعني أمية ابن خلف - الآن شفيت نفسي حين قتلت الأماثل من أصحاب محمد، قتلت ابن قوئل وقتلت أبا أزيهر وقتلت أوس بن أرقم^(١).

وهكذا انجرف القرشيون في الانهزام الذي وضعهم فيه رسول الله ﷺ: طريق محاولة القضاء على قوة المسلمين العسكرية وقتل أكثر ما يستطيعون قتله منهم. وكان رسول الله يعرف أنه بعد أن نجح في تجميع المسلمين، والثبات بهم أسفل أحد، لم يعد من الممكن للمشركين أن يصلوا إلى ما يريدون. فقد تجمع المسلمون بعضهم إلى بعض، وشملتهم روح الفداء فمضوا يضربون ضرب السبل، ولم يعد المشركون يبلغون منهم مبلغاً يذكر، وإذا كان المشركون قد أصابوا منهم عدداً في فوضى الدور الثاني من المعركة، عندما ترك الرماة مواقعهم واندفعت خيل المشركين تكرر على المسلمين، فإن الموقف تغير الآن، ثبت المسلمون وتحصنوا. وفي وسطهم رسول الله لا يستطيع أحد الوصول إليه، فظل المشركون يكرون على المسلمين مرة بعد مرة أخرى دون جدوى حتى انتهى النهار. وغريب في الأمر أن رغبة المشركين في الوصول إلى رسول الله للقضاء عليه، كانت من أكبر أسباب هزيمتهم، فلأنهم تدافعوا يبحثون عنه وقد أعماهم ذلك عن كل شيء غيره واستمروا في هذا المطلب السوء، حتى انقضى الوقت دون أن يفكروا في دخول المدينة وتحريرها، ولو فعلوا لكان ذلك عملاً منهم شديد الخطورة على المسلمين، ولكن مواهب الرسول ﷺ فعلت الأعاجيب وغيّرت اتجاه التاريخ، فلم يزد المشركون على أن قتلوا نحو سبعين من المسلمين. وما سبعون رجلاً بالنسبة إلى جماعة كان عددها إذ ذاك يقترب من المائة ألف؟

ولدينا خبران عند الواقدي، أولهما يدل دلالة بية على أن عمداً صلوات الله عليه قصد بالفعل إلى إمساك المشركين عند الجبل حتى لا يدخلوا المدينة،

(١) من المصدر والمصحة

فانصرفوا بذلك إلى قتال أهل الجاهلية، وهو قتال مباررة رحل رجل لا قتال معارك، تتلاقى فيها صفوف الرجال على تعة ولها غاية وحطة ونظام، وذلك القتال الطامي أمر لم يعرفه الجاهليون، وقد عرفناه عند محمد ﷺ في بدر وحنين وراه الآن في أحد، وسيتحلى بأصعب صورة في الخندق، فكان رسول الله ﷺ هو أول من أدخل العرب حرب المعارك المنظمة، وأول من ضمّ الصفوف وعدّها وسواها وقسمها وأعطى لكل قسم منها أمراً يقوم به حتى يكون النصر، وهذا من توجيه الله إياه، فما دخل رسول الله قبل ذلك قتالاً ولو علمه أحد قتال المعارك ولا يجوز لنا - أحسب - أن نصف رسول الله ﷺ بأنه قائد عسكري، لأن القيادة العسكرية هدفها النصر على العدو وتحطيمه وتخريب دياره، وما كان هكذا قتال الرسول صلوات الله عليه، إنما هو قتال لنصر الدعوة... فهو جزء من رسالته كنبى مرسل، والله سبحانه وتعالى وجهه في أداء رسالته بحسب ما يرى، وفي أحيان كثيرة أخذ الرسول برأي أصحابه في خطط المعارك لأنهم أعرف بها، وقد أجهل الله سبحانه وتعالى طبيعة قتال محمد عندما قال له في سورة الأنفال: ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى، وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً، إن الله سميع عليم﴾^(١) وفي هذه الآية كما نرى فصل الخطاب في هذا الموضوع. ولتذكر في مجال ما أدخله محمد ﷺ من صف الناس للقتال وتسوية صفوفهم قول الله تعالى في سورة الصف: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص﴾^(٢) وفي ثبات المسلمين عند اللقاء وأنفتهم من الفرار نذكر قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومساواة جهنم وبئس المصير﴾^(٣) ثم نقرأ الفقرة التالية من كلام الواقدي في تفاصيل

(١) الأعمال ١٧/٨

(٢) الصف ٤/٦١

(٣) الأعمال ١٦-١٥/٨

وقعة أحد، والكلام هنا على لسان ضرار من اخطاب وهو من كبار فرسان قريش الذين كروا على المسلمين عندما لمحووا خلو حبل عيسى من الرماة قال: «فانتهينا إلى الجبل (عينين) فلم نجد عليه أحداً له بال، وجدنا نُفيراً فأصابتهم، ثم دخلنا العسكر، والقوم غارون ينتهبون العسكر، فأفحمنا الخيل عليهم فطأيروا في كل وجه، ووضعنا السيوف فيهم حيث شئنا، وجعلت أطلب الأكابر من الأوس والخزرج قتلة الأحية فلا أرى أحداً. قد هربوا. فما كان حلب ناقة حتى تداعت الأنصار بينها، فأقبلت فخالطونا ونحن فرسان (وهم رجالة) فصبروا لنا، وبذلوا أنفسهم حتى عفروا فرسي وترجلت. فقتلت منهم عشرة^(١)، ولقيت من رجل منهم الموت الفاقع حتى وجدت ريع الدم، وهو معانقي، ما يفارني حتى أخذته الرماح من كل ناحية ووقع. فالحمد لله الذي أكرمهم بيدي ولم يهني بأيديهم^(٢). فهذا تصرف ناس يبيعون أنفسهم في سبيل الله ويترامون على الموت في مشهد تذهل منه العقول: فرسان كروا على رجالة فاذهلهم فهربوا لأول وهلة، ثم ثابت إليهم نفوسهم وذكروا ما أمرهم به ربهم فعادوا يترامون على الموت. فهذا إذن توجيه من الله، وروح بثها القرآن في ناس عرفوا كيف يمثلونه واثسوا برسولهم في ذلك فكان خلْقهم القرآن. فلا يتحدثن أحد هنا عن محمد القائد العسكري، لأن القائد هو القرآن والموجه للرسول هو الله سبحانه أما الدافع لبقية المؤمنين فهو القرآن والإيمان بالله ورسوله إيماناً شاملاً عميقاً لا يثبت أمامه شيء.

وكذلك لا يصح أن يقال «محمد الدبلوماسي» أو محمد السياسي، لأن كلا الدبلوماسية والسياسة من مطالب إقامة الملك الديني الخالص، وهما تأدان لصاحبهما في الكذب والالتواء والخذاع والغدر، ما دام ذلك يؤدي إلى كسب القضية، وما عرفنا أن محمداً أحاز لمة أن يأتي من ذلك كله شيئاً،

(١) الواقدي، معاري ٢٨٣/١

(٢) والثالث من روايات التفات أن ضرار من اخطاب قتل ثلاثة من المسلمين فقط، انظر الواقدي.

وحلاصة القول في ذلك أن محمداً صلوات الله عليه، كان نبياً ورسولاً، فهو يتصرف في حدود النبوة وأداء الرسالة بأسلوب المحاهدين في سبيل الله ولا يصح أن يوصف لهذا إلا بما وصفه به ربه في الآيات ٤٥ - ٤٧ من سورة الاحزاب: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً. وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً﴾.

ولقد قال الله سبحانه وتعالى ﴿والله الأسيراء الحسنی فادعوه بها﴾ ومن ثم فلا يجوز أن يسمى بغيرها، ولا يجوز أن يقال: الله الفنان مع أن خلقه سبحانه وتعالى كله فن، ولا يجوز أن يقال إن الله المهندس مع أن الكون كله هندسة، وقد أمر الله بالآي يدعو إلا بأسمائه التي سمي نفسه بها في القرآن، حتى لا يختلط الأمر ويتخطى الناس الحدود في الكلام عنه سبحانه، وكذلك الحال مع نبيه صلوات الله عليه، لا يصح أن يوصف بأوصاف الساسة والملوك وأصحاب الدول وقادة الحروب، حتى لا ينشوب ذلك شخصه الكريم ويلتبس الأمر على الناس في هذا المقام. هذا كله مع إمكان الناس الاقتداء به والعمل بعمله في كل مطلب، فهو كان يتصرف في شئون البشر تصرف الرجال ويسمو به مع ذلك، ويرتفع بأسلوبه وطريقته وروحه والله من ورائه لهذا ينصره، ولو فعل أي مسلم فعلة لكان نصر الله من ورائه، وما هزم المسلمون أبداً، ولكنهم لسوء حظهم أخذوا من السنة - أحياناً كثيراً - ظاهرها، وصورها الأمر على أنفسهم فخدعوها، وحادعوا الله وهو خادعهم والله سبحانه ينصر من ينصره ولا يخذله أبداً.

وقد استطرنا مع هذه المعاني بمناسبة معركة أُحُد وما جرى فيها لأنها معركة توالى فيها النصر والهزيمة، وتعاقبت فيها المواقف بعضها وراء بعض على شكل تشبيها لما فيه أحوال الحاسبين من مسلمين ومشركيين، وما كان من تصرف محمد ﷺ حتى انتهى ذلك اليوم العسير لصالح الإسلام وأهله، بمصل إيمان محمد وأصحابه وحسن بصيرته وثابت عزيمته ولا يحسن أحد أن يقول إن هُدى

الله هو الذي كان يوجه محمداً ﷺ في حروبه إن ذلك كان مقصوداً عليه فإننا لا نسعي أن نسي أن نقل الهدى في ذاته ملكة، فإن المهتدي يرى الهدى ويختاره ويتحمل مسئولياته، فلم يكن أبسر على محمد عندما انقضت على قوته خيل المشركين من أن يعود مسرعاً يقومه إلى المدسة ليحاربوا في أزقتها، ولكن قوة إيمانه كشفت له عما ينبغي عليه عمله في ساعة العسرة، فثبت هذا الثبات العظيم ثم قرر - دون دهش أو دهول - أن يتجه نحو الجبل ليحمي ظهره به ويثبت هناك ليمسك المشركين عند الجبل ويحول بينهم وبين دخول المدينة، وتلك هي ملكة القيادة التي أوتيها محمد، وهي تابعة من إيمانه لا من المهارة العسكرية، وهو هنا لم يتحيل أو يتظاهر كما قد يفعل القائد العسكري الصرف الذي لا أرب له إلا النصر في النهاية مهما كانت الوسيلة، وهو لم يجبر أو يفر أو يتقهقر شأن من يطلب نجاة نفسه، وليس كل فرار هزيمة ولا كل فرار انكساراً ولا كل تقهقر خوفاً، والقائد العسكري يختار من المسالك ما يشاء لكي يصل إلى النصر في النهاية، وما هذا شأن محمد ولا ينبغي له فهو شاهد (أي نموذج وقودة) ومبشر (للمؤمنين) وبذير (للمشركين) وداع إلى الله بإذنه في كل حال، وهو في هذا كله سراج منير، أي نور يهتدي به الناس، وبفضل هذا النور يبشر المؤمنون بأن لهم من الله فضلاً كبيراً، وهذا جانب من تفسير هذه الآيات العظيمة نستخرجه من عبرة التاريخ.

والآن لنستظر كيف انتهى يوم أحد لنرى كيف تبين المشركون أن هدى محمد وبصيرته كسبت له اليوم وضعت عليهم ثمرة النصر، فلم يخرجوا من قوتهم الصخمة إلا بقتل عدد من المؤمنين، وسنأتي هنا بوضع روايات ساقها الواقدي على علانها، ونرتها نحن على النحو الذي يتفق مع نسق التاريخ، فقد سئل عمرو بن العاص كيف كان افتراق المسلمين والمشركين يوم أحد فقال: «لما كررنا عليهم أصبنا من أصبا منهم، ونعرقوا في كل وجه وفاءت لهم فئة بعد، فتشاورت قريش فقالوا: لما العلة، فلو انصرموا! فإنه بلغنا أن ابن أبي

انصرف ثلث الناس، وقد تخلف ناس من الأوس والخزرج، ولا نأمن أن يكرؤا علينا ومينا حراح، وحيلنا عامتها قد عُقِرَتْ من الببل. فمضوا، فما بلغنا الرُّوحاء حتى قام علينا عدة منها، ومصبب^(١).

وفي رواية أخرى تلي هذه في الأهمية من ناحية سياق الحوادث: نقرأ عند الواقدي لما تحاحزوا أراد أبو سفيان الانصراف، وأقبل يسير على فرس له حواء^(٢)، فأشرف على أصحاب النبي ﷺ في عرض الجبل، فنأدى بأعلى صوته: أعلُّ هُبْلًا ثم يصيح أين ابن أبي كبشة (يريد رسول الله ﷺ) أين ابن أبي قحافة؟ أين ابن الخطاب؟ يوم بيوم بدر ألا إن الأيام دول، وإن الحرب سجال، وحظلة بحظلة^(٣)... (ثم قال بعد ذلك أبو سفيان مخاطباً عمر): أنشدك بدينك هل قتلنا محمداً؟ قال عمر: اللهم لا، وإنه لسمع كلامك الآن، قال: أنت عندي أصدق من ابن قميئة - وكان ابن قميئة أخبرهم أنه قتل النبي ﷺ - ثم قال أبو سفيان ورفع صوته: إنكم واجدون في قتلكم عيشاً ومثلاً، ألا إن ذلك لم يكن عن رأي سرائنا. ثم أذركته حية الجاهلية فقال: أما إذا كان ذلك فلك فلم نكرهه. ثم نادى: ألا إن موعدكم بدر الصفراء على رأس الحول^(٤)!

وبقية هذه الرواية تعطينا وصف الحالة في معسكر المسلمين بعد نهاية المعركة: «قد انصرف أبو سفيان إلى أصحابه وأخذوا في الرحيل، فأشفق رسول الله ﷺ والمسلمون، فاشتدت شفقتهم من أن يغير المشركون على المدينة فتهلك الذراري والنساء، فقال رسول الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص: اتنا

(١) الواقدي / معاري ٢٩٩/١

(٢) حواء أي نوبها بي يضرب الى السواد

(٣) حظلة الأول هو اس أبي سفيان وقد قتله المسلمون في بدر، وأما حظلة الثاني فهو حظلة من عند عمرو وكان من اصدق المؤمنين وقد استشهد في أحد وهو اس أبي عامر بن صبي من بني صبيعة، من بني مالك بن الأوس، وكان من أعداء الإسلام وهذا لقبة المسلمون بأبي عامر العاسق وكان يلعب معه بأبي عامر الراهب

(٤) الواقدي، معاري ٢٩٦/١ - ٢٩٧

سحر القوم ، فإن ركبوا الإبل وخبئوا الخيل فهو الطعن (الرحيل) وإن ركبوا الخيل وحسوا الإبل فهي الغارة على المدينة ، والذي نسي بيده ، لئن ساروا إليها لاسيرن إليهم ثم لأناجرهم^١ ، وتعمهم سعد حتى وصلوا العقيق ، فراهم يركبون الإبل ويركون الخيل جانبا فعرف أنهم طاعتون إلى مكة ، ثم يسترسل سعد بن أبي وقاص فيقول : «فوقموا وقفة بالعقيق وتشاوروا في دخول المدينة ، فقال صفوان بن أمية : قد أصبتم القوم ، فأنصرفوا فلا تدخلوا عليهم وأنتم كالأول ، ولكم الظفر ، فإنكم لا تدرون ما يفشاكم . قد وليتم يوم بدر ، والله ما تبعوكم والظفر لهم ، فقال رسول الله ﷺ : نهاهم صفوان^(١)» .

وإذن فقد أفلح رسول الله ﷺ في صرف قريش عن محاولة دخول المدينة ، ورجع القوم دون أن يبلغوا أرباً عسكرياً ذا بال . فلا زالت المدينة سليمة لم تمس وهي قوية متماسكة ملتفة حول رسولها لم يفقد من كبار رجالها إلا حمزة بن عبد المطلب ومُصعب بن عمير ، وكانت عدة القتلى كلهم ٧٤ ، منهم أربعة من قريش والباقي من الأنصار ، وكانت أحفل بطون الأنصار بالشهداء هم بنو عبد الأشهل من الخزرج فقد استشهد منهم اثنا عشر رجلاً .

وقد تبينت قريش أنها لم تنصب من المدينة شيئاً كثيراً ، ورأى رسول الله ﷺ أن يطمئن اطمئناناً تاماً إلى أن القرشيين لن يعودوا إلى المدينة . وكان على الحق في حذره هذا ، وعلى عهدنا به كان سابقاً إلى العمل ، ففي صبيحة اليوم التالي ليوم أحد ، وعلى رغم الجراحات البالغة التي كان أصحابه (وهو نفسه) يعانون منها ، شرع في اتباع الكفار مطارداً لهم بعيداً عن المدينة ، وتلك هي غزوة حراء الأسد . وقد عانى صلوات الله عليه وأصحابه من ذلك وصباً شديداً ، ولكن لا بد مما ليس مه بد ، فدعا أصحابه للخروج رغم جراحاتهم ، وقصر الخروج على من اشترك في أحد ، ومضوا يلاحقون العدو ، ومر وهو في طريقه في أعقابهم بفر من خزاعة على رأسهم معبد بن أبي معبد الخزاعي ،

(١) الواقدي ، معاري ٢٩٨/١

وكانت خزاعة جُلُوعاً دائماً لرسول الله ﷺ، عياً لامة الإسلام على عداتها أينما كانوا، فذهب معبد وتسمع على القوم ثم مضى معبد حتى يجد أبا سفيان وقريشاً بالروحاء وهم يقولون: لا محمداً أصبتم ولا الكواعب أردفتم، فمش ما صنعتم؟ فهم عجمعون على الرجوع، ويقول قائلهم فيما بينهم: ما صنعنا شيئاً! أصبا أشرافهم ثم رجعا قبل أن نستأصلهم، قبل أن يكون لهم وم - والمتكلم بهذا عكرمة من أبي جهل - فلما جاء معبد إلى أبي سفيان قال: هذا معبد وعنده الخبر، ما وراءك يا معبد؟ قال تركت محمداً وأصحابه خلفي يتحرقون عليكم بمثل النيران، وقد أجمع معه من تخلف عنه بالأسد من الأوس والخزرج، ونصاهدوا إلا يرجعوا حتى يلحقوكم فيثأروا منكم، وغضبوا لقومهم غضباً شديداً، ولمن أصبتم من أشرافهم. قالوا: ويلك! ما تقول؟ قال: والله ما نرى أن نرحل حتى نرى نواصي الخيل! ^(١) وما زال معبد حتى ألقى في قلوبهم الخوف، فعاد صفوان ينصحهم بالعودة إلى مكة بما قدر لهم من الظفر، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: وأرشدهم صفوان، وما كان برشيد، والذي نفسي بيده لقد سئمتُ لهم الحجارة، ولورجعوا لكانوا كأس الذاهب! فانصرف القوم سراغاً خائفين من الطلب لهم ^(٢)، وكان رسول الله على الحق في تقديره، وكان قد وصل بأصحابه إلى موضع حمراء الأسد في خلف القوم، فلما يستوثق من أن القرشيين لن يعودوا جعل أصحابه يجمعون حطباً كثيراً، وعندما جن الليل أوقدت النيران فكانت أكثر من خمسمائة أضواء لها الليل، وانتشر الخبر في كل اتجاه، فرهبت القبائل وأسرع القرشيون عائدتين إلى مكة، وقد بلغ خوفهم من المسلمين كل مبلغ، وقد بدأت غزوة حمراء الأسد في الثامن من شوال ٢ هـ/ ٢٤ مارس ٦٢٥ م. واستمرت خمسة أيام وعاد رسول الله إلى المدينة. وجدير بالملاحظة أن أربعاً من غزوات الرسول الكرى كانت في عام ميلادي وثلاثة شهور من يناير ٦٢٤ إلى مارس ٦٢٥ م - فكانت رحلة في يناير ٦٢٤ م

(١) الواقدي، معاري: ٣٣٨/١ - ٣٣٩.

(٢) الواصلي، معاري: ٣٣٩/١.

ويدر في مارس من نفس السنة ثم كانت أحد وحمراء الأسد في مارس ٦٢٥ م . وهذا جهد في الغزوات لم يعرفه العرب إلا مع الإسلام ، فكان رسول الله في ذلك صاحب القدوة الرفيعة في الجهاد وبذل النفس ، فلا عجب والحالة هذه أننا نرى أهل الحبل الأول من أمة الإسلام يأتسون بنبيهم في ذلك الشاطئ الواسع ، والاقبال على الجهاد في غير سراخ أو خوف فكانت معزة الفتوح الكبرى الأولى .

وأما قریش فلم يكن لها بهذا النشاط العسكري عهد ، فقد كانوا - وظلوا حتى فتح مكة - على أسلوب الجاهلية في الحرب : أسلوب فرسان لا ينهضون للحرب إلا مختالين مغرورين بأنفسهم أو طالبين ثأراً ، أما ترى أبا سفيان يتواعد مع المسلمين على اللقاء بعد أحد في عام . وحتى حان موعد العام من بدر كان الرسول قد خرج أو أرسل خمس غزوات وسرايا هي حمراء الأسد وقُطْن وبئر معونة والنضير والرجيع ؟ ثم خرج الرسول مبادراً إلى بدر الموعد في ذي القعدة سنة أربع / أبريل ٦٢٦ م .

وهكذا تكون موقعة أحد التي يقال إنها هزيمة للمسلمين قد مضت بغير كسب يُذكر لقریش ، فلا هم أصابوا محمداً ﷺ ، ولا هم أذلوا المسلمين باقتحام بلدهم وسبي نسائهم ، ولا هم فكوا حصار مدينتهم ، فظلت متاجرهم معطلة وازدادت حالتهم الاقتصادية سوءاً ، وأقاموا منجهرين في مدينتهم لا يدرون ما يصنعون ، وقد انصرفت عنهم معظم القبائل في حين تابع رسول الله ﷺ غزواته وسراياه . لا ليضرب القبائل ويصيب المغام كما يظن الكثيرون من المستشرقين ، ولا ليشلافي تجمع بعض الأعداء عليه كما تذهب مراجعنا التقليدية ، ومعظم مؤرخينا القدامى لم يزد ادراكهم لمرامي رسول الله وعيائته العبيدة غير ذلك ، وهو في رأينا كلال منهم عن إدراك حركة تاريخية كبرى غيرت مصائر البشر .

الدور الثالث من الصراع بين قريش والإسلام من حراء الأسد إلى الحندق:

قل أن يعود القرشيون إلى مكة كانوا قد نسيوا أنهم لم يكسوا غير نصر محدود بتلخص في إدراك بعض الثأر لما أصابهم يوم بدر، وإذا كان إدراك الثأر بالمفهوم الجاهلي هو أن تقتل من الخصم نظير من قتل أو من يعادله، فإن القرشيين أحسوا أنهم حتى في موضوع الثأر لم يشموا غليلهم، فهم لم يصيبوا محمداً ﷺ ولا أبابكر ولا عمر ولا علياً، وهم لم يصيبوا من يعتبرونهم خصومهم الحقيقيين وأنسدادهم إلا حزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير، وهنا أيضاً نجد أن ختام الحساب لم يكن ليرضي قريشاً، فإن مصعب بن عمير من بني عبد الدار، وبني عبد الدار بالذات كانوا أحفل بطون قريش الكافرة بالخسارة في أحد، فقد قتل منهم أحد عشر رجلاً كانوا في معسكر المشركين، وهم يتناوبون على لواء قريش أو يدافعون عنه، وكانوا أصحاب اللواء في الجاهليين. وإذا نحن أخذنا حراء الأسد وما وقع فيها في الحساب، فإن النتيجة تكون أن القرشيين عادوا إلى مكة مسرعين خائفين في حين أن المسلمين طاردوهم وضربوا معسكرهم في الطريق إلى مكة، وأشعلوا نيرانهم في ظلام الليل، فكان لهذا العمل رهبة في قلوب الأعداء، ثم عاد المسلمون بعد ذلك إلى مكة رافعي الرؤوس ظاهرين على عدوهم، ثم لم يلبثوا أن ضربوا بني النضير ضربتهم القاصمة فتخلصوا من عدو خطير كامن معهم داخل معقلهم، وأخافوا بذلك كل من كانت تحدته نفسه بخيانة أمة المدينة أو نقض ميثاقه معها أو مخالفة أعدائها عليها، ثم أن المسلمين أصابوا من بني النضير أموالاً وأراضي وسلاحاً انتفعوا بها كلها في مواصلة الجهاد.

وكان ما فعله رسول الله ﷺ في حراء الأسد قد ألقى الرهبة في قلوب أعداء أمة الإسلام، مراد أس المسلمين في بلادهم وازدادت مخاوف قريش، وقد عبر عن ذلك أحد المسلمين بقوله: «هكذا أمسوا أمراً (رسول الله) أن نوقد

النيران، فيؤخذ كل رجل ناراً، فلقد كنا تلك الليالي نوقد خمسمائة نار حتى تُرى من المكان البعيد، وذهب ذكر معسكرنا ونيراننا في كل وجه، حتى كان مما كتب الله تعالى بحدوثنا^(١).

أما قريش فقد تبينت بعد قليل أنها لم تحسن الانتفاع بحملتها الكبيرة التي اشترك فيها ٣٠٠٠ مقاتل من بينهم ٧٠٠ دارع ومائتا فارس من قريش وحلفائها. ويصور لنا ذلك ما قاله رئيس من رؤساء خزاعة - وكان حليفاً لأمة المدينة، فقد مر بالقرشيين وهم عائدون من حمراء الأسد فوجدهم يقول بعضهم لبعض: «لا محمداً أصبتم ولا الكواعب أردقتم، فبئس ما صنعتم»، وإرداف الكواعب هنا لا يراد به مجرد سبي النساء، بل المراد به الإذلال والإشعار بالمهانة، وكان سبي النساء أسوأ ما يمكن أن يصيب قوماً من العرب. وهنا نفهم ما أراده رسول الله ﷺ عندما تزوج جويرة بنت الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق الخزاعين بعد أن انهزم قومها وسبى المسلمون نساءهم، فلم يشأ رسول الله أن يُشعر بني المصطلق بالمهانة، فلما تزوج جويرة أم المؤمنين، أسرع المسلمون فأطلقوا سراح من كانوا سبوهن من نساء بني المصطلق، لأن كل الذي أراده رسول الله من غزوهم هو أن يشعرهم أن منطقهم تقع في دائرة سلطان أمة المدينة، ولا معنى لهذا لأن يذهبوا عليه أو يحالفوا عدواً، فلما انتهت الوقعة دون أن يتألم بني المصطلق هوان وصايرهم رسول الله، تمهد الطريق لدخول بني المصطلق في الإسلام. وبنو المصطلق من خزاعة، وكان أكبر قبيل من خزاعة - هو قبيل كعب - حلفاء للرسول ﷺ وأمة الإسلام، وقد خرج رئيسهم الحارث بن أبي ضرار والد جويرة أم المؤمنين عن اجماع قومه، فرأى الرسول أن يميده إلى صف خزاعة بفزوه عزوة بني المصطلق التي تسمى المريسج باسم ماء كان في مواطن بني المصطلق على شاطئ البحر بين المدينة ومكة. وإذن فقد عرف رسول الله كيف يجعل هذا الفريق من

(١) الواقدي. المغازي، ١/٣٣٨

حزاعة عبرة لمن يعتز، وكان أكثر ما حبيب الناس في رسول الله ﷺ وحر عامة القرشيين به - دون الرؤساء - هي معاملته الكريمة لبي المصطلق بعد هزيمتهم . وتزايد شعور عامة أهل مكة من القرشيين بالميل إلى رسول الله والإسلام بعدها . وكان أبو سفيان رعم ما تظاهر به من الصر قد رأى يوم أحد أن قريشاً ليست بدأ لامة الإسلام ، وإذا كان قومه قد قتلوا أربعة وسبعين من المسلمين فقد قُتيل منهم - رغم ما حدث - فوق الأربعة وعشرين ، ثم توالى غزوات المسلمين وانتصاراتهم وزادت قوتهم ، واشتروا خيلاً وركب الكثيرون منهم ، ولهذا تردد أبو سفيان في الخروج للقاء المسلمين عند بدر الصفراء كما كان وعدهم يوم أحد .

وكان موضع بدر الصفراء مكان سوق ومجمعاً يجتمع فيه العرب وسوقا تقوم للال ذي القعدة إلى ثمانى ليال خلون منه ، فإذا مضت ثمانى ليال منه تفرق الناس إلى بلادهم^(١) . ويضيف الواقدي هنا : «فلما دنا الموعد كره أبو سفيان الخروج إلى رسول الله ﷺ ، وجعل يجب أن يقيم رسول الله ﷺ وأصحابه في الموعد ، ولا يوافقون الموعد»^(٢) ، وجعل يظهر للوافدين على المدينة أنه ينوي الخروج للقاء المسلمين في جمع كئيف على أمل أن يثبط ذلك من همة المسلمين .

ولكن رسول الله لم يقعد بل خرج بأصحابه إلى موضع بدر الصفراء ، وقد أيد فكرة الخروج أبو بكر وعمر ، بل خرج المسلمون ببضائع لهم ليتجروا فيها في سوق بدر الصفراء ، «فانتهوا إلى بدر ليلة هلال ذي القعدة ، وقام السوق صبيحة الهلال (سنة ٤ هـ / أبريل ٦٢٦ م) فأقاموا ثمانية أيام والسوق قائمة ، وكان رسول الله ﷺ قد خرج في ١٥٠٠ رجل من أصحابه ، وكانت الخيل ١٠ أفراس : فرس لرسول الله ﷺ ، وفرس لأبي بكر ، وفرس لعمر ، وفرس لأبي قتادة ، وفرس لسعيد بن زيد ، وفرس للمقداد ، وفرس للحباب بن

(١) الواقدي معاري ١/ ٣٨٥

(٢) الواقدي معاري ١/ ٣٨٥ - ٣٨٦

المدر، وعرس للزبير، وعرس لعباد بن بشر^(١) وكان أبوسميان يظن أن المسلمين لن يخرجوا، فاقترح على أصحابه أن يخرجوا مسافة ليلة أو ليلتين من مكة حتى يقال أن قريش قد خرجت وأن المسلمين حافوا من اللقاء «فيكون هذا لفا عليه». وإن كان قد خرج أظهرنا أن هذا عام جذب، ولا يضلحنا إلا عام عشب، موافقوه على ذلك وخرجوا في الغير وحسين خروجاً كاداً انتهوا فيه إلى نجدة ثم عادوا، وكان العام عام جذب، فكان طعامهم الدقيق (السويق) يذبيونه في الماء، فسمى جيشهم جيش السويق.

وفي تفاصيل سرية بئر معونة درس عظيم من دروس السيرة، فقد خرجت جماعة المسلمين في المحرم سنة ٤ هـ / يوليو ٦٢٧ م. ولم تعد فقد استشهد رجالها جميعاً ونحن نقرأ عند الواقدي وغيره، «وكان من الأنصار سبعون رجلاً شَبَّهَ يُسْمُونُ القراء». كانوا إذا أمسوا انتحوا ناحية من المدينة فتدارسوا وصلوا. حتى إذا كان وجه الصبح استعذبوا من الماء وحطبوا من الحطب، فجاءوا به إلى حُجْر رسول الله ﷺ، وكان أهلوه يظنون أنهم في المسجد، وكان أهل المسجد يظنون أنهم في أهلهم، فبعثهم رسول الله ﷺ فخرجوا فأصيبوا في بئر معونة^(٢) ويقال إنهم كانوا سبعين ولكن الثابت أنهم كانوا أربعين، غدرهم بنو عَصْبَةَ بن خفاف بن امرئ القيس بن بهشة من بني مازن بن منصور من قيس عَيْلان وأبناء عمهم بنو كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بقودهم رجل منهم يسمى عامر بن الطفيل، وهؤلاء كانوا جيران بني أسد، وكلهم من أعراب مضر الذين كانوا يراعون في مرتفعات غربي نجد، وكان رسول الله لا يثق فيهم ويخاف غدراتهم على المسلمين، وهم يدخلون في جملة أعراب نجد. ومصيبة كهذه أي استشهاد أربعين من رجال أمة المدينة دفعة واحدة - لو وقعت في أي جماعة كان لا بد أن تهز كيافها، ولكننا نقرأ أخبار أمة المدينة فنجد أنها لم تتأثر شعرة بما حدث لأهل بئر معونة، فقد كان بيافها صلأ

(١) الواقدي، معاري، ٣٤٧/١.

متبياً، وما كان الموت في سبيل الله إلا إحدى الحسين اللتين يشتاقي إليهما كل أهل الجماعة، ولكن رسول الله وجد عليهم وحداً شديداً، وظل يذكرهم ويترحم عليهم.

ولم يكن الشباب الدين حرجوا لشر الإسلام في سرية نثر معوية قد تعلموا شيئاً من نظم الحرب عند السابقين من أهل الأمم ولكننا نجد أفرادها ينصرفون تصرفاً عسكرياً بلغ النظام وال ضبط. فقد ثبثوا واشتخبوا منهم رئيساً وتشاوروا فيها بينهم حين أحيط بهم، وأحسوا ألا مفر لهم من الاستشهاد، واستقبلوا الموت في جلال يروع النفس، لأنهم كانوا ينتسبون إلى أمة جعلها رسول الله ﷺ أمة جيشاً أو جيشاً أمة، (وهكذا كان ينبغي أن تكون أمة الإسلام أبداً الدهر حتى تؤدى رسالتها كاملة).

ثم انظر إلى روح التضحية والفداء والمبادرة إلى ما يرضاه رسول الله ﷺ (إيماناً بأنه الواجب)، في خبر مما حدث بعد إخراج الرسول لبني النضير من المدينة، وإفاعة الله سبحانه أموالهم لرسول الله. فقد رأى الرسول ﷺ أن أموال بني النضير في إفاعة الله عليه، فهي له من دون بقية المؤمنين، فلم يبد واحد من المسلمين معارضة وتركوا الأموال لرسول الله يتصرف فيها لصالح الأمة، فاشتري بمعظمها سلاحاً ونخيلاً.

وهكذا رأى الناس أن أمة الإسلام هي الأقوى، فها هي تبادر إلى الموعد على أهبة القتال، في حين خرج القرشيون خروجاً مُشيناً لم يخف على أحد. وقد أحست قريش بالخطر مما فعلت، وخافت على اسمها بين الناس، ثم إن بقاء طريق التجارة مفضلاً كان يضطربهم إلى الخروج، وهذه كلها كانت أسباب خروج المشركين وحلفائهم للعارة على المدينة في غزوة الأحزاب.

وفي أثناء خروج رسول الله ﷺ وقع حادث صغير يندل على مدى ما وصلت إليه المدينة من القوة بعد أخذ، فإن المسلمين قاتلوا في طريقهم جمعاً من بني صمره (بن بكر بن عبد مائة من كنانة) على رأسهم شيخ يسمى مخشي بن

عمرو، وكان هذا الرجل قد حجز بين المسلمين وجماعة من نجر قريش، فيهم أبو سميان قبل بدر، وتوسط بين الفريقين وصرهما عن القتال، وذلك في عروة الأبواء أو ودان في ربيع الأول سنة ٢ هـ / ستمبر ٦٢٣ م. ووداع الرسول يومئذ بني ضمرة، ثم التوت بو ضمرة مع بقية بني بكر بن عبد مناة وأصبحوا أحلافاً لقريش على أمة المدينة، وسيظهر ذلك حلياً بعد الحُدَيْبية، عندما حدد بني بكر بن عبد مناة يعلنون أنهم يدخلون في حلف قريش عندما دخلت خزاعة في حلف أمة الإسلام، وكان عدوان بني بكر هؤلاء على بني كعب من خزاعة، هو الذي أخرج رسول الله ﷺ من المدينة لفتح مكة عام الفتح.

وكان رسول الله يعرف ما تنطوي عليه ضمرة وشيخها عندما لقبهم **نَحْرَجَه** إلى بدر الموعد، فقال نخشي بن عمرو الضمري وكأنه دهش لرؤية رسول الله ومن معه من المؤمنين: ولقد أخبرنا أنه لم يبق منكم أحداً فما أهلكمم إلا أهل الموسم، فقال رسول الله ﷺ **لِيُرْفَعَ** ذلك إلى عدوه من قريش^(١): ما أخرجنا إلا موعد أبي سفيان وقتال عدونا، وإن شئت - مع ذلك - نَبْدُنَا إليك وإلى قومك العهد^(٢) ثم جالدناكم قبل أن نبرح من منزلنا هذا. (فخاف) الضمري (وقال) بل نكف أيدينا عنكم ونتمسك بحلفك^(٣)، وبلغ هذا الكلام معبد بن أبي معبد الخزاعي حليف أمة المدينة، مثله في ذلك مثل بقية بني كعب الخزاعيين فأسرع به إلى مكة. ويسدو أن شيوخ البدو هؤلاء من بني بكر ابن عبد مناة وخزاعة وبني أسد ولحيان وضمرة وزغبة ورعيل، وبقية بطون مضر قد سرهم هذا الصراع بين مكة والمدينة فأصبحوا يجوسون الفياقي طلباً للأخبار ليطيروا بها أسرع من الطير إلى مكة أو المدينة يؤحسون النار بين الجانبين، فأما قريش فكانت تتحدع بكلامهم، بل كانت تهبط إلى مستواهم فكانت تؤجرهم

(١) أي أن رسول الله قال ما قال لكي تبطل مفاكه قريشاً، وكان نخشي بن عمرو الضمري من حنمائها وعبرها في السر وكلام النصر في المنع للواقدي

(٢) أي أهيأ حلفاً معك ومع قومك

(٣) الواقدي، معاري، ٢/ ٣٨٨ وما بين أقواس العاطف أصغتها للتوضيح والبقية لمحمد بن عمر بن واقد

على ذلك، وقد كانت قريش دائماً تؤدي إلى هذه القاتل إتاوات وأموالاً لتضمن سلامها وسلامة متاخرها، وكانت تستخدم هذه القاتل في تحقيق مآربها، وقد رأينا أمثلة لذلك فيما مر، وهما في عروة بدر الموعد نرى أبا سميان يقول لشبح من شيوخ أولئك الأعراب وهو نُعَيْم بن مسعود الأشجعي «الأرض مثل ظهر الترس ليس فيها لعير شيء»، وإنما يصلحنا عام خصب غيداق ترعى فيه الظهور والحيل ونشرب اللبن، وأنا أكره أن يخرج محمد وأصحابه ولا أخرج فيجترثون علينا، ويكون الحلف من جانبهم أحب إليّ»، [فأذهب إلى محمد وأصحابه وخذلهم عن الخروج]، ونجعل لك عشرين فريضة، عشراً جذاعاً وعشراً جفاً^(١) ونوضع لك على يدي سهيل بن عمرو ويضمنها لك، قال نعيم: رضيت^(٢) أما رسول الله ﷺ فكان لا يدفع لهؤلاء البدو شيئاً ولا يؤدي إليهم إتاوة، وإنما هو كان يدعوهم للإسلام، فإن قبلوا كانوا من أمة الإسلام يخدمونها ويصدقون معها مثلهم في ذلك مثل غيرهم من المؤمنين، فإذا أبوا إلا الإقامة على الشرك عرض عليهم الحلف أن يصدّقوه ولا ينجفوا عنه شيئاً ولا يعينوا عليه عدواً، فكانوا يقبلون ذلك، فإذا نفضوا العهد كان لا بد من تأديبهم كما فعل مع بني المصطلق، وكان إذا تحدث مع أولئك الأعراب تكلم في حزم ووضوح، وكان في العادة يزن كل كلمة يقولها ويعرف أين تذهب، وقد رأينا كيف كان كلامه لمخشي بن عمرو الضمري.

وهذا الموقف من محمد رسول الله ﷺ من الأعراب هو السبب في مأساتي بشر معونة والرجيع، وهما سريتان قُتل في الأولى أربعون من أنقياء شباب الأنصار، وكان أبو البراء عامر بن مالك ملاحظ الأسنة قد طلب إلى الرسول أن يبعث نفرًا من المسلمين ليدعوا بني سُليم بن منصور إلى الإسلام وضمير له حوارهم، فخرجوا إلى بني سُليم حيث غدروا بهم وقتلوه. وبعد ذلك

(١) الإبل الخلداء التي دخلت السنة الخامسة من عمرها والحفاق ما دخلت الرابعة

(٢) الواقدي، معاري ١/ ٣٨٥ - ٣٨٦

بقليل، وقبل أن يقتل أصحاب نثر معونة، أرسل سوحيان إلى غَضَل والقارة يعرضون عليهم أن يعثوا إلى رسول الله رسلاً فيكلموه، فيخرج إليهم نفرًا من أصحابه يدعونهم إلى الإسلام «فقتل من قتل صاحبًا، ونخرج سائرهم إلى قريش بمكة فصيب بهم ثمنًا، فإنهم ليسوا بشيء أحب إليهم من أن يؤتوا بأحد من أصحاب محمد يثلون به ويقتلوه بمن قتل منهم في بدر»، وتم هذا بالفعل، وأرسل إليهم رسول الله جماعة من الدعاة على رأسهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي فغدروهم وأسرروا بعضهم وباعوهم لأهل مكة فقتلوا منهم اثنين، وقد غضب رسول الله ﷺ على أولئك الأعراب من أهل أطراف نجد وقال: «اللهم أشد وطأنك على مضر! اللهم عليك ببني لحيان وزُغَب وِرْعَل وذكوان وعُصْبَة، فإنهم عصوا الله ورسوله، اللهم عليك ببني لحيان وعُضَل والقارة»^(١) ومُضر التي دعا عليها رسول الله هنا هي مضر قيس عيلان لا مضر الياس.

ومن هذه الأخبار يتجلى كيف كان رسول الله ﷺ يعامل هؤلاء الأعراب، فهو لا يعاملهم ولا يتعامل معهم إلا على شرط الإسلام بل كان لا يقبل من أحد منهم هدية إلا إذا أسلم، وقد عرض عليه أبو البراء مُلاعب الأبيسة هدية فرسين وراحتين فردها وقال: «لا أقبل هدية مشرك» ثم عرض عليه الإسلام، فلم يسلم ولم يعُد^(٢) أما قريش فقد كانت تسايهم وتفعل فعلهم وتبسط إلى مستواهم حتى لقد اشتروا منهم اثنين ممن أسروهم غدرًا من رجال سرية الرجيع هما خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة فقتلوهما في خبر طويل.

ولهذا فقد كان الأعراب لا يوقرون قريشًا ويسخرون منها، وعندما خاف القرشيون لقاء المسلمين في بدر الصفراء وعشوا يستعينون بالأعراب زاد استخفافهم بهم، فقد رأوا خوف قريش وثبات أمة الإسلام، ولهذا فعندما قررت قريش أن تخرج لعزوة الخندق، قال صفوان بن أمية لأبي سفيان: «قد

(١) معاري الواعدي ١/ ص ٣٤٩ وما بعدها

(٢) نصر المصدر، ص ٣٥٠

والله هيتك يومئذ أن تعد القوم ، وقد احتراوا علينا ورأوا أننا قد احلصاهم وإنما خلّفنا الصعف عنهم ، فأحدوا (أي القرشيون) في الكيد والنفقة في قتال رسول الله ﷺ ، واستحلوا من حولهم من العرب وجمعوا الأموال العظام ، وصربوا البعث على أهل مكة فلم يترك أحد منهم إلا أن يأتي بما قل أو كثر ، فلم يقبل من أحد منهم أقل من أوقية لعروة الخندق ، وقال معد بن أبي معد الخزاعي وقد سبق أن ذكرناه ، وهو شيخ بني كعب من خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ ، قال ساخرأ من قريش يتوقع لها الهزيمة :

تهوى على دين أبيها الأثمد إذ جعلت ماء قُدَيْد^(١) موعدا
وماء ضُجْجَان لها ضحى الغد إذ نُفِرَ من رُقَقي عمدا
وعجوة موضوعة كالغُجْد

الدور الرابع من الصراع بين قريش والاشلام :
من بدر الموعد إلى غزوة الأحزاب أو الخندق :

كانت غزوة بدر الموعد في ذي القعدة ٤ هـ / أبريل ٦٢٦ م وكانت الخندق في ذي القعدة سنة ٥ للهجرة / أبريل ٦٢٧ م . فبينها عام هجري ، وهو عام ميلادي إلا أباماً ، وفي خلال هذا العام خطت المدينة خطوات واسعة نحو القوة واتساع الرقعة والهبة في شمال الجزيرة ووسطها جميعاً ، فإن مآساتي بثر معونة والرجيع ، كانتا دافعتين لرسول الله ﷺ لتمكين قبضة المدينة على الحجاز حتى أحواز مكة وعلى قبائل العرب فيما بين الحجاز ونجد ، فأرسل رسول الله عبدالله بن عتيك وأصحابه ليقضي على أبي رافع اليهودي ، وكان عدواً لدوداً للإسلام ، يؤلب عليه ويشير الناس على أمة المدينة ، وكان يكن حير ، فقتل في خير وبين أهله (ذو الحجة ٣ هـ / مارس ٦٢٦ م) ، ثم حرج رسول الله ﷺ نفسه في عروة ذات الرقاع ، وهو حل في مطالع نجد على نحو

(١) قديد بلدة على الطريق من مكة إلى المدينة وهي عبر بعيدة عن بدر الصفر .

خمس عشرة ليلة من المدينة كانت نزل عنده بطون من أعمار وشعلبة وكووا أعراباً
 يعيرون على الناس في نواح سادها الأمان واهدؤوا بعد أن دخلت حلف المدينة
 وانتشر فيها الإسلام، فأراد رسول الله ﷺ أن يطمئن من ناحيتها، وكان رسول
 الله حريصاً على أن يخرج في هذه الغزوات بنفسه فيكون لمسيره من الهيبة ما
 يجذب الناس للإسلام ويدخلوا فيه، ثم أن قريشاً كانت تسمع بأخبار مسيره
 فتعلم أنها قتل رجل دائم الحركة والشايط في سبيل دعوته، فيزداد خوف
 رؤسائها منه ويتزايد حب غير الرؤساء واعجابهم به، فيأمنهم كانوا يشعرون أن
 رسول الله واحد منهم، جزؤه عزهم وقوته قوتهم، وكان الكثيرون جداً منهم
 تواقين إلى الانضمام إلى محمد ﷺ، ودخول الإسلام لولا هذا النفر العنيد من
 شيوخهم، ولم يقتصر ذلك الميل إلى الإسلام على القرشيين بل كان هناك عرب
 كثيرون بلغتهم أنباء رسول الله وما هو عليه من كريم السجايا، وما تتمتع به
 أمته من رخصه وقوة وأمان فكانوا ينتظرون الفرصة ليدخلوا في دينه رغباً
 والتماساً للبركة. وكان رسول الله في هذه المغازي يزيد إيمان أصحابه عمقاً،
 ويؤكد شعورهم بالولاء للدين والقوة وخلوص النية له والتضحية بالنفس في
 سبيله، ومن دلائل ذلك ما حدث في غزوة ذات الرقاع تلك: فإن عباد بن بشر
 كان يجرؤ المسلمون مع عمار بن ياسر ذات ليلة، فاقترب من المعسكر رجل
 من الأعداء يطلب امرأته وقد كان المسلمون قد أسروها، وكان عباد بن بشر
 يصلي لرماء الرجل بسهم أصابه فلم يقطع صلاته، ورماء بثان أصابه أيضاً
 واستمر يصلي، ثم رماء بالسهم الثالث فأرداه وقد ختم صلاته، وأدركه عمار
 ابن ياسر وهو يزعم فقال له: «أي أخي: ما منعك أن توقظني به (أي تنبهني إليه)
 في أول سهم رمى سه؟ قال: كنت في سورة أقرأها وهي سورة الكهف،
 فكهرت أن أقطعها حتى أفرغ منها، ولولا أن خشيت أن أصبغ ثغراً أمرني به
 رسول الله ﷺ ما انصرفتم ولو أتيت على نفسي^(١)». ولم يمض عداد، فقد مد الله
 في أجله وعاش بعد ذلك.

(١) الواقدي معاري ٣٩٧/١، وقد قيل إن الأنصاري الشهيد عمارة بن حرم

وكذلك كان ﷺ يرى في تلك المغازي مناسبة للتسلط في الحديث مع من لا تتاح له فرص الحديث معه من أصحابه في المدينة والاسترسال معهم في سائط شئونهم وصحهم، فهذا في ذات الرقاع يروي حابر بن عبدالله أحاديث حرت بيه وبين الرسول منها: «إنَّ ألع رسول الله ﷺ إذ جاء رجل من أصحابه مروح طائر، ورسول الله ﷺ ينظر إليه، فأقبل أبواه أو أحدهما حتى طرح نفسه في أيدي الذي أخذ مروحته، فرأيت الناس عجبوا من ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «أتمعجون من هذا الطائر؟ أخذتم فرخه فطرحتم نفسه رحمة لفرخه». والله لَرُبُّكُمْ أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه»^(١).

ثم تكون غزوة دومة الجندل، وهي الجوف اليوم، وهي على نحو ٦٠٠ كيلومتر عن المدينة، فخرج إليها ﷺ ونجشم مشقة الذهاب والإياب (ربيع أول - ربيع ثان ٥ هـ / أغسطس - سبتمبر ٦٢٦ م). قال الواقدي: «قالوا: أراد رسول الله ﷺ أن يدنو إلى أدن الشام، وقيل له إنها طرف من أفواه الشام فلو دنوت منها كان ذلك مما يفرغ قيصر»، ثم قيل للرسول إن بدومة الجندل جمعاً كثيراً وإسهم يظلمون من مَرَّبهم من الصنافطة (الذين يجلبون الميرة والمتاع إلى المدينة) وكان بها سوق عظيم ونجار، وضوى إليهم قوم من العرب كثير وهم يريدون أن يدنوا من المدينة فقرر الرسول الخروج إلى دومة الجندل، مما يدل على الأفاق التي كان الرسول يتطلع إليها وهو بعد لم يفرغ من أمر مكة، والقاري هذه التفاصيل يشعر أن أمر مكة ومشركيها لم يكن ليشغل اهتمامه كله.

ثم تكون غزوة المريسيع إلى بني المصطلق، وهي غزاة طويلة حافلة بالأحداث والوإازل التي تستخرج منها الأحكام. ولم تكن مآزل بني المصطلق أو نلمصطلق بالعبدة عن المدينة، ولكنها كانت على إحدى الطرق الرئيسية من مكة إلى الشام، فقد كانوا يرلون نأحية من نأحية القُرْع العمية بالماء ومسائل

(١) الواقدي، معاري ٣٩٨/١

الماء غير بعيدة عن الصغراء والمسيجد ، وكان بنو المصطلق بطناً من خزاعة وكانوا حلفاء لبي مذليج ، وكانت خزاعة في حملتها في حلف رسول الله ﷺ ، فشذ عنهم سيد بني المصطلق الحارث بن صرار وأراد أن يخرج عن الحلف ، ولو ترك على حاله لخرج حزه من الطريق بين مكة والشام عن سيطرة المدينة ، وهذا ما لم يكن الرسول يريد ، فعجل بالمسير إلى المريسيع ، وكان الحارث بن صرار رجلاً مغروراً بنفسه ، حَرَضَ قومه على الخروج فاستجابوا له ، وما يظن أن الحارث كان يجرؤ على المسير إلى المدينة ، فهو وقومه لا يبلغون هذا المبلغ ، ولكن مجرد خروجه عن اجماع قومه كان انحرافاً عن الطريق لا بد أن يقوم . وجدير بالذكر أن رسول الله عندما أراد أن يستعلم عن أمور خزاعة بعث بُرَيْدَةَ ابن الحُصَيْب الأسلمي الخزاعي ، وكان هؤلاء الأسلمة أحلفاً لرسول الله ﷺ ، حيث كانوا مثلهم في ذلك مثل بني أسلم (بفتح اللام) ، وكانوا بطناً من بني بن إلخاف بن قضاة القديمة ، تفرقوا في نواح كثيرة من الحجاز حيث استضعفهم الأوس والخزرج في سهل المدينة . وأساءت استخدامهم قريش ، فلما قامت أمة المدينة سارعوا بالإنضمام إليها ، ووجدوا في ذلك العزة والمنعة إلى جانب الدين ، وقد كان لبني أسلم الخزاعين وبني أسلم القضاعيين في ظل الإسلام دور عظيم .

وكانت غزوة المريسيع في شعبان سنة ٥ هـ / يناير ٦٢٧ م ، قبل الخندق بثلاثة شهور ، وقد ضرب المسلمون بني المصطلق ضربة حاسمة بالغة الشدة ، ولم يكن من ذلك بد لأن الظروف كلها كانت تنبئ بأن قريشاً لا بد مدبرة أمراً ، وكان لا بد أن يظل أحلاف المدينة في سلام معها وولاء لها ، وإلا وجدت قريش في ذلك مجالاً واسعاً للإضرار بأمة الإسلام والإفلات من الحصار ، ولكن الرسول بعد أن تحققت له الغاية من ضربة بني المصطلق بادر إلى التخفيف عنهم ، فاصهر إليهم باصطفاء حويرية بنت الحارث وأداء كتابتها عنها وتزوجها فاطلق المسلمون ما كانوا قد أحرزوه من سبي بني المصطلق .

وقد أفادت المدينة من وراء ذلك النشاط الواسع قوة كبرى، فاستقر نفوذها في شمال شبه الجزيرة ووسطها كله، وهابتها القنائل هبة شديدة ودخل في حلفها منها من دخل وأسلم من أسلم

وفي أثناء ذلك كانت قريش في ضيقها وحيرتها من أمرها، فإن الحصار عليها شديد، وهي لم تكسب من معركة أُحُد شيئاً ذا بال، ثم حاءت حمراء الأسد ثم بدر الموعد فحِينَئِذٍ وانكسرت في عقر دارها وساورها الخوف على مصيرها، ربما للمرة الأولى منذ حرب الفجار الثالثة ولكنها لم تكن تستطيع المقام على هذه الحال، فهي قبيلة كبيرة غنية ذات صيت بعيد وجاء عظيم، ورجالها أعلام لهم مكانتهم وسمارتهم، وقد قضت قريش فوق القرن والنصف في بناء نفسها وبلغ ذلك المبلغ. وكان لها نظام قوي صلب وتماسك يقوم على تقاليد وقواعد وعقل وحكمة وتدبير، وكل ذلك جعل لها جاهاً عظيماً عند العرب وهبة بالغة في قلوبهم، والآن يجدون ذلك كله مهدداً بالزوال، بل هو يتلاشى يوماً بعد يوم، وما كان القرشيون بالجبناء ولا قليلي الحيلة، فما زالت قريش مجتمعة القوة وهي تستطيع الآن أن تضرب، وفي التأخر مزيد من المضرة بها ولا ريب، ولا بد لها أن تضرب قبل أن يضيق عليها الخناق وتصبح الحركة عسيرة عليها.

تلك هي مقدمات غزوة الأحزاب التي حولتها حكمة الرسول إلى غزوة الخندق، وهي آخر محاولة لقريش للوقوف في وجه أمة المدينة الباهضة، ولم تكن قريش بالمغامرة فيها ولا المتهوره، فقد أعدت نفسها أحسن استعداد أمكنها، وأحكمت أمرها وجمعت أحرافاً أقوياء لهم صالحي مباشر في القضاء على أمة المدينة وأحكمت خطة المسير والتوقيت، وفاد قواتها مع حلفائها أبو سفيان صحر من حرب قيادة فيها حزم ومعرفة وذكاء، ولكن فاتها أن القوة التي حارحت قريش لتفيس نفسها إليها كانت تفوقها من كل ناحية، بل كانت قوة من طراز حديد لم تعرفه قريش ولم تكن تتوقعه، فسواء أكان ذلك متصلاً

طبيعة ساء فوه الإسلام التي حرحت قريش وأحلافها للقضاء عليها، أم كان متصلاً بنظامها الداخلي لأن العقيدة التي تُوحى رجالها، والقانون الأخلاقي الذي كان يُحكم تصرفات أفرادها، والأهداف التي كانت تحارب في سبيلها وطريقة القتال التي درست بعسها عليها، في ذلك كله كانت المدينة تفوق مكة بمراحل كثيرة. وفوق ذلك كله كانت شخصية قائد جماعة المدينة وموجه الأمر فيها واتجاهات فكره وأسلوبه في العمل، والغايات التي كان يرمي إليها ومستوى العلاقات بين محمد رسول الله وصحابته كباراً وصغاراً، ثم الولاء المطلق للعقيدة والرسول صلوات الله عليه وسلامه، في كل ذلك كانت المدينة تختلف اختلافاً بيناً عن قريش وأحلافها. فهؤلاء يمثلون عصر الجاهلية بكل عقلية وأسلوبه في العمل وأهدافه ونظراته إلى الحياة، والمدينة تمثل الإسلام وهو بناء عقيدتي حضاري وإنساني جديد وبعبارة واحدة نقول: أماناً في معركة الخندق عصر عتيق كان كل ما فيه قد وهن واهترأ وفقد حيويته يحاول أن يقف أمام عصر جديد كل ما فيه جديد، وهو قوي شاب صلب متماسك قام ينشئ لأهل الدنيا كلهم نظاماً جديداً.

هذا عن الصورة العامة للصراع الذي دار بين الجبهتين في موقعه الأحزاب التي تحولت إلى معركة خندق أو معركة الحصار بتعبير عملي دقيق.

ونرجل لنا طابع القوة في تنظيم أمة الإسلام في ثلاث نواح: الأولى تماسك الجماعة والتضام فيها حول قائدها وطاعتها له وثقتها فيه. ومن جانبها أيضاً نجد الثقة في الأمة كاملة، فهو يصدر الأمر ناظراً دائماً لما فيه صالح الجماعة. ففي سرية أبي سلمة بن عبد الأسد إلى قُظَن (وقد جاءت بعد حراء الأسد في المحرم ٤ هـ / يونيو ٦٢٥ م) يستدعي رسول الله ﷺ أنا سلمة بن عبد الأسد وكان قد أُنزل من حين قريب من حراح أصابته في أحد ويقول: «أخرج في هذه السرية، فقد استعملتك عليها» وعقد له لواء وقال: «سير حتى ترد أرض بني أسد، فأعر عليهم قبل أن تلاقى حوهم عليك، فأدع للأمر وخرج معه

طواغية مائة وحسون من المسلمين فيهم من المهاجرين من صميم قريش ومن بني فهر ومن الأنصار، كلهم أعلام من الصحابة من أهل الدين والورع والسالة والإيمان المتين. وأبو سلمة يمضي معهم فائداً مطاعاً ومقاتلاً عارفاً بشئون الحرب، فهو يصل إلى حيث وجهه الرسول، فيفرق رحاله ثلاث فرق لتعبر على كل أرض بني أسد: وأوعر إليهم ألا يمحضوا في طلب ولا يبيتوا إلا عنده إن سلّموا، وأمرهم ألا يفترقوا، واستعمل على كل فرقة عاملاً منهم، ويقوم كل فريق منهم بما ذهب لأجله ويعودون بالمغنم، فيمضي بهم أبو سلمة عائداً وبعد سيرة ليلة يقول: «اقسموا غنائمكم، فأعطى أبو سلمة الطائي الدليل (أي الذي دل المسلمين على أرض بني أسد) رضاءً من المغنم، ثم أخرج صفيّاً لرسول الله ﷺ عبداً، ثم أخرج الخمس، ثم قسم ما بقي بين أصحابه فوفّوا سهمانهم، ثم أقبلوا بالنعم والشاة يسوقونها حتى دخلوا المدينة» وقد نفر على أبي سلمة جرحه القديم بعد العودة إلى المدينة ومات منه لثلاث من جمادي الآخر سنة ٤ هـ. فهذا نظام تام لا يصدر إلا عن رجال لهم ثقة كاملة في أنفسهم وفي قيادتهم. ورسول الله ﷺ يثق تماماً في أنهم سيقومون بالمطلوب منهم دون وصاية. ولو كانت دولة عريقة ذات تقاليد عسكرية عتيقة لما سار الأمر فيها بهذا النظام، فما بالك ونحن في جماعة حديثة التكوين حرة بحكم أمرها بالإيمان الكامل والقدرة الحسنة والتضحية بالنفس في سبيل الجماعة وعقيدها.

دُرُوسٌ وَعِبَرٌ :

ويسأل عمر رسول الله عما سيفعل بأموال بني النضير، فيشير رسول الله ﷺ إلى الآيتين السادسة والسابعة من سورة الحشر، ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أُوجِفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَسْلُطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ

منكم، وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب»^(١) وبناء على ذلك كان عمر بن الخطاب يقول: كان لرسول الله ﷺ ثلاث صفايا، فكانت بنو النضير حبساً لنوائبه، وكانت فدك لابن السبيل وكانت خيبر قد حزاها ثلاثة احزاء، فحزبان للمهاجرين وحرء كان ينفق منه على اهله، فإذا فضل رده على فقراء المهاجرين

ومع ذلك يعرض رسول الله هذا الأمر - أمر مصير أموال بني النضير - على المهاجرين والأنصار وكان حريصاً دائماً على أن يتصرف في شئون الدنيا برأي الأمة، وكانت الأمة في نفس الوقت تسترشد بهديه وصدقه وإخلاصه، وبغير الانصار بين أمرين: إما أن يشتركوا مع المهاجرين في نصيب من هذا الغنى ويظل المهاجرون نازلين بمساكنهم التي نزلوا فيها على الأنصار عند هجرتهم، أو يقسم هذا المال على المهاجرين ويتركوا ما نزلوا فيه من مساكن الأنصار وأموالهم، فيكون رد الأنصار بل يقسم المال عليهم ويظلوا معنا في مساكننا، وذلك أقصى الايثار، وهذا دليل على المستوى الأخلاقي الرفيع الذي وصل إليه أهل أمة الإسلام.

وسنرى بعد كلامنا على ما وقع في غزوة الخندق، الكثير من دلائل التطور العسكري، ولكن نقرأ معاً هذا الخبر التالي عما حدث قبل أن يصدر سعد بن معاذ حكمه فيما يعمل ببني قريظة قال الواقدي: «واقبل سعد إلى رسول الله ﷺ والناس حول رسول ﷺ جلوس، فلما طلع سعد قال رسول الله ﷺ قوموا إلى سيدكم، فكان رجال من بني عبد الأشهل يقولون: قمنا له على أرجلنا صفيين، يحببه كل رجل منا حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ وهذا مظهر عظيم من مظاهر تسجيل القضاء: أن يأمر رسول الله ﷺ الحاضرين بأن يقفوا جميعاً لسيدهم، والقاضي عندما يسير لمجلس قصاته ويجلس فيه يكون سيد الحاضرين في موضع الحكم. ثم يتقدم سعد (وهو مريض) ويسطر إلى بني قريظة ويؤكد

(١) سورة الحشر ٥٩/٦ - ٧.

لهم أنه سيحكم بما يرصي ضميره . (وكان أبو قريظة حلفاءه ، وله ولايته تعامل وصداقة معهم قبل الإسلام) ثم ينظر إلى رسول الله ويقول: وعلى من ها هنا مثل ذلك؟ أي هل تقبلون حكمي بنفس راضية كما أقر أبو قريظة بأنهم يقبلونه ، فقال رسول الله ﷺ ومن معه : نعم : وهذا من أجل مشاهد احترام القضاة والقضاء : رسول الله ومن بعده يعدون بأن يحرصوا بحكم القاضي ويسلموا به ثم يكون الحكم في بني قريظة بعد ذلك بما نعرفه جميعاً .

وهذه هي الجماعة التي أنشأها رسول الله ﷺ بهدى من ربه ، فهي جماعة جديدة من كل ناحية ، جماعة منظمة متماسكة متآخية تسير على هدى من عقيدة سامية وتحمي في آثار أصلح قدوة عرفها التاريخ .

هنا يتجلى لنا كيف كانت الهوة شاسعة بين قريش وامة المدينة ، وقريش إلى ذلك الحين كانت أعلى من في الجزيرة ، حضارة وعلماً ونظاماً وفهماً وتربطاً وإدراكاً لروح الجماعة ومسئوليتها ، فجاءت هذه الامة على ذلك المستوى الرفيع الذي يفوق كل ما عرفته الانسانية من تنظيم إلى ذلك الحين ، بل إلى يومنا هذا ، وإذا كان بعض الناس يرون أن الشورى أو ما يسمونه بالديمقراطية هي ميزة العصر ، فقد عرفنا أن الشورى كانت بنص القرآن قاعدة من قواعد التنظيم في امة المدينة ، واضيف إلى ما يعرف الناس من آي القرآن الكريم في هذا المعنى ذلك الشاهد الجديد آتي به من كلام الواقدي عن غزوة الخندق : فبعد أن خطب رسول الله ﷺ الناس عندما سمع بخبر مسير الاحزاب نحو المدينة يقول الواقدي : « وشاورهم رسول الله ﷺ » ، وكان رسول الله ﷺ يكثّر مشاورتهم في الحرب ، فقال : أنبرز لهم من المدينة أم نكون فيها ونخندقها علينا ، أم نكون قريباً ونجعل ظهورنا إلى هذا الخيل ؟ فاختلفوا فقالت طائفة : نكون مما يلي نُبْعَثُ إلى ثِيَةِ الْوُدَاعِ إِلَى الْحَرْفِ . فقال قائل : ندع المدينة حلوفاً؟ (أي خلف طهورنا) فقال سَلْمَانُ : يا رسول الله : إنا إذا كنا بأرض فارس ونحوقا الخيل حديقاً علينا ، فهل لك يا رسول الله في أن نُخَنِّقَ؟ فأعجب رأي سلمان

المسلمين، وذكروا حين دعاهم النبي ﷺ يوم أحد أن يقيموا ولا يخرجوا، فكره المسلمون الخروج وأحبوا الثبات في المدينة^(١).

وهذا مثال من مشاورة الرسول لأصحابه، فهو هنا يطرح الأمر عليهم ويدعهم يتبادلون الرأي في حرية تامة، وعندما اقترح سلمان الخندق - وقد سبق أن ذكره رسول الله - وأعجب رأي سلمان المسلمين فلم يقتصر الإعجاب هنا على رسول الله بل شمل المسلمين، أي أن الرأي كان لما تقرره الجماعة. وأخرب كانت أخطر شئون المدينة في هذه المرحلة من تاريخها، فإذا كان رسول ﷺ يشاور المسلمين في أهم شيء فما بالك بالعادي من شئون الدنيا؟ وإذا كان يأخذ برأي أصحابه الذي اجمعوا عليه واتفقوا على تنفيذه معاً فكيف يقول ناس اليوم أن الشورى ليست ملزمة للإمام؟. واذن فنحن فعلاً أمام أمة جديدة من كل ناحية.

أما قريش فقد ظلت مكانها، وعندما قررت أن تتصرف وتعمل شيئاً تخرج به من الحصار المضروب عليها وتستعيد به مكانتها في شبه الجزيرة، تصرفت على النحو الجاهلي الذي خلفته أمة الإسلام وراءها بمراحل شاسعة، وهو تصرف التظاهر والخداع والكسل مع العجز الظاهر عن معرفة قيمة الوقت وكيف يتم الانتفاع به على أحسن الوجوه.

انقضى بين أحد والخندق أكثر من ستين هجريتاً، فقد كانت أحد في ١٠ رجب سنة ٣ هـ وكانت الخندق في ذي القعدة سنة ٥ هـ وكان أمام قريش منسحب من الوقت لإحكام أمرها إذا كانت تريد أن تحارب أمة الإسلام في المدينة وتتصرف عليها، وكانت تعرف أن هناك قتائل كثيرة حاقدة على المدينة راغبة في إيدائها، لأن المدينة كانت قد أصبحت مركزاً عمرانياً زاهراً يفيض بالخيرات، وإلى جنوبها من ناحية العميق يمتد حمى واسع نوعى فيه سوائم الأمة مما يصير لها من الاخماس، وقد أنشأ هذا الحمى رسول الله ﷺ في عودة الناس من

(١) الواقدي، معاري ٢/ ٤٤٤ - ٤٤٥

المريسيع واستعمل عليه لئلا يسلح الحارث، وحرّم الرعي في حمى الفقع على عامة المسلمين إلا المرأة الضعيفة والرجل الضعيف أي العفّير، وكانت لمدينة لا تؤذي إلى أحد من الأعراب اتاوة، ولا يجرؤ واحد منهم أن يعترض لها عبيراً أو يصيب لها شيئاً إلا وجد رجال المسلمين في إثره، ولم يتعود الأعراب ذلك وحاف بعضهم خوفاً شديداً، ثم أن توقف قوافل التجارة؛ أصابهم بصرر كبير، ومع ذلك فقد كانوا عاجزين عن المساس بأي شيء للمدينة، بل كانت توجس خيفة من أن تلقى العقاب الشديد إذا هي فكرت في القيام بما لا ترضى عنه المدينة بما في ذلك مؤازرة قريش أو الدخول في حلفها.

يهود المدينة والإسلام :

ويستوقف نظرنا أن قريشاً لم تتحرك للعمل إلا بعد أن حركها إلى ذلك المهاجرون من بني النضير إلى خير، عندما نفاهم رسول الله من المدينة حين خانوا العهد بينهم وبينه ودبر واحد منهم اغتياله. فلما استقر المخرجون من بني النضير في خير جعل رؤسائهم دأبهم التدبير على الرسول ﷺ وأمة المدينة، ثم كونوا وفداً من رؤسائهم وبعض الأوس ممن كان مُعادياً للإسلام، ورجال هذا الوفد هم حُمي بن أخطب وكنانة بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس السوائي من بني خطمة وأبو عامر الراهب وهو أبو عامر بن عبد عمرو بن ضيفي، الذي سماه المسلمون بالفاسق وكان من بني ضبيعة من الأوس، وذهب رجال هذا الوفد إلى مكة، وجالسوا رؤساء قريش وحرضوهم على قتال محمد رسول الله، وتحالفوا معهم على النصرة فتحمست قريش وقررت الخروج، ثم ذهب ذلك النفر إلى عطفان ودعوهم إلى قتال المسلمين، وفجعلوا لهم تمر خبير سنة وينصروهم ويسيروا مع قريش إلى محمد إذا ساروا، فأبعت بذلك عطفان ولم يكن أحد أسرع إلى ذلك من عبيدة بن حصن^(١).

(١) الواقدي، معاري ٤٤٣/٢

والخبر على هذه الصورة غير مقنع، ويبدو وكأنه معتل، وإن الإنسان ليتعجب كيف أساع الواقدي هذا التصير لخروج قريش مع حلفاء لها للحرب مع المدينة، فإن الذين خرجوا إلى الحرب ساء على هذا الخبر كانوا بني النضير من اليهود، فهم الذين حركوا قريشاً ثم غطفان ولكننا لا نجد لبني النضير أو لغطفان بعد ذلك أثراً في القتال، حتى ما وعدوا به غطفان من اعطائها تمر المدينة لمدة سنة غير معقول قطعاً، لأن بني النضير لا يملكون خيبر إنما هم كانوا لاجئين إليها بعد إخراجهم من المدينة، ثم إننا لا نعرف إن كانوا قد وفوا بذلك لغطفان بعد الخندق.

وإنما الحقيقة أن قريشاً كان لا بد لها من أن تتحرك لانقضاء نفسها من الضياع، فإن تجارتها واقفة وعلاقاتها بالقبائل تضعف وتقطع وما بنته قريش خلال قرن ونصف يوشك أن يتقوض كله، فلم يكن لقريش بد من العمل السريع، وهي لا زالت تحتفظ بالجانب الأكبر من قوتها وثروتها، ثم إن ما وهن وزُت من علاقاتها بالقبائل كان من الممكن أن يعود إذا هي خرجت عن ركودها وحزمت أمرها وقررت أن تنفق مع من يريد من القبائل، للتصدي لامة الإسلام.

لا يمكن أن يكون لبني النضير من دور في تحريك قريش وأحلافها للخروج لحرب المدينة إلا دور التحريض، وهذا يستطيعه أي أحد، وقد فعله قبل ذلك كعب بن الأشرف وأبوراغ وكلاهما من اليهود فلحقا جزاءهما العاجل العادل من أمة الإسلام، والآن يتحرك بنو النضير من مفاهيم في خير للتحريض على المدينة ويكون لتحركهم أثر بعيد، وإن كنا لا نستطيع القول أن ذلك التحرك كان هو الدافع المباشر لخروج قريش وأحلافها، وتجمعهم لمهاجمة المدينة في ذلك الوقت بالذات.

ولكن الواقدي يورد هنا ملاحظة تكشف لنا عن حقيقة هامة من حقائق حياة يهود الجزيرة، لم يشر إليها أحد ممن أنفقوا جهوداً كبيرة في دراسة موضوع

يهود الجزيرة وموقفهم من الإسلام وموقف الإسلام منهم (كما يتحلل من القرآن الكريم)، ثم موقف أمة المدينة كما يتحلل فيها كان بينها وبين هؤلاء اليهود منذ أن كانت أمة الإسلام في المدينة.

قال الواقدي راوياً عن رواته . ولما أحل رسول الله ﷺ بني النضير ساروا إلى حبر . وكان بها من اليهود قوم أهل غدد وحلّد، وليست لهم من البيوت والأحساب ما لبني النضير . كان بنو النضير يبرّهم ، وقريظة من ولد الكاهن من بني هارون ، فلما قدموا أخرج حُيَّ بن أخطب ، وكنانة بن أبي الحقيق ، وهوذة بن الحقيق وهوذة بن قيس الوائلي من الأوس من بني نخطمة ، وأبو عامر الراهب في بضعة عشر رجلاً إلى مكة يدعون قريشاً وأتباعها إلى حرب محمد ﷺ فقالوا لقريش: نحن معكم حتى نستأصل محمداً . قال أبو سفيان هذا الذي أقدمكم ونزّعكم؟ قالوا: نعم، جئنا لنحالفكم على عداوة محمد وقتاله . قال أبو سفيان: مرحبا وأهلا، أحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد . .^(١)

وإذن فقد كان بنو النضير أعلى يهود الجزيرة مركزاً وأكبرهم مقاماً، ويليهم بنو قريظة فهم من ولد الكاهن (كوهين) من بني هارون، فهم على ذلك من أبناء الأسباط، فسبط هارون واحد من الأسباط الاثني عشر، فهو هارون والد لوط . ومن المعروف أن يهود المدينة كانوا على نوعين: نوع عبرانيون من بني إسرائيل أي من بني الأسباط ونوع عرب تهودوا . وأقوى أولئك الذين تهودوا وأصبحوا في مستوى اليهود الأصلاء المهاجرين، بنو ثعلبة ابن حارثة بن عمرو بن امرئ القيس وهم ينحدرون من عمرو مزقياء رأساً، فلا هم أوس ولا هم خزرج، وهؤلاء كانوا سادة المدينة قبل أن يدخلها الأوس والخزرج مقبدين من اليمس والأوس والخزرج عندما قدموا دخلوا في حلف يهود المدينة، وهم كانوا سادة السهل أولاً، وكان رئيس ثعلبة هؤلاء البُطَيُون وهو عامر بن ثعلبة . وكان سيد السهل، وكان يعرض على كل من نزل في

(١) الواقدي، معاذي . ٤٤١/٢ - ٤٤٢

السهل ما يسمى في التاريخ القديم باسم، قاموس الليلة الأولى Jus primae noctis ومعناه أنه لرئيس الجماعة أن يقضي الليلة الأولى مع كل عروس قبل زوحها إذا أراد ذلك، وكان هذا عرفاً قديماً جداً عند بعض الجماعات، ومع أسا يستعد أن يكون البطيطون عامر من ثعلبة كان يمارس هذا الحق مع الأوس والخزرج، إلا أن الفصص الشعبي يزعم ذلك، وينسب إلى مالك بن المعجلان شيخ بني عوف بن الخزرج بن الحارث أنه هو الذي ناز بالأوس والخزرج على سلطان اليهود وحاربهم وانتزع لهم السيادة على السهل، وانزل اليهود إلى مرتبة الخلفاء في السهل. ومالك هذا هو الذي قاد الخزرج ضد الأوس في حرب بُعاث، فانضمت اليهود إلى الأوس، وبفضلهم انتصر الأوس على الخزرج في بُعاث، ومن ذلك الحين انعقد الحلف بين الأوس واليهود، وهو حلف سيكون له أثره في سير الحوادث في المدينة، إلا فيما يتعلق بحلف عبد الله بن أبي بن سلول مع بني قينقاع أولاً ثم ببني النضير، وأخيراً ببني قريظة، فلما انتهى أمر هؤلاء انتهى أمر عبدالله بن أبي بن سلول، ولم يكن في الخزرج أحد يؤيد اليهود كما كان يؤيدهم عبدالله بن أبي بن سلول، وكان اليهود يعتزون بتأييد عبدالله بن أبي حتى خذلهم مرة بعد أخرى وتبين لهم أنه لا ينفع في وقت شدة. وقد كان موقف ابن سلول هذا منفراً لكل أحلاف اليهود من الأنصار، فنجدهم جميعاً يثيرأون من حلفهم وخاصة بعد الخندق عندما دخلت في الإسلام مجموعة البطون المسماة بأوس مناة قبل الإسلام، ثم أصبحت تسمى أوس الله بعد الخندق، وهم أمية ووائل وعطية وخطمة وواقف.

ولكننا لا نحدد بني ثعلبة على حال من القوة بعد الهجرة، فقد دخلوا في الخزرج، ثم إما نلاحظ أن واحداً من كبارهم كان يسمى أما زيد من عررة (أو عزرا) بن عمرو بن أخطب بن محمود وهو من أحفاد البطيطون. وآل أخطب كانوا من رؤساء بني النضير ورئيسهم حُمي بن أخطب وهو والد صعبة أم المؤمنين.

وهذا كله يلقي صوءاً حديداً على ما كان بين الرسول ﷺ وبي النضير
بعد موقعة أحد، فقد كانوا شديدي العداوة للإسلام والغيرة مه، وبعد أن
انصرف المشركون معد أحد أراد الرسول أن يستعين بشيء من المال منهم، فقد
دفع عنهم وحى لهم منارهم وأموالهم، ولكنهم تنكروا له ودبروا قتله مما انتهى
إلى إخراجهم من المدينة وقد حرحوا تاركين أموالهم وبيوتهم ونحلهم ولكمهم
تكلفوا تجلداً عرياً. وحملوا النساء والصبيان، فخرجوا على منازل بلحارث بن
الخرزج، ثم على الجبلية (موضع بالمدينة) ثم على الجسر،
ثم مروا بالمصل، ثم شقوا سوق المدينة، والنساء في الهودج عليهن الحرير
والديباج، وقُطِف الخز الخضر والحمر، وقد صُفَّت^(١) لهم الناس، فجعلوا يبرون
قطاراً في إثر قطار فحبلوا على ستمائة بعير. يقول رسول الله ﷺ : هؤلاء في
قومهم بمنزلة بني المغيرة^(٢) في قريش^(٣) وجعل بعض المسلمين من أمثال حسان
ابن ثابت، يتحسرون على ذهابهم ويذكرون مآثره لهم ووقف الضحاك بن خليفة
يشهدهم، ثم قال وهو يراهم خارجين: «واصباحاه، نفسي فداؤكم! ماذا
تحملتكم به من السؤدد والبهاء والنجدة والسقاء؟»^(٤) ونعيم بن مسعود
الأشحمي قال في نفس الموقف: «فدَى لهذه الوجوه التي كأنها المصابيح ظاعنين من
يثرب! من للمُجْتَندي الملهوف؟ ومن للطارق السُفْبان؟ ومن يسقي العُقار؟ ومن
يطعم الشحم فوق اللحم؟ ما لنا يثرب بعدكم مقام!»^(٥) فيرد عليه أبو عبيس بن
جبر: «نعم. فالحظهم حتى تدخل معهم النار»^(٦) ثم يقول الواقدي: «مروا
يفسرون بالدخوف ويزمرون بالزماير، وعلى النساء المعصفرات وحلي الذهب،
مظهرين ذلك تجلداً. قال: يقول جبار بن صخر: ما رأيت زهاءهم لقوم زالوا

(١) أي اصطفا

(٢) بنو المغيرة هم بنو مخزوم

(٣) الواقدي، معاري: ١/ ٣٧٤ . ٣٧٥

(٤) الواقدي، معاري ٣٧٥

(٥) الواقدي معاري ٣٧٥

(٦) الواقدي معاري ٣٧٥

من دار إلى دار، وسادى أنورافع سلام بن أبي الحقيق، ورفع مسك الحمل وقال: هذا مما نُعِدُّه لِحَفْظِ الْأَرْضِ ورفعها فإن يكى الحجل قد تركناها، فأنا نَقْدُمُ عَلَى حِجْلِ حَبِير^(١)... .

من ههنا بهم ولو حاساً من حوانب اعتداد بني النضير بأنهم واستعادتهم بعض قوتهم بعد أن استقروا في خير، ثم اجتهدهم في تأليب الناس على أمة المدينة، فإن أبا رافع سلام بن أبي الحقيق الذي زعم أنه يعتد بما خرج به قومه من ذهب وفضة وخز ويقول إنه يعد ذلك لحَفْظِ الْأَرْضِ ورفعها، هو ابن عم كنانة بن أبي الحقيق أحد الساعين في تأليب القرشيين ثم غطفان على رسول الله ﷺ، فبنو النضير كانوا منذ خرجوا مزمرين الانتقام من أمة المدينة حاسبين أنهم سيعودون إلى الانتصار بفضل ما لهم الذي أطلقه لهم رسول الله ﷺ وظنوا أنهم يُحْفَظُونَ الْأَرْضَ ويرفعونها به.

وكان معهم في ذلك التأليب هودّة بن قيس الوائلي من الأوس من بني خطبة، والغالب أنه كان يهودياً، فإن هودّة تعريب يهوداً وخطمة وهم بنو جُشم ابن مالك بن الأوس، كانوا من أوس مناة الذين لم يسلموا إلا بعد الخندق، وكان رئيس أوس مناة أبا قيس بن الأسلت الشاعر وهو من بني وائل، ولم يسلم إلا بعد الخندق فأسلم بقية أوس مناة بإسلامه وأصبحوا يسمون أوس الله كما ذكرنا.

وكان مع أولئك المؤيدين على المسلمين، أبو عامر عبد عمرو أو عمرو من بني عمرو بن عوف بن قيس الذي يقال إنه كان قد تنصر وسمي بالراهب، وقد سماه المسلمون بأبي عامر الفاسق، وهو شخصية كأنها الشبح معادية للإسلام أشد العداوة في غير طائل، فقد أكل قلبه الحسد من محمد صلوات الله عليه عبد المحرة وانتشار الإسلام، فخرج إلى مكة وانضم إلى الكفار وكان له أثر سيء في أحد، ثم يختفي ليظهر الآن بين المؤيدين على رسول الله، ثم يختفي

(٧) الواقدي معاري ٣٧٥.

بعد ذلك كاه عرق في ليل التاريخ ، وإن كان ذكره قد بقي في ابنة حنظلة بن أبي عامر من شهداء أحد وهو حنظلة العسيل الذي غسلته الملائكة وهو الذي عناه أبو سفيان في خطابه لرسول الله ﷺ «حنظلة بن حنظلة» ، فهو الأول أما الثاني فحنظلة بن أبي سفيان نفسه وكان قد قتل في بدر

ولكن الذي يستوقف النظر هو أن هؤلاء المؤمنين جميعاً - بما فيهم رجال بني النضير - يقتسمون بعد ما كان منهم من التحريض والتأليب ، فلا يجد لهم في قتال الحنظلي إسمياً ولا ذكراً .

قُرَيْشٌ وَأَحْلَافُهَا يَسِيرُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ :

وإذن فقد تحركت قريش بعد طول انتظار ، ولكنها إذ تحركت لم يظهر عليها ما يدل على أنها تعلمت من الماضي شيئاً . فبينما كانت أمة الإسلام قد دخلت في عصر جديد من الانتظام والتماسك وإحسان التدبير والإعداد لكل شيء ، ظلت قريش قبيلة جاهلية تخرج للقتال بالإبل والخيول والأموال وتجمع الحلفاء والأنصار وتسير بغير نظام ، ولو أن رجال قريش تعلموا من رسول الله شيئاً لاستدعوا حلفاءهم وتدارسوا خطة العمل ، ورتبوا صفوفهم وقسموا مسئولياتهم وعرفوا كيف سيهاجون المدينة . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، ولم يكن من الممكن فيها اعتقاد أن يحدث ، فهذه جماعة تُخَشِّبُ أو تحجرت على ما هي عليه ، وقد سبق أن عرضنا لذلك التحجر ، ونضيف الآن أن من أسبابه الخيلاء والكبرياء ، فهؤلاء سادة بدو ، يخرجون للقتال سادة ويلاقون الموت سادة ، وتلك هي خيلاء الجاهلية وكبرياؤها ، وقد كانت مقولة مستحسنة بمقاييس الجاهليين قبل الإسلام كما نرى في تفاصيل أيام العرب ، ولكن الإسلام جاء بفكر جديد وقيم ومقاييس جديدة هتت إلى حاسها كل صور الجاهلية حتى ما كان منها مستحسناً قبل ذلك

ولكنا نحس شكاً وتحوفاً في قول أبي سفيان لم جاءوا يعرضون الحلف

عليه لقتال الإسلام . وهذا الذي أقدمكم وبرعكم !، وفيه كذلك شيء من السخرية بأولئك القوم، وهي سحرية معقولة من رجل مثل أبي سمان الذي كان يختلف اختلافاً كبيراً عن بقية رؤساء قريش، فهذا الرجل كان وثياً ولكنه كان مارد المزاح لا يكاد يؤمن بشيء، وهو واقعي مادي، يحس النظر لنفسه ولمصلحته دون نظر إلى حماس أصحابه من رعياء القرشيين وعروورهم، وهو دون شك كان أوسع دكاء من كل رملالة، ودكاؤه هذا هو الذي أنقذ قريشاً وجنبتها تصادماً لم يكن محمد ﷺ راغباً فيه .

وسياق الأخبار بعد ذلك يترك في النفس أشياء كثيرة، فالتصوص تقول إن قريشاً أخرجت لحفاتها حين من رجالها ودخلوا جميعاً تحت أستار الكعبة والصقوا أكبادهم بها وتعاهدوا على قتل محمد ﷺ حتى الموت، وانظر مثلاً إلى الفقرة التالية : على لسان بعض زعماء قريش «قد جاءكم رؤساء يشرب وأهل العلم والكتاب الأول، فسلوهم عما نحن عليه ومحمداً . . . فاما أن اليهود الذين جاءوا وكلهم من بني النضير كانوا أهل العلم بالكتاب في نظر القرشيين فمعقول، ولكن أكان هؤلاء بن قيس الوائلي وأبو عامر الراهب رؤساء أهل يشرب؟ . . . ربما إذا قلنا ان هؤلاء هم الذين بقوا على الكفر من أهل يشرب . وستلاحظ فيما بعد أن بطون أوس الله جميعاً لن تحرك ساكناً، بل لن يسمع لها صوت طوال قتال الخندق .

وبعد ذلك نجد القرشيين يسألون اليهود وكأنهم في حيرة من أمر الإسلام، أو كأنهم لم يتأملوا مرة في آية واحدة من القرآن، وإلا فانتظر الحجج التي يدلون بها ليعرفوا إذا كانوا هم على الدين الصحيح أم الدين الذي يدعوا إليه محمد هو الصحيح . فهم يسألون من أتاهم من اليهود «أنتم أهل الكتاب الأول والعلم، انخسروا عما أصبحنا نحن فيه ومحمد، فحن عمار البيت، ونحر الكلوم وسقي الححيح ، ونعيد الأصنام» وهذا الوصف لديانتهم سواء أكانوا قد قالوه حقاً أم لم يقولوه فهو يصور واقعهم ومفهومهم للدين، وهذا

المهموم كله مظاهر عبادات لا عبادات اسم الدين ولا دين، فهم يعمرّون البيت أي يعتنون بالكعبة وما حولها، وينحرون الدمايح ويسقون الحجيج، ويعبدون أصنامهم عادة رافضة لا قلب فيها ولا إيمان، كلها طواهر ومظاهر يقومون بها تأييداً لحاهم مرة ووسيلة لكسب المال تارة أخرى، وهنا يكمن العارق الشاسع بين ما كانوا يحسّون أنه دين ودين محمد، فدين محمد إيمان كامر في القلب ومصادر عنه، وعبادات هي الشكل المنظور لفصائل ومكارم وقانون أخلاقي ينجح إلى خير الناس أجمعين، فهو يسوي بينهم ويعطف غنيهم على فقيرهم ويجعل منهم أمة واحدة، متأخية متعاونة تؤمن بالله سبحانه ورسوله ﷺ، هذا هو الذي لم يفهمه هذا النفر من زعماء قريش قط، وهو سبب شقوتهم وسبب هذه الأزمة التي كانوا يعانونها.

وانظر إلى أولئك اليهود والمفروض أنهم أصحاب دين سماوي ويعرفون أن الدين الحقيقي بهذا الاسم، يبدأ قبل كل شيء بالإيمان بالله الواحد سبحانه، وهم في إجابتهم على أسئلة الفرشيين يكذبون على أنفسهم ويخدعون غيرهم ويصدق عليهم قول الله تعالى في القرآن الكريم في سورة البقرة (آية ٩ وما بعدها) ﴿يخادعون الله والذين آمنوا، وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون. في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾ والخط الذي وضعته تحت الآية العاشرة من سورة البقرة هو أوضح تفصيل لحالة يهود بني النضير وما كانوا يفعلون. ويذكر علماء أسباب النزول أن هذه هي المناسبة التي أنزل الله فيها الآية ٥١ من سورة النساء: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا نَضِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۚ هَٰؤُلَاءِ سَنَرْضَاهُمْ لِرَعَامَةِ أَبِي سَمِيانَ، وَذَلِكَ طَبِيعِي، فَصَمَوَانُ بْنُ أُمِيَّةَ بْنِ حَلَفٍ مَقْرُوحٌ، فَقَدْ قَتَلَ أَبُوهُ أُمِيَّةَ بْنُ حَلَفٍ سَيِّدَ قَوْمِهِ بَنِي حَمِحَ الْمَعْرُوفَ بِالْغَطْرِيفِ فِي مَوْقِعَةٍ بَدْرَ، وَفِي نَفْسِ الْيَوْمِ قَتَلَ أَخُوهُ عَمِيَّةَ بْنَ أُمِيَّةَ بْنِ حَلَفٍ، وَفِي مَوْقِعَةٍ أُحَدِ قَتَلَ عَمَّهُ أَبِي بْنِ حَلَفٍ وَبَعْدَ مَقْتَلِ أَبِي حَمِلَ كَانَ صَمَوَانُ بْنُ أُمِيَّةَ وَسَهِيلُ بْنُ

عمرو يمثلان الحيلة الجامدة الحاقدة من قريش، في حين كان أبو سفيان صحر ابن حرب يمثل ناحية الخث والمكر والدهاء والواقعية والبرود. وصفوا يقول في هذه المناسبة: «يا معشر قريش إنكم قد وعدتم هؤلاء القوم لهذا الوقت وفارقوكم عليه، ففوا لهم به لا يكون هذا كما كان وعدنا محمداً بدر الصغراء فلم نف بموعده، واحترأ علينا بذلك، وقد كنت كارهها لميعاد أبي سفيان يومئذ».

نجحت إذن جماعة بني النضير ومن معها في تشجيع القرشيين على الخروج، وليست لديها تفاصيل عن استعدادهم وتعبثهم كيف كانت، ولكنهم على أي حال أوعبوا وخرجوا هم وأحابيشتهم بأقصى ما يستطيعون من قوة، فكان جمعهم أربعة آلاف سيرد تفصيلهم فيما بعد.

ومن مكة وقريش انجبه نفر المؤلّبين إلى بني سليم بن منصور بن عكرمة ابن خصفة بن قيس عيلان. وهؤلاء بنو سليم كانوا من صميم البدو وأكثرهم جفوة، وإن لم يعدلوا في ذلك غطفان أو هوازن. وكانت مساكن بني سليم في مواضع متفرقة شرقي جبل السراة، ولكن كتلة كبيرة منهم كانت تنزل على طريق التجارة من مكة إلى العراق، وكان بنو سليم هؤلاء إحدى بطون البدو الضاربة فيما بين جبل السراة، ومطالع نجد، وكانوا يروحون ويحيثون في نواحي الحجاز، فيما بين مكة والمدينة شمال المدينة يرون ذلك حقاً لهم، فلما قامت أمة الإسلام عمل رسول الله ﷺ على إخضاع الداخلين منهم في أرض الحجاز لسلطان الأمة، فمزاهاهم مرتين، مرة في غزوة قرة الكدر، وهي موضع معدن أبي موضع كانت فيه بعض خامات معدن أي حديد، على ثمانية برد من المدينة، والريد فرسخان^(١) والعريش ثلاثة أميال فالمسافة إذ ذاك ٤٨ ميلاً عربياً، والميل العربي طوله نحو ١٨٠٠ متر فالمسافة على ذلك ٨٥ أو ٨٦ كيلومتراً

(١) هذا كان طول الريد من شرق الدولة الإسلامية، أما في غربها الشام ومصر وما يليها غرباً أوسع من سح والمعروف أن الريد مقياس فسه العرب من الرومان ولعظه عندهم Veredus وطوله محطتان من محطات الطريق

وكانت غزاة الكدر بعد بدر بقليل في المحرم ٣ هـ / يوليو ٦٢٤ م . وقد هرب
 سليمان أمام المسلمين تاركين جانباً كبيراً من نعمهم . فعم المسلمون ٥٠٠
 بعير، فالت هذه الصرة بني سليم ومن كان معهم من عطفان، ثم قصد
 المسلمون مرلاً آخر من منازلهم في حوران وهو موضع ساحية الفرع على
 الطريق الحاسي من مكة إلى المدينة، وهذه المرة أسرعوا بالهرب فلم يؤخذ منهم
 شيء، ولكن بني سليم أهلكوا آل الحجاز وما بين مكة والمدينة بصفة خاصة، لم
 يعد كلاً مباحاً لهم يلجونه كيف شاءوا، وهذا شيء جديد بالنسبة لأولئك
 البدو، فحفدوا على المدينة، وما كادت جماعة المؤيدين تؤكد لهم أن قريشاً
 خارجة لقتال محمد رسول الله حتى انضم إلى ذلك الحلف غير المقدس .

وانضم إليهم عيينة بن حصن وقومه من فزارة وهي بطن من ذبيان بن
 بغض بن ريث بن غطفان، وكان رسول الله ﷺ يلقبه بالأحق المطاع، وكان
 عماده الحقيقي على خيبر ويهودها، فلما غزا رسول الله ﷺ خيبر واستولى عليها،
 انكسر عيينة وأصبح أحق فقط، إذ لم يعد له سلطان ولا طاعة على أحد، ومع
 ذلك فقد كان الرسول يتجافى عن أخطائه ويفتح له باب العودة إلى حلف
 المدينة، ثم استعمله أخيراً في كسر غرور أعراب آخرين أقوى منه وأعنف وهم
 بنو تميم، أصبح جماعات الأعراب الضاريين حول نجد، وكان عيينة قبل
 الحندق شديد الخوف من رسول الله ﷺ، مع أنه لم يغز غطفان إلا مرة واحدة
 في غزوة ذي أمر، ولم يكن الغزاريون هم المقصودين في هذه الغزاة بل ذهبت
 العزوة لتأديب بني ثعلبة ومحارب (ربيع الأول ٣ هـ / رمضان ٦٢٤ م) .

وكان بيان جماعة قريش ومن خرجوا بها إلى الأحزاب كما يلي :

- قريش وأحبيشها ٤٠٠٠ مقاتل، منهم ٣٠٠ فارس
- قائدهم أبو سفيان، و١٠٠٠ بعير
- سليم بن منصور ٧٠٠ مقاتل يقودهم سفيان بن
- عد شمس حليف حرب

- أسد بن ربيعة بن نزار يقودهم طلحة بن حويلد الأسدي ،

ولم تحدد المصوص عددهم

- فزارة ١٠٠٠ مقاتل يقودهم عينة بن حصص

- أشجع بن ريث بن غطفان ٤٠٠ مقاتل يقودهم من رحيلة أو رحيلة

فمجموع من خرجوا للهجوم على المدينة يقاربون العشرة آلاف إذا افترضنا أنه لا بد أن يكون قد انضم إلى هذا الجمع نفر من الأعراب وشداد البوادي ، ومهما كان الرأي في تكوينها فهذه قوة ضخمة بالنسبة لجزيرة العرب في تلك المدة . ومن هذه القوة عدد لا بأس من الفرسان ، ففريش وحدها كان معها ٣٠٠ فرس وفارس ، ولا بد أن الأعراب الآخرين كان لهم فرسان ، بل إن معظم محاربي الأعراب كانوا من الفرسان ، لأن حرهم هي الضربات السريعة ثم الفرار ، وهذا لا يتيسر إلا بخيل . أضف إلى ذلك أن بلاد أولئك الأعراب هي بلاد الخيل : بلاد الأعالي والرمال والدهأس والعشب الكافي للخييل ، فهنا أعالي نجد وهي من نوع من أعظم خيول الدنيا ، وهنا تجود الأفراس في أكثر البيئات الطبيعية مناسبة لها ، وسرى أن رسول الله ﷺ بعد الخندق وقريظة يرسل جماعة ليشتروا للمدينة خيلاً من نجد يطلقها في الأحياء ، وهنا يحدث التطور العسكري الحاسم في التاريخ الحربي للمدينة ، إذ إنها تصبح بهذه الخيل قوة ضاربة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الجزيرة ، وسيحدث فرسان أمة الإسلام مع الفتوح الإسلامية الكبرى أعظم تطور في تاريخ العسكرية في الدنيا : قوة الخيل العربية الصغيرة الحجم نسبياً البالغة القوة السريعة الجري ، الطبيعة في يد الفارس الشجاع التي تتحول مع فارسها إلى كائن حي واحد له ذكاء الإنسان وقوته وإيمانه - في حالتنا هذه - وقوة الحصان وسرعته وعصبيته والدفاعه ، «كجلمود صحر حطه السيل من عل» كما يقول امرؤ القيس في وصفه فرسه ، وامرؤ القيس كندي من أطراف نجد ، وكذلك حصانه ، ما نصل إلى عمق جديد في إدراك معاني الشعر الحاملي ونصل في نفس الوقت إلى شأو بعيد في فهم الفتوح الإسلامية الكبرى

وقوة كهذه كان لا بد لها من تنظيم وترتيب وخاصة في السلاح والأزواد والماء للناس والحيل، وكان لا بد كذلك من إنشاء قيادة أو هيئة مشتركة من أولئك الرؤساء ورجالهم حتى يمكن تحويل تلك الوحدات العسكرية إلى جيش واحد له قيادة وخطة وتزويد منظم وكاف بالطعام والماء، وكان لا بد من ترتيب أمر الحيايم والخدم والآنية والأسلحة الاحتياطية وما إلى ذلك مما لا تستعني عنها جيوش هذا الحجم ولم يكرر أحد من القرشيين وحلفائهم في شيء من ذلك فيما نعلم، فكانت النتيجة أن هذه القوة كلها لم تكون جيشاً واحداً أو قوة ضاربة واحدة كما تقول. بل ظلت جماعات من المغيرين تتحرك وتعمل بلا خطة ولا نظام. وقاست من قلة الطعام ومن صعوبة الحصول على الماء، وقضت على ما بقي من عزم رجالها في النهاية أعاصير هبت ودامت أياماً، والأعاصير في ناحية مثل العقيق والغابة وزغاية شمال غربي المدينة - حيث نزلت تلك القوات - وكانت أقل عنفاً وخطورة من الرياح في الرمال السافية، ومع ذلك فإن الرياح عندما هبت واستمرت أياماً، أسرع حلفاء قریش بالرحيل ثم رحل القرشيون أنفسهم منهزمين فكان انهزامهم هذا إعلاناً بمعجز قریش وتفوق أمة المدينة عليها في كل ناحية. وفي معركة الخندق محمد مصير قریش ومصير أمة الإسلام أيضاً.

أما في أمة المدينة فقد كان الأمر على خلاف ذلك من كل ناحية، فهنا جماعة من المؤمنين أصحاب إيمان واحد وفكر واحد، وهم لا يقاتلون دفاعاً عن حشاشات أنفسهم أو عن حرمهم فحسب بل يقاتلون في سبيل عقيدة، وأقصى آماني الواحد منهم أن يستشهد في سبيل عقيدته وأمته.

وهي رياسة حكيمة بعيدة النظر لا يخفيها شيء. والقائد هنا هو رسول الله ﷺ، وهو ليس قائد جيش بل قائد إيمان وهو هاد إذا استعملنا اللفظ القرآني في وصفه، ثم إنه لا ينغرد برأيه بل هو يشاور أصحابه، ويجب أن يشاورهم ويأخذ بالرأي السليم إذا جاء من أحدهم. وفكرة الخندق مالدات التي

يسرت على المسلمين دفع الكمار، حطرت ببال رسول الله ولكن الذي وضعها موضع الشورى مسلم كان حديث العهد بالإسلام إذ ذلك، وهو سلمان الفارسي. ومن دلائل تقدير الرسول ﷺ لأصحابه وأرائهم أنه قبل الفكرة وقام على تنفيذها بأسلوبه الرفيع في التوجيه والتنظيم فعرف كيف يجعل أصحابه ينفذون فكرة الخندق على نحو أعجز المهاجرين أمامه وأدى في النهاية إلى فشلهم وارتدادهم منهزمين.

والخطوة الأولى في تنفيذ فكرة الخندق كذلك تدارسها مع أصحابه، فعرفوا في أناة وحزم، كيف يحفرون الخندق ويمجدون اتساعه وعمقه على نحو يحول بين الحيل وبين القفز فوقه، والخطوة الثانية كانت تحديد مكان الخندق وامتداده، فإن الخندق لم يكن يدور حول سهل المدينة كله. فهذا لم يكن ميسوراً، وإنما جمع الرسول ﷺ بين حفر الخندق في الجبهات المفتوحة المكشوفة من المدينة وتحصين البيوت وتشبكها بعضها ببعض في بقية المواضع، ثم جعل لنفسه قيادة مركزية في لحف جبل سلع أو ربما إلى شماله، وأنشأ مركز رقابة فوق الجبل جعل فيه أبا بكر الصديق، ثم نظم أصحابه فرقاً مقاتلة من الفرسان والرحالة، بعضها ثابت وبعضها متنقل، وتخبر من رجاله نفرأ من أهل البقعة والسرعة والبسالة والمعرفة بشئون الحرب وجعلهم على رأس فرق سريعة التنقل feying units أو فرق تقوم بالمهام الشاقة task forces، وقد أحسن إعداد هذه الفرق وأدارها بحساب وحزم وتدريب محكم وجعل عليها شاباً من خيرة المسلمين من أمثال عباد بن بشر ومحمد بن مسلمة وأسيد بن حضير وجابر بن عبد الله وأشباهم من شبان المسلمين وأنجادهم.

ولكن أكثر ما دفع الناس إلى العمل والاستئصال فيه والحرص على سلامة الخندق هو عمل رسول الله ﷺ مع الناس في كل مرحلة من مراحل العمل، ومبادرته إلى القتال والحراسة ونبيه الناس وتوجيههم في كل حين، حتى كان يستغرق في اليوم إدا من حمله الأرض أو اتكأ على حجر. قال ابن أبي

سيرة عن بعض رواته عن راوا النبي ﷺ أثناء هذه المعركة الطويلة التي استمرت عشرة أيام وربما أكثر: وكان رسول الله ﷺ يدع الغلمان والصغار يعملون مع المسلمين قال: ولما لحَم الأمر، أمر من لم يبلغ أن يرجع إلى أهله إلى الأطم مع الذراري، وكان المسلمون يومئذ ثلاثة آلاف. فقد كت أرى رسول الله ﷺ وأنه ليضرب مرة بالوعول ومرة يغرف بالمسحاة التراب ومرة يحمل التراب في المِكتل، وقد رأيته يوماً بُلغ منه، فجلس رسول الله ﷺ ثم اتكا على حجر على شقه الأيسر، فذهب به النوم. فرأيت أبا بكر وعمر واقفين على رأسه يُنحيان الناس أن يمروا به فينبهوه وأنا قربت منه ففزع ووثب فقال: ألا أفرعتموني! فأخذ الكرزن يضرب به وإنه ليقول... (١).

بل كان يستريح في خيمته لحظة من الوقت ثم يسمع هيمة فينبض ويضع درعه وسلاحه ويمضي للقتال، فإذا زال الخطر عاد إلى راحته حتى يسمع صوتاً فينبض مرة أخرى، وفي مرة يعود إلى قبته راضى النفس وهو يقول: «رجعوا مغلولين، قد كثرت فيهم الجراحة، ثم صلى بأصحابه الصبح وجلس. فكانت أم سلمة تقول قد شهدت مع مشاهد فيها قتال وخوف - المريسيع وخيبر، وكنا بالحديبية، وفي الفتح وحنين - وذلك أن - لم يكن من ذلك شيء أتعب لرسول الله ﷺ ولا أخوف عندنا من الخندق. وذلك أن المسلمين كانوا في مثل الخرجة، وأن قريظة لا نأمنها على الذراري، والمدينة تُحرس حتى الصباح، يسمع تكبير المسلمين فيها حتى يصبحوا خوفاً، حتى ردهم الله بغيظهم لم ينالوا [وكفى الله المؤمنين القتال]» (٢).

وكانت لدى المسلمين خيل ربما بلغت العشرة، ولكن طعامها كان قليلاً، ثم إن القتال دون الحشد يحتاج إلى بسل ورماة، وكان النسل قليلاً فاستعان المسلمون بالحجارة - جمعوها وسوموها حتى صارت تلالاً، وصاروا يرمون بها في توقيق كبير.

(١) الواقدي، معاري ٤٥٣/٢

(٢) الواقدي، معاري ٤٦٧/٢ - ٤٦٨

هذا عن جبهة المسلمين، تلك القوة التي كان على المكين وحلفائهم أن يتغلبوا عليها، فماذا فعلوا؟

نلاحظ نأديء ذي بدء أن جماعة ممن كانوا قد اتفقوا مع قريش على المسير لم يواصلوا السعي إلى النهاية، وعادوا إلى ديارهم بعد أن قال لهم رئيسهم قولاً عظيم المعنى بالنسبة لنا في هذا المقام «وحرّح الحارث بن عوف يقود قومه بي مرة (بن الحارث بن عوف)، وهم أربع مائة. لما أجمعت عظماء السير أبي الحارث ابن عوف المسير وقال لقومه: تفرقوا في بلادكم ولا تسيروا إلى محمد، فإنني أرى أن محمداً أمره ظاهر لو تأواه من بين المشرق والمغرب لكانت له العاقبة، فتفرقوا في بلادهم ولم يحضر واحد منهم، وهكذا روى الزهري وروى بنو مرة»^(١) وقد رجح الرواة أن بني مرة لم يرتدوا وإنما اشتركوا مع الأحزاب.

بَنُو قَرِيظَةَ يَنْقُضُونَ الْعَهْدَ:

ولا ندرى على وجه التحديد متى كان نقض بني قريظة للعهد مع رسول الله ﷺ، والغالب أن ذلك كان بعد تمام الخندق، ومعرفة الأحزاب أن الخندق يحرم دور بني قريظة، ولو أحرزها ووقف حرم المسلمين دون الخندق من ناحيتهم، وهي الركن الجنوبي الشرقي من سهل المدينة، فيما بين وادي مهزور لما فكر اليهود في الانقلاب على المسلمين كانت بقية هذا الركن قد صارت لأمة المدينة بعد إجلاء بني قينقاع وبني النضير.

ويفهم من النصوص أن انقلاب بني قريظة جاء مفاجأة للمسلمين وأن رسول الله ﷺ عندما بلغه الأمر أرسل السعديين، سعد بن عباد وسعد بن معاذ وأسيد بن الحضير إلى بني النضير لإقاعهم بالبقاء على العهد، فأبى بنو قريظة من ذلك، وكان حينئذٍ من أخطب رئيس بني النضير وأكبر المؤسسين على المسلمين، قد استطاع أن يقنع كعب بن أسد القرطبي رئيس بني قريظة بقطع

(١) الوائلي، معاري ٤٤٣/٢

العهد مع المسلمين . فأما سعد بن عباد فكان من بني سلحارث من الحزرج ، وأما سعد بن معاذ وأسيد بن الحصير فمن بني عبد الأشهل من الأوس ، فلم يوفق هذا الوفد في إقناع كعب بن أسد القرظي بتغيير موقفه ، وهذا عريب لأن ذلك الرجل كان شديد التمسك بالعقد مع المسلمين أول الأمر وكان يشعر بالرهبة والخوف من المسلمين ، بعد ما رأى من استعدادهم واقسامهم على حفر الخندق والاحتياط في الحراسة والاستعداد للحرب ، فقد قال بعد أن بذل حبي بن أخطب أقصى ما استطاع في اقناعه ، وأكد له أن عشرة آلاف من قريش وكنانة (بني أسد بن خزيمه بن مدركة) وغطفان قدموا لمهاجمة المدينة ولكن كعب بن أسد القرظي كان خائفاً ، ولهذا فقد كان رده الأول عندما دعاه حبي ابن أخطب : ويحك ، جئتني والله بذل الدهر وبسحاب يرعد ويرق وليس فيه شيء ، وأنا في بحر لجي ، لا أقدر على أن أريم داري ، ومالي معي والصبيان والنساء فارجع عني ولكن يبدو أن زعماء اليهود الآخرين فيما عدا الزبير بن باطا كانوا مباينين إلى الانضمام إلى الأحزاب وفعلاً صارحوا حياً بهذا ، والغريب أن هذا الرجل بعد أن قرر نقض العهد كشف وجهه عن عداوة شديدة فعدها بالكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ بينهم فشقه حياً ، وقد توقع الزبير بن باطا الشر وأندر بهلاك اليهود ولكنه بقي مع قومه .

تلك كانت فرصة كبيرة لقريش وحلفائها لو أنها وقفت بالفعل كما تقول المصوح إلى جانب قريظة ، فمن الواضح أن بني قريظة نقضوا العهد - وما كان رسول الله لينفضه دون داع وهو في حاجة إلى سكون اليهود وفائهم بعهدهم .

وما كان الرسول صلوات الله عليه وسلامه ليبقض عهداً بينه وبين قوم ما داموا يقيمون عليه . ثم إن وجود الأحرار حول المدينة لم يكن يؤدي إلى أي تغيير في العلاقات بين أمة المدينة ويهود بني قريظة ، خاصة وأن ساحيتهم لم تكن محمية بحندق ، وقد بلغ الرسول أن حيا بعد أن نقض العهد أرسل إلى قريش

يطلب إليهم أن يبعثوا بألف رجل يعبرون على المدينة، وكذلك إلى عطفان، ورسم أن تكون العارة ليلاً، فعاد رسول الله ﷺ الخمر بذلك فعظم البلاء فكان رسول الله ﷺ يبعث سبعة من أسلم من قريش الأشهب في مائتي رجل، ويريد من حارثة في ثلاثمائة بحرسون المدينة ويظهرون التكبير ومعهم خيل المسلمين فإذا أصبحوا أموا، فكان أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه يقول: لقد حمى على الداراي بالمدينة من بني قريظة أشد من خوفنا من قريش وغطمان. ولقد كنت أوفى على سلم فانظر على بيوت المدينة فإذا رأيتم هادين حدث الله عز وجل، فكان مما رد الله به قريظة عما أرادوا أن المدينة كانت تحرس.

ولكن يبدو أن حُنيماً لم يبعث إلى قريش أو إلى غطفان بشيء، وإنما هو قطع الحلف ويأدي بالعداوة ليجد نفسه في أشد الخوف من المسلمين. وقد حاول رئيس من رؤسائهم وهو نَبَّاش بن قيس أن ينوش أطراف المسلمين، فخرج بالليل في جماعة من قومه، فاصطدموا بقوة من قوات الحراسة تحت قيادة سلمة بن أسلم بن حُرَيْش، فردهم على أعقابهم فأنجحروا في حصنهم وجعل المسلمون يطوفون حول الحصن ورمى اليهود وخافوا البيات، «وهدموا قُرْنِي بئر لهم وهُزُّوها (هدموها) عليهم، فلم يقدروا أن يطلعوا من حصنهم وخافوا خوفاً شديداً»^(١).

الأحزاب أمام الحَنَدَق :

وضاعت على قريش هذه الفرصة كما ضاع غيرها، لأن القرشيين لم يجتمعوا مع حلفائهم ورسوموا خطة للعمل، بل إنهم لم يحسنوا توقيت قدومهم، فقد كان الوقت ربيعاً (أبريل ٦٢٧) وكانت رروع المديين وكلها شعير وتبين على وشك النضج، فسارعوا وحصدوها وأدخلوها مدينتهم دون خسارة، وتركوا الأرض خارج المدينة بلقعا ليس فيه عناء كبير، ثم إنهم إذا

(١) الواقدي، معاري ٤٦٢/٢

جاءوا هم وحلفاؤهم عسكروا كلهم عند مدخل المدينة الشمالي الغربي من طريق التجارة، وهو المدخل التقليدي، وصربوا معسكراتهم بعضها إلى جوار بعض من العابة إلى العميق، معولين على أن تكون حرمهم حرب عارات، وعندما وجدوا الخندق بهتوا ولم يعرفوا ماذا يصنعون، ولم يكونوا إلى ذلك الحين يعرفون كيف يرسمون خطة قتال : إنما هي المارزات والغارات والكر والعر. ومن الواضح أن الخندق أفسد عليهم كل شيء فوقفوا بعيداً عنه يحاولون اقتحامه في محاولات فردية أو في جماعات صغيرة، وتلاشت القيادة وضاع الحزم وأصبحت الحملة الضخمة مجرد مظاهرة لا طائل وراءها، وفيما يلي نص أورده الواقدي يصور لنا حالة قريش وأحلافها أثناء هذه الحملة، وهو وصف يدل على أن القرشيين إلى ذلك الحين لم يكونوا يعرفون من شئون الحرب فوق ما يعرف غيرهم من بدو الصحراء، وتلك في الحقيقة هي صورة قريش وقوتها العسكرية، وقد كانت كافية ومعقولة لو أن قريشاً خرجت لتلقى جماعة من البدو أمثالها، كما كانت الحالة في أيام العرب السالفة، ولو لم تكن القوة التي ذهبت قريش وأحلافها للقضاء عليها قوة المدينة بعقليتها الجديدة ونظريتها الجادة إلى الحياة وقيادتها الحكيمة السليمة وإيمانها القوي ونظامها الذي لم تعرفه الجزيرة قبلاً، لو لم يكن هذا كله فخرجت قريش وأحلافها بالنصر الذي أرادوا، وقوة قوامها ١٠٠٠٠ مقاتل منهم نيف وألف فرس ومعهم نحو الألفي بعير لم تكن بالقوة الهينة بمقاييس العصر الجاهلي ولكنها كانت أهون شيء عندما واجهت المدينة، وهذه وحدها ملاحظة تدل على أن الصراع لم يكن بين الأحزاب وخصوصاً لهم بل كان في حقيقته صراعاً بين عصر ولى وفات بكل نظمته وقيمه ومنابعه وعقليته وعصر حديد يختلف عنه من كل ناحية. وهذا الذي تبينه القرشيون وسيعبر عنه أبو سفيان في خطابه الأخير يوجهه إلى رسول الله ﷺ قبل الإسحاب بدبول الهزيمة، وخطابه أبي سفيان هذا أرهاص بما سيصيبه هرقل من هرقل عندما يواجه العرب بقوات الروم التي حطم بها قوى الساسانيين مرة بعد أخرى، ولكنه وقف عاجزاً أمام المسلمين فقد انسحب هزيماً حطيماً من

الشام وهو يقول: وداعاً يا بلاد الشام، وداعاً لا لقاء بعده

أما النص الذي أشرنا إليه فهو كما يلي نقلاً عن الواقدي وسقسه إلى فقرات بحسب موضوع كل فقرة منه:

١ - وقالوا وكان القوم جميعاً وافوا الخندق من قريش وسليم وعطفان وأسد^(١) عشرة آلاف، فهي عساكر ثلاثة، ويحتاج الأمر إلى أبي سفيان.

٢ - فنزلت قريش برومة ووادي العقيق في أحابشها ومن صوى إليها من العرب.

وأقبلت غطفان في قادتها حتى نزلوا بالزغابة إلى جانب أحد^(٢).

٣ - وجعلت قريش تسرح ركابها في وادي العقيق في عضاها، وليس هناك شيء للخيل إلا ما حلوه معهم من علف، وكان علفهم الذرة.

٤ - وسرحت غطفان إبلها إلى الغابة في أثلها وطرفائها في عضاء الجرف.

■ - وقدموا في زمان ليس في العرض^(٣) زرع، فقد حصد الناس قبل ذلك بشهر. فادخلوا حصادهم وأتبانهم. وكانت غطفان ترسل خيلها في أثر الحصاد. وكان خيل غطفان ثلاثمائة - بالعرض، فيمسك^(٤) ذلك من خيلهم، وكادت إبلهم تمهلك من الهزال. وكانت المدينة ليالي قدموا جديبة^(٥).

(١) أسقط الواقدي هنا بي مرة الذين ذكرناهم مع أنه سبق ورجع أنهم حفروا الخندق مع الأعراب وإن كان رجال بني مرة يزعمون أن قائدهم الحارث بن عوف المري رجع بقومه إيماناً منه بأن العرب لن تغلب محمداً ﷺ على ما ذكرناه ويذكر الواقدي تأييداً لحضور بني مرة أن حسان بن ثابت هجده يشعر لم أصاف مزيداً حضورهم. ويمكن هذا أئمت عبداً أنه شهد الخندق في قومه، ولكنه كان أمش نقيّة من عينة، (معاري ٤٤٤/٢).

(٢) رومة هي بئر رومة وإلى شمالها رجمة وإلى جنوبها العانة ووادي العقيق وكل هذه مواضع شمال عربي سهل المدسة فيما يلي المدخل من الطريق التجاري إلى السهل

(٣) الحرف هي الأرض المستندة من مخرج سهل المدينة إلى أحد، وإلى ذلك العرض وهي المساحة المرزوعة حتى قرب جبل أحد، وسطح أحد يسمى الوطاء

(٤) أي يصد من رمق الخيل ويمسكها من الموت

(٥) الواقدي معاري ٤٤٤/٢

وغالب الأمر أن قريشاً وأحلافها قدروا على سنس الجاهليين في حروبهم أنها غارة يوم أو يومين على الأكثر، فلما وصلوا فوجئوا بالخذق، ووجدوا أنفسهم أمام مشكلة عسكرية لا عهد لهم بها، ولو أن قيادتهم كانت حكيمة لكانت لها من أول الأمر عيونها التي تلعبها بأحوال المدينة وما يجري فيها، وكان لديهم متسع من الوقت لذلك، فإن المسافة من مكة إلى المدينة لم تكن لتقطع في تلك الأيام - بالنسبة لجيش كبير كهذا - في أقل من عشرة أيام. فكان في إمكانهم أن يستعملوا عن أمر الخندق في أي مرحلة من مراحل الطريق. وحتى لو أنهم وصلوا ووجدوا الخندق ودرسوا الموقف، لم يكن بهم بأس بالعودة والتريث للتدبير والاحتشاد للوضع الجديد، ولكن كبرياءهم وغرورهم وجهلهم كل هذه أضلعتهم، فوقفوا أمام الخندق حائرين ثم حاولوا اقتحامه فرادى مرة بعد مرة ومضت الأيام ونفذت الأقوات على غير طائل.

والمسألة لم تكن في الحقيقة مسألة الخندق، فإن عرض الخندق كان كما تقول النصوص بسيطة، والبسطة طول قامه رجل، ومهما فك فيه فهو متران، وقد كانت فيه في أول الأمر أجزاء أقل من ذلك عرضاً، فعاد عليها المسلمون يوسعونها، وإنما المسألة هنا كانت مسألة القيادة والبقظة والهدية وروح القتال والفداء. فبينما نظم المسلمون أنفسهم تنظيمًا محكمًا: فهناك قوة رئيسية عند قبة الرسول في لخم جبل سلع من شماله - وهي مركز قيادة المسلمين - يقودها رسول الله ﷺ يساعده عباد بن بشر في الغالب وسعد بن أبي وقاص أحياناً وهناك فرق يقودها رجال ذوو بسالة وصدق من أمثال محمد بن مسلمة وزيد بن ثابت وأسيد بن حضير وسعد بن معاذ، وهناك فرقة انجساد سريعة دائمة مستعدة للتدخل في أي وقت وأي موضع، يقودها سلمة بن أسلم بن حريش وهناك شباب مستعد للعداء ببعثه الرسول ﷺ في عاجل أمره، مثل حوات بن جبير الذي كلفه الرسول أن يستطلع أمر بني قريظة ليلاً بعد أن وافقوا، فلم يكتفِ بما أمره به الرسول، بل يقتل الخارس الذي لقيه على حال من الفحشاء والغرة حتى يصبح الرجل وقد وجيء جبه في الليل ويصبح. السع ! بحسب

أن وحشاً نهش كده . ويظفر المشركون مرة بموضع متضايق من الخندق تطمره خيلهم ويحاولون ذلك فيرميهم أسيد بن حصير وأصحابه بالسل والحجارة حتى يجهضوهم ، ثم يستدعي الرسول سلمان الفارسي ويوسعون ذلك الموضع حتى يستوي مع بقية الخندق ولا تعود حيل المشركين تستطيع أن تطمره أي تعبره قفراً .

وفي إحدى مناسبات المراماة يصاب سعد بن معاذ بسهم في أكحله، رماه به رام نابه من رماة قريش هو حبان بن العرقه فلما يبالي سعد بن معاذ، ويمضي في القتال، وتلك هي الإصابة التي أودت بحياته بعد القضاء على بني النضير .

وتظفر حيل للمشركين فوق الخندق فلا يراخ المسلمون قطاً، ويبرز علي ابن أبي طالب فيقتل عمرو بن عبد ودّ فارس قريش، ويغر الباقون فرعين حتى يسقط نوفل بن عبد الله في الخندق فيقتله المسلمون رمياً بالحجارة . هذا وكان في العابرين فرسان مثل عكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب فلا يثبتون للمسلمين ساعة حتى يولوا الأدبار غير مصدقين بالنجاة .

وهناك رواية يرونها الواقدي ويردها كاتبه محمد بن سعد، يفهم منها أن قادة المشركين كانوا يتناوبون قتال المسلمين . كل واحد يوماً ورواية ابن سعد هنا : وكان المشركون يتناوبون بينهم، فيغدو أبو سفيان بن حرب في أصحابه يوماً ويغدو خالد بن الوليد يوماً ويغدو عمرو بن العاص يوماً، ويغدو هيرة ابن أبي وهب يوماً ويغدو عكرمة بن أبي جهل يوماً، ويغدو ضرار بن الخطاب الفهري يوماً، فلا يزالون يميلون خيلهم ويتفرقون مرة ويجتمعون أخرى ويتناوبون أصحاب رسول الله ﷺ، ويقدمون رمايتهم فيرمونهم . وبقية هذه الرواية عند الواقدي . «حتى عظم البلاء وخاف الناس خوفاً شديداً، ويقدمون رمايتهم وكان معهم رماة: حبان بن العرقه وأبو أسامة الحشمي»^(١) : ولم يحدث أن أجمعوا أمرهم وهجموا حمة واحدة فطمروا الخندق وقاتلوا المسلمين

(١) الواقدي، معاري ٢/٤٦٨

سليف. لا في المرة التي ذكرناها والتي قتل فيها عمرو بن عبد ود، قتله علي بن أبي طالب. وكان عمرو فارساً لا يشق له غبار كان يستصغر علياً يطلب لقاء أبي بكر أو عمر ويسميها شبحي قريش، وهي تسمية عربية سمع بها أول مرة، فيأى علياً إلا أن بلغه ويقول له الفارس المشرك إنه يكره أن يقتله فيكون رد علي: ولكني أنا أحب أن أفتلك! ويقتله.

وفي هذه الحالات كلها ترى رسول الله ﷺ دائماً في مواجهة العدو على فرسه وعليه الدرع والمغفر آية في السالة وثبات الجنان، فلا يمرؤ واحد من الكفار أن يصوب إليه سهماً لعظيم هيئته، ويراه أصحابه على هذه الهية التي تروع النفس فيزدادون استبسلاً.

ويريد رسول الله ﷺ أن يقصر فترة الحصار، فهو يرى أن قريشاً قد اتخذت وما هي بصانعة شيئاً، ولكنها تطاول تحاشياً للارتداد دون نتيجة، ولكن غطفان بدوهم لا يكثرثون للبقاء تحب الخندق في خيامهم، فهم هكذا في بلادهم، ويعرف الرسول أن رجلاً مثل عيينة بن حصن يقاتل في سبيل المال، إذ لا إيمان عنده ولا مأرب في نفسه غير المغنم، ويريد الرسول أن يشتري راحة أصحابه بشيء من عرض الدنيا، فقد تعبوا من طول القتال والسهرة والحراسة والجوع والبرد، ويذهب الواقدي إلى أن الرسول بعث من يأتيه بعينة بن حصن، فيأتي ذلك الاعرابي المراوغ (دون أن يبلغ حلفاءه وربما كان معه الحارث بن عوف شيخ بني مرة)، فعرض عليها ثلث ثمر المدينة على أن ينصرفوا عن الحصار تاركين قريشاً ومن معها. ولكننا عندما نعلم النظر في الخبر نستبين من سياقه أن محمداً ﷺ لم يرسل إلى هذين الاعرابيين، ولكن كانا هما اللذين سعيا إليه يعرضان عليه الإصراف عن الحصار إذا أعطاهما الرسول ثلث ثمر المدينة (لهذه السعة) والحر كما يرويه الواقدي غير مقول لأن عادة رسول الله ﷺ لم يجر مساومة عدو على الإصراف مقابل مال أو طعام، ثم إنه لم يكن ليقوم شيء من ذلك إلا بعد مشاورة أصحابه، وخاصة الأنصار، لأنهم

أصحاب رروع المدينة وحلها وغرها، والذين يوردون مثل هذا الخبر يقولون في رواياتهم عن أن رسول الله ﷺ كان رئيساً مطلقاً للمدينة يتصرف في شئونها وأموالها كما يرى، وذلك غير صحيح لأنه لم يتصرف في أي أمر من أمور الجماعة إلا في حدود أنه يبيها ورسوها وهادبها، ولا يتصرف في أمر من أمورها إلا بحسب ما يرتضيه أهلها بعد مشاورة وتراض، وبقيّة الخبر - حتى برواية الواقدي - تؤيد ما نقول.

والذي نراه ويتفق مع سير الحوادث هو أن يكون عيينة بن حصن هو الذي سمى للقاء رسول الله ﷺ ليفوز منه بشيء بعد أن رأى أن حلفاءه من الأعراب لم يصلوا ولن يصلوا إلى شيء، وأنهم لا بد منصرفون عن قريب، وكان عيينة عمره كله بدوياً خفيفاً سريع التصرف لا يكاد يفكر إلا في منم مادي سريع يصل إليه، وما كان رسول الله ﷺ ليتدعي هذا الرجل ويعرض عليه شيئاً خاصاً، وقد رأينا أن غطفان لم يكن لها إلى الآن دور يذكر في الحصار أو القتال وقد أدت حكمة رسول الله ﷺ وبماك أهل المدينة إلى الكشف عن حقيقة غطفان ووزنها في مثل الصراع الدائر، ربما كانت غطفان تستطيع أن تفعل شيئاً في ظروف الصراع القبلي في شبه الجزيرة العربية، ولكن الموقف الراهن كان يتخطى كل شيء عرفته غطفان أو عيينة بن حصن والحارث بن عوف. وسرى بعد قليل أن غطفان أقبلت ثم انصرفت وكأنها لا أقبلت ولا انصرفت.

نقول إذن - إذا كان ولا بد أن نضع هذا الخبر موضع الاعتبار - ذلك الشيخ القبلي عندما أحس أن الهجوم على المدينة لم يؤد إلى شيء، سارع إلى المدينة أملاً في أن يحصل من أهلها على شيء في مقابل انصرافه، وقد رأى رسول الله ﷺ أن يكون كلامه أمام أنصاره جميعاً وكان ذلك. ورفض أهل المدينة بلسان أسيد بن حصير وعناد بن بشر وسعد بن معاذ وسعد بن عباد، وعلى أيديهم لقي عيينة ما يكره وعاد أذراحه بأقل من خمي حين، لأن حيناً لم يجر عليه أكثر من العودة بلا حدود أما عيينة فقد عرف قدر نفسه وعاد إلى قومه يتمطى بجر أذيال المهامة والشعور بالصغار.

وفي بقية الخبر ملاحظات ولحاح تريدنا نصراً بما نحن مصدده من التعريف بموقف قريش من الإسلام، ووضع قريش بين الأعراب بعد خمس سنوات من صراعها مع أمة المدينة قال الحارث بن عوف يحاطب صاحبه عيبة: «ما حصرت إلا كرهاً لقوم علبوني وما مقامنا بشيء»، مع أن قريشاً إن علمت بما عرضنا^(١) على محمد عرفت أننا قد حذلناها ولم نصرها! قال عيبة: «هو والله ذلك!»، وفي سياق الحديث يقول عيبة: «إنا والله ما حنسنا نصر قريشاً، ولو استنصرنا قريشاً ما نصرتنا، ولا خرجت معنا من حرَمها، لكن كنت أطمح أن نأخذ ثمر المدينة فيكون لنا به ذكر، مع ما لنا فيه من منفعة الغنيمة، مع أننا نصر حلفاءنا من اليهود فهم جلبونا إلى ما هنا» قال الحارث: «قد والله ابت الأوس والخزرج إلا السيف. والله لتقاتلُنَّ عن هذا السعف ما بقي منها رجل مقيم. وقد أجذب الجناب وهلك الخف والكراع»، قال عيبة: «لا شيء»، فلما أتيا منزلها جاءها غطفان فقالوا: «ما وراءكم؟ قالوا: لم يتم الأمر. رأينا قوماً على بصيرة وبدل أنفسهم دون أصحابهم، وقد هلكنا وهلك قريش، وقريش تنصرف ولا تكلم محمداً، وإنما يقع خُرُ محمد بيني قريظة. إذا ولينا جثم عليهم فحصرهم جمعهم حتى يعطوا بأيديهم، قال الحارث: بعداً وسحقاً، محمد أحب إلينا من اليهود»^(٢).

وهذه المقدمات تكشف لنا عن كثير من حقائق الموقف خارج المدينة بما لا يحتاج منا إلى تعليق أو زيادة، ولا معنى هنا لأن نشير إلى الخبر الطويل الذي توردته المراجع عن نعيم بن مسعود الأشجعي وما كان له من دور قصصي في حرب الأحزاب عن المدينة، فما كانت المدينة بحاجة إلى توسط هذا الرجل، فقد كانت قريش استأنات ألا فائدة في استمرار الحصار واستقر عزمها على العودة أدراجها، وكانت غطفان قد سقنتها إلى ذلك كما رأينا

(١) هذا يؤيد ما فُدها من أن عيبة هو الذي قصد رسول الله ﷺ بعرض عليه أن يصرف مقابل

شيء من عمر المدينة

(٢) الواقدي، معري ٤٧٩/٢ - ٤٨٠

ولكنا نخرج من الخبر بأن قريشاً وحلفاءها حسروا المعركة حتى قبل أن
تهب الرياح . ولقد اشتد بهم البرد مع أن الوقت كان في شهر أربيل ، ولكن
ذلك كثير الحدوث في الليل ، ثم هبت رياح جعلت تقتلع خيامهم وتطلى ،
نيرانهم حتى صعب عليهم إيقاد النيران ، وتلفتت قريش ذات صباح فإذا
غطفان وبوسليم قد انصرفوا ، ويبدو أن الأعراب تفاهموا على ذلك دون علم
قريش وكان الرسول ﷺ قد توقع رحيل الأعراب بعد أن رفض أن يجيب عبيدة
ابن حصن إلى ما سأل ، فأرسل رجلاً من أصحابه هو حذيفة بن اليمان
ليستطلع أمرهم ، وانصرف هو إلى الصلاة ودخل حذيفة معسكر الأحزاب :
« وإن الريح تفعل بهم ما تفعل ، لا تقر لهم قراراً ولا بناءً ثم رأى حذيفة كيف
أقلعت الأعراب من السحر « ثم مضوا فلاحقوا الأنفال والعكر مع ارتفاع
النهار بمثل ، فغدوا إلى السبالة » وكانت غطفان لما ارتحلت « وقف مسعود بن
رخيلة في خييل من أصحابه ، ووقف الحارث بن عوف في خييل من أصحابه
ووقف فرسان من بني سليم في أصحابهم ، ثم تحملوا جميعاً في طريق واحدة
وكرهوا أن ينفرقوا حتى أتوا على المراض ، ثم تفرقت كل قبيلة إلى محالها
- رملل والسبالة قرب المدينة في الطريق منها إلى مكة ، أما المراض فليس على
الطريق وهي تقع على ستة وثلاثين ميلاً بناحية الطرف ، وهي على الطريق إلى
نجد - ، فكان أولئك الأعراب ساروا معاً حتى أصبحوا بمجدة من المدينة ودخلوا
في رماهم فنفرقوا ، وقد فعلوا ذلك خوفاً من قريش في الغالب ، ولعلهم خافوا
أن يكون بينهم وبين القرشيين مشادة وتلاح ، وربما ما هو أسوأ ما انصرفوا
متسللين .

وعلى أثر ذلك قرر أبو سفيان الرحيل ، فدعا أصحابه بالرحيل ، وقال لهم
إيهم لم يجدوا عوناً من قريظة ، ووقع بينهم شر ، « وقد لقينا من الريح ما نرون ،
والله ما يشت لنا ماء ولا نطمش لنا قدر ، فارتحلوا فإني مرتحل » ولم يعجب ذلك
عكرمة بن أبي جهل فقال له : « إلك رأس القوم وقائدهم ، تقشع وتترك
الناس ؟ فاستحى أبو سفيان ، فأناح جملة وبرد عنه وأخذ زمامه وهو يقوده

وقال ارحلوا! قال. فحمل الناس يرتحلون وهو قائم حتى خف العسكر، ثم قال لعمر بن العاص: يا أبا عبد الله لا بد لي ولك أن تقيم في جريدة من حيل يراء محمد وأصحابه، فإننا لا نأمن أن نُطْلَبَ حتى ينفذ العسكر فقال عمرو: أنا أقيم، وقال لخالد بن الوليد. ما ترى يا أبا سليمان، فقال: أنا أيضاً أقيم، فأقام عمرو وخالد في مائتي فارس، وسار العسكر إلا هذه الجريدة على متون الخيل^(١) وكانت غطعان وبنو سليم وبنو مرة قد رحلوا.

وقبل أن ينصرف أبو سفيان مع جماعة الفرسان التي بقيت معه لتحمي ظهور المشركين، رأى أن يكتب إلى رسول الله ﷺ كتاباً. وقد أورد لنا الواقدي نص الكتاب، ثم أورد بعد ذلك زيادة في كتاب أبي سفيان إلى رسول الله نسبها إلى رجل يسمى إبراهيم بن جعفر، وهذا أسندنا إلى أبيه، ولنا نجزم بصحة النصين، ولكنها أياً كان موقعهما من الصحة بصوران حالة الخيرة والغيظ والشعور بالهزيمة الذي استولى على رئيس قريش عندما تبين أن الفرصة التي طالما عوّل عليها قد أفلتت من بين يديه وأنه يعود إلى مكة بغير شيء. أما ما كتب به إليه رسول الله ﷺ فلا نرى أن يصح وهو لا يشبه ما يصدر عنه في مثل هذه الظروف، فما كان رسول الله بالذي يتشفي أو يهدد، وإنما كان رأيه في مثل هذا الظرف أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وإذا كان هناك موضع للإشعار بالقوة فيكون النص على قوة الله سبحانه، فهو الذي يكتب لدينه ولرسوله النصر ويقضي بحوله على الأوثان.

وإليك ما كتب به أبو سفيان وأرسله مع أبي أسامة الجشمي قال الواقدي: حدثنا موسى بن محمد بن إبراهيم، عن أبي وجزة، قال: لما ملّت قريش المقام، وأجذب الجناب، وضاقوا بالحنق، وكان أبو سفيان على طمع أن يغير على بيضة المدينة، كتب كتاباً فيه:

«باسمك اللهم

(١) الواقدي، معاري ٢/ ٤٩٠.

فإني أحلف باللات والعزى، لقد سرت إليك في جمعنا وإننا لا نريد إلا
 عود إليك أمداً حتى نتأصلك، فرايتك قد كرهت لقاءنا، وحملت مصابيح
 وحادق، فليت شعري، من علمك هذا؟ فإن مرجع عنكم فلكم ما يوم كيوم
 أخذ تُقر فيه النساء»^(١).

وبعث بالكتاب مع أبي أسامة الجشمي

وأمارد رسول ﷺ وهو رد نستبعد صدوره عن الرسول فهو بحسب
 رواية الواقدي :

«من محمد رسول الله إلى أبي سفيان بن حرب، أما بعد، فقد بما فرك بالله
 الغرور أما ما ذكرت أنك سرت إلينا في جمعكم، وأنت لا تريد أن تعود حتى
 تستأصلنا، فذلك أمر، الله يحول بينك وبينه ويجعل لنا العافية حتى لا تذكر
 اللات والعزى. وأما قولك: من علمك الذي صنعنا من الخندق، فإن الله تعالى
 ألهمني ذلك لما أراد من غيظك به وغيظ أصحابك، وليأتين عليك يوم تدافعني
 بالراح، وليأتين عليك يوم أكرس فيه اللات والعزى وإساف ونائلة وهبل، حتى
 أذكرك ذلك»^(٢).

ويضيف الواقدي بعد ذلك زيادة لا معنى لها منسوبة إلى من يسمى
 إبراهيم بن جعفر عن أبيه، وسياقها يدل على أنها إكمال لخطاب أبي سفيان إلى
 رسول الله ﷺ : «ولقد علمت أني لقيت أصحابك بأحياء وأنا في عبر قریش فما
 خص أصحابك منا شعرة ورفضوا بمدافعتنا بالراح، ثم أقبلت في عبر قریش
 حتى لقيت قومي، فلم تلقنا، فأوقعت بقومي ولم أشهد لها من وقعة، ثم
 غزوتكم في عقر داركم فقتلت وحرفت - يعني غزوة السويق - ثم غزوتك في جمعنا
 يوم أحد، فكانت وقعتنا فيكم مثل وقعتكم ما بيد، ثم سرنا إليكم في جمعنا ومن
 نألب إلينا يوم الخندق فلرمتهم الصياصي وحنقتم الحادق»^(٣).

(١) الواقدي، معاري، ٤٩٢/٢.

(٢) الواقدي، معاري، ٤٩٢/٢ - ٤٩٣.

(٣) الواقدي، معاري، ٤٩٣/٢.

وهذه الزيادة مادية الافتعال، فإن عيراً لقريش لقيت المسلمين عند موضع يسمى أحياء وعلى المشركين أبو سفيان وكان ذلك في سرية عبدة بن الحارث إلى رابع وكانت في شوال سنة ١ هـ / أبريل ٦٢٣ م. وقد كانت اليد العليا فيها للمسلمين، فهي السرية التي رمى فيها سعد بن أبي وقاص بقوسه فأصاب كثيراً من أصحاب أبي سفيان، ولم يكن بين الحائزين إلا ذلك، وموضع أحياء قريب من بطن رابع، ثم يشير أبو سفيان بعد ذلك إلى بدر ثم إلى أحد، وغريب منه أن يشير إلى الخندق بقوله: ثم سرنا إليكم في جمعنا ومن تألب إلينا يوم الخندق، لأن تسمية يوم الخندق لم تكن إلا بعد ذلك بزمان.

على أي حال انتهت محاولة قريش حشد أكبر قوة تستطيعها وجمع من يتيسر لها جمعه من أحلافها إلى فشل ذريع، ولم يكن سبب الفشل كما قلنا هو الخندق، فإن الخندق في ذاته لا يمنع العدو منعاً حاسماً، إنما هو كان عاملاً معطلاً فحسب ولقد عبرته خيل المشركين أكثر من مرة فما استطاعت أن تفعل شيئاً وردت على أعقابها بخسائر، إنما الأهم من الخندق هي تلك الروح التي كانت أمة المسلمين تقاتل بها عن نفسها ثم حكمة القيادة ويقظتها، ففي أثناء مدة الحصار ما بين عشرة أيام وعشرين - لم نشهد لأبي سفيان أي أثر بينما نرى رسول الله ﷺ في كل حين، فهو يقظ مبادر لا تغفل عنه لحظة، وهو لا ينام ساعة حتى ينهض ويبرز إلى الميدان وعينه على كل طرف من أطراف المدينة وخندقها، وما من مرة شد المشركون على الخندق وبدأ الخطر إلا كان الرسول بنفسه مسارعاً إلى الموقف يتلافاه خيفة ولا يعود ليصيب شيئاً من الراحة إلا بعد أن يرد المهاجرين على أعقابهم. والخندق هنا ما كان إلا عتبة أفسدت خطط المشركين ولكنهم لو كانوا على عزم صادق لعروه، ولعلمهم لو عروه لهلكوا على أيدي المسلمين في أركة المدينة، فقد رأينا ندغم وسرعتهم إلى القتال وبسالتهم فيه، ولقد انقلبت بهو قريظة على المسلمين وليس بينهم وبين المسلمين خندق فهم يستطيعون أن يتحركوا، حتى كان المسلمون هم الذين ساروا إليهم وأحدوهم باليد

إنما بهما أمر الخندق هنا لأنه تجديد في من القتال عند العرب ثقيلته أمة المدينة من عصوم أعصائها وبغذته على أحسن ما يكون التعميد، وسلمان الفارسي الذي نقل هذه المعركة إلى المسلمين أتى بها من تجارب قومه العرس، وكانت قريش متصلة بالعرس فكيف لم تعرف الخنادق؟ لم تعرفها لأنها كانت حاعة حمد تفكيرها وتوقف عندما انتكر لها المؤسسون الكبار الدين أقاموا صرحها وأحرقهم عبد المطلب بن هاشم، وعندما أتاهم رسول الله ﷺ بالدين الجديد والفكر الجديد والعصر الجديد جمدوا مكانهم ولم يستطيعوا حراكاً ويصدق عليهم هنا قول الله سبحانه وتعالى في سورة الشعراء مصوراً جمود الجامدين والتزامهم ما وجدوا عليه آباءهم: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لَأُيَبِّقَنَّ قَوْمَهُ مَا يَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَّلْهَا هَافِكِينَ﴾ قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون؟ قالوا: بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون^(١).

إن القرآن الكريم يتحدث هنا عن الجمود الديني، عن وقوف الجماعة عند مستوى فكري لا تتعداه لأنها تعجز عن ذلك، وهذا هو الجمود الحضاري أو التحجر petrification الذي يتحدث عنه المؤرخون، وأرنولد توينبي يتحدث حيناً عن الحضارات المتحجرة petrified civilizations وهي غير الحضارات البائدة extinct civilizations لأن الحضارات البائدة لا تعود إلى الحياة أما المتحجرة فهي تعاني مما يسمى بالركود الثقافي cultural lag، وهو جمود يصيب الجماعات لتوقف فكرها عن التطور ووقوفه عند وضع تتحجر عنده ولا تتعداه، وهذا لا يمنع أن يتفكك التحجر وتذب الحياة في الذهن المتبلد، وهو ما كان رسول الله ﷺ يحاوله، وقد صبر صبراً جليلاً على القرشيين حتى تمكن في النهاية من إيقاف أذهانهم وقلوبهم من السبات الذي استراحوا إليه. وعرب في الأمر أن يكون أبو سفيان هو من أوغل رجال قومه في الوثنية الجاهلية، كان هو أول من

تحرك دمه وصحا فرأى نصيباً من البور الحديد، ولكنه لم يره بعين القلب الواعي بل بعين الدهس الصاحي . وكان أبو سفيان أدكى رجال قومه دون شك، لأنه أدرك وهو عائد بحر أديال الحية من حملته الكرى على الخندق الأسيل إلى التغلب على محمد وأمة الإسلام، وإن نجاة قريش من الهلاك مرهون بقدرتها على التعاضد مع أمة المدينة، وقد قلنا هنا، محمداً دون أن نشفعه بالتصلية لأسأ أردنا أن نصور فكر أبي سفيان من ناحية محمد، فإن أبا سفيان استسلم في النهاية لمحمد ولكنه لم يستسلم لرسول الله حتى بعد الفتح، ومن المفكرين المسلمين من يرى أن أبا سفيان أسلم ولم يؤمن قط، وبعضهم يدفع عنه البقاء على الوثنية من جانب التقى، احتراماً لصحبته للرسول على مذهب الداعين إلى التوقف عن الحكم على الصحابة لعظم مقامهم عند الله سبحانه وتعالى، فهذا التوقف عندهم عاصمة من قاصمة وقد كتب في هذا المعنى نفر من جلة علمائنا منهم ابن حزم في رسالة التفضيل بين الصحابة وأبو بكر بن العربي في العواصم من الفواصم.

لقد كتب واحد من كبار المستشرقين وهو فلهاوزن كتاباً مشهوراً عندهم عنوانه: «محمد واليهود في المدينة»، تحسر في ختامه على مصيرهم وقال: «إنهم لو وجدوا زعيماً من بينهم يقوم لهم بالدور الذي قام به أبو سفيان لقريش لنجوا من الهلاك، أي لتصلحوا مع الرسول صلوات الله عليه ودخلوا في جماعته وكتبوا لأنفسهم بذلك حياة جديدة كما فعلت قريش^(١)»، فلننظر ما الذي فعله أبو سفيان للنجاة بقريش من مصير شبيه بمصير يهود المدينة.

(١) A J Wensinek Mohammed en de Joden te Medina Leiden 1928 وهو
ناهودية ولكن أحرار كثيرة منه ترحلت إلى العرسية والإحلبرية

الفصل الثالث

قُرَيْشٌ

في الطريق إلى الإسلام

حتى سير قريش وأحلافها إلى المدينة في ذي قعدة سنة ٥ هـ أبريل ٦٢٧ م كان رجالها يأملون في إحراز نصر هائي حاسم على الإسلام والمسلمين وجماعات البدو التي سارت معهم، وخاصة من عطفان وسليم بن منصور كانت تمني نفسها بغور عظيم وغنيمة وافرة، فإن الأمل في اقتحام المدينة ونهبها وسلب خيراتها كان عظيماً، وكان كل المشتركين في هذا الهجوم يعرفون أنهم يقومون بعمل خطير يقضي على ما توهموا أنه فتنة وقلب للأوضاع، ولكنهم جميعاً كما رأينا لم يقدروا الظروف الجديدة حق قدرها، وساروا في جحفل لجب ولكن دون استعداد كامل وتقدير محكم، وهنا كانوا كما قلنا جاهلين يعيشون في عصر مضى كانت الحروب فيه ضربات يقوم بها فرسان ذوو خيلاء وكبر وغرور، وكان أقصى ما يمحهم قتل كبار الرجال لكسر الشوكة ونهب العدو وسلب سلاحه اظهارةً للقوة ثم سبي نسائه والتصرف فيهن بالتسري أو البيع، رمزاً للمهانة وتلم الشرف وفضيحة العدو حتى يشتهر الأمر في العرب وعظمى في تصويره الشعراء، حتى تكون هزيمة الخصم مادية ومعنوية.

ولكن الأسبوع الأول لمعركة الخندق دل القرشيين وحلفاءهم على أن مثل هذا النوع من الصراع انتهى عصره. وخطاب أبي سفيان الذي أتيانا به دون أن نقطع بأصالة نصه - يفسح عن شعور الحيرة واليأس وخيبة الأمل (وجعلت مضايق وخنادق. من علمك هذا) وقد قلنا إن المسألة لم تكن مسألة حديق أو شق في الأرض حفره المسلمون، بل هي مسألة عقل جديد وفكر حديد، فإلى المسلمين لو شاءوا أن يخوضوا مع المشركين معركة قتل ودماء

لخاضوها وكسبوها، ولكن المسلمين تخطوا في هذه الحرب مرحلة عصر طواهر الكسرياء والوحشية والجشع والادلال ودخلوا عصر القوة المعنوية والتفوق الفكري والصراع من أجل المبادئ لا من أجل الأحساب والأعراق، وهذا الطرار من الصراع سراه من الآن فصاعداً سنراه في الحديبية وفي فتح مكة وفي المحاولة الأولى لفتح الطائف وفي الأخبار التي يقصها الواقدي في تفاصيل الخندق حكاية هي أشبه بالرمز على ما نقول، فقد حمل الربيع بن العوام على نوفل ابن عبد الله بن المغيرة بالسيف حتى شقه باثنين وقطع أندوج سرجه - والأندوج اللبد الذي يكون تحت السرج - ويقال إلى كاهل الفرس، فقيل له: يا أبا عبد الله ما رأينا سيفاً مثل سيفك! فيقول: والله ما هو بالسيف ولكنها الساعده^(١) وهنا أيضاً نستطيع أن نقول: والله ما هو بالخندق ولكن بالروح التي وراء الخندق، وما كان الخندق إلا شقاً عرضه بسطة أي قامه رجل، ولكن هذا الشق كان يفصل عالمين، وفارقاً بين روح التشفي والانتقام والفروسية الفارغة والجشع والاختلاف والفوضى وعدم الاستعداد خارج الخندق، والإيمان والوحدة والروح والعقيدة الرفيعة والنظام والاستعداد وروح البذل وحكمة القيادة داخله.

ومؤرخونا القدامى - وما أكثر ما يفوتهم لباب الحوادث - ويتابعهم في ذلك الكثيرون من المحدثين - وما أكثر ما يفوتهم إدراك صميم الهدى المحمدي - يصورون نصر الخندق وكأنه مجرد نصر قوة على قوة، ويقتصر تصويرهم على صورة الرسول الفائز، الذي يروح ويغدو ويصدر الأوامر، ويفوتهم أن الذي كان يقود هنا، والذي انتصر هنا هو الهدى الرفيع الذي كان محمد صلوات الله عليه يسير بأمرته في طريقه، وهل كان لدى الرسول سحر يعاقب فيه المخالفين؟ ولكن القرآن والهدى النبوي والمثال المحمدي، أيقظت في الناس ضميراً هو أقوى من أي سلطان، وانظر إلى حديث أبي لبابة بن عبد المنذر

(١) الواقدي، معاري ٢/٧٢٢

في حبر بي قريطة نخرج منه بحانت كبير من المعاني التي نشير إليها في سياقها هذا

والحر متمامه يعطيا مثالا من طريقة محمد ﷺ في تربية أمة فسرى في
الحرء الأول منه كيف أنه لا يكره بحر أحدًا من أصحابه على شيء، مدام
الصحابي يتصرف في حدود حقه، حتى لو رفض لرسول الله طلبًا، وفي الجرة
الشام من الحر نرى نفس الصحابي عندما أحس أنه وقع في خطأ في حق
الرسول والجماعة بأدر بعقاب نفسه بنفسه، بل إنه عندما نزلت آية قرآنية تبشر
الصحابي بعفو الله عن العقاب الذي فرضه على نفسه، أبي أبو لبابة إلا أن
يكون رسول الله ﷺ هو الذي يفك وثاقه استبلاغًا منه في إظهار الندم لما بدر
منه وإليك نص الخبر بتمامه كما يرويه الواقدي، ومساق الخبر عنده أوفى منه
عند غيره.

«حدثني مَعْمَر بن راشد، عن الزهري، عن ابن المسيب قال: كان أول
شيء عتب فيه رسول الله ﷺ على أبي لبابة بن عبد المنذر أنه خاصم يتيأ له في
عذق. ففَضَى رسول الله ﷺ بالعذق لأبي لبابة، فصَبَحَ اليتيم واشتكى إلى
رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأبي لبابة: هب لي العذق يا أبا لبابة -
لكي يرده رسول الله ﷺ إلى اليتيم - فأبى أبو لبابة أن يهبه لرسول الله ﷺ
فقال: يا أبا لبابة، أعطه اليتيم ولك مثله في الجنة، فأبى أبو لبابة أن يعطيه.

قال الزهري: فحدثني رجل من الأنصار قال: لما أبى أن يعطيه قال ابن
الدحداحة - وهو رجل من الأنصار: أرايت يا رسول الله أن ابتعتَ هذا العذق
فأعطيتَه هذا اليتيم، ألي مثله في الجنة؟ قال رسول الله ﷺ: نعم. فانطلق ابن
الدحداحة حتى لقي أبا لسانة فقال: ابتاع منك عذقك بحديقتي، وكانت له
حديقة نحل، قال أبو لسانة: نعم، فابتاع ابن الدحداحة العذق بحديقة من
نحل، فأعطاه اليتيم، فلم يلبث ابن الدحداحة أن جاء كمار قريش إلى أحد،
فخرج ابن الدحداحة، فقتل شهيدًا، فقال رسول الله ﷺ: رُبَّ عَذَقٍ مَذْلُومٍ

فهذا رحل يحكم له الرسول شيء يجد أن له فيه حقاً، ثم يرق رسول الله لليتيم صاحب العلق عندما بكى لفقدان ما كان يظن أن له فيه حقاً، فيطلب الرسول إلى أبي لبابة أن يهب له العلق، ويرقص أبو لبابة فلا يعضب الرسول، فيعود ويسأل أبو لبابة أن يتنازل عن العلق ويكون له مثله في الجنة، فيرفض، ويدعو الرسول حتى يتقدم ابن الدحداحة فيستبدل العلق بحديقة له، يأخذها أبو لبابة بعد أن يرد العلق على اليتيم.

وعندما حاصر رسول الله ﷺ بني قريظة وكان أبو لبابة حليفاً لهم، وتبين لليهود أنهم لن يستطيعوا الثبات، يطلبون إلى رسول الله أن يكون أبو لبابة هو رسول التفاوض بينهم وبين المسلمين، ويذهب أبو لبابة فينصح اليهود بالاستسلام لرسول الله، ويشير بيده إشارة معناها أنهم إذا لم يستسلموا فسيكون القتل مصيرهم، ولم يكن الرسول قد قال له من ذلك شيئاً ولا هم عول عليه، إنما هو سيحكم فيه سعد بن معاذ وسعد يقضي بما يرى إذا ارتضاه اليهود، ثم أحس أبو لبابة أنه بفعله هذا قد خان الرسول ونسب إليه ما لم يكن، وتخطى حدود مهمته، وأدركه الندم وسالت دموعه، وأسرع إلى المسجد من طريق لا يراه فيه أحد، فربط نفسه إلى اسطوانة فيه عرفت فيما بعد باسطوانة التوبة وبلغ ذلك الرسول ﷺ فقال: «دعوه حتى يتحدث الله فيه ما يشاء، لو كان جاءني استغفرت له، فأما إذ لم يأتي وذهب فدعوه! قال أبو لبابة: فكت في أمر عظيم خمس عشرة ليلة^(٢)، وكان ربطه نفسه في وقت حر شديد وانقطع خلال خمس عشرة ليلة عن الطعام، ويقال وعن الشراب أيضاً ولكن هذا متعذر، فلا يصبر الإنسان على العطش هذه المدة، وقال للناس: ولا أزال هكذا حتى أفارق الدنيا أو يتوب الله علي فلم يزل كذلك حتى ما يسمع الصوت من الجهد، ورسول الله ﷺ ينظر إليه بكرة وعشية، ثم تاب الله عليه،

(١) الواقدي، معاري ٥٥٥/٢

(٢) الواقدي، معاري ٥٠٧/٢

مودي : إن الله قد تاب عليك ! وأرسل النبي ﷺ ليطلق عن رباطه ، فأبى أن يطلقه عنه أحد غير رسول الله ﷺ ، فحاء رسول الله ﷺ نفسه فأطلقه^(١) .

فهذا المثل يريك قوة الصمير الذي أيقظه الإسلام في المسلمين ، وهذا الصمير هو الذي بث في المسلمين القوة والطعام والطاعة والاقدام وروح التضحية والتماسك فأصبحوا قوة لا قبل لقريش أو لغيرها بها فكان قوة الإسلام كلها انبثت في قلب كل مسلم على حدة ، فأين تطيق قريش أو غيرها الثبات لهذه القوة؟

ولست لدينا أخبار عما فعلت قريش حتى نصل إلى حديث الحديبية ولكن الأخبار عن المسلمين كثيرة ، ومن هذه الأخبار نبيين أن قريشاً قبعت في دارها بعد فشل محاولة الخندق مستكينة لا يدري رؤساؤها ماذا يفعلون . لقد انتقلت القيادة والمبادرة منها إلى أمة المدينة ، وفي العادة عندما تحس جماعة أثناء صراع أنها فقدت الأمل في النصر ، فإنها تقبع في دارها وتتحصن في عقرها وتقتصر عن الأفعال وتكتفي بردود الأفعال ، وتحملها الأحداث معها كأنها سفينة تحطمت أشرعتها وتكسرت مجاديفها وكلت قواها وتركت نفسها للتيار .

وفي نفس الوقت نجد المدينة وقد تحولت إلى مركز نشاط واسع المدى . فقد أحست بقوتها وأدرك أهلها أن ما وعدهم به الله ورسوله كان حقاً . وأن الله سبحانه من عليهم فجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين .

فلا يكاد المشركون ينصرفون حتى يسير الرسول ﷺ إلى بني قريظة ليحاسبهم على ما كان منهم من خيانة المسلمين ونقض الحلف والانضمام إلى الأعداء في وقت الشدة ، ولم يكن هناك مفر من ذلك وينتهي الأمر باستسلامهم ، ويقبلون أن يحكم فيهم حليفهم القديم سعد بن معاذ بن النعمان نقيب بني عبد الأشهل وسيد الأوس جميعاً ، وطالما اعتزت اليهود بالأوس

(١) الواقدي ، معاري . ٥٠٧/٢ - ٥٠٨

قبل الإسلام، ويقضي سعد بن معاذ فيهم بقتل الرجال وسبي النساء والدرية واقتسام الأموال بحسب ما يرى رسول الله ﷺ، وبذلك تكون أمة الإسلام قد خلصت من جماعات اليهود الخطرة الثلاث الكبرى المعاندة الحاقدة المتخونة (ذو القعدة - ذو الحجة ٥ هـ / مايو ٦٢٧ م)، وقد كسبت أمة الإسلام من ذلك إلى جانب الأمن مالا استخدمه الرسول في شراء حيل وسلاح للمسلمين^(١) حتى يتلافى ناحية النقص في القوة العسكرية للمسلمين، وتنتهي بذلك الميزة التي ظلت قريش تعز بها على المسلمين حتى الخندق. أما بعد الخندق فستكون حيل المسلمين أقوى حيل في شبه الجزيرة.

ولم يكن تصرف رسول الله ﷺ في هذا الباب نابعاً من اعتبارات عسكرية، بل كان صادراً عن تفكير نبي مرسل وشاهد ومبشر ونذير وداع إلى الله بأذنه وسراج منير. فهذه القوة العسكرية لن تستعمل في الغزو أو العقاب أو مد السلطان أو الغارة والسلب وفرض الطاعة أو الاتاوات، بل ستستخدم للإنذار والتحذير وسيكون تصرف النبي بقوة جماعته العسكرية تصرف الشاهد، والشاهد هنا هو النموذج والمثال والقُدوة، وانظر إلى هذا المعنى القرآني في قوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾^(٢) و﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾^(٣) و﴿هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾^(٤) و﴿وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم﴾^(٥) و﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط﴾^(٦).

والسرايا والغزوات بعد الخندق تنطق بذلك، فعندما سمع رسول الله

(١) الواقدي، صفاري: ٥٢٣/٢

(٢) النساء ٤١/٤.

(٣) لقرفة ١٤٣/٢ والمراد لتكونوا عماداً ومثالاً للناس وليكون الرسول نموذجاً ومثالاً لكم

(٤) الحج ٢٢ / ٧٨

(٥) آل عمران ١٤٠/٣

(٦) المائدة ٨/٥

أن اعرابياً حلفاً يسمى خالد بن ببيع من هذيل ثم من لحيان، تحدته نفسه بالعدوان على المدينة وإثارة الشغب في المنطقة الواقعة بينها وبين مكة، عرف أنه أمام بدوي جاهل إذا هو ترك شأنه لتأني مه أذى كبير، خاصة وهو يقيم في نواحي عُرنة جنوبي عسفان قرياً من أبواب مكة، ولا يستبعد أن يستشير قريشاً، ويدفعها إلى مغامرة حمقاء، وكان رسول الله قادراً على أن يبعث نحوه سرية ضخمة تنزل ببني لحيان ضربة قاصمة خاصة وأن لحيان كان لها عدوان سابق على المسلمين، ولكن لحيان وغيرها من قبائل الأعراب كانت قد غفلت وأدركت أنها لا تستطيع ممارسة أعمال الأعراب مع أمة المدينة، فيجيء هذا الجاهل الذي كان يقول: «لم يلق محمد أحداً يشبهني» فيكون علاج مثل هذا الرجل أن يقضي عليه وحده، فيرسل رسول الله إليه سرية من رجل واحد هو عبدالله بن أنيس، يخرج بسيفه ليس معه شيء غيره، فيذهب الرجل فيقضي على هذا المشاغب ويعود (ذو الحجة ٥ / مايو ٦٢٥ م).

ويبلغ الرسول شيء مثل ذلك عن بني بكر بن كلاب وبني محارب وموطئهم بالربذة، أنهم يمارسون أعمال البدو في منطقة داخلية في نطاق أم المدينة، فيندب بعضاً صغيراً من نحو ثلاثين رجلاً، فيه رجال صناديد منهم عباد ابن بشر وسلمة بن سلامة بن وقش والحارث بن خزيمة وعليهم محمد بن مسلمة وكلهم من فرسان المدينة الذين تربوا على يد محمد ﷺ، أخذوا عنه دروس النظام والطاعة والدقة في التنفيذ والحزم، وهم يخرجون هذه المرة فوارس، فيضربون ضربة موجعة سريعة هي في ذاتها نذير، ويعودون بخمسين ومائة بعير وثلاثة آلاف شاة. ولم تكن المدينة بحاجة إلى ذلك المغنم اليسير، ولكن فقدانه موجب لمؤلاء الأعراب وكاف لردهم إلى السكون والتعقل (المحرم ٦ هـ / يونيو ٦٢٧ م).

وفي غزوة بني لحيان (ربيع الأول ٦ هـ / يوليو ٦٢٧ م) بحس إحساساً عميقاً بحبوبة المدينة وقدرتها على القيام بما تريد دون أن تحسب لقريش أي

حساب . فقد كان رسول الله ﷺ قد وجد وجداً شديداً على عاصم من ثابت وأصحابه ، وهم الذين استشهد معظمهم وأسر بعضهم في سرية الرجيع (صفر سنة ٤ هـ / يوليو ٦٢٥) وهم جماعة مرثد بن أبي مرثد العوي ، فخرج في مائتي رجل من أصحابه معهم عشرون فرساً - وخرج بهم حتى وصل إلى بطن غران حيث كانت مصارع أصحابه فترحم عليهم ، وكان حبيب بن عدي وريد بن الدثنة من جماعة بعث الرجيع أسيرين في مكة لأن اللحيانيين الذين غدروا بالبعث باعوهما من أهل مكة فابتاع خبيبا حبي بن إهاب بثمانين مثقالاً وأما زيد بن الدثنة فقد اشتراه صفوان بن خلف من قتل بدر . فأما حبيب بن عدي فقد حبس في بيت امرأة يقال لها ماوية مولاة لبني عبد مناف ، وأما زيد بن الدثنة فقد حبس عند ناس من جمع وتلك ظاهرة جديدة علينا من ظواهر تنظيم مكة ، فها هم المكيون يشتررون اثنين من أعدائهم ليقتلوهما ببعض من قتل منهم في بدر ، وقد اشتروهما من بدويي لحيان الذين غدروهم ، وكان أولئك الأعراب قد دبوا خداع رسول الله ﷺ ، فبعثوا إليه من يعلن حاجتهم إلى من يعلمهم الدين ، وكان غرضهم الحقيقي أن بأسروا من يستطيعون أسرهم من صحابة رسول الله ﷺ فيصيبوا بهم ثمناً . وهذا هو الذي حدث : غرر المسلمون وقتل عامتهم إلا خبيب ابن عدي وزيد بن الدثنة فاشتريتهما قريش ، وكان الذي تولى ذلك صفوان بن أمية .

وهذا الخبر نخرج به بحقيقتين تتعلقان بأحوال قريش في الفترة بعد أحد ، فهي تشعر أنها لم تصل إلى ما تريد من الانتقام من المسلمين ، وبدلاً من أن تواجه المسلمين في معركة صريحة ، تتواطأ مع الأعراب لتتال بالغدر ما لم تنل بالقتال لأنها كانت تشعر أنها أضعف من المسلمين ولا تثبت لهم في لقاء .

والحقيقة الثابتة هي احتجاز الأسرى عند قوم من الجاهيل حتى يجزى موعد قتلهم ، فلماذا لم يحتجز صفوان خبيبا في داره مقيداً بالأغلال ولماذا يدهه في بيت ماوية التي ذكرناها؟ ومن الممكن تفسير حذر عبدالله بن الدثنة عند ناس من جمع بأن جمحاً قوم صفوان وهو كان إداك رئيسهم .

وقد تجمعت قريش لشهود قتل خبيب، والمشهد نفسه يسم عن نعبية قريش إدادك، قال الواقدي: «فأخرجوه (خبيب بن عدي) بالحديد حتى انتهوا به إلى التميم، وخرج معه النساء والصبيان والعبيد وحامدة من أهل مكة، فلم يتخلف أحد. إما موتور فهو يريد أن يتشاقى بالنظر من وتره، وإما غير موتور فهو مخالف للإسلام وأهله. فلما انتهوا به إلى التميم، ومعه زيد بن الدثنة، فأمروا بخشبة طويلة، فحفر لها، فلما انتهوا بخبيب إلى خشبته قال: هل أنتم ناركبي فأصلي ركعتين؟ قالوا نعم، فركع ركعتين أقمهما من غير أن يطول فيها^(١)... وهذا المشهد في ذاته ينطق بتهاوت همم القرشيين، فكل الذي استطاعوه هو أن يشتروا من الأعراب اثنين من المسلمين ويقتلوهما على هذه الصورة الأليمة. وموقف خبيب بن عدي يوم استشهاده كان رمزاً على القوة المعنوية الرفيعة التي كان عليها المسلمون إذ ذاك، فقد استقبل الموت متبشراً حتى إنه لم يطل صلاته خشية أن تظن قريش أنه جزع من الموت، وقد أرادت قريش أن تفتنه عن دينه فأبى في عزة وإيمان. والحواريين القرشيين وبينه يتجمل لنا حروفاً من نور ينير عن روعة الإسلام.

قال الواقدي: «قالوا (يريد روايته): «فلما صلى الركعتين حملوه إلى الخشبة، ثم وجهوه إلى المدينة وأوثقوه رباطاً ثم قالوا: ارجع عن الإسلام نُخْلُ سبيلك. قال: لا والله وما أحب أني رجعت عن الإسلام وأن لي ما في الأرض جميعاً!

قالوا: افتح ب أن يكون محمد في مكانك وأنت جالس في بيتك؟

قال: والله ما أحب أن يُشاكَّ محمد بشوكة وأنا جالس في بيتي.

فجعلوا يقولون: ارجع يا خبيب!

قال: لا أرجع أبداً!

قالوا: أما والللات والعزى، لئن لم تفعل لقتلنك!

فقال: إن قتلي في الله لقليل^(١).

وقد أعطى القرشيون غلماناً من أبناء من قتل سدر حراً وأمرهم أن يطعموا حبياً ففعلوا. ولم يقتلوه بطعامهم وإنما رادوا الله، وقد حكى واحد من الغلمان وهو عقة بن الحارث بن عامر، وكان من أولئك العلماء، فقال فيما بعد: «والله ما أنا قتلت حبياً. إن كنت يومئذ غلاماً صغيراً، ولكن رجلاً من بني عبد الدار، يقال له أبو ميسرة عوف بن السباق أخذ بيدي فوضعهما على الحربة، ثم أمسك بيدي، ثم جعل يطعم بيده حتى قتله»^(٢).

والمشهد نفسه يدل على تردّي قريش ونسيانها تقاليدها القديمة، فهذه ليست قريش العزيزة التي عرفناها قبل الإسلام. ولكن الحقد وعمى البصيرة والشعور بالضعف هبط بالقرشيين إلى ذلك المستوى. ويتأكد لنا هذا المعنى إذا قرأنا الواقدي: وكان الذين أجلبوا على قتل خبيب، عكومة بن أبي جهل وسعيد بن عبدالله بن قيس والأخنس بن شريق.

وأما زيد بن الدثنة فقد جعل صفوان بن أمية غلامه نسطاس يقتله، وكان قد ثبت ثبات صاحبه وأذهل القرشيين بشبانه وإخلاصه لدينه ووجه لنبه، وفي ذلك يقول الأخنس بن شريق: «ما رأينا والداً قط يحد بولده ما يحد أصحاب محمد ﷺ».

ورغم الشرك والحقد فقد تأثر الكثيرون من القرشيين بمشهد استشهاد خبيب وابن الدثنة، ويرد الكثيرون منهم ذلك إلى خوفهم من دعوة خبيب بن عدي، لأن خبيباً قبل أن يموت دعا على قريش فقال اللهم احصهم عدداً، واقتلهم سداً، ولا تعادر منهم أحداً. فدعوتهم فيها رعموا تلك الدعوة، ولكننا نقول إنها رهبة هذا المشهد. وبهنا هنا أن نذكر ما قاله معاوية بن أبي

(١) الواقدي، معاري: ٣٦٠/١

(٢) الواقدي، معاري: ٣٦١/١

سفيان، وكان قد حضر المشهد وهو صبي، قال: لقد حضرت دعوته (دعوة خيب) ولقد جبذني يومئذ أبو سفيان حدة، فسقطت على عجب دنيي (آخر عموده الفقري) فلم أرل أشتكي السقطة زماناً فكان أنا سفيان روعه المشهد فلم يجب أن يشهده ابنه فحبده والقاء على الأرض وكان أبو سفيان لا يشارك قريشاً في تلك العداوة العمياء.

وستسترد قريش شعور الإنسانية بعد أن تسلم، فعكرمة بن أبي جهل مثلاً، الذي كان من أكبر الداعين إلى هذه البشاعة، سيحارب في سبيل الإسلام في بسالة وطلباً للشهادة حتى ينالها، وصفوان بن أمية أسلم وهاجر إلى المدينة وحسن إسلامه.

ونعود إلى غزوة بني لحيان التي استطردنا عنها، فنقول إن تفاصيلها تدل على ضعف لقريش بالغ، وعجز منها عن مواجهة الإسلام بين. وهذه الغزاة كان قد دفع إليها وجد رسول الله ﷺ لما أصاب أصحاب الرجيع وخاصة من أسر منهم في مكة، فأراد - وخبيب وزيد بن الدثنة لا زالا في الأسر - أن يعاقب أعراب لحيان الذين فعلوا بأصحابه ذلك، فخرج في مائتين من أصحابه فيهم عشرون فارساً، وأخذ السير حتى بلغ إلى بطن غران حيث استشهد أصحاب بئر معونة، ثم مضى حتى بلغ عسفان على أبواب مكة ليرى القرشيين أنهم وبلدهم في متناول يده، وكان ذلك في الشهر الحرام ولم يكن رسول الله ليفتح مكة على أهلها فيه، ولكنه وقف عند عسفان، ثم نادى أبا بكر فارسله في جماعة حتى أت كراع الغميم فلم يجد من قريش حركة، وقد أمسكهم الخوف من الخروج إليه، وقال رسول الله ﷺ: إن ذلك يبلغ قريشاً فيذعرهم ويخافون أن نكون نريدهم، وما كان الرسول ليتجاوز هذا في الشهر الحرام، ولو أراد أن يرهب قريشاً حتى تفرج عن صاحبيه لافعل، ولكنه ﷺ كان يرى أن وقت مكة لم يحن بعد، وأنه لو تهددهم ربما وقعت حرب ومات فيها كثيرون ونال مكة ضرر بالغ، وما كان يريد ذلك، ثم أنه ﷺ كان لا يفعل شيئاً إلا وفق خطة مرسومة، فاكتمى بذلك وعاد، وإن كان القرشيون قد خافوا فعلاً، ولكنهم سكتوا حتى انصرف عنهم إلى المدينة،

وهنا تحركوا وقتلوا خبيب بن عدي وريد بن الدثنة .

وقد حدثت بعد ذلك غزوة الغابة (ربيع ثاني سنة ٦ / أغسطس ٦٢٧ م). وكان الدافع إليها أن عيينة بن حصص وقد رأى أنه اشترك في الخندق وعاد بصمعة الخاسر - يستطيع أن يمارس مع المدينة غارات البدو، فأغار على سرح المدينة من ناحية الشمال وسرق هو وأربعون من أصحابه عدداً من لقاح رسول الله ﷺ ، بلغ عشرين لقحة، واللقحة الناقة الحامل ذات اللبن، وكان ذلك يوم الثلاثاء وفي يوم الأربعاء التالي كان الرسول ﷺ على صهوة جواده في إثر الغزاة، وكان أبو ذر الغفاري وابنه يئانسان مع ابل الحمى وحذره الرسول من ذلك، فلما كانت غارة عيينة قتل ابن أبي ذر. ويستوقف نظرننا هنا حسن استعداد المدينة لمثل هذه الطارئة ومبادرتها لادراك السراق. وكان عيينة ينوي أن ينهب إبلاً لعبد الرحمن بن عوف فأخطأ وأغار على لقاح الرسول في الليل، فما كاد يفوز بمغنمه حتى وجد رجال المدينة في أعقابها، وقد عقد الرسول لواء للمقداد بن عمرو وأمره بطلب الغزاة حتى يلحق به في أصحابها، وفي تفاصيل هذه الغارة من نجدة المسلمين واستبلاغهم في الجهد ما يدعو إلى العجب. فهذا المقداد بن عمرو يعدو حتى يدرك مؤخرة اللصوص ويقتل منهم رجلاً يسمى مسعدة، ولا يريد أن يشغل نفسه فيغطيه ببرده ليعرف أن سلبه له ثم يواصل الطرد، ويلحق به أبو قتادة ثم سلمة بن الأكوع هذا العداء الرامي الذي سبق الحليل ويرمي فلا يخطيء، ثم يلحق بهم الرسول ﷺ في الناس، ويحس عيينة بن حصص أنه تعرض لما لا يستطيعه فيجهد في الهرب وهو يرجو أن ينحو من أيدي المسلمين، ويقتل انه في الطرد، ويرى من نجدة المسلمين ما لا يجعله يفكر في أن يفعل مثل هذه الفعلة أندأ، فهذا المقداد بن عمرو وذاك محمر ابن نضلة وثالث هو عكاشة بن محصن ومن الأنصار سعد بن زيد وهو أميرهم في هذه الغزاة، وينحو عيينة بجملده ولكنه يفقد ولده ويقتل ثلاثة من رجاله ويستعيد المسلمون من اللقاح عشرة، وهذا أمر لم تكن الأعراب تعرفه: أن

يلحقهم من يغيرون عليه ويطردهم هذا الطرد ويستعيد مهم نصف المسروق ويلجئهم إلى الإسراع إلى عقر منازلهم . وكان هذا آخر ما حاوله ذلك الإعرابي الجلف عينة قبل خير، بل إن هذا الدرس الذي تلقاه في غزوة الغابة هو الذي أوقفه وشل حركته في خير، فلم يجرؤ على اتحاد أحلافه من يهود خير، وسقطت خير وهو ينظر، وعندما سقطت انتهت في نفس الوقت قوة عظماء وكسرت شوكتها، فإن خير كانت مركزها العمراي، وبدون مركز عمراي لا تعمر جماعة بدوية طويلاً، وهذا هو الذي جعل عينة بعد خير يتجه إلى المدينة طائماً صاغراً هذه المرة لأن رسول الله عرف كيف يذعره ثم يقص جناحيه، وسيسلم هذا الرجل إسلاماً سطحياً ولكن الرسول بقلبه، لأنه لم يكن ينظر إلى عينة بذاته بل إلى غطفان وهي قبيل من العرب عظيم . فإذا كان عينة قد أسلم على حرف، فإن معظم غطفان أسلموا عن قلب، وهذا هو لباب الأمر، وإن الإنسان لا يملك وهو يتأمل تصرف الرسول ﷺ إلا أن يقضي عجباً من رجاحة عقله وحسن تقديره العجيب، فإنه يرسل عينة هذا مع قومه من غطفان لادخال أعراب تميم في الإسلام، والأعرابي لا يفله إلا أعرابي مثله، وعلى يد عينة وغطفان كان دخول تميم وغطفان في الإسلام، وكانوا يحسبون أن ربك لم يخلق في أرضه أعز منهم ولا أبلغ خطاباً ولا أحسن شعراً فانقادوا للإسلام وطاعوا وقد بهرهم المعجزة من كل جانب! وسبحان من اصطفى عمداً لأعظم رسالاته فهض بها نهوضاً يفوق المأمول في أنظارنا، ولكن الله سبحانه وتعالى أعرف حيث يضع رسالاته، تعالى جده وجل جلاله ولا معبود سواه .

فَتَحَ خَيْر :

تعتبر الفترة القصيرة الممتدة من غزوة الخندق أو الأحزاب (ذو القعدة سنة ٥ هـ / أبريل ٦٢٧ م) وفتح خيبر (سنة ٧ هـ / يونيو ٦٢٨ م) من

أحفل فترات السيرة بالتوقيقات للإسلام وأهله والتفجرات الحاسمة في الحجاز
ويجد وشمال شبه الجزيرة كله . فإن رسول الله ﷺ رأى أن انكسار الأحزاب
وانصرافهم عن مكة نهاية القوة الفعلية لقريش ، وأن حير ما يفعله معها هو أن
يدعها وشأنها دون أن يزيد في التضييق عليها حتى تلقى بيدها طائعة ، فقد
توقفت تجارتها أو كادت ، وتوقفت كذلك ركبان الححيح إلى الكعبة وتعطلت
الأسواق فلم يعد يرتاد عكاظ وذا المجاز وبهجة إلا جماعات قلائل من أعراب
الحيرة يمتازون فيها بما يتيسر لهم ، وتوقفت النجدية وركدت رياح مراكز كانت
عامرة بالحركة والنشاط مثل قرن منازل وغمر ذي كندة وذات عرق وغيرها مما
كان من قبل عامراً بالحركة ، ويتوقف نشاط الطريق النجدية بعد توقف
الجادة ، وهي طريق التجارة الرئيسية من اليمن إلى مكة إلى الحيرة ، وأحست
قبائل شمال الحجاز ووسط شبه الجزيرة بأنها تخنق ، فهذه الطرق كانت
الشرابين التي تصلها بالدنيا خارج منازلها وكانت كذلك مصدر السلاح
والماعون لها ، فبدأ بتناهب ذلك الفلق الذي يتأهب جماعات البشر عندما تستشعر
خطراً على المصير . وكانت أكثر القبائل قلقاً هي قبائل أعراب أطراف نجد
من أمثال سليم ومخارب ولحيان وعضل والقارة ، وكلها من أصاغر قبائل مضر
ابن قيس عيلان ، وأما كبار قبائل الأعراب من مثل غطفان وهوازن فقد زاد
اضطرابها وقلقها ، لأن إحساسها بالخطر كان أكبر ، وغطفان بالذات أحست
أنها ضربت ضربة اليممة بانتهزام الأحزاب ، وقد كانت هي منها ، ولكنها
تصرفت أثناءها تصرفاً ضعيفاً بدائياً مخادعاً ، وظنت أنها تكسب بأساليب
الأعاريب ولكنها عندما عادت إلى منازلها أحست بأن خسارتها أفدح من خسارة
قريش ، وهذا في الغالب هو الذي دفع بعيينة بن حصن إلى اقتراح حماقة
الإعارة على سرح المدينة وسرقة عشرين لقحة من لقاح حمى رسول الله ﷺ ،
فعرف الرسول كيف يعاقبه على تلك الحماقة التي اقترعها في أرض الإسلام ،
وذلك في عروة الغابة وقد ذكرها ، وقد رأى عيينة أثناءها من عزم المدينة
ومادرتها وأحكام قيادتها ، وإخلاص رجالها ما أفرعه هراً من منازل قبيلته

محمياً بتأييد خير وأهلها لا يكاد يريم من فرط الغم .

ورأى الرسول أن يمهّد أمر نواحي الشمال والشمال الشرقي ويريل العقبات والأعداء من هناك ، وأحسب أن أمر حير تقرر في حطة الرسول صلوات الله عليه ووضعها في حيث تكون من نوقيت التصد

وبدا الرسول فأرسل عكاشة بن محصن في سرية الغمر أو عمر ذي كندة ، وكانت من منازل الطريق النجدية الكبرى وحولها أعاريب شتى من محارب ولحيان فازهجتهم الغارة عن منازلهم وأزاحتهم عن الطريق (ربيع الأول سنة ٦ هـ / أغسطس - سبتمبر ٦٢٧ م) ، ثم أرسل محمد بن مسلمة في عشرة أنفار إلى بني ثعلبة وبني عوال عند ذي القصة على شاطئ البحر فتجمع عليهم الأعراب وقتلوا منهم ثلاثة ، وكادوا يقتلون محمد بن مسلمة (ربيع الآخر سنة ٦ هـ / أغسطس - سبتمبر ٦٢٧ م) . وبادر الرسول في نفس الشهر فأرسل أبا عبيدة عامر ابن الجراح ليؤدّب بني ثعلبة وأخلافهم من أغار ، ففروا أمامه واستأق المسلمون فآظفروا به من نعمهم . وفي الشهر التالي ، (جمادى الأول سنة ٦ هـ / سبتمبر ٦٢٧ م) حاولت قريش أن تسير عيرا لها إلى الشام عن طريق النجدية فبادر الرسول ﷺ وبعث زيد بن حارثة في سبعين ومائة راكب لانتظارها عند العيص في طريق العودة . وتلك أول مرة نسمع فيها أن القوة العسكرية للمدينة ضمت هذا العدد الكبير من الفرسان ، فأخذ المسلمون العير بما فيها وأخذوا يومئذ فضة كثيرة لصفوان بن أمية ، وأسرروا ناساً ممن كان في العير معهم ، منهم أبو العاصي بن الربيع^(١) ، وتلك هي المناسبة التي أعلن فيها أبو العاصي من الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ إسلامه في خبر معروف ، فقد ذهب إلى مكة فأدى ما عليه من الحقوق وأعلن إسلامه ، ثم لحق بالمدينة حيث رده رسول الله ﷺ على زوجته .

والذي يهناها هي نقطة الرسول ﷺ وحرصه على أن يصيق الحصار

(١) الواقدي ، معاري ٥٥٣/٢

على قريش تحميلاً لا مصماً للإسلام وجدير بالملاحظة أن الواقدي يقول :
 ووقال إن هذه العير أخذت طريق العراق ودليلها فرات بن حيان المحلي^(١)
 وهو الحخير بطريق العراق وهو كان الذي قاد سرية ذي قرد التي أفلت طريق
 العراق دون المكين على ما ذكرناه . . ثم أن قريشاً تلقت هذه الصربة ولم
 تتحرك مما يدل على بالغ ضعفها وعجزها أمام المدينة

وعقب ذلك أرسل الرسول زيداً بن حارثة في بعثة إلى الطرف وهو ماء
 على نحو ٣٦ ميلاً (حوالي ٦٥ كم . م .) شمالي المدينة، ليزيد في أدب بني ثعلبة ولا
 تحدد المراجع من بنو ثعلبة المرادون هنا، والغالب أن المراد بنو ثعلبة بن دودان بن
 أسد، وهم أبناء عمومة بني الهون بن خزيمه وهم القارة وبني أسد بن خزيمه،
 وكانوا جميعاً من أعراب أطراف نجد وكان معظمهم يدخلون ضمن أحابيش
 قريش وكان الرسول ﷺ حريصاً على أن يردهم إلى النظام والسكون بين الحين
 والحين، فهؤلاء هم أعراب مضر الذين كانوا يعيشون على النهب والغارة، وكان
 لا يد من إدخالهم في العصر الجديد ونظامه، وبنو ثعلبة هؤلاء هم أصحاب
 الثعلبية، وهي واحة صغيرة على الطريق بين مكة والكوفة في مداخل نجد .

ثم تكون سرية زيد بن حارثة إلى جُسمى في جمادى الآخرة سنة ٦ هـ/
 أكتوبر - نوفمبر ٦٢٧ م . وهي سرية حافلة بالأحداث والمعاني، وقد أشبعنا
 الكلام فيها في سيرة المصطفى صلوات الله عليه وسلامه . والذي يهمنا هنا أن
 أهل هذا الإقليم جُسمى، ويقع شرقي خليج العقبة، دخلوا الإسلام وطاع كل
 من فيه للمدينة بعد ضربة موجعة قام بها زيد بن حارثة، وعندما أعلن القوم
 إسلامهم واختبرهم زيد بن حارثة بقراءة أم الكتاب، أمر الرسول بأن يرد
 عليهم ما أخذ من سيهم عدا القتل الذين تنازلت القاتل الضاربة هناك عن
 حقها في دياتهم، وفيها من غطفان وبني عذرة ووائل وسلامان وبهراء . وكان
 الذي أعلن هذا التنازل أبو زيد رفاعة بن زيد الذي أحد كتاب أمان من

(٢) الواقدي، سناري ٢/ ٥٥٤

رسول الله ﷺ، وقد كانت الغنيمة وافرة في هذه السرية ألف معبر وحسمائة شاة، ولم تكن المدينة بحاجة إلى ذلك، ولكن الأعراب لا يرجعون إلى رشدهم إلا بمثل هذه الصربات.

وفي سياق هذه البعث التي كان الرسول يبعث بها إلى الشمال، نجد رسول الله يبعث عبد الرحمن بن عوف في بعث عدته ٧٠٠ رجل إلى دومة الجندل (شعبان سنة ٦ هـ / ديسمبر ٦٢٧ - يناير ٦٢٨ م.) وهذا جيش كبير، وقد سبقته سرية ممائلة إلى وادي القرى مكنت للمسلمين من ذلك الموقع الرئيسي على الطريق إلى الشمال.

فأما سرية عبد الرحمن بن عوف هذه إلى دومة الجندل فتدلنا على بعد نظر الرسول ﷺ وترباط خطواته ومراحل أعماله، فهو إلى الآن لم يستول على خيبر، أم مراكز شمال وسط الجزيرة، ولكنه يريد أن تكون دومة الجندل في يده حتى إذا توجه إلى خيبر كان واثقاً من أن أحداً لن يعينها أو يعين أهلها. ولا ننسى كذلك أن مكة كانت على خريطة أعمال الرسول، ولكنه الآن يستوثق من الأقاصي لتيسر الأداني، كانت دومة كأنها إمارة، وكان في أهلها نصاري كثيرون ممن يدخلون فيمن يعرفون في نصوصنا بعرب الضاحية، والمراد ضاحية قضاة وهم عرب الأطراف، وهم غير عرب الروم من أمثال غسان وأهل البلقاء.

والطريقة التي أرسل بها الرسول صلوات الله عليه هذه السرية تستوقف النظر، فهو يستدعي عبد الرحمن بن عوف ويقول له: وتجهز فإنني باعثك في سرية من يومك هذا أو من غد إن شاء الله، ويصدق عبد الرحمن بالأمر، ولكنه يحب قبل أن يخرج أن يصلي مع الرسول في المسجد، وكان أصحابه قد سبقوه إلى الخروح وانتظروه عند الحرف من شمالي المدينة ويقول له الرسول: ما خلفك عن أصحابك؟ قال ابن عمر: وقد مضى أصحابه في السحر فهم معسكرون بالحرف، وكانوا سعمائة نفر فقال: «أحببت يا رسول الله أن يكون

آخر عهدي بك وعلى ثياب سعري، وتسال الآن : من الذي أمر أولئك الرجال وهم سبعمائة بالخروج من السحر، مع أن الرسول لم يأمر عبد الرحمن بن عوف إلا الأمس؟ لا بد أنه كان هناك تنظيم ويمد أوامر الرسول، فهؤلاء الرجال لا بد أن يكونوا قد خرجوا على أمر، ولا بد أن الرسول قبل أن يختار الأمر أمر من رآه من أصحابه ليعد - أو ليعدوا - الناس، وهذه سواح من التنظيم السوي تعيب عن أبطار الكثيرين، مهم يرون كل شيء يسير بنظام ودقة وحسن استعداد فيأخذون ذلك على أنه يتم من تلقاء نفسه دون أن يكون وراءه إعداد وتنظيم. وهل يخرج جيش كهذا إلا على استعداد وتعبئة؟ وهل يترك واحد منهم بيته وأهله إلا إذا كان وراءه من قادة الأمة من يرعاهم أثناء غيابه.

ثم انظر إلى رسول الله ﷺ يعمم بيده عبد الرحمن بن عوف قبل خروجه : «وعلى عبد الرحمن بن عوف عمامة قد لفها على رأسه. قال ابن عمر: فدعاه النبي ﷺ فأقعده بين يديه، فنقض عمامته بيده، ثم عممه بعمامة سوداء، فأرخص بين كتفيه منها، ثم قال: هكذا فاعنم يا ابن عوف^(١)».

ثم تأمل التوجيه الرفيع الذي يكشف عن لباب دعوة الإسلام، فإن رسول الله ﷺ يقول لعبد الرحمن بن عوف: أغز باسم الله، وفي سبيل الله فقاتل من كفر بالله، لا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليد^(٢) فالرسول هنا يعد قادته شكلاً وموضوعاً، لباساً وروحاً، وحتى لو قلنا إن حكاية العمامة السوداء إصافة عباسية أتت فيها بعد فيبقى هذا الأسلوب الرفيع في إعداد الرسول لآتة وقادتها.

وقد تركسا وراءنا قريشاً في مكة محصورة مضيقاً عليها مأخوذة عليها الطريق كان زمانها ولي وفات، ولكسا نسي في هذا السياق أن الرسول ﷺ من قريش، وعبد الرحمن بن عوف من قريش وكذلك أبو بكر وعمر ونفبة معظم

(١) الواقدي، معاري ٢ / ٥٦٠ - ٥٦١

(٢) الواقدي، معاري ٢ / ٥٦١

قادة أمة الإسلام، فهداه إذن قريش الجديدة تولد في ظل الإسلام بسبب قريش الكافرة نموت في شعاب مكة، وهذا أروع شيء في تاريخ قريش. لقد ماتت وولدت في آن معاً، وسبحان ربك باري الكون يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي.

إن قريشاً الابنة التي ولدت في سور الإسلام ونمت في دفتها تتخطى أمها طويلاً وعرضاً، وتحنو عليها وتأسى لحالها، ورسول الله ﷺ يرمي قريشاً الوليدة بهذه الروح الرفيعة وينظر إلى الغد، يوم تفتح البنت العفية ذراعيها لتتلقى في ذراعيها الأم المريضة المتعبة التي أعيها الحوف وشلل الذهن وتوقف الفكر ووفر السمع وعمى البصر، ويهددها في رفق وتسجيها وتفتح ذراعيها المنضامتين المتخشبتين على صدرها، لينطلق أبناؤها الصغار الذين كادت تقتلهم في حضنها، لينطلقوا ويقفوا إلى جوار إخوانهم الذين سبقوهم وتبأوا الدار والإيمان، ترى هل يكون هذا معنى جديد نستنبطه من قول الرسول صلوات الله عليه يوم فتح مكة: اذهبوا فأنتم الطلقاء؟

ولكننا لا نريد أن ننقل من الآن إلى تتبع تاريخ قريش الوليدة، قريش الإسلام مخافة أن تأخذنا السيرة النبوية بفتنتها فننسى قريشاً الأم قريشاً الوثنية، فلنعد إليها ولنمض. معها حتى تلتنقي الفريشان عند فتح مكة.

ونستكمل خبر سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل لتتابع شهود التحول العام في جزيرة العرب أثناء صراع القرشيين، فنجد ابن عوف يصل إلى دومة الجندل وحمل رأسها رجل يسمى أسلم الأصم بن عمرو الكلبي، وكان نصرانياً، وقد فكر أول الأمر أن يقاوم المسلمين بالسيف ثم عاد إلى رشده فدخل الإسلام وطاع لأمته وكتب عبد الرحمن إلى رسول الله ﷺ بذلك وقال إنه يرغب في الزواج منهم، فكتب رسول الله ﷺ إليه. إذا استجاسوا لك فتزوج ابنة ملكهم أو سيدهم، ففعل وتزوج غماصر بنت الأصم من عمرو ملكهم، ووضح أن رسول الله ﷺ أراد بذلك أن يرتبط رئيس دومة الجندل بواحد من كبار

المسلمين مراعاة العهد، فيكون ذلك مؤيداً لإسلامه وإسلام قومه . وقد أنجب عبد الرحمن من نماضره أبا سلمة، وأصبح هذا الموضع المتطرف إلى الشمال من شبه الجزيرة من دار الإسلام، وانقطع أمل قريش في أن يكون لها فيه حلف أو قوة أو عون .

ويبدو أن أوان دخول خيبر في دار الإسلام كان قد اقترب في تقدير رسول الله ﷺ . وقد سبق أن أشرنا إلى أن خطواتها كانت مقدرة بحساب على أساس خطة عامة تؤدي إلى دخول شبه الجزيرة كله في الإسلام، لتكون بعد ذلك قاعدة لنشر الإسلام في الخفافين، ويبدو أن بعض زعماء العرب شعروا بذلك فقد كان أولئك الزعماء نتيجة لحياة التحدي الدائم الذي كانت قبائلهم تعيشه في شبه الجزيرة، كان عندهم حس مرهف برياح الأحداث المقبلة قبل أن تعصف، ويتجلى لنا ذلك في حديث السرية التي بعثها رسول الله ﷺ بقودها علي بن أبي طالب إلى بني سعد بفدك في شعبان سنة ٦ هـ / ديسمبر ٦٢٧ - يناير ٦٢٨ م . والأغلب أن بني سعد المقصودين هنا هم بنو سعد بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمه بن كنانة فهؤلاء أبناء عمومة بني ثعلبة بن دودان ابن أسد أصحاب الثعلبية الواقعة إلى جنوب فدك في الطريق من مكة إلى الكوفة، وتلك هي الجهة التي توجه إليها علي في هذه السرية بأمر الرسول ﷺ، وهم كذلك أبناء عمومة الهون بن خزيمه بن كنانة وهم القارة من كبار أعراب نجد الذين تكلفت أمة الإسلام جهداً شاقاً في ترويضهم وإدخالهم الإسلام، وكان علي رأس بني سعد هؤلاء رجل يسمى وبر بن عليم .

وكان الرسول يتوقع أن يقوم بنو سعد بإمداد يهود خيبر فتعجل بإرسال علي إليهم، وقد صدق تقدير الرسول لأن سرية علي - وعدتها مائة رجل - صادفت عد موصع يسمى المَمَج (ماء بين خيبر وفدك) عيناً لليهود خيبر كانوا قد أرسلوه إلى بني سعد فأرسل بنو سعد «يعرضون عليهم نصرهم على أن يجعلوا لهم من ثمرهم كما جعلوا لغيرهم ويقدمون عليهم»، وغيرهم المقصودون هنا

هم غطفان ، وعندما ضغط المسلمون على هذا الجاسوس أو الرسول أقر بحقيقة مهمته ، فأمنه المسلمون على أن يدلهم على مآزل بني سعد ففعل ، ونذر بنو سعد بالمسلمين فعروا على وحوهم تاركين نعمهم فأصاب منها المسلمون خمسمائة بعير وألف شاة

وها هنا حكاية صغيرة تدل على ما بلغ إليه أمر أمة المدينة من القوة والهيبة في شبه الجزيرة قبل الحديبية وفتح حبر. قال الواقدي في المغازي : وحدثني أبي بن العلاء ، عن عيسى بن عُلَيْلَة عن أبيه عن جده قال : إني لبوادي الحمج إلى بديع^(١) ما شعرت إلا ببني سعد يحملون الظعن وهم هاربون ، فقلت : ما دهاهم اليوم ؟ فدنوت إليهم ، فلقيت رأسهم وبسر بن عُلَيْم ، فقلت : ما هذا المسير ؟ قال : الشر . سارت إلينا جموع محمد وما لا طاقة لنا به قبل أن نأخذ للحرب أهبتها ، وقد أخذوا رسولاً لنا بعثناه إلى خير ، فأخبرهم خبرنا ، وهو صنع بنا ما صنعنا قلت : ومن هو ؟ قال : ابن أخي ، وما كنا نعد في العرب فتى واحداً أجمع قلباً منه فقلت : إني أرى أمر محمد أمراً قد أمن وغلظ : أوقع بقريش فصنع بهم ما صنع ، ثم أوقع بأهل الحصون بئر^(٢) ، فبنقاع وبني النضير وفريضة ، وهو سائر إلى هؤلاء بخير ، فقال لي وير : لا تحش ذلك . إن بها (بخير) رجالاً وحصوناً منعمة وماء وإتناً (دائماً) لا دنا منهم محمد أبداً ، وما أحراهم أن يفزوه في عقر داره ! فقلت وترى ذلك ؟ قال : هو الرأي لهم فمكث علي عليه السلام ثلاثاً ، ثم قسم الفنائم ، وعزل الخمس وصلى النبي ﷺ لقوحاً تدهى الحفيدة قدم بها^(٣) .

وفي حديث سرية أم قرفة التي كانت في رمضان سنة ٦ هـ / يناير - فبراير ٦٢٨ م . نرى شيئاً جديداً وهو أن المدينة الآن هي التي تتولى أمر تجارة نفسها

(١) بديع أرض من مكة

(٢) أهل الحصون بئرهم هم يهود بني قينقاع وبني الصبروسي خريطة كما يتضح من النص وقد ذكر السهمودي في ولاء الوفاء ٣٠ أطبا للأوس والخزرج و ٥٩ أطبا لهؤلاء اليهود

(٣) المغازي : ٥٦٣/٢ .

دون أن تلقى سالاً إلى مكة، ولم يكن ذلك بالأمر اليسير، لأن القسائل على الطريق وخاصة عطفان ويطونها تمودت أن تتولى مكة هذه التحارة، وتمنع القسائل إتاوات وحمارات. أما المدينة فلا تعطي شيئاً، إنما هي تريد أن تسير تحاربتها إمامة بين القسائل سالية والحق، لأن أداء الإتاوات للبدو الكمار عبر جائز، ولو كاسوا مسلمين فربما لم يكن في ذلك بأس، ففيه معاش لأعراب فقراء في حاجه إلى المعونة، أما أن يطلوا كفاراً وجلماء كفار فلا سبيل إلى أن يبالوا شيئاً. وما دامت المدينة لا تؤدي شيئاً فلا بد من الغارة على متاجرها ومجارها، وقد سبق أن اعتدى نفر من جذام ضاربون بناحية جسمى على دحية الكلبي صاحب رسول الله ﷺ، وهو عائد من بلاد الروم في شعبان سنة ٦ هـ. وخلصه منهم نفر من بني الضبيب كانوا أحلافاً للمدينة. وقد خاف الجذاميون من مَغَبَّة ذلك فوفد منهم على رسول الله ﷺ وفد على رأسه رفاعه بن زيد الجذامي فأسلموا وكتب لهم النبي كتاباً أورد لنا الواقدي نصه وهو: «بسم الله الرحمن الرحيم. لرفاعة بن زيد إلى قومه عامة وَمَنْ دخل معهم يدعوهم إلى الله ورسوله، فمن أقبل منهم فهو من حزب الله وحزب رسوله، ومن ارتد فله أمان شهرين» ثم يستطرد الواقدي فيقول: «فلما قدم رفاعه على قومه بكتاب النبي ﷺ قرأه عليهم، فأجابوه وأسرعوا. ونفذوا إلى مصاب دحية الكلبي، فوجدوا أصحابه قد تفرقوا^(١)».

وما دام الإسلام قد كسب ركيزة في حسمى فقد بادر الرسول ﷺ إلى إتمام العمل بتأديب من اعتدوا على المسلمين - متمثلين في شخص دحية - وهم قوم من جذام ومن انضم إليهم من فزارة ويطون أخرى من غطفان، كان لا يرضيهم أن تثر تحجارة المسلمين ورجالهم دون إتاوة يؤدونها لهم غير عاملين أن نظاماً حديثاً قد قام، وأن عهد الإتاوات قد انتهى وحل محله عهد سلام الإسلام *pox islamica* وعماده الدحول في الإسلام، ومن لم يدخل فيه فإمامه

(١) الواقدي معاري ٥٥٧/٢ والمراد بمصاب دحية المكان الذي أصيب فيه

شهران مهلة ليروي الأمر كما جاء في كتاب رسول الله ﷺ لرفاعة بن زيد
الجدامي

وكان رسول الله قد أراد أن يكمل العمل بالسيطرة على بقية الأعراب
الذين يرلّون في أطراف نجد على الطريق إلى العراق، فأرسل زيد بن حارثة في
حسمانة رجل قبل ذلك في جمادى الآخرة سنة ٦، لكي ينظروا في أمر عطفان
ووائل ومن جاورهم من سلامان^(١) وبهراء بن عمرو بن الحنفي بن قضاعة،
فاستعان زيد بدليل من بني عنزة أخرجه على منازل القوم من خلف، فأغار زيد
وأصحابه عليهم وقتلوا نفرًا من بني سعد هُذيم وقتلوا الهنيد وابنه اللذين قادا
العدوان على المسلمين وأغاروا على نعيمهم وغنموا ألف بعير وخمسة آلاف شاة
ومن النساء مائة من النساء والصبيان، فرجع بقية القوم ممن كانوا دخلوا في
الإسلام مع رفاعة بن زيد الجدامي يقودهم حيان بن ملة، فقالوا لزيد
إنهم أسلموا، فامتحن زيد رئيسهم حيان بقراءة أم الكتاب فلما قرأها صدق
زيد إسلامه، ثم أسرع نفر آخر من زعمائهم فيهم أبو زيد بن عمرو وأبو أسماء
ابن عمرو وسويد بن زيد وأخوه وبرذع بن زيد إلى رفاعة بن زيد يستغيثون به،
لأنه هو الذي أخذ أمان رسول الله ودخل هو وقومه في الإسلام، فسار معهم
رفاعة حتى دخلوا المدينة، ولقوا النبي ﷺ وقالوا إنهم أسلموا وطاعوا، فقال
رسول الله ﷺ فما أصنع بالقتل؟ فطلب رفاعة أن يطلق لهم الرسول الأحياء
ويتنازلون عن ديات القتلى، ويرد عليهم ما غنم زيد بن حارثة منهم، فقبل
الرسول ونادى علي بن أبي طالب رضي الله عنه لكي يبعثه إلى زيد بن حارثة،
وها هنا ملاحظة فإن علياً قال لرسول الله: «يا رسول الله لا يطعن زيد» وتلك
عبارة تدل على أن زيدا لم يكن على وثاق مع علي، وسنرى قرب وفاة الرسول
ﷺ أن بقية كبار القرشيين من أصحاب رسول الله، كانوا غير راضين عن زيد
ابن حارثة لا يعحبهم أن يقود السرايا من دونهم، وكان الرسول كما سرى يعلم

(١) الغالب أن المراد هنا سلامان بن سعد هذيم من بني أسلم بن الحنفي بن قضاعة

ذلك بدليل أنه لم يسكر ما قال علي، بل أعطاه سيفه علامة. فلما وصل علي إلى زيد وأبلغه رسالة رسول الله قال زيد: علامة من رسول الله؟ قال علي هذا سيف رسول الله فعرفه زيد وأمر بإطلاق أسرى القوم ومسيهم فرد المسلمون من المعنم ما لم يكونوا قد نصرفوا فيه.

التهديد للحديبية :

من الواضح أن رسول الله ﷺ كان يهدد لخطوة حاسمة مع قريش بمكة، وكان يرى أن يهدد لذلك بأن يدخل كل شمال شبه الجزيرة في أمان الإسلام، فمن دخل فيه راضياً فقد كرمه الله، ومن أصر على الخلاف فلا بد من فتح بصيرته أو تنحيته عن طريق الإسلام أو أخذه بالعنف إن كان من أهل العنف والعدوان، وكل السرايا والغزوات السابقة على عمرة الحديبية، لم تخرج غاياتها عن هذه. وكان من البين أن الأعراب لن يكفوا عن الغدر والعدوان إلا إذا أخذوا بعنف، والأمر معهم لم يكن تأديباً أو انتقاماً أو عقاباً، بل كان نقلة اجتماعية حضارية من البداوة والفوضى والعدوان على المسافرين أو الضوافل واهتبال غرة الحضر وحواشيهم، مما كان أسلوب حياة وعرفاً جارياً عند الأعراب يقدمون عليه دون تفكير في عقاب أو خوف من منبة قصاص، فعلى ذلك جعلوا وبه عاشوا، وقبلهم الناس على هذا الوضع فصانعوهم بالأحلاف والإتاوات والخفارات والضربات العنيفة ما تيسر. ولم تكن شريعة الإسلام أو أخلاقياته تسمح بالمصانعة على الباطل أو تشجيع أهل الغارة بالخطوف منهم ومصانعتهم، إنما هو تخييرهم بين الإسلام أو الكف عن العدوان، فإذا لم يسلكوا هذا المسلك أو ذاك، فهناك الضربات الموجهات التي ترد الحاحل إلى رشاده، ويستمر الأمر على ذلك حتى يكون فتح مكة وتنزل سورة براءة، ولا يقبل من الكفار بعد ذلك إلا الإسلام ويُعطى المعارض مهلة أربعة أشهر في شبه الجزيرة إما دخلوا في الإسلام أو يأذّبوا بحرب من الله ورسوله.

وكانت حيرت تعتبر عقبة كبيرة في هذا السبيل، ولم يكن هناك أمل في أن

يدخل يهودها في الإسلام أو يكفوا عن الأذى، فلم يبق إلا أن يقضي على مقاومتها وعيادها وتدخل في أمان أمة الإسلام، وكان ذلك واضحاً لأهل المدينة وللعرب من أحلاف خيبر ومصاعبها ولأهل خيبر أنفسهم، وكان هؤلاء يجدون في أنفسهم قوة تستعصي على الإسلام وأهله، ولم يزل ذلك دأبهم حتى لقوا أهل المدينة في القتال، فمُتت مقاومتهم وخارت قواهم وألقوا بيد وهم صاغرون كما فعل بنو قريظة من قبل. وبسقوط خيبر ينكسر ظهر جماعة البدو الكبرى وهي غطفان ومن انضوى إليها. وتأمين المدينة من ناحية الشمال كله وتستطيع توجيه قواها كلها نحو مكة، وهذا هو ملخص التطور السياسي والعسكري والاجتماعي والديني في شمال شبه الجزيرة من نهاية معركة الخندق أو الأحزاب في ذي القعدة سنة ٥ هـ / أبريل ٦٢٧ م حتى فتح مكة في رمضان سنة ٨ هـ / يناير ٦٣٠ م.

وقد أتينا بأمثلة تؤيد ذلك كله فيما رويناه من أخبار الغزوات والسرايا إلى الأعراب في نجد وشمال شبه الجزيرة والحجاز، وليس هنا موضع إحصاء هذه الغزوات والسرايا واحدة واحدة، فهذا موضعه السيرة النبوية الشريفة، وإنما أشرنا إلى ما أهمنا منها. ورأينا كيف توالى السرايا والغزوات: بعد بني قريظة ذهبت سرية محمد بن مسلمة إلى القُرطاء وهم بطن من بني بكر بن كلاب من هواز، وكانوا ينزلون البكرات في نواحي ضربة على بعد سبع ليال (= حوالي ٢١٠ كيلومترات) من المدينة وعادت بغنيمة وافرة من الأبل والشاء، ثم كانت سرية عبدالله بن عتيك بن قيس للقضاء على عدو لدود للإسلام والمسلمين من يهود بني النضير الذين لجأوا إلى خيبر، وهو أبو رافع سلام بن أبي الحقيق. وقد أتت فكرة القضاء عليه من ناحية الحرج، فقد رأوا أن إخوانهم الأوس قد أزالوا من الطريق كعب بن الأشرف وكان عدواً للإسلام يهودياً، فأرادوا أن يضاهوا إخوانهم في خدمة الإسلام وأمتهم بالقضاء على أبي رافع سلام، وكان معتصماً في حير وكان واسع النشاط في إبداء الإسلام وأمتهم، متهماً في التحريض عليها، فاستأذن نفر من الحرج على رأسهم عبدالله بن عتيك بن قيس، النبي

ﷺ في القضاء على أبي رافع في عقر بيته، وكانوا خمسة نفر: أربعة من الخزرج وواحد من موالى الخزرج وهو خراعي بن أسود وهو من بني أسلم الخزاعين. والخزاعيون أساء عمومة الأوس والخزرج، وإن كان ابن حزم ونفر آخر من السادة قد جهدوا في ربط حراة إلى شجرة عدنان عن طريق عك بن عدنان. وفي أيام الرسول ﷺ كانت حراة كلها إلى حاسب الأوس والخزرج، وقد دخلت حراة في الإسلام وأوعيت، وكان لذلك فيما بعد أثر بعيد في سير الحوادث في تاريخ المسلمين. وقد استطاع أولئك النفر القليلون من الخزرج أن يقتحموا على أبي الحقيق داره داخل خيبر ويقضوا عليه في بيته وبين أهله، وكان الذي تولى قتله عبدالله بن أنيس رغم أنه كان ضعيف البصر جداً لا يكاد يرى في الليل، وقد قتله ليلاً وقد كسرت ساقه وهو ينزل السلم بعد أن قام بعمله، وكان السلم عجلة أي جذع منقور على هيئة درجات السلم.

ثم تلا ذلك غزوة بني الحيان، وهم من الأعراب من مضر نجد، وقد نذروا بمسير الرسول إليهم ففترقوا في الجبال. وفي هذه الغزاة قرأ أن رسول الله ﷺ عندما أخطأ من غرتهم - بني الحيان - ما أراد قال: لو أننا هبطنا عسفان لراى أهل مكة أننا قد جئنا مكة فخرج في مائتي راكب من أصحابه حتى نزل عسفان، ثم بعث فارسين من أصحابه حتى بلغا كراع العميم ثم كرا، وراح رسول الله ﷺ قافلاً، فكان جابر بن عبد الله يقول: «سمعت رسول الله ﷺ يقول حين وجه أهل هذه السرية يدهو قائلاً آيئون تائبون إن شاء الله، لربنا حامدون. أعوذ بالله من وعشاء السفر وكأبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال»^(١). والحديث عن غزوة بني الحيان عن عاصم بن عمر بن قتادة وعبدالله ابن أبي بكر بن مالك. وقال ابن سعد: «فبعث أبا بكر في عشرة فوارس لتسمع به قريش، فيدعروهم، فأتوا العميم ثم رجعوا ولم يلقوا أحداً»^(٢).

وقد روى الواقدي الخبر بعض خلاف، فقال إن سب خروج رسول

(١) هذه السرية لم تزوج وقد أسقطها بعض أصحاب المعري

(٢) روه عن ابن سعد ابن سيد الناس في عيون الأثر ٨٣/٢

الله لغزو بني لحيان أنه وجد وجداً شديداً على عاصم بن ثابت وأصحابه، وكانوا لا يزالون أسرى بيد القرشيين، وكان الشهر شهر محرم، فكانوا ينتظرون انسلاخ الشهر ليقتلوهم، ورواية الخبر على هذه الصورة لا تصح، لأن رسول الله لو كان حرج ليستنقذ عاصم بن ثابت وخبيب بن عدي لفعل، أما أن يجد وجداً شديداً عليهما ثم يكتفي بالوقوف عند عسفان وإرسال بعث صغير إلى كرام الغمام لمجرد إرهاب أهل مكة فتصرف لا يشبه تصرف رسول الله ﷺ، وإنما الأصح ما يقوله ابن سعد وهو أن الغارة كانت وجهتها بني لحيان، فلما هربوا أراد رسول الله أن يختبر قوة قريش على رد الفعل لأنه كان يقدر أنه خارج للعمرة عن قريب.

وستوقف نظرننا هنا أن قريشاً لم تتحرك. قعد بها الخوف عن التحرك، ولا تحرك أحد من أحلافها، وهذا يفسر لنا كل تصرف الرسول ﷺ في غزوة الخديبية. فقد خرج رسول الله وهو يعرف يقيناً أنه يذهب إلى بلد لا حول له ولا طول. بلد فقد قوته ووقف عاجزاً لا يملك إلا بقية من عزة النفس، ولهذا فقد خرج الرسول معتمراً بلا سلاح، وحتى لو أنه أراد دخول مكة بالقوة في هذه الحالة لدخل، بل دهش بعض أصحابه لعدم دخوله ومنهم عمر بن الخطاب، فلج في الكلام والاحتجاج حتى كاد يقع في الخطأ، والرسول صلوات الله عليه يصبر على ما يقول ولا يزيد على أن يقول: «إني رسول الله والله لن يضيئني». وعندما أخذ الرسول بيعة الرضوان أخذها عندما سمع أن عثمان قد قتل، ولو قتل عثمان لكانت الحرب، ولكن عثمان لم يقتل، فانفضى التفكير في الحرب، ثم كانت المفاوضات، وكان رسول الله فيها كريماً الكرم كله، حليماً الحلم كله، وكان أحرص على الحفاظ على كرامة قريش وماء وجهها من زعمائها، فسلم لهم بكل ما رأوا أنه يحفظ لهم احترامهم وسط الناس، واتفق معهم على أن يعود للعمرة من قابل.

وإذن فقد كان لا بد من هذا الاقتراب من مكة في المحرم سنة ٦ هـ/

يونيو ٦٢٧ م لكي تتم غزوة الحديبية كما تمت في ذي القعدة من نفس العام /
 مارس ٦٢٨ م وإن القارىء للسيرة النبوية ليقراً أن رسول الله قال بعد أن
 هرب بنو لحيان: لو أنا هبطنا عسفان لرأى أهل مكة أننا قد جئنا مكة، وكان قد
 اقترب منها في مائتين فحسب من أصحابه ومن عسفان يبعث فارسين أو أبا بكر
 في عشرة من أصحابه إلى كراع الغميم فلا يلقوا كيداً، فيأمر بالعودة إلى المدينة
 وهو يقول: آثبون تائبون... الخ، إن من يقرأ هذه الأحبار دون بصر بالسيرة
 في جملتها ودون فهم للشخصية المحمدية لن يرى في مثل هذا الخبر شيئاً،
 وهو كما رأينا تصرف من الرسول محسوب مقصود، إذ ما كان محمد ﷺ
 ليتحرك حركة مثل هذه دون حساب وتقدير، وما كان ليقول شيئاً إلا وله معنى
 في الصميم، وهنا فقط نفهم نحن على ضوء التاريخ لماذا دعا محمد في هذه
 المناسبة بالذات دعاءه المشهور آثبون تائبون عابدون، لربنا حامدون، اللهم
 أنت صاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم أهدناك من وعشاء السفر
 وكأبة المنقلب، وسوء المنظر في الأهل والمال، اللهم بلغنا بلاغاً صالحاً يبلغ إلى
 خير، مغفرة منك ورضواناً، هذا الدعاء الذي لم يعرف الواقدي وأصحابه
 كلهم عنه إلا أن محمداً قاله هنا أول مرة، إنما قاله محمد ﷺ وبصيرته ترى ماذا
 يحدث في عمرة القضية وهي الخروج إلى الحديبية وإداء العمرة، والأهل والمال هنا
 هم أهل محمد من قريش وماهم في مكة. وكان محمد حريصاً على سلامتهم لأنه
 يذخرهم للإسلام بعد فتح مكة. فتصور والله نفاذ البصيرة وبعد مطارح
 التفكير والتدبير.

ونعود إلى حديث المواجهة بين القرشيين لنقول إن تلك الأمثلة الثلاثة التي
 ضربناها، تبين لنا الاتجاهات الثلاثة التي سار فيها نشاط المدينة قبل الحديبية
 وهي:

- ١ - التمهيد للقضاء على مهد العداوة اليهودي الباقي في خير.
- ٢ - كسر شوكة قبائل الأعراب في وسط الجزيرة العربية وشمالها، حتى إذا

توجه نحو مكة فعمل ذلك دون أن يشغله عن ذلك شاغل أو يهدد المدينة شيء.

٣ - ادحال قبائل الطرق التجارية في أمة المدينة - إسلاماً أو حلفاً أو موادة حتى تفتح طرق المدينة كلها إلى الشمال والشمال الشرقي

وسنرى مصاديق أخرى على ذلك عند كلامنا على مواجهة القرشيين الحاسمة في الحديبية.

ونقف هنا لحظة عند مربي عبدالله بن رواحة للقضاء على أسير بن زارم في خيبر في رمضان سنة ٦ / يناير - فبراير ٦٢٨ م والثانية في الشهر التالي وهو شوال. الأولى كانت لاستطلاع أحوال خيبر ودرس أحوال أسير بن زارم فيها، وأسير كان خليفة أبي رافع بن أبي الحقيق في زعامة خيبر، وكان رجلاً شجاعاً جريئاً، وكان يتحدث في أن يخرج إلى غطفان فيجمعها ويسير بها لغزو المدينة، فيصل الخبر إلى رسول الله ﷺ بواسطة خارجة بن حبيل الأشجعي، وأشجع كانت من صفار قبائل الحجاز التي انضوت تحت ذراع المدينة دون مشقة، مثلها في ذلك مثل غفار ومزينة، أما خزاعة فلها شأن آخر نتحدث عنه إن شاء الله في الفقرة التالية، فيندب الرسول عبدالله بن رواحة في نفر قليل مستطلعاً، ثم يرد مرة أخرى في ثلاثين رجلاً فيفضون عليه.

وَأُسَيْرُ يُكْتَبُ فِي بَعْضِ نصوصنا (الْيُسَيْرُ) وإذن فهو اليعازر وهو اسم يهودي يتردد في العهد القديم وحوليات اليهود ولا زال مستعملاً إلى اليوم.

والآن ننتقل إلى الحديبية أو عمرة القضية أي عمرة الاتفاق أو المعاهدة كما نقول بلغة اليوم.

غَزْوَةُ الْحُدَيْبِيَّةِ بَنُو عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ يَتَوَلَّوْنَ قِيَادَةَ مَكَّةَ :

خرج رسول الله ﷺ للعمرة في ذي القعدة سنة ٦ هـ/ مارس ٦٢٨ م .
بناء على تقدير سابق دقيق، وقد رأينا كيف مهد رسول الله ﷺ لذلك أثناء غزوته
لبنى الحبيان، فاختر قوة رد فعل قريش، إذا هي علمت أن المسلمين وصلوا
بخيالهم إلى كراع الغميم على أميال شمال مكة، فلم ير أن قريشاً تحركت أو
صدر عنها أي رد فعل فأيقن بضعفها وعجزها عن المقاومة، ومن ثم فقد آن
أوان أداء العمرة ثمهداً للحج . وسرى فيما بعد حديثاً لرسول الله ﷺ يؤيد
هذا المعنى .

والذي يستوقف نظرنا، ونحن ندرس قريشاً أن هذه القبيلة التي كانت
تقف على رأس قبائل شبه الجزيرة وترتبط مع معظمها بأحلاف واتفاقات،
وقفت الآن وحيدة لا يؤيدها أحد، ولا تفكر قبيلة مهما بلغ حجمها في تأييدها
ومناصرتها كأنها قد سقطت فجأة من الحساب . وإذا كان المسلمون قد قطعوا
خيوطها مع الشمال والشمال الشرقي، فما بال قبائل الشرق والجنوب : ما بال
هوازن وحميم وحنيفة وعبد القيس وقبائل اليمن وحضر موت وعمان وكلها
كانت تحضر الأسواق ومواسم الحج . بل ما بال الحج قد تضائل إلى درجة لا
تسمع معها عنه؟ أكانت أسواق مكة تعقد؟ أكان موسم الحج يحفل بالناس؟
هنا لا تنبئنا مراجعنا بشيء، لأن نظر المؤرخين كله، اتجه الآن إلى أمة المدينة
وأصحاب السيرة على الخصوص، سقطت قريش من اعتبارهم فلم تعد تذكر
إلا في مناسبات استكناك أمة الإسلام بها، وصيغود ذكر قريش إلى الظهور مع
الحديبية، وهي ميدان المواجهة الكبيرة الأولى بين قريش والإسلام بعد أن
احسم الأمر بينهما أثناء الخندق وبان للناس أجمعين، أن قريش الإسلام علبت
قريش الحاهلية، وأن مهاجري قريش إلى المدينة على قلتهم العددية قد
أصبحوا اليوم بفصل الإسلام ومحمد صلوات الله عليه، قادة الحريرة

وأصحاب الكلمة فيها، ودامت لهم السبل حتى كان القرشي الواحد من المهاجرين إلى المدينة يمضي إلى الشام بما معه من تجارة، فإذا اعتدت عليه إحدى القبائل لم يلبث أن ينال المعتدي العقاب الرادع كما حدث في خروج زيد ابن حارثة إلى الشام ومعه تجارة لأصحاب النبي ﷺ في رجب سنة ٦ هـ / ديسمبر ٦٢٧ م، فلما كان في منارل بني فزارة من بني بدر من غطفان أخذوه فضربوه وضربوا أصحابه حتى ظنوا أنهم قد قتلوا، ولكن ريداً أبُلَّ مما أصابه ولحق بالنبي ﷺ، فعجل الرسول بإرساله في سرية إلى هؤلاء القوم، فأوقع بهم وقعة شديدة وغنم منهم وأسر وتلك هي السرية المعروفة بسرية بني أم قرفة، وكان من أسرهم بنت أم قرفة، وهي امرأة من فزارة عجوز كانت نسب النبي ﷺ ويبلغه ذلك، فأخذ سلمة بن الأكوع ابتها سبية وقبض المسلمون على العجوز السليطة وقتلوها، وعندما وصل الجمع المظفر إلى المدينة أخذ الرسول ابنة أم قرفة وأهداها لصاحبه حزن بن أبي وهب فأنجب منها بنتاً ليس له منها ولد غيرها.

حتى ثقيف حليفة قريش وصاحبة الصهر الوثيق معها، سئرى بعد قليل أنها تراخت عن نصر قريش، فلم يأت منها لنصر قريش أثناء الحديبية إلا واحد من صغار رجالها هو عروة بن مسعود الثقفي، وكان حليفاً لقريش ينزل مكة في جوار سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف وهي تعد في عماته^(١)، وقد أتى مع من أطاعه من قومه وهم قليل، بل إن زعيم الأحابيش، وهم أوثق أحلاف قريش وأقربهم منزلاً، وقفوا موقف الحياء بين محمد رسول الله وقريش بل إنه طلب إليها أن تاذن لرسول الله ولأصحابه بدخول مكة للاعتمار.

ولكن استجابة الأعراب أو عدم استجابتهم ليست بقياس سليم للتأييد وعدمه، فالأعراب، وخاصة صغار قبائلهم معينون بأمر أنفسهم لا يعرضون أنفسهم لأي مغامرة غير محمودة المواقب، ومن دلائل ذلك ما يرويه الواقدي من أن الأعراب القرييين من المدينة المعروفين بدخولهم في حلعمها، عندما رأوا

(١) ابن حزم، الجمهرة: ٢٦٦

رسول الله ﷺ يخرج إلى مكة معتمراً وهو وأصحابه دون سلاح أرتابوا في الأمر وأيقوا بأن قريشاً ستقضي عليه وعلى أصحابه، قال الواقدي: «فجعل رسول الله ﷺ يمر بالأعراب فيما بين مكة والمدينة فيستغفرون له بأموالهم وأبنائهم ودرارهم - وهم بنو بكر (بن عبد ماسة بن كنانة) ومريضة وجهينة - فيقولون فيما بينهم: أيريد محمد أن يغزو بنا إلى قوم مُعَدِّين مؤيِّدين في الكراع والسلاح، وإنما محمد وأصحابه أكلة جزور إلى يرجع محمد وأصحابه من سفرهم هذا أبداً قوم لا سلاح معهم ولا عدد وإنما يقدم على قوم حديث عهدهم بمن أصيب منهم بيد»^(١).

وهذا التراخي من جانب بعض الأعراب جعل محمداً ﷺ يحذر البدو طول طريقه، ولقد كان آمناً لخزاعة وبطونها لأنهم حلفاءه وحلفاء أمة الإسلام، ثم إن خزاعة وخاصة بنو كعب أسلمت ودخلت الإسلام، وكان بنو المصطلق من خزاعة قد أعوجوا على رسول الله ﷺ فكانت غزوة المريسيع، وبها استقام أمر خزاعة كلها للإسلام وأمه. وما عدا خزاعة فكان الرسول في ريب منهم. وعندما وصل رسول الله إلى الروحاء، وهي قرية جداً من المدينة وفي منطقها لقي جماعة من بني عبد بن زيد بن ليث بن عبد مناة (بني خزاعة بن مدركة بن إلياس بن مضر) وبنو عبد مناة جميعاً وخاصة بنو بكر منهم كانوا مباعدين للإسلام وأهله مقاربين لقريش وأهل الكفر - فدعاهم إلى الإسلام «فلم يستجيبوا له وانقطعوا من الإسلام»^(٢)، ثم أرادوا مع ذلك استرضاء الرسول ﷺ فبعثوا عند مرور الرسول قرب ديارهم برجل منهم معه لبن هدية، فأبى قبوله وقال: «لا أقبل هدية مشرك»^(٣)، ولكنه أذن لأصحابه في شراء اللبن فاشتروه وشربوا منه، ثم أتوا المسلمين بثلاثة أضب (جمع ضب) لبيعوها منهم، فسأل المسلمون الرسول ﷺ إن كان يحل لهم أن يشتروا ما صاده غيرهم وهم حرم، فقال: «كلوا، فكل صيد ليس لكم حلال في

(١) الواقدي، معاري ٢/ ٥٧٤ - ٥٧٥

(٢) الواقدي، معاري ٢/ ٥٧٥

(٣) الواقدي، معاري ٢/ ٥٧٥

الإحرام تأكلونه إلا ما صدتم أو صيد لكم^(١)،

وكان بعض المسلمين قد انتظر بالإحرام حتى يقرب من مكة، فصاد بعضهم حماراً وحشياً وطبخوه، ولحقوا رسول الله فعرضوا عليه منه، وقدموا له دراعاً فأكلها وحتى أتى على آخرها وهو محرم، لأن المسلمين المحرمين لم يصيدوه ولا صيد لهم، فأكله ليس حراماً على المحرمين

وكان ذلك عند الأبواء، مما يدل على أن رسول الله ﷺ سلك بمن معه الطريق الفرعي ناحية البحر، وكان يستحبها في روحاته إلى مكة وعودته إلى المدينة.

وعند ودان - وهي قرية من الأبواء أهديت لرسول الله ﷺ هدية أخرى من قوم لم تحدد لهم المراجع، ولكن لا شك أنهم من أهل الإسلام لأن الرسول كما رأينا كان لا يقبل هدية مشرك. والهدية كانت جزراً ومائة شاة وبعيرين يحملان لبناً.

ونحن نقرأ أخبار هذا المسير ونشعر أن رسول الله والمسلمين يسرون في أمن وهدأة، كأنهم لم يعودوا يخشون أحداً في الحجاز فهم بغير سلاح، ولكن أحداً لا يعرض لهم أو يجافهم، بل إن الهدايا تأتيهم في كل موضع فيقبلون أو لا يقبلون، ولا أحد يذكر قريشاً أو يحسب لها حساباً، ففي ودان هذه الهدية لرسول الله إلى جانب هدية إماء بن رخصة التي ذكرناها وثلاثة أشياء: معيشا وعترا وضغابيس، وجعل رسول الله ﷺ يأكل من الضغابيس والعتر وأعجبه وأمر به فأدخل على أم سلمة زوجته، وجعل رسول الله ﷺ يعجبه هذه الهدية ويرى صاحبها أنها طريفة، والمعيش هو الخنزير في الغالب، والعتر نبات يؤكل، فإذا طال وقطع أصله نخرج منه شبه اللبن، والضغابيس كما في القاموس جمع ضغبوس وهي صغار القثاء أي أنها الخيار، واللطف هنا هو إقبال النبي عليها وحرصه على أن يرى صاحبها أنها طريفة.

(١) الواقدي، معاري ٥٧٥.

وعندما يصل رسول الله والذين معه إلى الحجمة، قرب رابغ البحر الحالية يحدث شيء عريب، وهو أنه ﷺ يبعث رجلاً يأتي بالماء من وادي الخرار غير بعيد من الحجمة. فلا يكاد الرجل يسير قليلاً حتى يدركه الخوف فلا يستطيع أن يتقدم. ويعود إلى رسول الله ويبلغه ذلك، فيبعث غيره فيحدث له مثل ذلك، فأرسل الرسول رجلاً من أصحابه و«خرج السقاء معه، وهم لا يشكون في الرجوع لما رأوا من رجوع النهر، فوردوا الخرار فاستقوا ثم أقبلوا بالماء، ثم أمر رسول الله بشجرة، فقمم (كنس) ما تحتها فخطب الناس فقال: أيها الناس إني كائن لكم قرطاً، وقد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وسنته بين أيديكم، ويقال: تركت فيكم كتاب الله وسنة نبيه^(١)». والقرط هو السابق أي المتقدم وقد ورد اللفظ في حديث رسول الله ﷺ^(٢). وحديثه هنا في موضعه، لأنه عندما رأى الخوف يستولي على بعض الناس طمأنهم إلى أن لديهم ما إن تمسكوا به لم يخافوا شيئاً: الكتاب والسنة.

والآن والمسلمون في طريقهم إلى مكة، أي وقريش المسلمة في طريقها إلى قريش الكافرة، تنتقل إلى معسكر هذه لنرى ماذا صار إليه أمرها.

قُرَيْشُ قَبْلَ الْحُدَيْبِيَّةِ :

من الواضح أن مسير محمد ﷺ والمسلمين نحو مكة أفزع أهلها، وأحس زعماء القرشيين وخاصة رؤساء كعب بن لؤي وعامر بن لؤي (وفيهاya تتمثل المقاومة للإسلام) أن مصيرهم في الميزان، فاجتمع زعمائهم للتشاور في أمرهم، وكان زعمائهم في ذلك التحرك صفوان بن أمية بن خلف (جمع) وسهيل بن عمرو (عبد شمس) وعكرمة بن أبي جهل (عنزم)، واستنفروا من أطاعهم من الأحابيش وانضم إليهم نفر من الثقيفيين. واستقر رأيهم على إرسال فرقة استطلاع من الفرسان تقف عند كراع العميم، وجعلوا مركز

(١) الواقدي، المعاري، ٥٧٨/٢ - ٥٧٩.

(٢) انظر مادة قرط في لسان العرب، ج ١٠٧٩/٢.

قيادتهم في بلدح، وهو واد يبعد عن مكة بنحو الخمسين كيلومتراً، والمسافة بين وادي بلدح وكراع الغميم لا تزيد على خمسة عشر كيلومتراً. وبلغ من اهتمام قريش للأمر أن وضعت نظاماً يضمن وصول الأحبار إليها في أقصر وقت. وقد وصفه لنا الواقدي بقوله «ووصعوا العيون على الجبال حتى انتهوا إلى جبل يقال له وزر وزع، كانت عيونهم عشرة رجال قام عليهم الحكم بن عبد مناف، يوحى بعضهم إلى بعض بالصوت الخفي: فعل محمد كذا وكذا! حتى ينتهي ذلك إلى قريش ببلدح. وخرجت قريش إلى بلدح فضربوا بها القباب والأبنية، وخرجوا بالنساء والصبيان فمسكروا هناك^(١)، وهذا تنظيم يدل على أن قريشاً لا زالت لها قيادة ذات تنظيم وترتيب وعقل، وقد قدرنا أن يوقفوا محمداً وأصحابه عن هذا الموضع ليكون بينهم حوار وتفاوض بعيداً عن مكة، ولكن رسول الله ﷺ - لحكمة ارتأها - رأى أن يتخطى هذا الحد وينحدر حتى الحديبية - وهي ليست على الجادة، أي الطريق الرئيسي إلى مكة، وإنما هي موضع إلى غربي الطريق إلى الشمال قليلاً من مكة.

ومن الواضح أن قريشاً كانت قد اجتمعت وتشاورت، فيما ستعمل وهي تشعر تماماً أنها غير قادرة على مقاومة المسلمين. وكان كل غرض هذه القيادة هو الحفاظ على كرامة قريش ومكة وكيانها، وقد نجحت في ذلك لأن محمداً ﷺ كان يريد ذلك.

وكان رسول الله ﷺ قد اصطحب معه رجلاً من خزاعة يسمى بسر بن سفيان الكعبي، تقول المراجع إنه وفد على المدينة وأسلم على يد الرسول، ثم أراد الرجوع إلى أهله بمكة في الغالب فقال له رسول الله يا بسر، لا تبرح حتى نخرج معنا، فلما إن شاء الله معتمرون، فأقام بسر، وأمر رسول الله بسر بن سميان أن يتناع له دناً، فكان بسر يتناع البذن ويبحث بها إلى ذي الحدر، حتى حصر حروجه، فأمر بها فجلبت إلى المدينة، ثم أمر بها ناجية من جندب الأسلمي أن يقدمها إلى ذي الحليفة واستعمل على هديه ناجية من جندب، وخرج أصحاب

(١) الواقدي، معاري، ٥٧٩/١

رسول الله ﷺ معه لا يشكون في الفتح ، للرؤيا التي رأى رسول الله ﷺ ونلاحظ هنا أن صاحب هدى رسول الله كان حزاعياً ، وأن عينه على كفار قريش كان أسلمياً من بني الحاف من قضاة مما يؤيد ما ذهبنا إليه من ارتباط هذه القائل بالإسلام ورسوله .

ويختتم بسر من سفیان الكعبي هذا ثم يظهر مرة أخرى ورسول الله يقترب من معه من كراع الغميم ، حيث كانت طليعة قريش وعليها خالد بن الوليد ، وإن كان تدخل المزيفين في النصوص الأصلية يحاول أن يشكك في أن خالداً كان على رأس خيل المشركين في ذلك الحين ، بل هناك من يزعمون أنه أسلم مع عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة قبل الحديبية ، وهذا غير صحيح ، وها هنا مثال من تزيف الأخبار أو التدليس فيها ، الذي لا يزال نعاني منه على كل خطوة من خطوات هذه الدراسة وغيرها مما نتولاه من أبحاث تاريخ الإسلام والمسلمين .

ثم يظهر بسر بن سفیان الكعبي مرة أخرى بعد أن ضربت قريش خيامها ببلدح . وبعثت طليعتها إلى كراع الغميم . ظهر بسر الكعبي ليقدم لرسول الله صورة الأعداء ومعسكرهم ، فلا يكون ظهوره هنا مجرد مصادفة بل هو حساب وتدبير .

وكان رسول الله ترك الكديد وراءه ووصل إلى غدير الأشطاط فسأله : يا بُرما وراءك؟ قال : يا رسول الله ، تركت قومك ، كعب بن لؤي وعامر بن لؤي ، قد سمعوا بمسيرك ففرغوا وهابوا أن تدخل عليهم هنة ، وقد استنفروا لك الأحابيش ومن أطاعهم ، معهم العوذ المطاعيل^(١) قد لبوا لك جلد السمور ليصدوك عن المسجد الحرام ، وقد خرجوا إلى بلدح وضربوا بها الأبنية ، وتركت عمائرهم يطعمون الجزر أحابيشهم ومن صوى إليهم في دورهم ، وقدموا

(١) العوذ من الإبل جمع عائد ، وهي التي ولدت ، والمطاعيل جمع مطعل وهي التي لها طفل ، وهذا كله كناية عن النساء والصبيان

الخيـل عليها خالد بن الوليد، مائتي فرس، وهذه خيلهم بالعميم، وقد وضعوا
العيون على الجبال ووصحوا الأرصاد.

وهنا يبلغ الرسول ﷺ أصحابه بموقف قريش وإرسالها خالد بن الوليد
في مائتي فارس لمواجهة المسلمين، ثم يحير المسلمين بين أن يمحـصوا لوجههم،
فإذا اعترضهم المشركون نازلوهم، أو يسلكوا طريقاً آخر ويتخطوا القوة
القرشية، فإذا تبهم من المشركين أحد قضا عليه. ويأخذ الرسول في مناقشة
أصحابه، وهنا يضيف أبو هريرة: «فلم أر أحداً كان أكثر مشاورة لأصحابه من
رسول الله ﷺ». وكانت مشاورته لأصحابه في الحرب فقط. والذي يعنينا هنا هو
حرص رسول الله على مشاورة أصحابه في كل ما يعرض لهم من شئون الدنيا،
ولا معنى لقصر المشورة على الحرب فحسب، لأن شئون الدنيا تشمل الحرب وغير
الحرب.

ومن باب الاحتياط ينادي الرسول عباد بن بشر، ولم تكن خيل المسلمين
لتزيد على عشرين، وكان فيهم فرسان كثيرون ولكن رسول الله ﷺ جعل
عباداً على خيل المسلمين، وكان عباد من فرسان بني عبد الأشهل الأوسيين،
وكان فارساً مجاهداً من المعدودين من فرسان المسلمين، وكان أول ثلاثة من
كبار فرسان الأنصار، والثلاثة كلهم من بني عبد الأشهل، وهم سعد بن معاذ
وأسيـد بن حضير وعباد بن بشر، وقد ظهر أمره وسطح أثناء الخندق، فقد كان
قائد الفرقة الطيارة التي وقفت تحت تصرف الرسول ﷺ يبعث بها في كل مهمة
فلا تعود إلا بخير، وقد استشهد رضي الله عنه في اليمامة.

ثم صلى رسول الله بأصحابه صلاة الخوف، وكانت تلك ثاني مرة
يصليها في مغازيه، فقد صلاها قبل ذلك في ذات الرقاع وكانت هذه الصلاة
الثانية بمسفان.

وكان رسول الله بعد أن شاور أصحابه قد استقر رأيه على أن يتخطى هذه الطليعة من الفرسان التي أرسلتها قريش دون أن يصدمها فيقضي عليها، فهو لم يخرج لقتال وإنما للعمرة، وقرر أن يسير بالليل ويكمن للراحة بالنهار، وتبدر منه هنا مادرة تدل على أنه ﷺ كان يعرف طرق الحجاز معرفة وثيقة، وفارئ السيرة ودارسها لا يزال يتعجب من معرفة الرسول للأرض والناس قال لأصحابه: «تيامنوا في هذا العَصَل (أي الرمل المتموج المنثوي)، فإن عيون قريش بمَرَّ الظُّهْرَانِ أو بِصَنْجَنَانِ، فأيكم يعرف ثنية ذات الحنظل؟» ومن الواضح أن هذه الثنية كانت تقع في طريق صغير يتخطى مخرجَه كُراع الغميم ووادي بَلْدَح، فيخرج الرسول بمن معه في الصباح عند موضع الحديدية الذي كان رآه قد استقر على الوقوف عنده، والحديدية بُعيد سرف غرباً إلى الجنوب، وهي ليست على طريق الجادة وإنما إلى غربها، ومقابلها من ناحية الشرق التنعيم وهي ميقات حاج الشام. وتطوع بُرَيْدَةُ بن الحَصْبِ الأسلمي (الخزاعي) ليدل الركب على طريق ثنية ذات الحنظل، وحاول فلم يستطع، ودهش لأنه كان يسلك طريقها مراراً في الجمعة الواحدة، وتطوع أسلمي آخر فوقع له ما وقع للأول، وأخيراً تقدم أسلمي خزاعي ثالث هو عمره بن فهم فسلك بالناس طريقها في غير عُسْر، ويستوقف نظرنّا هنا معرفة خزاعة بطرق الحجاز، وهو أمر على أكبر جانب من الأهمية ويستوقف نظرنّا بعد ذلك ثقة رسول الله في نفسه وإيمانه الثابت بأنه واصل إلى ما يريد بعون الله إياه. وفي أثناء الطريق - والركب على وشك الوصول إلى حيث يريد رسول الله، يندس بينهم أعرابي يبحث عن بغير له أضله ودخل العسكر فيها زعم، وكان رسول الله قد خذّر رجاله من مثل هذا الدسيس، ويدخل الرجل العسكر يبحث عن بغيره فلا يجده، وفهم أن البعير الضائع حجة تعطل بها ليدخل العسكر، وينصرف عنه فيتردى من الجبل ويموت، وعندما نعلم أنه من صمرة من بني بكر بن عبد مناة يتصح لنا أمره، فهو دسيس جاسوس من بني بكر بن عبد مناة يَتَنَسُّط أخبار العسكر لحساب قريش في الغالب، وهكذا نرى كيف كانت خزاعة دائماً

في جانب الإسلام ورسوله، ونسوا بكر بن عبد مناة من كنانة دائماً في جانب قريش وأهل الكفر، وسيوضح لنا ذلك جلياً في بقية أخبار الحديبية

وهنا وقبل أن يصل ركب المسلمين إلى الحديبية، تبدر من رسول الله بادران تريدان الناس تعلقاً به وإيماناً، الأولى كشفه الماء الوفير في موضع بئر جافة لم يكن فيها إلا وشل، فاول الرسول رجلاً من أصحابه يسمى ناجية بن الأعجم سهماً فنزل به وأثار الماء وحفر الأرض فجاش الماء وزوي الناس، وشهد ذلك اثنان من المنافقين، هما عبد الله بن أبي بن سلول والجد بن قيس، والأول من بني الحُبُل من الخزرج، والثاني من بني سلمة من الخزرج وساولا التقليل من شأن ما أجراه الله على يد رسوله، وقال ابن أبي: قد رأيت مثل هذا! وبلغت الرسول، فلم يزد على أن قال لابن أبي: يا أبا الحباب أين رأيت مثل ما رأيت اليوم؟ فقال: ما رأيت مثل هذا قط. قال رسول الله ﷺ، فلم قلت ما قلت، فقال ابن أبي: استغفر الله! قال ابنه يا رسول الله: استغفر له، فاستغفر له رسول الله ﷺ. وهذا العفو من رسول الله عن ابن أبي هو البادرة الثانية.

ووصل رسول الله ﷺ إلى حيث كان يريد وهو موضع الحديبية، وقد تغيرت الآن ملامح الموضع حتى نزوده لنستوثق من صلاحته للنزول والاقامة فترة طويلة، ولكننا لا نحس أثناء مقام المسلمين في الحديبية أنهم في نقص من ماء أو طعام أو أنهم في خطر من هجوم أو يات. حقاً لقد خرج الرسول ومن معه معتمرين بغير سلاح، ولكن السلاح كان معهم في مؤخرة الجيش، حتى إذا دعت إليه الحاجة وجده المسلمون حين يطلبونه، وكان الذي أشار بذلك سعد بن عباد بن دليم سيد بني كعب بن الخزرج بن حارثة البطريق، وهو في مكان سيد الخزرج جميعاً وإلى الحديبية بل إلى انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى كان هذا الرجل من أعظم أصحاب رسول الله وأوثقهم إيماناً به وأجودهم رأياً وأسماهم عماله، حتى أحس عمر بن الخطاب أنه سد له مناص في الجماعة، وكان لهذا أثره فيما حدث يوم السقيفة. وفي يوم السقيفة ضاعت

جهوده وتضحياته سدى دون ذنب جناه . وسيكون لذلك بالغ الأثر في بقية
الخروج جميعاً والأنصار بعد ذلك كما سترى .

ومن الواضح أن الرسول صلوات الله عليه كان يعتد بها بتأييد حراة
جميعها ، قال عنهم الواقدي : (. وهذا أيضاً رأي كل مؤرخينا الذين نعتمد
عليهم) : « وهم عيبة نصح رسول الله ﷺ بتهامة ، منهم المسلم ومنهم المودع ، لا
يخفون عليه بتهامة شيئاً : فأناحوا وراح لهم عند رسول الله ﷺ .

وهنا تبدأ المواجهة بين القرشيين : قريش الكفار المسيطرين على مكة
وقريش المؤمنين الذين يشتركون في قيادة أمة الإسلام في المدينة بتوجيه من رسول
الله ﷺ ، بالاشتراك مع الأنصار ما بين أوس وخزرج . وفناء الأنصار هنا عظيم
فهم متفانون في سبيل الدعوة فعلاً ، وأسما مثل سعد بن عباد وأسيد بن الحضير
وعباد بن بشر والحباب بن المنذر ومحمد بن مسلمة وأخيه محمود ، أسما كبيرة في
تاريخ الإسلام في عصر الرسول ﷺ ، ولكن المهاجرين يشفون عليهم - رغم قلة
عددهم - في القيادات - ربما لأنهم أكثر خبرة في شئون العمل العام ، وربما رجع
ذلك أيضاً إلى أنهم كانوا متفرغين للدعوة ، في حين أن الأنصار كانت لهم إلى
جانبا مطالبهم العائلية والقبلية في مدينتهم ، ولهذا كان المهاجرون حريصين على
الصدارة مبادرين إلى القيادات ، وخاصة أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وعلي بن أبي
طالب وسعد بن وقاص ، وقد كان رسول الله ﷺ منصفاً كل الإنصاف في تصرفه
مع الفريقين ، ولكننا نلاحظ هنا بين القرشيين أنفسهم تيارات جانبية ، فأبو بكر
وعمر وأبو عبيدة وسعد بن أبي وقاص جماعة واحدة ، وعلي بن أبي طالب يكاد أن
يكون وحده يؤيده نفر من الأنصار ، وتحفياً للمنافسة بين الفريقين كان يتولى
قيادة السرايا أحياناً زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ، فهو يقود ثلاث سرايا
متوالية ، ثم يقود عبد الرحمن بن عوف سرية دومة الحنديل ويعقه علي بن أبي
طالب في سرية إلى فداك ثم تعود القيادة إلى زيد بن حارثة فيقود سرية إلى بني فزارة
من بدر من غطفان ليؤدهم ، وفي هذه السرية يكون قتل أم قرفة وقد ذكرناها .
ويسر الرسول بصبر ريد فهو شديد الحب له ، قالت عائشة رضي الله عنها : « فأتى

زيد ففرع الباب، فقام إليه رسول الله ﷺ يحمر ثوبه عرياناً، ما رأيته عرياناً قبلها، حتى اعتنقه وقبله ثم سأله فأحمره بما ظفره الله به^(١) ولعل كبار الصحابة وجدوا من ذلك شيئاً، وسرى مظاهر لذلك فيما سنروي مما وقع أثناء المراحل الأخيرة لمصر الرسول ﷺ وانتقاله إلى الرميح الأعلى، وسنشهد بعد قليل أول حزاعي يظهر ويقوم بدوره في مجرى الحوادث، وربما لحنا هنا أول ظواهر التسايد بين خراعة والأبصار، وهو تسايد سيكون له أبعد الأثر في تاريخ الإسلام، عندما تنتقل الخلافة انتقالاً حاسماً من بني أمية إلى بني العباس ويكون لخراعة ومواليها ومن أيدهم من الأنصار والهاشميين دور حاسم.

هذا الحزاعي هو بُذَيْل بن ورقاء سيد بني عامر بن لُحَيٍّ من خراعة فيما يقول ابن حزم، وهو غير مصيب هنا، لأن صميم خراعة أو نواحيها الأولى على ما ذكرناه في الحقيقة يمني، مثلهم في ذلك مثل الأنصار، أما القول بأن خراعة هم بنو ملكان وبنو مالك وبنو أسلم بن أفضى بن لُحَيٍّ بن عامر بن قُمعة بن الياس ابن مضر ولكنهم تخزعوا أي انفصلوا عن قومهم وصاروا خراعة فأمر مفتعل. وقد سبق أن فصلنا الكلام في ذلك في كلامنا على خراعة: وقد رجحنا أن نواة خراعة الأولى من اليمن وأنهم أبناء عم الأوس والخزرج، لأن الأوس والخزرج هم أولاد ثعلبة العنقاء بن مزبيعة الذي ذكرناه، فميل خراعة إلى الأوس والخزرج طبعي بقويته أن قريش مكة، قريش التي عادت الإسلام وأخرجت رسوله وأصحابه من مكة لم تكن قريش بني هاشم، وإنما هي قريش بني عبد شمس ومخزوم وبنو عبد مناة وجمح وهصيص، أي قريش الأحلاف لا قريش حلف الفضول التي هي قريش بني هاشم وأحلافهم من زهرة بن الحارث بن مهم وثيم بن مرة (قبيلة أبي بكر) وعدي (قبيل عمر بن الخطاب)، وقريش الأخيرة هذه هي التي هاجر رجالها إلى المدينة وعلى رأسهم رسول الله ﷺ، وهذه الهجرة فرت بين قريش بني هاشم وخراعة التي سبق

(١) الواقدي، معازي ٥٦٥/٢

أن طردت من مكة مثلهم، فكان قريشاً الوثنية التي بقيت في مكة ورثت كل عداوة خزاعة لقريش التي أخرجتها من مكة، لا عجب إذن أن محد خزاعة إلى جانب رسول الله ﷺ والمهاجرين والأنصار أي أهل أمة الإسلام. ومن ذلك الحين أصبحت خزاعة هاشمية الميول بالصبط، كما سيصبح الأنصار هاشميين في عواطفهم وميولهم، وفي الصراع بين قسَمي قريش: قريش التي عادت الإسلام أولاً ثم أسلمت عبد المطلب متمثلة في بني أمية الأكبر وبني مخزوم وسهم وجميع وقريش الهاشمية التي آمنت وهاجرت وحملت عبء الإسلام مع الأنصار وخزاعة، وستتصر في أيام الرسول ﷺ وإلى آخر خلافة عمر، ثم ثعلب الكفة إلى جانب قريش بني عبد شمس وأحلافهم من بداية خلافة عثمان ثم تكون الدولة الأموية، ثم تعتلد الكفة مرة أخرى بقيام الدولة العباسية، وهي ثمرة ثورة هاشمية اشترك فيها الهاشميون وأنصارهم من خزاعة والأنصار، ثم تنقسم هذه الجهة المظففة إلى قسمين: عباسي يتفرد بالسلطة نتيجة لنجاح إبراهيم الإمام بن محمد بن عبدالله بن عباس في الإنفراد بالأمر دون بقية الهاشميين، ثم بقية بني هاشم التي خسرت هذه المعركة فستتحول إلى حركة شيعية عامة تضم مذاهب شتى، وستحوز السلطان في عصور وأقاليم شتى من بلاد الإسلام ولا زالت باقية إلى اليوم.

نعود إلى الحديبية حيث نزل رسول الله ﷺ والمسلمون، ويقبل عليهم سيد خزاعة بديل بن ورقاء، فلننظر كيف سيكون موقف هذا الخزاعي بين القُرَيْشِيِّينَ، ولا ننسى أن نضيف هنا أن رسول الله ﷺ لم يكذب يستقر في الحديبية حتى أهدى إليه عمرو بن سالم وبُسر بن سفيان الخزاعيان غنماً وجزوراً، وأهدى عمرو بن سالم لسعد بن عباد خُزراً وكان صديقاً له، وقد قسمت الهدية على المسلمين. ونفهم من هذا أن عمداً ﷺ عندما احتار موضع الحديبية لنزوله عرض مقدماً أن ينزل بين أصدقاء وحلفاء، وفي هذا الموضع لا تستطيع قريش أو حلفاؤها مهاجمة المسلمين.

دخل بديل بن ورقاء الكعبي الخزاعي على رسول الله، وبديل هذا يصفه اس حرم بأنه كان أدهى العرب، وهو ليس من بني كعب بن عمرو بن عامر بن لحي أحلاف النبي ولكنه من بني عدي بن عمرو بن عامر بن لحي^(١) وكان حليماً لقريش مقيماً في مكة وله دار كبيرة فيها، فأبلغه أنه يتجه من عند قومه بني كعب بن لؤي وبني عامر بن لؤي وأبهم قد استغفروا^(٢) الأسياف ومن أطاعهم، منهم العود المطافيل^(٣) النساء والصبيان - يفسمون بإله لا يُخلون بينك وبين البيت حتى تبعد خضراؤهم^(٤). وغريب هنا ذكر عامر بن لؤي، لأن عمود قريش الذي فيه البيت والعدد، وتتفرع منه فروعها الكبار هو عمود كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن كنانة بن النضر بن خزيمه، أما عامر ابن لؤي أخوه فلا ذكر له بين فروع قريش ذات العدد والأهمية، وكل ما يقال هنا هو أن كعباً وعامراً هما البطاح في رأي المصعب الزبيري، أما ابن حزم فيقول إنها الصريحان من ولد لؤي بن غالب ولكنه يجعل البيت والعدد (أي القوة والكثرة) في بني كعب، وكلا النساين لا يذكر لعامر ولداً. وكان رسول الله يعلم من أمر قريش ما فيه الكفاية فقد قال في رده على بديل - على رواية الواقدي: «إننا لم نأت لقتال أحد، إنما جئنا لنطوف بهذا البيت، فمن صدنا عنه قاتلناه، وقريش قوم قد أضرت بهم الحرب ونهكتهم فإن شاءوا ماذذتهم مدة^(٥) يأمرون فيها، ويخلون فيما بيننا وبين الناس، والناس أكثر منهم، فإن ظهر أمرى على الناس كانوا بين أن يدخلوا فيها دخل فيه الناس: أو يقتلون وقد جمعوا جمعاً، والله لأجهدن على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتي أو ينفذ الله أمره^(٥). وهذا القول من رسول الله يدل على معرفة تامة بأحوال قريش

(١) ابن حزم، الجهمرة ٢٣٩.

(٢) نصير يراد به الساء والأطفال (٣) الواقدي، معاري ٥٩٣

(٤) أي عقدت معهم عقداً أو اتفاقاً أو هدنة لمدة معينة

(٥) هذه رواية الواقدي، معاري ٥٩٣/٢؛ أما ابن اسحاق ومن نقل عنه كاس هشام ٣/٣٢٣، واس

كثير، لداية والنهاية ١٦٥/٤ يجعلون هذه الكلمة في عثمان وأنه قال لسرس سميان الكعبي الذي ذكرناه ورواية الواقدي أكثر اسحاحاً ودقة

ورغته في رد زعمائها إلى الرشد، وكانتهم هم الآخرون أحسوا منه هذا الرفق بهم فتماسكوا وتشددوا في موقفهم وإن لم يصلوا إلى المواجعة الكاملة.

وعندما انقلب بديل بن ورقاء عائداً برسائله إلى قريش ضححه عمرو بن سالم الخزاعي صديق سعد بن عُمادة ومضى يؤكد أن رسول الله على حق، وأن قريشاً لن تغلخ في موقفها من محمد ما دام هو لا يريد إلا العمرة وييدي الاستعداد لعقد صلح معهم يمكنه من أداء العمرة بسلام.

ولكن موقف قريش من بديل بن ورقاء وهو صديق لهم وله في مكة دار كان غريباً يدل على إدراكهم لحقيقة شعور بديل نحوهم، وإسرافهم في التظاهر بالثبات؛ «فقال ناس منهم: هذا بديل وأصحابه، إنما جاءوا يرون أن يستخبروكم، فلا تسألوهم عن حرف واحد» كان الأمر لا يهمهم. «ووافق بديل بعدم سؤالهم إياه عن محمد ﷺ وما يريد فقال: إنا جئنا من عند محمد، أتحبون أن نخبركم؟ قال عكرمة بن أبي جهل والحكم بن العاص: لا والله ما لنا حاجة بأن نخبرنا عنه، ولكن أخبروه عنا أنه لا يدخلها علينا عامه هذا أبداً حتى لا يبقى منا رجل، فقال عروة بن مسعود، وهو رجل من ثقيف كان حليفاً للقرشيين وصاحباً لهم: والله ما رأيت كاليوم رأياً أعجب، وما تكرهون أن تسمعوا من بديل وأصحابه؟ فإن أعجبكم أمر قبلتموه، وإن كرهتم شيئاً تركتموه. لا يفلح قوم فعلوا هذا أبداً». قال رجال من ذوي رأيهم وأشرافهم: صفوان بن أمية والحارث بن هشام (بن المغيرة المخزومي) أخبرونا بالذي رأيتم وسمعتم فأخبروهم بمقالة النبي ﷺ التي قال، وما عرض على قريش من المدة (الهدنة الموقوتة). فعد عمرو بن مسعود يقول: يا معشر قريش تتهموني؟ أليس الولد وأنا الولد؟ وقد استقرت أهل عكاظ لنصركم فلما بلحوا (امتنعوا) عليّ نصرت إليكم بنصي وولدي ومن أطاعني، فقالوا قد فعلت. قال: إني ناصح لكم شقيق عليكم ولا أدر عنكم بصحاً وإن سديلاً قد جاءكم بخطة رشد لا يردها أحد أسداً إلا أخذ شراً منها فاقبلوها منه

وامتحنوني حتى آتيكم بمصدقها من عنده، فبعثته قريش إلى رسول الله ﷺ.

والتفاصيل القبلية التي لدينا عن سفارة عروة بن مسعود الثقفي لا توحى بالثقة، وشخصية عمرو هذا - كما لاحظنا - في خطابه لقريش لا تبدو شخصية لها وزن كبير، إنما هو رجل من عامة ثقيف ممن ضوى إلى مكة، ثم أنه عندما عرّض وساطته وعد قريشاً بأن يكون لها عيناً على رسول الله ﷺ وأصحابه، وفي الخبر تفاصيل كثيرة عن المغيرة بن شعبه لمجرد أنه كان - فيها يزعم الرواة - قائماً على رأس رسول الله ﷺ والمغيرة لم يبلغ قط عند رسول الله مثل هذا المبلغ، وأين هو ممن كان مع رسول الله من أفذاذ الرجال وكبار الصحابة، وإنما هم الرواة الذين لا يزالون يدفعون بمثل المغيرة في الأخبار بمناسبة وغير مناسبة حتى ذهبوا إلى أنه كان من بين من نزل قبر الرسول الأكرم، بل حاول - في بعض الأخبار - أن يكون آخر من رأى رسول الله مسجى في قبره، وهذا كله انعكاس قصصي نتيجة لما بلغه هذا الرجل من شهرة بالدهاء والقدرة أيام خلافة معاوية ابن أبي سفيان.

ويستوقف نظرنا أن الذين يقولون الكلام باسم المشركين في الحديبية ليسوا من بني عبد مناف، أي ليسوا من عمود نسب قريش الذي فيه البيت والعدد: عمود عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة، بل عمود عامر بن لؤي: يمثلهم سهيل بن عمرو بن معيص بن عامر، وأحلافهم بني جحج بن هصيص بن كعب ابن لؤي يمثلهم صفوان بن أمية بن خلف الجهمي، وجميع خارجة عن عمود النسب القرشي مثلها في ذلك مثل أختها سهم بن هصيص رهط عمرو بن العاص - فإين سو عبد شمس وأحلافهم ممن كانوا إلى الآن يقولون الكلام باسم قريش.

نلاحظ هنا أن أبا سفيان صحر من حرب بن أمية رعيهم قريش بعد أبي

جهل، يحتفي فلا يكون له أثر في الحديبية ولن تكون له يد فيما فعلته قريش من سر الهدنة مع المدينة بمعاونة بني مكر من عبد مائة أحلافهم في عدوانهم على بني كعب الخزاعين أحلاف الرسول ﷺ، وبنو عامر بن لؤي كانوا قبيلة صغيرة من قريش ويُعَدُّهم المصعب الزبيري من بيوتات قريش. ويورد لانساهم باباً^(١) ولكننا وعندما نقرأ هذا الباب نجد أن بني عامر بن لؤي بعيدون بعداً واضحاً عن عمود نسب قريش، فمعظم أصهارهم من قبائل فهر وجذيمة بن مالك بن حسل والفضل (أو غُضَل) بن الديش بن الهون، وهذه ثلاث بطون من الأحابيش يضاف إليها الحيا والمصطلق من خزاعة. ونسب بني عامر بن لؤي مع خزاعة كبير، فكان بني عامر بن لؤي كانوا ينفون بعيداً عن صميم قريش يؤيدهم بعض فروع قريش من غير عمود النسب الرئيسي مثل جمع بن عمرة بن هيصم وزعيمهم صفوان بن أمية بن خلف وسهيل بن عمرو زعيم عامر بن لؤي، وهما اللذان ينولان الكلام باسم مكة في الحديبية. وسبدر منها بوادر الجلانة والنعرة القرشية التي سينتاضى عنها الرسول، لأنه كان يقصد إلى عقد العهد لكي يتم عُمرته من قابل، ويبدو بوضوح أن أبا سفيان وقومه من بني عبد شمس تركوا هذا الفريق من قريش يجربون حظهم في الرئاسة، فعمدوا صلح الحديبية، بفضل الرسول وحلمه لا بفضلهم، ثم عجزوا عن الوفاء بالمهد، فكان أن قرر الرسول فتح مكة، ومن ذلك الحين يعود أبو سفيان إلى قيادة قريش، فيقودها بحذر ويحببها للصدام مع أمة الإسلام فتظل لها وحدتها وشخصيتها، وتدخل الإسلام دون هزيمة أو مهانة كما سنرى فكانت قيادة بني عامر بن لؤي قصيرة غير موفقة كما سنرى.

وتذهب الرواية إلى أن عمرو بن مسعود الثقفي بدأ كلامه مع رسول الله بمثل ما بدأ به بديل بن ورقاء، ثم يقول عبارة تحدها بالمعنى عند معظم رواتها وإن اختلفت لفظاً. وتتابع رواية الواقدي فهي أكثر تفصيلاً، قال عمرو بن

(١) نسب قريش للمصعب الزبيري، ص ٤١٢ وما بعدها

مسعود الثقفي محاطاً بالرسول: «يا محمد إني تركت قومك، كعب بن لؤي وعامر ابن لؤي على أعداد»^(١) ماء الحديدية معهم العود المطافيل، قد استعروا لك أحابيشهم ومن أطاعهم، وهم يقسمون بالله لا يجلون بك وبين البيت حتى تجتاحهم. وإنما أنت من قتالهم بين أحد أمرين: أن تجتاح قومك، ولم نسمع برحل احتاج أصله قلبك، أو بين أن يحدلك من نرى معك، فإني لا أرى معك إلا أوياشاً من الناس لا أعرفهم من وجوههم ولا أنسابهم، ففضب أبو بكر الصديق رضي الله عنه وقال: امصص بظر اللات!، أنحن نخذله! وفي عبارة ابن هشام عن ابن اسحاق جملة تفسر لنا لماذا قال أبو بكر: «أنحن نخذله!» وهي قول عروة بن مسعود: «وأيام الله لكائي بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً»^(٢) وهذا كله كلام نتوقف عن قبوله لأننا نقرأ بعد ذلك أن أبا بكر الصديق سبق له أن أعان عروة بن مسعود في حل دبة، فأعانه الرجل بالفريضة والثلاث وأعانه أبو بكر بعشر فرائض، والفريضة هنا هي الناقة أو الجمل في الدبة، فكيف يكون هذا صنيع أبي بكر مع عروة ثم يضعه في الأوباش أو الأوشاب الذين لا يعرف وجوههم ولا أنسابهم؟

ولم يعلق رسول الله على هذا بشيء، وإنما هو قال لعروة نفس ما قاله لبيد: أي أنه معتمراً غير مقاتل، وأنه قد أن بالهدي لينحره، وكل ما سيفعله هو أنه سيدخل مع أصحابه ويطوفون بالبيت ثم ينحرون الهدي ويعودون وقد قضوا عمرتهم. وفي العرف الذي كان جرياً بين قريش وعامة العرب أنهم لا يمنعون عن البيت حاجاً أو معتمراً أيأ كانت ظروف السياسة بينهم وبينه.

وعندما يعود عروة إلى قريش يتحدث إلى رجالها حديث رجل قد هزّه ما رأى من هيئة رسول الله ﷺ بين أصحابه، وطاعتهم له ومحبتهم فيه ثم

(١) الأعداد جمع عدد، بكر العين، وهو الماء الذي له مادة لا تنقطع كماء العين والبئر وهذا يؤكد ما قلناه من حسن اختيار رسول الله ﷺ لمكان بدوله عند الحديدية

(٢) ابن هشام، السيرة ٢٧/٣

انتظامهم وحسن سمتهم، وهذا هو الذي ذكرناه آنفاً من أن رسول الله أدخل في جماعته نظاماً عظيماً وسمناً حليلاً وروحاً من اتحاد الصف والتأخي والتفاني لم يعرفه العرب من قبل، وهذا ما سهر نظر عروة وجعله يغير رأيه ويصح قريشاً بالاستجابة إلى ما يطلبه الرسول، قال «يا قوم إني قد وعدت على الملوك، على كسرى وهرقل والنجاشي، وإني والله ما رأيت ملكاً قط أطوع فيمى هو بين ظهراييه من محمد في أصحابه. والله ما يُشَدُّون إليه النظر، وما يرفعون عنده الصوت، وما يكفيه إلا أن يشير إلى أمر فيفعل...»^(١) وختم كلامه قائلاً: «والله لقد رأيت نُسَيَاتٍ معه إن كن ليسلمنه أبداً على أي حال، فمروا رأيكم، وإياكم واضجاع الرأي»^(٢)، وقد عرض عليكم خطة فمادوه^(٣)! يا قوم: اقبلوا ما عَرَضَ فإنني لكم ناصح، مع أي أخاف ألا تُنصَرُوا عليه! رجل ألى هذا البيت معظماً له، معه الهدى ينحره^(٤) وينصرف. فقالت قريش لا تكلم بهذا يا أبا يعفور! لم غيرك تكلم بهذا لثمنائه، ولكن نرده عن البيت في عامنا هذا، ويرجع إلى قابل^(٥)».

وواضح من نهاية هذا النص أن القرشيين هم الذين اخترعوا ذلك الحل الوسط فقد كان الرسول ﷺ يريد أن يدخل مكة معتمراً ذلك العام، وكانت قريش تقول لا يدخل قط، وعندما أخذوا فكرة واضحة عن موقفهم، وتبينوا صدق عزيمة محمد وأصحابه وقُدْرَتِهِمْ على دخول مكة بالقوة إذا أرادوا اخترعوا هذا الرأي الوسط الذي يرضي الطرفين: إنهم يظهرون بهذا أمام الناس أنهم لم يرضخوا لما أراد المسلمون ولم يخافوا أمامهم، وكذلك المسلمون يعودون هذا العام إلى المدينة ثم يعتمرون في العام القادم، وسيرفض المسلمون هذا الحل لأنهم خرجوا للعمرة ولا بد أن يدخلوا مكة ليعتمروا، ولكن الرسول رأى سعد

(١) الواقدي، معاري ٥٩٨/٢

(٢) أي الملكز به

(٣) أي اعتقدوا معه هدماً أو صلحاً لمدة معينة

(٤) الواقدي، معاري ٥٩٨ - ٥٩٩

نظره أن الرأي الذي تعرضه قريش لا نأس به إذا ارتبط باتفاق هدية توقف
 إنشاءها الحرب وتفتح الطرق بين مكة والمدينة، فيقل أهل مكة على الإسلام
 ويصغر حجم أعداء الإسلام من زعماء القرشيين، ويتمهد الطريق لفتح مكة
 دون قتال، وهذا - آخر الأمر - ما كان رسول الله ﷺ يرجوه وإن لم يتفطن إليه
 المسلمون وغير المسلمين إلا فيها بعد.

ثم يظهر على المسرح مركز بن حفص بن الأعيف، وهو من سادات بني
 عامر بن لؤي، من بني معيص، وكان رسول الله يعرفه كما يعرف كل قرشي
 فقال عندما رآه: إن هذا رجل غادر! وقال له مثل ما قال لصاحبيه، ثم يخفي
 مركز دون أن يفعل شيئاً كأنه لم يسمع، ومن الواضح أنه وفد عيناً أو جاسوساً
 لقريش. وتفطن الرسول لأمره، ثم جاء الحليس بن علقمة بن عمرو بن
 الأوقع وهو يومئذ سيد الأحابيش أكر حلفاء قريش، ومن الواضح إن قريشاً
 رغم تظاهرها بالثبات كان ينتابها القلق من هذه القوة التي استقرت على أبواب
 دارها، وهي لا تعلم ما تريد بها ولا تملك من القوة ما تدفعها بها إذا أرادت
 شيئاً، فهي ترسل الرجل تلو الرجل ليستوضح لها الأمر، وهؤلاء الذين
 يذكروهم الرواة هم الظاهرون المعروفون، ولا بد أنه كان هناك جواسيس أخطر
 طافوا بالمسلمين وحذروهم ونقلوا ما استطاعوا نقله إلى قريش من المعلومات
 عنهم، والحليس كان من بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وكان الرسول
 يعرفه، فقد كان سيد الأحابيش، وهم مجموعة قبائل صغيرة من بني الحارث
 ابن عبد مناة من كنانة بن قيس عيلان بن مضر مثل الديش والقارة والهون.
 وكان بنو عبد مناة بن كنانة منهم يخدمون الحجاج ويحرسونهم لقاء جعل ولهذا
 قال الرسول ﷺ عن الحليس حين رآه قادماً إنه في قوم يعظمون الهدى ويتأهلون
 ومعاه هنا يحترمون الحجاج والمعتمرين، ولهذا طلب إلى أصحابه أن يعثوا في
 وجهه الهدى أي الجمال والشيء والأعنان التي تخصص للتضحية بها اتماً
 للعمرة ففعلوا، وكانت تلك الحيوانات قد هرلت وساء حالها لطول بقائها

مقيدة محبوسة وتساقط شعرها، فلما رأى الحليس ذلك عر عليه لأنه هو وقومه يتكسبون من خدمة الحاح والمعتمر، وهم الذين يصيبون معظم لحوم الأضاحي، ثم إنه سمع المسلمين يصحون بالتلبية مما يؤكد أنهم عمار البيت، ولم تعد له حاجة بعد ذلك للحديث مع رسول الله فقد أصححت القصيدة قصيته، خاصة والأحابيش كانوا على علاقة صهر وثيقة مع بني عامر بن لؤي وأحلافهم الذين يتزعمون قريشاً الآن، فهؤلاء فيما رأى عمار من حقهم أن يطوفوا بالبيت، ومن حقه وحق جماعته أن يصيبوا منهم ما يتيسر لهم من الرزق، أما منعهم من الاعتماد فيضر بمصالح الأحابيش، فعاد مسرعاً إلى قريش ليقول لرجالها إنهم لا ينصفون إذ يصدون الناس عن البيت ويقطعون أرزاق الحجج والعمار، وهذا يخالف ما عاهدت قريش الأحابيش عليه، وهكذا نرى كيف كان رسول الله بالغ بالفتنة والصدق وسعة الأفق فهو يجرد قريشاً من حججها وأنصارها، كل ذلك وهو يعلم ما يعلم من ضعفها وقلة حيلة رجالها إذ ذاك.

وقد خاطب الحليس القرشيين خطاب رجل يدافع عن مصالح قومه وقال في نهاية كلامه: «والله الذي نفسي بيده لَتُخْلَنَ بينه وبين ما جاء له أو لأُثْبِرَن بالأحابيش نفرة رجل واحد». فردوا عليه قائلين: «إنما كل ما رأيت مكيدة من محمد وأصحابه، فاكفف عنا حتى نأخذ لأنفسنا بعض ما نرضى به».

فلما استوثق رسول الله من أن قريشاً قد جردت من آخر من بقي لها من أنصارها، تحرك للإتصال برجالها مباشرة وهو يعلم تماماً علام استقر رأيهم، ولم يكن عده مانع من قوله، ولكن كان لا بد لتثبيت ذلك من أن تقر به قريش صراحة وترنط به على رؤوس الأشهاد، لا يتم ذلك إلا عن طريق مفاوضات مفتوحة.

وسد رسول الله ﷺ فأرسل رجلاً من خزاعة يسمى خراش بن أمية الكعبي على جمل لرسول الله ﷺ، فما كاد يُبلغهم الرسالة حتى نعرُوا في وجهه وعقروا جملة وكادوا يقتلوه، فعاد الخزاعي وهو لا يصدق بالنجاة، وطلب إلى رسول الله أن يبعث رجلاً «أمنع منه» فكلّم الرسول في ذلك عمر، ولكن عمر قدّر أن قريشاً لا بد معتدية عليه، فاعتذر عن عدم القدرة على القيام بالمهمة ورشح عثمان بن عفان، وكان عثمان رجلاً محترماً من القرشيين وله فيهم قرابة قوية تمنعه، وهذا يدلنا على أن قريش الكفار في مكة كان فيهم عصب يتزعج إلى بني عبد شمس، ولا يزال عرق العصية ينزع بكتلة قريش - فيما عدا بني هاشم - حتى ألغى الخلافة كلها بين يديها في ردة قبلية عصبية هي بلا شك نتيجة هذا الموقف المتشدد المعادي لبني هاشم، وهم عشرة الإسلام وأهله وبيته.

ولا نستغرب والحالة هذه أن قريشاً تتشدد في موقفها كأنها أنست في عثمان عطفاً عليها: عرض عليهم عثمان أن يدخلوا في الإسلام فرفضوا ذلك، ثم ردد عليهم ما قاله رسول الله ﷺ أنفاً من أن تدع قريش عداءها لمحمد وتدع ذلك لمن هو أقوى منها من قبائل العرب، فإذا انتصر محمد كان هذا نصراً لهم، إذ هم قرشيون مثله ودخلوا فيما يدخل فيه الناس أو يقاتلوا إذا أحبوا، وهم وافرون جامون - أي مستريحون - «وأضاف إن الحرب نهكتكم وأذهبت بالأمثال منكم، وأخرى: إن رسول الله ﷺ يجبركم أنه لم يأت لقتال أحد، إنما جاء معتمراً معه الهدى عليه القلائد، ينحره وينصرف»^(١) وأعاد عثمان هذا الكلام على كل من لقي من كبار القرشيين دون جدوى. وحديث بالملحظة هنا أن عثمان يتكلم بها بلسانه لا باسم المسلمين - وكان هذا هو الأمل، فهو من كبار أعلام أمة الإسلام، أما إن يقول لهم أن رسول الله يقول لكم كذا وكذا - كما تزعم بعض

(١) الواقدي، معاري ٦٠١/٢

المراجع - محيدة لا ندرى ماذا نقول فيها، والذي يهنا هنا أن وساطة عثمان انتهت عند ذلك، وأجاره ابن عمه أبان بن سعيد بن العاص.

ولكن عثمان لقي في مكة جماعات من المسلمين مستضعفين تحت سطوة زعماء قريش، وقد بحث نزول رسول الله بالحديبية الأمل في نفوسهم، وقال بعضهم: «اقرأ على رسول الله منا السلام، أن الذي أنزله بالحديبية لقادر أن يدخله بطن مكة! وكان على عثمان أن يعود إلى رسول الله فيبلغه نتيجة مسعاه، ولكنه لم يفعل، فكان ذلك باعثاً للمسلمين على إساءة الظن فيه، فحسبوا أنه انفرد بالطواف والعمرة وحده، ولكن تبين بعد ذلك أنه لم يفعل. وأحس رسول الله ﷺ أن الموقف يتطور وأن قريشاً عندما رأت الحسنى واللين طمعت وتشددت، فأخذ في الاستعداد للموقف بما يناسبه، وقد عرفنا رسول الله في حياته كلها مبادراً إلى العمل، لا يدع الظروف تفوق جماعته أبداً، بل هو الذي يقود الأحداث ويجعل جماعته سيدة الموقف أبداً، وأمثال هذه الخصال المحمدية ورثها عنه رجاله الأماثل من طبقة أبي بكر وعمر وعلي وأبي عبيدة، وانظر مثلاً إلى أبي عبيدة في فتوح الشام، وكيف لم يدع المبادرة تفوقه أبداً، وكأنه رضي الله عنه شهاب لا يهمد، فمن حصص إلى بصرى إلى فحل ويسان ثم إلى اليرموك حيث يتمم النصر على ما نعلم، فإذا لم يكن الرسول صلوات الله عليه قد لقبه بأمين هذه الأمة، فهو والله أمينها بإيمانه وتفانيه وما تعلم على يدي رسوله الكريم، وهذا هو ما يفوتنا اليوم في صراعنا للأمم: لا نستقتل قط دون خروج زمام أمورنا في بلادنا من أيدينا، بل ندع الزمام يفلت ونعود على الناس بالملامة، وقد كانت أجيالنا السالفة في عصور الهزيمة تلقي كل اللوم على الدهر لأنهم كانوا أقل من تحمل المسؤولية.

وكان رسول الله يأمر أصحابه بأن يتحارسوا بالحديبية، فلما اشتد الأمر أقام ثلاثة من أصحاب البأس والإيمان واليقظة من أصحابه على الحراسة، وهم أوس بن خُوَلي وعباد بن بشر وعحمد بن مسلمة، والثلاثة من أفضال الرجال وقد

مرربا بهم في أطواء هذه الدرامة مرة بعد أخرى، فحدث أن فريشاً أرسلت خمسين رجلاً ذات ليلة ليظوفوا بالمسلمين لعلهم يجدون فرصة، وكان على رأسهم بكتر بن أبي حفص بن الأخيف بن علقمة من سادة بني عامر بن لؤي الذي سبق أن حاول التجسس لفريش، فما كان من محمد بن مسلمة إلا أن أخذ الخمسين رجلاً كلهم أسرى، فكان هذا العمل الرائع من محمد بن مسلمة عملاً حاسماً رد فريشاً إلى رشدها وأرغمها على أن تفتح عينها وترى الموقف على حقيقته.

ذلك أن المكين كانوا قد ظنوا أنهم يسكون عثمان رهينة. وكان نفر من أصحاب رسول الله ﷺ قد استاذنوا رسول الله في زيارة مكة في أمان قبائلهم، فأذن لهم فأمسكت بهم فريش وحسبت أنها تسام عليهم، ويستوقف نظرنا أن معظم هذا نفر كانوا من بيوت حلف لعنة الدم المناهضين لبني هاشم، كأنهم كانوا يشعرون أن تلك العصبية المناهضة لبني هاشم تنفعهم حتى في موقف كهذا. وهؤلاء نفر هم: كثر بن جابر الفهري (من فهر) وعبدالله بن سهيل ابن عمرو (عبد شمس)، وعياش بن أبي ربيعة (مخزوم) وهشام بن العاص بن وائل (سهم بن عمرو بن هصيص) وحاطب بن أبي بلتعة (من لحم هو حليف بني أسد بن عبد العزى وهو صاحب الحادث المعروف قبيل بدر) وأبو حاطب عمرو بن عبد شمس (من بني عامر بن لؤي) وعبدالله بن حذافة (بنو سهم) وأبو الروم بن عمير (من بني عبد الدار بن قصي) وعمير بن وهب الجمحي وعبدالله بن أبي أمية بن وهب حليف سهيل بن عمرو.

أليس هذا أمراً يستوقف النظر؟ أن تغل رابطة المنفعة التي ربطت هذه البيوت من فريش المعادية لبني هاشم والإسلام، قائمة يخفت صوتها عندما يجه الإسلام فيصبح صوتها لا يكاد يسمع إلى جانب حجارة صوت الإسلام، لترتفع مرة أخرى عندما يتولى واحد منها الخلافة (هو عثمان) تجد طريقها إلى

الظهور، وتدب دبيب الأعمى مخادعة للناس دون علم الخليفة الشهيد دي النورين .

ويعود إلى الجماعة الذين أسرههم ذلك الصحابي الممام الذي لم يقدره قدره وهو محمد بن مسلمة، فتقول إن وقوع الخمسين قرشياً أسرى بأيدي رسول الله وأصحابه رد قرشياً إلى عقلها فسعت إلى التفاهم مع رسول الله لتجنب نفسها وقومها أذى كان رسول الله يرجو أن يتداركها الله منه برحمته وبحكم تدبيره، وقد فعل!

وهنا وقد وقع خمسون رجلاً من قرش في يد المسلمين تُبَيِّد قرش رغبة في التفاهم، وترسل رسولاً يقول إنهم مستعدون لإطلاق سراح من عندهم من أصحاب رسول الله في مقابل إطلاق رسول الله لمن وقعوا في أسره. ويكون رسول الله إذ ذاك قد باهر إلى أخذ بيعة أصحابه على القتال. وهنا يتجلى لنا حرص رسول الله على أن يكون تصرفه في كل ما يتصل بأمر الجماعة الدينية قائماً على مشورتها وصادراً عن رأيها، وكان الرسول صلوات الله عليه يستطيع أن يفترض - وهو محق لو فعل ذلك - أن المسلمين موافقون على ما يفعل، ولكن الرسول هنا يقر مبدأ ويسير على قاعدة أساسية، وهو أن الرأي فيها أهم المسلمين من أمور دينهم شورى بينهم، وهو يتمسك بذلك لأنه ﷺ كان يعرف أنه قدوة لأصحابه ولأن يجيء من المسلمين من بعده، فهو هنا يقرر قاعدة الشورى. لقد خرج من المدينة للعمرة، وقال لأصحابه ذلك، والآن تغير الموقف وأصبح هناك احتمال حرب، فلا بد أن يؤخذ رأي المسلمين، فمن يريد أن يحارب حارب ومن لم يرد يستطيع أن يفعل ما يريد، وهذا هو المعنى العظيم الذي تتضمنه بيعة الرضوان، فهي ليست مجرد أخذ موافقة المسلمين على حرب محتملة، وإنما هي إقرار لمبدأ أراد الرسول أن يكون قاعدة من قواعد العمل في أمته، وهو مبدأ شورى الجماعة، وقد سبق لرسول الله أن فعل ذلك عندما خرج إلى بدر، فقد خرج وأخرج الناس معه على أنهم يستولون

على غير لقريش، وعندما وصل الرسول إلى قرب سهل بدر، وبدأ له الشر من ناحية القرشيين وحد أن الموقف تغير، فعقد مجلس شورى وطلب للناس أن يقولوا رأيهم بكامل حريتهم، وكان عهد بيعة العقبة الثانية يلزم المسلمين جميعاً بالقتال في حالة الدفاع عن المدينة فحسب، وتأكد هذا في الصحيفة التي عاهد الرسول فيها المهاجرين والأنصار، أما الآن ومعه نفر من الأنصار فلا بد أن يُسْتَفْتَوْا ما دام الأمر يتضمن تغييراً في شروط اتفاق وقاعدة جارية للعمل، وقد أدرك أهل المدينة من أصحاب الرسول الذين خرجوا معه إلى بدر أنهم المعنيون بذلك، ورد الرسول بأنه بالفعل يعينهم ويسألهم رأيهم في تغيير نصوص الاتفاق والقتال معه خارج المدينة وفي موقف ليس موقف دفاع وإنما هو موقف إهزاز لدين الله وكسر لشوكة الكفر وأهله، فلما أيد الأنصار هذا المبدأ وأبدوا عظيم رغبتهم في نصرته الدين، قرر الرسول القتال برأي الجماعة.

ونحن نسجل هنا هذا الموقف ونقرر هذه الحقائق ليرى المسلمون أنهم يزعمون لأنفسهم أنهم يقتدون برسولهم حق القدوة، ولكنهم في الحقيقة لا يطبقونها، فلم نر أحداً من فقهاءنا السابقين درس موضوع الشورى وقرر أنه سنة ثابتة وواجبة، فهذه هي الشورى يطبقها الرسول ﷺ تطبيقاً سليماً مرة بعد أخرى، ثم يزعم بعض الناس أننا تعلمناها من الغرب وما هي منصوص عليها في القرآن الكريم ومطبقة أحسن التطبيق على يد رسوله، ولو أننا التزمنا قرآننا وسنة نبينا لما سبقنا على وجه هذه الأرض أحد إلى علم أو فضل أو وجه من وجوه السُّبْق والقوة والتقدم، ولكننا التزمنا بالسنة في صغار الأمور في الغالب ونسبناها في عظامها.

وحلس رسول الله تحت شجرة الرضوان المشهورة في السيرة يتلقى بيعة الناس، وكانوا قد أقلوا عليها فرحين مستبشرين، فلما رأى ذلك رجال قريش من أمثال سهيل بن عمرو بن عبد ود بن عبد شمس سيد بني عامر بن لؤي

وحويطب من عبد العزى من بني عامر بن لؤي أيضاً، «اشتد رعبهم وخوفهم وأسرعوا إلى القصة»^(١).

ويستلفت النظر من أخبار استعداد المسلمين للفداء استجابة لما طلبه إليهم رسول الله ﷺ خيراً ترويه أم عمار الأنصارية عن نفسها، وهي سبية سب كعب بن عمرو من بني مازن بن الجار، وهي صحابية صادقة بأسلة لها مواقف كثيرة في الدفاع عن الإسلام، وكان لها موقف مشهور في معركة أحد، بل شترك في حروب الردة وتخوض معركة اليمامة وتصاب يومئذ بآثني عشر جرحاً، قالت عن حماس المسلمين للقتال يومئذ: «كأنني أنظر إلى المسلمين قد تلبسوا السلاح، وهو معنا قليل إنما خرجنا عماراً، فأنا أنظر إلى غزيرة بن عمرو وقد توشع بالسيف فقممت إلى عمود كنا نستظل به فأخذته في يدي ومعي سكين قد شدته في وسطى، فقلت: إن دنا مني أحد رجوت أن أقتله».

فلما رأت قريش ذلك أطلقت من عندها من المسلمين وفيهم عثمان، وأطلق الرسول من عنده من أسراهم، ورأت قريش أنها لن تستطيع شيئاً حيال المسلمين، وأن الأمر إذا استمر على ذلك لم تحمد مغبته، فإن المسلمين لن يصبروا على ذلك الموقف طويلاً فسارعت واجتمعت وتشاورت. وانتهى رأي رجالها في دار الندوة إلى قبول ما عرضه عليها رسول الله ويقول هنا الواقدي: «فقال أهل الرأي منهم: ليس خير من أن نصالح محمداً على أن ينصرف عنا عامه هذا ويرجع من قابل، فيقيم ثلاثة وينهر هديه وينصرف ويقيم ببلدنا ولا يدخل علينا. فاجمعوا على ذلك». وقد أشرنا إلى أن زعماء قريش كانوا على هذا الرأي مدحرجين، ولكنهم الآن وقد أحسوا فعلاً أن المسلمين سيحتاجونهم إذا شاءوا وأنه لا يجمعهم من ذلك إلا حلم رسول الله ورغبته في تحنيب مكة.

(١) الواقدي، معاري ٦٠٤/٢

وفيهما قومه - هذا المصير بادروا، إلى الإحاة، وكان اجتماعهم وتشاورهم واتخاذهم هذا القرار دون أن يقع بينهم خلاف يذكر، مما يدل على أن زعامة قريش لا زالت حتى ذلك الحين زعامة حقيقية حارمة منظمة، فلم يحدث مثل هذا التعقل والتفكير والتدبير عندما قرر الرسول إدخال ثقيف والطائف في الإسلام، إنما كانت حرب وحصار، ثم رأت ثقيف أن الهزيمة تحل بها فاستسلمت، أما ما فعلت قائل مثل غطفان وقيم فليس فيه أي تدبير أو إجماع رأي، ففي حالة غطفان لا نسمع بزعيم منهم له رأي إلا عيينة بن حصن الغزاري، ومع ذلك فقد كان رجلاً قلقاً طائشاً لا يثبت على حال، وكان إلى جانب ذلك منافقاً متقلباً يلقي الرسول يوماً ويحاربه بعد ذلك، ولم يحسب الرسول له كبير حساب، لأن رسول الله كان ينظر إلى بقية غطفان ويريد كسبها إلى الإسلام ولم ير أن يأخذها بجريرة شيخها الطائش، فتغاضى عنه حتى لا يغضب قومه ويسهل دخولهم الإسلام بعد ذلك، وهو لم يستخدم القوة مع غطفان، إنما هو قضى على مركز قوتها الحضاري وهو خيبر فانضبط عقد غطفان ودخلت في الإسلام ارسالاً ودخل عيينة في عداد من يأتمرون بأمر الرسول دون أن تكون له فيه كبير ثقة، وأما قيم فلم تكن لها جماعة موحدة أو رؤساء متحدون ولا رأي يعتز به إنما هم كانوا قبيلاً ضخماً من الأعراب لا يملكون إلا غروراً ناشئاً عن جهل، فلما جاء دورهم أرسل عليهم الرسول مثلهم عيينة بن حصن وقومه فأخافوهم فعادوا إلى الرشيد ودخلوا إلى الإسلام.

أما قريش التي بقيت على الكفر فلا زالت تحتفظ بنظامها وقيادتها. لقد صغر حجمها وتضاءلت قوتها وملكها الخوف فسمعها من إدراك كنه الإسلام وفضائله وما يمكن أن يعود عليها من خير إذا دخلت فيه، فوفقت مكانها جامدة الدهر من هذه الناحية واستمسكت قيادتها بصلف العنيد، الذي لم يبق له إلا الكبرياء وقد أحس زعماء قريش أن رسول الله لا يريد أن يحطم كبرياءهم فهو

يعاملهم برفق وأناة، واطمأنوا إلى أنه لن يآذن لأصحابه في احتياحهم، فأقبلوا على المفاوضة وهم عارفون بالمدى الذي يمكن أن يصلوا إليه، وبدنوا للمعاوضة ثلاثة من رجالهم هم سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ومكر بن حفص، ويستلفت النظر أن ثلاثتهم من عامر بن لؤي دون كعب بن لؤي، سهيل بن عمرو هو ابن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي، وأما حويطب فهو ابن عبد العزى بن أبي قيس الذي ينتهي نسبه إلى مالك بن حسل بن عامر بن لؤي وأما مكرز فهو من بني مقذ بن عمرو ابن معيص بن عامر بن لؤي فكان الرئاسة انتقلت كما قلنا من بني كعب بن لؤي - وفيهم عمود النسب النبوي ويمثلهم في جهة كفار قريش أبو سفيان صخر بن حرب - إلى بني عامر بن لؤي ولم يستلفت ذلك نظر مؤرخينا القدامى . ولكننا نلاحظ أن هذا القبيل من قريش بدأ يظهر أمره في قريش منذ أيام صحيفة مقاطعة بني هاشم، فهشام بن عمرو بن ربيعة كان أول من هب لنقض صحيفة المقاطعة وواجه أبا جهل وأنداده من المتشددين وتمكن من نقض الصحيفة بمعاونة نفر من القرشيين . والآن نرى بني عامر بن لؤي يتصدرون للزعامة، فأين إذن أبو سفيان بن حرب بن أمية الأكبر من بني عبد شمس بن عبد مناف؟ نعتقد أن أبو سفيان وقومه من بني عبد مناف الذين كانوا يمثلون بني كعب بن لؤي كانوا منذ حين أميل إلى التفاهم مع محمد ﷺ وأمة الإسلام . لقد كانت الرئاسة لهم حتى الخندق، وبعد الخندق، وعندما تبينوا ألا قبل لقريش ومكة بأمة الإسلام في المدينة مالوا إلى المودعة، ولم يرض عن ذلك بنو عامر بن لؤي وتصدوا للرئاسة فتركهم أبو سفيان وقومه يفعلون ما يستطيعون . وسيظل هذا القبيل في قيادة قريش حتى ينتهي الأمر إلى نقض صلح الخديبية مع رسول الله، ويقرر الرسول فتح مكة، وها تعود القيادة إلى بني كعب بن لؤي، فيكون المنصير للتفاهم مع رسول الله أبو سفيان بن حرب، ويجس التصرف فيما أراد، وسرى أنه سيتفق مع الرسول ﷺ بصورة غير مباشرة على أن تسلّم قريش ومكة دون قتال، ويكون ذلك فعلاً، ويكون في ذلك إنقاذاً لقريش، بل بداية لعصر جديد من تاريخها في

ظل الإسلام . لأن قريش مكة عرفت كيف تنضم إلى قريش المدينة ، فأتخذ القريشان من حديد تحت راية الإسلام ، وفي ظل محمد صلوات الله عليه ، وتحافظ قريش على هذه الوحدة في ظل أبي بكر وعمر ، ويحتشد بنو عبد شمس في ساء أنفسهم في ظل دولة الإسلام دون أن يسوا حدهم ومسافتهم لبي هاشم ، وما تكاد الخلافة تنصير إلى عثمان بن عفان - وهو من عبد شمس - حتى يبذل العيشميون كل ما يستطيعون لوضع أيديهم على أكبر نصيب من عصبية القوة في دولة الإسلام ، فإذا استوثقوا من ذلك بقيادة معاوية بن أبي سفيان نهضوا لمنازلة بني هاشم بعد مقتل عثمان ، ولا يزالون يعملون حتى لا يستطيع علي بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين السيطرة على قريش كلها وعلى دولة الإسلام جميعها ، معتمدين في ذلك على روابط العصبية التي ربطتهم إلى مخزوم وسهم ونجاش ومرة بن عبد مناف ، لأن بني هاشم وعلى رأسهم علي بن أبي طالب نسوا موضوع العصبية اتباعاً لما يفرض به الإسلام ، فأحياء بنو عبد شمس وعادوا بدولة الإسلام إلى عصبية الجاهلية وحكموا الأمة بعدد السيف ، ولكن الإسلام غلب ، فلا زالت دعوة الهاشمية تنجمع القلوب حتى نهضت بعبء الدولة الهاشمية التي تحولت - بمؤامرة معروفة - إلى دولة عباسية غاصبة غاشمة . وتحولت الهاشمية المتورة إلى شيعة بشق مذاهبها ، فيكون بنو عبد شمس مسئولين عن ذلك الانكسار البعيد المدى ، التوخم العواقب بالنسبة للقوة السياسية للمسلمين ، أما قوتهم العقيدة المتمثلة في الأمة فظلت كتلتها باقية صلبة حتى يحدث الكسر الخطير الذي يحدثه الصفويون في جبهة الإسلام في النصف الأول من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي .

المفاوضة والصّـلح :

لم يكن رجال عامر من لؤي موفقين في قيادتهم لقريش ، وكان اندسهم أنفسهم للتفاوض مع رسول الله ﷺ مسيئاً إليهم ، ولولا كرم الرسول وسعة

قلبه واتساع ذهنه لما نجحت المفاوضة، ولكنا نعرف ما كان من أمر سهيل بن عمرو وسوء حديثه للرسول وإصراره على عدم ذكر أنه رسول الله في نص القضية أو نص الصلح، ونحن نعرف أن رسول الله ﷺ كان طويلاً الأنفة هادئ الطبع لا يرفع صوته في حديث، فانظر كيف يصف الواقدي شكل هذه المفاوضة: «فأتى سهيل إلى النبي ﷺ حين طلع قال: أراد القوم الصلح! فتكلم رسول الله ﷺ فأطال الكلام: ونسراجعوا، ونسراجعت الأصوات وانخفضت».

«فحدثني يعقوب بن محمد عن عبد الرحمن بن عبد الله، عن الحارث بن عبد الله بن كعب قال: سمعت أم عمارة تقول: «إني لأنظر إلى رسول الله ﷺ جالساً يومئذ متربهاً وإن عبادة بن بشر وسلمة بن أسلم بن حريش مقنعان بالحدديد قائمان على رأس النبي ﷺ، إذا رفع سهيل بن عمرو صوته قالاً: اخفض من صوتك عند رسول الله، وسهيل يارك على ركبته رافع صوته كأنه أنظر إلى غلم في شفته»^(١) وإلى أنيابه، وأن المسلمين حول رسول الله ﷺ جلوس».

وعندما تم الاتفاق والمسلمون يسمعون، لم يطق عمر صبراً على ما يرى من حلم الرسول وطول أماته مع هذا الرجل، فقفز من مكانه واتجه إلى رسول الله، وقال: يا رسول الله! ألسنا بالمسلمين؟ قال رسول الله ﷺ: بلى! قال: فعلام تُعطى الدنية في ديننا؟ ففهم رسول الله ما يقصد إليه عمر فقال: «أنا عبد الله ورسوله، ولن أخالف أمره ولن يُضَيِّعني، والحق أن جلالة عمرو بن سهيل تجاوزت المدى، وهو يطلب ويشط معتمداً على كرم الرسول ورفقه وطول أماته. وذهب عمر إلى أبي بكر وأراد أن يستشيره فكان رد أبي بكر: «الزم غرره (يريد طريقه) فإني أشهد أنه رسول الله، وأن الحق ما أمر به، ولن يخالف

(١) العلم: الشق في الشفة العليا، وذلك ما يعرف بعم الأرب.

أمر الله ولن يضيعه» ويمثل هذه العبارات والمواقف استحق أبو بكر لقب الصديق، ويمثل تلك المواقف أيضاً استحق عمر لقبه: الفاروق، فقد كان كالسيف يفرق الحق من الباطل.

وها هنا موقف يرينا الفارق بين القرشيين. فمحمد وصحبه ومنهم الكثيرون من قرش الإسلام، قرش الهدى والإيمان آية في الفضل والكرم والبعد عن البغضاء والاحقاد، ورسول الله في هذا المشهد لا يزال يكرر: «أنا عبد الله ورسوله، ولن أخالف أمره ولن يضيعني» ولو أنصف أولو الأمر في تاريخ الإسلام لجعل كل منهم منج حياته قوله: «أنا عبد الله، ولن أخالف أمره ولن يضيعني».

وقد رأينا عمر وأبا بكر. فاستمع إلى ثالث الثلاثة الذين جمعهم الإيمان والخير والحب لرسول الله وهو أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح من بني الحارث من فهر، وغريب أمر بني الحارث بن فهر بن مالك هؤلاء! فقد أطلع هذا البيت من قرش من أعلام الإيمان والإسلام رجالاً لا يقارنون إلا ببني هاشم فمنهم بعد أبي عبيدة - وهو أعظمهم - عمرو بن الحارث بن زهير وهو بدري، وسهل بن ربيعة بن عامر وهو من منى في نقض الصحيفة، ثم أسلم وكان بدرياً، وحياض بن غنم الفاتح المشهور الذي فتح الجزيرة العراقية وأرمينية، وهو أول من جاز الدرب إلى الروم، ومنهم هند بنت جابر زوج أبي عبيدة، ومنهم نافع بن عبد القيس من رجال فتح مصر، وهو فاتح النوبة، وابنه عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري أعظم فاتحي المغرب، ومن ولد هذا الأخير حبيب بن أبي عبيدة وابنه عبد الرحمن أول من حاول الاستقلال بأفريقية وإقامة دولة محلية إسلامية فيها.

ويردد عمر على أبي عبيدة ما قاله لأبي بكر فيقول له أبو عبيدة: «ألا تسمع يا ابن الخطاب رسول الله يقول ما يقول؟ تعوذ بالله من الشيطان وأنتهم

رأيك! قال عمر - وفعلت أتعود بالله من الشيطان الرجيم حياة. فما أصابني شيء قط مثل ذلك اليوم، وما رلت أصوم وأتصدق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت يومئذ.

هذا في حاب قريش الإيمان والإسلام معادا في جانب قريش الكفر والطغيان؟

هذا سهيل بن عمرو يتجنى ويتصلف معتمداً على كرم رسول الله، فقبل أن يكتب الكتاب اعتقد أن الأمر قد تم ومضى يشتط ويتطاول ويرفض أن يكتب أن محمداً رسول الله، وعندما يقبل ابنه أبو جندل، وكان من المسلمين عند قريش ثم هرب من مكة ويقبل إلى رسول الله مستجيراً أثناء مفاوضة الحديبية وكان متوشحاً سيفه «فرغ سهيل رأسه فإذا بابنه أبي جندل فقام إليه سهيل فضرب وجهه بغضن شوك، وأخذ بِلَيْتِهِ. وصاح أبو جندل بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أُرِّدْ إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ فزاد ذلك المسلمين شراً إلى ما بهم (وكانوا جميعاً قلقين بسبب كرم الرسول وطول أناته يتمنون لو أذن لهم فاجتاحوا مكة وقريشاً جميعاً) وجعلوا يبكون لكلام أبي جندل قال حويطب ابن عبد العزي لمكرز بن حفص (وكلاهما من المشركين وهما زميلا سهيل بن عمرو ولكنها أقل جلافة منه)، ما رأيت قوماً قط أشد حياءً لمن دخل معهم من أصحاب محمد لمحمد، وبعضهم لبعض، أما أبي أقول لك: لا تأخذ من محمد نصفاً أبداً بعد هذا اليوم حتى يدخلها عنة. فقال مكرز: أنا أرى ذلك»، فكان هذين الكافرين أحسا بقوة الإسلام والمسلمين بفضل إيمانهم وكرم نبيهم وطول أناته وبعد نظره، فهما يريان أن هذا المشهد كله لا بد أن ينتهي بنصر محمد والمسلمين معه، أما سهيل بن عمرو فلم يفتح عينيه بعد، فهو يريد أن يأخذ ابنه ليرده إلى الكفر، ويصيح مخاطباً رسول الله ﷺ: هذا أول ما قاضيتك عليه، ردوه! فقال رسول الله: إنا لم نقض الكتاب بعد! فقال سهيل: والله لا أكتبك على شيء حتى ترده إلي! فردّه رسول الله ﷺ، فكلّم رسول الله ﷺ

سهيلاً أن يتركه ويأبى سهيلاً، فقال مكرراً بن حمص وحويطب: يا محمد، نحن نُحيره لك، فأدخله مسطاطاً فأجراه، وكف أسوء عنه، ثم رفع رسول الله ﷺ صوته فقال: يا أبا جندل، اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك فرجاً ومخرجاً. إنا عقدنا بيسا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهداً وإنا لا نغدره.

وهنا لم يطق عمر صبراً، للمرة الثانية، فعاد يكرر على رسول الله ﷺ مقالته الأولى وقد غم عليه، وهو هنا يُعبر عن شعور الكثيرين من المسلمين الذين لم يدركوا مرمى رسول الله ﷺ من وراء الصبر وضبط النفس مع هذا الكافر والمكابرة اللجوج، فهو يتحدث إلى أبي بكر: فيقول أبو بكر: إنه رسول الله ولن يعصيه، ولن يضيقه، فدع عنك ما ترى يا عمر، قال عمر: فوثبت إلى أبي جندل أمشي إلى جنبه، وسهيل بن عمرو يدفعه وعمر يقول: اصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، وإنما هو رجل وأنت رجل ومعك السيف! فرأيت أن يأخذ السيف ويضرب أباه، فضن الرجل بأبيه فقال: يا أبا جندل، إن الرجل يقتل أباه في الله، والله لو أدر كنا آباءنا لقتلناهم في الله! فرجل برجل! قال: وأقبل أبو جندل على عمر فقال: ما لك لا تقتله أنت؟ قال عمر: نهاني رسول الله ﷺ عن قتله وقتل غيره، قال أبو جندل: ما أنت بأحق بطاعة رسول الله ﷺ مني!

وقال عمر ورجال معه من أصحاب النبي ﷺ: يا رسول الله ﷺ ألم تكن حدثتنا أنك تدخل المسجد الحرام وتأخذ مفتاح الكعبة، وتُعرف مع المعرفين (أي تعرف بعرفات)؟ وهذبتنا لم يصل إلى البيت ولا نحن! قال رسول الله ﷺ: وقلت لكم في سفركم هذا؟ قال عمر: لا! قال رسول الله ﷺ: أما إنكم ستدخلونه وأخذ مفتاح الكعبة وأحلق رأسي ورؤوسكم بطن مكة وأُعرف مع المعرفين.

قال الواقدي : وثم أقبل رسول الله على عمر ، فقال : أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أخراكم؟ أنسيتم يوم الأحزاب ﴿إذا جئواكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر﴾ - الأحزاب ١٠/٣٣ أنسيتم يوم كذا؟ وجعل رسول الله ﷺ يذكرهم أموراً أنسيتم يوم كذا؟ فقال المسلمون : صدق الله ورسوله يا نبي الله ، ما فكرنا فيها فكرت فيه . لآنت أعلم بالله وبأمره منا ! فلما دخل رسول الله ﷺ (مكة) عام القضية^(١) ، وحلق رأسه قال : هذا الذي وعدتكم ، فلما كان يوم الفتح أخذ المفتاح فقال : أدعوا إلي عمر بن الخطاب ! فقال : هذا الذي قلت لكم ! فلما كان في حجة الوداع بعرفة فقال : أي غمرا هذا الذي قلت لكم ! قال : أي رسول الله ! ما كان فتح في الإسلام أعظم من صلح الحديبية ! وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول : ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية ، ولكن الناس يومئذ قصر رأيهم عما كان بين محمد وزبته . والعباد يتعجلون ، والله تبارك وتعالى لا يجعل كمجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد الله . لقد نظرت إلى سهيل بن عمرو في حجه (في حجة الوداع) قائماً عند المنحر يقرب إلى رسول الله ﷺ بُذنه ورسول الله ﷺ ينحرها بيده ، ودعا الحلاق فحلق رأسه ، وأنظر إلى سهيل يلقط من شعره ، وأراه يضعه على عينيه ، وأذكر إياه يوم الحديبية بأن يكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، ويأى أن يكتب أن محمداً رسول الله ، فحمدت الله الذي هدانا لهذا للإسلام ، وصلوات الله وبركاته على نبي الرحمة هداانا به وأنقذنا من الهلكة^(٢) .

ولقد تابعت في هذا الحديث نص الواقدي ، فإنه أبلغ من كل مقال في تصوير حال قريش المؤمنة تجاه قريش الكافرة ، وأستطرد في حديث الحديبية حتى أمرغ منه ، فأقول : إن سهيل بن عمرو هذا عند كتابة نص الاتفاق ،

(١) عندما احتمر بعد ذلك بسة بياه على صلح الحديبية

(٢) الواقدي ، معاري ، ٦٠٩/٢ - ٦١٠

وبعد أن استدعى الرسول علي بن أبي طالب ليكتب توقف سهيل في أن يكتب
 «بسم الله الرحمن الرحيم، وأصر علي أن يكتب باسمك اللهم، والمسلمون
 يضيق صدرهم بما يرون ويسمعون، ويتغاضى له الرسول عن ذلك ويأمر - علياً
 بأن يكتب باسمك اللهم! ثم يتوقف سهيل بن عمرو في أن يكتب: محمداً
 رسول الله، ويقول في جراءة الجاهل: لو أعلم أنك رسول الله ما حالفتك
 واتبعتك أفرغب عن اسمك واسم أبيك: محمد بن عبدالله؟ فضج المسلمون
 منها ضجة هي أشد من الأولى، حتى ارتفعت الأصوات وقام رجال من
 أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: لا نكتب إلا محمد رسول الله!.

ثم اقرأ بقية الخبر عند الواقدي، لتعرف إلى أي مدى كان رسول الله
 ﷺ يفهم أصحابه ويحترم مشاعرهم ويبتعد في إقناعهم باللين والصبر، بأن ما
 سيلفونه بالأناة والملاينة يزيد اضغاثاً على ما يمكن أن يلفوه بالعنف، وما داموا
 قد ارتضوه هادياً ورئيساً وبايعوه على الحرب والسلام وفوضوه في الأمر كله بعد
 المشاورة في بيعة الرضوان، فليتركوه يسير الأمور كما يرى.

قال الواقدي: فحدثني ابن أبي سبرة، عن اسحاق بن عبدالله عن أبي
 فروة عن واقد بن عمرو، قال: حدثني من نظر إلى أسيد بن حضير وسعد بن عباد
 قد أخذوا بيد الكاتب فامسكاهما وقالوا: لا نكتب إلا محمد رسول الله وإلا
 فالسيف بيننا! علام نعطى هذه الدنية في ديننا؟ فجعل رسول الله ﷺ يخففهم
 ويوميء بيده إليهم: اسكتوا! وجعل حريط يتعجب مما يصنعون. وقبل على
 مكرو بن أبي حفص ويقول: ما رأيت قوماً أحوط لدينهم من أولئك القوم! فقال
 رسول الله ﷺ: اكتب باسمك اللهم. فنزلت هذه الآية في سهيل حين
 أبي أن يُقر بالرحمن: ﴿قُلْ أَدْعُو اللَّهَ أَوْ أَدْعُ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ
 الْحُسْنَى﴾ (سورة الإسراء ١٧)، فقال رسول الله ﷺ: أما محمد بن
 عبدالله، فاكتب فكتب: باسمك اللهم، هذا ما اصطالح عليه محمد بن
 عبدالله وسهيل بن عمرو. اصطالحا على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيها

الساس ويكف بعضهم عن بعض على أنه لا إسلال ولا إغلال^(١)، وإن بيننا عيبة مكفوفة^(٢)، وأن من أحب أن يدخل في عهد محمد فعل، وأنه من أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدها فعل. وأنه من أتى إلى محمد منهم بغير إذن وليه رده إليه، وأنه من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم ترده، وأن محمداً يرجع عنا عامه هذا بأصحابه ويدخل علينا قابل في أصحابه فيقيم ثلاثاً لا يدخل علينا بسلاح إلا سلاح المسافر السيوف في القرب، شهد أبو بكر بن أبي قحافة وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعثمان بن عفان وأبو عبيدة بن الجراح ومحمد بن مسلمة وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص ابن الأخيف.

ونقف هنا لحظة لتأمل فيما أشرنا إليه من إطلاق الرسول ﷺ الحرية لأصحابه ليقول كل منهم رأيه كما يريد: فهذا عمر يعترض ورسول الله يجتهد في أن يهديء من روعه ويعطشته إلى أنه لا يرضى بدنية في دينه، وإنما هو يُجْكَم العقل وينظر إلى بعيد، وهو يثق في الله سبحانه وتوجيهه إياه، وهو سبحانه لن يضعيه. وهذان: أسيد بن الحضير وسعد بن عباد يريدان أن يمنعا الكاتب (وهو علي بن أبي طالب) من أن يكتب إلا ما يقولون، ورسول الله يطيل معهم الأناة لأنه يعرف أنه يحقق بما يرى ويفعل للإسلام فوق ما يؤملان، وهو لا يغضب ولا يعبس ولا يأمر ولا ينهى، وإنما هو يدع من يريد أن يقول رأيه ثم يقوله ثم بعد ذلك يكون رأي الأغلبية، والأغلبية قد فوضت رسول الله فهي راضية بما يرى: لا استبداد في جماعة الإسلام ولا رأي مفروض، وإنما هو الاقتناع والثقة بين الرسول والمسلمين. وقد رأينا أن رسول الله بعد أن اعتمر ثم حج بعد ذلك، حرص على أن يستدعي الذين كانوا يعارضون ليرىهم أنهم لم يكونوا على صواب فيما رأوا، وأنه حقق كل ما وعد وكل ما يريدون في وقته وأوانه على

(١) الإسلال السرة الخفية، والمعنى المراد لا تدبير في الخفاء، والإغلال الخيانة.

(٢) أي يكف بعضاً من بعض.

أحسن وجهه، فأين هذا مما استراه أمة الإسلام من عسف الأمور وطعيان العباسية؟ أين هذا من معاوية بن أبي سفيان الذي قتل رجالاً لأنهم اعترضوا على سب علي بن أبي طالب رضي الله عنه على المنابر، وأين هذا من أبي عبد الله السفاح وأبيه وأعمامه الذين افتتحوا عصرهم العباسي بمذابح شائنة لخصومهم السياسيين جميعاً، المسيء منهم وغير المسيء بل قتلوا في الطريق رجالاً من أوليائهم وبناء دولتهم منهم أبو سلمة الخلال الذي عرف بوزير آل محمد، لمجرد أنه ظن أن الدعوة هاشمية حقاً فكتب من تلقاء نفسه إلى الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر وآخرين من آل علي يعرض عليهم الخلافة غير عالم بما ائتمر عليه إبراهيم الإمام مع أبي مسلم الخرساني.

وما أكثر ما نبتعد عن خط الرسول ﷺ ثم نشكوا أن معظم مصائبنا آتية من أننا ندرس السنة درساً بالغاً ونؤلف فيها المجلدات فإذا جئنا إلى التطبيق انحرفنا عنها، ثم نطلب التوفيق من الله بعد ذلك! وهيهات!

ونلاحظ هنا أنه لم يوقع على هذه الوثيقة من الأنصار إلا واحد وذلك مفهوم، فإن الأنصار كانوا يرون أنها فرصة ضاعت عليهم، فرصة اجتياح مكة والقضاء على الأعداء بضربة واحدة، ولكن رأي الرسول وبصيرته وبعد نظره غلبت، فقبل الأنصار وإن غالبيتهم لغاضبون.

وبعد أن فرضوا من الكتاب احتفظ رسول الله بالأصل وأخذ سهيل نسخة. وما كاد العقد يتم حتى وثب من هناك من خزاعة وقالوا: نحن ندخل في عهد محمد وعقده، ونحن على من وراءنا من قومنا، ووثب بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة فقالوا: نحن ندخل مع قريش في عهدها وعقدها ونحن على من وراءنا من قومنا!

وكان هذا متوقعاً، فنحن نعرف ارتباط خزاعة بالفرع الهاشمي من قريش، وهو الذي انتقلت رياسته إلى المدينة متمثلة في محمد رسول الله ﷺ ثم

المهاجرين، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك وأشرنا كذلك إلى ميل بني بكر بن عبد مناة بن كنانة إلى بني عبد شمس بن عبد مناف منذ أيام حرب الفجار الثالثة.

ولكن حويطب بن عبد العزى استوقف نظره الأمر فقال لسهيل بن عمرو: يا أبا أحوالك بالعداوة، وقد كانوا يستتروا منا، قد دخلوا في عهد محمد وعقده. وكان حويطب هنا يميز سهيلاً بأن أمه من خزاعة وهي خُبي بنت قيس بن ضبيش من بني عمرو بن خزاعة، وكذلك كان ثلاثة من أبناء عامر بن لؤي، وهم مميص وعويص ونعيم من أم خزاعية، أما أن خزاعة كانت تستتر من قريش أي تخفي ميلها لمحمد والإسلام فليس ذلك بصحيح، فالخزاعيون جميعاً كانوا مع محمد ظاهراً وباطناً ومعظمهم كان قد أسلم.

فرد عليه سهيل قائلاً: «ما هم إلا كغيرهم، هؤلاء أقاربنا ونحننا قد دخلوا مع محمد. قوم اختاروا لأنفسهم أمراً فما نصنع بهم؟ قال حويطب: نصنع بهم أن ننصر عليهم حلفاءنا بني بكر (بن عبد مناة بن كنانة) قال سهيل: إياك أن نسمع منك هذا بنو بكر، فإنهم أهل شؤم، فيثبوا بخزاعة، فيغضب محمد لحلفائه، فينقض العهد بيننا وبينه. قال حويطب: حظوت^(١) والله أحوالك بكل وجه». فقال سهيل: «نرى» أحوالي أعز عليّ من بني بكر؟ ولكن، والله لا تفعل قريش شيئاً إلا فعلته، فإذا أعانت بني بكر على خزاعة فإنما أنا رجل من قريش، وبنو بكر أقرب إليّ في قدم النسب وإن كانت هؤلاء لحقولة، وبنو بكر من قد عرفت، لنا منهم مواطن كلها ليست بحسنة، منها يوم عكاظ.

وهذا الحديث بين الرجلين يدل على عمق الروابط القبلية عند أولئك القرشيين وتعلقهم بالأنساب، فسهيل يدفع أول الأمر عن أخواله من خزاعة

(١) يريد أيديهم وداعتهم.

(٢) يريد: الحب ان احوالي... الخ.

ثم يقول إنه مع ذلك رجل من قريش بميل حيث تميل قريش، وأن قريشاً لو نصرت بني بكر من عبد ماة بن كنانة فإنه مع قريش على أي حال، رغم أن كنانة كانت لهم مواقف سيئة من قريش كما فعلت في يوم عكاظ، وهو يوم من أيام الفجار، ويعرف بيوم عكاظ، وفيه تخلت بنو عبد ماة من كنانة عن أبناء عمومتها قريش وأيدت هوازن، فقتل في ذلك اليوم وفي يوم العلاء الذي تلاه كثيرون من قريش ولم تسج قريش إلا بفضل العباس من بني أمية الأكبر، وأحلافهم من بني مخزوم وقيم بن مرة، وتلك هي الأصول البعيدة لانقسام قريش إلى فرعين من بني كعب بن لؤي، هما بنو هاشم بن عبد مناف، وبنو شمس بن عبد مناف وانضم إلى كل من الجانبين فريق من القرشيين. وأعجب من هذا أن عرق العصبية هذا ظل ينبض في هذا الفريق من بني قصي بن كلاب حتى أقاموا عليه دولة بني أمية، أما بنو هاشم فقد غلب عليهم الإسلام وأغناهم نسب رسول الله عن كل نسب، فكان هذا حبهم عند الله، أما عند الناس فقد نبض عرق الهاشمية في جمهور المسلمين قُضِباً لبني هاشم وما أصابهم من أهدائهم، ولم تعد الهاشمية عصبية قبلية بل محبة في محمد ﷺ وأئمة من أن يصيهم هذا المكروه كله على أيدي فريق من قريش غلبت الدنيا عندهم على الدين، فاختاروا الدنيا وما كان أقصرها من دنيا! فإن هي إلا نف وسبعون سنة هجرية حتى ذهبت بهم الدنيا التي تكالبوا عليها وصاروا حصيد السيوف، وقامت دولة الهاشمية التي انقلبت إلى عباسية طمعاً في الدنيا، فانتصر بنو العباس وما سعدوا، ودخلوا دولتهم يتخوضون في بحر الدماء، ونادى منادهم: لا عصبية بعد اليوم ولا نسب إلا في الإسلام، يريدون أن ينسى الناس بني هاشم، فصار العرب جميعاً من ذلك الحين ينسبون إلى آبائهم ولا يقال البكري أو الكعبي أو الثقفي، إلا عند الباحثين عن الأنساب من أهل العلم والمتمسكين بالأنساب من أهل البداوة والظن، ولم يبق على التاريخ من نسب يذكره الناس جميعاً ويتبركون به غير نسب بني هاشم وعتره محمد صلوات الله عليه. وسبحان من خلق نبيه الأكرم عندما بدأ الخلق، وتبقى رايته ملاذاً

للناس عندما يُطوى الخلق كله ويُدعى للحساب.

هكذا انتهى هذا التواجه بين القرَيشِينِ نصر مؤرر لقريش الإسلام على قريش الكفر، فإن الطريق عندما فتحت بين مكة والمدينة وتلاقى الناس، دخل في الإسلام جمهور من أهل مكة ممن كانوا يطوون أنفسهم على إيمانهم خوفاً من عصية سادات الشرك في بلدهم، ويجمع الرواة على أن من أسلم فيما بين الحديبية وفتح مكة - على قصر المدة بينهما - زادوا أضعافاً على من أسلم قبلها. قال ابن اسحاق في تفسير قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ اللَّهُ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾: صلح الحديبية. قال الزهري: فما فُتِحَ في الإسلام فَتَحَ قبله كان أعظم منه. إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وأمن الناس كلهم بعضهم بعضاً والتقوا، فتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد في الإسلام بعقل شيئاً إلا دخل فيه. ولقد دخل في تينك الستين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك وأكثر. قال ابن هشام والدليل على ما قاله الزهري، أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة رجل في قول جابر، ثم دخل عام فتح مكة بعد ذلك بستين في عشرة آلاف^(١).

ومن جميل مذاهب أهل السيرة أنهم يتبعون حديث غزوة الحديبية بتفسير آيات من سورة الفتح، وهذه السورة الكريمة وما تضمنته من المعاني هي أبلغ تعبير عن نصر الإسلام ورسوله في غزوة الحديبية هذه. وقد رأينا أن ما أبداه رسول الله أثناءها من الصبر والحلم مع الكفار والمؤمنين على السواء، يؤكد لنا بعد نظره وصادق تقديره، فقد كان يعرف أن جمعة سهيل بن عمرو وتمسكه بالكلمة والحرف وإصراره على الصفات، إنما كان سترًا لما كان يشعر به هو وقومه من ضعف وحيوف، حتى ما تمسك به صفوان من ضرورة رد من أن محمداً ﷺ من المسلمين هارباً من الكفار رده عليهم، حتى هذا الشرط الذي

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٧٠/٤

أغضب الكثيرين من المسلمين تبيي بعد قليل أن رسول الله كان بالعمى الفطنة عندما سلم لصفوان الذي يبدو وكأنه تسليم لقريش بشيء هو ضرر للمسلمين، فقد روي ابن جرير عن صفوان بن أمية وكيف تمسك أبوه برده - وكان مسلماً - فرد الرسول ووعده بأن يجعل الله له مخرجاً وفرجاً قريباً، فيريد ربك أن يكون هذا العرج أقرب مما تصور الناس، ذلك أن رجلاً يكنى أبا بصير واسمه عتبة بن أسيد بن جارية كان حليفاً لبني زهرة القرشيين، وكان قد أسلم، فهرب إلى المدينة لاجئاً إلى رسول الله وأمة الإسلام، وأرسلت بنو زهرة في طلبه وفاءً بالشرط، فطلب رسول الله إلى أبي بصير أن يعود، فرفض الرجل، واقتاده رجال قريش عائدين إلى مكة، فلما كان في بعض الطريق تمكن أبو بصير من قتل أحد أسريه، وأخذ سلاحه وسلبه وذهب إلى المدينة ليجد الباقين من أسريه يشكون أمره إلى الرسول، وأقبل أبو بصير في أثناء ذلك فقال لرسول الله: وَقْتُ ذِمَّتِكَ وَأَدَّى اللَّهُ عَنْكَ، وقد أسلمتني بيد العدو، وقد امتنعت بديني من أن أفن أو يُقَبَّح بي أن أكذب بالحق، فقال رسول الله ﷺ: وَيْلُ أُمِّهِ، عَشَّ حَرْبَ لَوْ كَانَ مَعَهُ رَجُلٌ! ثم خرج أبو بصير إلى العيص على ساحل البحر وثبت في موضع قرب طريق التجارة، وتأنس إليه جمع من المسلمين ممن هربوا من مكة عندما بلغهم أن رسول الله قال: وَيْلُ أُمِّهِ، يَحْشُرُ حَرْبَ لَوْ كَانَ مَعَهُ رَجُلٌ! وخرج الرجل إلى ساحل البحر وتلاحق به من أحب من المسلمين فأصبحوا قرابة سبعين رجلاً ضيقوا على قريش، لا يتركون غيراً لها ثمراً إلا سطوا عليها، ولا يقع في يدهم قرشي كافر إلا قتلوه، حتى ضجت قريش وضافت بأولئك الرجال. فأتوا إلى رسول الله يرجونه أن يضم أبا بصير ومن معه إليه وهم متنازلون عن المطالبة به.

وقد ثارت بهذه المناسبة مناقشات بين القرشيين، لأن الرجل الذي قتله أبو بصير وأخذ سلاحه وعاد إلى المدينة كان من عامر بن لؤي، فرأى صفوان ابن أمية أن ديته على رسول الله وقال: «والله ما صالحنا محمداً على هذا». قالت

قريش قد برىء محمد منه، قد أمكن منكم صاحبكم فقتله بالطريق، فما عل محمد في هذا؟ فقال سهيل: قد والله عرفت أن محمداً قد أوفى، وما أوتينا إلا من قبل الرسولين. قال: فأسند (سهيل بن عمرو) ظهره إلى الكعبة وقال: والله لا أؤحر طهري حتى يُودي هذا الرجل. قال أبو سفيان: إن هذا هو السمع، والله لا يُودي! ثلاثاً (أي قالها ثلاثاً) وأبي (أقول) قريش نديه، وإنا بعثت (أي بعثت الرسول الذي قتل) بنو زهرة (لأن أبا بصير كان حليفها). فقال سهيل: قد والله صدقت! ما دبت إلا على بني زهرة، وهم بعثوه ولا يخرج دبتهم غيرهم فقصرة (أي أن ذلك الواجب مقصور عليهم) لأن القاتل (أبا بصير) منهم، فهم أولى من عَقَلَه. فقال الأخنس (بن شريق - من بني زهرة) والله لا نديه، ما قَتَلناه ولا أمرنا بقتله. قتله رجل مخالف لديننا متبع لمحمد، فأرسلوا لمحمد يديه. قال أبو سفيان لا! ما عل محمد دية ولا غرم، قد برىء محمد، ما كان على محمد أكثر مما صنع، لقد أمكن الرسولين منه. فقال الأخنس: إن وَدَّته قريش كلها كانت زهرة بطناً من قريش نديه معهم، وإن لم تَدِه قريش فلا نديه أبداً. فلم تُخْرِج له دية حتى قدم رسول الله ﷺ عام الفتح (١). . . .

وهكذا نرى أن قريشاً لا زالت رغم ما نزل بها من الهزائم وما ساء من حالها متماسكة فيما يتعلق بإقامة التقاليد القبلية والعرف القبلي في مجتمعتها. فهذه المناقشة كلها تدور حول من يتحمل دية رجل منهم قتل ولا سبيل لهم إلى القاتل. بل إن بني زهرة عرضت أن تشارك قريشاً في أداء الدية مجتمعة، فأبى ذلك القرشيون، فلما فتحت مكة ودخل رسول الله البلد مظفراً، كان هو الذي ودى الرجل إحساناً منه وفضلاً.

ونلاحظ أثناء المناقشة أن رأي أبي سفيان هو الذي غلب وأبو سفيان وبينه من بني عبد شمس جميعاً تركوا بني عامر بن لؤي يتصرفون حتى ينقض العهد بسوء رأيهم، وهذا يعود بنو أمية للقيادة لكي يخرجوا بقريش الكافرة من

(١) الوافدي، معاري ٦٢٧/٢

الهلاك أو هكذا رجوا، لأن الذي أنقذ قريشاً ومكة كان رسول الله بأمر الله سبحانه، ولا يمنع ذلك من القول بأن أبا سفيان كان له في ذلك دور كبير كما سنرى

وقبل أن نتقل من هذه النقطة نقول إن أبا بصير ومن معه بالغوا في أذى قريش حتى ضجت منهم وعجزت أمامهم، فذهب رجالها إلى محمد ﷺ وسألوه بأرحامهم أن يضم أبا بصير وأصحابه إليه، لكي يقطعوا من مكانهم الذي استقروا فيه بالساحل. وفعل رسول الله، وأمر بالكتابة إلى أبي بصير، فوصله الخطاب وهو يجود بنفسه. مات في مكانه في البصر على ساحل بحر القلزم مجاهداً أعداء الله. ودفنه أصحابه وأقاموا عند قبره مسجداً، وعادوا إلى المدينة، ومنهم الوليد بن الوليد بن المغيرة، وكان من خيرة المسلمين فلما مات استأذنت أم سلمة أم المؤمنين رسول الله في أن تبكيه فأذن لها، لأنها ابنة عمه فهي بنت مهشم بن أبي حذيفة بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهي ابنة أخيه الوليد بن هشام، والوليد بن الوليد بن المغيرة هذا هو أخو سيف الله خالد بن الوليد. فانظر إلى تشابك أنساب قريش هذه، وأعجب كذلك عندما تذكر أن حُتَمَةَ أم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ابنة عم بعيدة لأم سلمة وخالد بن الوليد والوليد بن المغيرة الذي طلبت أم سلمة أم المؤمنين من رسول الله الإذن في أن تبكيه.

ولا يستتم كلامنا عن الحديدية ونصر الله فيها لقريش المؤمنة على قريش الكافرة، إلا بأن نشر إلى سورة الفتح وهي الثامنة والأربعون من سور القرآن الكريم نزلت ورسول الله عائد في الطريق من الحديدية إلى المدينة، وأول آياتها ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا، لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، وَيُمْ نِعْمَةً عَلَيْكَ وَيُهَيِّئَ لَكَ سَرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا. هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلَهُ جَنُودُ السَّمَاوَاتِ

والأرض، وكان الله علياً حكياً^(١) وعذك بقية السورة في كتاب الله العزيز
فاقرأها ليعتق الله عليك وعلىنا من معاني الإيمان ما يملأ القلوب هدى وبصيرة.

الوضع في الحجاز وشمال الجزيرة ووسطها بعد الحديبية :

ترك رسول الله ﷺ قريشاً لشأنها، فقد أصبحت في حسابه ثمرة تبع لم
تسقط من تلقاء نفسها عندما يحين حينها، ومضى الإسلام ينتشر بين أهلها،
وتضاءل أمر الشرك ورجاله حتى أصبحوا رمزاً بلا معنى. وقد شعروا هم بذلك
ورأوا ضياع أمرهم، فلا سبيل لهم الآن إلى تتبع المسلمين في بلدهم أو فيما
حولهم، وضاعت من أيديهم تجارة مكة بتوالي المحن والحروب وانقطاع
الطريق، وتقطعت الأسباب التي كانت تضمن لهم سلامة متاجرهم في نواحي
الجزيرة، وأخذت قبائل شبه الجزيرة تتطلع إلى النجم الجديد الصاعد في سماء
جزيرتهم، نجم الإسلام ورسوله ﷺ.

ولم يبق لقريش من حلفاء إلا بنو بكر بن عبد مناة الكنانيون، وسنرى
أنهم كانوا قبلاً ضعيفاً لا يغي عن قريش شيئاً إذا جد الجدد، ثم هوازن وكانت
قبلاً ضخماً من البدو متعدد البطون والأفخاذ والبيوت، يعيش في الرمال التي
تلي جبال السراة شرقاً وتمتد منهم فروع إلى غربها قرب مكة. وكانت مكة
مدينتهم ومركزهم المدني، وعليها كان عمادهم فيها لا غنى لهم عنه من آنية
وسلاح وماعون وما إلى ذلك مما لا يصنع في الصحراء، ولكنهم كانوا كغيرهم
من الأعراب يعيشون من يوم ليوم، فهم إلى هذه الساعة لم يحسوا بخرج مركز
حلفائهم وأصايرهم القرشيين. وما داموا يلمون بمكة فيجسدوا فيها ما هم
بحاجة إليه من السيوف والآنية وآلة ركوب الخيل، وما دامت أمة الإسلام في
المدينة لم تعرض لهم، فقد مضوا في حياتهم على عهدهم على الرمن الطويل.
وسيتطلون على هذه الحال حتى تفتح مكة وتدخل أمة الإسلام فيحسون أنهم

(١) الفتح، آية ٢

حرموا من مركزهم المدني، وهنا يتحركون.

وبقيت للقرشيين كذلك ثقيف، وثقيف كانت قبلاً قوياً غنياً معتزاً بالطائف معتصماً بها، يحسبون أن أحداً على وجه الأرض لا يملك لهم صراً ما داموا متأنشين بجبالهم، ثم إنهم كانوا قبلاً مقفلاً على نفسه إلى حد بعيد، فإن علاقات الصهر بينهم وبين غيرهم من العرب اقتصررت في الغالب على قريش ومكة. وهؤلاء أيضاً لم يعرض لهم الإسلام بعيد، فإن الخط الذي رسمه رسول الله ﷺ جعل كل شيء بأوانه، فما دامت مكة قائمة على حالها فلا سبيل إلى ثقيف والطائف. وستفاجأ ثقيف بفتح مكة وضياع ذلك الحليف القوي إلى جانبها، ويومها ستشعر بأن يومها قد قرب وستأخذ في التفكير في شأن أمة المدينة وما يكون لها معها من شأن.

فلذا كان هذا هو الوضع في الحجاز وشمال شبه الجزيرة ووسطها، أوائل القرن السابع للهجرة (منعطف سنة ٦٢٨، ميلادية) فقد تولج الرسول صلوات الله عليه نحو خيبر ومن لاذ بها من غطفان وأسد وقبائل صفرى، ورأى أن يُدخلها أمة الإسلام حتى يحين موعد مكة، ورمى رسول الله ﷺ بصره إلى ما وراء جزيرة العرب شمالاً حيث الفرس والروم وعرب كثيرون، منهم عرب الضاحية وعرب الروم وعرب الحيرة وعرب كثيرون آخرون في بلاد الشام والعراق، فوالى سراياه بعد خيبر على شمال الجزيرة حتى مهده، ثم بعث في نفس الوقت برسله إلى من رأى البدء بهم من الملوك والرؤساء خارج الجزيرة يدعوهم إلى الإسلام.

فَتَحْ خَيْبَرَ وَنَتَاجِجُهَا :

كان فتح خيبر في صفر أو ربيع الأول سنة ٧ للهجرة / يونيو ٦٢٨ م. تمهيداً لأمر شمال شبه الجزيرة، وقصاء على قوة مجموعات قبائل الأعراب وأنصاف الأعراب الذين يسدون طريق المدينة إلى الشام، وتوسيعاً لرقعة أمة الإسلام حتى تكون في يدها تلك المجموعة من الواحات التي كانت إلى ذلك

الحين أوسع منطقة زراعية في شمال شبه الجزيرة ووسطها، حتى إنها كانت تسمى «ريف الحجار» طعاماً وودكاً، والبودك دهن اللحم، حقاً إن المدينة تقدمت تقدماً باهراً في ظل محمد ﷺ وأمة الإسلام من ناحية الزراعة والإنتاج، ولكن هنا في خيبر كانت وديان غنية واسعة تُزرع من عشرات السنير وربما مثانها، هنا كان يزرع قمح كثير وشعير كثير ونخيل كثير وهنا أيضاً ثلاث تلال حصينة كلها مسلحة بالحصون والقلاع ومخازن السلاح والمؤن، وهنا كذلك ماء كثير، وتحيط بذلك تلال أخرى هي حافات حرة خيبر وهي لا ترام من جنوبها، والمدخل إليها من الشمال أو الشمال الشرقي وفي خيبر ألوف اليهود من أهل المال والثروة والجاه العريض والقوة وجاء المال. ومن حول خيبر قبائل من عتاة أعراب قيس عيلان: هوازن بحجمها الضخم، ثم أسد بشراستها وإيغالها في التوحش، وطيء المتحصنة بجبلها أجا وسلمى، وهذه كلها كانت دروعاً لخيبر وخيبر ردهاً لها، وهي لهذا كله كانت فيها يرى أهلها وفيها يرى الناس لا ترام. وعندما تسمع الناس بأن محمداً ﷺ يقصدها، عجب الناس وسخر اليهود في خيبر وخارجها في الجزيرة من أمة الإسلام سخرأ بالغا، قال الواقدي: «وكان يهود خيبر يظنون أن رسول الله لا يغزوهم لمعتهم وحصونهم وسلاحهم وعددهم. كانوا يخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفاً ثم يقولون: محمد يغرون؟ هيهات هيهات! وكان من بمكة من اليهود حين تجهز النبي ﷺ إلى خيبر يقولون: ما أمتع والله خيبر منكم! لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم». حصون شامخات في ذرى الجبال، والماء فيها وأنن. إن بخيبر ألف دارع. ما كانت أسد وغطفان يمتنعون من العرب جميعاً إلا هم، فأنتم تطيقون خيبر! وهذه العبارة الأخيرة تؤكد ما قلناه هنا مرة بعد مرة من أن الدويستمدون القوة دائماً من الحاصرة التي تكون في منازلتهم أو قرية منها، لأن الصاعدة لا تكون إلا في مدينة أو مركز حصري، والبدو لا يستغنون عن المصنوعات وخاصة السيوف والدروع وآلة ركوب الخيل وأنية الطعام، فإذا حرموا من حاضرتهم لم يلبثوا أن تدهوروا واصمححل أمرهم بقلة

السلاح أو فقدانه وهذا هو ما أراده الواقدي بقوله. «ما كانت أسد وغطمان
يتمنعون من العرب قاطنة إلا هم» ومن الواضح أن اليهود لم يكربوا بقاتلون مع
أولئك الأعراب، بل المقصود أن هؤلاء البدو يحصلون من خير على السلاح
الذي يتمنعون من العرب قاطنة به.

وشغل الناس في الجزيرة بخبر مسير محمد ﷺ إلى خير وانقسم الناس في
ذلك، فقال ناس إن محمداً يغلب ويقال آخرون إن خير يغلب، بل تراهن
الناس في ذلك، وقرأ هذا الكلام الذي يسوقه الواقدي على لسان جاسوس
يهودي قبض عليه وأُتي به إلى النبي، فكذب على المسلمين عندما سألوه، فلما
شددوا عليه قال الحق. قال: «القوم (اليهود) مرعوبون منكم خائفون وجلون
لما قد صنعتهم بمن كان يشرب من اليهود، وأن يهود يشرب بعثوا ابن عم لي
وجدوه بالمدينة، قد قدم بسلعة يبيعها، فبعثوه إلى كنانة بن أبي الحقيق يخبرونه
بقتلتكم وقلة حيلتكم وسلاحكم، ويقولون لهم فاصدقوهم الضرب ينصرفوا
عنكم، فإنه (يريد رسول الله) لم يلق قوماً يحسنون القتال. وقريش والعرب قد
سروا بمسيرة إليكم لما يعلمون من مَوَادِّكم وكثرة عددكم وسلاحكم وجودة
حصونكم، وقد تنافست قريش وغيرها ممن يهوى هوى محمد. تقول قريش إن
خير تظهر، ويقول آخرون: يظهر محمد، فإن ظفر محمد فهو ذل الدهر»^(١).

وهكذا يهبط قدر قريش مكة فلا يكون لها من دور في هذه المعركة
الفاصلة، إلا أن تُسرَّ بمسير محمد إلى خير أملاً في أن تنتصر عليه خير واليهود،
وهذا الموقف وحده يدلنا على المدى الذي وصل به الحقد بقريش مكة، فقد
أنساهم أنهم عرب. ومن هذه الوهدة سيستنقذهم الهادي المبارك محمد ﷺ.

وتنتهي غزاة خير بن نصر مؤزر لله ورسوله والمؤمنين، ومكان التفصيل
فيها في السيرة التي أعاننا الله على إتمامها وله الحمد والمنة. ولكن أصلق ما

(١) الواقدي، معري ٢/ ٦٤١

بصور لنا حلال النصر الذي بلغه الإسلام بعد حير، هذه السطور التي نقلها من الواقدي، وهي حديث جرى بين عيبة بن حصن الفزاري سيد غطفان والحارث بن عوف من سادة غطفان أيضاً، وكان عيبة بن حصن قد ضُبع حلفاءه من يهود وخان عهده مع رسول الله، ثم سدم على ذلك بعد أن وجد نفسه في النهاية صفر اليديه فلما رجع إلى أهله جاءه الحارث بن عوف قال: ألم أقل لك إنك تُوضع في غير شيء! والله ليظهرن محمد على ما بين المشرق والمغرب، اليهود كانوا يخبروننا هذا. أشهد لَسَبْعَتُ أبا رافع سلام بن أبي الحقيق يقول: إنا نحسد محمداً على النبوة حيث خرجت من بني هارون، وهو نبي مرسل، واليهود لا تطاوعني على هذا، ولنا منه ذُبْحَان، واحد يثرب وآخر بخيبر. قال الحارث، قلت لِسَلَامٍ: يملك الأرض جميعاً؟ قال: نعم والثرثرة التي أنزلت على موسى، وما أحب أن تعلم اليهود بقولي فيه^(١).

ملاحظات على عمرة القضية :

آمن رسول الله ﷺ من خطر اليهود وأحلافهم في الشمال وأصبح يستطيع أن يوجه جهده كله نحو مكة للفراغ من أمرها خاصة، وقد استسلمت فذك والرسول صلوات الله عليه في آخر مراحل معركة خيبر.

وعاد الرسول بعد ذلك إلى المدينة مظفراً وقد اتسعت رقعة أمة المدينة حتى شملت كل منطقة خيبر وما حاذها إلى بحر القلزم، ومع خضوع خيبر خضعت غطفان وأسد وطىء بالإضافة إلى قبائل شمالي الحجاز: عُدْرَة وَجُدَام وَغِفَار وَقَطْع من قضاة وقبائل أخرى أصغر، وهذه كلها كانت دخلت في حلف المدينة، أسلم منها من أسلم وبقي على شركه أو نصرانيته من أهلها من بقي، ولكنها أصبحت داخلة في نطاق أمة المدينة على أي حال، وفي أثناء ذلك

(١) الواقدي، معاري ٢/ ٦٧٧

استمر رسول الله يبعث بالسرايا لاستكمال أمر الإسلام، فبعث عمر بن الخطاب في سرية إلى ثُرّة شرقي الطائف (شعبان ٧ هجرية) للتوثق من أمر بعض قبائل هوازن مثل بني نصر بن معاوية وبني حُشم بن بكر، وفي نفس الوقت تقريباً ذهبت سرية يقودها أبو بكر إلى هوازن أيضاً، وهذه كلها أعمال كان لا بد منها لإحكام القبضة على قریش مكة، ثم أرسل نسيب بن سعد إلى فُذَک لضمان طاعة قوم من ذُبيان هم بنو مرة بن عوف بن سعد فلم يوفق بشير، ثم أراد رسول الله أن يبعث الزبير بن العوام في سرية لتأديب بني مرة هؤلاء، ثم استبدل به غالب بن عبد الله الليثي، وكان قائداً ذا تجربة وطالع ميمون، وبعث معه نفرأ من كبار الصحابة منهم أبو مسعود عقبة بن عمرو وكعب بن عُجْرة وأسامة بن زيد وعُلمية بن زيد، وقد أبدى غالب خلال هذه السرية من دلائل القدرة على القيادة ما يدل على أن الرسول أخرج من تحت يده قادة للرجال حقاً، وفي هذه السرية وقع أسامة بن زيد في خطأين: الأول إنه خالف أمر قائده، وكان قد آخى بين كل اثنين من رجاله وحذرهم الافتراق، فخالفه أسامة وتبع رجلاً وقتله بعد أن قال لا إله إلا الله، وهذا هو الخطأ الثاني، فلم يعجب ذلك رسول الله من عمل أسامة، فقال أسامة يلتبس لنفسه العذر: إنما قالها تعوداً من القتل، فقال له رسول الله ﷺ عبارته البالغة العمق والحكمة والإعلام بروح الإسلام: «ألا شققت قلبه فتعلم. أصادق هو أم كاذب». وكان أسامة إذ ذاك في مداخل شبابه وعمره ستة عشر عاماً أو نحوها، وبمثل هذا التوجيه كان رسول الله يربي ويعلم ويكوّن، وأسامة هذا سيصبح غشية مرضى الرسول من أحب شباب الإسلام إلى رسول الله.

وكان توفيق غالب بن عبد الله هذا داعياً إلى إرسال الرسول إياه في سرية إلى مَيْقَمَة من نواحي غربي نجد ينزلها قوم من بني عبد بن ثعلبة أهل قلق وغارة، فوفق غالب فيما أرسله الرسول له، وقد أظهر المهلمون في هذه السرية من حسن السمات والنظام وصدق الإيمان ما يبىء حقاً بأنهم بيت جديد ظهر في

رياض الإسلام . وغالب بن عبدالله الكناي الليثي من عظماء أهل الفتح أيام الرسول ﷺ ، فللى جانب مهارته وحرامته وحسن نصرته ورسالته ، كان رجلاً قائداً ذا إيمان وثيق ، وقد قاد سرايا ثلاث تعد من أحسن ما قام به المسلمون في العصر النبوي نظاماً وصطفاً وملاغاً للعامة ، ثم إن رسول الله ﷺ أرسله طليعة عند فتح مكة ليسهل لهم الطريق كما يقول الرواة . وقد استوقف سطري احتفاء اسم هذا الصحابي العظيم بعد فتح مكة ، وهناك من يزعمون أنه قُتل في سرية على بني مرة قرب فدك وليس لدينا ما يؤيد ذلك ، ثم إن غالباً كان موجوداً ومشاركاً في فتح مكة .

ثم تكون عمرة القضاء أي عمرة قضاء ما تم الإنفاق عليه في الحديبية وتسمى لهذا عمرة القضية أي عمرة الصلح ، والواقدي يسميها غزوة القضية ، وكانت في ذي القعدة سنة سبع هـ / مارس ٦٢٩ م .

وعمره القضاء لم يكن فيها قتال ، وهذا مفهوم ، ولكن كان فيها تلاقي الخصوم : قريش الكفر وقريش الإيمان ، والدراسة المليية هنا تكشف عن الكثير . والناس يتلاقون في الحرب ويتلاقون أيضاً في ميدان العقل والفكر ، وهنا نشعر أننا أمام عقل وفكر وإيمان في ناحية ، وضيق أفق وغرور وغضب في الناحية الأخرى ، ولم نعد قريش الكفر العقل والحكمة ولكنها كما ترى عقل جاهل وحكمة جاهلية .

ونبدأ من البداية فنقول إن رسول الله حث على الإنفاق ، أي أن من عنده مال ينفق على من ليس عنده والقادر يعين غير القادر ، ويستوقف نظرنا هنا أن أمة المدينة لا تزال تعاني الفقر والحاجة وقلة السلاح رغم التوفيق الكبير الذي نالته والتنظيم واتساع الرقعة . ولكن أمة المدينة إلى يومها ذاك في معركة ، والرجال يقاتلون جميعاً وليس يبقى من الجهد ما يكفي للتوسع في ررع وصرع أو صناعة شيء كثير . ولقد زرع أهل المدينة كل الأرض العامرة في سهلهم ،

ولكن زرعهم كان زرعاً قليلاً، فهو الشعير في الغالب لسهولة ريعه وقرب مجتناءه، أما القمح فقليل والمخل لا يؤق إلا بعد سنين، والأعناب في ذلك الحين لم تكن معداء، إما كاد قوام حياة الناس على الماشية واللبن والتمر وشيء من الدقيق، وكان المسلمون يبذلون أقصى جهد في رعاية الماشية. ولا مرال ونحن نقرأ السيرة بمصادف أحبار الجسوع وقلة الطعام، ورسول الله يبعث في القليل من بركته فيكثر. ويسمع الناس دعاء الرسول بالإنفاق والتصدق، ويسألون نبهم. بم نتصدق، فيقول: ولو بشق ثمرة، ولو بمشقص (وهو نصل السهم دون سنه) أي قطعة خشب. وآيات القرآن تنزل تقوي نفوس الناس وتبشرهم بالنصر وتحثهم على البذل مثل قول الله سبحانه وتعالى ﴿وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ البقرة ١٩٥/٢. ويسوق رسول الله معه الهدى في عمرة الحديبية، ستين بدنة وهي هنا عن نفسه وعن غير القادر من المسلمين، وعلى الهدى ذلك الأسلمي الذي نعرفه ولا نزال نلقاه ونحبه، ناجية ابن جندب الأسلمي ومعه أربعة من فتيان أسلم يرفعون هدي الرسول، وصدق المصطفى: أسلم سلمها الله.

وخرج الرسول من المدينة في هيئة ما أجملها، قاد مائة فرس فلما وصل ذا الحليفة، قدمها أمامه وحمل معه السلاح والبيض والدروع يسير بها بشير بن سعد فقبل له: يا رسول الله، حملت السلاح وقد شرطوا علينا ألا ندخل عليهم إلا بسلاح المسافر، السيوف في القرب، فقال رسول الله ﷺ إنبه لا نُدخلها عليهم الحرم، ولكن تكون قرية منا، فإن هاجنا هيج من القوم كان السلاح قريباً منا، قيل: يا رسول الله نخاف قريش على ذلك، فاسكت (أي سكت) الرسول وقدم البدن.

وكان رسول الله ﷺ قد أحرم من مسجد المدينة لأنه أزمع السير عن طريق الفرع، وكان يحبه لأنه يمر فيه على الأبواء وفيها قبر أمه، ولو أزمع السير عن طريق البيداء وهي الحادة لأهل من البيداء.

وكان محمد بن مسلمة قد سبق بالخیل حتى أدرك مَرَّ الظَّهران ومعه بشير ابن سعد بالسلاح، وهناك كانت طلائع قريش تنتظر، ويعلم محمد بن مسلمة أن رسول الله ﷺ يصبح مَرَّ الظَّهران من غد، وتسرع طلائع قريش إلى مكة بالخير، وهما يكشف الغطاء ويبدو على قريش الفرع من أن يكون محمد ﷺ قد أرمع ليدخلنها بالسلاح، «ففرغت قريش فقالوا: والله ما أحدثنا حَدَثًا، ونحن على كتابنا ومُذَنَّبنا (صلحنا إلى عشر سنين) فقيم يفزونا محمد في أصحابه؟»

وينزل رسول الله ﷺ مَرَّ الظَّهران ويقدم السلاح إلى بطن يأجج على مقربة من أنصاب الحرم عند التنعيم قبالة موضع الحُدَيْبِيَّة. وتبعث قريش بكرز بن حفص بن الأخيف في نفر من قريش، حتى لقوه ببطن يأجج وورسول الله ﷺ في أصحابه والهدي والسلاح قد تلاحقوا فقالوا: يا محمد! والله ما عُرِفَت صغيراً ولا كبيراً بالغدرا! تدخل بالسلاح الحرم على قومك، وقد شرطت ألا تدخل إلا بسلاح المسافر، السيوف في القرب! فقال رسول الله ﷺ: لا ندخلها إلا كذلك،^(١) وهنا فقط اطمأنت قلوب القرشيين، فمحمد لم يستعمل السلاح. وهذه درجة من الخوف ما وصلت إليها قريش قط منذ عرفناها إلى ذلك الحين.

ودخل محمد ﷺ ومن حوله أصحابه مكة وهو يليهم وهم يلبون من حوله والسيوف في أيديهم، واستمرت التلبية حتى استلم الركن. ولم يفته الحذر قط، فقد جعل أوس بن خُوَلَيٍّ مع سائقي رجل على السلاح، وأوس بن خولي وجه جميل رأيتاه مراراً، ونحن نعرفه فهو من سادات بني سالم الحُصَلي من الخزرج (وهم قوم عبدالله بن أبيّ)، وهو كان آخر من نزل قبر الرسول من الأنصار

ويقول رواتنا إن قريشاً خرجت إلى رؤوس الجبال. ولكن من قريش؟

(١) الواقدي معاري ٧٣٤/٢

كل البلد؟ تعتقد أن هذا الخروج اقتصر على رؤوس الكفر من أعداء محمد والإسلام، وهم نمر ليس بالكبير، من أمثال عكرمة بن أبي جهل الذي نظر إلى المسلمين يطوفون بالبيت وهو معتصم بالحلل يحمد الله على أن أباه أبا جهل قضى قبل أن يرى هذا المشهد العسير عليه، وبلالٌ على ظهر الكعبة يؤذن وكذلك كان صفوان بن أمية وحالد بن أسيد بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، أما سهيل بن عمرو ورجال معه فحين سمعوا بلالاً يهتق فوق الكعبة كما قالوا، فقد غطوا وجوههم حتى لا يروا هزيمة أنفسهم بأعينهم.

وطاف رسول الله ﷺ بالبيت، وسعى بين الصفا والمروة على راحلته، فقد كان مجهداً متعباً، ونحر هذبه بيده عند المروة، وتقدم خراش بن أمية فحلق رأس الرسول هناك.

وبعد قضاء المناسك حدث حادث لطيف لا بأس من إبرائه هنا، لأنه يدل على خلق القرشيين الذين أسلموا وهاجروا مع محمد ﷺ وأيدوه وشهدوا معه المشاهد ليتجلى بذلك الفرق بين قريش الكفر وقريش الإسلام. ذلك أن عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب، كانت قد تركت في مكة عند بعض عَمَّاتِها. وكانت أمها سلمى بنت عُمَيْسٍ وهي خثعمية مبنية من بني عمرو بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ، من الأزد. فلما فرغ الرسول من عمرته أتاه علي بن أبي طالب فقال له: علام تترك بنت عمنا يتيمة بين ظَهْرِي المشركين؟ وعلي بن أبي طالب كان ابن عمها لأن حمزة بن عبد المطلب أبوها، وحمزة استشهد فأصبحت الولاية عليها لأحد أعمامها، وأقربهم هنا علي بن أبي طالب، فلم ينهه الرسول عن إخراجها، فذهب فأتى بها، وهنا تكلم فيها زيد ابن حارثة، وكان أحاً لحمزة في الإسلام، إذ آخى الرسول بينه وبين حمزة وقال أنا أحق بها فهي ابنة أخي، وسمع بذلك جعفر بن أبي طالب، وكان قد عاد من الحبشة ولقي الرسول في خيبر، وجعفر كان زوج أسماء بنت عميس أخت سلمى، فعمارة إذن ابنة أخت امرأته، ورأى أنه أحق برعايتها من زيد

اس حارثة، وكأه حاف أن يتزوجها ريد، وكان ريد مزواجاً مطلقاً، وكان شديد السمرة قصيراً أفلطس الأنف، وكان هذا بعض ما نُقِرَ منه امرأته رينت بنت جحش في حديث طويل روياه في سيرة المصطفى صلوات الله عليه في كلامنا عن زواج نبي الله من زينت بنت جحش، وعاد علي بن أبي طالب يعجب من ادعائهما الحق في هذه البينة وهي ابنة عمه وهو الذي أخرجها من بين أظهر المشركين، فقال رسول الله: أنا أحكم بينكم، ثم حكم بها لحضر لأن خالتها امرأته ولا تنكح امرأة على خالتها ولا على عمتهاء، ثم عرضوا على رسول الله أن يتزوجها فأبى من ذلك، لأن عمارة ابنة أخيه في الرضاعة وهو حمزة ثم زوجها سلمة بن أبي سلمة بن عبد الأسد، وكان يقول: هل جزيت سلمة؟ إشارة إلى أن سلمة هو الذي زوجه أمه أم سلمة وهو - ﷺ زوجة عمارة. وهذه تلك.

وكأنما أراد رسول الله أن يفسح المجال لنفسه في مكة، فلعل أهل العناد من القرشيين يرون سوء رأيهم في هذا الموقف الجامد المتحجر من الإسلام ورسوله، فخطب ميمونة بنت الحارث بن خَزَن الهلالية وهي أخت أسماء بنت عميس وسلمى وسلامة بنتا عميس لأمهن، وأمهن جميعاً هند بنت عوف بن الحارث الحميرية، فالأم واحدة والبنات كثيرات، وقد رزقت هند الحميرية هذه تسعاً أو عشراً من البنات كلهن تزوجن أكرم زيجات، ومن بنات هند هذه لبابة بنت الحارث وهي أم الفضل زوج العباس بن عبد المطلب وهي لبابة الكبرى، ولهن أخت أخرى تسمى لبابة الصغرى هي أم خالد بن الوليد، فانظر والله إلى تشابك أنساب هؤلاء العرب واشتباك قريش بالصهر مع القبائل في كل صقع من أصقاع الجزيرة. وكان رسول الله عندما خطب ميمونة - وهي خالة خالد بن الوليد - قد أدناه من نفسه بذلك. فكأنه ﷺ قد أصهر إليه فكان ذلك من أسباب تمحييل إسلامه.

نقول إن رسول الله ﷺ خطب ميمونة، فلما انقضت الأيام الثلاثة التي كان القرشيون قد أذنوا للمسلمين بالبقاء في مكة حلالها أتاه عند طهر اليوم

الراعي سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى، ورسول الله ﷺ في مجلس من محاليس الأنصار يتحدث معه سعد بن عباد، فقال (سهيل): قد انقصى أحلك فاعخرج عا. فقال النبي ﷺ وما عليكم لو تركتموني فأعمرت بين أظهركم، فصعنت لكم طعاماً؟ فقالوا لا حاجة لنا في طعامك، اخرج عنا. شددك الله يا محمد والعهد الذي بيننا وبينك إلا خرجت من أرضنا، وهذه الثلاث قد مضت^(١)، وكان رسول الله ﷺ يؤكداً لحسن النية قد أقام في خيمة ضربت له، ولم ينزل في بيت من بيوت بني هاشم فغضب سعد بن عباد من غلظة سهيل وحويطب فقال لسهيل: كذبت لا أم لك، ليست بأرضك ولا أرض أبيك. والله لا يبرح منها إلا طائعاً راضياً^(٢).

وأراد الرسول أن يحسم الخلاف، وكأنه أنف المقام بعد كلام هذين الغليظين فقال لسعد بن عباد: يا سعد، لا تؤذ قوماً زارونا في رحالت، وأسكت الرجلين عن سعد، وأمر مولاة أبا رافع أن يؤذن بالرحيل، وقال: لا يبيتن بها أحد من المسلمين، وخرج ﷺ سرياً إلى سرف وترك أبا رافع ليحمل إليه ميمونة، فاستطال المشركون على أبي رافع، وكظم أبو رافع غيظه، ولكنه أزمع إذا بطش به أحدهم أن يبطش به. ولكن أحداً لم يفعل وقال أبو رافع: وما شئتم. هذه والله الخيل والسلاح بطن تأجج، وكانت تلك هي الأسلحة التي أعدها رسول الله ﷺ مخافة غدر المشركين.

ولحق أبو رافع برسول الله ﷺ ومعه ميمونة، فبنى بها رسول الله ﷺ في سرف، ومن الفجر أدلج إلى المدينة. ومن غرائب الاتفاق أن ميمونة ماتت كذلك في سرف سنة إحدى وخمسين (٦٧١ م). أو سنة ٦٣ هـ / ٦٨٣ م. وهي سنة موقعة الحرة وهي مأساة من مآسي تاريخ صدر الإسلام

وبعد عودة رسول الله ﷺ إلى المدينة أقبل إليه خالد بن الوليد وعمروس

(١) الواقدي، معاري ٧٣٩ - ٧٣٠

(٢) المصدر السابق ٧٤٠

العاص وصاحبها عثمان بن طلحة فأسلموا، وكان إسلامهم في المحرم سنة ٨ هـ / مايو ٦٢٩ م. ولأصحاب السيرة والتاريخ في إسلام عمرو وخالد كلام طويل فيه طعم القصص ويستوقف نظرتنا في حديث إسلام خالد وعمرو أنه جاء من ناحية العقل أكثر مما جاء في البداية من ناحية القلب، فأما عمرو فقد صاقت به الدنيا وهو يرى نصر الإسلام حتى ذهب إلى الحبشة، وهذا قصص فيها بحسب. ولكن الرجل وجد بذكائه بعد عمرة القصية أنه لا مفر له من الإسلام إن كان يرجو لنفسه صلاحاً، ويصور دافع الرجلين إلى دخول الإسلام في تلك المرحلة الأولى من تاريخها الطويل ذلك الحديث بين عمرو وخالد وهما في الطريق إلى محمد، وقال عمرو عندما لقي خالد: أبا سليمان؟ قال نعم. قال أين تريد؟ قال محمداً، دخل الناس في الإسلام فلم يبق أحد به طمع، والله لو أقمنا لأجد برقابنا كما يؤخذ برقبة الضعيف في مغارثها، وقال عمرو: وأنا والله أردت محمداً وأردت الإسلام، وقد أتيت بهذه القطعة من حديث أظنه من كلام القصاص لأنني تنسّمت فيه معنيين: الأول أنه يمثل رأس فريش أمام الإسلام، وأنه لم يبق أمام أي قرشي طامع سبيل إلى الحياة إلا به، والثاني هو أن هذين الرجلين اللذين سيدخلان الإسلام وكأنهما مضطران لن يلقيا محمداً حتى تتغير دنياهما، فأما خالد فيصبح سيف الله وسيف رسوله، ويتجلى عن واحد من أعظم العسكريين في تاريخ الدنيا ويرفع راية الإسلام إلى شأو بعيد ويلحقه بأعظم الجيل الأول من أجيال المسلمين، وأما الثاني - عمرو بن العاص - فيسفر عن فاتح سياسي لا يُشَقُّ له غبار، وأما خالد فيودع الدنيا وعلى رأسه نور البرموك. وأما عمرو فقد أرادت له تصارييف السياسة أن يكون من حزب بني أمية بعد عهد أجنادين ومجد فتح مصر وبرقة، وتلك هي بركة المدرسة المحمدية التي لو بقيت روحها فينا لخلت بنا - نحن المسلمين - البركة والنعمة ولم بقيت نفس في هذا الكوكب إلا وَحْدَت ودخلت دين الله وصلت على محمد.

ويشأ عما كان ينتظر حالداً في الإسلام إصراره عندما وقف بين يدي

محمد ليدخل في الإسلام، أن يوعد بالمغفرة عما سلف من أمره في عباد الإسلام فقال ﷺ: «اللهم اعمر خالد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك!» وأمثال هذه المواقف تريبا لحم الشخصية المحمدية، فهذا خالد كله وهو ملء التاريخ يقف بين يدي الرسول يلتمس الدعاء له بالمغفرة، ورسول الله يدعو بها له في هدوء النفس المطمئنة وجلال الرسول الهادي الشير الندير.

وكان كل من الرجلين في مطالع حياته، وكان تركهما قریشاً نديراً بما هي صائرة إليه، وعلامة على ما وصل إليه حالها بعد صلح الحديبية.

وأما عثمان بن طلحة فقد اندرج في غمار المسلمين، وهو يكمل هذه الكوكبة الرفيعة من بني عبد الدار الذين زانوا تاريخ الإسلام الأول، وحسبك منهم مصعب بن عمير. لقد قتل أبوه طلحة وعماء أبو سعد وكلاب كافرين في أحد، وأما هو فقد أكرمه الله بالإسلام وعاش حتى يشهد فتح مكة مع رسول الله ﷺ ويتسلم من يده الكريمة مفتاح الكعبة، أعطاه الرسول إياه التزاماً بشيعة الوفاء لبني عبد الدار أصحاب ولاية الكعبة بعد أن أباهها الرسول على عمه العباس وكان فيها طامعاً.

وهنا موضع خبر وقع بُعيد عودة الرسول ﷺ إلى المدينة من عمرة القضية، ذلك أن نفرأ من بني كلاب بن عامر بن صعصعة، وهم أبناء عمومة بني هلال بن عامر بن صعصعة من قيس عيلان، وفدوا على النبي وأسلموا وهاجروا إلى المدينة، وكانت هناك عداوة بين بني كلاب وخزاعة، فخاف الخزاعيون من أن يكون إسلام بني كلاب بن عامر بن صعصعة وهجرتهم مُبْهِمَةً لهم عن رسول الله، لأن الكثيرين منهم لم يكونوا أسلموا، وكذلك الكثيرون من الخزاعين كانوا مقيمين في مواضعهم من البدو بين مكة والمدينة، فكلّموا الرسول في ذلك فكتب لهم كتاباً في حمادي الآخر سنة ثمان، قال الواقدي: «وذلك أنه أسلم من العرب كثير، ومنهم من هو نَعْدُ مقيم على شركه، ولما انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية لم يبق من خزاعة، إلا مسلم

مصدق بالله قد أتوا بالإسلام (أي دخلوا فيه) وهو فيمن حولهم قليل، حتى قدم علقمة بن علاثة وابنا هودة^(١) وهاجروا، فذلك حيث كتب رسول الله ﷺ إلى خزاعة: بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى نذيل وبشر وسروا بني عمرو^(٢). سلام عليكم، وإني أحمد الله إليكم الله لا إله إلا هو، أما بعد فإني لم آتكم بلوكم ولم أصح في جنكم. وإن أكرم تهامة علي أنتم، وأقرهم رحماً، أنتم ومن تبعكم من المطيبين، فإني قد أخذت مني قد هاجر منكم مثل ما أخذت لنفسي - ولو هاجر بأرضه - غير ساكن مكة إلا معتمراً أو حاجاً، وإني لم أصح فيكم إذ سألت، وأنكم غير خائفين من قبلي ولا محصورين. أما بعد، فإنه أسلم علقمة بن علاثة وابناه وثابعا وهاجرا على من تبعهما من عكرمة أخذت مني تبني منكم ما أخذت لنفسي، وإن بعضنا من بعض أبدأ في الحل والحرم، وإني والله ما كذبتكم، ولتجيبكم ربكم^(٣).

وقد قال الرسول ذلك في كتابه لتطمئن خزاعة على مكانتها من رسول الله وأمة الإسلام، وكانت خزاعة قبل ظهور الإسلام صباغاً بين أعراب الحجاز وتهامة، لأنها كانت من أنصار عبد المطلب وبنيه، وكانت كما رأينا ممن انضم إلى حلف المطيبين، وهو حلف بني عبد المطلب ومن معه، المناهضين للأحلاف أو لعقاة الدم وهم عبد شمس ومن والاهم، وقد أخذهم رسول الله تحت جناحه فصاروا أحلاف أمة الإسلام. وأنت تراهم هنا قد أسلموا جميعاً، ولكنهم لم يستطيعوا الهجرة بجمعهم إلى المدينة فمنحهم رسول الله رتبة المهاجرين سواء هاجروا أم بقوا في مكانهم، مما يفهم منه أن الهجرة لم تكن في عصر النبي مجرد الهجرة إلى المدينة المنورة، بل الهجرة إلى الله ورسوله بالقلب

(١) هما حاد وحرملة بن هودة بن خالد بن الحنيس بن ربيعة بن عمرو عارس الصحباء، وسادة بني عمرو عارس الصحب، بن عمرو بن ربيعة بن عمرو بن صمصة أبناء عمومة بني هلال الدين ذكرناهم آنفاً، انظر ابن حزم ص ٢٨١.

(٢) نذيل بن ورقاء من سادات بني كعب بن عمرو الخزاعيين وسراحوه أم عمرو منهم أبناء عمرو بن عمرو بن ربيعة عارس الصحباء من سادات بني عمرو بن كعب الخزاعيين

(٣) الواقدي، معاري ٧٤٩ - ٧٥٠

والإيمان كذلك، ويستتبع هذا ترك البداوة وأخلاقها والاستقرار والتحضر وأخلاقها، وهذا معنى بعيد من معاني الهجرة سريده إن شاء الله بياناً في كتابنا التالي عن قيام أمة الإسلام أعاننا الله على كتابته، وهو سبحانه من وراء القصد والية

وقل إن انتقل إلى فتح مكة وهي الخطوة الحاسمة التي حطها الرسول ﷺ في طريقه إلى توحيد شبه الجزيرة تحت راية الإسلام، وتحويلها إلى قاعدة انتشار الإسلام في العالمين، أقف هنا وقفة قصيرة عند حادث صغير له مغزاه وقع في سرية الحَبْط. وهي سرية بعث فيها رسول الله ﷺ أبا عبيدة عامر بن الجراح في نفر من خيرة المهاجرين والأنصار لتوكيد دخول جُهينة في الإسلام، وجُهينة كانت منازلها إلى الشمال من المدينة على ساحل البحر الأحمر حتى قرب وادي القرى، وكان رسول الله قد أرسل قبلها عمرو بن العاص في سرية أخرى في نفس الاتجاه لكي يدخل قبيلة جُذام في الإسلام أو في حلف المدينة وأماها، وكلا السريتين نتيجتان لما لقي المسلمون في مؤتة حيث اجتمعت قبائل من عرب الروم أو نصارى العرب مع الروم أنفسهم وأنزلوا بالمسلمين هزيمة مؤتة. وكانما رأى الرسول أنه لا يمكن لقاء الروم في صراع فاصل إلا بعد أن تدخل مجموعة القبائل المحالفة لهم مثل غسان أو الضالعة معهم مثل لخم وجذام وهي من القبائل العربية النصارية في الشمال وبلِىَ وَعُذرة وبلقين (بنو القين) وتسمى هذه القبائل في العادة باسم عرب الروم أو نصارى العرب. وربما كانت النصرانية منتشرة في بلاد غسان، أما عند سواها من ذكرنا من العرب فقد كانت هناك نصرانية قليلة. ودليل ذلك أننا نجد كنائس في البلاد التي سادها الغساسنة، أما بقية القبائل فلا نجد فيها كنائس إلا في بلاد طيء حيث نجد كنيسة، ولكنا لا نجد هناك أحباراً أو قسيسين، وأقصى ما نستطيع أن نقوله إسم كانوا نصارى بالاسم والميل لا بالإيمان، أو ربما كانت نصرانيتهم سياسية، أي أن قولهم أو قول بعضهم بالنصرانية كان جزءاً من التأثير بالروم أو القوم بما يقولون

في هذه السرية نشهد ظاهرة ستبدو لنا حليلة عند وفاة الرسول ﷺ في ٨ هـ سبتمبر ٦٣٢ م وهي أن عمر بن الخطاب - وكانت له في حامة المهاجرين مكانة إلى حبيب أبي بكر - لم يكن على وفاق مع سعد بن عباد وجماعة كبيرة من الأنصار. ولقد كان رسول الله ﷺ - رأس أمة الإسلام كلها حريصاً على القضاء على بقايا العصبية في أمة الإسلام. وكانت هناك بالفعل بقايا استطاع ﷺ معالجتها بحكمته وفطنته وإيمانه ولكنها ظلت ماثمة ولم تظهر إلا بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى. ولم يسلم من هذه النزعات من كبار أصحاب الرسول ﷺ إلا ناس من أمثال أبي بكر وأبي عبيدة وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

والحادث الذي نشير إليه بتلخيص في أن الطعام عند أهل السرية كان قليلاً حتى اضطروا إلى أكل الخبط، وهو نبات حريف تنوم منه الشفاه. فلما اشتد بهم الأمر تقدم قيس بن سعد بن عباد، وكان من رجال السرية، وعرض على أحد الجهنين أن يشتري منه جزراً أي إبلًا للتأجج بتمر من عمر المدينة، ولم يكن مع قيس تمر وإنما هو اشترى الجزر ديناراً، أي أنه وعد الجهني بأن يعطيه حقه عندما يعود إلى المدينة، وسقين من التمر من مقابل كل جزور والوسق حمل الجمل. فاعترض عمر على الصفقة لأن قيساً في رأيه لا يملك المال وإنما يملكه أبوه. ولا يستطيع الرجل أن يشتري شيئاً بمال أبيه دون إذن الأب وضمانه، وقال عمر: واعجباً لهذا الغلام! لا مال له يُدَّان في مال غيره، ولكن أجهني عندما عرف نسب قيس أمضى الصفقة واشترط أن يشهد عليها شهود فشهد نفر من كبار الأنصار والمهاجرين، وقبل الناس ذلك إلا عمر فقد امتنع من الشهادة لأن الصفقة في اعتباره لم تكن مشروعة. ووقعت بين الاثنين ملاحاة أعظم فيها قيس لعمر في الكلام.

والحقيقة أن عمر لم يكن له أن يدخل في هذا الأمر، إنما أمره إلى أبي عبيدة أمير السرية وله مكانته الكبرى في الدين والورع زيادة على إمارته، وقد تدخل أبو عبيدة في الأمر عندما بلغت الجزر التي نحرها قيس ثلاثاً، لأنه لم ير

أن يتمادى قيس في الإنفاق من مال أبيه دون إذن .

فلما عادت السرية إلى المدينة وأبلغ قيس أباه ما فعل ، استحسسه الأب وأمصاه ، وكان قيس قد قال لأبي عبيدة قل عودتهم : أترى أن أبا ثابت (والد قيس وهو سعد بن عبادة) وهو يقضي دين الناس ويعمل الكل ويطعم في المجاعة ، لا يقضي سقّة (أي وسق) تمر لقوم محاهدين في سبيل الله ؟ وقد مال أبو عبيدة إلى رأيه ولكنه انضم في النهاية إلى عمر . وقد أيد سعد ابنه وأعطاه أربع حوائط (حدائق) لكي يكون له مال ينفق منه كما يريد . وأراد قيس أن يثبت لأبي عبيدة وبقيّة أهل السرية كيف أنه كان صادقاً فيما توقع من اقرار أبيه لعمله فطلب إلى أبي عبيدة أن يشهد على عقد تنازل أبيه له عن الحدائق . فشهد ، أما عمر فرفض ، مما يدل على أنه كان يثق بعمر وسعد شيء من عدم التراضي ، وهو أمر سينجلى فيما جرى في سقيفة بني ساعدة ، فانظر في مقابل ذلك ما قاله الرسول تعليقاً على الحادث كله : إنه (بيت سعد بن عبادة) بيت جود وهذا مقال من إنصاف الرسول للناس ، ودقة حكمه على الأمور فهو لم يشبط همه الفنى فيما فعل ولم ينظر إليه على أنه تصرف فيه غرور وإنما امتدح البيت كله في كلمة قصيرة أسعدت الأب والابن وأجازت ما فعلاه جميعاً .

الفصل الرابع

فَتْحُ مَكَّةَ

وَدُخُولُ قُرَيْشٍ فِي الْإِسْلَامِ
وَوُصُولُهَا إِلَى قِيَادَةِ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ

فتح مكة :

كان فتح مكة في رمضان سنة ٨ هـ / يناير ٦٣٠ م . حادثاً فاصلاً في السيرة النبوية وتاريخ العرب جميعاً ، إذ به انتهت تلك الحرب الطويلة المدى بين الإسلام وقريش . ويدخلون مكة وقريش أمة الإسلام انحسب الخلاف في أمر الإسلام بين العرب ، فأقبلوا يدخلون في الإسلام جماعات ووفوداً وأفراداً ، فأما من كان ذا إيمان من العرب فقد دخل الإسلام عن إيمان ، وأما من لم يكن ذا إيمان فقد اقتنع بالامر الواقع واستسلم ودخل الإسلام وانضم إلى أمة . وهذه قريش كلها تنضوي تحت لواء محمد صلوات الله عليه وسلامه . فأي برهان هو في نظر أولئك الأعراب أكبر من هذا على صدق محمد فيما كان يقول ويدعوه .

وكان رسول الله ﷺ واثقاً في أن ما وقع في الحديبية كان آخر مظهر لمقاومة قريش مكة للإسلام ، فقد وجد في ذلك اللقاء أمامه رجالاً انهكتهم الحرب وأفقرهم خوف التجارة وهاضمت جناحهم قلة النصير فلم يبق من المكابرين منهم إلا العداوة وشقشقة اللسان والحرص على ماء الوجه . وكان رسول الله حريصاً أشد الحرص على ألا يجردهم من ذلك وفي قرارة نفسه كان يحس أن معظمهم سيدخلون الإسلام إذا أتيت لهم فرصة لدخوله دون الشعور بالهوان ، فكان حريصاً على أن يعطيهم هذه الفرصة حتى إذا دخلوا الإسلام لم يدخلوه حطاماً ، بل ناساً كرماء يتتبعون بالإسلام ويتنفع بهم الإسلام ولهذا فسجد حليماً معهم الحلم كله كريماً معهم الكرم كله .

وقد رأينا أنه عندما عقد الرسول ﷺ صلح الحديبية مع قريش دخلت
 سو بكر بن عبد مائة بن كنانة في حلف قريش وعقدها ودخلت خزاعة كلها في
 عهد رسول الله ﷺ وعقده، وكانت خزاعة كما ذكرنا مرة بعد أخرى مع رسول
 الله ﷺ مد استقر في المدينة وأحد بني جماعته بها. ويذهب المؤرخون إلى أن
 خزاعة أسلمت منذ مر الرسول الكريم بمبارها وهو في طريقه إلى يثرب مهاجراً
 وهو تزيد لا معنى له بل يذهب المؤرخون إلى أن خزاعة كانت في حلف عبد
 المطلب بن هاشم، ولقد أورد الواقدي نص كتاب الحلف الذي عُقد بين عبد
 المطلب بن هاشم والخزاعيين، وهو كتاب متحلل دون أدنى شك وضعه
 الخزاعيون بعد أن أسلموا في عهد رسول الله وأمة المدينة. فلم يكن الجاهليون
 يكتبون أحلافهم في صحائف أو على العظام أو لحاء الشجر إنما كانت هناك
 طقوس لعقد الأحلاف تتم عند أصنام المعبودات ويقسم الحياض على ما يريدون
 أن يتحالفوا عليه ثم يقدموا ذبائح عند النصب أو يغمسوا أيديهم في دم أو طيب.
 وأبسط ما يدل على زيف هذا الكتاب هو أن فيه نص الكتاب الذي سيعطيه
 رسول الله (الآن) لخزاعة وهو في طريقه لفتح مكة.

ولكن الكتاب بين عبد المطلب وخزاعة إذا كان زيفاً، فإن الحلف بين
 خزاعة ورسول الله حقيقة دفعت إليها تصارييف السياسة. وما قدره الله في
 عمله من الخير للخزاعيين. وقد تحدثنا عن خزاعة في القسم الأول من هذا
 الكتاب وحققنا أمر نسبها إلى حارثة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السياء
 ابن حارثة الغطريف بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد، وإذا كنا
 نشك في مساق هذا النسب الذي يربط نواة خزاعة إلى الأزد فقد بينا أنه انضافت
 إلى نواتهم جماعات من إلياس بن مضر إما مباشرة عن طريق أقصي بن عامر أم
 غير مباشرة عن طريق خداف امرأة مصر، ولكن عداد خزاعة النهاية في عرب
 اليمن وهم كذلك أبناء عمومة الأوس والخزرج، هؤلاء فيما يقول السادة أولاد
 عمرو بن ثعلبة العنقاء أخي حارثة بن عمرو وجد خزاعة فيما يقول الرواة. وقد بينا

في القسم الأول بطلان ما رعمه اس حزم في الحمهرة من انهم - قطعاً - من أبناء لحي بن عامر بن قمعة بن الياس بن مصر، وهو زعم أوقعه في أخطاء كثيرة في مسافات أسابه، ونحن لا نأخذ بصحة معظم الأسماء الواردة في شجرات الأساب هذه، فكلها رسوم هندسية سقها الرواة لتأييد علاقات عصبية ومصالح سياسية أو لقصص مصالح أخرى ظهرت بعد الإسلام، وإنما نحن نأخذ بمعناها جملة، فليس من الضروري أن نقول إن خزاعة من الأزدي، ولكن لا بد أن نقرر أن أصلهم من اليمن شأنهم في ذلك شأن كندة وشان غسان وشان الأوس والخزرج وقد نصر الله رسوله الأكرم بالأوس والخزرج ونصره بخزاعة، ومن هنا جاء الحديث النبوي الذي يقول إن الإسلام يمان وهو حديث موضوع أيضاً، ولكن في معناه ومغزاه حقيقة تاريخية.

والحقيقة التاريخية هنا هي أن خزاعة أصبحت بفضل الحلف مع رسول الله وأمة الإسلام بالمدينة أقوى قبائل المنطقة الممتدة من مكة إلى المدينة، ولم تأت هذه القوة من التأييد المستمر الذي قدمته أمة الإسلام إلى خزاعة، بل نتجت أيضاً من الحاح المسلمين على توجيه الضربات إلى القبائل الموالية لقريش أو التي كانت مناوئة للإسلام وخزاعة أيضاً في تلك المنطقة مثل لحيان ومحارب والدثيل وعضل والقارة، وكلها كانت قبائل بدوية. ومثال ذلك بعض بني سليم ابن منصور وكانت منازلهم عند معدن بني سليم بين مكة والمدينة عند ما يعرف اليوم بمهد الذهب، وكذلك بعض بني هلال بن عامر بن صعصعة من أعرب أطراف نجد الغربية، وتدخل مع هؤلاء جماعات من قيس عيلان عاشت بعض فروعها في الحجاز، وكانت هذه كلها تنسب نفسها إلى مضر، وتدخل في هذه القبائل عطفان بفروعها العديدة. وكانت لا تكف عن العارة والتدبير على المسلمين، وخلال الفترة من واقعة الخندق في ذي القعدة سنة ٥ / أبريل ٦٢٧ م إلى الحديبية في ذي القعدة سنة ٦ هـ / مارس ٦٢٨ م. لم توقف أمة المدينة ضرباتها على أولئك البدو حتى انكسرت شوكتهم وضعفت قواهم ولم تعد

منافسة لخزاعة، وذلك كله زاد الخراعيين تعلقاً بالإسلام ورسوله، فقد وحدوا في ظل الإسلام من العرة والمعة ما لم يعرفوه من قبل، وتحققت تحت سمعهم وأبصارهم كل كلمة قالها الله في قرآنه والرسول في حديثه وزالت عن خزاعة وصمة أو مسحة الدل والضعف التي كانت قد لصقت بهم بعد أيام عبد المطلب وعلو نجم حصوم بني هاشم من بني عبد شمس وأحلافهم، وكان الخزاعيون كما سبق أن ذكرنا أنصاف حضر Semi - nmads أو متقلبين بين الاستقرار إذا وجدوا الماء الوافر أو المطر المتصل والظعن إذا عز الماء واضطرتهم ظروف المناخ وتصاريق صراع القبائل إلى الظعن والتنقل، وهم في هذا كله يشبهون بقية العرب الراجعين إلى أصول يمانية: الأزدي في عمان وفي جبال السراة وكندة على أطراف نجد والأوسي والخزرج في المدينة وبنو غسان وبنو لخم في الشام. فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه واستظلوا بأمانه هاجر منهم إلى المدينة واستقر فيها من هاجر واستقر، وظل الباقيون في مواضعهم فيما بين مكة والمدينة مستقرين آمنين في بلادهم مستمسكين بالعروة الوثقى وهي عروة الإسلام.

ولم يعز بالإسلام قوم من خزاعة كما عز بنو أسلم بن لحي الذين ينسبهم ابن حزم في شطحة من شطحاته القليلة إلى عامر بن قمعة بن إلياس بن مضر، وهم في الحقيقة أزد يمانيون قد ربط النسابةون نسبهم بنسب مضر من باب التبرك والتشرف بالانساب إلى قوم محمد ﷺ على ما قلناه، وقد رأينا من بني عدي الخزاعيين هؤلاء بديل بن ورقاء وعرفنا صدق إسلامه وولائه لرسوله في محادثات الحديدية، ويصفه ابن حزم بأنه كان أدهى العرب وابنه عبدالله وهو صحابي سينضم إلى شيعة علي ويقتل في معارك صفين، وأخوه نافع بن بديل صحابي من شهداء بئر معونة، ومن أكابر الخزاعيين وصحابة الرسول بريدة بن الحصيب الأسلمي الخراعي وكان فارساً نحداً شهد المشاهد مع رسول الله ﷺ، وآخر مشاهدته في حياة الرسول أنه كان صاحب لواء أسامة بن زيد في سريره التي أمر بها رسول الله وأنفدها أبو بكر بعد انتقال الرسول إلى الرفيق

الأعلى، وكان بريدة عندما سمع بوفاة الرسول قد عاد ملوًا أسامة وجعله على باب أسامة بن زيد، حتى إذا نفذ البعث أخذه وقال تحته في أبي من قري البلقاء وعاد بعد ذلك إلى المدينة وأخل أمره كما أخل أمر أسامة بن زيد بعد بعثه هذا ويقال إن بريدة هذا أسلم على يد الرسول ﷺ وهو مهاجر من مكة إلى المدينة مع أبي بكر، هذا مستبعد وإنما أنت هذه الخلالة كلها لبريدة بن الحصيص من أولاده وأحفاده الذين هاجروا مع مواليهم إلى البصرة ثم إلى خراسان واستقروا بمرو، وكانوا من أعيان العرب بها وأنكروا ظلم بني أمية ودخلوا في شيعه الهاشميين وكان فيهم ثلاثة من نقباء الدعوة الهاشمية التي تحولت إلى دعوة عباسية، ومن هنا ازداد ذكر بريدة طيباً بفضل صحبته للنبي وبفضل ما قسم لأحفاده وموالي بيته من القدر العظيم في مرو، ومن هنا لا نتعجب عندما نقرأ أن رسول الله ﷺ قال لبريدة بن الحصيص وللحكم بن عمرو الغفاري أنتما عينا لأهل المشرق.

وقد تأكدت مكانة الخزاعين عندما اعتدت بنو بكر بن عبد مناة على بني كعب وهم بيت كبير من أسلم، فكان ذلك كما سنرى بعد قليل السبب المباشر في مسير الرسول إلى مكة فالتحأ، وفي طريق محمد ﷺ إلى مكة يمر بمنازل خزاعة وهم أنصاره وأولياؤه، ويلقاء بريدة بن الحصيص عند غدير الأشطاظ وهي منزل كان على الطريق الرئيسية من مكة إلى المدينة وتسمى بالجدادة أو الطريق طريق البداء، وتقع على ثلاثة أميال شمالي عسفان أي على خمسة كيلومترات منها على وجه التقريب ويقول له: يا رسول الله، هذه أسلم وهذه محالها وقد هاجر إليك من هاجر منها، وبقي قوم منهم في مواشيهم ومعاشيهم فقال رسول الله ﷺ وأنتم مهاجرون حيث كنتم، ويدعو العلاء بن الحضرمي (كاتبه) ويأمره بأن يكتب من إبلام الرسول كتاب اقرار لخزاعة في منازلتها وتأمين لهم فيها على مثال ما سيكتبه الرسول لكل من جاءه مايعاً مسلماً منياً من وفود العرب في عام الومود، ورسول الله في هذه الكتب أراد أن يقر كل قوم في

أرضهم ومراعاتهم ويؤمنهم فيها لبقيم السلام بينهم ، وهو لم يعط في كنهه كلها
 أحداً أرضاً إلا أن تكون أرضاً عامرة لا يطلبها أحد فهو يريد عمارها ، لأن
 رسول الله لم يكن ليتصرف إلا فيها ملكت يمينه ، لأنه صلوات الله عليه رمر
 الحق والشرع ، والشرع لا يجير للرجل أن يتصرف إلا فيها يمتلك فعلاً وشرعاً
 أما ما يقال من أن الرسول أعطى بني تميم الدارين أرضاً في فلسطين ولم تكن
 قد فتحت بعد ، وأعطى الرهاويين أرضاً في الجزيرة فأحاديث لا تصح ، ولكن
 مؤرخينا يرددونها دون تفكير بل ذكرها بعض الفقهاء وحاولوا أن يجدوا لها
 تبريراً .

ونص الكتاب الذي كتبه العلاء بن الحضرمي عن رسول الله لبني أسلم
 الخزاعين : « هذا كتاب من محمد رسول الله لأسلم ، لمن آمن منهم بالله أو شهد
 أنه لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فإنه آمن بأمان الله وله ذمة الله وذمة
 رسوله ، وأن أمرنا وأمركم واحد على من وهما من الناس . بظلم اليد واحدة
 والنصر واحد ، ولأهل بلادهم مثل ما لأهل قراهم ، وهم مهاجرون حيث
 كانوا . » .

ويبدو أن التحمس للإسلام ورسوله والولاء لها كان قد أصبح أمراً عاماً
 مشتركاً بين الخزاعين كباراً وصغاراً . فقد حكى الواقدي في كلامه عن فتح
 مكة أن رجلاً من كنانة يسمى أنساً بن زعيم الدبلي هجا أو سب رسول الله ﷺ
 فسمعه غلام من خزاعة فوقع به فشجه فكان ذلك من أسباب وقوع القتال بين
 بني بكر وخزاعة .

وتذهب النصوص إلى أن بني بكر بن عبد مناة - عدا مدلج - عندما فرروا
 الإيقاع بخزاعة وأيدهم جماعة من قريش في ذلك فيهم صفوان بن أمية بن
 حلف ومكرز بن حمص بن الأخيف وحويط بن عبد العري ونفر آخر من
 بني عامر بن لؤي ومن لف لفهم ، وقد وافقوا على أن يشتركوا في الغارة متتبعين
 حتى لا يعرف أمرهم ، وهذا مستغرب لأن أولئك الرجال كانوا كفاراً وأعداء

للإسلام فعلاً، ولكنهم لم يكونوا حقاً إلى الحد الذي يجعلهم يقعون في خطأ فاحش كهذا، ومثلهم - مهما تنقب - لا يحصى أمره إذا اشتركوا في قتال، ولكن من الثالث أن أما سفيان لم يشترك في تلك الحماقة، فمن قائل أنه لم يعلم بها ومن قائل أنهم حدثوه في أمرها فنصحهم ألا يقدموا عليها. ومن الواضح أن ذلك الرجل كان قد أيقن الآن وأكد ألا قتل له ولا لقومه بمحمد أو أمة المدينة واتجه تفكيره إلى مصادعة المسلمين، وإن لم يدخل الإيمان قلبه. أما محاربة المسلمين فأمر لم يكن يخطر له على بال. على هذا الرأي كانت بقية بني كعب بن لؤي وهم قلب قريش البطاح وبينها وعددها. ثم كان ما كان من عدوان بني بكر بن كنانة على الخزاعين، ذلك الاعتداء البشع الذي يتجلى فيه الحقد العميق الذي كانت بنو بكر تحمله لخزاعة التي أصبحت سيدة الحجاز ومهامة من دون بني بكر وبقيّة كنانة وكانوا يحسبون أنفسهم قبل الإسلام أعز من خزاعة وأكرم وأمنع فوجدوا أنفسهم يتضاءلون إلى جانب خزاعة التي عزت بالإسلام. وحقد هذا القبيل من كنانة على خزاعة يعدل حقد قريش الكفر على الإسلام الذي أنزلها من صدارة الجزيرة العربية وانتزع منها الفضل والشرف والثروة والمكانة الدينية، وقدماً قالوا إن الحقد أسوأ دليل وأشأم ناصح.

لقد انقضّ نوفل بن معاوية الدؤلي وقومه من بني بكر بن عبد مناة على الخزاعين وهم في منازلهم غارون مطمئنون لا يتوقعون شراً من أحد في ظل صلح الحديبية ومدته عشر سنين. لم ينقض منها إلا سنة وثمانية شهور أو تسعة فنحن الآن في شعبان سنة ثمان في الغالب وربما يكون الذي أجمع حقد زعماء القرشيين المقيمين على كفرهم، هو التوفيق الذي لا يكاد يصدق الذي حققته أمة الإسلام خلال هذه الفترة القصيرة. ويكفي فتحها لحير وضم أراضيها وما بينها وبين المدينة من أراضٍ إلى أمة الإسلام وما استتبعه ذلك من كسر شوكة غطفان وأسد وبني طيء وامتداد نطاق أمة الإسلام إلى فذك شمال شرقي خيبر وإلى نيهاء ووادي القرى شمالي الحجاز

وهذا بصر لنا كيف أن نوفل بن معاوية الدؤلي وقومه من بني بكر من عبد مائة انقضوا على الخزاعيين وأنزلوا بهم مذمحة شعة، وكان المحوم في موضع من منازل خراعة قريب من مكة. ونحن نعرف أن المركز الكبير للخزاعة كان عند عدير الأشطاط، على نحو يومين شمالي مكة أي سبعين كيلومتراً على وجه التقريب، وقد أسرع الساجون من تلك المذمحة إلى مكة ليحتموا بدار شيخهم بدليل بن ورقاء، وكان له في مكة دار واسعة، وكان من أصحاب المكانة هناك، وكانت هناك دار رجل آخر من سرة خزاعة يسمى رافعاً الخزامي، ولم نستطع التعرف على رافع هذا فيما بين أيدينا من المراجع، وتسلى زعماء القرشيين من بني عامر بن لؤي إلى منازلهم «يظنون ألا يعرفوا ولا يبلغ هذا محمداً ﷺ»، كما يقول الواقدي^(١) وعندما بلغ الناجون مكة ونحطوا الحرم ظنوا أن ذلك يوقف نوفلاً فصاحوا: يا نوفل إلهك! إلهك! قد دخلت الحرم، قال: لا إله اليوم يا بني بكر (يخاطب قومه) قد كنتم تسرقون الحاج، أفلا تدركون ثأركم من عدوكم! لا يريد أحدكم أن يأتي امرأته حتى يستأذني، لا يؤخر أحد منكم بعد يومه هذا ثأره.

ولم يكد القرشيون يفرضون من فعلتهم هذه حتى أدركوا جسيم خطئهم فيما فعلوا. فإذا صدق الرواة في كل ما قالوا عن نقض النفر الذين ذكرناهم من قريش للعهد، فإن ذلك يدل على أن القبيلة كانت قد فقدت وحدتها الأولى وقدرتها على تسيير أمورها كلها في الطريق الذي ترتبه أغلبية أهل الرأي منها كما كان عهدنا بها دائماً، والذي يدعونا إلى الشك في صحة بعض ما نقضه علينا المراجع من أمر نقض قريش للعهد بالطريقة الجسافة القصيرة النظر التي تصرف بها من يقال أنهم اشتركوا في عدوان بني بكر بن عبد مائة على خزاعة، هو تبرؤ أبي سفيان من حرية هذا العمل وقوله إنه تم بدون علمه، وهو بالعمل لم تكن له يد فيه، فكيف يفعل بسو عامر بن لؤي ذلك ويعرضوا أمر قريش كلها

(١) الواقدي معاري ٧٨٤/٢

للحظر دون أن يكون هناك اعتراض قوي من جانب الفريق الأعقل من القرشيين، وفيهم أبو سفيان رأس بني أمية وأحلافهم، ثم إن الواقدي يأتينا بخبر يدعوننا إلى مراجعة أنفسنا في التسليم بأن هذا الفريق من قريش قد شارك في العدوان على حراة بالطريقة التي تذكرها الروايات، وهي طريقة بعيدة كل البعد عما نعرفه من تصرف القرشيين والخبر يقول: حدثني عبدالله بن عامر الأسلمي عن عطاء بن أبي مروان، قال: قال رسول الله ﷺ لعائشة: قد حرت في أمر خزاعة. قال ابن واقد فقالت عائشة: يا رسول الله، أترى قريشاً لجترىء على نقض العهد بينكم وبينهم وقد أفناهم السيف؟ فقال رسول الله ﷺ: ينقضون العهد لأمر يريد الله تعالى بهم. قالت عائشة: خير أو شر يا رسول الله؟ قال: خير^(١) ومعنى ذلك أن رسول الله لم يكن متأكداً مما قاله له الخزاعيون. ولكن القرشيين إذا كانوا قد نقضوا العهد مع قريش، فيكون ذلك لخبر أراد الله بهم. وهذا صحيح وذلك كله لا يمنع من القول بأن عدواناً ما من بني بكر بن عبد مناة قد وقع على نفر من خزاعة وهم مسلمون، وما دام هذا العدوان قد حدث وما دام الخزاعيون قد طلبوا النصرة من رسول الله ﷺ وهو رأس أمة الإسلام ومن ضوى إليها واستظل بعهدتها وأمن، فقد كان لا بد أن يسير المسلمون لنصرة المؤمنين على الكفار المعتدين، وما دام المعتدون في عقد قريش وعهدتها فإن القصاص يشمل قريشاً ومكة، خاصة وأن رسول الله ﷺ لم يزمع من بادىء الأمر قصاصاً بل علاجاً حاسماً لداء قريش وشفاء لها من الأزمة الخائفة التي كانت تعانيتها. فقد كان الرسول يعرف أن معظم المكيين قد أسلموا أو يريدون الدخول في الإسلام ولم تبق على العناد منهم إلا طائفة من الرعماء، وليس من حق أولئك الزعماء أن يمنعوا الخير عن بقية الناس، ومكة كانت ضرورية للإسلام كما كان الإسلام ضرورياً لها، وقرار رسول الله ﷺ بفتح مكة كان قرار خير ورحمة ورفق وكان في نفس الوقت اكتمالاً لجانب كبير

(١) الواقدي، معاري ٢/ ٧٨٨

من الرسالة المحمدية، وفيه الخير كل الخير لكل مكّي بمن فيهم أولئك المعاندون.

وكان طبعاً أن يحس المكيون أنهم كسروا العهد مع محمد، وأن خراعة لا بد مستجيبة به، وأنه لن يتأخر عن نصر حراعة، ويتصدى لعلاج الموقف أبو سفيان صحر بن حرب، وينتهي دور بني عامر بن لؤي في قيادة قريش بعد أن حروا قريشاً معهم إلى هذا المأزق العسير.

وهنا نجد أنفسنا أمام معضلة من معضلات السيرة، فإن رواتنا يقصون علينا أخبار ذهاب أبي سفيان إلى المدينة، وما لقيه هناك من إغراض الناس أجمعين حتى رسول الله ﷺ يقول له بعد أن أجار بين الناس: أنت تقول ذلك يا أبا سفيان أي أنك أجرت نفسك. وما دام رسول الله لم ينكر الجوار فمعنى ذلك أنه لن يقصد أبا سفيان وقومه بأذى.

ويروي الواقدي رواية نستطيع أن نستنتج منها أشياء قليلة. ولكننا في حاجة إليها، لأننا في الحقيقة لا نرى شيئاً واضحاً من خلال الضباب الكثيف الذي يلف الحوادث السابقة على فتح مكة.

يقول الواقدي: «لما صاح (أبو سفيان يجير بين الناس) لم يقرب النبي ﷺ، وركب راحلته وانطلق إلى مكة، وكان قد حُبس وطالت غَيْبَتُهُ، وكانت قريش قد اتهمته حين أظاً أشد التهمة، وقالوا: والله إنا لنراه قد صبأً واتبع محمداً سراً وكتب إسلامه فلما دخل على هند ليلاً (يريد زوجته) قالت: لقد حُجبت حتى اتهمك قومك، فإن كنت مع طول الإقامة قد حثتهم بحجح فأنت الرجل، ثم دنا منها فجلس مجلس الرجل من المرأة، فعملت تقول: ما صنعت؟ فأحرها الخبر، وقال: لم أحد إلا ما قال لي عليّ. فضررت برجليها في صدره وقالت: قُحِّت من رسول قوم،^(١)...»

(١) الواقدي، معاري ٧٩٥/٢

وسال الآن من هي قريش التي كانت ترجو أن يوفق أبو سفيان في الحصول على موافقة رسول الله على موالاته؟ والجواب أنه لا يصدق أن كل قريش كانت تخشى مسير الرسول إلى مكة، فالكثيرون حدا من المكين كانوا قد أسلموا فهم يحمون محبي رسول الله والإسلام.

وهذا الخبر غير مقبول لأن أبا سفيان ذهب إلى المدينة في سفارة عامة تتصل بمصير مكة كلها. فإذ الصلح بين مكة والمدينة قد انتفض وأبو سفيان ذهب إلى المدينة لينظر في إمكان إصلاح ما فسد ومد المدة. وقد عاد من المدينة فكان لا بد أن يجتمع بأهل مكة بمجرد عودته ويطلعهم على ما وصل إليه ويشر الخبر ويعرفه الناس، لأن الأمر كان خطيراً يتصل بمصير مكة كلها، فلا معنى إذن للقول بأن هند امرأة أبي سفيان لم تعرف الخبر إلا من زوجها وهما في حال خلوة. والحقيقة أن أبا سفيان أخبر أهل مكة بما فعل في المدينة، وما نصحه به علي بن أبي طالب فسألوه إن كان رسول الله قد أجاز إجارة أبي سفيان بين الناس. فقال لا. قالوا ويلك، والله إن زاد الرجل على أن لعب بك! قال: لا والله ما وجدت غير ذلك.

لم يطمئن القرشيون إذن إلى أن أبا سفيان أتى بنتيجة، ولكن مجرى الأخبار يدل على أنهم لم يتوقعوا سوءاً لا ولاهم جزعوا عندما علموا أن رسول الله سائر إليهم بالجيش، وإنما هم سكنوا واستكانوا حتى دخل المسلمون المدينة سلماً بدون قتال.

إذا ذكرنا خوف القرشيين عندما سار إليهم الرسول في غزوة الحديبية وكيف أرسلوا طلائع تستكشف الأخبار، وشرحت لهم طليعة بقيادة خالد بن الوليد، ووقفت قوة مهم عند كراع العميم وكيف كانوا يقسمون ألا يدخلها عليهم المسلمون أبداً، وكيف كان تشدهم في مفاوضات الحديبية إذا ذكرنا ذلك كله كيف وقفت قريش ساكة ورسول الله ﷺ يسير نحوهم في عشرة آلاف رجل نصفهم تقريباً من قاتل لا يستطيع القرشيون أن يطمشوا إليها،

هذا بالإضافة إلى المهاجرين والأنصار ورجال أمة المدينة. فكيف سكن القرشيون واطمأنوا وهم يعرفون أن هذا الجيش اللُّجْب في الطريق إليهم؟ وأكثر من ذلك: لقد تم للمسلمين دخول مكة بسلام تام تقريباً لم تشبه إلا مناوشة صغيرة لقيتها قوة خالد بن الوليد وهي داخل مكة من الجنوب. وإنه لم غرائب الأمور أن تكون قوة خالد بن الوليد بالدات هي التي استخدمت القوة، وخالد قبل عامين اثنين كان رئيس الطليعة التي خرجت لتستطلع أمر المسلمين في غزوة الحديبية.

لا يسع المؤرخ في هذه الحالة إلا أن يفترض أن شيئاً ما قد حدث، وأن اتفاقاً قد تم على أن تعتبر مكة مدينة مفتوحة ليدخلها المسلمون دون قتال، هنا لا بد أن ننظر إلى سفارة أبي سفيان إلى المدينة نظرة أخرى، فإن سياق الخبر عند مؤرخينا يدل على أنها لم توفق إلى شيء، وأن أبا سفيان ذهب وعاد دون نتيجة. ولكن واقع الحوادث يدل على أنه عاد بنتيجة هي أفضل مما ذهب من أجله فقد ذهب ليفاوض رسول الله ﷺ في أمر مد المدّة أي لتجديد الهدنة وانتهى الأمر بدخول المسلمين مكة دون قتال ثم دخولها في الإسلام.

هنا لا بد أن نفكر ما جرى لأبي سفيان في المدينة تفسيراً جديداً فإن الرجل لم يجد من أحد ممن لقيه هناك عداوة. حقاً لقد رفض كل من أراد التحدث إليهم أو التشفع بهم لدى رسول الله، أن يقدم إليه أي خدمة ولكن أحداً كذلك لم يلقه بعداوة أو سوء مقال وعلي بن أبي طالب نصحه بأن يهجر بين الناس «فقام أبو سفيان في المسجد فقال، أيها الناس إني قد أجزت بين الناس! ثم ركب بعيره فانطلق».

ونلاحظ هنا أنه أحرار بين الناس ثم انطلق راجعاً إلى مكة ومعنى ذلك أن الإجارة لم تكن للإقامة في مكة، بل لشيء آخر أي أنه بذلك جعل نفسه

جاراً لامة المدينة، أي أنه عصم نفسه وأصبح له حق الجوار، ورسول الله لم ينكر ذلك، إنما كان كل ما قاله له : أنت تقول ذلك يا أبا سفيان؟ وهذا قول لا يعني الرفض أو القبول، ولكن أبا سفيان فسره على أنه اقرار للإجارة.

والسؤال الآن: ما معنى هذه الإجارة؟ لقد سارح الرجل المدينة ومضى فأنتهى بذلك حقه في الجوار في المدينة، ولكن الذي ستتبعه هو أن أبا سفيان طلب الإجارة لنفسه بصفته سفيراً لأهل مكة، وإجارة السفير معناها إجارة أهل مكة جميعاً، وهذا هو الذي نفهمه من واقع الأحداث فإن أهل مكة اعتبروا أنفسهم في جوار رسول الله أي في حمايته ولهذا قرروا مكانهم آمنين ساكنين عندما بلغهم أن رسول الله والمسلمين في الطريق إليهم، وكذلك اعتبروا إجارة أبي سفيان لنفسه إجارة لأهل مكة جميعاً، فهو سفيرهم والمتحدث باسمهم، وقد كان أبو سفيان قد وفد إلى المدينة لتجديد الصلح بعد أن أهدرته قريش ولم يوافق الرسول ﷺ على ذلك وقرر المسير إلى مكة، ولكنه اعتبر طلب أبي سفيان إجارة أمة المدينة إعلاناً لاستسلامه واستسلام قومه معه، فهو سفيرهم والمتحدث باسمهم. وعندما عاد أبو سفيان إلى مكة واجتمع بأصحابه وأعلن إليهم نتيجة ما وصل إليه أنكر بعض المتطرفين منهم ذلك وحاولوا الاعتراض. ولا بد أن نتصور هنا أن أبا سفيان أفهمهم بأن الاستسلام هو الحل الوحيد الباقي أمامهم لأنهم لا يستطيعون الوقوف في وجه المدينة، وإذا هم حاولوا التعرض لجيش المسلمين فإن النتيجة ستكون القضاء عليهم والحاق الضرر البالغ ببلدتهم، ورسول الله لا يريد ذلك ولو صفاء، ولكنه قبل - ضمناً - أن تكون مكة وأهلها في جواره وجوار أمة الإسلام.

وليس لدينا نص صريح يؤكد هذا التصور، ولكن الذي يؤيده، هو الواقع التاريخي الذي كان فقد وقف أهل مكة ساكنين وقد فتحو أبواب مدينتهم ودخل المسلمون دحولاً سليماً منظماً. وعندما دخلوا نادى منادهم أن من دخل المسجد فهو آمن ومن دخل بيته وألقى سلاحه فهو آمن. أما إعلان

الرسول أن من دخل بيت أبي سفيان فهو آمن، فهو ليس تكريماً خاصاً لأبي سفيان كما يظن وإنما هو تأكيد للحقيقة التي ذكرناها وهي أن أبا سفيان في جوار أمة الإسلام وجواره، هذا يسحب على مكة عما فيها ومن فيها إلا من أقدم على نقص الجوار.

وقد دخل الرسول ﷺ مكة مسلماً فلم يقع إلا القتال اليسير في ناحية الجنوب. وبذلك تكون سفارة أبي سفيان هي التي هيات الطريق لدخول مكة، وأهلها في أمة الإسلام. وقد سبق أن لاحظنا أن هذا ما كان الرسول يرجوه. فقد ظل يضيق على مكة ويقطع تجارتها وأواصر صداقاتها وأحلافها حتى افتقرت وضعفت ولم تعد تستطيع المقاومة. فلما أحس الرسول بذلك اعتبر قوة المكيين في غزوة الحديبية، ثم قام بالعمرة. وفي الفترة بين صلح الحديبية والعمرة انفتح الباب بين مكة والمدينة وزال الحرج عن أهل مكة في دخول الإسلام فدخلوه أفواجا، وحقت كلمة الله سبحانه. والمسلمون عندما ساروا إلى مكة كانوا يعرفون أنهم يسرون نحو بلد أسلم معظم أهله واشترأت نفوسهم لدخول أمة الإسلام، ولا بد أن قادة أمة الإسلام أفهموا رجاءهم ذلك فتم الفتح على الصورة الكريمة الحاسمة التي تم بها.

والآن وقد قدمنا تصورنا العام لهذا الحدث العظيم. فليقف بعض الوقت عند التفاصيل:

١ - عندما أزمع رسول الله فتح مكة لم يعلن حتى عن خروجه، وأبو بكر لم يعرف ذلك إلا عن طريق عائشة، وكل ما علمه هو أن الرسول خارج للغزو أما وجهته فلم يعلمها إلا فيها بعد.

٢ - ومع ذلك فإن النصوص تقول إن الرسول دعا ربه قبل خروجه فقال: اللهم حذ على قريش أصهارهم فلا يروني إلا نكتة ولا يسمعون بي إلا نعتة

٣ - وأخذ الرسول بالانقلاب أي أمر بحراسة محارج الطرق من المدينة إلى كل وحه، وعهد إلى عمر بن الخطاب في ذلك الأمر، فلا يخرج رجل من المدينة قط، ومعنى ذلك أن الخبر كان معروفاً بالمدينة، والذي قصد إليه الرسول هو ألا يخرج أحد بالخبر إلى أهل مكة .
وهذا كله يعني ضمناً أن رسول الله أعلن نيته على الفتح لكبار أصحابه المؤككين بالتنظيم والحاملين للمسؤولية من بعده .

٤ - وفي هذه المناسبة وقعت حادثة حاطب بن أبي بلتعة الذي كتب رسالة إلى قريش جعلها مع امرأة من مزينة، ويفهم من هذا الخبر أنه كان من المعروف في المدينة كلها أن رسول الله يريد مكة ولم يلبث الرسول بناء على ما يقوله رواتنا أن أعلن نيته إلى أبي بكر وطلب إليه أن يكتمها . وسر الحرص على الكتمان هنا هو ألا يتسرع أحد .

٥ - ولكي تظل وجهته سراً أرسل جماعة يقودها أبو قتادة بن ربعي إلى بطن إضم - ماء على الطريق بين مكة واليمامة - ليظن الناس أنه ذاهب في ذلك الوجه . ونقول النصوص إن ظنون الناس ذهبت إلى أن الرسول خارج إما إلى قريش أو إلى هوازن أو إلى ثقيف، ولكن معرفة حاطب بالأمر تدل على أن الرسول لم يكتم الخبر إلا ربها استقر عزمه ، وهنا أعلنه ولكنه أراد أن يظل الأمر في المدينة فقط فلا يخرج الخبر منها إلا في وقت متأخر، ويؤيد ذلك قول الواقدي لما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى قريش وعلم بذلك الناس كتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ .

٦ - ونقول النصوص إن حاطباً كتب إلى ثلاثة نفر من قريش : صعوان بن أمية وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل ، فلماذا لم يكتب إلى أبي سفيان بن حرب وهو الذي كان إذ ذاك رأس قريش ؟

٧ - وتقول النصوص إن الخروج كان يوم الأربعاء ١٠ رمضان سنة ٨ هـ
والعاشر من رمضان هنا يقابل ١ يناير ٦٢٨ م، وهو يوم اثنين لا يوم
أربعاء.

٨ - ويروي الواقدي أن الرسول قال عند خروجه: إني لأرى السحاب تستهل
نصر بني كعب، وهذا نصريح لا لبس فيه، فبنو كعب الخزاعيون هم
ضحية عدوان بني بكر بن عبد مناة ومن أيدهم من قريش.

٩ - وكان رسول الله قد بعث إلى كل من أسلم ومن كان في حلف الأمة من
القبائل رسلاً يعلموهم أنه خارج للغزو، والنصوص تقول إن الرسل لم
يصرحوا بوجهة الغزو ولكن ذلك مستبعد، فإن القبائل لا تشترك في غزو
إلا إذا عرفت الوجهة.

١٠ - ونخرج من ذلك أن الكتمان والتعمية لم تستمر إلا قليلاً، ثم لم يلبث
الأمر أن شاع، وهذا هو البيت الأساس في أن رسول الله ﷺ لم يشتد
غضبه على حاطب بن أبي بلتعة. ومنذ خروج الرسول من المدينة على
الأقل عرف الناس أجمعين إلى أين يقصد، بدليل أن بعض جماعات
القبائل انضمت إلى الجيش على الطريق والقبائل التي أرسل إليها
الرسول واستجابت هي: أسلم من خزاعة - جهينة - فزار - ضمرة -
أشجع - مزينة - سليم بن منصور - بنو كعب بن عمرة (من بني كعب بن
خزاعة وهم المعتدى عليهم).

١١ - عسكر الرسول عند بئر أبي عتبة خارج المدينة وهناك فرق الرايات والألوية،
واليك بيان الألوية والرايات وأسماء حاملها:

المهاجرون: ٣ رايات مع الزبير وعلي وسعد بن أبي وقاص.

الأوس: بنو عبد الأشهل راية مع أبي نائلة

شو ظفر راية مع قتادة بن النعمان

راية مع قتادة بن العمام	سوطر
راية مع أبي مرده بن بيار	سوطر
راية مع حبر بن عتيك	بومعاوية
راية مع أبي لبابة بن عبد المنذر	سوحطمة
راية مع مبيض أو تبيض	بنو أمية
راية مع أبي أسيد الساعدي	بنو ساعدة
راية مع عبدالله بن زيد	الخزرج : بنو الحارث بن الخزرج
راية مع قعدة بن عامر بن حديدة	بنو سلمة
راية مع عمارة بن حزم	بنو مالك بن النجار
راية مع سليط بن فيس	بنو مازن بن النجار
راية يحملها؟	بنو دينار بن النجار

وهذا بيان ناقص جداً فيما يتصل بالمشاركين في الفتح من الخزرج ، فلا شك أهم كانوا أكثر من ذلك بكثير ، خاصة وأن عدد الأنصار المشاركين في الفتح كانوا ٤٠٠٠ أي لحس رجال الفتح في حين أن المهاجرين بلغوا سبعمائة أي أقل من العشر ، فيهم ٣٠٠ فارس . أما فرسان الأنصار فكانوا ٥٠٠ فارس .

ويبدو أن هذا التقدير لأعداد المهاجرين مبالغ فيه بعض الشيء فهما تصورنا زيادة أعداد المهاجرين إلى المدينة فإن عدد الرجال المقاتلين منهم لا يمكن أن يصل إلى هذا العدد ، ويمكن قبول هذا الرقم إذا تصورنا أنه يضم كل من هاجر إلى المدينة من المسلمين لا من قريش فحسب

أما مساهمات القبائل الأخرى فكانت تشمل نصف الجيش الإسلامي على وجه التقريب ومن المفيد هنا أن نذكر أسماء القبائل التي اشتركت وأعداد من اشترك معها وقادة قواتها ، لأن ذلك يدل على أن كمة المدينة كانت قد نقلت

معلًا في الحجار وشالت كفة قريش، وكانت هي الراححة فيها مضى، وهذا يفسر لنا من بعض الوجوه لماذا وحد القرشيون الكفار أن أسلم الحلول لهم ولدينتهم هو أن يعينوها مدينة ممتوحة، ويدعوا المسلمين ليدخلوها دون قتال كما دعاهم إلى ذلك أبو سفيان.

وإليك بيان المشتركين من القبائل من غير قريش والأنصار:

مزينه ١٠٠٠ مقاتل منهم ١٠٠ دارع في ٣ ألوية:

لواء مع النعمان بن مقرن

لواء مع بلال بن الحارث

لواء مع عبدالله بن عمرو

أسلم (من خزاعة) ٤٠٠ منهم ٣٠ فارساً في لواءين:

لواء بحمله بريدة بن الحصيب

لواء بحمله ناجية بن الأعجم

جهينة ٨٠٠ معهم ٥٠ فارساً في أربعة ألوية:

لواء مع سويد بن صخر

لواء مع ابن مكيث

لواء مع أبي زرة

لواء مع عبدالله بن بدر

كعب بن عمرو (من خزاعة) . . ٥٠٠ فيهم ٣ ألوية:

لواء مع بشر بن سفيان

لواء مع ابن شريح

لواء مع ابن عمرو بن سالم ولم يكن حرج معه من المدينة لقيه قومه بنقيد

وهذا أيضاً بيان ناقص، فهؤلاء جميعاً لا يكوسون الخمسة آلاف الذين

تكون مهم الجيش بالإضافة إلى المهاجرين والأنصار، ولكن هذا لا يقصر الحقيقة القائلة بأن جيش الأمة الإسلامية الذي سار لفتح مكة كان مؤلفاً من عشرة آلاف مقاتل خمسهم من الأنصار وأقل من العشر كانوا من المهاجرين، والمهاجرون والأنصار كانوا يكونون القوة الحقيقية لجيش الإسلام، وما سوى هؤلاء (ساستاء الخراعيين) لم يكن الرسول ﷺ يعول عليهم كثيراً ولكنه دعاهم وسمح لهم بالانضمام إلى الجيش لكي، بشعرهم بالاشتراك في قوة الإسلام. وشيثاً فثيثاً سيصبحون من جند الأمة الإسلامية، ورسول الله ﷺ كان وثيق الإيمان في قوة الإسلام على غزو قلوب الناس. وكان بعيد النظر طويل الأناة جداً في معاملة الناس؟ وسنرى كيف أنه سيسلك مع القرشيين المكيين وسواهم ممن دخل أمة الإسلام عام الفتح وبعده أكرم المسالك وخاصة خلال عام الوفود وهو عام ٩ للهجرة.

١٢ - ولم يقف أحد إلى جانب قريش حتى بنو بكر بن عبد مناة وهم الذين نقضوا العهد، لم يتركوا ساكناً والرسول في طريقه إلى مكة، مما يدل على أن قريشاً كانت قد جردت من كل نصير لها. وسيكون بعد فتح مكة قتال، بين الإسلام وهوازن ثم ثقيف، ولكن لا هؤلاء ولا أولئك تحركوا لنصرة قريش وإن كانت المصادر تشير إلى حديث لبعض سادة القبائل في هذا المعنى ولكنها مجرد إشارات أشبه بالشائعات. والثابت على أي حال أن هوازن عندما سمعت بتحريك الرسول ﷺ ملكها الخوف واهتمت بأن تعرف ما إذا كان هذا المسير موجهاً إليها.

والذي يستوقف النظر ويهز المشاعر هو تلك الرئاسة المهابة به التي كانت لرسول الله ﷺ فهذا أصخم جيش عرفته الحرية في تاريخها ولكنه يسير في نظام وهيبة، ويمر الجيش اللهب بالمتزل بعد المتزل وعتارل القبائل فلا عدوان ولا نهب ولا حتى معاخرة، بل بلع من حرص الرسول على النظام وتمكنه من فرضه أن الجيش عندما مريين العرج والطلوب (نظر النبي) إلى كلمة تهر على أولادها

وهم حولها يرصعون ، فأمر رجلاً من أصحابه يقال له جعيل بن سُرَاقَة أن يقوم
حذاءها كي لا يعرض لها أحد من الجيش ولا لأولادها^(١) ، وهذا في ذاته دليل
على حنو الرسول ﷺ وإنسانيته ويدعو إلى التفكير في أولئك الذين يزعمون أن
الرسول ﷺ كان يكره الكلاب أو يتفر منها ويفضل عليها القطط .

١٣ - وكان النبي قد رأى أن الحرامَة تقضي بأن يدعو الأعراب من أحلاف
الامة حتى يكونوا في عداد المقاتلين النظاميين فلا يتصرفون على هواهم
ولهذا فقد طلب إلى من يريد المشاركة منهم أن يقد إلى المدينة أوائل
رمضان . وعندما خرج بالناس من المدينة ترك الناس على علامتهم حتى
وصل الصلصل على سبعة أميال (حوالي ١٢ ك) من المدينة وهنا أراح
ونظم الناس وركب الإبل والحمل من معهم ابل وخيل ، وأرسل الزبير بن
العوام طليعة في مائتي فارس ، وبعد قليل عندما وصل إلى البداء لُحِع إلى
وجهته تلميحاً فقال : «إن السحاب تستهل بنصر بني كعب» (من خزاعة)
وهم الذين وقع عليهم عدوان بني بكر بن عبد مناة وحلفائهم من
القرشيين ونادى مناديه : «من أحب أن يصوم فليصم ومن أحب أن يفطر
فليفطر» وتلك رخصة منه سيجعلها عزيمة عندما يقترب من مكة
للتخفيف من جهد الناس وهم مقبلون على فتح ، فمع أن الوقت كان
شتاء إلا أن السير في الشمس مجهد ، وعند العرج «يصب الماء على رأسه
ووجهه ليخفف من العطش»^(٢) .

١٤ - ومع وضوح التلميح الذي صدر عن رسول الله ، إلا أن هوازن ملكها
الفرزج وخافت أن يكون المسير إليها فترسل عيناً يتبع المسلمين ،
ويكتشفه بعض المسلمين والجيش يمضي بين العرج والطلوب ، ويمسكون
به فيزعم أنه عابر سبل من غمار فلا يرال المسلمون يستجوبونه حتى
يمسح عن حقيقة نفسه بعد أن رأى العرم من المسلمين على

(١) الواقدي ، معاري ٢ / ٨٠٤

(٢) الواقدي ، معاري ٢ / ٨٠١

استخراج الحقيقة، فأقر بحقيقة نفسه، وكان الذي استجوبه هـ رسول الله ﷺ نفسه وقد كشف الرجل الكثير، فعرف الرسول أن هوازن كانت تخشى أن يكون مسيره إليها وأن حاسوسها هذا كان عليه أن يراقب الجيش من بعيد، فإذا سلك وادي سرف كان معنى ذلك أن رسول الله يفضي إلى بلاد هوازن ويهاجمها، وإذا تابع طريق الحادة فتكون وجهته مكة وقريش، وعلم الرسول كذلك أن هوازن هي التي انتابها الخوف فبعثت تحرض العرب ووأجلبوا في العرب، وبعثوا إلى ثقيف، فأجابتهم فتركت ثقيفاً على ساق قد جمعت الجموع، وبعثوا إلى الجرش (من أقصى مخاليف اليمن إلى الشمال) في عمل الدبابات والمنجنيق وهم سائرون إلى جمع هوازن فيكونون جمعاً.

قال رسول الله ﷺ: وإلى من جعلوا أمرهم.

قال: إلى فتاهم مالك بن عوف (شيخ هوازن وقالدها في حنين).

قال رسول الله ﷺ: وكل هوازن قد أجابت إلى ما دعا إليه مالك.

قال: قد أبطأ من بني عامر أهل الجدة والجلد.

قال: من؟

قال: كعب وهلال.

قال رسول الله ﷺ: ما فعلت هلال؟

قال: ما أقل من ضوى إليه منهم. وقد مررت أمس بمكة، وقد

قدم عليهم سفيان بن حرب، فرأيتهم ساخطين لما جاء به، وهم خائفون وجلون.

فقال رسول الله ﷺ: حسبنا الله ونعم الوكيل، ما أراء إلا

صدقني (يقصد الجاسوس).

قال الرجل: فيمعني ذلك؟

فأمر رسول الله ﷺ خالداً بن الوليد أن يحبس، وقد حاول الرجل

الفرار ولكن حالداً قصص عليه واستبقاه، ثم أسلم بعد ذلك واستشهد في حبس.

المهم أن رسول الله ما سأل عن ثقيف وهوازن وهلال، ولكنه لم يسأل عن قريش كأنه كان يعرف حقيقة موقعها. وكان الرجل هو الذي تطوع فقال له إنه مر بمكة ووجد قريشاً ساحطة على ما جاءهم به أبو سفيان. ومع أن النصوص تقول هنا إن أبا سفيان عاد إلى مكة صفر اليمين إلا أننا نرى هنا أنه عاد شيء، وهم لم يطعمثوا إلى ما قال لهم ولهذا فقد كانوا خائفين وجلين، والذي جاءهم به هو الاتفاق على التسليم وعدم القتال أي اعتبار مكة مدينة مفتوحة بحسب التعبير الحديث، ومن الطبيعي أن يكونوا ساخطين لذلك ولكنهم راضون به، ومن الطبيعي أن يكونوا ساخطين وجلين، فإن أي مدينة في الدنيا لا تكون خائفة وجلّة وجيش عدته عشرة آلاف مقاتل في الطريق إليها. حقاً إنها استسلمت ولكن من يطعمش إلى الخنود وفيهم من الأعراب الوب؟

وإذن فالأدلة كلها تدل على أن أبا سفيان حصل لمكة وقريش من رسول الله على أمان، وعندما نادى في الناس أنه يجبر بين الناس فلم تكن الإجارة له شخصياً، بل كانت إجارة لمكة وقريش ويكون علي ابن أبي طالب عندما نصح أبا سفيان بأن يجبر بين الناس قد فعل ذلك برأي الرسول ﷺ، لأنه لم يكن يريد تحطيم قريش ولا إبذاء مكة، وكان إدخال مكة في جوار أمة الإسلام يوافق رأي الرسول، وعندما قال الرسول لأبي سفيان أنت تقول ذلك يا أبا سفيان أراد أن يقول له: إنك طلبت الإجارة، ولكك أنت لست كل قريش، فعليك أن تصم القرشيين إلى رأيك، ويكون أسو سفيان عندما عاد قد جاءهم بهذا الحوار، الحوار يسحطهم وإن كان يؤمنهم، وقوم مثل القرشيين لا

يستسلمون دون سحق معد العرة والكرياء وشموخ الأنف، يقفون ساكنين. ومن نيف وعام فحسب عندما سار الرسول إليهم معتمراً في ١٤٠٠ رحل عبر مسلمين أخذتهم العزة وأقسموا ألا يدخلوها عليهم قط، وخرجوا للقاءه معهم النساء والأطفال (العوذ المطافيل): ويومها قال الرسول: ويح قريش، أكلتهم الحرب إذ لو حلوا بيني وبين العرب إلى آخر حديثه الذي رويناه أنفأ، أما الآن فإن تعليقه: حسبتا الله ومعهم التوكيل، ومعناه حسبي الله في قريش، حتى هذا لا يرضيهم والمراد سادتهم المعاندون.

١٥ - وإذن فيكون أبو سفيان بن حرب قد أنقذ قريشاً بذهابه إلى مكة. حقاً إن الرسول ما كان ليأذن بأن يصيب مكة بأذى، ولكن استسلام قريش سهل له هذه المهمة وطمانه على مصير القرشيين ممن أسلم وأمن وطوى إسلامه. وفي سورة الفتح آيات (٢٢ - ٢٥) تشير إلى ذلك صراحة ونصها ﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأديبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً. سنة الله التي قد خلت من قبل، ولن نجد لسنة الله تبديلاً، وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً، هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله، ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرفة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء. لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً ألياً﴾. حقاً إن الآيات تشير إلى ما كان في الحديبية، ولكن المؤمنين الذين كانوا في مكة ولا يعلم المؤمنون بأمرهم كانوا لا يزالون موحودين عند فتح مكة.

١٦ - وعندما مر رسول الله ﷺ بقديد لقيه نؤسليم بن منصور وهم سيرة التسمانة ولألف مع كل منهم رمح وسلاحه، ومن كان فارساً فمعه فرسه، فشكوا إليه أنه يقصيهم ويستغشهم مع أنهم أحواله، وغريب منهم

أن يمتنوا إليه ههنا بالخشولة فذكرون أن أم هاشم بن عبد مناف هي عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالح بن ذكوان من بني سليم، وهو هلال ابن فالح هؤلاء غير بني هلال بن عامر بن صعصعة الذين تروح الرسول منهم امرأتين، هما زيب بنت حريمه بن الحارث، وميمونة بنت الحارث، وكلتا هاتين أمهات المؤمنين. وسألوه أن يقدمهم في صفوف رحاله ليري حسن بلائهم، فقبلهم الرسول وجعلهم في المقدمة مع خالد بن الوليد، ولم يكن هو سليم من قبل بأهل إيمان صحيح، وقد طالما أدوا أهل الإسلام، ولكن هذه كانت ساعة الرضى والعفو والتصافي، وما داموا قد أظهروا حسن النية فلماذا يرفضون؟

وقد غاظ قول رسول الله لبني سليم عيينة بن حصن شيخ فزارة وغطفان، وكان عندما سمع بخروج رسول الله إلى مكة قد عمل باللدخاق به مع نفر من قومه وسار في المؤخرة، وكان رسول الله يسير مع أبي بكر وعمر، وكان العباس بن مرداس شيخ بني سليم قد لقي الرسول عندما هبط من المشلل في طريقه إلى قديد ومعه آلة الحرب، والحديد ظاهر علينا والخيل تنازعنا الأعنة، فصفقنا لرسول الله ﷺ - والمتكلم هنا هو العباس بن مرداس - (فقال العباس) يا عيينة وهذه أبو سليم قد حضرت بما ترى من العدة والسلاح وإنهم لأخلاس الخيل ورجال الحرب ورعاة الحدق فقال عيينة بن حصن^(١) أقصر أيها الرجل فإنك تعلم لنحن أفرس على متون الخيل وأطعن بالقنا وأضرب بالمشرفة ملك ومن قومك. وقد حسم الرسول هذا التنازع بين الشيخين القبليين بإشارة بيده وهكذا نرى هؤلاء الأعراب يتأسفون على المكانة عند رسول الله والمؤمنين، والرسول يهذب من طاعهم ويؤدبهم بأدبه ويكفيهم عن

(١) في الأصل لمطوع العباس بن مرداس ولا يستقيم به الكلام والمعالي أنه وهم من النسخ مصوبه على ما ترى في النص وقد احتلط الأمر على المحقق الأريب ههنا والمعارة في الأصل قلعة أي حال

١٧ - وبعد هذا يظهر في النصوص تحريف الأخبار الذي يقصد منه إلى تعظيم أمر العباس بن عبد المطلب، والعض من شأن أبي سفيان والأحبار تقول إن العباس لقي رسول الله ﷺ عند الحجة قال ابن هشام (لا ابن اسحاق) «لقبه بالحجة مهاجراً بعياله وقد كان قبل ذلك مقيماً بمكة على سقايته، ورسول الله ﷺ راضٍ فيها ذكر ابن شهاب الزهري»^(١). ولما تعلم كيف يكون الرسول راضياً عنه وهو يعلم أنه إلى ذلك الحين كان مقيماً على حاله في مكة مرابطاً، وكان أول ربا وضعه رسول الله ﷺ في خطبة الوداع ربا العباس، ولو كان أقلع عنه من زمن لما كانت بالرسول حاجة إلى أن يسقطه في خطاب خطير مثل حجة الوداع. ويستتدرك مع الأخبار لنرى كيف أن سلطان بني العباس قد عمل عمله في إظهار العباس بأنه كان من أقرب الناس إلى رسول الله، وأنه أفضل من أبي سفيان مع أنها من حيث السابقة إلى الإسلام سواء، كلاهما أسلم عند الفتح بل قد رأينا أن أبا سفيان بياسته وحسن تصرفه كان صاحب الفضل في تمام فتح مكة على الصورة الكريمة التي تم بها، دون أن تكون هناك حرب أو مهانة لقريش.

١٨ - ويقول الواقدي: «واجتمع المسلمون بمنى الظهران ولم يبلغ قريشاً حرف عن سير رسول الله ﷺ إليهم فقد اغتموا وهم يخافون بغزوهم رسول الله ﷺ، فلما نزل رسول الله ﷺ من الظهران عشاء، أمر أصحابه أن يوقدوا النيران فأوقدوا عشرة آلاف نار. فأجعت قريش بعثة أبي سفيان ابن حرب يتحسب الأخبار فقالوا: إن لقيت محمداً فخذ لنا منه حواراً إلا أن ترى رقة من أصحابه فادبه بالحرب، فحرج أبو سفيان وحكيم ابن حرم، فلحقا بسدبيل بن ورقاء فاستمعاه فحرج معهما، فلما بلغوا الأراك من مر الظهران رأوا الأبنية والعسكر واليران وسمعوا صهيل

(١) سيرة النبي لاس هشام ٤٢/٤

الحيل ورعاء الإبل، فافزعهم ذلك فرعاً شديداً وقالوا هؤلاء بؤكعب
 حاشتها الحرب (أي جمعناها وساقناها)، فقال بديل: هؤلاء أكثر من بني
 كعب! فتسحمت هوارن على أرضها (أي دخلتها) والله ما يعرف هذا، أن
 هذا العسكر مثل حاج الناس».

وهذا كلام لا يساق إلا على افتراض الغفلة في القاريء، فكيف يصدق
 أن قريشاً على ما علم من يقطتها وقطة رجاها ينجفى عليها أمر مسير رسول الله
 وجيشه الضخم حتى بلغ مر الظهران، مع أن هوازن وهي دون قريش يقظة
 وتنظيماً أحست بذلك وأرسلت عيناً لها ليتبع جيش الإسلام ويعرف إلى أين
 يمضي، حتى غطفان وسليم بن منصور عرفنا سالا وقد رأينا إسراعهما
 للانضمام إلى جيش الإسلام وتنافسهما في ذلك، ثم أن ابن اسحاق قرر
 صراحة أن رسول الله أعلم الناس بأنه سائر إلى مكة قبل فصوله عن المدينة، فقد
 قال برواية ابن هشام: «ثم أن رسول الله ﷺ أعلم الناس بأنه سائر إلى مكة
 وأمرهم بالجد والتهيز». وقال: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى
 نبغتها»^(١) وكان من الطبيعي أن ينتشر الخبر بعد ذلك ويعلمه كل الناس.

وأما حكيم بن حزام فهو ابن خويلد بن بني أسد بن عبد العزى وهو ابن
 أخي خديجة أم المؤمنين وقد تأخر إسلامه فعلاً، إلا أن إسلامه صح بعد ذلك.
 أما القول بأن أبا سفيان وحكيم اصطحبا بديل بن ورقاء فأمر لا يصح، فبديل
 كان من زعماء خزاعة وهو من بني عمرو الخزاعيين وهم أبناء عمومة بني كعب
 الخزاعيين المعتدي عليهم وهو كان صاحب البيت الذي لجأ إليه الخزاعيون في
 مكة عندما اعتدي عليهم، وكان في الذين ذهسوا يبلغون النبي خبر العدوان
 وهو مسلم صحيح الإسلام من رمى طويل فكيف يصطحبه أبو سفيان كأه
 كان من حزبه من المشركين.

وأما أن قريشاً قالت لأبي سفيان عد حروجه أن يأخذ لها جواراً من

(١) ابن هشام سيرة النبي ٣٩/٤

رسول الله، فنحن نعرف أنه غير معقول لأن أبا سفيان كما رأينا كان قد أخذ بالفعل الحوار لقريش عندما ذهب إلى المدينة، وبقية الخبر التي تقول إن قريشاً قالت له أنه إذا أتى رقة أي ضعفاً من أصحاب الرسول أن يؤذنه بالحرب فأبعد عن الصواب من أي شيء سواء، وقد سبق أن رأى رجال قريش بأنفسهم أثناء مفاوضات الحديبية حب أصحاب محمد لمحمد وتعابهم في سبيله واستعدادهم لخوض المعارك بإشارة منه.

١٩ - وكل هذا التمجيد لما يأتي بعد ذلك مما يرويه الواقدي وغيره، فكلهم يقولون إن العباس بن عبد المطلب بعد أن لحق بالرسول وأسلم وأصبح في جملة رجاله: «ركب بغلة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) (١) وخرج في ظلام الليل» عسى أن يصيب رسولاً إلى قريش يخبرهم أن رسول الله داخل عليهم في عشرة آلاف، فسمع صوت أبي سفيان فقال: أبا حنظلة! فقال أبو سفيان: يا لبيك أبا الفضل! قال العباس: نعم! قال أبو سفيان: فما وراءك؟ قال العباس هذا رسول الله في عشرة آلاف من المسلمين فأسلم ثكلتك أمك وعشيرتك! ثم أقبل على حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء فقال: أسلموا فإني لكم جار حتى تنتهوا إلى رسول الله فإني أخشى أن تقتطعوا دون النبي ﷺ قالوا فنحن معك. فخرج بهم العباس حتى أتى رسول الله ﷺ فدخل عليه وقال: يا رسول الله: أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء قد أجرتهم وهم يدخلون عليك. قال رسول الله ﷺ أدخلهم فدخلوا عليه فمكثوا عنده عامة الليل يستخبرهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام، وقال: تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله! فأما حكيم وبديل فشهدا وأما أبو سفيان فقد شهد أن لا إله إلا الله فلما قال: وأني رسول الله قال: والله يا محمد إن في النص من هذا شيئاً يسيراً بعد، فأرحتها ثم قال للعباس قد أحرأهم اذهب بهم إلى منزلك^(١).

(١) الواقدي، معاري ٨١٥/٢

وهكذا يصح العباس الذي أسلم بالأمس وكان إلى قبل الأمس
 كاهراً مرابطاً داعية للإسلام وصاحب سلطان فيه، وأبو سفيان وهو إلى
 هذه الساعة كان أهم من العباس وله في توجيه الحوادث يد أصح تابعاً
 سير دليلاً وراء العباس! أما حكاية أن أبا سفيان توقف عن أن يشهد أن
 محمداً رسول الله فأشبهه بالمكاهة، فيما دام الرجل قد شهد أن لا إله إلا
 الله فإن ذلك يستتبع الشهادة بأنه رسول الله فهو الذي حمل إلى الناس
 رسالة الوحدةانية ومن غير المعقول أن أبا سفيان يرى رسول الله في هذا
 الموضع الجليل ثم يعتذر عن عدم الإيمان بأنه رسول الله، وحتى لو
 سلمنا بأن الإسلام لم يكن دخل قلبه فإن هيبة رسول الله وصحابته
 وجيشه لا بد أن تكون قد أخذت ببصره وعقله ولا يمكن في هذه الحالة
 أن يتأخر عن الشهادة فقد كان أفطن من هذا وأحصف ولكنها وكالة
 الأنبياء العباسية توجه الأخبار هذا التوجيه إعلاء لشأن بني العباس على
 بني أمية، وإذا كان أمثال الواقدي^(١) قد سلموا بذلك خوفاً من خليفة
 بني العباس فما عذرنا نحن وقد أعفانا الله من ذلك الخوف؟ ولكن أخانا
 الدكتور هيكل في حياة محمد يأخذ به ويرويه بل يقول: «وتدخل العباس
 موجهاً القول إلى أبي سفيان أن يسلم ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً
 رسول الله قبل أن تغرب عنقه، ولم يجد أبو سفيان أمام هذا إلا أن يسلم
 فتوجه العباس بالقول إلى النبي عليه السلام وقال: يا رسول الله إن أبا
 سفيان يحب هذا الفخر، فاجعل له شيئاً قال رسول الله: نعم، من دخل
 دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل داره فهو آمن ومن دخل المسجد فهو
 آمن»^(٢) . . .

والدكتور هيكل يروي هذا الكلام ثم يقول إن هذه الوقائع وأرد عليها

(١) الواقدي، سنن ٢/٨١٥.

(٢) محمد حسين هيكل، حياة محمد ص ٤٢٣

اتفاق المؤرخين دون أن يسأل نفسه ، هل كان من المعقول أن يأمر الرسول بضرب عتق أبي سفيان إذا لم يسلم في التو واللحظة ، والإسلام كان يمهل الناس ليفكروا ويتدبروا ورسول الله لم يكن يقهر أحداً على الإسلام وفي القرآن آية تقول إنه لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ، وبعد عامين من فتح مكة تنزل سورة براءة التي تنهي الكفر والشرك في جريرة العرب ولكنها تمهل الكافرين أربعة أشهر يحق عليهم بعدها العقاب

ولكن هيكلًا وطه حسين والعقاد ليسوا بمؤرخين إنهم رجال أدب ومفكرون نقرأهم للأسلوب وقوة العارضة وحسن السباق ولكننا قط لا نقرأهم للتاريخ ، فإن التاريخ علم له أصول ومناهج لا تتطلبها إلا من المؤرخ المتخصص لهذا الفن ، وهذا كذلك هو موقف أهل الغرب من الأدباء الذين كتبوا في التاريخ ، هذا موقف الإنجليز من ماكولي والفرنسيين من فولتير والألمان من فردريش شيلر .

والذي يهمنا هنا هو أن سياق الأخبار على هذا النحو يؤخذ على أنه محاولة من بني العباس لتبييض وجه العباس والغض من شأن بني أمية ، وقد ذهبوا في ذلك إلى حد القول بأن أبا سفيان عندما لقي الرسول في هذه المرة كان في جوار العباس لا جوار الرسول ﷺ ، وهذا تجوز في الكلام غير محمود حتى لو لم نعلم علم اليقين ، كما رأينا أن أبا سفيان كان في جوار الرسول ﷺ وأمة الإسلام منذ أعلن أنه في جوارهم ورسول الله لم يرد هذا الجوار ، وقد شمل مكة ومن فيها . وطريف من الأمر أن العباس - كما تقول الأخبار - طلب من رسول الله أن يخلع على أبي سفيان شرفاً ، فقال إن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، وكان أولى بالعباس أن يطلب هذا الشرف لنفسه ، فيقول الرسول مثلاً ومن دخل دار العباس فهو آمن ، ولا نحسب أن العباس كان يكون سعيداً بذلك لأن ذلك كان يفترض أنه كان على العباس بناء على ذلك أن يطعم ويسقي ويؤوي من دخل داره ، وما كان العباس الصين بماله أن يرضى بذلك قط ، أما أبو سفيان

فمهما قلنا فيه فقد كان سيئاً جاهلياً بطعم ويسقي ويقوم بمطالب الرياسة مثله في ذلك مثل أبي جهل رغم موقعه من الإسلام، واقرأ المحرر والمنقح لمحمد بن حبيب السامة تجمد فيه عن العباس وأبي سفيان كلاماً يؤيد ما نقول.

٢٠ - ثم يروي الواقدي رواية أخرى تحدثها أيضاً عند ابن سعد والطبري وابن هشام في الخط من شأن أبي سفيان وتعمل العباس بقتله من القتل على يد عمر، ونصوره مسكيناً ذليلاً يرتجف فرقاً من الموت لا يحميه إلا العباس الذي أصبح بين عشية وضحاها في مقدمة أصحاب رسول الله ﷺ.

٢١ - وبقيّة الخبر بعد ذلك لا تخلو من سذاجة وهي تدل على انعدام ملكة النقد عند مؤرخينا القدامى، فهم يرددونها جميعاً عن عواهنها، وخلاصتها أن رسول الله ﷺ أمر العباس أن يأخذ أبا سفيان ويحبسه بمضيق الوادي إلى عظم الجبل حتى تمربه جنود الله فيراها، ونحن لا نعرف أين هو ذلك المضيق ولا ما هو عظم الجبل المقصود هنا، ولكن الزرقاني صاحب الشرح المعروف على المواهب اللدنية للقسطلاني يقول: إن عظم الجبل هو أنف الجبل، وهذا هو تفسير الماء بعد الجهد بالماء كما يقولون، فإننا نعرف أن الخطم عامة هو الأنف ولكن الذي لا نعرفه ولا نفهمه هو أنف الجبل، والقسطلاني كتب شرحاً للسيرة يسمى المواهب اللدنية، ثم جاء الزرقاني فكتب شرحاً للشرح، فهو شرح على شرح على صياغة معدلة محرفة لسيرة ابن اسحق وقد ضاع نص المواهب اللدنية، فنحن لا نعرفه إلا من شرح الزرقاني له وكل من الرحلين يعرف كل كبيرة وصغيرة ولا يقول: لا أعرف قط، فإذا عم عليه اسم موضع قال لك موضع بين مكة والبصرة وأدهت أنت وليعصك الله سبحانه على العثور على ذلك الموضع في مسافة تريد على الألفي كيلومتر.

والخمر يقول إن العباس (العظيم) وقف على مرتفع في المضيق وإلى جانبه أبو سفيان صثيلاً متخوفاً، وكلما مرت مرقعة من فرق الجيش كبرت نلثاً، وسأل أبو سفيان من هؤلاء؟ فيحيب العباس هؤلاء بنو فلان، هؤلاء بنو علان كأن العباس الذي أسلم ولحق بالرسول قبل أبي سفيان ربما بساعات قد أحاط بتكوين جيش الإسلام قطعة قطعة وحاعة حاعة بمجرد إسلامه، كأنه هو صاحب هذا الجيش ومرتبته وصاحب قياده، وهذا في النهاية هو ما يرمي إليه أصحاب هذه التحريفات.

٢٢ - وندع هذا كله لنقول إن رسول الله ﷺ دخل مكة دخولاً سليماً هادئاً منظماً على نحو ربما كان فريداً في بابيه في التاريخ، فضلاً عن العصور القديمة والوسيطه، فأما في العصرين القديم والوسيط فلم يحدث قط أن دخل جيش - أيا كان - مدينة إلا نهبها وعصف بأهلها حتى الجيوش العائدة إلى بلادها كانت تنهب بلادها نفسها وفي مواكب الملوك والسلاطين كان الناس يقفلون البيوت خوفاً من مرة الجند، وأما في العصر الحديث فلم تسلم مدينة قط دخلها جيش مهما كان نظامياً من سلب ونهب وقتل وانتهاك أعراض. ولكن جيش الإسلام دخل مكة دخولاً هادئاً منظماً لأنه لم يكن جيش دولة وإنما كانت أمة مؤمنة تحولت إلى جيش إيمان ومحبة وسلام، ورسول الله دخل مكة دخول نبي الإسلام يحمل معه السلام، وإن الإنسان ليعجب من هذا النظام الجليل الذي دخلت به الجيوش الأربعة وعليها الزبير بن العوام وخالد ابن الوليد وأبو عبيدة عامر بن الجراح وسعد بن عباد، وقد جعله الرسول صاحب رأي الجيش الذي هو فيه اعزازاً للأنصار، ثم بددت من سعد بن عباد مائدة زهور ربما لم يكن وراءها شر، فقد قال: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمه، وحامها المسلمون وأبلىعوا الرسول فأخذ منه الراية وأعطاهما لآبته قيس، ولم بغضب سعد فإن الراية إذا كانت في يد الله فهي لم تخرج من يده، ولم يحدث قتال إلا في جيش

خالد الذي دخل من الحبوب أي من اللب، لأن الخائفين المرعين
الذين سبوا إليهم تجمعوا هناك

وهذا التظيم كله وصحه السي رحمه الله عندما وقف الجيش بذي طوى
موضع بشمال مكة، ثم تقدم مع معه إلى اداعر، ومن ثم سارت الحيوش في
نظام تام. وكان أبو سميان وحكيم بن خرام قد سارا في طرق مكة يصيحان في
الناس ألا يخافوا، فمن دخل داره فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن
دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فعجل الناس بدخول بيوتهم، ودخلت الحيوش
دخولاً سهلاً لا عنت فيه.

وقبل أن يدخل الرسول في نفر من أصحابه في آخر الجيش وقف بذي
طوى وتوسط الناس وأن عثونه (لحيته) ليمس واسطة الرمل أو يقرب منه
نواضعاً لله سبحانه وتعالى حين رأى ما رأى من فتح الله وكثرة المسلمين، ثم
قال: العيش عيش الأخرة ثم تحرك ودخل مكة حتى وصل الحجون حيث كان
الزبير بن العوام قد عزز راية الرسول وضرب له قبة، ومر الرسول في طريقه
بشعب بني هاشم أي حبههم، وكانت فيه داره، ودُعي إلى دخول الشعب
والتزول في أحد دور بني هاشم فقال قوله المشهور وهل أبقي لنا عقيل من داره،
وعقيل كان أخاً لملي بن أبي طالب وكان قد بقي في مكة وباع ديار بني هاشم
داراً داراً وأبى رسول الله أن ينزل في أي بيت وإنما استقر في قبة فكانت هي
منزله أثناء مقامه عند الفتح ولم يكن رفض الرسول النزول في أحد بيوت بني
هاشم راجعاً إلى أن عقيلاً باعها، وإنما كانت للرسول من وراء ذلك حكمة
أبعد، فقد خشي إن هو نزل في بيت من بيوت بني هاشم أن يدخل المسلمون
بيوت الناس، فآثر الرسول في القبة التي ضربت له محافظة على بيوت مكة من
مرة نزول المقاتلين فيها.

٢٣ - وأما البقية الباقية من قريش الكمر فكانت قد تجمعت جسوبي مكة تريد

أن تقاوم الفتح وأمر الله ، وكانوا على أي حال قلة تستوقف السطر بقاتها . مدينة كبيرة لم يكن أهلها ليقولون عن خمسين أو ستين ألفاً تدخل في الإسلام أو تستظل بأمان الإسلام وتظل ثلثة مكابها حتى يأذن الله بإسلامها ، فلا يشد عن إجماع ملثها إلا نحو عشرين إنساناً يذكروهم المؤرّحون بالاسم ويتبعون مصائرهم حتى أسلموا إلا اثنين أو ثلاثة اختفوا أو ماتوا على الشرك وتواروا في ظلام التاريخ . مدينة كاملة كانت بالأسر معقل العداء للإسلام تقف ساكنة هادئة وجيوش الإسلام - عدوها بالأسر فيها كان أهلها يتصورون - تدخل البلد وتسبر فيه أمنة كأنه بلد إسلامي منذ الأمد الطويل ، في جنوب المدينة فقط وفي ركن صغير منها وقف نفر من أهل العداوة والإسلام هم من ذكرنا من بني عامر بن لؤي ، وواحد فقط من غالب بن لؤي هو عكرمة بن أبي جهل ومعهم أحابيشهم أي أنصارهم ، ترسوا هناك يقولون لخالد بن الوليد وهو كان المكلف بالدخول من الجنوب ، لا تدخلها علينا أبداً ! وشاء حظهم أن يكون الداخل عليهم من هذه الناحية هو خالد بن الوليد وهو قائد موهوب لا يتردد في إبادة العدو إبادة إذا اقتضى نظره العسكري ، لأنه كان يرى دائماً أنه قائد عسكري ، ورسالة القائد العسكري عنده هي النصر وتحطيم العدو ، فلما قالوها حتى ذهبوا بددا ، وفي برهة من الزمان يهلك منهم ٢٤ رجلاً من فريش وأربعة من هذيل « وانهمزوا أقبح الانهزام حتى قتلوا بالحزورة وهي كانت سوق مكة إلى جوار الحرم ، وقد دخلت فيه من زمن بعيد - وهم مولون في كل وجه وانطلقت منهم جماعة فوق رؤوس الجبال واتبعهم المسلمون ، فجعل أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام يصيحان ' يا معشر فريش علام تقتلون أنفسكم ؟ من دخل داره فهو آمن ومن وصع السلاح فهو آمن ، فجعل الناس يقتحمون الدور ويغلقونها عليهم ويطرحون السلاح في الطرق حتى يأخذها المسلمون » ومن أداحر يرى رسول الله ﷺ لمعان السيوف فيقول

وما هذه البارقة؟ ألم أنه عن القتال؟ قيل يا رسول الله خالد بن الوليد قاتل. ولولم يقاتل ما قاتل، فقال رسول الله ﷺ فعي الله حيراً^(١).

وعمر رسول الله وهو داخل مات سعيد بن العاص وهو أسوأ أحيحة من أمية بن عبد شمس رأس الكفر والعداوة لرسول الله، وقد مات كافراً، وقد نشرون رؤوسهن يضرهن بحمرهن رؤوس الخيل، كأسهن يندبرن حطهن ويحسبن أن هذه نهاية الدنيا فيأسي رسول الله لحاكن وتأخذهن بهن رقة، وبعد قليل يسلمن ويصلحن إسلامهن ويحبدن في ظل الإسلام من الكرامة ما لم يكن يحظر لهن على بال.

وينتهي رسول الله ﷺ إلى الكعبة ويرأها ومعه المسلمون، ولقد كان قد رأها بعد هجرته في عمرة القضية، ولكنها اليوم تحت راية الإسلام ويستلم الركن بمحجنه ويكبر فيكبر المسلمون وراءه تكبيراً تترنج له أركان مكة، حتى يشير إليهم الرسول بيده أن اسكتوا فيسكتون والمشركون فوق الجبال ينظرون ثم يطوف بالبيت على راحلته وقد أخذ بزمامها محمد بن مسلمة ويأمر بالأصنام حول مكة فتهدم ويكمل الرسول طوافه، ثم يؤق له بماء من زمزم فيشرب، ثم ينظر إلى هبل يهدم، ثم يطلب مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة فيأتيه به فيأمره أن يدخل ويزيل كل ما بداخلها من تصاوير وفيها صورة لعيسى بن مريم وأمه السيدة مريم، وصورة لإبراهيم يستقسم بالأزلام فتزال هذه الصور ثم يدخل الرسول فيصلي ركعتين ثم يخرج وقد تطهرت الكعبة وأصبحت كعبة الإسلام حقاً، ثم يخرج فيقف على باب الكعبة ويقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده! ماذا تظنون وماذا تقولون قالوا: نظن خيراً ونقول خيراً أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت! فيقول رسول الله ﷺ. أقول كما قال أخي يوسف ﴿لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم

الراحمين^(١) ﴿إلا أن كل ربا في الجاهلية أو دم أو مال أو ماثرة، فهو تحت قدمي هاتين إلا سداة البيت وسقاية الخاج، ألا وفي قنبل العصا والوسط الخطأ شه العمد، الذبة مغلطة مائة باقة، منها أربعون في بطونها أولادها، إن الله قد أذهب حسوة الجاهلية وتكرها بآياتها، كلكم من آدم وآدم من تراب، وأكرمكم عند الله اتقاكم. ألا إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرمة الله لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد كائن بعدي ولم تحل لي إلا ساعة من النهار يقصرها رسول الله ﷺ بيده هكذا^(٢)، ولا ينفر صيدها ولا يعضد عضاها^(٣) ولا تحل لقطتها إلا لمنشد ولا يتخذ غلاها... إلا الأذخير فإنه حلال، ولا وصية لوارث، وأن الولد للفراش وللعاهر الحجر، ولا يحل لامرأة تعطى من مالها إلا باذن زوجها، والمسلم أخو المسلم والمسلمون إخوة، والمسلمون يد واحدة على من سواهم، تنكأوا دماؤهم، يرد عليهم أقصاهم ويعقد عليهم أدناهم ومُشِدُّهم على مصغفهم^(٤)، وميسرتهم على قاعدتهم ولا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد، في عهده، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين، ولا جلب ولا جنب^(٥) ولا تؤخذ من صدقات المسلمين إلا في بيوتهم وبأفئتهم، ولا تنكح المرأة على عمتها وخالتها^(٦)... إلى آخر هذا الخطاب القصير الذي يبين بعض حدود الإسلام ويضع حداً لبعض ممارسات الجاهلية التي تخالف الإسلام.

وهكذا تطهرت الكعبة وعادت إلى الإسلام ملة إبراهيم وأذن من فوقها بلال وآمن الناس وسعدوا بأن مدينتهم دخلت عالم الإسلام هذا الدخول

(١) سورة يوسف: ٩٢/١٢.

(٢) أي يشير بإصبعه إليها ساعة قصيرة

(٣) أي لا يقطع بها الصيد الصغير

(٤) شد على العدو هجم عليه، وضعف أي صار ضعيفاً

(٥) أي أن المصدق وهو الذي يراقب أحوال الصدقات ويأخذ نصيب الله ورسوله منها، لا يبقى مكانه ويطلب إلى الناس أن يأتوه بالصدقة كأنه جامع صرائف بل يذهب إليهم بنفسه

(٦) الواقدي، معاري ٨٣٥/٢ - ٨٣٧

السِّلْمِي الآن، ولا شك أن الوفاء بعد الوفاء أسلمت في هذه المناسبة لأن الدين طاهر الإسلام بالعداء ورفضوا الدخول في أمته، كانوا نِعْراً بعد على أصحاب الديد، وهم معروفون لنا بأعيانهم وقد قُصَّ علينا المؤرخون قصة كل منهم وما جرى له ومعظمهم لم يلبث أن أسلم أو استأسم وأسلم وحسن إسلامهم، ورحل مثل عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية بن حلف وسهيل بن عمرو أصبحوا من خيرة المسلمين، وسلم بكرهم في الفصل التالي. لقد أبى رسول الله ﷺ إلا أن يرد مفتاح الكعبة لبني عبد الدار أصحاب ذلك المفتاح من قديم، وقد مثلهم هنا عثمان بن طلحة بن أبي طلحة وهو مسلم قديم، كان قد هاجر إلى المدينة مع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وظل المفتاح في يدهم بعد ذلك قروناً متطاولة وأقر الرسول العباس بن عبد المطلب على السقاية كما كانت قبل الفتح.

وقد جعل رسول الله مكة حراماً لا يحل فيه القتل أو العدوان لأحد، وكان ذلك في يوم الفتح وبعد خطاب رسول الله ﷺ الأول، وقد ذكرنا معطمه، ثم اعتدى الخزاعيون على رجل كان لهم عنده ثار ثلثي يوم من أيام الفتح فأعاد رسول الله ﷺ تأكيد حرمة مكة إلى يوم القيامة والمدينة أيضاً كان جوفها حرام منذ العام الثاني للهجرة، الذي كتب فيه جزء من الصحيفة وبذلك أصبح للامة الإسلامية مدينتان محرمتان، هما مكة والمدينة، ولم يغير رسول الله ﷺ مقامه من المدينة إلى مكة وفاء منه لأهلها، ولكن مكة كانت أحب بلاد الله إليه فهي مهددة وفيها الكعبة والحرم وهي مقصد الحجاج. وقد جدد رسول الله ﷺ انصاب الحرم يوم الفتح على يد رجل من العارفين بمواضع مكة هو نعيم بن أسد الخزاعي. وقد جدد هذه الأنصاب عمر بن الخطاب ثم عثمان ثم معاوية عندما حج. ونص الخطبة التي ألقاها رسول الله ﷺ يوم دخوله مكة وتطهيره الحرم لا يتضمن عبارة «أذهبوا فأنتم الطلقاء»، فإن الذي قاله بحسب رواية الواقدي، «ماذا تقولون وماذا تطعون؟ قالوا: نظن خيراً ونقول خيراً. أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت! فقال رسول الله ﷺ فلاني أقول كما قال أخي يوسف

﴿لا تشرب عليكم اليوم، يعفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾ (سورة يوسف ٩٢/١٢) إلا أن كل ربا في الحاحلية وكل دم أو مال أو ماثرة فهو تحت قدمي الاسدانة الكعبة الخ^(١) فمضى قال رسول الله عبارة اذهبوا فانتم الطلقاء قالها بعد ذلك لأنه كان يريد - وقد دخل - مكة أن يتتصف بنو كعب الخزاعيون من بني بكر بن عبد مساة للذي فعلوه بهم . وقد نص الواقدي على ذلك صراحة فقال «يا معشر المسلمين كفوا السلاح إلا خزاعة عن بني بكر إلى صلاة العصر فخطبهم ساعة وهي الساعة التي أحلت لرسول الله ﷺ لم يحل لأحد قبله، وكان رسول الله ﷺ نبي أن يقتل من خزاعة أحد^(٢) ويضيف ابن سيد الناس عن ابن اسحاق، أن نفراً من أوباش قريش حاولوا التصدي للمسلمين فسلط الرسول عليهم الأنصار ، فعصفوا بهم ، فقال أبو سفيان لرسول الله أبيحت خضراء قريش لا قريش بعد اليوم فكرر رسول الله عليه مقلته وهو داخل مكة من دخل داره فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، قال فغلق الناس أبوابهم^(٣) وتؤكد رواية الواقدي هذا المعنى فتقول : إن هذا القتال هو الذي كان من ناحية الليط حيث دخل خالد ، وقد ذكر الواقدي أن الذين تجمعوا هناك كانوا نفراً من الحاقدين الخائفين من أمثال سهيل بن عمرو فبدرهم خالد وتبعهم حتى الحزورة وهو سوق مكة وانطلقت طائفة منهم فوق رؤوس الجبال واتبعهم المسلمون ، فجعل أبو سفيان بن حرب وحكيم بن خزام يصيحان : يا معشر قريش : علام تقتلون أنفسكم من دخل داره فهو آمن ، ومن وضع السلاح فهو آمن ، فجعل الناس يقتحمون الدور ويلقون السلاح حتى يأخذها المسلمون^(٤) . وهنا ويعد أن يهدأ الحال ويعلمثن الخائفون ويقتنع أهل مكة بأن ما أتاهم به أبو سفيان يكون هو الأمان أو أن إعلان الرسول لأهل مكة أنهم

(١) الواقدي ٨٣٥/٢ - ٨٣٦

(٢) الواقدي ٨٣٦/٢

(٣) ابن سيد الناس، عيون الأثر ١٧٤/٢

(٤) الواقدي ٨٢٦/٢

طلقاء، قال ابن سيد الناس رايوا عن ابن اسحاق: «ولما ترك رسول الله مكة واطمان الناس، خرج حتى جاء البيت فطاف به سبعا على راحلته يستلم الركب بمحس في يده، فلما حف طوافه دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففتحت له فدخلها، فوجد بها حمامة من عيدان ومن حشب، فكسرها بيده ثم طرحها، ووقف على باب الكعبة فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سداثة البيت وسقاية الحاج. ألا وقيل الخطأ شبه العمد لسوط والعصى، ففيه الدية مغلفة مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها، ألا يا معشر قريش إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالإباء. الناس من آدم وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى..﴾ الآية ثم قال: يا معشر قريش ما ترون أبي فاعل فيكم، قالوا خيرا: أخ كريم وابن أخ كريم، ثم قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء»^(١).

وهذه كلمة تروع النفس حقاً وهي دليل على ما وهب الله رسوله من سمو النفس وسماحة الخلق، ولكن لها في هذا الظرف بالذات معنى آخر لو تفطن إليه الناس لزاد إعجابهم بمحمد صلوات الله عليه. ذلك أن قواعد الحرب في الجاهلية، أي قبل الإسلام في جزيرة العرب وخارجها كانت تجعل أهل أي بلد يُفتح في موضع الأسرى بيد القائد الفاتح ورجاله، فالقائد الروماني مثلاً كان إذا فتح بلداً أصبح البلد ملكه أو ملك أمة الرومان وكل من فيها أسرى، وعندما غزا الرومان مصر أو الشام أو آسية الصغرى أو بلاد اليونان أصبحت هذه البلاد كلها بما فيها ومن فيها ملكاً للدولة الرومانية، وفرصوا عليها إتاحة وسحروا أهلها لخدمة الرومان وأصبح الجندي الروماني سيداً وأصبح للحاكم الروماني حق السلب والنهب والقتل حتى يصدر القائد الأمر للجود

(١) ابن سيد الناس عيون الآثار: ١٧٨/٢

بالتوقف عن الهب، والرومان هنا أفضل من غيرهم لأنه كان لهم قانون، وأما
 الفرس والأشوريون والساليون فكانوا يتهون ويقتلون قدر ما استطاعوا، وحتى
 القبائل العربية كانت إذا أغارت إحداها على الأخرى أسرت من وقع في أيديها
 من حصومها، ويمسكون البلد رهينة بين أيديهم وأهلها أسرى، فلما فتح رسول
 الله مكة أراد تطبيقاً لشرع الإسلام وإنسانيته أن يقول لأهل مكة إنكم لستم أسرى
 ولا عبيد غالب، وبلدكم ليس ملكاً لي أو لأي واحد من قوادِي ورجالي. وهذا
 هو الذي أراد رسول الله أن يتفاداه عندما عزل سعد بن عبادَةَ عن حمل راية
 واحد من جيوش الفتح، عندما بلغه أنه قال اليوم يوم الملحمة اليوم نستحل
 الحرم، فقد حسب هذا الرجل رغم إسلامه أن الأمر هنا أمر فتح وغلب
 واستحلال حرمات، وهذا هو المعنى التاريخي لقول محمد عليه ألف صلاة
 وسلام لأهل مكة اذهبوا فانتم الطلقاء، أي أنه ليس غزواً ولا ملكاً ولا غلباً
 ولا سيادة غالب على مغلوب، إنما هو فتح أي فتح القلوب للإسلام، والآية
 القرآنية تقول «إذا جاء نصر الله والفتح» أي أن الإسلام ينتصر أولاً ثم لا تكون
 غلبة أو سيادة وإنما فتح للقلوب لينفذ إليها الإسلام، وهذا الفتح الإلهي لا
 يكون بين يوم وليلة فمن الناس من يفتح الله عليه ويهديه ساعة الفتح، ومن
 الناس من يحتاج إلى وقت حتى يناله الهدى، ومنهم من لا يهتدي أبداً، فكلّ وما
 قدر له وما كتب له عليه، ولكل إنسان وضع وتقين في شرع الله، فأما من اهتدى
 وأسلم راضياً مختاراً فهو أخ مسلم ومواطن في الأمة وأما من أراد مهلة فيمهله
 الرسول، ثم نحىء صورة براءة فيجعل المهلة للكافر الوثني أربعة أشهر وبعدها
 يجوز عليه القتل، أما الرجل من أهل الكتاب فعليه الجزية والطاعة حتى يهتدي
 إن أراد الله به الخير.

وقد طلق الرسول هذا المعنى الذي ذكرناه في الطليق والطلاق مع أكثر
 من واحد من لم يشأ أن يسلم عند الفتح، منهم سهيل بن عمرو بن عبد ود
 شيخ بني عامر بن لؤي الذي حاول أن يقود قريشاً في آخر محاولاتها للوقوف في

وجه الإسلام، وتصرف على النحو الخافي مع رسول الله ﷺ في محادثات الحديبية، وكان من الطبيعي أن يخاف هذا الرجل على نفسه خوفاً شديداً بعد الفتح وتوقع أن يعاقبه الرسول على ما بدا منه خاصة وأنه لم يسلم، ولم يكن الرجل بالضعيف أو المفاق ليعلم إسلاماً كاذباً فاحتفى، قال الواقدي على لسان سهيل: « وأرسلت إلى أبي عبدالله بن سهيل أن أطلب لي حواراً من محمد، وأني لا آمن أن أقتل، وجعلت أتذكر أثري عنه محمد وأصحابه، فليس أحد أسوأ الرأى مني، وإني لقيت رسول الله ﷺ يوم الحديبية بما لم يلقه أحد، وكنت الذي كاتبته، مع حضوري بدماً واحداً وكلما تحركت قرش كنت فيها، فذهب عبدالله بن سهيل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله تؤمنه فقال نعم، هو آمن بأمان الله، فليظهر! ثم قال رسول الله ﷺ لمن حوله: من لقي سهيل بن عمرو فلا يُشَدَّ النظر إليه، فليخرج، فلمعري إن سهيلاً له عقل وشرف، وما مثل سهيل جهل الإسلام، ولقد رأى ما كان بوضع فيه أنه لم يكن بنافع! فخرج عبدالله إلى أبيه فأخبره بمقالة رسول الله ﷺ فقال سهيل: كان والله براً صغيراً وكبيراً! فكان سهيل يقبل ويدبر ويخرج إلى حُنين مع رسول الله ﷺ وهو على شركه حتى أسلم بالجعرانة^(١) ».

ولقد ترك رسول الله ﷺ سهيلاً لنفسه، فإن شاء أسلم وإن لم يشأ فهذا مصيره، بل امتدحه وقال: إن سهيلاً له عقل وشرف وما مثل سهيل جهل الإسلام. وأثرت الكلمات في نفس الرجل، وأحسن أن من يقول مثل هذا الكلام لا بد أن يكون صادقاً وما دام صادقاً فهو نبي، وما دام نبياً فلا بد من الإيمان به، ومن هنا فإن سهيلاً عندما أسلم كان من أحسن الناس إسلاماً، وعندما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى وبدت على بعض القرشيين بوادر الشك والارتداد، قام هذا الرجل فيهم حطياً وقال: يا معشر قرش، لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد، والله إن هذا الدين ليمتد امتداد الشمس

(١) الواقدي، معاري ٢/ ٨٤٦ - ٨٤٧

والقمر من طلوعهما إلى غروبهما، وفي أيام عمر أقبل فوجد الناس يتطرون أدوارهم ليدخلوا على عمر، وعمر يبدأ بالمسلمين الأولين وأصحاب السابقة فقال أبو سفيان ما رأيت كالיום قط، إنه ليؤذن هؤلاء العبيد ونحن جلوس لا يلتفت إلينا! فقال لهم سهيل بن عمرو: أيها القوم، إني والله قد أرى ما في وجوهكم، فإن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم، دعي القوم ودعيتهم، فامرعوا وابطأتم، أما والله لآ ما سيقوكم به من الفضل أشد عليكم فوئاً من بآهم هذا الذي تتنافسون عليه! ثم قال أيها الناس، إن هؤلاء سبقوكم بما ترون، فلا سبيل والله إلى ما سبقوكم إليه، فانظروا هذا الجهاد فالزموه عسى الله أن يرزقكم الشهادة، ثم نهض، فقام، فلهق بالشام.

وهذه هي الغاية التي رمى إليها رسول الله ﷺ هدى من ربه عندما قال للقرشين: اذهبوا فأنتم الطلقاء أي اذهبوا فأنتم أحرار ولا إسار لي عليكم ولا بأس عليكم في أنفسكم وفي أموالكم، فلينظر كل منكم ما هو فاعل، أي أنه رد الناس إلى أنفسهم فالذين اهتدوا منهم مثل سهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل فقد كانوا من أمأظم الناس إسلاماً، وأما من أسلم على حرف بقيت في قلبه غلواء الجاهلية كما رأينا من كلام أبي سفيان، فلم يسعدوا بقلوبهم هذه الجافية قط، ومن هؤلاء القرشين الذين أسلموا عند الفتح، من ظل جاهلياً في تصرفه وطريقته في الكلام والعمل وإن أسلم وآمن فعلاً، ومثال هؤلاء حويطب بن عبد العزى وكان إلى حين الفتح من ألد أعداء الإسلام، ولكنه أسلم وآمن، قال المصعب الزبيري «وكان أحد من دفن عثمان بن عفان رحة الله عليه، وباع من معاوية داراً بالمدينة بأربعمين ألف دينار فاستشرف الناس لذلك (أي تعجبوا منه) فقال. وما أربعمون ألف دينار لرجل له أربعة عيال»^(١) ومثاله أو قريب منه عبدالله بن مخزومة فقد ظل على خلافته وكان له ابن يسمى نوفلاً بن مساحق بن عبدالله بن مخزومة، قال المصعب الزبيري «وكان من أشرف

(١) المصعب الزبيري، سب قريش، ص ٤٢٧

قريش، وكانت له ناحية من الوليد بن عبد الملك وكان الوليد يعجبه الحمام ويتحد له ويطيره، فادخل نوفل بن مساحق عليه وهو عند الحمام فقال له الوليد: إنني خصصتك هذا المدخل لأنني بك. فقال: يا أمير المؤمنين، إنك والله ما خصصتني ولكن حسستني إما هذه عورة، وليس مني يدخل على مثل هذه، فسيره إلى المدينة وغضب عليه وكان يلي المساعي «أي الصدقات» فأخذه بعض الأمراء بالحساب، فقال له: أين العثم؟ قال: اكلناها بالخبر وقال: فأين الأبل؟ قال حملنا عليها الرجال، قال وكان لا يعرف إلى الأمراء من المساعي شيئاً: يقسمها ويطعمها^(١)، فهذا رجل أسلم وظل جاهلياً وحرم بشاشة الإيمان فلم تمس قلبه قط.

ومن القرشيين من خاف على نفسه فهرب وأبعد في الحرب، ومن هؤلاء هبيرة بن أبي وهب وهو يومئذ زوج أم هاني بنت أبي طالب (أخت علي كرم الله وجهه)، فقد هرب مع عبدالله بن الزبير حتى أتيا نجران، ودخلا فيها حصناً من شدة الحوف وجعلوا يقولان إن قريشاً قد قتلنا وإن محمداً سائر بجيوشه إلى نجران، وبعث حسان بن ثابت إلى ابن الزبير يشعُر بخوفه به ورأى ابن الزبير الذي طالما هجا الإسلام ورسوله ألا مهرب له من أمر الله فأزمع العودة وعجب من أمره هبيرة بن أبي وهب، فما كان يحسبه يدخل الإسلام قط بعد الذي فعل وقال له: يا ليت أبي رافقت غيرك. والله ما ظننت أنك تتبع محمداً وعاد ابن الزبير وأسلم وأكرم الرسول مثواه، أما هبيرة فقد ظل على كفره حتى مات بنجران، وأما أم هاني امرأته فأسلمت عند الفتح وغريب من الأمر أن هذه السيدة الكريمة التي طالما آمن الرسول إليها واطمأن في بيتها بعد موت السيدة خديجة رضي الله عنها، وفي بيتها كان رسول الله ليلة أسري به ومع هذا فهي لم تسلم إلا بعد الفتح والله سبحانه يهدي من يشاء متى يشاء.

بل أسلمت هند بنت عتبة أليست هند هذه صاحبة الافاعيل بجثمان

حمزة هي روج أبي سفيان؟ فأكرمها الرسول وقل إسلامها.

أما عكرمة بن أبي جهل فقد هرب إلى البحر يريد أن يركب سفينة ليهرب من رسول الله، وكانت امرأته أم حكيم قد أسلمت فطلبت الأمان لزوجها من رسول الله ﷺ فأمنها فحررت في طلب زوجها وعدت به فأسلم ولقي من رسول الله كرامة عظيمة وبلغ من إكرام الرسول إياه حين أهدى عليه ليسلم أن قام إليه واعتنقه وأمر أصحابه ألا ينادوه بعكرمة بن أبي جهل، بل بعكرمة بن أبي الحكم وأمرهم ألا يسبوا أبا جهل وقال كلمة بليغة: فلا نسبوا أباه فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت! فلا عجب إن كان إسلام عكرمة عميقاً خالصاً حتى قال: يا رسول الله لا أدع مالا أنفقت عليك إلا أنفقت مثله في سبيل الله، وقد كان من أمراء جيوش أبي بكر في حرب الردة وخرج في بعض تلك الجيوش ومعه خباء عظيم وثمانية أفراس ورماح وعدة ظاهرة، فأتته إلى فليذا بخباء عكرمة، فسلم عليه أبو بكر وجزاه خيراً وعرض عليه المعونة فقال: لا حاجة لي فيها، معي ألف دينار فدعا له بخير، فسار إلى الشام واستشهد في أجنادين وقيل في اليرموك أو في يوم الصفرة، وحضر يوم فعل فكان من أعظم الناس بلاء، وأنه كان يركب الأسنة حتى جرح صدره ووجهه، فقيل له: اتق الله وارفق بنفسك فقال: كنت أجاهد بنفسي عن اللات والعزى، فأبذلتها فاستبقيها الآن عن الله ورسوله إلا والله أبداً، فلم يزود إلا إيماناً حتى قتل رحمه الله تعالى^(١).

وكان رسول الله ﷺ بعد أن دخل مكة فاتحاً يعامل الناس وكأنه إلى حاسب بيوتة حكيم يداوي النمس، فهو يحاطب كل واحد على قدر عقله وبالطريقة التي يهملها. ذكر الواقدي في خبر إسلام صموان بن أمية بن خلف بعد أن حكى قصة تأمين عمير بن وهب إياه وعوده من الشعية إلى مكة في

(١) اس الأثير أمد العانة ٧٠/٤ - ٧٢.

أما أنه قال: «يا محمد إن عميرين وهب جاءني برديك وزعم أنك دعوتني إلى القدوم عليك فإن رضيت أمراً وإلا سيرتني شهرين». قال: انزل أبا وهب: قال: لا والله حتى تبيّن لي، قال: بل تسير أربعة أشهر. فنزل صفوان، وخرج رسول الله قبل هوازن، وخرج معه صفوان وهو كافر وأرسل إليه يستعيّره سلاحه فأعاره سلاحه مائة درع فأداتها فقال طوعاً أم كرهاً؟ قال رسول الله ﷺ عارية مؤداة! فأعاره فأمره رسول الله ﷺ فحملها إلى حنين، فشهد حنبلاً والطائف، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى الجعرانة فبينما رسول الله ﷺ يسير في الغنائم ينظر إليها ومعه صفوان بن أمية، جعل صفوان ينظر إلى شعب «مساحة مسورة بسياج» ملء نعيماً وشاء ورعاء، فأدام إليه النظر، ورسول الله ﷺ يرمقه فقال: أبا وهب، يعجبك هذا الشعب؟ قال: نعم. قال: هو لك وما فيه، فقال صفوان عند ذلك: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأسلم مكانه^(١).

وهكذا عرف الرسول كيف يقنع هذا القرشي الجاهلي بمنطقه، فإن صفوان إلى ذلك الحين كان بعيداً عن أن يتأثر أو يقنع بالقرآن وإلا فقد كان دخل في الإسلام وإنما هو يقنع بأن محمداً نبي لأنه يجود دون تردد بدود نعم وشاء. ولقد أعطاه الرسول من غنائم حنين حتى قال: أعطاني رسول الله يوم حنين، فما زلت يعطيني حتى أنه لأحب الناس إلي. وقد حسن إسلام صفوان بن أمية بعد ذلك وعندما سمع أن الهجرة إلى رسول الله واجبة، تحمل على نفسه وهاجر إلى المدينة ووجد الرسول أن الهجرة تشق عليه، فقال له لا هجرة بعد الفتح ثم قال ارجع أبا وهب إلى أناطح مكة فقرأوا على سكانكم «مواصعكم»، فرجع إلى مكة وأقام بها حتى مات.

ومن صفوان هذا واثنين آخرين من مسلمي الفتح استقرص رسول الله مالاً بعد تمام الفتح ليعطي أهل الضعف والحاجة من المسلمين، وقد رأينا أن

(١) الواقدي، معاري ٢ / ٨٥٤ - ٨٥٥

الرسول استقرض سلاحاً من صفوان بن أمية عند الخروج إلى حنين، وفي ذلك قال الواقدي، بعد السنة استقرض رسول الله ﷺ من ثلاثة نفر من قريش: من صفوان بن أمية خمسين ألف درهم، فأقرضه، واستقرض من عدالة بن أبي ربيعة أربعين ألف درهم، واستقرض من حويطب بن عبد العزى أربعين ألف درهم فكانت ثلاثين ومائة ألف فقسمها رسول الله ﷺ بين أصحابه من أهل الضعف^(١) قال وفأخبرني رجل من بني كنانة: كانوا مع رسول الله ﷺ في الفتح إنه قسم فيهم دراهم، فصيب الرجل خمسين درهماً أو أقل أو أكثر، ومن هذا المال بعث إلى بني جذيمة.

وهذه الأخبار تدل على أن سرقة القرشيين المكين كانوا لا يزالون إلى الفتح في سعة من المال، بل كانوا أغنى من أنسرياء أهل المدينة، فلم نعلم أن رسول الله ﷺ استقرض مالا بهذا الحجم من سعد بن عباد أو غيره وكان سعد بن عباد من أكثر الناس بذلاً في سبيل الله، وقد روينا كثيراً من أمثلة عطائه في سبيل الله ومن سماحة يده ما جعل رسول الله ﷺ يقول: خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام، وسعد بن عباد كان غنياً نعلم أغنى الأنصار ومع ذلك فإنه لم يملك من المال السائل هذا المبلغ وهذا المال وما انصف به القرشيون من الجلود به، كان من الوسائل التي استعادت به قريش مركزها في الإسلام بعد أن كادت تفقده بعد فتح مكة. وقد رأينا مثلاً من ذلك فيها حكايته عن عكرمة بن أبي جهل بعد إسلامه.

حتى هَبَّار بن الأسود ووحشي قاتل حمزة عفا رسول الله ﷺ عنهما بعد إسلامهما فأما هَبَّار فهو الذي غَسَّ «تبع» بآنة النبي ﷺ زينب وضرب ظهرها بالرمح وكانت حبل فسقطت. فأهدر النبي ﷺ دمه، ومثل هذه الجريمة لا تنسى ولكن رسول الله ﷺ عفا عنها لصاحبها بالإسلام عندما دخل عليه هَبَّار وأسلم وكذلك كان الحال مع وحشي، وقد كان غضب النبي عليه شديداً لما صنع

(١) الواقدي، معاذي ٢/ ٨٦٣

بحمزة رضي الله عنه . ولكن رسول الله تناسى له جرمه وعافاه بالإسلام وعاش حتى يستشهد في قتال مسيلمة في اليمامة .

أما الذين قتلوا يوم الفتح بأمر الرسول ﷺ فكانوا الأراذل حقاً ممن عظمت حرائمهم دون أمل لهم في صلاح حال ، من أمثال ابن حطل الذي ارتد وقتل مسلماً غدرأ بعد إسلامه ، وحاريتيه فرّتنا^(١) وأرتب وكاننا فاسقتين وكاننا ننشدان الشعر وتغنياه في ذم الإسلام ورسوله ، وسارة مولاة عمرو بن هاشم وكانت مغنية نواحة في مكة ووفدت على الرسول في المدينة ، فلم يعنف معها وأعطاهما وقر بعير طعاماً ، فعادت إلى مكة واستمرت على ما هي عليه فقتلت عند الفتح ، وبقيس بن صبابه وكان امرأة خليعاً سكيراً وقد غشته نفسه بعد الفتح فخرج سكران يلذي بشعر فيه عدوان على الإسلام ، فانقض الناس عليه وهبروه بالسيوف وهذا الرجل كان قد اعتبط مسلماً غدرأ بعد أن أخذ الدية عن أخ له قتله المسلم خطأ .

وعندما رأى الرسول من اقبال القرشيين رجالاً ونساء على الإسلام عند الفتح ، طابت نفسه عن قومه ونسي لهم ما كانوا فعلوه به وبالمسلمين بل استمر في اهزازهم ، وذلك دليل أصالته وكرم نفسه . روى الواقدي بسنده أن رسول الله لما فتح مكة جلس عبد الرحمن بن صوف في مجلس فيه جماعة منهم سعد بن عباد ، فمر نسوة من قريش على هذا المجلس ، فقال سعد بن عباد : قد كان يذكر لنا عن نساء قريش حسن وجمال ، ما رأيناهن كذلك . فغضب عبد الرحمن حتى كاد أن يقع بسعد وأغلظ عليه ، ففر منه سعد حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، ماذا لقيت من عبد الرحمن فقال رسول الله ﷺ وماله ؟ فأجبه بما كان قال ، فغضب النبي ﷺ حتى كاد وجهه ليتوقد . ثم قال :

(١) اسمها في النصوص هكذا فرّتي وهي حارية رومة أو من بلاد الروم في العال والراح ان أصل اسمها Fortuna أي حظ أو نصيب وهو اسم للنساء معروف عند الروم

رأيتهم وقد أصيب نآباتهم وأبنائهم وإخوانهم وأزواجهم خير نساء ركب
الامل نساء قریش: أحاسن علی ولد، وأبدلن لزوج بما ملكت ید.

وبهذه المناسبة مذكر أشياء مما وقع لنا في الكتب من أوصاف رسول الله ﷺ في هذا المعنى، وهو يعينا على تصور هيئته ﷺ عند هذا الفتح العظيم المبارك. قال الواقدي: «وكان أبو الطفيل عامر بن واثلة يقول: رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة، فما أنسى شدة بياضه وسواد شعره وإن من الرجال لمن هو أطول منه، ومنهم من هو أقصر منه، يمشي ويمشون حوله قال: فقلت لامي: من هذا؟ فقالت رسول الله. قيل له ما ثيابه؟ قال: لا أدري».

قال: «وحدثني عبدالله بن يزيد عن ربيعة بن عباد قال: دخلنا بعد فتحها بأيام ننظر ونرتاد وأنا مع أبي، فنظرت إلى رسول الله ﷺ، فساعة رأيت عرفته وذكرت رؤيتي إياه بندي المجاز، وأبو هب يتبع أثره يومئذ، ورسول الله ﷺ يقول: لا حلف في الإسلام ولن يزيد حلف الجاهلية الإسلام إلا شدة. وكانت أم هانئ تحدث تقول: ما رأيت أحداً كان أحسن ثغراً من رسول الله ﷺ، وما رأيت بطن رسول الله ﷺ إلا ذكرت القراطيس المثنية بعضها على بعض تعني عكته^(١) وقد رأيت قد دخل يوم الفتح، قد ضمير رأسه بصفائر أربع^(٢)». ثم أضاف عن أم سلمة بعد السند: «ضمرت رأس النبي ﷺ بندي الحليفة أربع صفائر، فلم يحمله حتى فتح مكة ومقامه بمكة، حتى حين أراد أن يخرج إلى حنين حله وغسلت رأسه بسدر^(٣)».

ويهدي الله وحكمة نبيه وبعد نظره كان فتح مكة خيراً على الإسلام وعلى أهل مكة ممن عادوه وأبغضوه، وقد كانوا يحسون أن ذلك الفتح هو نهاية عزمهم ومعدتهم، فأراد الله سبحانه أن يكون ذلك بداية عز لهم جديد، ويتجلى

(١) العكر هو ما اطوى وتثنى من لحم الطل القاموس المحيط ١/٣٢٥

(٢) الواقدي، معاري ٢/٨٦٧-٨٦٨

(٣) الواقدي، معاري ٢/٨٦٨

لنا ذلك من خبر حليل المعنى يرويه الواقدي بمناسبة اعطاء رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة لعثمان من طلحة بن أبي طلحة من بني عبد الدار، قال: وكان رسول الله ﷺ قال لعثمان يوماً، وهو يدعو إلى الإسلام (أيام كان بمكة قبل الهجرة) ومع عثمان المفتاح: لعلك ستري هذا المفتاح بيدي أصغه حيث شئت! فقال عثمان: لقد هلكت إذا فريش وذلت؟ فقال رسول الله ﷺ بل عمرت وعُزَّتْ يومئذٍ^(١).

وهذا الخبر الذي أختتم به هذا الفصل هو بداية الفصل التالي من هذه الدراسة عن فريش والإسلام.

موقف كبار القرشيين من الإسلام بعد الفتح:

دخلت مكة نطاق أمة الإسلام، ولكن معظم أئمة الكفر فيها ظلوا على موقفهم من الإسلام زماناً، وبعضهم ظل على مكانه من الكفر إلى أن مات لأن الأمر عندهم كان معقداً، فهم نفروا من الإسلام لأنه هدد مكانتهم في مجتمعهم الجاهلي وألغى دورهم بالحرمين مما كانوا يتمتعون به من سيادة وسلطان وصداقة في المجتمع ورئاسة بين الناس، وكانوا يرون في جاهليتهم رخصة في العدوان على الضعفاء وتعدي الحدود، ونفروا من محمد لأنه كان إلى ما قبل النبوة واحداً من أتباعهم وأندادهم بل كان بعضهم ممن أوتي مالا، يرى أنه أحرز منه مكاناً، وقد وقع في خاطرهم أن النبوة التي ينادي بها محمد إنما هي حيلة منه لكي يعلو عليهم ويحلمهم من أتباعه، ومن هذا الطراز كان سهيل بن عمرو الذي أبى أن يكتب في وثيقة الحديبية أن محمداً رسول الله، وتمسك بأن يكون محمداً ابن عبد الله فحسب، وفي إحساسه أنه عندما يتمسك بذلك يتمسك بعلو كعبه على محمد وأن عبد الله بن عبد المطلب في رعمه وتصوره أقل من عمرو بن عبد شمس بن عبد ود وصفوان بن أمية لم ينس قط أنه ابن أمية من خلف من

(١) من المصدر، ٢ / ٨٣٧ - ٨٣٨

وهب سيد جمع وكان محمد يعرف ذلك ولكنه كان يميل لهم ويعرف أن فيهم من بعضهم جوانب من الخير سيزكيها الإسلام عندما يدخلون فيه ويتعرفون على فصائله ومرايه وشعائل رسول الله الكريم، ومعظمهم هداه الله وأسلم وصلح إسلامه وبعضهم أسلم شفتيه ولم يتعد الإسلام شفتيه، وسرى عجاج من هؤلاء جميعاً فيها يلي من الكلام.

وحجة أخرى ظل نفر من القرشيين متشبثين بها لأن عقولهم لم تستطع أن تتجاوزها، وهي القول بأن محمداً ساحر، وكل ما يأتي به فهو من عمل السحر، وما دام أولئك النفر قد تحصنوا في ذلك الكهف الأسود فلم يعد هناك شيء يستطيع اقناعهم بالخروج منه: فالقرآن سحر وحديث الرسول سحر وما يصل إليه الإسلام من توفيق، إنما هو من عمل السحر وقد ضاعت هذه الجماعية بلا أمل وإن نطقت بكلمة الإيمان، بالضغط كما ظل نفر من أهل المدينة متشبثين بعداوتهم للإسلام وإن تعوفوا بالنفاق، وحديث عبدالله بن أبي وعنه للإسلام وموته كافر القلب معروف، والجد بن قيس بن صخر بن خنساء بن سنان من بني عدي من بني سلمة كان أوغل من ابن أبي في الإنكار والعداوة وإن تعوذ بالإسلام، وقد أوجز ابن حزم كل الإيجاز في الكلام عنه ولم يزد على أن قال «تَكَلَّمَ فِيهِ». وقد روى الواقدي في المغازي من دلائل دَعَاةِ وَسُوءِ نيته الكثير.

وقد أطال رسول الله المكث بمكة عند الفتح، فقد قضى فيها خمس عشرة ليلة على قول، وعشرين على قول آخر. وقد استخدم هذه المدة خير استخدام، فأمر بتكسير كل الأصنام التي كانت في البيوت، وبعد تحطيم أصنام الكعبة أرسل سرايا لهدم أصنام الآلهة خارج مكة مثل العزى وسواع ومناة. وأتم القضاء على معارضة بني حديمة من كنانة، وكانوا ينزلون قريباً من معدن بني سليم بن منصور ومنارهم إلى الجنوب الشرقي من المدينة، وفي أثناء مقامه بمكة كان مصر حنين وهزيمة هوارن ثم حصار الطائف فلم يخرج إلى الحجرانة ويربح بها ليقسم الفيء

إلا بعد أن استقل ودعوا وزن ودخلوا الإسلام على يديه، فرد عليهم مسيهم، وفي مسيره إلى الحمرانة نهات عليه الأعراب يطلبون عطاءه لما راوا من كرمه وسحاه يده، يقول الواقدي، «وجعلت الأعراب في طريقه يسألونه وكثروا عليه حتى اضطروه إلى سَمرة فحطفت رداءه فنزعت عنه مثل شقة القمر (بريد حسده الكريم) موقف رسول الله ﷺ يقول أعطوني ردائي، أعطوني ردائي! لو كان عند هذه العصاة نغماً لقسمت بيسكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً». فردوا عليه رداءه.

وكانت معركة حنين أول اختبار لقريش بعد الإسلام، وعندنا أخبار عن بعض من أسلم من زعماء قريش ولكننا لا نعلم موقف البقية من الإسلام وكانت أمامهم على أي حال مهلة أربعة أشهر منحهم إياها الله سبحانه وتعالى (في أول سورة براءة) ليهديهم، وتوكيداً لخلق الرسول الكريم معهم وأمثلاً في أن يدخلوا الإسلام إذ أن لبعض من بقي على الكفر منهم أن يخرجوا مع المسلمين.

وقد أضفى رسول الله ﷺ فضله على زعماء كفار قريش وتغاضى لهم عن الكثير، ولم يكن بضير أمة الإسلام في شيء أن يتأخر بعض كبار القرشيين في دخول الإسلام ما داموا قد أصبحوا داخل نطاق الأمة، ولا يستطيعون أن يضرروها دون أن يتعرضوا للعقاب، ثم إن خروجهم على الأمة كان محدوداً بالمهلة التي أعطاهم إياها رسول الله ﷺ خاصة وأن غالبية أهل مكة من قريش وغيرها قد دخلوا الإسلام وصدقوا في إسلامهم.

وليس لدينا إلا النزر اليسير من المعلومات عن أولئك النفر من أهل العناد من القرشيين وما كان يجري بينهم من كلام يكشف عن حقيقة دخائلتهم، والاعلأ أنه كانت هناك أخبار كافية، ولكنها اندرست وأهمها أصحاب التاريخ إكراماً لأبناء أولئك المعاندين وأحفادهم، ومعظمهم كان قد حس إسلامه وأصبح ذا مكانة في الجماعة الإسلامية في العصر الراشدي وما تلاه من عصري بني أمية وبني العباس.

فلم يعد من المستحسن جرح إحساس الأولاد والأحفاد بترديد ما يسيء إلى إحساسهم، وقد رأينا أن ابن حزم مثلاً عندما جاء ذكر الحد من قيس بن خنساء بن سنان وكان من كبار المنافقين من بني عدي بن غنم من كعب بن سلمة من الخزرج اكتفى بأن قال «تكلم فيه» وذلك مراعاة لذكرى ابنه محمد ابن الجعد بن قيس وابن أخيه الطفيل بن مالك بن خنساء وهو يدري عقبى ومن شهداء الخندق ونفر آخر كثير من بني سلمة، كانوا بدرين وأولادهم وأحفادهم كانوا من كبار أهل التقوى والإيمان والعلم، ولرسول الله ﷺ في ذلك مذهب جميل فقد رأى أن الكثيرين من المسلمين يسبون أبا جهل بعد أن أسلم ابنه عكرمة وحسن إسلامه، فقال لهم ﷺ كلمة هي من جماع كلمه وحكمه وأدابه ﷺ «لا تسبوا الميت، فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يصل إلى الميت». ومن مذاهبه الجميلة في ذلك ما يرويه الواقدي من أن المسلمين اشتد حنقهم على الهوازنين والثقفين الذين كادوا أن يلحقوا بالمسلمين أشد الضرر في أول يوم من حنين، فلما تغير الحال وصارت الكرة للمسلمين حنقوا عليهم، فانقضوا عليهم «فقتلوه» حتى أسرع المسلمون في قتل الذرية فبلغ ذلك رسول الله ﷺ (وهو في المعركة بعد)، فقال ما بال أقوام بلغ بهم القتل حتى بلغ الذرية! ألا لا تقتل الذرية! ثلاثاً، قال أسيد بن حضير: يا رسول الله، أليس إنما هم أولاد المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ: «أوليس خياركم أولاد المشركين كل نسمة تولد على الفطرة حتى يُعرب عنها لسانها، فأبواها يهودانها أو نصرانها»^(١).

ولكن تفاصيل أخبار كبار القرشيين هؤلاء إذا كانت قد اغتفت عنا حقيقة ما كان يجري داخل نفوسهم، فإن لدينا من أخبار غيرهم ما يغني في هذا الموطن من رؤساء غطفان وبني مرة وقشير من غير القرشيين. فقد روى هنا الواقدي وما له من كنز حافل بالأخبار والحقائق خبراً يصور لنا السبب في الموقف العجيب الذي وقفه عينة بن حصن وصاحبه الأقرع بن حابس

(١) الواقدي، معاري ٣/ ٩٥

التمييز من الإسلام، فدخل فيه على حرف، ثم حاربه دون أن يخرج عن الإسلام صراحة ولم يرل على خلقه هذا حتى كان فتح مكة فدخل في جملة أصحاب محمد ﷺ ولكن قلبه ظل وثياً حتى صجره أبو بكر، فقد روى الواقدي في أحبار سرية الحناب التي قادها شير بن سعد على أرض غطفان سنة سبع للهجرة، والحناب في أرض غطفان من أدس عوالي سعد، فقد اشتدت وطأة بشر ابن سعد وأصحابه على فزارة من غطفان، (وعيينة فزاري) حتى أدركه الهلع فانكماً هارباً فإذا هو في ذلك إذ مر بمنازل بني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان، وكان شيخها الحارث بن عوف المري. وكان له حليفاً. قد دخل الإسلام فمر به عيينة ابن حصن يركض فقال له الحارث وأمالك بعد أن تبصر ما أنت عليه إن محمداً قد وطىء البلاد وأنت موضع في غير شيء، قال الحارث: فتجنيت عن سنن (طريق) خيل محمد حتى أراهم ولا يروني، فأقمت من حين زالت الشمس إلى الليل ما أرى أحداً ولا طلبوه إلا الرعب الذي دخله، قال (الحارث): فلقيت بعد ذلك فقال الحارث: فلقد أقمت في موضع حتى الليل ما رأيت من طلب، قال عيينة هو ذاك أني خفت الإسار، وكان أثري عند محمد ما تعلم في غير موطن، قال الحارث: أيها الرجل، قد رأيت ورأينا معك أمراً بينا في بني النضير ويوم الخندق وقرينة وقبل ذلك قيتقاع وفي خيبر أنهم كانوا أعز يهود الحجاز كله، بقرون لهم بالشجاعة والسخاء... ثم قد رأيت حيث نزل بهم (محمد) كيف ذهبت تلك النجدة وكيف أدبل عليهم فقال عيينة: هو والله ذاك ولكن نفسي لا تقرني فقال الحارث: فادخل مع محمداً قال: أصير تابعاً قد سبق قوم إليه فهم يُزرون عن جاء بعدهم يقولون: شهدنا بدمراً وغيرها! قال الحارث: وإنما هو ما ترى فلو تقدمنا إليه لكنا من علية أصحابه. قد بقي قومه (أهل مكة) على بعدهم منه في مواعده (يشير إلى صلح الحديبية) وهو موقع بهم وقعة ما وطىء له الأمر، قال عينة: أرى والله^(١)

والحديث بين الرجلين يصور لنا العقدة التي تكوّن في نفوس أولئك

(١) الوقي، معاري ٢، ٧٣٠

المعاندين من ناحية محمد ﷺ، فهم جميعاً مثل عينة حائفون منه يترقبون، والإيمان بعيد جداً من قلوبهم لأن الخوف من محمد والكره له والحسد لما وفق إليه، كان يأخذ عليهم طرق التفكير جميعاً فهذا الرجل - عينة - يركض بنفسه خائفاً من شبر من سعد وثلاثون فرساً معهم، ثم إنهم لم يكونوا في طلبة ولكنه يجري خوف الإسار، ومع أن الحارث بن عوف المري كان يرى الدخول في أمر محمد، إلا أنه كان يتردد ويتنظر ما يكون بينه وبين قريش (وكان ذلك قبل فتح مكة) ولعله كان يرجو أن تنتصر قريش على أمة الإسلام وبقيّة الخير - ولم نأت بها هنا لظولها وإنما نكتفي بالقول بأنهم جميعاً كانوا حتى فتح مكة يفكرون في السير إلى المدينة مجتمعين ومهاجمة الإسلام في عقر داره.

وعينة في كلامه يفصح عن نفس الشعور الذي كان يملأ نفوس زعماء المكين الذين أقاموا على الكفر، فهم يحسبون أنهم إذا دخلوا الإسلام كانوا تابعين لغيرهم، وهذا أمر لا يريدونه فهم ما يزالون سادة في مجتمعهم رغم تدهوره، ثم إنهم لا يريدون الدخول في الإسلام لأن أوان ذلك قد تأخر في ظنهم وأصبحت لهم في أمته مكانة وسابقة، فإذا دخل هؤلاء الرؤساء الإسلام لم يكن لهم مفر من أن يكونوا بعد هؤلاء السابقين وهو أمر لا تقبله نفوسهم.

وكان رسول الله ﷺ يدرك هذا من دواخل نفوسهم فقد منحه الله سبحانه من سعة الإدراك، ونفاذ البصيرة ما يبعث على العجب. وما نقول هذا لمجرد التمدح في المصطفى فما هو بحاجة إلى مدحنا أو مدح أحد من العالمين بعد أن امتدحه ربه سبحانه وتعالى، وهذه بينات الواقع التاريخي بين أيدينا أبلغ من كل مقال.

فانظر إلى تصرف الرسول الكريم مع كبار القرشيين الذين طاعوا لأمة الإسلام عند فتح مكة دون أن يدخلوا في الدين، فقد أذن لهم في أن يشتركوا في القتال مع المسلمين في حُنَيْن، وما كان قبل ذلك يسمح قط لعبير المسلم بأن يشترك في حيوش الإسلام. ولكنه فتح أمامهم بهذه الساحة الباب ليحضروا

مشاهد الإسلام إلى حبيب أهل السابقة إلى الإسلام لكي يريهم أن الباب لا زال مفتوحاً أمامهم، ليكسبوا شرف الاشتراك في الجهاد ومع أن هؤلاء القرشيين جميعاً - وكان عدد من اشترك منهم في حنين الفيل - حبسوا ظن الرسول وكانوا في مقدمة القارين للصدمة الأولى لأنهم لم يعرفوا بعد ضراوة جهاد المؤمنين، وكادوا يجرون الهزيمة على المسلمين، مع ذلك فإن رسول الله لم يغضب عليهم ولا وجه إليهم كلمة عتب. بل هذا هو يعطيهم بسخاء من مغانم حنين. وَحَبَسَ في نفس الوقت العطايا عن كبار الأنصار لا ضناً بها عليهم بل لكي يُشِيرَ أولئك المعاندين بأنهم قد امتازوا بشيء ويتخلصوا من شعور المهانة الذي كان يملأ نفوسهم، وشعور المهانة هذا، أوجد في نفوسهم شعوراً من النفور من الإسلام، فأراد الرسول أن يزيل هذا النفور، ولم يدرك الأنصار أول الأمر مغزى ما رمى إليه الرسول، وَوَجَدَ بعضهم في نفسه حتى يَبَيِّنَ لهم الرسول ما رمى إليه في خطابه المشهور إلى الأنصار، وهو متداول في أيدي الناس، وأوفى صورة له نجدها في مغازي الواقدي (٩٥٨/٣) ولا يمنعنا من إيرادها إلا الخوف من التظويل. ولكتنا نقف عند العبارة التي تعيننا في موقفنا هنا: وَوَجَدْتُمْ في أنفسكم يا معشر الأنصار في شيء من الدنيا تَأَلَّفَتْ به قوماً لِيُسَلِّمُوا وَوَكَلْتُمْ إلى إسلامكم. . . فهذا كان غرض رسول الله: استتلاف قلوب المشركين بالمال. فهم لا زالوا بعد جفاة تقنمهم الدنيا. أما الأنصار فلإيمانهم وحب رسول الله إياهم أغلَى عندهم من كل شيء. وقد بلغ رسول الله ما أراد من صواب القول والتصرف في هذه المناسبة، فقد رقق المال قلوب المشركين ومست كلمات الرسول قلوب الأنصار وخرج الإسلام ورسوله فائزين في الحالين.

والحق أن رسول الله ﷺ عندما كان يكرم صفوان بن أمية أو سهيل بن عمرو أو حُويطب بن عبد العزى وغيرهم من أئمة الكفر، كان يعرف أنهم سيدخلون الإسلام، بعضهم عن إيمان وبعضهم عن استسلام أو تسليم لأمر واقع ولا حيلة لهم في دفعه. وكان الرسول يرجو أن تمس شائسة الإيمان قلوبهم، وقد حدث هذا وخاصة مع رجل له حسب ومحمد مثل عكرمة بن أبي

جهل ، والإيمان فيما يقولون حسب ونسب، وعكرمة بن أبي جهل، رأس مخزوم بعد أبيه، أما صفوان بن أمية بن حلف فكان من حح وسهيل بن عمرو كان سيد بني عامر بن لؤي وكذلك كان حويطب بن عبد العزى من عامر بن لؤي فلا عجب أن أحداً من هؤلاء لم يحسن إسلامه كما حَسُنَ إسلام عكرمة بن أبي الحكم عمرو بن هشام وحياركم في الجاهلية حياركم في الإسلام، كما قال الرسول الصادق عليه السلام .

ولكن الرسول عندما كان يفض الطرف عن هَفَوات صفوان بن أمية وفعاله، لم يكن ينظر إليهم بل إلى قريش من ورائهم، فأولئك أفراد أما قريش فقبيلة رفيعة المكانة ولها قدرها. وغالبية قريش كانت قد دخلت الإسلام عن نية صادقة واعتزاز بأن رسول الله ﷺ من شجرة قريش ومن أبناء مكة. فالمرعاة هنا لم يكن يقصد منها في النهاية إلا قريش القبيلة، وكان لها في نفس النبي مكان أي مكان كما سنرى. وإكرام السادة القدامى ثم إسلامهم من شأنه أن يعطي إيمان بقية القرشيين بُعداً وعمقاً جديدين. وهذا كان له فيما بعد أثر حاسم، وقريش التي عاملها رسول الله ﷺ بهذه الإنسانية الإسلامية ستحمل عن جدارة لواء الإسلام، ففي قريش هذه أخلاق سيادة وتقاليده جاء وحسب وسؤدد، والجماعة الإسلامية في حاجة إلى رؤوس ورجال من هذا الطراز. وما كان شيء من ذلك كله يخاف على رسول الله، ولدينا خبر طريف يرويه الواقدي عن إسلام صفوان بن أمية يقول: «ويقال إنه (أي صفوان) طاف مع النبي ﷺ والنبي يتفحص الغنائم (غنائم هوازن) إذ مر بشعب (قطيع ماشية) مما أفاء الله عليه فيه غنم وابل ورعاؤها مملوءة فأعجب صفوان، وجعل ينظر إليه، فقال رسول الله ﷺ أعجبتك يا أبا وهب هذا الشعب؟ قال: نعم! قال هو لك وما فيه. فقال صفوان: أشهد ما طالت بهذا نفس أحد قط إلا سبي أشهد أنك رسول الله (١)» وهكذا اقتنع الرجل في لحظة بشيء من النعم أو

(١) الواقدي، معاري ٩٤٦/٣.

لُعَامَة من لُعَامَات الدنْيَا كَمَا قَالَ الرَّسُول ﷺ فِي خُطَابِهِ إِلَى الْأَنْصَارِ . وَلَمْ يَقْتَنِعْ هَذَا الرَّحْلَ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَشْرِينَ سَنَةً ! وَسَبَّحَانِ مَنْ خَلَقَ النَّاسَ مَعَادِنَ ! وَصَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى مَنْ أَحْرَى اللَّهُ الْإِيمَانَ وَالْحِكْمَةَ عَلَى عِزِّهِ وَعَقْلَهُ وَلِسَانِهِ .

وَمِثْلُ هَذَا يُقَالُ عَنْ صَبْرِ الرَّسُولِ عَلَى أَعْرَابِ أَجْلَافٍ مِثْلَ عُيَيْنَةَ مِنْ حَصْنِ وَالْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ وَعَامِرِ بْنِ عَوْفٍ النَّصْرِيِّ . فَقَدْ طَالَمَا صَبَرَ الرَّسُولُ عَلَى عُيَيْنَةَ وَأَغْضَى عَنْ أَمَاعِيلِهِ وَلَكِنَّهُ كَانَ يَنْظُرُ إِلَى مَنْ وَرَاءَهُ مِنْ غُطْفَانٍ . وَمِنْ وَرَاءِ الْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَنْظُرُ إِلَى ثَمِيمٍ ، وَمِنْ وَرَاءِ عَامِرِ بْنِ عَوْفٍ النَّصْرِيِّ كَانَ يَنْظُرُ إِلَى هَوَازِنَ ، وَمِنْ وَرَاءِ أَبِي جَحْجَحٍ الثَّقَفِيِّ كَانَ يَنْظُرُ إِلَى ثَقِيفٍ وَهَؤُلَاءِ الْأَفْرَادُ زَوَائِلُ ، أَمَّا الْقَبَائِلُ فَهِيَ الْبَقَايَاتُ . وَمِنْهَا وَمِنْ أَمثالِهَا وَمِنْ قُرَيْشٍ سَتَكُونُ النُّوَاةُ الْعَرَبِيَّةُ لِأَمَّةِ الْإِسْلَامِ . وَإِلَيْكَ حِكَايَةُ يَرْوِيهَا ابْنُ إِسْحَاقَ وَالْوَاقدِي قَالَا : إِنْ وَفَدَ هَوَازِنُ عِنْدَمَا أَتَى إِلَى الْجَبْرِثَانَةِ يُطْلَبُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِطْلَاقَ سَبِيهِمْ أَيْضَ الرَّسُولِ أَنْ قُرَيْشًا وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ سَيَسْتَجِيبُونَ إِلَى مَا كَانَ يَرْجُو مِنْ إِطْلَاقِ السَّبْيِ وَأَمَّا الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ فَقَدْ قَالَ : أَمَّا أَنَا وَبَنُو ثَمِيمٍ فَلَا ! وَقَالَ عُيَيْنَةُ ابْنُ حَصْنٍ : أَمَّا أَنَا وَفَزَارَةُ فَلَا ! وَقَالَ عَبَّاسُ بْنُ مُرْدَاسٍ السُّلَمِيُّ أَمَّا أَنَا وَبَنُو سُلَيْمٍ فَلَا ! قَالَتْ بَنُو سُلَيْمٍ : مَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ اللَّهِ فَقَالَ الْعَبَّاسُ : وَهْتُمُوهُ ! ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطِيبًا فِي النَّاسِ فَقَالَ لَهُمْ : إِنْ وَفَدَ هَوَازِنُ أَتَاهُ يُطْلَبُ إِطْلَاقُ السَّبْيِ فَخَيَّرَهُمُ الرَّسُولُ بَيْنَ الْغَنَائِمِ وَالسَّبْيِ قَالَ الْوَاقدِي : فَلَمْ يَعْدِلُوا بِالنِّسَاءِ وَالْأَبْنَاءِ شَيْئًا ، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْهُنَّ شَيْءٌ فَطَابَتْ نَفْسُهُ أَنْ يَرِدَهُ فَلْيُرْسِلْ إِلَيْهِ وَمَنْ لَيْسَ مِنْكُمْ وَتَحَسُّكَ بِحَقِّهِ فَلْيُرِدْ عَلَيْهِمْ ، وَلَيْكُنْ عَلَيْنَا (أَيُّ عَمَلِ الرَّسُولِ) سِتُّ فَرَائِضٍ مِنْ أَوَّلِ مَا يَفِيضُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ رَضِينَا وَاسْلَمْنَا ! وَهَكَذَا تَمَثَّلَ الزُّعَمَاءُ بِالْخَاهِلِيَّةِ وَتَحَسَّكَتِ الْجُمُوعُ بِالْإِسْلَامِ ! وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ يَشَأْ الرَّسُولُ أَنْ يَعْزِضَ عَلَيْهِمْ شَيْئًا إِلَّا بَعْدَ أَنْ جَعَلَ النَّاسَ جَمِيعًا عَلَى الْجَلِيَّةِ وَوَكَّلَهُمْ إِلَى نَفْسِهِمْ وَطَلَبَ إِلَى النَّاسِ أَنْ يَرُدُّوا السَّبْيَ طَوَاعِيَّةً ، وَلِكُلِّ مَنْ رَدَّ سِتُّ نَاقَاتٍ عَنْ كُلِّ سَبْيَةٍ أَطْلَقَهَا . وَهِيَ أَيْضًا أَكَدَّتِ الْجُمُوعُ أَنَّهَا تَخْتَارُ الْإِسْلَامَ . وَرَدَّتِ السِّيَابَا

دون مقابل ودخلت هوازن الإسلام عن حب وإيمان فكأها لم تهزم في حنين أو
أوطاس، وبما نصرها الله من عبده بعصل سبه ورسوله بعد الهزيمة. وأما مالك
ابن عوف البصري قائد هوازن فقد لقي من الرسول كرامة لم يكن ينتظرها، فإن
الرسول أوقف من أسر من أهله وما أخذ من ماله، وقال إنه يطلق سراحهم إذا
أسلم مالك، وقال إنه يرد عليه ماله ويعطيه مائة من الخيل. فلما عرف مالك ذلك
هرب من ملجأه في الطائف ووجد على الرسول ﷺ وأسلم واستعاد ماله وأهله
وتولى مغازاة ثقيف، ونهب سرحهم فيغنم ما يستطيع ويرسل خمس مغنمه إلى
رسول الله: مرة مائة، ومرة ألفاً. وقد استاق لهم ألفي شاة في غزاة واحدة، فكان
عمل مالك بن عوف هذا من أكد الأسباب في إسلام ثقيف والطائف فهم كانوا
يعتصمون من أمة الإسلام بقريش من ناحية وبعض القبائل ممن كان على رأيهم
من هوازن وبعض بني سليم بن منصور من ناحية أخرى. فهذه مكة قد دخلت
الإسلام وانتهت مقاومة قريش، وما هي هوازن ومن لف لفها قد دخلوا الإسلام
وناصبوا ثقيفاً العداء فلم تستطع الصبر على هذه الحال، ولم يبق لها من الإسلام
والاستسلام مندوحة.

وكان عروة بن مسعود شيخ ثقيف أسرع أهل قبيلة إلى إدراك الحقيقة
وكان بطبعه رجلاً مبالاً إلى الدين، وقد قال فيه رسول الله ﷺ عندما أهل عليه
في قضية الحديبية: هذا رجل يتأله وكان رئيس الأحلاف من ثقيف، فلما رفع
رسول الله الحصار عن الطائف ومضى إلى الجعرانة خرج عروة بن مسعود
وذهب إلى اليمن ليتعلم صنع العرادات والمنجنقات وأدوات حرب الحصار،
فلما عاد وسمع عن صنع رسول الله ﷺ مع هوازن وكفار مكة، وقع الإسلام
في قلبه فخرج إلى رسول الله ﷺ، واستأذن الرسول في أن يعود إلى الطائف
ليدعو أهله للإسلام، وكان الرسول يعرف أن وقت الهدى للثقيين لم يكن قد
حل بعد، فقد كان تعلقهم بربتهم اللات شديداً وكان خوفهم من الإسلام قد
زادهم استمساكاً بها، وحسوا أنهم إذا فرطوا في ذلك ضاعوا، فلما أتاهم عروة

بالإسلام وقال لهم في كلام كثير: فما حملني على الإسلام أني رأيت أمراً لا يذهب عنه داهب، فاقبلوا نصحي ولا تستعصوبوا الله ما وقد وافد على قوم بمثل ما وفدت به عليكم! فانهموه واستعصوه وقتلوه، فما راعهم بعد ذلك إلا ومالك بن عوف النصري شيخ هوارن ينحى عليهم بالمغازاة والنهب ووجدوا أنفسهم في أصيق من سم الحياط. وكان أبو مُلَيْح بن عروة وابن أخيه قارب بن الأسود قد عضبا لمقتل عروة بن مسعود الثقفي فلحقا بمحمد ﷺ واسلما ثم لم يلبث رجال الأحلاف ورجال عبد ياليل أن وجدوا ألا مهرب لهم من أمر الله، فصار منهم وفد إلى رسول الله وأسلموا ودخلت ثقيف في أمة الإسلام وكان ذلك في عام ٩ للهجرة وهو عام الوفود، عام إسلام بقية شبه الجزيرة.

وكان رسول الله ﷺ قد أقام على مكة قبل مغادرته إياها رجلاً من بني عبد شمس هو عتاب بن أسيد وكان اختياراً موقفاً لأن عتاباً كان من ذؤابة آل عبد شمس، فلا يقال إنه جعل على مكة رجلاً من بني هاشم. وكان عتاب قد أسلم عند الفتح، فلا فضل له على أحد من مسلمي الفتح فلا يخشى المكيون أن يمتن عليهم بأنه من أهل السابقة والصدارة في الإسلام. ورزقه الرسول عن عمله درهمين في اليوم وقد سعد بها الرجل وقال: فلا أشبع الله بطناً لا يشبعه كل يوم درهمان! ولم يكن الأمر في هذه المرحلة من تطور أمة الإسلام أمر ولاية ورياسة، وإنما هو إشعار لأهل مكة بأنهم قد صاروا جزءاً من أمة الإسلام، ولهذا لم يعلق أحد من القرشيين على ذلك بكلمة وظل عتاب على أمره حتى توفي يوم توفي أبو بكر الصديق رضي الله عنه. ولما كان عتاب حديث العهد بالإسلام فقد أقام الرسول معه أبا موسى الأشعري ليعلم الناس الدين.

وكان رسول الله يدعو أهل الإسلام إلى الهجرة إلى دار الهجرة، فهاجر من أهل مكة إلى المدينة بشر كثير. ولكن نفرًا من كبار المكين استحقوا أن يقيموا بمكة وصعبت عليهم الهجرة، فأذن لهم رسول الله في ذلك ومن هؤلاء صعوان بن أمية وكان قد حضر مع رسول الله ﷺ معركة حنين وهو على دية.

لأن رسول الله أمهله مدة أربعة أشهر، وكان في هذه التوفعة أبو سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو وغيرهما من أئمة الكفر، ولم يكن قد أسلم منهم غير أبي سفيان، وقد روى الواقدي خيراً يسم عن طبيعة إسلام أولئك العشر في تلك المرحلة الأولى من حياتهم مع الإسلام قال: «فلما كانت الهزيمة حيث كانت (يريد أول معركة حنين) والدائرة على المسلمين فتكلموا بما في أنفسهم من الكفر والضغنى والغش. قال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر! قال: يقول رجل من أسلم يقال له أبا مقيت: أما والله لولا أني سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن قتلك لقتلتك! وقال: صرخ كلدة بن الحنبل وهو كلدة بن الحنبل أخو صفوان لأمه، أسود من سودان مكة: الا بطل السحر اليوم! فقال صفوان: اسكت فض الله فاك، لأن يربني رب من قريش أحب إلي من أن يربني رب من هوازن قال: وقال سهيل بن عمرو: لا يجنرهما محمد وأصحابه: قال يقول له عكرمة هذا ليس بقول وإنما الأمر بيد الله وليس إلى محمد من الأمر شيء. إن أدبل عليه اليوم فإن له العاقبة غداً. قال: يقول سهيل: إن عهدك بخلافه لحدث! قال: يا أبا يزيد: إنا كنا والله نوضع في غير شيء، وعقولنا عقولنا نعبد الحجر لا ينفع ولا يضر!

فهذا كلام ناس كانوا إلى ذلك الحين بعيدين جداً عن الإسلام والإيمان، وربما كان أقربهم إلى الإسلام عكرمة. فهذا أسلم لله ولم يسلم بعد لمحمد، وقد فقد ثقته في الأحجار لأنها لا تنفع ولا تضر ونقل الثقة إلى الله فهو الخائف الذي ينفع ويضر، ومحمد عنده ليس له من الأمر شيء. وبعد قليل سيريد الله بعكرمة مزيداً من الخير، فيرى أن محمداً أعظم مما قدر، ولا يزال الأمر به حتى إذا أصيب في الحاديين وحصره الموت نظر إلى أبي عبيدة وهو يجود بنفسه شهيداً، ويقول البيست هذه ميتة يرعى عنها رسول الله! وأما أبو سفيان فقد كان لا يزال حاقداً على محمد ﷺ يتعنى قلبه أن يتشمت فيه، ومثله في ذلك صفوان بن

أمية بن حلف وأما كلدة بن الحسل أخو صفوان لأمه، فكان متعلقاً بعد حكاية السحر وهو يحس أن محمداً ﷺ قد انهزم وظل سحره، فأكدته الله بعد ذلك بنصر محمد النصر المؤزر بقية اليوم. ولا تدري ماذا قال بعد.

ورغم ذلك كله فقد حرص رسول الله على الحماط على قريش ما أمكنه ذلك، فبعد فتح مكة يؤثر عنه أنه قال: «لَا تُعْرَى قريش بعد اليوم إلى يوم القيامة»^(١).

وكان رسول الله ﷺ يعلم أن أئمة الكفر عندهم مال فلم يسه، ولما كان قد منع أصحابه من أن يمسوا شيئاً من أموال أهل مكة. وكان فيهم الكثير من الضعفاء أي الفقراء، فاستلف أو استقرض ﷺ لهم مالاً من سراة قريش. استقرض من صفوان بن أمية ٥٠,٠٠٠ درهم فأقرضه، ومن عبد الله بن أبي ربيعة ٤٠,٠٠٠ درهم، ومن حويطب بن عبد العزى ٤٠,٠٠٠ درهم. فكانت (جملة ما استسلف) ١٣٠,٠٠٠ درهم فقسّمها ﷺ بين أصحابه من أهل الضعف^(٢) وردها بعد ذلك. وقبل أن يخرج إلى حنين كان صفوان بن أمية قد استأذنه وطلب منه أن يمهله حتى يدخل الإسلام، فأمهله أربعة أشهر، وعندما أزمع الخروج إلى حنين خرج معه صفوان وهو كافر وأرسل إليه يستعيره سلاحاً، فأعاره سلاحاً: مائة درع بأداتها فقال: طوعاً أو كرهاً؟ فقال رسول الله ﷺ إعارية مؤداة^(٣)، فأعاره فأمره ﷺ فحملها إلى حنين فشهد حنيناً والطائف، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى الجمرانة^(٤)، ولنلاحظ هنا أن صفوان كان عدواً مغلوباً مستائماً، وكل قوانين الحرب في الدنيا إلى يومنا هذا تجعل سلاح المغلوب ملكاً للغالب، وأن الأمان في هذه الحالة لا يشمل السلاح،

(١) الخبر رواه الواقدي، معاري ٨٦٢/٢ والتعليق عن حديث من الواقدي

(٢) الواقدي، معاري ٨٦٣/٢ وأهل الضعف أو الضعفاء هم الفقراء

(٣) الواقدي، معاري ٨٥٤/٢

وكان من حق رسول الله ﷺ - بكل مقياس - أن يأخذ هذا الصلاح للمسلمين بل كان لا بد أن يأخذه إذ كيف يجوز لرجل من غُلّوا واستسلموا من الكفار، - الدين ظلوا على كمرهم - أن يملكوا سلاحاً قد يستخدمونه ضد المسلمين؟ ولكن كرم الرسول تجاور ذلك أيضاً رغبة منه في الحفاظ على كرامة القرشيين، وقد أثبتت الأيام أنه على حق. فصمواً هذا عندما تقوم حركة الردة يقوم في أهل مكة مقاماً عظيماً ويطلب إليهم أن يطلوا مع الأمة والجماعة، فطلوا إلى جاس أبي بكر. وعكرمة بن أبي جهل يخرج لحرب الردة وينفق على نفسه ورجاله من ماله، ويسأله أبو بكر إن كان يريد عوناً فيقول إنه لا حاجة به إلى عون، فقد جهز نفسه بماله ومعه فوق ذلك ألفا دينار لنفقاته وهذا كله لأن رسول الله ﷺ احتفظ لهؤلاء الرجال بشرفهم وكرامتهم، فدخلوا الإسلام كرماء شرفاء وثبتوا معه شرفاء كرماء. فتصور لو أن رسول الله لم يكن هذا من فعله فكيف كان ينتظر الكرامة والشهامة والشرف من قوم أذل نفوسهم وكسر شرفهم؟

رَسُولُ اللَّهِ وَقُرَيْشُ :

وطبيعي أن يظل رسول الله ﷺ يحب قومه قريشاً، فهم آله ولا يتنكر الكريم لأهله قط. وإذا كان قد حاربهم فللدين وعلى الدين، وعندما انتصر عليهم وطاعوا للدين بنى الحب في نفسه فهو قريشي ولدينا دلائل على هذه القرشية الكريمة بلا عصب وإنما هو اعتزاز الرجل الشريف بأهله الأشراف، وهذه مسألة لا وجود فيها للعصب أو العصبية وإنما هي مظهر لكرامة الإنسان عند الرجل الكريم.

روى الواقدي مسنده قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة جلس عبد الرحمن ابن عوف في مجلس فيه جماعة، منهم سعد بن عباد، فمر نسوة من قريش على ذلك المجلس، فقال سعد بن عباد: قد كان يُذكر لنا عن نساء قريش حسن وجمال، وما رأيناهاً كذلك، قال فعضب عبد الرحمن بن عوف حتى كاد أن يقع بسعد وأغلظ له، ففر منه سعد حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول

الله! ماذا لقيتُ من عبد الرحمن! فقال رسول الله ﷺ: وماله؟ فأخبره بما كان قال: فغضب رسول الله ﷺ حتى كان وجهه لينوقد، ثم قال: رأيتُهم وقد اجتمعوا سائرين وأسانهم وأخوانهم وأزواجهم. حير ساء ركبي الأسل ساء قريش! أحنهم على ولد وأندهم لزوج بما ملكت يد^(١)

وليس أدل على ما كان عليه رسول الله ﷺ من رأي كريم في قريش من وصاته لعناب بن أسيد عندما ولاه على مكة، فقد خلف معه معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري يعلمان الناس القرآن والفقه في الدين، وقال له: «أتدري على من استعملتك؟ قال: الله ورسوله أعلم! قال: استعملتك على أهل الله، يريد أهل بيت الله، وفي ذلك من التكريم لقريش ما فيه.

ومن دلائل الذكاء المفرط عند رسول الله ﷺ أن قال بعد ذلك يوصي عتاباً: «بلغ عني أربعاً: لا يصلح شرطان في بيع، ولا بيع وسلف، ولا بيع ما لم يضمن، ولا تأكل ربح ما ليس عندك^(٢)»، وقد اهتم رسول الله ﷺ بهذه التوصيات من المعاملات لأن عتاباً تولى بلداً أهله تجار، ومن ثم فقد رسم له منهجاً في تنظيم البيوع على أساس الإسلام، فقد كانت الأمور التي حذره رسول الله ﷺ منها من أساليب القرشيين في البيوع في الجاهلية وكلها أساليب تؤدي إلى الربح غير الحلال، وهذه أنواع من البيوع والتعامل في المال يعرفها فقهاؤنا ويعرفون حكم الإسلام فيها وعلّة ذلك الحكم، والذي يهمنا هنا هو أن الرسول يعرف أن القرشيين تجار وأن تجارتهم قد أصابها ضرر، وأنه لا بد من تشجيعهم لكي يعودوا إلى تجارتهم حتى لا يحتجوا، ولكنه أراد لهم أن يتاجروا ويتابعوا على حكم الإسلام حتى لا يقوموا في الجاهلية مرة أخرى.

وهذا العطف كله تابع من إنسانية محمد ﷺ فلم يكن رفقه قاصراً على قريش بل على أصحابه أجمعين، فقد سار ﷺ إلى الجبيرة بعد أن رفع الحصار

(١) الواقدي، معاري ٨٦٧/٢

(٢) الواقدي، معاري ٩٥٩/٣

عن الطائف والى جواره أبو رُهم الغفاري «وفي رجله نعلان له عليطتان، اد رحمت ناقة ناقة رسول الله ﷺ ويقع حرف نعله على ساقه فأوجعه، فقال رسول الله ﷺ أوجعتني، أخر رجلك! وفرع رجله بالسوط، قال (أورهم) فأخذني من أمري ما تقدم وما تأخر» ووصل الرسول الى الجيمنة وانصرف أبو رُهم الى شانه وخاف أن يعتب عليه رسول الله فخرج يرمى غنم المسلمين، فادا بمن يقول له طلبك رسول الله! فذهب اليه الرجل وهو خائف يترقب، فقال له الرسول. «انك أوجعتني برجلك ففرعتك بالسوط، فخذ هذه الغنم عوضاً من ضربتي، قال أبو رهم: فرضاه عني كان أحب الى من الدنيا وما فيها»^(١).

ومثله حدث لأبي خذرد الأسلمي مع رسول الله: فقد زحم للرسول في المراكبة، فدفع الرسول رجله يمحجن. ثم روى الرسول الامر في الليل فبعث الى أبي خذرد يسترضيه عن دفعه اياه بالمحجن وعوضه بشمانين شاه حقائقة أي كثيرة الصوف، ومثل ذلك وقع لأبي زرعة الجهني عما رواه الواقدي وأهل السير^(٢).

وكانت هذه وأشباهها مظاهر من ذلك الأدب المحمدي الرفيع والرفق الذي يشمل هوازن كلها، وثقيفا كلها ويألم لضربة أو دفعة بمحجن أصاب بها أحداً من أصحابه، وهذه كلها شمائل محمدية لو وعهاها حكام الاسلام لما كان في الدنيا مثلهم حكام! لظلت أمة الاسلام في مثل العزة التي كانت عليها في خلال حياة محمد، ولو كان هذا المثال المحمدي قائماً في خلد معاوية لما أمر بقتل حجر بن عدي عقاباً له على الشهامة وانكاره سب رجل من أكرم الناس على الله ورسول الله هو علي بن أبي طالب؟ وهل دار شيء من ذلك بخلد أبي العباس السفاح - وهو يزعم أنه ابن عم رسول الله ﷺ وهو يأمر بقتل أبي سلمة الخلال عقاباً له على الاحلاص لآل محمد وهو الذي كان أبو العباس نفسه يسميه وزير ال محمد؟

لا هذا كان ولا ذاك، انما هي النفوس ارتدت الى الجهالة والصائر عشيت

(١) الواقدي، معاري ٩٣٩/٣

(٢) نفس المصدر ٩٤٠-٩٤١/٣

فلم تر النور المحمدي وتحجرت القلوب وحق عليها الخري والعذاب ولو غيروا ما بأنفسهم لتعير تاريخ الإسلام وصدق الله سبحانه : لا يعير الله ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴿ ولو أن المسلمين ذكروا المثل المحمدي في كل عمل يعملونه ولو أنهم لمروا غرز رسول الله فعلاً لكانوا أمد الدهر أعز الناس وأكرم الناس وأعلم وأقوى الناس .

ضعف مركز القرشيتين في الأمة عقب فتح مكة :

الآية الخامسة من سورة القصص (٢٨) من مشهورات آيات الكتاب الكريم التي تجري بها ألسنة الناس في كل حين، لأنها من آيات القدرة الإلهية ذات الصدى والرجع على مدى التاريخ : ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ﴾ القصص ٢٨ / ٥ وما من جماعة مستضعفة نظر الله إليها ونصرها على الجباة إلا جعلها بنصره على رأس الناس ومن أظهر الأمثلة على ذلك في تاريخنا أن جماعة الموحدين أصحاب الدولة المشهورة في المغرب الإسلامي كتب تاريخ نصرها بقلم مؤرخها عبد الملك بن صاحب الصلاة وجعل عنوان التاريخ : «المن بالإمامة على المستضعفين في الأرض» .

ولا بد أن هذه الآية ترددت في قلوب المؤمنين وهم عائدون إلى المدينة بعد أن نصرهم الله نصره المؤزر وجعلهم أئمةً وجعلهم الوارثين، ولكن زعماء قريش الذين أسلم بعضهم واستسلم بعضهم الآخر كانوا جثً بعيدين عن هذه المعاني . ورغم حرص الرسول صلوات الله عليه على جبر ما انكسر من عزة نفوسهم لم يكن في خاطر معظمهم إلا أنه نصر الأوس والخزرج على قريش أو نصر اليمن على مضر فقد كان إحساس أولئك الناس بالعصية القبلية كان قوياً جداً .

وفي موقعة حبر تأكد هذا الشعور بالانقلاب في نفوس القرشيين

وكذلك تأكد الشعور بالعلب والبصر في معوس بعض الأوس والخرج وقد اشترك في حنين ألمان من قريش فيهم سرائهم وعلى غير دين ركساً ومشاة بطرون لمن تكون الدائرة فيصسون من العنائم ولا يكرهون أن تكون الصدمة - أي المصيبة - لمحمد ﷺ وأصحابه . وخرج أبو سفيان من حرب في أثر العسكر، كلما مر بترس ساقط أو رمح أو مناع من مناع النبي ﷺ حمله، والأرلام في كنانته حتى أوفر جملة . وخرج صفوان ولم يسلم وهو في المدة التي جعل له رسول الله ﷺ فاضطرب خلف الناس ومعه حكيم بن حزم وحويطب بن عبد العزى، وسهيل ابن عمرو وأبو سفيان بن حرب والحارث بن هشام، وعبد الله بن أبي ربيعة، ينتظرون لمن تكون الدائرة، واضطربوا خلف الناس والناس يقتتلون فمر به (صفوان) رجل فقال : أبشر أبا وهب ! هزم محمد وأصحابه ! فقال له صفوان : إن رباً من قريش أحب إلي من رب من هوازن إن كنت مربوباً^(١) . والرب هنا هو السيد .

وكان العهد بقريش والقتال قد بعد وأين هم من رجال أمة المدينة الذين قضوا السنوات العشر الماضية في ميادين القتال حتى كسبوا دربه في القتال النظامي، وموقعة حنين هي الثالثة والسبعون في سجل مغازي رسول الله، فليس غريباً أن يكون المسلمون يوم هوازن أصحاب خبرة وتجربة مكنتهم من احتمال صدمة هوازن التي هبت اعصاراً، ثم عادوا فتجمعوا وحلوا على عدوهم ففازوا بنصر لا كفاء له وأكبر دليل عليه أن كل الذين قتلوا من المسلمين في هذه المعركة الهائلة التي بدأت في خوانق وادي حنين وانتهت في بساطت سهل أوطاس كانوا أربعة، فقد ذكرهم الواقدي بالاسم . وفي حنين استمر القتل في بني نصر والرباب - من هوازن - وصاح صائح : «يا رسول الله هلكت بنو رباب، ويقول رسول الله ﷺ اللهم أحرص مصيبتهم»^(٢) .

(١) الواقدي، معاري ٣/ ٨٩٤ - ٨٩٥

(٢) الواقدي، معاري ٣/ ٩١٦

والذي حدث في حين أنه كان قتال جيش نظامي مع جيش قبلي من الأعراب، فان أمة المدينة كانت كلها حياً من المواطنين والراعات من المواطنين ولا اعماء من مرض القتال الا للصغير غير القادر على حمل السلاح والمريض البادي المرض، وعروة توك التي وقعت بعد حين كانت الاختار الحاسم وسورة براءة التي برلت بعد توك مباشرة، وكانت كذلك آخر ما نزل من القرآن حسنت الموضوع: لا تخلف عن القتال الا بعدد يقبله الله ورسوله، فقد كانت أمة الاسلام في أيام عزوة نبوك قد قضت الأعوام العشرة السابقة عليها في ميدان القتال واكتسبت خبرة وتجربة وأصبحت أمة مقاتلة أو ما يسمى في مصطلحنا المعاصر جماعة مناضلة Militant group ومحمد صلوات الله عليه علم أفراد الأمة النظام والطاعة ودرهم على الحرب النظامية، واستمع لما يقوله الواقدي عن موقعة حين تفهم حقيقة الوضع. قال: «ولما كان من الليل، عمد مالك بن عوف الى أصحابه فعبأهم في وادي حنين وهو واد أجوف ذو شعاب ومضائق. وفرق الناس فيه، وأوعز الى الناس أن يحملوا على محمد وأصحابه حملة واحدة. وعبأ رسول الله ﷺ أصحابه وصفهم صفوفاً في السحر ووضع الألوية والرايات في أهلها مع المهاجرين لواء يحمله علي عليه السلام، وراية يحملها سعد بن أبي وقاص، وراية يحملها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفي الأنصار رايات، مع الخزرج لواء يحمله الحباب بن المنذر، ويقال لواء الخزرج الأكبر مع سعد بن عباد، ولواء الأوس مع أسيد بن حضير وفي كل بطن من الأوس والخزرج لسواء وراية»^(١). . . فهذا اذن جيش فيه قواد، وتحت القواد قواد ولكنه ليس جيشاً محترفاً انها أمة جيش أو جيش أمة، فالذي يحمل اللواء قائد وهو بمثابة الضابط العظيم الذي لا تفل له هذه الدرجة إلا أثناء المعركة، وبعدها يعود مواطناً عادياً. والجيش على هذه الصورة وحدة عسكرية ذات قيادة واحدة ووجهة واحدة ونظام محكم، أما مالك بن عوف النصري فمبني قبلي يقود قومه على أسلوب

(١) الواقدي، معاذي ٢/٨٩٥

الجاهليين يخشونهم في بطن الوادي ويوصيهم بأن يكروا على المسلمين كرة رجل واحد وقد كروا فعلاً ورعرعوا بعض الصفوف عند الصدمة الأولى ولكن الدين زعزعوا كانوا حيل بني سليم من مصور فولوا وتنعهم أهل مكة وبعض الناس منهزمين لا يلوون على شيء . وقال أنس ، فسمعت رسول الله ﷺ والنفت عن يمينه ويساره والناس منهزمون وهو يقول : يا أنصار الله وأنصار رسوله ! أباعد الله ورسوله صابراً ! قال ثم تقدم بحريته أمام الناس فوالذي بعثه بالحق ، ما ضربنا بسيف ولا طعنأ برمح حتى هزمهم الله ثم رجع النبي ﷺ الى العسكر وأمر أن يُقتل من قُدر عليه منهم وجعلت هوازن تُؤلي وثاب من انهزم من المسلمين^(١) .

والذي حدث أن هوازن هجمت في عنف ولكن دون وزن عام اما المسلمون فكانوا حيشاً نظامياً ، ولكن الجانب الذي كان فيه بنو سليم وأهل مكة كان قبلياً جاهلياً فولوا منهزمين وفي هزيمتهم كادوا يلحقون الفرع في قلوب المسلمين ، فقلت منهم جماعة في إثر المنهزمين ولكن رسول الله ثبت ، ونادى رجال جيشه المؤمنين النظاميين فاتتبهاوا إليه وعادوا . وكان رسول الله يعرف رجاله ، فأمر العباس بن عبد المطلب بأن ينادي : يا معشر الأنصار يا أصحاب السُّمرة ، قال فاقبلوا كأنهم الإبل إذا حنَّت الى أولادها يقولون : يا لبيك يا لبيك فيذهب الرجل منهم فيثني بعيره فلا يقدر على ذلك فيأخذ درعه فيقدمها في عنقه ، ويأخذ ترسه ودرعه ثم يقتحم عن بعيره فيخطي سبيله في الناس ، ويؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ ٥٩٣ (٢) .

وهكذا عاد جيش المسلمين النظاميين ففَرَّصَ رجاله وثبثوا للعدو ، ولم يلبثوا أن مزقوه إرباً . وهذا هو المنتظر عند لقاء قوة من البدو وغير النظاميين لا يجمعهم الا العصب ، وحيش من المؤمنين المدربين النظاميين والمهم عندنا أن قرى الكفر التي أسلم منها من أسلم وبقي على شركه من بقي قد تفرقت بدداً ولم

(١) الواقدي ، معاري ٣ / ٨٩٧ - ٨٩٨

(٢) الواقدي ، معاري ٣ / ٨٩٨ - ٨٩٩

يعد منها إلى الميدان أحد، وبذلك كانت نهاية قريش الجاهلية، فقد عرف رجالها أين يكونون من أهل الإسلام وقد ذكرنا أن نفرًا من زعمائهم لم يدخلوا المعركة قط، إنما وقفوا يتفرحون بين الجاهلي الشامت أو الساحر أو الخافد. وكل تلك لمحات نرى فيها قريش الجاهلية وهي تختفي مع الجاهلية، لتولد من جديد في ظل الاسلام وتحت راية محمد.

حتى خالد بن الوليد على عظيم شأنه لا نجد له أثرًا في هذه الواقعة، ولقد كان الرسول ﷺ قد جعله على رأس أحد الجيوش التي دخلت مكة عند الفتح، وكان مدخله من الجنوب من ناحية الخندمة والليط، وتلك هي الناحية الوحيدة التي وقع فيها قتال، لقد قال المؤرخون في ذلك وأكثروا ولكن تفسيره عندنا أن خالدًا لم يكن قد تعلم القتال على شرط الاسلام: قتال فتح لا قتال نصر بأي سبيل، فهو قد وجد معارضة أمامه فاكتسحها وقد أنكر الرسول ذلك ولكنه لم يفعل أكثر من الإنكار لأنه في الحقيقة كان يرجو أن يطوع ملكة خالد العسكرية للاسلام ولهذا فقد جعله على مقدمته عندما سار لحصار الطائف.

وكان رسول الله ﷺ قد خبر خالدًا عندما بعثه الى بني جذيمة من كنانة أسفل مكة، فقد تصرف خالد عند ذلك تصرفًا لم يعرفه المسلمون الى ذلك الحين: قتل قومًا على الظن وهم يظهرون الاسلام، وقد رفض من تحت إمرته من الأنصار أن يقتلوا الناس، ولكن بني سليم - وعهدهم بالاسلام قريب - قتلوا أسراهم استجابة لخالد، وقد أنكر رسول الله فعل خالد، وأرسل علي بن أبي طالب - وهو فارس الإسلام قلبًا ولسانًا وعلمًا - فاصالح الخطأ. ولكن الرسول مع ذلك لم يطل غضبه على خالد بل صبر عليه لأنه كان يعلم ما عنده ويريد أن يطوع ملكاته للاسلام، وما فعله رسول الله ﷺ مع خالد يعطينا صورة واضحة عن أسلوبه ﷺ في تطويع قريش وملكاتها للاسلام لأنه بعث حقًا ليلمم مكارم الأخلاق، ولقد أدبه ربه فأحسن تأديبه وتصدى هو لتأديب الناس فأحسن إيمانًا.

قريش تتجه إلى الاشتراك في قيادة أمة الإسلام :

وقد حسب ناس من رؤوس مكة أن قبيلتهم قريشا قد انحدر مقامها بين القبائل، وظنوا أن بلدتهم مكة أصبحت درحات معد أن أصبحت تابعة وكانت متبوعة، وما ذلك إلا لأنهم كانوا لا يزالون ينظرون إلى الدنيا والناس معيون الجاهليين ولم يدر أحد منهم أن الله سبحانه عندما سمى مكة في القرآن الكريم أم القرى فهي عده سبحانه أم بلاد الدنيا، ولن تزال كذلك أبدا الدهر، وما أراد الله بقريش من الكرامة بخالف الذي كانوا يظنون، لأن قريش الكفر إذا كانت قد مانت فإن الله سبحانه أخرجه من صلبها قريش الإيمان، ومن يكون محمد رسول الله إلا ذؤابة قريش وخياراً من خيار؟ ومن أولئك الذين يقودون أمة الإسلام في معارج العز والسيادة بعد رسول الله ﷺ إلا القرشيين؟ ولله سبحانه في خلقه شئون وله في تصاريفه عجب يخفى على البصائر والأبصار.

ولقد وجد القرشيون المكيون صعوبة كبيرة في الاندراج في المجتمع الإسلامي، وبعضهم لم يحاول الاندراج. وباستثناء خالد بن الوليد الذي اختاره الرسول للقيادات مرة بعد مرة، أو عمرو بن العاص الذي قاد سرية ذات السلاسل وبدرت منه أثناءها بوادر لم يحمدها المسلمون مثل إصراره على الإمارة على أبي عبيدة وصلاته دون اغتسال مخافة البرد لولا هذان فلاننا لا نكاد نقرأ عن كبار المكيين الذين فتحت عليهم مكة شيئاً ذا بال. ولقد كانت غزوة تبوك عسيرة على أمة الإسلام، غاض المسلمون فيها الكثير ووقعت فيها من الأحداث ما أراد الله ليكون بعدها موضوع موعظة وتوجيه وبعضها الآخر موضع تشريع كما نجد في سورة التوبة. ولقد قصد الله فيها إلى لوم من تخلفوا وانذار آخرين ممن أخذت عليهم في إيمانهم وسلوكهم مأخذ. ولكننا لا نجد للقرشيين غير المهاجرين فيها ذكراً، وقد كان المأمول بعدما أسبغ الله ﷺ عليهم من الكرامة بعد حين أن يكون لهم مقام ولو قليل في تبوك وما تلاها من سرايا، وكان في بعضها محال عظيم للقرشيين لو أرادوا فقد بعث الرسول ﷺ بعد تبوك إلى شمال الحجاز وشمال

الجزيرة حملة من السرايا وقد قصد في بعض سراياه في هذه الحقبة الأخيرة جماعات من نصارى العرب وعرب الروم وعرب الضاحية من تيباء الى الشمال وهنا كان مجال عمل عظيم للقرشيين الذين كانوا أهل معرفة بهذه النواحي ورجال مثل أبي سفيان صخر بن حرب وصفوان بن أمية بن خلف وسهيل بن عمرو كانوا يعرفون هذه النواحي أكثر مما يعرفها من قصدها وقاد السرايا إليها من المسلمين، ولكن كبار المكين سكنوا فلا نسمع لهم ذكراً في ذلك كله، وإذا حدث وكان لبعضهم ذكر من مثل خالد بن الوليد الذي قاد السرية إلى نجران فإن الأمر لا يتعدى الذكر، ولا نسبة قط بين ما فعله خالد في هذه السرية، وهي بداية الاتجاه المركز إلى اليمن وبين ما فعله علي بن أبي طالب وهو مثل القرشي المهاجر قديم الاسلام.

ولكن عندما ينتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى وترتج المدينة، وتنتقل الرحلة إلى مكة، عندما اختفى عتاب بن أسيد الذي أقامه النبي على مكة هنا يقوم سهيل بن عمرو خطيباً فيقول: يا معشر قريش، لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد، والله إن هذا الدين ليمتد امتداد الشمس والقمر من طلوعهما إلى غروبهما، فاستمعت له قريش وثبتت على الإسلام، وواضح أن الرجل قام هذا المقام عن اقتناع وعقل معاً، فأما الاقتناع فقد رأى بعينه قوة المسلمين يوم حنين ثم إن إكرام الرسول إياه، كان له في نفسه عميق الأثر، وأما العقل فلأن مكة كانت مدينة غير حصينة ولو ارتدت قريش ومال عليها المسلمون مبلة لأصابوها بقاصمة الظهر. ومع ذلك فقد قلنا إن سواد قريش وأهل مكة كانوا قد أسلموا وثبتوا على الإسلام.

وهذا الموقف من سهيل بن عمرو كان بداية عودة قريش إلى الصدارة والرياسة في جماعة الاسلام، وهذه العودة كانت خيراً على قريش أفراداً وخيراً على الإسلام، ولكنها كانت نهاية قريش القبيلة كما سنرى.

القرشيون يخرجون الأنصار من الرئاسة والقيادة :

نعودنا على أن نلحظ إلى ما وقع في يوم السقيفة على أنه أمر طبيعي ، وأن مايعا أبى بكر كانت النتيجة المنطقية التي كان ينبغي أن ينتهي إليها الاجتماع مع أن الاجتماع كله . . على الصورة التي وصل بها إلينا تم على نحو هو أشبه بالمصادفة ، فإن الأنصار عندما رأوا أن رسول الله ﷺ قد توفي اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة ، ومعهم كبيرهم سعد بن عباد للنظر فيما يمكن أن يصير إليه أمرهم ، فالمدينة مدينتهم والبلد بلدهم ، ولهم فيه الغالبية لكنها كانت في نفس الوقت مركز أمة الإسلام التي شملت الآن شبه الجزيرة كلها ، وكانوا يعيشون في ظل رسول الله وفي أمان الإسلام فماذا يكون موقفهم اليوم وقد مضى الرسول إلى ربه ؟ هل يتفرق أمر الجماعة فيقروا هم في مدينتهم ويعود القرشيون المهاجرون إليهم إلى مدينتهم مكة ، ويتفرق غيرهم من المهاجرين إلى قبائلهم ومنازلهم وينفرد بذلك أمر الأمة مع بقاء الجماعات الداخلة في تكوينها على الإسلام ؟ وهذا يتجلى لنا من أقدم ما لدينا من أخبار هذا الاجتماع ، فقد رواه ابن سعد بسند وأتانا به البلاذري في انساب الأشراف . قال ابن سعد : «بينا المهاجرون في حجرة رسول الله ﷺ وقد قبضه الله إليه وعلي بن أبي طالب والعباس متشاوران به ، إذ جاء معن بن عدي وعويم بن ساعدة فقالا لأبي بكر : «باب فتنة إن لم يفلح الله بك فلن يفلح أبداً . هذا سعد بن عباد الأنصاري في سقيفة بني ساعدة يريدون أن يبايعوه» ، فمضى أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح حتى جاءوا السقيفة ، وإذا سعد على طئف نفسه متكئاً على وسادة وعليه الحمى فقال له أبو بكر : ما ترى يا أبا ثابت ؟ فقال : أنا رجل منكم فقال الحباب بن المنذر : منا أمير ومنكم أمير فإن عمل المهاجري شيئاً في الأنصار رد عليه الأنصاري وإن عمل الأنصاري شيئاً في المهاجرين رد عليه المهاجري ، وأنا جذيلها المحكك وعذيقها المرئب ، إن شتم فررنا ، مرددناها جذعة ، من يازعني ؟» فأراد عمر أن يتكلم فقال له أبو بكر : على رسلك ثم قال أبو بكر :

نحن أول الناس إسلاماً وأوسطهم داراً وأكرمهم انساناً، وأمسهم برسول الله ﷺ رحماً، وأنتم إخواننا في الإسلام وشركاؤنا في الدين نصرتم وأوينتم وأسيتم فجراكم الله حيراً. فحس الأمراء وأنتم الوزراء، ولست تدين العرب إلا لهذا الخبي من قريش، فقد يعلم ملا منكم أن رسول الله ﷺ قال: «الأئمة من قريش» فأنتم أحقاء الاتقوا على إخوانكم من المهاجرين ما ساق الله إليهم» (البلاذري ٥٨١/١ - ٥٨٢)، وهنا يطمئن حاطر الحبيب بن المنذر الذي كان الخوف على مصير الأنصار قد استبد به وجعله يقول ما قال. فيطامن من غلوائه ويقول: «وما نحمدك ولا أصحابك، ولكننا نخشى أن يكون الأمر في أيدي قوم قتلناهم، فحققوا علينا» (البلاذري ٥٨٢/١) ويزيده أبو بكر اطمئناناً فيقول: فليس بعد المهاجرين الأول عندنا أحد بمثلتكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور، وتكلم النعمان بن بشير وهو من خيرة الأنصار من بني الحارث من الخزرج فيكشف عن حقيقة إيمان الأنصار وجميل مذهبهم فيقول: «يا معشر الأنصار انا والله لئن كنا أولى فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في هذا الدين، ما أردنا به إلا رضى ربنا وطاعة نبينا، والكدرح لأنفسنا، فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك، ولا نبتغي به من الدنيا عرضاً، فإن الله ولىّ المنّة بذلك. إلا أن محمد ﷺ من قريش وقومه أحق به وأولى، وأيم الله لا يراني الله انازعهم هذا الأمر أبداً، فاتفقوا الله ولا تحالفوهم ولا تنازعوهم»^(١).

وانتهى اجتماع السقيفة بمبايعة أبي بكر بما يشبه الاجماع، وانصرف الأنصار وهم يحسبون أن الأمر سيكون على ما قال أبو بكر قسمة بين المهاجرين والأنصار، فالمهاجرون هم الأمراء أي أصحاب الرياسة والأنصار هم الوزراء والشركاء: لا يتركون في مشورة ولا تقضى دونهم الأمور.

والذي نلاحظه هو أن الأنصار عندما اجتمعوا الى سعد بن عباد لم تكن فكرة رياسة أمة الاسلام بعد وفاة الرسول ﷺ في اذهانهم. انما هم اجتمعوا

(١) الطبري تاريخ ٢٢١/٣

مدافع الخوف على مصيرهم بعد رسول الله ، وكان محباً لهم كثير الحذب عليهم منصفاً إياهم في كثير من الحالات التي وقع عليهم فيها اعتداء من المهاجرين وخاصة من عمر بن الخطاب ، الذي كانت تدرسه مدرات تدل على تحامل على بعض كبار الأنصار ، وخاصة سعد بن عباد وابنه قيس . وقد كان عمر حريصاً أشد الحرص على أن يكون هو وأبو بكر وأبو عبيدة أقرب الناس إلى رسول الله ولم يقتصر موقفه هذا على الأنصار بل شمل كل من كان يخشى تقدمهم عليه من غير الأنصار من أمثال علي بن أبي طالب وزيد بن حارثة .

ومن هنا فإننا نرى أن عمر وأبا بكر عندما قصدا السقيفة قصداها وفي ذهنهما تصميم على أن تكون لها السيطرة على مصائر الأمة بعد وفاة الرسول . والنصوص تقول أن عمر عندما كان يسرع إلى السقيفة كان يزور كلاماً يقوله أي يرتب في نفسه كلاماً يقوله وعندما تكلم أبو بكر رضي عمر لأن أبا بكر قال بأسلوبه الذكي الإنساني ما كان يمكن أن يقوله هو بطريقة أخرى ، وخلاصة ما قاله هذا وما كان يريد أن يقوله ذلك أن السيادة في الأمة ينبغي أن تبقى في يد القرشيين ، أما الزعم بأن رسول الله ﷺ قال إن الإمامة في قريش فغير صحيح ، ولا يمكن أن يكون أبو بكر قد قال هذا القول فهو رجل صادق بل صديق ، ولكنها وضعت فيها بعد لتأكيد ما كانت قريش تتمسك به من السلطة في أمة الاسلام وكان ذلك من خير الاسلام ولكنه في النهاية لم يكن من خير قريش . فان القرشيين كانت فيهم ملكات سياسة وقيادة ، وقد نعموا أمة الاسلام بذلك ولكنهم استهلكوا أنفسهم ودفعوا بأنفسهم في منازعات وحروب مهلكة انتهت أول الأمر بضياح معظم قريش وبزوال فروعها التي ظلت في ميدان السياسة ، لم يبق من قريش في النهاية الا بيت علي بن أبي طالب وهو قسم من الهاشميين .

وقد انعكس اجتماع السقيفة على أن يكون الأنصار شركاء القرشيين في تسيير أمور الأمة ، فالقرشيون أمراء والأنصار ورراء ولا يفتاتون بمشورة ولا تقصى دونهم الأمور

ولكن الذي حدث بعد ذلك هو أن الأنصار أسقطوا من الحساب اسقاطاً لا يمكن إلا أن يكون مقصوداً، فقد بعث أبو بكر أحد عشر قائداً للقضاء على حركة الردة وليس بينهم من الأنصار واحد ثم أرسل أربعة جيوش إلى الشام لم يوصع على رأس واحد منها أنصاري وبدلاً من أن تكون قيادة الدولة شورية جماعية كما كانت أيام الرسول صلى الله عليه وسلم أصبحت في الحقيقة وواقع الأمر فردية وأبو بكر وعمر سارا على قاعدة الشورى، وفي أيام عثمان انتهت فعلاً الشورى وتمهد الطريق للملك معاوية والأمويين.

وقد تنبه إلى هذه الحقيقة واحد من أهل الرعييل الأول من المؤرخين وهو أحمد بن أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي فإنا بأخبار سكنت عنها غيره، فقال إن الأنصار غضبوا لبيتين من الشمر استشهد بهما أبو بكر، قال:

«فاعتزلت الأنصار عن أبي بكر، فغضبت قريش واحفظها ذلك فتكلم خطبائها، وقدم عمرو بن العاص فقالت له قريش: قم فتكلم بكلام تنال فيه من الأنصار، ففعل، فقام الفضل بن العباس فرد عليهم، ثم صار إلى علي فأخبره وأنشده شعرا قاله، فخرج عبي مفضيا حتى دخل المسجد، فذكر الأنصار بخبر، ورد على عمرو بن العاص قوله، فلما علمت الأنصار ذلك سرها وقالت ما نبالي بقول من قال مع حسن قول علي، واجتمعت إلى حسان بن ثابت، فقالوا: أجب الفضل فقال إن عارضته بقوافيه فضحني، فقالوا فاذكر عليها فقط فقال:

جزى الله خيراً - والجزاء بكفه	أبا حسن عنا ومن كأي حسن
سبقت قريشا بالذي أنت أهله	فصدرك مشروح، وقلبك ممتحن
ثمنت رجال من قريش أعزة	مكائك - هيهات الهزال من السمن ^(١)

وفي خبر آخر عد اليعقوبي أيضاً نقراً أنه عندما عهد أبو بكر إلى خالد بن الوليد وغيره من غير الأنصار في قيادة الجيوش التي خرجت لحروب المرتدين:

(١) ليعقوبي، تاريخ، ١٢٨/٢

«قام ثابت بن قيس بن ثات من شماس فقال . يا معشر قريش أما كان فينا رجل يصلح لما تصلحون له؟ أما ذلك والله ما نحن عمياً عما نرى ولا صماً عما نسمع ولكن أمرنا رسول الله بالصبر، فنحن نصبر، وقام حسان فقال :

يا للرجال لخلعة الأطوار ولما أراد القوم سالانصار
لم يدخلوا ما رئيساً واحداً يا صاح في نقصي ولا أمار

فعمط على أبي بكر هذا القول فجعل على الأنصار ثابت بن قيس، وأبقد خالداً على المهاجرين^(١) وثابت بن قيس الشماس كان من رؤوس الأنصار فهو من بني كعب من الخزرج، وقد استشهد مع من استشهد في يوم اليمامة، يقول ابن حزم في الجمهرة إنه ممن شهد لهم بالجنة^(٢).

وجدير بالملاحظة أن الأنصار نفس بعضهم على بعض عقب وفاة الرسول ﷺ فكره الكثيرون من الأوسيين أن يترأس واحد من الخزرج، وانضم أسيد بن الحضير الى أبي بكر، أما بشير بن سعد الذي آبد رياسة القرشيين فكان أول من بايع أبا بكر من الأنصار والسبب معروف فهو والد أم خارجة التي تزوجها أبو بكر، وهي من بني حارثة الخزرجيين وكان أبو بكر قد نزل في منازلهم بالسنع.

المهم أن الأنصار أخرجوا من قيادة الأمة وانحصر الأمر في قريش، وهم عندما غضبوا لذلك تجمعوا حول علي بن أبي طالب وكان أول الأمر معارضاً لخلافة أبي بكر ثم بابعه بعد ذلك وليس لدينا ما يدل على أن العلاقة كانت ودية بينه وبين عمر، وموقف عمر من الأنصار ورأسهم سعد بن عبادة معروف وهذا التعاطف بين علي وآله والأنصار استمر يقوى مع الزمن حتى أصبحت المدينة معقل العلويين ثم تبعها مكة عندما غادرها رؤوس القرشيين - من غير بني هاشم - لتولي القيادة شيئاً فشيئاً أصبح الحجاز كله هاشمي الميول معارضاً لبني أمية ثم لبني العباس ومروع قريش الحاكمة سوامية أولاً ثم سوا العباس -

(١) العنقوي، تاريخ، ١٢٩/٢

(٢) الجمهرة ٣٣٦

أصبحت تنظر الى الحجاز - خاصة مكة والمدينة - نظرتها الى اقليم معاد لهم مؤيد لخصومهم . وادا كان الأمويون قد رموا مكة بحجارة الحجيق وأسهم النار حتى اشتعلت استار الكعبة . فان الذي فعله بهم العاص كان أشد ، وانه لم يحادث نصارى التاريخ أن قريشاً التي بدأ نجمها يصعد بفضل مكة أصبحت تكرهها وتهاجمها . والأنصار أحباء رسول الله انهمروا في الصراع السياسي داخل أمة الاسلام فجعلوا يهاجرون الى الأمصار ، وهناك لقوا من الكرامة وحب الناس ما لم يكونوا يجدونه في وطنهم والمسئولية في ذلك ترجع الى هذا النهم إلى السلطان الذي استبد بقلوب غالبية القرشيين وقريش في تشبها بالسلطان قضت في النهاية على قريش .

أبو بكر يستدعي رؤساء مكة ويسند إليهم الرايات :

لا يجب أهل التقي من المسلمين الخوض في حديث سقيفة بني ساعدة وما جرى فيها ، وحسنا يفعلون فإن الذي حدث وما قيل يوم السقيفة حدث في ظرف عصب لا يستبعد معه أن تصدر عن أحد من الناس بادرة يدفع اليها الدهش أو الفزع أو عدم استيعاب الموقف . ثم أن رواة الأخبار عن هذا اليوم العصب وأهمهم هنا سيف بن عمر وأبو مخنف ، لا يطمئن الخاطر الى كل ما يقولون ، والذي يحسن ونحمد الله عليه أن الأمر انتهى الى أبي بكر ، وأبو بكر رزقه الله من إيمان دونه رواصي الجبال وجنان ثابت لا تنال منه الخطوب ثم خلق كريم جميل ومنطق بليغ يتنزل على القلوب وبهذا جمع الأمة الى لوائه ورأب الصدع ووجد الصفوف ، فاندرج حديث السقيفة وأصبح ذكرى والذكرى تنفع المؤمنين .

ولكننا ونحن الآن بصدد التاريخ لقريش والإسلام لا نملك إلا أن نقول من واقع ما حدث ، إن قريشاً انتفعت بما وقع في السقيفة من حيث لا تحسب ، حقاً أن أنا بكر لم يتصرف قط على أنه قرشي وإنما تصرف دائماً على أنه خليفة رسول الله ولزم عرز رسول الله وطريقه وما حدث لم يكن من صنعه وإنما هي طبيعة القرشيين وما جلوا عليه من حب السيادة والرياسة ، وما انعدوا به من

معرفة بشئون الحياة وسياسة الناس ، ربما نتيجة لاشتغالهم بالتجارة ونحو تعرف أن رسول الله ﷺ انتقل إلى الرفيق الأعلى وقد بدأت بواخر الفتنة في جزيرة العرب ، فقد كان ذو الحمار عبلة من كعب المشهور باسم الأسود العنسي قد ظهر في قبيلة مذحج وانصمت إليه نجران في اليمن وتحرك طليحة بن حويلد الأسدي في طيء وأسد ومن لف لفهم وقدموا في جمعهم حتى بلغوا الريزة في أحوار المدينة ، وأعلمهم على ذلك أن منارل عيسى وديان كانت تقع في هذه المنطقة من عوالي نجد أي مداخلها ، ويصف لنا الطبري الموقف في عبارة موجزة عن السري الوالي وسيف بن عمر وهما من اسنادهما أكبر رواة عن هذه الأحداث فيقول :

- ١ - مات رسول الله ﷺ واجتمعت أسد وغطفان وطيء على طليحة بن حويلد الأسدي إلا من خواص أقوام في القبائل الثلاث .
- ٢ - فاجتمعت أسد بشُخراء في عوالي نجد ، وفزارة ومن يليهم من غطفان بجنوب طيبة (المدينة) .
- ٣ - وطيء على حدود أرضهم بجبل طيء وهما الجزء الشمالي مما يعرف اليوم بجبل (شمس) .
- ٤ - واجتمعت ثعلبة بن سعد ومن يليهم من مرة وعيسى بالأبرق من الريزة (جنوب شرقي المدينة) .
- ٥ - وتأشب اليهم ناس من كنانة .
- ٦ - فلم تحملهم البلاد واقتروا فرقتين ، فأقامت فرق منهم بالأبرق وسارت الأخرى إلى ذي القصة (على نحو ستين كيلومترا شمال شرقي المدينة) .
- ٧ - فأمدتهم طليحة بجبال فكان حال على أهل ذي القصة من بني أسد ومن نأشب من ليث والدليل ومدلج
- ٨ - وكان على مرة بالأبرق عوف بن فلان بن سنان .
- ٩ - وعلى ثعلبة وعيسى الحارث بن فلان ، أحد بني سبيع .

- ١٠ - وقد بعثوا ومودا فقدموا المدينة، فزلوا على وجوه الناس فأنزلوهم ما خلا عياشاً (حراً على ماله؟) فتحملوا هم على أبي بكر على أن يقيموا الصلاة وعلى أن يؤتوا الزكاة فعزم الله لأبي بكر على الحق، وقال: لو منعوني عقلاً لخالدهم عليه وكانت عقل الصدقة مع الصدقة (أي أنه لا يتبارك حتى عن الخيل التي تربط به إبل الصدقة، وقد يكون المراد الإبل نفسها).
- ١١ - فردهم، فرجع وفد من بني المدينة من المرتدة إليهم فأخبروا عشائرهم بقله أهل المدينة... (١).

وإنما أتيت بهذه العبارة على طولها لكي أبين للقارئ أن نطاق هذه الثورة (فيها عدا الأسود العنسي) كان حوالي نجد ابتداء من جبل شمر ويتصل القوس فيسير جنوبي المدينة حتى يصل بلاد ليث من كنانة ومذليج قرب ساحل البحر الأحمر.

وحدث ذلك كله وأسامة بن زيد وحيشه في سريتهم إلى البلقاء جنوبي الشام في صميم بلاد نصارى العرب.

والدارس لسيرة الرسول ﷺ يتبين أن هذه المناطق بالذات - وهي مناطق أعادت أعراب نجد وأعراب الحجاز كانت دائماً مناطق قلق واضطراب على الإسلام وأهله. ونحو ثلث الغزوات والسرايا كان موجهة إليها. هنا كانت قبائل كبار الأعراب من أسد وخطفان ومخارب والذيل وعضل والقارة من أهداب قيس عيلان والفروع الفقيرة من مضر بحكم فقر المواطن، وهؤلاء هم الذين دعا رسول الله ﷺ عندما قال: اللهم على مضر، والمراد أعراب مضر من أبناء قيس عيلان، أما عرب مضر فهم أبناء إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وهم فرع مضر الذي اسحدرت منه كنانة وقريش وهؤلاء الأعراب كلهم كانوا عائلة على حير وفدك وتيباء والمدينة ومكة، وعندما قامت أمة المدينة اتجهوا بمطالعهم نحوها فهذا مركز مدني عظيم قام عربي بلادهم واتسع حتى دخلت

(١) لطري، تاريخ ٣/ ٢٤٤ - ٢٤٥

فيه خير ونطاق الواحات شمالي الحجاز، وطوال الفترة المدنية من العصر النبوي عرف أهل المدينة هدى محمد ﷺ وقيادته كيف يسودون هؤلاء الأعراب، ومعظم كبار المغازي والسرائي التي انجهرت إلى هذه النواحي قادها رجال المدينة ممن تربوا في مدرسة محمد صلوات الله عليه التي قامت على الاتحاد والنظام والطاعة والصدق في القتال: هنا كانت مجالات أعظم فواد الأنصار: سعد بن عباد وأسيد بن الحصير والحباب بن المنذر بن الجموح وعياد بن بشر ومحمد بن مسلمة وأبو قتادة بن ربعي وسلمة بن الأكوع.

وكان من المنتظر أن يكون هؤلاء بالذات قادة الجيوش التي تذهب إلى هذه النواحي، فقد داستها خيولهم ودوغتها، وكان لقادتهم فيها هبة، وفي قلوب أهلها خشية فكيف لا نجد في قيادة الجيوش، التي وجهت لحرب أهل الردة واحداً من هؤلاء؟

وعندما اقتربت جموع الأعراب من المدينة وأصبحت على أميال منها، تحرك أبو بكر بعد أن شدد في حراسة المدينة خوف البيات: فعبى الناس ثم خرج على تعبئة من أعجاز ليلته يمشي، وعلى يمينه النعمان بن مقرن وعلى يساره عبد الله ابن مقرن وعلى الساقة سويد بن مقرن معه الركاب، فما طلع الفجر إلا وهم والعدو في صعيد واحد فما سمعوا للمسلمين همساً ولا حساً حتى وضعوا فيهم السيوف، فاقتتلوا أعجاز ليلتهم فما دَرَ قَرْن الشمس حتى ولوهم الأدبار^(١).

فأما أسلوب القتال ونظامه وطريقته في مباغتة الأعداء فتلك كلها دروس تعلمها أهل المدينة أيام رسول الله ﷺ ولكن أين القواد؟ وكيف نجد على القيادة بني مقرن هؤلاء؟ لقد كانوا من قدماء أهل الإسلام وهم مزنيون، ولكن أحداً منهم لم يل للرسول حيناً وكيف يظل اجلاء قادة الأنصار وبعضهم كانوا فعلاً من أصحاب المواهب العسكرية النادرة، مثل محمد بن مسلمة والحباب بن المنذر

(١) الطبري، تاريخ ٢٤٦/٣

وعباد بن بشر وبشير بن سعد وأسيد بن الحضير بعيداً عن القيادة؟ هؤلاء لم يكونوا
قط في جيش أسامة بن زيد فلا ذكر لهم فيه وإنما كانوا في المدينة أما غياهم عن
القيادات فهو - استنتاجاً - صدى لما حدث في السقيفة وتلك بداية قصة طويلة
تحتاج إلى من يؤرخ لها، قصة الأنصار بعد رسول الله ﷺ.

ثم يعي أبو بكر جيوش حرب الردة وهي أحد عشر جيشاً لا نجد في قيادة
أحدها أنصارياً واحداً؛ بل نجد فيهم من القرشيين خالد بن الوليد وعكرمة
ابن أبي جهل وعمرو بن العاص وخالد بن سعيد والعلاء الحضرمي وعندما ننحى
الأنصار أو نحوا عن القيادات كانت تلك هي الفرصة التي أتت لقرش لكري
يتولى رجاها القيادات.

وقد كان أبو بكر قد قال للأنصار في خطابه الذي حسم به الموقف
والنزاع يوم السقيفة: وأنتم يا معشر الأنصار من لا يُنكر فضلهم في الدين ولا
سابقتهن العظيمة في الإسلام. رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله، وجعل إليكم
هجرته، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه، فليس من المهاجرين الأولين عندنا أحد
بمزلتكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم
الأمور^(١).

وهذا العهد لا ينقضى ما بدر عن سعد بن عباد والحباب بن المنذر لأن
كلام أبي بكر هذا كان بعد الاتفاق والتراضي ثم إن نفرًا من الأنصار كانوا أول
من دعوا إلى بيعة أبي بكر وأيدوها يوم السقيفة وعلى رأسهم بشير بن سعد وأسيد
ابن الحضير وبقيّة الأنصار بايعوا دون اعتراض.

فلننظر كيف تم تطبيق ما قاله أبو بكر من أن الأنصار لا يفتاتون بمشورة ولا
تقضى دونهم الأمور لدينا هنا نصان انفرد بهما رجل من حملة المؤرخين الأول
الذين لم يلقوا من المؤرخين إلى اليوم ما هم حديثون به من تقدير، ذلك هو

(١) الطري، تاريخ ٢٢٠/٣ رواية أبي عوف

محمد بن عبدالله الأزدي المتوفى سنة ٢٣١ هـ / ٨٤٥ - ٨٤٦ م صاحب كتاب فتوح الشام، وهو كتاب لم يتسه إلى أهميته إلا القليلون، لأنه نشر من نحو مائة وثلاثين سنة (١٨٤٥ م) في الهند نشرة ناقصة حافلة بالأخطاء على يد مستشرق يسمى ولیم تاسولیس ثم أعيد نشره في القاهرة على مخطوطة جيدة معاية دار سجل العرب سنة ١٩٧٠، وعليها اعتمد الباحثة المحقق أحمد عادل كمال في كتابه القيم عن فتوح الشام^(١)، والأزدي مؤرخ فقط يميل بعض الميل إلى تعظيم شأن قومه الأزدي ولكنه معتدل منصف في جملته ثم إن الموضوع الذي نحن بصدده بعيداً عن الأزدي كل البعد ومن ثم فالتنا تعتبر روايته عن فتوح الشام وبداية الفتح بوجه عام - وثيقة تكمل ما كتبه الطبري والبلاذري وغيرهما عن الفتح.

وقبل أن نورد نص الأزدي الذي رد على سؤال طلما حير أذهان الباحثين وهو: كيف عادت فريش إلى ولاية معظم الأمر في تاريخ الاسلام، بعد وفاة الرسول صلوات الله عليه بعد أن كانت هي بالذات قد رصدت نفسها للقضاء على الاسلام؟ نقول إن الرسول وكبار صحابته من المهاجرين كانوا قرشيين. ولكنه ﷺ سار في توجيه أمور الأمة مساراً اسلامياً خالصاً لأفضل فيه الا للاسلام والتقوى والاخلاص يستوي في هذا القرشي وغير القرشي، والعربي وغير العربي وجماعة النابيين من أصحاب الرأي والشفوف من الصحابة كانت تضم من الانصار أكثر ما ضمت من المهاجرين وكان فيها من غفار وأسلم وجهينة وليث وخزاعة نفر يعتز بهم تاريخ الاسلام وعندما انتقل الرسول الى الرفيق الأعلى صارت الخلافة الى أبي بكر لا لأنه قرشي بل لأنه كان أولى المسلمين إذ ذاك بمواصلة عمل الرسول، ولم تكن معارضة بعض الانصار إلا خوفاً من الضياع في بحر العرب والاسلام الذي كان يتسع يوماً بعد يوم، وقد رأينا أن المعارضين من الانصار اطمأنوا وسلموا عندما قال لهم أبو بكر إنهم يكون المهاجرين الأولين دون

(١) عنوانه الطريق الى دمشق (دار المناقب) وهو أحسن ما لدينا عن فتوح هذا البلد العريق، والاسناد أحمد عادل كمال مؤرخ محقق وهو من أعظم مؤرخي الفتح الاسلامية في عصرنا

غيرهم من أهل الاسلام وأنهم الورراء لا يعشانون بمشورة ولا تقضى دولهم الأمور.

ولا بد قبل أن نورد نص عبدالله الأزدي من بعض الملاحظات. لاحظنا أن الأمور لم تكد نستتب لأي مكر حتى يختفي الأنصار من القيادات أو يكادون وجيوش حروب الردة كانت أحد عشر جيشاً لم يفد واحداً منها أنصاري، بل قفر القرشيون فأصابوا منها خمس قيادات على الأقل. حقاً كان في جيش خالد الذي توجه إلى بني أسد وصاحبهم طليحة بن خويلد الأسدي ما بين أربع مائة وخمسة مائة من الأنصار، أميرهم ثابت بن قيس ويحمل رايتهم أبو لبابة بن عبد المنذر وهما صحابيان، جليلان ولكن لم تسبق لأحد منهما قيادة سرية أو بعث ولا بد أن الكتلة المقاتلة في كل من الجيوش الأحد عشر كانت من الأنصار فقد كانوا إلى الآن صخرة الاسلام التي تتحطم عندها الأمواج، ولكننا نجد فطاحلهم بعيدين عن القيادات.

هنا نورد نص الأزدي الذي يقدم تفاصيل مجلس عقده أبو بكر من كبار أصحابه وأهل شوره لكي يتخذ قراراً في شأن مواصلة الفتوح خارج الجزيرة العربية وهي خطة حاسمة وخطيرة. ولم يكن أبو بكر يستطيع أن يتخذ فيها قراراً دون مشورة طويلة. وخبر هذا المجلس يقول صراحة إن أبا بكر دعا إلى المجلس كبار أصحاب شوره وهم كما يذكرهم الأزدي عمر وعثمان وعلي وطليحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبو عبيدة عامر بن الجراح وعبدالله بن أبي أوفى الخزاعي ووجوه المهاجرين والأنصار الذين شهدوا بدرًا فاجتمعوا إليه، وعبدالله بن أبي أوفى الخزاعي هذا صحابي معروف، اسمه كما يقول ابن حزم علقمة بن خالد بن الحارث بن أسيد، له صحبة آخر الصحابة موتاً بالكوفة^(١). وهو راوي هذا الخبر وهو مصدق فيه لأنه حضره بنفسه وأعلب

(١) اس الأثير، أشد العانة ١٨٢/٣، وهو يذكر ما أن عبدالله بن أبي أوفى أقام في المدينة حتى توفي رسول الله ﷺ فتحول إلى الكوفة، وهذا غير معقول، لأن الكوفة لم تكن قد انشئت عند وفاة النبي. والأصح أن يقال إنه توجه إلى الكوفة بعد تأسيسها.

الظن أنه حضر هذا المجلس لأنه خزاعي من أسلم وكانت أسلم ركناً هاماً من أركان جماعة الاسلام اذاك حتى ليقال إن ثلث المسلمين الذين خرجوا لغزوة الحديبية كانوا من أسلم ، ويلاحظ أن أحداً من كبار الأنصار لم يذكر بالاسم بين أهل الشورى هؤلاء إلا عبدالله بن أبي أوفى الخزاعي ، وقد تكلم في هذا المجلس أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وأيدوا فكرة الغزو إلى الشام ثم تكلم طلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وأبو عبيدة بن الجراح وسعيد ابن زيد بن نفيل ، ولم يتكلم علي إلا بعد أن لاحظ أبو بكر سكوته ودعاه إلى الكلام فتكلم مؤيداً . ولكن أحداً من كبار الأنصار لم يتكلم وقد جرت عاداتهم في مثل هذه المجالس أيام رسول الله أن يتكلموا ، والحجاب بن المنذر بالذات كانت له كلمة في كل مناسبة من مناسبات الحروب لأنه كان موهوباً في الأمور العسكرية . ولم نسمع هنا عن محمد بن مسلمة وكان معظم الوقت على حرس رسول الله وبشير بن سعد وله دور في كل غزاة من غزوات الرسول ، وهو ومحمد بن مسلمة قادا البعوث والسرايا فإين هما اليوم؟

واقع الأمر يدل على أنهم لم يحضروا هذا الاجتماع ولم يسمع لهم رأي وحتى أسيد بن الحضير وكان سيد الأوس وقد مال يوم السقيفة إلى أبي بكر دون سعد بن عباد وكان حرباً أن يكون في هذا المجلس . ولو حضر واحد من هؤلاء لما فات الأزدي أن يذكره فانهم عُمِدُ الأنصار والأنصار كانوا إلى يوم السقيفة صخرة جيوش الاسلام . ويوم حنين يوم هرب القرشيون المكيون مع بني سليم عند الصدمة الأولى مع هوازن كانت دعوة رسول الله إلى الأنصار دون غيرهم ، "فما أن سمعوا صوته حتى ثابوا إلى رشدهم وعادوا إلى رسول الله (ﷺ) فصدموا هوازن صدمة دامية فتحطمت قواها وتم للاسلام نصر كامل ، فلم يعقد المسلمون في هذه المعركة إلا أربعة نفر رغم الفرار الأول فكيف لا يوجد أولئك الأبطال اليوم وكيف يغييرون فلا يكون لهم رأي ولا تكون لهم قيادة جيش واحد ، لا من جيوش الردة ولا من جيوش فتوح الشام؟

ولم يأسف أبو بكر على عياب الأنصار ولا أسف عمر ولم يلعبا فيها بين أيدينا من الأحبار أن أما بكر حاول استرضاء الأنصار. ولم يَسْعَ الأنصار من ناحيتهم إلى استرضاء أبي بكر وبقية المهاجرين، بل انصرفوا للجهاد دون أن تكون لهم قيادة من القيادات الكبيرة، فخرج من أراد الخروج معهم في حروب حروب الردة ومات الكثيرون جداً منهم في هذه الحروب، وخاصة في حرب مسيلمة الكذاب في معارك اليمامة وكانت من أشد المعارك التي حاضها المسلمون، لأن مسيلمة وأصحابه تحصنوا في واد ضيق داخل حديقة أي بستان له سور عال، وكان كبار الأنصار هم الذين اقتحموا ذلك الحصن المنيع ومات منهم في تلك المعركة الشديدة نفر عظيم، ومات بعضهم في حروب الشام، وبعضهم في فتوح العراق، ويبدو أنهم وقد خذلوا في المعركة السياسية تماسك بعضهم ببعض وقد انعطوا بما أصابهم يوم السقيفة نتيجة الاختلاف فيها بينهم، فأصبحوا يخرجون في حروب الردة جماعات متميزة بنفسها تطلب الشهادة ولدينا عن ذلك أخبار كثيرة تؤيد هذا الموقف، نذكر منها خبر عباد بن بشر. وكان من كبار بني عبد الأشهل من الأوس فهذا الرجل حضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وكان من أحب الناس إلى رسول الله وفي يوم السقيفة كان معتدلاً عاقلاً، وهو الذي تكلم بعد سعد بن عباد والحباب بن المنذر وأبي بكر وأبي عبيدة فسأل قومه أن يتركوا الرياسة للمهاجرين، فهم قوم النبي ﷺ وأحق بالأمر بعده وكان حقيقاً لهذا بأن يعرف له أبو بكر وعمر هذا الفضل، وأن يعهد إليه في شيء من القيادات أو أن يجعلوه من أهل شوراها، فلم يحدث ذلك، فانظر إلى هذا الرجل يوم اليمامة، وقد اشتاقت نفسه إلى الشهادة حتى رأى في نومه رؤيا مبشرة بذلك، قال أبو سعيد الخدري - وقد شهد اليمامة - في خبر رواه حفيده لمحمد بن واقد وهو الواقدي ورواه كاتبه محمد بن سعد في الطبقات قال: «فانظر إليه يوم اليمامة وإنه ليصبح بالأنصار: أخطموا حفون السيوف وتميزوا من الناس وجعل يقول: اخلصونا، اخلصونا! فأخلصوا: أربعمائة رجل من الأنصار ما يخاطبهم أحد يقدمهم عادي بشر وأبو دحانة والبراء بن مالك، حتى انتهوا إلى باب الحديقة

فقاتلوا أشد القتال، وقتل عباد بن بشر رحمه الله، فرأيت بوجهه ضرباً كثيراً، ما عرفته إلا بعلامة كانت في جسده»^(١).

ومن الأنصار من نجا من الموت في حروب الردة واشترك في الفتح ثم فوجيء مفتة عثمان ففرروا اعتزال الحياة السياسية حملة ومن هؤلاء محمد بن مسلمة فارس رسول الله وقائد حرسه وطلبة حبشه في أكثر من مناسبة، فهذا الفارس العظيم لم يحفل لاستبعاده من أهل شوري أبي بكر ومضى يجاهد حتى كانت الفتنة، فاعتزل في البيداء قريباً من المدينة وقد روى خبر اعتزاله ابن سعد عن ابن حصين الثعلبي عن ابن حذيفة بن اليمان وكان حذيفة صاحبه ومن المعتزلين معه، قال: فخرجت فيمن خرج من الناس (من المدينة) فأتيت أهل ماء، فإذا أنا بفسطاط مضروب متحنى تضربه الرياح، فقلت لمن هذا الفسطاط قالوا لمحمد بن مسلمة، فأتيت فإذا هو شيخ، فقلت له: يرحمك الله: أراك رجلاً من خيار المسلمين، تركت بلدك ودارك وأهلك وجيرانك، قال: تركته كراهية الشر، ما في نفسي أن تشتمل عليّ مصر من أمصارهم حتى تنجلي عما انجلت. وظل في معتزله هذا حتى مات، ويروى عنه حديث يقول إن رسول الله ﷺ أعطاه سيفاً وقال له: «إذا رأيت من المسلمين فتنة تقتلان فاضرب به الحجر حتى تكسره ثم كف لسانك ويدك حتى تأتيك منية قاضية أو يد خاطئة، فلما قتل عثمان، وكان من أمر الناس ما كان، خرج إلى صخرة في فناءه فضرب الصخرة بسيفه حتى كسره»^(٢).

وقد حاول أبو بكر استرضاء بعض كبارهم ببعض صفار الأعمال دون كبارها فرفضوا، ويصور لنا هذا الموقف أبو الهيثم بن النبهان، وهو من طلائع المسلمين في المدينة فهو من الغر الثمانية الذين أسلموا على يد الرسول قتل العقبة الأولى، كان في حياته كلها من أقرب صحابة رسول الله إليه، وقد حصر

(١) ابن سعد، الطبقات، حد ٣، القسم الثاني من ١٧

(٢) ابن سعد الطبقات حد ٣ قسم ٢ من ٢٠

معه المشاهد كلها، وبعثه رسول الله ﷺ إلى حبير حارصاً (أي جامعاً لضريبة التمر والحبوب التي قررها الرسول ﷺ على أهل حبير بعد استسلامهم) فلما توفي رسول الله عليه السلام بعثه أبو بكر (كذا والأصح بعث إليه) فأبى، فقال: قد خَرَصْتُ لرسول الله، فقال إني كنت إذا حرصت لرسول الله فرحمت دعا الله لي، قال فتركه^(١) وفي هذه العارة ما فيها

ومن مظاهر أسف الانصار على ما حدث في السقيفة وما بعدها، زهدهم في الدنيا وإنفاقهم ماله في سبيل الله وقد طامنا قرأنا عن المال الكثير الذي تحصل لعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وغيرهم من المهاجرين من أموال المغنم والفيء والأرزاق التي قدرت لهم من بيت المال على أساس القاعدة العمرية وهي قاعدة السبق إلى الإسلام، والمكان من رسول الله ﷺ. ففاز المهاجرون الأولون وأمهات المؤمنين بأنصبه كبيرة جداً وصغرت نتيجة لذلك بقية أنصبه الانصار لأنهم أسلموا متأخرين عن هؤلاء ولم يشفع لهم في ذلك ما كان من فضلهم العظيم على الإسلام وأهله، فافرق كيف توفي أسيد بن الحضير فارس بن عبد الأشهل الأوسيين الذي تفيض السيرة النبوية بذكر أعماله وبذله في سبيل الإسلام بل كان هذا الرجل ذا فضل عظيم على أبي بكر، فهو رأس الانصار الذين قرروا تأييد أبي بكر يوم السقيفة وحسموا بإخلاصهم للإسلام الموقف لصالح المهاجرين: «هلك أسيد بن الحضير وعليه أربعة آلاف درهم دينا وكان ماله يغل كل عام ألفاً فأرادوا بيعه، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فبعث إلى غرمائه فقال: هل لكم أن تقبضوا كل عام ألفاً فتستوفونه في أربع سنين قالوا: نعم يا أمير المؤمنين فأخروا ذلك فكانوا يقبضون في كل عام ألفاً وكانت وفاة أسيد في شعبان سنة ٢٠ هـ، والفتوح في عفوانها وبأس كثيرون من المهاجرين ممن يجيئون بعد أسيد بن الحضير بمراحل يتولون القيادات بل الولايات ويرتعون في الأموال والسلطان، أما أسيد بن الحضير الذي قال فيه الرسول ﷺ نعم الرجل

(١) من المصدر ص ٢٢

أسيد بن الحضير، ويموت مديناً دون أن تسند إليه قيادة واحدة.

وكان العفر وفلة المال نصيب الكثيرين من أكابر الأنصار رغم ما أصابوا من المغنم أيام رسول الله ﷺ. ومن الأمثلة البارزة في ذلك سهل بن حنيف صاحب الموقف المشهور يوم أحد وقد حضر هذا الرجل المشاهد كلها مع رسول الله ولكن الرسول ﷺ استثناء يوم قسم غنائم بني قريظة هو وأبو دحانة سمالك بن خرشة فأعطاهما مع من أعطى من المهاجرين لأنها كانا فقيرين^(١) كما يقول ابن سعد، ولم يجد سهل بن حنيف إنصافاً إلا في خلافة علي بن أبي طالب، فأكرمه ورفع مقداره، وكان سهل من كبار أصحابه، وقد توفي في صيف سنة ٣٨ هـ وصل عليه علي ودفن في الرحبة وكبر علي عليه ست تكبيرات لأنه بدرى^(٢).

ولن نشير هنا إلى موقف عمر من سعد بن عبادة سيد الخزرج يوم السقيفة، فهذا الموقف معروف وهو معقول إلى حد ما بعد موقفه يوم السقيفة ولكنه لا يستحق ما لقي من المهانة على يد عمر، بل كان هناك اتجاه إلى استعمال القوة معه لارغامه على المبايعة لأبي بكر لولا تدخل بشير بن سعد، ووصل به الأمر في أول خلافة عمر إلى حد نفهم منه أنه أخرج طريداً من المدينة إلى الشام حيث مات في حوران على صورة الهمة، فيما يرويه البلاذري في أنساب الأشراف^(٣) أما الحباب بن المنذر صاحب الموقف المعروف يوم السقيفة فمن الطبيعي أن يختفي تماماً بعدبيعة أبي بكر، وربما يصور لنا مصير الأنصار ومسلكتهم بعد رسول الله ﷺ ما أثار عن أبي دحانة سمالك بن خرشة، وكان من أعظم المحاربين وأهل البسالة والنجدة في الأنصار، فهذا الرجل الذي كان علماً في بدر واحد والخندق وحنين لم ينل قيادة ولا رئاسة، وقرأ كيف انتهت حياته محمداً أيام أبي بكر قال ابن سعد بسنده: «دخل على أبي دحانة وهو

(١) انظر طبقات ابن سعد جـ ٣، قسم ٢ ص ١٢٥ وما بعدها

(٢) انظر طبقات ابن سعد جـ ٣ قسم ٢، ص ٤٠

(٣) انظر طبقات ابن سعد جـ ٣ قسم ٢، ص ١٤٥ وأنساب الأشراف للبلاذري جـ ١ ص ٢٥٠

مريض وكاد وجهه يتهلل: فقبل له: ما لوجهك يتهلل فقال ما من عمل شيء أوثق عدي من الثبر: أما إحداهما فمكت لا أتكلم فيها لا يصيني، وأما الأخرى فكان قلبي للمسلمين سليماً. قال محمد بن عمر. وشهد أبو دجانة اليمامة، وهو يمين شرك في قتل مسيلمة الكذاب وقتل أبو دجانة يومئذ شهيداً ستة عشرة في خلافة أبي بكر الصديق ولأبي دحانة عقب اليوم بالمدينة وبغداد^(١)

أبو بكر يدعو أشراف قريش من أهل مكة ليستعين بهم في الفتح:

غاب هؤلاء جميعاً، أو قل أخرجوا فمن الذي تولى مكانهم؟ القرشيون! فإما من كان منهم موجوداً وله مكانه في جماعة الإسلام من أمثال أبي عبيدة وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ومن في طبقتهم فقد أصبحوا في مقدمة أهل الشورى والقيادة ولحق بهم من أسلم قبل فتح مكة بقليل، مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ولم يلبث أن خطا المسألة الذين أسلموا يوم فتح مكة أو بعده، فقد تقدموا وحلوا محل الأنصار وصار منهم من أرى على قدماء المهاجرين في المكانة ومثلهم في ذلك يزيد بن أبي سفيان وأخوه معاوية. ولم يأت هذا مصادفة ولا نحن نستنتجها استنتاجاً، بل لدينا خبر ذو أهمية كبرى أورده عبدالله الأزدي في فتوحه، وقد رأيت أن آتي هنا بنصه كاملاً، لأنه يرينا كيف دخل هؤلاء متى وكيف وصلوا إلى القيادات والرياسات.

والآن نورد نص الأزدي قال محمد بن عبدالله الأزدي: أنه (أبو بكر) لما تلقى كتاب أبي عبيدة قائد حيوش الفتح في الشام يستمده حوالي ١٢ سؤال سنة ١٢هـ/ ٢٩ ديسمبر ٦٣٣ م اجتمع إليه أشراف المهاجرين والأنصار وأهل السابقة منهم فدعا أبو بكر بأشراف أهل مكة، فقال له عمر بن الخطاب لأي شيء دعوت

(١) ابن سعد الطبقات ج ٣ القسم الثاني ص ١٠١ - ١٠٢.

بأهل مكة مع المهاجرين والأنصار؟ قال أبو بكر: لاستشيرهم في هذا الأمر الذي كتب إليما فيه فقال عمر. فأما المهاجرون والأنصار فأهل المشورة والاستصاح، وأما رجال أهل مكة الذين كانوا يقاتلون كلمة الله هي العليا ويقاتلون ليطفئوا نور الله بأهوائهم جاہدين على قتلنا وذلنا إنا قلنا ليس مع الله آفة أخرى، وقالوا مع الله آفة أخرى فلما أعز الله دعوتنا وصدق أجدوثنا وبصرنا عليهم نريد أن تقدمهم في الأمور ونستشيرهم فيها وتستنصحبهم دون من هم خير منهم فما نصحنأ إذن بصلحائنا الذين كانوا يقاتلونهم في الله حين تقدمهم دونهم أفلا تراهم إذ وضعهم عندنا جهادهم إيانا وجهدهم علينا والله لا نفعل ذلك أبداً. فقال له أبو بكر: إنه قد حسن إسلامهم ولقد كنت أريد أن أدينهم وأنزلهم بال منازل التي كانوا بها في قومهم من الشرف فأما إذ ذكرت ما ذكرت فإن الرأي في هذا رأيك.

وبلغ هذا الكلام أشرف قريش فشق ذلك عليهم، وقال الحارث بن هشام (بن المغيرة بن عمر بن مخزوم): إنك يا عمر قد كنت في شدتك علينا قبل الإسلام مصيباً، فأما الآن فقد هدانا الله إلى الإسلام فلا نراك في شدتك علينا إلا قاطعاً. وجثا سهيل بن عمرو على ركبته وقال: إياك يا عمر نخاطب وعليك نعتب. فأما خليفة رسول الله فبريء عندنا من الضغن والحقد والقطيعة، السنا إخوانكم في الإسلام وبني أبيكم في النسب فإنكم إن كان الله قدم لكم في هذا الأمر قدماً صالحاً لم نؤت مثله لقاطعوا أرحامنا مستهينون بحقنا. وقال عكرمة بن أبي جهل: إنكم وإن كنتم تمجدون في عداوتنا قبل اليوم مقالاً فلستم اليوم بأشد على من ترك هذا الدين وعادى المسلمين منا، فقال لهم عمر: إني والله ما قلت ما بكم إلا نصيحة لمن سبكم بالإسلام وتحرياً للعدل فيما بينكم وبين من هو أفصل منكم من المسلمين قال سهيل: فإن كنتم إنما فصلتموا بالجهاد في سبيل الله، فوالله لست كنتم منه، واشهدكم أي حبيب في سبيل الله. والله لأفقر مكان كل موقف وقفته على حرب رسول الله

﴿موقفين على أعداء الله، ولأنفق مكان كل نفقة أنفقتها على حرب رسول الله ﴿موقفين في سبيل الله، قال عكرمة: أنا أشهدكم أبي حبيس في سبيل الله فقال أبو بكر. اللهم بلغ بهم أفضل ما يأمون واحزمهم بما كانوا يعملون. قد أصبتم فأرشدكم الله﴾^(١).

ولا بد أن نلاحظ هنا أن هذا المجلس إذا كان قد حدث، فلا بد أنه كان في بداية حروب الردة لا في بداية فتوح الشام، لأن عكرمة بن أبي جهل اشترك في محاربة أهل الردة وكان قائداً لواحد من جيوش المسلمين. وهذا الخلط في تاريخ المجلس لا يضعف أهميته، لأن الخلط في التواريخ كثير ومألوف عند مؤرخينا.

وليس من الضروري أن يكون هذا نص الكلام الذي دار في هذا المجلس كلمة كلمة، لأن المقصود هو المعنى، والمعنى هنا حقيقة. فهؤلاء القرشيون أدركوا في وقت متأخر حقيقة الإسلام والفضل في ذلك يرجع إلى رسول الله ﷺ الذي أحسن استقبالهم وأكرمهم فأزال من نفوسهم الضغينة والحقده وأشعرهم بالندم على ما فات فثبتوا مكانهم ينتظرون فرصة مناسبة يدلون فيها على صدق إيمانهم واستعدادهم للبدل في سبيل الإسلام. وليس معنى ذلك أننا نقول أنهم رأوا فرصة فانتهزوها، فليس لدينا ما يدل على ذلك، ولسنا كذلك نقول أنه لولا حدوث الفراغ بغياب سادات الأنصار عن القيادات لما دخل سادات قريش، فإن كتابة التاريخ لا تقوم على فروض، وليس من الصواب كذلك أن يقال هنا أن فلاناً أخطأ أو فلاناً أصاب، فإننا لا نعرف في مسار التاريخ في موقف كهذا إن كان هناك محل للحكم بخطأ أو صواب، ثم أين هو المقياس الذي نقيس به أعمال رجال مثل أبي بكر وعمر؟ أضف إلى ذلك أن حقائق القضية كلها ليست لدينا، فمن يدري فلعل الأنصار هم الذين

(١) محمد بن عبدالله الأردني، فتوح الشام، ص ٤٥

اختاروا هذا الموقف من القيادة والسياسة، لقد كانوا أمعد الخلق مع رسول الله ﷺ، وقد دامت سعادتهم به ومعه ثلاث عشرة سنة من التوفيق والنصر والسمو الروحي وأي شيء يطله الإنسان في هذه الدنيا بعد عشر سنوات يقضيها في صحبة خير البشر يتمتع فيها بالعمل معه في سبيل الإسلام والاقتناس من أنواره في سبيل الخير والإسلام؟ وأقرا والله تفاصيل غزوة الغابة التي كانت في ربيع الثاني سنة ستة للهجرة، وأغسطس ٦٢٧ م، لتري كيف كان الأنصار في أقصى درجات السعادة وهم يجاهدون مع رسولهم الأكرم الأعز أنهم ليطيرون طيراناً كأنهم كلهم شباب في مداخل العمر تسيح بهم الخيل سبجاً بين يدي الرسول ﷺ وإن أحدهم وهو سلمة بن الأكوع ليسبق أسرع الهجن على قدميه في طلب العدى وكل مأربه نظرة رضا أو دعوة بغزو بها من الرسول الأكرم^(١)، فلما توفي الرسول وكان ما كان يوم السقيفة وراوا تمسك المهاجرين بالرياسة انصرفت أنفسهم عنها وزهدوا فيها، كما رأينا في موقف بشير ابن سعد. ومن الواضح أن الأنصار جملة لم يكونوا بأهل اهتمام بالرياسة فلم نلاحظ فيهم شيئاً من ذلك إمام الرسول ﷺ، حتى سعد بن عبادة ولم تكن العلاقات طيبة بينه وبين كبار المهاجرين لم تطمع نفسه إلى رياسة بعد السقيفة وإنما كان قصارى أمله أن يرضى عنه رسول الله ﷺ، في حين أن أبا بكر وعمر كانا دائماً إلى جانب الرسول يشتركان معه في المشورة وتبادل الرأي ويسارعان في التنفيذ. وكان الأنصار - فيها يبدو - في الواقع يرون أن صلتهم الأساسية التي تهمهم هي الصلة برسول الله ﷺ والإسلام. أما المهاجرون فكانوا يتصرفون بعد رسول الله ﷺ وكأنهم رؤساء الجماعة وانظر مثلاً موقف عمر بن الخطاب من قيس ابن سعد بن عبادة في سرية الحُبَظ حيث تطوع قيس بشراء حرر أي جمال للمسلمين من رجل جهني على أن يؤدي له الثمن ثمراً فيما بعد فأكر عمر ذلك عليه وقال أنه لا يجوز له أن يشتري بجمال أبيه دون أن يستأذنه وأصر على ذلك حتى

(١) أحسن وصف لما وأكثره تعصباً لحده عبد الوافدي (معاري ٥٣٧/٢ - ٥٤٩) وإنما احترتها لأبها من صغار المعاري التي يتبع وقت الرسول فيها للحديث مع كل واحد من أفراد جماعته

مال إلى رأيه أبو عبيدة وكان أمير الجماعة، وعندما عادت السرية استحسن سعد ابن عبادة تصرف ابنه ووجهه حائطاً أي حذيفة، كي يكون له مال ينفق منه دون الرجوع إلى أبيه، وقد أيد الرسول ﷺ تصرف قيس بن سعد وأبيه وأثنى على سعد ابن عبادة. وصفة عامة نستطيع القول أن سعد بن عبادة لم يكن على علاقات طيبة مع عمر بن الخطاب وبعد توقف التأخي نلاحظ بصورة عامة أن العلاقات بين المهاجرين والأنصار لم تكن وثيقة بالشكل الذي نتصوره. وأبو بكر وحده ينفرد بعلاقات ممتازة مع الأنصار بسبب ما كان في خلقه من لين وعفة للناس.

والذي يعنينا هنا هو أن قريشاً عادت فأخذت مكاناً في صدارة أمة الإسلام، الذي حاربه وظنت أنه نهايتها ويشاء ربك أن يكون مولداً جديداً لها ولا مجال هنا لسوء الظن والقول بأن القرشيين دخلوا الدين وطلبوا الاشتراك في الفتح طمعاً، فالحق أن معظم أولئك الرجال صدقوا فعلاً فيما قالوه لأبي بكر، أما ما كان بعد ذلك من غلبة الطموح السياسي على فريق بني أمية وأحلافهم أثناء خلافة عثمان فتلك قصة أخرى لها ظروفها وعواملها التي ظهرت خلال السنوات الأخيرة من خلافة عمر، وتجلت طوال خلافة عثمان وما تلاها من فترة جددت الخصومة القديمة بين أبناء هاشم بن عبد مناف وأبناء أخيه عبد شمس، واتجهت بتاريخ أمة الإسلام كله اتجاهاً أسيفاً. وقرأت في هذه الفقرة من كتاب نسب قريش لأبي عبد الله المصعب الزبيري ثرى مثلاً يؤكد لك صدق هؤلاء القرشيين عندما تكلموا بما تكلموا به مع أبي بكر وعمر في المشهد الذي روياه بنصه تقريباً، والخبر هنا يتعلق بأولاد أبي أحيحة سعيد بن العاص، وبعضهم كان من ألد خصوم الإسلام حتى فتح مكة، قال: فولد أبو أحيحة سعيد بن العاص: أحيحة وبه كان يكنى، والعاصي قتله علي بن أبي طالب يوم بدر كافراً، وعبد الله وكان اسمه الحكم فسماه رسول الله ﷺ عبدالله وأمره أن يعلم الكتابة بالمدينة وكان كاتباً قتل يوم مؤنة شهيداً، وسعيد بن سعيد قتل يوم الطائف شهيداً وعمرأ قتل يوم أجنادين شهيداً وأهم صغية بنت المغيرة بن

عبد الله بن عمر بن غزوم وأبان بن سعيد قتل يوم أجنادين شهيداً وعبيدة قتله الزبير بن العوام يوم بدر كافرأ، وفاخته تزوجها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس فولدت له مريم، فولدت مريم القاسم بن محمد بن عبد الرحمن بن عوف فبقية عقب أبي العاصي بن الربيع من ولدها، انقرض ولد أبي العاصي بن الربيع من عبد العزى بن عبد شمس من عبد مناف من زينب بنت رسول الله ﷺ وأم بني سعيد هؤلاء هند بنت المغيرة بن عبد الله بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن غزوم. وخالد بن سعيد (بن العاصي) وهو أبو أحيحة ونحن بصنذه قتل بمرج الصفر^(١) وكان إسلام خالد بن سعيد متقدماً بقولون كان خامساً، وأسلم أخوه عمرو وهاجروا جميعاً إلى أرض الحبشة وكان ممن قدم على رسول الله ﷺ في السفينتين ومن الحبشة^(٢). فهذه مصائر بيت واحد من بيوت أولئك الذين أسلموا عند الفتح وأتيحت لهم الفرصة للوصول الى الاشتراك في فتوح الإسلام فانظر كم شهيداً منهم جاد بنفسه في سبيل الإسلام!

أما مصير سهيل بن عمرو وبينه فيقول فيه المصعب الزبيري: «وخرج سهيل بجماعة أهله الى الشام، فجاهدوا حتى ماتوا كلهم هناك فلم يبق من ولده أحد الا فاخته بنت عتبة بن سهيل. قدم بها على عمر (بن الخطاب) وكانت تسمى الشريدة، فزوجها عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة وكان أيضاً يقال له الشريدة^(٣)».

وأما عكرمة بن أبي جهل، فيقول عنه وعن أولاده المصعب الزبيري «ولما نذب أبو بكر الناس لغزو الروم وقدم الناس فعسكروا بالحرف على ميلين من المدينة، حرح أبو بكر الصديق يطوف في عسكرهم ويقوي الضعيف منهم، فبصر

(١) كان يسمى أن يصرفها شهيداً لأنه استشهد في فتح الشام

(٢) المصعب الزبيري، ص ١٧٤ - ١٧٥.

(٣) المصعب الزبيري، نفس المصدر ٤١٩.

بخباء عظيم حوله ترابط ثمانية أفراس ورماح وعدة ظاهرة، فانتهى الى الخباء، فإذا خباء عكرمة فسلم عليه فجذاه أبو بكر خيراً وعرض عليه المعونة فقال: أما غني عنها معي ألف دينار فاصرف معونتك الى غيري، فدعاه أبو بكر بخبر، ثم استشهد عكرمة يوم اجنادين ولم يترك ولداً وأمه: أم مجالد احدى ساء بني هلال ابن عامر^(١).

وهذا الإهمال لأمر السياسة من جانب الأنصار يبدو وكأنه نتيجة لما انتهت اليه الأمور يوم السقيفة؛ فان رؤساء الأنصار الذين كانت نفوسهم تطمح للرياسة خرجوا من السقيفة وهم يشعرون أنهم انهزموا وزهدوا نتيجة لهذا في الاشتراك في الادارة والحرب ومن أمثلتهم، سعد بن عباد بن دليم والحباب بن المنذر، وبعضهم لم تطمح نفسه للرياسة لأنه لم يكن يهتم بها كما رأينا في موقف بشر بن سعد والأحداث على أي حال سارت بسرعة كبيرة لم تسمح لأبي بكر وعمر في إعادة النظر ومحاولة استرضاء الغاضبين من زعماء الأنصار، خاصة وقد وعد أبو بكر في السقيفة أن يكون الأمر بين المهاجرين والأنصار قسمة عادلة بحق النصف والآن يُفتاتون بمشورة ولا تقضى دونهم الأمور، وكان يرجى من أبي بكر أن يسعى اليهم ويترضاهم ويعطيهم نصيباً من القيادة، ولكن ظروف حرب الردة لم تسمح بذلك فيها يبدو، وما دنا لا نملك تفاصيل يعتمد عليها في معرفة حقيقة ما جرى أثناء اختيار قيادات جيوش الردة، فلنكتف بالقول بأن الأنصار تركوا جانباً فلم يكن لهم نصيب من القيادات وإن كان لهم الحظ من الجهاد والاستشهاد في سبيل الله.

وربما كان الأفضل لامة الإسلام لو أن الأمور جرت على ما قبله المهاجرون والأنصار معاً يوم السقيفة، من أن يكون الأمر شورى بين رؤساء المسلمين من مهاجرين وأنصار كما كان الأمر أيام رسول الله ﷺ، فقد كان الرسول نبي الجماعة وهاديا ورأسها ولكنه لم يكن يفصل أحداً على أحد. والقيادة كانت جماعية تقوم على الشورى ولو ظلت قيادة الامة جماعية يتولاها

(١) المصعب الزبيري، سب قريش ص ٣١١

جماعة من الصحابة، فلا تكون مهمة رئيسها إلا تنفيذ ما يستقر عليه أمر الجماعة، لكان هذا أسلم لأمة الإسلام وأسلم لقريش كذلك فإن انفراد قريش بالأمر حملها من الأمر حسيباً وفرض عليها مسئولية فرحت بها أول الأمر، ولكنها لم تلت أن مأت معبئها وكانت فيها هائتها.

الفصل الخامس

قُرَيْشٌ

تَفْقَدُ قِيَادَةَ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ

قُرَيْشُ وَالرِّيَاسَةُ فِي أُمَّةِ الْإِسْلَامِ :

هكذا عادت قريش إلى رياسة أمة العرب ودولتهم، لقد رويتنا حر بداية الاستيلاء على السلطان وبقية الخبر لا نجد صعوبة في تتبعها خلال خلافة أبي بكر وعمر، ولقد بدأت عملية سيطرة قريش على مصائر أمة الإسلام وكأنها مصادفة، نتيجة لما كان من اهمال أولي الأمر للأنصار، ولقد أبدى أبو بكر يوم السقيفة ذكاء بعيداً وحسن تصور لمسيرة الأحداث بعد موت الرسول ﷺ، ومن الواضح أن أبا بكر أنقذ الأمة من التفرق في هذا الظرف العسير ثم دل بعد ذلك على حكمة بالغة في مواجهته لحركة الردة وقضائه عليها بسرعة لا تكاد تصدق وما إن رأى أبو بكر حماس الناس في الحجاز وما حوله للاشتراك في الدفاع عن أمة الإسلام حتى أسرع في تكوين الجيوش وإقامة الفواذ دون نظر إلى استرضاء غاضب أو استقدام عازف عن القيادة ولم تكذب حروب الردة تنتهي، حتى دفع أبو بكر العرب في حروب فارس والروم، وقد رأينا في الفقرة السابقة حسن بلاء الأنصار في حروب الردة، فكيف لو كان لهم من القيادة النصيب الذي يستحقونه عل أساس قول أبي بكر أن يكون الأمر قسمة بين المهاجرين والأنصار كشيء الأبلهة ولكن الأمور سارت في طريقها المقدر، ولقد كان أسامة فاتح باب الفتوح بالتوفيق الذي بلغه في مسيره إلى أُنْبَى من بلاد بلقاء الشام كما أمره رسول الله ﷺ، وقد كان حرص أبي بكر على إرسال بعث أسامة عظيماً، وكانت فرحته عظيمة بعودته أيضاً ولكن يستوقف النظر أن أبا بكر لم يجعله على شيء من فتوح الشام، بل كان أول من اختاره لقيادة بعث إلى

الشام رجلاً صالحاً من أبناء أبي أحيحة سعيد بن العاص، وهو خالد بن سعيد وهو من قدماء المسلمين وصالحيههم ولكنه لم يشارك في شيء من نشاط المعاري ولم يكن خالص النية في بيعة أبي بكر إذ أنه تأخر عنها وقال كلاماً ساء أبا بكر وعمر خاصة، ولكنه يتولى رغم ذلك البعث الأول الذي بعث به أبو بكر إلى الشام، ولقد طلب إليه أبو بكر أن ينتظر بمن معه عند مؤنة ليكون رداء للقوات التي سيبعث بها، ولكن حالداً تسرع وأوغل في بلاد الروم حتى بلغ مرج الصفر جنوب شرق دمشق وهناك دهمه الروم وهزموا جيشه وفر هارباً بحشاشة نفسه، ليترك بعد ذلك في جيش يزيد بن أبي سفيان ويستشهد في معركة أجنادين. وأنه لما يستوقف النظر أن يختار أبو بكر ستة قواد: اثنين منهم لفتح العراق هما خالد بن الوليد وعياض بن غنم، وأربعة لفتح الشام هم يزيد بن أبي سفيان وعمر بن العاص وأبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة، فإذا فهما تفضيل أبي بكر للخمسة الأول فأي فضل على أسامة بن زيد يكون لشرحبيل بن حسنة، وهو صحابي فاضل ولا شك، ولكن لم تكن له سابقة قيادة ولا دربة حرب وهو على عظيم فضله كان مولى حليفاً لبني زهرة، ولا ندري كيف أخذه أبو بكر وترك أسامة فلم يظفر بقيادة إلى أن مات.

ولكن الأمور نتجه في أمة الإسلام انجهاً ينتهي بالرياسة إلى بني أمية ولن ندخل في تفاصيل ذلك فهو معروف شائع في الكتب جميعاً، ولا حاجة بنا في هذه الدراسة إلى الدخول في تفاصيل فتنة عثمان وما تلاها من الأحداث الجسيمة، التي ألقت بزمام الأمور في النهاية في يد بني أمية بقيام الدولة الأموية في دمشق في عام الجماعة سنة ٤١ هـ/ ٦٦١ م. لا مفر لنا من الإيجاز الآن وإلا استطال البحث إلى ما لا نهاية ونحن هنا ندرس تاريخ قريش لا تاريخ الإسلام كله، وحسبنا في ذلك تعيين الانجهاات العامة والمراحل الحاسمة في تاريخ قريش بعد الإسلام.

ودون دخول في التفاصيل نستطيع أن نقول إنه عندما توفي عمر بن

الخطاب كان معاوية بن أبي سفيان أقوى رجال الدولة، وأكثرهم مالاً وأعظمهم ولاية. والظاهرة معروفة من قديم الزمان ألف فيها المقرئزي كتابه المسمى «النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم»، فإذا أضفنا إلى ذلك أن عمرو بن العاص عامل مصر حليف معاوية وصاحبه وسليل بني سهم بن هصيص حلفاء بني أمية في حلف لعقمة الدم أعداء حلف العصول وأصحابه نبينا أن جبهة معاوية وعمرو أي جبهة الشام ومصر كانت أقوى جبهة وأغنى في دولة الإسلام عند موت عمر بن الخطاب، ولقد زاد معاوية قوة في الشام خلال خلافة عثمان، وازداد جمعه بانضمام عمرو بن العاص إليه، ومن الواضح أن تطور الأمور على هذا النحو يرجع إلى أن معاوية وبني أمية وأحلافهم كانت تغلب عليهم من أول الأمر نزعة السياسة والاتجاه إلى القوة والرياسة، وهذا ظاهر في حالة عمرو بن العاص من أيام الرسول ﷺ، وظاهر في حالة معاوية بن أبي سفيان الذي لبس ثياب رجال الملوك واتخذ هيئتهم وزعم لعمر بن الخطاب أن هذا مجرد مظهر وأنه يتخذ له هيبة في قلوب المحكومين ورهبة عند الأعداء، ومن بادية الأمر أخذ معاوية يستدعي إليه ويسند إليهم الأمور ويعطيهم الأموال، واستشرى الأمر في أيام عثمان عندما أخذ معاوية ينفق الأموال على الجند ورؤسائهم خاصة، حتى اصطنعهم وصاروا رجاله. أما بنو هاشم فقد حافظوا على الاتجاه الديني الذي عرفوه في أيام الرسول ﷺ وخلفيته أبي بكر وعمر ورأسهم في ذلك علي بن أبي طالب، وكان عمر قد اشتد مع الناس وحملهم على الجادة حتى تعبوا من حكمه واستطالوا أهامه كما يقول المؤرخون وفي أثناء اجتماع أهل الشورى رفض علي ما اشترط عليه عبد الرحمن بن عوف التزام طريق الشيخين، فلم يوافق على ذلك لا لأنه كان لا يرى ذلك بل لأنه وهو من أكابر أصحاب رسول الله وأهل العلم والفقه في الإسلام، يريد أن يحتفظ بشخصيته المستقلة فتحول عنه عبد الرحمن بن عوف إلى عثمان بن عفان وكان يعرف مقدماً أن عثمان سيقبل، وكانت الغالبية لا تريد رجلاً يسير فيهم في شدة عمر، وأحس علي بن أبي طالب بذلك، ويؤثر عنه أنه قال إن قريشاً

تكرهني لا كرهها في وإعما رغبة في أن يصيبوا شيئاً من غنى العيش الذي احتجعت لهم أسبانه، وكأنما كان علي يريد أن يمكس مقرني ثور صحر من السير واحب أن ينطلق. ولم يكن يستطيع بداهة أن يقف في وجه التيار وحده. وحسر المعركة السياسية وإن لم يخسر العسكرية، وكان من الممكن أن يعي الناس إليه من جديد، ولكن الموت الغادر عاجله فاصبح المجال أمام معاوية، وحلأ له المهيدان وكانت الحرب قد طالت والفتنة قد نفلت وطأتها على الناس ومالت بهم أنفسهم إلى المسألة وخاف الصلحاء على مصير الأمة من استمرار الفتنة، ثم إن مكاسب السياسة وسلطان الرياسة لم يكونا عندهم بشيء يذكر، اذا اقتضى الأمر الحفاظ على وحدة الأمة.

وكان صلحاء الناس قليلين، أمبا الغالبية فتسارعت إلى طلب الدنيا وحازوها وأصبح في استطاعة معاوية أن يعطيهم منها، فاستقام له الأمر وأصبح صاحب السلطان المطلق في دولة الإسلام وما دام معاوية ومن انضم اليه من طلاب السلطان قد ملكوا زمام القوة، فلم تكن لهم القدرة على الوقوف عند الحد المأمون بعد أن ذاقوا طعم السلطان المطلق وأصبح عمادهم الوحيد على القوة ولم يعد لبني أمية أنصارهم صبر على المخالفة، فجرى القتل ظلماً على الناس وبعد مقتل حُجْر بن عدي وأصحابه قال القائل: لا زالت العرب تقتل بعد ذلك أبداً. ومن مصرع حجر إلى مصرع الحسين وآله رضي الله عنهم خطوة، والسلطان غلاب ونشوته تطيش لها العقول وتضل البصائر وطريق الدم بلا نهاية فغرق بنو أمية. سفانيون ومروانيون - في الدماء وسالت دماء الخوارج وقُضي على كل معارض وبعد استشهاد الحسين تحرك الندم في قلوب الكثيرين من المسلمين وبدأوا يتجمعون تحت راية الدعوة لآل علي فاشند حماس الناس للدعوة الهاشمية وصارت ناراً تحت الرماد، وأصبحت الهاشمية لواء يستظل به كل راغب في العدل وكراره للملك العضوض، وثاب نفر من الأنصار المنهزمين إلى رشدهم وتصدوا لبني أمية فأكلتهم السيوف في وقعة الحرة يوم الأربعاء ٢٨ ذو الحجة سنة

٦٣ هـ، وما كان حواراً بين فريقين من أمرة واحدة تحت سقيفة بني ساعدة، تحول إلى اقضاء عن السلطان للمعلولين من الأنصار بعد فوز القرشيين، ثم أصبح اليوم مذبحة، ففي يوم الحرة كانت نهاية القوة السياسية للأنصار في قلب الدولة، ففرقت بقيتهم في الأمصار ووجدوا عد الناس كرامة ومحبة، ففيهم الكثير من الصحابة والتابعين وكانت من بينهم بيوت لها شأن، فعلا شأنها في الأمصار وخاصة في مصر والمغرب والعراقين وخراسان، وانضم إليهم في خراسان حلفاء بيت علي بن أبي طالب وأحلاف الرسول من خزاعة وأسلم، وتجمعت تلك القوى كلها في خراسان وفي ساحة السياسة كان الفوز للامكر والأدهى اما في ساحة الحرب فكان النصر للأقوى قالت الخلافة إلى العباسيين بعد ثورة داخلية عربية في مجموعها، فقد كان الصراع بين عرب وعرب وما كان الموالي إلا مرجعين للكفة واختيار أبي مسلم لقيادة الجبهة العباسية كان حيلة، وأبو مسلم كان مجرد راية لم تلبث أن تحطمت وخلص السلطان لبني العباس، في حين بدأت الدعوة الشيعية تتحول إلى لواء يتجمع حوله الداعون إلى العدل والراغبون في التفكير عما أصاب آل البيت برد الأمر إليهم. وسرت دعوة آل البيت في جماهير الناس ولقيت منهم قبولاً عاماً. فالمتدللون الذين وقفوا عند الميل العاطفي والبعد عن العنف صاروا هاشميين في عواطفهم وانجاساتهم، وأما المتحمسون والمتطرفون والمغامرون وطلاب السلطان، فقد تحطوا نطاق العاطفة وطلبوا السياسة والقوة عن طريق تنظيمات مستورة، لم تلبث أن تحولت إلى ما يسميه بعض المؤرخين أنه أكبر مؤامرة في التاريخ يريدون بذلك الدعوة الفاطمية.

نهاية الوحدة القرشية :

في غضون ذلك ماذا أصاب فريشاً؟

الذي أصابها أنها انتهت كوحدة قلبية ومجتمع صغير متماسك بقوة العصبية ووصوح الهدف والعباية، وقد ذهب ابن خلدون إلى أن القبيلة وأر

حلف القبائل، إذا وصل إلى السلطان وتحول إلى دولة انحلت قوته وضعف بنيانه بضيايع العصية وعلبة الترف على رجاؤهم واستئمانهم إلى مهاد الدعة والترف، وهذا كلام لا يصدق إلا على الأحلاف القليلة الصحمة مثل حلف قتاتل صنهاجة الجيل الأول الذي أقام دولتي بني زيري في المغرب الأوسط في النصف الثاني من القرن المحجري الرابع، وحلف صنهاجة الجيل الثاني أو صنهاجة الصحراء الذي أقام دولة المرابطين في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، وحلف قبائل مصمودة الذي أقام دولة الموحدين في القرن السادس الهجري، لأن هذه جماعات قبلية ضخمة جداً تقيم الدولة بسواعد رجاؤها وتبقى منها بعد ذلك جماعات ضخمة تتولى السلطان وتتقل من البداوة إلى الحضارة وتتأثر طبائع أفرادها بهذا التحول، ومثلها في ذلك مثل قبائل الأتراك السلاجقة وقبائل الأتراك العثمانية فكلا هاتين القبيلتين أقام الدولة، ثم تولى من بقي منهم وهم كثيرون أمورها واستمتع بثمراتها، وأدى بهما هذا الاستمتاع إلى الضعف ثم التدهور والضياع.

ولكن قريشاً كانت قبيلة صغيرة جداً، وهي لم تقم الدولة بنفسها، بل أقام الدولة غيرها، وهيات لها الظروف سبيل الوصول إلى السلطان في دولة الإسلام بفضل ما كان عليه قادتها من الميل إلى السياسة والسعي نحو القوة ولقد كان القرشيون في الجاهلية نجاراً مهرة أو بارعين فانتسعت أذهانهم وعظمت أحلامهم وتدربت أو تعودت على معاملة الناس وسياستهم بتدبير شئون المال لهم، وربطوا ذلك بالحج وشئون الديانة الوثنية، فجعلوا مكة حجاً للمعرب أجمعين واستفادوا من نظام الأسواق ليجمعوا أسواقهم في الحجاز في موسم الحج. ونهاية العام القمري يجمع العرب ومصوب أمواهم، فنالوا بذلك رياسة فكرية دينية مالية، ولكهم لم يتجهوا في الجاهلية إلى طلب الرياسة السياسية في شبه الجزيرة لأن الرياسة السياسية في تلك العصور ما كانت لتتم إلا بالقوة العسكرية، وكانت قريش أقل حجاً وأضعف قوة من الوصول إلى ذلك.

ثم وقفت قريش من الإسلام موقفها الذي فصلناه أثناء وفي صراعها مع الإسلام انقسمت قسمين صغير دخل في الإسلام وكبير عاداه، مما أضعف قواها، واستطاع سادتها الوثنيون المحافظة على سيطرتهم على مكة، وطلت كتلة القبيلة متماسكة فيها حتى فتح مكة، فدخلت بقية قريش الإسلام دفعة واحدة عند الفتح كما رأينا.

وقد خسرت قريش في صراعها مع المدينة رياستها الدينية، وعلى الرغم من بقاء الكعبة محجاً لمن استطاع الوصول إليها من العرب، فإن الرئاسة الدينية انتقلت إلى المدينة بفضل الإسلام، وابتداء من عمرة القضاء أو عمرة القضية انتقلت الكعبة إلى الإسلام وفقد القرشيون جاههم الديني، وتلاشى هذا السلطان الديني عند فتح مكة ودخول الكعبة أمة الإسلام، وتحول الحج من حج وثني إلى حج الإسلام فتلاشى بذلك إلى غير رجعة عماد القوة الرئيسي الذي أقام عليه عبد المطلب جاه قريش. وفي أثناء الصراع مع أمة الإسلام فقدت قريش معظم أموالها، وفقدت بذلك عماداً من أقوى عمد قوتها وجاهها.

وقد أعاد الرسول صلوات الله عليه وحدة قريش وأدخلها كلها في الإسلام جملة. وبعد وفاة الرسول مباشرة ونتيجة لما وقع في سقيفة بني ساعدة حدث أول انكسار خطير وعميق في وحدة قريش بعد الإسلام، لأن الاتجاه إلى إبعاد علي بن أبي طالب وبني هاشم عن السلطان أحدث صدعاً خطيراً في كيان قريش، ولم يظهر ذلك الصدع في صورته الخطرة أيام أبي بكر وعمر، ولكنه ظهر في خلافة عثمان.

فتنة عثمان

ثورة من جماعات كبيرة من العرب على رئاسة قريش :

والذي طهر في خلافة عثمان بمكر اعتباره على وجه من الوجوه ثورة من العرب على قريش، لأن أقواماً ضخمة من العرب خاصت معارك القتال في

حروب الردة وفي الفتوح، واستشهد منهم ألوف ولكن الرياسة طلت دائماً بيد قريش ولندكر الألوف الذين استشهدوا في معارك فتح العراق، ويكفي هنا أن نذكر معركة الجسر في شعبان ١٣ هـ/ ٢٢ أكتوبر ٦٣٤م التي استشهد فيها أربعة آلاف عربي حلهم من ثقيف وشيبان وعيم، وفقد أربعة آلاف آخرون من نفس القبائل، وكان من بين الشهداء رجل مثل أبي عبيد بن مسعود الثقفي الذي هجم وحده على القيل وضرب خرطوميه وبرك عليه القيل فقتله، وقد طل عمر يكي الى آخر حياته كلما ذكر أبا عبيد. وحق في معركة البويب (رمضان ١٣ هـ/ نوفمبر ٦٣٤م) التي أخذ المسلمون فيها بثأرهم وانتصروا على الفرس، كانت ضريبة الدم التي دفعوها باهظة من القبائل التي ذكرناها مضافاً اليهم بكثافة والأزد وتونوخ، وهذه القبائل هي التي تحملت معظم الخسائر - في هذه المعركة - ولم تخسر قريش الا أعداداً لا تذكر. فقد كانت لها في معظم الأحوال الرياسة والنصيب الأكبر من المغنم ويكفي أن نذكر ما أصاب المثنى بن حارثة الشيباني، فقد كان هذا الرجل - مهما قلنا في كفايته العسكرية - قريباً جداً من المثل الأعلى الإسلامي اخلاصاً وصدقاً وتغانياً وإيثاراً ثم يعزل ويحل محله قرشي ويحمل دون أي تعويض.

ولكن قيادة قريش كانت موفقة رغم انكار جماعات من العرب لرياستها فتم فتح العراق وهزيمة الفرس وفتح الشام، ولكن معظم الفضل يرجع الى الجنود البواسل الذين خاضوا هذه المعارك وجادوا بدمهم دون تردد، ولقد أشرنا الى عظيم فداء الأنصار في حروب الردة لكي يكتب النصر كله لخالد بن الوليد ويكون منه بعد ذلك ما يكون.

ولم يكن العرب الذين خاضوا هذه المعارك ليفسوا على قريش مكانة ولا رياسة ولا مالا، ما دامت الفتوح الكبيرة في طريقها، والمشارك فيها يغنم بعد رضى الله وعظيم ثوابه مغنم وافرة، فمن أدرك ثواب الآخرة بطور له ومن عاش وجد عنده مالا وافراً يتفق معه عن سعة وقد قُدر دخل المغال العربي العادي

خلال العصر العمري ثلاثة آلاف دينار في العام ، فتعود هذه الجندي الانفاق عن سعة وأحسن انه سيجد عوضاً طيباً من خيرات الدنيا إذا نسا الله في أجله ، فانفق على أهله عن سعة وأعناه ذلك عن النظر إلى السلطان أو السياسة فتركها لأهلها من قريش ومن ارتضتهم قريش معها في الرياسات وتدير الأمور .

وكان أبو بكر الصديق قد ساوى بين الناس في تقدير الأوراق والأعطيات ، وقال قوله المشهورة : هذا معاش والنسوية فيه أحسن ، ثم جاء عمر وله نظرة أخرى ، فأعاد تقدير الأوراق بحسب السابقة في الإسلام والقربة من رسول الله ﷺ ، فاختلفت حظوظ الناس ، وجاءت أرزاق من أسلموا عند الفتح وعام الوفود وما بعد ذلك قليلة ، فلا سابقة لهم في إسلام ولا قرابة من رسوله . ولم ينتبه أحد إلى ذلك في حينه ، فقد كانت الغنائم وافرة والوارد كثيراً وعرب نجيم وشيبان وبكر والأزد وبقية اليمن ومن إليهم لم يشعروا بالتفاوت في الأرزاق ، لأنها مهما بلغت كانت قليلة جداً بالنسبة إلى مغنم المحاربين من الأسلاب والأحاس .

ولكن الأمر بدأ يتغير من منتصف خلافة عثمان ، فبعد معركة نهاوند لم تعد هناك مغنم ذات بال ، فقد انتهى العرب إلى آخر المدائن الغنية في فتوحهم ، سواء في الشرق أم الغرب . ففي الشرق وجدوا أنفسهم مشتبهين في حروب مع جماعات قبلية من الإيرانيين وأتراك وفي الغرب لم تكن هناك وراء إفريقية بلاد فيها ملوك أو قصور أو أموال ، إنما هي قبائل متابدة في الجبال وغاية ما يكون منها ماشية وصبي ، والماشية لا تجد من يشتريها . والسبي أين يباع ؟ ولم يكن العرب قد عزموا على فتح بلاد دولة الروم في آسيا الصغرى ليجلدوا مغنم ذات قيمة ومد السنوات الأولى لخلافة عثمان انحسرت موجة الغنائم الوافرة ، والعربي بطبعه متلف للمال ، فهو لم يدحر شيئاً ، وحقاً وحده أن الفيض قد غاص وهنا بدأ ينتبه إلى قلة نصيبه من الأرزاق وهي المرتات

هذا هو الذي حرك الناس للفتنة على عثمان ، ولكن تلك الحركة ما

كانت لتبلغ المبلغ الذي بلغته لولا ما أصاب قريشاً نفسها من تفكك، ومع التفكك ضاعت الهيبة، ومن هنا نجح الناس على قريش والخليفة القرشي. ولقد كانت قريش تحكم الناس وتجد عندهم الطاعة والتسليم إلى آخر أيام عمر بن الخطاب، لأن القرشيين كانوا إلى ذلك الحين قوة معنوية كبرى تمنحها جباه أعين العرب وغير العرب. وقد روى الطبري بإسناد مختلط حسراً من فتوح أرمينية يبدو لنا وكأنه رمر على ما نقول، فقال بعد أن دخل عبد الرحمن بن ربيعة وسراقة بن عمرو بلاد أرمينية، أن المسلمين اجتازوا الباب من هناك أي باب أرمينية في جبال آذربيجان، فتعرض لهم ملك الناحية وكان فارسياً يسمى شهربراز: وسأل قائدهم ما تريد قال «عبد الرحمن بن ربيعة»: أريد بلنجر وهي عاصمة أرمينية قال شهربراز إنا لنرضى منهم أن يدعونا من دون الباب، قال عبد الرحمن بن ربيعة لكننا لا نرضى منهم بذلك حتى نأتيهم في ديارهم، وتأنى إن معنا لأقواماً لو ياذن لنا أميرنا في الإبعاد لبلغت بهم الروم قال: وما هم؟ قال: أقوام صحبوا رسول الله ﷺ ودخلوا في هذا الأمر، بنية، كانوا أصحاب حياء وتكرم في الجاهلية فإزداد حباؤهم وتكرمهم، فلا يزال هذا الأمر دائماً لهم، ولا يزال النصر لهم حتى يغيرهم من يغلبيهم، وحتى يلفتوا عن حالهم بمن غيرهم، فغزا بلنجر غزاة في زمن عمر لم تتم فيها امرأة ولم يتم فيها صبي وبلغت خيله في غزائهم البيضاء على رأس مائتي فرسخ من بلنجر. ثم غزا فسلم، ثم غزا غزوات في زمن عثمان، وأصيب عثمان حين تبدل أهل الكوفة في إمارة عثمان لاستعماله من كان ارتد استصلاحاً لهم^(١) فلم يصلحهم ذلك، وزادهم فساداً أن سادهم من طلب الدنيا وعضلوا بعثمان حتى جعل يمثل.

وكنث وعمرأ كالمسئس كله فحدثه أنيابه وأظافره^(٢)

(١) يزيد مروان بن الحكم وسعيد بن العاص ومن على شاكلته من أساءوا إلى عثمان وهبطوا سمعة قريش.

(٢) الطبري، تاريخ ١٥٨/٤

أما سر هذا السلطان المعوي العظيم الذي كان لعمر فهو إخلاصه البالغ للإسلام والمسلمين، وحمه قريشاً تحت جناحه وأخذ بهجرها حتى لا تقع بين رجالها الفتنة فتضيع، والأخار في هذا أكثر من أن تحصى ولكن ها هنا خرين أسوقهما مما فعل عمر وأبو عبيدة في عام الرمادة وهو عام ١٨ للهجرة، وقد أصابت أهل المدينة مجاعة وشدة. قال الطبري بإساده وأصابت الناس في إمارة عمر رضي الله عنه سنة بالمدينة وما حولها فكانت تسمى إذا ريمت^(١) تراباً كالرماد، فسمي ذلك العام عام الرمادة فألى عمر الابدوق سمناً ولا لبناً ولا لحماً حتى يحيا الناس من أول الحيا والمطر، فكان بذلك حتى أحيا الناس من أول الحيا، فقدمت السوق عكة من سمن وطب من لبن فاشترها غلام لعمر بأربعين درهماً ثم أتى عمر فقال يا أمير المؤمنين قد أبر لله بينك وعظم أجرك. قدم السوق وطب من لبن وعكة من سمن فابتعتها بأربعين، فقال عمر: أغليت بها فتصدق بها فإني أكره أن أكل اسرافاً، وقال عمر كيف يعني شأن الرعية إذا لم يعني ما يحسبهم^(٢).

وإليك الخبر الثاني الذي يعطيك مثلاً آخر بليغاً من علو طبقة القرشيين الذين تولوا أمر الناس بعد رسول الله ﷺ وعرفوا كيف يرتفعون بقريش ويؤكدون للناس - بخلقهم لا بسطانهم - أن قريشاً جديرة بقيادة العرب في نور الإسلام، وقد عرف رجالها كيف يمثلون أخلاقيات الإسلام ويضربون المثل العظيم للقيادة الإسلامية الرشيدة، وبهذا المثل قامت قريش بعد عشرتها وعرفت كيف تستعيد مركزها في أعين العرب، قال الطبري بإساده وكتب عمر إلى أمراء الأمصار يستفيهم لأهل المدينة ومن حولها ويستمدهم (في عام الرمادة) فكان أول من قدم عليه أبو عبيدة عامر من الحراج في أربعة آلاف راحلة من طعام، فوله قسمتها فيمن حول المدينة، فلما فرغ ورجع إليه أمر له بأربعة آلاف درهم، فقال لا حاجة لي فيها يا أمير المؤمنين، وإنما أردت الله وما قبله

(١) أي تهب عليها إذا هت الريح

(٢) الطبري، تاريخ ٩٨/٤

فلا تدخل على الدنيا، فقال خذها، فلا بأس بذلك إذ لم تطلبه، فأبى فقال: خذها فإني قد وليت لرسول الله ﷺ مثل هذا، فقال لي مثل ما قلت لك، فقلت له كما قلت لي، فأعطاني، فقبل أبو عبيدة، وانصرف إلى عمله وتتابع الناس واستغنى أهل الحجاز وأحيوا من أول الحيا^(١).

بمثل هذا الخلق الرفيع والتهمم بشئون الناس أصبحت قريش إلى آخر خلافة عمر سيدة العرب وقائدة دولة الإسلام الناشئة، وزاد في جاء قريش أن معظم قادة الفتح كانوا منها، فإلى جانب أسماء كبار الغانحين الأول، أبي عبيدة عامر بن الجراح وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وسعد بن أبي وقاص، برزت أسماء عبدالله بن عامر بن كرز «من بني عبد شمس» وعياض بن غنم بن زهير الفهري وعبدالله بن سعد بن أبي السرح ونافع بن عبد القيس الفهري ثم ابنه عقبة بن نافع وأضرابهم عن اثبتوا دون مجال للشك أن قريشاً هي قاعدة العرب ومناط وحدتهم ورمز مجدهم. وإلى هذه الفترة يرجع تميز قريش على غيرها من قبائل العرب في القيادة والسياسة والحرب، ولم يؤكد هذه المعاني أحد كما أكدها عمر بن الخطاب فإلى جانب مزاياه العديدة المعروفة للناس تميز عمر بشعور عربي غالب، فكان يرى أن العرب أيما كانت قبائلهم أهل العز والشرف والسؤدد وقاعدة الاسلام، وهو في هذا الاتجاه يسوي بين العرب جميعاً، فهو الذي أبدى المشي بن حارثة الشيباني وأشاد به، وهو الذي اختار أبا عبيد بن مسعود بن عمر الثقفي وسعد بن عبيد الأنصاري حليف بني فزارة لقيادة بعض القوات الداهية إلى العراق، بل جعل أبا عبيد بن مسعود بن عمرو قائداً للحيش، وعندما خاطبه الناس في ذلك وقالوا له: أُمّر عليهم رجلاً من السابقين من المهاجرين والأنصار، كان حواب عمر: «لا والله لا أفعل، إن الله إماما رفعكم سبقكم وسرعتكم إلى العدو، فإذا حسنتم وكرهتم اللقاء، فأولى بالرياسة

(١) الطبري، من المصدر والخر. ص ٩٨

منكم من سبق إلى الدفع، وأجاب إلى الدعاء! واللّه لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتداباً، ثم دعا أنا عبيد وسليط (من قيس) وسعد (بن عبيد الأصاري حليف بني فزارة) فقال: أما أنكما لو سبقتاه لوليتكما ولأدرتكما بها إلى ما لكما من المقدمة. فأمر أنا عبيد على الجيش وقال لأبي عبيد اسمع من أصحاب النبي ﷺ وأشركهم في الأمر، ولا تحتهد مسرعاً حتى تتبين، فإنها الحرب والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكث الذي يعرف الفرصة والكف^(١)، وبمثل هذا الانصاف والعهم وروح الأبوة والرياسة ساس عمر الناس، وتأكدت بعد أبي بكر أهلية قريش للرياسة واستمر علو شأنها، ولم يتناول على منافستها أحد، وكان عمر أيام الرسول شديد العصية لقريش، ولكنه عندما تولى الخلافة نسي عصبية القرشية وانتقل بحماسة إلى العرب جميعاً.

ولكن قريشاً لم تستمر على هذه الخطوة، لأن استمرارها كان يتطلب رجالاً من طراز أبي بكر وعمر، وكان رجل من هذا الطراز موجوداً وهو علي بن أبي طالب، ولكن التيارات داخل جماعة الشورى التي اختار رجالها عمر بن الخطاب انتهت بالخلافة إلى عثمان بن عفان، وكان صحابياً جليلاً ومؤمناً عظيماً ولكنه لم يكن بطبعه موهباً لقيادة الأمور في الظروف الصعبة التي تولى فيها، فالفتوح في طريقها وقبائل العرب في حركة دائمة داخل الدولة، وكانت السيطرة على حركة الفتوح والهجرة التوسع النطاق تحتاج إلى يقظة بالغة وإدراك دقيق لحقائق المناسبة التي كانت أمة الإسلام تعيشها إذ ذاك، ولسنا هنا بسبيل نقد أعمال عثمان أو إبداء الرأي في سياسته وطريقته في اختيار رجاله وأعماله والحكم عن تصرفات أولئك الرجال، ولكننا نبه إلى أثر ذلك كله في ظهور الفتنة في منتصف خلافته ثم اتساع مداها بعد ذلك حتى أدت إلى قتله في ١٧ ذي الحجة سنة ٣٥ هـ / ١٦ يونيو ٦٥٦ م وهو حادث بلغ الخطورة والأثر في مسار تاريخ الإسلام وتاريخ قريش.

(١) الطبري، تاريخ ٤٤٥/٣

ولن ندخل هنا في تفاصيل ما حدث، فهذا يخرج عن نطاق هذا البحث من ناحية، ثم إنه يدخل بنا في مناقشات ومناورات لا بد من التعرض لها من قراءة سليمة مستوفية للصوصل، وهنا ليس موضع هذه الدراسة إنما سيكون موضعها كتابا عن علي بن أبي طالب إذا مد الله في العمر ويسر الأسباب.

والذي يعني هنا ونحس نؤرخ لقريش، هو أن الذي حدث - أيا كان الرأي فيه - أصبر بقريش في جهتها ضرراً بالغاً: أصبر بالهاشميين وبالعشيمين كما أصبر بالوحدة القرشية لأن قريشاً استمدت قوتها وهبتها - عليها قام سلطانها بعد الرسول ﷺ من وحدتها وظهورها أمام العرب جبهة واحدة تملك القيادة وتسير بها في الطريق السوي كما حدث أيام أبي بكر وعمر، فالذي حدث الآن هو أن وحدة قريش تصدعت وبصرف النظر، عمن كان على حق ومن لم يكن في الحوادث التي سبقت مقتل عثمان، فإن أمر الخلاف بين عثمان ونفر من الصحابة، وإنكار هذا النفر لمسلك عثمان أوجد الطريق للكاهن لسيادة قريش من العرب لكي يرفعوا رؤوسهم في وجهها والجرأة عليها، وقريش كانت رئاسة العرب بعد الإسلام وحتى لو كانت رياستها سليمة عادلة ومنصفة، فإن الرئاسة في ذاتها تخلق الخصوم والأعداء وخاصة في نفوس العرب، وهم قوم أهل أنفة وكبرياء يمسر عليهم الانصياع بعضهم لبعض، إذ إن طمع العربي يجعله يشعر أن وجود أية رئاسة عليه عدوان على شخصيته وكرامته وهذا أمر شائع في الجماعات القبلية جميعاً، حيث تأبى الوحدات القبلية سيادة بعضها على بعض ويحس شيوعها أن مجرد قبولهم لأي صورة من صور رئاسة واحد منهم على الباقي فيه عدوان عليهم مهما كان نوع هذه الرئاسة ومهما بلغ من عدلها أو استقامتها. وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك في مقدمته في حديثه عن العرب أولاً ثم عن البربر ثانياً ولنا حاجة إلى ذكر إشارة ابن خلدون في هذا المقام، فتلك الحقيقة الخاصة بطبيعة القبائل ورياستها حقيقة مسلم بها في علمي التاريخ والاحتماع.

وكانت أنظار العرب كلها متجهة لقريش متحفزة لإنكار رياستها إذا

وجدت إلى ذلك سبيلاً والدولة بعد ذلك حديثة والطام حديد واندرج العرب في نظام سياسي واحد كان شيئاً لم يألفه العرب في الجاهلية ، وكانت أسير وحوه التصدع في صغوب القيادة القرشية كافية لأن تفتح الطريق أمام الكارهين لقريش والمعصين لرياستها لتحديها ، وكانت المناقشات التي دارت بين عثمان وعليه الصحابة ، وما وجهوه إليه من نقد تصل إلى الناس مع ما لا بد منه من تضييم وتشويه وتحريف ، وإذا كان كبار الصحابة أنفسهم لم يسمحوا لأنفسهم بإطلاع الناس على ما يثور بين رجال القيادة القرشية من خلاف ، فإن رجالاً من كبار الصحابة من غير قريش لم يطبقوا الصبر على ما رأوه مما تصوره أنه انحراف عن الجادة وتحدثوا به في أوساط الناس ، وكفي أن نشير هنا إلى عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وأبي ذر الغفاري ، وذلك إلى جانب الكثيرين من الأنصار الذين لم يكونوا راضين عن الوضع أصلاً وهؤلاء جميعاً كان لهم عند العرب قدر ومكانة فهم صحابة أجلاء وهم في نظر العرب الذين أسلموا عام الوفود أو بعده ، أصحاب سابقة في الإسلام ولا يقلون عن قريش مكانة ، فإذا تكلموا في نقد قريش وسوء تصرف بعض رجالها وما كان من انحراف عثمان في رأيهم عن الجادة وتركه أهل بيته يتصرفون في شئون الدولة وأموالها ، فإن الناس يصغون لهم ويرون معهم أن قريشاً لا حق لها في هذا الانفراد برياسة المسلمين ما دام الخليفة الثالث منهم قد انحرف عن سواء السبيل .

وأما من ذلك بالنسبة لمصير قريش نقد كبار القرشيين بعضهم لبعض واجتهادهم في إظهار معائب عثمان وأخطائه وخطورة انفراد بني أمية بقيادة أمة الإسلام ، وهؤلاء النفر من الصحابة قرشيون وغير قرشيين والذين تكلموا في عثمان وآل بيته كانوا في الحقيقة يصغفون من شأن قريش جملة ويغرون الناس بها ويؤكدون في أذهانهم أن إمامة الأمة تكون في الأصلح من المسلمين قرشياً أو غير قرشي ، وهنا نلظن أنه نشأت عبارة الأئمة من قريش التي تحولت إلى حديث نسوي نجده مروياً في معظم الصحاح ، والعمارة في داتها لا يمكن أن تكون

حديثاً نبوياً لأن رسول الله ﷺ الذي عانى ما عانى من عباد القيادة القرشية وأتانيها، ورأى بعينه أن غير القرشيين كانوا أسرع فيها للإسلام وأعمق إيماناً به من القيادة القرشية في مكة، ما كان ليقول الأئمة من قریش لا على معنى أن الإمامة هي الإمامة الدينية، أي إمامة الصلاة، أو الإمامة السياسية. فأما الإمامة الدينية فقد أناب الرسول عن نفسه في المدينة عند حروجه منها إماماً أنصارياً، أو رجلاً ضريراً من المهاجرين هو عبدالله بن أم مكتوم، وأما الإمامة بمعنى الرياسة السياسية فقد كان هم الرسول متجهاً إلى بناء المسلمين أمة وأفراداً بناء داخلها أي إيقاظ الضمير والإحساس بفضيلة الأمة، وفضيلة كل فرد من أفرادها عند كل مسلم، والقرآن يقصد إلى ذلك في المكان الأول بتوجيهه الكلام إلى الإنسان تارة وإلى جماعة المؤمنين تارة أخرى، لأن الغاية الأساسية هي بناء المؤمن الصحيح، وهو أساس أمة المؤمنين القوية المتماسكة بالإيمان القائمة على وحدة الإيمان المرتبطة بحبل الله المتعصمة به والله سبحانه يتكفل بهدايتها إلى الطريق السوي ويكفها من اختيار قيادتها الصالحة وقد حدث هذا عندما توفي الرسول ﷺ، فإن الأمة عرفت طريقها واستقر أمرها على قيادة جماعة يرأسها أبو بكر وهو أصلحها لتولي أمورها. وأبو بكر لم يتجه إلى حكم الناس بل اتجه إلى مواصلة السير بالجماعة في طريق الرسول ﷺ دون نظر إلى رياسة أو مظهر زبابة، وكان الرأي للأمة أثناء خلافته، وعلى نفس الطريق وإنما بأسلوب آخر - سار هم، فإن عمر لم يكن يحكم الناس وإنما كان يضرب المثل ويمثل القدوة. ولم يكن عمر رغم عرويته الظاهرة يتحيز لقریش، بل لما فيه صالح الأمة، وقد رأينا مثلاً واحداً في اختياره لعبيد بن مسعود الثقفي للقيادة وتفضيله على السابقين من المهاجرين والأنصار لأنه كان أسرع منهم انتداباً لنفسه للحرب، وقد فصلنا موقف عمر في تلك المناسبة

التصدع الخطر في القيادة القرشية :

والذي حدث عند محيى عثمان كان شيئاً حديداً لم ترص عنه الأمة،

فلم يعد الخليفة أو الإمام قدوة في نظر الجميع، بل أطلقت شكوك كبيرة حول ملكاته وقدراته الإدارية وكان البادئون بالشك قدماء المهاجرين والأصبار، وهم كانوا في مجموعهم يمثلون قيادة الأمة على اعتبار أنهم أعرف الناس بطريق رسول الله ﷺ وأقدرهم على السير فيه أي أنهم كانوا ممن تستمع الأمة إلى ما يقولون. ولا يهم هنا عدد الذين لم يكونوا راضين عن عثمان وإدارته من هؤلاء، لأن المهم هو أن القضية طرحت، والشك في قدرات القيادة القرشية تطرق إلى القلوب وتلغته اذان صاغية من العرب ممن كانوا على شيء من المعرفة بشئون السياسة والحكم من أمثال أزد يمامة وعبد القيس وشيبان ويكر وتغلب وغسان، وهؤلاء جميعاً دخلوا الإسلام متأخرين سنة تسع للهجرة وربما قبلها بقليل، ولم يكن قريش عليهم فضل ولم يكن يرر طاعتهم لقريش إلا إذا استطاعت قريش أن تثبت لهم أنها أصلح الفئات لقيادة أمة الإسلام. أما الآن وقد تسرب الشك إلى النفوس وتسامع الناس بما يقال من أن الخليفة القرشي عثمان يدير شئون الدولة لصالح بيته، فإن المناخ السياسي في الدولة بدأ يتغير، وسواء أصدقت تلك الشائعات أم لم تصدق، فالهمم أنها أصبحت مطروحة بين الناس، وأبدها نفر من الصحابة، واعين أم غير واعين.

واستمع إليهم الناس ووجدت عند الكثيرين منهم قبولاً، والدولة وسياساتها كانت أموراً جديدة جداً على العرب جميعاً بمن فيهم القرشيون، ولم يعرف أهل القيادة والقدرة أن أي كلمة منهم كان لا بد لها أن تحدث صدى خطيراً في أذهان الناس. وعمرو بن العاص مثلاً عندما كان يواجه النقد الشديد لعثمان كان لا يعرف أنه بتقده هذا يمهّد لقتل عثمان، ويكفي أن تضرب هنا مثلاً بموقف خزاعة، وخزاعة كانت قبيلة هاماً جداً في ذلك الحين، لقد كانت خزاعة قبيلة يمية الأصول وميوها من أول الأمر كانت يمية، وكانت ناضرة من قريش، لأن قريشاً أحرقتها من مكة، مل أشاع القرشيون في الحاهلية ما شاءوا من الأقوال للإرراء بخزاعة. وأقوالهم في عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي الذي

قيل إنه أول من غير دين اسماعيل ودعا العرب الى عادة الأصنام وأحفاده من بني قُمبر بن حُثية بن سلول، وانه أبو غيثان حُلَيْل بن حشية بن سلول الذي يقال إنه باع مفتاح الكعبة من قصي بن كلاب نزق خمر. كل هذه الأقوال التي كانت تطلقها قريش في مجالسها عن خزاعة كانت تحدث شذوفاً عميقة في نفوس الخزاعيين.

خزاعة هذه التي خاصمت قريشاً بسبب ما فعلته فيها أيام قحبي بن كلاب، كسبها عبد المطلب بن هاشم إلى جانبه وثبت بعد ذلك مع الهاشميين وقيل إن عبد المطلب عقد معهم حلفاً وكتب كتاباً، ثم انضمت خزاعة إلى الإسلام وأخلصت لله ورسوله وانضم الفريق الأقوى منها، فريق بريدة بن الحصيب الأسلمي إلى رسول الله وصار من عليّة أصحابه، وكان الخزاعيون من بني كعب بن عمرو «عبيّة نصيح» لرسول الله وهم الذين دخلوا في حلف أمة الإسلام بعد صلح الحديبية في حين انضم بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة إلى قريش، وكان عدوان هؤلاء على بني كعب الخزاعيين هو الذي حرك مسير رسول الله ﷺ لفتح مكة، وفي مسيره إليها لقيه بنو كعب عند قديد وأظهروا ما عرفوا به من الولاء فاعتبرهم جميعاً مهاجرين أي من قومه سواء هاجروا إلى المدينة أم لم يهاجروا، وبعد فتح مكة دخل فريق عدي بن عمرو بن عامر بن لحي بزعامة بديل بن ورقاء في الإسلام.

وطوال أيام الرسول ﷺ في المدينة كان بريدة بن الحصيب الأسلمي من أقرب الناس إلى علي بن أبي طالب الذي كان يمثل الفرع الهاشمي بين الصحابة، وكان صاحب لوائه في مسيرته إلى اليمن، وعندما صارت الخلافة لعثمان خرج بريدة بن الحصيب وقومه إلى البصرة، وكان لهم بعد ذلك دور عظيم في تاريخ خراسان.

هؤلاء الخزاعيون لم يرصهم عثمان ولا سياسته، وما شاع وذاع بين

العرب من تحكيمه آل بيته من بني أمية في رقاب المسلمين وهم معدورون إذا صدقوا ما ترامي إليهم وساء طهم في قيادة قريش الأموية، وكان معظم أهل الاحساس من أهل البصرة تبعاً لرأي خزاعة وسيدها بريدة بن الحصيص، وعندما رحل بريدة ومن معه إلى خراسان كانوا قد نعضوا أيديهم من قريش بني أمية. وإن ظل ولاؤهم لقريش بني هاشم وسيكون لذلك أبعاد الأثر في قيام الدعوة الهاشمية التي تحولت إلى عباسية على ما هو معروف

وهذا ما كان من شأن خزاعة - نتيجة لاستبداد بني أمية - على عظيم صلتها بقريش، فإن خزاعة معها كان من أمرها هي حجازية، فما بالناس يهيم وغطفان وهوازن وبقية فروع قيس عيلان بن مضر من عرب وأعريب، وكلهم كانوا منكبين لمكانة قريش بين العرب ثم سيادتها للعرب برسول الله ﷺ، بل ما بالناس بموقف من لم يكونوا مضرين أصلاً مثل الازد وبقية قبائل اليمن ممن ظلوا في منازلهم في اليمن ونواحي الجنوب أو هاجروا منها إلى الحجاز وبأدي الشام والعراق ونجد ؟

هؤلاء جميعاً - وعلى درجة متفاوتة - أحسوا بتصدع جبهة قريش ونزعوا ثقتهم منها، والحقيقة هي أن جبهة قريش تصدعت أثناء خلافة عثمان، وإذا كانت قريش هي قيادة العرب أو صفوتها القائدة فإن التصدع هنا تصدع في القيادة والراس وهو أخطر أشكال التصدع في الرياسات والقيادات، وتصدع بناء الدول بالتالي. وقد تحدثنا بتفصيل في ذلك في كتابنا الحاضرة في مجال عرضنا لأراء المؤرخ المعاصر أرنولد توينبي عندما تعرض في دراسته المشهورة للتاريخ لموضع تصدع الأمم والجماعات والدول وتدهورها^(١)، وهو الذي يسميه توينبي بتصدع الصفوة القائدة وتصدع جبهة قريش وهي الصفوة القائدة أدى بالضرورة إلى تصدع جبهة العرب، وهم كانوا الفئة القائدة في أمة الإسلام، وأعقب ذلك بدايات تصدع أمة الإسلام حملة. وفترة عثمان كانت بداية الصدع الخطير في بناء

(١) انظر كتابنا الحاضرة، الكويت ١٩٧٧ ص ٢٥٢ وما يليها

أمة الإسلام، وهو تصدع لم يراه أحد قط بل تزايد مع الزمن، وكانت أولى ضحاياها قريش نفسها: هي التي انشقت على نفسها ومهدت الطريق بذلك لصياع أمرها جملة.

ونقف لحظة عند ما ذكرناه وما يسمى عادة بفتنة عثمان، فإن دارس التاريخ الإسلامي يعرفها ويراهها فيما كان من قيام الناس على عثمان وقتله، ثم ما كان من الحروب الأهلية بين علي ومعاوية، التي انتهت بقيام الدولة الأموية. وقيامها كان صدعاً هائلاً في جبهة قريش وشذخاً خطيراً في بناء أمة العرب، لأنه أعز فريقاً من قريش والعرب وأذل فريقاً، وإذا كانت أمة العرب إذ ذاك من القوة بحيث لم تشعر شعوراً عميقاً بالكسر الذي أصابها فإنها لم تلبث أن شعرت به عندما هدا حماس الفتوح وتناثر العرب في نواحي دولة الإسلام الكبرى. هنا وبعد سقوط دولة بني أمية لم يكن في الحقيقة قد بقي لقريش إلا الاسم العظيم والجاه المنق. أما قريش القائدة، قريش الصفوة فقد تلاشت مع الأيام

قُريش تهدم قُريشاً :

وفي الصراع السياسي المحتدم بين بني أمية وخصومهم، أساءت قريش إلى نفسها أضعاف ما أساء إليها غيرها، فإن السياسة أعمت عيون بني أمية تماماً وأنستهم قرشيتهم فكانوا شراً على قريش من ألد أعدائها، ولينظر مثلاً فيما فعله يزيد بن معاوية ورجاله للقضاء على عبدالله بن الزبير، ومن انضم إليه من أهل الحجاز ومكة والمدينة، وفهم قرشيون كثيرون، فقد أحب يزيد أن يبعث جيشاً على رأسه عمرو بن سعيد بن العاص وكان عامله على الحجاز ثم عمره وأراد الآن أن يعيده فقال: «قد كنت صطت لك البلاد، وأحكمت لك الأمور فأما الآن إذ صارت إنما هي دماء قريش تهراق بالصعيد، فلا أحب أن أكون أنا أتولى ذلك، يتولاها منهم من هو أبعد منهم مني قال: فبعثني (يزيد) بذلك

الكتاب إلى مسلم من عقبة المري - وهو شيخ كبير ضعيف مريض - فدفعت إليه الكتاب فقرأه وسألني عن الخبر فأخبرته، فقال لي مثل مقالة يزيد، أما يكون بنو أمية ومواليهم وأنصارهم بالمدينة ألف رجل! قال: قلت: بل يكونون قال: فما استطاعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار! ليس هؤلاء بأهل أن يصروا حتى يجهدوا أنفسهم في جهاد عدوهم وعز سلطانهم، ثم جاء حتى دخل على يزيد فقال: يا أمير المؤمنين لا تنصر هؤلاء فهم الأذلاء دعهم يا أمير المؤمنين حتى يجهدوا أنفسهم في جهاد عدوهم وعز سلطانهم، ويستين لك من يقاتل منهم على طاعتك ويصبر عليها أو يستسلم: قال ويحك إنه لا خير في العيش بعدهم فأخرج فأنبني نبأك فمخرج مناديه فنادي: سيروا إلى الحجاز على أخذ اعطياتكم كملا ومعونة مائة دينار توضع في يد الرجل وساعته، فانتدب لذلك اثني عشر ألف رجل^(١).

وزيد بن معاوية بن أبي سفيان القرشي يرسل هذا الجيش للقضاء على من خلع طاعته من أهل المدينة وعلى رأسهم عبدالله بن حنظلة الغسيل، فحنظلة الغسيل هو ابن حنظلة بن عبد عمرو أبي عامر الفاسق، وكان حنظلة الغسيل هذا من خيرة المسلمين على خلاف أبيه أبي عامر الفاسق من بني عمرو ابن عوف الأوسيين وقد استشهد حنظلة في أحد وقيل إن الملائكة غسلته فسمي بحنظلة الغسيل، وابنه عبدالله هذا قاد أهل المدينة في وثوبهم على يزيد بن معاوية سنة ٦٣ هجرية، فوثبوا على عثمان بن محمد بن أبي سفيان ومن معهم في المدينة من بني أمية، فحاصروهم الناس في دار مروان بن الحكم «حصاراً خفيفاً»، والآن يريد أن يعاقب أهل المدينة فلا يجد من يختاره ليقوم بذلك إلا مسلم بن عقبة ابن رباح وهو من بني مرة بن سعد بن ذبيان، وذبيان من أعراب نجد من قيس عيلان بن مضر، وزيد لا يأمن أن يقول له هذا المري الذبياني أن المحاصرين من بني أمية في المدينة «هؤلاء هم الأذلاء» مع أن ذبيان كانت من أشد قبائل أعراب نجد حسداً لقريش وعاداً للإسلام، وهذا الرجل سار في ناس كثيرين من

(١) الطبري ٤٨٢/٥ - ٤٨٣ وما بعدها

أعاريب تحد من عبس وذبيان وغطمان ليعتكروا بأهل المدينة من الأنصار ومن انضم إليهم من القرشيين في الثورة على يزيد، ومسلم بن عقبة المري بعد أن قتل عبدالله بن حنظلة وقطع رؤوس من معه من الأنصار دعا الناس للبيعة على أنهم حوّل ليزيد بن معاوية يحكم في دمائهم وأموالهم ما شاء^(١) يزيد ينسى ها أنه يذل الأنصار ونفراً من قريش وهم قومه .

ومسلم بن عقبة المري الديباني كان يحارب أهل المدينة ومكة وفي نفسه مرارة بالغة على قريش، ومن المؤكد أنه كان يعبر عن حقد القبائل غير القرشية على قريش . ومن أوضح الدلائل على ذلك هذا الخبر الذي يرويه الطبري عن عوانة بن عبد الحكم قال : وأما عوانة بن الحكم فذكر أن مسلم بن عقبة بعد أن انتصر على أهل المدينة وبعث عمرو بن محرز الأشجعي (من أشجع بن ريث بن غطفان) فاتاه بمعقل بن سنان (القرشي) فقال له مسلم : مرحباً بأبي محمد : أراك عطشان قال : أجل قال : شربوا له عسلاً بالثلج الذي حملتموه معنا - وكان له صديقاً قبل ذلك - فشابهوه له فلما شرب معقل قال له : سقاك الله من شراب الجنة : فقال له مسلم : أما والله لا تشرب بعدها شراباً أبداً حتى تشرب من شراب الحميم : قال أنشدك الله والرحم : فقال له مسلم : أنت الذي لقيتني بطبرية ليلة خرجت من عند يزيد فقلت : سرنا شهراً ورجعنا من عند يزيد صفراً ! نرجع إلى المدينة فنخلع هذا الفاسق ، ونبايع لرجل من أبناء المهاجرين ! فإم غطفان وأشجع من الخلع والخلافة أبي أليت ييموني لا الفاك في حرب أقدر فيه على ضرب عنقك إلا فعلت : ثم أمر فقتل^(٢) .

فكان مسلم بن عقبة المري الديباني . وهو من ذبيان من قبائل أعاريب

(١) الطبري ٤٩٥/٥

(٢) الطبري ٤٩٢/٥ - ٤٩٣

وجد الحاقلة على قريش، كان يشند على قريش لأن بعض القرشيين كانوا يرون أن أعاريت عطفان وأشجع ومن إليها لا دخل لهم في شئون السياسة وليس لهم أن يتدخلوا في شئون تولية الخلفاء وعزلهم، فهذا شأن قريش وحدها.

وإليك برهاناً على حقد مسلم من عقبة المري على قريش. قال هشام (بن السائب الكلبي) حدثني عوانة (بن الحكم) قال: دعا الناس مسلم من عقبة بقباء إلى البيعة (ليزيد) وطلب الأمان لرجلين في قريش: ليزيد بن عبدالله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى ومحمد بن أبي الجهم بن حذيفة العدوي (من بني عدي قوم عمر بن الخطاب) فقال: بايعا؛ فقال القرشيان نبايعك على كتاب الله وسنة نبيه، فقال: لا والله لا أقبلكم هذا أبداً؛ فقدمها فضرب أعناقهما؛ فقال له مروان: سبحان الله أتقتل رجلين من قريش أتيا ليؤمنا فضربت أعناقهما؛ فنخس بالقضيب في خاصرته ثم قال: وأنت والله لو قلت بمقاتلتها ما رأيت السماء إلا برقة^(١). ومروان هذا هو مروان بن الحكم سيد بني مروان وبني أمية كلها، بخاطبه هذا الكري الديباني بهذه الجرأة التي لا تخلو من احتقار.

بل هناك ما هو أدل من ذلك على حقد ذلك الرجل على قريش طراً وإليك هذا الخبر يرويه الطبري: «قال هشام وذكر عوانة أن فيمن خرج عمرو بن عثمان لم يكن فيمن خرج من بني أمية (لللقاء مسلم في المدينة) وأنه أتى به يومئذ إلى مسلم بن عقبة، فقال يا أهل الشام نعرفون من هذا؛ قالوا لا، قال هذا الخبيث ابن الطيب؛ هذا عمرو بن عثمان بن عفان ابن أمير المؤمنين، هيه يا عمرو إذا ظهر أهل المدينة قلت: أنا رجل منكم، وإن ظهر أهل الشام قلت أنا ابن أمير المؤمنين عثمان بن عفان فأمر به فتنفت لحيته. ثم قال: يا أهل الشام إن أم هذا كانت تَدْخُل الحُجُل في فيها ثم تقول يا أمير المؤمنين حاجيتك ما في فمي؟ وفي فمي ما ساءها وناءها فخل سبيلها وكانت أمه من دوس^(٢)».

(١) الطبري ٤٩١/٥ - ٤٩٢. يردد ما رأيت السماء إلا برقة عين

(٢) الصري ٤٩٤/٥

وبعد وقفة الحرة في ٢٨ ذي الحجة ٦٣ هـ واستسلام المدينة وإذلال أهلها أنصاراً ومهاجرين، اتجه مسلم بن عقبة إلى مكة ليستولي عليها ويقضي على عبدالله بن الزبير الذي كان يسميه الكافر، توفي في المحرم سنة ٦٤ هـ فدعا الحصين بن غير السكوني (والسكون من كندة) وقال له يا ابن بردعة الحمار، أما والله لو كان هذا الأمر إليّ ما وليت هذا الجند، ولكن أمير المؤمنين ولاك بعدي وليس لأمر أمير المؤمنين مرد. خذ عني أربعاً. أسرع السير، وعجل الوقاع وعمّ الأخبار ولا تمكن قرشياً من أذنك، ثم أنه مات فدفن بقفا المشلل^(١).

وهنا يتجلى لنا سبب كراهة مسلم بن عقبة المري وخليفته لأهل المدينة ومكة. فهي في لبابها عداوة لقريش إنها مظهر من مظاهر حقد أهارب قبائل قيس عيلان بن مضر على قريش سائلة الياس بن مضر، وإذا أضفنا إلى ذلك أن معاوية بن أبي سفيان هو الذي أوصى ابنه يزيد باستخدام مسلم بن عقبة إذا عصاه أهل الحجاز تبيننا كيف أن جشع السياسة استولى على عقل معاوية بن أبي سفيان وجعله لا يحفل لمصير قريش ليحافظ على عرشه لنفسه ولابنه، فلو قلنا هنا أن قريشاً هي التي هدمت قريشاً ما جاوزنا الحقيقة، وإنه لمن العجيب أن تحافظ قريش الكافرة في الجاهلية على وحدتها وتسير في طريقها قوة واحدة مجتمعة، ثم نحيء الخلافة بعد ذلك وما تعنيه من قوة سياسية ومال وجاه، فتعمي عيون القرشيين وينتابهم هذا السعار الذي رأينا بعض أطرافه. والأمر هنا لا يقتصر على بني أمية وما فعلته ببني هاشم، بل إن الذي قاد الجيش الذي قتل الحسين بن علي وآله كان يقوده عمر بن سعد بن أبي وقاص وهو قرشي، والحسين وآله الذين استشهدوا في يوم كربلاء كانوا قرشيين، استشهدوا وماتوا على أيدي قرشيين بسبب السياسة ومطامعها.

وسنرى شبه ذلك في تصرف ابراهيم الإمام بن علي بن عبدالله بن

عاس الذي در مع أبي مسلم أمر نقل الدعوة من بني علي إلى بني العباس، فقد أوصاه ناز بتحايش المصريين جميعاً من أهل خراسان وأن يعتمد على الأرد والموالي، وها أيضاً نرى كيف أن قريشاً هدمت قريشاً

انْثِقَالُ وَلَاءِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى قُرَيْشِ بَنِي هَاشِمٍ وَنَهَايَةُ قُرَيْشِ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ :

إذن فإننا نستطيع أن نقول وبدون دخول في التفاصيل إن فتنة عثمان كانت بداية النهاية بالنسبة لسيادة قريش، حقاً أن دولة بني أمية قامت واستمرت معها سيادة قريش في عالم الإسلام، ولكن بني أمية لم يكونوا كل قريش، أما بقية قريش ومعها بقية أمة الإسلام فقد استبد بها الضيق ببني أمية، وما زال الضيق يتزايد حتى كانت الثورة العباسية، وهي كانت من ناحية القيادة ثورة قرشية، أما من حيث تكوين صفوفها وطبيعة الغالبية العظمى ممن حملوا لواءها فقد كانت ثورة على قريش كلها وحرماً على قيادتها لدولة الإسلام، وليس بغريب والحالة هنا أن نجد موقف العرب والمسلمين من بني أمية وسيادتهم يعود بذاكرة المسلمين وعواطفهم إلى موقف الجانب الفاضل من قريش، - جانب حلف الفضول - من الجانب الطامع والطامع من قريش الذين كان يمثلهم بنو عبد شمس وبنو مخزوم وهم جماعة الأحلاف أو لعقة الدم، فكان الصدع القديم في صفوف قريش الجاهلية قد عاد إلى الظهور في قريش الإسلام، ولكن التصدع هنا كان عميقاً واسع الشقة لأن موضوع الخلاف بين الجاهنيين في الجاهلية كان يسيراً هيناً وهو سيادة مكة، أما الآن فإن موضوعه سيادة دولة الإسلام، وإذا كانت أمة الإسلام في هذا الصراع الجديد لم تنف وراء بني هاشم وقرواً واضحاً صريحاً أول الأمر حتى مقتل علي بن أبي طالب، فقد تجمعت القلوب كلها إلى حاب بيت علي وبني هاشم حملة بعد مصرعه الأثيم، وهذه النهاية الحزينة هي التي جمعت القلوب حول أساء علي، وماذا نوصح أن قريشاً تتصدع خاصة وأن مواقف بعض كبار الصحابة من القرشيين من أمثال

الزبير بن العوام، وطلحة بن عبد الله زعزعت في أذهان الناس الصورة الحميلة التي نشأت عن سياسة أبي بكر وعمر، ثم قتل الزبير بن العوام وطلحة بن عبد الله في صراع سياسي صريح على السلطان وهما يقاتلان رعيماً صحابياً قرشياً ثالثاً هو علي بن أبي طالب، ثم استشهد علي بن أبي طالب وبقي معاوية ابن أبي سفيان سيد الموقف، فالتقط الخلافة وكأها هدبة سبقت إليه، وقد تسم ذروة الخلافة عبر واثق من نفسه أول الأمر وتركته الأمة يستقر ويشت دعائم سلطانه لا تسلياً له، بل رغبة في المحافظة على وحدة الأمة التي تصدعت ومهددت بالخطر. فاستمر معاوية المرعى وتحول إلى حاكم مستبد وتعدي هو ورجاله على الأموال والأبشار وأخاف الأمة وظهر في نظرها في مظهر الطاغية المستبد، وإذا كان معاوية قد مثل إذ ذاك زعامة قريش فقد خاب ظن الناس في هذه الزعامة، وكانت تلك هي أقوى ضربة أصابت زعامة قريش، فقد نزع الناس ثقتهم منها وإن ظلت الآمال معلقة بالجانب المنهزم من قريش جانب الهاشميين.

ثم كانت واقعة كربلاء أيام يزيد واستشهد جماعة من أهل البيت على رأسهم الحسين بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء على يد رجال يزيد بن معاوية سليل بيت عبد شمس، وقد كان بيت علي بن أبي طالب قرشياً ولكنه كان شيئاً آخر أعظم من ذلك في نظر الأمة، إنهم آل البيت، آل بيت رسول الله ﷺ، وآل بيت كل مسلم، فإن العدوان عليهم كان عدواناً على كل مسلم على حدة وهو عدوان على عشرة الرسل ﷺ، وهذا العدوان قد تم على يد الرئاسة السياسية القرشية وتم على صورة لم تكن لتخطر قط ببال مسلم، وقريش في الجاهلية وفي عنفوان عداوتها للإسلام لم تجرؤ على أن تمس رسول الله ﷺ بأذى يذكر، ولكن بني أمية القرشيين المسلمين أقدموا على ما لم يقدم عليه أوجهل الكافر، فلا عجب إن تلاشت هيئة قريش من نفوس الناس وعادت إلى أذهان الناهيين من أفراد الأمة ذكريات موقف الغالية من الزعامة القرشية من علي بن أبي طالب وقوله إن قريشاً تكرهي، فامتضت

القلوب من حول الزعامة القرشية الأموية والتفت حول الهاشميين لا على أنهم من قريش بل على أنهم عترة الرسول وأهل بيته ورمز للمظلومين من رجال أمة الإسلام

وقد ارتبطت بالزعامة القرشية الأموية مظالم وبشاعات أخرى زادت أمة الإسلام بغوراً منها، فكان استشهاد الحسين رضي الله تعالى عنه في العاشر من المحرم سنة ٦٣ هـ وغزو المدينة على يد رجل من ذبيان كاره لقريش ورياستها، وقد رأينا ماذا فعل هذا الرجل بالانصار والقرشيين بما فيهم أمويون، ثم حصار مكة على يد رجل من السكون من كندة، وكل هذا كان بأمر الخليفة الأموي القرشي وكانت موقعة الحرة ومصارع أجلاء الصحابة من الانصار ونفر من المهاجرين، واقتحم جند بني أمية مدينة الرسول ﷺ وقتلوا وسبوا واستهانوا بحرمه الكعبة، فكان قريشاً الوثنية أدركت في ذلك اليوم من الإسلام ما لم تدركه من المدينة يوم أحد. ونفاصيل هذه الاخبار كلها واردة عند الطبري وغيره بتفاصيل كثيرة وليس إلى الشك سبيل في أن هذه الأحداث أياً كانت الدوافع إليها كانت كلها بعيدة الأثر عميقة الشدوخ في تاريخ الإسلام كله. فاستشهاد الحسين رضي الله عنه كان المولد الحقيقي لحركة الشيعة، فما من حادث نزل بآل البيت كان أوجع للمسلمين من ذلك الخطب الجليل، وما من مسلم إلا أصيب في صميم نفسه في ذلك اليوم فانعقدت على أثر هذه الجريمة عقدة الشيعة وأصبح لديها سبب واضح ملموس، وكافٍ لجمع القلوب وكسب الانصار، لأن العدوان على الحسين وآله على النحو البشع الذي وقع به كان صرخة الثورة على الحكم الأموي، لأن المسلمين إذا سكتوا على ذلك استشرى الشر وعم البلاء فلم ينبج منه مسلم وارتبطت هذه الفعلة البشعة بأسماء قادة عرب من قريش، فإن الخليفة الذي تمت بأمره قرشي وعبيد الله من زياد الذي قام بالتنفيذ منسوب إلى قريش وإلى بيت السفينيين من بني أمية، وكان قائد الجيش الذي فتك بالحسين عمر بن سعد بن أبي وقاص قرشي وهو ابن واحد من أجل

الصحابية . كان هؤلاء هم الذين مثلوا السلطان القرشي إذ ذاك ، فقد حلت تبعه الجريمة كلها على قريش وكان المصابون فيها من قريش أيضاً .

ولن ندخل في تفاصيل تلك الحوادث الشيعات ، فكلها أياً كان نصيب الروايات التي أنتنا بحبرها من الصحة أو المبالغة فلها كلها تشين قريباً وتدل على أن قريشاً بالفعل لم تحس قيادة العرب فقد انحرفت عن الطريق لأول محنة واختبار . والكلام هنا لا ينصب على بني أمية بل على العرب جميعاً في قيادة قريش لأن الأمور إذا كانت قد صارت إلى بني أمية ثم إلى يزيد بن معاوية منهم ، فهذا كان نتيجة تصرف قريش ورأيها ، فمن قريش كان عثمان ، وقريش كانت تستطيع حماية عثمان لو أرادت ، وقريش هي التي أهدت أول الأمر اختبار علي بن أبي طالب ، وقريش هي التي اختلفت حوله والناس لها في ذلك كله لقريش تبع ، وعندما كان رأس قريش أبو بكر رشدت ورشد الناس معها ، وعندما كان رأسها عمر رشدت زهدت ولكن قريشاً في جلستها كانت متجهة اتجاهاً ظاهراً نحو السلطان ، وتلك كانت تركة السقيفة ، فإذا كان أبو بكر وعمر قد استطاعا أن يغلبا الدين على الدنيا في حكومتيهما فإن بعض أهل الشورى لم يكن منهم من قوة العزم والزهد في الدنيا ما يمكنهم من أن يكونوا شهداء لله ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين ، ولقد كانوا حقاً خيرة المسلمين من قريش وكان فيهم من يستطيع أن يسير في الأمة بهدى الرسول ، ولكنهم مالوا إلى غير ذلك قصداً وهم يعلمون ، ونحن هنا لا نقول رأياً بل نحكم بالواقع والنتائج ، لأن الأمور إذا كانت قد سارت في طريق الويال ، فإن الذين اتخذوا القرار في اجتماع الشورى كان يمكن أن يكونوا قد جانبهم الصواب عند اتخاذه ، وإلا فكيف سارت الأمور في هذا الاتجاه الخطر إذا كانوا قد اتخذوا القرار عن تقدير سليم لمسئليتهم ونحن نكتب مثل هذا التاريخ لتدل المسلمين على ما يمكن أن يكونوا قد وقعوا فيه من خطأ لعلهم يتفعون بما يقرأون ، وإذا كنا نكتبه لمجرد التماس الأعذار لمن تقع عليهم المسؤولية ، فإننا لن نرشد بعد ذلك أبداً .

وليس من المعقول أن تقع الأمة كلها في هذا الشرثم لا يكون هناك مسئول إلا أن تكون لعنة من الله قد قدرت علينا وحاشى الله أن يكون ذلك، فنحن بعد أمة الإسلام وأمة الله وأولى الناس بالرحمة إذا كنا نستحقها.

وإذا أردت أن تستبين وجه الحق فيما نقول فإني أضرب مثلاً واحداً من الواقع، فإننا إذا كنا لا نعلم على وجه الحق ماذا دار في اجتماع الستة، فإن لدينا حادثاً نعرفه ويمكننا الاستفادة منه، فقد كان سعد بن أبي وقاص أحد الستة، وقد ألقى بصوته في الناحية التي ارتضاها، ثم كان ابنه عمر بن سعد ابن أبي وقاص من قادة بني أمية، وعبيد الله بن زياد عندما أراد أن يسيره لقتل الحسين وآله بدأ فأقامه عاملاً على الري، وهي ولاية واسعة غنية جنوبي بحر قزوين عرفت كذلك باسم طبرستان، وفي مكان مدينة الري تقوم اليوم طهران، فلما صار عمر بن سعد بن أبي وقاص صاحب هذه الولاية وتعلق قلبه بما سيناله فيها من خير وورق، أمره عبيد الله بن زياد بأن يمضي بأربعة آلاف للقاء الحسين ومن كان معه من آل البيت وأنصارهم وهم لا يزيدون على مائة مقاتل وأراد عمر ابن سعد بن أبي وقاص أن يعفيه عبيد الله بن زياد من محنة قتل الحسين فقال له عبيد الله: على أن ترد لنا عهدنا أي أن تتنازل عن ولاية الري، أي أنه خير بين الولاية مع الجريمة أو تجنب الجريمة ولا ولاية. وهنا نجد هذا الرجل عميراً بين الدين والدنيا وبين الضمير والكسب، وأخيراً زلت به نفسه إلى الدنيا عندما رأى إصرار عبيد الله بن زياد، يقول الطبري راوياً عن أبي غنم: «فلما رآه قد لجج قال: فلاني سائر قال: فأقبل في أربعة آلاف حتى نزل بالحسين من الغد من يوم نزل الحسين نينوى، غير بعيد من موضع كربلاء»^(١).

فهذه صورة من الواقع تريك حقيقة مواقف بعض هؤلاء الرجال وتوزع أنفسهم بين الدين والدنيا، وقد يكون شعورهم بهذا التوزع قليلاً لأنهم جميعاً

(١) انظر التفاصيل عند الطبري ٤٠٩/٥ وما بعدها.

كانوا يحسبون أنهم على بينة من أمرهم أو أنهم كانوا إلى جانب الحق وهم في الحقيقة بعيدون عنه . ونادراً ما كانوا يدركون ذلك أو يعترفون به . وأن الإنسان ليدّش كيف كان القوم جميعاً يحسبون أنفسهم على الحق ويستعينون بالله في أمورهم ، حتى الدين ذهبوا لقتل الحسين كانوا يتحدثون عن التقى والإيمان ويسألون الله التوفيق فيما هم سبيله ، وهذه حالة من خداع النفس لا تكاد تصدق . ثم نجىء نحن بعد ثلاثة عشر قرناً من هذه الأحداث فتعصب جانب دون جانب ونقطع بأن الحق كله كان هنا وأن الباطل كله كان هناك ، وهو موقف فيه أيضاً الكثير من خداع النفس أو التماس السلامة ، ولكنه لا يحترم الحقيقة التاريخية ولا يعين القارىء على الرؤية الواضحة وبدون رؤية واضحة لا تاريخ جديراً بأن يسمى تاريخاً .

والذي يتوقف النظر ويدعو إلى العجب أن قريناً التي حسب الإسلام سياسة أول الأمر ، فأحجمت عن الدخول فيه كما رأينا في حالة أبي جهل وأصحابه ، لم يتغير موقفها هذا بعد دخوله . فقد جهد الرسول طوال الفترة المكية في إقناعهم بأنه ليس طالب ملك أو سلطان سياسي أو مال ، وإنما هو داع إلى هداية ، فأصروا على موقفهم وكان هذا فراق ما بينهم وبينه حتى هجرته ، فلما أنشأ الرسول الكريم أمته في المدينة حرص على أن يجعلها بناءً دينياً أخلاقياً معنوياً ، جانب السياسة والكسب المادي فيه قليل وهو حتى بعد أن أدرك النصر المؤزر وتم له فتح مكة وأتته القبائل طائفة مسلمة لم يغير الأمر من دين إلى سياسة ولي كل تصرف من تصرفاته ظل دائماً الداعي إلى الله بإذنه ، البشير النذير والسراج المنير ، وانظر إليه في مكة بعد فتحها تر فيه النبي المرسل ولا ترى فيه الرئيس الديوي قط وأصحابنا الذين يتحدثون عن محمد رئيس الدولة يُشبهون أولئك القرشيين في تصورهم السياسي في دعوة محمد ، ويستدل معصهم على أن محمداً أقام دولة الإسلام بأنه كان له صلوات الله عليه «عمال» على مكة واليمن واليمامة والبحرين مثلاً ، ولفظ عامل هنا يؤخذ بمعناه الذي

كان له بعد الرسول وهو الحاكم أو الوالي، والحقيقة أن العامل أيام الرسول هو العامل على الصدقات أي المشرف على إحراج الناس إياها المتقبل لما يخص الله ورسوله والجماعة منها، وكذلك ما يخص العاملين أو العمال من الصدقات وهو جد قليل فعمال محمد صلوات الله عليه لم يكونوا حكاماً، وأوضح مثل لذلك هو عتاب بن أسيد الذي أقامه على مكة وهو ابن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس ولم يكن حاكماً على مكة وإنما مجرد عامل على صدقات أهلها، ولم يكن لديه أي تكليف سياسي حتى إنه عندما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى وارتجت مكة وتفاقت حركة المنتهين وأهل الردة لم يقم عتاب بأي دور سياسي إذ لم تكن له وظيفة سياسية، وإنما قام بذلك رؤساء قريش ومسادها الحقيقيون بعد أن أسلموا وأعلنوا أنهم يقفون إلى جانب الأمة وأبي بكر، ولم يحفل أحد منهم بعتاب أو يقيم له وزناً بل لم يطالبه أبو بكر بأي دور سياسي، وعندما توافد كبار القرشيين على أبي بكر ليشركوا في حروب أهل الردة لم يتحرك عتاب ولا ساءله أبو بكر في ذلك، بل تركه على عمل الصدقة حتى مات أبو بكر وعندما قام أهل الردة لم يعتد أحد منهم على المصدقين أو العمال، لأنهم لم يكونوا ولاية ولا حكاماً، وأبو بكر نفسه لم يكتب إلى أحد منهم كتاباً يكلفه فيه بأي عمل سياسي أو عسكري .

وذلك كله ناتج من أن الرسول في إنشائه الأمة لم يجعلها قط دولة، ولم يجعلها من أمة الإيمان إلى دولة السلطان، لأن مناط قوة الأمة في إيمانها وتأخيرها وتمسكها بحبل الله وعروته الوثقى التي لا انفصام لها، فكل فرد من أفراد الأمة خادماً لهذا المثل الأعلى ورسول الله كان يؤمّر من يشاء من أصحابه على سراياه وبعوثه، فإذا انتهت السرية انتهت معها الإمارة وعاد الأمير عضواً عادياً في الأمة لا لقب يحمله ولا راتب يفرض له، والجماعة تسوس نفسها بالخير والبر ومراعاة المثل الأعلى وهو الله سبحانه والاسوة الحسنة في ذلك هي الرسول صلوات الله عليه، فهو المثل الأعلى في صورة إنسان من الشر . وعندما اتسع

نطاق الأمة وشملت شبه الجزيرة كلها وأقبلت الوفود إلى رسول الله أنت لتعلن دخولها في الدين والخضوع لشريعته، ولم يطالب رسول الله وفداً من الوفود بأن يفر مطاعة سياسية لشخصه، وأمامك كتبه التي أعطاها لمن طلب ذلك ممن وفدوا عليه لا تجد فيها أي معنى سياسي، إنما هي تثبيت لقواعد الإسلام في قلوب الناس وحض لهم على التمسك بتلك القواعد، ونشيت لحقوق كل قوم في أرضهم التي كانت لهم ونأمن لهم فيها وتحريم العدوان عليهم. إذا إن المفروض والمطلوب من المؤمنين أن يسوسوا أنفسهم بأنفسهم وأن تكون فيهم أمة أي جماعة منهم تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر وتواصل الجهاد في سبيل الله، فإذا كانت هناك قيادة فهي قيادة جماعية وقيادة أبي بكر كانت جماعية وهو نفسه لم يتصور أنه صار رئيساً يأمر وينهي، ولم يفكر في أن يكون له راتب، بل لم يخطر بباله أن ينقطع للإمامة وإنما كان الناس هم الذين طلبوا إليه ذلك طواعية دون أن يروا فيه حاكماً ومُعَيَّناً، ومضى يسوس جماعتهم سياسة جماعية، يستشير في كل حين ويأخذ بما يشير به الناس عليه.

وعمر أيضاً سار على مذهب القيادة الجماعية وهو لم يمارس سلطانه على أنه رئيس بل مستحث للناس على المسارعة إلى القيام بالواجب، وعندما دعا الناس إلى التطوع لفتح فارس اختار من تقدم متطوعاً، واختار أبا عبيد بن مسعود، وعندما طلبوا إليه أن يؤمر عليهم واحداً من أهل السابقة إلى الإسلام أبى وقال كلمته التي سبق أن ذكرناها: لا والله ما أفعل إن الله رفعكم بسبقكم وسرعتكم إلى العدو فإذا جهتم وكرهتم اللقاء فأولى بالرياسة منكم من سبق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انشداً. وبالصعل ولي أبا عبيد بن مسعود بن عمرو وهو من بني غيرة بن عوف من ثقف، وليست لدينا حالة واحدة اعتسف فيها عمر بن الخطاب طريقه وتصرف برأيه دون استشارة، وقد حدث مراراً أن استشار ولم يأخذ برأي من أشاروا عليه ولكنه كان يعرف ويعترف في تلك الحالات بأنه يتصرف على مسئوليته

ويتحمل هذه المسئولية، وكان شعوره بالآمة ومسئوليته عنها وإمامها عطياً عميقاً، لقد روينا كيف اختار أبا عبيد بن مسعود بن عمرو الثقفي لقيادة الحرب في العراق مع المثنى بن حارثة ولكنه إذ بعثه أمره بأن يستشير قال: «اسمع من أصحاب النبي ﷺ وأشركهم في الأمر ولا تجتهد مسرعاً حتى تتيين فإنها الحرب والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكث الذي يعرف الفرصة والكف»^(١). وعندما اختار عمر أبا عبيد بن مسعود اختاره على مسئولته وأبو عبيد أعجبه اختيار عمر إياه فتفان إلى النهاية وأخذ عن عمر درس الإخلاص للآمة والإحساس بأنه جزء منها لا تميزه القيادة عن إخوانه المسلمين بشيء، فقد حكى الطبري بأسناده قال ولما هزم جاثوس (قائد الفرس) وأصحابه دخل أبو عبيد باروساً ونزل هو وأصحابه قرية من قرأها، فاشتملت عليهم، فصنع لأبي عبيد طعاماً فأبى به، فلما رآه قال: ما أنا بالذي أكل هذا دون المسلمين! فقالوا له: كل فإنه ليس من أصحابك أحد إلا وهو يؤي في منزله بمثل هذا أو أفضل، فأكل فلما رجعوا إليه (أي أصحابه) سألمهم عن طعامهم، فأخبروه بما جاءهم من الطعام»^(٢).

وهذه القدوة الحسنة أخذها الناس عن عمر وهذه أيضاً هي روح القيادة بمعناها الإسلامي الذي أخذه عمر عن رسول الله ﷺ وأخذته الناس عن عمر: فإذا كان رسول الله يوم فتح مكة قد أعفى قريشاً من كل مسئولية عن موقفها المعادي للإسلام قبل الفتح وترك لها الباب مفتوحاً لتدخل دين الله فدخلت، فإن أبا بكر هو الذي أخذ بيد زعماء الكفر السابقين وعهد إليهم في القيادات فبدأت قريش تستعيد رياستها للعرب، ويفضل أبي بكر أهل قريش نفسها لتستحق هذه القيادة في ظل الإسلام ثم جاء عمر فضرب ذلك المثل الرائع في

(١) الطبري، تاريخ ٤٤٥/٣

وتفسير هذه لا تسرع إلى الحركة حتى تتيين طريقك لأن الحرب لا تنفع فيها السرعة المرحاء وإنما يصحح لما ارجل الصور الذي يروي أمره ويعرف متى يتنهر الفرصة ومتى يكف

(٢) الطبري، ٤٥٢/٣

القيادة القرشية، ومعظم ما تمتعت به قريش من جاه بين العرب والمسلمين، راجع إلى المثل العظيم الذي صربه أبو بكر وعمر، وإليك مثل رائع عن اقتداء الناس بعمر في حلقه وقيادته وإخلاصه للمسلمين الصادقين وتغانيه في حبهم، قال الطبري في حديثه عن معركة الفرق بين العرب والفرس وتسمى قس الناطف والجسر والمروحة أيضاً، وهي معركة خسرها المسلمون، ولكن تصرف المسلمين فيها كان أروع من كل نصر، قال الطبري: «فلما رأى أبو عبيد ما يصنع الفيل قال: هل لهذه الدابة من مقتل، قالوا نعم: إذا قطع مشفرها ماتت فشد على الفيل فضرب مشفره فقطعه، وبرك عليه الفيل فقتله». وقال أيضاً «فرجعت الفرس (أي كروا على المسلمين وحصروهم في موضع ضيق يحيط به الماء وأصابوا منهم مقتلة كبيرة) ونزل المشي بن حارثة أُنس، وتفرق الناس فلاحقوا بالمدينة (أي فروا حتى دخلوا المدينة) فكان أول من قدم المدينة بخبر الناس عبدالله بن زياد بن الحصين الخطمي، فأحبر الناس، ثم يقول الطبري بعد اسناد آخر عن عائشة رضي الله عنها «سمعتُ عمر بن الخطاب عندما قدم عبدالله بن زيد فنادى: الخبر يا عبدالله بن زيد: قال: أتاك الخبر يا أمير المؤمنين فلما انتهى إليه أخبره خبر الناس. فما سمعتُ برجل حضر أمراً فحدث عنه كان أثبت خبراً منه فلما قدم فلُ الناس (أي فلول المهزمين) ورأى عمر جزع المسلمين من المهاجرين والأنصار من الفرار، قال: لا تجزعوا يا معشر المسلمين أنا فتكم. إنما انحزتم إليّ» وفي خبر آخر «أن معاذاً القاريء أخا بني النجار كان ضمن من شهدا ففر يومئذ فكان إذا قرأ هذه الآية ﴿ومن يؤلمهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله وماواه جهنم وبئس المصير﴾^(١) بكى، فيقول له عمر: لا تبك يا معاذاً وأنا فتك وإنا انحزت إليّ».

أبو بكر كان يعرف مطامع القرشيين ويحذرهم منها:

وهذا التراث العظيم الذي خلفه عمر لقريش، من خلق سام وإسلام شامل عميق وفهم وثيق لمعنى الرياسة والقيادة ومسئولياتها، ضيعته قريش في برهة زمان أو في لا زمان وكما يقول الإنجليز، فإن عمر رضي الله تعالى عنه توفي طعيناً شهيداً في ٢٩ ذي الحجة سنة ٣٥ هـ / ٦ نوفمبر ٦٤٤ م. وبدأ اجتماع أهل الشورى، وخلال الأيام القليلة التي دامت مشاورات أهل الشورى بدأ الصدع الخطير الذي لم يرأب حتى اليوم لأن أهل الشورى فيما يبدو لم يقدروا خطورة الأمر الذي وكل إليهم: أمر اتخاذ القرار فيه، ولا شك في أن كلا منهم كان يعرف أصحابه حق المعرفة ويعرف من أقدرهم على ولاية أمر الأمة وأن الهوى مال بهم عن هذه الغاية، وما نقول هذا من عندنا ولكن سبقنا أبو بكر الصديق إلى قول مثله، فقد خاطب أولئك القوم يحذرهم من الهوى وهو على فراش موته بعد أن وقع اختياره على عمر، فقد روى الطبري بسند يرجع إلى عبد الرحمن بن عوف: قال الطبري إنه (أي عبد الرحمن بن عوف) ودخل على أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه في مرضه الذي توفي فيه فأصابه مهتاً: فقال عبد الرحمن أَصْبَحْتُ والحمد لله بارئاً! فقال أبو بكر رضي الله عنه أنراه ؟ قال: نعم، قال: إني وليت أمركم خيركم في نفسي، فكلكم ودم أنفه من ذلك، يريد أن يكون الأمر له دونه، ورأيتم أن الدنيا أقبلت ولم تقبل وهي مقبلة حتى تتخللوا ستور الحرير ونضائد المصنوع (وماسد) الديباج وتألوا الاضطجاع على الصوف الأذري (في أذربيجان) كما يألم أحدكم أن ينام على حسك، والله لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه في غير حد خبر له من أن يخوض في غمرة الدنيا وأنتم أول ضال بالناس غدا فتصدونهم عن الطريق يميناً وشمالاً. يا هادي الطريق إنما هو الفخر أو البجر (الأمر العظيم) فقلت له (والتكلم هنا عبد الرحمن بن عوف) خَفَضَ عليك رحك الله، فإن هذا يبيضك (يضعفك) في أمرك. إنما الناس في أمرك بين رجلين: إما رحل رأى ما رأيت فهو معك وإما

رجل حالكم فهو مشير عليك وصاحك (يريد عمر) كما تحب ولا نعلمك أردت إلا خيراً ولم ترل صالحاً مُصلحاً وأنت لا تأسى على شيء من الدنيا^(١).

وكلام أبي بكر يدل دلالة واضحة على أنه يعرف ما كان يجري في أدهان أصحابه، فكلهم كان يريد لها لنفسه وكلام عبد الرحمن بن عوف ليس فيه تسليم بما أمر به أبو بكر من اختيار عمر فإذا كانت هذه هي حقيقة الموقف بالنسبة لعمر فكيف والله يرشحون علياً أو أي رجل آخر كان من الممكن أن يحملهم على الطريق. ولنا هنا في موقف المفاضلة بين صحابي وصحابي فكلهم عندنا من أهل الرضا، ولكن الذي وقع بالفعل أنهم رشحوا عثمان، وهم يعرفون أن إمارة عثمان هي إمارة بني أمية والرجل كان محاطاً بأهله دائماً قبل خلافته وبعدها، فقد كانوا دائماً أهل رأي ومشورة ولم يكن هناك شك في أنه سيستعين بهم، وكانت في الكثيرين منهم كفاية في شئون الحرب والإدارة، وكان فيهم تطلع للرياسة وهذه صفة قدسية معروفة في بني عبد شمس جميعاً. وأبو بكر وعمر اختاروا منهم الكفاية لأعظم المسئوليات، ولكن أبا بكر وعمر كانا أقوى من أن يصرفهما عن الجادة إنسان فلم يكن هناك ضمير في الانتفاع بهم، وأما عثمان فكان بعيداً عن ذلك ثم أنه كان عليل الصحة، عالي السن ولا سابع فحسب من ولايته أحسن الذين اختاروه أنهم لم ينصفوا في الاختيار.

أجل ولم ينصفوا قريباً بذلك وهذا هو الذي يعنينا في هذا المقام، لأن قريباً استحوذت على الرياسة بفصل المثل العظيم الذي ضربه أبو بكر وعمر وكان لا بد لقريش أن تسير في هذا الطريق إذا أرادت أن تدوم لها الرياسة، أما وقد عجزت عن ذلك وقصرت فيه وأسلمت قيادة الأمة إلى بيت شديد العصبية القبلية، شديد التهاوت على الدنيا والسلطان وإلجاء فقد مهدت الطريق بذلك لضياع أمرها.

(١) الطبري، تاريخ ٤٢٩/٣ - ٤٣٠

وقد ضربنا لذلك أمثلة أوضحها ما كان من أمر استشهاد الحسين بن علي وآله في كربلاء، ومع أن الذين حسبوا أنفسهم المنتصرين في تلك المأساة كانوا قرشين، إلا أنه غاب عنهم أن هبة قريش انصدعت في ذلك اليوم، لأنها انقسمت على نفسها انقساماً خطراً واستعان بعضها على بعض بجند مرتزق من أحلاف الأعراب واستحل بعضهم دماء بعض فهانت دماؤهم جميعاً على الناس، ولا يقال هنا إن عرب الشام انتصروا على عرب العراق من أنصار علي بن أبي طالب لأنهم كانوا أشجع أو أشد إيماناً بقضيتهم، وإنما نقول إن ذلك يرجع إلى أن جند الشام كان جنداً نظامياً مدرباً في حين أن جند علي بن أبي طالب كانوا رجالاً متطوعين من أهل الكوفة في الغالب فهم يحاربون احتساباً، حرب المتحمس غير المتمرن للحرب، والحرب حرفة كغيرها، يحسنها المتدرب عليها المحرب فيها، وقد كان رسول الله ﷺ يعرف هذه الحقيقة، فهو يوم استقر في المدينة وبدأ ينشئ الأمة عرف أنها لا بد أن تكون أمة مناضلة أي ما يسمى في مصطلح اليوم بلفظ «مليتان»، وإلى هذا الإدراك البعيد يرجع اهتمامه الدائم بتدريبه رجال الأمة على القتال واختيار المؤهلين بطبيعتهم للقيادات، وقبل معركة بدر كان المسلمون قد خاضوا ثمان معارك وثامتها وهي سرية نخلة كانت أبعدها مدى وأطولها نجعة فقد وصلت إلى حدود حرم مكة وكان فيها قتال وقتل مع قريش، وبعدها مباشرة نزلت آية القتال. والثلاثمائة ونيف الذين ساروا للقتال في بدر كانوا جيشاً نظامياً مدرباً على الحرب عارفاً بما ينبغي لها، بل كان فيهم رجال عمليات عسكرية أو تكتيكيون كما نقول ذوو فهم لطبيعة الحرب وأساليب إدارة المعارك، وخبر الحباب بن المنذر بن الجموح في وضع خطة المعركة معروف، وكان هناك بشير بن سعد وكان من المؤهوبين في قيادة الحروب وقد وصله من الرسول ﷺ إلى مستوى رفيع من المهارة العسكرية، هذا إلى جانب الإيمان الذي لا غنى عنه، أما القرشيون فكانوا سادات أهل مروسة ونخوة ولا ريادة، ولهذا فإن المعركة لم تدم في حقيقة الأمر إلا بعض ساعات ومقيتها إلى الظهر كانت معركة أبي جهل أي معركة القضاء عليه، فقد أصر المسلمون على قتله واستأسد

قومه للدفاع عنه وقتل منهم سبعة عشر رجلاً في معركة الدفاع عنه وأحيراً سقط، وعندما سقط سقطت معه الجاهلية.

مَسْؤُولِيَّةُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ

وقد تعودنا أن نلقي مسؤولية الفتنة كلها على بني أمية ونفوتها بما أن مذكر أن علي بن أبي طالب عندما قامت الفتنة الحقيقية عقب مبايعته بالخلافة في ١٧ ذي الحجة سنة ٣٥ هـ كان ولي أمر هذه الأمة، ولا بد أن يكون له جانب من المسؤولية عما حدث، فإن بداية الفتنة عليه كانت انكار طلحة والزبير وبعض أتباعهما للبيعة التي أعطوها إياه في المدينة وقد فعلاً ذلك بمجرد وصولهما إلى البصرة. ولحقت بهما عائشة رضي الله عنها. وعندما أصر علي على عزل ولاية عثمان تصدى له معاوية وتشجع بما فعل طلحة والزبير وعائشة. وقد تسرع علي بن أبي طالب فخرج بمن معه إلى الكوفة ليقضي على فتنة طلحة والزبير في البصرة. وقد غاب عنه أن مركز الفتنة الحقيقية كان في دمشق ولم يضر علياً شيء مثل الذهاب إلى الكوفة، ولو أنه تدبر أمره لبقى مكانه في قاعدة خلافته وندب الناس لقتال معاوية، بل ربما كان أحجى لو أنه دعا معاوية مثق وثلاثاً وأطلق له بعض الوقت ليروي أمره، وفي نفس الوقت كان يستطيع أن يستدعي الناس لنصرته، ولم يكن موقف علي في المدينة إذ ذاك بأسوأ من موقف أبي بكر عند الردة، ولكن أبا بكر ظل مكانه ودعا الناس فلبوا دعوته فرتب الجيوش واختار القادة وبقي هو في قاعدة خلافته، لأن بقاء رئيس الأمة في عاصمته أعون على النصر، ولو تريث علي شيئاً وبعث يدعو الناس للبيعة فقد كانت المدينة لا زالت مركز كبار الصحابة وكان هناك الأنصار مستعدين لتأييده وفي مثل هذه المواقف لا يفع الرئيس شيء مثل الروية والتدبر والثبات في موضعه ليتجمع حوله الناس، وللمدينة هيبتها ومعظم العرب كانوا مستعدين لنصرته، ولم يكن الناس في كل مكان راضين على ولاية عثمان، ولو بقي علي في

المدينة لاحتفظ بوره لأنه بين قوم لهم في الإسلام سابقة وفصل، وكان معه من قريش عدد عظيم، ومهما بلغ من أمر طلحة والزبير فما كاسا فيما نظن بمهذبين لعلي في المدينة، فلو أقام وتأهب وجمع إليه الناس لتكفلت هيئته وهمة الخلافة ومكانة المدينة بكسب المعركة، ومن المكاسب على أي حال أن جلة قريش كانوا في الحجار، بل إن بعض بني أمية وخاصة مروان بن الحكم وبقية آل بيته لم يكونوا راضين عن معاوية وما فعل ومن المعروف على أي حال أن صاحب السلطان إذا أقام في عاصمته كان ذلك أضمن لقوته واستمرار هيئته، وهمة ولي الأمر هي أكبر عماد له في تثبيت سلطانه.

أما وقد خرج من المدينة فقد ترك وراءه قاعدة خلافته وسلطانه وهيبة المدينة ومكة والأنصار وجلة المهاجرين وذهب إلى جماعات من المغائلة معظمهم من تميم وكندة والأحاريب لم يعرفوا رسول الله ﷺ ولا امتلأت قلوبهم ببيعة الصحابة وجلال المدينة، والحق أن علي بن أبي طالب عندما وصل ذا قار واستقر بها يستعد لدخول الكوفة نشقر أن الأمر خرج من يده. وكل يوم يرد عليه ناس لا يدري حقيقة ما في نفوسهم ونجده بعد أن ترك قاعدة سلطانه يحاول أن يقنع الناس ويجمعهم تحت رايته ليغطي على الفتنة، ولكن أي ناس، لقد كان عرب الكوفة إلى الأمام القريب ينظرون إلى قريش نظرتهم إلى القائد، أما الآن وقد ترك علي قاعدته وألقى بنفسه بينهم فهم يتعللون ويتنايعون ثم يجرؤ ناس منهم عليه من أمثال مسعر بن فدكي التميمي وزيد بن حصين الطائي وشيث بن ربعي والأشعث بن قيس الكندي ويحترثون عليه بما لا يليق، فعندما تبينت لعلي خدعة التحكيم نهى أصحابه هؤلاء عن الاستجابة لها فيقول له «مسعر بن فدكي التميمي وزيد بن حصين الطائي ثم المنبسي، في عصابة معهما من الغراء الذين صاروا خوارج بعد ذلك» يا علي أجب إلى كتاب الله عر وحل إذ دعيت إليه وإلا ندفعك برمتك إلى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفان، إنه علينا أن نعمل بما في كتاب الله عز وجل فقبلناه والله لتفعلنها أو لتفعلنها بك.

قال: فاحفظوا عني نهبي إياكم واحفظوا مقاتلكم لي. أما أنا فإن تطيموني تقاتلوا، وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم! قالوا له: فابعث إلى الاشتري فليأتك^(١).

فهل كان يمكن أن يسمع علي من أبي طالب مثل هذا الكلام لو أنه بقي في المدينة في دار الهجرة وقاعدة الدولة وبين جلة الصحابة والمهاجرين والأنصار الذين يعرفون قدره وإن اختلف بعضهم معه في الرأي، ولكنه الآن مع أولئك الأجلاف الذين نخدعهم معاوية وأصحابه بمكيدة الاحتكام إلى كتاب الله، وهل كان علي منذ تولى الخلافة إلا على كتاب الله.

وكما قلنا إن طلائع العصيان الجاهل على علي بدأت بعد استقراره في الكوفة، بين ناس من العرب لا يعرفون قدره وليس لديهم أي تقدير لمركز الخلافة وصاحبها، ومن هنا فقد جرؤوا عليه وتطاول بعضهم عليه منذ البداية وظن بعضهم أن الخليفة محتاج لصورهم معتمد عليهم، وصدرت عن بعضهم أقوال مثل: قال قائل: «هلام قتلنا الشيخ (يريد عثمان) إذ اليمن لعبيد الله بن عباس والحجاز لقثم (بن العباس) والبصرة لعبد الله (بن عباس) والكوفة لعلي^(٢)»، وكلما طال به الأمر في ذي قار ثم في الكوفة اشتد النقد وتبين على أنه دخل فيما يشبه المغامرة، وسيطر على الموقف من دونه رجال من أمثال مسعر بن فدكى الذي ذكرناه ثم يخرج عليه الخوارج ويباعون من دونه عبدالله بن وهب الراسبي والأمر يزيد بعد ذلك سوءاً.

ونحن منذ خرج علي من المدينة نرى قريشاً تقاتل قريشاً وجماعات العرب يلتفون حول هذا وذاك من رجالات قريش، والقصة طويلة وردت إليها في روايات شتى والذي يعنيننا من أمرها في بحثنا هذا أن قريشاً فقدت هيبتها حلة، ففي كل جانب، من المتقاتلين من قريش جماعة من العرب يملكون زمام الأمر. ونضيف هنا أنه حتى عندما ينتصر معاوية لا يحبس هذا النصر لقريش

(١) الطبري ٤٩/٥

(٢) الطبري، تاريخ ٤٩٢/٤

والنصوص كثيرة عن حرأة هؤلاء الأعراب على علي وتصورهم أنهم عماده بل هدده بعضهم تسليمه إلى أعدائه ، وما كان شيء من ذلك ليحدث لو أن علياً قرأ في مكانه في المدينة ، واستدعى الانتصار والناس ليؤيدوا خليفة المسلمين وهنا كان يستطيع أن يرسل رجلاً يختاره على رأس جيش ليقضي على معاوية في الشام فتنتهي الفتنة ، أما ذلك الخروج من المدينة إلى الكوفة والإعتماد على جماعات من العرب ما كان لهم قط أن يكونوا أصحاب الرأي في ذلك الموقف الحرج فقد أضر بقضية علي وبمركز الخلافة ضرراً بليغاً ، ويدعو على الجملة أن السياسة لم تكن ميدان علي بن أبي طالب إنما هو رجل فضيلة وفضل وعلم وبسالة في القتال ، ولا شك في أن علياً شعر بخطئه في الخروج من المدينة إلى الكوفة عندما استقر هناك وسط أولئك الأعراب ، ولم يكن الكثيرون منهم مقاتلين ، وإنما هم كانوا راحلين من قلب الجزيرة إلى الكوفة ليتوجهوا منها إلى المهاجر حيث يلحقون بذويهم وأبناء قبائلهم فيها . فالوجودون منهم في الكوفة اليوم قد لا يكونون موجودين غداً . أما أهل الكوفة أنفسهم فلم يكونوا بمقاتلين ولا كانوا على استعداد ليقاتلوا في سبيل علي ، إنما هم أهل معاش ومتاجر وخدمة ، وهؤلاء لا شأن لهم بقتال وإذا كانت تصرفات بني أمية وتهافتهم على السلطان قد كانت ذات أثر بعيد في سقوط هبة قريش وافتراق أمرها ، فلا بد أن نضيف هنا أن علي بن أبي طالب لولا أنه خرج من مدينة الرسول ﷺ وترك هيبتها وراءه لما تبرأ لهم ذلك .

بَنَؤَامِيَّة

وَنَصِيْبِهِمُ فِي الْقَضَاءِ عَلَى هَيْبَةِ قُرَيْشٍ :

ونأتي هنا في سياق هذا الكلام على خروج الأمر من يد قريش بلمحات من عدوان أعراب نجد أعداء قريش على المدينة وأهلها ، واجترأتهم على الكعبة المكرمة بأوامر من الخلافة الأموية ، لنرى كيف أن آل سعيان وآل مروان قد صحوا بشرفهم جملة لكي يصلوا إلى ما اعتقد رجالهم أنه نصر لهم وفوز بالسلطان والرياسة وهو في الحقيقة عين الهزيمة .

ذلك أن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان طن أنه عندما أرسل مسلم بن عقبة المري ثم الحصين بن النمر الكندي لاقتحام المدينة وقتال الأنصار ثم انتهك حرمة مكة في ذي الحجة سنة ٦٣ هـ، طن أنه يكسب كسباً سياسياً عظيماً أو عندما بعد ذلك المري الكافر الخافي القلب ما أمر به يزيد بن معاوية ابن أبي سفيان، وقام بهذه الشاعة التي هي وصمة في حبين المسلمين جميعاً. كان في الحقيقة يحطم قريشاً بقريش ويشفي غليله بالعبث بالقرشيين، فلننظر الآن موقف هذا الرجل من ساداته بني أمية، ولنتذكر هنا أن أهل المدينة الذين أنكروابيعة يزيد بن معاوية لم يكونوا كلهم من الأنصار بل كان فيهم قرشيون ومهاجرون أيضاً، والمعة التي لحقت بأهل المدينة نتيجة لموقعة الحرة تلحق هؤلاء جميعاً. وكان مروان بن الحكم وابنه عبد الملك بن مروان ونفر من بني أمية في المدينة فدعاهم مسلم بن عقبة المري إلى خيانة أهل المدينة والانضمام إليه والإشارة عليه بما يعرفون من عورات المدينة، فأما مروان بن الحكم فلم يرض، وأما عبد الملك بن مروان فقد استجاب ودخل في خدمة رجل مرة. قال الطبري رايأ عن ابن مخنف وعبد الملك بن نوفل: «وقد كان أهل المدينة قد اتخذوا خندقاً في جانب المدينة ونزله منهم جمع عظيم وكان عليهم عبد الرحمن بن زهير بن عبد عوف ابن عم عبد الرحمن بن عوف المري، وكان عبدالله بن مطيع على ريع»^(١) آخر من جانب المدينة، وكان معقل بن سنان الأشجعي على ريع آخر في جانب المدينة وكان أمير جماعتهم عبدالله بن حنظلة الغسيل الأنصاري^(٢) في أعظم تلك الأرباع وأكثرها عدداً.

قال هشام (بن السائب الكلبي) «وأما عوانة بن الحكم الكلبي فيذكر أن عبدالله بن مطيع كان على قريش من أهل المدينة. وعبدالله بن حنظلة الغسيل

(١) المراد بالريع هنا قسم من المدينة

(٢) هو ابن حنظلة بن أبي عامر الراعب الذي يسميه المسلمون سالعاسق وقد قتل حنظلة هذا في موقعة أحد وقيل إن الملائكة عملته فسمي بعمل الملائكة

على الأنصار، ومعقل بن سنان على المهاجرين^(١).

وقد انهزم أهل المدينة في ذلك اليوم الأسود لأنهم كانوا مؤمنين متطوعين يقاتلون جنداً مرتزقاً مدرباً على الحرب مزوداً بالحرايب والنبل أضاعف ما كان عند أهل المدينة، وقد أصاب القرشيين: أمويين وهاشميين من أهل المدينة في ذلك اليوم قدر ما أصاب الأنصار، واقرأ الخبر التالي «قال هشام: حدثني عوانة قال: دعا الناس مسلم بن عقبة المري بقاء إلى البيعة، وطلب الأمان لرجلين من قريش: ليزيد بن عبد الله بن زمة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى وعمر بن أبي الجهم بن حذيفة العدوي ومعقل بن سنان الأشجعي، فأبى بهما [الصواب بهم] بعد الواقعة بيوم، فقال بايعا فقال القرشيان: نبايعك على كتاب الله وسنة نبيه، فقال: لا والله لا أقبلكم هذا أبداً فقدمها فضرب أعناقها، فقال له مروان (بن الحكم): سبحان الله اتقتل رجلين من قريش أنبا ليؤمننا فضربت أعناقها فنخس بالقضيب في خاصرته، ثم قال وأنت والله لو قلت بمقاتلتها ما رأيت السماء إلا برقة.^(٢)

بل حدث لقريش ما هو أسوأ من ذلك على يد هذا الرجل، وجدير بالذكر هنا أن هذا المري ينتسب إلى مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان من غطفان فهو إذن ابن عم عيينة بن حصن الفزاري، وطالما لقيت فزارة ومرة الهوان على يد قريش قبل الإسلام وبعده، فقد أبى يزيد بن زمة (من بني أسد بن عبد العزى) «فقال: بايع قال: أبايح على سنة عمر، قال اقتلوه. قال: أنا أبايح، قال لا والله لا أقبلك ٢٢٧٥ فكلمه مروان بن الحكم لعهد كان بينهما، فأمر بمروان فوجئت عنقه ثم قال: بايعوا على أنكم تحول ليزيد بن معاوية ثم أمر به فقتل»^(٣).

(١) الطبري، ٤٨٧/٥

(٢) الطبري، ٤٩١/٥ - ٤٩٢

(٣) الطبري، ٤٩٢/٥ - ٤٩٣.

وإذن فهذا الرجل المري العطفاني يتغالى في تشدده نكالا بقريش، فقد أهان مروان بن الحكم وقتل هذين القرشيين، وواحد منهما أراد أن يبايع يزيداً فلم يأذن له وقتله ولم يرض إلا أن يبايع الناس قرشيين وغير قرشيين على أنهم عبيد ليزيد بن معاوية، والغرض الحقيقي وراء هذا التشدد هو أنه أراد أن يذل القرشيين بنصبه وأن يحكم عليهم بأن يصيروا عبيداً. وما نقول هذا من عندنا ولكن، إليك خبر يكشف عن هذه الحقيقة فقد كان واحد من الرجال الذين قتلهم مسلم بن عقبة المري على هذه الصورة، معقل بن سنان الأشجعي وكان معقل بن سنان هذا قد أنكر خلافة يزيد بن معاوية وقال كلمة مهينة في حقه، ثم أضاف إليها عبارة لم يغفرها له هذا المري الغطفاني، فقد روى الطبري عن هشام بن السائب الكلبي عن عوانة بن الحكم، أن مسلم المري عندما قدم معقل بن سنان للقتل قال له: «أنت الذي لقيني بطبرية ليلة خرجت من عند يزيد (بن معاوية) فقلت: سرنا شهراً ورجعنا من عند يزيد صفراً نرجع إلى المدينة فنخلع هذا الفاسق ونبايع لرجل من أبناء المهاجرين: فيم غطفان وأشجع من الخلع» (وفي رواية من الخلق) والخلافة: إني أليت يميني لا ألفاك في حرب أقدر فيه على ضرب عنقك إلا فعلت: ثم أمر به فقتل».

إذن فهو ثار مبيت عند أبناء هذه القبائل الخافدة على قريش الناقمة عليها أدركته على يد قريش نفسها، فتميم والأزد من ناحية تتشفي من قريش بقتل الحسين وآله، وكندة وطيء من ناحية أخرى تتلذذ بالاستبداد بعلي بن أبي طالب، وهذا هو المري الغطفاني يتشفي من رجل لأنه قال وما لغطفان وأشجع من الخلافة والخلع.

وكل ذلك فعلته قريش بنفسها!

وقد روى الطبري عن الواقدي خبراً إن صح فهو بمثابة تقرير لما فعلته قريش بنفسها، فقد روى أن عمرو بن العاص كان مختلفاً مع عثمان ناقماً عليه

بسبب عزله إياه عن مصر، فمضى يمرض على عثمان، ثم اعتزل في بيت له في جنوبي فلسطين وظل يمرض على عثمان، فلما بلغه خبر مقتل عثمان قال لرحل كان معه يسمى سلامة بن روح الحذامي «أنا أبو عبدالله، إذا حككت قرحة مكاتها إني كنت لأحرص عليه حتى إني لأحرص عليه الراعي في غنمه في رأس الحبل، فقال له سلامة بن روح الحذامي . يا معشر قريش إنه كان بينكم وبين العرب باب وثيق فكسروموه . فما حلكم على ذلك فقال: أردنا أن نخرج الحق من حافة الباطل، وأن يكون الناس في الحق شرهاً سواء»^(١).

والحقيقة أن قريشاً عندما استولت على الأمر وتورطت في السياسة عجزت عن القيادة واختلف بعضها مع بعض واحتربت فيما بينها فجرؤ عليها الناس وضاع أمرها، وقد روى الطبري بأسناده في أثناء القتال بين علي ومعاوية في صفين، أن علياً كان يرجو أن يتوقف معاوية وأصحابه عن القتال ويسلموا له لتجتمع الكلمة، فأقبل رجل من غير قريش يسمى كعب بن سور فنصح علياً بأن يكر بمن معه على أعدائه فيفنيهم، فقال له أصحاب علي من القرشيين: «يا كعب إن هذا أمر بيننا وبين إخواننا وهو أمر ملتبس . لا والله ما أخذ أصحاب محمد ﷺ منذ بعث الله نبيه طريقاً إلا علموا أين مواقع أقدامهم حتى حدث هذا فإنهم لا يدرون أمقبلون هم أم مدبرون! إن الشيء يَحْسُنْ عندنا اليوم ويقبح عند إخواننا، فإذا كان من الغد قبح عندنا وحسن عندهم وإننا لنحتج عليهم بالحجة فلا يرونها حجة، ثم يحتجون بها على أمثالها، ونحن نرجو الصلح إن أجابوا إليه ونموا وإلا فإن آخر الدواء الكي»^(٢).

(١) الطبري، ٣٥٦/٤.

(٢) الطبري، ٤٩٥/٤.

الفصل السادس

الْأُمَوِيُّونَ وَالْعَبَّاسِيُّونَ
وَنَصِيبُهُمْ فِي الْقَضَاءِ عَلَى هَيْبَةِ قُرَيْشٍ
وَبَقَاءِ الْفَرَعِ الْعَلَوِيِّ

بَنُو أُمَيَّةَ وَمَسْئُولِيهِمْ فِي إِضْعَافِ قُرَيْشٍ :

كان العصر الأموي تجربة عسيرة جداً للعرب وقريش . لقد توقفنا في عرضنا عند بداية الفترة المروانية بولاية مروان بن الحكم في ٣ ذي الحجة سنة ٦٤ هـ/ ٢٢ يوليو ٦٨٤ م . لأن مسار الأحداث إلى الآن في قيادة الفرع السفلي انتهى إلى ما يشبه الطريق المسدود، ومؤتمر بني أمية في الجابية لم يكن اجتماعاً عربياً ولا إسلامياً، إنما هو اجتماع قبل قاده شيخ مروان ضعيف الانتهاء والإيمان والأمر، وقرر المصير فيه شيخ من شيوخ القبائل البدوية التي أصبح رجالها نتيجة لفشل قريش في إدارة الدولة أصحاب الأمر في مصائر الخلافة، وقد رأينا العوامل التي حركت هؤلاء الشيوخ البدويين الذين تحولوا إلى قادة سياسيين وعسكريين، في حين أن نفراً كبيراً من أهل عشيرتهم من رجال القبائل أصبحوا جنداً مرتزقة يخدم من يدفع وتراجع في نفوسهم الوازع الديني وانمحت من أذهانهم فكرة صالح الجماعة الإسلامية، ومن حسن الحظ أن هؤلاء كانوا قلة بالنسبة لمجموع العرب . أما البقية فقد واصلت الفتوح غير مكترثة للسياسة .

ولم نكن نتوقع من هذا الطراز من الرجال أن يكونوا قادة أمة أو مساسة دولة، وإنما كان شأن هؤلاء في أيام أبي بكر وعمر أن يُوجهوا التوجيه الصحيح فيطيعوا ويصبحوا قادة وحشوداً بواصل تأتمر بأمر أصحاب الأمر في دولة الإسلام، وسَيَرَدُ هؤلاء إلى هذا الوصف عندما يتولى خليفة قوي مثل عبد الملك بن مروان

وابنه الوليد، وستحقق القيادة القرشية المروانية على أيديهم فتوحاً عظيمة، ولكن هؤلاء القادة والجنود من العرب سواء أكانوا في السياسة أو خارجها لم يعودوا قط إلى ما كانوا عليه أيام أبي بكر وعمر: مجاهدين في سبيل الأمة توجههم القيادة الحكيمة، إسمهم اليوم شركاء الخلفاء في الحكم وهم كلمة ودالة ونزوات لا بد أن تتغاضى عنها القيادة المروانية القرشية، فهي لم تعد السيدة المطلقة في الدولة، وخلفاء بني مروان يجتهدون في السيطرة على مسار الأمور بأساليب ميسرة وخبيثة، غريبة عن طبيعة الإسلام أما الأمة الإسلامية المؤمنة - عربها وغير عربها - فقد نفقت أيديها من السيادة والخلافة وأسلمت قيادتها لأهل العلم والتقى والإيمان من أهل الورع والعلم والفقه، ومن بداية خلافة معاوية بن أبي سفيان خلعت الأمة في الواقع ودون الإسم والظاهر بيعت الخلفاء أو الولاء لهم، ولم يعلن هذا الخلع إلا الخوارج على درجات وصور مختلفة بحسب مذاهبهم من حرورية ونجدات متطرفين إلى صفرية أنصاف متطرفين إلى إباضية معتدلين: خارجين على الدولة ولكنهم مهادنون للأمة غافرون لها طاعة الأئمة الجاثرين إدراكاً منهم لصعوبة الخروج الصريح على الدولة والأمة معاً وحمل السلاح في وجههما.

وفي جانب آخر مضى الهاشميون يرتبون أمورهم في الخفاء لأن تجاربهم في العصر السفياي اقنعتهم بخطر المجابهة السافرة والتعرض لسيوف الجنود العربي المرتزقة التي كانت تضرب في غير رحمة وأحياناً بلا دين أو عقيدة.

وقد بدأ المروانيون بالقضاء على دعوة للإمامة قادها قرشي من بني عبد العزى بن قصي هو عبدالله بن الزبير بن العوام بن خويلد وأمه أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين من بني تيم بن مرة، وعبدالله بن الزبير كان خليفة متاولاً في مكة والحجاز مدى ثلاثة عشر عاماً، وأقام بالبيت متحصناً فيه فسمي بالمعاذ، وهو كان بطبعه بعيداً كل البعد عن جلال الخلافة، وقد جاء حين من الدهر

طاعت له معظم ولايات الدولة . لا حياً فيه ولكن كراهة بني أمية جملة . وهو -
عبدالله بن الزبير - السبب فيما أصاب البيت المعظم في مكة على يد مسلم بن
عقبة المري والحصين بن عكر الكندي ، وهو أيضاً كان سبب هلاك الآلاف من
المسلمين الذين وقفوا معه في الحجاز أو مع أخيه مصعب في العراق ، ومهما كان
الراي في خلافة عبدالله بن الزبير فهي محسوبة على قريش ، كما كان موقف أبيه
الزبير بن العوام من علي بن أبي طالب محسوباً عليها أيضاً ، وإذا كانت قيادة
قريش قد تهدمت فإن المسئولين عن ذلك قرشيون فقد طاعت الأمة لقريش أيام
الرسول وأيام أبي بكر وعمر ثم وقعت المنافسات على الخلافة بعد عمر
وتزعزعت وحدة قريش واهتزت زعامتها على ما حكيناه .

انتهت دعوى ابن الزبير واستقر الأمر لمروان بن الحكم وبيت مروان ،
ولكن نصر البيت الروابي كان هزيمة لقريش ، فلكي يتنصر مروان كان لا بد
من تحطيم قوة القيسيين الذين مالوا إلى تأييد ابن الزبير ، وقد تم ذلك في موقعة
مرج راهط التي انتصر فيها الكلبيون - وهم بنو كلب بن وبرة القضايعيون الذين
إنشسوا بعد الإسلام في اليمن - على الضحاك بن قيس الفهري ومن معه من
القيسية (المحرم سنة ٦٥ هـ) وكان البيت السفياي قد عرف من أيام ولاية يزيد
ابن أبي سفيان أخيه معاوية الأكبر ، كيف يجمع عرب الشام جميعاً - كلبية وقيسية
أو مضرية - حول رايته . وتحولهم إلى قوة عسكرية مرتزقة متحدة تحت رايته
وبفضل هذه القوة انتصر معاوية ثم ابنه يزيد على كل من ناوهم . أما بعد معركة
المرج فقد انكسرت وحدة القوة العربية التي شدت أزر بني أمية . وثارت الفتنة في
طول الدولة وعرضها بين القيسية والكلبية أو بين مصر واليمن . وفي خراسان
مالذات ، حيث تجمع أكبر عدد من مهاجرة العرب إلى الأمصار بلغت عداوة
الجنانيي أحدهما ضد الآخر ملعاً كان له أسوأ الأثر على مصير العروبة في خراسان
وإيران كلها . وقد كان عرب خراسان وما حولها من ولايات سحستان وكرمان
ومكران وطبرستان وخرجسان والجبال ، قد تكاثروا وغلبوا على أهل البلاد ، وأخذ

الإيرانيون يتكلمون العربية أي يستعمرون، ولو أن الأمور استمرت على هذا المنوال لتعرت إيران كما تعرب العراق والشام ومصر، ولما كانت هذه الطاهرة الإيرانية الخطرة التي كسرت وحدة أمة الإسلام ووقفت بالعروة عند الخليج وشرقي العراق، ولاصح شرق العالم الإسلامي كله عربياً كما هو الحال بالنسبة لغربه.

وقد كانت خراسان وما يليها شرقاً من بلاد طخارستان وجنوباً من بلاد سجستان وكرمان وشمالاً من بلاد ما وراء النهر، هي الصخرة التي تحطمت عليها الدولة الأموية، فهنا في الجناح الشرقي لدولة الإسلام تجمعت جموع العرب الذين كانوا يشلون ظهر هذه الدولة، أما عرب الشام فقد كانت الغالبية العظمى منهم من جذام ولخم وقضاة وفروعها (وأهمها هنا كلب بن وبرة وتنوخ، وهؤلاء انضموا لتلك الدولة وأصبحوا مادة لجيوشها وعرفوا بعرب الشام أو الشامية. وفي مصر كانت أعداد غفيرة من قبائل قيسية انضمت إليها جماعات يمنية، وكانت الحروب بينهم مستمرة ولكنها لم تشند إلى الحد الذي يعرض سلامة الدولة للخطر. أما المغرب فقد نزلت به جماعات كثيرة من العرب معظمها من تميم، وفيها يلي نهر شلف (الخط الممتد جنوب مدينة الجزائر)، لم يكن هناك إلا قليل من العرب، ولم يكن للدولة عليهم سلطان كبير إلا أن دعوة الخوارج وصلت إليهم من وقت مبكر فأصبحوا في عداد الخارجين عن سلطان الدولة الأموية، وخاصة بعد الفتنة المغربية الكبرى التي انفجرت سنة ١٢٢ هـ في خلافة هشام بن عبد الملك، وقضت في النهاية على كل سلطان لدولة الخلافة شرقي نهر شلف، وإن كانت الجماعات العربية التي استقرت هناك تحولت إلى عرب بلديين محليين كانت لهم الرعاية في الكثير من القبائل البربرية، وهؤلاء دأبوا مع الزمن في كتلة السكان وأصبحوا عرباً مغاربة بلديين. أما الأندلس فقد اشتدت فيها الحروب الأهلية بين العرب طوال فترة الولاة من ٩٥ إلى ١٣٨ هـ حتى دخل البلاد عبد الرحمن بن

معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المعروف بالداحل .

والناظر في تاريخ الدولة الأموية يرى بوضوح أنها لم تكن لها سياسة عربية مستقرة، وإذا كان عرب خراسان وفارس وما وراء النهر هم الذين استفدوا أكثر جانب من قوة الدولة الأموية، فقد كانت حروبهم ومنازعاتهم وعداوتهم ترجع مسئولية معظمها إلى سياسة خلفاء بني أمية. وعلى الجملة فإننا نستطيع القول إن دولة بني أمية هي المسئولة الأولى عن إضعاف العرب وتجهيد الطريق لحروبهم جملة من ميدان السياسة الإسلامية .

ذلك أن الذين هاجروا من العرب إلى العراق وبلاد المشرق، كانوا كثيرين جداً وكانت فيهم قوة وعزيمة وبسالة كانت كفيلة جداً بأن تجعل ذلك الجانب الشرقي لمملكة الإسلام قاعدة القوة لدولة الإسلام ومنطلقها لنشر الإسلام في القارة الآسيوية ولكن الأمويين - والعباسيين بعدهم - كانوا عظمين همزيين لقوة العرب في تلك الجهة الشرقية الأساسية .

وعندما نقرأ تاريخ العصر الأموي يستوقف نظرنا سوء تدبير الخلافة الأموية لأمور العرب هناك، وقد كانت جميع أولئك العرب كثيرة جداً، وكان مركز تجمعهم الكبير الأول هي البصرة على أبواب المشرق، ولم تكن البصرة - ومثلها الكوفة - أول الأمر مدينة بمعنى الكلمة بل كانت مركز تجمع للعرب : يهاجرون من مواطنهم في الجزيرة إلى البصرة أو الكوفة وهناك يستقرون حتى يعرفوا إلى أين يتجهسون في هجرتهم، وكل قبيلة كانت تستعلم أين ينزل السابقون من أهلها لتلتحق بهم . وكانت البصرة هي المركز الأول والأكبر، لأن ولاية البصرة كان يتبعها كل فارس وخراسان وطخارستان وما وراء النهر، أما الكوفة فلم يكن يتبعها إلا شمال العراق وبلاد طبرستان جنوبي بحر قزوين .

وكان ولاية البصرة قد قسموها إلى خمسة أحماس، والخمس قطعة من

البلد تسكنها جماعات عربية من قبائل معية ، وأخماس البصرة كانت خمس أهل العالية ، وكانت تنزله القبائل المهاجرة من الحجار وعوالي نجد أي الأراضي الممتدة من جبال السراة أي مرتفعات نجد ، والمراد بهم أعاريب نجد (هوازن وعطفان وعيس وذبيان وأسد ومحارب ومن إليهم) ، وكانت أعدادهم في البصرة والشرق قليلة فصممهم رجال بني أمية في خمس واحد من أخماس البصرة ثم من أخماس خراسان ، وكاموا في البصرة والمهاجر أحلاف بني أمية ، ولهذا فقد كان الأمويون يفضلون اختيار ولاية خراسان منهم ، وخلال العصر الأموي كان حوالي ٧٠٪ من ولاية خراسان منهم ، وكان الذي رفع مكانتهم قتيبة بن مسلم الباهلي فكانوا «شعاره وذئباره» كما يقول الطبري .

وكانت الكتلة الثانية من عرب خراسان هم الأزدي ، فقد كثرت هجرة الأزدي اليمينيون إلى خراسان أثناء ولاية المهلب بن أبي صفرة وكان بعد مقتل المهلب وتعيين سليمان بن عبد الملك التميمي مكانه من أكبر الأسباب في انصراف اليمينيون في خراسان عن بني أمية وميلهم إلى الدعوة العباسية .

وهناك خمس ثميم ، وكانت أعدادهم كثيرة جداً في خراسان وكان لهم نصيب كبير في الفتوح وخاصة أيام عبدالله بن عامر بن كريز ، لكن التميميين على كثرتهم كانوا مستضعفين يستعملهم الولاة لأنهم كانوا أقل مهاجرة عرب خراسان محضراً ، وكان سليمان بن عبد الملك قد قربهم إليه بعد نكبة قتيبة بن مسلم الباهلي ، وولى واحداً منهم خراسان وهو وكيع بن سواد قاتل قتيبة ، ولكن خلفاء سليمان انقلبوا على التميميين وأساءوا إليهم ، وهذا كان سبب ميلهم إلى دعوة بني العباس ، ومنهم كان الحارث بن سريج الذي انقلب على الدولة وانضم إلى الترك وحارب الأمويين ، وسببوا للعرب أدى كبيراً .

وهناك خمس بكر بن وائل وكانوا كثيرين في خراسان وكان مركزهم هراة ، ولم يحسن ولاية بني أمية معاملتهم .^١

ولو أنه كانت لبي أمية سياسة عربية رشيدة لطال عمر دولتهم، ولكن بي أمية لم تكن لهم سياسة واضحة رشيدة في أي أمر من أمور الدولة، إما كان الميراث عندهم هو الخليفة وبعض بي هاشم والاحتهاد في القضاء عليهم، وكل ذلك جعل جماعات عرب حراسا أكثر ميلاً إلى الدعوة الهاشمية التي تحولت إلى عباسية كما نعرف.

وعلى ذكر السياسة الرشيدة ينبغي أن نلاحظ أن خلفاء بني أمية والعباسيين من بعدهم، لم يكن لهم أي اهتمام بالمرافق العامة، والمراد هنا الطرق ورعاية المدن والموانئ ومعاونة الفلاحين بشق القنوات وإقامة الجسور والعناية بها. وقد كانت للرومان عناية شديدة بهذه النواحي، فقد أنشأ الرومان من الطرق المرصوفة آلاف الكيلومترات لربط أجزاء الدولة بعضها ببعض، ولتسهيل سير الجيوش والتجار. فأما دول العرب فلم يكن لها اهتمام بذلك وإن كان بعض الأمويين والعباسيين قد اهتموا بشق بعض الترع في العراق، ولكن هذه لم تكن جزءاً من سياسة عامة، حتى طرق الحج إلى الحجاز لم يعتنوا بها عناية منتظمة، وطريق زبيدة المشهور عنت به السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد من باب التقى لا من باب السياسة، وكانت هناك عناية بشئون الحرمين، ولكنها كانت قليلة وغير كافية، ولا نجد في نظم الدولة الأموية ثم العباسية بعدها إدارات للمدن والعناية بطرقها ومرافقها وتزويد أهلها بالمياه وحمايتهم من الحريق، وكل هذه المرافق كانت موضع عناية الرومان، ولها موظفون مسئولون عنها، وكان لكل مدينة مجلس بلدي *Municipio* مسئولاً عنها. أما دولتنا الأمويين والعباسيين فلم يوجد عندهم شيء من ذلك، بل لم تكن لهم عناية بأسواق التجارة وطرقها أو الموانئ ودور صاعاتها - فيما عدا دور الصاعدة الخاصة بالقوات البحرية للدولة، أما موانئ التجارة وسمنهم وحماية أموالهم فلا وعود لعناية بها على الحقيقة

ويستوقف النظر أن رسول الله ﷺ كانت له عناية كبيرة بشئون المدينة وعمارته وأسواقها والجسور على وديانها، وهو الذي أنشأ الاحياء لإبل الصدقة وخيلها وماشيتها وهي حزة من بيت المال، وقد اهتم أبو بكر وعمر بالاحياء فلما جاء عثمان وأراد الزيادة فيها احتج عليه الناس، ولم يكن الدافع للاحتجاج الحرص على أموال الجماعة بقدر ما كان غرضاً لبعض القبائل التي كان توسع الاحياء في أراضيها، وعلى أي حال فحتى هذه توقفت العناية بها بعد عثمان، ولم تعد للدولة الأموية والعباسية بعدها أي عناية بالمرافق، والمرافق هي مصالح الناس، فلا غرابة في أن يشعر الناس أن الدولة الأموية ثم العباسية من بعدها قد قامت لخدمة أصحابها فحسب، وذلك كان من أكبر أسباب سقوط الدولة الأموية أولاً ثم انصراف الناس عن الدولة العباسية بعد ذلك.

ولكن أسوأ ما فعله الأمويون هو إذكاء العداوات والخصومات بين عرب خراسان والمشرق خاصة، ظناً منهم أن ذلك يقوي دولتهم، ولكنهم حطموا بذلك درع قوتهم وهم العرب وجعلوهم يميلون إلى دعاة الدعوة العباسية. فلما قامت ارتد معها إلى المشرق آلاف بعد آلاف من العرب، فعادت النزعة اليمنية إلى الظهور واشتد الصراع بين القيسية واليمينية في نواحي الدولة كلها وخاصة في إيران والمغرب والاندلس كما قلنا.

وقد استمر عرب إيران يتقاتلون حتى أفنى بعضهم بعضاً خلال معظم العصر الأموي، وفي أثناء هذه الحرب الأهلية العربية المدمرة دخل دعاة بني العباس واجتذبوا اليمنيين والخزاعين الساخطين على مضر. وكان الانقلاب العباسي، وقد ضمت جيوش المؤيدين للعباسيين الجانب الأكبر من بقايا عرب إيران وخراسان خاصة، وانتهت ألوف منهم نحو العراق والمشرق تحت رايات العباسيين تاركة منارها في إيران الحالية. وأصبحت أعداد العرب في إيران ضئيلة جداً، والعرب في كل مكان خميرة التعريب وعصب السنة والجماعة.

وبينما كانت اللغات الإيرانية والزعة الإيرانية تحتضران في أواخر أيام الوليد بن عبد الملك وأيام قتيبة بن مسلم عمري باهلة ومحمد بن القاسم فتي ثقيف انتعشتا في أيام سليمان أخيه وحلفه، وبفخ دعاة العباسيين في نيران الفتنة وخاصة بعد مقتل يزيد بن المهلب وانكسار شوكة الأزد، وكانوا بجموعهم الصخمة العمود العمري للعروة في الجناح الشرقي لدولة الإسلام

وهذه النتيجة كلها ثمرة لعجز الفرع الأموي من فريش عن قيادة الجماعة الإسلامية جملة، فبنو أمية العباسيون شقوا عصا العرب تمكيناً لسلطانهم واستمروا على سياستهم المدمرة للعرب إلى آخر أيامهم، ثم جاء دعاة الهاشميين فأكملوا ظاهرة تصدع كلمة العرب وتضمضح قواهم واضعاف دولة الإسلام نتيجة لذلك، فإذا كان الأولون زلزالاً صدع بنيان أمة الإسلام المكين، فإن الآخرين - دعاة الهاشميين - كانوا البركان الذي يأتي أحياناً بعد الزلزال، فتتقضي الحميم والنار على ما بقي قائماً. ولقد قرأت ما كتبه شباب من مؤرخي العرب اليوم وشيوخهم عن طبيعة الدعوة العباسية وما يقولونه من أن الثورة العباسية لم تكن حركة موالد إيرانيين كما زعم قان قلوثن ودوزي ويوليوس فلهاوزن، وإنما هي ثورة عربية قام بها عرب ضد عرب في الجناح الشرقي لدولة الإسلام يحسبون أن ذلك كشف جديد يغير صورة التاريخ، وما هو بالكشف وإنما هو معروف من قديم الزمان، وإذا كنا قد عثرنا على مؤيدات واضحة له عند ابن أعثم الكوفي والأزدي وفي كتاب أخبار العباس وولده ومؤلفه مجهول، فإنه كان حقيقة معروفة عند الطبري واليعقوبي والبلاذري، وأقرأ قائمة نقباء الحركة العباسية وقادة الجيوش ترأّسهم عرب ليس فيهم من الموالى إلا نزر يسير، وهذا يديهي لأن الصراع في حقيقته كان صراعاً بين بني أمية ومن انضم إليهم من العرب، وبني هاشم ومن مال ميلهم من العرب أبصاً وقد كانت نهاية الثورة بانتصار الفرع الهاشمي ثم العباسي على الفرع الأموي وأنصاره راجعة إلى تأييد الأزد وثقيف وغميم وخراعة خاصة، وأما الموالى فكان دورهم صغيراً جداً، وحل

سوالعباس محل بني أمية ولكن الأمر الذي يستوقف النظر في قيام الدولة العباسية هو أن قائد اخيوش العباسية ودراع الثورة وأداتها الكبرى لم يكن عربياً بل مولى هو أبو مسلم الخراساني، ثم إن القوات العربية التي سارت من مواقعها في خراسان وبلاد الترك إلى العراق لتزيل ملك بني أمية في العراق ثم في الشام لم تعد إلى المشرق بعد ذلك، وحلا مكانها وعجرت بقية العرب - خيرة التعريب - عن تعريب العناصر الإيرانية فيسحق عرق الإيرانية من جديد وخاصة عند أنصار النظام الساساني الذي أزاله العرب، فانطوت قلوبهم على كراهية العرب الذين أزالوا بيتهم المالك الذي كانوا يعتزون به ويستبدون بالناس باسمه، وهذا هو المهم ولباب الموضوع فنهضوا من جديد ونفعوا في رماد المجد الإيراني الذاهب ليعثوا فيه الحياة من جديد وشجعهم على ذلك أن العرب الفاتحين تقبلوا إسلام الكثيرين من الفرس دون تحقق من سلامة جسدته أو العناية بتعليم أولادهم العربية وتنشئتهم على الإسلام. ولنضيف إلى ذلك أن العرب ارتكبوا أخطاء سياسية كبيرة أثناء الفتوح فأفروا بعض كبار رجال الأكاسرة من طبقة الأساورة في رياستهم وعهدوا إليهم في الوظائف والأعمال الإدارية والمالية متخذين بإسلام ظاهري نطقوا به بشفاههم دون قلوبهم، وأسوأ من ذلك إقرارهم بحكام القرى والكور ممن دخل في الإسلام في وظائفهم، وهؤلاء هم الأصهبذون، واحدهم أصهبذ - فمضوا يرهقون الناس بالضرائب كما كان الحال قبلاً ولا يقدمون للدولة إلا ما ينص عليه الشرع، وساعده في ذلك بعض ولاية العرب ورجالهم في خراسان وقد كان فيهم فساد كثير يصل إلى نهب الناس. فساءت صورة الحكم الإسلامي في إيران أثناء العصر الأموي، وكرهت الجماهير بني أمية ورجالهم وتعلقت نفوسهم بمخليفة عادل يطبق عليهم شرع الإسلام، واجتمعت آمالهم حول علي بن أبي طالب لأنه كان شخصية جلية حقاً، ومثالاً للفراس المسلم المؤمن، فلما قتل اتجهت قلوبهم إلى ابنه الحسين فلما قتلته الأمويون على الصورة البشعة المعروفة أصبح دم الحسين الشهيد هو صوت المعركة ولواءها. ولهذا يعتبر العاشر من المحرم سنة ٦٣ هـ. أشد أيام التاريخ الإسلامي حسماً، فهو يوم

تصدع وحدة العرب وبدء ظهور الإيرانيين على مسرح السياسة الإسلامية .

وموالي إيران هنا انتصروا دون أن يخوضوا حراً مع العرب، وأيدت الخلافة العباسية ذلك بالاستكثار بعد ذلك من حند الموالي ورجالهم والاعتماد عليهم، واتخذوا قاعدتهم في بغداد خارج النطاق العربي ثم اتجه العباسيون إلى إهمال ذكر الأنساب العربية، فالرجل أصبح يذكر منسوباً إلى بلده وينتهي الأمر ساهزام العرب وضعف جبهة العروبة في مركز الدولة . لم يهزمهم الإيرانيون أو العرس أو الموالي وإنما كانوا هم الذين هزموا أنفسهم، وهي ظاهرة ما أكثر ما حدثت في تاريخ العرب وصراع هاشم وعبد شمس، وهو صراع كان محدوداً وغير خطر في الجاهلية، أخذ شكلاً خطراً بعد الإسلام وقيام الخلافة وقاضياً على قوة قریش في النهاية ومؤذناً بنهاية سيادة العرب في دولة الإسلام، وتلك هي النتيجة الفاصلة حقاً في تاريخ المسلمين .

وسواء نظرنا إلى السياسة العربية للدولة الأموية أو للسياسة العربية للدولة العباسية فسنجد في التصميم أنها كانت سياسة مدمرة للسيادة العربية عامة والقرشية خاصة، وكلما مضينا مع التاريخ العباسي فإننا نجد السيادة القرشية تتراجع . حقاً إن الخليفة كان قرشياً، ولكن قرشياً كانت تتراجع وتخرج من ميدان السيادة والقيادة ليتحول القرشيون في النهاية إلى طبقة من الأشراف أو النبلاء إذا شئت لا شأن لها بسياسة أو سيادة، وإنما هم زينة في المجتمع وعنوان شرف ولا زيادة، وفي مكان سيد الدولة القرشي يظهر شيخ قریش في بغداد وواسط والبصرة والكوفة والفسطاط، وهو رجل من المهاجرين الأجلاء الذين يزينون المجتمع ويتقاضون رواتب من الدولة لأنهم ذوو القربى ولهم مال معلوم في بيت مال المسلمين دون أن يكون لهم أي وزن سياسي . وفي سيرة الإمام الشافعي - وهو قرشي - نقرأ أن أمه خافت إن هي طال مقامها بانها في منازل خراعة في طبرستان أن يفقد حقه في بيت المال، فسارعت به إلى بغداد .

أما فيما يتعلق بالدولة العباسية فإن الخليفة يتحول مع الزمن إلى شخصية

غير عربية في السياسة والروح، وليس عبثاً أن تكون أم أبي جعفر المنصور كانت جارية مغربية لأن معظم أمهات الخلفاء سيصحر من الآن فصاعداً غير عربيات، وشيثاً فثيثاً نقل حتى تلاشى النسبة القرشية بل العربية في دماء الخلفاء، ولا يبقى من سمات القرشية والعروبة إلا الاسم واللسان وقريش بهذا تتحول إلى ذكرى، وتحضر بهذه المناسبة حادثة صغيرة يرويها ادوارد جيبون في تاريخه المحتج لتدهور الدولة الرومانية وسقوطها، فهو يحكي أن شيخاً وقف في مجلس الشيوخ أيام الامبراطور هادريان (١١٧ - ١٣٨ ق.م.) وقال: أيها الرومان فلم يرد عليه أحد ولا فهم كلامه أحد، فلم يعد في المجلس رومان يفهمون اللاتينية الفصحى، لأن كل الجالسين كانوا غير رومان يحملون أسماء رومانية، وضعهم في مجلس الشيوخ القادة المتنافسون على تاج الامبراطورية.

وقصة تدهور السلطان القرشي العباسي قصة طويلة محزنة، وأكثر ما يستوقف نظر المؤرخ فيها هو هذا الهوان الذليل الذي وصلت إليه القيادة القرشية العباسية، وأن الإنسان ليأسى - دون أن يدهش - كيف انحدرت القيادة القرشية من الأوج الذي كانت فيه أيام أبي بكر وعمر وتبسط إلى الدرك الذي وصلت إليه ابتداء من أيام المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ / ٨٤٧ - ٨٦١ م) وهو الخليفة الذي يدخل التاريخ على أنه أول خليفة قرشي قتل ابنه، ثم يجيء بعده ابنه المنتصر، أول خليفة صعد إلى كرسي الخلافة على جثة أبيه وقتله، والمستعين الذي لم يكتف الأتراك بخلعهم ونفيه بل أصروا على قتله، ثم المعتز الذي وصف لنا ابن الأثير مشهد مهاته وذله على يد جنده الأتراك في صورة ملئناها لكثرة ما قرأناها^(١) فهذا الرجل الذي لا بد أن يعتبر - رسمياً - شيخ قريش في عصره، فقد ظل خليفة لمدة ثلاث سنوات (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ / ٨٦٦ - ٨٦٩ م) يُجر من رحله ويضرب بالدبابيس ويقطع قميصه ويقام في الشمس في الدار فيمصي يرفع رجلاً ويضع أخرى لشدة الحر، وعبد ملوك يلطمه فيتقي يده وفي النهاية يضمونه

(١) أطراب الأثير، الكامل ٦٧/٧ - ٦٨.

في سرداب ويقفلون عليه ويحتفي من صفحات تاريخ لم يدخله ، وهذا ما وصل إليه حميد قصي المَجْمَع وعبد المطلب الحليل ، وهذا ما فعلته الخلافة هذا الفرع من قريش : جروا وراءها وطلبوها ونسوا دينهم من أحلها وخاضوا بحار الدم في سيلها ليدلوا المسلمين بها ويدلوا هم أنفسهم بها أيضاً ، وأمة الإسلام التي سعوا إلى دوسها بأقدامهم ظلت بعيدة عنهم وأصبحت فقيرة مهوبة ولكنها مؤسسة ، مطلومة ولكنها عزيزة مجردة من حقها ولكنها كريمة رافعة الرأس بإيمانها وعلمائها وقرآنها وحديثها .

فلننظر الآن في أمر البيت الثاني من بيوت قريش الذي اجتمعت على حبه أمة الإسلام حياً في رسولها ﷺ : البيت الهاشمي العلوي الذي حكم عليه بيت عبد شمس بالموت وفشل الجلال الأموي في تنفيذ العقوبة ، فأراد الحظ أن تتكرر المحاولة الشريرة الغبية على يد الهاشميين العباسيين .

وثب العباسيون على الخلافة ونالوها بالدهاء والسيف ، وقد أسرفوا في العنف والقتل والعدوان على الدماء والأموال حتى أخرجوا أنفسهم في أحيان كثيرة عن الإسلام بواقع تصرفهم ، وإن ظلوا يحكمون معظم أمصاره بقوة السلاح والذكاء والجهد المبالغ فلم تجهد أسرة من أسر الخلافة في المحافظة على ما صار إليها من دار الإسلام قدر ما جهد العباسيون وخاصة خلال العصر العباسي الأول ، حقاً إن الخلافة كانت دائماً شقاء لمن طلبها بعد أبي بكر وعمر ، ولكن الأمويين في المشرق كانوا يعرفون أنهم خلفاء بالقوة لا بالحق ، وعيادهم الحقيقي كان على القادة العسكريين ورجال السياسة الذين أيدوا دولتهم ، وكانوا واقعيين ، لهم في المكان الأول الثمرات الملموسة للخلافة من السيادة على الناس والتمتع بالأموال والخيرات ، ولا يعنيه في كثير رضى الناس أو عواطفهم ، بل لم تكن تعنيه ناحية الشرعية ، وقد وصل الى هذه الشرعية أي تسليم الناس بأنهم خلفاء مرضييون ثلاثة منهم عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ثم عمر بن عبد العزيز ، فأما الأولان فقد استحقا الشرعية وتأييد المسلمين ورضاهم بالفتوح وصرف المهمة في

الجهاد وتوسيع نطاق الإسلام ونعريب الدولة ، وأما الثالث فقد استحق الشرعية بالسلوك الإسلامي الخالص ، وهو عمر بن عبد العزيز الذي أثبت للناس أن أمة الإسلام أمة مؤمنة حكيمة وأنها مستعدة لإعطاء رضاها كله لمن يلتزم حدود الإسلام ويقوم بحقه ، وهذا المثل الذي ضربه عمر بن عبد العزيز في خلافته القصيرة زاد في رعة قواعد الملك الأموي لأنه كشف للناس أخطاء غيره من خلفاء بني أمية كشعاً جلياً ، ولهذا فإن الناس استقبلوا خلفه وهو يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم استقبلاً سيئاً جداً ، وأيد هو سوء ظنهم بمسلكه الأموي البعيد عن خلق الإسلام ، وتدهور بعد ذلك الملك الأموي تدهوراً سريعاً انتهى بزواله . واستراحت أمة الإسلام كلها بسقوط هذا البيت العباسي القرشي ورأوا في ذلك عدلاً من الله سبحانه ورحمة بأمة الإسلام .

وفيما يتعلق بمصائر قریش رأينا أن الأمويين لم يظهروا أي حرص للمحافظة على مكانة قریش ، فقد رأينا كيف أنهم لم يكونوا يهتمون إلا ببيتهم الأموي . وفي سبيل بيتهم سلطوا رجالاً أغارب مضر على المدينة ومكة ومن فيها من القرشيين بل أمين الخليفة عثمان بن عفان وهو شهيد بني أمية على يد مسلم بن عقبة المري ولم يعترض الخليفة يزيد على ذلك بكلمة . أما المروانيون فهم الذين استعانوا من أول الأمر في حربهم مع عبدالله بن الزبير بالكلبين القضاة المتسبين في اليمن بتوجيه من الخليفة معاوية بن أبي سفيان وهزيمة القيسية في مرج راهط كانت في الحقيقة ذات أثر بعيد في توهين أمر قریش لأن القيسية كانت مضرية على أي حال وبعد انتصار مرج راهط وانتهاك حرمة المدينة ومكة أصبحت صلة البيت المرواني بالقيسية عامة واهية ، وفي أيام سليمان بن عبد الملك بدأ الانحراف عن اليممية وموالات القيسية .

ولم تطرب أمة الإسلام لقدم بيت بني العباس ، وهم بيت قرشي ثان دخل الميدان يعلن بصوت حهير وقلب جريء أنه وحده صاحب الحق في الولاية والوصاية على هذه الأمة ، فهم الورثة الشرعيون لملك رقة أهل القبيلة

جميعاً. قال داوود بن علي في خطبة افتتاح ملك اس أخيه أبي العباس السامح من سر الكوفة: «واعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج ما حتى سلمه الى عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم». وهي مقالة لم يرص عنها مسلم لأنه اذا كان ولا بد أن يرد الأمر إلى بيت النبوة وآل محمد ﷺ فليس منها - والله - أولاد العباس.

أما آل علي فقد كان قيام دولة بني العباس إيذاناً بعذاب لهم شديد، وإنه لمن غرائب ما يذكر أن أحسن تاريخ لآل علي بن أبي طالب وما جرى عليهم بسبب قرابتهم منه، كتاب عزن يسمى «مقاتل الطالبين» كتب أبو الفرج الأصفهاني، وهو تاريخ جنائزي يقص علينا كيف انكسر في معارك هي في الحقيقة مذابح ظهر البيت القرشي الأكبر الذي كان يحق له أن يحوز الخلافة إذا كان ولا بد أن يحوز هذه الأمانة الكبرى بيت واحد من بيوت المسلمين.

والحقيقة أن البيت العلوي كتب عليه منذ بيعة السقيفة أن يجاهد ليحتفظ برأسه فوق الماء وأيدي الظالمين تدفعه فيه، وإذا كان بيت بني أمية قد عرف كيف يفقد الناس الثقة في بيتهم القرشي الكبير، فإن بني العباس أثبتوا الأمة الإسلام أن الهاشمية ليست في ذاتها دليل نقي وإيمان، لأن المؤامرة التي دبرها محمد بن علي بن عبدالله بن عباس ثم ابنه إبراهيم الإمام على أبناء علي ليسرقوا الخلافة سرقة من يد أبي هاشم بن محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب، مؤامرة ظاهرة الوضاعة تدل على تهالك مخز على الدنيا. ورغم المقاتل والمذابح انجل الأمر عن أن البيت الوحيد الذي بقي في الميدان هو بيت علي بن أبي طالب المنحدر من عترة رسول الله ﷺ.

وبعد خيبة الأمل المضاعفة في القرشيين اتجه المسلمون بآمالهم إلى البيت العلوي، وقد أصبحت الآن تجمعهم إلى بقية المسلمين أكثر من واشحة، فهم مظلومون كبقية أمة الإسلام، وهم مستضعفون مهضوم حقهم كبقية المسلمين، وهم غير آمنين لا على النفس ولا على المال، كبقية المسلمين وفيهم

التقى والورع والخوف على مصير الاسلام، وهم آخر الأمر أو أوله بتعبير أصح بيت النبي وعترته وهو صلوات الله عليه عزاء كل مسلم عن متاع هذه الدنيا.

العلويون آل البيت :

وأول ما يستوقف النظر في أمر العلويين هو أنهم تمسكوا بصورة أساسية بمبدأ الوراثة في الخلافة، فهم أصحابها في اعتقادهم وهي تنتقل من الأب إلى الابن، ولا ندرى إن كان علي بن أبي طالب نفسه قد فكر في أنه ستكون للمسلمين رئاسة فردية بعد وفاة الرسول، فيبدوا أن هذه الفكرة نشأت عند أبي بكر وعمر وإن كانت القرائن تدل على أنها كانا يريان أن القيادة لا بد أن تكون جماعية شورية مع وجود الخليفة، أما ما يقال من أن الانصار اجتمعوا في السقيفة لمبايعة سعد بن عباد بن دليم الساعدي الخزرجي فأمر مشكوك فيه، والواضح أمامنا أن الخزرج اجتمعوا للنظر في أمر أنفسهم بعد وفاة الرسول. والرجل نفسه لم يقل إنه يرشح نفسه لخلافة رسول الله ﷺ في قيادة أمة الإسلام، وعندما سأله أبو بكر لأول دخوله السقيفة قال: «إنما أنا رجل من المسلمين». والأغلب أن عامة كبار المسلمين كان تفكيرهم أن تستمر قيادة الجماعة في صورة جماعية، وقد استمر ذلك بعد وفاته، فكانت الأمور تدرس بين شيوخ الجماعة والخليفة ينفذ ما تستقر عليه الأمور، وتشاور المسلمين مع خليفتهم في عظامم الأمور إمام أبي بكر وعمر معروف، وكان من الممكن أن تستمر هذه السياسة ومن أسف أن المسلمين لم يناقشوا هذه المسائل الأساسية أيام الشيعين. وقد سبقت المسلمين في ذلك أمم، فإن اليونان والرومان سبقوا إلى هذه النظم والعصر الجمهوري في تاريخ الرومان يبلغ فوق القرون الخمسة، وهي فترة طويلة جداً مميزات العصور الماضية، وهي تدل على صلاحية القيادة الجماعية، وإذا نحن ذكرنا أن نظام الخلافة الشورية لم يستمر في تجربتنا السياسية إلا نحو ثلاثين سنة بعد وفاة الرسول ﷺ، نبتنا أنه ربما كان الأوفق أن يؤخذ برأي الحباب بن المنذر بن الحموح الذي قال: ما أمير ومكم أمير، مع بقاء وحدة

الأمة، لأن الأميرين هما يمثلان الرايتورين Praetores اللذين سميّا فيما بعد بالقنصلين Consules عند الرومان وكأما يتتبعان للحكم لمدة عام، أما قاعدة الحكم الأساسية فهي الهيئة المثوية عند الرومان Comitia centuriata ثم الهيئة التنفيذية Comitia Curiata ولكلها هيئة منتخبة أو هيئة تمثل البيوت الكبرى في المجتمع الروماني، ثم أضيف إلى كل قنصل من القنصلين مساعد كبير لشئون المال يسمى الكويستور Quaestor، ثم زيد في كبار الموظفين المنتخبين آخرون مع الزمن، وكلهم يعملون لمدة عام أو عامين، وقادة الحكم هما الهيئتان الرئيسيتان المثوية والتنفيذية.

وهذا الذي أقوله هنا مجرد تذكير بتجارب أخرى سابقة كان من الممكن أن يصنع المسلمون مثلها، والقرآن الكريم يدعو إلى ذلك ولا يدعو أبداً إلى أن يرأس الأمة رئيس واحد منفرد بالأمر. فالأمة في القرآن هي القاعدة وحاملة لواء الدين، وآيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تشير إلى ضرورة وجود هيئة «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر» أما القائم بالتنفيذ فقد تركه القرآن للمسلمين يرون رأيهم فيه، وإذا قرأنا رسائل الرسول إلى رؤساء العرب الذين أتوا يدخلون الإسلام على يديه، وجدنا أنه لا يمنع في أن يستمر أصحاب الأمر في كل قبيلة أو ناحية رؤسائها الذين ترضى عنهم جماعاتهم، ولا وجود لفكرة السلطة المركزية في كتب الرسول ﷺ لأن أهم شيء عنده كانت وحدة الأمة والتفافها حول راية الإسلام واستمرارها في إقامة شريعته مع الجهاد في سبيل الله، ولو أن المسلمين اتجهوا بفكرهم إلى القيادة الجماعية، لكان هذا أسلم لأن هذه القيادة توزع السلطات بين عدد كبير من رؤساء المسلمين وترصي طموحات الكثيرين إلى السلطان، وتؤهل إلى تاريخ متأخر صراع المطامع العرقية أي الانفراد بالحكم، وما ضر أمة الإسلام شيء مثل الانحياز السريع إلى الحكم العردي بعد سقاية بني ساعدة، وأمة الإسلام كانت أيام الرسول ﷺ أمة صاحبة سلطان وسيادة

ورسالة، وكان لا بد أن تستمر الأمة محتفظة بسلطانها وكل أفرادها كان ينبغي أن يظلوا سادة هنا كان كل أصحاب القدرات والكفايات والطموحات يجدون مكاناً وفرصة للعمل وخدمة النفس والجماعة، وقد كانوا هكذا أيام الرسول ﷺ: كانوا جميعاً يعملون متكاتفين متآحين والأمة تفيدهم جميعاً، وكان الرسول يسير أمورهم بالهبة والإخلاص والعدل والصدق في تنفيذ أحكام الإسلام عبادة وشريعة والمحافظة على مكارم الأخلاق، وهي كانت أساس العلاقات جميعاً في أمة الإسلام، سياسة واجتماعية واقتصادية.

ولكن اجتماع السقيفة انتهى بأن تكون قيادة الأمة لأبي بكر على أن يكون الأمر شورى بين المهاجرين والأنصار كشق الأفلحة، ولكن الذي حدث، هو أن الأنصار استبعدوا في واقع الأمر من القيادة وترك السلطان في يد أبي بكر، ولا معنى لامتداح هذا الواقع في ذاته على أساس أن الذي وقع عليه الاختيار كان أبا بكر ومن بعده عمر، وخلافتهما معاً لا تريد مدتها على اثني عشرة سنة هجرية، والحكم على أي نظام للحكم في أي دولة من الدول لا يكون صواباً على أساس أنه سار سيراً طبيعياً لهذه الفترة القصيرة، فإذا اضطرب أمره وساء أثره وتدهورت شئون الجماعة بعد ذلك بشكل خطير، فهذا يدل على أن النظام في ذاته لم يكن صالحاً، وقد تولى عثمان الخلافة على نفس الأساس بناء على اختيار الستة، والتزم هو بالسير على سياسة أبي بكر وعمر ورغم نقاه فإنه انحرف أو بذل كما تقول المراجع. فقد كانت هناك قاعدة أساسية في هذا النظام تقول إن الخليفة المختار إذا انحرف، كان للأمة أن تقوم، ولكن معنى ذلك التقويم وطريقته وحدوده تركت في القضاء بلا تحديد، والناثرون على عثمان لم يعرفوا كيف يقوموه هو نفسه لم يسلم قط بأنه «بذل» أو انحرف وتشتت بالمنصب ثم إن أحداً لم يقدر مدة هذه الولاية، وعثمان عندما رأت الأمة أنه انحرف رفض أن ينصاع لما طلبت إليه الأمة على لسان الناثرين عليه وكبار الصحابة لأنه أخذ الولاية على أنها لمدى الحياة ورفض ولاية الأمة وأنكر حقها في محاسنة، وعندما

انت الأمة تطلب إليه أن يعتزل قال: «لا أحلح سريالاً سربلنيه الله» «ولا أنزع قميصاً قمصنيه الله»، ومعنى ذلك أنه بعد أن تولى بإرادة أهل الشورى المفوضين من الأمة، أصبح يرى أنه مختار من الله، وأن ثوب الخلافة أتاه من الله، فهو إذن يحكم بحق إلهي. وهذا يبدو أنه خطأ من عثمان ولكنه خطأ من النظام نفسه، إذ أنه كان خالياً من الصواب والتحديدات، وآل عثمان عندما تعصبوا له افترضوا أن عثمان والخلافة معه حق له ولآل بيته لأنهم كانوا قد تحولوا الى أسرة حاكمة، وقالوا إنهم ليسوا أولياء دم عثمان الرجل فحسب، بل عثمان الخليفة أيضاً ولهذا رفضوا الطاعة للخليفة الجديد ومضوا يتهمون الخليفة المنتخب الجديد بأنه مشترك في قتل قريبيهم وهم يحاربونه على هذا الأساس في الظاهر، أما الباطن فهو أنهم رأوا أن الخلافة إذا كانت قد صارت الى واحد منهم فقد أصبحت حقاً بينهم، ومنطقهم هذا هو الذي انتصر في النهاية، وساعدهم على ذلك خذلان نفر من الصحابة لعلي بن أبي طالب ونزعهم بيعته وزعمهم أنهم بايعوا بالقوة وأحلوا لأنفسهم خلعه، والنظام في آخر الأمر أصبح ملكية وراثية في بيت واحد.

وما دام الأمر قد أصبح ملكاً في بيت واحد، فقد تغير معنى الخلافة ورياسة الأمة تغيرات جوهرية أخرجهت عن شورية الإسلام، وما دام قد خرج عن شورية الإسلام فقد أصبح السؤال: أي بيت من بيوت المسلمين أحق بهذا الملك؟

وكان من الطبيعي أن تحيب الأمة على هذا السؤال بانتخاب علي بن أبي طالب ومبايعته، فنهض بنو أمية ينازعونه هذا الحق، وقالوا بالخلافة الوراثية في بيتهم، وكان من الطبيعي أن يرد آل علي: نحن الأحق، فنحن بيت الرسول ﷺ ورأسنا علي بن أبي طالب أقدم الصحابة صحبة وأكثرهم بذكلاً في سبيل الإسلام وأوسعهم به علماً، وعليّ كان أفضى الصحابة والقضاء أعلا الولايات. هذا هو الذي قالوه وتمسكوا به وطالبوا به، وأصبحت المسألة في الواقع نزاعاً بين آل علي وآل أمية، وما دام بيت أمية هو الذي انتصر في الصراع السياسي

والعسكري واستند بالخلافة والملك وحاز السلطان وحصل على البيعة بالصورة التي ارتأها وقدر عليها، فقد أصبح كل طالب للخلافة من دونه حارحاً على النظام وأصبح من واحد أصحابه في رأيهم، محاربة المنافس والطامع والقضاء عليه.

وعندما انتقلت الخلافة بمس طريقة الغضب والخداع إلى بيت بني العباس، وثاروا القوة وانتزعوا بها البيعة فقد أصبح العلويون المطالبون بالخلافة خارجين عن القانون، وأصبح من حق صاحب السلطة - في رأيه - أن يقضي عليهم محافظة على النظام الشرعي القائم من عدوان مدعين يهددون أمن البيت المالك ونظامه.

وهذا بوضوح ومنطقية تاريخية واقعية هو وضع البيت القرشي العلوي من ذلك الحين، وأصبح نتيجة المطالبة بالخلافة بيتاً خارجاً على النظام وخارجاً على القانون ومحاربه حلال والقضاء عليه واجب لصالح الجماعة في رأي أصحاب السلطان.

ولكن العلويين تمسكوا دائماً بأن الخلافة من حقهم وأن ثوب غيرهم عليهم عدوان، ولما كان هذا هو رأي جانب كبير جداً من المسلمين، وهم على حق في ذلك، لأنه ما دامت رئاسة الجماعة تُؤلَّى إلى رجل وآل بيته فإن علياً وآل بيته أولى.

هنا تكمن مأساة ذلك البيت القرشي الجليل، وهي مأساة فرّضت عليه فرضاً بمنطق الاختيار في السقيفة، فقد تقرر مبدأ الخلافة في شخص واحد، ثم أصبح في شخص وآل بيته، ومن هنا نفهم كيف أن مذاهب الخوارج التي لم تعترف بمبدأ الوراثة في بيت واحد، نصت على ألا يكون الإمام المختار من قبيلة ذات عصبة كبيرة حتى يسهل عزله إذا احرف ورفضوا مبدأ الوراثة في الخلافة لتلا تتحول الولاية إلى ملك وراثي.

وبعد ما عانت الأمة من بني أمية وبني العباس أصبحت غالبية المسلمين تؤيد حق البيت العلوي، وأصبح هناك في اعتشار تلك الغالبية خليفتان، خليفة ذو حق مشروع وهو الرضى من آل علي، وخليفة رسمي مفروض على الناس بالقوة وهو البيت القائم أموياً أو عباسياً، وتلك هي الأرضية التي وقف عليها بنو العباس عندما مكروا مكروهم وحازوا الخلافة على أن مرشحهم هو الرضى من أهل البيت. وإذا سرنا خطوة أخرى مع منطق السياسة الواقعية أو سياسة الأمر الواقع أو الريال بوليتيك Real politik فلنا إن الذي وقع هو الأمر المحتوم أو imperative لأن الأمر ما دام قد أصبح سياسة، فإن منطق السياسة هو الذي يسود، ومنطق السياسة يقول إن الذي يحوز القوة - والحكم - هو الأقوى أو الأذكى أو الأوسع حيلة. والسياسة في تلك العصور لا تعرف الحق ولا تعرف الأخلاق في معظم الأحيان.

وإذن فممنذ قيام الحكم الأموي أصبح البيت العلوي خارجاً على القانون، وحتى لو أعلن مثله أنه لا يريد الحكم ولا يشتغل بالسياسة كما كان الحال مع جعفر الصادق بن محمد الباقر، فقد كان طول حياته موضع شبهة وخوف من جانب العباسيين، ويكفي أنه كان يلقب علناً بالإمام أي رأس أمة الإسلام، وهو في هذه الحالة إمام محروم أو إمام محكوم عليه بالموت مع وقف التنفيذ، وإذا كان قد مات في فراشه في المدينة سنة ١٤٨ هـ / ٧٥٦ م، فقد كان ذلك مصادفة.

ولكن بقية أئمة بيت علي الذين كان من الممكن أن يطلبوا الخلافة قتلوا بالسيف أو السم.

وبعد مقتل محمد النفس الزكية بن عبدالله المحض بن الحسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب في السنة التي ذكرناها ثم مصرع أخيه إبراهيم في باحراني نفس السنة تفرق إخوتها من أبناء عبدالله بن الحسن وأبعدوا في الرحلة ليكوموا

عماى من أيدي العباسيين، فذهب يحيى إلى طبرستان حيث أنشأ دولة، وذهب أخوه أدریس إلى المغرب الأقصى حيث أقام الدولة الأدرسية، ولحق به أخوه سليمان بن عداثة بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب إلى عرب المغرب الأوسط، حيث أنشأ هو وأولاده دويلات صغيرة.

ولا أطل أن في بيوت قريش بيتاً هو أكثر نسلًا من بيت علي بن أبي طالب، فأولاده كثيرون، ومعظم أولاده، صبيان وبنات، ومن هؤلاء تفرع مئات انتشروا في عالم الإسلام كله، والقليلون منهم لم يعقبوا، وأقل من هؤلاء هم العلويون الذين لم يطلبوا الخلافة، وقد قتل منهم الكثيرون جدًّا في هذا المطلب، ونجح الكثيرون أيضًا في إنشاء بيوت إمارة في نواحي عالم الإسلام حتى تعد بيوتهم بالعشرات معظمها في اليمن وعسير وبلاد الديلم وهي طبرستان والمغرب، هذا إلى الفاطميين في المغرب ومصر، وستحدث عنهم.

وأهم ما نشير إليه هنا هو أن هذا البيت بشق فروعه ظل مرشحاً من أمم الإسلام جميعاً للرياسة والإمارة أو الخلافة، ومنهم من نشأت منه بيوت شرف وسرو مثل بني طباطبا وهم من أبناء إبراهيم بن عداثة بن الحسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب.

ومعظم أفراد هذا البيت كانوا من أفاضل الناس، ولكن كان منهم أيضاً الكثيرون ممن لم تحمد سيرتهم. وباستثناء هؤلاء القليلين كان العلويون في شق بلاد الإسلام موضع تكريم الناس ومحبتهم، ومن هؤلاء الهواشم العلويين كانت الدول الكثيرة التي ظلت تحمل اسم قريش على رؤوس الناس عبر القرون.

وإذا كانت محاولات قريش إنشاء دول كبرى تمثلت في بني أمية وبني العباس والفاطميين، لم تحقق رجاء الناس في العدالة والحكم الإسلامي الصالح، إلا أن العباسيين منهم حلوا اسم قريش على رؤوس الناس في مشرق

الدولة الإسلامية حتى منتصف القرن السادس الهجري / الثالث عشر
الميلادي ، وإن لم تحمد سيرة أكثرهم وخاصة بعد خلافة المتوكل على الله .

ولكن بيوتاً قرشية هاشمية علوية أخرى ، أشأت دولاً عرمت كيف ترفع
اسم قريش في بواحي عالم الإسلام إلى يومنا هذا .

أما بنو عبد شمس من قريش ، فقد كانت لهم بعد زوال دولة بني أمية في
المشرق ، دولة كبرى في الأندلس ودويلات أخرى أو إمارات صغيرة قام
معظمها في أفريقية .

الفصل السابع

نهوض البيت العلوي وإحياءه لقريش
وأهم الدول التي أنشأتها قريش على طول التاريخ
بعد الدولتين الأموية والعباسية

تَمْهِيد

دامت السيادة لقريش في المشرق إلى سقوط بغداد في أيدي المغول سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ، ولكنها كانت سيادة اسمية مثلها الخليفة العباسي الذي انتهى دوره في قيادة دولة الإسلام في أيام المتوكل على الله العباسي (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ / ٨٤٧ - ٨٦١). فقد كانت في هذا الرجل بقية من نخوة عربية وميل إلى ارم ما وهي من أمر البيت العباسي واتجه إلى إعادة الثقة إلى العرب وإعادة القوة والجلالة إلى قريش كي يعترف العرب ، ولكن المتوكل كان أقل من أن ينهض بمثل هذا العمل الضخم ، فقد كان طائشاً أهوج سكيراً مقبلاً على لذاته ، وكان دافعه إلى التخلص من الأتراك والعودة إلى العرب صادراً عن خوف من الأتراك ورغبته في تأمير ملكه منهم بعد أن استبدوا بالخلافة . ثم إن تدبيره المؤامرة لإيقاع مذبحة بالقادة الأتراك كان تدبيراً صبيانياً مكشوفاً ، وكانت كراهيته لابنه المنتصر أمراً عجيباً . فقد كان أحرص ما يكون على إهانة ابنه هذا والإساءة إليه ، فانضم المنتصر إلى الأتراك ودبر معهم قتل أبيه ، وتم ذلك وعاد السلطان للأتراك ، وكانت تلك آخر محاولة عباسية للتخلص من سلطان الأتراك ، وبعد ذلك تندهور الخلافة العباسية إلى درك سحق وتدخل في دور النزاع الطويل . وعلى أيدي القادة الأتراك مات قاتل أبيه ، واختار القواد أحمد بن محمد المعتصم بالله خليفة ، وتولى عرش الخلافة باسم المستعين (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ / ٨٦٢ - ٨٦٦ م) ومن ذلك الحين إلى نهاية الدولة العباسية في بغداد لم يعد لقريش من الخلافة إلا اسمها . وخرج هذا البيت القرشي من نطاق القوة

والرياسة العلوية لدولة الإسلام في المشرق، حتى احترام الناس وإحلالهم لهم فقدوه، فإن الأخطاء والجرائم التي ارتكبتها العباسيون للوصول إلى الحكم والجرائم الأخرى التي قارفوها للبقاء فيه، كل هذه انعشت البيت العباسي إلى الناس. أصف إلى ذلك ما كان منهم من ميل عن العرب ونفور منهم وتفصيلهم غير العرب عليهم ولجؤهم إلى العرب أحياناً للإستعانة بهم في إصلاح أمر بيتهم أو تدعيم الخلافة لواحد منهم ولا زيادة، كل هذا باعد بين العباسيين والناس بشئ أجناسهم وطوائفهم، فلم يعد للناس أمل إلا في العلويين - أهل بيت النبي -، واتجه المسلمون إلى تأييد كل طالب للملك ثائر على العباسيين من بيت علي بن أبي طالب.

و شيئاً فشيئاً وبعد العصر الجوهري، وفي منتصف العصر السلجوقي يتحول الخليفة العباسي إلى أمير من جملة الأمراء المتنافسين على السلطان في العراق، فكانت له أرضه وأقطاعه وجباياته واثاثاته على الناس، وقد يزور الناس الخليفة للتبرك وقد يشاهدونه في شرفة قصره للمفرجة كما نرى في رحلة ابن جبير ولكنه لم يعد رمزاً لشيء جدي. وهكذا عاش الخلفاء العباسيون إلى آخر أيامهم في بغداد وليس لهم من جاء القرشية وجلال الهاشمية إلا ذكرى مجد قديم ذهب مع أمس الدابر.

أما الجلالة الهاشمية فقد انتقلت إلى بيوت الأشراف من المواسم، واستقرت بصفة خاصة في فروعهم التي لم تتوقف عن المطالبة بحقها في السلطان يوماً، وعاليتهم المعظم من العلويين من نسل علي بن أبي طالب عن طريق ابنه الحسن والحسين. ولكنهم بعد مذابح كثيرة نزلت بهم، مالوا إلى الهدوء والبعد عن السياسة، وهؤلاء الأشراف نحدتهم في كل بلاد الإسلام من غرب الصين إلى المحيط الأطلسي، فكل بلد من بلاد الإسلام أشرافه من أصحاب العمائم الخضراء، ولا يمكن التحقق من نسب بيت من هذه البيوت، فإن دعوى الأنساب

أسرار لا يعلم حقيقتها إلا الله سبحانه، ولا نستطيع أن ننكر على بيت دعواه الهاشمية إلا إذا كانت لها على ذلك حجة بالغة، وفي حالات معينة معروفة تثبت دعوى الهاشمية ثبوتاً قاطعاً، كما هو الحال في أمر الأدارسة والأشراف السعديين والعلويين الفلاليين وبعض بيوت أشراف الحجاز. والتسليم بالدعوى في كل هذه الحالات اسلم ما لم يقدّم دليل قاطع بالبطلان، وبالنسبة لمؤرخ قريش يستوي صاحب الحق في النسب ومدعيه بالباطل. فإذا صدق كان ذلك دليلاً على طول عمر قريش واستمرار القوة والسيادة في بعض بيوتها أما إذا كذب كان ذلك دليلاً على استمرار جاه البيت وشرفه، لأن الناس لا تنتسب لبيت إلا إذا كان هذا الانتساب يخلع على صاحبه جلالة وشرفاً، ولم تعرف أمة الإسلام في تاريخها جلالة هي أرفع من جلالة القرشية الهاشمية، والانتسابات لبيوت قريش على طول التاريخ الإسلامي كثيرة جداً وإثبات دعواها بالغ العسر، ولهذا كانت في كل بلد من بلاد الإسلام نقابة أشراف ولها نقيب يعتبر رأس أشراف أهل البلد وإن لم يكن له في السياسة أي نصيب، وهذه النقابات هي التي تتحرى عن الأصول والأنساب وتحمي الانضمام للنقابة لمن تتحقق من صحته نسبه، والأشراف في المفهوم العام هاشميون علويون ولكن يدخل معهم القرشيون من الهواشم جملة وأحياناً يسمى نقيب الأشراف شيخ قريش. وقد نتجته همة بعض أولئك القرشين لطلب السلطان وإذا ساعدت الظروف ووجد فيهم من له ميل وأهلية لشئون الحكم والسياسة، وهنا تقوم دولة قرشية هاشمية في الغالب يطول عمرها أو يقصر، ولكن الدول التي يقيمونها في العادة تكون صغيرة لا تتميز عن غيرها بشيء، لأن القرشية فقدت هذه الحالة التي أحبطت بها خلال العصر الراشدي، ولم يبق منها في قلوب المسلمين من الجاه إلا الحب العميق الذي يكنه المسلمون جميعاً لرسول الله ﷺ النبي القرشي الذي اصطفاه الله من بيت بي هاشم، وأمره أن يبلغ رسالته إلى الناس. لتشمل أهل الأرض أجمعين وقد يوفق طالب السلطان من بني هاشم في إنشاء دولة أو لا يوفق

ولدينا أمثلة كثيرة من هذه التوفيقات السياسية التي أدركها القرشيون في عالم الإسلام على مدار العصور المأصية بل إلى يومنا هذا . وسأنفق بقية هذا البحث في دراسة أهم الدول القرشية التي قامت خلال التاريخ ، وكلها هاشمية إلا دولة بني أمية العثميين ، وأسرة يقال إنها مروانية في بلاد الفور في جنوب غربي السودان السيلي .

وسأكتفي هنا بالدول القرشية الكبرى أو التي تميزت بطابع خاص ، أو قامت بعمل عظيم . لأن احصاء الدول القرشية على طول التاريخ وعرضه عسير كل العصر ، والتاريخ لها أعسر . والذي نريد أن نظهره للناس هي حيوية الأرومة القرشية والهاشمية خاصة . فهذه القبيلة تعتبر من أصغر القبائل المعروفة في التاريخ حجماً ، ولكنها دون شك أعظمها كلها . فقريش أنشأت لغة تعتبر من كبريات لغات البشر ، وحملت عبء نشر الإسلام وأقامت حضارته ، ومن بين أظهرها ظهر سيد الأنبياء وخاتم النبيين ﷺ ، ورغم ما أصابها على طول التاريخ فقد بقيت بيوت من قريش تحكم أمماً كثيرة من كبريات الأمم إلى يومنا هذا . وهذه ظاهرة فريدة في بابها في التاريخ وسندع دولتي الأمويين والعباسيين فقد تحدثنا عنها بما فيه الكفاية في تضاعيف هذا البحث .

الدولة الأموية الأندلسية

وأقدم المحاولات القرشية بعد الأمويين المشاركة والعباسيين هي محاولة عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المعروف بالداخل ، وتمكنه من إنشاء الدولة الأموية الأندلسية في سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٦ ، وهي من أعظم دول الإسلام وهي كذلك أنجح محاولة للحكم قام بها رجل عثماني من غير بني هاشم ، لإنشاء دولة ذات كيان وشخصية ووظيفة وتاريخ بعد أن ماتت الدولة الأموية المشرقية .

ولا يرجع توفيق هذه الدولة إلى محبة كانت عند الناس لبني أمية، بل لأن
 عبد الرحمن بن معاوية كان من أعظم المؤسسين في شؤون السياسة والحرب
 قيادة الناس وقد أعانته بالفعل ظروف مواتية، ولكن فضله يتجلى في أنه
 استطاع الاستفادة من الظروف التي وحدها إلى درجة ماهرة، وإذا نحن قسنا توفيق
 هذا الرجل في الظروف التي قامت فيها دولته بمعاوية بن أبي سفيان أو مروان
 ابن الحكم لوجدنا عبد الرحمن بن معاوية يشف عليها شفوفاً واضحاً، لأن كلا
 من معاوية ومروان أقام دولته وهربين رجال بينه وتحت يده قوة عسكرية تؤيده،
 ثم إن أهل المشرق كانوا بعد مقتل عثمان في شوق إلى الخروج من الفتنة وجمع
 الكلمة، وأمة الإسلام في المشرق كانت لا زالت بخير، وقد استطاعت الأمة أن
 تغلب العقل على العاطفة وأيدت أقوى طلاب الحكم وأصلحهم بعد استشهاد
 علي بن أبي طالب، فعلت ذلك عافضة على الوحدة لا تسليماً بحق معاوية. أما
 عبد الرحمن بن معاوية الداخل فقد أقام دولته بيمينه فعلاً، وقد أعانته في ذلك
 موال بني أمية وكانوا في الحقيقة جماعة قوية تجمعها مصالح مشتركة إلى جانب
 الولاء للبيت الأموي، ولكن إقامة الدول ليست أصعب خطوة في تاريخها، وإنما
 المهم هو الاستمرار وتدعيم البناء وتهيئة السبل والوسائل لاستمرار الدولة على
 حال القوة والسيادة والقيام بمطالب الحكم ومسئوليته على نحو يستأهل تأييد
 الناس ويؤدي بهم إلى الرضى والتسليم، فقد طلب الخلافة مثلاً عبد الله بن
 الزبير في المشرق، قبل قيام دولة عبد الرحمن الداخل بما يقرب من نصف القرن
 وكان عبد الله بن الزبير صاحبياً ابن صحابي، وقد قام في المدينة المنورة واعتصم
 بمكة ودخلت في طاعته مصر والعراق وربما خراسان، ولكن الرجل نفسه لم يكن
 مؤهلاً للرياسة أو السياسة، وقد كان له عضد قوي في أخيه مصعب بن الزبير
 وأيدته القيسية كلها، ولكنه لم يقد من تلك الظروف بل جعلها - بضعف تفكيره
 السياسي - موضع ضعف في حركته، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن البيت الأموي
 غير دائماً لوحدة عاطفية عصبية كانت من أكبر عناصر قوته في صراعه السياسي
 مع منافسيه سواء قبل الإسلام أو بعده، فلم تفكك وحدة البيت مرواني في

المشرق إلا بعد ضربات عنيفة تلقاها البيت نتيجة لأخطاء بالغة وقع فيها بعض خلفاء بني أبي سفيان بن حرب، ثم بعض بني مروان بن الحكم، وأخطر هذه الضربات هي الخلافات الحادة التي وقعت بين أمراء البيت المرواني، وما استتعت هذه الخلافات من إضعاف الرابطة التي كانت تربط البيت المرواني بالقبائل الشامية العربية الكبيرة ما بين قيسية ويمية، أي أن بيان الدولة تصدع في صموده وقيادته، ومثل هذه الصدوع تكون في العادة مؤذنة بانحيار النظام السياسي الذي تقوم عليه، فهو صدع رأسي يصعب الشامه .

أما دولة بني أمية الأندلسيين فقامت على وحدة البيت المرواني الذي أنشأه عبد الرحمن الداخل في الأندلس، وقامت كذلك على تأييد جماعات موالي بني أمية، وهي جماعات صغيرة من ناحية العدد، ولكنها كانت أقلية قوية واعيّة إلى أن أساس قوتها هي قوة البيت المرواني وضرورة إلغائها حوله لتستمر هيئته وسلطانه .

جماعة الموالي الأندلسيين هذه لم تكن كلها موالي خلفاء البيت الأموي ولا موالي البيت جملة، بل يدخل فيها موالي قريش بمن فيهم موالي بني هاشم، وفيهم قلة من موالي رسول الله ﷺ .

وموالي بني أمية الأندلسيون لم يكونوا كلهم من غير العرب بل كان فيهم عرب . والولاء هنا انتساب، ففي جماعات الجند العربي الفاتح للمغرب والأندلس كانت فصائل من الجند العربي تدخل في ولاء الخليفة القائم بالأمر ليكون هذا الولاء عنصراً من عناصر قوتها وضماناً لحسن معاملة أفرادها من جانب الحكام والولاة، وبعضهم اكتسب هذا الولاء منذ كانوا في المشرق وقبل اندراجهم في جيوش الفتح، وبعضهم كان من بربر المغرب، فكان بعض شيوخ القبائل البربرية يدخلون في ولاء الخلفاء أو عمالهم مثل عقبة بن نافع وحسان بن النعمان وموسى بن نصير، فتدخل القبيلة كلها في هذا الولاء الذي

يأخذها معنى الخلف أو الأثرة التي تترتب على هذا النوع من الأحلاف فيقال في هذه الحالة ان الرجل أخو بني فلان.

وهذا الولاء كان يرفع أصحابه درجة على غيرهم من جماعات العرب والبربر المدرجة في الجيش . وقد تكوّن في المغرب والأندلس جماعات من أولئك الموالي، أما موالي المغرب فقد تلاشوا أثناء الفتنة المغربية الأولى التي كانت في المغرب الإسلامي كله احتجاجاً على تصرفات حكام العرب وخاصة القيسية منهم، وكانت بداية هذه الفتنة سنة ١٢٢ هـ / ٧٤٠ م في خلافة هشام ابن عبد الملك وولاية عبيد الله بن الحبحاب على المغرب والأندلس، وما دامت الفتنة المغربية قد قامت على بني أمية فقد كان من الطبيعي أن ينحني أولياؤها ومواليها. أما في الأندلس فقد ظلت البلاد تابعة لبني أمية بالإسم رغم افتراق الكلمة والحروب الأهلية بين العرب بعضهم وبعض، وبين العرب والبربر، والفتنة هناك لم تأخذ صورة ثورة على بني أمية وحكمها فحسب، بل أخذت كذلك صورة نزاع على السلطان بين الكلبيّة والقيسية، وكلاهما كان في وقت أو آخر من صنائع بني أمية، أو بين العرب والبربر، وهنا نجد أن العرب جميعاً في الأندلس يتمسكون بطاعة بني أمية، وتنتهي فتنة عصر الولاة في الأندلس بنصر العرب وهزيمة البربر، فأما العرب فقد التفوا حول راية الوالي الأموي، وكان في الغالب منتخباً من الجند المحليين، وكان زعمائهم في ذلك موالي بني أمية.

وعندما وصل عبد الرحمن الداخل إلى المغرب ونزل في كنف قبيلة نفزة البربرية في المغرب الأوسط، أو في ناحية طنجة، وأرسل مولاة إلى الأندلس يستطلع له الأحوال فيه، ورحب به موالي بني أمية من العرب والبربر جميعاً، لأن رجال البربر توقعوا أن ينقدهم هذا التمسك بالولاة الأموي من الوهلة التي تردوا فيها من انتصار العرب عليهم في وقعة أقوة برطورة، وبهذا اتفق موالي بني أمية جميعاً على تأييد عبد الرحمن وعاونوه بإخلاص على إقامة إمارته في ١٤ مايو

٧٥٨م

وقد تجلت موهبة عبد الرحمن الداخل السياسية في أنه بعد انتصاره وإقامة دولته، ظل يحتفظ هؤلاء الموالي وظل يعتمد عليهم في الإدارة والحرب وهو لم يعاملهم بالطريقة غير المعقولة التي عامل بها أبو العباس عبدالله السفاح وأبو جعفر المنصور بقاء الدعوة العباسية ودعائها، فبينما اتجه العباسيان إلى القضاء على النقاء والدعاة أو إهمالهم، والاعتماد على جند مرتزق مع الاعتزاز ببعض قادة العرب ومهر من الموالي نجد عبد الرحمن الداخل يحفظ لبيوت الموالي مكانتها ويجعل منها بيوتاً مساندة للحكم الأموي، ومن هذه البيوت اختار رجال دولته. وكان معظم رؤساء بيوت الموالي هؤلاء رجالاً ممتازين ذوي مواهب وعقول، فوضعوا أيديهم في أيدي بعضهم بعضاً، واجتهد كل بيت من بيوتهم في بذل أقصى الجهد في خدمة الأمير في وظائف القيادة والحجابه والوزارة وولاية النواحي حكومة المدن وما إليها.

واجتهد كل بيت من بيوت هؤلاء الموالي الأندلسيين في أن يكون له تخصص في ناحية من نواحي خدمة الدولة دون إهمال النواحي الأخرى، فاشتهر بيت بني مُغيث ومؤسسه عبد الكريم بن مُغيث الرومي مولى عبد الرحمن الداخل في القيادة العسكرية، وكذلك بيت بني عَبَّاد (ومؤسسه حسان بن أبي عبده) وبيت بني بُخت (مؤسسه يوسف بن بُخت) في الإدارة والوزارة، وبيت الزجال في الكتابة، وهكذا نجد الأمير المرواني مُحاطاً دائماً ببيوت موالية له مخلصه في خدمته على رأسها رجال ذوو مواهب وملكات، وفي كل بيت من الكهول والشباب المدربين المستعدين للخدمة العدد الوفير، فيختار منهم الأمير من يشاء دون أن يخشى انقلاباً أو خيانة، لأن هذه البيوت أصبح مثلها بيوت الأشراف التي كانت تحيط بالأسر المالكة في الغرب، وتساندها وتسد خللها وتجمع شملها وترأب صدوعها وتكسب لها ولاء الناس.

وإلى هذه البيوت من الموالي وسياسة بني مروان معها نشأ نظام تعدد الوزارة في الأندلس، فإن الأمير كان يرقى من يشاء من رجال هذه البيوت إلى مرتبة الوزارة، فإذا عصت عليه وأراد إدالته بميره أقاله فلزم بيته مع لقبه

ونعمته وقد يعيده إلى الخدمة فيما بعد، ومن النادر جداً في تاريخ المروانيين الأندلسيين أن سمع عن نكبة وزير، فإن نظام الإقالة من الخدمة مع الإبقاء على النعمة أصبح نظاماً متبعاً في الدولة الأموية الأندلسية.

وبفصل هذا النظام صلح أمر البيت القرشي المرواني في الأندلس، ورضي عنه الناس وطال عمره، لأن الحكم لم يكن هناك استبدادياً مردياً قط، بل كان شورياً في جماعة صغوية معينة إنضم إليها فقهاء المالكية الذين أبدوا البيت المرواني فكافأهم الأمراء على ذلك بحصر القضاء والفتيا فيهم، وقامت دولة المالكية إلى جانب دولة المروانية وشد الوزراء أزر البيت وسدوا خلل الحكم وقدم له الممتازون من أهل الفقه إلى جانب بيوت الموالي أو بيوت أهل الحكم أو بيوت الأسر الموازية لخدمات لا تخصي.

بفضل هذا النظام في الحكم الفريد في بابه في تاريخ الدول الإسلامية استطاع بنو أمية الأندلسيون أن يطيلوا عمر دولتهم على حال مشكورة من القوة والسيطرة على شبه جزيرة أيبيريا، وهي من أعسر بلاد الله على الحكم وأصعبها على التوحيد تحت نظام سياسي واحد، ومن الواضح أن هذا النظام لم يكن السبب الوحيد في نجاح رجال البيت الأموي الأندلسي، لأن رجال البيت المرواني في جملتهم تمتعوا بنصيب كبير من القدرة والحزم والقدرة على سياسة الأمور. ولكننا نستطيع القول بأن نظام الحكم الجماعي هذا كان من أقوى الأسباب في اتصال سلسلة الأمراء الأكفاء في البيت المرواني، فمن الثابت أن رجال هذه البيوت لهم فضل كبير في سد خلل الحكم وتلافي أضرار شططحات الأمراء وميلهم إلى التعدي والاستهتار بالقانون المعروف والتقاليد، وكثيراً ما تدخلوا في اختيار الخليفة وأحسوا الاختيار، فقد كان الحكم بن هشام الملقب بالرضي مستنداً عاشراً أول حكمه، ولو ترك على حاله لأصاب البيت الأموي بلاء شديد لأن أهل الأندلس كانوا شعباً عيماً قوياً الشكيمة شديد المراس

عنيف المقاومة حريئاً على الدول والحكام . وقد كاد أهل المريف (الضاحية الجنوبية) في قرطبة يطيحون به في ثورتهم الثانية عليه سنة ٢٠٢ هـ / ٨١٧ م . ولم ينح الأمير من الهلاك وقصره من الحرات إلا بفصل الحاحب القائد عيسى اس شهيد الذي لحاً إلى حيلة خسية ولكنها فعالة ، إذ أمر فرق الصقالمة من حرس الأمير بالمجوم على بيوت النافرين وإلقاء النار فيها وفيها أسر النافرين ونساءهم وعيالهم ، فما راعهم إلا والنار مندلعة في بيوتهم وهم يهاجمون القصر فتركوا ما كانوا فيه وارتدوا لانقاذ ذويهم ، وهت ركب خيالة الجند أقفيتهم وكادوا يفتنهم . وقد نجت الإمارة بهذه الفعلة ولكن ثمن النصر كان فادحاً فيها بعد ، لأن حقد أهل قرطبة والأندلس جميعاً على المسكر الأموي أصبح عميقاً وشاملاً ، واستمر عبر الأجيال حتى كان من أكر اسباب ضياع أمر الخلافة القرطبية المروانية .

وقد تكررت أعمال النافرين من رجال هذه البيوت في تلافى أخطاء الأمراء ، وتلافى نتائج الكثير من انجهااتهم إلى الظلم ولكن الامراء أنفسهم ظلوا دائماً على مستويات طيبة من اليقظة والقدرة ، وإذا كان رجال مثل الحاحب القائد أبي العباس أحمد بن أبي عبدة قد أفقد الإمارة القرطبية من الضياع تحت ضغط النافرين والوائبين الذين غصت بهم الأندلس أثناء إمارة الأمير عبدالله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ - ٩١٢ م) . فإن الأمير عبدالله نفسه كان من أفذاذ الأمراء . كان عاقلاً عنيداً حكماً لا يميل إلى نزاحة أو يستنيم لكفاية وزير أو حاحب ، وقد ظل طوال سنين إمارته الثلاثين ثابتاً لحصوم الإمارة - حتى في الوقت الذي ضاق فيه نطاقها حتى اقتصرت على ولاية قرطبة - ظل هذا الرجل الصلب راسخاً كالطود حتى أعصى حصومه والخارجين عليه واستنفد قواهم ، فهلك بعضهم في أيامه وتبهات البقية للاستسلام حتى أمنت إلى أمير شريف مأمون الجانب سليم الذمة بعد وفاة الأمير عبدالله ، وكان هذا الأمير هو عد الرحمن بن محمد حفيد عبدالله ، الذي أنهى مقاومة النافرين

وتلقى استنماهم ومرتحمهم بما وعد من الأمان، فاستقر له الأمر وعاد ملك البيت مرواني بظل الأندلس الإسلامي كله. ولهذا وحد عبد الرحمن أنه حدير بلقب الخلافة، إذ رأى نفسه أحق بها من معاصريه العباسيين والفاطميين، فادى بنفسه خليفة في دي الحجة ٣١٦هـ / أوائل ٩٢٩م. وبذلك عادت الخلافة إلى البيت مرواني بعد إختفائها ١٨٤ سنة قمرية، وهذا في ذاته حدث فريد في بانه، وهو من أنصح الأدلة على حيوية الفرع المرواني من آل أمية القرشيين، ويزيد في وضوح هذا المعنى أن الخليفة الأموي المشرق الذي انتهت الخلافة الأموية المشرقية في أيامه، وهو مروان بن محمد لم يكن بالخليفة الضعيف أو العاجز أو القاعد، بل كان نشيطاً عنيداً حتى سمي بالحمار لعناده وإصراره، وقد فقد الخلافة، لأن زمان بني مروان في المشرق كان قد ولى ونخر في عظام ملكهم سوس الفساد وانشقت عصا جندهم العربي ودأب مروان هذا على القضاء على اليمنية فأساء إلى نفسه وبينه بذلك أكبر إساءة لأن اليمنيين كانوا في الواقع دعامة البناء العسكري للبيت الأموي، وهذا يفسر لنا اجتهاد العناصر اليمنية في خراسان في القضاء على دولة مروان بن محمد، أما مروان بن محمد نفسه فقد ظل يناضل في عناد حتى قتل في صعيد مصر، ولم يكن مقتله نهاية البيت المرواني فقد تجدد في حديث اسطوري الطابع في نواحي شرق السودان النيلي شمال شرق نيجيريا وتجددت الخلافة الأموية نفسها في صورة تاريخية تدعو إلى الإعجاب على يد الأمير عبد الرحمن الداخل في الأندلس ثم على يد حفيده عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد ابن عبد الرحمن الأوسط، الذي أخذ يوم إعلانه خلافته لقب الناصر لدين الله، وطريف من الأمر أن أبا حيان بن خلف بن حيان مؤرخ البيت الأموي الأندلسي لا يذكر عبد الرحمن الثالث إلا بلقبه الكامل: «الناصر لدين الله أمير المؤمنين» إعزازاً له وتقديراً. وبيت بني مروان في الأندلس كسب بفضل أمرائه وحلفائه ورجاله إحلال أهل الأندلس جميعاً، فتعلقوا به وفاخروا به على نحو لم تظفر به دولة من دول الإسلام بعد الخلفاء الراشدين ومن أنصح الأدلة على ذلك حماس رجال مثل اس حزم وابن حيان للبيت الأموي بعد زواله.

وبفضل تلك الخلافة التي كسها لبني مروان القرشي في الأندلس، عاد اسم قريش إلى العلوي عالم الإسلام علواً كبيراً

وكان أمراء بني مروان الأندلسيين عرباً حاصرين، ولا يقصد ها عروبة الدم، فإن أمهات كل من تولي عرش قرطبة كن غير عربيات، حتى أم عبد الرحمن الداخل كانت بربرية، كنهم ولدوا لأمهات أولاد معظمهم جليقيات أي من إقليم جليقية شمالي غرب شبه الجزيرة، أو بشكونسيات أو صفليقيات، ولكننا نقصد ناحية القلب واللسان والعقل والثقافة والروح فقد كان بنو أمية الأندلسيون عرباً لساناً وفكراً وأسلوب حياة، وقد اتبعوا في ترتيب قصورهم وشئون إدارتهم تقليداً شرقياً يسمى بالتقليد الشامي، يقوم على اللغة العربية والاعتماد على رجال عرب الشام وأبنائهم، حتى موالى بني أمية كان الشاميون منهم يفضلون على من سواهم.

وقد حسب المستشرق الأسباني الموهوب خُليان ريبيرا نسبة الدم العربي في دماء عبد الرحمن الناصر، فجاءت واحداً على ستة عشر، ولكن الرجل كان عربياً فحلاً فصيحاً ظاهر القرشية رغم أن أمه كانت جارية جليقية تسمى مارية، بحرفها بعض المؤرخين إلى ماوية وكذلك كان ابنه الحكم المستنصر، وهو ابن جارية مشهورة تسمى مرجان أصلها بشكنسية الأصل، وقد حكى ابن حبان في الجزء الخامس من تاريخه «المقتبس» من أمرها عجباً وهذه هي صبيح البشكنسية التي قامت بدور سيء في تمكين الطاغية المستبد المخرب محمد بن أبي عامر من السلطان في دولة بني أمية.

وكانت لبني مروان الأندلسيين نتيجة لروحهم العربي الإسلامي هذا عناية هائلة بالعلوم والكتب، ويندر أن نجد منهم واحداً غير شاعر، ومنهم الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر، وهو خليفة فقيه عالم توسع في العناية بمكتبة القصر حتى صارت دار كتب تقع بهارسها في ٤٤ كراسة في كل كراسة منها خمسون ورقة، والفهارس كما هو واضح لشتى العلوم والفنون، فكان

هون الكتب في هذه المكتبة العامرة كانت ٤٤ فئا ومجموع كتب المكتبة قرابة المائة ألف كتاب على الأقل، لأن كل فهرس كان فيه حسون ورقة ومجموع الأوراق ٢٢٠٠ ورقة وهي ٤٤٠٠ صفحة، ولم يكن في هذه الصفحات إلا عناوين الكتب، فحسب، فإذا حسبنا أن كل صفحة ضمت عشرين عنواناً فهذه ٨٨٠٠٠ عنوان، وهذه في الحقيقة أصحح مكتبة واحدة سمعنا عنها في التاريخ إلى العصر الحديث، ولقد حدثونا عن ملايين الكتب في مكتبات بغداد والقاهرة، ولكنها كلها مبالغاة لا تصدق، ولكن هنا رقماً حقيقياً لعدد الكتب في مكتبة القصر بقرطبة، وقد جمعها واهتم بها وأمر بتجليد كل كتبها خليفة مروان قرشي هو الحكم المستنصر ابن عبد الرحمن الناصر لدين الله.

وهذا لا يمنع من القول بأن بني أمية الأندلسيين كانوا إسباناً في نفس الوقت، كانوا أبناء الوطن الأيبيري مع قرشيتهم. الأندلس كان وطنهم وهم كانوا المسؤولين، وكان عليهم أن يخلصوا له ويدفعوا عن أهله ويطبقوا شرع الإسلام فيها خضع لهم من أرضه، وهذه فضيلة من كبرى فضائلهم وسبب من أكبر أسباب طول عمر دولتهم. كانت القرشية والإسلام الدينية والفكرية واللغوية والمعنوية، أما الأيبيرية فكانت وطنهم الذي أحبه وارتبطوا به ودافعوا عنه، وكانت أمهاتهم إيبيريات وكذلك كان الكثير من خدمهم فنشأوا يتكلمون الإسبانية لغة ثانية يتكلمون بها بسهولة في بيوتهم ومع نسائهم ومع أهل وطنهم ومن الثابت لدينا أنهم جميعاً، ابتداء من هشام الرضي كانوا يتحدثون أي اللغتين شاءوا نفس السبولة. ولدينا أوصاف مشاهد من مجالس الأمراء والخلفاء والقضاة تؤيد ذلك وكانت لبعضهم ألقاب إسبانية فمن أحفاد هشام الرضي هذا كان عالم مؤرخ اعتمد عليه أسوحيان يسمى معاوية الشبائسي أو اس الشبائسية، وهذا اللفظ تحريف للفظ اساي هو سابيتيا Sabientia أي التبحر في العلم ومن أحفاد الحكم الرضي رحل يسمى عبدالله اس عد العزيز تولى الوزارة ذات مرة وكان بحبلاً فلقه أصحابه بالطرحة شك وهما لفظان إسانيان Piedra Seca أي الحجر الياس كما يقول ابن حزم

وهذه العنصرية الإنسانية هي التي مدت لذلك البيت خيوطاً في الأندلس فاحتلطوا بالناس وفهموهم وارتبطوا بالأرض والناس فازدادت دولتهم تمكناً ، وأصبحت دولة نائمة في الثروة الإسبانية ، واعلة عروفتها في الأرض الأندلسية ، ولم يكونوا كالكثيرين من أصحاب دول الإسلام في مواضع أخرى : محتلين أجانب وكان لا بد أن تعصف بهم الرياح كما تعصف بأي أجنبي مستبد .

كان بنو أمية الأندلسيون جميعاً ممثلين للعروبة والقرشية في الأندلس ، كانوا يمثلون العروبة لساناً وفكراً وعنصرية عربية إسلامية من طبقة عالية ويفضلهم ويفضل حرصهم الشديد على العروبة والإسلام أخذ الأندلس صورة بلد عربي وإن كان معظم سكانه غير عرب من ناحية الأصول ، ولكنهم استعربوا على دين ملوكهم وأصبحوا من أشد الناس اعتزازاً بالأندلس العربي والإسلام الأندلسي ، وكانت عنصرتهم الأندلسية هذه تستلفت الأنظار وتثير الخواطر عليهم حيثما حلوا ، وابن حزم نفسه عندما يتحدث عن نفسه وأهل بيته وتربيته في كتابه المبدع طوق الحمامة ، يصور نفسه فيه في صورة رجل عربي نشأ نشأة أندلسية ، فهو إلى سن العشرين كان لا يحسن الصلاة حتى لقد خجل من نفسه عندما دخل المسجد مرة ، فلم يعرف كيف يصلي صلاة الجنازة لأنه في صباه عاش حياة أندلسية إسبانية بين نساء البيت وجواريه وكلهن إسبانيات . على أيديهم تربي ، كما يقول هو بنفسه ولكنه عندما أحس بجهله بالإسلام وبالثقافة العربية أكب على الدراسة بذكاء العربي ومثابرة الإسباني فبلغ من المعرفة بالعربية والإسلام والفقه وتاريخ العرب درجة عالية ، وأصبح بذلك من مفاخر التاريخ الفكري العربي ومن مفاخر الفكر الإنساني كذلك ، فهو عند الإسبان مفكر وفيلسوف إسباني وعالم شئون الأديان يكتب بالعربية ، وهو عندما منارة العلم العربي الإسلامي الأندلسي وأحسن كتاب كتب عن ابن حزم كتبه عالم إسباني معاصر هو ميغل أنيس ملانيوس . وابن حزم نفسه كان من أشد الناس تعلقاً بجاسه ، الإسباني وهو القائل :

أيا جوهر الصبر سحقا، فقد .: عنت بياقوتة الأندلس
 وكتابه «رسالة في فصل الأندلس» حير شاهد على ذلك وهو في نفس
 الوقت من أشد المتحمسين للبيت المرواني الأندلسي لا يزال يلحج لسانه بالثناء
 عليه، وهو يرى أن عهد الأندلس العربي الإسلامي كان معقوداً بلواء المروانيين،
 فلما انكسر اللواء انكسر الجيش كله، وحق له أن يقول ذلك، فقد قاله أيضاً أحد
 ملوك النصرانية وهو سانشو الأول الكبير ملك نبرة، فقد هاله تدهور الأندلس
 السريع بعد سقوط البيت المرواني سنة ٤٢٣/١٠٣١ م. فقال ما معناه إن
 الأندلسيين خيبروا ظنه لأن قوتهم كلها كانت في ملوكهم.

والدور الذي قام به بنو مروان الأندلسيون في تاريخ الإسلام عظيم،
 ولكن دورهم في تاريخ أوروبا أعظم. فهم أسرة من الملوك والقادة القرشيين
 الأوروبيين. ولقد أقاموا دولتهم القرشية والأندلس قد مال ميزانه فعدلوه
 وحملوا لواء المجد والسؤدد والقوة ثلاثة قرون وتزيد: من ١٣٨ هـ إلى ٤٢٣ هـ /
 ٧٥٦ - ١٠٣١ م. كلها - خلا ثلاثة وعشرين عاماً هجرية - سنوات صعود وقوة
 وعزة وكرامة وعروبة وإسلام، فصارن بذلك بني أمية المشاركة الذين انتهى
 عصر قوتهم الحقيقي سنة ٩٦ هـ / ٧١٥ م. بوفاة الوليد بن عبد الملك، أي أن
 عصر قوتهم لم يزد على ست وأربعين سنة هجرية (٤٥ سنة ميلادية) وانقطع
 الرجاء فيهم بوفاة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م. أي بعد ٨٥
 عاماً هجرية من قيام دولتهم، فأين هؤلاء من بني مروان الأندلسيين الذين
 ظلوا على حال القوة من ١٣٨ هـ إلى ٤٢٣ هـ أي ٢٨٥ سنة هجرية (٧٥٦ -
 ١٠٣١ م أي ٢٧٥ سنة ميلادية؟ وأين منهم بنو العباس الذين قامت دولتهم
 سنة ١٣٢ هـ ودخلت في دور الضعف من بداية عهد المتوكل سنة ٢٣٢ هـ أي
 قرن محجري واحد وبقيّة تاريخهم نزع طويل طافح بالمآسي والمخازي ولتضف
 إلى هذا أن بني أمية الأندلسيين شادوا ملكهم في ثمر من ثمر الإسلام، وأقاموا
 دولتهم بين فكي الأسد في قلب العرب الأوروبي المسيحي، وساموا أمورهم

وشقوا طريقهم بقوة وحزم وإصرار وإذا إعترباهم بشأ مالكا أوروبيا نجدهم أذكى وأقدر وأطول عمراً من معاصريهم الأوروبيين من الكاروليين خلفاء قارل وشارل مارتل والتوتون الأوتوميين أباطرة الدولة الرومانية المقدسة ومن بقي هو كايه ثم أخو ملوك فرنسا .

وفي التاريخ العالمي نحتل قريش مكاناً صديقاً برسول الله ﷺ وصحة وبالراشدين بفضل فتوحهم العظيمة في القارات الثلاث ، وبالأمويين المشرقين بفضل فتوحهم أيضاً وبالعباسيين لأنهم أنشأوا دولة غير باهرة سياسياً وعسكرياً ولكنها باهرة ثقافياً وحضارياً ، ثم ببني أمية الأندلسيين بصفة خاصة لأنهم أنشأوا دولة أوروبية عربية مسلمة باهرة سياسياً وفكرياً تضاهي عظيماً الدول في الغرب الأوروبي .

دولة الأدارسة في المغرب الأقصى والسليمانيين في غرب المغرب المتوسط :

من ماثور الإمام علي بن أبي طالب قوله : السيف أحمى للعدد . يريد أن من يخوضون المعارك ويتعرضون للسيف وتصيبهم المقتلة بعد المقتلة يزداد عددهم ، وذلك صحيح تدل عليه زيادات السكان بعد الحروب كما حدث بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية ، كأن الإنسان يشعر بغريزة المجموع أن جنسه أو قبيله يستشري الموت فيه فيجتهد في التمييز ، وهذا أيضاً ظاهر في أجناس الحيوان التي يزداد أقبالها على التكاثر بعد الأوبئة والأفات

ولا يصدق ذلك على قوم كما يصدق في العلويين ، فإن علي بن أبي طالب أحب ما يزيد على الخمسة عشر من الذكور غير الإناث ، ولم ينحب منهم نسلاً ذكوراً إلا الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية ، وكان سل هؤلاء الثلاثة قليلاً فلما استشهد علي بن أبي طالب وتنازل عنه الحسن وبقي الحسين ومحمد بن

الخفية، وبدأ الصراع الدموي الطويل بين بني أمية وبني علي، وخاص الأمويون في دماء الهاشميين العلويين خوضاً، وسقط من العلويين في المذابح العشرات، حتى لقد قتل مع الحسين في كربلاء أربعة من إخوته دون من استشهد من بنيهِ وبني أخوته، ولم يكن الحسن قد أنجب إلا ثلاثة من الذكور، هم الحسن وزيد وجعفر، فما هو إلا أن استمر القتل في آل علي حتى تفجر آل الحسن تفجراً فأنجب الرجال والنساء منهم العشرات حتى غدا الحسينيون وحدهم قبلاً ضخماً كأنهم الشعب، ثم لم يلبث أن جاراهم الحسينيون فزادوا عليهم، ولم تقصر بقية فروع العلوية في ذلك، وكانت الوقائع بينهم وبين الأمويين أولاً ثم العباسيين بعد ذلك دافعاً بالأحفاد وأحفاد الأحفاد إلى التفرق في فجاج الأرض، فانتشر العلويون في كل بقاع الدنيا حتى لم يخل من رجالهم ونسائهم قطر بل بلد. وقد انقرض الأمويون الذين تجردوا لإبادتهم بإنقراض بيتهم الأموي الأندلسي وانحصر العباسيون في بغداد والعراق وبعض الحجاز، ثم انقرضوا بعد ذلك فلم يبق منهم من يذكر إلا في بيت خلفائهم في مصر.

أما العلويون الذين تجرد هؤلاء للقضاء عليهم فقد كثروا كثرة غريبة ونبضت أمراقهم في كل ناحية واختلطوا بالناس في كل مكان وصاهروا الناس وأصبح الكثيرون منهم من صميم أهل النواحي وجمهورها، فامتشرت بيوتهم وتعددت أسماهم أسراهم حتى أصبح من أعسر الأمور ضبط فروعهم وإحصاء أسراهم وقد انفتحت من الوقت شيئاً لا يصدق في عمل شجرات أنساب لكي أحصي بيوت القرشين التي وصلت إلى السلطان في نواحي دولة الإسلام شرقاً وغرباً، فتراعى بي الأمر ورأيت أنني أجاوز به القصد وأخرج عن طوق قوتي المقصود، فاقصرت وإلا ما فرغت أبداً ولقد قدرت أثناء هذا البحث أن الدول التي أسساها القرشيون - العلويون خاصة - في نواحي الأرض جميعاً كبيرة وصغيرة تلغ دون المائة، وانتهيت بها في الإحصاء إلى ما بعد المائتين وما بقي عليّ كان أعظم ورأيت أن هذه نتيجة يتحقق بها دون حاجة إلى مزيد من الاستقصاء جانب

من جوانب هذا البحث، وهو أننا لا نعرف قبيلة من قبائل التاريخ مهما تضخم حجمها لم تنشئ من البيوت الحاكمة على مر العصور قدر ما أنشأ أبناء قريش. والغالبية العظمى من أولئك القرشيين من بني هاشم وأبناء علي خاصة ما بين حسنيين وحسينيين وزيديين وحعفريريين وعقيليين. فكان الله زاد في بركة المصطفى صلوات الله عليه بالزيادة في أهل عترته حتى لم يحرم منهم فتح من فحاج أرض الله، ونحن لم نحصى ما أنشأته قبائل من الجرمان والمغول والترك لكي نعقد المقارنة بينها وبين قريش على كبر الفرق في الحجم واتساع البلاد وثروتها. ولكننا نقول غير مجازفين إن قبلاً مما خلق الله لم ينشئ من الدول قدر ما أنشأت قريش، فلم يخل من دولهم عصر ولا مكان، وإلى أيامنا هذه لا زال بيتان على الأقل من بيوت بني هاشم حكماً على شعبين من شعوب العرب المعاصرين، هما بيت الهواشم أصحاب الأردن وبيت الشرفاء العلويين في المغرب الأقصى.

وفي خلال النصف الثاني من القرن الثاني الهجري عندما وهن أمر الدولة العباسية وتزعزعت قواعد سلطانها بعدما كان من حرب الأمين والمأمون، ووقع النفور بين المأمون وأهل بغداد والعراق بعد أن ولي المأمون الفضل بن سهل وهو فارسي أمر بغداد والعراق وأقام هو مخوفاً على نفسه في خراسان، في هذه الظروف تتابع خروج العلويين على بني العباس، إحساساً منهم بأن ساعتهم قد حانت. وقبل وفاة المأمون بثلاث سنوات أي سنة ١٩٩ هـ / ٨١٤ قام محمد بن اسماعيل ابن إبراهيم الملقب بطباطبا، وقد أطلق عليه هذا الاسم للكنة كانت في لسانه في صغره وهو حفيد إبراهيم بن الحسن بن أحمد الناس حول البصرة إبراهيم طباطبا هذا وانضم إليه ثائر من المنتسبين هو أبو السرايا بن منصور كبير الشيبانيين فتمكن من الانتصار على الفضل بن سهل ولكنه توفي يوم انتصاره ويقال إن أبا السرايا قتله، فاتجه أبو السرايا لتأييد داعية آخر هو علوي الحسن بن الحسن بن زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب واشتدت الحرب بينه وبين قواد بني العباس وخاصة هرثمة بن أعين. وهنا نجد العلويين يشيرون ما يشبه الزلزال تحت أقدام العباسيين، فقد نجم منهم ثائر في كل بلد من أقصى

حراسان الى أقصى المغرب ولم تح المذن المقدسة بالحجاز من هذه النار، فقام في مكة والمدينة ثلاثة من النافرين للعلويين في آن واحد، وريع المأمون لكثرة خروج العلويين وتأيد الناس إياهم رغم الخسائر التي وقعت فيهم فلحاً الى التظاهر بالرعة في رد الأمر الى آل علي وآمن علي الرصاص الإمام جعفر الصادق ورعم أنه جعله ولي عهده، وكانت مكيدة ظاهرة انتهت باغتيال علي الرصاص، واستمرار بني العباس في الخلافة وقبيل ذلك ومد فشل ثورتي محمد وامراهيم ابني الحسن بن الحسن بن الحسن بن أبي طالب، تنبه العلويون الى أن أي محاولة لطلب الخلافة في الحجاز أو العراق لا أمل فيها، وانجهمت أبصارهم الى نقل مركز الدعوة والثورة الى الأطراف، الى طبرستان حيث المواليون للعباسيين قليلون، وإلى اليمن حيث لم يكن لبني العباس من السلطان إلا ظل زائل، أو الى المغرب الأوسط أو الأقصى وكانا خارجين عن أراضي الدولة العباسية، وكان سلطانها على المغرب لا يتعدى مجرى نهر شلف الذي يجري في مجراه الأعلى من الجنوب الى الشمال جنوبي مدينة الجزائر الحالية على وجه التقريب.

في هذه النواحي كلها، حيث كان الناس يتعلقون بآل البيت تعلقاً شديداً ويرون فيهم الأمل الباقي لهم من الأمن والاستقرار والحكم الصالح أنشأ العلويون أعظم دويلاتهم وأبعدها أثراً أو شرفاً في تاريخ الإسلام، أما الدولة الفاطمية التي قامت في إفريقيا ثم انتقلت إلى مصر بعد ذلك فلها شأن خاص، ولهذا تستفرد التجربة الفاطمية بفقرة خاصة بها من ذلك البحث عن قريش.

وتعتبر الدول الثلاث الكبرى التي أنشأها العلويون في المغرب الأقصى وبلاد الديلم ثم في اليمن أنجح تجاربهم السياسية على الإطلاق، وأدلهما على طبيعة البيت العلوي في حملته بعد الصدمات العنيفة التي واجهته في تاريخه السياسي الأول، ويقصد بذلك استشهاد علي بن أبي طالب وما أحاط بخلافته

قبل ذلك من ظروف سيئة وعسيرة على الفهم ، ثم تنازل الحسن واستشهاد الحسين بن علي وآله في كربلاء . فهذه الكسفات الثلاث أفهمت العلويين أن ما يقوله الناس في قلب الدولة من محبتهم وتمسكهم لهم لا يمكن التعويل عليه عندما يجد الجدل وينهض المطالب العلوي لإقامة دولته ، هنا تتعدى الغالبية ولا يبقى معه إلا القليلون .

والى هذا اليأس من الناس يرجع ما نلاحظه من سكون العلويين من أيام عبد الملك بن مروان الى نهاية الدولة الأموية . وانصراف بعض كبارهم عن السياسة وتوجه جهودهم نحو العلم كما نرى في حالة جعفر الصادق الذي كان أصلح العلويين للمطالبة بالخلافة في وجه بني العباس ، بل هو نعمد أن يعرف الناس عنه عزوفه عن السياسة عندما أحرق كتاب أبي سلمة الخلال حفص بن سليمان وزير آل محمد وكبير دعاة العباسيين حين عرض عليه الخلافة . بل هو لام ابن عمه محمد النفس الزكية عندما ترامى اليه أنه يفكر في القيام في وجه بني العباس وتبأ له بالهزيمة والموت إذ لا شيعة له ولا دعوة منظمة . والعلويون الحسينيون على أي حال ظلوا ساكنين حتى بان ضعف العباسيين وكثر وثوب الحسينيين فتحركوا فيمن تحرك ، ولكنهم لم يغامروا بأنفسهم مغامرة الحسينيين واتجهوا الى الاختفاء والتنظيم السري ، وفي طي الخفاء دبوا أمر حركتهم وأمهل كبارهم أنفسهم إمهالاً طويلاً ، فلما ظهوروا ظهوراً في هيئة بالغة التنظيم وأقاموا الدولة الفاطمية .

وأما الحسينيون فكانوا أنشط وأجراً فمن صفوفهم خرجت معظم الحركات العلوية التي زلزلت الأرض تحت أقدام بني العباس فمنهم عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وهو عبدالله المحض وهو والد محمد النفس الزكية الذي قام على المنصور وقتل بالمدينة ، وإبراهيم الذي قام بعده بقليل على أبي جعفر وقتل في باخرا ، وحديث عبدالله المحض مع أبي جعفر المنصور حديث طويل فصله الطبري في الجزء السابع من تاريخه وحي نقرأه فنحس وكأننا أمام

تعلين كل منهم أشد مكرراً من الآخر. وانا لتعجب كيف وصل أولئك القرشيون في الدهاء هذا المبلغ البعيد، وكلمة واحدة من عبدالله المحض هذا تدلنا على أغوار نفسه، فقد ظل أبو جعفر المصور يحاوره ليقر له بمكان أسائه المختفئ وخاصة محمد العس الركبة وارايم، وكان عبدالله يفصل العذاب على أن يدل على مكان انبه فتصعب عليهما فرصة الخروح على بني العباس والوصول الى الخلافة، وضاق به أبو جعفر فحبسه وأحد أمواله وجعل يبيعها شيئاً فشيئاً والرجل مصرّاً على صمته، فحدث رجل يسمى الحارث بن إسحاق بن حنين قال: «دخلت على عبدالله بن حسن وهو محبوس، فقال: هل حدث اليوم من خبر، قلت نعم! قد أُمِرَ ببيع متاعك ورقيقك، ولا أرى أحداً يُقَدِّم على شرائه! فقال: ويحك يا أبا حنين، والله لو خرج بي وبينائي مسترقين لا اشترينا!».

وسوء الظن هذا بالناس وبالحظ هو الذي يفسر لنا لماذا أبعد الحسينيون في الرحلة واختاروا أبعد المواطن عن تناول بني العباس ليحبسوا حظهم، وكان أحسنهم نصيباً في ذلك إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ربما لأنه اختار بلداً قصياً جداً عن بني العباس، ثم إن حركته قامت بين أقوام من البربر الذين طال شقاؤهم بالحروب والقلق منذ قيام الفتنه المغربية على بني أمية، وكانت نفوسهم تهوى الى زعيم ذي إيمان وجاء نظمئن اليه نفوسهم ويخرجون به من متاهات السياسة ومضائك الزندقة، فكان هذا الزعيم هو إدريس هذا، ولم يكونوا ليجدوا له مثيلاً فهو من عترة رسول الله ﷺ، وهو قد أتاها صبيّاً صغيراً يحضنه ويرعاه مولى من جنسهم ويتكلم لغتهم، وكانت دعوة هذا المولى واسمه راشد لهم أن يشاركوه في رعاية هذا الصبي الكريم ويقوموا معه بأمره، فعطفت عليه قلوبهم وتبنوه وأيدوا دعوته.

وكانت حاجتهم اليه مثل حاجته اليهم، وكان هذا من أسعد اللقاءات التاريخية: لقاء طرفين كل منهما يحمل للآخر مشكلته ويفتح أمامهما معاً أبواب

العمل والحياة . ولو أن إدريس هذا وصل الى المغرب في جمع من قومه لما تيسر أمره على الحو الذي كان يسب ما لا بد منه . بالنسبة للمغرب - من اختلاف الكلمة والحسد كما حدث للقاسم الرسي من إبراهيم طاطبيا وهو من أحفاد ابراهيم بن الحسن بن الحسن من علي بن أبي طالب قتل باخرا سنة ١٤٥ هـ / ٧٦٢م

ولم يكن إدريس هو العلوي الوحيد الذي مر إلى المغرب ، فقد لحق به حسيون آخرون فروا الى المغرب الأقصى ، وأنشأوا فيه الدولة الإدريسية فتجمع في هذا الصقع من بلاد الاسلام ادريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب وسليمان أخوه أو أبناء سليمان هذا ، ويقال إن سليمان نفسه قتل في معركة فسخ مع من قتل من العلويين وان الذين خرجوا كانوا اولاده ، ولكنهم لم يخرجوا الى المغرب الا بعد مقتل الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن أبي طالب ، الذي خرج على الخليفة الهادي العباسي في ذي القعدة سنة ١٦٩ هـ / ابريل ٧٨٦م ، وقتل في وادي فسخ على نحو ١٠ كيلومترات شرقي مكة ، وكانت هذه الواقعة من أشد ما أصاب بني هاشم وأعمقه وقعا في تاريخ الحركة الشيعية ، وهي التي قال فيها شاعر الشيعة :

فلا يكون على الحسين	بِقَوْلَةٍ وهى الحسن
وعلى ابن عاتكة ^(١) الذي	واروه ليس بلذي كفن
نُركوا بفخ غدوة	في غير منزلة الوطن
كانوا كراماً هُجُّوا	لا طائشين ولا جُبُن

وقد صلق الشاعر في البيت الأخير من قصيدته ، فإن الحقيقة هي أن الحسين بن علي هذا قد أخرج إحراجاً شديداً ، سبب ما كان رجال بني العباس يفعلونه ببني علي ، فقد تنامس الناس في الإساءة اليهم بتأليب الخلفاء عليهم ، وكان والي المدينة إدراك عمر بن عبد العزيز بن عبدالله من عمر بن الخطاب ،

(١) هو الحسين بن علي قتل مع الذي ذكرناه في النص

وكان قد حمل العلويين يضمن بعضهم بعضاً وفرض عليهم أن يعرضوا أنفسهم عليه كل يوم ليطمئن إلى حالهم، كما تفعل مراكز البوليس اليوم مع المشوهين والمخارجين من السجون، وكان أحدهم إذا غاب عن هذا العرض المشي صمته الحاضرون، وكان الذي يلقاهم ليستوثق من أمرهم نائماً من نواب العامل يسمى خليفته، وكان الحسين بن علي بن الحسن الذي نحن شأنه ويحيى بن عبد الله بن الحسن الذي سيُفَرِّق إلى بلد الديلم كغفيلين بالحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن، فغاب هذا الأخير ثلاثة أيام، فأصر الوالي عمر بن عبد العزيز على احتضاره وأغلظ لكفيليه، فضاعت نفساهما ونفوس العلويين بهذا الهوان وقرروا الخروج بمضى أو بمكة في الموسم، وخرج العلويون بالفعل وخلعوا طاعة الهادي العباسي في موسم الحج سنة ١٦٩ هـ، وسير الخليفة لحرهم محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس وكان من أكبر قواد الدولة العباسية، وكانت الواقعة بفتح ولم تكن بمذبحة دامية مثل كربلاء أو باخرا، ولكن صداها كان بعيداً جداً، لأن الناس أجمعين كانوا قد ضاقت بهذا العدوان المستمر على آل البيت والإصرار على إنزال المهانة بهم، وقد قتل في المعركة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن ابن الحسن ونفر من آل بيته، وجرح في المعركة يحيى بن عبد الله بن الحسن الذي أنشأ دولة علوية في بلاد الديلم، وفيها قتل أخوه سليمان وفر أبناؤه إلى المغرب الأوسط، ويقال إن أخاهما إدريس اشترك في الواقعة ولكننا نستبعد ذلك لأنه كان إذ ذاك صغيراً جداً، وقتل فيها رجل من العلويين شديد السواد هو الحسن بن عبد الله الأشتر - الذي قتل بكابل - بن محمد - قتل المدينة سنة ١٤٥ هـ - بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان يلقب بأبي الزفت لشدة سواده فهو شهيد بن شهيد بن شهيد، وقد أحزن الناس جميعاً مثله، وقد حمل رأس الحسين الشهيد هذا إلى الهادي رحل من اتباعه يدعى يقطين بن موسى نفر منه وغضب عليه وحزن على مصاب هذا المسكين^(١).

(١) الطبري ١٩٢/٨ وما بعدها

وقبل أن تمضي مع ادريس الى مهره بصيف ملاحظة لها أهميتها بالنسبة لما ندرسه من أمر قريش، فإن الناس يحسبون أن ضعف بني العباس واستبداد جندهم بهم لم يكن الا بعد أيام المعتصم ولكن الحقيقة التي تتحل للقارئ المتأمل فيما يقرأ، هي أن تدهور الدولة العباسية ووقوع حلفائها تحت رحمة الجند يرجع الى أواخر أيام المهدي والمهدي، وهما الثالث والرابع من حلفاء بني العباس، واليك خبر يؤكد لك ما نقول.

فقد ذكر الطبري نبأ وفاة الخليفة المهدي في ذي الحجة سنة ١٦٩ هـ، في ماسبذان من نواحي خراسان، وكان معه ابنه الأصغر هارون (الرشيد فيما بعد)، أما ولي عهده موسى الهادي فكان في بغداد خليفة لأبيه فحار هارون فيما يفعل وخاف ان علم الجند بموت المهدي شغبوا، ونصح به يحيى بن خالد وقال: «ولا آمن اذا علم الجند أن يتعلقوا بحمله ويقولوا: لا نخليه حتى نُعطى (الرواتب) لثلاث سنين وأكثر ويتحكموا ويشتطوا ولكن أرى أن يوارى رحمه الله ها هنا ونوجه نُصيراً (أحد رجاله) الى الهادي بالخاتم والقضيب والتعزية... وأن تأمر لمن معك من الجند بجوائز: مائتين مائتين، وتنادي فيهم بالقفول، فإنهم إذا قبضوا الدراهم لم تكن لهم همة سوى أهاليهم وأوطانهم»، وقد أراد يحيى بن خالد البرمكي أن يتخلص الخليفة من الجند فيسبقونه الى بغداد، فأعطاهم المال وأذن لهم في القفول فتسارعوا الى بغداد، فلما وصلوا بغداد بلغهم خبر موت الخليفة المهدي وولاية الهادي، فغضبوا على الربيع بن يونس الوزير وأخرجوا من كان في حبسه، وأحرقوا أبواب دوره في الميدان، وحضر العباس بن محمد وعبد الملك بن صالح ومحرزين ابراهيم ذلك، فرأى العباس أن يرضوا وتطيب نفوسهم، وتفرق جماعتهم باعطائهم أوراقهم، فبذل ذلك لهم فلم يرضوا، ولم يثقوا لما ضمن لهم من ذلك حتى ضمنه محرر من ابراهيم، فقصعوا مضمانه وتمرقوا، موفى لهم بذلك، وأعطوا رزق ثمانية عشر شهراً، وذلك قبل أن يقوم هارون^(١)، فانظر والله

(١) الطبري، تاريخ ١٨٧/٨ - ١٨٨

خوف رجال الدولة من الخند واستعداد الجند بهم في أول عهد الهادي الذي نقول إنه عهد قوة البيت العباسي ، فكاننا لا نقول الحقيقة عندما نقول إن ضعف حلفاء بني العباس ووقعهم تحت رحمة الجند بدأ في أيام المتوكل ، لأن الدولة العباسية كانت ضعيفة النيان واهية الأركان من يوم ولادتها ، وهي لم تكن دولة ذات قوة وسلطان إلا في عهد أبي جعفر المنصور وبه بدأت قوتها وانتهت في نفس الوقت ، فقام بذلك قوة الدولة الأموية في الأندلس وعظم سلطان خلفائها وقبضهم بيد حازمة على جندهم وهيبة الجند لهم . ومن هنا نستطيع القول بكثير من التحفظ إن الأمويين على الجملة كانوا أقوى على السياسة وضبط الأمور من الهاشميين جملة أياً كانت مواضع دولة هؤلاء وأولئك .

ونعود إلى إدريس عبدالله فنقول إنه هرب بعد معركة وادي فجع إلى مصر ثم المغرب متكرراً . وأبعد في الهرب حتى وصل طنجة وكانت أبعد ما تكون من حدود دولة بني العباس التي وقفت عند وادي شلف وكان معه مولاه راشد وكان من عظماء الموالي وأهل الصدق والإخلاص مع آل البيت ، وليس هناك ما يمنع من قبول ما يقال من أن أصله من أبناء سبي إفريقية وأنه كان يعرف لغة المصامدة وهم أعظم قبائل المغرب الأقصى .

وكانت الأحوال في تلك الناحية من المغرب الأقصى مضطربة اضطراباً شديداً ، فإن ناحية طنجة وما حولها كانت على إسلام سني صحيح لأنها كانت منذ الفتح الأول ثغر الغرب وباب الأندلس ، فكثير مرور العرب واستقرارهم بها ولكن لم يكن عليها سلطان لأي دولة إنما كان أصحاب السلطان فيها هم البربر ، ومعظمهم هنا من قبيلتي نفزة وأوربة ، وإلى جنوب سهل طنجة وسبتة كانت تقع جبال الريف وكانت تسكنها قبائل مسمودية برنسية كثيرة أقواها برغواطة وغمارة ، وبرغواطة كانت من القبائل التي أوعبت في الفتنة المغربية وقامت على العرب وأخرحت من كان من العرب في بلادها في عفوان الفتنة المغربية التي شارك في صنعها دعاة الحارحية ما بين صعرية وأناصية .

وهؤلاء الخوارج الذين اهزموا في قلب الدولة فظلموا الأمان والسحابة في أطرافها، كانوا حياً أعداء لقريش، وكانوا ينكرون ما يقوله القرشيون من أن الإمامة فيهم، وكل زعمائهم الأول كانوا متشددين في إنكارهم إمامة قريش ومثلهم الكبير المعروف لنا هو عبدالله بن وهب الراسي الأزدي الملقب بذي الثغفات، وهو أول خليفة اختاره الخوارج أيام خروجهم على علي بن أبي طالب، ومن أمثلتهم أبو راشد نافع بن الأزرق الحنفي منشيء فرقة الخوارج المتشددة الذي أعلن الحرب على المسلمين جميعاً وأباح قتالهم بالسيف لأنهم خضعوا لسلطان الخلفاء الظلمة فأعانوهم بخضوعهم بهذا على ظلمهم، وفي رأيه أنهم كفرة حربهم حلال، وعبدالله بن أباض التميمي منشيء فرقة الأباضية، وزيد بن الأصفر التميمي منشيء فرقة الصفرية. هؤلاء جميعاً كانوا لا يعترفون برئاسة قريش، وكانوا يقولون بإمامة الأصلح من المسلمين ولو كان عبداً ذابياً، وهذه الآراء تعجب غير العرب عن أخرج صدورهم بنو أمية وعملهم بسوء تصرفهم ولهذا فقد استجابوا لهذه الدعوات فهي تفتح لهم في أمة الإسلام أبواباً واسعة من القوة والسلطان لا تسمح به لهم دولة الجماعة التي خضعت للسلطان الأموي والعباسي، فأقبل على تلك المذاهب الخارجية الكثيرون منهم واعتقدوا أنها أقرب إلى روح الإسلام، وكانت الظروف العامة في آخريات الحكم الأموي تشجع على مثل هذا التفكير.

ولم يكن الإيمان قد استقر في قلوب البربر على أصوله إلى ذلك الحين. فقد كانوا حديثي العهد بالإسلام، إذ أنهم لم يدخلوا فيه إلا قبيل نهاية القرن الهجري الأول، ثم جاءهم هؤلاء الدعاة بدعوة الخارجية وحق الجماعة في أن تختار رئيسها عربياً كان أم غير عربي، ونجم في قبيلة مدعرة أو مططرة ناثري يسمى ميسرة العقبر، وكان طالب عالم، ولكنه لم يحصل إلا قليلاً. وعندما قامت العنة المغربية تزعمها في قومه وسار لحرب العرب، ومات قبل أن يلقاهم، فتولى أمرهم زعيم آخر يسمى خالد بن حيد الزناتي.

ومن مدعرة انتقلت الثورة على حكام العرب إلى برغواطة، وكانت حلفاً بربرياً برزانياً صحياً يسكن حال الريف وساحل المحيط الأطلسي المعروف تانمسا ويمتد حتى سلا وآزمور وأنفى (وهي اليوم الدار البيضاء) وآسمى، فظهر فيهم رجل قليل العلم ذو طموح سياسي واسع، وادعى النبوة وزعم أنه نبي مرسل يوحى إليه قرآن في سور، وكان اسمه صالحاً، وقد ظهر آخر خلافة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٧ هـ، وزعم أنه المهدي وأنه يظل في قومه حتى يجيء عيسى عليه السلام، وتبعه قومه في نحلته هذه الغريبة التي هي من نتائج الجهل بالإسلام وما أدخله دعاة الخارجية في عقول هؤلاء الناس من أفكار مضطربة أو مشوشة فسروها هم على هواهم، وقد طالت رئاسة صالح هذا سبعة وأربعين سنة، وزعم أنه صالح المؤمنين الوارد ذكره في القرآن الكريم، وعندما أراد أن يصير الأمر من بعده لابنه الياس دون أن يناقشه أحد من قومه زعم أنه خارج إلى المشرق وأوصى لابنه الياس ليحكمهم هو وأولاده حتى يعود هو إليهم في حكم السابع من أهل بيته واختفى بالفعل وتولى أمرهم ابنه الياس. وصالح والياس هذين هما اللذان وضعوا المذهب الذي عرف بزندقة برغواطة، ويبدو أن أخبار زندقة برغواطة مبالغ فيها وأن أبناء صالح البرغواطي عدلوا عن مذهبهم واقتربوا من الإسلام الصحيح، وإن ظلوا منحرفين ولو كانوا زنادقة تماماً حقاً لما حالقهم خلفاء بني أمية الأندلسيون، وقد كان بنو أمية من أكثر الدول تمسكاً بالإسلام السني الخفيف على مذهب مالك إمام دار الهجرة. ومعلوماتنا عن البرغواطين اتباع صالح هذا ترجع إلى تقرير عنهم وعن ديانتهم رفعه إلى الخليفة الحكم المستنصر الأموي وأفد منهم على الحكم المستنصر يسمى زمور بن صالح ابن هاشم بن وراذ وقد أتاننا بنص هذا التقرير أبو عبيد البكري في الجزء الخاص بالمغرب من كتابه «المسالك والممالك» وأتاننا به أيضاً ابن عداري المراكشي في البيان المغرب وابن خلدون في الجزء السادس من تاريخه^(١).

(١) انظر ابن خلدون المغرب ٢٠٧/٦ - ٢٠٨

ويهما أن نذكر أن دعوى البوة هذه كانت بغرض جمع صفوف
 الرغواطين حول صالح هذا واقامة كيان سياسي يحكم النواحي التي ذكرناها من
 جبال الريف، ولهذا فقد كان نمسك البرغواطين بأل صالح الرغواطي شديداً،
 وبفضله استطاعوا أن يسودوا منطقة الريف وريف نامسا وملاد غمارة التي تقع
 حنوي جبال الريف وتسمى ملاد الهبط أو هبط عمارة وتشمل المجرى الأعلى لهر
 سبرومروعه الكثيرة وقد نشر البرغواطيون سلطانهم وأرهبوا من حولهم من القبائل
 وسادوهم وعسفروهم .

تلك كانت الأحوال من ذلك الطرف القصى من غربي بلاد المغرب حين
 وصل ادريس بن عبدالله مع مولاه راشد .

وفي طنجة دعا له مولاه راشد، ولكن طنجة كانت معبراً الى الأندلس،
 وكانت متجراً وملقى قبائل تروح ونحيء، والدعوة محتاج إلى قرار وأهل استقرار
 يسمعون ويستجيون ويتجمعون، فتركها راشد ومضى بادريس إلى بلدة صغيرة
 عند ملتقى طرق وتؤدي إليها وديان بين جبال، والبلدة كانت من قديم الزمان
 مركزاً تجارياً عرف عند الرومان باسم Volubilis ومنه جاء الاسم العربي ولبلى،
 وتلك البلدة كانت المركز المدني لجزء كبير من قبيلة أوربة، وهى إحدى القبائل
 البرنسية الكبيرة التي كان لها شأن كبير في الفتح الإسلامي، فقد قاد ملكها كسيلة
 المقاومة ضد الإسلام أول الأمر ثم أسلم وحالف الوالى دينار أبا المهاجر، فلما
 عزل أبو المهاجر وجاء عقبة بن نافع أساء معاملته فانفض عليه، وألب عليه
 القبائل، وخاض مع المسلمين معركة تهودة التي استشهد فيها عقبة سنة ٦٣ هـ .
 ولكن المسلمين عادوا ففتلوا كسيلة وانتصروا عليه بقيادة زهير بن قيس البلوي،
 وعلى إثر هذه الواقعة تحطمت قوة أوربة في المغرب الأوسط وبقي لها فرع كبير
 حول ولبلى في حنوي جبال الريف إلى حوار مازل قبيلة غمارة، وكانت عمارة
 قبلاً مصمودياً عظيماً يسكن حنوي جبال الريف ويساح في السهول جنوبها فيما
 يعرف ملاد الهبط أو عبط غمارة . وعماراة وأوربة هما اللتان حملتا عبء دولة

الأدارة. وفي عمارة تسانصار رجل يسمى حامي من عبدالله بن حر بن عمر
اس رحفوس آروال سنة ٣١٣هـ / ٩٢٥م. وقد قضى على فتنه المراسلون وقد
اشتهرت القبلة بالسحر والساحرات

لم يطل انتظار ادريس وراشد في وليلى لان رؤساء أوربة التفوا حول ادريس
وتيموا بنسبه الشريف وقد علا شأن أوربة بهذا التأييد فسارعت غماره
وانضمت اليها وكان الغماريون أكثر عدداً من الأوربيين وقد اشتد بهم ساعد
ادريس.

والى هنا نجد ادريس بن عبدالله بن الحسن هاشمياً منفرداً بين البربر فلا
نسمع بانضمام عرب إليه، حتى ابن عمه سليمان وأولاده الذين نزلوا ناحية
تلمسان لم ينضموا إليه إلا حين غزا بلادهم واقرهم على ما في ايديهم.

كان لتلك البداية أثر بعيد في مستقبل الدولة الادريسية، لأن ادريس وآله -
بحكم الضرورة - كان لا بد أن يعتمدوا على البربر ويصاهروهم ويندرجوا
فيهم، ويصبحوا وكأنهم منهم وإن كان الأدارة رؤساءهم، ونتيجة لذلك لم
تصبح الدولة الادريسية دولة عربية وسط البربر، كما كانت دولة بني أمية
الأندلسيين دولة عربية في محيط ايبيري فارتبط البيت الادريسي بالناس وصار
لادريس أولاد كثيرون من نساء بربريات من مختلف القبائل.

وقد أبدى إدريس نشاطاً عظيماً عندما أدرك سن الرشيد وتولى الحكم
بنفسه، فتجرد لحرب الزنادقة ومن بقي على الكفر من نواحي شمالى المغرب
الأقصى وانشاء دولة كبيرة وأظهر براعة كبيرة في الحروب كان الحكم فيها جماعياً،
أي أن ادريس كان لا بد أن يشاور الناس ويأخذ برأيهم ولا يخالف أقوالهم، ولم
يقع في الخطأ الذي قصم ظهر معظم الدويلات المغربية وهو الاشتطاط في جمع
الضرائب، وما دام كل رجال ادريس من البربر وكذلك جنوده فانه لم يفكر في أن
يجبي منهم الا الشرعي والمعقول من الجبايات، فرضي الناس عن الحكم ومبتت
في قلوبهم محبة وعلا أمره وقامت، دولته في شمال المغرب الأقصى عربية اللسان

والرياسة، بربرية السيان والى هذا ترحع قوتها فهذه الدولة كانت دائماً دولة صغيرة المساحة سبباً وكانت كذلك متواضعة مالياً، ولكن رصيدها من عمة الناس كان عطيياً، وزاد في صلابة تكوينها، انها كانت دولة سُنية يُقضى في بلادها بمذهب مالك، وهذا طبيعي لأن العلويين أنفسهم لا يكونون شيعة بل الشيعة أنصارهم، وهذه السية كانت كذلك من عمد قوة دولة الادارسة. وقد حكم ادريس الأول هذا فترة قصيرة: من ٤ رمضان سنة ١٧٢ هـ الى أول جُمادى الآخرة سنة ١٧٧ هـ. لكنه وضع أساس دولة قرشية هاشمية فريدة في بابها فهي دولة عربية هاشمية لا نسمع عن أمرائها ظلماً أو تعدياً أو طمعاً في مال أحد أو قتلاً غادراً لرجال دولتهم، ثم هي كذلك جماعية في رياستها، وربما كانت دولة الادارسة أقرب دولة إلى الإسلام «بعد الراشدين» إلى المثال الإسلامي الصحيح.

وقد مات ادريس في ربيعان شبابه مات فجأة وربما يكون قد مات بالسسم على يد رجل دسيس عليه من العباسيين، ولا يصح أن يقال إن هذا الدسيس كان مرسلاً من قبل ابراهيم بن الأغلب، لأن ولاية ابراهيم بن الأغلب لم تبدأ إلا سنة ١٨٤ هـ.

وليس أدل على تعلق الناس بهذا البيت الأدريسي من أن رجال دولته سعدوا عندما أبلغهم راشد أن إدريس ترك جارية من جواريه «وتسمى كنزة» حاملاً فاجتمع رأيهم على أن ينتظروا بالجارية حتى تلد، فإن ولدت ذكراً بايعوه، وبالفعل وضعت كنزة ذكراً فسموه ادريس بن ادريس، وكل ذلك بإرشاد راشد الذي جمع رؤساء البربر حوله، وعندما مات راشد سنة ١٨٦ هـ، ثبت القوم على ولائهم للصبى الهاشمي العلوى، وتولى رعايته شيخ من شيوخهم يسمى أبا خالد بن يريد بن العباس العدوى، وعندما بلغت من إدريس الحادية عشرة بايعوه البيعة الثانية وأعلنوه أميراً وكان ذلك سنة ١٨٨ هـ. وبما يدل على جماعية الرياسة في هذه الدولة قول ابن خلدون: «ولم يزل كذلك إلى أن بايعوا لادريس فقاموا بأمره وحددوا بأنفسهم رسوم الملك لتحديد طاعته وافتتحوا بلاد المغرب

كلها واستوثق لهم الملك بها^(١). وواضح هنا أن إدارة الدولة ورياستها كانت جماعية ولم يظهر الصعق في هذه الدولة إلا إثر قدوم نفر من عرب الأندلس إلى وليد ودخولهم في خدمة ادريس وكانت قد أومت سنة على إدارة راشد واستطاع أن يدبر أمر نفسه فاستوزر عربياً يسمى مصعب بن عيسى الأزدي، ولم يلبث أبو خالد من يزيد بن العباس العبدي الذي حمل عبء الدولة سنوات طويلة أن قتل وانفرد هذا الأزدي بالوراثة وتكاثر العرب في حاشية ادريس ورجاله، فانحذف منهم بطانة برئاسة مصعب بن عيسى الأزدي الذي يلقب بالملجوم (ولا زالت أسرة الملجوم باقية في المغرب الأقصى الى اليوم)، وقد ساعد هؤلاء العرب على استكمال الطابع العربي لهذه الدولة، ومن حسن الحظ أن عددهم لم يزد على خمسمائة فبقي البربر على مراكزهم في دولة ادريس واستمر تأييدهم لها، وعلى الرغم مما يقوله ابن خلدون أن ادريس الثاني «اعتز بهؤلاء العرب واستفحل بهم سلطانه»^(٢) إلا أننا لا نجد لذلك صدى في سير الأمور في الدولة فيما عدا مقتل اسحاق بن ابراهيم رئيس أوربة، وربما يكون للعرب دخل فيه ولكننا لا نستطيع تأييد ذلك فربما كان مقتله على يد الغماريين لأن غمارة ستفرض من ذلك الحين سلطانها على دولة بني إدريس، وابن خلدون نفسه يقول إن دولة الأدارسة هي غمارة.

على أي حال نجد ادريس الثاني هذا يواصل جهود أبيه في حرب الزنادقة ومن لم يسلم من البربر حتى جعل شمالي المغرب الأقصى منطقة اسلام، ثم اختط مدينة فاس في سهل يسمى تكزاز - على نهر فاس المتفرع من سبو - وأقام هذه المدينة في موضعها الراهن في ذلك السهل بين جبل زرهون وتلاغ بادئاً بعدوة الأندلس على إحدى ضفتي النهر سنة ١٩٢ هـ. ثم بنى فيها مسجد الشرفاء ثم شأت في عصره عدوة القرويين وبني فيها مسجد القرويين، ومن العدوتين تكوت فاس تلك المدينة العظيمة التي أصبحت منذ إنشائها قاعدة من قواعد

(١) ابن خلدون، المعبر ١٣/٤

(٢) من المصدر ١٤/٤

الحصارة العربية الإسلامية في المغرب، وهذه ثاني مدينة باقية بنشئها الهاشميون، الأولى هي بغداد والثانية هي فاس، وقد قدر لفاس من طول العمر والازدهار ما قدر لبغداد. هذه في المغرب وتلك في المشرق، والاثنان إلى يومنا هذا من عظام مدن الدنيا، والحق أن خريطة الدنيا لا تزال تحمل اعلام العمران القرشي فيما أنشأه القرشيون ما بين أمويين وعباسيين من مدن الأندلس حيث نجد مرسية والمرية ومدينة سالم وبلد وليد وكلها منشآت شأت في طلال حكم بني أمية الأندلسيين، إلى جانب ما عمروه من قديم المدن مثل قرطبة واشبيلية وسرقسطة وبلنسية، وفي المغرب نجد فاساً هذه ثم تطاوين أو تطوان وحجر النسر، وقبل ذلك القيروان وتونس وبعدها المهدية - من إنشاء الفاطميين - ثم الفسطاط ومنشئها عمرو بن العاص القرشي والقاهرة وعشرات المدائن غيرها ما بين مستحدث وجديد وإذا كنا نتكلم عن كبار الدول التي أنشأها قريش فلا بد أن نذكر المدن أيضاً لأن المدن مركز عمران وإشعاع حضاري، وفي هذا المجال لا تزال فاس مدينة المولى إدريس تائق إلى يومنا هذا واحدة من أجمل مدائن الدنيا وأحفظها بتاريخها العلمي والحضاري.

وقد سبق أن ذكرنا تعمير قريش لمكة على يد قصي بن كلاب، وكيف أصبحت على يد القرشين أعظم مركز عمراني في الجزيرة العربية، وعندما هاجر رسول الله ﷺ النبي القرشي إلى المدينة وجدها سهلاً فسيحاً بين حرتين تتناثر فيها منازل القبائل مثل يثرب والسنح وقباء ورايح فأصبحت في عصره المبارك مدينة واحدة تمكنت وعظمت وأصبحت قاعدة أمة الإسلام التي ملأت فيها بعد طباق الأرض إسلاماً ونوراً وعلماً، ولا زالت مكة والمدينة إلى يومنا هذا من أعظم بلاد الدنيا وهي أكرمها على الله وأحبها إليه وإلى الناس، والعاتقون من القرشين هم الدين احتطوا البصرة والكوفة والفسطاط، وبنو العاص بنوا الهاشمية، وواسط بيت على يد الحجاج أيام بني أمية، فأبي قبيلة هذه قريش التي قدر لها أن تنشئ على وجه الأرض من الدول ومراكز العمران ما لم تنشئه عظام الدول، هذا

إلى ما شرفت فريش به من نزول القرآن الكريم بلسانها العربي المين وكان لها من فصل في النهوض بهذا اللسان العربي المين قبل الإسلام وبعده، وهي أيضاً التي طورت الكتابة العربية من الرسم السابق لها الذي نشأت به في شمال الجزيرة إلى رسمها الذي كتب به القرآن الكريم .

وبعد أن أتم ادريس إنشاء فاس ومسجديها : الشرفاء ثم القرويين استمر في جهاده لتوسيع رقعة الإسلام السني الصحيح في المغرب ، فحارب برغواطة وغزا بلادها وكسر ظهر زندقتهما، ورد الضالين من أهل برغواطة وغمارة إلى الإسلام ، ثم مضى إلى غربي المغرب الأوسط حيث كان أباء عمومته أبناء سليمان بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب قد أنشأوا دويلات صغيرة في إقليم تلمسان وما حولها ، فأدخل تلمسان ونواحيها في دولته دون أن يمس أصحابها من بني عمومته بسوء ، فاشتد ساعدهم وقامت دولهم في المغرب الأوسط ثم عاد إلى فاس ثم اتجه بغزواته إلى الجنوب وأوغل في بلاد جنوبي المغرب الأقصى حاملاً لواء الإسلام والعروبة ، وعاد إلى تلمسان حيث بنى جامعها الباقي إلى اليوم ، وهو من أجمل مساجد الإسلام ، يقول ابن خلدون : «ثم خرج غازياً المصامدة سنة سبع وتسعين (ومائة) فافتتح بلادهم ودانوا بدعوته ، ثم غزا تلمسان جدد بناء مسجدها وأصلح منبرها ، وأقام بها ثلاث سنين وانتظمت كلمة البرابرة وزفانة وشا دعوة الخوارج منهم ، واقتطع المغربيين عن دعوة العباسيين من لدن السوس الأقصى إلى شلف ، ودافع إبراهيم بن الأغلب عن حماه بعدما ضايقه بالمكادة ، واستفاد الأولياء واستمال بهلول بن عبد الواحد المطغرى بمن معه من قومه عن طاعة ادريس إلى طاعة هارون الرشيد ، ووقد عليه بالقيسروان ، واستتراب ادريس بالبربر فصالح إبراهيم بن الأغلب وسكن من غمره ، وعمر الأعالمة من بعد ذلك عن مدافعة هؤلاء الأدارسة ودافعوا حلفاء بني العباس بالمعادير بالعص من ادريس والقندح من سسه إلى أبيه ادريس بما هو أوهى من خيوط العكسوت ، وهلك ادريس سنة ثلاث عشرة ومائة

وقام بالأمر من بعده ابنه محمد^(١).

وانه محمد هذا تولى الإمامة في ربيع الأول ٢١٣ هـ وأقدم لأول ولايته على عمل سياسي لم يسبق إليه سابق قبله أو يلحق فيه لاحق بعده، ويقول إنه عمله بتصبية حدته كثر: لقد قسم بلاد دولته بين أخوته اقطاعيات أو ولايات، وكل أخ ينفرد بالسلطان في ولايته ويتصرف فيها تصرف صاحب الملك في ملكه باقياً على الولاء لأخيه الإمام صاحب فاس، وهو مسؤول عن كل شيء في ولايته ولا يلزم إلا بأداء جانب من الجبايات إلى أخيه، ونحن لا نعرف شيئاً عن تفاصيل هذا التقسيم الذي اعتبره الناس في أيامه مضعفاً للدولة ومفرقاً لأمرها، وربما كان هذا صحيحاً، ولكن أصبح من ذلك أنه إذا كان قد أضعف سلطان الدولة المركزية في وقت كانت الدول تعتمد فيه أولاً وآخرها على السلطان المركزي، ولكنه في واقع الأمر زاد ارتباط الناس بهذه الأسرة العلوية لأن الإمام محمد بن إدريس لم يكن له جيش مرتزق، وكان اعتماده على جند البربر من أهل القبائل وكذلك كان إخوته الذين فرقهم، فنزل كل منهم بين القبائل التي تولى أمر ناحيتها واعتمد عليهم وصاهرهم، وأصبح هو وأهل بيته ومن لحق بهم عرباً قرشيين متبربرين محتفظين بعروبتهم ولغتهم وعاملين على تعريب النواحي التي نزلوا فيها، وهذا كله مد للبيت الإدريسي جذوراً طويلة في كل نواحي المغرب الأقصى، لأن الإخوة الذين فرقهم في النواحي كانوا ثمانية، ونواحيهم تشمل المغرب الأقصى كله من سبته وطنجة إلى بلاد السوس الأقصى جنوبي المغرب الأقصى حتى تخوم الصحراء ومن المحيط الأطلسي إلى نهر المولوية، وقد ترك أبناء عمه أولاد سليمان بن عبد الله على نواحيهم في المغرب الأقصى فيما يلي بلاده شرقاً.

وقد رحلت كل ناحية ومن فيها من القبائل عن وفد إليهم من أهل البيت، فإن الولاة الحدد لم يدهوا عمالاً معهم جند وحرس بل نزلوا في القبائل وصاهروها واعتزوا بأهلها واعتزهم أهلها، وبدأت عملية احتلاط أو

(١) ابن خلدون تاريخ ١٤/٤

ميثامورموريس علوية بربرية فريدة في بابها، وبحن سنين هذه التتيحة من وجنود الأسر الكثيرة التي تنتمي إلى بيت بني ادريس في كل نواحي المغرب، وبحن لا نسمع بأن أي قبيلة من القبائل رفضت العلوي الإدريسي الداهب إليها، بل قلهم الناس طواعية، ولم يكن الكثير من هذه النواحي داحلاً في نطاق الدولة الإدريسية إلا بالاسم والطاعة المعلنة تركاً بآل البيت فزادت هذه الطاعة ظهوراً وعمقاً، فكل ناحية اعتبرت وإليها أميرها وأخلصت له إلى درجة أن بعض الإخوة أحب أن يفصل عن أخيه ويستقل نهائياً، وأيدته قبائل الناحية في ذلك، ولكن كل هذه المحاولات فشلت وبقيت هذه الدولة العلوية وكأنها اتحاد إمارات علوية، أو كأنها دولة إقطاعية واسعة إمامها علوي وأمراء الإقطاع في النواحي علويون. ونظراً لكثرة محاولات الإخوة الانفصال عن فاس وامتناعهم عن إرسال جانب من جباياتهم إلى الحكومة المركزية، فقد ظلت الدولة الإدريسية ضعيفة عسكرياً ومالياً في عاصمتها ونواحيها، ولكنها قوية من حيث النعم الحاكم بالمحكوم في بلادها وتفرق السلطة بين الوالي أو الإمام العلوي ورؤساء القبائل في كل ناحية.

وبين أيدينا الآن كتب كثيرة عن فروع البيت الإدريسي في المغرب الأقصى وغربي المغرب الأوسط، وهي لا تحصى كثرة ولا بيت منها كان خيرة تعريب وإسلام بني صحيح ونمسك بالعروة واعتزاز بها وهذا توفيق من الله في إداء الرسالة الإسلامية والعربية عظيم لم يوفق إليه بيت حاكم إسلامي، وأذكر هنا كيف كان خلفاء العباسيين يستهلكون أنفسهم في حرب إخوانهم وأعمامهم الخارجين عليهم، الساعين في القضاء عليهم وكل منهم يعتز على أخيه أو ابن عمه ويحند مرتزق، ويكفينا أن نذكر هنا حالة الأمين والمأمون العباسيين التي أحدثت صدعاً لم يرأب قط، وانتهت آخر الأمر بأن جعلت السلطان في دولة بني العباس كلها للجد التركي المتغلب، وما يحزن النفس أن هذا تم على يد خليفة عربي عباسي هو المعتصم

وفي دولة الإدارة لا تسمح مثل هذا التصدع وحروب الإخوة والأعمام إلا فيما ندر، لأن هذا البيت الهاشمي العلوي عندما اعتز بمن نزل فيهم من قبائل البربر، وجد عددهم من المحبة والتأييد ما أغى رجاله عن التناحر فيما بينهم على السلطان المركزي، ولم يصابوا بأفة استخدام الجند المرتزقة فما كان لهم سبيل إليه بحكم اعتزازهم بالبربر وهم مسلمون أحرار لا يقاتلون مرتزقين، قد يقاتلون عن عصبية ولكنهم لم يقاتلوا في العصور الإسلامية عن ارتزاق وكان اعتزاز البربر بهم مغنياً لهم عن طلب الترف المسرف الذي يؤدي إلى فساد النفوس. وظل الإدارة رغم علو المكانة يعيشون عيش من معهم وحولهم من البربر، وكانت جماعية الحكم في دولة الإدارة وما تفرع منها حامية البيت من الفساد، فما من رجل منهم مال إلى متاع الدنيا في إسراف إلا عزلوه، وأكبر مثال لذلك ما كان من أمر يحيى بن محمد بن محمد بن محمد بن إدريس الذي تولى الإمامة حوالي سنة ٢٤٤ هـ فأساء السيرة وكثر عيبه في الحرم وثار به العامة لمركب شنيع أتاه. وتولى كبر الثورة عبد الرحمن بن أبي سهل الخزازي وأخرجوه من عدوة القرويين إلى عدوة الأندلسيين، فنواري لبلتين ومات أسفاً لليتة، وانقطع الملك من عقب محمد بن إدريس، وبلغ الخبر في شأن يحيى إلى ابن عمه علي بن عمر صاحب الريف، واستدعاه أهل الدولة من العرب والبربر والموالي فجاء إلى فاس ودخلها وبأبعوه، واستولى على المغرب / ابن خلدون، العبر ٤/ ١٥ / ويلاحظ القارئ هنا كيف أن أهل البلد ثاروا على الفساد المنحرف وطردوه، ثم أن أهل الدولة من العرب والبربر والموالي هم الذين استدعوا ابن عمه علي بن عمر بن إدريس الثاني وولوه مكانه، مما يدل على جماعية الحكم، وقد انتقلت الإمامة الإدريسية هذا من فرع إلى فرع دون طول لجاجة أو حرب أهلية، ونتابع روايتنا لعساة ابن خلدون، ففيها لمحات وإشارات تعيننا على مريد من الفهم لطبيعة هذه الدولة الإدريسية، قال بعد ذكر تولية علي بن عمره إلى أن ثار عليه عبد الرازق الخارجي. خرج بحال مديونه، وكان على رأي الصمريه فرحف إلى فاس

وغلب عليها فمر إلى أورنة، وملك عد الرارق عدوة الأسدلس، وامتنعت منه عدوة القرويين وولوا على أنفسهم يحيى بن القاسم بن ادريس، وكان يعرف بالعدّام. وهنا أيضاً ملاحظ أن الناس أنفسهم هم الذين استدعوا يحيى بن القاسم بن ادريس (وكان يلي طنجة وسبتة وقلعة حجر السر وتطوان من أيام أقطع حده محمد بن ادريس هذه الولاية لأخيه القاسم)، «فجاءهم في جموعه وكان بيته وبين الخارجي حروب، ويقال إنه أخرجه من عدوة الأسدلس واستعمل عليها ثعلبة بن محارب بن عبدالله / الأزدي / وكان من أهل الربض بقرطبة، من ولد المهلب بن أبي صفرة ثم استعمل ابنه المعروف بعبود من بعده، ثم ابنه محارب بن عبود، بن ثعلبة، إلى أن اغتاله الربيع بن سليمان سنة اثنتين وتسعين ومائتين وقام بالأمر مكانه يحيى بن ادريس بن عمر صاحب الريف. (وهكذا انتقلت الإمامة من بيت القاسم بن محمد بن ادريس واستقرت في بيت عمر بن ادريس دون حروب)، وهو ابن أخي علي بن عمر. فملك جميع أعمال الإدارة وخطب له على سائر أعمال المغرب وكان أوسع بني ادريس ملكاً وأعظمهم سلطاناً وكان فقيهاً عارفاً بالحديث ولم يبلغ أحد من الإدارة مبلغه في السلطان والدولة^(١)».

وهكذا ورغم تنقل الملك من فرع من فروع البيت الأدرسي إلى فرع، نجد أن هذا البيت يزداد قوة وثباتاً، لأنه في الحقيقة يعتمد على الأمة المغربية، فهي التي ترعى هذا الملك الأدرسي وتحافظ عليه لأن البيت الأدرسي احتفظ بعرويته ولكنه اختلط بالناس وصاهرهم واعتمد عليهم واعتر برأيهم، فأصبح بيتاً عملياً قومياً، وإلى هذا يرجع طول عمره وبعد تأثيره، فما من بيت حاكم إسلامي حكم في مصر من الأمصار وكان له الأثر البعيد في التعريب ونشر الإسلام السي ما كان لبيت الإدارة هذا.

وفي أواخر القرن الهجري الثالث سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م قامت الدولة

(١) ابن خلدون، المعبر، ج ٤ ص ١٥، ١٦

الفاطمية في إفريقية (وهي ما يعرف اليوم بتونس وإقليم طرابلس من أقاليم ليبيا وإقليم الزاب وهو شرقي الجمهورية الجزائرية إلى سرف شلف مجمعة في وحدة سياسية واحدة تعرف بإفريقية)، والدولة الفاطمية دولة هاشمية قرشية أخرى ولكنها كانت تختلف عن الدولة الإدريسية اختلافاً تاماً كما سرف، وكان في حلفائها طموح إلى ملك المغرب كله، فاستعانوا بقباثل من صهاحة المغرب الأوسط، لكي يمدوا سلطانهم حتى بلغوا المغرب الأقصى وهذا بدأ الصراع بينهم وبين الأدارسة وكانت بداية الصراع أن زحف رجل من صنائع الفاطميين يسمى مصالة بن حبوس كبير قبيلة مكناسة وصاحب تاهرت على المغرب الأقصى واقتحمه على يحيى بن إدريس بن عمر بن محمد إقحاماً قليلاً عنيماً سنة ٣٠٥ هـ/٩١٧م وهزم يحيى ابن إدريس وانتهى الأمر يحيى هذا إلى قبول الدخول في طاعة عبيد الله المهدي وانتهى الأمر به بعد مكابدة أهوال إلى خروجه وبقي آل بيته إلى قلعة حجر النسر جنوبي بصرة المغرب في جبال الريف سنة ٣١٧ هـ/٩٢٩م. وهذا ينتهي الدور الأول من تاريخ الأدارسة وهو دور طويل بدأ سنة ١٧٣ هـ أي أنه استمر ١٤٤ سنة هجرية هي أطول من عمر الدولة الأموية المشرقية بكثير، فإن هذه لم ندم أكثر من ٩٢ عاماً هجرية، وهذه الفترة أيضاً أطول من عصر القوة في عمر دولة بني العباس وهو لا يزيد على مائة سنة.

الدور الثاني من تاريخ الأدارسة :

ولكن الدولة الإدريسية عادت مرة أخرى إلى الظهور، فإن من تجمعوا من الأدارسة في قلعة حجر النسر بزعامة بيت مشهور منهم يعرف ببيت بني محمد تمكنوا من العودة إلى السلطان في شمال المغرب الأقصى، ودخلوا في صراع طويل مع الفاطميين مرة ومع الأمويين الأندلسيين مرة أخرى، حتى انتهى عمر دولتهم السياسية نهائياً على يد المنصور محمد بن أبي عامر المستد بأمر الخليفة الأموي القرطبي في نهاية القرن الرابع الهجري، وبذلك تكون الدولة الإدريسية قد

عمرت في المغرب حوالي ٢٢٠ سنة ولم تصل دولة مغربية الى هذا العمر قبل العصر الحديث .

واذا نحن ذكرنا أن دولة بني أمية الأندلسيين كانت تحكم الأندلس في حين أن دولة الشرفاء الأدارسة حكمت المغرب الأقصى ، وإمها تعاصرتا ردتاً من الزمن طويلاً ، تبين أن هاتين الدولتين القرشيتين : واحدة أموية عبشمية والثانية هاشمية علوية قد قدمتا للإسلام والعروبة أجمل الخدمات ، وقد تعاصرت الدولتان خلال النصف الثاني من القرن الهجري الثاني ، ثم خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين فكان ذلك غيراً للإسلام وبركة ، لأن الدولتين جهدتا في الدفاع عن الإسلام : واحدة منها وقفت كالطود الشامخ أمام ضغط المسيحية والثانية أمام مذاهب الزندقة والانحراف عن الإسلام في المغرب ، وعند التأمل العميق يتبين لنا أن الأندلس الأموي القرشي أنفق حياته في الديار عن نفسه ولكنه في نفس الوقت كان يذود عن الإسلام في الأندلس ويحول بين طوفان النصرانية الغربية والتدفق على الأندلس .

أما دولة الأدارسة فقد استهلكت نفسها في نشر الإسلام في المغربين الأقصى والأوسط ، ووقفت في المحافظة على سنة الاسلام المغربي ، فلولاً دولة الأدارسة لما كان هناك سنة وجماعة في المغرب الأقصى بل في المغرب كله ، لأن الإسلام السني في افريقية تمكن من طرد المذهب الشيعي ودولته من بلاد افريقية وإعادتها الى السنة المالكية بعد ان انتقل الفاطميون الى مصر ، وقد كانت عودة السنة والجماعة الى افريقية والمغرب الأوسط على يد بني زيري الصنهاجيين خلفاء الفاطميين في المغرب أولاً ثم اعداؤهم فيه بعد ذلك عملاً فاصلاً في تاريخ المغرب كله لأن ذراع السنة امتد من افريقية حتى التقى بذراع السنة في المغرب الأقصى ، والاثنان معاً أكملتا عودة المغرب الأوسط الى مذهب السنة ، وبذلك عادت وحدة الإسلام العربي من ملاد ليبيا إلى ساحل المحيط ونازلاً في الصحراء إلى بلاد افريقية المدارية والاستوائية . وهذه حقيقة من أعظم حقائق التاريخ الإسلامي .

لأن المغرب بهذا أصبح جناحاً قوياً للسنة والجماعة في العرب وخاصة بعد أن
 انتهى أمر الدولة العاطمية في مصر وعادت مصر إلى السنة، فاستقام أمر السنة
 ووحدة الاسلام من حدود العراق إلى المحيط الأطلسي، ومثل هذه النتيجة
 الباهرة لم يوفق إليها أهل الإسلام في المشرق، فظلت كتلة الشيعة الصفاء في إيران
 تقسم وحدة المشرق الإسلامي وتهدهد بأشد المحاطر. والإسلام المغربي بحربه مع
 الزندقة والانحراف ثم نشره الاسلام في نواحي المغرب وخاصة في قلب بلاد
 المصامدة في جبال درن وبلاد السوس، صان وحدة الإسلام كله والفضل في ذلك
 لعمل هاتين الدولتين معاً والأندلسية والأدرسية وثبتت أقدام الإسلام في
 الطرف المغربي القوي لدولة الإسلام، وإذا كان الأندلس قد سقط في المعركة
 فلأن أهله ألغوا الخلافة القرطبية بقرار أحق الخلد أهل قرطبة برياسة شيخهم أبي
 الحزم أبي الوليد بن جمهور سنة ٤٢٣هـ / ١٠٣١ م بالغاء الخلافة وإخراج بقية
 الأمويين من بلادهم بدلاً من اختيار أموي صالح للرياسة وتأييده والوقوف معه
 لتنهض الدولة الأموية، وهي رمز الوحدة والقوة من جديد، ولكن هكذا كان ولا
 سبيل إلى رد ما فات. ومن يوم زوال الخلافة القرطبية القرشية لم تقم للأندلس
 قائمة، كأنما انقسم ظهره، وبالفعل كان الأمويون ظهر الأندلس الاسلامي
 وعموده الفقري، فلما انكسر لم يعد في العودة الى سابق القوة - بل البقاء - أمل
 ولكن الأندلس الاسلامي عندما زال واندثر كان قد قام بوظيفة كبرى للإسلام
 كله، لقد حمى الاسلام المغربي حتى ثبت واستقر ولم يعد الى زواله من سبيل،
 وبعد سقوط الأندلس بدأت فعلاً معركة المغرب مع النصرانية، ولكن اسلام
 المغرب كان قد استقر وقوي عوده فاستطاع أن يتحمل الصدمات النصرانية
 الغربية وحده، وهكذا تدبير خفي لطيف من الله سبحانه تعاون به أمة وبنو
 هاشم على صيانة الجناح الغربي لدولة الاسلام وحمايته من العدوان الغربي
 المسيحي، وبالفعل لم تكبد معركة الأندلس تقارب هاتها بعد محاولات سي مرين
 لانسداد غرناطة حتى بدأ الهجوم على المغرب، وقد قادت ذلك الهجوم إسبانيا
 والبرتغال.

ونكتفي بهذا القدر عن دولة الإدارة فليس هذا تاريخاً لها، وقد رويته كاملاً في ايجاز في التاريخ العام للمغرب الاسلامي الذي أعاد الله على الفراع مه، وأظن أنني بينت - بما يتفق وحجم هذا الكتاب وغايته - الدور العظيم الذي كان لهذا البيت القرشي الادريسي الهاشمي في بناء الجناح الغربي لدولة الاسلام . وهو كما رأينا دور حليل يعيننا على ما نحن بصده من تقدير دور قريش في التاريخ الاسلامي والتاريخ العالمي جميعاً وننتقل الآن إلى دور آخر لقريش .

الدول العلوية من بني سليمان بن عبد الله المحض في المغرب الأوسط :

كان المظنون الى حين قريب أن هجرة ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عبي بن أبي طالب الى المغرب الأقصى كانت حدثاً فريداً منقطعاً بذاته وإن قيام الدولة الادريسية في المغرب الأقصى كان نتيجة لانتساب راشد مولاه الى البربر فيقال إنه هرب بادريس الى بلاد قومه ، ولكن قراءة ثانية لما بين أيدينا من النصوص تدل على أن المغربين الأوسط والأقصى كانا متجه ابصار العلويين بعد معركة وادي فخ سنة ١٦٩ هـ، فهذان المغربان كانا خارجين عن دولة العباسيين التي وقفت عند حدود ولاية أفريقية كما ذكرنا، فلا حرج على أي طالب للسلطان أن يجرب حظه في أي موضع شاء وراء ذلك غرباً، فهو لا يكون بهذا بمنزلة الخارج على سلطان الدولة العباسية أو مقتطع شيئاً من أرضها .

ففي نفس الوقت الذي لجأ فيه ادريس بن عبد الله المحض الى المغرب الأقصى ظهر في غربي المغرب الأوسط (وهران وما يليها غرباً) أخوه سليمان، وربما كان اللاجئون الى المغرب أولاد سليمان هذا لأن سليمان هلك في معركة فخ مع من هلك من كبار العلوية في الغالب، وابن خلدون يقول ناقلاً عن ابن حزم دون تحقيق، إن سليمان فر الى تاهرت بعد موت أخيه ادريس الأول فيها بين سنتي ١٧٧ و ٢١٣ هـ / ٧٩٣ و ٨٢٨ م فاستكره البربر وطله ولاية الأغلبية فكان

في طلبهم (إياه) تصحيح نسبه ولحق بتلمسان وملكها^(١). وليس لديها ما يضعف هذا الخبر الا قوله أن ولاية الأغالبة طلبوه، فان دولة الأغالبة قامت سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م في القيروان على يد ابراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال التيممي في العترة التي يقول ابن حلدون إن عمال الأغالبة طاردوا سليمان في تاهرت وكانت دولة الأغالبة إذ ذاك في دور التأسيس، وكان ابراهيم بن الأغلب مشغولاً بأمر خصومه ومنافسيه في افريقية ثم ان منطقة تاهرت كانت أبعد ما تكون عن بلد الأغالبة، فكيف يطلبونه أو يطلبه عمالهم؟

ولكن الذي يمكن قوله هو أن سليمان أو أبناءه لحقوا بتاهرت فلم يكتب لهم فيها توفيق، فانتقلوا الى تلمسان، وتلمسان كانت دار اسلام من زمن بعيد. وهي مدينة قديمة اسمها عند الرومان بوماريا Pomaria وكانت في منطقة تسيطر عليها قبائل زناتية مثل جراوة ونفوسة، فلقيت دعوة سليمان أو بنيه بها قبولاً من بربر تلمسان وقد حفزهم النسب العلوي الهاشمي الى التماس البركة فيه، ويمكن القول أن صاحب الأمر منهم كان محمد بن سليمان بن عبد الله، فتمهد له الأمر هناك ولم يتيسر له انشاء دولة، وإنما هو أقام فيها شيئاً يشبه الامارة الصغيرة أو المشيخة، فساد أهلها وتيمنوا به وصاهروه واستقرت قدمه وضربت جذوره، وخلفه على تلمسان ابنه محمد بن محمد بن سليمان بن عبد الله المحض. وغريب من ابن حلدون في هذه المناسبة أنه يذكر أن سليمان عندما مات خلفه ابنه محمد على تلمسان على سنته ثم افترق بنوه على ثغور المغرب (الأوسط) فاقسموا ممالكه ونواحيه، فكانت تلمسان من بعده لابنه محمد بن أحمد بن القاسم بن أحمد بن محمد^(٢) فكيف يكون محمد بن محمد بن سليمان هو محمد بن أحمد بن القاسم بن أحمد بن محمد بن محمد؟ وما هي هذه الأسماء كلها التي ترد في النسب؟ وهل المراد هنا محمداً آخر من أحماد سليمان بن محمد بن أحمد بن القاسم بن أحمد بن محمد؟ وهذا على أي حال مستبعد لتعدد الأسماء في هذا النسب مما يعني تأخر المدة.

(١) ابن حلدون، التاريخ ١٧/٤.

(٢) ابن حلدون، تاريخ ١٧/٤.

على أي الأحوال نستطيع القول إن أبناء سليمان أو ابه محمد انتشروا في المغرب الأوسط، وكانت لهم فيه امارات أو دويلات صغيرة كثيرة. يقول ابن خلدون «ثم افترق بنوه - بنو محمد - على ثعور المغرب الأوسط واقتسموا ممالكه وتواحيه فكانت تلمسان من بعده لابنه محمد بن أحمد القاسم بن محمد بن أحمد (وقد ناقشنا اسمه وشككتنا فيه وأظن أن الذي يتكلم عنه ابن خلدون هنا - أقصد القاسم - هو الذي يدعي بنو الواد نسبة، فإن هذا أشبه من القول بأن القاسم بن ادريس هو الذي قام بهذه الدعوى^(١)) وكانت أرشكول^(٢) لعيسى بن محمد بن سليمان وكان منقطعاً إلى الشيعة (أي إلى العبيديين الفاطميين في افريقية ثم في مصر) وكانت جراوة لادريس بن محمد بن سليمان ثم لابنه عيسى، وكنيته أبو العيش، ولم تزل إمارتها في ولده، ووليها بعده ابنه ابراهيم بن عيسى ثم ابنه يحيى بن ابراهيم، ثم أخوه ادريس بن ابراهيم، وكان ادريس بن ابراهيم صاحب أرشقول منقطعاً إلى عبد الرحمن الناصر... وكانت ينس لابراهيم بن محمد بن سليمان ثم لابنه محمد من بعده... وكان من ولد ابراهيم هذا احمد بن عيسى بن ابراهيم صاحب سوق ابراهيم... قال ابن حزم: وهم في المغرب كثير جداً، وكان لهم منها ممالك وقد بطل جميعها، ولم يبق منهم بها الا رئيس بنواحي بجاية... الخ»^(٣).

فهذه الجماعة الادريسية الحسنية انتشرت في نواحي المغرب الأوسط الغربي وكان معظم سكانه زناتية، فعربتهم وصححت اسلامهم على طريق أهل السنة وكان للحسنين هؤلاء أثر بعيد جداً في تعريب هذه النواحي حتى تندوف في داخل الصحراء الكبرى. وينبغي أن نحسب هنا حساب أبنائهم وأحفادهم واصهارهم من البربر الذين استعربوا، فكان هذا الفريق من قريش

(١) أثبت هذه العبارة لاستلقت النظر إلى أن بني عبد الواد أو بني يعمراس من ريان الذين حكموا المغرب الأوسط فيما بعد يدعون لأنفسهم نسباً علوياً هاشمياً وهم في الحقيقة من صميم البربر

(٢) تكتب أيضاً أرشقول وهي إلى عرب وهران من موان المغرب الأوسط

(٣) ابن خلدون ١٧/٤

صاحب اليد الطولى في تعريب هذا الجلب الكبير من العالم الإسلامي وهم في مجموعهم معاذح للدويلات القرشية الصغيرة التي حصل بها العالم الإسلامي في كل ناحية من نواحيه .

العَلَوِيُّونَ الْحُسَيْنِيُّونَ وَإِسْلَامُ بِلَادِ الذَّيْلِمِ وَدَهْشْتَانَ وَجَرَجَانَ :

وكما كانت مروج العلويين الحسينيين هم الذين وسعوا نطاق الإسلام ونشروا دعائمه في المغرب الأقصى وغرب المغرب الأوسط، فقد قام حسنيون آخرون بدور مماثل هذا في طرستان جنوبي بحر الخزر وهو فوزين، وما يلي بحر الخزر شرقاً وغرباً من بلاد جرجان ودهستان والدامغان وجيلان، وقد كانت هذه البلاد الجبلية الوعرة قد تخلفت دون اسلام أثناء أعمال الفتوح الكبرى، فإن طبرستان جنوبي بحر الخزر - وهي منطقة الري التي تقوم فيها طهران حالياً - تضم بلاداً واسعة انصرف المسلمون عنها بخراسان وسجستان وما يليها شرقاً، لأنها كانت عند القسمية بين ولايتي البصرة والكوفة قد وقعت من نصيب الكوفة، والكوفة كانت ولاية ضعيفة نسبياً إذا قورنت بولاية البصرة التي كانت تشمل معظم العراق وما يليه شرقاً بما في ذلك بلاد ما وراء النهر، فلم تستطع ولاية الكوفة أن تواصل أعمال الفتوح بنفس القوة التي سارت بها ولاية البصرة، ثم إن الولايتين كان يحكمهما رجل واحد في معظم العصر الأموي وكانت أحداث خراسان الخطيرة قد استنفدت جهود الفاتحين والولاة، وكذلك انصرفت الجهود إلى الفتوح في بلاد التركستان وهي ما وراء النهر .

فلما قامت الدولة الطاهرية في خراسان سنة ٢٠٥ هـ / ٨٢٠ م أيام المأمون هدأت أحوال المشرق، واستطاع أبو الطيب طاهر بن الحسين أول الطاهريين أن يلتفت إلى بلاد طرستان وشرقي بحر الخزر . وفي أيام محمد بن طاهر بن أبي العباس عبد الله بن طاهر، وهو خامس الأمراء الطاهريين ٢٤٨٥ - ٢٥٩ هـ / ٨٦٢ - ٨٧٣ م، صاحب خراسان كان يتولى أمور

طبرستان ابن عم له يسمى سليمان بن عبد الله بن طاهر نائباً عنه، ووقعت بينه وبين بيت من بيوت الطبريين يسمى بيت بني رستم خصومة، فبحث محمد واراھيم ابنا رستم عن شخصية عربية تقودهم في صراعهم ضد ولاية الطاهريين العباسيين أصحاب خراسان، واستقر رأيهم على الحسن بن زيد بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب وكان من بين العلويين الذين سألوا العباسيين ودخلوا في خدمتهم قولوه المدينة وكان له فيها أثر غير محمود، فقد أعان أبا جعفر المنصور على ابن عمه عبدالله المحض وبنيه وآله الذين ذكرنا بعض أخبارهم، ثم انتقل الحسن بن زيد هذا الى الري وهناك استنجد به محمد وجعفر ابنا رستم على محمد بن طاهر، فأتاهم ورأسهم وتمكن من الانتصار على نواب الطاهريين والاستقلال بطبرستان وجرجان.

وقد طالبت الحرب بين أولئك الزيديين والطاهريين حتى نهاية الدولة الطاهرية في حدود سنة ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م.

وكان الديلم وهم أهل طبرستان لا يزال معظمهم على الكفر فاستطاع أولئك الزيديون ادخالهم في الاسلام وأكملوا اسلام جرجان ودهستان وما بين نهر سيحون وبحر قزوين من البلاد جنوبي خوارزم وتلك بلاد واسعة كانت غفلاً من الاسلام، فدخلت فيه على أيدي أولئك العلويين الزيديين المجاهدين برئاسة شيخهم الحسن بن زيد الذي ظل أميراً على طبرستان حتى رجب سنة ٢٧٠ هـ / ٨٨٤ م.

وقد لقب بداعي طبرستان لاجتهاده في نشر الاسلام وبث الدعوة الزيدية في تلك البلاد.

وعندما اشتد مساعد يعقوب بن الليث الصفار في سحستان تطلع الى تلك البلاد، بلاد طبرستان وكبار قواعدها من مثل الري وآمد وقزوين، فبثت له الحسن بن زيد هذا ثم انه واستمرت الحروب طويلاً بين الجانبين. وخلف

الحسن بن زيد في القيادة والامامة اخوه محمد بن زيد بن الحسن بن الحسن الأطروش.

وعندما قتل محمد بن زيد دخل بلاد الديلم زعيم علوي آخر هو الحسن بن علي بن الحسين بن عمر بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فكان الزعامة هناك انتقلت من الحسينية الى الحسينية، والحسن هذا يلقب بالأطروش أو بداعي الطالقان وكان مذهب الشيعة الزيدية قد انتشر في طبرستان وخراسان فدخل في المذهب الحسن الأطروش رغم حسنيته. وقد طال أمر الزيديين في طبرستان ومرت بهم مصروف طويلة حتى انتهى أمرهم سنة ٣٥٥ هـ / ٩٦٦ م وما يستلقت النظر أن أحداً لم يكتب لنا تاريخ أولئك العلويين على نحو يستوفي اعماهم ويظهر عظيم غنائهم في نشر الاسلام وكان لهم أثر بعيد في إكمال اسلام الناس من ناحية وتثبيت دعائم المذهب الزيدي من ناحية أخرى^(١).

وإنما وقفنا بهم هذه الوقفة القصيرة لأنهم بيت هاشمي قرشي كان له دور عظيم في نشر الإسلام، وتاريخهم يدل كذلك على حيوية البيت العلوي ما بين حسنية وحسينية، وكأنما كان اجتهاد بني أمية وبني العباس في استئصال آل البيت كان دافعاً لإيادهم الى الاستمسك بالبقاء والاجتهاد في إثبات حقهم في الرياسة، والحق أن الإنسان ليتعجب من حيوية الحسين خاصة الذين ظهروا في كل مكان، كأنهم موج متدفق لأول ما بدت دلائل الضعف على بني العباس. وفي أيام المأمون كانت موجات العلويين في كل نواحي الدولة الإسلامية أشبه بالطوفان وقد ذكرنا ذلك فيما سبق.

وقد أورد اس حلدون في تاريخه موجزاً بدول العلويين في فصل جامع عنوانه الحمر عن سبب الطالبيين وذكر المشاهير من أعقابهم^(٢)، وهو فصل

(١) انظر موجزاً لتاريخهم ودخولهم في طبرستان وبلاد الديلم عن اس حلدون، تاريخ ٢٢/٤ - ٢٨

(٢) اس حلدون، تاريخ ١١٣/٤

جامع أقامه ابن خلدون على أساس شجرة نسب علي بن أبي طالب التي أوردها ابن حزم في الجهمرة، وأنت ترى في هذا الفصل الذي اقتصر فيه ابن خلدون على دول المشاهير منهم، أن هذه الدول تكاد تعجز الباحث عن تتبع تواريخها، فهي عشرات الدول في كل بلاد مملكة الإسلام بما في ذلك بلاد غانة أي إفريقية المدارية والاستوائية، ولم يورد ابن خلدون - طبعاً - ما ظهر من دول العلوية بعد حتى أيامه في بلاد السودان وآسيا وخاصة جنوبها وجنوبها الشرقي، ويبدو أن الأمر لم يقتصر على تصدي العلويين للإمامة حيث وجدوا فرصة لذلك، بل إن الناس أنفسهم كانوا إذا وجدوا بينهم علوياً يتوسمون فيه الخير يقدمونه، وذلك لا يمنع من أن يقوموا عليه بعد ذلك، ولكن العلويين كانوا مقدمين على غيرهم إذا كان الأمر أمر إمامة، ولهذا تعددت دولهم وشملت العالم الإسلامي كله وعصوره كلها إلى يومنا هذا، وإنه لعجيب أن ينجب علي بن أبي طالب أولاداً كثيرين من نساء شتى فلا تكون الذرية الضخمة والإمامة بشى صورها إلا في أبناء ثلاثة منهم : اثنان من أولاد فاطمة هما الحسن والحسين وواحد من غيرها وهو محمد بن الحنفية، ومن أولئك الثلاثة جاء فيض شبه السيل، فهم - حرفياً - الوف، وذلك رغم من قتل منهم وهم كثيرون جداً. ولقد انقطع أو خفي نسل القرشيين جميعاً إلا من نسل رسول الله ﷺ من هؤلاء الثلاثة، وقد جعل الله سبحانه من البركة فيهم ما لم يجعل في أحد من بني آدم، وما بقي من قریش أحد يعرف ويذكر على تحقيق إلا من عترة المصطفى صلوات الله عليه من بنت واحدة.

الزَيْدِيُّونَ فِي الْيَمَنِ :

ومن هذه الدول القرشية لم نذكر إلى الآن إلا ثلاثة كباراً هم سوامية في الأندلس وسوادريس في المغرب الأقصى - ومعهم بنو أخيه سليمان في المغرب الأوسط - ثم العلويون الحسنيون في بلاد الديلم وطبرستان وخرجان، والدولة الأولى أموية وهي دولة جهاد وسياسة وعروة، قامت في التاريخ العالمي مدور

كبير، لأنها قامت على أرض أوروبية . والثانية - الأدرسية - دولة علوية سنية ذات فضل عظيم في تثبيت دعائم الإسلام على مذهب السنة والجماعة في المغرب، مع جهد عظيم في التعريب، والثالثة دولة الحسين في بلاد الديلم وهي دولة نشر للإسلام في نواح من مملكة الإسلام لم يكن قد انتشر الدين فيها فعرف أولئك الحسينيون كيف يدخلون أهلها جميعاً في الدين .

والدولة الرابعة من دول قریش التي نذكرها هي دولة الزيدية في اليمن وهي تتميز على غيرها من دول القرشيين بأنها قامت على العلم، فإن الإمام الذي أقامها كان عالماً اشترط على نفسه عندما شرع في إقامة إمامته أن يلتزم بعماد من الإسلام لم يلتفت إليه أحد من رجال دول الإسلام في العصور الوسطى وهو احترام الأمة والتزام مبادئ الإسلام السمع فكرياً وعملاً، وذلك في البداية على الأقل، فإن المؤسس الحقيقي لتلك الدولة الزيدية كان إماماً عالماً مجاهداً نجداً، هو الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين القاسم الرسي الذي بدأ إمامته في اليمن سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م .

وقد قامت الدولة الزيدية في اليمن على مذهب وضعه الإمام زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وكان عالماً مفكراً مجتهداً انصرف أول أمره إلى طلب العلم، شأنه في ذلك شأن الكثيرين من أئمة العلويين من أبناء الحسين بن علي رضي الله عنه، وقد اتفق زيد بن علي زين العابدين مع غيره من العلوية في أن أولى الناس بإمامة الأمة بعد رسول الله ﷺ هو الإمام علي، ولكنه لم ينكر إمامة الشيخين ولا هو رضي بالقدح فيها، ثم قال إن الإمامة في بيت علي ولكنها ليست ميراثاً من أب لابن وليست سراً يتقل في الأصلاط بإرادة إلهية كما يقول الإمامية الإسماعيلية، ولكن يتولاها أفضل الموجودين من بيت علي رضي الله عنه علماً وفضلاً وإيماناً، فجمع الرجل بذلك بين شيء ترصيه عنه الشيعة وشيء ترصيه عنه السنة .

لهذا فقد لقي المذهب الزيدي قبولاً حسناً عند عامة المسلمين، ثم إن

زيد بن علي بن الحسين وضع أسس مذهب فقهي ووضع كتباً قام عليها المذهب الزيدي، وأكمل عمله غيره عن تولوا الإمامة أو الفقه على مذهب الريدية، ويستوقف النظر أن زيداً وهو من أبناء الحسين بن علي وضع أساس المذهب الزيدي، أما الذي أكثر التأليف في المذهب وأقام إمامته فكان رجلاً حسيباً هو الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي، فهو على هذا، مذهب حسيني حسني في آن معاً.

والإمام زيد بن علي زين العابدين مؤسس المذهب الزيدي وصاحب الفضل في قيام دولة الزيدية في اليمن كان من أبطال آل البيت في صراعمهم للوصول إلى السلطان، وكان زيد مباحداً للسياسة منصرفاً إلى العلم شأنه في ذلك شأن أخيه محمد الباقر بن علي زين العابدين وبقي آل الحسين بن علي حتى جعفر الصادق، ولكن الخليفة هشام بن عبد الملك الأموي ١٠٥ - ١٢٥ هـ / ٧٢٣ - ٧٤٢م آذاه وأحرجه ونال منه دول داح وكان هشام نفسه يحكم في ظروف سيئة، فإن الأرض كانت تميد تحت أقدام بني أمية واتسع نطاق الثورات عليهم في كل نواحي دولتهم، وأدت الحروب والثورات - إلى جانب سوء تصرف الخلفاء السابقين عليه من بني أمية - إلى هبوط خطر في إيرادات الدولة، وإصلاحات عمر بن محمد العزيز التي هزت المالية الأموية هزاً عنيفاً لم تجد الإداري المالي الذي يعيد التوازن الاقتصادي للدولة، ثم جاءت الفتن بين جند الدولة من قيسية وعينية، واضطرب الأمر في يد هشام اضطراباً عنيفاً وانصب جانب كبير من غضب هذا الخليفة الأموي على زيد بن علي زين العابدين هذا، لأنه كان يتمتع بمكانة رفيعة ومهابة عظيمة في قلوب الناس، فتعمد هشام أن يبينه أمام الناس فلم يجد زيد بدأ من الرد على الخليفة المستهين بكرامات الناس، فدعا للبيعة لنفسه، وذهب إلى الكوفة حيث تجمع حوله ناس كثيرون وبايعوه، وأغلب الظن أن زيداً كان يعلم أنه مقتول فقد كان أعلم الناس بقلّة القيمة العملية للمبايعات التي كان يتلقاها بالآلاف. وعندما سير والي

العراق هشام بن عبد الملك قواته للقاء قوات زيد انفضّ الناس من حوله إلا ٢١٨ رجلاً فيما يقال وكان اللقاء قرب الكوفة وكان لقاء انتحار معروف النتيجة، وكان استشهاده زيد بن علي ريس العابدين سنة ١٢٢ هـ / ٧٤٠^(١).

وكان هذا الموت العنيف لزيد دافعاً للناس إلى مزيد من التعلق به وبآرائه، وبالفعل كانت آراء زيد بن علي ريس العابدين السياسية أحسن ما وصل إليه الناس إلى أيامه من القول بحرية الناس في اختيار الإمام من بيت علي، ولم يكن حصر الإمامة في بيت علي بغيره يذكر على حرية الناس في الاختيار، فإن العلويين كانوا كثيرين جداً ولا يعدم الناس فيهم رجلاً صالحاً للإمامة ما دام الإمام زيد لا يشترط الوراثة، وكان الإمام زيد يرى أن تكون المفاضلة بين المرشحين على أساس صالح الجماعة الإسلامية، ونفى زيد القول بعصمة الأئمة وأباح للأمة الحق في خلع الإمام إذا لم يحسن السياسة، والمذهب الزيدي على هذا أقرب الآراء إلى مذهب أهل السنة الذين كانوا يرون أن الخلافة حق مطلق للأفضل بين المسلمين. ولا يؤمن الزيديون بالتقية أي بحق الإنسان في إنكار مذهبه والظهور بغيره خوفاً على حياته، ولا يرون ضرورة لاختفاء الأئمة وإنما الإمام عندهم يكون صريحاً معلناً في مكان وظروف تضمن سلامته وسلامة جماعته، وزيد بن علي بن الحسين كما رأينا أعلن نفسه إماماً ودعا الناس إلى بيعته جهاراً دون أن يستتر أو يتوقى.

ولا غرابة إذن في أن ينتشر المذهب الزيدي انتشاراً واسعاً ويوجد لنفسه انصاراً في كل بلاد المسلمين، وقد لجأ الكثيرون من آل البيت إلى نواح قصية من الدولة الإسلامية وأعلنوا هن أنفسهم فيها، وبعضهم طلب الخلافة وبعضهم لم يطلبها. والأداسة الذين مرربا هم كانوا في الحقيقة زيديين مذهبياً

(١) انظر عن زيد بن علي رسالة الأستاذ ابراهيم الوريير بيروت ١٩٧٠، وقرأ في هذا الكتاب تأييد عدد عظيم من علماء المسلمين لدعوة زيد بن الحسين ومهم أبو حيفة العماد بن ثابت ص

دون أن يتسوها لذلك لأن مذهب الزيدية استلزم وقتاً طويلاً لكي يعرفه الناس حق المعرفة وهو لم يظهر كمذهب قائم بداته له فقهه ونظيره إلى أمور المسلمين بما فيها التشريع إلا من أوائل القرن المحجري الثالث.

وصاحب الفضل في تثبيت قواعد هذا المذهب وإقامة إمامة على أساسه رجل من آل الحسن بن علي بن أبي طالب هو يحيى بن الحسين بن محمد بن إسماعيل بن القاسم الرُّسِّي (نسبة إلى الرس قرية صغيرة على الطريق بين مكة والكوفة إلى الشمال الغربي من مدينة الرياض الحالية)، والقاسم الرُّسِّي هو ابن إبراهيم طباطبا الذي أشرنا إليه، وهو ابن إسماعيل بن علي بن إبراهيم بن عبد الله المحض قتيل باخرا قرب الكوفة سنة ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م وقد ذكرنا قيامه في الكوفة بعد مقتل أخيه محمد النفس الزكية.

ويحيى بن الحسين هذا الذي نحن بصدده كان حنيفاً، ولكنه أخذ المذهب الزيدي عن أبيه الحسين وذهب إلى اليمن واستقر في صنعاء سنة ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م. وتلقب بالإمام الهادي إلى الحق، وفي خطاب إمامته الذي ألقاه في ٦ صفر سنة ٢٨٤ هـ أعلن أسس إمامته، وهي إلى ذلك الحين أقرب أسس أعلنها إمام إلى روح الإسلام بعد الأسس التي قامت عليها خلافة الراشدين. وقد قال فيه: «أيها الناس إنني أشرت لكم أربعاً على نفسي: الحكم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ. والأثرة لكم على نفسي فيما جعله بيني وبينكم، وأوثركم فلا أفضّل عليكم، وأقدمكم عند المعطاء قبلي، وأتقدم عليكم عند لقاء عدوي وعدوكم. وأشرت لنفسي عليكم اثنتين: النصيحة لله سبحانه وتعالى في السر والعلانية، والطاعة لأمري على كل حالانكم ما اطعت الله. فإن خالفت فلا طاعة لي عليكم، وإن ملت وحدت عن كتاب الله وسنة نبيه فلا حجة لي عليكم. فهذه هي سبيلي أدعو الله على بصيرة، أنا ومن اتبعني»^(١).

(١) أورده المذكور حسن سليمان محمود في كتابه تاريخ اليمن السياسي في العصر الإسلامي
عدادة ١٩٦٩ من ٢٧٨ - ٢٧٩

وهذا كلام رجل جاد يعني ما يقول وهو لم يقل هذا الكلام سياسة منه أو استجلاباً لرضى الناس، بل كان الرجل بالفعل إماماً في العلم وله تأليف فقهية كثيرة وفتاوى مشهورة بين أهل اليمن إلى يومنا هذا، وقد أحصى الأستاذ عبد الله محمد الحشبي من مؤلفاته سبعة وسبعين كتاباً ورسالة، وترجم له وذكر مؤلفاته معاصره علي بن محمد العباس من القرن الثالث الهجري وقام بتحقيقه ونشره في بيروت د. سهيل زكار سنة ١٩٧٢، ولم نسمع بمثله هذا البحر في العلم وبوفرة في التأليف لرئيس آخر من رؤساء الإسلام.

ولم يذهب الإمام يحيى إلى اليمن طالباً للإمامة وإنما كان أهل صعدة في اليمن، هم الذين استدعوه ويقال إنه وصل صعدة سنة ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م وكانت سنة إذ ذاك خمساً وثلاثين سنة إذ إنه ولد في جبال الرس سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م، وبدأ لأول وصوله في تأسيس إمامته في شمال اليمن ثم تمكن من دخول صنعاء، ولكنه لم يلبث أن ارتد عنها ولو أن هذا الإمام قام في غير اليمن لكان له شأن أكبر مما كان له، ولكن اليمن من أصعب بلاد الله على الحكم لأن أهلها من أشد الناس شكيمة واعتزازاً بأنفسهم حتى ليخيل لمن يقرأ تاريخ اليمن أن كل يحيى إمام في نفسه، ومن ثم فإن نفسه لا ترضى له البيعة لغيره، وقد استطاع الإمام يحيى بن الحسين تثبيت مركزه في شمال اليمن وقضى معظم أيامه في حرب المنافسين له، ومحاولة القضاء على دعوة القرامطة في تلك البلاد، واستمر عقبه يحكمون شمال اليمن، واليمن كله في فترات قصيرة إلى العصر الحديث. وقد تولى الأمر من أئمة هذا البيت فوق الحسين إماماً، ظلوا يحكمون في صعدة ونجران خاصة حتى سنة ١٩٦٢ عندما قامت هناك الثورة العسكرية التي انتهت حكم الأئمة الزيديين بعدما حكمت في اليمن ١٠٦٥ سنة ميلادية، وهذا أطول عمر لدولة في التاريخ، بما في ذلك دول الصين التي اشتهرت بطول العمر.

وابتداء من القرن العاشر الهجري وفي حكم الإمام يحيى شرف الدين

(٩١٢ - ٩٦٥ هـ / ١٥٦٠ - ١٥٥٧ م)، ونتيجة لعزو الأتراك العثمانيين لليمن اتسع سلطان الأئمة الريدو وامتد نفوذهم لأهم هم الدين تولوا المقاومة للحكم العثماني، وبعد خروج الأتراك العثمانيين اتسع نفوذ الأئمة حتى شمل اليمن كلها، وفي سنة ١٢٦٩ هـ، / ١٨٥٢ م قامت عليهم ثورة إمامية أيضاً قادها الإمام المصور محمد بن علي الوريو ووقعت بلاد اليمن بعد ذلك في فوضى شاملة استمرت مائة وعشر سنوات ميلادية، وعندما انتهى الحكم العثماني الثاني لليمن سنة ١٣٣٧، / ١٩١٨، تمكن الإمام المتوكل يحيى بن محمد حميد الدين (١٣٣٧ - ١٣٦٧ هـ) من السيطرة على اليمن كلها شمالاً وجنوباً بمساعدة الانجليز الذين احتلوا عدن سنة ١٢٥٣ هـ / ١٨٣٧ م وهذا الاحتلال الانجليزي لعدن هو بداية انقسام اليمن إلى شمالي وجنوبي، والإمام المتوكل يحيى بن محمد حميد الدين من سلالة المهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي وقد طال حكم هذا البيت وتقادم به العهد وجمداً تماماً وربط نفسه ربطاً قوياً برؤساء القبائل، فلم تفلح ثورة ١٩٤٨ التي قادها آل الوزير واستمرت فترة قصيرة من الزمن، عاد بعدها الإمام يحيى إلى السلطان في البلاد حتى قضت عليها نهائياً ثورة عبد الله السلال بتأييد جمال عبد الناصر سنة ١٩٦٢ م.

وهذه التجربة الهاشمية القرشية تستحق الدراسة، وهي لم تدرس إلى الآن حق الدراسة نظراً لطول عمرها وتقلب الأحوال فيها خلال ذلك الحكم الطويل، ولقد تعاقبت على وسط اليمن وجنوبه دول كثيرة مثل بني زريع وهم بنو الكرم في عدن، ودولة بني نجاح / وهم أحباش / والكذراء دولة بني مهدي في زيد. والصليحيين الشيعة في صنعاء وهم حلفاء الفاطميين، وبني رسول في زيد وعدن وتعز وبقية بلاد الساحل، وغيرهم كثيرون، ويلاحظ بصورة عامة أن الأئمة الرسيين كانوا في الغالب سادة صعدة وبلاد الداخل في حين تعاقبت الدول على السهول الساحلية وعدن، وحتى العثمانيون لم يمتد سلطانهم قط إلى

الداحل، وتاريخ اليمس على أي حال في حاجة إلى من يكتبه ولو على وجه الاختصار، لأنه بلد واحد في نظر التقسيم العام لبلاد الإسلام، ولكنه في واقع التاريخ آيما كثيرة وقد اهتمنا الإشارة إلى دولة آل الرسي نظراً إلى أنها كانت إمامة قرشية قامت على أساس إسلامي سليم، ولكن النظم تشيخ مع الزمن ويدخل عليها الفساد ولا بد من تحديدها وإعادة النظر فيها بين الحين والحين.

الدولة الفاطمية في إفريقية ومصر والشام :

كان ينبغي في سياق هذه الدراسة أن نقف طويلاً عند الدولة الفاطمية ذات الصيت البعيد، وهي دولة هاشمية قرشية، إمامها عبيد الله المهدي الذي ينتسب إلى محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق سادس الأئمة من ولد الحسين ابن علي بن أبي طالب، وفي صحة انتسابه خلاف كثير، ولكننا نبهنا في هذه الدراسة على أننا لا نناقش الأنساب، فما دام رجل يقول إنه هاشمي فلا مجال للمناقشة في هذه الدعوى لأن صحة الأنساب لا يعلمها إلا الله سبحانه، وقد يكون ادعاء الهاشمية والزعم بالانتساب إلى بني هاشم وآل البيت أدل على صواب ما نقول به في هذا البحث من جلال اسم بني هاشم وقريش، فإن دعوى هذا الانتساب، هي التي هبات للداعي سواء أكان صادقاً أم غير صادق التأييد الذي استند إليه في إقامة دولته.

ويتضح لنا هذا بصورة خاصة في قيام الدولة الفاطمية في إفريقية سنة ٢٩٦ هـ/٩٠٩ م. فإن رجال قبيلة كتامة البرنسية من البربر الذين استمعوا إلى أبي عبدالله الداعي وصدقوه، لم يناقشوا في صحة نسب الإمام المستتر الذي دعاهم إلى الدخول في طاعته عبدالله الداعي، وحتى عندما نجح أبو عبدالله الداعي الشيعي في القضاء على الدولة الأغلبية وأعلن الخلافة الفاطمية في القيروان سنة ٢٩٦ هـ/٩٠٩ م لم يكن الداعي يعرف الإمام عبيدالله المهدي شخصياً ولم يره عياناً ويتعرف عليه، إلا عندما استفده من أسر بني

ولكننا لن نقف طويلاً عند الدولة الفاطمية فهي حقاً دولة طويلة التاريخ متسعة الرقعة، ولكنها في مجموعها لم ترد على أنها دولة سياسية هدفها الرئيسي هو تثبيت السلطان السياسي لأسرة علوية ومد رقعته دون أن يكون لها في ذاتها محتوى حضاري أو رسالة تتصل بالعروبة والإسلام، وقد رأينا أن دولة بني أمية في الأندلس كانت دولة جهاد ومثاغرة وعروبة وإسلام، ودولة الإدارة لها دور عظيم جداً في تثبيت دولة السنة والجماعة في المغرب، ودولة العلويين في طبرستان قامت بنشر الإسلام وتصحيح مذاهب الناس في مساحة واسعة من بلاد الإسلام، ودولة آل الرسي في اليمن إمامة تميزت بسلامة الأسر التي قامت عليها وإن تفرقت بها السبل وصروف الأيام فيما بعد .

أما الدولة الفاطمية فلم يكن لها دور حقيقي في تاريخ الإسلام العام، فإن حال إفريقية بعدها أصبح أسوأ مما كان عليه قبلها من كل ناحية، ثم انها بحملاتها المتكررة على المغربيين الأوسط والأقصى أثارت العصبية القبلية بين البربر، وأضررت بالمغرب كله ضرراً بليغاً، بل امتد اذاها إلى دولة الإسلام في الأندلس، لأن تطلعها إلى المغرب الأقصى وتدخلها في شئونه اضطّر الأمويين الأندلسيين من أيام الناصر لدين الله إلى الالتفات إلى الجنوب وتوجيه جانب كبير جداً من قواهم إلى المغرب مما أضعف جبهتهم الشمالية أمام النصارى .

أما في بلاد الشام فلم يكن للفاطميين فيه دور متميز، إنما هم دخلوا هناك في زمرة المتنازعين على السلطان في بلاد لم تكن بحاجة إلى طامعين جدد يدخلون حلبة التناحر .

فهي على هذا دولة قرشية كبيرة ولكنها ليست عظيمة، ومدها الإسماعيلي نفسه كما يصوره كبار دعااتها مثل القاضي النعمان بن محمد متطرفون جداً في الدعوة الإسماعيلية ذات الاتجاه البعيد عن صفاء الإسلام،

وهذا التعقيد الشديد في المذهب الإسماعيلي الذي قامت عليه الدولة الفاطمية، ودعا إليه دعاها، هو الذي باعد بين عامة المصريين ودعوى الشيعة جملة، وقد نفر أهل افريقية نفوراً شديداً من المذهب الإسماعيلي ووقف فقهاء المالكية من كل مذاهب الشيعة موقفاً حاسماً كان له أمد الأثر في مركز الدولة الفاطمية في افريقية وبقية المغرب، لأن فقهاء المالكية المغاربة كانوا متشددين في مذهبهم متمسكين بكل تفاصيله، وكان فيهم إلى جانب ذلك علماء أجلاء متمكنين من مذاهب السنة استطاعوا الثبات لكل دعوات الإسماعيلية وأثبتوا بطلان ما عداها، واجتهدوا في نفس الوقت في بث النفور والكراهة من كل انحراف عن المذهب السني، فلم تضرب مذاهب الإسماعيلية بجذورها في التربة المغربية، وما كادت الدولة الشيعية تنتقل إلى مصر حتى تلاشى المذهب من المغرب، إلا فيها يتعلق ببعض شكليات أرغم على التظاهر بها نوابهم في المغرب وهم بنو زيري بن ماد الصنهاجيون، ثم تلاشى المذهب وكل ذكر له في افريقية والمغرب في أيام المعز بن حميم الصنهاجي عندما قطع علاقاته بالفاطميين في مصر سياسياً ودينياً.

وقد تناولت بالتفصيل الدور الذي كان للدولة الفاطمية في المغرب (٢٩٧ - ٣٦٢ هـ / ٩٠٩ - ٩٧٣ م) في كتابي عن تاريخ المغرب من قبيل الفتح الاسلامي إلى قيام الدولة السعدية، وهو في مجموعه دور سيء، لأن أهل افريقية نفروا من الدعوة الفاطمية نفوراً شديداً، وقادهم في ذلك شيوخهم المالكيون الذين اعتبروا المذاهب الشيعية كلها خارجة على الاسلام، وخلال ما يزيد قليلاً على ستين سنة لم يوفق الفاطميون في إقامة جسور تفاهم مع شعب افريقية، وفي أيام الخليفة الفاطمي الثاني وهو القائم أبو القاسم محمد بن عدا الله المهدي (٣٢٢ - ٣٣٤ هـ ٩٣٤ - ٩٤٥ م) قامت ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد الملقب بصاحب الحمار وكان معلم صبيان سنياً من بني يعرن من زناتة، ولكن دعاة الشيعة زعموا فيما بعد أنه كان حارحياً صعرباً نكاريماً يكفر أهل

الدين ويستبيح الأموال، والحقيقة إن حركة أبي يزيد هذا تمثل استياء الناس في افريقية من الحكم الفاطمي، فإن الأمر لم يقتصر على النفور العام من المذهب الشيعي الاسماعيلي، بل إن سياسة الفاطميين المالية كانت سياسة استغلال مالي شح لم يعرفه أهل المغرب إلى ذلك الحين، فلم يدعوا شيئاً لم يفرضوا عليه مالاً، وابتكروا من الجبايات ما لم تعرفه دولة اسلامية اخرى إلى ذلك الحين، وزاد الفاطميون نهياً إلى المال حاجتهم إلى الجند المرتزق وانصرافهم إلى الانفاق في شراء الصقالة والعبيد السود ليكونوا جندهم وحرسهم الخاص، ثم ما انفقوه من أموال جسيمة في انشاء حصن خاص لهم خارج القيروان، اتسع حتى صار مدينة عرفت بالمنصورية، ولم تكفهم هذه فأنشأوا المهديّة على ساحل البحر في موضع منيع داخل في الماء وحصنوه بالأسوار والأبراج المنيعّة الباقية إلى اليوم، وجعلوا عليها أبواباً هائلة من ناحية البر، وقد قصروا السكنى فيها على أنفسهم وخدمهم وجندهم، وجعلوا أهل الأسواق خارج الأسوار، وعندما اشتدت ثورة أبي يزيد ولقيت التأييد من معظم قبائل البربر الزناتية وكثير من الصنهاجية، لجأ الخليفة الفاطمي القائم بجنده إلى المهديّة سنة ٣٣٣ هـ / ٩١٤م، ولم تنج البقية من الفاطميين إلا بفضل أسوار المهديّة، فقد اجتمع كل أهل افريقية إلى أبي يزيد فيما عدا قبيلة كتامة. ولكن أبا يزيد نفسه كان رجلاً مسناً غير قادر على ضبط أمور الجماعات الغفيرة التي انضمت اليه، فخرج الكثيرون عليه وأثرت فيهم دعاية الفاطميين من أنه خارجي نكاري، وعندما استوثق الخليفة الفاطمي الثالث أبو طاهر اسماعيل المنصور بن أبي القاسم محمد القائم (٣٣٤ - ٣٤١ هـ / ٩٤٥ - ٩٥٢) من انصراف معظم جماعة أبي يزيد عنه، وأنه بقي في جماعة مبعثرة من هواره خرج بحنده وهامحه وشنت جموعه، فارتد إلى القيروان حيث خافه أهلها واقفلوا أبوابها، فارتد بمن معه إلى الجبال وكان ذلك سنة ٣٣٦ هـ / ٩٤٧م وقبض المنصور على أبي يزيد وقتله وانتهت ثورته، ولكن ذلك لم يعن أن أهل افريقية عادوا إلى طاعة الفاطميين، بل ازدادوا نفوراً منهم، وتأكد الفاطميون من أن افريقية والمغرب ليسا لهم موطئاً، فاشتد اهتمامهم بغزو مصر للانتقال إليها،

وأطمعهم فيها صعف الأخشيديين واضطراب أسورهم بعد موت كافور الأخشيدي .

وعندما توفي المصور وحاء أبو تميم معد المعز بالله رابع حلفاء الفاطميين وأقدرهم (٣٤١ - ٣٦٥ هـ / ٩٥٢ - ٩٧٥ م) ، بدأ الاستعداد الفعلي لغزو مصر ، فضاغف نشاطه في غزو المغرب الأقصى بغرض جمع الأموال لأنهم لم يستطيعوا إقراء سلطانهم في المغرب الأوسط وعجز عن مغالبة الإدارة في المغرب الأوسط وتصدى له الأمويون الأندلسيون وحلفاؤهم من الإدارة والزناتيين . وحتى بعد انتصار جنود الفاطميين على الإدارة وأسرههم يحيى بن يحيى بن عمر ابن محمد وخروج بقاياهم من فاس ولجؤتهم إلى قلعة حجر النسر ، لم يطمئن الفاطميون إلى أمر المغرب الأقصى ، لأن المنصور محمد بن أبي عامر صاحب الأمر في دولة بني أمية الأندلسية ٣٦٦ - ٣٩٩ هـ / ٩٧٦ - ١٠٠٨ م) تصدى لهم بكل عنف ووالى إرسال الجيوش إلى المغرب الأقصى . وهنا ، ومن أوائل ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م استقر رأي المعز على الانتقال إلى مصر فجمع كل ما استطاع من جند ومال ، وأرسل جوهر الصقلي إلى مصر فدخلها وقضى على بقايا الأخشيديين ودخل القسطنطينية في ١٦ شعبان ٣٥٨ هـ / يوليو ٩٦٩ م . وأعطى المصريين أماناً شاملاً على أموالهم وأنفسهم وعقيدتهم وقال في أمانته وهي إقامتكم على مذهبكم ، وأن تركوا على ما كنتم عليه من أداء الفروض في العلم والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم ، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين بعدهم ، وفقهائهم الأنصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتاواهم ، وأن يجري الأذان والصلاة وصيام رمضان وفطره وقيام لياليه ، والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله في كتابه ونصه ونبيه ﷺ في سنته ، وأحرى أهل الذمة على ما كانوا عليه^(١) وهذا التسليم للمصريين بما طلبوا من البقاء على السنة دون أن تتدخل الدولة في شئون عقيدتهم يدل أولاً : على أن

(١) المقريري ، انعطاف الحما ، تحقيق د . جمال الدين الشيال ج ١ ص ٦٩ - ٧٠

الفاطميين تعلموا درساً من تجربتهم في افرقية والمغرب، وما تيسره من أن مذهب السنة والمال عند الفاطميين كانت مقدمة على المذهب، حقاً اهم انشأوا نظاماً للدعاية للمذهب الاسماعيلي واتخذوا الجامع الأزهر مركزاً لها وأقاموا تنظيم الدعاة وعلى رأسه داعي الدعاة، وكان في الغالب رجلاً ذكياً واسع الاطلاع والمعرفة، كما نجد عند القاضي النعمان بن محمد، ولكنهم لم يجتهدوا في نشر المذهب الفاطمي في مصر اجتهداً يثير مشاعر الناس ويؤثر في السياسة والاجابة، فظل الخلفاء ورجالهم على مذهبهم واتبعهم ودخل في نحلته من طلب أموالهم، وبقيت كتلة الشعب المصري سنية لم تمس، وإذا كان المذهب الاسماعيلي قد لقي قبولاً وانتشاراً في بلاد الشام إبان العصر الفاطمي، فإن السبب في ذلك لا يرجع إلى اجتهد الفاطميين بل إلى استعداد كان في بعض جماعات أهل الشام للدخول في المذهب الاسماعيلي، فلا شك في أنه كانت هناك نواة اسماعيلية تمت وازدادت عدداً وقوة بتشجيع الفاطميين، بل بلغ الأمر أن نشأ في بلاد الشام مذهب الدرزي المتفرع عن الشيعة الاسماعيلية، وهو قد نشأ بلا شك حول نواة دينية غربية عن الاسلام كانت هناك، وعرف حمزة الدرزي كيف ينميها ويضبطها في مذهب إسلامي على حرف، والمذهب على أي حال أشبه برابطة عشائرية بين قبيل من أهل الشام.

والمال والحصول عليه هو مفتاح السياسة الفاطمية دون نظر إلى النتائج . فهذا البلد الذي كان إلى ذلك الحين بلداً غنياً أو رخى الحال على الأقل كما تدل على ذلك صفحات كتاب سفر نامه الذي كتبه ناصري خسرو، الذي زار مصر أيام الخليفة المستنصر، وإذا كنا لا نسلم بكل ما يقوله ناصري خسرو، لأنه كان اسماعيلياً بل هو داعية اسماعيلي، فإننا نأخذ بجملة كلامه . وبما قاله المقرئ بعد ذلك من أن رخاء مصر تلاشى شيئاً فشيئاً خلال العصر الفاطمي الطويل، فقد جعلوا دأهم وضع أيديهم على مصادر الثروة وفرضوا على الصناعات اتاوات، وبلغ من عسف أحد وراثتهم - وهو ابن كلس - أن

سياسته أدت إلى حراب صاعقة السيج في مدن بحيرة المرة في شمال الدلتا، فقد أثقل عليها هذا الرجل بالمطالب حتى افلس معظم المصانع، وكانت هذه الناحية من اغنى سواحي مصر عما كانت تصعه وتصدره من السيج العظيم القدر والقيمة .

وباستمرار هذه السياسة المالية سبة بعد سنة أحدثت أرض مصر تتلف وتبور، لأن الزراعة لم تعد تفي بحاجات الملاحين، فترج الكثيرون عن فراهم هرباً من الجبايات الثقيلة، هذا مع عظيم نفقة الدولة على جندها الكثير، فقد اسرف الفاطميون في شراء الجنود أو اصطناعهم، وقد ذكر ناصري خسرو من اصناف هذا الجند المرتزق نحو تسعة اصناف يبلغ مجموع رجالها - حسب تقديره - ٢١٠ آلاف رجل، وهي مبالغه ولا شك، ثم يضيف «ونفقة هذا الجيش كله من مال السلطان، ولكل جندي منه مرتب شهري على قدر درجته، ولا يجبر على دفع دينار منها أحد من الرعايا أو العمال، ولكن هؤلاء يسلمون للخزانة أموال ولايتهم سنة فسنه، وتصرف أرزاق الجند من الخزانه في وقت معين، بحيث لا يرهق وال أو واحد من الرعية بمطالبة الجند»^(١).

ومعنى هذا أن الولاة والعمال كانوا يسلمون أموال نواحيهم إلى الخليفة الفاطمي في القاهرة، وهو الذي يؤدي رواتب الجنود بخلاف ما كان متبعاً في غير مصر من أن امراء الدولة وولاتها كانوا يجمعون لحسابهم أموال نواحيهم ويدفعون منها أموال فرق الجند التابعة لهم (وكلهم جند السلطان) ويرسلون إلى الخليفة أو السلطان قدراً ويحتفظون بالباقي . وكلا السياستين كانت ضارة بالناس في نهاية الأمر . . والمهم هنا أن الفاطميين كانوا يجمعون من مصر هذه الأموال الكثيرة ثم يتفقون منها على حندهم الكثير في حروبهم في بلاد الشام خاصة . ومعظم أموال الفاطميين ضاعت في حروبهم مع العباسيين والقرامطة ورؤساء نواحي الشام دون ان يصلوا إلى نتيجة تذكر، فقد كان سلطانهم على بعض

(١) ناصري خسرو، سر نامه ٩٤ - ٩٥

بواحي الشام دائئاً ضعيفاً وحتى حوب الشام وفلسطين خاصة - والمفروض أنها كانت من أملاك الفاطميين - لم يكن لهم هناك سلطان حقيقي

وكذلك كان اعناق الفاطميين على قصورهم وخدمهم وحشمهم كثيراً جداً، فقد كان أهل بيتهم - وكلهم أمراء - كثيرين، ولكل منهم قصر أو أكثر، حافلة بالخدم والحشم والجواري، وكانوا جميعاً ينفقون عن بدخ ومن غير حساب. هذا مع إهمال المرافق، فالترع والقنوات أهملت، والطرق لم يعد معنى بها أحد، فاقصرت العناية على المرافق البلدية أي التي كان يقوم بها أهل النواحي دون السلطانية، وهي الجسور والترع الكبيرة التي ثمر في عمالات كثيرة.

ونتيجة لذلك كله أن مصر الغنية افلست وانتهى رخاؤها التاريخي الذي استمر من أيام الفراعنة، وفي حكم الخليفة الفاطمي المستنصر أبي تميم معد (٤٢٧ - ٤٨٧ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤ م) نصل إلى القاع، وهو ما يسمى بالشدّة العظمى أي المجاعة الكبرى التي استمرت ثمان سنوات، وتفاصيلها معروفة شائعة، وهي تزد عادّة إلى هبوط الفيضان سبع سنوات متوالية، وهذا أمر مستبعد، ولكن الحقيقة هي أن هذا الافلاس كان نتيجة السياسة الفاطمية المالية والادارية الفاسدة، فإن عسف الناس ونهب أموالهم وسرقة الفلاحين مع إهمال المرافق، كان لا بد أن ينتهي إلى هذه النتيجة، حتى طول حكم الخليفة المستنصر لا يرجع إلى استقرار الأمور بل يرجع إلى زهد الناس في الخلافة، فالخليفة كان مطالباً بأموال كثيرة جداً، والعائد إليه قليل، حتى أصبح - الخليفة المستنصر - كالمسؤول.

وفي النهاية استعان الخليفة المستنصر بدير الدين الجمالي حاكم عكا، فاقل إلى مصر سنة ٤٦٦ هـ / ١٠٧٤ م وتولى الوزارة، وكان إدارياً حارماً عارفاً بشئون الادارة والمال فتحسنت الأحوال وتوقف التدهور، ولم يصل بدير الجمالي إلى تلك النتيجة إلا بعد أن تخلص من ناس كثيرين، وازهق أرواح

المئات من الطغمة الذين كانوا يحتكرون السلطان ويمتصون دماء الناس وثروة البلاد^(١)

وقد تحس الحال بعض الشيء، ولكن الدولة الفاطمية كان قد انتهى أمرها ودخلت في دور الزعاج الطويل والآخر، ثم آل الأمر فيها إلى العوصى الشاملة ووقوع الحروب بين الوزيرين شاور وصرعام وكلاهما من رؤساء البدو، وفي عهد الحليفة الفاطمي الرابع عشر وهو أبو محمد عبد الله العاضد (٥٥٥ - ٥٦٧ هـ / ١١٦٠ - ١١٧١ م) كان أمر نور الدين محمود الأتابك قد اشتد، ووصلت حركة النهوض والتجمع الاسلاميين إلى ذروتها بتوحيد الموصل والشام، ثم تمكن نور الدين من ضم مصر إلى جبهة الكفاح ضد الصليبيين على يد قائده أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين، وعلى يد صلاح الدين كانت نهاية الدولة الفاطمية وبداية الدولة الأيوبية.

وللمؤرخين القدامى والمحدثين آراء شتى في الدولة الفاطمية معظمها لا يقوم على تحقيق للواقع، بل يعتمد على أقوال يصعب اثبات صحتها. ولكن حقيقة الدولة الفاطمية هي التي ذكرناها، وما ظهر من رخاء في أيامها الأولى وما خلفته من مبان ومنشآت قليلة وفقيرة تؤيد ما ذكرناه، وهو أن الدولة الفاطمية في المغرب ومصر كانت تجربة سياسية غير موفقة وإن كانت طويلة المدى، ومعظم ما نسمعه خلاف ذلك يرجع إلى اهتمام الفاطميين بالوصاية لانفسهم ومذهبهم، فكان تاريخهم على جلته كالطبل؛ دوي بعيد ومحصول قليل.

ونختتم هذا الكلام بأن الدولة الفاطمية التي قامت على أساس الدعوة الاسماعيلية الواسعة تحولت في النهاية عن دولة شديدة الانحراف عن الطريق الاسلامي السوي، ولهذا فقد كان نحاحها الديني قليلاً جداً، ونتيجة لذلك

(١) اطراش ميسر، تاريخ مصر، تحقيق ابي فؤاد سيد القاهرة ١٩٨١ ص ٣٩ وما يليها.

كان نجاحها السياسي واهياً أو وهمياً، والدولة الفاطمية كانت لهذا في دورها المغربي شحاً زائلاً، وفي دورها المصري وهماً صحياً لا يقوم على حقيقة.

وإذا كانت الدول الحسنية الهاشمية التي ذكرناها دولاً عربية جديدة ما ت تكون قرشية من حيث طريقة مواجعة المشاكل بالصدق والسالة كما رأينا فإن الدولة الفاطمية بأسلوب دهرتها المعوج، وطريقة خداع دعائها للناس وجمعهم أموال الناس باسم الزكاة ثم اختفاء إمامهم في مكان لا يعلمه إلا كبير الدعاة المسمى بالوصي ثم قيام الدولة في افريقية قياماً مفتعلاً، كل هذه كانت أساليب غير عربية ولا قرشية، أما دورها في تاريخ مصر فدور سيء، وهي الدولة التي قضت على رخاء هذه البلاد، ولهذا فقد كانت الدولة الفاطمية دولة غير عربية أو قرشية في روحها وتنظيمها وأساليب حكمها وعلاقاتها بالناس، وعلى الرغم من أننا نعرف عن الدولة الفاطمية أكثر مما نعرف عن غيرها لوفرة الكتابات عنها، فإنها لا زالت إلى الآن - وبحسب معلوماتنا - من أغرب الكيانات السياسية التي قامت في عالم الاسلام وأبعدها عن روح الاسلام والعروبة وطبيعة القرشية.

دُولُ الشَّرَفَاءِ فِي مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ وَالْحِجَازِ وَمَا تَفَرَّغَ عَنْهَا :

في التنظيم الإداري للدولة العباسية لأول قيامها كان الحجاز ولاية واحدة يليها رحل واحد مركزه المدينة وتنسعه مكة، ولكن كان لكل من البلدين والى أو أمير. ولكن عندما ضعفت الدولة العباسية انقسمت ولاية الحجاز إلى امارتين: إمارة مكة، وكانت تتبعها قرى الطائف وجدة وبطن نخله وعُسْفَانَ وَمَرَّ الظُّهْرَانِ، وإمارة المدينة وكانت تتبعها قرى خيبر وفدك وينبع وناحية القُرْعِ ووادي القرى ومدين وتيها صاعداً إلى ايلة. وبصفة عامة تستطيع أن تقول إن الحجاز كان امارتين. شمالية قاعدتها المدينة وتشمل الحجاز، وجنوبية قاعدتها مكة وتشمل تهامة وتمتد حتى حدود عسير.

ولاية الحجاز كلها - نامارتيتها معاً - هي الولاية الاسلامية الوحيدة

التي حكمها - باستثناءات قليلة - قرشيون خلال صدر الاسلام، وأول وال على مكة كان عتات بن اسيد من بني امية، وكان العباسيون يولون على الحجاز رجالاً من بينهم، وانتقل مركز الولاية إلى مكة. وإلى سنة ٢٧٩ كان الحجاز تابعاً لعدد، إذ في هذه السنة فوض الخليفة المعتمد، أبو العباس أحمد بن المستنصر (رحم ٢٥٦ - رحب ٢٧٩ هـ / يوليو ٨٧٦ - سبتمبر ٨٩٢ م) أمر ولاية الحجاز إلى أحمد بن طولون والي مصر، فبدأت تظهر في التنظيم الاسلامي العام الوحدة السياسية التي عرفت بدولة مصر والشام ويدخل فيها الحجاز، واستمر ذلك حتى سنة ٣٥٨ هـ ٩٦٩م عندما انمرد بالسلطان في امارة مكة جعفر بن محمد ابن الحسين أول شرفاء مكة الذين طلبوا يتعاقبون على حكم مكة حتى سنة ١٣٤٣/١٩٢٤ عندما دخلت مكة وبقيّة الحجاز قوات الملك عبد العزيز آل سعود، وكان الحسن بن علي آخر أشراف مكة قد ولي في ٦ شوال سنة ١٣٢٦ هـ/ أكتوبر ١٩٠٨ من قبل السلطان عبد الحميد، ثم استقل وأعلن نفسه ملكاً على الحجاز وخليفة على المسلمين - كما سرى.

والحسين بن علي هو آخر خط طويل من الشرفاء الذين كانت لهم الصداوة في مكة حتى في أيام العباسيين، وهؤلاء الأشراف هم الموسويون، وهم من سلائل موسى ابن عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب. والغالب عليهم - حتى قيام الدولة الأيوبية وامتداد سلطانها على الحجاز - المذهب الزيدي، وهو أقرب المذاهب الشيعية إلى مذاهب أهل السنة.

أما امارة المدينة فكانت أقل أهمية من الناحية الادارية من امارة مكة. وأماؤها كانوا حسبيين من أحفاد الحسين بن علي بن أبي طالب، والغالب على أمرهم - من بداية العصر الفاطمي على الأقل - المذهب الاسماعيلي. ولهذا فقد كانت علاقاتهم بالفاطميين دقيقة ومعقدة أيضاً، ومعظم أمرائها من آل المهنا من أحفاد الحسين بن علي، وساءت العلاقات بينهم وبين الحاكِم بامر الله الفاطمي، مما جعل الحاكِم بامر الله الفاطمي يأمر أمير مكة الحسن بن جعفر السليماني أن

يعبر على المدينة ويضم امارتها لامارتة ففعل سنة ٣٩٠ هـ، ولكنها عادت الى آل مها بعد ذلك واستقلت عن مكة. وعندما ينتهي أمر الدولة الفاطمية وتجيء الدولة الأيوبية يصمم اليهم آل مها، فيقوم الأيوبيون بتبنيهم في الامارة، وواحد من أمرائهم وهو أبو فليته حصر مع صلاح الدين فتح اطاكية سنة ٥٨٤ هـ/ وحلفه عليها ابنه سالم، ووقعت بينه وبين قتادة أمير مكة حرب، انهزم فيها سالم ابن أبي فليته وانصر فيها سالم عند ذي الحليفة سنة ٦٠١ هـ، وقد توجه سالم هذا الى مصر سنة ٦١٠ هـ ليشكو من عدوان قتادة على بلاده، ومات في طريق عودته الى المدينة وخلفه ابنه شبيحه الذي ظل على المدينة حتى قتل سنة ٦٤٧ هـ وخلفه ابنه عيسى، ولم تدم امارته أكثر من سنتين. اذ قبض عليه أخوه جواز سنة ٦٤٩ هـ وظل جواز يحكم حتى سنة ٧٠٤ هـ. ومعظم أمراء المدينة من الأشراف من عقبه. ولم يكن لأمراء المدينة من الهبة والاستقرار ما كان لأمراء مكة، وواحد منهم وهو الحسن بن الزبير اعتدى في يوم الثلاثاء السادس من ربيع الأول سنة ٩٠١ هـ على الحرم النبوي ونهب ما في الحجر الشريفة من نفائس. وبعد ذلك بقليل سنة ٩٢٣ هـ. تدخل الحجاز تحت حكم سلاطين الدولة العثمانية فيجعلون اماراة المدينة تابعة لامارة مكة، ويشنون ولده الثاني محمد بن بركات الذي ستحدث عنه، ولم يختلف ذكر آل مها من اماراة المدينة مع ذلك، ولكن أمرهم خلل الى جانب الموسويين أصحاب مكة. وهم الذين يعنوننا في هذه الدراسة، لأن الملك يتصل في اعقابهم في المملكة الأردنية الهاشمية الى اليوم.



ونعود الآن الى مكة لتتبع خبط الموسويين فنجد أنهم يبوت متواليه فكلها ترجع الى نسب حسني واحد ولكها دول متعاقبة، وأول من يؤسس بيتاً قوياً طويل العمر مهم هو جعفر بن محمد بن الحسن الذي ينتهي سبه الى محمد بن موسى بن عبيد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب. وأحداد هذا كانوا في اليمامة وقاعدتهم كانت الحضرمة من قرى اليمامة كما جاء في معجم البلدان

لياقوت . وقد ظلوا الى أيام محمد و ابراهيم ويوسف وعبد الله أباء الأخيضر محمد .

وقد بقي فرع منهم بالبيامة وهم أولاد يوسف بن الأخيضر محمد فأما
عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وهو
أخو يوسف الذي ذكرناه، فقد هاجر بعض أولاده الى اذنه من بلاد الثغرين دار
الاسلام وبلاد الروم، الا ثلاثة من أبناء عبد الرحمن بن أبي الفاتك عبد الله بن
داود بن سليمان بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي
ابن أبي طالب، وهم نعمة وعبد الحميد وعبد الحكم (أو عبد الحكيم)، وقد
سكنوا أمج قرب مكة، ومنهم جعفر بن محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن
عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وجعفر
هذا تغلب على مكة ونولى أمرها في أيام محمد بن طفج الأخشيد والي مصر المستبد
بها، ثم ثبته فيها القائد جوهر والي المعز لدين الله الفاطمي بعد دخوله مصر
واستقراره فيها سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م .

وجعفر بن محمد بن الحسن هذا هو أول من أنشأ أسرة ثابتة في اماره مكة
من الأشراف الحسينيين، وكل بيوتهم التي ستوالى على حكم مكة - والحجاز كله
أحياناً - من عقبه .

وبيوت اشراف مكة الحسينيين كثيرة، وكذلك كانت الحروب بينهم والمحن
التي مرت عليهم سواء من خلافات بعضهم مع بعض، أو تدخل أصحاب مصر
من الفاطميين والأيوبيين والمماليك في شؤونهم، ولكن الامارة ظلت فيهم من
منتصف القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي / إلى أن استولى الملك عبد العزيز
ابن سعود على مكة وبقية الحجاز سنة ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٤ م .

وفي نفس الحركة استولى الملك عبد العزيز على عسير من الإدارة وهم
فرع من الإدارة الحسينيين الذين قامت دولتهم التي ذكرناها في المغرب الأقصى
فقد عاد رجل منهم الى الجزيرة العربية ونزل عسير وفيها أقام دولة أدرسية . وفي

امارة أبي الفتح الحسن بن عيسى بن جعفر بن محمد بن الحسن الذي تولى امر مكة سنة ٣٨٤ هـ وقع بينه وبين الفاطميين خلاف شديد، إذ ارسل اليه الخليفة الحاكم بأمر الله سحلا ليقراه في المسجد الحرام وفيه البراءة من ابن بكر وعمر وسب بعض الصحابة وبعض أزواج النبي ﷺ، فأبى من ذلك وأعلن الخروج على طاعة الفاطميين، ثم خطب بالخلافة لنفسه وتلقب بالراشد بالله، وسار الى مدينة الرملة بفلسطين، فدخل في طاعته صاحبها ثم انضم اليه حسان بن مفرج شيخ قبيلة طيء، فخافه الحاكم بأمر الله، وبعث الى عماله وانصاره في فلسطين وشمال الجزيرة يحرضهم عليه، ونخل عن أبي الفتح الكثير من انصاره، فوجد أبو الفتح أن الحكمة تقضي بأن يكتفي بامارة مكة، وظل أميراً على مكة الى سنة ٤٣٠ هـ.

وخلفه شكر بن أبي الفتح الذي تمكن من ضم المدينة الى امارته وظل يحكم الى سنة ٤٥٣ هـ، وكان شكر بن أبي الفتح هذا شاعراً وبطلاً مغامراً، وهو صاحب الجازية بطله احدى حلقات ملاحم الهلالية، والاسطورة تفص كيف عشق شكر بن أبي الفتح الجازية وهي من بني هلال وكيف احتال عليه بنو هلال ليفرقوا بينه وبين الجازية، فهام على وجهه عشقا، وحاول دخول مكة فأبى صاحبها أن يفتح له الباب، وظل يقول الأشعار في صاحبه حتى مات، والجازية ايضاً لم تسعد بحياتها بعد تفريها عن أهلها الى مصر ثم الى المغرب، فقد زوجها من رجل آخر رغماً عنها، ولم تلبث هي الأخرى أن ماتت.

والحقيقة التاريخية هي أن شكر بن أبي الفتح مات أميراً على مكة من غير عقب فتولى أمرها عبد له يسمى تاج المعالي، فتغلب عليه وانتزعها من يده رجل يسمى محمد بن أبي الفاتك، وهو من أحفاد سليمان بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

وفي سنة ٤٥٥ هـ دخل مكة علي بن محمد الصليحي وهو رأس اسرة الصليحيين من أنصار الفاطميين، ولكن بني جعفر استطاعوا العودة الى إمارة

مكة بصلح من الصليحيين في نفس السنة، وكان الذي تولاهما منهم القاسم بن محمد من أبناء جعفر بن محمد بن الحسن، وقد حكم من سنة ٤٨٧ الى سنة ٥١٨ هـ.

واسه أبو فليته بن القاسم بن محمد تمكن من اثناء بيت بني فليته، وهم أكبر بيوت أشراف مكة من أبناء جعفر بن محمد المذكور، وقد تعرضت مكة في أيام بني فليته لمحن شتى من أشدها فتنة بين عيسى بن فليته وعمه القاسم بن هاشم بن فليته، وفي ولاية عيسى بن القاسم بن فليته انقضت دولة الفاطميين في مصر وحل محلها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٧ هـ منشيء الدولة الأيوبية، وهو فاتح القدس ومعيد مذهب السنة الى مصر، ونتيجة لذلك قام الخليفة العباسي بتولية داوود بن عيسى بن فليته سنة ٥٧٠ هـ.

وتعاقب على مكة ولاية من رجال العباسيين والأيوبيين حتى تمكن أبو قتادة وهو من أبناء جعفر بن محمد بن الحسن من تولي أمر مكة سنة ٥٩٧ هـ، وبعد منازعات طويلة مع رجال الأيوبيين استقر أمر مكة في يد راجح بن قتادة سنة ٦٣٠ هـ بصلح مع علي بن رسول من أمراء أسرة بني رسول السنين في اليمن وهم حلفاء الأيوبيين واتباعهم، وقد طالبت الفتنة بين راجح بن قتادة وبني رسول من ٦٣٠ الى ٦٦٧ هـ. حتى انقضاء أيام الأيوبيين. وقد بذل غانم بن إدريس بن قتادة جهداً عظيماً في المحافظة على امارته، ولكن أمره لم يستقر لأن مجاز بن شبيحة صاحب المدينة، تقرب من سلطان مصر الملوكي فولاه مكة الى جانب المدينة وما زال أبو غنى محمد الملقب بالأول حتى استرد اماره مكة في طاعة المماليك.

وفي سنة ٧٠١ هـ. تنازل محمد أبو غنى الأول عن الامارة لابنته رُمَيْشة وحمضة. فتافسها أخواتهما عطيفة وأبو العيث ووقعت الحرب بينهما. وأيد الظاهر بيبرس عطيفة وأما العيث واعطاها حكم مكة وأخذ حمضة ورمية معه الى مصر سنة ٧٠١ هـ. عندما حج الى بيت الله. ولكن الفتنة لم تنته فعاد، رمية وحمضة الى الحجاز، وحارباً أحويهما، وانتهى الأمر بانتصار رمية بن أبي غنى محمد ٧٣٥

هـ . وخلفه اسه عجلان بن رميثة سنة ٧٤٥ هـ .

وتستمر فترة الوصى والاضطرابات والحروب الأهلية في إمارة مكة حتى حصلت الامارة سنة ٨٢٩ هـ لبركات بن الحسن بن عجلان بن رميثة فأنشأ بيت بركات .

وفي أواخر أيام قانصوه الغوري آخر سلاطين المماليك صار الامر إلى ابي محمد بن بركات الملقب بابي نعي الثاني فأقره السلطان سليم الاول العثماني بعد غزوة مصر سنة ٩٢٣ هـ ١٥١٧ م . وهنا تدخل إمارة مكة في فترة طويلة من الفلق والفوضى نتيجة للمنافسات الشديدة بين امراء الحسينيين من ناحية وسوء سياسة العثمانيين من ناحية اخرى ، ولكن الامر ظل في معظم الاحيان لبني جعفر بن محمد بن الحسن .

وتولى مكة الامير غالب بن مساعد بن سعيد بن سعد من احفاد بركات ابن الحسن بن عجلان الذي ذكرناه . وقد تولى سنة ١٢٠٢ هـ وفي أيامه ظهر أمر الحركة السلفية في نجد ، وتطلع الامام محمد بن سعود لضم الحجاز إلى إمارة نجد ، وتمكن من ذلك ، فطلبت الدولة العثمانية من محمد علي باشا وائي مصر التوجه بحملة إلى الحجاز ، لاسترداد الحرمين الشريفين من أيدي السعوديين السلفيين ، فأرسل محمد علي أولى حملاته المشهورة على الحجاز ثم توجه بنفسه سنة ١٢٢٨ هـ ، ومنها ارسل ابنه ابراهيم إلى نجد ، ومن نجد وصل المصريون إلى الاحساء والقطيف ، وتولى امر الحجاز ونجد خورشيد باشا سنة ١٨٣٠ م ، واستمر إلى سنة ١٨٤٠ م . عندما انسحبت القوات المصرية من الجزيرة العربية .

ولم تنقطع إمارة بني جعفر الحسينيين اثناء الحكم المصري ، فقد رشع محمد علي الشريف عون من احفاد الشريف غالب لامارة مكة وايدته الدولة العثمانية ثم حلّمه حفيده محمد بن عبد المعين بن عون (١٢٧٢ هـ) . وخلفه

ابنه عبد الله باشا بن محمد بن عبد المعين، وهو أول شريف من أشراف مكة، يحمل لقب الناشوية وحلفه في سنة ١٢٩٤ ابنه حسين باشا بن محمد بن عبد المعين وهو الشهير بالشهيد.

ثم تولى الإمارة عبد المطلب بن غالب سنة ١٢٩٧ هـ / ١٨٨٠ م، ولكن الأمر عاد إلى بيت الشريف عون سنة ١٢٩٩ هـ / ١٨٨٢ فتولاها عون الرفيق باشا بن محمد بن عبد المعين بن عون، وخلفه في سنة ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٥ م الشريف علي باشا بن عون الرفيق وفي سنة ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨ م خلفه ابنه الشريف حسين بن علي آخر شرفاء مكة العلويين.



ولما بذلت هذا الجهد الشاق في تتبع تاريخ هذا البيت الحسيني العلوي الهاشمي القرشي وتصاريق الزمان به، لآخرج بيضع حقائق تهمنا ونحن ندرس تاريخ قريش: الأولى هي حيوية ذلك البيت الحسيني، فقد استطاع البقاء تلك القرون الطويلة وصمد لكل ما مر به من المحن دون أن يفنى أو يتلاشى، فالتاريخ الذي أوجزت هنا حافل بالمتاعب مثقل بالمحن والدماء والموت، ولكن حيوية البيت الحسيني العلوي كانت أقوى، وكلما أهلك الدهر منهم بيتاً نشأت بيوت واتصل النسب، ولا مدخل هنا لتزييف النسب، فإن العلويين يحفظون تواريخ بعضهم البعض بغاية الحرص والدقة، هناك وفي كل قطر عربي أو إسلامي نقابة العلويين التي تحفظ شجرات الأنساب وتبعد الدخلاء. وأفراد هذه النقابات يتصل بعضها ببعض ويعرف المتخصصون فيها بالمضاهاة والمقارنات حقيقة كل نسب يُدعى. هذا إلى جانب اعتقادنا في القاعدة التي طالما ذكرناها هنا، والتي تقول إن التثبت العلمي الذي لا يداخله الشك في صحة أي سبب أمر بالغ العسر، وكما توجد دلائل كثيرة تؤكد صحة الأنساب فهناك شواهد أخرى تؤكد عدم صحتها، والاسلم هنا هو التسليم بصحة السبب المدعى إذا لم يكن هناك دليل قاطع على كذبه، وخاصة إذا أيد

صحته شيوخ نقابات العلويين أو الاشراف، إلى جانب ذلك لا بد أن نذكر أن العلويين لديهم الوسائل التي يحمون بها نسبهم من الدخلاء، فكل خطوط الانساب محفوظة متتعة، والمتخصصون يعرفون بقط الضعف كلها، كما سنرى في حالة الشرفاء السعديين الذين سيذهب منافسوهم الاشراف العلويون المناصرون لهم إلى تزييف نسبهم.

والحقيقة الثانية هي كثرة الخلافات والمنازعات بين رجال البيت الواحد، وقد رأينا أن امر أحد من الشرفاء لا يكاد يستقر في الإمارة، حتى ينجم له المنافسون والاعداء من اخوته وبني عمومته خاصة، وهذا مع قلة المكافأة في النهاية، فإننا نفهم حرص آل الهايسورج أو البوريون على الوصول إلى رئاسة البيت، لأن الرئاسة هنا تعني املاكاً وقصوراً وأموالاً وعروشاً كبيرة ذات جاه وسلطان، ولا يقارن بشيء من هذا كله ما يحصل عليه صاحب الإمارة في مكة، ففي تلك العصور لم تكن هناك أموال كثيرة ولا ثروات طائلة، ولا قصور ولا عروش ذات سلطان واسع وأراض عظيمة، والمنافسون على العروش هناك يتنافسون حول مغنم تستحق العناء. أما في الحجاز فلا أراض ولا خيرات ولا مغنم، إنما هو شرف ولاية الحجاز والاضطلاع بمسئولية امان الحرم والحجاج، وحتى هذا كان المتنافسون جميعاً أضعف من أن يقوموا به، ولم يكن الحرمان أشد تعرضاً للاذى مما كانا عليه في تلك العصور، خاصة وأن مكة كان لها أمير والمدينة لها أمير، والحاج الذي كان يريد أن يزور الحرم النبوي بعد الحج كان لا بد له من مغامرة، لأنه يتقل من ولاية أمير إلى ولاية أمير هو عدو له، وقبائل الاعراب الجائعة تحوم حول الحرميين وبينها باحثة عن فرص للطعام والمال، لأنها في تلك العصور كانت في حالة جوع دائم. هذا كله إلى جانب تدخلات المصريين من ايويين ومماليك ثم الاتراك، وكل ذلك كان يجعل الإمارة بلاء على صاحبها وعذاباً، فما الذي جعل أولئك الناس يستهلكون في سبيل الإمارة مع تراكم الأخطار وترادفها مع قلة الجدوى في النهاية؟ والجواب

على هذا السؤال عام، ولا يمكن إلا أن يكون عاماً، لأنه يتلخص في محمى
الرياسة التي استولت على العرب جميعاً بعد الإسلام وظهور الخلافة والإمامة
وهما ملك في النهاية. فقد كانت الرياسة عند العرب الجاهليين شرفاً وسؤداً
وحكماً قليلاً جماعياً مع تحمل تكاليف الشرف والرياسة وكلها نفقات مالية أو عينية
باهظة، من طعام وماء وعطاء وتحمل ديوات وما الى ذلك، وقد رأينا بعض رؤساء
قريش منهم المطلب بن هاشم، ينزل عن الرياسة لابن أخيه عبد المطلب دون
تردد، وأبو طالب في رياسته كان أشبه بكبير المشيخة ولا سلطة في يديه ولا حل
ولا عقد، لأن القبيلة كانت تعتمد في قوتها العسكرية على أفرادها وهم أبناء
أعمام، ولا يمكن فهرهم على التقاتل في سبيل هذا الشيخ أو ذاك. أما بعد
الإسلام فقد دخلنا في طور الدول والأموال الكثيرة والعسكر المأجور، وفي صراع
الخلافة والامارة تقطعت الأرحام وضعف العصب، وبريق السلطان والغنيمة،
وهو بريق كاذب في معظم الأحيان - أحشى العيون وأمات القلوب، فاندفع
الطامعون في الرياسة في هذا السباق المحموم نحو الموت. وقرون باسرها ضاعت
في هذا التسابق الأعمى نحو الهلاك والجري وراء سراب القوة والسلطان. وفي
كل هذه القصة الطويلة الحزينة لم يبق حياً في أجسام المتفائلين إلا عصب
الهاشمية، وما عدا ذلك فقد عصفت به رياح المطامع، والحجاز لم يعرف الهدوء
والاستقرار الا بعد أن دخل الدولة السعودية الجامعة للشمل الضامنة للأمن
والأمان والحماية للحرمين.

ونتابع قصة هواشم مكة الى نهايتها. وستحدث هنا بتفصيل، لأد
التفاصيل بهذا الخصوص موجودة، وهي مليئة بالعبر والدروس.

قلنا إن الشريف حسين بن علي آخر من تولى إمارة الحجاز من أسرة عون
وهي آخر أمرشرفاء مكة الحسينيين وكانت ولايته سنة ١٣٢٦ هـ/ ١٩٠٨ م في
ظروف عسيرة كانت تتطلب من المعرفة بأحوال السياسة العالمية أكثر مما كان هو
وأفراد بيته يملكون، ففي تلك السنة كانت ثورة رجال الاتحاد والترقي على

السلطان عبد الحميد وارعاهم إياه على اعلان الدستور، وكان علي باشا والد الشريف من رجال السلطان عبد الحميد والعاملين معه فيها كان يدعو الى عمله من العودة بالدولة العثمانية الى نصابها الاول: دولة اسلامية عامة معاهدة كما كانت قل أن يستولي السلطان سليم على مصر والشام والعراق وانتزاعه الخلافة الاسلامية لبيته ونقلها الى استانبول وجعلها خلافة عثمانية، كان الأتراك العثمانيون أنفسهم يفكرون في اتجاه آخر هو اتجاه عصرية تركية طورانية تسحر كل شعوب الاسلام لخدمة الشعب التركي الطوراني وكان الشريف علي قد حصل على الباشوية ورتبة الوزارة ودخل في صراع السياسة العثمانية الذي أدى الى قيام رجال جمعية الاتحاد والترقي بخلع السلطان عبد الحميد، وتولية عبد المجيد مكانه. واذا كان الشريف علي قد فهم دهايز السياسة العثمانية، فانه قطعاً لم تكن لديه فكرة عن تيه السياسة العالمية الذي كان اذ ذلك يمر بأكثر الحلقات تعقيداً في تاريخه. فقد كان ضعف الدولة العثمانية قد وصل الى آخر دركاته، وبدا بوضوح أن تفكك الدولة العثمانية على وشك الوقوع. وكانت أوروبا كلها تنتظر وقوع ذلك من أمد طويل، وكانت روسيا تحفز للانقضاض على الأستانة وما بقي للدولة العثمانية من أراض لاfrasها والقضاء عليها قضاء نهائياً. ولم يكن يحول بين روسيا وذلك إلا انجلترا وفرنسا اللتان وقفنا لها بالمرصاد. وكانت فرنسا قد اقتطعت من بلاد الدولة العثمانية ايالة الجزائر منذ ١٨٣٠ م ثم تونس سنة ١٨٨١ م، وفي نفس الوقت كانت بريطانيا قد استولت على مصر في سبتمبر ١٨٨٢، وبعد ذلك بسنوات نزلت قوات ايطاليا أراضي ايالة طرابلس الغرب، وهي ما يعرف الآن بليليا (عدا فزان) وبدأت تتوغل فيها رغم مقاومة سنوسية تركية شارك فيها بعض العرب والمصريين

ولم يبق للدولة العثمانية في الحقيقة إلا الأستانة والأناضول وبلاد الشام والعراق.

وكان واضحاً أن أوروبا مقيمة على حرب كبرى، لأن اتجاه ألمانيا

القيصرية كان يخيف إنجلترا وفرنسا، ولعب ادوارد السابع ملك بريطانيا دوراً سبباً في توجيه بلاده، نحو حلف فرنسا ومعاداة ألمانيا مدفوعاً في ذلك بعوامل الحقد على ابن عمته القيصر ولهم قصر ألمانيا وبروسيا، وكانت السياسة البريطانية تحسب تحسباً خطراً لأن إنجلترا كانت تحمل على كاهلها عبء امبراطورية واسعة وتستغل بلاد هذه الامبراطورية أسوأ استغلال، وشعور العداء نحو الانجليز كان عاماً في الدنيا كلها بما في ذلك الولايات المتحدة. ولا شك أن الاتفاق الودي الذي عقد بين إنجلترا وفرنسا سنة ١٩٠٤، وبمقتضاه اطلقت يد إنجلترا في مصر، وفرنسا في المغرب الأقصى، كان اتفاقاً خبيثاً غير اخلاقي، فقد كان في الحقيقة اتفاقاً بين لصين كبيرين هما فرنسا وبريطانيا اللتان كانتا تتحدثان - كلاماً - عن الحرية والعدالة، وهذا الاتفاق بالذات كان من أكبر أسباب الحرب العالمية الأولى، لأن ألمانيا التي كانت تطمح في أن يكون لها نصيب من المغرب الأقصى تأكدت الآن أن فرنسا وإنجلترا لن تسمحا لها قط بأن يكون لها أي نصيب في البحر المتوسط. وهذا بدوره دفع ألمانيا إلى التقرب من تركيا، ونتيجة ذلك انتعشت مشروعات سكة حديد الحجاز والاهتمام بالطرق والتفكير في مد خط بغداد والبصرة، وقد ظهرت هذه النزعة بصورة خاصة في أيام السلطان عبد الحميد الذي كان يميل بعواطفه نحو ألمانيا ويشك الشك كله في إنجلترا وفرنسا.

وقد أعلن السلطان عبد الحميد الدستور العثماني سنة ١٨٧٦، وهذا الدستور يجعل الدولة العثمانية دولة اتحادية بين الاجناس التي تتألف منها، واعترف الدستور بحقوق هذه الاجناس وأكبرها وأهمها بالنسبة لعبد الحميد كانوا العرب.

من هنا جاء اهتمام الدولة العثمانية بالحجاز والعراق وبلاد الشام، وأهم ناحية من بلاد العرب أهمية للدولة العثمانية كان الحجاز بسبب وجود الحرمين الشريفين فيه. لهذا اهتمت الدولة بأمير الحجاز الشريف علي بن عون بن

محمد بن عبد المعين فمحتة لقب الوزارة والباشوية .

وعندما خلف الحسين بن علي والده سنة ١٣٢٦/١٩٠٨ م كان يقارب الستين، وكان له اربعة اولاد: علي وعبدالله وفيصل وزيد، وعلي كان مريضاً بالسل فلم يكن له دخل بشئون الإمارة فأصبحت ولاية العهد لعبد الله الذي تعلم في الاستانة ونشأ في ظروف جديدة سادت الدولة العثمانية في أيام السلطان عبد الحميد، إذ أصبح للعرب مكانة ممتازة في الدولة العثمانية ولم يكن ذلك صادراً عن تقدير حقيقي من السلطان عبد الحميد للعرب، فقد كان عبد الحميد رجلاً جامد العواطف مهتماً في المكان الاول بشئون عرشه المزعزع ودولته المتهاوية، وكان رجال الاتحاد والترقي على شاكلته في ذلك. وعبد الله كان دائماً القوة الحقيقية التي وجهت شئون إمارة مكة، لأن الحسين والده كان رجلاً مسناً واسع الطامح، ولكن لم تكن لديه الجرأة على عمل شيء كبير. أما ابنه عبدالله فقد ولد مغامراً، وتعلم الكثير من اتصاله بالبلاط العثماني مثله في ذلك مثل صنوه نوري السعيد. ورجال السلطان رشعوا عبدالله لعضوية برلمان الدولة العثمانية الجديد وهو مجلس المبعوثان، وهذا فتح لعبد الله آفاقاً واسعة، فقد كان شديد المكر وكان لا يشك في أن الدولة العثمانية تقترب من نهايتها، فرشح والده فيها بينه وبين نفسه ليكون خليفة المسلمين الجديد عندما تسنح الظروف. وكان أبوه يسايره في مطامعه بحذر، ولهذا فقد اكتفى بإعلان نفسه ملكاً، وتصور فعلاً أنه ملك له مكانة في العالم الاسلامي، ولكنه كما قلنا كان حذراً، فلم يقطع صلاته بالدولة العثمانية. وقد ظهر فيها بعد أنه كان يتلقى إعانات مالية من أربع جهات أوربية في نفس الوقت: ألمانيا وبريطانيا وحكومة الهد وتركيا (وظل يتقاضى إعانة مالية من ألمانيا حتى منتصف ١٩١٥ م)

وفي فبراير ١٩١٤ وقيل قيام الحرب العالمية الاولى زار الامبر عبد الله القاهرة وهو في طريقه إلى الاستانة لحضور مجلس المبعوثان، ونزل صيماً على الخديوي عباس حلمي وكان مثله ثعلباً ماكراً وزاره الفيلد مارشال كتشنر في

قصر الضيافة، وفي اليوم التالي ذهب عبد الله لرد الزيارة. وكان يعرف خطورة ما هو مقدم عليه، فقد قال هو فيها بعد إنه تعتمد أن يرد الزيارة في الثالثة من بعد ظهر اليوم التالي، لأن القاهرة كانت حافلة بجواسيس الأتراك، ولكن هؤلاء الجواسيس كانوا شديدي الحرص على نوم القيلولة، فلا يستيقظون ويواصلون أعمالهم إلا مع المغرب. قال وزموند ستيوارت في كتاب: تاريخ الشرق الأوسط الحديث: (١).

«جلس كتشنر مع ضيفه يتناولان الشاي على انفراد، وفي أثناء ذلك أثار بأدب قضية الحجاز، فقد كان المعروف أن حال الحجاز مضطرب لأن رجال تركيا الفتاة الذين كانت يخطتهم تمجيداً للأمبراطورية، قرروا توسيع سكة حديد الحجاز بمدها من المدينة إلى مكة، ومد فرعين لها من المدينة إلى ينبع ومن مكة إلى جدة وعينوا حاكماً جديداً على الحجاز ليتعاون مع الأمير حسين. بيد أن الأمير حسين كان يكره هذا الحاكم، ويعارض توسيع السكة الحديد لأنها تقوي سيطرة الأتراك على مكة، وقد أيدته سكان الحجاز في ذلك لأن السكة الحديدية تجعل الحج أسهل وأقل كلفة وهم يريدون الاستفادة من بقائه صعباً وباهظ التكاليف».

انتهز عبد الله فرصة إثارة قضية الحجاز فوجه إلى كتشنر السؤال الصريح التالي: «ما هو موقف بريطانية من ثورة عربية؟»

كان عبد الله يرتدي ثياب الأمير الآن الثاني لرئيس ديني ادعاءاته أكثر من قوته. أما كتشنر، الأميرال والفيلد مارشال، فقد كان أهم حاكم في الشرق الأوسط، ولا يستطيع أن يجيب عن سؤال صريح بصراحة، ولذلك اكتفى بقوله «إن الصداقة التقليدية بين تركيا وبريطانيا تجعل من المستحيل على البريطانيين أن يتدخلوا في شئونها الداخلية والاضطراب في الحجاز شأن داخلي».

(١) الترجمة العربية بفهم رهندي حاد الله من ١٩٤

«بيد أن عباده في رده على هذا الجواب الرسمي ذكر كثر عما قامت به حكومة الهند البريطانية من بسط حمايتها على الكويت وقال الم يكن ذلك تدخلاً في الشؤون العثمانية؟ اتسم الرجل الانجليزي ابتسامة حذرة، انتهت بها المقابلة دون أن يعد شيء».

«على أن كثر كان يعرف العالم الاسلامي . بدأ كضابط صغير بالقاء نظرة إلى فلسطين، وقاد الجيش المصري بلقب سرداد فاحتل السودان، وعمل في الهند حيث كان عدد من خير الفرق العسكرية مؤلفاً من المسلمين، فرأى أن الانشقاق العربي قد يكون مفيداً لبريطانيا في ظروف خاصة . لذلك أمر السكرتير الشرقي ، رونالد ستورس ، بتقديم بحث بريطاني لنقل عبد الله إلى تركيا، وأن تستمر الاتصالات غير الرسمية بهذا المبعوث الصريح من مكة».

«لم تكن مكة أبداً مركزاً للخلافة، ولكنها احتفظت بمقام فريد بين المدن الاسلامية لأنها المكان الذي ولد فيه النبي، وفيها الكعبة حجج المسلمين وقبلتهم في صلاتهم، أي إن مقامها ديني، لا سياسي ولا ثقافي . أما عائلاتها المتزعة التي تدعي التحدر من نسل الحسن بن الحسن بن علي، ويعرف افرادها بالهاشميين، فقد اصبح بعض رجالها زعماء اقطاعيين يزداد نفوذهم كلما ضعفت السلطة الخارجية وبالعكس».

«حاول السلطان عبد الحميد أن يخفف من أهمية الهاشميين لا أن يتملقهم . ولكن الخمس عشرة سنة التي قضاها الامبراطور حسين في القسطنطينية جعلت منه رئيس اقليم كبير المقام . كان العقل الذي وراء لسانه الطلق حاداً . قدّر ذلك العقل ضعف الامبراطورية العثمانية إذ انفصلت عنها الشعوب اللقائية واحداً بعد الآخر، وقدر قوة بريطانية التي احذت مصر، وازدهار الحديوي الذي يحميه البريطانيون، ودرس العالم الذي يحكم من ساحة البرلمان . وبعد أن قدر ودرس سأل نفسه سؤاليين . كيف يمكن أن يحافظ على وضعه وكيف يمكن أن يُحسّنه؟ لم يعامله عبد الحميد بحشوة، بل إن هذا

السجان أظهر له الاحترام وحمله مستشاراً له . ولكن عبد الحميد الذي كان يود العرب قد انتهى وأظهر رجال تركيا الفتاة شيئاً قريباً من العنصرية التركية حتى قبل أن يتسلموا الحكم ، فعاملهم العرب بالمثل .

وها تناقض آخر . كما أن دعاة القومية التركية كانوا من اطراف الأمبراطورية ، كذلك أصبحت القومية العربية - غير المعروفة في صحراء العرب - عقيدة رجال من لبنان وسوريا . فقد أنشأ اللبنانيون الصحف ودور النشر الكبيرة في مصر ، ومنهم من ألف المعاجم والموسوعات باللغة العربية ، وأعجب كثيرون منهم بما فعله لورد كرومر في مصر فأرادوا توسيع الاستقلال الذي حصلوا عليه سنة ١٨٦٠ ولو عني ذلك تحالفاً مع دولة ضريبة ضد الأتراك ، وكان تأكيدهم أنهم عرب لا عثمانيون قد سهل عليهم الانفصال عن إمبراطورية لها ارتباط وثيق بالاسلام .

«أمل الأمير حسين الطامع أن يستعمل الانشقاق والكبرياء العربيين في تحقيق احلامه ، وقد كانت مرنة تمتد من مشروع معتدل لمملكة مستقلة في الحجاز إلى تصورات خيالية ، هي فرض ضريبة على كل المسلمين في العالم بصفته خليفة عربياً» .

وإذا كان العنصر الأساسي في السياسة هو حسن التقدير ، تقدير مركزك وقواك ومراكز الآخرين وقواهم وتقدير الظروف العامة التي تحيط بك واحتمالات النجاح أو الفشل في كل خطوة تخطوها ، فإن الحسين بن علي لم يحسن تقدير أي شيء ، فقد تصور نفسه في وضع أكبر بكثير من حقيقتها ، فما كان في الحقيقة إلا والياً صغيراً من الولاة الخاضعين للدولة العثمانية ، وإذا كان هو والي الحجاز ، فإنه لم يكن بحال راعي الحرمين ، لأن راعيها كان خليفة آل عثمان ، وهو مثله محسوب ثم أن أمور الحرمين كانت مضطربة جداً أثناء ولايته ، والعدوان على الحجاج كان مستمراً حتى قل عدد الحجاج إلى درجة استوقفت الأنظار ، وكان الأعراب في الحجاز في حالة من الضك والعوز جعلتهم يعتدون

مرة بعد أخرى على الحجاج دون أن يستطيع الحسين بن علي حياهم شيئاً، بل إن تفكيره لم يزد على تفكيرهم كثيراً، وعندما أدخل العمال الأتراك خط سكة الحديد من القدس إلى مكة فالمدينة، كان الحسين بن علي يحرص الأعراب على تدمير القضبان والمحطات، وقد رحبوا بذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن سكة الحديد ستسهل الحج على الحجاج وتوصلهم إلى مكة والمدينة آمين، فلا يستطيعون ابتزازهم وفرض الاتاوات عليهم ونهبهم، ولم يكن تفكير الحسين بن علي بأعلى من ذلك فقد كان يخشى أن سكة الحديد تسهل على الأتراك الوصول إلى الحجاز ومكة والمدينة. وأنه لما يدعو إلى التعجب ويشير إلى أن سكة حديد الحجاز التي أنشأها الأتراك قام بتدميرها الأعراب ومن ورائهم الشريف حسين.

وهذه أيضاً صورة من صور سوء التقدير، فإن الحسين بن علي كان في حيرة دائمة من أمره لا يدري إلى أي ناحية يميل، مع أنه رسمياً موظف عثماني صدر بتعيينه فرمان عثماني بتاريخ أول نوفمبر ١٩٠٨. وهو يمتنى أن يعلن استقلاله عن الدولة العثمانية، ولكنه في نفس الوقت يقود حملة على الإديسيين أصحاب عسير، ويخطب في أب مذكراً الناس بأفضال العثمانيين عليهم. وهنا نجد أن ابن سعود كان أوضح وأسلم نظراً من الشريف حسين، فقد أدرك بذلك أنه إن الأتراك لن يستطيعوا السيطرة على نجد أو مساعدة أهلها، وإن الإنجليز لن يجرؤوا على دخول الجزيرة، ولكنهم أقرباء وعندهم أموال وأسلحة، فوقف على الحياد بين الأتراك والإنجليز طول الحرب، بل إن الإديسيي صاحب عسير كان أسلم موقفاً من الشريف حسين، فقد وقف على الحياد أيضاً ولكن في المعسكر العثماني. أما مبارك الكبير أمير الكويت فقد دفعه الخوف من العثمانيين من ناحية ومن ابن سعود من ناحية أخرى إلى طلب وضع بلاده تحت الحماية البريطانية ليضمن سلامة بلاده. وقد رحبت بريطانيا بهذا الطلب وأدخلت الكويت تحت حمايتها لتستطيع مواجعة أي خطر الماني أو عثماني على رأس الخليج.

وفي مثل تلك الحالة التي كان فيها الشرق الأوسط أثناء الحرب العالمية، فإن أحسن ما كانت الوحدات السياسية الصغرى تستطيع عمله، هو السكون والحد والاحتياط في النحاة من الصواري المتقاتلة، فقد كان الصراع معللاً صراع ضوار، وانجلترا وفرنسا كانتا تواقبتين إلى سحق ألمانيا والانقراض على تركيا وتمزيقها وروسيا كانت في حالة سيئة جداً، وكل شيء كان يدل على أن ساعة القيصرية قد دنت، وذلك لم يمنعها من التوغل في بلاد ما وراء النهر والوصول إلى نهر جيحون. وفي مثل هذه المعمة ما عسى أن يستطيع الحسين ابن علي وأولاده؟ ومع ذلك فقد ألقى الرجل وأولاده أنفسهم في الميدان. وكان يدير المعركة ضد تركيا في الشرق الأوسط السير هنري مكماهون الذي أصبح مندوباً سامياً لبريطانيا في مصر مكان كتشنر الذي عين قائداً عاماً للقوات البريطانية، وانتدسوه في مهمة للذهاب إلى روسيا التي انضمت إلى الحلفاء. وكان طريق بحر إيجه والمضائق التركية قد أقفل، فذهب في بارجة عن طريق بحر الشمال وهناك غرقت به البارجة في نفس اليوم الذي أعلن فيه الحسين بن علي الثورة على الأتراك.

وكانت إنجلترا وفرنسا في حالة سيئة جداً في أوائل ١٩١٤ فإن الألمان على الجبهة الغربية كانوا في عنفوان قوتهم، أما على الجبهة الشرقية فكانت روسيا تتلقى هزيمة بعد هزيمة، ولهذا فإن الشريف حسين بن علي وابنه عبد الله لم يعرفا مقدار الفرصة التي أتاحها لبريطانيا، عندما عرضا فكرة ثورة عربية تكسر ظهر القوة التركية في الشرق الأوسط وتوقف خطر زحف الأتراك على مصر، وكانت بريطانيا إلى جانب ذلك في حاجة إلى أي نصر يرفع معنوياتها ومعنويات حلفائها. واللورد اسكويث رئيس الوزراء استقال ليحل محله جورج لويد السياسي الماكر، وأخذ معه رجلاً ذا ميول يهودية هو آرثر جيمس بلفور وزيراً للخارجية. وهنا كانت فداحة الخطأ الذي وقع فيه الشريف حسين وابنه عندما وافقا على إعلان الثورة على الأتراك. وكانت في الحقيقة ثورة هزيلة جداً لم يشترك

فيها الا أقل من ألفي جندي مسلحين بأسلحة بالية، ومعظم هؤلاء كانوا سوريين وفلسطينيين ممن استهوتهم فكرة إقامة دولة عربية تشمل جزيرة العرب وبلاد الشام وربما العراق. وكان حال باشا حاكم ولاية الشام، ومن أكر رجال حركة الاتحاد والترقي قد أحس خلال ١٩١٥ أن عرب الشام متمردون على العثمانيين، فقبض على زعماء المتذمرين وشقهم علناً في دمشق فأثار ذلك نائرة بقية أهل الشام، وتشجع الملك حسين وابنه عندما تقاطر على مكة هؤلاء الغاصبيون ومعظمهم كانوا فلسطينيين، وهذا ما أثار غضب الأتراك، لأن الدولة العثمانية لم تسيء قط الى عرب فلسطين إلا بالقدر الذي كانت تسيء به إلى كل رعاياهم ومنهم الأتراك.

وهؤلاء الشوام - ومعظمهم فلسطينيون - هم الذين تحمسوا للثورة، وأرسل الملك حسين ابنه فيصل ليكون مع أولئك الثوريين وهناك كون لنفسه الحاشية التي ستقف الى جانبه في دمشق أولاً ثم في بغداد.

وفي أثناء ذلك أدرك الجنرال هنري مكماهون المفزى الذي يكمن وراء الثورة العربية على الأتراك، ومنذ البداية وافق على مطالب القوميين العرب مودة شكية، فلم يكن في الحقيقة إلا استعمارياً بريطانياً، وجد امامه جماعة من المتحمسين والخياليين تملأ رؤوسهم - في رأيه - بخيالات وأوهام، فوافقهم عليها حتى يدخلهم الشرك، وافق على تأييد قيام دولة عربية دون أن يلتزم بحدود، بينما كان القوميون العرب يتمسكون بحدود واضحة لدولتهم: من أطنة ومرسين إلى جزيرة العرب ومن شرقي إيران الى خط عمدة من رفح إلى العقبة. وقد أدرك العرب ما وراء تشجيع السير هنري مكماهون لهم من خداع. وهنا تعود الى دزموند ستيوارت فنحده يقول - مصوراً الوضع في الجانب العربي بالنسبة الى فيصل بن الحسين والمتردد على عليه: (ومن ضمنهم كثيرون من الضباط العرب في الجيش العثماني) ومن هنا جاء التحول الى الثورة في سنة ١٩١٥. ذلك بأن جمال باشا، حاكم الشام العثماني، اكتشف خلايا انفصالية في سوريا ولبنان، فحاكم

أعضاءها محاكمة سريعة وشفهم فوراً وعلناً وأثارت حشث العرب المتدلية من المشائق، العرب المترددین وحعلتهم يكفون عن اعتبار الأتراك احوائهم في الدين، وما كان فكرة أصح قصة تستحق أن يقاتلوا في سيلها ويموتوا

ولكن حتى حين ثارت العواطف من جهة، وألحت الحاجة من جهة أخرى، اشتدت المساومة بين العرب الذين وصفهم سترابو قبل ألفي سنة بأنهم تجار، وبين البريطانيين الذين وصفوا مؤخرأ بأنهم أصحاب متاجر، وكانت المساومة تتعلق بالمنطقة التي على البريطانيين أن يعتبروها بعد الحرب دولة عربية مستقلة، ويعترفوا بحدود هذه الدولة.

قرر الشريف حسين أن يستثير العرب في الشمال، واتصل بأعضاء جمعيتين سريتين إحداهما مدنية والأخرى عسكرية، تسعى كلتاهما للانفصال عن الأتراك. كان مبعوثه الى دمشق ولده الثالث فيصل. أصر الشوام - والكلمة تشمل جميع أولئك الذين يعيشون فيها دعي فيها بعد سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن - وهذا الخطاب من رجل، المفروض أنه محترم مثل الجنرال هنري مكماهون يعطينا فكرة عن المستوى الأخلاقي الذي كان رجال الاستعمار مستعدين للهبوط اليه. فهذا كلام أفاق كذاب غشاش لا جنرال في جيش وممثل دولة عظمى، كتبه وهو يعرف أنه كذب خالص ليخدع به شيخاً جاهلاً بشؤون الدنيا ليخدعه ويسخره لغاية حقيرة، وهي خيانة أهل دينه وطعنهم في الظاهر أملاً في سراب خادع. ونعود الى دزموند ستيوارت فنقرأ كيف كان مكماهون يتصرف، فقد قرر ارسال خطاب اليهم يشجعهم ويعدهم بإنشاء الدولة العربية التي كانوا يحلمون بها عن نية سيئة وخداع، قال دزموند ستيوارت بهذا الخصوص:

«وافق القوميون العرب على قيدين لاستقلالهم: معاهدة دفاعية تربط الدولة العربية المقبلة ببريطانيا، ومنح بريطانيا أفضلية في هذه الدولة».

«لم يكن ممثل بريطانيا في القاهرة رجلاً قوياً متخفياً وراء «القصل العام»

الضعيف، بل كان سير هنري مكماهون المدوب السامي، المسؤول عن محمية مصر الذي يمثل جيلاً يرى أن قيام الشعوب الملونة بحكم نفسها أمر لا يزال مستحيلاً، ولذلك تردد مكماهون في الموافقة على الأهداف الثورية البعيدة للقوميين العرب، ولكن المآزق الحرج الذي كانت فيه بريطانيا، جعل ما عرف «برسائل مكماهون» بين مكة والقاهرة شيئاً ممكناً، تلك الرسائل التي منعت بريطانيا نشرها عشرات السنين. في ذلك الوضع الحرج لحق مكماهون في مخاطبة الحسين إلى عبارات التبجيل كما يتضح من مقدمة أول رسالة بعث بها إليه :

«إلى السيد الحبيب النسيب سلالة الأشراف وتاج الفخار وفرع الشجرة المحمدية والدوحة القرشية الأحمدية، صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية السيد ابن السيد والشريف ابن الشريف، السيد الجليل المبجل دولتو الشريف حسين سيد الجميع أمير مكة المكرمة قبلة العالمين ومحط رجال المؤمنين الطائعين عمت بركته الناس أجمعين».

«بيد أن الحسين الذي كان بائع سجاد بارعاً، لم يفته إدراك المراوغة وراء هذا الخشوع من الكلام. ذلك أن مكماهون ركز على حلم الحسين بالخلافة كي يتفادى مسألة الحدود. وقد عاتبه بقوله: «إن هدفنا، أيها الوزير المحترم، التأكد من أن الأحوال الضرورية لمستقبلنا يمكن ضمانها على أساس من الحقيقة لا العبارات والألقاب المنمقة».

وفي ٢٤ أكتوبر ١٩١٥ أرسل مكماهون المذكرة التي حددت الشروط التي سيبدأ العرب بموجبها ثورتهم في اللحظة الملائمة. أوضح المندوب السامي أولاً أن تردده الظاهر في بحث مسألة الحدود (أشار إليها في رسالة سابقة) «بالتفاصيل» إنما سببه شعوره بأن ذلك البحث لم يحين وقته، لكن بما أن الحسين يعده أمراً جوهرياً، فإنه معوض من قبل حكومته البريطانية بإعطاء العرب بعض الضمانات

« تقول المذكرة إن بريطانيا تتعهد بالإعتراف باستقلال العرب والدفاع عنه، ضمن المنطقة التي حددها الشريف حسين مع بعض التحفظات التي تتعلق أهمها بالأراضي في آسيا الصغرى وسوريا والكويت، الذي ترسله بريطانيا معاهدة، وحماية الأماكن المقدسة والإستعانة بالمستشارين البريطانيين، ويوع حاص من الإدارة لمقاطعتي بغداد والبصرة ».

« حددت التحفظات الخاصة بآسيا الصغرى وسوريا في الجملة المهمة التالية: «إن مقاطعتي مرسين واسكندرونة، وأقساماً من سوريا واقعة إلى الغرب من مقاطعات دمشق وحمص وحماه وحلب، لا يمكن أن يقال إنها عربية صرفة، ولذلك يجب أن تستثنى من التخطيط المقترح ».

« كان سير مكماهون في استثنائه مرسين واسكندرونة لا يفكر في تركيا التي انتهت إليها هاتان المقاطعتان فيها بعد، بل في فرنسا حليفة بريطانيا، التي كانت لديها خطط لها. ثم إنه بتحديثه الغامض لأقسام من سوريا غربي مقاطعات دمشق وحمص وحماه وحلب، إنما كان يشير إلى المنطقة التي ليست لدى فرنسا خطط لها فحسب، بل لها أيضاً ارتباطات قديمة بها منذ أيام لويس الرابع عشر، وهو جبل لبنان الذي أكثرية سكانه من الموارنة المسيحيين الذين وإن كانوا يتكلمون العربية ليسوا من أصل عربي، الذين وإن كان الدين يربطهم بروما والتاريخ بفرنسا، تمتع الموارنة في متصرفيتهم، بسبب تدخل الأمبراطور نابليون الثالث باستقلال ذاتي ستين عاماً (قضى على هذا الاستقلال حين نشبت الحرب العالمية الأولى). لم يذكر المندوب السامي فلسطين التي كان العرب تسعة أعشار سكانها، ولو أنه أراد استثناءها من المنطقة العربية التي ستصبح مستقلة، لأشار إليها باسمها التقليدي أو بوضعها العثماني: الصف الشمالي جزء من ولاية بيروت، والصف الحوي متصرفية القدس ».

« تم التوصل إلى اتفاق حول هذه المخطوط في أوائل ١٩١٦ وبدأت الثورة في يونيو. جاءت الثورة متأخرة. لو أن الانفصال العربي لقي تشجيعاً مكرراً،

وفي مناطق أكثر حساسية من الحجاز، في سوريا مثلاً الواقعة على حدود الأناضول الحويية، لربما ألحق بالأتراك ضرراً أكبر. ذلك بأن معظم الجيش العثماني الرابع في دمشق كان من العرب، وكان كثيرون من صباطه في الجمعية العسكرية السرية التي كانت تعمل للانفصال عن تركيا ولكن حال باشا اكتشف في سنة ١٩١٥ إلى أي حد كان الثوريون العرب يصعبون معويات رجاله، فنقل الجيود العرب فوراً إلى غاليبولي حيث أحسنوا القتال، وأحضر إلى سوريا مكانهم جنوداً يتكلمون اللغة التركية.

وأما المنطقة الثانية فهي العراق - الذي كان مكتب القاهرة مهتماً به - وهو ولاية عثمانية أخرى أهم للأتراك من الحجاز. هنا ضُيِّعت الفرصة أيضاً. غزا العراق جيش من الهند البريطانية، وكان يظن أن هذا الوادي الخاوي صالح للفائض من سكان الهند، ولذلك كان قواد الجيش الغازي غير مضطرين إلى التسرع في عرض الاستقلال على العراقيين، كما كانوا ينتظرون أن يكون غزو العراق عن طريق البصرة نزهة، أما الواقع فكان نشوب حرب طويلة ضارية وقف فيها العراقيون يراقبون.

«كان ثمن الثورة بالنسبة إلى العرب غالباً في المدى الطويل والقصير، دفعوا جميعاً هذا الثمن مع أن أقل من عشرة بالمائة منهم اشتركوا في الثورة. حتى في الحجاز لم يكن الرأي العام وراء الحسين، ولكن خروجه على الأتراك وما تبعه من فرار الضباط العرب وبعض الضباط الأكراد من الجيش العثماني حطم ما تبقى من الفكرة العثمانية وفتح الطريق في المدى البعيد إلى تركيا التركية. أما في المدى القصير فإن جمال باشا قضى بقسوة على الذين شعر نحوهم بالإزدراء الذي شعر به البريطانيون نحو الإيرلنديين الكاثوليك، فعذب في فلسطين العرب الذين افترض أنهم موالون لقضية الخلفاء وشتقهم، وعرض لبنان الذي لا شك في تعاطفه مع الغرب لمجاعة أودت (بناء على إحصاء قام به المبشرون الأميركيون) بنحو ربع سكانه أو ثلثهم».

«كانت الثورة العربية ذات قيمة كبيرة للحلفاء . ذلك بأن رفض أمير أقدس مدينة إسلامية للمهاد، ساعد على مع حركة تمرد في الجيش الهندي . ثم إن احتلال مكة وحدة اضطّر الأتراك وحلفاءهم الألمان إلى إرسال الحنود والذخائر إلى الجنوب وإهمال خططهم الأخرى صد قاة السويس . بدأ عرب الحجار في نظر رونالد ستورس حبناء وغير مستظمين . لا ريب أنهم كانوا يختلفون عن الجيوش الأوروبية ، ولا يعرفون شيئاً عن الفنون الحربية الغربية ، لأن خبرتهم كانت مقصورة على الغارات البدوية التقليدية التي يزيد فيها الصراخ على القتل . يضاف إلى هذا أن المنازعات بين قبائلهم جعلت توحيدهم صعباً ، حتى إذا وحدوا أصبح من الصعب قيادتهم وإبناؤهم في مكان واحد . ولكن قوتهم كأفراد واعتزازهم برجولتهم جعلهم يدعون في نوع من القتال قام فيه الاندفاع والبراعة ، لا روح الفريق والانضباط ، بدور رئيسي . كانت قبائل الحجاز صورة لأبطال هذا القرن ، للمناوير ورجال العصابات ، الذين ظهروا فيما بعد .

«كانت الثورة العربية ذات قيمة للحلفاء ، وخصوصاً لبريطانيا التي بالغت في تقدير فتح جبهة جديدة في بحر مجهول ، فجاءت الثورة مقبواً حين كانت المعنويات العامة منخفضة . إن مهوض أبناء الصحراء الشجعان لتأييد بريطانيا عوض من المذابح المستمرة في الجبهة الغربية»^(١) .

وليت الحسين بن علي وأنصاره كسبوا فخر هذا العمل الذي قاموا به في نظر الإنجليز والفرنسيين الذين قدموا إليهم - دون أن ينتبهوا - خدمة لا تقدر . «ذلك أن البطل الحقيقي لهذه المأساة كان - في نظر الغرب - رجلاً انجليزياً غريب الأطوار هو الكولونيل لورنس . كان مثله في ذلك مثل الجنرال شارلس جوردون الذي دفع حياته ثمناً لاستيلاء بريطانيا على السودان دون أن يكون هذا قصده . فإن الكولونيل لورنس نشأ من سفاح من مربية انجليزية عاشرت

(١) درموند ستيوارت ١٩٨ - ٢٠١

واحداً من كبار الملاك الانجليز من أصل ايرلندي، وبسبها هجر امرأته وبناته الأربع، فخرج الولد الى الدبادون مركز اجتماعي محترم، وان كان لدى أمه من المال ما أنفقت منه لتخريج ابنها ضابطاً. ثم ذهب الى بلاد العرب معامراً، وهناك وجد مجالاً لولعه بالظهور بمظهر الشخصية العجيبة، وقد زعم أنه معجب بالعرب والدو وطريقتهم في الحياة، وما كان في الحقيقة إلا استعمارياً كذاباً، وقد تواترت أخباره إلى انجلترا، وكذلك صورته في ملابس عربية كان يتعمد أن تكون جميلة غالية الثمن. كان قفطانة دائماً من الحرير الخالص ومن فوقه جبة أنيقة من الصوف ويضع على رأسه عقلاً عربياً أحمر مذهباً، وفي حزامه خنجر ذهبي. وكان ضابط مخبرات، وكان رؤسائه في المخابرات البريطانية يعطونه ما يريد وكان تأثير الذهب الذي كان يوزعه على فقراء البدو كبيراً، أما كبار العرب فقد زعم لهم أنه مسلم مبغض للانجليز، وكان يتكلم عربية غير صحيحة، ولكنه بدا على أي حال للأمير عبدالله بن الحسين وأخيه فيصل وسيلة جيدة للاتصال بالانجليز.

وإنما لجأت لنقل تلك الفقرة الطويلة من مؤلف غربي هو دزموند ستوارت لأنني أردت أن أقرب القارئ قدر المستطاع مما يمكن أن يكون حقيقة ما جرى. ونحن هنا نتتبع تصارييف الأمور مع أسرة عربية هاشمية، ألقت بنفسها في بحر لا تحسن السباحة فيه، ولا هي قد رأت أعماقه، فكانت النتيجة ما رأيت من العواقب الوخيمة التي يمكن أن تنتج عن قلة التدبر، فإن حركة الحسين بن علي وأولاده لم تأت الذين قاموا بها بجزء ولو ضئيل من الآمال التي علقوها عليها، وإذا قلنا إن الأمر انتهى آخر المطاف بتتويج فيصل ملكاً على العراق في ٢٣ أغسطس ١٩٢١ بعد إخراجهم من دمشق، وإعلان عبدالله أميراً على ما عرف اذ ذاك مشرق الأردن ابتداء من ابريل ١٩٢١ بصورة مؤقتة، ثم نهائية في مايو ١٩٢٣م، فإن نظرنا إلى ما سمي بالثورة العربية لا ينبغي أن نقف عند هذا الحد، بل علينا أن نستطرد مع الأحداث لتكتمل لدينا صورة هذه الثورة وما أدت اليه، ففي يوليو

سنة ١٩٢٢ قرر مؤتمر الصلح الأوروبي في سان ريمو وضع فلسطين والأردن تحت الانتداب البريطاني، ومن ذلك الحين بدأ في الحقيقة إنشاء إسرائيل. وقد أشرنا فيما سبق إلى أن بريطانيا كانت تتفاهم مع الصهيونية العالمية على جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود، وفي النهاية أصبحت إسرائيل هي معضلة العرب الكبرى، وهي نتيجة مباشرة لهذه الخطوة الخاطئة التي خطاها الحسين بن علي، لأن تركيا لم يكن قد انقطع الرجاء فيها، والجنرال الألماني ليمان فون ساندروز استطاع بالفعل أن يعد نواة جيش تركي تشترك فيه فرق عربية، وفي معارك جاليبولي في سنة ١٩١٥ تمكن قائد تركي تتلمذ على يد ليمان فون ساندروز من إحراز انتصار عظيم على الانجليز والفرنسيين، وهذا القائد هو مصطفى كمال الذي كان إلى ذلك الحين لا يسيء الظن بالعرب. وكان جمال باشا في بلاد الشام يستطيع على الأقل أن يهدد مركز الإنجليز في مصر باستمرار. وكل شيء كان ممكناً أن ينزل بالانجليز والفرنسيين قبل التدخل الأمريكي في الحرب العالمية الأولى، وروسيا كانت في وضع سيء جداً أمام الألمان على الجبهة الشرقية وهنا، في ذلك الظرف قام الحسين بن علي بحركته فهزم الجبهة التركية الشرقية هداماً، وتبين الأتراك أن العرب هم سبب الهزيمة، ورجل مثل مصطفى كمال نفى يده من العرب من ذلك الحين، وكان لذلك نتائجه الوخيمة، وترددت على ألسنة الأتراك عبارة «عرب خيانت» أي خيانة العرب. وهكذا - وإرضاء لمطامح حفنة من العرب وأوهام حفنة من الخطباء المتحمسين على منابر دمشق دفع العرب، كل العرب نمناً باهظاً ولا زالوا يدفعونه. ٥ يونيو ١٩١٦ كان دون شك يوماً مشؤوماً، ففي ذلك اليوم غرق كشتى ببارجته في البحر الشمالي واجتمع ١٥٠٠ جندي من العربان وأطلقوا النار على الحامية التركية في جدة، وأعلن الحسين بن علي الثورة على الأتراك، وهجمت قوة عربية على المباني الحكومية في جدة. وتقدمت قطع من الأسطول البريطاني وأطلقت القنابل على الميناء مساعدة للحلفاء العرب. وذلك هي بداية ما سماه أمين سعيد بالثورة العربية الكبرى.

لقد تقاسمت فرنسا وانجلترا ميراث الدولة العثمانية في البلاد العربية

(عدا الجزيرة)، وحولتها إلى مستعمرات تحت أسماء شتى، وتربع أحد أبناء الحسين بن علي ملكاً على العراق وأصبح ابن ثان هو عبد الله أميراً على شرق الأردن وكلاهما تابع لبريطانيا، أما سوريا فقد أصبحت مستعمرة فرنسية وإن كان وضعها الرسمي أنها بلد تحت الانتداب، أما لبنان فقد احتلته فرنسا تحت نفس الاسم، وبدأت تحدث فيه تعبيراً جوهرياً، وهذا التعبير أصبح فيما بعد من أكبر مشاكل لبنان: تقديم الأقلية المارونية على بقية طوائف السكان واختصاصهم بالتعليم، والعناية وإفهامهم أنهم ليسوا عرباً بل فينيقيون كاثوليك لا يتمنون إلى عالم العرب بل إلى عالم الغرب، وظن الموازنة أن ذلك فيه خير كثير لهم ولم يفتنوا إلى أن ذلك سيجعلهم في يوم ما في وضع شاذ غير مقبول، لا قومياً ولا عقلياً، فإن الأمور تتجه دائماً بطبيعتها إلى التوازن، ولا يصح في النهاية إلا الصحيح، وإلى يومنا هذا يعاني لبنان من هذا الوضع غير الطبيعي الذي فرضته فرنسا ولا تزال تؤيده.

ومع ذلك وبإستثناء ما فعلته فرنسا بلبنان - فقد تبين مع الزمن أن الاستعمار مرض قابل للشفاء، أما البلية العضال فهي ما حدث لفلسطين، فإن اليهود كانوا في ذلك الحين أي أثناء الحرب العالمية الثانية قد أحسوا أن فرصة تحقيق حلم نهودور هيرنسل قد حانت، فالانجليز في حالة يرثى لها من الإفلاس والإرهاق، وأي معاونة من الممالين اليهود كان لها تأثيرها، وكانت البيوت المالية الصهيونية قد بلغت درجة خطيرة من القوة نتيجة للمتاجرة في السلاح وإقراض المال لدول الحلفاء بأسعار عالية، وثبته إلى ذلك صهيوني واسع الذكاء هو حاييم وايزمن، وهو روسي من مواليد مدينة مينسك، وكان يتقن الروسية والألمانية والعبرانية والبديشية (إلى جانب الانجليزية والفرنسية) ولكن ميله إلى الثقافة الألمانية كان عظيماً، مثله في ذلك مثل أفراد أكبر كتلة يهودية في أوروبا هي كتلة يهود ألمانيا. وكان يهود روسيا أكثر عدداً ولكنهم كانوا في وضع سيء بسبب نفور الروس منهم واصطهادهم إياهم، وقد تعلم حاييم

وايزمن في سويسرا واتصل أثناء تعليمه بكل المالين اليهود في أوروبا واتصل بصهيو أمريكي حطر هولوس براند آيس مستشار الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون. وعندما أصبح لويس براند آيس رئيساً للمحكمة العليا في الولايات المتحدة سنة ١٩١٦، وهي ثالث وظيفة كبرى في الإدارة الأمريكية، أصبح في وضع يمكنه من التأثير بصورة مباشرة في السياسة الأمريكية، اتصل به حاييم وايزمن وبدأ الإنسان العمل مشتركين مع بقية يهود أوروبا في تحقيق الحلم الذي كان تيودور هيرتسل قد مات دونه، وهو إنشاء دولة اسرائيلية في فلسطين، وبإيعاز من حاييم وايزمن وافق اللورد بلفور على مسودة تصريحه المشؤوم في ١٨ يوليو ١٩١٦، واشترك في المؤامرة رجال بنوك روتشيلد ولوسيان رولف وكلود مونتيوري وسير ماتيو ناتان وصمويل مونتاجيو، وكلهم من كبار المالين، وانجلترا باعت فلسطين لليهود لقاء المال. وفي ٢ نوفمبر ١٩١٧ صدر تصريح بلفور، وما كان من الممكن إصداره أبداً أيام السلطان عبد الحميد الثاني، لأن هذا الرجل الذي يحمل عليه العرب حملة ظالمة رفض أن يمنح اليهود أي حق في فلسطين، عندما عرض عليه ذلك تيودور هيرتسل عن طريق وسيط صهيو يسمي نفلسكي في سنة ١٨٨١، وكانت تركيا إذ ذاك غارقة في الدبون إذ قدر دينها بمبلغ ١٠٦ ملايين من الجنيهات الذهبية، وقد عرض مالي يهودي وهو صمويل مونتاجيو أن تتولى البنوك اليهودية معاونة تركيا للتخلص من ديونها في مقابل أي تصريح من السلطان يعطي اليهود الحق في الهجرة إلى فلسطين واستيطانها بجماعات كبيرة، وكان حاييم وايزمن وأخوه صمويل مثلهفين على ذلك لكي يخلصوا يهود روسيا من الوضع الذي كانوا فيه، ويقول وايزمن في مذكراته إن السلطان لو كان وافق لأطلقت روسيا في السنة الأولى مليون مهاجر صهيو إلى فلسطين ولكن السلطان رفض، وجاء رفضه وثيقة كافية لرفع مقام هذا الرجل في أعيننا، قال ليفلسكي: إذا كان هيرتسل صديقك بقدر ما هو صديقي فأنصحك ألا يتقدم خطوة أخرى في هذا الشأن. لا أستطيع أن أبيع قدماً واحدة من البلد، لأنه ليس ملكي بل ملك شعبي، لقد حاز شعبي هذه الدولة

وغذاها بدمه، وسفطها مرة أخرى بدمائنا قبل أن نسمح بتمزيقها. لقد قلّمت
فرقتان من مقاتلي سوريا وفلسطين تضحية كبرى وقاتلتنا معنا دفاعاً عن بلقنا،
وهلك رحالهما إلى آخر رجل دون أن يتراجع واحد منهم أو يستسلم، بل ماتوا
جميعاً دفاعاً عن دولتهم. إن الشعب التركي هو مالك هذه الدولة لا أنا لا
أستطيع التخلي عن جزء منها، ويستطيع اليهود أن يوفروا أموالهم حين نقسم
الدولة قد يأخذون فلسطين مقابل لا شيء، لكن الآن لن نقسم إلا جثتنا لأنني
لن أسمح أبداً بتشريحنا أحياء وهذه العبارة - التي تعين في الحقيقة موقفاً - تنطق
بأن سلالة أورخان وعثمان - مهما حدث لها كانت سلالة نبيلة، وهي أقرب إلى
الروح التركية التي نعرفها من كل مواقف مصطفى كمال، لأن مصطفى كمال لم
يجر في النهاية إلا أرض الأناضول من الاستعمار، وكل بلاد الدنيا - التي هي
أقل من تركيا - تحررت مع الزمن من الاستعمار، لأن الاستعمار كان مرضاً له
ظروفه، وعندما زالت الظروف زال. أما الماضي التركي الجليل الذي ازدراه
مصطفى كمال وألقى به إلى الأرض في سبيل مظهر من التفنن، كانت له أهميته
الكبرى للشعب التركي وكفى أن اليونان - وهي دولة من أصغر بلاد أوروبا
حجماً - تستغل عن تركيا ولا ترضى بأن يكون أترك قبرص مثلاً في وضع اليونان
فيها، مع أن قبرص أولاً وأخيراً أرض تركية وإن سكنتها أعداد كبيرة من
اليونانيين، ومن فجر الإسلام إلى معاهدة برلين ١٨٧٨ لم تخرج قبرص إلا في
النادر عن أرض الإسلام.

الذي يهنا هنا هو أن نذكر أن مأساة فلسطين - إلى حد بعيد - نتيجة لما
سبي بالثورة العربية الكبرى، وهي في جللتها مظهر من مظاهر انعدام التقدير
الذي ذكرناه عند العرب أوائل القرن العشرين. وإننا لقرأ الآن أخبار إقامة
دولة فيصل في سوريا وما أحيطت به من حماس ساذج، ثم دولته في العراق التي
لم يحكمها في الحقيقة مد قياها إلى زوالها في يوليو ١٩٥٨ إلا رجل واحد كردي
الأصل هو نوري السعيد درس العسكرية في المدرسة الحربية في الأستانة فيما

بين سنتي ١٩٠٨ و ١٩١٢، ثم درس في كلية الأركان هناك حتى سنة ١٩١٥ ثم اشترك في الحرب العالمية، وفي سنة ١٩١٦ انضم إلى فيصل بن الحسين في دمشق ثم في بغداد. يرى السعيد تسلم فيصل من الكولونيل لورنس الذي كانت أوروبا تسميه صانع الملوك. ولكن مغامرة انجليزية أخرى تسمى حترود بل رعت أنها هي التي صنعتها، وكتبت مرة من بغداد إلى أحد أصدقائها في لندن تقول أنها لم تشترك بعد ذلك في صنع الملوك لأن ذلك عمل شاق. وهكذا أصبحنا مضغة في فم هذه السيدة.



ومرة أخرى أقول إنني وفقت هنا هذه الوقفة الطويلة لأن هذه هي المرة الأولى التي نعرف فيها إلى درجة لا بأس بها من الدقة، مدى الأضرار التي ارتكبتها بناء الدول في تاريخنا لكي يجوزوا الملك على حساب خسائر فادحة للشعب العربي. وإذا كنت من الذين يتألمون بسبب وجود الكتلة الإيرانية وسط الجناح الشرقي للدولة الإسلام وما ترتب على ذلك من الأضرار للأمة العربية على طول تاريخها، فاعلم أن المسؤولين عن ذلك ليسوا هم الإيرانيون بل العرب، لأن الإيرانيين كانوا قد استعربوا إلى حد بعيد قرب نهاية الدولة الأموية، ولغتهم الإيرانية كانت في طريق الاختفاء، ولكن البيت العباسي عندما دبر مؤامرة الاستيلاء على الحكم من الأمويين، اختار أن ييث دعايته في حرب خراسان، وحل رأس الدعاة وضع رجلاً فارسياً مجهول النسب مبعضاً للعرب هو أبو مسلم الخراساني، وهذا الرجل ضرب العرب بعضهم ببعض بتوجيه من إبراهيم بن علي ابن عبد الله بن عباس المعروف بإبراهيم الإمام. وأبو مسلم سخر من العرب واستعان عليهم برجال من الفرس، مثل خالد بن برمك وآل سهل، وفوق المائة ألف عربي - كانوا نواة التعريب في إيران - غادروا مواقعهم في خراسان وما وراء النهر واتجهوا إلى الشرق ليقبضوا دولة بني العباس. وإيران خلت من هذه الكتلة العربية الضخمة، وهي خيرة التعريب فتوقفت العملية وبدأت إيران تعود

إيرانية، وأسطورة أبي مسلم والفرس الذين أقاموا الدولة العباسية رفعت معنويات الفرس، وثقة بني العباس في وزرائهم الفرس واعتمادهم على الجند الفارسي ثم تصفيتهم لمن أبقى عليه سيف أبي مسلم من العرب أعطى الدولة العباسية طابعاً فارسياً ونواة التشيع الصغيرة تمت في إيران حتى أصبحت ورماً خبيثاً، واللغة الإيرانية انتعشت بفصل العرب والإسلام وظهر شعراء الفرس يؤججون هذه النار، واللغة الفارسية أصبحت اللغة الغالبة على الجناح الشرقي لدولة الإسلام، حتى سلاطين مغول الهند كتبوا بالفارسية. والدولة الإسلامية العربية التي كانت قوية متقدمة على ضفاف البحر المتوسط أصبحت دولة آسيوية يسودها آسيويون. وكانت مهمة الدولة الإسلامية الأولى هي إزالة الدولة البيزنطية من الوجود ليفتح الطريق أمام الإسلام إلى أوروبا والعناصر الصقلية، فتأخر ذلك إلى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، وتم على يد الأتراك بعد فوات الأوان. فقد كانت الدولة البيزنطية قد قامت بمهمتها التاريخية الكبرى قبل أن تزول. ونشرت الإسلام بين الروس الصقلية وأهل شرق أوروبا، وتحدد بذلك مصير دولة الأتراك العثمانيين قبل أن تقوم.

ولنذكر إلى جانب ذلك أن غرب الدولة الإسلامية كله ظل سنياً ثم لقد استعرب بفضل هجرات العرب وخاصة بنو هلال وبنو سليم بن منصور الدين قدموا لأمة الإسلام خدمة لا تقدر، ولولاهم لما كان لدينا ذلك المغرب العربي الزاهر السني الخالص.

وقبل أن نترك دولة شرفاء الحجاز وما تفرع منها لا بد أن نضيف أن الله عوضنا عن انقطاع الشرفاء الأول، باعتدال ميزان الدولة الهاشمية في الأردن منذ ١٩٥٢ عندما صار عرش المملكة الأردنية الهاشمية إلى الملك حسين بن طلال بن عبد الله بن الحسين. فهناك قام ملك هاشمي واسع العلم والثقافة والأفق السياسي يسوس مملكته الهاشمية بحكمة ويقودها وسط بحر متلاطم من العواصف في مواجهة مصاعب لا تتصور. وهنا نجد صورة جميلة من الهاشمية

القرشبة التي وصلت الى أواخر القرن العشرين سلام، بعد أن مرت بأزمات ومهالك ومضالك كما رأيت فيها قصصنا من تاريخ أشرف مكة هنا شهادة صادقة بعقريه قريش وقدرتها على مغالبة الأيام. وفي الفصل التالي عن دول الشرفاء في المغرب الأقصى سنرى مصاديق أخرى على هذه العقريه القرشبية الهاشمية

دُولُ الشرفاء في المغرب الأقصى؛ السعديون والعلويون :

تاريخ الشرفاء السعديين والعلويين الذين توالوا على حكم المغرب الأقصى وبعض المغرب الأوسط في بداياته أشبه بالقصة أو الأسطورة في بداياتها ولكنها أسطورة جميلة لا بأس بقبولها، ومن الأسف أن مؤرخي المغرب في نهايات القرون الوسطى ومطالع العصر الحديث - في مجملتهم - مداحون متزلفون يصعب جداً أن نقبل كلامهم على علته. وقد نشر في السنوات الأخيرة نص مناهل الصفا في تاريخ الشرفاء للقتالي، فأعانا كثيراً على تبين خيط الحوادث واستطعنا أن نصصح به الكثير مما كان يحررنا من كلام اليفرني في نزعة الحادي، ولكن دليلنا الرئيسي هنا هو كتاب الاستقصا في معرفة دول المغرب الأقصى لأحمد بن خالد بن حماد الناصري السلاوي الذي يعتبر بحق من أكابر أعلام مؤرخي المغرب (٢٢ ذو الحجة ١٢٥٠ - جمادي الأول ١٣١٥ هـ / ٢٠ أبريل ١٨٣٥ - ١٣ أكتوبر ١٨٩٧ م). خاصة وهو يعتمد فيها كتب من تاريخ الشرفاء على مصدر إسباني لا بأس به هو كتاب :

Manuel.P.Castellanos, Descripción historia de Marruecos y breve resena de sus dinastrias (Santiago 1878, Orihucla 1894, Tanger 1898) وماتويل كاستيانو كان مندوباً اسبانياً يتردد في السفارات على بلاد المغرب، فأتقن العربية وعرف شئون المغرب الأقصى ووضع فيه هذا الكتاب الذي يقع في ثلاثة مجلدات، طبع كل منها في بلد من بلاد اسبانيا كما نرى في بيان سوات طبع

أجزائه . والسلاوي هنا ربما كان من أوائل مؤرخينا الذين اعتمدوا في مؤلفاتهم على مراجع غير عربية .

والذي يهمنا هنا هي بدايات السعديين والعلويين وأصلهم الشريف لأننا نؤرخ لقريش لا لهاتين الدولتين الكبيرتين في جملة لأن تاريخهما حافل ، ومراجع ذلك التاريخ كثيرة جداً في اللغتين الفرنسية والانجليزية ، لأن المغرب العربي جغرافياً - امتداد للغرب الأوروبي وواجهته الأطلسية ثم واجهته المتوسطية جعلت تاريخه دائماً متداخلاً في تاريخ الغرب الأوروبي ، وذلك في ذاته ميزة لطيفة من ميزات التاريخ المغربي عموماً .

والأسرتان السعدية والعلوية الفلالية أبناء عمومة فهما ترجعان إلى محمد النفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وأصلهما من أشرف الحجاز ، وكلاهما من بيت من الأشراف كان ينزل قرب ينبع .

ونسب الأسرتين طويل وواحد حتى نصل إلى محمد بن القاسم بن محمد الذي انجب أولاداً كثيرين منهم اثنان ، أحمد بن محمد وقاسم بن محمد ، فأما أحمد فهو جد الشرفاء السعديين ، وأما قاسم بن محمد فهو جد الشرفاء العلويين . ويبدو أن البيت هاجر إلى المغرب في القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري) في أعقاب هجرة العرب المالكية واستقرار بطونهم في المغرب كله بعد حروب ومغامرات وتصاريح طويلة ، ومن فروع بني هلال التي استقرت في جنوبي المغرب الأقصى بنو حسان وعرب المعقل من بني هلال ، وهؤلاء الأخيرون استقروا في حوض نهر درعة وأنشأوا لأنفسهم فيه وطناً ، وتوافد عليهم العرب من نواحي المغرب ومن جزيرة العرب ، ومن المرجح أن هجرة الأشراف تمت من يسبع إلى ملاد عرب المعقل ، ربما في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي وطلوا في موطن واحد لا نعرفه حتى اختلفوا بعد وفاة محمد بن القاسم بن الحسن . فأما أحمد - وأولاده أحداد السعديين - فقد استقروا في بلاد السوس عند

تارودانت على وادي درعة، وأما أبناء قاسم بن محمد فقد استقروا في سجلماسة التي تعرف أيضاً ببلاد تافلات، ولهذا يلقون بالفلالين.

وكانت بلاد المغرب كله قد تعرضت للغزو البرتغالي والإنساني ابتداء من القرن السادس عشر الميلادي بعد سقوط غرناطة كما سرى. واحتل البرتغاليون مراكز على السواحل المغربية الأطلسية، وما احتلوه أغادير أو رأس غير ومن هناك هددوا مراكش، وكان الوطاسيون قد عجزوا عن الدفاع عن جنوب المغرب، فتجمعت قبائل جنوبي المغرب الأقصى تحت لواء واحد من أحفاد أحمد بن محمد بن القاسم، وهو محمد بن محمد بن عبد الرحمن الذي نهض للدفاع البرتغاليين واستطاع هو وحلفاؤه تحرير أرض المغرب من العدوان الأوروبي، ولهذا سبقوا أبناء عمومتهم أحفاد قاسم بن محمد بن القاسم الذين استقروا في سجلماسة حتى ساءت أحوال المغرب الأقصى خلال القرن السابع عشر الميلادي وتقاسم السلطان فيه رجال زاوية بو حسون السملالي، وكانوا نظماً صوفياً سياسياً يسيطر على جنوبي المغرب الأقصى في بلاد السوس وتافلات وما حولها ورجال زاوية الدلاء أو الدبلة، وكانوا أصحاب السلطان على منطقة وادي سبو، في حين أن بقايا الوطاسيين كانوا يحكمون منطقة مراكش.

وكان ظهور السعديين وتوليهم السلطان في المغرب في منتصف القرن السادس عشر الميلادي، وقد حكموا من سنة ١٥٥٣ إلى ١٦٥٤ ميلادية ثم أعقبهم العلويون الفلاليون الذين يحكمون المغرب الى اليوم.

وقد تمتع آل البيت في المغرب كله بجاه ديني واجتماعي عظيم، وخاصة في المغرب الأقصى منذ أيام الإدارة. وقد اتحت دولة المرابطين الصنهاجية ثم دولة الموحدين المصمودية عمل الإدارة في القضاء على بقايا الزيدقة والمذاهب المحرفة عن السنة في المغرب الأقصى. . . وفي أواخر أيام الموحدين (دامت

دولتهم من أوائل القرن السادس الهجري إلى الربع الأخير من القرن السابع الهجري (القرنان الثاني عشر والثالث عشر الميلاديان) كانت بلاد المغرب كلها قد تحولت إلى بلاد سنة وإيمان صحيح، وقد انتهت دولة الموحدين سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م. عندما دخل أبو محمد عبد الحق بن أبي خالد مجبو من أبي بكر بن حمادة بن محمد الحريفي مدينة مراكش. وجدير بالذكر أن اللذين أسسا دولة الموحدين وهما محمد بن تومرت المرعي وعبد المؤمن بن علي الكومي ادعيا نسباً شريفاً حسنياً، ومع أن هذه النسبة ظاهرة الاختلاق، فإن نسب كليهما في المصاعدة عريق ومعروف، إلا أن ذلك الانتساب في ذاته يدل على ما كان النسب الهاشمي القرشي يتمتع به من جاه عظيم في ذلك الجانب من عالم الإسلام.

وكان بنو مرين الذين خلفوا الموحدين بربراً زناتيين مستعربة وقد حكموا المغرب، وحاولوا إنقاذ ما بقي من الأندلس بالمساهمة في الجهاد في الأندلس وإرسال قوة من الغزاة وفي أيامهم ونتيجة للصراع الطويل بين صنهاجة وزناتة ثم بين صنهاجة ومصمود، من ناحية وزناتة من ناحية أخرى، ثم مع العرب الملالية الذين انتشروا في المغرب كله على نطاق واسع، وأنشأوا لأنفسهم فيه أوطاناً واسعة في كل ناحية من نواحي المغرب تقريباً، نتيجة لذلك كله ضعفت الروح القبلية البربرية في المغرب ضعفاً زائداً، وعجز بنو مرين عن بسط سلطانهم على المغرب الأوسط، وفي نواحي السوس استبدت قبيلة هنتانة المصمودية بالسلطان المحلي، وسيطر عرب المعقل على وادي أم الربيع في حين سيطر بنو حسان من عرب المعقل من بني هلال على وادي درعة، وتكاثروا فيه وأصبحوا قوة يحسب لها كل حساب.

وفي ذلك العصر اشتد هجوم البرتغاليين والإسبان على سواحل المغرب بعد سقوط غرناطة وتصفية الوجود السياسي الإسلامي في الأندلس سنة ٩٧٨ هـ / ١٤٩٢ م.

فأما الإشبانية فقد ثبوتوا أقدامهم في طنججة وسبتة ومليلة والقصر الصغير أو قصر ماسة في شمال المغرب الأقصى، أما البرتغاليون فقد تزايد خطرهم على سواحل المغرب الأطلسية وفي سنة ١٤٧١ م، استولوا على سبتة وبعد ذلك وفي نفس السنة استولوا على أصيلا والعرائش وأغاروا على القصر الكبير، وقبل ذلك بسنتين استولوا على آفيا وهي الدار البيضاء. وفي سنة ١٥١٣ م استولوا على أزموور، وبعد ذلك بسنة استولوا على مازاغان، وفي سنة ١٥١٩ م استولوا على ثغر المعجوز، وكانوا قد استولوا على ثغر أغادير سنة ١٥٠٥ م وعلى ثغر ماسة جنوبي المغرب الأقصى سنة ١٤٩٨ م. وفي كل بلد من هذه البلاد أنشأوا قلعة تسمى الفرونتييرا fronteiras وضعوا فيها حامية وأنشأوا سوقاً، ومن ثغر أغادير أخذوا يتوغلون في الداخل حتى وصلت طلائعهم حوز مدينة مراكش.

وقد عجز المرينيون عن مدافعة أولئك الغزاة النصاري، وكان العصب القبلي قد ضعف في المغرب نتيجة للصراعات التي ذكرناها، واحتاج أهل المغرب إلى روح معنوي جديد يرفع من قواهم، وإلى لواء يجتمعون حوله ليدفعوا عن بلادهم هذا الخطر المتزايد.

فأما القوة المعنوية فقد وجدوها في الطرق الصوفية وخاصة الشاذلية والقادرية وما نفع منها مثل التيجانية والجزولية، قد لقيت قبولاً عظيماً من الناس، فتجمع أهل المغربين الأوسط والأقصى تحت لواء مشيخات الطرق الصوفية التي حلت محل العصبيات القبلية، وفي أواخر القرن الخامس عشر الميلادي انتشرت الزوايا الصوفية في كل بلاد المغربين الأوسط والأقصى، وقام على رأس كل زاوية مقدم يتبعه عدد من الإخوان، وكانوا في نفس الوقت طلاباً وجنداً. وشعر سلاطين بني مرين في أواخر أيامهم بالخوف من الصوفية فدبروا مقتل الشيخ الجرجولي، فقتل ودفن في شيشاوة بالمغرب الأقصى، فأثار هذا الحادث شعور الصوفية بالعداء نحو المرينيين ومن ناحية أخرى تزايد الخطر البرتغالي وتبين أن بني مرين من الوطنيين عاجزون عن حماية دار الإسلام

في ذلك الحين كانت أسرة الأشراف الحسنيين التي انحدرت عن أحمد بن قاسم التي ذكرناها قد استقرت في بلاد السوس وبدأت تجمع الأنصار، وهذه هي أسرة الشرفاء السعديين الذين ينسبهم القشتالي مؤرخ البيت السعدي إلى رجل من شرفاء الحجارة يسمى محمد بن سعد، في حين يذهب خصومهم إلى القول بأنهم يسمون السعديين نسبة إلى بني سعد بن بكر، لأنهم فيما قبل من أحفاد حليلة السعدية مرضعة الرسول ﷺ، ولكننا نرجح أنهم شرفاء من ناحية يتبع كما قلنا، وقد استقروا في السوس وقضوا زماناً طويلاً قبل أن يظهر أمرهم. وقد ذكرنا نسبهم فيما سلف ولا معنى لإنكار أصلهم الهاشمي الحسنى.

وكان عجز المرينيين قد نجلى للناس وسيطر عليهم بنو وطاس وخاصة يحيى بن أبي زكريا الوطاسي. وفي مايو ١٤٦٥ قتل آخر سلاطين المرينيين وتولى الأمر أول الوطاسيين وهو محمد الشيخ، ولكن سلطانه لم يتعد موقع فاس.

ولكن الوطاسيين أثبتوا أنهم ليسوا خيراً من المرينيين، فقد تقدم البرتغاليون بجيش من ٣٠,٠٠٠ مقاتل جاؤوا على ظهر ٤٧٧ سفينة واحتلوا أصيلاً في مايو ١٤٧١ م، وعقد معهم محمد الشيخ صلحاً، وفي ٢٩ أغسطس ١٤٧١، احتل البرتغاليون طنجة وأنشأوا في أصيلاً وطنجة القلاع المسماة فروتيريات، وأنشأوا في دواخل البلاد وكالات Feitories يفهم في كل منها وكيل feitar على رأس حامية، وكانت الوكالة تغير على الأراضي المجاورة وناسر الناس وتنبأ أموالهم وترغمهم على بيع القمح والجلود والأصواف بأبخس الأسعار. وكانت الغارات البرتغالية تتوغل في الداحل إلى عمق ٣٠ كيلومتراً، ولم يلبث إقليم ذكالة كله أن أصبح خاضعاً لهم، ووضي إليهم بعض ضعاف الزراع والرعاة فوضعوهم تحت حمايتهم واستخدموهم وسموهم العرب المسالمة mo-ros de la paz وكان البرتغاليون يستخدمون أسرى المسلمين في بناء القلاع وحمل البضائع.

هذه المهامة الكبرى للإسلام وأهله أثارت عواطف الناس وزادتهم يأساً من المرينيين والوطاسيين وجعلتهم يتجهون بآمالهم نحو الصوفية وشيوخهم .

وفي السنة التي قتل فيها آخر المرينيين وهي ١٤٦٥م . حدث شيء يشبه الارهاص سارحاه الحكم في المغرب الأقصى إلى الشرفاء . ذلك أن الناس اكتشفوا في ويلي مدفن المولى ادريس وهو ادريس الأول ، مؤسس بيت الادارة فأبقوه مكانه وأقاموا عليه ضريحاً ، واستيقظت في البلاد كلها دهوى الشرفاء وتفاؤلوا بهم خيراً في الظروف العصيبة التي كانت البلاد تمر بها . ولكن امير بني وطاس تمكن من افتتاح فاس على الإمام الإدريسي .

في ذلك الحين كان محمد بن سعد الملقب بالقائم بأمر الله أو بالمهدي قد كسب ثقة واحد من أكبر مشايخ الصوفية في السوس وهو سيدي عبد الله المبارك ، فنادى به قائداً لحركة الجهاد في منطقة السوس ، وتجمع الناس حوله فأنشأ قوة عسكرية كبيرة وسار إلى الشمال فترك إقليم حاحة وتجمع حوله أهله من العرب والبربر ، فوضع لهم نظاماً قبل أن يتوفى سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦م . في بلدة أفقول . كانت دولة الشرفاء السعديين قد تأسست ، وخلفه ابنه أحمد الأعرج ومحمد الملقب أيضاً بالمهدي ، واتخذوا مركز أعمالها في تارودانت عاصمة السوس وأعلنوا الجهاد على البرتغاليين الذين كانوا يسيطرون على ميناء أنفا وهي الدار البيضاء وما يجاورها جنوباً من بلاد الساحل ، وتزايدت جموعهما ، فحالفهما صاحب مراكش ، ولم يلبث هذا الأمير أن قتل فقام رجال السعديين بإعلان أحمد الأعرج سلطاناً على مراكش وإقليمها ، وهكذا قامت دولة جديدة قرشبة هاشمية هي دولة الشرفاء السعديين في بلد له تاريخ قديم في الولاء لآل البيت منذ أيام الإدارة ، وقد قامت الدولة الجديدة على العصب الديني وعلى حاجة الناس الماسة إلى زعيم سياسي ديني يستطيع قيادتهم في تحرير بلادهم من الاحتلال البرتغالي الصليبي . وجدير بالذكر هنا أن البرتغاليين والإسبان كانوا

قد تشجعوا على غزو بلاد المغرب بتأييد وتحريض من البابا، الذي أساح لهم حرب أهل المغرب والإستيلاء على بلادهم وتحويلها إلى بلاد نصرانية لينتموا بذلك ما بدأوه في الأناطلس.

وبدأ السعديون في مقاومة البرتغاليين وقائدهم نونيو ماسكارينيئاس Nunho Mascarenhas وقد حاول بقايا الوطاسيين منافسة السعديين ولكن سلطانهم الأخير محمد الملقب بالبرتغالي، قتل سنة ١٥٢٥ م فانتهدت بذلك الدولة الوطاسية وخلا الميدان للسعديين.

وقد تعرضت دولة السعديين أول قيامها لمناهب حمة، فخاضت صراعاً طويلاً مع بقايا الوطاسيين، ثم تعرضت لصراع داخلي بين الأخوين أحمد الأعرج ومحمد المهدي، وقد انتصر أحمد الأعرج وتوفي سنة ١٥٥٧ وخلفه ابنه مولاي عبد الله الغالب بالله (١٥٥٧ - ١٥٧٤) الذي حكم المغرب الأقصى كله رغم مطامع البرتغاليين من ناحية والأتراك العثمانيين أصحاب تلمسان والمغرب الأوسط من ناحية أخرى، وقد جعل عبد الله الغالب مراكش عاصمته، وبذلك عادت قاعدة القطر المغربي إلى مراكش بعد غيبة ثلاثة قرون.

ولكن أخاه عبد الملك الذي خلفه هو الذي كسب لأسرة الشرفاء السعديين أكبر نصر خلد ذكرها في صفحات التاريخ، هو نصر وادي المخازن الذي كسبه أبو مروان عبد الملك بن محمد المهدي بن عبد الله بن سعد، وكان أميراً مغامراً، هاجر إلى الترك طالباً نصرتهم على أخيه عبد الله، في حين هاجر أخوه الثاني محمد المتوكل إلى الاسان ثم البرتغاليين طالباً عونهم للحصول على العرش، وهكذا نرى كيف أن الملك والوصول إليه كانا دائماً الداء الأكبر الذي أذى دول المسلمين.

وقد تمكن محمد المتوكل من إقناع الملك سباستيان ملك البرتغال من

أسرة آفيس بإرسال جيش معه لانتزاع العرش من يد أخيه أبي مروان عبد الملك، فأعد هذا الملك جيشاً نصرانياً فيه سعة آلاف مقاتل برتغالي وألفان من الإنسان وعدد من فرسان الإنجليز والإيطاليين، وبزل ذلك الجيش في مباءة القصر الكبير، وتقدم للقائه عبد الملك السعدي مع قوات من الأتراك وحيش قوي من العبيد وهم القوة العسكرية التي أنشأها السلطان السعدي الغالب بالله واعتمد عليها، لأن قوات المرابطين والصوفية تخلت عنه بسبب تحالفه المستمر مع الأسبان. وفي ١٥٧٨ م دارت معركة حاسمة من معارك تاريخ الإسلام في واد قريب من نهر لوكوس يسمى وادي المخازن، اشترك فيها سان سباستيان ملك البرتغال ومحمد المهدي المطالب بعرش المغرب والملك أبو مروان عبد الملك السعدي قائد جيوش المسلمين، فأما ملك البرتغال فقد قتل، وأما محمد المهدي فقد غرق، وأما عبد الملك الذي كسب نصر معركة وادي المخازن فقد كان على فراش الموت ولم يمهله القدر حتى يسمع أنباء النصر الذي كسبه. وكانت تلك المعركة التي تسمى عند المسلمين بمعركة وادي المخازن، وعند البرتغاليين باسم معركة الملوك الثلاثة، نهاية لكل مطامع البرتغاليين في أرض المغرب والمسلمين. وبذلك كانت نجاة ذلك القطر الإسلامي العظيم من شر الاحتلال النصراني في الربع الأخير من القرن السادس عشر الميلادي على يد سلطان قرشي هاشمي، في حين أن نجاة المغرب الأوسط (وهو جمهورية الجزائر الحالية) من شر الاحتلال الأسباني في نفس العصر، قد تمت على أيدي الأتراك العثمانيين. وجنى ثمار النصر أحمد بن عبد الملك الذي لقب بالمنصور الذهبي (١٥٧٨ - ١٦٠٣ م.) وهو أبعد ملوك هذه الأسرة صيتاً وأشهرهم. وقد حصل من هذه المعركة على غنائم كبيرة ووقع في يده أسرى كثيرون فداهم أهلهم البرتغاليون بذهب كثير، ثم حاول أحمد المنصور الذهبي عرو مملكة صنتي المدارية الإسلامية وكسب من ذلك ذهباً كثيراً أيضاً. ومن هنا فقد سمي بالذهبي - ولكن المحاولة نفسها كانت سيئة النتائج للمغرب وإفريقية المدارية الإسلامية.

وقد ارتفع صيت السعديين في أوروبا عقب هذا النصر ولم تعد دول الغرب تفكر في غزو المغرب، وأرسلت السفراء إلى مراكش والقناصل لموانئ الغرب، واشتهر أحمد المنصور بالغنى وكثرة الذهب فلقب كذلك بالذهبي.

وقد بلغت دولة السعديين أوجها في عصر أحمد المنصور الذهبي (١٥٧٨ - ١٦٠٣م) الذي يعتبر من أعظم ملوك المغرب، وكان سلطاناً طموحاً فيه لمحات من البهوية تذكرنا بالعظماء من ملوك قرطب أمثال معاوية ابن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك وعبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الناصر وأبي جعفر المنصور وهارون الرشيد وأبي عبد الله المأمون والمعز لدين الله الفاطمي، فكان واسع الطموح متجدد النشاط ميالاً إلى الفخامة والولع بمظاهر العظمة الملوكية، وقد كان يهجر سفراء الغرب الأوروبي بما يبدي من مظاهر بذخه وجلال عرشه واستقبالته، ولكنه يخبى رجاءنا في نفس الوقت بسياسة العنف التي اتبعها مع أهل بلده، وسوء رأيه في بعضهم واتجاهه إلى استغلال أهل الوديان ومن يستطيع التغلب عليهم من أهل ما سماه بلد المخزن، أي البلاد التابعة للحكومة واعتباره بقية بلاد المغرب من الجبال العالية وأهلها أهل خروج عن الطاعة، وتسميته ببلادهم ببلاد السيرة وإعلانه الحرب عليها، ويميرنا في أمره كذلك هذا الأسلوب العنيف القصير النظر الذي اتبعه في غزو بلاد السودان وهي مملكة صُنَّي.

عاش أحمد المنصور الذهبي في القرن السادس عشر ولكنه حكم بلاده بأسوأ مما حكمها به أعراب زناته وبني يفرن، فقد ائتمى جيشاً رهيباً من المرتزقة واشترى ألوف العبيد وصنع منهم قوة إرهاب لا قوة حكم، وتصرف في أموال بلاده - وهي أموال الأمة - تصرف السفه وخرب مملكة إسلامية لا ذنب لها وهي مملكة صُنَّي لكي يحصل على تبر الذهب، وحصل عليه ثم أنفق في شر الوجود، وأرهب رعيته وسامها الخسف، ورعيته هي شعب المغرب الأقصى وهم من أعز

خلق الله حية وعزة وكرامة، وجبى الأموال في غير رحمة حتى أصبحت تسمى بالنوائب والضرية أصبحت تسمى نائبة، وهذه كلها حقائق ينبغي أن أنه إليها وأن أعلم أن بعض المثقفين من أهل المغرب الأقصى لا يحبون هذا الكلام لأنهم لا زالوا يجهلون أن الحقائق وحدها هي التي تمنع، ومع ذلك فأنا هنا أؤرخ لقريش لا للمغرب، فأنا أكتشف حقائق الحكم في عصر ملك قرشي أتيت له فرصة من ذهب فأحاطها إلى تراب، وبهر الدنيا بمسطره وذهبه وأتبع أمته بظلمه وغروره وسوء فهمه لطبيعة الإسلام ومذاهبه في الحياة وأمور الناس.

على أي حال يمكن القول: إن ظروفه كانت عسيرة، ولم يحاول من جانبه أن يفهم طبيعة العالم الغربي الذي واجهه وحالف بعض بلاده وحارب بلاده الأخرى. ولو تنبه أحمد المنصور الذهبي إلى ركائز قوة الغرب من علوم وأسلحة وبحريات وسياسات دولية ووضع نظام بلاده على هذا الأساس، فربما كان طبيعة ملوك الإسلام في مواجهة الغرب الأوروبي بأساليبه، وفي هذه الحالة كان المغرب يكون في طبيعة بلاد الإسلام في مواجهة الغرب والأخذ بأسباب القوة الحديثة، فقد حكم المنصور في عتفوان عصر النهضة الأوروبية، وإسبانيا في أيامه لم يكن لها من القوة ما تواجه به المغرب، وفرنسا كانت غارقة في الحروب الدينية. وانجلترا كانت مستعدة لمحالفته وتبادل المنافع معه للاستعانة به على عدوتها فرنسا. أي أنه لو تدبر أمره بعقل وحكمة لكان من أكابر رجالات الدنيا في أيامه.

ولكن هكذا كان، وضاعت الفرصة. وما أكثر الفرص التي ضيعها العرب والمسلمون في تاريخهم. ولم يكد أحمد المنصور الذهبي يتوفى سنة ١٦٠٣ م حتى قامت الحرب بين أبنائه الثلاثة: مولاي ريدان الذي أعلن نفسه سلطاناً في فاس، وأبي فارس الذي أعلن نفسه في مراكش والشيخ المأمون وهو في الأصل كان ولي العهد ولكنه أخرج صدر أبيه بتزواته وثوراته مسجنه.

وقد استمرت الحرب بين الاخوة سبع سنوات، حتى خلع الامر لمولاي زيدان في مراكش وحدها وحكم من ١٦١٣ إلى ١٦٢٨ حكماً مضطرباً قلقاً حافلاً بالثورات والمآسي. ولقد استولى الاسبان على العرائش سنة ١٦١٠م، وأقاموا قلعة عند مصب نهر سولكي بمنعوا سفن المغرب من الخروج إلى عرض البحر للتمرض لسفن أهل الغرب وقد سمي الاسبان هذه القلعة باسم سان ميغيل دي أولسنرامار San Miguel de Ultramar وسماها أهل المغرب بالمعمورة، وهي اليوم المهديّة. وعلى أثر ذلك هبت الجماعات الصوفية في كل مكان في المغرب منادية بطرد المعتدين النصاري، وبأن لها كلها عجز البيت السعدي عن حماية البلاد، وانتقلت القيادة إلى الجماعات الصوفية.

ففي إقليم نافللت وعاصمته سجلماسة في جنوب البلاد ظهر شيخ صوفي يسمى باعجل تبعه صوفيون محاربون كثيرون، واتخذ مركزه في وادي سَوْرَة حوالي ١٦٩٣ وسار نحو سجلماسة واستولى عليها وعجز مولاي السلطان زيدان عن التصدي له، وتقدم فعبّر الجبال بجموعه ودخل مراكش ووجد مولاي زيدان نفسه عاجزاً عن الثبات أمامه، فاستعان عليه بزعيم صوفي آخر يسمى يحيى بن عبد الله الحصاص وتمكن هذا الأخير من إقحام مراكش وقتل المحلي، وظل الحصاص في مراكش حتى قام عليه سنة ١٦٢٧ شيخ صوفي أكبر وأقوى وأشهر وهو أبو الحسن السملالي المعروف بأبي حسون وأصله من ماسة. وقد أنشأ هذا الرجل في بلاد السوس إمارة صوفية ومد سلطانه على جنوب الأطلسي وظل سيداً لتواحي جنوبي المغرب حتى قيام دولة الشرفاء العلويين.

أما في شمال المغرب فقد سادت الفوضى إذ تنازعت السلطان فيه ثلاث قوى: الأولى هي نقايا قوة السعديين في فاس وسلطانهم عبد الملك بن زيدان السعدي، والثانية جماعة مهاجري الأندلس الذين نزلوا مصب نهر أبي الرقراق وأنشأوا في حوضه دويلة قاعدتها رباط الفتح. وهؤلاء المهاجرون كانوا من بين

مسلمي الأندلس الذين طردهم ملك اسبانيا فيليب الثالث بين سنتي ١٦٠٩ م و ١٦١٤م، وكان أصل هذه الجماعة التي نزلت عند رباط الفتح ببلدة تسمى في النصوص الاسبانية بآندلس سلا والى جوارهم كانت جماعة من غزاة الاسبان أصلهم من بلدة تسمى اورانشو Hornacho في اقليم الجوف الأندلسي المعروف باسم استرامادورا Estramadura أي الناحية بالغة الجفاف، ولذلك عرفوا باسم الأرناشوروس ويسمون في النصوص باسم نصاري الجديك، وقد رحب بهم مولاي زيدان وابنه عبد الملك من بعده، حاسين أنهما يجدان فيهم جندا يستعينان بهم في حروبهما، ولكن أولئك المورييسكين لم يكن لهم هم الا محاربة نصاري الجديك. وعندما ألح عليهم مولاي زيدان في ضرورة معاونته عسكرياً تمردوا عليه ووقعت الحرب بينه وبينهم، وظهر من بين الصوفية زعيم قوي هو أبو عبد الله المياش، تجمع اليه المجاهدون وساد فاس وسيطر عليها وتمرد هذا الرجل لحرب النصاري، وتمكن من الاستيلاء على بعض قواعد الاسبان حتى قتل في حربه للمورييسكين النازلين بسلا المعروفين بآندلس سلا. وكان هؤلاء قد استجاشوا بنفر آخر من الصوفية يسمون أهل زاوية الدلاء نسبة الى موقع زاويتهم الأساسية «دلاء» في اقليم نادلا شرقي فاس. واطلهم نادلا جبلي سكانه من البربر، ولهذا يسمى أهل زاوية الدلاء ببربر الدلاء.

وبعد موت العياشي في المحرم سنة ١٠٥١ هـ، أصبح السلطان في فاس وتادلا وحوض نهر سيولأهل زاوية الدلاء، ومؤسس زاويتهم هو الشيخ أبو بكر بن محمد المعروف بحبي بن سعيد بن أحمد بن عمر بن يسري المجاض، ثم خلفه ابنه وكان من كبار أهل الطريق، وقد شهد له بالكرامات أعلام الصوفية في عصره مثل الحافظ أبي العباس المقرئ والحافظ أبي العباس بن يوسف الفاسي والاسام أبي محمد بن عباس والفيق العلامة أبي عبدالله محمد مياره. وقد عظم أمر أهل زاوية الدلاء وعجز عن محاربتهم السلطان محمد الشيخ بن زيدان السعدي حتى زال سلطانه تقريباً أمامهم.

ظهور الشرفاء العلويين :

وبينما كان أمر السعديين في هبوط وروال بدأ صعود نجم جماعة جديدة من الأشراف العلويين الحسينيين، هم الأشراف العلويون وأصلهم من أشراف الحجار ومن مدينة ينبع كذلك. وقد ذكرنا أنهم أبناء عمومة السعديين، ومن الممكن أن يكون أحداهم قد وفدوا الى المغرب الأقصى في نفس الوقت الذي وفد فيه السعديون في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، وربما في القرن الذي تلاه، ونزلوا ناحية تافلات خلال القرن الثاني عشر أو الثالث عشر الميلادي، وظلوا يعيشون وسط قبائل العرب والمغاربة هناك غير ناظرين الى ملك أو رئاسة، حتى دفعتهم ظروف تدهور السعديين الى ذلك دفعاً. وكانوا طوال تاريخهم في نواحي تافلات يتمتعون بمكانة مرموقة، فكانوا شرفاء يحترمهم الناس لنسبهم الشريف، وكانوا أهل دين وعلم وعقل وحكمة، فلا عجب ان كانوا رؤساء أهل سجلماسة وتافلات علماً ومكانة وشرفاً.

وأول من يذكر من كبار رؤسائهم في النصوص المولى محمد بن الشريف السجلماسي. وقد قضوا زماناً طويلاً في مهدهم الجديد في تافلات حتى كسبوا صيتاً بعيداً واشتهروا بالدين والشهامة والعلم وأصبحت لهم رئاسة على اقليم تافلات ونجمت حولهم قوة عسكرية، ودارت مكاتبات بين شيخهم محمد بن الشريف السجلماسي والسلطان محمد الشيخ بن زيدان السعدي، وتمت بينه وبين شيوخ العلويين السجلماسيين مهادنة، فالسعديون في مراكش وما حولها الى الساحل والغلاتيون في تافلات ونواحيها، أما حوض نهر سبو أي منطقة فارس وما يليها غرباً وشمالاً فكانت أولاً تحت سلطان أهل زاوية أبي عبد الله العياشي ثم صارت الى أهل زاوية الدلاء، أما السواحل فكان معظمها بيد الاسان في حين أن مناطق الجبال كلها تقريباً كانت بلاد سية، أي بلاد تنفرد بها قائلها دون طاعة لسلطان

ومعنى ذلك أن بلاد المغرب فقدت وحدتها السياسية واحتاج الأمر الى من

يجمع شملها، وقد ضعفت دولة السعديين ضعفاً زائداً أيام السلطان أبي العباس أحمد بن محمد الشيخ بن زيدان. وقد قتله أخواله من عرب الشبانات من عرب المعقل، وعلى اثر ذلك استولى على السلطان في مراكش الرئيس عبد الكريم بن القائد أبي بكر الشباني ثم الحريري رئيس عرب الشبانات المعروف بكَروم الحاج، لفترة قصيرة ثم عاد السلطان في مراكش بعدها الى السعديين

وفي أثناء ذلك توفي المولى محمد بن الشريف العلوي الفلالي وحلفه ابنه محمد بن محمد، وكان أهل زاوية الدلاء يسيطون سلطانهم على جزء من سجلماسة، فجمع مولاي محمد بن محمد الشريف العلوي رجاله وأزاح رجال زاوية الدلاء عن سجلماسة سنة ١٦٣٨، ولم يستطع الامتداد شمالاً أو غرباً فاتجه برجاله شمالاً بشرق واستولى على وجدة وأخذ يفاور ناحية تلمسان ومن هناك حاول الاستيلاء على فاس، وكان أهلها قد ضاقوا بأهل زاوية الدلاء، ولكنهم لم يستطيعوا التغلب على الدلائيين سنة ١٦٤٩ واضطروا إلى العودة إلى تافلات.

ولكن ابنه مولاي الرشيد كان أحسن حظاً، فقد تجرد لحرب أهل زاوية الدلاء وتمكن في يونيو ١٦٦٦م من دخول فاس حيث أعلن نفسه سلطاناً، وبهذا قامت الدولة العلوية الشريفة معتمدة على قوة عسكرية منظمة، وقد انضم الشرفاء الأدارسة إليه، وتمكن من تخليص منطقة فاس من أهل زاوية الدلاء. وفي سنة ١٦٦٨م تمكن من الاستيلاء على زاويتهم الرئيسية وتدميرها، ثم دخل مراكش في السنة التالية ١٦٦٩م، وقضى على قوة عرب الشبانات وأنهى دولة السعديين وتغلب كذلك على أهل زاوية السوس اتباع أبي الحسن السملالي، وبذلك يكون السلطان الرشيد أول العلويين الفلاليين قد تمكن من إعادة توحيد الوطن المغربي فيها عدا منطقة الريف وما يليها شمالاً وفي هذه الفترة وأثناء صراع طويل بين الفرنسيين والانجليز تمكس الانجليز من الاستيلاء على صحرة حل طارق سنة ١٦٦١م، بعد رواج ملكهم شارل الثاني من

الأميرة كاتاريا وريثة عرش البرتغال، فصارت له صحرة جبل طارق وراثة ويهدا يبدأ احتلال الانجليز لها. وقد طال الصراع بين الرشيد والشيخ أعراس رئيس قبائل الريف وشمال المغرب الأقصى، وتحالف الشيخ أعراس مع الفرنسيين ليستعين بهم على الشريف الرشيد وأعطاهم مركزاً تجارياً في المزمة وهي الحسيمة وتسمى عند الفرنسيين باسم اليوريم، وتمكن السلطان رشيد من بسط سلطانه على الشمال وتوحيد المغرب الأقصى. وكان مقام السلطان رشيد مراکش وفيها مات على اثر سقوطه من على جواده سنة ١٦٧٢م، وكانت سنة لا تجاوز الثانية والأربعين ولكنه تمكن من إقامة دولة الشرفاء العلويين الفلالين الذين لا يزالون يحكمون المغرب إلى اليوم.

وقد قام أخوه وخليفته مولاي اسماعيل بتثبيت دعائم هذا الملك. وحكم مولاي اسماعيل طويلاً من سنة ١٦٧٢م إلى ١٧٢٧م، واشتهر أمره سلطاناً قوياً نشيطاً جليل الهبة، وقد طار صيت مولاي الشريف العلوي في أوروبا وفرنسا خاصة حتى قيل إنه كان على وشك أن يتزوج إحدى بنات ملك فرنسا. وقد أصبح السلطان اسماعيل أسطورة عند الغربيين، فقد كان رجلاً ضخماً طويلاً عريض المنكبين تزیده ملابسه ضخامة هيئة ومنظر، وكان سريعاً إلى الغضب والحركة، ويقال إنه كان يقضي ٥٠٠ امرأة من بينهن انجليزية وفرنسية، أنجب منهن فيما يقال ٧٠٠ ولد. لكنه على أي حال حمى حوزة بلاده وأنشأ قوة عسكرية عظيمة، واستعاد من الإسبان كل المواقع التي كانوا يحتلونها على الساحل الغربي المغربي وخلص المغرب من الفوضى وقضى على سلطان أصحاب الزوايا. وقد اعتمد مولاي اسماعيل على قوة مدرية من العبيد، السود كان يستحلهم من السودان الغربي ويمس تدريبهم في مركز كبير في مشرع الرمل بين سلا ومكاس. وكان الواحد منهم إذا أتم تدريبه أقسم على البحاري بالإخلاص ولهذا فقد سحوا البحارين أو البواحر. وكان له منهم ١٥٠,٠٠٠ رجل، منهم ٧٥,٠٠٠ يقيمون بصفة دائمة في مشرع الرمل

٢٥٠ ألفاً في مكناس، وكانت المقام المفضل لمولاي اسماعيل، ويعتبر مولاي الشريف اسماعيل من أحلاء ملوك المسلمين، وهو يقف على مستوى واحد مع أعظم حكام المسلمين خلال العصر الأخير من عصور القوة الإسلامية أي خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، من أمثال السلطان أكبر واسماعيل الصفوي ومحمد الفاتح وسليم الأول وسليمان القانوني، وقد واجه كل المصاعب التي أحاطت بالملكة المغربية ببسالة وثبات وتصميم وتمكن من اخراج الإنجليز من طنجة واستعادة الشاطئ الأطلسي للمغرب، وواجه الأتراك العثمانيين سادة الجزائر في عصره وحمل حوزته، وإن صعبت عليه استعادة سبتة ومليلة والحسيمة من الإسبان (على ساحل البحر المتوسط) ومازغان من البرتغاليين على شاطئ الأطلسي، هذا إلى جانب توحيد الكامل لبلاده والقضاء على استقلال بلاد السبئية ووضع حداً لإفساد أهل الحراية الذين كانوا يقطعون الطرق ويقلقون الأمن ويروعون الناس ويؤذونهم، وقد قضى عمره متقللاً بجيوشه من غرب بلاده إلى شرقها ومن شمالها إلى جنوبها. ونثر فيها الحصون والقلاع وشكها بالمقاتلة، فأمنت السبل وأطمأن الناس ونعمت البلاد بالرخاء.

ولكن مولاي اسماعيل كان بالغ الغاية في الاستبداد، فهو لا يستشير ولا يشار إليه، والشيء ينظر إليه فينفذه في الحال، ويغضب فيجهل على الناس وقد يقطع الرقاب، وهذه صفة نجدها - على درجات متفاوتة من الظهور - عند الكثيرين من أكابر ملوك القرشيين والمسلمين من أمثال أبي جعفر المنصور وعبد الرحمن الناصر الأندلسي وظهير الدين باير وجلال الدين أكبر والسلطان سليم الأول العثماني والظاهر ركن الدين بيبرس، ويبدو أن كثرة المشاغل والأخطار وتوالي الأعداء تنزع من قلوبهم الرحمة والصبر وطول البال والاحساس بالأمم الناس، وأخمار مولاي اسماعيل في ذلك كثيرة وقد لاحظ عليه هذه الظاهرة الكثيرون من سفراء الفرنسيين الذين زاروه، ولكنه على أي حال حمل حوزة بلاده ووجد دولته ورفع هبة السلاطين في المغرب بعد طول ضعف وتدهور

واستخفاف، والدول في تلك العصور ربما كانت تحتاج الى مثل هذه الصفات

وهذا الملك القرشي الهاشمي الممام كان معاصراً للويس الرابع عشر، فقد حكم من سنة ١٦٧٢ الى ١٧٢٧م. وحكم لويس الرابع عشر من سنة ١٦٣٨ الى ١٧١٥م، وتشابه الرجلان في الاستبداد والاعتزاز بالملك واتساع النشاط، ولكن مولاي اسماعيل يُفضّل لويس الرابع عشر في كثير، فبالكل حروب مولاي اسماعيل كانت دفاعاً عن بلاده وحوريتها ووحدتها، بينما كانت كل حروب لويس الرابع عشر حروب غرور وعدوان وخيلاء، وقد خسرت فرنسا والفرنسيون من جراء ذلك خسائر فادحة، ومهما نقول في اعتزاز مولاي اسماعيل بنفسه وملكه وسلطانه فقد سلم من ذلك الغرور المقيت الذي ينغر الانسان من لويس الرابع عشر، وبينما كان لويس الرابع عشر جامداً كالصخرة، كانت في مولاي اسماعيل رقة تبدو عليه اذا هادنته الأيام وصفت نفسه، وقد أنشأ الكثير من المساجد والمدارس، ومرجع ذلك كله الى الاسلام والهاشمية. وكما بدأ لويس الرابع عشر في انشاء قصور فرساي كان مولاي اسماعيل صاحب الفضل في تعمير مكناس وانشاء عمائرها البديعة وأسوارها السامقة وبواباتها التي تعتبر من مفاخر العمارة الاسلامية، ولا زالت مكناس الى يومنا هذا بموقعها ورياضها وحدائق زيتونها (مكناس الزيتون) تبهر أعينا وتذكرنا بمولاي اسماعيل. وهذه هي ثاني مدينة عظيمة يعمرها القرشيون الهاشميون في المغرب الأقصى: الأولى فاس الادارة والثانية مكناس العلويين، وكلتاهما من مفاخر حضارة الاسلام.

والى هذا الأساس المكين الذي وضعه مولاي اسماعيل لدولة الشرفاء العلويين، يرجع الفضل في بقاء هذه الدولة القرشية الهاشمية الى يومنا هذا واحدة من أعظم دول الاسلام، وثانية الدول الهاشمية التي لا زالت تمثل قريشا في عالمنا الراهن. ولقد طال عمر هذه الدولة - ويطول ان شاء الله - وتعاقبت عليها صروف الدهر وتقلب عليها السنين بين سعود وبحوس، ويكفيها أنها صمدت لمحنة الاحتلال الفرنسي وأخرجت منه القطر المغربي سالماً على يد ملك

قرشي هاشمي ونطل من أبطال التحرير العربي الإسلامي هو مولاي محمد بن يوسف المعروف في حوليات الإسلام المعاصر بمحمد الخامس . وفي سبيل حرية بلاده نفي إلى مدعشقر ثم عاد متصراً لكي يجمع شتات شعبه ويستكمل استقلال بلاده ويفتح في تاريخه عصراً جديداً زاهراً من التقدم والازدهار، ويحلقه في القيادة ابنه الحسن بن محمد بن يوسف وهو الحسن الثاني . وهو رمز من رموز وحدة شعبه وعلم من أعلام التقدم والبهوض في عالم العرب .

وعلى ذكر هؤلاء الملوك الثلاثة القرشيين الهاشميين : الحسين بن طلال ملك الأردن ومحمد بن يوسف وابنه الحسن الثاني بن محمد ملكي المغرب نقف بهذا البحث عن قريش في التاريخ ، بدأناها وقريش قبيل صغير منحدر من فلسطين في ثانيا قبيلتها الأم كنانة من قبيل الياس بن مضر قبل البعثة المحمدية ربما بسبعة قرون أو ثمانية ، فقد دخلت مضر كلها الجزيرة فيمن دخلها مع أولاد إسماعيل عليه السلام في موجة العرب المستعربة ، وتبعنا تاريخها منذ ظهورها على مسرح الأحداث من أيام فهر بن مالك بن النضر بن كنانة الى عصرنا هذا خلال ما يزيد على ستة عشر قرناً ، ورأينا كيف استطاعت هذه القبيلة أن تغالب الأحداث : تعلقوا حيناً وتببط حيناً آخر ، تطفو على سطح الماء حيناً وتغوص حيناً ، ولكنها لا تغرق قط بفضل الحموية النابضة في كيانها وقدرتها على مغالبة الفناء ، ونهبنا في كل حين إلى أسباب الصعود وأسباب الهبوط ، وانتبهنا الى أيامنا هذه حتى وقفنا عند الدولتين الكبيرتين الباقيتين لقريش : دولة الهواشم الحسينيين في الأردن ، ودولة الشرفاء العلويين في المغرب الأقصى ، ووقفنا عند محمد الخامس والحسين بن طلال والحسن بن محمد ، وهم من عترة رسول الله محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب رسول الله ورحمته المهداة ، وعند ذكر أولئك الثلاثة من ملوك عصرنا نقف بهذا الحديث الذي طال ، قصصنا فيه قصة - قريش - أصغر قبيلة في التاريخ ، التي جعلها الاسلام ورسوله ﷺ أعظم قبائل التاريخ ، هنا نقف بالحديث عند ذكر المصطفى صلوات الله عليه وحفيديه الحسن والحسين ، وهو

أجل ما نفق عنه فقد كتب الله لقريش البقاء على الأيام بفضل محمد صلوات
الله عليه والحسن والحسير، وهل هناك ختام منك هو أجل من ذكر المصطفى
صلوات الله عليه وسبغته الشهيدان ريجانتي أهل الحمة؟

تم التاريخ
والحمد لله سبحانه
بعد ظهر الثلاثاء
الخامس والعشرين من
ربيع الأول سنة ١٤٠٥ هـ
الثامن عشر من ديسمبر ١٩٨٥ م

مصادر الكتب

أولاً : مصادر عربية :

- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاة (ت ٦٥٨ هـ) :
(أ) اعتاب الكتاب، بتحقيق صالح الأشر، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق
سنة ١٣٨٠ هـ / ١٩٦١ م .
(ب) الحلة السراء، بتحقيق د. حسين مؤنس .
- الأبهسي، شهاب الدين محمد بن حمد بن أبي الفتح (ت ٨٥٠ هـ) :
المستطرف في كل فن مستظرف - جزءان ، المطبعة التجارية الكبرى (بيون تاريخ
طبع).
- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الجزري (ت ٦٣٠ هـ) :
(أ) أسد الغابة في معرفة الصحابة - ٧ مجلدات ، كتاب الشعب - القاهرة ١٩٧٠ م .
(ب) الكامل في التاريخ - ٩ أجزاء ، المكتبة المنيرة بالقاهرة سنة ١٣٤٩ هـ .
- الإدريسي، أبو عبد الله محمد اللواتي الطنجي (ت ٥٦٠ هـ) :
نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، مخطوط بدار الكتب المصرية (رقم ١٥٠ جغرافيا) .
- أرنولد، توماس :
(أ) الخلافة، ترجمة جميل معلي، دار اليفظة بدمشق ١٩٤٦ م .
(ب) الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسس إبراهيم حسن وآخرين، مكتبة النهضة
المصرية - الطبعة الثانية سنة ١٩٤٧ م .

- الأزدي، أبو زكريا يزيد بن محمد بن إياس بن القاسم (ت ٩٤٥ هـ).
تاريخ الموصل، تحقيق علي حبيبة، دار التحرير للطبع والنشر ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م.
- الأزرقى، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت ٢٥٠ هـ).
أحبار مكة وما حاء فيها من الآثار - جزء ١، دار الأندلس (بدون تاريخ طبع).
- الإصفرائيلي، أبو المظفر (ت ٤٧١ هـ):
التصنيف في الدين وتمييز الفرق الشاذية عن الفرق المالكية، تحقيق محمد زاهد بن الحسن الكوثري، مطبعة الأنوار، الطبعة الأولى ١٣٥٩ هـ / ١٩٤٠ م.
- إسماعيل، محمود:
الحركات السرية في الإسلام، مطبعة روز اليوسف ١٩٧٣ م.
- الأشرف، أبو العباس إسماعيل:
فاكهة الزمان ومفاكهة الآداب والفن في أخبار من ملك اليمن، مخطوط بدار الكتب المصرية (رقم ١٤٠٩ تاريخ).
- الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت ٣٢٤ هـ):
مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين - جزء ١، تصحيح: هـ. ريتز، مطبعة الدولة، استانبول سنة ١٩٢٩ م.
- ابن الأصبغ، حرام (ت في القرن الثالث الهجري):
أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من الفرى وما ينبت عليها من الأشجار وما فيها من الحياة، نوادر المخطوطات، بتحقيق عبد السلام هارون، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م.
- الأصغهباني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦ هـ):
أم الأغالي - ٢٤ جزءاً، الأجزاء ١ - ١٦ مطبعة دار الكتب سنة ١٩١٣ م ثم ابتداء من الأجزاء ١٧ - ٢٤ بتحقيق علي محمد النجاوي وعدد الكريم اسراهم، الهيئة العامة للتأليف والنشر، دار الكتاب العربي ١٣٨١ هـ / ١٩٧٠ م.
- ب) مقاتل الطالبين، بتحقيق السيد أحمد صقر، مطبعة إحياء الكتب العربية سنة ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م

- الأصمعي، أبو سعيد عبد الملك بن قريب (ت ٢١٦ هـ)
- الأصمعيات، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٦٨ م.
- الأفغاني، سعيد.
- أسواق العرب، دار الفكر - دمشق (الطبعة الثانية) ١٩٦٠ م.
- الأكوخ، محمد بن علي:
- الوثائق السياسية البحرية، دار الحرية - بغداد سنة ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م.
- الألوسي، محمود شكري:
- تاريخ نجد، بتحقيق محمود بهجة الأثري، بغداد سنة ١٣٤٧ هـ.
- أمين، صالح محمد:
- النظام المالي والاقتصادي في الإسلام، مكتبة نهضة الشرق - القاهرة (الطبعة الأولى) سنة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م.
- انطوان، نعيان:
- الطائر الغريد في وصف البريد، مطبعة المقتطف، القاهرة ١٩٨٠ هـ.
- الأهدل، الحسين بن عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٥٥ هـ):
- تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن، مخطوط بدار الكتب المصرية (رقم ٧٧٥ تاريخ تيمور).
- البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦ هـ):
- أ) الجامع الصحيح، بريل - ليدن سنة ١٨٦٢ م.
- ب) كتاب التاريخ الكبير - ٥ أجزاء، دار الكتب العلمية - بيروت (بدون تاريخ طبع).
- بنخيت، عبد الحميد:
- الخلافة الإسلامية (عصر الراشدين)، دار العلم العربي - القاهرة ١٩٥٣ م.
- البرادي، أبو القاسم إبراهيم (عاش في القرن الثامن الهجري):
- الجواهر المستقاة، القاهرة سنة ١٨٨٤ م.

- بروكلمان، كارل

تاريخ الشعوب الإسلامية (العرب والأمراطورية العربية)، ترجمة نبيه أمين فارس ومير البعلبكي دار العلم للملايين، بيروت - الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨ م.

- البغدادي، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ٧٣٩ هـ).

مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع - ٣ أجزاء تحقيق علي محمد الجاوي مطبعة دار إحياء الكتب العربية - القاهرة - الطبعة الأولى سنة ١٩٥٤ م - ١٣٧٣ هـ

- البغدادي، عبد القاهر بن عمر (ت ١٠٩٣ هـ):

خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب - ١١ جزءاً تحقيق عبد السلام محمد هارون. مطبعة دار الكتاب العربي للطباعة والنشر سنة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م.

- البغدادي، عبد القاهر بن طاهر بن محمد (ت ١٠٣٧ هـ):

الفرق بين الفرق، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد.

مطبعة المدني - القاهرة - بدون تاريخ طبع.

- ابن بكار، الزبير (ت ٢٥٦ هـ): جهرة نسب قريش وأخبارها

تحقيق محمود محمد شاكر.

مطبعة المدني سنة ١٣٨١ هـ

- البكري، أبو هيب عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧ هـ):

معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع - ٤ أجزاء - تحقيق مصطفى السقا.

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى سنة ١٩٤٥ م.

- البكري، صلاح:

تاريخ حضرموت السياسي - جزءان، المطبعة السلفية - الطبعة الأولى سنة ١٣٥٤ هـ

- البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ):

أنساب الأشراف:

الجزء الأول، بتحقيق محمد حميد الله، دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٥٥ م

الجزء الأول - القسم الثالث، بتحقيق عبد العزيز الدوري، بيروت ١٩٧٨ م

- الجزء الأول - القسم الرابع، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٧٩ م.
- الجزء الخامس، مطبعة القدس ١٩٣٦ م، والمطبعة المصرية بالقاهرة ١٩٣٢ م
- الجزء الحادي عشر، مطبعة يولس أبل - غريفر ولد سنة ١٨٨٣ م.
- الأجزاء. ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، مخطوط سدار الكتب المصرية (رقم ٤٨٥٦ تاريخ).
- ب) فتوح البلدان، المطبعة المصرية، القاهرة - الطبعة الأولى ١٣٥٠ هـ.
- بليانيف، ي. أ.:
- العرب والإسلام والخلافة العربية، ترجمة: أنيس فريجة، بيروت - الطبعة الأولى سنة ١٩٧٣ م.
- بندقجي، حسين حمزة:
- جغرافية المملكة العربية السعودية، الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٧٧ م.
- بيضون، ابراهيم:
- الحجاز والدولة الإسلامية، بيروت - الطبعة الأولى سنة ١٩٨٣ م.
- بفولفسكيا، نيتالكتورفنا:
- العرب على حدود بيزنطة وإيران (من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلادي)، ترجمة صلاح الدين عثمان، الكويت ١٩٨٥ م.
- ترسيس، هذنان:
- اليمن وحضارة العرب، دار مكتبة الحياة - بيروت (بدون تاريخ طبع)
- تزيلى، طيب:
- مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط، دمشق ١٩٧٥ م.
- ابن تيمية، تقي الدين:
- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، دار الكاتب العربي، مصر - الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٥ م.
- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (ت ٤٢٩ هـ)
- لطائف المعارف، تحقيق ابراهيم الأبياري وحسن كامل الصيرفي.

- دار إحياء الكتب العربية - القاهرة - سنة ١٩٦٠ م .
- ثعلب ، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت ٢٩١ هـ)
عالمس ثعلب (قسما)، تحقيق عبد السلام محمد هارون
دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٨ م
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ)
البيان والتبيين، تحقيق فوزي عطوي .
دار صعب - بيروت سنة ١٩٦٨ م
- ب) الحيوان - سبعة أجزاء، مكتبة الخليلي - الطبعة
الأولى - سنة ١٣٥٩ هـ - مطبعة البابي - ١٩٤٠ م .
- ج) رسائل الجاحظ (جزءان)، تحقيق عبد السلام هارون .
مطبعة الخانجي - القاهرة سنة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥
- الجاسر، حمد:
في شمال غرب الجزيرة، منشورات دار اليمامة، الرياض - الطبعة الأولى ١٩٧٠ م .
- جب، هاملتون:
دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة إحسان عباس وآخرين، دار العلم للملايين -
بيروت ١٩٦٤ م .
- جمعة، محمد محمود:
النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم الإسلامية، القاهرة سنة
١٩٤٩ م .
- الجهنشيري، أبو عبدالله محمد بن عبدوس (ت ٣٣٠ هـ):
الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحميد شلي،
مطبعة البابي الخليلي - الطبعة الأولى سنة ١٩٣٨ م .
- جواد علي:
المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - ١٠ أجزاء، دار العلم للملايين - بيروت،

الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٠ م.

- الجوزي، بنبلي.

تاريخ الحركات العسكرية في الإسلام، الجزء الأول من تاريخ الحركات الاحتجاجية،
مطبعة بيت المقدس سنة ١٩٢٨ م.

- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧ هـ):

(أ) سيرة عمر بن عبد العزيز، نشر بحسب الدين الخطيب، مطبعة المؤيد، القاهرة
١٩٢١ م.

(ب) صفة الصفوة (٣ أجزاء)، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بمدينة حيدر آباد الدكن
بألمند، سنة ١٣٥٥ هـ.

(ج) القصاص والمذكرين، تحقيق مارلين سوارتز، دار المشرق - بيروت، (بدون
تاريخ طبع).

- الجوهري، يسري عبد الرازق:

(أ) الوطن العربي (دراسة في الجغرافية التاريخية والاقليمية)، الهيئة العامة للكتاب،
القاهرة سنة ١٩٧٩ م.

(ب) جغرافية الشعوب الإسلامية، منشأة المعارف، الاسكندرية ١٩٨١ م.

- الحارثي، سالم بن حمد بن سليمان:

العقود الفضية في أصول الأباضية، عمان ١٩٨٣ م.

- ابن حبيب، أبو جعفر محمد (ت ٢٤٥ هـ):

(أ) كتاب المحبر، تحقيق ايلزة ليشنشترن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بمدينة حيدر آباد
الدكن بألمند، سنة ١٩٤٢ م.

(ب) المنق في أخبار قريش، بتحقيق خورشيد أحمد فاروق والكتابان مطبوعان بمطبعة
الجامعة العثمانية بألمند سنة ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م.

- حتي، فيليب:

(أ) تاريخ العرب (مطول)، ٣ أجزاء، الجزء الأول، دار الكشاف للنشر والطباعة
والتوزيع - بيروت الطبعة الثالثة ١٩٥٨ م.

- ب) العرب (تاريخ موحد)، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٤٦ م.
- ابن حجر، أحمد بن علي بن محمد (ت ٨٥٢ هـ):
الإصانة في تمييز الصحابة (٤ أجزاء)، دار الكتاب العربي (مدون تاريخ طبع)
- الخداد، محمد يحيى:
 - تاريخ اليمن السياسي، الجزءان: الأول والثاني، دار وهدان للطباعة والنشر،
القاهرة - الطبعة الأولى - ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م.
 - ابن أبي الحديد، عز الدين أبو حامد هبة الله (ت ٦٥٥ هـ):
شرح نهج البلاغة (٢٢ جزءاً)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب
العربية، القاهرة ١٩٦٥ م.
 - الحربي (ولد سنة ١٩٨ هـ):
المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق حمد الجاسر، دار النخبة - الرياض
سنة ١٩٦٩ م.
 - ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد (ت ٤٥٦ هـ):
أ) جهمرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف - القاهرة
١٩٨٢ م.
 - ب) الفُصل في الملل والأهواء والنحل (٥ أجزاء)، المطبعة الأدبية بالقاهرة سنة
١٣٢١ هـ.
 - حسن، حسن إبراهيم:
 - تاريخ الإسلام السياسي، (٤ أجزاء) طباعات كثيرة عن النهضة المصرية، القاهرة.
 - حسونة، محمد أحمد:
 - أ) الجغرافية التاريخية الإسلامية، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة ١٩٥٠ م.
 - ب) دراسات في العالم العربي، النهضة المصرية - القاهرة ١٩٥٨ م.
 - الحسيني، عبد المحسن:
 - الاقسام الجغرافية للجزيرة العربية، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، المجلد
الحادي عشر ١٩٦٤ م.

- حسين، مولوي س. أ. ق. الإدارة العربية، ترجمة ابراهيم أحمد العدوي، مطبعة الآداب ١٩٥٨ م.
- حقيقي، عبد الحليم شعر الصعاليك (منهجه وخصائصه) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩ م.
- حلمي، محمد: الخلافة والدولة في العصر الأموي، مكتبة الشباب، القاهرة ١٩٧٤ م.
- حمدان، جمال: (أ) أنماط من البيئات، مطبعة لجنة البيان العربي - القاهرة (بدون تاريخ طبع).
(ب) العالم العربي، القاهرة ١٩٧١ م.
- ابن حميد السالمي، نور الدين عبدالله: تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، جزءان، مطبعة الشباب، القاهرة ١٣٥٠ هـ.
- حميد الله، محمد: مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤١ م، وأعيد طبعه مراراً بعد ذلك.
- الحنفي، قطب الدين (ت ٩٨٨ هـ): تاريخ القرطبي المسمى كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام في تاريخ مكة المشرفة، شرح وتعليق محمد ضاهر بن الكردي، المكتبة العلمية بمكة المشرفة ١٩٧٠ م.
- أبو حنيفة، أحمد بن داود الدينوري (ت ٢٨٢ هـ): الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٠ م.
- حوراني، جورج فاضلو: العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى، ترجمة السيد يعقوب بكر، الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٥٨ م.
- الحوفي، أحمد محمد:

أدب السياسة في العصر الأموي، مطبعة نهضة مصر، القاهرة - الطبعة الأولى سنة ١٩٦٠ م.

- ابن حوقل، أبو القاسم (من علماء القرن الرابع الهجري):

صورة الأرض - جزاء، ليدن - الطبعة الثانية ١٩٣٨ م.

- ابن خرداذبة، أبو القاسم عبدالله بن عبدالله (ت ٣٠٠ هـ):

المسالك والممالك، بريل - ليدن سنة ١٨٨٩ م.

- الخطّاف، أبو بكر أحمد بن عمر بن مهير الشيباني (ت ٢٦١ هـ):

أدب القاضي، شرح الجصاص أبو بكر أحمد بن علي الرازي، تحقيق فرحات زيادة، قسم النشر بالجامعة الأمريكية، القاهرة ١٩٧٩ م.

- الخضرى، محمد:

تاريخ الأمم الإسلامية - جزاء، المكتبة التجارية - القاهرة.

- ابن خلدون، عبد الرحمن (ت ٨٠٨ هـ):

أ) العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، طبعة بولاق (٧ أجزاء).

ب) المقدمة، المطبعة الأزهرية - القاهرة سنة ١٣٤٨ هـ.

- ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم (ت ٦٨١ هـ):

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، (٦ أجزاء)، بتحقيق محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٥٢ - ١٩٥٤ م.

- خليف، يوسف:

الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف - القاهرة ١٩٥٩ م.

- ابن محبس، عبدالله بن محمد:

المحارب بين اليمامة والحجاز، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض (بدون تاريخ طبع)

- الخوارزمي، أبو عبدالله محمد بن أحمد يوسف الكاتب (ت ٣٨٧ هـ):

مفاتيح العلوم، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة (الطبعة الثانية)، سنة ١٩٨١ م.

- ابن خياط، خليفة (ت ٢٤٠ هـ):
أ) تاريخ خليفة من خياط، الجزء الأول، تحقيق أكرم ضياء العمري، مطبعة الآداب في النجف الأشرف، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٧ م.
- ب) الطبقات، تحقيق سهيل زكار، مطابع وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، دمشق سنة ١٩٦٦ م
- دائرة المعارف الإسلامية:
جامعة من المستشرقين، ترجمة عبد الحميد يونس وآخرين، القاهرة ١٩٣١ م، والطبعة الثانية صدر منها إلى الآن خمسة أجزاء، لم يترجم منها شيء.
- دبور، محمد علي:
تاريخ المغرب الكبير (٣ أجزاء)، إحياء الكتب العربية، القاهرة (طبعة أولى)، سنة ١٩٦٣ م.
- الدرجين، أبو العباس أحمد بن سعيد (ت ٦٧٠ هـ):
طبقات المشايخ بالمغرب (جزءان)، تحقيق إبراهيم طلاي، طبع الجزائر سنة ١٩٧٤ م.
- ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن أحمد (ت ٨٠٩ هـ):
الانتصار بواسطة عقد الأمصار، المطبعة الكبرى - بولاق - القاهرة سنة ١٨٩٣ م.
- الدمشقي، شمس الدين أبي عبد الله محمد أبي طالب الأنصاري (ت ٧١٧ هـ):
نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مطبعة ليزج سنة ١٩٢٣ م.
- الدوري، عبد العزيز:
مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، منشورات مكتبة المثنى - بغداد - سنة ١٩٤٩ م.
- ابن الديبع الشيباني، عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٩٤٤ هـ):
قرة العيون في أخبار اليمس الميعون، مخطوط بدار الكتب المصرية (برقم ٢٢٤ تاريخ)
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ):
أ) تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام - ٤ أجزاء مكتبة القدس - القاهرة سنة

ب) دول الإسلام - جزءان، دائرة المعارف المطامية - حيدر آباد الدكن، سنة ١٣٣٧ هـ - الطبعة الأولى.

ج) سير أعلام النبلاء: ٣ أجزاء، تحقيق صلاح الدين المسجد دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٦٢ م.

د) العبري خبر من غير - جزءان، تحقيق صلاح الدين المنجد، دائرة المطبوعات والنشر - الكويت - سنة ١٩٦٠ م.

- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر (ت ٦٠٦ هـ) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، مراجعة علي سامي النشار، مطبعة النهضة المصرية سنة ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٨ م.

- الرازي، أحمد بن عبد الله (ت ٤٦٠ هـ): تاريخ صنعاء اليمن، مخطوط بدار الكتب المصرية (برقم ٥٣٧٨ تاريخ).

- ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر (ت ٣٩٠ هـ): الأعلام النفيسة، مطبعة بريل - لندن سنة ١٨٩١ م.

- الرئيس، محمد ضياء الدين: الحراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، مطبعة الأنجلو المصرية - الطبعة الثانية سنة ١٩٦١ م.

ب) النظريات السياسية الإسلامية، مكتبة دار التراث - القاهرة - الطبعة السادسة.

- زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة - جزءان، ترجمة زكي محمد حسن وآخرين، جامعة مؤاد الأول - القاهرة سنة ١٩٥١ م.

- زهايم، رودولف: فتنة عبدالله بن الزبير، ترجمة حسام الصغير، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، جزء ٤، مجلد ٤٩، سنة ١٩٧٣ م.

- زيدان، حورجي
- (أ) تاريخ التمدن الإسلامي، مطبعة الهلال، القاهرة الطبعة الخامسة بإشراف د حسين مؤنس، القاهرة ١٩٥٧.
- (ب) العرب قبل الإسلام، الجزء الأول.
- سالم، السيد عبد العزيز:
- (أ) دراسات في تاريخ العرب - جزءان، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٧ م.
- (ب) تاريخ الدولة العربية (تاريخ العرب منذ ظهور الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية) مطبعة مؤسسة الثقافة الجامعية، القاهرة.
- (ج) تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبعة مؤسسة الثقافة الجامعية، القاهرة ١٩٧٣ م.
- السجستاني، أبو حاتم (ت ٢٥٠ هـ):
- المعمرون والوصايا، تحقيق عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٦١ م
- السخاوي، شمس الدين (ت ٩٠٢ هـ):
- التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، ٣ أجزاء، القاهرة ١٩٥٨ م.
- السدوسي، مؤرج بن عمرو (ت ٢٣٠ هـ):
- حذف من نسب قريش، نشر صلاح الدين المنجد، دار المدني - مصر ١٩٦٠ م.
- سرور، محمد جمال الدين:
- الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية خلال القرنين الأول والثاني بعد الهجرة، القاهرة - دار الفكر العربي ١٩٦٠ م.
- ابن سعد، محمد (ت ٢٣٠ هـ):
- الطبقات الكبرى (٩ أجزاء)، بتحقيق إدمار سخاو - يوليوس ليرث، مطبعة بريل - ليدن سنة ١٣٣٥ هـ، وعلى أساسها عملت دار الشعب طبعها في ثمانية أجزاء، وقد اعتمدنا عليها.
- سعداوي، نظير حسان:
- نظام البريد في الدولة الإسلامية، دار مصر للطباعة - القاهرة ١٩٥٣ م

- سليمان، حسين عمود:
تقيف من ظهور الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية، رسالة ماحستير، كلية الآداب،
جامعة القاهرة، ١٩٧٢ (رقم ١٠٤٢)
- ابن سلام الاباضي (ت ٢٧٣ هـ):
الإسلام وتاريخه من وجهة نظر إنصائية، تحقيق ف. شعارتمز وسالم مدر يعقوب، دار
إقرأ للنشر والتوزيع، بيروت. الطبعة الأولى سنة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.
- ابن سلام الجمحي، محمد (ت ٢٣١ هـ).
طبقات الشعراء، بتحقيق الأستاذ الشيخ محمود محمد شاكر، الطبعة الثانية في جزأين،
القاهرة.
- ابن سلام، أبو حبيد القاسم (ت ٢٢٤ هـ):
الأسوال، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة، الطبعة الثالثة سنة
١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م.
- ابن سمرة الجعدي، عمر بن علي (عاش في القرن السادس الهجري):
طبقات فقهاء اليمن وعيون من أخبار سادات رؤساء الزمن، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة
السنة المحمدية، القاهرة ١٩٥٧ م.
- السهمودي، نور الدين علي بن أحمد (ت ١٠١١ هـ):
وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ﷺ، جزءان، مطبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة
١٣٢٦ هـ.
- السياب، سالم بن حمود:
أ) الزلة الوعثناء عن اتناع أبي الشعثاء، مطابع سجل العرب، القاهرة ١٩٧٩ م
ب) الحقيقة والمجاز في تاريخ الانصاية باليمن والحجار، مطابع سجل العرب
بالقاهرة سنة ١٠٠ هـ / ١٩٨٠ م.
- ج- طلفات المعهد الرياضي في حلقات المذهب الانصائي، مطابع سجل العرب،
القاهرة سنة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م

- السيد، رضوان :

الأمة والجماعة والسلطة، دار إقرأ للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت ١٩٨٤م

- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت ٤٥٨ هـ).

المحصى (٥ مجلدات)، مركز الموسوعات العالمية، بيروت ١٩٧٥ م.

- سيف ابن همر (ت ٢٠١ هـ):

الفتنة ووقعة الجمل، جمع وتصنيف أحمد راتب عرموس، دار النفائس، بيروت سنة ١٩٧٢ م.

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ):

تاريخ الخلفاء، المطبعة الميمنية، القاهرة سنة ١٣٠٥ هـ.

- الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس (ت ٢٦٤ هـ):

الأم - سبعة أجزاء، المطبعة الأميرية - القاهرة - الطبعة الأولى سنة ١٣٢١ هـ.

الشريف، أحمد إبراهيم:

دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة، دار الفكر العربي بالقاهرة - الطبعة الأولى سنة ١٩٦٨ م.

- الشياخي، أبو العباس أحمد بن سعيد بن عبد الواحد (ت ٧٩٢ هـ):

السير، طبع حبر بالقاهرة (بدون تاريخ طبع).

- الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم (ت ٤٥٨ هـ):

الملل والنحل - جزءان، تحقيق محمد بن فتح الله بدران، مطبعة الأزهر - القاهرة - الطبعة الأولى سنة ١٩٥١ م.

- صادق، دولت أحمد:

جغرافية العالم (دراسة إقليمية) الجزء الأول (آسيا وأوروبا)، مكتبة الأنجلو - سنة ١٩٦٥ م.

صالح، صبحي:

الظلم الإسلامية شأتها وتطورها، دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة الأولى سنة

١٩٦٥ م

- الصواوي، صالح بن أحمد.
الإمام حاصر من ريد العماني وآثاره في الدعوة، مطبعة الألوان الحديثة سنة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م

- الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى (ت ٣٣٦ هـ):
أدب الكتاب، تصحيح محمد هبة الأثري المطبعة السلفية - القاهرة سنة ١٣٤١ هـ
- ضراو، صالح:

العرب من معين إلى الأمويين، دار مكتبة الحياة - بيروت (بدون تاريخ طبع).

- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ):
أ) تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (١٠ أجزاء)، دار المعارف - القاهرة - الطبعة الرابعة ١٩٧٩ م

ب) اختلاف الفقهاء، نشر يوسف شاخنت، مطبعة بريل - لندن سنة ١٩٣٣ م.

- الطرطوشي، أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد (ت ٥٢٠ هـ):
سراج الملوك، المطبعة المحمدية التجارية، القاهرة - الطبعة الأولى سنة ١٩٣٥ م.

- ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (ت ٧٠٩ هـ):
الفخري في الأدب السلطانية والدول الإسلامية، القاهرة سنة ١٣٨١ هـ / ١٩٦٢ م.
- طلس، محمد أسعد:

عصر الانساق (تاريخ بني أمية)، دار الاندلس للطباعة والنشر، بيروت - لبنان -
الطبعة الأولى سنة ١٩٥٨ م.

ابن طولون، شمس الدين (ت ٩٥٣ هـ):
قضاة دمشق (الشعر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام) «مرفق به كتاب القضاة
الشافعية لمحيي الدين النعمي». تحقيق صلاح الدين المنجد، المجمع العلمي
العربي - دمشق سنة ١٩٥٩ م.

ابن ظهيرة، جمال الدين محمد جاد الله بن محمد نور الدين (القرن العاشر الهجري):
الحامع اللطيف في فصل مكة وأهلها ومناه البيت الشريف. مطبعة عيسى البابي الحلبي -
لطعة الثانية سنة ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م

العباسي، أحمد بن عبد الحميد (ت القرن العاشر الهجري):
شرح شواهد التلخيص (المسمى معاهد التنصيص - حزان - المطبعة البهية - القاهرة
سنة ١٣١٦ هـ

ابن عبد البر، (ت ٤٦٣ هـ).

الاستيعاب في أسماء الأصحاب ومرفق بكتاب الإصابة لابن حجره - ٤ أجزاء.
دار الكتاب العربي - بدون تاريخ طبع.

ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبدالله (ت ٢١٤ هـ):

أ) سيرة عمر بن عبد العزيز، تعليق أحمد عيد، مطبعة وهبة - بدون تاريخ طبع.

ب) فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، مطبعة لجنة البيان العربي سنة
١٩٦١ م

ج) فتوح أفريقية والأندلس مع ترجمة فرنسية وتعليقات، عمل البرث جاتو - مدينة
الجزائر سنة ١٩٤٧ م.

- عبد الحكيم، محمد صبحي:

الوطن العربي - أرضه وسكانه وموارده، الأنجلو بالقاهرة سنة ١٩٨٠ م.

- ابن عبد ربه، شهاب الدين أحمد (ت ٣٢٨ هـ):

العقد الفريد (٤ أجزاء) - المطبعة الأزهرية - القاهرة - الطبعة الثانية سنة
١٣٤٦ هـ - ١٩٢٨ م

- عبدالله، أمين محمود:

الجغرافية التاريخية لحوض البحر الأحمر، المطبعة الحديثة - القاهرة ١٩٧١ م

- أبو عبيدة، معمر بن المثنى (ت ٢٠٩ هـ):

نفاثات حريير والمرردق - ٣ أجزاء، تحقيق أنطوني بيغان، لندن ١٩٠٩ م.

- المييدي، عبد الجبار.

تاريخ الطائف حتى الفتح الإسلامي.

- العجلاني، منير

عقريّة الإسلام في أصول الحكم، دار الكتاب الجديد - بيروت. الطبعة الثانية سنة ١٩٦٥م

- العدوي، إبراهيم أحمد:

(أ) الأمويون والبيزنطيون (البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية).

مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة.

(ب) النظم الإسلامية (مقاومتها الفكرية ومؤسساتها التنفيذية في صدر الإسلام والعصر الأموي). مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة سنة ١٩٧٢ م.

- ابن عرنوس، محمود بن محمد:

تاريخ القضاء في الإسلام، مطبعة الحلبي - مصر.

- عروة والسموأل: ديوانا عروة بن الورد بن زياد العبسي (ت ٥٩٦هـ)،

وغريص بن عادي الفسائي (ت ٥٦٠هـ)، دار صادر - بيروت ١٩٦٤ م.

- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١هـ):

تهذيب تاريخ دمشق الكبير - ٧ أجزاء - دار المسيرة ١٩٧٩ م.

- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت ٣٩٥هـ):

كتاب الأوائل، تحقيق محمد السيد الوكيل، المدينة المنورة ١٩٦٦ م.

- العلوي، هادي:

في السياسة الإسلامية (الفكر والممارسة) دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت سنة

١٩٧٤م.

- العلي، صالح أحمد:

محاضرات في تاريخ العرب - الجزء الأول. مطبعة المعارف - بغداد - العراق - سنة

١٩٥٥م.

- ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحمي (ت ١٠٨٩هـ):

شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٨ أجزاء) مكتبة القدس - القاهرة ١٣٥٠ هـ

- عمارة، محمد

الحلافة وشاة الأحزاب الإسلامية، دار الهلال - سنة ١٩٨٣ م

- ابن العمري، شهاب الدين :

التعريف بالمصطلح الشريف مصر - ١٣١٢ هـ .

- عوض، إبراهيم نجيب محمد :

القضاء في الإسلام (تاريخه ونظامه).

مطبعة الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية سنة ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م .

- غنيم، أحمد محمد :

تطور الملكية الفردية، الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة بدون تاريخ طبع .

- الفاسي، أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد (ت ٨٣٢ هـ) :

(أ) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (جزءان) دار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٥٦ م .

(ب) العقد الثمة : في تاريخ البلد الأمين (٨ أجزاء)، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة السنة المحمدية سنة ١٩٥٩ م .

- الفاكهي :

المنتقى في أخبار أم القرى

منتخبات من «تاريخ مكة» ومن «شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام» للفاسي، ومن كتاب الجامع اللطيف في فضائل مكة وبناء البيت الشريف لابن ظهيرة، لبيزج سنة ١٨٥٩ .

فانسنيك، أ.ي :

المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، بريل - لندن سنة ١٩٦٣ م

- فخري، أحمد :

(أ) اليمس (ماضيها وحاضرها)، مطبعة الرسالة - القاهرة سنة ١٩٥٧ م .

(ب) دراسات في تاريخ الشرق القديم، مطبعة الأملو المصرية بالقاهرة - الطبعة الثانية سنة ١٩٣٦ م

- أبو الفداء، عماد الدين بن إسماعيل بن نور الدين (ت ٧٣٢ هـ).
(أ) تقويم البلدان، باريس سنة ١٨٤٠ م
- (ب) المختصر في أخبار البشر، (٣ أجزاء) المطبعة الحسينية (بدون تاريخ طبع).
- ابن فرحون، برهان الدين إبراهيم (ت ٧٩٩ هـ).
تنصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، جزءان، المطبعة البهية، القاهرة
سنة ١٣٠٢ هـ.

- فروخ، عمر:

تاريخ الجاهلية، دار العلم للملايين - بيروت ١٩٦٤ م.

- ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني (من أهل القرن الثالث الهجري):
مختصر كتاب البلدان، بريل - ليدن سنة ١٣٠٢ هـ - ١٨٨٥ م.

- فلهوزن، يوليوس:

(أ) الخوارج والشيعة، وكالة المطبوعات - الكويت، الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٨ م.

(ب) تاريخ الدولة العربية، تعريب محمد عبد الهادي أبو ريده، مطبعة لجنة التأليف
والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٨ م.

- الفيروز آبادي، محمد الدين (ت ٨١٦ هـ):

القاموس المحيط (٤ أجزاء)، المكتبة التجارية الكبرى - مصر، الطبعة الخامسة سنة
١٩٥٤ م.

- ابن فهد، نجم الدين عمر بن الحافظ (ت ٨٨٥ هـ):

إتحاف الوري بأخبار أم القرى «ثلاثة أجزاء» مخطوط بدار الكتب المصرية (برقم
٢٢٠٤ تاريخ تيمور).

- ابن القاسم، يحيى بن الحسين (ت ١١٠٥ هـ):

أساء الزمن في تاريخ اليمس، مخطوط بدار الكتب المصرية (برقم ١٣٤٧ تاريخ).

قاسم، هون الشريف:

نشأة الدولة الإسلامية على عهد الرسول (ﷺ) (دراسة وثائق المعهد السوي) دار الكتاب

اللبناي - بيروت ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

ابن قتيبة، أبو محمد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ)

(أ) الإمامة والسياسة - حراء، تحقيق طه محمد الزبي، مطابع سجل العرب ١٩٦٧ م

(ب) الشعر والشعراء - جزاء، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف سنة ١٩٦٦ م.

(ج) عبون الأحيار (٤ أجزاء)، طبعة دار الكتب سنة ١٩٦٣ م

(د) المعارف، بتحقيق ثروت عكاشة، الطبعة الرابعة دار المعارف سنة ١٩٣٤ م.

ابن قدامة المقدسي، موفق الدين عبدالله بن محمد (ت ٦٢٠ هـ):

التبيين في أنساب القرشيين. مخطوط بدار الكتب المصرية:

الجزء الأول (برقم ٣٥٨٣٤ تاريخ - ميكروفيلم)

الجزء الثاني (برقم ٤١٤٠١ تاريخ - ميكروفيلم).

قدامة، أبو الفرج قدامة بن جعفر (ت ٣٢٨ هـ):

الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتعليق محمد حسين الزبيدي. دار الرشيد للنشر - العراق - سنة ١٩٨١.

القرافي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس (ت ٦٨٤ هـ):

الأحكام في غريب الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام. مطبعة الأنوار - الطبعة الأولى سنة ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م.

القرشي، يحيى بن آدم (ت ٢٠٣ هـ):

الخراج، بتحقيق الدكتور حسين مؤنس. دار الشروق القاهرة ١٩٨٧.

القرطبي، أبو عبدالله محمد بن فرج المالكي (ت ٤٩٧ هـ):

أقضية رسول الله (ﷺ). دار الوحي - حلب، سوريا - الطبعة الأولى سنة ١٣٩٦ هـ.

- القلقشندي، أبو العباس أحمد (ت ٨٢٦ هـ):

(أ) صحاح الأعشى، طبعة دار الكتب المصرية (١٠ أجزاء) - القاهرة سنة ١٩١٣ م

(ب) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة. الطبعة الأولى سنة ١٩٥٩ م.

- الكاشف، سيده إسماعيل .
- عمان في فخر الإسلام، مطبعة سجل العرب، القاهرة ١٩٨٢ م .
- كاهن، كلود .
- تاريخ العرب والشعوب الإسلامية (منذ ظهور الإسلام حتى بداية الأباطورية العثمانية)، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٧ م .
- الكتاني، عبد الحفيظ :
- التراتيب الإدارية، جزءان، دار إحياء التراث العربي، بيروت .
- ابن كثير، عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ) :
- البداية والنهاية، المطبعة السلفية، القاهرة ١٩٣٢ م .
- كحلالة، عمر رضا :
- أ) جغرافية شبه الجزيرة العربية المطبعة الهاشمية - دمشق - سنة ١٩٤٤ م .
- ب) معجم القبائل العربية - دمشق ١٩٥٠ .
- كرد، محمد :
- الإدارة الإسلامية في عز العرب، مطبعة مصر - القاهرة - سنة ١٩٣٤ م .
- ابن أبي كريمة، أبو عبيدة مسلم (ت ١٣٥ هـ) :
- رسالة أبي كريمة في الزكاة للإمام أبي الخطاب المعافري، مطابع سجل العرب، القاهرة ١٩٨٢ م .
- الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٠ هـ) :
- الولاة وكتاب القضاء، مطبعة الأباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٨ م .
- ماجد، عبد المنعم :
- تاريخ الحصار الإسلامية في العصور الوسطى. مطبعة مكتبة الأنجلو - القاهرة - الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٨ م .
- الماوردي، أبو الحسن علي محمد بن حبيب البصري (ت ٤٥٠ هـ) :
- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار التوثيق للطباعة، القاهرة ١٩٧٨ م .

- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر (ت ٢٨٥هـ):
تهذيب الكامل، تحقيق السباعي بيومي، مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٢٣ م.
- متولي، محمد موسى.
حوض الخليج العربي - ثلاثة أجزاء، مطبعة دار الطاعة الحديثة - القاهرة.
- مذكور، محمد سلام:
القضاء في الإسلام، دار النهضة العربية - سنة ١٩٦٥ م.
- مدور، جميل نخلة:
حضارة الإسلام في دار السلام، المطبعة الأميرية - القاهرة - سنة ١٩٣٦ م.
- مراد، ياسين محمد:
- جغرافية العالم الإسلامي، دار العلم للطباعة - القاهرة - سنة ١٩٧٩ م.
- المراكشي، ابن عذاري (ت أواخر القرن السابع الهجري):
البيان المغرب في أخبار المغرب، ليدن سنة ١٨٤٨ م - وأعاد طبعه في خمسة أجزاء
إحسان عباس في بيروت سنة ١٩٧٤ م.
- المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن (ت ٤٢١ هـ):
شرح ديهان الحماسة، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، لجنة التأليف والترجمة
والنشر سنة ١٣٧١ هـ.
- مروة، حسين:
النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية (جزءان) دار الفارابي - بيروت - الطبعة
الرابعة - سنة ١٩٨١ م.
- المسعودي، أبو الحسين علي بن الحميد بن علي (ت ٣٤٦ هـ):
مروج الذهب ومعادن الجوهر (٤ أجزاء)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار
المعرفة بيروت سنة ١٩٨٢ م.
- مشرقة، عطية مصطفى:
القضاء في الإسلام، مطبعة دار العد - الطبعة الثانية - سنة ١٩٦٦ م.

- المصعب الزبيري، أبو عبدالله المصعب بن عبدالله (ت ٢٣٦هـ):
نسب قريش، تحقيق. ليبي بروفنسال، دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٥٣ م
- مصلحة البريد:
تاريخ البريد، المطبعة الأميرية - القاهرة - سنة ١٩٣٤ م
- المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله البشاري (ت ٣٥٥هـ).
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل - لندن سنة ١٩٠٩ م.
- المقدسي، مطهر بن طاهر (من علماء أواخر القرن الرابع الهجري)
البلد والتاريخ - ٦ أجزاء، طبع باريس سنة ١٨٩٩ م.
- المقرئزي، نقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ):
الخطوط المقرئزية، مطبعة النيل سنة ١٣٢٤هـ:
- ب) النزاع والتخاصم فيها بين بني أمية وبني هاشم، بتحقيق د. حسين مؤنس. ذخائر العرب. القاهرة ١٩٨٧.
- مليجي، أحمد محمد:
النظام القضائي الإسلامي، دار التوفيق النموذجية للطباعة، القاهرة ١٩٨٤ م.
- مؤلف مجهول:
تاريخ أهل عمان، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور مطابه سجل العرب - القاهرة سنة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠ م.
- مؤلف مجهول:
خلافة الوليد بن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك. لندن سنة ١٨٥٣ م.
- مؤلف مجهول، أحد علماء الإباضية:
كشف العمة لأخبار الأمة. مخطوط بدار الكتب المصرية (رقم ١٢٩٦٨ ح).
- مؤلف مجهول
نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والحرر والمدن والأماق
مخطوط بدار الكتب المصرية (رقم ٢٦٥ حمرايا)

- مؤلف مجهول :

العيون والحدائق في أخبار الحقائق، الجزء الثالث ليدن سنة ١٨٧١ م، ثم الجزء الرابع بتحقيق نيلة عبد المنعم داوود - بغداد سنة ١٩٧٢ م.

- موسى، الويس :

شمال الحجار، مطابع رمسيس - القاهرة سنة ١٩٥٢ م

- موسى، محمد يوسف،

نظام الحكم في الاسلام دار الكتاب العربي للطباعة والنشر - القاهرة، الطبعة الثانية - سنة ١٩٦٣ م.

- مؤنس، حسين :

دراسات في السيرة النبوية، الزهراء للإعلان العربي - القاهرة - الطبعة الثانية سنة ١٩٨٥ م.

- نافع، محمد مبروك :

عصر ما قبل الإسلام، مطبعة السعادة - القاهرة - الطبعة الثانية سنة ١٩٥٢ م.

- ابن النجار، محمد بن محمود (ت ٦٤٧هـ) :

الدرة الثمينة في أخبار المدينة، مرفق بكتاب شفاء الغرام، القاهرة ١٩٥٦ م.

- النجار، حسين فوزي :

الإسلام والسياسة مطابع دار الشعب - القاهرة - سنة ١٩٧٧ م.

- النجم، عبد الرحمن عبد الكريم :

البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج، مطبعة الجمهورية - بغداد - سنة ١٩٧٣ م.

- التجبرمي، أبو اسحاق ابراهيم بن هبة الله بن محمد (ت ٣٥٥ هـ) :

إيمان العرب وطلاقتها، مخطوط بدار الكتب المصرية (رقم ٣٦٢ لغة)

- نخبة من علماء الهند :

المتاوى الهندية (المسماة بالمكرمة)، المطبعة الأميرية/ القاهرة/ الطبعة الثانية سنة

١٣١٠هـ

- النص، إحسان :
- العصية القلية وأثرها في الشعر الأموي، رسالة دكتوراه - كلية آداب القاهرة سنة ١٩٦٢هـ - برقم ٢٦١ .
- النكدي، عارف
- القضاء في الإسلام، مطبعة الترقى - دمشق - سنة هـ - ١٩٢٢م .
- أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبدالله (ت ٤٣٠ هـ) .
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٣٢ م .
- نيلسن، ديتلف وآخرون :
- التاريخ العربي القديم، ترجمة فؤاد حسنين، القاهرة ١٩٥٨ م .
- النووي، أبو زكريا يحيى الدين بن شرف (ت ٦٧٦ هـ) :
- تهذيب الأسماء واللغات، جزءان، المطبعة النبرية بالقاهرة (د . ط .)
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣ هـ) :
- نهاية الأرب في فنون الأدب من ١ إلى ٢٣ بتحقيق محققين مختلفين الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٦ م .
- هاشم، (مهدي طالب) :
- الحركة الأباضية في المشرق العربي (نشأتها وتطورها حتى نهاية ق ٣ هـ) .
- كلية الآداب - جامعة بغداد - ١٩٧٧، برقم ٠٢، مكتبة آداب عين شمس .
- الهجري، أبو علي :
- أبحاث في تحديد المواضع، تحقيق حمد الجاسر، دار الهمزة الرياض، الطبعة الأولى ١٩٦٨ م .
- ابن هشام، أبي محمد عبد الملك (ت ٢١٣ هـ) :
- السيرة السوية، تحقيق مصطفى السقا وإسراهم الأيساري وعبد الحفيظ شليبي، القاهرة، دار مصطفى البابي الحلبي سنة ١٩٣٦ !

- هل، ي.

الحضارة العربية، ترجمة ابراهيم أحمد العلوي، دار الهلال سنة ١٩٧٩ م

- الممداني، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٣٤هـ):

(أ) الإكليل من أخبار اليمن وأسباب حمير - الجزء الثاني، تحقيق محمد بن علي

الأكوع، مطبعة السنة المحمدية - القاهرة سنة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م

(ب) الإكليل من أخبار اليمن وأسباب حمير - الجزء العاشر تحقيق محب الدين الخطيب
الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٧.

(ج) صفة جزيرة العرب - بتحقيق محمد بن علي الأكوع اليمني، دار الجامعة بالرياض
بريل - لندن سنة ١٨٨٤ م.

- هيكل، محمد حسين:

حياة محمد، دار الكتب المصرية (الطبعة الثالثة) ١٣٥٨ هـ.

- وات، مونتجمري:

البدو، ترجمة ابراهيم زكي خورشيد وآخرين، دار الكتاب اللبناني، بيروت
١٩٨١ م.

- الواسعي، عبد الواسع بن يحيى:

تاريخ اليمن المسمى فرجة المسموم والحزن في حوادث تاريخ اليمن، الدار اليمنية
للنشر والتوزيع ١٩٨٢.

- وكيع، محمد بن خلف بن حيان (ت ٣٠٦ هـ)

أخبار القضاة (٣ أجزاء)، عالم الكتب - بيروت (د. ط.).

- ولفسون، اسرائيل:

تاريخ اليهود في بلاد العرب، مطبعة الاعتماد، القاهرة سنة ١٩٢٧ م.

- ولكنسون، ج. س:

بو الخلد في عمان، مطابع سجل العرب، القاهرة ١٩٨٢ م

- وهبه، حافظ

جزيرة العرب في القرن العشرين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة -

الطبعة الخامسة سنة ١٩٦٧ م

- ياقوت الحموي - شهاب الدين أبي عبيد الله (ت ٦٢٦هـ).
معجم البلدان - طبعة السامي ٦ أجزاء - القاهرة ١٩٠٦.

- اليعقوبي - أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت ٢٩٢هـ)
أ) البلدان - طبعة ليدن ١٨٩١، (مرفق بكتاب الأعلام النفيسة لابن رسته)
ب) تاريخ اليعقوبي - ٣ أجزاء، النجف - العراق سنة ١٣٥٨ هـ.

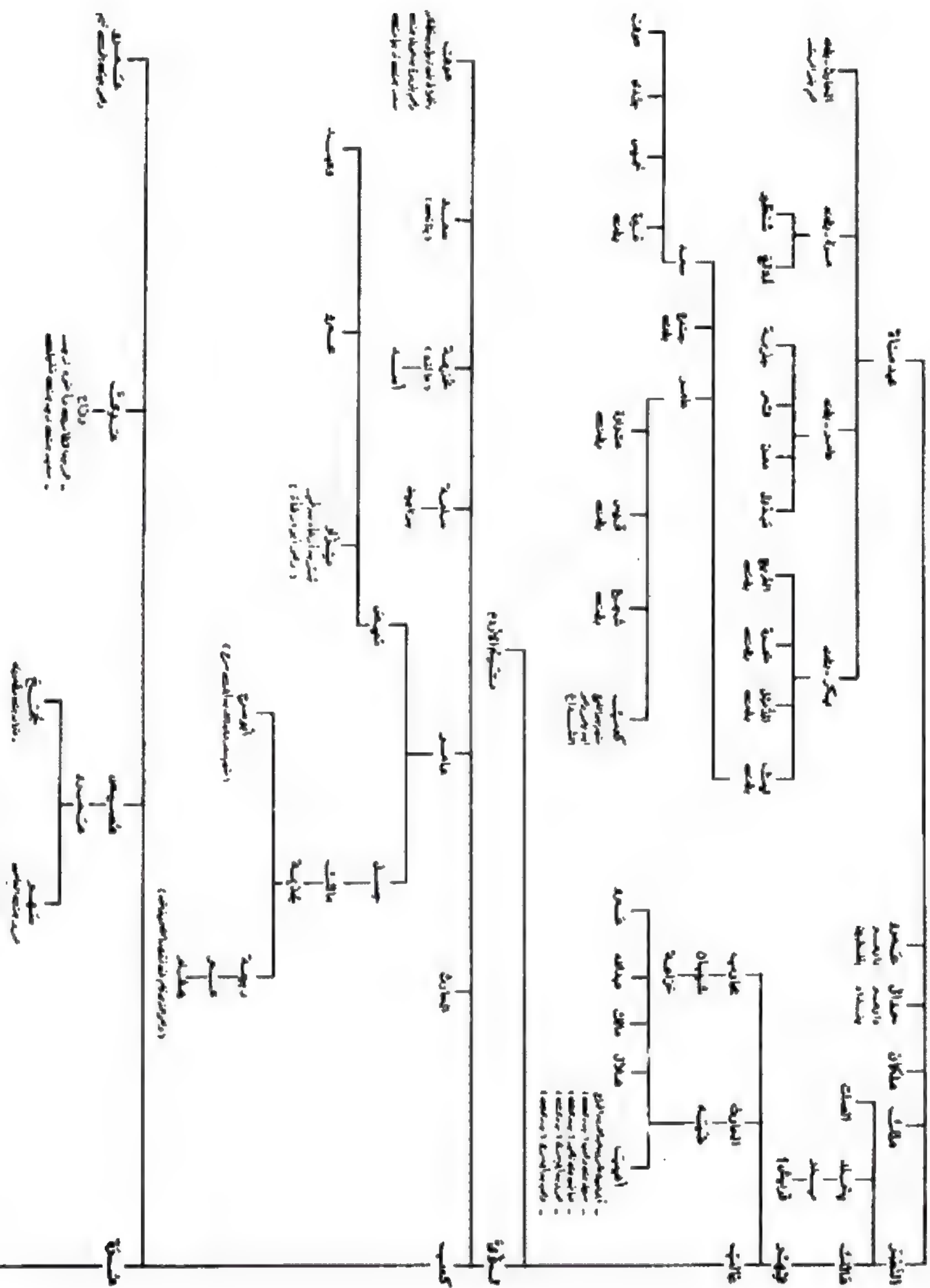
- أبو يعلى: محمد بن الحسين الفراء الحنيلي (ت ٤٥٨هـ)
الأحكام السلطانية، تصحيح محمد حامد الفقي مطبعة البابي الحلبي - الطبعة الثانية
سنة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م.

- أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (ت ١٨٢هـ)
الخراج، المطبعة السلفية - القاهرة، الطبعة الثانية سنة ١٣٥٢ هـ.

أَسَابُ كِتَابَةِ وَفِيٍّ دُرِّش

مورد انساب القشور بالشرارة بالحياتة المشرقة . ذكرنا بالحياتة المشرقة
في القشور المشرقة أسرارهم القشور المشرقة المشرقة المشرقة
السمو القشور المشرقة المشرقة المشرقة المشرقة .

[[ابن خضر عیسیٰ ہوں وہ درگاہ ہوں | ایسا صہن حضرت ہوں نیز ارا ہوں معبد ہوں وہ شان



الفهارس العامة

- ١ - فهرس الأعلام
- ٢ - فهرس الأمم والقبائل والجماعات
- ٣ - فهرس الأماكن
- ٤ - فهرس الموضوعات

فهرس الأعلام

ابن أبي سيرة ٤١٣ - ٤٩٧
 ابن الأثير ٢٨٣ - ٣٣٧ - ٦٠٨ - ٦٨٤
 ابن اسحاق ١٧٣ - ١٧٦ - ١٨٠ - ١٨١ - ٢١٤ -
 ٢٢٣ - ٢٥١ - ٢٥٢ - ٢٧١ - ٢٧٣ - ٢٧٥ -
 ٢٨٨ - ٢٩٠ - ٢٩١ - ٢٩٢ - ٢٩٣ - ٢٩٦ -
 ٢٩٧ - ٣٠٠ - ٣٠٢ - ٣١٠ - ٣١٢ - ٣١٧ -
 ٣٢٣ - ٣٣٣ - ٣٣٥ - ٣٤٩ - ٣٥٠ - ٣٥٢ -
 ٣٥٥ - ٤٧٩ - ٥٠٢ - ٥٥١ - ٥٥٢ -
 ٥٥٦ - ٥٦٣ - ٥٦٤ - ٥٨٢
 ابن جبير (الرحالة) ٧٠٠
 ابن حنيفة بن النيمان ٦١١
 ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد ١٦ - ٣٨ - ٣٩ -
 ٤٣ - ٤٥ - ٥٨ - ٦٤ - ٦٥ - ٧٧ - ٩٤ -
 ١٠٧ - ١٤٤ - ٢١٦ - ٢٢٤ - ٣٢٤ - ٣٥٩ -
 ٤٢٩ - ٤٥٨ - ٤٦٣ - ٤٧٣ - ٤٧٥ - ٥٢٠ -
 ٥٢٩ - ٥٣٠ - ٥٧٥ - ٥٧٧ - ٦٠١ - ٦٠٨ -
 ٧٠٩ - ٧١١ - ٧١٢ - ٧٣٩ - ٧٤٠ - ٧٤١ -
 ٧٤٤ - ٧٤٥
 ابن خنظل ٥٧٢
 ابن خلدون (عبد الرحمن) ٢٥ - ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ -
 ٣١ - ٣٧ - ٢١٧ - ٢٢٠ - ٢٢٢ - ٢٥٤ -
 ٦٢٩ - ٦٣٨ - ٦٣٥ - ٧٢٨ - ٧٢٩ - ٧٣١ -
 ٧٣٢ - ٧٣٤ - ٧٣٥ - ٧٣٩ - ٧٤٠ - ٧٤١ -
 ٧٤٤ - ٧٤٥
 ابن الدحداحة ٤٣٥ - ٤٣٦

١
 آدم عليه السلام ٤٥ - ٥٦١
 آمنة بنت وهب (والدة الرسول صلى الله عليه وسلم) ٢٠٣ -
 ٣١٦
 آيس لويس براند (مستشار الرئيس الأميركي
 ولسون) ٧٨٨
 ابراهيم بن الأنضهر محمد ٧٦٤
 ابراهيم بن الاعلب ٧٢٨ - ٧٣١ - ٧٤٠
 ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي
 طالب ٧٢٠
 ابراهيم بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي
 ابن أبي طالب ٦٩٤ - ٧١٦ - ٧١٧ - ٧١٨ -
 ٧١٩
 ابراهيم بن علي بن عبدالله بن العباس ٤٦٩ -
 ٦٤٨ - ٦٨٧ - ٧٩٠
 ابراهيم بن عيسى ٧٤١
 ابراهيم الخليل (عليه السلام) ٥٠ - ٦٨ - ٩٨ -
 ١٥٥ - ١٥٧ - ١٥٨ - ١٦١ - ١٦٢ - ١٧٢ -
 ١٧٤ - ١٧٦ - ١٧٧ - ٢٤٤ - ٤٢٨ - ٦٥٠ -
 ٥٦١
 ابراهيم بن رستم ٧٤٣
 ابراهيم طباطبائي ٧٤٩
 أرملة (ملك الحبشة) ١٣٩ - ١٥٤ - ١٥٥ -
 ١٥٦ - ١٥٧ - ١٥٨ - ١٥٩ - ١٦٠

ابن حديد ٢٠٢

ابن الرهرري (شاعر قریش) ١٩٠

ابن محمد ١١٠ - ٢٥١ - ٢٦٨ - ٢٧٢ - ٢٨٠ -

٣٢٨ - ٣٢٩ - ٣٣٦ - ٣٥٢ - ٤٢٠ - ٤٥٨ -

٤٥٩ - ٥٥٦ - ٥٩٧ - ٦١٤ - ٧٩٧ - ٧٩٨ -

٧٩٩

ابن سيد الناس محمد بن محمد بن عداة بن محمد

ابن يحيى ١٦ - ٢٦٦ - ٢٦٧ - ٣٠٢ - ٣١٧ -

٣١٨ - ٣٤٩ - ٤٥٨ - ٥٣٨ - ٥٦٣ - ٥٦٤ -

ابن الشيباني (معاوية الشيباني) ٧١١

ابن شريح ٥٤٤

ابن شهاب الزهري ٥٥١

ابن عبد ربه ٢٦٢

ابن عمر ٣٥٤ - ٤٥٠ -

ابن عمر يوسف بن عبد البر المصري ١٦ - ٢٢٣ -

٢٢٤

ابن قميصة ٣٧٠ - ٣٧٧ -

ابن نوفل ٣٧٢

ابن كثير ١٨٢ - ١٣٠ -

ابن الكلبي محمد بن هشام ١٤٥ - ١٤٧ - ١٥١ -

١٧٣ - ١٧٤ - ٢٠١ - ٢٧١ - ٢٨٩ - ٢٩٦ -

٣١٢ - ٣١٧ - ٣٣٤ - ٣٤٨ - ٣٤٩ - ٣٥١ -

٤٧٩ - ٥٠٢ - ٥٥١ - ٥٥٢ - ٥٥٦ -

ابن كلث (الوزير الفاطمي) ٧٥٧

ابن خلف ٦٦٦

ابن المسيب ٤٣٧

ابن مكث ٥٤٤

ابن ميسر (صاحب تاريخ مصر) ٧٦٠

أبو أحيمه سعيد بن العاص ١٩٤ - ٥٦٠ -

٦١٨ - ٦٢٦ -

أبو أحيمه العاص بن أمية ٢٥٤

أبو أحيمه العاص بن سعيد بن العاص ٢٥٨ -

٤٧٤

أبو أريير ٣٧٢

أبو أسياه بن عمرو ٤٥٥

أبو أسيد الساعدي ٥٤٣

أبو البخري العاص بن هشام بن الحارث بن أمد

ابن عبد لمرى بن فصي ٢٨٨ - ٣١٧ -

أبو البراء عامر بن مالك (ملاعب الأسة) ٣٨٧ -

٣٨٨

أبو بركة بن تيار ٥٤٣

أبو بكر بن محمد المعروف ببخس بن سعيد بن

أحمد بن عمر بن يسرى المجنى ٨٠٤

أبو بكر بن العربي ٤٢٩

أبو بكر الصديقي ٥٩ - ١١٤ - ١٦٤ - ١٧٠ -

٢٢٨ - ٢٦٥ - ٢٦٨ - ٢٧٠ - ٢٧٢ - ٢٧٢ -

٢٨١ - ٢٨٣ - ٢٨٤ - ٣٣٨ - ٣٤٧ - ٣٤٨ -

٣٥٠ - ٣٥٤ - ٣٧٧ - ٣٨١ - ٣٨٣ - ٤١٢ -

٤١٣ - ٤١٦ - ٤٢١ - ٤٤٣ - ٤٥٠ - ٤٦٠ -

٤٧٢ - ٤٧٣ - ٤٧٩ - ٤٨٤ - ٤٩١ - ٤٩٢ -

٤٩٣ - ٤٩٥ - ٤٩٦ - ٤٩٨ - ٥١١ - ٥٢٢ -

٥٣٠ - ٥٣١ - ٥٤١ - ٥٤١ - ٥٥٠ - ٥٦٩ -

٥٧٨ - ٥٨٤ - ٥٨٧ - ٥٩٦ - ٥٩٧ - ٥٩٨ -

٥٩٩ - ٦٠٠ - ٦٠١ - ٦٠٢ - ٦٠٤ - ٦٠٥ -

٦٠٦ - ٦٠٧ - ٦٠٨ - ٦٠٩ - ٦١٠ - ٦١١ -

٦١٢ - ٦١٣ - ٦١٤ - ٦١٥ - ٦١٦ - ٦١٧ -

٦١٨ - ٦١٩ - ٦٢٠ - ٦٢٥ - ٦٢٦ - ٦٢٧ -

٦٣١ - ٦٣٣ - ٦٣٧ - ٦٣٨ - ٦٤٠ - ٦٥٠ -

٦٥٢ - ٦٥٥ - ٦٥٦ - ٦٥٧ - ٦٥٨ - ٦٥٩ -

٦٦٠ - ٦٦٢ - ٦٦٣ - ٦٧٥ - ٦٧٧ - ٦٨٠ -

٦٨٤ - ٦٨٨ - ٦٩٠ -

أبو جعفر المصور ٦٨٤ - ٧٠٦ - ٧١٨ - ٧١٩ -

٧٢٣ - ٧٤٣ - ٨٠١ - ٨٠٨ -

أبو حنبل بن سهل بن عمرو ٤٩٤ - ٤٩٥ -

أبو حنبل بن صفوان بن أمية ٥٠٣

أبو جهل الحظية ٢٢٧

أبو جهل عمرو بن هشام ١٨٤ - ١٩٢ - ٢٤٨ -

٢٥٠ - ٢٥٨ - ٢٦٩ - ٢٧٠ - ٢٧١ - ٢٧٤ -

أبو طاهر اسماعيل المنصور بن أبي القاسم محمد
 المقام ٧٥٥
 أبو الطغليل عامر بن وائلة ٥٧٣
 أبو الطيب طاهر بن الحسين ٧٤٢
 أبو المعالي بن الربيع بن عبد المعز بن عبد
 شمس ١٨٩ - ٤٤٧ - ٦١٩
 أبو عباس الفاسق بن عبد عمر بن صبيح (الراهب
 الصائغ) ٣٧٠ - ٣٩٩ - ٤٠١ - ٤٠٤ -
 ٤٠٦ - ٦٤٥
 أبو عباس أحمد بن أبي عبيدة ٧٠٨
 أبو عباس أحمد بن محمد الشيخ بن زيدان
 (السلطان) ٨٠٦
 أبو عباس أحمد بن المنصور ٧٦٢
 أبو عباس السفاح ٤٩٩ - ٥٨٩ - ٥٨٩ - ٦٨٧ -
 ٧٠٦
 أبو عباس المبرد ٢١٦
 أبو عبدالله أحمد بن العدوي ٧٢
 أبو عبدالله الشامي ٧٥٢
 أبو عبدالله محمد ميارة ٨٠٤
 أبو عيسى بن جبر ٤٠٣
 أبو عبيد بن مسعود بن عمرو ٦٣٦ - ٦٣٧ - ٦٥٦
 أبو عبيدة بن الحراح ٢٦٦ - ٢٨٠ - ٤٤٧ - ٤٧٢ -
 ٤٨٤ - ٤٩٣ - ٤٩٨ - ٥٢١ - ٥٢٢ - ٥٢٣ -
 ٥٥٧ - ٥٨٥ - ٥٩٥ - ٥٩٧ - ٥٩٩ - ٦٠٨ -
 ٦٠٩ - ٦١٠ - ٦١٤ - ٦١٨ - ٦٢٦ - ٦٣٥ -
 ٦٣٦
 أبو عبيدة معمر بن المثنى ٢١٤
 أبو عبيدة السحوي ١٧٤
 أبو عمر بن عبد البر السري ٢١٤ - ٣١٧
 أبو عمرو بن عامر الخراعي ٢٠٥
 أبو العيص بن عبد شمس ٦٥٧
 أبو عيشان حليل بن حشيش بن سلول ٦٤٢
 أبو العيث بن محمد لمي ٧٦٦
 أبو فارس ٨٠٢

٢٧٥ - ٢٨٣ - ٢٨٥ - ٢٨٩ - ٣٠٧ - ٣٠٨ -
 ٣١٠ - ٣١٦ - ٣١٧ - ٣٢٣ - ٣٣١ - ٣٣٧ -
 ٣٤١ - ٣٤٢ - ٣٤٥ - ٣٤٧ - ٣٥٤ - ٣٥٥ -
 ٣٦١ - ٣٦٢ - ٣٦٤ - ٤٠٧ - ٤٧٨ - ٤٩٠ -
 ٥١٥ - ٥٥٦ - ٥٥٧ - ٦٥٠ - ٦٥٤ - ٦٦١
 أبو الحارث عبيدة بن الحارث بن المطلب ١٤٣
 أبو حاطب عمرو بن عبد شمس ٤٨٥
 أبو حذرد الأسلمي ٥٨٩
 أبو الحرم الوليد بن جمهور ٧٣٦
 أبو حيفة النعمان بن ثابت ٧٤٨
 أبو حيسان بن خلف بن حبيد (المؤرخ) ٧٠٩ -
 ٧١٠
 أبو دجاجة (سالك بن حرسة) ٦١٠ - ٦١٣ - ٦١٤
 أبو راشد نافع بن الأزرق ٧٢٤
 أبو رافع مولى الرسول ٥١٧
 أبو رافع اليهودي (سلام بن أبي الحقيق) ٣٨٩ -
 ٤٠٠ - ٤٠٤ - ٤٥٧ - ٤٥٨ - ٤٦١ - ٥١٠
 أبو الروم بن عمر ٤٨٥
 أبو زرعة ٥٤٤
 أبو زرعة الأسود بن عبد المطلب ٣٦٥
 أبو زيد بن رفاعة بن زيد ٤٤٨
 أبو زيد بن عمر ٤٥٧
 أبو السرايا بن منصور ٧١٦
 أبو سلمة بن عبد الأسد ٢٦٦ - ٣١٦
 أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ٤٥٢
 أبو سلمة الخلال حفص بن سليمان (الوزير
 العباسي) ٤٩٩ - ٥٨٩ - ٧١٨
 أبو طالب (والد الإمام علي) ١٧٠ - ١٧١ -
 ١٩٠ - ٢٣١ - ٢٧٢ - ٢٧٣ - ٢٧٥ - ٢٧٦ -
 ٢٨٤ - ٢٨٥ - ٢٨٨ - ٢٨٩ - ٢٩٠ - ٢٩١ -
 ٢٩٢ - ٢٩٣ - ٢٩٦ - ٢٩٧ - ٣٠٤ - ٣٠٥ -
 ٣٠٩ - ٣١١ - ٣١٦ - ٣١٧ - ٣١٨ - ٣٢٥ -
 ٣٢٧ - ٣٣٤ - ٣٣٦ - ٣٣٧ - ٣٣٨ - ٣٣٩ -
 ٣٤٧ - ٣٤٨ - ٣٤٩ - ٥٦٨ - ٧٧٠

أحمد بن عبد الملك (المصور الذهبي) ٨٠٠ -

٨٠١ - ٨٠٢

أحمد بن عيسى بن إبراهيم (صاحب السوق) ٧٤١

أحمد بن قاسم ٧٩٧

أحمد بن محمد بن القاسم ٧٩٣ - ٧٩٤

أحمد عادل كمال ٦٠٧

أحمس (ملك مصر) ٤٨ - ٤٩

أحيحة بن سعيد بن العاص ٦١٨

الأحشدي كافور ٧٥٦

الأحسن بن شريك ٣٢٤ - ٤٤٢ - ٥٠٤

الأخوين جراكوس ٢٩٢

الأضرر محمد ٧٦٤

أدهيل بن اسحاق ٥٣

أدرس الثاني بن أدرس بن عبدالله بن الحسن بن

الحسن بن علي ٦٩٤ - ٧١٩ - ٧٢٠ -

٧٢١ - ٧٢٢ - ٧٢٣ - ٧٢٦ - ٧٢٧ - ٧٢٨ -

٧٣١ - ٧٣٤ - ٧٣٩ - ٧٩٨

الإدريسي ٧٧٧

إدوار الصايغ ٧٧٢

أرميا (النبي) ٤٦

الأرقم بن أبي الأرقم (عبد مناف بن أسد بن

عبدالله بن عمر بن هزوم) ٢٦٨ - ٢٧٠ -

٢٧١ - ٣١٦

الأزدي ثعلبة بن محارب بن عبدالله ٧٣٥

الأزدي عبدالله (مؤرخ) ٦٠٧ - ٦٠٨ -

الأزدي محمد بن عبدالله (مؤرخ) ٦٠٧ - ٦١٤ -

٦١٦

الأزدي (مصعب بن عيسى) ٧٢٩

الأزدي (صاحب تاريخ أخبار مكة) ١٧٣ - ٢٥١

الزبي أحمد ١٥٩

أسامة بن زيد ٥١١ - ٥٣٠ - ٥٣١ - ٦٠٤ -

٦٠٦ - ٦٢٥ - ٦٢٦

اسحاق بن عبدالله ٤٩٧

أبو الفتح الحسن بن عيسى بن جعفر بن محمد بن

الحسن ٧٦٥

أبو عروة ٤٩٧

أبو الفضل إبراهيم ١٣٨

أبو فليتة بن القاسم بن محمد ٧٦٦

أبو قتادة بن رعي ٢٨٣ - ٤٤٤ - ٥٤١ - ٦٠٥ -

٧٦٦

أبو قيس بن الماكه بن الحيرة ٢٨٣

أبو ليابة بن عبد المنذر ٤٣٤ - ٤٣٥ - ٤٣٦ - ٦٠٨ -

أبو لهب (عبد العزيز بن عبد المطلب) ٢٨٣ -

٢٨٩ - ٢٩٢ - ٣٢٧ - ٣٣٦ - ٣٣٩ - ٣٤١ -

٣٤٨

أبو محمد بن عباس الإمام ٨٠٤

أبو وهف الراوي ٦٠٢ - ٦٦٦

أبو مروان عبد الملك بن محمد المهدي بن عبدالله

ابن سعد ٧٩٩ - ٨٠٠

أبو مسعود بن عتبة بن عمرو ٥١١

أبو مطيع بن عروة ٥٨٤

أبو المهاجر دينار ٧٢٦

أبو موسى الأشعري ٥٨٤ - ٥٨٨

أبو مسرة عوف بن السباق ٤٤٢

أبو نائلة ٥٤٢

أبو نجي محمد (أمير مكة) ٧٦٦

أبو نجي محمد بن بركات (الثاني) ٧٦٦

أبو هاشم محمد بن الحنفية ٦٨٧

أبو هريرة النوسي ٢١٢ - ٤٦٩

أبو الهيثم بن التيهان ٦١١

أبو وجزة ٤٢٥

أبو الوليد حنبل بن ربيعة ٢٥٨ - ٢٥٩

أبو زيد محمد بن كيداد ٧٥٤ - ٧٥٥

أبي بن خلف الحمصي ١٦٦ - ٤٠٧

أبي بن كعب ٢١١

أحمد الأعرح ٧٩٨ - ٧٩٩

اسحاق (السي) ٢١٧ - ٢١٨

أسد بن عبد العزى بن قصي ١٦٤ - ١٦٧ - ٢١٠
الأسد، ناصر الدين ٢٠٢ - ٢٠٣ - ٢٠٦ - ٢٠٧ - ٢١٠

أسد الدين شيركوه ٧٦٠

الاستدي طلحة بن حويلد ٤١٠ - ٦٠٣ - ٦٠٨

أسعد بن زرارة بن عدس ٣٢٥

أسلم بن الحارث ٥٨

الأسلمي عبدالله بن عامر ٥٣٥

الأسلمي ناجية بن جندب ٤٦٧ - ٥١٣

أسياد بنت أبي بكر ١٧٢ - ١٧٤

أسياد بنت حميس (الصحابية) ٢٢٤ - ٥١٥ - ٥١٦

أسياد النعمية (أم أبو جهل) ٢٢٧

إسماعيل بن إبراهيم (النبي) ٤٤ - ٤٥ - ٤٩ - ٥٠ - ٥٣ - ٥٤ - ٥٥ - ١٠١ - ١٠٥

٢١٦ - ٦٤٢ - ٨١٠

إسماعيل الصفوي ٨٠٨

إسماعيل (مولاي) ٨٠٧ - ٨٠٨ - ٨٠٩

إسماعيل بن جعفر الصادق ٧٥٢

إسماعيل بن علي بن إبراهيم بن عبدالله المحض ٧٤٩

أسمى بنت سود ٥٨

الأسود بن خزاعة ٣٢٧

الأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى ٢٨٨

الأسود بن عبد يثوث ٢٥٨ - ٢٧٤ - ٢٨٣ - ٣٠١

إسكريت (المورد) ٧٧٨

إسيد بن الحضير ٣٦٨ - ٤١٢ - ٤١٤ - ٤١٥

٤١٩ - ٤٢٠ - ٤٢٢ - ٤٦٩ - ٤٧٢ - ٤٩٧

٤٩٨ - ٥٧٧ - ٥٩٢ - ٦٠١ - ٦٠٥ - ٦٠٦

٦٠٩ - ٦١٢ - ٦١٣

الأشجعي حارثة بن حليل ٤٦١

الأشجعي عمرو بن عمرو ٦٢٦

الأشجعي معقل بن ساد ٦٦٦ - ٦٦٧ - ٦٦٨

الأشجعي نعيم بن مسعود ٢٨٧ - ٤٠٣ - ٤٢٣

أشيا (السي) ٤٦

الأشهي سلمة بن أسلم ٤١٦

الأصمغاني، أبو الفرج ٢٠٨ - ٢٨٧

الأصغر، محمد سعيد ٢٠٣

أصفي بن عامر ٥٢٨

أكبر (السلطان) ٨٠٨

الألوسي محمد شكري ٢٨٥ - ٢٠٣

الأيمن بن مضر ٥٨ - ٥٩ - ٦٢ - ٦٤ - ٦٥

٦٦ - ٧٣ - ٧٦ - ٧٨ - ١٠٧ - ١١٦ - ٥٢٨

الأيمن بن صالح ٧٢٥

أم الأختم بنت عبد مناف ١١٢ - ١١٥

أم جميل فاطمة (زوجة سعيد بن زيد بن فضيل) ٢٧٠ - ٢٧١

أم الحبر بن هرة ٢٢٧

أم حبيبة بنت أبي سفيان ٣٤٦

أم حنيفة بنت بشير بن سعد (زوجة أبي بكر) ٦٠١

أم حكيم زوجة عكرمة بن أبي جهل ٥٦٩

أم حكيم بنت عبد المطلب (البهاء) ٣٢٧

أم سفيان بنت عبد مناف ١١٢ - ١١٥

أم سلمة (زوجة الرسول - ص) ٤١٣ - ٤٦٥ - ٥٠٥ - ٥٧٣

أم عثمان بن طلحة ٢٢٧

أم هانة ٤٩٢

أم قرة الخزاعية ٤٦٣ - ٤٧٢

أم كلثوم (بنت الرسول - ص) ٣٣٨

أم مالك (زوجة عكرمة بن أبي جهل) ٦٢٠

أم مصعب بن عمير ٢٢٧

أم هانئ بنت أبي طالب ٥٦٨ - ٥٧٣

امرؤ القيس بن عمرو ٢٠٦ - ٤٠١ - ٤١٠ - ٥٢٨

أمية الأصغر ٣٤٣

أمية من خلف ٢٥٨ - ٢٨٢ - ٢٨٤ - ٣٣٧ - ٣٧٢ - ٥٧٤

أمية من عهد شمس ١٤١ - ١٤٢ - ١٤٣ - ١٤٩ - ١٦٨ - ١٦٩ - ١٨٩ - ١٩٠ - ٢٧٣ - ٣١٦

٣٤٣ ٣٤٥

الأمين الخليفة العباسي ٧١٦ - ٧٣٣

الأنديسي، عبد الملك بن حبيب ٢١٤

أنس بن مالك ٢١١ - ٥٩٣

أنس بن زهير الديلمي ٥٣٢

الأنصاري سعد بن عبيد ٣٥٢ - ٦٣٦ - ٦٣٧

الأنصاري عبارة بن حزم ٣٩٠

أنمار بن أواش بن عمرو بن كهلان بن سبأ ٢٢٤

أنمار بن مزار بن معد بن عدنان ٢٢٣

أوغسطون (المقدّيس) ٥٥

أوردخان ٧٨٩

أوس بن أرقم بن زيد ٣٧١ - ٣٧٢

أوس بن حنولي ٤٨٤ - ٥١٤

أوكثايوس ٢٩٢

أهن، فؤاد ٧٦٠

إينو، ليشان ٢٠٦

الأيوبي أبو غيث ٧٦٣

الأيوبي (صلاح الدين) ٧٦٠ - ٧٦٣ - ٧٦٦

ب

البابا ٧٩٩

بابر ظهير الدين ٨٠٨

باعلي (شيخ صوفي) ٨٠٣

الباعلي قتيبة بن مسلم ٦٧٨ - ٦٨١

بدر من سفيان الكمي ٤٦٧ - ٤٦٨

بشنة (صاحبة حبل بن معص) ٩٣ - ٩٤

البخاري ٣١٨ - ٨٠٧

البحتري بن هشام ٣٢٣

بدر بن مجلد بن النصر ٧٣ - ٨٧

بديدل بن ورقاء سيد بني عامر بن لحي ٢٥٧ -

٤٧٣ - ٤٧٤ - ٤٧٥ - ٤٧٨ - ٤٧٩ - ٥٢٠ -

٥٣٠ - ٥٣٤ - ٥٥١ - ٥٥٢ - ٥٥٣ - ٦٤٢

البراء بن مالك ٦١٠

برقة أخت نجيم بن مر ٧٤

برجستبر ٢٤٧

برذع بن زيد ٤٥٥

البرعواطي صالح (زعيم قبائل العرب) ٧٢٦

بركات بن الحسن بن عجلان بن ربيعة ٧٦٧

برناتيت ٢٩٩

بروكلمان كارول ٢٠٢

بريطة بن الحبيب الأسلمي ٦٠ - ٦٤٢ - ٥٣٠ -

٥٣١ - ٥٤٤

بصر بن أبي سفيان ٤٧٤ - ٤٧٥

بشر بن سفيان ٥٤٤

بشر بن ورقاء ٥٢٠

بطليموس ٣٩ - ٦٨

البقالي ٣١٧

البكري، أبو عبيد ٢٠٧ - ٧٢٥

بلال بن الحارث ٣٩٩ - ٥٤٤

بلال بن رباح (الخبني) (مؤذن الرسول) ٢٧٥ -

٢٨١ - ٥١٥ - ٥٦١

بلايوس ميجل آسين (عالم امياي) ٧١٢

البلاندي ١٥٩ - ١٦٥ - ١٦٦ - ١٦٩ - ٢١٦ -

٣٤١ - ٥٩٧ - ٥٩٨ - ٦٠٧ - ٦١٣ - ٦٨١

بل جوترو ٧٩٠

بلغور جيمس آرثر ٧٧٨

بلغور، اللورد ٧٨٨

البلوي، رهبر بن فيس ٧٢٦

برام الخامس ملك العرس ١٢٢ - ١٢٣

بومبي ٢٩٢

بومستارك (المشرق) ٢٠٧

ث

ج

ناح المعالي (أمير مكة) ٧٦٧

تاسوليس وإليم (المستشرق) ٦٠٧

الترمذي ٣٤٧

نماضر بنت الأصمغ بنت عمرو ٤٥١ - ٤٥٢

نماضر بنت عبد صاف ١١٢ - ١١٥

نهم بن أد ٦٩

النميري، الأقرب بن حابس ٥٧٧ - ٥٨٢

النميري، زيد بن الأصغر ٧٢٤

النميري، سليمان بن عبد الملك ٦٧٨

النميري، عبدالله بن أباض ٧٢٤

النميري، مسعر بن مذكني ٦٦٣ - ٦٦٤

توني (أرونلد) ٣٥ - ٢٩٢ - ٤٢٨ - ٤٤٣

نهم الأقدم ٨٨

نهم بن غالب ١٠٤

نهم بن مرة (ابن أخ كلاب والد قصي) ١٤١ -

١٦٤ - ١٦٧

نهي بن اسحاق ٥٣

ث

ثابت بن قيس بن ثابت بن شماس ٦٠١ - ٦٠٨

ثعلبة بن مازن ٥٢٨

ثعلبة الصفاء بن مرقيا ٤٧٣

الثعلبي ابن حصين ٦١١

الثقفي، أبو حبيب عمرو بن مسعود ٤٦٣ - ٤٧٦

٤٧٧ - ٤٧٨ - ٦٣٢ - ٦٥٦ - ٦٥٧ - ٦٥٨

الثقفي، عبيد بن مسعود ٦٤٠

الثقفي، محمد بن القاسم ٦٨١

الثقفي، المعيرة بن شعة ٤٧٧

حارث بن عداث ٣٩١ - ٤١٢ - ٤٥٨

الجاسط ٢٦٢ - ٢٦٣

الجناد بن حنيفة ٩٣ - ٩٤

حارث الله، وهدي ٧٧٤

الغزاة (بطلة ملاحم بني هلال) ٧٦٢

الجاسر، حمد ٦٠٣

جالنوس (قائد فارسي) ٦٥٧

جبار بن صخر ٤٠٣

جبر بن عتيك ٥٤٣

جبر بن مطعم ١٧٢ - ٢٢٣

الحمد بن قيس ٤٧١

جدعان بن عمرو بن كعب ١٤١

الجدامي، رفاعه بن زيد ٤٥٤ - ٤٥٥

الجدامي، سلامة بن روح ٦٦٩

الجرجاني، علي بن عبد العزيز ٢١٤

جروسيه ٥١

الحزولي (الشيخ) ٧٩٦

الجشمي، أبو أسامة ٣٦٢ - ٤٢٠ - ٤٢٥ - ٤٢٦

جعفر بن أبي طالب ٥١٥ - ٥١٦

جعفر بن الحسن بن علي بن أبي طالب ٧١٥

جعفر بن رستم ٧٤٣

جعفر بن محمد بن الحسن ٧٦٣ - ٧٦٤ - ٧٦٦

٧٦٧

جعفر بن محمد بن الحسين ٧٦٢

جعفر الصادق ٤٩٩ - ٦٩٣ - ٧١٧ - ٧١٨

٧٤٧ - ٧٥٢

جميل بن سراقه ٥٤٦

حلال الدين أكر ٨٠٨

الحلدي بن المستنير ١٣٢

جمال ناشا ٧٧٩ - ٧٨٣ - ٧٨٦

جمال عبد الناصر ٧٥١

الحليالي، بدر الدين ٧٥٩

حمص بن حمصي ١٠٣ - ١٦٤

الحمصي، عبدالله بن أمية بن الميرة بن حلف ٣٠٠

الحمصي، حمير بن وهب ٣٦٢ - ٤٨٥

حميل بن معمر ٩٣ - ٩٤

الجهمي، أبو روعة ٥٨٩

الجواليقي ٢٠٢

جورج لويد ٧٧٨

جوردون تشارلس ٧٨٤

جوفيان، الامبراطور البيزنطي ١٢٣

جوليان المرتد (الامبراطور البيزنطي) ١٢٣

الجوهري ططاوي ٢٤٧

جويدي (المستشرق) ١٥٩

جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار (زوجة الرسول)

٣٨٢ - ٣٩٢ - ٦٠٠

جيبون، ادوار ٦٨٤

ح

الحارث بن أبي ضرار ٣٨٢ - ٣٩٢

الحارث بن إسحاق بن حنون ٧١٩

الحارث بن حرب بن أمية ٣٢٢ - ٣٤٦

الحارث بن خزيمه ٤٣٩

الحارث بن سريخ ٦٧٨

الحارث بن ضرار ٦٠

الحارث بن عبدالله بن كعب ٤٩٢

الحارث بن عبد المطلب ١٤١ - ١٤٨ - ١٥٠

١٥٤ - ٣٢٧

الحارث بن عوف ٤١٤ - ٤١٨ - ٤٢١ - ٤٢٢

٤٢٣ - ٤٢٤ - ٥١٠ - ٥٧٨ - ٥٧٩

الحارث بن فهر ٨١ - ٨٨ - ٩١ - ٩٩ - ١٠٤

١١٥ - ١٦٤

الحارث بن قيس بن عدي ٢٥٨

الحارث بن لؤي ٩٩ - ١٦٧

الحارث بن مالك بن النضر ٧٢ - ٧٣

الحارث بن مصاض الحرهمي ٩٦

الحارث بن هشام ٥٩١ - ٦١٥

حارثة بن عمرو مريقب ٧٨ - ٥٢٨

حارثة الغطريف ٥٢٨

حاطب بن أبي بلتعة ٤٨٥ - ٥٤١ - ٥٤٢

الحاكم بأمر الله ٧٦٢ - ٧٦٥

حاميم بن عبدالله بن مر بن عمر بن زحفو ٧٢٧

الحساب بن المنذر ٣٨٣ - ٤٧٢ - ٥٩٢ - ٥٩٧

٥٩٨ - ٦٠٥ - ٦٠٦ - ٦٠٩ - ٦١٠ - ٦١٣

٦٢٠ - ٦٦١ - ٦٨٨

حامي بن خليل بن حشبة ١٠٢

حامي بنت خليل بن حشبة ٢٢٧

حامي بنت قيس بن ضبيش ٥٠٠

الحاشي، عبدالله محمد ٧٥٠

حجر بن عدي ٥٨٩ - ٦٢٨

حرام بن ربيعة بن جرم بن صفة ٩٥ - ٩٦ - ١٠٤

حرب بن أمية ١٨٩ - ٢٥٤ - ٢٨٣

حرملة بن هودة بن الحيسر بن ربيعة بن عمرو بن

لارس الضحياه ٥٢٠

حباب بن العرقه ٤٢٠

حبيب بن أبي عبيدة ٤٩٣

حذيفة بن اليمان ٤٢٤

الحريزي، كروم الحاج ٨٠٦

الحريزي، أبو محمد عبد الحق بن أبي خالد ٧٩٥

حرون بن أبي وهب ٤٦٣

حسان بن أبي عبدة ٧٠٦

حسان بن ثابت ١٧٢ - ٤٠٣ - ٤١٨ - ٦٠٠

٦٠١

حسان بن مفرح ٧٦٥

حسان بن النعمان ٧٠٤

الحسن بن الحسن بن زيد بن رين العابدين ٧١٦
الحسن الثاني (بن محمد الخامس ملك المغرب)
٨١٠

الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ٧١٥ -
٧١٧ - ٧١٨ - ٧٢٠ - ٧٢١ - ٧٢٩ - ٧٤٣ -
٧٧٥ - ٧٨٣

الحسن بن الزبير ٧٦٣
الحسن بن زيد بن الحسن بن الحسن بن علي بن
أبي طالب ٧٤٣

حسين بن طلال بن عبدالله بن الحسين (ملك
الأردن) ٧٩١ - ٨١٠

الحسن بن عبدالله الأشتر ٧٢١
الحسن بن علي بن أبي طالب ٦٩٣ - ٧٠٠ -
٧١٤ - ٧١٥ - ٧١٧ - ٧١٨ - ٧٢٠ - ٧٢١ -

٧٣١ - ٧٣٩ - ٧٤٣ - ٧٤٥ - ٧٤٩ - ٧٦٢ -
٧٦٤ - ٧٦٥ - ٧٩٣ - ٨١٠ - ٨١١

الحسين بن علي بن الحسين بن عمر بن زين
العبدين ٧٤٤

حسن باشا بن محمد بن عبد المعين (الشهيد) ٧٦٨
حسين طه (الدكتور) ١٤٤ - ٢٠٩ - ٥٥٥

الحسين بن علي (شريف مكة) ٧٦٢ - ٧٦٨ -
٧٧٠ - ٧٧١ - ٧٧٣ - ٧٧٤ - ٧٧٥ - ٧٧٦ -

٧٧٧ - ٧٧٨ - ٧٧٩ - ٧٨٠ - ٧٨١ - ٧٨٢ -
٧٨٣ - ٧٨٤ - ٧٨٥ - ٧٨٦ - ٧٨٧

الحسين بن علي بن أبي طالب ٦٢٨ - ٦٤٨ -
٦٥٠ - ٦٥١ - ٦٥٣ - ٦٥٤ - ٦٦١ - ٦٦٨ -

٦٨٢ - ٧٠٠ - ٧١٤ - ٧١٥ - ٧١٧ - ٧١٨ -
٧٢٠ - ٧٤٤ - ٧٤٥ - ٧٤٦ - ٧٤٧ - ٧٥٢ -

٧٦٢ - ٨١٠ - ٨١١
الحسين بن علي بن الحسين بن الحسن بن علي
(اس عاتكة) ٧٢٠ - ٧٢١

الحسين بن القاسم الرمي ٧٤٩
الحسين بن المنذر بن الحارث ٦٥

الحضرمي العلا ٦٠٦

الحطبة (الشاعر) ٧٠

الحكم بن عبد مناف ٤٦٧

الحكم بن العاص ٤٧٦

الحكم بن هشام (الرمي) ٧٠٧ - ٧١١

الحكم المنصور ٧١٠ - ٧١١ - ٧٢٥

حكيم بن حزام بن غويلد ٣١٦ - ٥٥١ - ٥٥٢ -
٥٥٣ - ٥٥٨ - ٥٥٩ - ٥٦٣

الحلبي بن علقمة بن الأخيف ٤٨١ - ٤٨٥

حليمة السعدية (مرضعة الرسول، ص) ٧٩٧

حليل بن حبشة سيد حراة ٧٧ - ١٠٢

هذان ١٩٨

حمزة بن عبد المطلب ٩٢ - ١٤٣ - ٢٦٩ - ٢٧٠ -

٢٧١ - ٢٧٥ - ٢٧٣ - ٢٨٤ - ٢٨٥ - ٢٨٧ -

٢٩٣ - ٣١٥ - ٣٢٧ - ٣٢٨ - ٣٤٨ - ٣٥٥ -

٣٧٨ - ٣٨١ - ٥١٥ - ٥٦٩ - ٥٧١ - ٥٧٢

الحموي، ياقوت ٢٠٠ - ٢٠١ - ٧٦٣

الحميري، حاطة ١٥٥ - ١٥٦

الحميري، زهير بن جباب بن هبل ١٨٥ - ١٨٦

حيد بن حرب بن بجندل الكلبي ٦٣

حيد الدين، محمد ٢٠٥ - ٢١٠ - ٢٦٢

حيد الدين، يحيى بن محمد (الإمام) ٧٥١

حيضة بن محمد أبو نجي ٧٦٦

حن بن ربيعة بن جرم بن ضه ٩٥ - ٩٦

حنتمه بنت مقبل بن عدي (والسدة عمر بن
الخطاب) ٣١٦ - ٥٥٥

حنظلة بن أبي سميان ٣٦٦ - ٣٧٧ - ٤٠٥

حنظلة بن أبي عامر (حنظلة الفسيل) ٤٠٥ - ٦٤٥

حنظلة بن أبي عامر الراعب ٦٦٦

حنظلة بن عبد عمرو ٣٧٧

الحخاء بنت أبياد بن معد ٥٩

الحخاء بنت الحارث بن مصاصي الحرمي ٥٣

الحذري، أبو سعيد ٦١٠
 حديجة بنت حويلد (أم المؤمنين) ٢٢٧ - ٢٧٢
 ٣١٦ - ٣٣٤ - ٣٣٨ - ٣٣٩ - ٣٤٧ - ٣٤٨
 ٣٤٩ - ٣٦٨
 الحارثاني، أبو مسلم ٤٩٩ - ٦٢٩ - ٦٤٩ - ٦٨٢
 ٧٩٠ - ٧٩١
 حراش بن أمية ٥١٥
 الحزاعي، بدليل بن ورقاء ٢٣٠
 الحزاعي بن أسود ٤٥٨
 الحزاعي، تميم بن أسد ٥٦٢
 الحزاعي، رافع ٥٣٤
 الحزاعي، عبد الرحمن بن أبي سهل ٧٣٤
 الحزاعي، عبدالله بن أبي أوفى ٦٠٨ - ٦٠٩
 الحزاعي، عمرو بن سالم ٤٨٤ - ٤٧٥
 الحزاعي، عمرو بن عامر بن لحى ٦٤١
 الحزاعي، معبد بن أبي معبد ٣٧٨ - ٣٧٩ - ٣٨٦
 الحزرجي، خارجة بن زيد ٣٧٠ - ٣٧١ - ٣٧٢
 حرغل ١٩٨
 حصفه بن ميس ٦٥
 الحضمي، عمرو ٣٦٣
 الحطشي ٦٧
 الخطمي، عبدالله بن زياد بن الحصين ٦٥٨
 خلف بن وهب بن حذافة ٣٦٧
 خصاص بنت مالك بن المطرف ٣٥٥
 خثف (روحة الياس بن مض) ٥٨ - ٥٩ - ٦٠
 ٧٦ - ٧٧ - ٥٢٨
 الحنساء بنت عمرو بن الشريد ٢٦١
 حوات بن جبر ٤١٩
 حورشيد، أحمد فاروق ٩٨
 حورشيد ناشا (والي الحجار العثماني) ٧٦٧
 حويلد بن أسد بن عبد العري (أخو حديجة روضة
 الرسول ص) ٥٥٢
 حويلد بن وائلة الهذلي ١٥٧

حويلط بن عبد العري ٤٨٨ - ٤٩٠ - ٤٩٤
 ٤٩٥ - ٤٩٧ - ٤٩٨ - ٥٠٠ - ٥١٧ - ٥٣٢
 ٥٦٧ - ٥٧١ - ٥٨٠ - ٥٨١ - ٥٨٦ - ٥٩١
 حيان بن مئة ٤٥٥
 حية بنت عبد مناف ١١١ - ١١٧
 حبي بن أحبط ٣٩٩ - ٤٠١ - ٤٠٢ - ٤١٤
 ٤١٥ - ٤١٦
 حبي بن إهاب ٤٤٠

خ

خارجة بن زيد ١٧٢
 الخارحي، عبد الرحمن بن أبي سهيل ٧٣٤
 الخارحي، عبد الرزاق ٧٣٤ - ٧٣٥
 خالد بن أسيد بن أبي العاص ٥١٥
 خالد بن برمك ٧٩٠
 خالد بن سعيد ٦٠٦
 خالد بن سعيد بن العاص ٦١٩ - ٦٢٦
 خالد بن سبيع بن هذيل ٤٣٩
 خالد بن هوفه بن الخير بن ربيعة بن عمرو بن
 فارس الضحيا ٥٢٠
 خالد بن الوليد ٢٩ - ٣٦٩ - ٣٧٠ - ٤٢٠
 ٤٢٥ - ٤٦٨ - ٤٦٩ - ٥١٥ - ٥١٦ - ٥١٧
 ٥١٨ - ٥٣٧ - ٥٣٨ - ٥٤٧ - ٥٤٨ - ٥٥٠
 ٥٥٧ - ٥٥٨ - ٥٥٩ - ٥٦٠ - ٥٦٢ - ٥٦٣
 ٥٩٤ - ٥٩٥ - ٥٩٦ - ٦٠١ - ٦٠٦ - ٦٠٦
 ٦٠٨ - ٦١٤ - ٦٢٦ - ٦٣٢ - ٦٣٦
 خالد بن يزيد بن معاوية ٦٤
 خباب بن الارت بن جندلة ٢٦٨ - ٢٧١ - ٢٧٥
 ٢٨١ - ٢٨٥
 حبيب بن عدي ٣٨٨ - ٤٤٠ - ٤٤١ - ٤٤٢
 ٤٤٣ - ٤٤٤ - ٤٥٩
 خبيد بن يساف ٣٧١
 خدش بن رهبر ١٨٩

حويلد (والد حديجة أم المؤمنين) ٣٤٦
حبر بن حمالة بن عوف بن عثمان بن عامر ٩٣

ربيعة بن حرام بن صه بن عبد بن عدرة بن سعد
هذيم ٩٣ - ٩٤ - ٩٥

الربيع بن سليمان ٧٣٥
ربيعة بن عاد ٥٧٣
ربيعة بن عبد شمس ٢٧٣
ربيعة بن عمر (لحي جد الخرايين) ٧٨
ربيعة بن قعدة بن حضر ٧٨
ربيعة بن كلاب ١٨٦
رزاح بن ربيعة العذري (أنثوي لأم) ٩٤ - ٩٨

رسول الله، محمد بن عبدالله (ﷺ) (معظم
صفحات الكتاب)
الرشاطي (أحد فقهاء الأندلس) ٩٥
الرشيد (مولاي) ٨٠٦ - ٨٠٧
رقية بنت الرسول ص ٣٣٨
رقية بنت هاشم ١٤٥
رمانة بن عبد يزيد بن هاشم ١٤٤
رميث بن محمد أبو ثمي ٧٦٦
روثيلد ٧٨٨
رودانسون مكسيم، المشرق ١٦٤
روزماران ١٩٨
رولف، لوسيان ٧٨٨
روبير، خليلان ٧١٠

ز
زبابة من بني تميم الله ١٨٦
زبيد ١٩٨
زبيدة زوجة هارون الرشيد ٦٧٩
الزبير بن مكار ٨١ - ٨٧ - ٩٧ - ٢١٤
الزبير بن عبد المطلب ١٥٠ - ١٦٤ - ١٦٥ -
١٦٦ - ١٦٧ - ١٦٨ - ١٦٩ - ١٧٠ - ١٩٠ -
٣٢٧
الزبير بن العوام ٢٨٠ - ٣٢٢ - ٣٢٨ - ٣٤٦

الدارمي، اللقيط بن زورارة ١٧٤
الدؤلي، أبو الأسود ٢٠٤ - ٢٠٨
الدؤلي، نوفل بن معاوية ٥٣٣ - ٥٣٤
داوود بن علي ٦٨٧
داوود بن عيسى بن فليته ٧٦٦
دهمان بن الياس بن مضر ٦٥
دوزي (لوزخ) ٦٨١
دوما بن اسماهيل ٥٣
الديش ٨٣ - ١١٢
دي فوج (الكوث) ٢٠٦

ذ
ذو الأصبح العلواني ٦٧
ذو نمز (رجل يمني واجه جيش أبرهة) ١٥٥ - ١٥٦

ذ
ذاجح بن قنادة ٧٦٦
الزرازي ٢٤٧
الزاسي، عبدالله بن وهب ٦٦٤ - ٧٢٤
راشد المولى ٧١٩ - ٧٢٣ - ٧٢٦ - ٧٢٧ - ٧٢٨ -
٧٢٩ - ٧٣٩
راعح من مالك ٣٢٥
رحيلة بن عائد بن مالك ٢٢٨
رحيلة (رحيلة) ٤١٠
ربيع بن حارث بن عمرو مزنيقاه ٩٦

ريث بنت حريجة (روضة الرسول - ص) ٣٤٦ - ٥٥٠
ريث بنت رسول الله (ص) ٣٣٨ - ٤٤٧ - ٥٧١ - ٦١٩
ريون القائد البيروني ١٢٣

س

السائب بن عبد يزيد بن هشام ١٤٤
سابور الثاني (ملك الفرس) ١٢٢ - ١٢٣
ساندروز، ليهان فون ٧٨٦
سباستيان (ملك البرتغال) ٧٩٩ - ٨٠٠
سبعة بنت عبد شمس بن عبد مناف ٤٦٣
سانشو الأول (ملك نيرة) ٧١٣
سالم بن أبي فليته ٧٦٣
سبا ٢٢٤
سبرنجر، الويس ٢٤٩
سقاربو ٧٨٠
ستورس، رونالد ٧٧٥ - ٧٨٤
ستيوارت، دزموند ٧٧٤ - ٧٧٩ - ٧٨٠ - ٧٨٥
السجستاني، أبو داود ٢٠٢
السجلهسي، محمد بن شريف ٨٠٥
سخاو، إخوان ٢٠٢
سُرير بن مرة ٩١
السري بن والي ٦٠٣
مسعد بن أبي وقاص ١٤٣ - ٢٩٩ - ٢٨٠ - ٣٧٧ - ٣٧٨
٣٧٨ - ٤١٩ - ٤٢٧ - ٤٧٢ - ٤٩٨ - ٥٤٢
٥٩٢ - ٦٠٨ - ٦٠٩ - ٦٣٦ - ٦٥٣
مسعد بن أبي ربيعة ٢٦٩
مسعد بن بكر ٨١
مسعد بن حنيفة ٣٦٨
مسعد بن الربيع ٣٦٨
مسعد بن زيد ٣٨٣ - ٤٤٤
مسعد بن عساة ٢٢٤ - ٣٣١ - ٤١٤ - ٤١٥

٣٥٠ - ٣٨٤ - ٤٣٤ - ٥١١ - ٥٤٢ - ٥٤٦
٥٥٧ - ٥٥٨ - ٦٠٨ - ٦٠٩ - ٦١٤ - ٦١٩
٦٥٠ - ٦٦٢ - ٦٦٣ - ٦٧٥
السري المصب ٥٨ - ٦٢ - ٧١ - ٧٢ - ٧٤
٧٧ - ٩٠ - ٩١ - ٢١٣ - ٢١٤ - ٢٢٣
٢٢٥ - ٤٧٥ - ٤٧٨ - ٥٦٧ - ٦١٨ - ٦١٩
٦٢٠
الزرقاني ١٥٣ - ١٥٤ - ٣٥١ - ٥٥٦
زكار سهيل (الذكتور) ٧٥٠
الزهرري ٢١٤
زمنة بن الأسود بن عبد المطلب ٢٩٨ - ٣١٧ - ٣٢٣
زموذ بن صالح بن هاشم بن وارد ٧٢٥
الزناي، خالد بن حميد ٧٢٤
زنكي، نور الدين محمود ٧٦٠
زهره بن كلاب ١٦٤ - ١٦٧
الزهري ٢٧٢ - ٢٨٠ - ٤١٤ - ٤٣٥ - ٥٠٢
زيدان، جرجي ٤٥ - ٤٦ - ٤٧ - ٤٨ - ١٨٧ - ١٩٠ - ٢٠٣
زيدان مولاي (السلطان) ٨٠٢ - ٨٠٣ - ٨٠٤
زيد (أخو عمر بن الخطاب) ٢٨٧
زيد بن ثابت ٢١١
زيد بن الحسن بن الحسن بن علي ٧٤٣
زيد بن حارثة ٣٣٦ - ٣٦٥ - ٤١٦ - ٤١٩
٤٤٧ - ٤٤٨ - ٤٥٥ - ٤٥٦ - ٤٦٣ - ٤٧٢ - ٤٧٣
زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ٧١٥
زيد بن السدنة ٣٨٨ - ٤٤٠ - ٤٤١ - ٤٤٢
٤٤٣ - ٤٤٤
زيد بن الشريف حسن ٧٧٣
زيد بن علي زين العابدين ٧٤٦ - ٧٤٧ - ٧٤٨
زيد بن عجل ٢٨١
زينب بنت جحش (روضة الرسول - ص) ٥١٩

السلبي، عباس بن مرداس ١٧٤ - ٥٨٢	٤٢٢ - ٤٧١ - ٤٧٢ - ٤٧٤ - ٤٧٦ - ٤٩٧
السلبي، عتبة بن خروان المازني ٢٨٣	٤٩٨ - ٥١٧ - ٥٢٢ - ٥٢٣ - ٥٥٧ - ٥٦٥
سلول من بني معاوية بن بكر من هوازن ٢٢٦	٥٧١ - ٥٧٢ - ٥٨٧ - ٥٩٢ - ٥٩٧ - ٥٩٨
سلول من بني معاوية بن بكر ٢٢٦	٥٩٩ - ٦٠١ - ٦٠٥ - ٦٠٦ - ٦١٠ - ٦١٣
سليط من قيس ٥٤٣ - ٦٣٧	٦١٧ - ٦١٨ - ٦٢٠ - ٦٨٨
سليمان بن عبدالله بن الحسن بن علي ٦٩٤ -	سعد بن قيس ٦٥
٧٢٠ - ٧٢١ - ٧٢٧ - ٧٣١	سميد بن مصاد ٣٩٦ - ٤١٤ - ٤١٥ - ٤١٩
سليمان بن عبدالله بن طاهر ٧٤٢	٤٢٠ - ٤٢٢ - ٤٣٦ - ٤٣٧ - ٤٣٨ - ٤٦٩
سليمان بن عبدالله النخعي ٧٣٩ - ٧٤٠ - ٧٤١	السعدي، السلطان محمد الشيخ بن زيدان ٨٠٤ -
سليمان بن عبد الملك بن مروان ١٧٢ - ٦٧٨ -	٨٠٥
٦٨١ - ٦٨٦	سعيد أمين ٧٨٦
حارثة ابن عامر الخزاعي ١٠٢ - ١٠٧	سعيد بن جبير ٢٩٧
سليمان بن محمد بن أحمد بن القاسم بن أحمد بن	سعيد بن زيد بن نفييل ٣١٦ - ٦٠٩
محمد ٧٤٠	سعيد بن العاصي ٦٣٤
سليمان بن موسى بن عبدالله بن موسى بن عبدالله	سعيد بن عبدالله بن قيس ٤٤٢
بن الحسين بن علي ٧٦٥	سعيد بن عمر بن زيد بن نفييل ٢٦٦ - ٢٧٠ -
سليمان القانوني ٨٠٨	٢٧١
السلياني الحسن بن جعفر (أمير مكة) ٧٦٢	سفيان بن أمية ١٨٩
سليم الأول السلطان العثماني ٧٦٧ - ٧٧١ - ٨٠٨	سفيان بن عبد شمس ٤٠٩
سليم بن منصور ١١٤ - ١١٦	السقا، مصطفى ١٥٩
السملاي، أبو الحسن ٨٠٣ - ٨٠٦	السكري ٢٥١ - ٢٥٢
السملاي، أبو حسن ٧٩٤	السكري، الخصص بن لمبر ٦٤٨ - ٦٦٦ - ٦٧٥
السمهري ٤٥٣	السلال، عبدالله ٧٥١
سميث، روبرتسون ٢١٩	سلامة بنت عيسى ٥١٦
سهم بن هبص ١٠٣ - ١٦٤	السملاوي، أحمد بن خالد بن حماد الناصري ٧٩٢
السمهي، العاصي بن والي ١٦٥ - ١٦٦ - ٥٨٣	سلمي بنت أسلم بن الحاف بن قضاعة ٦٦
السمهي، منه بن الحجاج ٢٩٨	سلمي بنت عيسى ٦١٥ - ٦١٦
السمهي، نبيه بن الحجاج ٢٩٨	سلمي من بني عدي بن النجار ١٤٤ - ١٤٥ -
سهيل من حيف ٦١٣	١٥٣ - ٢٢٦
سهيل بن ربيعة بن عامر ٤٩٢	سلمي بن أبي سلمة بن عبد الأسد ٥١٦
سهيل بن عمر بن عدود بن عبد شمس ٤٨٧ -	سلمة بن أسلم بن حريش ٤١٦ - ٤٩٢
٤٩٠ - ٤٩٢ - ٤٩٤ - ٤٩٥ - ٤٩٦ - ٤٩٧	سلمة بن الأكرع ٤٤٤ - ٤٦٣ - ٦٠٥ - ٦١٧
٤٩٩ - ٥٠٠ - ٥٠٢ - ٥٠٤ - ٥١٥ - ٥١٧	سليمان بن عمرو بن نوى بن ملكان بن أمص بن
٥٤١ - ٥٦٢ - ٥٦٣ - ٥٦٥ - ٥٦٦ - ٥٦٧	السلبي، سفيان بن عبد شمس ٣٧١

سهيل بن عمر بن ميمص بن عامر ٣٢٣ - ٣٨٧

٤٠٧ - ٤٦٦ - ٤٧٧ - ٤٧٨

الصهيبي ٩٣ - ١٥٣

سولا ٢٩٢

سويد بن دبد ٤٥٥

سويد بن صبحر ٥٤٤

سويد بن مقرن ٦١٥

سيد، أمين فؤاد ٧٦٠

سيف بن ذي يزن ٦٦٠

سيف بن عمر ٦٠٢

السروطي ٢٤٧

ش

شارل الثاني (ملك بريطانيا) ٨٠٦

شارل مارتل ٧١٤

الشافعي (الإمام) ١٤٤ - ٦٨٣

شاو (الوزير العاطمي) ٧٦٠

الشباني، عبد الكريم بن القائد أبي بكر ٨٠٦

شرحبيل بن حسنة ٦٢٦

شرف الدين يحيى (الإمام) ٧٥٠

شعب (النبي) ٢٤٢

شكر بن أبي الفتح ٧٦٥

شهر برار ٦٣٤

الشيبان، جمال الدين ٧٥٦

الشيباني، المنى بن حارثة ٦٣٢ - ٦٣٦ - ٦٥٧

شبيبة بن ربيعة بن عسند شمس ١٧٢ - ١٧٣

٢٧٣ - ٢٨٢ - ٢٨٤ - ٢٨٨ - ٢٩٨ - ٣٣٣

شيث بن ربيعي ٦٦٣

شحنة بن سالم بن أبي مليحة ٧٦٣

ض

الضحاك بن خليلة ٤٠٣

الضحاك بن فيس القهري ٤٣ - ٦٧٥

ضرار بن الخطاب ٣٦٩ - ٣٧٤ - ٤٢٠

ضرار بن عبد المطلب ٣٢٧

ضرغام، (الوزير العاطمي) ٧٦٠

ضب، شوقي ٢٠٣

العاصد (أبو محمد عبدالله) الخليفة الماطمي ٧٦٠

عاصر بن ثعلبة (الطيطون) ٤٠١ - ٤٠٢

عاصر بن ربيعة ٢٨١

عاصر بن الطفيل ٣٨٤

عاصر بن عوف ٥٨٢

عاصر بن غالب ٧٣

عاصر بن هبة مولى أبي بكر ٢٨١

عاصر بن قعدة بن الياس بن مضر ٥٣٠

عاصر بن لؤي ٧٣ - ٧٦ - ٨١ - ٨٨ - ٩٠ - ٩٨

١٠٣ - ١٠٤ - ٤٧٥ - ٤٧٧

عبادة بن بشر ٣٨٤ - ٣٩٠ - ٤١٢ - ٤١٩

٤٢٢ - ٤٣٩ - ٤٦٩ - ٤٧٢ - ٤٨٤ - ٤٩٢

٦١٠ - ٦١٦ - ٦١١

العبادي، علي بن زيد (الشاعر) ٢٠٨ - ٢٠٩

عباس حلمي (الحنبلي) ٧٧٣

العباس بن عبد المطلب ١٩٢ - ٢١٥ - ٣٢٧

٣٢٩ - ٣٣٠ - ٣٤١ - ٥١٦ - ٥١٩ - ٥٥١

٥٥٣ - ٥٥٤ - ٥٥٥ - ٥٥٦ - ٥٥٧ - ٥٨٢

٥٩٣ - ٥٩٧ - ٦٠٢ - ٦٨٧

عباس بن عباد بن بطة ٣٧١ - ٥٨٧

العباس بن محمد ٧٢٢

العباس بن مرداس ٥٥٠

عبد أمية ٣٤٣

عبد الحارث بن زهرة ١٠٣

عبد الحكم بن عبد الرحمن بن أبي الفاتك ٧٦٤

عبد الحميد بن عبد الرحمن بن أبي الفاتك ٧٦٤

عبد الحميد الثاني (السلطان العثماني) ٧٦٢ -

٧٧٠ - ٧٧١ - ٧٧٢ - ٧٧٣ - ٧٧٥ - ٧٨٨

عبد الدار بن قصي ١٠٢ - ١٠٣ - ١٠٥ - ١٠٦

١٠٩ - ١١٠ - ١١١ - ١٤١ - ١٦٨ - ١٦٩

٣١٦

عبد الرحمن (أبو سلمى) ٧٢

عبد الحميد بن الحارث بن هشام بن المغيرة ٦١٩

عبد شمس بن مساف بن قصي ١٠٤ - ١١٠

الطائي، أبو سلمة بن عبد الأسد ٣٩٤ - ٣٩٥

طابخة (عمرو) ٥٩ - ٦١ - ٦٢

طابخة (مر بن أدب الياس بن مضر) ١٠٧

الظاهر بن الرسول ٣٣٨

الطبري ٩٣ - ١٠٦ - ١٠٨ - ١٠٩ - ١١٨

١٣٧ - ١٣٨ - ١٤١ - ٢٧٣ - ٢٧٦ - ٢٧٧

٥٥٦ - ٦٠٣ - ٦٠٤ - ٦٠٥ - ٦٠٦ - ٦٠٧

٦٣٤ - ٦٣٥ - ٦٣٦ - ٦٣٧ - ٦٤٥ - ٦٤٦

٦٤٧ - ٦٥١ - ٦٥٣ - ٦٥٧ - ٦٥٨ - ٦٥٩

٦٦٠ - ٦٦٤ - ٦٦٦ - ٦٦٧ - ٦٦٨ - ٦٦٩

٦٧٨ - ٦٨١ - ٦٨٨ - ٦٩٩ - ٧٢١ - ٧٢٥

الطفيل بن مالك بن خنساء ٥٧٧

طلحة بن عبدالله ٢٨٠ - ٦٠٨ - ٦٠٩ - ٦١٢

٦١٤ - ٦٥٠ - ٦٦٢ - ٦٦٣

طلب بن عمر ٣٢٨

طه، علوي ٨

طوي ٢٠١

عائشة أم المؤمنين ٤٧٢ - ٥٣٥ - ٥٤٠ - ٦٥٨

٦٦٢

عائكة بنت عبد المطلب ٢٢٦ - ٢٢٧ - ٣٢٢

٣٢٣ - ٣٢٧ - ٣٢٨

عائكة بن مرة بن هلال بن فالح بن ذكوان من بني

سليم ١١٢ - ١١٤ - ١١٥ - ١١٦ - ٥٥٠

العاص بن هاشم بن كلفة ٢٦٨

العاص بن وائل بن سعيد بن سهم بن عمرو بن

عصيص بن كعب بن لؤي ٢٨٩

عاصم بن ثابت ٤٥٩

عاصم بن عمر بن قتادة ٤٥٨

العاصي بن سعيد بن العاص ٢٨٣ - ٦١٨

عبدالله بن الشريف حسين ٧٧٣ - ٧٧٤ - ٧٧٥ -

٧٧٨ - ٧٨٥ - ٧٨٧

عبدالله بن ربيعة ٤٦١

عبدالله بن الربيعي ٥٦٨

عبدالله بن الرسير ٣٤٤ - ٦٤٤ - ٦٤٨ - ٦٧٤ -

٦٧٥ - ٦٨٦ - ٧٠٣

عبدالله بن زيد ٥٤٣

عبدالله بن العباس ٦٦٤

عبدالله بن عامر بن كزير ٦٣٦ - ٦٧٨

عبدالله بن عباس ٧٢١

عبدالله بن عبد الأسد (أبو سلمة) ٣١٦

عبدالله بن عبد العزيز (وزير الحكيم الربيعي) ٧١١

عبدالله بن عبد المطلب (والد الرسول ص) ٩٢ -

١٤٥ - ١٥٠ - ١٦٥ - ٣٢٧ - ٥٧٤

عبدالله بن عتيك بن قيس ٤٥٧

عبدالله بن عمر بن الخطاب ٧٢٠

عبدالله بن عمرو بن العاص ٣٥٠ - ٤٤٤

عبدالله بن عمرو بن هزوم ٣١٦ - ٣٢٢ - ٦١٩

عبدالله الغالب بالله ٧٩٩ - ٨٠٠

عبدالله بن مسعود ٦٣٩

عبدالله المحض ٧٤٩

عبدالله بن محمد (أمير الأندلس) ٧٠٨ - ٧٠٩

عبدالله بن هزيمة ٥٦٧

عبدالله بن مقرن ١٠٥

عبدالله المبارك ٧٩٨

عبدالله بن مسعود (ابن أم عبد) ٢٦٦ - ٢٧٥

عبدالله بن المغيرة بن عبدالله بن المغيرة بن هزوم

٦١٩

عبدالله بن موسى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن

بن علي ٧٦٤

عبدالله بن الوليد بن عثمان بن عفان ١٧٢

عبدالله بن يزيد ٥٧٣

عبد الرحمن الأوسط بن الحكم ٧٠٩

١١١ - ١١٥ - ١١٦ - ١١٧ - ١١٨ - ١٢٠ -

١٢٩ - ١٣٧ - ١٣٨ - ١٤١ - ١٤٤ - ١٤٩ -

١٦٤ - ١٦٨ - ١٦٩ - ١٧٢ - ١٧٣ - ٢١٦ -

٢٣١ - ٢٥٢ - ٢٥٣ - ٢٧٣ - ٣١٦ - ٣٣٧ -

٣٤٣ - ٣٤٥ - ٤٨٧ - ٦١٨ - ٦١٩ - ٦٨٣ -

٦٨٤

عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل

٤٩٠

عبد العزيز بن أبي قيس بن مالك بن حسل ٤٩٠

عبدالله باشا بن محمد بن عبد المعين ٧٦٨

عبدالله بن أبي ٥١٤ - ٥٧٥

عبدالله بن أبي أمية بن وهب ٤٨٥

عبدالله بن أبي بن عبد مناف بن هلال ٣٤٦

عبدالله بن أبي بكر بن مالك ٤٥٨

عبدالله بن أبي بن سلول ٤١٢ - ٤٧١

عبدالله بن الأعمش محمد ٧٦٤

عبدالله بن أبي ربيعة ٥٧١ - ٥٨٦ - ٥٩١

عبدالله بن أم مكتوم ٦٤٠

عبدالله بن أنيس ٤٣٩ - ٤٥٨

عبدالله بن بدر ٥٤٤

عبدالله بن بدليل بن ورقاء ٥٣٠

عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي ٧١٨ -

٧٣١ - ٧٣٩ - ٧٤٠ - ٧٤٣ - ٧٦٤

عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب ٧٦٣ -

٧٦٤ - ٧٦٥

عبدالله بن حذافة ٤٨٥

عبدالله بن حنظلة الغسيل ٦٤٥ - ٦٤٦ - ٦٦٦

عبدالله بن جبير ٣٦٩

عبدالله بن جعش ٣٤٦ - ٣٦٣

عبدالله بن جدهان ١٤١ - ١٦٥ - ١٨٤ - ١٩٠ -

٢٥٠ - ٢٥٨ - ٢٦٩ - ٣٣٧ - ٣٤٣ -

عبدالله بن سعد بن أبي السرح ٦٣٦

عبدالله بن سهيل بن عمرو ٤٨٥ - ٥٦٦

عبد الرحمن بن أبي الصلتك عبدالله بن داود من

سليمان بن الحسن بن علي ٧٦٤

عبد الرحمن بن حبيب ٤٩٣

عبد الرحمن بن ربيعة ٦٣٤

عبد الرحمن بن عبدالله (الناصر) ٧٠٨ - ٧٠٩

٧٤١ - ٧١٠

عبد الرحمن بن عوف ٤٦٩ - ٤٤٤ - ٤٤٩ - ٤٥٠

٤٥٢ - ٤٥٤ - ٤٥٥ - ٤٥٨ - ٤٧٢ - ٤٩٨

٥٧٢ - ٥٨٧ - ٥٨٨ - ٦٠٨ - ٦٠٩ - ٦١٢

٦١٤ - ٦٢٧ - ٦٥٩ - ٦٦٠

عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) ٧٠٢ - ٧٠٣

٧٠٤ - ٧٠٥ - ٧٠٦ - ٧٠٩ - ٧١٠ - ٦٧٦

٨٠١

عبد الرحمن الناصر ٨٠١ - ٨٠٨

عبد العزيز بن عبد شمس ٦١٩

عبد العزيز بن قهي ١٠٢ - ١٠٣ - ١٠٥ - ١٠٦

٢٦٩

عبد العزيز بن سعود ٧٦٢ - ٧٦٤ - ٧٧٧

عبد قهي ١٠٢ - ١٠٣ - ١٠٥ - ١٠٦ - ١١١

عبد الكريم بن منفيث الرومي ٧٠٦

عبد المجيد (السلطان العثماني) ٧٧١

عبد المطلب بن هاشم ٨٨ - ٩٢ - ٩٧ - ١٠١

١٠٢ - ١٠٧ - ١٠٩ - ١١٦ - ١٣١ - ١٣٣

١٣٧ - ١٣٨ - ١٣٩ - ١٤٠ - ١٤١ - ١٤٤

١٤٥ - ١٤٦ - ١٤٧ - ١٤٨ - ١٤٩ - ١٥٠

١٥٢ - ١٥٣ - ١٥٤ - ١٥٥ - ١٥٦ - ١٥٧

١٥٨ - ١٦١ - ١٦٢ - ١٦٣ - ١٦٤ - ١٦٥

١٦٨ - ١٦٩ - ١٧٠ - ١٧١ - ١٧٣ - ١٧٧

١٨٠ - ١٨١ - ١٩١ - ٢٢٦ - ٢٣٠ - ٢٥١

٢٥٣ - ٢٥٤ - ٢٥٥ - ٢٥٧ - ٢٧٢ - ٢٨٠

٣١٨ - ٣٢٣ - ٣٢٦ - ٣٢٧ - ٣٢٨ - ٣٣٠

٣٤٥ - ٤٢٨ - ٥٢٠ - ٥٢٨ - ٥٣٠

عبد مناف بن كنانة ٩٤ - ٩٥ - ٩٦ - ١١٤

عبد مناف بن قريش ١٠٤ - ١١٠

عبد المطلب بن عبد المطلب ٣٢٧

عبد المطلب بن عبد مناف ٧٧٠

عبد المطلب بن عاتل ٧٦٨

عبد الملك بن صاحب الصلاة ٥٩٠

عبد الملك بن زيدان ٨٠٣ - ٨٠٤

عبد الملك بن صالح ٧٢٢

عبد الملك بن مروان ٢٧٦ - ٢٧٩ - ٢٨٤ - ٢٨٨

٣٤٤ - ٦٦٦ - ٦٧٣ - ٦٧٧ - ٦٨٥ - ٧٠٢

٧١٣ - ٧١٨

عبد الملك بن نوفل ٦٦٦

عبد مناف بن زهرة ١٠٤

عبد مناف بن قهي ٧٧ - ١٠٢ - ١٠٣ - ١٠٥

١٠٦ - ١٠٩ - ١١٠ - ١١١ - ١١٣ - ١١٤

١١٥ - ١١٦ - ١١٧ - ١١٨ - ١٢٠ - ١٢٨

١٢٩ - ١٣٧ - ١٦٢ - ١٥٨ - ١٦٣ - ١٦٤

١٦٥ - ١٦٧ - ١٦٨ - ١٨٠ - ٢٢٦ - ٢٣٠

٢٥٤ - ٢٥٥ - ٣١٦ - ٣٢٢ - ٣٤٣ - ٣٤٥

٤٧٧

عبد مناف بن عبد المطلب ٣٢٧

العبدى أبو خالد بن يزيد بن العباس ٧٢٨ - ٧٢٩

العبدى بنت عبد المطلب ٣٢٧

عبد بن ثعلبة بن محارب ٧٣٥

عبد، نيه ٢٠٧

عبد بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ٢٦٦ -

٤٢٧

عبد الله بن الحبيب ٧٠٥

عبد الله بن زياد ٦٥٣

عبد الله المهدي ٧٣٦

عبد بن سعيد بن العاص ٦١٩

عبد يعقوب بن وهب بن عبد مناف بن زهرة ٩٢

عبد بن كعب (الأسود العمري) ٦٠٣ - ٦٠٤

العتوي، محمد بن أبي الجهم من حديفة ٦٤٧ -

٦٦٧

عدنان ٢١٥ - ٢٢٤

عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن كنانة

(القمي) ٩١

عدنان بن أد ٣٨ - ٤٤ - ٤٥ - ٤٧ - ٥٤ - ٥٦ -

٧١

عزرا بن عمرو بن أحطب ٤٢٥

عضل بن كنانة ١١٢

عطاء بن أبي مروان ٥٣٥

عطيفة بن محمد أبو نجي ٧٦٦

العقاد، عباس محمود ٥٥٥

عتبة بن أبي معيط ٢٥٨ - ٢٧٤ - ٢٨٣ - ٣٠١ -

٣٤١

عقيل بن أبي طالب ٥٥٨

عك بن عدنان ٤٥ - ٤٧ - ٤٥٨

عكاشة بن حصن ٤٤٤ - ٤٤٧

عكرمة بن أبي جهل ٣٦٩ - ٣٧٩ - ٤٢٠ - ٤٢٤ -

٤٤٢ - ٤٤٣ - ٤٦٦ - ٤٧٦ - ٥١٥ - ٥٤١ -

٥٤٢ - ٥٤٨ - ٥٥٩ - ٥٦٢ - ٥٦٧ - ٥٦٩ -

٥٧١ - ٥٧٧ - ٥٨٠ - ٥٨١ - ٥٨٥ - ٦٠٦ -

٦١٥ - ٦١٦ - ٦١٩ - ٦٢٠

العلاء بن الحضرمي ٥٣١ - ٥٣٢

علقمة بن خالد بن الحارث بن أسيد ٦٠٨

علقمة بن حلاتة ٥٢٠

علي بن أبي طالب ٦١ - ١٤٣ - ٢٤١ - ٢٧١ -

٢٨٠ - ٣٣٨ - ٣٤٤ - ٣٤٧ - ٣٤٨ - ٣٨١ -

٤٢٠ - ٤٢١ - ٤٥٢ - ٤٥٥ - ٤٥٦ - ٤٧٢ -

٤٨٤ - ٤٩١ - ٤٩٧ - ٤٩٨ - ٤٩٩ - ٥١٥ -

٥١٦ - ٥٢٢ - ٥٣٦ - ٥٣٧ - ٥٣٨ - ٥٥٨ -

٥٦٨ - ٥٨٩ - ٥٩٢ - ٥٩٤ - ٥٩٦ - ٥٩٧ -

٥٩٩ - ٦٠٠ - ٦٠١ - ٦٠٨ - ٦١٣ - ٦١٨ -

٦٢٧ - ٦٢٨ - ٦٢٩ - ٦٣١ - ٦٣٧ - ٦٣٨ -

عتاف بن أسيد ٥٨٤ - ٥٨٨ - ٥٩٦ - ٦٥٥ -

٧٦٢

عنة من أسيد بن حارية (أبو نصير) ٥٠٣ - ٥٠٤ -

٥٠٥

عنة بن أمية ١٨٩

عنته بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن

فصي ٢٥١ - ٢٧٣ - ٢٧٤ - ٢٨٢ - ٢٨٤ -

٢٨٨ - ٢٣٣ - ٢٣٧ - ٢٤١ - ٢٦٢ - ٢٦٤ -

عشكان بن الحويرث ٢٦٠

عشكان بن عفان ٢١٠ - ٢٢٨ - ٣١٩ - ٣٤١ -

٣٤٤ - ٤٥٩ - ٤٧٤ - ٤٨٣ - ٤٨٤ - ٤٨٥ -

٤٨٦ - ٤٨٨ - ٤٩١ - ٤٩٨ - ٥٦٢ - ٥٦٧ -

٦٠٠ - ٦٠٨ - ٦٠٩ - ٦١١ - ٦١٨ - ٦٢٦ -

٦٢٧ - ٦٣١ - ٦٣٣ - ٦٣٤ - ٦٣٧ - ٦٣٨ -

٦٣٩ - ٦٤٠ - ٦٤٣ - ٦٤٤ - ٦٤٩ - ٦٥٢ -

٦٦٠ - ٦٦٢ - ٦٦٣ - ٦٦٤ - ٦٦٨ - ٦٦٩ -

٦٨٠ - ٦٨٦ - ٦٩٠ - ٦٩١ - ٧٠٣ - ٧٨٩ -

عشكان بن طلحة ٢٢٧ - ٤٦٨ - ٥١٨ - ٥١٩ -

٥٦٠ - ٥٦٢ - ٥٦٤ - ٥٧٤ -

عشكان بن كعب بن سعد بن نيم من مروه (شارب

الذهب) ١٨٤

عشكان بن محمد بن أبي سفيان ٦٤٥

عشكان بن فطعون ٢٦٨ - ٢٨١

عجلان بن ربيعة بن محمد أبو نجي ٧٦٧

عجود، حماد (الراوية) ٢٠٨

العجلي، قرات بن حبان ٣٦٥ - ٤٤٨

عدي بن كعبه ٩٠ - ١٦٤

عدي بن النجار ١٤٤

عدي بن نوفل بن عبد مناف ٣٢٢ - ٣٢٤

عدنان ٤٥٨

العتوي، عامر بن الطرب ١٨

العتوي (أبو عداة) أحمد بن محمد ٧٢

٦٦٧ - ٦٦٠ - ٦٥٨ - ٦٥٧ - ٦٥٦ - ٦٥٢

٦٨٨ - ٦٨٤ - ٦٨٠ - ٦٧٥ - ٦٧٤ - ٦٧٣

٧٦٧ - ٧٢٠ - ٦٩٠

عمر بن زین العابدین ٧٤٤

عمر بن سعد بن أبي وقاص ٦٥٣ - ٦٥١ - ٦٤٨

عمر بن عبد العزيز ٦٨٥ - ٦٨٦ - ٧٤٧

عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن

الخطاب ٧٢٠ - ٧٢١

عمر أبو خزيمة ٥٩

عمر بن أمية ١٨٩

عمر بن الياس بن مضر ٦٩

عمر بن نعلبة النضاه ٥٢٨

عمر بن الحارث بن زهير ٤٩٣

عمر بن الحارث بن مالك بن النضر ٧٣

عمر بن ربيعة بن عمر الخزاعي ٧٩ - ٩٦ - ٩٨

عمر بن سالم ٥٤٤

عمر بن سعيد بن العاص ٦١٨ - ٦١٩ - ٦٤٤

عمر بن العاص ٣٧٦ - ٤٢٠ - ٤٢٥ - ٤٦٨

٤٧٧ - ٤١٧ - ٥٢١ - ٥٦٢ - ٥٩٥ - ٦٠٠

٦٠٦ - ٦١٤ - ٦٢٦ - ٦٢٧ - ٦٣٦ - ٦٤١

٦٦٨ - ٧٣٠

عمر بن عامر بن ربيعة الخزاعي ٩٦ - ٩٨

٥٢٠

عمر بن عبد شمس ٥٧٤

عمر بن عبد مناف ١١٤

عمر بن عبد ود ٤٢٠ - ٤٢١

عمر بن عثمان بن عفان ٦٤٧

عمر بن طيء ٢٠٠

عمر بن فهم ٤٧٠

عمر بن قيس ٦٥

عمر بن كعب (السيال) ١٨٤

عمر بن معد بكرب ١٧٤

عمر بن حانم ١٤٥ - ٥٧٢

عمر بن حصيص بن كعب ١٦٦

٦٤٢ - ٦٤٤ - ٦٤٩ - ٦٥٠ - ٦٥٢ - ٦٦١

٦٦٢ - ٦٦٣ - ٦٦٤ - ٦٦٥ - ٦٦٨ - ٦٦٩

٦٧٥ - ٦٨٢ - ٦٨٧ - ٦٨٨ - ٦٩١ - ٦٩٣

٦٩٤ - ٧٠٠ - ٧٠٣ - ٧١٤ - ٧١٦ - ٧١٧

٧١٨ - ٧٢١ - ٧٣١ - ٧٣٩ - ٧٤٣ - ٧٤٤

٧٤٥ - ٧٤٦ - ٧٤٨ - ٧٤٩ - ٧٦٢ - ٧٦٣

٧٦٤ - ٧٦٥ - ٧٩٣

علي بن الشريف حسين ٧٧٣

علي بن رسول ٧٦٦

علي بن عمر (صاحب الريف) ٧٣٤ - ٧٣٥

علي الرضا بن جعفر الصادق ٧١٧

علي جواد ٢٠٣

علي بن كيسان ٧١ - ٧٢ - ٢١٤

علي بن محمد العباس ٧٥٠

علي بن زيد ٥١١

علي بن ياسر ٢٧٥ - ٣٩٠ - ٦٣٩

علي بن حزم ٥٤٢

علي بن حمزة بن عبد المطلب ٥١٥

عمر بن أبي ربيعة ٢٠٦

عمر بن إدریس ٧٣٥

عمر بن الخطاب ٩٠ - ١٦٤ - ٢٢٧ - ٢٢٨

٢٦٨ - ٢٧٠ - ٢٧١ - ٢٧٢ - ٢٧٤ - ٢٧٨

٢٨٠ - ٢٨٣ - ٢٨٤ - ٢٨٥ - ٢٨٧ - ٣١٣

٣١٦ - ٣٣٩ - ٣٤٤ - ٣٤٨ - ٣٥٥ - ٣٧٧

٣٨١ - ٣٨٣ - ٣٩٥ - ٣٩٦ - ٤١٣ - ٤٢١

٤٥٠ - ٤٥٩ - ٤٧١ - ٤٧٢ - ٤٧٣ - ٤٧٤

٤٨٣ - ٤٨٤ - ٤٩١ - ٤٩٢ - ٤٩٣ - ٤٩٤

٤٩٥ - ٤٩٦ - ٤٩٨ - ٥٠٥ - ٥١١ - ٥٢٢

٥٢٣ - ٥٤١ - ٥٤٢ - ٥٥٠ - ٥٥٦ - ٥٦٢

٥٦٧ - ٥٩٢ - ٥٩٧ - ٥٩٩ - ٦٠٠ - ٦٠١

٦٠٨ - ٦٠٩ - ٦١٠ - ٦١٢ - ٦١٣ - ٦١٤

٦١٥ - ٦١٦ - ٦١٧ - ٦١٨ - ٦١٩ - ٦٢٠

٦٢٥ - ٦٢٦ - ٦٢٧ - ٦٣١ - ٦٣٢ - ٦٣٤

٦٣٥ - ٦٣٦ - ٦٣٧ - ٦٣٨ - ٦٤٧ - ٦٥٠

عمرو بن هلال بن معيص بن عامر ١١١

عمير بن أبي وقاص ٢٦٩

عمير بن الحباب السلمي ٦٣

عمير بن مصر (قعدة) ٧٨

عمير بن وهب ٥٦٩

عنترة المصي ١٨٨

العوام بن حويله ٣٢٢ - ٣٤٦

هوازنه بن عبد الحكم ٦٤٦ - ٦٤٧ - ٦٦٦

٦٦٧ - ٦٦٨

عوف بن الحارث بن غفراء ٣٢٥

عوف بن عوف ٣٢٧

عوف بن فلان بن سنان ٦٣

عون لرفيق بأشأ بن محمد بن المعين بن عون ٧٦٨

عون (لشريف) ٧٦٧ - ٧٦٨

العريض ١٨٩

عويم بن عامر بن لؤي ٥٠٠

عويم بن ساعدة ٥٩٧

عباش بن أبي ربيعة ٢٦٩ - ٣٥٤ - ٤٨٥

العباشي أبو عبدالله ٨٠٤ - ٨٠٥

عباض بن موسى البهسي (القاضي) ٣٣٥

عباض بن غنم ٤٩٣ - ٦٦٦ - ٦٣٦

عيسى بن شهيد ٧٠٨

عيسى بن شبحه بن سالم ٧٦٣

عيسى بن عذيلة ٤٥٣

عيسى بن القاسم بن فليته ٧٦٦

عيسى بن محمد بن سليمان ٧٤١

عيسى (الثني) ٢٩٩ - ٥٦٠ - ٦٨٧ - ٧٢٥

العيص ١٨٩

عيسنة بن حصص ٢٢٨ - ٣٩٩ - ٤٠٩ - ٤١٠

٤١٨ - ٤٢١ - ٤٢٢ - ٤٢٣ - ٤٢٤ - ٤٤٤

٤٤٥ - ٤٤٦ - ٤٨٩ - ٥١٠ - ٥٥٠ - ٥٧٧

٥٧٨ - ٥٧٩ - ٥٨٢ - ٦٦٧

غ

عالب بن مساعد بن سعيد بن سعد ٧٦٧

عالب بن مساعد (الشريف) ٧٦٧

عالم بن إدريس بن قنافة ٧٦٦

عريقة بن عمرو ٤٨٨

المعاري، أبو حدر ٤٤٤ - ٦٣٩

المعاري، أبو رهم ٥٨٩

المعاري، الحكم بن عمرو ٥٣٦

المعوي، مرثد بن أبي مرثد ٣٨٨ - ٤٤٠

المعوي، قانصوه ٧٦٧

المعدياق بن عبد الطالب ٣٢٧

ف

فانخة بنت سعيد بن العاص ٦١٩

فانخة بنت عتبة بن سهل ٦١٩

الفارسي، سليمان ٣٩٧ - ٣٩٨ - ٤١٢ - ٤٢٠

٤٢٨

الفاسي، الحافظ أبو العباس بن يوسف ٩٨ - ١٥٩

٨٠٤

فاطمة بنت سعد بن سيل ٩٣

فاطمة بنت سعد هليم ٩٣

فاطمة بنت عبدالله من عدوان ٣٢٧

فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية ١٥٠ - ٣٢٧

فاطمة الزهراء (بنت الرسول ص) ٣٣٨ - ٦٥٠

٧٤٥

فاطمة زوج سعيد بن زيد بن عمر بن نفيل ٣١٦

فرديش، شيلر ٥٥٥

فرعون ملك مصر ١٦٢ - ٣٥٢

فريتز، هومل ١٩٨

الفصل بن سهل ٧١٦

الفصل بن العباس ٦٠٠

الفلاني، محمد بن الشريف المعوي ٨٠٦

الفلاني، محمد بن محمد بن الشريف العلوي ٨٠٦

فلها ورن، يوليس ٢٠٨ - ٤٢٩ - ٦٨١

فدوتس، فان ٦٨١

مهر بن مالك بن النصر ٩٩

المهري، عفة بن سجع ٤٩٣ - ٤٣٦ - ٧٠٤ - ٧٢٦

المهري، كرزي بن جابر ٤٨٥

المهري، سجع بن عبد القيس ٦٣٦

مهيرة بنت الحارث بن مصاض الحزمي ٧٩ - ٩٦

موك ٢٠٢

مؤنبر ٥٥٥

مفضل بن الشريف حسين ٧٧٣ - ٧٧٩ - ٧٨٠

٧٨٥ - ٧٨٩ - ٧٩٠

ق

القرظي، أبو عمر يوسف عبدالله بن عبدالله

النمري الأندلسي ٢١٤ - ٢١٥

القرظي، كعب بن أمية ٤١٤

قدامة الخزاعة ٩٧

القسطلابي ٥٥٦

القشتالي (مؤرخ) ٧٩٢

قشم بن العباس ٦٦٤

قصي بن كلاب ٦٦ - ٦٨ - ٦٩ - ٧٠ - ٧٢

٧٤ - ٧٥ - ٧٧ - ٨٠ - ٨١ - ٨٧ - ٨٨

٩٠ - ٩١ - ٩٢ - ٩٣ - ٩٤ - ٩٥ - ٩٦

٩٧ - ٩٨ - ٩٩ - ١٠٠ - ١٠١ - ١٠٢

١٠٣ - ١٠٤ - ١٠٥ - ١٠٦ - ١٠٧ - ١٠٨

١٠٩ - ١١٠ - ١١١ - ١١٣ - ١١٤ - ١١٦

١٢٠ - ١٢٨ - ١٢٩ - ١٢٨ - ١٢٨ - ١٥٢

١٥٨ - ١٦٣ - ١٦٦ - ١٦٧ - ١٦٨ - ١٧٨

١٨٠ - ١٨٧ - ١٩١ - ٢١٥ - ٢٢٣ - ٢٢٥

٢٢٦ - ٢٣٠ - ٢٥٤ - ٢٥٥ - ٢٧٣ - ٣٠٠

٣٠٤ - ٣٤٥ - ٣٦٣ - ٥٠١ - ٦٤٢ - ٦٨٥

٧٣٠

قطعة بن عامر ٣٢٥ - ٥٤٣

قلاوة بنت عبد مناف ١١٢ - ١١٥

قمعة بن الياس بن مصر ٥٩ - ٦١ - ٦٢ - ٧٦

٧٨

قارب بن الأسود ٥٨٤

القارئة كنانة ١١٢

القاسم بن إدريس الأول ٧٣٥ - ٧٤١

القاسم (بن الرسول ص) ٣٣٨

القاسم بن محمد ٧٦٦

القاسم بن محمد بن عبد الرحمن بن عوف ٦١٩

قاسم بن محمد بن القاسم ٧٩٣ - ٧٩٤

القاسم بن هاشم بن مليه ٧٦٦

القاسم الرمي بن ابراهيم طباطبا ٧٢٠ - ٧٤٩

القاسمي، ظاهر ١٣٧

قحطان ٣٨ - ٤٣ - ٢١٥

قنادة (أمير مكة) ٧٦٣

قنادة بن النعمان ٥٤٢ - ٥٤٣

قنبة بن مسلم ٦٥

قنيلة بنت جناب (زوجة عبد المطلب) ٣٢١

قثم بن عبد المطلب ٣٢٧

القرشي، معقل بن سنان ٦٤٦

قيدار ٤٤ - ٤٥ - ٥٣

قيدما بن اسماعيل ٥٣

قيس بن الياس بن مصر ٦٥

قيس بن سعد بن عباد ٥٢٢ - ٥٢٣ - ٥٥٧

٥٩٩ - ٦١٧ - ٦١٨

قيس بن صبابه ٥٧٢

قيس بن صخر بن خنسله بن سنان ٥٧٥

قيس عيلان (الناس) ٥٧ - ٥٨ - ٥٩ - ٦٤ - ٦٥

٦٦ - ٨١

القيصر ١١٩ - ١٢٤ - ٢٦٠ - ٢٨٦ - ٢٩٢

٣٩١

ك

كاتاريا (ولي عهد المرتحال) ٧٠٨

كتابة بن أبي الحقيق ٣٩٩ - ٤٠١ - ٤٠٢ - ٥٠٩
 الكتابي النراص ١٨٩
 كرة (حاربة إدريس الأول) ٧٢٨ - ٧٣١
 الكندي (الأشعث بن قيس) ٧١ - ٦٦٣
 الكومي، عبد المؤمن بن علي ٧٩٥
 كوهي / ٢٠١
 كوهي (الكتابي) ٤٠١
 لؤي بن غالب ٧٣ - ٨٧ - ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ - ٩٤ -
 ٩٩ - ١٠٧ - ١١٥ - ٢٢٥ - ٢٥٦ - ٢٩٠
 لامنس (هنري) المشرق ١١٢
 لبابة الصغرى بنت الحارث (أم خالد بن الوليد)
 ٥١٦
 لقي بنت هاجر الخزاعي (زوجة عبد المطلب)
 (٢٢٧)
 لحي ابن حارثة بن عمرو مزيقيه (لحي بن حارثة)
 ٧٦ - ٧٨
 لحي بن عامر بن قمعة بن الياص بن مضر ٩١ -
 ٩٦ - ٥٢٩
 لحي بن عمرو (دبيعة بن عمرو) ٧٩
 الليثي غالب بن عبدالله ٥١١ - ٥١٢
 لورنس (مستشار فيصل بن الحسين) ٧٨٤ - ٧٩٠
 لوط ٤٠١
 لؤيس الرابع عشر ٧٨٢ - ٨٠٩
 ليل بنت عمران ٥٩

م

مارحولوث المشرق ٢٠٩
 مارية (أم عبد الرحمن الناصر) ٧١٠
 مارية بنت كعب ٢٢٥
 مارية من بني سلول من بني معاوية بن بكر بن
 هوازن ٢٢٦
 مارية القطية ٣٣٨
 ماريوس ٢٩٢

كاستيانو، مايول ٧٩٢
 كالاعان ١٩٨
 كشر (الوزير البريطاني) ٧٧٣ - ٧٧٤ - ٧٧٥
 ٧٧٨ - ٧٨٦
 كرز بن حار المهرقي ٨٨
 كمرى (ملك المريس) ١٢٠ - ١٢٩ - ١٦٠
 ٢٨٦ - ٤٨٠
 كسيلة (ملك البربر) ٧٢٦
 كعب بن الأشرف ٤٠٠ - ٤٥٧
 كعب بن خزاعة ٢٥٧
 كعب بن سور ٦٦٩
 كعب بن عجرة ٥١١
 كعب بن عمرو بن لحي ٨٠
 كعب بن لؤي ٨٠ - ٨١ - ٨٩ - ٩٠ - ٩٨
 ١٠٢ - ٢٢٥ - ٢٣١ - ٢٧٣ - ٤٧٥
 كعب بن ليث بن بكر بن عبد مناة (الشداغ)
 ١٠٨
 كلاب بن مرة ٧٣ - ٨٩ - ٩٣ - ٩٤ - ٩٥ - ٩٩
 ٢٢٥ - ٢٧٣ - ٣١٦
 الكلابي عروة بن عامر ١٨٩
 كلب بن وبرة ١٣٢ - ١٣٤
 الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد ٨٧ - ١١٨
 ٢١٤ - ٢١٦ - ٢٥١ - ٢٥٢ - ٦٤٦ - ٦٦٦
 ٦٦٧ - ٦٦٨
 الكلبي، أسلم الأصبح بن عمرو ٤٥١
 الكلبي، أكيدر ١٣٢ - ١٣٤
 الكلبي، خراش بن أمية ٤٨٣
 الكلبي، دحية ٤٥٤
 الكلبي، محمد بن السائب ١٣٧ - ١٥٢ - ١٥٣
 قلدة بن الحننل ٥٨٥ - ٥٨٦
 كليب بن وائل ١٨٥ - ١٨٦
 كمال مصطفي (أناتورك) ٧٨٦ - ٧٨٩
 كسانة ٥٩ - ٦٦ - ٦٧ - ٦٨ - ٧٢ - ٧٣ - ٧٤
 ٧٩ - ٨٠

ماسكاريباس موبو ٧٩٩

مالك بن الأشتر ٦٦٤

مالك بن أس ٣٠٢ - ٧٢٥ - ٧٢٨

مالك بن حير ٣٨

مالك بن العجلان (شبح بني عوف) ٤٠٢

مالك بن عوف ٥٤٧ - ٥٨٣ - ٥٩٢

مالك بن النضر ٧٢ - ٧٣ - ٨٧ - ١١٥ - ٢٢٥

المامون (الخليفة العباسي) ٧١٦ - ٧١٧ - ٧٣٣

٧٤٢ - ٧٤٤ - ٨٠١

المامون (الشيخ) ٨٠٢

ماوية (مولاة لبني عبد مناف) ٤٤٠

ماوية (ملاوية أم كعب بن لؤي) ٨٩

مبارك الكبير (أمير الكويت) ٧٧٧

المبرد (أبو العباس) ٦٥ - ٧٠

مبيض (بيص) ٥٤٣

مخارب بن فهر ٩٩ - ١٠٤ - ١١٥ - ٢٥٦

محرز بن إبراهيم ٧٢٢

مخارب بن عوف بن ثعلبة ٧٣٥

محرز بن فضله ٤٤٤

محمد الباقر (الإمام) ١٩٩ - ٦٩٣ - ٧٤٧

محمد بن أبي عامر ٧١٠ - ٧٣٦ - ٧٥٦

محمد بن أبي الفاتك ٧٥٦

محمد بن أحمد بن القاسم بن أحمد بن محمد ٧٤٠

٧٤١

محمد بن الأخضر محمد ٧٦٤

محمد بن إدريس الثاني ٧٣٢ - ٧٣٤ - ٧٣٥

محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن الحسن (طباطبا)

٧١٦

محمد بن إسحاق بن جعفر الصادق ٧٥٢

محمد بن بركات ٧٦٣ - ٧٦٧

محمد بن حير بن مطعم ٧٢

محمد بن الحد بن قيس ٥٧٧

محمد بن الحسن بن أسامة بن زيد ٣٦٤

محمد بن حبيب (السابة) ٦٣ - ٧٤ - ٩٨ - ١٧٣

١٨٤ - ١٩٢ - ١٩٧ - ٢١٤ - ٢٥٧ - ٢٧٤

٥٥٦

محمد بن الحنفية ٧١٤ - ٧٤٥

محمد بن الحسن بن الحسن بن علي ٧١٧

محمد بن رستم ٧٤٣

محمد بن زيد بن الحسن بن الحسن الأطروش

٧٤٤

محمد بن سليمان بن علي بن عبدالله بن عباس ٧٢١

محمد بن سعد ٦١٠ - ٦١١ - ٦١٣

محمد بن سليمان عبدالله المحض ٧٤٠ - ٧٤١

محمد بن طاهر بن أبي العاصم عبدالله بن طاهر

٧٤٢ - ٧٤٣

محمد بن طخف (الأخشيذ) ٧٦٤

محمد بن حنيفة بن سليمان ٢١٤

محمد بن عبدالله المهدي ٧٥٤ - ٧٥٥

محمد بن المعين بن عون ٧٦٨ - ٧٧٣

محمد بن علي بن عبدالله بن العباس ٦٨٧

محمد بن عمر بن واقد ٣٨٦

محمد بن القاسم بن الحسن ٧٩٣

محمد بن محمد بن سليمان بن عبدالله المحض

٧٤٥ - ٧٤٦

محمد بن مسلمة ٣٦٨ - ٤١٢ - ٤١٩ - ٤٣٩

٤٤٧ - ٤٥٧ - ٤٧٢ - ٤٨٤ - ٤٨٥ - ٤٨٦

٥١٤ - ٥٦٠ - ٦٠٥ - ٦٠٩ - ٦١١

محمد بن موسى بن عبدالله بن الحسن بن علي

٧٦٣

محمد بن يوسف (محمد الخامس ملك المغرب)

٨١٠

محمد السلطان ٧٩٩

محمد علي باشا ٧٦٧

محمد القوكل بن محمد المهدي بن عبدالله بن سعد

٧٩٩ - ٨٠٠

محمد النصري التركية ٦٩٣ - ٧١٨ - ٧٢١ - ٧٤٩

٧٩٣

عمود بن مسلمة ٤٧٢

الدكتور، عمود حسن سليمان ٧٤٩

محنة ٣٨٦

المحرومي، الحارث بن هشام بن الميرة ٤٧٦

المحرومي، رهبر بن أبي أمية ٣١٧ - ٣٢٢ - ٣٢٣

المحرومي، الوليد بن المغيرة ١٨٢ - ١٨٤ - ١٩٤

٢٥١ - ٢٥٨ - ٢٥٩ - ٢٧٤ - ٢٨٢ - ٢٨٤

٢٩٣ - ٢٩٤ - ٢٩٥ - ٢٩٦ - ٣٣٧ - ٣٥١

٣٥٢

مخشي بن عمرو (سيد بني ضمرة) ٣٨٦

مسا بن اسماعيل ٥٣

المستعين ٦٨٤ - ٦٩٩

المستنصر الفاطمي ٧٥٧ - ٧٦٩

مسروق (ملك الأحباش) ١٦٠

مسعود بن ربيعة ٤٢٤

مسعود ومحمد ١٥٩

المسعودي (المؤرخ) ١٦٦ - ١٦٧

مسلم بن الحجاج ٣٣٥

مسلمة بن عتبة السري ٦٦٦ - ٦٦٧ - ٦٦٨

٦٧٥ - ٦٨٦

مسلم (صاحب الصحيح) ٣١٨

مسلم بن اسماعيل ٥٣

المسيح (ع) ٤٦

مسلمة الكذاب ٧٥٢ - ٦١٤

مصالاة بن حبوس ٧٢٦

مصعب بن الزبير ٣٤٤ - ٦٧٥ - ٧٠٣

مصعب بن عمير ٢٢٧ - ٢٨٥ - ٣٠٧ - ٣٤٠

٣٥٥ - ٣٧٨ - ٣٨١ - ٥١٩

مضاها بن بشير ٤٥

المضاها بن عمر الحرهمي ٥٤

مصر بن رزار ٥٩ - ٦٥ - ٧٦ - ٧٧

مصر بن إباد ٩٧

المسلم بن عدي ١٤٩ - ٣١٧ - ٣٢٢ - ٣٢٣

٣٢٤ - ٣٤٣ - ٣٥٠

المطعري هلول بن عبد الواحد ٧٣١

المطلب بن عبد مساف ١٠٤ - ١١٠ - ١١١

١١٥ - ١١٧ - ١١٨ - ١٢٠ - ١٢٩ - ١٣٧

١٣٨ - ١٣٩ - ١٤٤ - ١٤٥ - ١٤٦ - ١٥٢

١٦٤ - ٢٣٠ - ٢٨٠ - ٣١٧

المطلب بن هاشم ٧٧٠

المقداد ٣٨٣

المقري، الحافظ أبو العباس ٨٠٤

مكي، محمود علي ٩

الميرة بن عبد المطلب ٣٢٧ (حجل)

المغيرة بن عمر بن عمرو ٦١٥

المقداد بن عمرو ٤٤٤

المقريزي ٦٧ - ٦٦٦ - ٧٥٦ - ٧٥٧

المقوقس ٢١٠

المقوم بن عبد المطلب ٣٢٧

مكرز بن أبي حفص ٤٩٧ - ٤٩٨

مكرز بن حفص بن الأنخيف ٤٨١ - ٤٨٥

٤٩٠ - ٤٩٤ - ٤٩٥ - ٥١٤ - ٥٣٢

مكهاون، هنري ٧٧٨ - ٧٧٩ - ٧٨٠ - ٧٨١

منبه، بن الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن

عمر بن هبص ٢٨٩ - ٢٩٨

المنتصر ٦٨٤ - ٦٩٩

المذر بن ساوي ٢١٠

المنصور (أبو طاهر اسماعيل بن أبي القاسم) ٧٥٦

المنصور محمد بن علي (الوزير) ٧٥١

مُهَشم بن أبي حذيفة بن هشام بن المغيرة ٥٠٥

المهلب بن أبي صفرة ٦٨٨ - ٦٨١ - ٧٣٥

مدركة (عامر) ٥٩ - ٦١ - ٦٢

المراسي، ابن عداري ٧٢٥

مر بن أد بن إلياس بن مضر (طابخة) ١٠٧

مرة بن عبد المطلب ٣٢٧

مره بن عوف ١٠٨ - ٦٦٧

مرة بن كلاب ٩٠

مرة بن كعب ٧٣ - ٩١ - ١٤٩ - ٢٧٣

موتاحيو، صويل ٧٨٨

مونتيجوري، كلود ٧٨٨

مولر ٢٠٢

موسى بن عداة بن الحسن بن علي ٧٦٢

موسى بن عداة بن الحسن بن الحسن بن علي

٧٦٤ - ٧٦٥

موسى بن عفا ٣٠٢

موسى بن محمد بن ابراهيم ٤٢٥

موسى بن نصير ٧٠٤

موسى (النبي) ١٦٢ - ٢٤٤ - ٣٥٢

ميسرة القفير (ثائر بربري) ٧٢٤

ميون (زوجة معاوية) ٣٩ - ٤٣

ميشام بن اسمايل ٥٣

ميمونة بنت الحارث بن حزن (زوجة الرسول ص)

٣٤٦

ن

نابت بن اسمايل ٥٣ - ٥٤

نابليون الثالث ٧٨٢

ناتن. حاتير (سين) ٧٨٨

ناجية بن الأصم ٤٧١ - ٥٤٤

ناصر الدين الأسد الدكتور، ٢٠٢ - ٢٠٣ - ٢٠٦

٢٠٧ - ٢١٠

ناصر خسرو ٧٥٧ - ٧٥٨

نافس بن اسمايل ٥٣

نافع بن بديل بن ورقاء ٥٣٠

نافع بن عبد القيس ٣٥٤ - ٤٩٣

نباش بن قيس ٤١٦

نوحديصر (مختصر) ٤٦ - ٤٩

نيه بن الحجاج بن عامر بن حديفة ٢٨٩ - ٢٩٨

النجاشي (ملك الحبشة) ١١٩ - ١٢٠ - ١٢٩

١٣٧ - ١٤٢ - ٢٧٧ - ٢٨٦ - ٣٠٣ - ٤٨٠

نزار بن مصر ٩٧

نوة بنت مر من أد ٦٩

نرجان الشكسية (أم الحكم النضر) ٧١٠

النرياني (صاحب كتاب التوشح) ٢٠٨

نرسيل (مزيان) (الأمراطور البيزنطي) ١٢٣

نروان بن الحكم ٤٣ - ٣٤١ - ٦٣٤ - ٦٤٥

٦٤٧ - ٦٦٣ - ٦٦٦ - ٦٦٧ - ٦٦٨ - ٦٧٣

٦٧٥ - ٦٧٧ - ٦٨٦ - ٧٠٣ - ٧٠٤

نروان بن محمد ٧٠٩

نريم بنت أبي العاص بن الربيع ٦١٩

نريم العنواء ٢٩٩ - ٥٦٠

نعلد بن جيل ٥٨٨

نعاوية بن أبي سفيان ٣٩ - ٤٢ - ٤٣ - ١١٤

٢٦٩ - ٣٤٣ - ٣٤٤ - ٤٤٢ - ٤٧٧ - ٤٩١

٤٩٩ - ٥٦٢ - ٥٦٧ - ٥٨٩ - ٦٠٠ - ٦١٤

٦٢٦ - ٦٢٧ - ٦٢٨ - ٦٤٤ - ٦٤٥ - ٦٤٨

٦٥٠ - ٦٦٢ - ٦٦٣ - ٦٦٤ - ٦٦٥ - ٦٦٩

٦٧٤ - ٦٧٥ - ٦٨٦ - ٧٠٣ - ٨٠١

نعاوية بن بكر ٢٢٦

نعاوية الشباني ٧١١

نعلز ٦٨٤

نعلصم ٧٧٣

نعلتمد (الخليفة العباسي) ٧٦٢

نعلد (بن عدنان) ٣٨ - ٤٥ - ٤٧ - ٩٨

نعلز بالله (الخليفة الفاطمي) ٧٥٦ - ٧٦٤ - ٨٠١

نعلمر بن النثي (أبو عبدة) ٧٧

نعلمر بن نفاقة بن علي ١٥٧

نعلمر بن راشد ٤٣٥

نعلم بن علي ٥٩٧

نعلص بن عامر بن لؤي ٥٠٠

نعلبرة بن شعة ٤٧٧

نعلبرة بن عداة بن عمر بن عمرو ٣٢٢

نعلدي، عبيدة ٧٥٢ - ٧٥٤ - ٧٥٥

نعلهلل بن ربيعة ١٨٦

نورتر ١٩٨

مصر بن سيار ٥٨

النصر بن الحارث بن كلثة ٢٥٨ - ٢٨٣ - ٢٩٠ - ٣٠١

النصر بن حرملة ٩٩

لنصر بن كاسنة (زعيم قبيل) ٦٧ - ٦٨ - ٦٩ - ٧٠ - ٧١ - ٧٢ - ٧٣ - ٧٤ - ٨٧ - ١٠٧

النصر بن مالك ٧٣

بصلة بن هاشم بن عبد مناف ٣٢٢

النعمان بن بشير ٥٩٨

النعمان بن محمد (القاضي) ٧٥٣ - ٧٥٧

النعمان بن المنذر بن قابوس سيد بني حكم ١٨٩

النعمان بن مقرن ٥٤٤ - ٦٠٥

نعمة بن عبد الرحمن بن أبي الفاك ٧٦٤

نعيم بن عامر بن لؤي ٥٠٠

نفلسكي (وسط صهيوني) ٧٨٨

النمري ابن عمر يوسف بن عبد البر ١٦

نوح (النبى) ٢٣ - ٣٩

نوري السعيد ٧٧٣ - ٧٨٩ - ٧٩٠

نوفل بن خويلد ٢٢٧

نوفل بن عذالة ٤٢٠ - ٤٣٤

نوفل بن عبد مناف ١٠٤ - ١١١ - ١١٢ - ١١٥

١١٨ - ١٢٠ - ١٢٩ - ١٣٧ - ١٣٨ - ١٤١

١٦٤ - ٣٢٢ - ٣٢٣ - ٣٢٤

نوفل بن مساحق بن عذالة بن ضمرة ٥٦٧

٥٦٨

نوفل بن معاوية الديلمي ١٧٤

النويري ٩٥ - ١٤٥ - ١٥٣ - ٢٨٣ - ٣٤٧

هارون (أخ موسى) ٤٠١

هارون الرشيد ٧٢٢ - ٧٣١ - ٨٠١

هالة بنت عبد مناف ١١٢ - ١٢٥

هالة بنت وهيب بن عبد مناف (والدة حمزة) ٩٢ -

٣١٦ - ٣٤٧

هاشم بن عبد مناف ١٠٠ - ١٠٤ - ١٠٩ - ١١٠

١١١ - ١١٤ - ١١٥ - ١١٦ - ١١٧ - ١١٨

١١٩ - ١٢٠ - ١٢١ - ١٢٢ - ١٢٣ - ١٢٤

١٢٨ - ١٢٩ - ١٣٠ - ١٣١ - ١٣٧ - ١٣٨

١٣٩ - ١٤١ - ١٤٢ - ١٤٣ - ١٤٤ - ١٤٥

١٤٦ - ١٤٨ - ١٥٨ - ١٦١ - ١٦٣ - ١٦٤

١٦٥ - ١٧٨ - ١٨٠ - ١٨٦ - ١٨٧ - ٢١٥

٢١٦ - ٢٢٦ - ٢٣٠ - ٢٤٨ - ٢٥٣ - ٢٥٤

٢٥٥ - ٢٥٧ - ٢٧٥ - ٣٢٢ - ٣٢٣ - ٣٢٦

٣٤٣ - ٣٤٥ - ٣٥٥ - ٥٥٠ - ٦١٨ - ٦٨٣

٦٨٤

خبار بن الأسود ٥٧١

هيرة بن أبي وهب ٤٢٠ - ٥٦٨

هزيم بن أعين ٧١٦

هرثمل نيودور ٧٨٧ - ٧٨٨

اهرقي محمد بن تومرت ٧٩٥

هرقل بن هرقل ١٢٣ - ٤١٧ - ٤٨٠

هشام (أخ أبو جهل) ٣٥٤

هشام بن العاص بن وائل ٤٨٥

هشام بن عبد الملك ٦٧٦ - ٦٧٧ - ٧٠٢ - ٧٠٦

٧١٣ - ٧٢٥ - ٧٤٧ - ٧٤٨ - ٨٠١

هشام بن عروة ٢٧٦

هشام بن عمرو بن ربيعة ٤٩٠

هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث ٣٢٢ - ٣٢٣

هشام بن المغيرة (والد أبو جهل) ١٩٤

هشام الرضي ٧١١

هشيم بن كعب ٩٠ - ٩٩ - ١٠٣ - ١٦٦

٢٣١

هاجر (زوجة ابراهيم) ١٠١

هاتريان (الامبراطور الروماني) ٦٨٤

الحادي العباسي ٧٢٢ - ٧٢٣

٤٥٠ - ٤٥٣ - ٤٥٤ - ٤٥٨ - ٤٦٠ - ٤٦٣ -
 ٤٦٤ - ٤٦٦ - ٤٦٧ - ٤٧٨ - ٤٨٨ - ٤٩٢ -
 ٤٩٦ - ٤٩٧ - ٥٠٨ - ٥٠٩ - ٥١٢ - ٥١٩ -
 ٥٢٠ - ٥٢٨ - ٥٣٢ - ٥٣٤ - ٥٣٥ - ٥٣٦ -
 ٥٤١ - ٥٤٢ - ٥٤٦ - ٥٥١ - ٥٥٣ - ٥٥٤ -
 ٥٥٦ - ٥٦٠ - ٥٦١ - ٥٦٢ - ٥٦٣ - ٥٦٦ -
 ٥٦٩ - ٥٧٠ - ٥٧١ - ٥٧٣ - ٥٧٤ - ٥٧٥ -
 ٥٧٦ - ٥٧٧ - ٥٧٨ - ٥٨٠ - ٥٨١ - ٥٨٢ -
 ٥٨٥ - ٥٨٦ - ٥٨٧ - ٥٨٨ - ٥٨٩ - ٥٩١ -

٥٩٢ - ٥٩٣ - ٦١٠ - ٦١٧ - ٦٦٨

واقلة (زوجة عبد مناف بن زهرة) ١٠٤

وايزمن حاييم ٧٨٧ - ٧٨٨

وايزمن صمويل ٧٨٨

وير بن سليم ٥٤٢ - ٥٤٣

وحشي (قاتل حرة بن عبد المطلب) ٥٧١

الوزير، ابراهيم ٩ - ٧٤٨

الوزير، محمد علي ٨

الوصيف، محمد فخري ٩

الوطاسي، محمد الشيخ ٧٩٧

الوطاسي، يحيى بن أبي زكريا ٧٩٧

وكيع بن سود (قاتل قتيلة بن مسلم) ٦٧٨

ولهم (قاهر ألمانيا) ٧٧٢

الوليد بن عبد الملك بن مروان ٥٦٨ - ٦٧٤ -

٦٨١ - ٧١٣ - ٨٠١

الوليد بن هشام بن المغيرة ٥٠٥

الوليد بن الوليد بن المغيرة ٥٠٥

وهب بن عبد مناف بن زهرة ١٠٤

وخلد (قائد فارسي) ١٦٠

وهيب بن عبد مناف ٣١٦

ولسون، ووهرو ٧٨٨

ي

يحيى بن ادريس بن عمر ٧٣٥ - ٧٣٧

هلال بن عامر بن صحصصة ٣٤٦

هلال بن عمر بن عمرو ٣١٦

الهلالية ميمونة بنت الحارث بن حزن (روحة

الرسول ص) ٥١٦ - ٥١٧

الهمداني ٤٣

الهميص ٥٤

هند بنت جابر (زوجة أبو عبيدة الجراح) ٤٩٣

هند بنت عتبة (زوجة أبو سفيان) ٢٢٧ - ٥٣٦ -

٥٣٧ - ٥٦٨

هند بنت عوف بن الحارث الحميرية ٥١٦

هند بنت عمر والحزبية (زوجة هاشم) ١٤٥

هند بنت المغيرة بن عبد الله بن المغيرة بن عبد الله

بن عمر مخزوم ٦١٩

الحيد بن سعد هلم ٤٥٥

هوب، بول ١٩٨

هود ٢٤

هوفه بن الحقيق ٤٠١

هوفه بن فيس الواصل ٣٩٩ - ٤٠١ - ٤٠٤

الهنون بن خزعة ٥٩ - ٨٣ - ١١٢

الدكتور هيكل، محمد حسين ٥٥٤ - ٥٥٥

و

الواحدلي ٢٤٧

واقد بن عبد الله ٣٦٣

واقد بن عمرو ٤٩٧

الواقلي ٧١ - ٧٢ - ١٤٦ - ١٧١ - ١٧٢ - ١٧٣ -

١٧٨ - ٢٥١ - ٣٦٢ - ٣٦٤ - ٣٦٥ - ٣٦٧ -

٣٧٠ - ٣٧١ - ٣٧٢ - ٣٧٣ - ٣٧٤ - ٣٧٦ -

٣٧٧ - ٣٧٨ - ٣٨٣ - ٣٨٤ - ٣٨٦ - ٣٨٧ -

٣٩٠ - ٣٩١ - ٣٩٦ - ٣٩٧ - ٣٩٩ - ٤٠٠ -

٤٠١ - ٤٠٣ - ٤١٣ - ٤١٦ - ٤١٧ - ٤١٨ -

٤٢٠ - ٤٢١ - ٤٢٢ - ٤٢٣ - ٤٢٥ - ٤٢٦ -

٤٢٨ - ٤٣٨ - ٤٤١ - ٤٤٢ - ٤٤٧ - ٤٤٨ -

يحيى بن الحسين بن القاسم الرسمي ٧٤٦ -

٧٤٧ - ٧٤٩

يحيى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي

٦٩٤

يحيى بن عروة بن الزبير ٣٥٠

يحيى بن القاسم بن إدريس ٧٣٥

يحيى بن يحيى بن عمر بن محمد ٧٥٦

يحيى بن يحيى بن محمد بن محمد بن إدريس ٧٣٤

يحيى بن النضر بن كنانة ٧٣ - ٨٧

يزيد بن أبي سفيان (ملك الفرس) ١٢٣

يزيد بن أبي سفيان ٣٤٤ - ٦١٤ - ٦٢٦ - ٦٣٦ -

٦٧٥

يزيد بن معاوية ٣٩ - ٤٣ - ٣٤١ - ٦٤٤ - ٦٤٥ -

٦٤٦ - ٦٤٧ - ٦٥٠ - ٦٥٢

يزيد بن عبدالله بن زعنة بن الأسود بن المطلب بن

سعد بن عبد العزيز ٦٤٧ - ٦٦٧

يزيد بن عبد الملك ٩٨٩

يشجب بن أبي ٥٤

يشكر بن الأزد ٦٢ - ٩٣

يظور بن اسحاق ٥٣

يعقوب بن ليث الصمار ٧٤٣

اليعقوبي ٣٨ - ٤٩ - ٥٣ - ٥٥ - ٩٨ - ٩٩ -

١٠٠ - ١٠١ - ١٠٢ - ١٠٣ - ١٠٥ - ١٠٦ -

١١١ - ١١٢ - ١١٤ - ١١٥ - ١١٨ - ١٢٠ -

١٢٤ - ١٢٩ - ١٤٠ - ١٥٩ - ٢١٨ - ٢٠٠ -

٦٨١

يعقوب بن محمد بن عبد الرحمن بن عبدالله ٤٩٢

يعمر بن هوف ١٠٨

يعمر بن كعب بن ليث بن بكر بن كنانة ١٠٠

يعقوب بن قحطان ٤٤

يعقوب بن موسى ٧٢١

يعقوب بن مرة (خسروم) ٧٨ - ٩٠ - ٩٩ - ١٠٣ -

٣١٦ - ١٤١ - ١٦٤

يكنوم (يقوم) بن أبرهة ١٦٠

يوسف بن الأخضر بن محمد ٧٦٤

يوسف بن بخت ٧٠٦

يوسف (النبي) ٤٦ - ٤٨ - ٥٦٠ - ٥٦٢

أسم - جماعات - قبائل

٣٩٤ - ٤١٤ - ٤١٥ - ٤١٦ - ٤١٩ - ٤٢٣ -

٣٢٤ - ٤٤٥ - ٤٤٦ - ٥٦٠ - ٥٦٤ -

الأحلاف (حلف لمكة الدم) ١٦٧ - ١٦٨ -

١٧٠ - ١٧٩ - ١٩٦ - ٢٣١ - ٢٤٨ - ٣٤٥ -

٤٨٥ - ٥٢٠ - ٦٢٧ - ٦٤٩ -

الأعشييون ٥٦٦

أنطط (آل) ٤٠٢

أد ٥٩

الأدارسة ٧٠١ - ٧١٤ - ٧٢٧ - ٧٢٨ - ٧٢٩ -

٧٣١ - ٧٣٣ - ٧٣٤ - ٧٣٤ - ٧٣٥ - ٧٣٦ -

٧٣٧ - ٧٤٥ - ٧٤٨ - ٧٥٣ - ٧٥٦ - ٧٦٤ -

٧٩٤ - ٧٩٨ -

بو إدريس ٧٤٥

الأدرييون (أصحاب عبي) ٧٧٧

الأرنديون ٧٨٣

إرم ١٩

الأرناشيريوس ٨٠٤

الأزد ٧ - ٤١ - ٦١ - ١٣٢ - ٢٠١ - ٢٠٣ -

٢٢٤ - ٢٢٥ - ٥١٥ - ٥٢٨ - ٥٣٠ - ٦٠٧ -

٦٣٢ - ٦٣٣ - ٦٤٣ - ٦٤٩ - ٦٦٨ - ٦٧٨ -

٦٨١

أزد شنؤة (أزد المرأة) ٩٦

أسورة كسرى ٢٨٦

الأساط ٤٠١

١

آدم (بن) ١٧٦ - ٧٤٥

الأرميون ١٩٨ - ٢٠١ - ٢٠٢ -

الأسويون ٧٩١

الاباضيون ٦٧٤ - ٧٢٣ - ٧٢٤ -

ابراهيم (آل) ١٧٣ - ١٧٧ -

الاطحيون ٩٩ - ١٠٣ - ٢٥٦ -

الاتحاد والنزفي (جميعه) ٧٧٠ - ٧٧١ - ٧٧٣ -

٧٧٩

الأنراك ٦٣٣ - ٦٨٤ - ٦٩٩ - ٧٦٩ - ٧٧١ -

٧٧٤ - ٧٧٦ - ٧٧٧ - ٧٧٨ - ٧٧٩ - ٧٨٠ -

٧٨٣ - ٧٨٤ - ٧٨٦ - ٧٨٩ - ٧٩١ -

أرد مائة ٦٤١

الأنينيون ٢٦١

الأحاشيش ٥٩ - ٦٠ - ١٠٢ - ١١١ - ١١٢ -

١١٣ - ١١٤ - ١٥٦ - ١٩٠ - ٢٢٤ - ٢٣١ -

٣٦٧ - ٣٦٨ - ٤١٨ - ٤٤٨ - ٤٦٣ - ٤٦٦ -

٤٦٨ - ٤٧٨ - ٤٧٩ - ٤٨١ - ٤٨٢ - ٥٥٩ -

الأحاشيش (حلف) ١١١ - ١١٢ - ١١٤ - ١١٥ -

١١٦

الأخبار ٥٢١

الأحمشاش ١١٢ - ١١٣ - ١٣٩ - ١٥٥ - ١٦٠ -

٢١٢

الأحزاب ٣٦١ - ٣٨٥ - ٣٩٧ - ٣٨٩ - ٣٩٣ -

الإسبان ٧٩٥ - ٧٩٦ - ٧٩٨ - ٧٩٩ - ٨٠٠ - ٨٠٣ - ٨٠٤ - ٨٠٥ - ٨٠٧
 الأسرطوبون ٢٦١
 اسحق (س) ٢١٧ - ٢١٨
 أسد ٥٩ - ٦٦ - ٦٧ - ١٢٨ - ١٣٠ - ٢٠٣ - ٢٠٤ - ٢١٩ - ٢٢١ - ٢٢٤ - ٢٢٨ - ٢٢٣ - ٢٨٤ - ٢٨٦ - ٢٩٤ - ٢٩٥ - ٤١٠ - ٤١٨ - ٥٠٦ - ٥٠٨ - ٥٠٩ - ٥١٠ - ٥٢٣ - ٦٠٣ - ٦٠٤ - ٦٠٨ - ٦٧٨
 أسد بن غزوة بن مبركة ٤١٥ - ٤٤٨ - ٤٥٢
 أسد بن عبد الصري (بنو) ١٤٩ - ١٦٤ - ١٦٥ - ١٦٧ - ٢١٠ - ٣١٦ - ٣١٦ - ٤٨٥ - ٦٦٧
 أسنة ٥٩ - ٨١ - ٨٣ - ٢٢٤
 اسرائيل (بنو) ٤٠١
 الاسرائيليون ٤٦
 الاسكندر ٣٥
 أسلم ٦٧ - ٧٦ - ٨٠ - ٢٥٧ - ٣٩٢ - ٥١٣ - ٥٣١ - ٥٣٢ - ٦٠٧ - ٦٢٩
 أسلم بن أمي بن علي ٤٧٣
 أسلم بن علي ٥٣٠
 الاسماعيليه (بنو اسماعيل) ٤٠ - ٤٤ - ٤٦ - ٤٧ - ٤٨ - ٤٩ - ٥٠ - ٥٣ - ٥٤ - ٥٥ - ٦٤ - ٨٠
 الاسماعيليه المستعربه ٨١
 الاسماعيليه ٢١٨ - ٢٢٢ - ٧٥٤ - ٧٥٧
 أشجع (بنو) ٢٢٨ - ٤١٠ - ٤٦١ - ٥٤٢ - ٦٤٦ - ٦٤٧ - ٦٦٨
 الأشراف ٧٦٣
 أشراف الحجاز ٧٠١ - ٧٩٣ - ٨٠٥
 الأشراف السعديون ٧٠١
 أشراف مكة ٧٩٢
 الأثوريون ٤٨ - ٤٩ - ٥١ - ١٩٨ - ٥٦٥
 الأصهدون ٦٨٢

أصحاب الأيكة ١٩ - ٢٤
 أصحاب حضرموت ١٣٢
 الأاعام ٢٦ - ٣٧٠
 الأعاريب ٤٤٦ - ٦٤٣ - ٦٦٣
 أعاريب نجد ٨٣ - ٢٠٣ - ٢٠٤ - ٦٠٤ - ٦٤٥ - ٦٤٦ - ٦٤٧ - ٦٦٥ - ٦٧٨
 الأعراب ١٩٤ - ١٩٥ - ٣٢٤ - ٣٢٥ - ٣٤٠ - ٣٨٨ - ٣٩٩ - ٤٤٧ - ٤٤٩ - ٤٥٦ - ٤٥٧ - ٤٦٠ - ٤٦٣ - ٤٦٤ - ٥٠٦ - ٥٠٧ - ٥٠٩ - ٥٧٦ - ٥٩٢ - ٦٠٥ - ٦٦١ - ٦٧٦
 الأعراب (الأحاريب) ٦٩
 الأعيان ٢٣٢ - ٢٥٤
 الأهاليه ٧٣١ - ٧٣٩ - ٧٤٠
 أنصبي بن عامر ٥٢٨
 أنصبي بن الياس بن مضر (بنو) ٧٦
 الأكاسرة ٦٨٢
 الأكراد ٢٧ - ٧٨٣
 أكليل الكلبي (بنو) ١٣٢ - ١٣٤
 الألباكا ٢٩
 إلخاف بن قضاة ٤٦٨
 الألمان ٧٧٨ - ٧٨٦
 إلياس بن مضر بن سزار ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ - ٥٩ - ٦٠ - ٦٤ - ٦٦ - ٧٣ - ١٠٧ - ١١٦ - ١٥٠ - ٢٢٢ - ٥٢٨
 أمه الاسلام ٣٥٦ - ٣٥٧ - ٣٥٩ - ٣٦٠ - ٣٦١ - ٣٦٢ - ٣٨٠ - ٣٨١ - ٣٨٥ - ٣٨٦ - ٣٩٨ - ٤٠٠ - ٤٠١ - ٤٥٢ - ٤٥٧ - ٤٦٢ - ٤٦٤ - ٤٧٢ - ٤٧٤ - ٤٧٨ - ٤٨٣ - ٤٩٠ - ٤٩٩ - ٥٠٣ - ٥٠٦ - ٥٠٧ - ٥٠٨ - ٥٢٢ - ٤٢٥ - ٥٢٧ - ٥٢٩ - ٥٣٣ - ٥٣٥ - ٥٤٠ - ٥٤٥ - ٥٤٨ - ٥٥٥ - ٥٧٤ - ٥٧٦ - ٥٧٩ - ٥٨٢ - ٥٨٣ - ٥٨٤ - ٥٨٩ - ٥٩٢ - ٥٩٤ - ٥٩٥ - ٥٩٨ - ٥٩٩ - ٦٠٢ - ٦١٨ - ٦٢٠ - ٦٢٣

٥٩٩ - ٥٩٨ - ٥٩٧ - ٥٩٤ - ٥٩٣ - ٥٩٢
 ٦٠٧ - ٦٠٦ - ٦٠٥ - ٦٠٢ - ٦٠١ - ٦٠٠
 ٦١٣ - ٦١٢ - ٦١١ - ٦١٠ - ٦٠٩ - ٦٠٨
 ٦٢٠ - ٦١٨ - ٦١٧ - ٦١٦ - ٦١٥ - ٦١٤
 ٦٦٣ - ٦٦٢ - ٦٥٨ - ٦٥١ - ٦٣٢ - ٦٢٥
 ٦٦٤ - ٦٦٥ - ٦٦٦ - ٦٦٧ - ٦٨٨ - ٦٩٠

٧٥٦

أصناف الأعراب ٥٠٧

أخبار من أرواش بن عمير من كهلان من سبأ ٢٢٤
 أخبار بن سزار ٤٧ - ٦١ - ٢٢٣ - ٢٢٤ - ٣٩٠
 ٤٤٧

أنيس (أسرة) ٨٠٠

أهل الذمة ٧٥٦

أهل الرأس ١٩ - ٢٤ - ٢٥ - ٤٤ - ٤٦

أهل مذبح ٢٤

الأوروبيون ٧١٤

الأوس ٤٠ - ٤١ - ٤٤ - ٨٢ - ٢٠٥ - ٢٣٢
 ٣٤٠ - ٣٧٤ - ٣٧٧ - ٣٧٩ - ٣٩٢ - ٣٩٩
 ٤٠١ - ٤٠٢ - ٤٠٤ - ٤١٥ - ٤٢٣ - ٤٣٧
 ٤٥٣ - ٤٥٧ - ٤٥٨ - ٥٦٩ - ٤٧٢ - ٤٧٣
 ٥٢٨ - ٥٢٩ - ٥٣٠ - ٥٤٢ - ٥٩٠ - ٥٩١
 ٥٩٢ - ٦٠١ - ٦٠٩ - ٦١٠ - ٦١٢

أوس الله (أوس مناة) ٤٠٤ - ٤٠٦

إياد ٤٧ - ١٨٦ - ٢٢١

الإياديون ٩٧

إياد بن مضر ٩٧

إياد بن نزار بن معد بن عدنان ٩٧

الإيساريون ٦٣٣ - ٦٧٦ - ٦٨١ - ٦٨٢ - ٦٨٣
 ٧٩٠

الإيطاليون ٢٠٢ - ٨٠٠

إيماء بن رخصه ٤٦٥

الإيبويون ٧٦٣ - ٧٦٤ - ٧٦٦ - ٧٦٩

٦٢٥ - ٦٢٦ - ٦٣١ - ٦٧٤ - ٦٧٦ - ٦٨٥

٦٨٦ - ٦٨٧ - ٦٨٨ - ٦٨٩ - ٧٢٤

أمية (س) ٣٩ - ٥٤ - ١٤٢ - ١٤٣ - ٣٤٥

٣٤٧ - ٤٠٢ - ٤٧٣ - ٤٩٩ - ٥٠١ - ٥٠٤

٥١٨ - ٥٢٧ - ٥٣١ - ٥٣٥ - ٥٤٣ - ٥٥٤

٥٥٥ - ٥٧٦ - ٦٠٠ - ٦٠١ - ٦١٢ - ٦١٨

٦٢٠ - ٦٢٣ - ٦٢٥ - ٦٢٦ - ٦٣٩ - ٦٤٣

٦٤٤ - ٦٤٥ - ٦٤٧ - ٦٤٨ - ٦٤٩ - ٦٥٠

٦٥١ - ٦٥٢ - ٦٥٣ - ٦٦٠ - ٦٦٢ - ٦٦٣

٦٦٥ - ٦٦٦ - ٦٦٧ - ٦٧٣ - ٦٧٥ - ٦٧٧

٦٧٨ - ٦٧٩ - ٦٨٠ - ٦٨١ - ٦٨٢ - ٦٨٥

٦٨٦ - ٦٨٧ - ٦٨٩ - ٦٩١ - ٦٩٣ - ٦٩٤

٦٩٥ - ٧٠٣ - ٧٠٤ - ٧٠٥ - ٧٠٩ - ٧١٠

٧١١ - ٧١٣ - ٧١٤ - ٧١٩ - ٧٣٠ - ٧٤٤

٧٤٥ - ٧٥٣ - ٧٦٢

أمية الأكبر (نس) ١٩٠ - ٢٣٢ - ٣٤٣ - ٣٤٥

٤٧٤ - ٥٠١

أمية الأندلسيون ٧٠٤ - ٧١٢ - ٧١٥ - ٧٢٥

٧٢٧ - ٧٣٠ - ٧٣٧ - ٧٤٧ - ٧٥٦

الأصويون ٦٠٠ - ٦٠١ - ٦٦٧ - ٦٧١ - ٦٧٧

٦٨٩ - ٧٢٣ - ٧٢٤ - ٧٣٨ - ٧٣٨ - ٧٩٠

أصناف المؤمنين ٦١٢

الأباط ٤٠ - ٥٦

الأنجليز ٢٠٢ - ٥٥٥ - ٦٥٩ - ٧٥١ - ٧٧٢

٧٧٧ - ٧٨٤ - ٧٨٥ - ٧٨٦ - ٧٨٧ - ٨٠٠

٨٠٦ - ٨٠٧

الأندلسيون ٧٠٧ - ٧٣٤ - ٧٣٥ - ٧٣٦

الأخبار ٢٢٨ - ٣٣٤ - ٣٦٠ - ٣٦٨ - ٣٧٤

٣٧٨ - ٣٨٤ - ٣٨٧ - ٣٩٥ - ٣٩٦ - ٤٠٢

٤٢١ - ٤٢٢ - ٤٣٥ - ٤٤٤ - ٤٦٩ - ٤٧٢

٤٧٤ - ٤٨٧ - ٤٩٩ - ٥١٧ - ٥٢٢ - ٥٣٨

٥٤٣ - ٥٤٥ - ٥٦٣ - ٥٧١ - ٥٨٠ - ٥٨٢

بكر بن عبد مائة ٦٩ - ٧٤ - ٩٤ - ٩٥ - ٩٦ -
 ١٠٠ - ١٠٨ - ١١٢ - ٢٣١ - ٢٨٥ - ٢٨٦ -
 ٤٦٤ - ٤٧٠ - ٤٧١ - ٤٧٨ - ٤٩٩ - ٥٠٠ -
 ٥٠١ - ٥٠٦ - ٥٢٨ - ٥٣١ - ٥٣٢ - ٥٣٣ -
 ٥٣٤ - ٤٣٥ - ٥٤٢ - ٥٤٥ - ٥٤٦ - ٥٦٣ -
 ٦٤٢

بكر بن كلاب (بو) ٤٥٧

بكر بن هوار ٣٢٧

بكر بن وائل (بو) ١٥٧ - ١٥٨ - ١٨٥ - ١٨٦ -
 ٢٠٣ - ٣٥٩ - ٤٦٤ - ٦٣٣ - ٦٤١ - ٦٧٨ -
 بلحارث بن الحرج ٣٧٠ - ٤٠٣ - ٤١٥

البقاسيون ٧٧٥

بلي ٣٩ - ٥٦ - ٦٣ - ٦٦ - ٦٧ - ٨٠ - ٢٠٣ -
 ٢٠٩ - ٣٦٠ - ٥٢١ - ٦٠٤

بلي بن الحاف بن قضاة ٣٩٢

بسرء ٣٩ - ٦٧ - ٨٠ - ٢٠٣ - ٢٠٩ - ٤٤٨ -
 ٤٥٥

ليوريون ٧٦٩

البولنيزيون ٣٥

آل البيت ٦٢٩ - ٦٩١ - ٦٩٣ - ٧٠٠ - ٧١٧ -
 ٧٢١ - ٧٣٢ - ٧٣٣ - ٧٤٤ - ٧٤٧ - ٧٤٨ -
 ٧٩٤

بني هيو كايه (ملوك فرسا) ٧١٤

البيزنطيون ١٢٢ - ١٢٣ - ١٢٤

ت

التابعون ٧٥٦

تعلب ١٨٥ - ١٨٦ - ٢٠٣ - ٣٥٩ - ٦٤١

الترك ٢٧ - ٦٧٨ - ٧١٦ - ٧٩٩

التركمان ٢٦ - ٢٧

تركي العتة ٧٧٤ - ٧٧٦

تسيم ٧ - ٥٩ - ٦٩ - ٨١ - ٩٩ - ١٩٧ - ٢٠٣ -
 ٢٠٤ - ٢٢٤ - ٢٢٧ - ٢٥٠ - ٢٦١ - ٢٨٦ -

الناميون ٥٦٧

النازتيون ١٢٢

نالقين ٣٩

نائلة ٣٥٩

نجيلة ٢٢٣ - ٦٣٢

النحاريون ٨٠٧

نحسا (بو) ٧٠٦

نيدر (بو) ٤٦٣

نيدر بن يخلد ٨٧

النيدو ١٢٦ - ١٢٨ - ١٩٢ - ١٩٤ - ٢٢٢ - ٢٥٧ -

٢٥٩ - ٣٥٩ - ٣٨٦ - ٣٨٧ - ٤٠٥ - ٤٠٨ -

٤٠٩ - ٤١٧ - ٤٣٣ - ٤٤٤ - ٤٥٤ - ٤٥٧ -

٤٦٤ - ٥٠٦ - ٥٠٨ - ٥٠٩ - ٥١٩ - ٥٢٩ -

٥٩٣ - ٧٦٠ - ٧٨٥

نيدو نامة ١١٣

نيدو النجار ١١٦

النبراة ٧٣١

النبراسة ٧٢٦

النبراتورين (القنصلين الرومانيين) ٦٨٩

النبرس ٢٦ - ٢٧ - ٦٣٨ - ٦٧٦ - ٧٠٤ - ٧٠٥ -

٧١٩ - ٧٢٣ - ٧٢٤ - ٧٢٧ - ٧٢٨ - ٧٢٩ -

٧٣١ - ٧٣٢ - ٧٣٤ - ٧٣٩ - ٧٤٠ - ٧٥٢ -

٧٥٣ - ٧٥٥ - ٧٩٥ - ٧٩٨

نبرير نلمسان ٧٤٠

نبرير الدلاء ٨٠٤

النبرفاليون ٧٩٤ - ٧٩٥ - ٧٩٦ - ٧٩٧ - ٧٩٨ -

٧٩٩ - ٨٠٠

نرعواطة ٧٢٣ - ٧٢٤ - ٧٢٥ - ٧٢٦ - ٧٣١

النرعواطيون ٧٢٦ - ٧٣١

نركات ٧٦٦

النريطسيون ٧٧٤ - ٧٧٥ - ٧٨٠ - ٧٨٣

النطاح ٧٣ - ٨٨ - ٩٠

جندام ٥٦ - ٢٢١ - ٣٥٩ - ٤٥٤ - ٥١٠ - ٥٢١ -

١٧٦

الحداميون ٤٥٤

حديقة بن مالك بن حسل ٤٧٨ - ٥٧١ - ٥٧٥ -

٥٩٤

جراوة ٧٤٠ - ٧٤١ -

خرم ٣٩ - ٩٥ -

الخرمان ١٢٣ - ٧١٦ -

الخرمهيون ٩٦ - ٩٧ - ١٠٢ -

جرهم ٤٥ - ٥٣ - ٥٤ - ٦٨ - ٧٢ - ٨٢ - ٩٧ -

١٠٤ - ١٤١ - ١٤٨ - ١٥٠ - ١٩٩ - ٢٠٠ -

٢٢٥

جرهم الثانية ٧٩ - ١٩٩ - ٢٢٥ -

حشم ١٦٧ - ٤٠٤ - ٦١١ -

اجعفريون ٧١٦ - ٧٦٥ - ٧٦٧ -

حجج (بنو) ١٦٤ - ١٦٦ - ١٦٨ - ١٩١ - ٢١٠ -

٣٤٥ - ٣٦٧ - ٤٠٧ - ٤٤٠ - ٤٦٦ - ٤٧٤ -

٤٧٧ - ٤٧٨ - ٤٩١ - ٥٧٤ - ٥٥٨ -

جميع (بنو) ٩٠ -

جند الشام ٦٦١

جند العراق ٦٦١

الجهنيون ٨٢ - ٣٤٠ -

جهينة ٣٩ - ٥٦ - ٦٣ - ٦٦ - ٦٧ - ٨٠ - ٩٤ -

٢٠٣ - ٢٠٩ - ٣٤٠ - ٣٦١ - ٤٦٤ - ٥٢١ -

٥٤٢ - ٥٤٤ - ٦٠٧ -

ح

الحارث بن الخزرج ٥٤٣ - ٥٩٨ -

الحارث بن عبد مناة بن كنانة ١١١ - ١١٣ - ٤٨١ -

الحارث بن فهر (بنو) ٨١ - ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ - ٩٩ -

١٠٤ - ١١٥ - ١٦٤ - ١٦٩ - ٢٦٦ - ٤٩٣ -

الحارث بن لؤي ٩٩ - ١٦٧ - ٢٢٥ -

حازنة الخردحيون (بنو) ٦٠١ -

٣٤٣ - ٣٥٩ - ٤٠٩ - ٤٤٥ - ٤٦٢ - ٤٨٩ -

٥٣٢ - ٥٨٢ - ٦٣٢ - ٦٣٣ - ٦٤٣ - ٦٦٣ -

٦٦٨ - ٦٧٦ - ٦٧٨ - ٦٨١ -

التميميون ٢٢٧ - ٢٦١ - ٦٧٨ -

تروح ٣٩ - ٤٠ - ٤١ - ٤٣ - ٤٤ - ٥٦ - ٦٣٢ -

٦٧٦

تيم الأدم ٨٨ - ٦٩ - ١٠٣ - ١٠٤ -

تيم بن عبد مناة ٢٤٥

تيم بن مرة (بنو) ١٠٣ - ١٤١ - ١٦٤ - ١٦٥ -

١٦٧ - ١٦٩ - ١٧٠ - ٤٧٣ - ٥٠١ - ٦٧٤ -

ليثون الأوثونيون ٧١٤

ث

ثعلب (بنو) ٢١٩

ثعلبة ٢١٩ - ٣٩٠ - ٤٠١ - ٤٠٢ - ٤٠٩ - ٤٤٧ -

٤٤٨

ثعلبة بن فودان بن أسد (بنو) ٤٤٨ - ٤٥٢ -

ثعلبة بن سعد ٦٠٣

ثعلبة الغطاء بن مزريقاه ٤٧٣

الضفاريون ١٥٥ - ٢٣٠ - ٣٣٦ - ٤٦٦ - ٥٧٧ -

٥٨٤

ثقيف ٨٢ - ١٢٨ - ١٤٥ - ٢٢٠ - ٢٣١ - ٣٣٣ -

٣٦٧ - ٤٦٣ - ٤٧٦ - ٤٧٧ - ٤٨٩ - ٥٠٧ -

٥٤١ - ٥٤٥ - ٥٤٦ - ٥٤٧ - ٥٤٨ - ٥٨٢ -

٥٨٣ - ٦٥٦ - ٦٣٢ - ٦٨١ -

ثمود ١٨ - ٢٤ - ٤٤ - ٢٣٩ -

ج

جاهليون ١٤٧

جندعاز بن عمر بن كعب (بنو) ١٤١ -

جنديس ١٩

٤٦٧ - ٤٧٠ - ٤٧٢ - ٤٧٣ - ٤٧٤ - ٤٧٨ -
 ٤٨٣ - ٤٩٩ - ٥٠٠ - ٥١٩ - ٥٢٠ - ٥٢٨ -
 ٥٢٩ - ٥٣٠ - ٥٣٢ - ٥٣٣ - ٥٤٦ - ٥٥٢ -
 ٦٠٧ - ٦٢٩ - ٦٤٦ - ٦٤٢ - ٦٨١ - ٦٨٣ -
 الخرايعون ٩٧ - ٩٨ - ٩٩ - ١٠٠ - ١٣٩ - ٢٣٠ -
 ٤٥٨ - ٥٢٩ - ٥٣٦ - ٥٣٢ - ٥٣٣ - ٥٣٤ -
 ٥٣٥ - ٥٣٦ - ٥٤٥ - ٥٦٢ - ٥٦٣ - ٦٤٣ -
 ٦٨٠ -
 الخفروج ٤٠ - ٤١ - ٤٢ - ٤٣ - ٤٤ - ٨٢ - ١٤٥ -
 ٢٠٥ - ٢٢٤ - ٢٣٢ - ٣٢٥ - ٣٣٠ - ٣٣١ -
 ٣٤٠ - ٣٥٢ - ٣٧٤ - ٣٧٧ - ٣٧٨ - ٣٧٩ -
 ٣٩٢ - ٣٩٨ - ٤٠١ - ٤٠٢ - ٤٠٣ - ٤١٥ -
 ٤٢٣ - ٤٥٣ - ٤٥٧ - ٤٥٨ - ٤٧١ - ٤٧٢ -
 ٤٧٣ - ٥١٤ - ٥٢٨ - ٥٢٩ - ٥٣٠ - ٥٤٣ -
 ٥٩٠ - ٥٩١ - ٥٩٢ - ٥٩٨ - ٦٠١ - ٦١٣ -
 خزيمه (أقيل بن أمار) ٥٧ - ٥٨ - ٥٩ - ٦١ -
 ٦٢ - ٦٦ - ٦٧ - ٧٢ - ٧١٥ - ٢١٩ -
 ٢٢٤ - ٢٢٥ - ٣٦٧ - ٤٥٢ - ٤٦٤ -
 خزيمه (بنو عاتلة) ٩٠ -
 خزيمه بن مدركة بن الياس بن مضر ٩٨ - ٩٩ -
 نخشون ٣٩ - ٦٧ - ٣٦٠ -
 الخطاب (أل) ٢٨١ -
 عظيمة (بنو) ٣٩٩ - ٤٠١ - ٤٠٢ - ٤٠٤ - ٥٤٣ -
 الحيدوثيون ٧٠ - ٧٧ -
 الحسوارج ٦٢٨ - ٦٦٣ - ٦٦٤ - ٦٧٤ - ٦٧٦ -
 ٦٩٢ - ٧٢٤ - ٧٣١ -
 د
 الداريون ١٣٦ -
 الدتل ٥٢٩ -
 الدور ٧٥٧ -
 الدلايون (أهل زاوية الدلاء) ٨٠٤ - ٨٠٥ - ٨٠٦ -
 الدليل ٦٠٤ -

حارة بن عمرو مريقياه بن عامر ماء السباء ٥٢٨ -
 الحبل (سو) ٤٧١ -
 حرب بن أمية (سو) ٣٤١ -
 الحرورية ٦٧٤ -
 حسان (سو) ٧٩٣ -
 الحسينون (أبناء الحسن بن علي) ٧١٥ - ٧١٦ -
 ٧١٨ - ٧١٩ - ٧٤١ - ٧٤٢ - ٧٤٤ - ٧٤٥ -
 ٧٤٩ - ٧٦٤ - ٧٦٨ - ٧٧٠ - ٧٩٧ - ٨٠٥ -
 الحسينيون أبناء الحسين بن علي ٧١٥ - ٧١٦ -
 ٧١٨ - ٧٤٦ - ٧٤٧ - ٧٦٢ - ٧٦٧ -
 حل بن حارم بن لؤي ٣٢٤ -
 الحلفاء ٧٨٤ -
 حبر ٣٨ - ٤٤ - ١٣٨ - ١٦٠ - ١٦١ - ١٨٥ -
 ١٨٦ - ٢٢١ -
 الحميريون ١٤١ - ١٦٠ - ١٦١ -
 حن بن ربيعة (أخوال قصي) ٩٤ -
 الحنفاء ٢٤٦ - ٢٨١ -
 حنيفة (بنو) ١٣٣ -
 حونكة (بنو) ٩٤ - ٩٥ -
 الحيا بن خزاعة ٥٩ - ٦٠ - ١١٢ - ٢٢٤ - ٤٧٨ -

خ

حبة ٥٩ -
 خثعم ٦١ - ٨٢ - ١٦٦ - ٢٢٣ - ٢٢٤ -
 خدام ٥٩ -
 خزاعة ٤٢ - ٤٣ - ٤٤ - ٥٩ - ٦٠ - ٧٣ - ٧٥ -
 ٧٦ - ٧٨ - ٧٩ - ٨٠ - ٨٢ - ٩٦ - ٩٧ -
 ٩٨ - ٩٩ - ١٠٠ - ١٠١ - ١٠٢ - ١٠٣ -
 ١٠٤ - ١٠٥ - ١٠٧ - ١٠٨ - ١١١ - ١١٢ -
 ١١٣ - ١٣٩ - ١٤٥ - ١٥٦ - ١٧٤ - ١٧٨ -
 ٢٠١ - ٢٠٥ - ٢١٩ - ٢٢١ - ٢٢٣ - ٢٢٥ -
 ٢٢٦ - ٢٣١ - ٢٥١ - ٢٥٧ - ٣٢٧ - ٣٢٨ -
 ٣٤٦ - ٣٨٦ - ٣٩٢ - ٤٥٨ - ٤٦١ - ٤٦٤ -

الرومان ٣٩ - ٥١ - ١٣١ - ١٢٢ - ١٩٤ - ٢٩٢ -
٤٠٨ - ٥٦٤ - ٥٦٥ - ٦٣٤ - ٦٧٩ - ٦٧٩ -
٦٨٤ - ٦٨٨ - ٦٨٩ - ٧٢٦ - ٧٤٠

س

الساسانيون ١٢٢ - ١٢٣ - ٤١٧
مساعدة الخزر جيون (بنو) ٢٢٤ - ٥٤٣ - ٥٩٧ -
٦٠٢ - ٦٢٩ - ٦٨٩
سالم الحبل (بنو) ٥١٤
مساعة بن لؤي (بنو) ٨١ - ١١٤ - ١١٦ - ١٩٠ -
٣٥٩ - ٣٨٧ - ٤٠٨ - ٤٤٦ - ٥٢٩ - ٥٤٢ -
٥٤٩ - ٥٥٠ - ٥٥٢ - ٥٧٥ - ٥٨٢ - ٥٨٣ -
٥٩٣ - ٥٩٤ - ٧٩١

المسيحيون ٤٠ - ٢٠٠

السريان ٥٦ - ١٣٧ - ١٩٩ - ٢٠٢ - ٢١٨
شمر بن الحارث (بنو) ٢٢٥
شمر بن مرة ٩١ - ٩٩
بنو سعد ٧٦ - ٧٩ - ١٤٥ - ٢٢٥
بنو سعد (بنانة) ٩٩ - ٢٢٥
سعد بن بكر ٨١ - ٢٠٣ - ٢٢٦ - ٧٩٧
سعد بن ثعلبة بن دودا بن أمية بن خزيمه بن كنانة
٤٥٢

بنو سعد الخراهيون ٢٢٤
سعد بن عدي بن حارثة (بنو) ١٦٦
سعد (العشيرة) بنو ١٦٥
سعد هذيم ٦٧ - ٨٠ - ٩٣ - ٢٢٣ - ٤٥٥
المسعوديون الشرفاء ٧٦٩ - ٧٩٢ - ٧٩٢ - ٧٩٣ -
٧٩٤ - ٧٩٧ - ٧٩٨ - ٧٩٩ - ٨٠١ - ٨٠٥ -
٨٠٦

سمود (آل) ٧٦٢ - ٧٦٧
السيابيون (سوسيان) ٣٩ - ٣٤١ - ٦٢٨ -
٦٥١ - ٦٦٥ - ٦٧٥ - ٧٠٤
السكون ٦٤٨ - ٦٥١

دحيان ٦٥

الدواحل ١٢٧

الديش بن كاسة ٥٩ - ٦٠ - ٨٣ - ١١٢ - ٢٢٤ -
٤٧٨ - ٤٨١

الديلة ٧٤٩

الديلم ٧١٧ - ٧٢١ - ٧٤٣ - ٧٤٤ - ٧٤٥ - ٧٤٦ -
دينار بن المحار (بنو) ٥٤٣

ذ

ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان ١٢٨ -
١٣٠ - ١٨٨ - ٣٦٠ - ٤٠٩ - ٥١١ - ٦٠٣ -
٦٤٥ - ٦٤٦ - ٦٥١ - ٦٧٨

ز

زباب (بنو) ٥٩١
الزبانيون (أهل الرضخ) ٧٣٥
زبيعة (بنو) ٤٧ - ١٨٥ - ١٨٦
الزبالة ٣٧٤
أهل الرقة ٦٠٥ - ٦٥٥
وزاح (بنو) ٩٤ - ٩٨
زستم (بنو) ٧٤٣
زسول (بنو) ٧٥١ - ٧٦٦
الزسيون (الأئمة) ٧٥١ - ٧٥٢ - ٣٥٣
زحل ٣٨٦
زفاعة العذريون ٩٤ - ٩٥
الزماة ٣٦٨ - ٣٦٩ - ٣٧٢ - ٣٧٤
الزهاويون ٥٣٢
الزوس ٧٨٧
الزوس الصمالية ٧٩١
الزور ١٢١ - ١٦٠ - ١٦٣ - ٢١٢ - ٢٦٠ -
٣٠٨ - ٤١٧ - ٤٥٤ - ٤٩٣ - ٥٠٧ - ٥٢١ -
٥٧٢ - ٦١٩ - ٦٢٥ - ٦٢٦ - ٦٣٣ - ٧٦٤

سلامان بن سعد هديم ٤٥٥

سلمة (بو) ٤٧١ - ٥٤٣ - ٥٧٥ - ٥٧٧

سليح ٢١٠

السليانيون ٧١٤

سليم بن منصور (بو) ٨١ - ١١٤ - ١١٦ -

١٩٠ - ٣٥٩ - ٥٨٧ - ٤٠٨ - ٤٤٦ - ٥٢٩ -

٥٤٢ - ٥٤٩ - ٥٥٠ - ٥٥٢ - ٥٧٥ - ٥٨٢ -

٥٨٣ - ٥٩٣ - ٥٨٤ - ٧٩١

سليمان بن عبدالله المحض ٧٣٩ - ٧٤١ - ٧٤٥

السنة (أهل) ٧٤٨ - ٧٥٤ - ٧٥٧ - ٧٦٢ - ٧٦٦

السوريون ٧٧٩

سهل (أل) ٧٩٠

سهم ٩٠

سهم بن مصعب القاضي ١٠٣ - ١٦٤ - ١٦٦ -

١٦٨ - ١٦٩ - ١٩١ - ٢١٠ - ٣٤٥ - ٤٧٤ -

٤٧٧ - ٤٨٥ - ٤٩١ - ٦٢٧

الضبيب (بنو) ٤٥٤

ضمرة بن بكر (بو) ٣٨٥ - ٣٨٦ - ٤٧٠ - ٤٤٢

ضنة (بنو) ١٠٤

الشاميون (عرب الشام) ٣٩ - ٤٣

الشرفاء ٧٦١ - ٧٦٢ - ٧٦٣

شرفاء الحجاز ٧٩١ - ٧٩٧

الشرفاء العلويون ٧١٦

شرفاء العرب الأقصى ٧٩٢

الشوام ٧٨٠

شيسان بن عشار بن فهر ٢٢٥ - ٦٣٢ - ٦٣٣ -

٦٤١

الشيبانيون ٧١٦

الشعبة ٧٤١

شعبة الحاشميين ٥٣١ - ٦٥١ - ٧٢٨ - ٧٤٦ -

٧٥٤

طابجة (بنو) ٥٩ - ٦١

الطالبيون ٧٤٤

الطاهريون ٧٤٣

طاطيا (بو) ٦٩٤

الطبريون ٧٤٣

طسم ١٩

طسي ٣٩ - ٤١ - ١٢٨ - ١٣٠ - ١٣٠ - ٢٠٠ -

٢٠١ - ٢٠٢ - ٢٠٣ - ٢٠٩ - ٢٢١ - ٢٥٩ -

٥٠٨ - ٥١٠ - ٥٢١ - ٥٣٣ - ٦٠٣ - ٧٦٥ -

ظ

ظفر (بو طمس) ٥٤٢ - ٥٤٣
الظواهر (قريش) ٢٥٦

ع

عاد (قوم) ١٨ - ١٩ - ٢٤ - ٤٤

عامر بن لؤي (بنو) ٨١ - ٨٨ - ٩٤ - ٩٦ - ٩٨
٩٩ - ١٠٣ - ١٠٤ - ٢٥٧ - ٣٢٢ - ٣٢٣
٣٢٤ - ٣٥٥ - ٤٦٢ - ٤٦٦ - ٤٦٨ - ٤٧٥
٤٧٧ - ٤٧٨ - ٤٧٩ - ٤٨١ - ٤٨٢ - ٤٨٥
٤٨٧ - ٤٨٨ - ٤٩٠ - ٤٩١ - ٥٠٣ - ٥٠٠
٥٠٤ - ٥٣٢ - ٥٣٤ - ٥٣٦ - ٥٤٧ - ٥٥٩
٥٦٥ - ٥٨١

عامر بن لحي (بنو) ٤٧٣

عامر من بني عذرة ٦٤

عامر بن غالب ٧٣

عامر بن صعصعة (بنو) ١٧٤ - ١٧٨ - ١٩٠

عاملة ٥٩

العباس (بنو) ٢١٥ - ٤٧٣ - ٤٩٩ - ٥٠١
٥٥٤ - ٥٥٥ - ٥٧٦ - ٦٠١ - ٦٢٩ - ٦٤٩
٦٧٨ - ٦٧٩ - ٦٨٠ - ٦٨٧ - ٦٩٢ - ٦٩٣
٦٩٤ - ٧٠٠ - ٧١٤ - ٧١٥ - ٧١٩ - ٧٢٢
٧٢٣ - ٧٢٨ - ٧٣٠ - ٧٣١ - ٧٣٣ - ٧٤٤
٧٩٠ - ٧٩١

العباسيون ٦٢٩ - ٦٧١ - ٦٧٧ - ٦٨٣ - ٦٨٥
٦٨٦ - ٧٠٩ - ٧٣٩ - ٧٦٣ - ٧٥٨ - ٧٦٢
٧٦٦

عبد الأشهل (بنو) ٣٧٨ - ٣٩٦ - ٤١٥ - ٤٦٩
٥٤٢ - ٦١٠ - ٦١٢

عبد أمية (بنو) ٣٤٣

عبد بن ثعلبة (بنو) ٥١١

عبد بن قصي (بنو) ١٠٣

علة (بنو) ٧٠٦

عبد الحارث بن زهرة ١٠٣

عبد الدار (بنو) ١٠٣ - ١١٠ - ١٤٩ - ١٦٩
٣٠٧ - ٣٤٥ - ٣٦٨ - ٣٨١ - ٤٤٢ - ٤٨٥
٥١٩ - ٥٧٤

عدوان بن قيس عيلان ١٥١ - ٣٢٧

عبد شمس بن عبد مناف (بنو) ١١٦ - ١١٨
١٤٩ - ١٦٤ - ١٦٨ - ١٩١ - ٢١٠ - ٢١٦
٢٣١ - ٢٥٠ - ٢٥١ - ٢٥٣ - ٢٨٣ - ٣٢٨
٣٤٠ - ٣٤٣ - ٣٤٤ - ٣٤٥ - ٣٦٦ - ٤٧٤
٤٧٧ - ٤٧٨ - ٤٨٣ - ٤٨٥ - ٤٩٠ - ٤٩١
٥٠٠ - ٥٠١ - ٥٠٤ - ٥٢٠ - ٥٣٠ - ٥٨٤
٦٣٦ - ٦٣٨ - ٦٤٩ - ٦٦٠ - ٦٨٦ - ٦٨٦
٦٩٥

العشميون ٤٩١ - ٦٣٨ - ٦٨١ - ٦٨٦

عبد العري بن قصي (بنو) ١٠٣ - ١٤١ - ٢٦٩
٦٧٤

عبد المطلب بن هاشم (بنو) ١٦٨ - ١٧٣ - ١٩٦
٢٥٣ - ٢٧٢ - ٢٨٠ - ٢٨٥ - ٣٠٣ - ٣٠٩
٣١٠ - ٣١١ - ٣١٢ - ٣١٣ - ٣١٤ - ٣٢٦
٣٢٨ - ٣٣٧ - ٣٤٥

عبد مناف بن زهرة (بنو) ١٠٤

عبيس (بنو) ٨١ - ١٣٠ - ١٧٤ - ١٨٨ - ٣٦٠
٦٧٨ - ٦٠٣

عبد القيس ٧ - ١٣٢ - ٢٠٢ - ٢٠٣ - ٢٠٤
٣٥٩ - ٤٦٢ - ٤٤١

عبد الله بن هلال (بنو) ٣٤٦

عبد مناة بن كنانة ٦٠ - ٦٧ - ٦٨ - ٦٩ - ٧٣
٧٤ - ٧٥ - ٨٠ - ٨٩ - ٩٨ - ١١٤ - ٣٦٧
٣٦٤ - ٤٨١

عبد مناف بن قصي (بنو) ٥٤ - ٨٢ - ١٠٣
١١٠ - ١٦٧ - ٢٨٥ - ٣٢٣ - ٣٢٧ - ٣٢٨
٣٤٥ - ٣٦٦ - ٤٧٧ - ٤٩٠ - ٥٠٠ - ٥٠١

بو عبد الواد ٧٤١

عرب الضبانات ٨٠٦
العرب العاربة ١٩ - ٢٥ - ٣١ - ٣٧ - ٣٩ - ٤٠ -
٤٢ - ٤٣ - ٥٠ - ٥٣ - ٥٦ - ٥٧ - ٦٨ -
٧٤ - ٢٠٠ - ٢٠١ - ٢١٨ -
عرب الصحابة ٤٤٩ - ٥٩٦ - ٥٠٧ -
العرب القدامى ٤١
العرب المسألة ٧٩٧
العرب المستعربة ١٨ - ٤١ - ٥٣ - ٥٥ - ٧٤ -
١٩٩
عرب المعقل ٧٩٣ - ٨٩٦
العرب الحلالية ٧٩٣ - ٧٩٥
عرب اليمن ١٤
عصبة بن خفاف بن اُمّية القيس (بن) ٣٨٤
عضل ٥٧ - ٥٩ - ٢٢٤ - ٣٨٨ - ٤٤٦ - ٤٧٨ -
٥٢٩ - ٦٠٤ -
عطيه (بن) ٤١٢
المغاليون ٧١٦
عكل ٥٩
العلوون ٦٠١ - ٦٥٠ - ٦٥٣ - ٦٨٧ - ٦٩٢ -
٦٩٣ - ٦٩٤ - ٦٩٥ - ٦٩٧ - ٧١٤ - ٧١٥ -
٧١٦ - ٦١٧ - ٧١٨ - ٧٢٠ - ٧٢٨ - ٧٣٣ -
٧٤٢ - ٧٤٣ - ٧٤٤ - ٧٤٥ - ٧٤٦ - ٧٤٨ -
٧٥٣ - ٧٦٨ - ٧٦٩ - ٨٠٣ - ٨٠٥ - ٨٠٧ -
المطويون الضالون ٧٠١
علي (آل) ٤٩٩ - ٦٢٨ - ٦٤٩ - ٦٨٧ - ٦٩١ -
٦٩٣
الصائفة ٤١ - ٤٢
هجران (آل) ١٣٨
عمرو بن نحرارة (بن) ٥٠٠ - ٥٥٢
عمرو بن عامر بن ربيعة (لحي) ٩٧ - ٩٩ - ٥٢٠
عمرو بن عبد مناف ١١٤
عمرو بن عوف (بن) ٦٤٥
عمرو بن مدرس الضحيا ٥٢٠
عمرو بن محروم ٥٠٧

المراديون ٤٧ - ٤٩ - ٥٥ - ١٩٩ - ٢١٨ - ٤٠١
المعيد ٨٠٠ - ٨٠٦
المعيدون المعطوبون ٧٤١
عشان (بن) ٦٩١
العشانيون ٦٣٠ - ٧٥١ - ٧٦٧ - ٧٧١ - ٧٧٦ -
٧٧٧ - ٧٧٩ - ٧٩١ - ٧٩٩ - ٨٠٠
المجيم ٢٢٢
الصدبانسون ١٨ - ٣٩ - ٤٠ - ٤٣ - ٤٤ - ٤٥ -
٦٦ - ٦٨ - ٧٧ - ٨٠ - ١٠٨ - ١٨٦ -
١٨٧ - ٢١٥ - ٢٢٤ - ٤٥٨ -
عدي (بن) ٧٦ - ٧٩ - ٩٠ - ٩٩ - ٤٧٣ - ٥٧٥ -
٥٧٧ - ٦٤٧ -
عدي بن عمرو بن عامر بن لحي ٤٧٥ - ٦٤٢
عدي بن كعب (بن) ١٦٤ - ٢٦٦ - ٢٨٣ -
٣١٦ - ٥٣٠ -
عدي بن النجار (بن) ١٤٤ - ١٤٥ - ٢٢٦ -
بنو عدوان ١٠٨ - ٢٢٥
بنو عذرة بن سعيد هذيم ٩٣ - ٩٤ - ٩٤ - ٩٥ -
٩٦
بنو عذرة القضاويون ٨٠ - ٨٢ - ٨٣ - ٩٨ - ٩٩ -
١٠٥ - ١٠٦ - ٢٢٦ - ٢٢٣ - ٣٦٠ - ٤٤٨ -
٤٥٥ - ٥١٠ - ٥٢١ -
المندريون ٩٥
المزانيون ٧٨٣
العرب (أطراف) ١١٩ - ١٢٠
عرب الأطراف ٤٤٩
العرب البائدة ١٨ - ٢٣ - ٢٥ - ٢٧ - ٤٥ - ٧٩ -
١٩٩ - ٢٠٠ - ٢٠١ - ٢١٩ -
المرمان (بن) ٢٧ - ٣٥ - ٣٦ - ٣٨ -
المرمان ٣٨٦
عرب الحاملة ٣٨
عرب الحيرة ٥٠٧
عرب الروم ٢٠٩ - ٢٢٥ - ٤٤٩ - ٥٠٧ - ٥٢١ -
٥٩٦

٧٥١ - ٧٥٤ - ٧٥٥ - ٧٥٦ - ٧٦٧ - ٧٥٨ -

٧٥٩ - ٧٦٢ - ٧٦٤ - ٧٦٥ - ٧٦٦ -

المعجار ١١٦

المراصة (ملوك مصر) ٧٥٩

المصرس ١٢٢ - ١٢٣ - ١٣٤ - ١٦٣ - ١٩٤ -

٢١٢ - ٢٦١ - ٣٠٨ - ٥٠٧ - ٥٦٥ - ٦٣٢ -

٦٥٨ - ٦٨٢ - ٦٨٣ - ٦٩١ -

المرسان ٣٦٩ - ٣٧٤ -

فرعون (آل) ٣٤٧

الفرنسيون ٥٥٥ - ٧٨٤ - ٧٨٦ - ٨٠٦ - ٨٠٧ -

فؤارة ٢٢٨ - ٤٠٩ - ٤١٠ - ٤٥٤ - ٤٦٣ - ٥٥٠ -

٥٧٨ - ٥٨٢ - ٦٠٣ - ٦٣٦ - ٦٣٧ - ٦٦٧ -

الفضول (حلف) ١٦٥ - ١٦٦ - ١٦٧ - ١٦٨ -

١٦٩ - ١٧٠ - ١٧٦ - ١٧٧ - ١٧٨ - ٢٣١ -

٢٤٨ - ٣٤٥ - ٦٥٩ -

الفلاليون ٧٩٤ - ٨٠٥ -

الفاطميون ٧٧٩

فهر (آل) ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ - ٩١ - ١٠٦ - ١٠٧ -

١٦٥ - ١٦٦ - ١٦٧ - ٢٢٥ - ٢٥٦ - ٣٩٥ -

٤٧٨ - ٤٨٥ -

فهر بن مالك بن الضر (آل) ٨٧ - ٨٨ - ٩٩ -

١٠٢

الفينيقيون ٧٨٧

ق

القائمة ٥٧ - ٥٩ - ٦٠ - ٨٣ - ١١٢ - ٢٢٤ -

٤٤٦ - ٤٤٨ - ٤٥٢ - ٤٨١ - ٥٢٩ - ٦٠٤ -

قائل الرهبان العربي ٨٠٧

قط مصر ٢١٢

القتانية ٢٠٠

القرامطة ٧٥٠ - ٧٥٨ -

القرطاب ٤٥٧

القرويون ٧٣٤ - ٧٣٧ -

عمرو بن بنت بن مالت ٥١٥

العاس ٢٣٢ - ٢٥٤ - ٥٠١ -

عوف (سو) ٧٦ - ٧٩ - ٤٠٢ -

عون (أمرة) ٧٧٠

عويص بن عامر بن لؤي ٥٠٠

غ

غالب (سو) ٨٨ - ٢٢٥ -

غالب بن فهر ٨١ - ١١٥ - ٣١٦ -

غالب بن لؤي ٥٥٩

غيشان الخراعيون (بنو) ٩٨

الغسانة ٥٠٩ - ٥٢١ -

غسان (بنو) ٤٠ - ٤٢ - ٤٣ - ٤٤ - ٧٦ - ٧٨ -

٧٩ - ١٣٤ - ١٣٧ - ١٨٦ - ٢٠١ - ٢٢١ -

٢٢٢ - ٤٤٩ - ٥٢١ - ٥٢٩ - ٥٣٠ - ٦٤١ -

عطمان (بنو) ٧ - ٨١ - ١٢٨ - ١٣٠ - ٢٠٣ -

٢٢٨ - ٢٥٩ - ٢٨٦ - ٣٥٩ - ٣٩٩ - ٤٠٠ -

٤٠٨ - ٤٠٩ - ٤١٤ - ٤١٥ - ٤١٦ - ٤١٨ -

٤٢١ - ٤٢٢ - ٤٢٣ - ٤٢٤ - ٤٢٥ - ٤٣٣ -

٤٤٥ - ٤٤٦ - ٤٤٨ - ٤٥٣ - ٤٥٤ - ٤٥٥ -

٤٥٧ - ٤٦١ - ٤٦٣ - ٤٧٢ - ٤٨٩ - ٥٠٧ -

٥٠٨ - ٥٠٩ - ٥١٠ - ٥٢٩ - ٥٣٣ - ٥٥٠ -

٥٥٢ - ٥٧٧ - ٥٧٨ - ٥٨٢ - ٦٠٣ - ٦٠٤ -

٦٤٣ - ٦٤٦ - ٦٤٧ - ٦٦٧ - ٦٦٨ - ٦٧٨ -

هزار ٢٨٢ - ٤٦١ - ٥١٠ - ٥٤٢ - ٥٤٦ - ٦٠٧ -

هبارة (بنو) ٧٢٣ - ٧٢٦ - ٧٢٧ - ٧٢٩ - ٧٣١ -

هشم بن علي بن النجار (بنو) ١٤٥

ف

فارس الصحباء (من سادات بني عمرو الخراعيين)

٥٢٠

الفاطميون ٦٩٤ - ٧٠٩ - ٧٣٠ - ٧٣٦ - ٧٣٧ -

القيم (سو) ٢٢٥	فريش الطاح ٢٨٢ - ٣٢٤
القيم (سو) ٣٩ - ٣٦٠ - ٥٢١	فريش الطواهر ٢٨٢ - ٣٢٤
قبط (سو) ٤٠٢ - ٤١٤ - ٤٥٣ - ٥٧٨	قريظة (سو) ٥٣ - ٣٩٦ - ٣٩٧ - ٤٠١ - ٤١٣ - ٤١٤ - ٤٢٤ - ٤٢٣ - ٤١٩ - ٤١٦ - ٤١٥ - ٤٢٧ - ٤٣٦ - ٤٣٧ - ٤٥٣ - ٤٥٧
ك	٥٧٨ - ٦١٣
الكاثوليك ٣١٩ - ٧٨٣ - ٧٨٧	فشير ٥٧٧
الكارولسجون ٧١٤	فهي بس كلاب (ال) ٨١ - ٨٧ - ٩٠ - ١١٤
كبير (مس بني عذرة) ٩٤	١٦٦ - ١٦٧ - ٢١٤ - ٤٧٧ - ٥٠١
كتانة ٧٥٢	فصاعة ٧ - ٣٨ - ٣٩ - ٤٠ - ٤١ - ٤٢ - ٤٣
كعب بن لؤي (بنو) ٨١ - ٨٩ - ٩٠ - ٩٤	٤٤ - ٤٧ - ٥٦ - ٥٨ - ٦١ - ٦٢ - ٦٣
٩٦ - ٩٨ - ٩٩ - ١٠٣ - ٢٣١ - ٢٧٥	٦٤ - ٦٦ - ٦٧ - ٦٨ - ٧٤ - ٧٥ - ٨٢
٣١٦ - ٣٢٤ - ٤٦٦ - ٤٦٨ - ٤٧٥ - ٤٧٩	٩٢ - ٩٤ - ٩٥ - ١٠٦ - ١٠٨ - ١٣٤
٥٣٣ - ٥٠١	١٤٥ - ١٨٥ - ١٨٦ - ٢٠١ - ٢٠٢ - ٢٠٣
كعب بن لؤي بن بكر عبد مناف ١٠٨	٢٠٥ - ٢٢١ - ٢٢٢ - ٢٢٤ - ٢٢٥ - ٢٥٦
كعب بن عمرو بن عامر بن لحي ٤٥٥	٢٥٧ - ٣٦٠ - ٣٦١ - ٤٤٩ - ٤٥٥ - ٥١٠
كعب الخواص ٦٠ - ٦٩ - ٧٤ - ٧٦ - ٧٩ - ٨٠	٦٧٦
٢٣١ - ٢٥٧ - ٣٨٢ - ٣٨٦ - ٣٨٩ - ٣٦٤	القضايعون ٩٥ - ١٠٩ - ١٣٩ - ١٨٥ - ٢٠٩
٣٧٨ - ٥٣١ - ٥٣٣ - ٥٤٢ - ٥٤٤ - ٥٤٦	٢٢٦ - ٦٨٦
٥٤٧ - ٥٥٢ - ٥٥٣ - ٥٦٤	فطور ١٩
كعب الخواص (بنو) ٤٧١ - ٦٠١	القلمس (بنو) ٩٩ - ١٨١
كلاب بن مرة (بنو) ٩٩ - ٣١٥	فمعة (عجب) ٥٩ - ٦١ - ٦٢ - ٢١٩
كلب بن وبرة ٣٩ - ٤٠ - ٤٢ - ٤٣ - ٦٢ - ٦٤	فمبر بن حنية بن سلول ٦٢٤
٦٦ - ٢٠٩ - ٢١٩ - ٦٧٥ - ٦٧٦	فص ٤٧
الكليون القضايعون ٦٨٦ - ٧٠٥	القويون العرب ٧٧٩ - ٧٨٠ - ٧٨١
كتانة ٥٤ - ٥٧ - ٥٩ - ٦٠ - ٦١ - ٦٤ - ٦٧	فيدار ٤٦
٦٩ - ٧٢ - ٧٣ - ٧٤ - ٧٩ - ٨٠ - ٨٢	فيس عيلان ٥٧ - ٥٨ - ٥٩ - ٦٤ - ٦٥ - ٦٦
٨٧ - ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ - ٩١ - ٩٤ - ٩٥	٨١ - ٨٣ - ١٠٨ - ١١٦ - ١٤٥ - ١٥١
٩٦ - ٩٨ - ٩٩ - ١٠٠ - ١٠٣ - ١٠٤ - ١٠٨	١٨٨ - ١٨٩ - ١٩٠ - ٢٢٢ - ٢٢٥ - ٢٢٦
١٠٩ - ١١١ - ١١٢ - ١١٣ - ١١٤ - ١١٥	٢٥٣ - ٣٥٩ - ٣٨٤ - ٤٨١ - ٥٠٨ - ٥١٩
١١٦ - ١٥١ - ١٥٥ - ١٧٤ - ١٧٨ - ١٨٨	٥٢٩ - ٦٠٤ - ٦٤٣ - ٦٤٥ - ٦٤٨
١٨٩ - ١٩٠ - ٢٠٣ - ٢١٥ - ٢٢٠ - ٢٢٢	القيون ٤٠ - ٤٣ - ٦٤ - ٦٥ - ٧٠ - ١٩٠
٢٢٣ - ٢٢٤ - ٢٢٥ - ٢٢٦ - ٢٥١ - ٢٥٦	٦٧٥ - ٦٧٦ - ٦٨٠ - ٦٨٦ - ٧٠٣ - ٧٠٥
٤١٥ - ٤٥٢ - ٤٨١ - ٤٩٩ - ٥٠١ - ٥٣٢	٧٤٧

المشردون الأمريكيون ٧٨٣

- محارب بن صهر ٨١ - ٨٣ - ٨٨ - ٩٠ - ٩٩ - ١١٥ - ٢٢٥ - ٢٥٦ - ٢٥٧ - ٤٠٩ - ٤٣٩ - ٤٤٦ - ٤٤٧ - ٥٢٩ - ٦٠٤ - ٦٧٨
 آل محمد ٤٩٩ - ٥٨٩ - ٦٨٧ - ٦٨٨ - ٧١٨
 بنو محمد (في المغرب) ٧٣٦
 محاسن (بنو) ١٩٢ - ١٩٧
 محروم ٩٩ - ١١٦ - ١٤٣ - ١٥٠ - ١٦٤ - ١٩١ - ٢١٠ - ٢٣١ - ٢٥١ - ٢٥٣ - ٢٦٦ - ٢٦٨ - ٢٧٥ - ٢٨٣ - ٣١٦ - ٣٢٢ - ٣٢٣ - ٣٢٨ - ٣٤٣ - ٣٤٥ - ٤٦٦ - ٤٧٤ - ٤٨٥ - ٤٩١ - ٥٠١ - ٥٨١ - ٦١٥ - ٦١٩ - ٦٤٩
 المخزوميون ٣٠٥
 مدخرة (مطخرة) ٧٢٤ - ٧٢٧
 بنو مذار ٧٥٣
 مفركة (عاصم) ٥٧ - ٥٨ - ٥٩ - ٦١ - ٦٢ - ٦٦ - ٢٠٤
 مذبح ١٨٧ - ٦٠٣
 مذبح (بنو) ٣٩٢ - ٦٠٣ - ٦٠٤
 المرباطون ٦٣٠ - ٧٢٧ - ٧٩٤ - ٨٠٠
 الموابون ٢٥٠
 مر بن أد بن طابخة ١٠٧ - ١٠٨
 مرة بن الحارث بن عوف (بنو) ٤١٤ - ٤١٨ - ٤٢١ - ٤٢٥ - ٥٧٧ - ٥٧٨
 مرة بن عبد مناف ٤٩١
 مرة بن كعب بن لؤي ٩١ - ٩٩ - ١٠٣
 مرة بن عوف بنو ١٠٨ - ٥١١ - ٥١٢ - ٦٠٣
 مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان (بنو) ٦٤٥ - ٦٦٧
 مرة بن كلاب ٩٠
 المرتدون ٦٠٠
 المروانيون (بنو مروان) ٣٩ - ٣٤١ - ٣٤٤ - ٦٢٨ - ٦٤٧ - ٦٦٥ - ٦٧٤ - ٦٧٥ - ٦٨٦ - ٧٠٢ - ٧٠٣ - ٧٠٦ - ٧٠٧ - ٧٠٩
 آل مروان الأندلسيون ٧١٣

- ٥٣٣ - ٥٧١ - ٥٧٥ - ٥٩٤ - ٦٠٣ - ٦٠٤ - ٦٢٢ - ٦٤٢
 كعدة ٤٠ - ٤١ - ٤٤ - ٧١ - ١٣٠ - ١٨٦ - ٢١٩ - ٣٥٩ - ٥٢٩ - ٦٤٨ - ٦٥١ - ٦٦٣

ل

- اللاتين ١٩٩ - ٢٠٢
 اللام (هائلة) ٢٩
 لؤي بن غالب ٧٣ - ٨٧ - ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ - ٩٩ - ١١٥ - ٢٢٥ - ٢٥٦ - ٢٥٧ - ٢٩٠ - ٣١٦ - ٤٧٥
 اللبانيون ٧٧٦
 لحي (آل) ٥٩ - ٧٩
 لحي بن عامر بن قمعة بن الهاس بن مصر ٤٧٣ - ٥٢٩
 لحيان ٣٦٠ - ٣٨٦ - ٣٨٨ - ٤٥٨ - ٤٥٩ - ٤٦٠ - ٤٦٢ - ٤٦٢
 لخم ٣٩ - ٤٠ - ٤٢ - ٤٣ - ٤٤ - ٥٩
 اللخميون ٢٠٩
 لوط (قوم لوط) ٧٤
 ليث بن بكر ٢٥٩ - ٦٠٣ - ٦٠٤ - ٦٠٧

م

- المؤتفكة ١٩
 مازن بن منصور (بنو) ٣٨٤
 مازن بن صهصعة (بنو) ١٤٥
 مازن بن الحجار (بنو) ٤٨٨ - ٥٤٣
 مالك بن النضر ٨٧ - ١١٥ - ٢٢٥
 مالك بن الأوس ٧٦ - ٣٧٧ - ٤٧٣
 مالك بن زيد بن كهلان بن ساء ٥١٥
 المالكيون ٧٥٤
 مالك بن الحدر (بنو) ٥٤٣

بومرين ٧٣٨ - ٧٩٥ - ٧٩٦ - ٧٩٧ - ٧٩٨

المريون ٦٠٥

مزينة ٥٩ - ٤٦١ - ٤٦٤ - ٥٤١ - ٥٤٢ - ٥٤٤

المسيحيون ٥٤ - ٨١ - ١٢٢ - ١٢٣ - ١٥٨

١٦٠ - ٢٠٧ - ٢٠٩ - ٧٣٧

المشركون ٣٦٢ - ٣٦٨ - ٣٦٩ - ٣٧٠ - ٣٧١

٣٧٢ - ٣٨٦ - ٣٨٧ - ٤٠٣ - ٤٦٩ - ٤٧٧

٤٩٥ - ٥١٥ - ٥١٦ - ٥٦٠ - ٥٧٦ - ٥٨٠

المصاندة ٧٢٣ - ٧٣١ - ٧٣٨ - ٧٩٥

المصريون (القدماء) ٤٢ - ٤٩ - ٧٥٤ - ٧٥٦

٧٦٧ - ٧٦٩ - ٧٧١

المصطلق بن خزامعة (بنو) ٥٩ - ٦٠ - ١١٢

١٤٥ - ٢٢٤ - ٣٨٢ - ٣٨٣ - ٣٨٧ - ٣٩١

٣٩٢ - ٤٦٤ - ٤٧٨

مصمودة ٦٣٠ - ٧٢٣ - ٧٣١

مضر ٤٠ - ٤٣ - ٤٤ - ٤٧ - ٥٦ - ٥٧ - ٦٥

٧٦ - ٩٧ - ١٨٦ - ٢٢٠ - ٢٢٢ - ٣٨٤

٣٨٦ - ٣٨٨ - ٤٤٦ - ٤٥٨ - ٤٨١ - ٥٢٨

٥٢٩ - ٥٣٠ - ٥٩٠ - ٦٠٤ - ٦٤٣ - ٦٤٨

٦٤٩ - ٦٧٥ - ٦٨٠ - ٦٨٦

مضر بن إيلاد ٩٧

المصريون ٩٨

بنو المطلب بن عبد مناف ١٠٤ - ١١٠ - ١١٧

١٤٤ - ١٦٤ - ١٦٥ - ١٦٩ - ١٩٦ - ٢٨٠

٢٩٢ - ٣١١ - ٣١٤ - ٣١٥ - ٣١٦ - ٣١٧

٣٢٢ - ٣٣١ - ٣٣٨

المطيسون (حلف) ١٦٧ - ١٦٨ - ١٧٧ - ١٧٨

١٨٠ - ٣٠٢ - ٣٤٥ - ٣٤٥ - ٥٢٠

معاوية (سو) ٥٤٣

المعدية (القبائل) ١٨٧

معد (سو) ٤٧ - ٥٠ - ٥٦ - ٧٥ - ٩٨

معيص (سو) ٤٨١ - ٥٠٠

المغاربة ٦٧٦ - ٨٠٥

المعول ٢١٩ - ٦٩٩ - ٧١٦

معيت (سو) ٧٠٦

المعبرة بن غنوم (سو) ١٤١ - ١٩٠ - ١٠٣

مقرن (سو) ١٠٥

مكاسة ٧٣٦

المكيون ١٣٩ - ١٧٩ - ١٨١ - ١٩٦ - ٢١١

٢١٢ - ٢٢٧ - ٢٣٠ - ٢٣٢ - ٢٣٧ - ٢٤٨

٢٦٧ - ٢٦٨ - ٢٦٩ - ٢٧٠ - ٢٧٧ - ٢٧٨

٢٨١ - ٢٨٢ - ٢٩٣ - ٣١٠ - ٣١٣ - ٣٢٢

٣٢٦ - ٣٢٩ - ٣٣٣ - ٣٦٧ - ٣٨٣ - ٤١٤

٤٤٠ - ٤٤١ - ٤٤٨ - ٤٥٩ - ٤٦٠ - ٤٨١

٤٨٥ - ٥٠٢ - ٥٣٥ - ٥٣٦ - ٥٣٧ - ٥٣٩

٥٤٠ - ٥٤٥ - ٥٦٣ - ٥٦٥ - ٥٧١ - ٥٧٣

٥٧٣ - ٥٧٦ - ٥٧٨ - ٥٨٤ - ٥٨٦ - ٥٦٧

٥٩٣ - ٥٩٦ - ٦٠٩ - ٦١٤ - ٦١٥

الملجوم (أسرة) ٧٢٩

ملككان ٧٦ - ٤٧٣

بنو مليته ٧٦٦

الماليث ٧٦٤ - ٧٦٦ - ٧٦٧ - ٧٦٩

المنافرة ١٨٩

مناة بن قيس (بنو) ١٠٧

منشد بن عمرو بن معيص (بنو) ٤٩٠

المهاجرون ١٣٨ - ٣٥٢ - ٣٥٥ - ٣٦٠ - ٣٩٥

٣٩٦ - ٣٩٩ - ٤٠١ - ٤٦٣ - ٤٧٢ - ٤٧٤

٤٨٧ - ٥٠٠ - ٥٢٠ - ٥٢٢ - ٥٣١ - ٥٣٢

٥٣٨ - ٥٤٢ - ٥٤٣ - ٥٤٥ - ٥٨٢ - ٥٩٢

٥٩٥ - ٥٩٧ - ٥٩٨ - ٥٩٩ - ٦٠١ - ٦٠٦

٦٠٧ - ٦١٠ - ٦١٢ - ٦١٣ - ٦١٤ - ٦١٥

٦١٧ - ٦١٨ - ٦٢٠ - ٦٢٥ - ٦٣٦ - ٦٤٠

٦٤١ - ٦٤٢ - ٦٤٦ - ٦٤٨ - ٦٥١ - ٦٥٨

٦٦٣ - ٦٦٤ - ٦٦٦ - ٦٦٧ - ٦٦٨ - ٦٩٠

مهدي (سو) ٧٥١

مهرة ٨٠

مها (آل) ٧٦٢ - ٧٦٣

الموارنة ٧٨٢ - ٧٨٧

٤٠٧ - ٤٠٨ - ٤١٤ - ٤٢٠ - ٤٥٣ - ٤٥٧ -

٥٧٨

نعيم بن عامر بن لؤي (سو) ٥٠٠

نقاء العباسيين ٧٠٦

نمرة ٧٠٥ - ٧٢٣

نعمسة ٧٤٠

النمر بن قاسط ٣٢٧ - ٣٢٨ - ٣٤٦

نوح (قوم نوح) ٢٤ - ٤٤ - ٤٥

بنو نهد ٩٤ - ٩٥ - ٤٦٤

بنو نوفل بن عبد مناف ١٠٤ - ٣٢٣ - ٣٤٣

الموالي ٢٨١ - ٦٢٩ - ٦٤٩ - ٦٨١ - ٦٨٣ -

٧٠٥ - ٧٠٦ - ٧٠٧ - ٧٢٣ - ٧٣٤

موالي بني أمية ٧٠٣ - ٦٠٤ - ٧٠٥ - ٧٠٦ - ٧١٠

موالي بني هاشم ٧٠٤

الموحنون ٥٩٠ - ٦٣٠ - ٧٩٤ - ٧٩٥

الموسويون ٧٦٢ - ٧٦٣

المورسكيون ٨٠٢

الميجاريون ٢٦١

ن

ناجة (بنو) ٢٢٥

نبت (البيط - الأنياط) ٤٦ - ٢٦٢

نجاح (بنو) ٧٥١

النجار (بنو) ١٤٥

نجدات ٦٧٤

النجديون ٢٠٣

نزار ٤٧ - ٥٦ - ٥٩ - ٦١

نزار بن مصر ٩٧ - ١٨٦

النساء (الحاسيون) ٢١٠ - ٢٥٠

النساء (من بني مالك بن كنانة) ١٠٨

النصارى ٢٠٧ - ٤٤٩ - ٥٢١ - ٧٥٣ - ٧٩٦ -

٨٠٣ - ٨٠٤

نصارى الجولك ٨٠٤

نصارى العرب ٥٩٦ - ٦٠٤

نصر بنو ٥٩١

نصر بن معاوية (بنو) ٥٠٠

النضر (بنو) ٦٧ - ٦٨ - ٦٩ - ٧٠ - ٧١ - ٧٢ -

٧٣ - ٧٤ - ١٠٦

النصر بن كنانة ٨٧ - ٢٢٤

بنو النضر بن حرمة ٩٩

بنو النضر (اليهود) ٣٨١ - ٣٨٥ - ٣٩٥ - ٣٩٦ -

٤٠٠ - ٤٠١ - ٤٠٢ - ٤٠٣ - ٤٠٤ - ٤٠٦ -

بنو هاشم ٥٤ - ٧٥ - ١٠٠ - ١٠٤ - ١١٦ -

١١٧ - ١١٨ - ١٤٢ - ١٤٣ - ١٤٥ - ١٦٤ -

١٦٥ - ١٦٨ - ١٦٩ - ١٧٠ - ١٧١ - ١٩٠ -

١٩١ - ٢١٠ - ٢١٥ - ٢١٦ - ٢٢٧ - ٢٣١ -

٢٣٢ - ٢٤٨ - ٢٥٠ - ٢٥١ - ٢٥٣ - ٢٧٥ -

٢٧٦ - ٢٨٥ - ٢٩٠ - ٢٩٢ - ٣٠٢ - ٣٠٣ -

٣٠٤ - ٣٠٩ - ٣١٠ - ٣١١ - ٣١٢ - ٣١٣ -

٣١٥ - ٣١٦ - ٣١٧ - ٣١٨ - ٣٢٢ - ٣٢٣ -

٣٢٩ - ٣٣١ - ٣٣٧ - ٣٣٨ - ٣٣٩ - ٣٤٣ -

٣٤٥ - ٣٤٨ - ٣٥٦ - ٣٨٣ - ٤٨٥ - ٤٩٠ -

٤٩١ - ٥٠٠ - ٥٠١ - ٥١٧ - ٥٣٠ - ٥٥٨ -

٥٨٤ - ٦٢٧ - ٦٣١ - ٦٤٣ - ٦٤٨ - ٦٤٩ -

٦٥١ - ٦٧٩ - ٦٨١ - ٦٨٥ - ٧٠١ - ٧٠٢ -

٧٠٤ - ٧١٦ - ٧٢٠ - ٧٣٨ - ٧٥٢ -

الهاشميون ١٩٢ - ٢٨٩ - ٤٧٣ - ٤٧٤ - ٥٩٩ -

٦٠١ - ٦٢٩ - ٦٣٨ - ٦٤٢ - ٦٥٠ - ٦٦٧ -

٦٧٤ - ٦٧٥ - ٧٠١ - ٧١٥ - ٧١٦ - ٧٢٣ -

٧٣٠ - ٧٧٥ - ٧٩١ -

هارون بنو ٤٠١ - ٥١٠

الهادليون ٢٢٥ - ٢٣٠

هــدبـل ٥٩-٨٣-١٥٥-١٥٧-١٥٨-٢٠٣-
 ٢٠٤-٢٢١-٢٢٢-٥٥٩
 هـرـان بن ربيعة (س) ١٦٧
 هـصـبـس بن كـبـ ٩٠-١٦٦-٢٣١
 هـصـبـس بن ٩٩-١٠٣
 هـلـال بن عامر بن صـمـصـة (س) ٨١-٢٢٦-
 ٣٤٦-٣٥٩-٥٢٠-٥٢٩-٥٤٧-٥٤٨-
 ٥٥٠-٦٢٠-٧٩٣-٧٩٥
 هـلـال بن فـالـج بن ذـكـوان ٥٥٠
 هـمـذان الـيـمـيون ٢٢٥
 هـتـائـة المـصـودية ٧٩٥
 هـولـة ٧٥٥
 هـوازـن ٧-٦١-١٢٨-١٣٠-١٨٨-١٩٠-
 ٢٠٣-٢٢٦-٢٢٨-٢٥٩-٢٨٦-٣٥٩-
 ٤٠٨-٤٤٦-٤٥٧-٤٦٢-٥٠١-٥٠٦-
 ٥٠٨-٥١١-٥٤١-٥٤٥-٥٤٦-٥٤٧-
 ٥٤٨-٥٥٢-٥٧٠-٥٧٥-٥٧٦-٥٨١-
 ٥٨٢-٥٨٣-٥٨٥-٥٨٩-٥٩١-٥٩٣-
 ٦٠٩
 هـوازـنـيون ٥٧٧
 هـواشم العلويون ٦٩٤-٧٠٠
 هـواشم مكة ٧٧٠
 هـمـان ٥٧-٥٩-٨٣-٢٢٤-٤٥٢-٤٧٨-
 ٤٨١
 هـمـان بن خـرمـة ١١٢
 هـمـكـسوس ٤٢-٤٨-٤٩-٧١
 وائل (س) ١٨٥-٤٠٢-٤٤٨
 واقف ٤٠٢
 وجم بن هـصـبـس ١٠٣

الـوـثـيون ٢٣١
 الـوـرير (آل) ٧٥١
 الـوطـاسـيون ٧٩٤-٧٩٦-٧٩٧-٧٩٨-٧٩٩
 وـهـب بن عـدـ صـاف بن رـهـرة (بنو) ١٠٤
 ي
 يـنـيع ٥٩
 الـيـزـيون ٢٢٨-٣٢٥-٣٤٠-٣٥٢-٤٠٦
 يـشـيع بن الـهـون (بنو) ١١٢
 يـهـود خـيـبر ٤٤٥-٤٥٢-٤٥٧
 يـشـكر الـأزـهـيون (بنو) ٩٤
 يـقـظـه بن مـرة ٧٨-٩٠-٩٩-١٠٣-١١٦-
 ١٤١-١٦٤-١٦٨-١٦٩-١٧٠-١٧١-
 ٣١٦
 يـهـرن بن ٧٥٤
 الـيـمـنـيون ٣٩-٤٠-٤٣-٦٣-٦٤-٧٥-
 ١٨٦-٢٢٣-٢٢٤-٢٢٥-٢٢٨-٥٩٠-
 ٦٣٣-٦٧٥-٦٧٦-٦٧٨-٦٨٠-٦٨٦-
 ٧٠٤-٧٠٩-٧٤٧-٧٥٠
 الـيـمـنة (الـقـبـائل) ٧٤-٧٧-٨٢
 الـيـهـود ٤٥-٨٠-١٣٢-١٣٨-٢٠١-٢٣٢-
 ٣٦٠-٤٤٠-٤٤١-٤٠٢-٤٠٦-٤٠٧-
 ٤٠٩-٤١٤-٤١٥-٤١٦-٤٥٣-٤٦١-
 ٥٠٨-٥٠٩-٥١٠-٥٧٨-٥٨٦-٧٨٧-
 ٧٨٨-٧٨٩
 الـقـبـائل الـيـهـودية ٨٠-٨٢
 يـهـود أورويا ٧٨٨
 يـهـود روسيا ٧٨٨
 يـهـود المـدـينة ٤٠١-٤٢٩
 الـيـونان ٥١-١٥٥-١٩٩-٢٠٢-٢٠٧-٢٦١-
 ٦٨٨-٧٨٩

أماكن وبلدان

٢٩٤ - ٣٩٨ - ٤٠٣ - ٤٠٤ - ٤٠٥ - ٤٠٧	١
٤١٨ - ٤٢٦ - ٤٢٧ - ٤٢٣ - ٤٣٥ - ٤٤١	
٤٨٨ - ٤٩٦ - ٥١٩ - ٦١٣ - ٦٤٥ - ٦٥١	أزمور ٧٢٥ - ٧٩٦
٦٦٦	الأسنانة ٧٧١ - ٧٧٣ - ٧٨٩
أحراد (بش) ١٤٩	أسفى ٧٢٥
الأحساء ٦٦٧	أسيبا ١٩ - ٢٠ - ٢٣ - ٤٨ - ٤٩ - ٥١ - ١٢٢
أحواز المدينة ٦٠٣	١٣٠ - ١٦٠ - ١٦١ - ٧٤٥
أحياء ٤٢٧	أسيبا (بحار شرق) ٣٥
أذافر ٥٥٨	أسيبا الصغرى ٥١ - ٥٦٤ - ٦٣٣ - ٧٨٢
أذربيجان (جبال) ٦٣٤ - ٦٥٩	أسيبا (وسط) ١٢٢ - ١٦٠
أذرعان ١٣٤	الاسكا ٢٩
الأراك ٥٥١	أمد ٧٤٣
أرتوا (إقليم فرنسي) ١٤٧	الابرق ٦٠٣
الأردن ٧١٦ - ٨١٠	الأبطح (بطاح مكة) ٩٩ - ١٠٣
أرشكول (أرشقول) ٧٤١	أبلى (من قرى البلقاء) ٥٣١ - ٦٢٥
أرض الروم ١٢٤	الأبواء ١٥٣ - ٣٨٦ - ٤٦٥ - ٥١٣
أرض عبد مناة ٩٥ - ٩٦	أبي عنة (بش) ٥٤٢
أرمينية ١٢٢ - ١٢٣ - ٤٩٣ - ٦٣٤	أبي الوقواق (بش) ٨٣
الأرياف ٢٢٢	أثينا ٢٦١
الأزهر ٧٥٧	أجا (جبل) ٢٠٠ - ٢٠١ - ٥٠٨
إسبانيا ٧٣٨ - ٧٩٢ - ٨٠٤	أجنادين ٥١٨ - ٥٦٩ - ٥٨٥ - ٦١٨ - ٦١٩
إسبانيا (شمال) ١٤٧ - ١٨٨	٦٢٠ - ٦٢٦
إستانبول ٧٧١	أحد ١١٢ - ٣٠٧ - ٣٤٢ - ٣٥٤ - ٣٦٨ - ٣٦٩
إسترايا ٢١٩	٣٧٠ - ٣٧١ - ٣٧٢ - ٣٧٣ - ٣٧٤ - ٣٧٥
إسرائيل ٧٨٦	٣٧٦ - ٣٧٨ - ٣٨١ - ٣٨٣ - ٣٨٥ - ٣٩٣

أندلس ٨٠٤	الاسكندرية ٧٨٢
الإندير (حال) ٢٩	الاسكندرية ٢٥٩
أطاكية ٧٦٣	أسواق العرب ١٢٩ - ٢٥٥
أصم (الدار البيضاء) ٧٢٥ - ٧٩٦ - ٧٩٨	أشيلية ٧٣٠
أوراشو ٨٠٤	أصلا ٧٩٦ - ٧٩٧
أورو ٥١ - ١٩٢ - ٧١٣ - ٧٧١ - ٧٨٧ - ٧٨٨ -	أطه ٧٧٩
٧٨٩ - ٧٩٠ - ٧٩١ - ٨٠١	أعادي ٧٩٦ - ٧٩٤
أوطاس ٥٨٣ - ٥٩١	أفريقية ٢٣ - ١١٣ - ١٢٢ - ١٢٤ - ١٣٠ - ١٦١ -
أولمبيا (سهل) ٢٦١	٢١٩ - ٢٧٩ - ٤٩٣ - ٦٣٣ - ٦٩٥ - ٧١٧ -
أبيريا ٧٠٧ - ٧١١	٧٢٣ - ٧٣٦ - ٧٣٧ - ٧٣٩ - ٧٤٠ - ٧٤١ -
إيران ٦٧٥ - ٦٧٦ - ٦٨٠ - ٦٨٢ - ٦٨٣ - ٧٩٠	٧٥٢ - ٧٥٣ - ٧٥٤ - ٧٥٥ - ٧٥٧ - ٧٦١ -
إيران (شرقي) ٧٧٩	أفريقيا (شرقي) ١٦٠
إيطاليا ٧٧١	أفريقيا (شمال) ٢٥
إيلة ٧٦١	أفريقية المدارية والاستوائية ٧٣٧ - ٧٤٥ - ٨٠٠
ب	أفغول ٧٩٨
البادية ٤٦ - ٢٥٧	أفوة برطورة ٧٠٥
باروسيا ٦٥٧	ألمانيا ٧٧٢ - ٧٧٣ - ٧٧٨ - ٧٨٧ -
باخرا ٦٩٣ - ٧١٨ - ٧٢٠ - ٧٢١ - ٧٤٩	أليس ٦٥٨
بحانية ٧٤١	أمريكا الشمالية ١٩ - ٢٩
البحر الأحمر ١٨٥ - ٥٢١ - ٦٠٤	أمريكا الجنوبية ٢٩
بحر إيجة ٧٧٨	الإمارة القرطبية ٧٠٨
بحران ٤٠٩	الاماكن المقدسة ٧٨٢
بحر خوارزم (أرال) ٢٠	الامبراطورية الرومانية ٢٩٢
بحر الخزر (قزوين) ٢٠ - ٦٥٣ - ٦٧٧ - ٧٤٢ -	أصج ٧٦٤
٧٤٣ - ٧٤٤ - ٧٤٥	أم القرى ٨١ - ٣٣٢
البحر (شاطيء) ٣٨٢	الأناضول ٧٧١ - ٧٨٣ - ٧٨٩
بحر الشمال ٧٧٨ - ٧٨٦	الآبار ٢٠٧
بحر صوفة ١٦٦	استلرا ٧٧١ - ٧٧٨ - ٧٨٥ - ٧٨٦ - ٧٨٨ -
البحر المتوسط ١٨٨ - ٧٧٢ - ٧٩١ - ٨٠٨	٨٠٢
البحر الميت ٢٠ - ٥١٠	الأسدلس ٦٧٦ - ٦٨٠ - ٦٩٥ - ٧٠٤ - ٧٠٥ -
البحرين ٦٩ - ١٣٤ - ٦٥٤	٧٠٦ - ٧٠٧ - ٧٠٨ - ٧٠٩ - ٧١٠ - ٧١١ -
بحيرة مايكال ١٦ - ٢٠	٧١٢ - ٧١٣ - ٧٢٣ - ٧٢٦ - ٧٢٩ - ٧٣٠ -
	٧٣٥ - ٧٣٧ - ٧٣٨ - ٧٤٥ - ٧٥٣ - ٧٩٥ -
	٧٩٩ - ٨٠٣ - ٨٠٣ - ٨٠٤ -

بحيرة المرة ٧٥٨	ملاد جهينة ٢٠٩
بلدر ٨٨ - ١١٨ - ١٣٦ - ١٤٣ - ١٤٩ - ٢١٢	ملاد التركستان ٧٤٢
٢٤٩ - ٣٠٧ - ٣٢٢ - ٣٢٨ - ٣٤٢ - ٣٤٧	ملاد الترك ٦٨٢
٣٥٤ - ٣٦٧ - ٣٧٠ - ٣٧٢ - ٣٧٧ - ٣٧٨	ملاد تخيم ٨١ - ٢٢٧
٣٨٠ - ٣٨١ - ٣٨٣ - ٣٨٦ - ٣٨٨ - ٣٨٩	ملاد حراة ٦٨
٣٩٣ - ٤٢٦ - ٤٢٧ - ٤٤٠ - ٤٤٢ - ٤٦٤	ملاد الديلم ٦٩٤ - ٧١٧ - ٧٢١ - ٧٤٣ - ٧٤٤
٤٨٥ - ٤٨٧ - ٥٦٦ - ٥٧٣ - ٦١٣ - ٦١٨	٧٤٥ - ٧٤٦
٦١٩ - ٦٦١	ملاد الروم ١٢٢ - ١٢٤ - ٢٦٠ - ٤٥٤
بلدر الصفراء ٣٨٣ - ٣٨٨ - ٤٠٨	ملاد الرومان ١٢٢ - ١٩٤
بديع ٥٥٣	ملاد الساحل ٧٩٨
البرتغال ١٨٨ - ٧٣٨ - ٧٩٩ - ٨٠٧	ملاد المعجم ١٦٥
برقة ٥١٨	ملاد العرب ١٢١
برلين ٧٨٩	ملاد غسان ١٣٤
بروسيا ٧٧٢	ملاد غلارة ٧٢٦
بريطانيا ٧٧٢ - ٧٧٣ - ٧٧٤ - ٧٧٥ - ٧٧٨	ملاد القرس ١٩٤ - ٢٦٠
٧٨٠ - ٧٨١ - ٧٨٢ - ٧٨٤ - ٧٨٦ - ٧٨٧	ملاد قضاعة ٩٤ - ٩٦ - ٢٢٢
بصرى ١١٩ - ١٣٤ - ١٩٢ - ٤٨٤	ملاد كلب بن وبرة ٦٣
البصرة ٥٣١ - ٥٥٦ - ٦٤٢ - ٦٤٣ - ٦٦٢	ملاد لحم ٦٤
٦٦٤ - ٦٧٧ - ٦٧٨ - ٦٨٣ - ٧١٦ - ٧٣٠	ملاد ما بين النهرين ٤٩ - ٥١
٧٤٢ - ٧٧٢ - ٧٨٦ - ٧٨٣	ملاد ما وراء النهر ٦٧٦ - ٦٧٧ - ٧٤٢ - ٧٧٨
بصرة المغرب ٧٣٦	٧٩٠
بطرا ٤٦	ملاد المشرق ٦٧٧ - ٦٧٨ - ٦٨٠ - ٦٨٢ - ٦٨٥
بطن إضم (ماء بين مكة واليهامة) ٥٤١	٦٩٤ - ٦٩٥ - ٧٠٠
بطن غران ٤٤٠ - ٤٤٣	البلد الأمين ٢٤٠
بطن نخله ٧٦١	بلندج ٤٦٧ - ٤٦٨ - ٤٧٠
بطن ياجج ٥١٤ - ٥١٧	بلد وليد ٧٣٠
بُعات ٣٩٧ - ٤٠٢	بلنجر (عاصمة أرمينية) ٦٣٤
بسنجداد ٦١٤ - ٦٨٣ - ٦٩٩ - ٧٠٠ - ٧١١	بلسية ٧٣٠
٧١٥ - ٧١٦ - ٧٢٢ - ٧٣٠ - ٧٤٩ - ٧٦٢	البلقاء ٤٤٩ - ٥٣١ - ٦٠٤ - ٦٢٥
٧٧٢ - ٧٨٢ - ٧٩٠	السدفية ١٣٥
بقش (بقش) (صيعة الماس) ١٩٢	الوادي ٢٢٢
ملاد الأعراب ٨٢	الويط ٦٣٢
ملاد الأعراب (الأعاريب) ٨١	البيت الحرام ٩٥ - ٩٧ - ٩٨ - ١٠٠ - ١٠١
ملاد بني عدرة ٩٤ - ٩٥	١٠٢ - ١٠٥ - ١٠٧ - ١١١ - ١١٨ - ١٣٩

الحاية ٦٧٣

حيحول (هر) ٧٧٨

الحبل الأحمر ٢٠١ - ٢٠٠

جبل الدرور ٢٠٧

الحلية (موصع في المدينة) ٤٠٣

الحفة الشرقية ١٢٣

الحفة (قرب رايغ البحر) ٤٦٦ - ٥٥١

جدة ٧٦١ - ٧٧٤ - ٧٨٦

جرجان ٦٧٥ - ٧٤٢ - ٧٤٣ - ٧٤٤ - ٧٤٥

الجروش (أقصى غاليق اليمن) ٥٤٧

الجرف ٦١٩

الجزائر (إيالة) ٧٧١ - ٨٠٠ - ٨٠٨

الجواثو (مدينة) ٦٧٦ - ٧١٧

الجزر البريطانية ١٨٨

الجزيرة ٥٧ - ٨٣ - ٩٨ - ١٢١ - ١٢٩ - ١٣١ -

١٣٣ - ١٥٦ - ١٦٣ - ١٨٧ - ١٩٠ - ٢٠٣ -

٢٠٩ - ٢١١ - ٢١٨ - ٢٢٢ - ٢٣٢ - ٢٥٦ -

٢٦٠ - ٢٦١ - ٢٨٥ - ٣٤٩ - ٣٥٢ - ٣٥٤ -

٣٩٧ - ٤٠٠ - ٤٠١ - ٤١٠ - ٤١٧ - ٤٦٢ -

٥٠٦ - ٥٠٨ - ٥٠٩ - ٥١٦ - ٥٣٢ - ٥٤٥ -

٥٩٦ - ٦٦٥ - ٦٧٧ - ٧٧٧ - ٧٨٦ - ٨١٠ -

الجزيرة (أطراف) ١٣٤

الجزيرة (جنوبي) ١٣١

الجزيرة (شرقي) ١٣٠ - ١٣٦ - ١٨٥ - ٢٠٠ -

الجزيرة (شمال) ١٨٥ - ٢٠١ - ٣٨٩ - ٥٠٦ -

٥٠٧ - ٥٠٨ - ٧٣١ - ٧٦٥ -

الحريرة (داخل) ١٨٨

الحريرة (شمال وسط) ٤٤٩

الحريرة (شواطيء) ١٣٠ - ١٣١ -

الحريرة (موانئ) ١٣٥

الحريرة (وسط) ٦٤ - ٢٠١ -

الحريرة العراقية ٤٩٣

١٥٥ - ١٥٦ - ١٥٧ - ١٥٨ - ١٦١ - ١٧٣ -

١٧٥ - ٢٣٨ - ٣٥٠ - ٤٠٥ - ٤٠٦ - ٤٠٧ -

٤٧٩ - ٤٨٠ - ٤٨٥ - ٤٩٥ - ٥٦٠ - ٥٦١ -

٥٦٤ - ٥٨٨ - ٦٧٤ - ٦٧٥ -

بيروت ١٥٩ - ٧٤٨ - ٧٥٠ - ٧٨٢ -

بيسان ٤٨٤

ت

تادلا (اقليم) ٨٠٤

تارودانت ٧٩٨

تافلاث ٧٩٤ - ٨٠٣ - ٨٠٥ - ٨٠٦ -

تاهرت ٧٣٦ - ٧٣٩ - ٧٤٠ -

تالة ١٩٢

تبوك ٣٩ - ٤١ - ٥٩٢ - ٥٩٥ -

تدمر ١٩٩

تربة ٥١١

توكيا ٧٧٢ - ٧٧٣ - ٧٧٤ - ٧٧٥ - ٧٧٨ - ٧٨٢ -

تطوان (تطوانين) ٧٣٠ - ٧٣٥ -

تغز ٧٥١

تكرزاز (سهل) ٧٢٩

تلاغ (جبل) ٧٢٩

تل عينين ٣٦٨

تلمسان ٧٢٧ - ٧٣١ - ٧٤٠ - ٧٤١ - ٧٩٩ -

٨٠٦

تندوف (داخل الصحراء الكبرى) ٧٤١

التنميم ٤٧٠ - ٥١٤ -

تمسلة ٤٧ - ٦٤ - ٨٢ - ٨٣ - ١١٣ - ١١٥ -

١٥٠ - ٤٧٢ - ٥٢٠ - ٥٣٣ - ٧٦١ -

تمامة (حوي) ١٣٣

تمودة ٧٢٦

تونس ٧٣٠ - ٧٣٦ - ٧٧١ -

تنياء ١٩٢ - ٥٣٣ - ٦٩٦ - ٦٠٤ - ٧٦١ -

التيين (جبل) ٢٤٠

خليج فارس ١٢٢
الخليج (مواي) ١٢٢
حم (عدير) ١٤٩
الحلق ١١٣ - ٢١٠ - ٣٣٧ - ٣٤٢ - ٣٥٤ -
٣٧٣ - ٣٨١ - ٣٨٨ - ٣٨٩ - ٣٩٢ - ٣٩٣ -
٣٩٤ - ٣٩٦ - ٣٩٧ - ٣٩٨ - ٤٠٢ - ٤٠٤ -
٤٠٥ - ٤٠٦ - ٤٠٩ - ٤١٠ - ٤١١ - ٤١٢ -
٤١٣ - ٤١٤ - ٤١٥ - ٤١٦ - ٤١٧ - ٤١٨ -
٤١٩ - ٤٢٠ - ٤٢٥ - ٤٢٦ - ٤٢٧ - ٤٢٨ -
٤٣٣ - ٤٣٤ - ٤٣٧ - ٤٣٨ - ٤٤٤ - ٤٤٥ -
٤٥٧ - ٤٦٢ - ٤٦٩ - ٤٩٠ - ٥٢٩ - ٥٧٦ -
٥٧٨ - ٦١٣

الخنزعة ٥٩٤

خوارزم ٧٤٣

خسبر ٨١ - ٨٢ - ١٢٨ - ١٣٣ - ١٣٦ - ١٥٠ -
٣٨٩ - ٣٩٦ - ٣٩٩ - ٤٠٠ - ٤٠١ - ٤٠٤ -
٤١٣ - ٤٤٥ - ٤٤٧ - ٤٤٩ - ٤٥٢ - ٤٥٣ -
٤٥٦ - ٤٥٧ - ٤٥٨ - ٤٦٠ - ٤٦١ - ٤٨٩ -
٥٠٧ - ٥٠٨ - ٥٠٩ - ٥١٠ - ٥١٥ - ٥٧٨ -
٦٠٤ - ٦١٥ - ٦١٢ - ٧٦١

خبر (شمال شرق) ٨١

خبر (حول) ٨١

ح

حياته ١٣٣

الحبسة ١١٩ - ١٣٥ - ١٣٧ - ١٤٢ - ١٥٥ -
١٦١ - ١٦٣ - ١٨٥ - ١٨٧ - ٢٦٠ -
٢٧٠ - ٢٨١ - ٢٧٧ - ٢٧٨ - ٢٧٩ - ٢٨٤ -
٢٨٥ - ٢٨٧ - ٢٩٣ - ٣٠٣ - ٣١٢ - ٣١٣ -
٣٥٢
الحصار ٢١ - ٤٥ - ٤٧ - ٥٥ - ٥٦ - ٦٤ - ٦٦ -
٦٧ - ٦٨ - ٧٣ - ٧٤ - ٨٠ - ٨١ - ٨٢ -
٨٣ - ٩٠ - ٩٦ - ١١٦ - ١١٩ - ١٣٠ -

جريدة العرب ١٩ - ٢٠ - ٢١ - ٢٢ - ٢٣ - ٢٥ -
٢٦ - ٢٧ - ٢٩ - ٣٧ - ٣٨ - ٤٠ - ٤١ -
٤٢ - ٤٦ - ٤٧ - ٤٨ - ٤٩ - ٥٢ - ٥٥ -
٥٦ - ١٢٠ - ١٢٩ - ١٣٤ - ١٩٤ - ٢٠١ -
٢٦١ - ٢٦٤ - ٢٧٤ - ٣٤٩ - ٣٧٠ - ٤١٠ -
٤٥١ - ٥٠٧ - ٥٣٣ - ٥٥٥ - ٥٦٤ - ٦٠٣ -
٦٠٨ - ٧٣٠ - ٧٦٤ - ٧٦٧ - ٧٩٣

جريدة العرب (جنوب) ١٦١

الجزيرة العربية (وسط) ٤٦٠

الجزيرة (غرب) ٢٠٠ - ٢٠٣

الجسر ٤٠٣ - ٦٣٢ - ٦٥٨

جسي (شرفي العفة) ٤٤٨ - ٤٥٤

الحصانة ٥٦٦ - ٥٧٠ - ٥٧٥ - ٥٧٦ - ٥٨٢ -

٥٨٣ - ٥٨٨

جلعاد ٤٦

جمع ١١٩

الجمهورية الجزائرية ٧٣٦

الجمهورية الرومانية ٢٩٢

الحناب ٥٧٨

الجوف ٣٩١

الجوف الأندلسي (سترامادورا) ٨٠٤

جيلان ٧٤٢

جيلية (اقليم إسباني) ٧١٠

خ

خنقم (جبل) ٦٢ - ٢٢٣

خراسان ٥٨ - ٥٣١ - ٦٢٩ - ٦٤٢ - ٦٤٣ -

٦٤٩ - ٦٧٥ - ٦٧٦ - ٦٧٧ - ٦٧٨ - ٦٧٩ -

٦٨٠ - ٦٨٢ - ٧٠٣ - ٧٠٩ - ٧١٦ - ٧١٧ -

٧٢٢ - ٧٢٣ - ٧٤٢ - ٧٤٣ - ٧٩٠ -

خزار ١٨٦ - ١٨٧

الخليج ١٣٦ - ١٨٥ - ١٨٩

الخليج العربي ٦٧٦

الحرمين الشريفين ٦٧٩ - ٧٦٩ - ٧٦٧ - ٧٧٢ -

٧٧٦

الحسيمة ٨٠٨

الحرورية (سوق بمكة) ٥٥٩ - ٥٦٣

حصرموت ٤١ - ١٣٢ - ٢٥٢ - ٤٦٢

حصرموت (كنة) ٦٤

الحطمة ١٨٣

الحفر (بش) ١٤٩

حلب ٢٠٧ - ٢٦٢ - ٧٨٢

حماه ٧٨٢

حمره الأسد ٣٧٨ - ٣٧٩ - ٣٨٠ - ٣٨١ - ٣٨٢ -

٣٩٤ - ٣٩٣

الحجرة الصغرى ١٥٦

حصص ٤٨٤ - ٧٨٢

حسين ١٢٨ - ٤١٣ - ٥٤٧ - ٥٤٨ - ٥٦٦ -

٥٧٠ - ٥٧١ - ٥٧٣ - ٥٧٥ - ٥٧٦ - ٥٧٩ -

٥٨٠ - ٥٨٣ - ٥٨٤ - ٥٨٤ - ٥٨٥ - ٥٨٦ -

٥٩٠ - ٥٩١ - ٥٩٢ - ٥٩٥ - ٥٩٦ - ٦٠٩ -

٦١٣

حوران ١٩٢ - ٢٠٦ - ٢٠٧ - ٢٦٢ - ٦١٣

الحيرة ١٣٤ - ٢٠٧ - ٢٠٨ - ٢٠٩ - ٤٤٦ - ٥٠٧ -

ث

الثلمية (واحة بين الكوفة ومكة) ٤٤٨

ثنية الوداع ٣٩٧

د

دار ابن جدعان ١٦٦

دار أنوسيان ٥٥٨

دار الأرقم ١٤٣ - ٢٤٦ - ٤٦٥ - ٢٦٦ - ٢٦٨ -

٢٦٩ - ٢٧٠ - ٢٧١ - ٢٧٢ - ٢٧٥ - ٢٨٣ -

٢٨٤ - ٢٩٣ - ٣١٣ - ٣٣٩

١٣١ - ١٣٤ - ١٥٠ - ١٥٤ - ١٥٩ - ١٥٨ -

١٥٩ - ١٦٠ - ١٦٢ - ١٧٩ - ١٨٥ - ١٨٦ -

١٩٥ - ١٩٧ - ٢٠٣ - ٢٠٥ - ٢٠٩ - ٢٢٢ -

٢٥٥ - ٢٦٢ - ٢٦٤ - ٣٨٩ - ٣٩٢ - ٤٠٨ -

٤٠٩ - ٤٤٦ - ٤٥٧ - ٤٦١ - ٤٦٥ - ٤٧٠ -

٥٠٦ - ٥٠٧ - ٥٠٨ - ٥١٠ - ٥٢٠ - ٥٢٩ -

٥٣٣ - ٥٤٤ - ٥٧٨ - ٥٩٥ - ٦٠١ - ٦٠٢ -

٦٠٤ - ٦٠٥ - ٦٢٥ - ٦٣٦ - ٦٤٣ - ٦٤٤ -

٦٤٥ - ٦٤٨ - ٦٦٣ - ٦٦٤ - ٦٧٤ - ٦٧٥ -

٦٧٨ - ٦٧٩ - ٧٠١ - ٧١٥ - ٧١٧ - ٧٦١ -

٧٦٢ - ٧٦٣ - ٧٦٤ - ٧٦٦ - ٧٦٧ - ٧٦٩ -

٧٧٠ - ٧٧٢ - ٧٧٤ - ٧٧٦ - ٧٧٧ - ٧٨٣ -

٧٨٤ - ٧٩١ - ٧٩٣ - ٧٩٧ - ٨٠٥ -

الحجار (بواقي) ٦٣

الحجار (شمال) ٨٠ - ٢٠٤

الحجار (ريف) ٨٢

حجر ١٣٣

حجر السر (قلعة) ٧٣٠ - ٧٣٥ - ٧٣٦ - ٧٥٦ -

الحجون (حيث دفن قصي) ١٠٦ - ١١١ - ١٢٠ -

١٢٩ - ١٥٣ - ٥٥٨

الحديبية ١١٤ - ٣٢٨ - ٣٢٩ - ٣٨٦ - ٤١٣ -

٤٣٤ - ٤٣٧ - ٤٥٣ - ٤٥٦ - ٤٥٩ - ٤٦٠ -

٤٦١ - ٤٦٢ - ٤٦٣ - ٤٦٦ - ٤٦٧ - ٤٦٨ -

٤٧١ - ٤٧٤ - ٤٧٨ - ٤٧٩ - ٤٨٤ - ٤٩٠ -

٤٩٤ - ٤٩٦ - ٥٠٢ - ٥٠٥ - ٥٠٦ - ٥١٢ -

٥١٣ - ٥١٤ - ٥١٥ - ٥١٨ - ٥١٩ - ٥٣٠ -

٥٣٣ - ٥٣٧ - ٥٣٨ - ٥٤٠ - ٥٤٩ - ٥٥٣ -

٥٦٦ - ٥٧٤ - ٥٧٨ - ٥٨٣ - ٦٠٩ -

الحديبية ١٣٠

حراء (عراق) ٢٦٦

الحرة ٥١٧ - ٥٢٨ - ٦٢٩ - ٦٤٨ - ٦٥١ - ٦٦٦ -

الحرم ١٦٥ - ١٧٣ - ١٧٤ - ١٨١ - ٥٥٩ -

٧٦٣ - ٧٦٩

دار أم هانئ بنت أبي طالب ١٠٥	دلا ٨٠٤ - ٨٠٥ - ٨٠٦
دار سجل العرب ٦٠٧	الدلتا (شمال) ٧٥٨
دار عبد مناف ١١٨	دوس ٦٤٧
دار العيصل ٨	دهستان ٧٤٢ - ٧٤٣
دار السدوة ١٠١ - ١٠٢ - ١٠٥ - ١٠٩ - ١١٧	دولة الأدارسة ٧٢٧ - ٧٢٨ - ٧٢٩
١٥٢ - ١٥٨ - ٢٤٩ - ٣٣١ - ٣٤٦ - ٤٨٨	٧٣٣ - ٧٣٤ - ٧٣٦
دارين (على الخليج) ١٣٦	الدولة الإبريسية ٦٩٤ - ٧٢٠ - ٧٣٩ - ٧٦٤
الدامغان ٧٤٢	الدولة الأثورية ١٩٩
دبا (ميناء على بحر العرب) ١٣٢ - ١٣٥ - ١٣٦	دولة الأغاللة ٧٤٥ - ٧٥٢
دج (جبل) ٨٢	الدولة الأكادية ١٩٩
الدولة الأيوبية ٧٦٠ - ٧٦٢ - ٧٦٣ - ٧٦٦	الدولة الأموية ٤٧٤ - ٦٢٦ - ٦٤٤ - ٦٤٩
الدولة الأيورية ١٢٣	٦٧٦ - ٦٧٧ - ٦٧٩ - ٦٨٠ - ٦٨٢ - ٦٨٣
الدولة البيزنطية ١٢٢ - ١٢٣ - ١٢٥ - ٧٩١	٦٩٧ - ٧٠٢ - ٧٣٦
دولة حبر ١٦٠	الدولة الأصرية الأندلسية ٧٠٢ - ٧٠٧ - ٧٠٩
دولة الروم ١٢١ - ١٢٣ - ١٢٤ - ١٢٨ - ١٦١	٧٢٣ - ٧٢٧ - ٧٣٨
٦٣٣	الدولة الطاهرية ٧٤٢ - ٧٤٣
دولة الرومان ١٢١ - ٢٩٢ - ٦٨٤ - ٧٦٤	الدولة العمرانية ١٩٩
دولة سبأ ١٦٠	الدولة العثمانية ٧٦٣ - ٧٦٧ - ٧٧١ - ٧٧٢
الدولة السعدية ٧٥٤ - ٧٩٩ - ٨٠١ - ٨٠٦	٧٧٣ - ٧٧٦ - ٧٧٧ - ٧٧٩ - ٧٨٦
الدولة السفينانية ٣٤١	الدولة العلوية الشريفة ٨٠٣ - ٨٠٦ - ٨٠٧
الدولة الزيدية ٧٤٦ - ٧٤٧	٨٠٩
الدولة السمرقانية ١٩٩	الدولة لفاطمية ٧١٧ - ٧١٨ - ٧٣٦ - ٧٥٢
دولة الشرفاء العلويين ٨٠٣	٧٥٣ - ٧٥٤ - ٧٦٠ - ٧٦١ - ٧٦٣
الدولة الشيعية ٧٥٤	دولة الفرس ١٢٢ - ١٢٣
الدولة العباسية ٤٧٤ - ٤٩١ - ٦٧٩ - ٦٨٠	دولة الكندراء في ريد ٧٥١
٦٨٣ - ٦٨٧ - ٦٩٧ - ٦٩٩ - ٧٠٢ - ٧١٦	الدولة اللاتينية ١٩٩
٧١٧ - ٧٢٢ - ٧٢٣ - ٧٣٣ - ٧٣٦ - ٧٣٩	الدولة المالكية ٧٠٧
٧٦١ - ٧٩٠ - ٧٩١	دولة المرابطون الصنهاجية ٦٣٠ - ٧٩٤
درعة (نهر) ٧٩٣	الدولة المروانية ٣٤١ - ٧٠٧
درعة (وادي) ٧٩٤ - ٧٩٥	الدولة المملوكية ٢١٩
دري (جنال) ٧٣٨	دولة الموحدين المصمودية ٦٣٠ - ٧٩٤ - ٧٩٧
دكالة (إقليم) ٧٩٧	دولة المادرة ١٣٤
دمشق ٦٠٧ - ٦٢٦ - ٧٧٩ - ٧٨٠ - ٧٨٢	دولة هرقل بن هرقل ١٢٣
٧٨٣ - ٧٨٥ - ٧٨٦ - ٧٩٠	الدولة الرطاسية ٧٩٩

دوميه احسدل ٣٩ - ٤١ - ٦٣ - ١٣١ - ١٣٢ -
١٣٤ - ١٣٦ - ٣٩١ - ٤٤٩ - ٤٥١ - ٤٧٢

ذ

دات الحطل ٤٧٠

دات الوقاع ٣٨٩ - ٣٩١

ذات عرق ٤٤٦

ذات أمد ٤٠٩

ذي الحدر ٤٦٧

ذي الحليفة ٤٦٧ - ٥٧٣ - ٧٦٤

ذي حُنب ٩٤

ذي طوى ٥٥٨

في قار ٢٦٠ - ٦٦٣ - ٦٦٤

في فرد ٤٤٨

في القصص ٦٠٣

في احجاز ١٦٣ - ١٨٩ - ٢٥٦ - ٤٤٦ - ٥٧٣

ر

رايح ٧٣٠

رايغ ٤٧٧

رباط الفتح ٨٠٣ - ٨٠٤

الريزة ٤٣٩ - ٦٠٣

الريص (الصاحبة الجنوبية لقروطة) ٧٣٥

الربع الحالي ١٨

الرجيع ٣٨٧ - ٣٨٨ - ٣٨٩ - ٤٤٠ - ٤٤٣

الرشحة ٦٠٣

ردعان (اليمن) ١٤٦

رُدنية ١٣٦

الرس (قرية بين مكة والكوفة) ٧٤٩

رصح ٧٧٩

الركن ١٦٥

الرمالة ٧٦٥

الروحاء ٣٧٧ - ٤٦٤

روسيا ٧٧١ - ٧٧٨ - ٧٨٦ - ٧٨٧ - ٧٨٨

روما ٧٨٢

رومة (ش) ٤١٨

الرياص ٨ - ٧٤٩

الري (طهران حالياً) ٨ - ٧٤٩

الريف (جبال في المغرب) ٧٢٣ - ٧٣٥ - ٧٧٣

الريف (منطقة) ٧٢٥ - ٧٢٦ - ٨٠٧

ز

الزباب ٧٣٦

زيد (قرية) ٢٦٢

زبيد ٧٥١

زدهون (جبل) ٧٢٩

زغابة ٤١١ - ٤١٨

زمرم (بش) ١٤١ - ١٤٤ - ١٤٦ - ١٤٨ - ١٤٩ -

١٥٤ - ٥٦٠

زمرم (موقع) ١٠١ - ١١٩

الزيتون (جبل) ٢٤٠

س

سالم (مدينة) ٧٣٠

سان ريمون ٧٨٦

سان سيجيل ٨٠٣

سنة ٧٢٣ - ٧٣٢ - ٧٣٥ - ٧٩٦ - ٨٠٨

سنو (هر) ٧٢٦ - ٧٢٩ - ٨٠٣ - ٨٠٤ - ٨٠٥

سحستان ٦٧٥ - ٦٧٦ - ٧٤٢ - ٧٤٣

سحنة (ش) ١٤٩

سحلياسة ٧٥٣ - ٧٩٤ - ٨٠٣ - ٨٠٥ - ٨٠٦

السرد (بلاد) ٢٠٠

١٢٠ - ١١٩ - ٩٨ - ٨٠ - ٦٣ - ٥٦ - ٥٥
 ١٣٧ - ١٢٨ - ١٢٤ - ١٢٣ - ١٢٢ - ١٢١
 ١٨٧ - ١٦٣ - ١٦١ - ١٦٠ - ١٥٥ - ١٤٢
 ٣٤٤ - ٣٤٢ - ٢٨٠ - ٢٢٥ - ٢٠٧ - ٢٠١
 ٤٤٧ - ٤١٨ - ٤٠٨ - ٣٩٢ - ٣٩١ - ٣٤٥
 ٥٦٤ - ٥٣٠ - ٥٢٧ - ٤٨٤ - ٤٧٠ - ٤٦٣
 ٥٦٧ - ٥٦٩ - ٦٠٠ - ٦٠٧ - ٦٠٩ - ٦١٠
 ٦١٣ - ٦١٤ - ٦١٦ - ٦١٩ - ٦٢٥ - ٦٢٦
 ٦٢٧ - ٦٢٢ - ٦٤٣ - ٦٤٧ - ٦٦١ - ٦٦٥
 ٦٧٥ - ٦٧٦ - ٦٨٢ - ٧١٠ - ٧٥٢ - ٧٥٣
 ٧٥٧ - ٧٥٨ - ٧٥٩ - ٧٦٠ - ٧٦٢ - ٧٧١
 ٧٧٩ - ٧٨٦

الشام (أرياف) ٢٢١

الشام (بادية) ٤١ - ٤٢ - ٤٧ - ٦٣ - ٦٤٣

الشام (جنوب) ٦٧ - ٨٢ - ٩٠ - ٩٦ - ١٩٢ - ٦٠٤

الشام (صحاري) ٢٢٢

شبه الجزيرة ١٣٧ - ١٨٥ - ١٨٦ - ١٩٨ - ٢٠٠ - ٣٩٨
 ٤٢٢ - ٤٣٨ - ٤٤٦ - ٤٥٢ - ٤٥٣ - ٤٥٦
 ٤٥٧ - ٤٦٢ - ٥٢٠ - ٥٨٤ - ٥٩٧ - ٦٣٠ - ٦٥٦

شبه الجزيرة (شمال) ٢٠٩ - ٣٩٣

شجرة الرضوان ٤٨٧

الشجر (ميناء في حضرموت) ١٣٢ - ١٣٦

شحيرة ٦٠٣

شرق الأردن ٧٨٠ - ٧٨٥ - ٧٨٦ - ٧٨٧

الشرق الأوسط ٧٧٤ - ٧٧٨

الشرق الأوسط والأدن ١٩٢

شلف (مين) ٦٧٦ - ٧١٧ - ٧٣١ - ٧٣٦

شلف (وادي) ٧٢٣

شمطة ١٩٠

شمر (جبل) ١٣٠ - ٢٠١ - ٦٠٣ - ٦٠٤

الشعبة ١٣٠ - ٥٦٩

شباشرة ٧٩٦

السراة (جبال) ٥٦ - ٦٤ - ٨١ - ١٠٢ - ٤٠٨

٥٠٦ - ٥٣٠ - ٦٧٨

سرف (وادي) ٥١٧ - ٥٤٧

سرقطة ٧٣٠

سقري (جريرة) ١٦١

سقية (نهر) ١٤٩

سقيمة بني ساعدة ٢٢٨ - ٤٧١ - ٥٢٣ - ٥٩٧

٥٩٨ - ٥٩٩ - ٦٠٢ - ٦٠٦ - ٦٠٩ - ٦١٠

٦١٢ - ٦١٣ - ٦١٧ - ٦٢٠ - ٦٢٥ - ٦٢٦

٦٣١ - ٦٥٢ - ٦٨٧ - ٦٨٨ - ٦٨٩

سلا ٧٢٥ - ٨٠٧

سلمى (جبل) ٢٠٠ - ٢٠١ - ٥٠٨

سلمان (موصع) ١٢٠ - ١٢٩

سلم (جبل) ٢١٠ - ٢٦٢ - ٤١٢ - ٤١٩

السنح ٦٠١ - ٧٣٠

السواحل المغربية الأطلسية ٧٩٤ - ٧٩٦ - ٨٠٧

السودان ٧٤٥ - ٧٧٥ - ٧٨٤ - ٨٠١

السودان السيلي ٧٠٢ - ٧٠٩

سوريا ٧٧٦ - ٧٧٩ - ٧٨٠ - ٧٨٢ - ٧٨٣

٧٨٧ - ٧٨٩

السوس (بلاد) ٧٩٣ - ٧٩٤ - ٧٩٥ - ٧٩٧

٧٩٨ - ٨٠٣ - ٨٠٦

السوس الأقصى ٧٣١ - ٧٣٢

سويسرا ٧٨٨

السويس (قناة) ٧٨٤

سيحون (نهر) ٧٤٣

سبنا ١٨ - ٤٩ - ٨٠ - ٢٠٦ - ٢٦٢

سبنا (طور) ٢٤٠

ش

الشاطي - الأطلسي ٨٠٨

الشام ١٨ - ٢٥ - ٢٧ - ٢٨ - ٣٧ - ٣٩ - ٤٠

٤١ - ٤٧ - ٤٨ - ٤٩ - ٥١ - ٥٢ - ٥٣

ص

٣٤٧ - ٣٤٦ - ٣٤٥ - ٣٣٧ - ٣٣٦ - ٣٣٤

٥٧٠ - ٥١١ - ٥٠٧ - ٤٨٩ - ٤٣٤ - ٣٤٨

٧٦١ - ٦١٨ - ٥٨٣ - ٥٧٥

طارق (حل) ٨٠٧ - ٨٠٦

طبرستان ٦٥٣ - ٦٧٥ - ٦٧٧ - ٦٨٣ - ٦٩٤

٧٥٣ - ٧٤٥ - ٧٤٤ - ٧٤٣ - ٧٤٢ - ٧١٧

طرية ٦٤٦ - ٦٦٨

طخارستان ٦٥٦ - ٦٧٧

طرابلس ٧٣٦ - ٧٧١

الطرف (ماء شمالي المدينة) ٤٤٨

الطريق الزهيدة ٦٧٩

طنجة ٧٠٥ - ٧٢٣ - ٧٢٦ - ٧٣٢ - ٧٣٥

٧٩٦ - ٧٩٧ - ٨٠٨

طهران ٦٥٣ - ٧٤٢

الطوي (بئر) ١٤٩

طيء (جبل) ١٣٠ - ٢٠٠ - ٢٠١ - ٥٨٩ - ٥٩٤

طيبة ٦٠٣

طشقون (المدائن) ٢٥٩

ظ

الظهران ٧٩ - ٨٢

ع

العالم الجديد ١٨٨

المجوز (لبن) ٧٩٦

عند ١٣٠ - ١٣٢ - ١٣٥ - ١٣٦ - ٧٥١

عدوة الأندلسيين ٧٣٤ - ٧٣٥

عدوة القرويين ٧٢٩ - ٧٣٤ - ٧٣٥

العرائش ٧٩٦ - ٨٠٣

المراق ١٨ - ٢٢ - ٢٥ - ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ - ٣٠

٣٧ - ٤٠ - ٤١ - ٤٣ - ٤٨ - ٥٦ - ١٢٠

١٢٢ - ١٢٩ - ١٣٨ - ١٨٧ - ١٨٨ - ٢٢١

صحار ١٣٠ - ١٣٢ - ١٣٥ - ١٣٦

الصحاري ١٢٥ - ١٢٧ - ١٢٨ - ١٤٧ - ١٩٨

الصحراء ٣٥ - ٣٧ - ٤٧ - ١٢٦ - ١٢٧ - ١٢٨

٢٠٠ - ٢٢١ - ٢٢٢ - ٢٥٧ - ٤١٧ - ٥٠٦

٧٨٤ - ٧٣٧ - ٧٣٢

صحراء الأيرونا ٢٩

صحراء جوبي ٢٢

صحراء العرب ٧٧٦

الصحراء الكبرى ٧٤١

صحراء مصر الشرقية ١٨

صحراء منغوليا ٥١

صحلة ٧٤٩ - ٧٥٠ - ٧٥١

الصف ٢٦٨ - ٢٦٩ - ٢٧٥ - ٢٧٧ - ٥١٥

الصفاء والمروة ١٠١ - ٢٦٨

صفين ٥٣٠ - ٦١٣ - ٦٦٩

الصلصل ٥٤٦

الصيان ١٨

صنعاء ١٣٣ - ١٦٠ - ٧٥٠ - ٧٥١

صنى (مملكة مدارية) ٨٠٠ - ٨٠١

الصبي ٢٢ - ٢٩ - ١٢١ - ١٢٤ - ١٣٥ - ١٦٠

٢٤٩ - ٧٠٠ - ٧١٣ - ٧٥٠

ض

ضاحية قضاة ٦٢

الضواحي ٢٢٢

ط

الطائف ٨٢ - ١٢٤ - ١٣٣ - ١٣٦ - ١٥٥

١٩٢ - ٢٣١ - ٢٤٨ - ٢٥٨ - ٢٧٢ - ٢٨٣

٢٩٣ - ٢٩٧ - ٣٠٨ - ٣٢٤ - ٣٣١ - ٣٣٣

المغرب ١٢٣ - ١٦٣
 المغرب الأوروبي ١٤٠ - ٧١٣ - ٧١٤ - ٨٠٢ -
 ٨٠٣
 عرطاه ٧٢٨ - ٧٩٤ - ٧٩٥
 عزة ١٢٠ - ١٢٤ - ١٣٤ - ١٣٦ - ١٩٢
 عمرتي كندة ٤٤٦ - ٤٤٧

ف

فارس ٢٩ - ١٢٢ - ١٣٤ - ١٣٥ - ١٣٨ - ٢٦٠ -
 ٣٩٧ - ٦٢٥ - ٦٥٦ - ٦٧٧
 فارس (مدينة) ٧٢٩ - ٧٣٠ - ٧٣١ - ٧٣٢ -
 ٧٣٣ - ٧٣٤ - ٧٥٦ - ٧٩٧ - ٧٩٨ - ٨٠٢ -
 ٨٠٣ - ٨٠٤ - ٨١٥ - ٨١٦ - ٨١٩

الفتح ٤١٣

فحل ٤٨٤

فخ (وادي) ٧٢٠ - ٧٢١ - ٧٢٣ - ٧٣٩
 فذلك ٨١ - ٨٢ - ١٢٨ - ٣٩٦ - ٤٥٢ - ٤٥٣ -
 ٤٧٢ - ٥١٠ - ٥١١ - ٥١٢ - ٥٣٣ - ٦٠٤

٧٦١

الفرات ٢٠٧

فرساي ٨٠٩

فرنسا ١٨٨ - ٧١٤ - ٧٧١ - ٧٧٢ - ٧٧٨ -
 ٧٨٢ - ٧٨٦ - ٧٨٧ - ٨٠٢ - ٨٠٧ - ٨١٩

٨١٠

فرنسا (جنوب) ١٤٧ - ٢٩٩

الفرع ٧٦١

فرزان ٧٧١

الفسطاط ٦٨٣ - ٧٣٠ - ٧٥٦

فلسطين ٥٣٢ - ٧٥٩ - ٧٦٥ - ٧٧٥ - ٧٨٠ -

٧٨٢ - ٧٨٣ - ٧٨٦ - ٧٨٧ - ٧٨٨ - ٧٨٩

فلسطين (جنوب) ٢٠٦ - ٢٦٩

الغياي ٢٨٦

٢٢٢ - ٢٨٠ - ٣٤٢ - ٤٠٨ - ٤٤٨ - ٤٥٥ -
 ٥٠٧ - ٦١٠ - ٦٢٦ - ٦٣٢ - ٦٣٦ - ٦٤٣ -
 ٦٥٧ - ٦٦١ - ٦٧٥ - ٦٧٦ - ٦٧٧ - ٦٧٩ -
 ٦٨٠ - ٦٨٢ - ٧٠٠ - ٧٠٣ - ٧١٥ - ٧١٦ -
 ٧١٧ - ٧٣٨ - ٧٤٢ - ٧٧١ - ٧٧٢ - ٧٧٩ -
 ٧٨٣ - ٧٨٥ - ٧٨٧ - ٧٨٩

المراقين ٦٢٩

المرج والطلوب ٥٤٥

مصرات ١٥٠ - ١٥١ - ١٧١ - ٣٢٥ - ٣٢٩ -
 ٣٣٥ - ٣٤٠ - ٣٥٢ - ٣٥٥ - ٤٨٧

مُرفة ١١٩ - ١٣٣ - ١٤٦ - ١٧١ - ١٧٢ - ١٧٣ -
 ١٧٨ - ١٨٠ - ٥٣٩ - ٤٩٦

صفان ٤٣٩ - ٤٤٣ - ٤٥٨ - ٤٥٩ - ٤٦٠ -
 ٤٦٩ - ٥٣١ - ٧٦١

عبر ٢٠١ - ٦٩٤ - ٧٦١ - ٧٧٧

العقبة ١٦١ - ١٧١ - ١٧٢ - ١٧٣ - ١٧٨ -
 ١٨٠ - ٤٣٩ - ٧٧٩

العقيق ٣٧٨ - ٣٩٨ - ٤٠٥ - ٤١١ - ٤١٧ - ٤١٨ -
 عكا ٧٥٩

عكاظ ١٣٣ - ١٦٣ - ١٨٩ - ١٩٠ - ١٩٦ -
 ٢٠٣ - ٢٥١ - ٢٥٦ - ٢٦٠ - ٢٦١ - ٤٤٦ -

٤٧٦ - ٥٠٠ - ٥٠١

عكاز ٩٠ - ٢٠٠ - ٢٠١ - ٢٢٥ - ٤٦٢ - ٥٣٠

عُتان ٢٢٥

العلا ١٩٩

هذاب ١٣٥

العيص (على ساحل البحر الميت) ٤٤٧ - ٥٠٣ -
 ٥٠٥

غ

الغاة ٤١١ - ٤١٧ - ٤٤٤ - ٤٤٥ - ٤٤٦ -

غاة ٧٤٥

عدير الانشاط ٤٦٨ - ٥٣٤

كرسلا - ٦٤٨ - ٦٥٠ - ٦٥٣ - ٦٦١ - ٧١٥ -

٧٢١ - ٧١٨

كرمان - ٦٧٥ - ٦٧٦ -

الكمة - ٥٤ - ٨٠ - ٩٦ - ٩٧ - ٩٨ - ١٠٠ -

١٠٧ - ١٠٨ - ١١٤ - ١٢٠ - ١٢١ - ١٤٨ -

١٤٩ - ١٥٠ - ١٥١ - ١٥٢ - ١٥٤ - ١٥٥ -

١٥٦ - ١٥٧ - ١٥٨ - ١٦٠ - ١٦١ - ١٦٢ -

١٧١ - ١٧٨ - ١٨١ - ١٩٣ - ١٩٦ - ٢٣٠ -

٢٤١ - ٢٤٥ - ٢٥٢ - ٢٦٠ - ٢٦٩ -

٢٧٢ - ٢٨٣ - ٢٩٣ - ٢٩٧ - ٣١٣ - ٣١٤ -

٣٣٠ - ٣٣١ - ٣٥٠ - ٤٠٦ - ٤٠٧ - ٤٤٦ -

٤٩٥ - ٥٠٤ - ٥١٥ - ٥١٩ - ٥٦٠ - ٥٦١ -

٥٦٢ - ٥٦٣ - ٥٦٤ - ٥٧٤ - ٥٧٥ - ٦٠٢ -

٦٣١ - ٦٤٢ - ٦٥١ - ٦٦٥ - ٧٧٥ -

كندا ٢٠

كبة هند (في الخيرة) ٢٠٧

الكوفة - ٤٤٨ - ٤٥٢ - ٦٠٨ - ٦٦١ - ٦٦٢ -

٦٦٣ - ٦٦٤ - ٦٦٥ - ٦٧٧ - ٦٨٣ - ٦٨٧ -

٧٣٠ - ٧٤٢ - ٧٤٧ - ٧٤٨ - ٧٤٩ -

الكويت - ٧٧٥ - ٧٧٧ -

ل

لبنان - ٧٧٦ - ٧٧٩ - ٧٨٠ - ٧٨٣ - ٧٨٧ -

لبنان (جبل) ٧٨٢

لندن ٧٩٠

لورد (قرية في جنوب فرنسا) ٢٩٩

لوكونس (س) ٨٠٠

ليبيا - ٧٣٦ - ٧٣٧ - ٧٧١ -

الليط (مأوى بمكة) ٥٥٨ - ٥٦٣ - ٥٩٤ -

م

مؤنه - ٦٠ - ٥٢١ - ٦٢٢ -

ن

الناصرة - ٩ - ٨٣ - ٩٨ - ٢٠٨ - ٢١٠ - ٢٦٢ -

٢٦٧ - ٣٠٣ - ٦٠٧ - ٧١١ - ٧٣٠ - ٧٦٠ -

٧٧٣ - ٧٨٠ - ٧٨١ - ٧٨٣ -

ناب - ٦٦٧ - ٧٣٠ -

نابرس ٧٨٩

النابرس ٧٦٦

نابيد - ٧٧٧ - ٧٨٢ -

نابوية - ٧٠٨ - ٧١١ - ٧٣٠ - ٧٣٥ -

نابرة الكدر - ٤٠٨ - ٤٠٩ - ٤٢٨ -

النابرس ٦٥٨

ناب (نابال) ٤٤٦

النابرس ٦٣

نابرس ٧٤٣

النابرس ٧٧٥

النابرس الكبير - ٧٩٦ - ٨٠٠ -

النابرس الصغير ٧٩٦

نابرس ٧٩٦

نابرس الشمالي والجنوبي ١٩

نابرس المغربي - ٧٩٩ - ٨٠٩ -

نابرس ٧٦٧

نابرس (كبة نجران) ١٥٤

نابرس - ٢٠٧ - ٢٦٢ -

نابرس - ٧٣٠ - ٧٣١ - ٧٤٠ - ٧٥٢ - ٧٥٥ -

ن

نابلس ٧٢١

نابلس ٤٦٨

نابلس ٤٥٨

نابلس - ٤٤٣ - ٤٥٨ - ٤٦٢ - ٤٦٦ - ٤٦٧ -

٤٦٨ - ٤٧٠ - ٥٣٧ -

٥٥٣-٥٥٢-٥٤٨-٥٤٦-٥٤٤-٥٤٣
 ٥٧٢-٥٧١-٥٧٠-٥٦٨-٥٦٧-٥٦٢
 ٥٩٦-٥٩١-٥٩٠-٥٨٤-٥٧٩-٥٧٥
 ٦٠٦-٦٠٥-٦٠٤-٦٠٣-٦٠١-٥٩٧
 ٦٣١-٦١٩-٦١٨-٦١٤-٦١٣-٦١١
 ٦٤٦-٦٤٥-٦٤٤-٦٤٢-٦٤٠-٦٣٥
 ٦٥٨-٦٥٤-٦٥٤-٦٥١-٦٤٨-٦٤٧
 ٦٦٦-٦٦٥-٦٦٤-٦٦٣-٦٦٢-٦٦١
 ٧١٧-٧٠٣-٦٩٣-٦٨٦-٦٨٠-٦٦٧
 ٧١٣-٧١٢-٧١١-٧٣٠-٧٢١-٧١٨
 ٧٧٧-٧٧٤-٧٦٩-٧٦٦-٧٦٥

المدينة (جنوبي) ٦٠٤

المدينة (سهل) ٨١-٣٩٢-٤٠١-٤١٢-٤١٤-٤١٨

المدينة (سوق) ٤١٣

المدينة (شمال) ٣٦٨

المدينة (ظاهر) ٣٦٨

المراص (بين المدينة ونجد) ٤٢٤

مرج راحط ٣٩-٤٣-٦٧٥-٦٨٦

مرج الصقر ٦١٩-٦٢٦

مراكش ٧٩٤-٧٩٥-٧٩٦-٧٩٨-٧٩٩

٨٠١-٨٠٢-٨٠٣-٨٠٥-٨٠٦-٨٠٧

٨١٣

مرسية ٧٣٠

مرسين ٧٧٩-٧٨٢

مر الظهران ٥١٤-٥٥١-٥٥٢-٧٦١

مرو ٥٣١

المروة ٧٣٠

المريشع ٦٠-٣٨٧-٣٩١-٣٩٢-٣٩٩

٤١٣-٤٦٤

مزدلفة ١٥١-١٧٢-١٧٣-١٧٨-١٨٠

١٩٧-٢٤١

الرمة (الحبيصة) ٨٠٧

المسجد الأقصى ٣٣٤

ماراغان ٧٩٦-٨٠٨

المؤفون ٢٩٨

ماسة (نصر) ٧٩٦-٨٠٣

ماكاروبا (مرصع في مكة) ٩٧

محنة ١٣٣-١٦٣-٢٥٦-٣٨٤-٤٤٦

المحض ١٥١

المحيط الأطلسي ٧٠٠-٧٢٥-٧٣٢-٧٣٧

٧٣٨

المحيط الهادي ٣٦

مدائن صالح ٢٠٩-٢٠٩

مدغشقر ٨١٠

مدین ٧٦١

المدينة ٥٣-٦٠-٧٦-٨٠-١٠٢-١٥٣

١٩٦-٢٠٩-٢١٠-٢١٢-٢١٣-٢٢٦

٢٢٧-٢٣٢-٢٦٥-٢٧٠-٢٧٢-٢٤٢

٢٤٩-٢٥٢-٢٥٣-٢٥٤-٢٥٥-٢٥٦

٢٥٧-٢٦٧-٢٦٨-٢٦٩-٢٧٠-٢٧٢

٢٧٦-٢٧٧-٢٧٨-٢٧٩-٢٨١-٢٨٢

٢٨٣-٢٨٤-٢٨٥-٢٨٦-٢٨٩-٢٩٠

٢٩١-٢٩٢-٢٩٣-٢٩٤-٢٩٥-٢٩٧

٢٩٨-٢٩٩-٣٠٠-٣٠١-٣٠٢-٣٠٣

٣٠٤-٣٠٥-٣٠٦-٣٠٩-٣١٠-٣١١

٣١٢-٣١٣-٣١٤-٣١٥-٣١٧-٣١٨

٣١٩-٣٢١-٣٢٢-٣٢٣-٣٢٤-٣٢٥

٣٢٧-٣٢٨-٣٢٩-٣٣٣-٣٣٧-٣٣٩

٣٤٣-٣٤٤-٣٤٥-٣٤٦-٣٤٧-٣٤٨

٣٥٣-٣٥٤-٣٥٥-٣٥٧-٣٦٠-٣٦١

٣٦٢-٣٦٣-٣٦٤-٣٦٥-٣٦٧-٣٧٢

٣٧٣-٣٧٨-٣٨٠-٣٨٦-٣٨٧-٣٩٠

٣٩١-٣٩٩-٣٠٢-٣٠٣-٣٠٥-٣٠٦

٣٠٧-٣٠٨-٣٠٩-٣١٠-٣١٢-٣١٣

٣١٧-٣١٩-٣٢٠-٣٢١-٣٢٣-٣٢٦

٣٢٨-٣٣٨-٣٣٩-٣٤٠-٣٤١-٣٤٢

المشرق ٤٧ - ٥٣ - ٧٠٣ - ٧٠٤ - ٧٠٩ - ٧٢٥ - ٧٣٠ - ٧٣٨ - ٧٤٢

المشقر (عمل ساحل الخليج) ١٣٠ - ١٣٢

المشقل ٥٥٠ - ٦٤٨

مصر ١٣٥ - ١٥٥ - ٢١٢ - ٢١٨ - ٢٩٣ - ٥١٨

٥٦٤ - ٦٢٧ - ٦٢٩ - ٦٦٩ - ٦٩٤ - ٧٠٣

٧١٩ - ٧٣٧ - ٧٣٨ - ٧٤١ - ٧٥٦ - ٧٥٧

٧٥٨ - ٧٥٩ - ٧٦٠ - ٧٦١ - ٧٦٢ - ٧٦٣

٧٦٤ - ٧٧٢ - ٧٧٥ - ٧٧٦ - ٧٧٨ - ٧٨١

٧٨٦

مصر (صعيد) ٧٠٩

المصل ٤٠٣

المصالح التركية ٧٧٨

مضيق بئرغ ٢٩

معادن بني سليم ٨١ - ٥٢٩ - ٥٧٧

معادن ٤٠٨

المصورة (دي أولترامار) ٨٠٣

معمونة (بشر) ٣٨٤ - ٣٦٧ - ٣٨٩ - ٤٤٣ - ٥٣٠

المغرب ٢٦ - ٢٧ - ٤٩٣ - ٦٢٩ - ٦٧٦ - ٦٨٠

٧٠٤ - ٧٠٥ - ٧٢٣ - ٧٢٥ - ٧٢٨ - ٧٣٠

٧٣١ - ٧٣٣ - ٧٣٤ - ٧٣٥ - ٧٣٦ - ٧٣٧

٧٣٨ - ٧٣٩ - ٧٤١ - ٧٤٦ - ٧٥٣ - ٧٥٤

٧٥٥ - ٧٥٧ - ٧٦٠ - ٧٦٥ - ٧٩١ - ٧٩٢

٧٩٣ - ٧٩٤ - ٧٩٥ - ٧٩٦ - ٧٩٩ - ٨٠٠

٨٠١ - ٨٠٢ - ٨٠٣ - ٨٠٧ - ٨٠٨ - ٨١٠

المغرب الاسلامي ٣٤٥ - ٥٩٠

المغرب الأقصى ٦٩٤ - ٧١٤ - ٧١٦ - ٧١٧

٧٢٠ - ٧٢٣ - ٧٢٦ - ٧٣٧ - ٧٣٩ - ٧٤٢

٧٤٥ - ٧٥٣ - ٧٥٦ - ٧٦٤ - ٧٧٢ - ٧٧٤

٧٩٢ - ٧٩٣ - ٧٩٤ - ٧٩٦ - ٧٩٨ - ٧٩٩

٨٠١ - ٨٠٢ - ٨٠٥ - ٨٠٧ - ٨٠٩ - ٨١٠

المغرب الأوسط ٦٩٤ - ٧٠٥ - ٧١٤ - ٧١٧

٧٢١ - ٧٢٦ - ٧٣١ - ٧٣٢ - ٧٣٣ - ٧٣٦

للعنصر ١٥٥

مسكة ٤٥ - ٥٠ - ٦٠ - ٦٧ - ٧٣ - ٧٥ - ٧٦

٧٧ - ٧٨ - ٧٩ - ٨٠ - ٨١ - ٨٢ - ٨٨

٩٠ - ٩١ - ٩٣ - ٩٥ - ٩٦ - ٩٧

٩٨ - ٩٩ - ١٠٠ - ١٠١ - ١٠٢ - ١٠٣

١٠٤ - ١٠٥ - ١٠٦ - ١٠٧ - ١٠٨ - ١٠٩

١١٠ - ١١١ - ١١٢ - ١١٣ - ١١٤ - ١١٥

١١٦ - ١١٧ - ١١٨ - ١١٩ - ١٢٠ - ١٢١

١٢٢ - ١٢٤ - ١٢٨ - ١٢٩ - ١٣٠ - ١٣٣

١٣٦ - ١٣٧ - ١٣٩ - ١٤٠ - ١٤١ - ١٤٢

١٤٦ - ١٤٧ - ١٤٨ - ١٤٩ - ١٥٠ - ١٥١

١٥٢ - ١٥٣ - ١٥٥ - ١٥٦ - ١٥٧ - ١٥٨

١٥٩ - ١٦١ - ١٦٢ - ١٦٣ - ١٦٤ - ١٦٥

١٦٦ - ١٦٧ - ١٧٠ - ١٧٣ - ١٧٧ - ١٧٨

١٧٩ - ١٨٨ - ١٩١ - ١٩٢ - ١٩٦ - ٢٠٨

٢١٠ - ٢١١ - ٢١٢ - ٢١٣ - ٢٢٢ - ٢٢٣

٢٥٧ - ٢٥٩ - ٢٦١ - ٢٦٥ - ٢٦٦ - ٢٦٧

٢٧١ - ٢٧٢ - ٢٧٦ - ٢٧٨ - ٢٧٩ - ٢٨١

٢٨٤ - ٢٨٦ - ٢٩٠ - ٢٩٧ - ٣٠٢ - ٣٠٣

٣٠٤ - ٣٠٦ - ٣٠٨ - ٣١٤ - ٣١٥ - ٣٢٢

٣٢٣ - ٣٢٤ - ٣٢٥ - ٣٢٦ - ٣٢٨ - ٣٢٩

٣٣١ - ٣٣٣ - ٣٣٥ - ٣٣٦ - ٣٣٩ - ٣٤٠

٣٤٥ - ٣٤٩ - ٣٥١ - ٣٥٢ - ٣٥٣ - ٣٥٤

٣٥٦ - ٣٦٧ - ٣٧٨ - ٣٧٩ - ٣٨٠ - ٣٨١

٣٨٢ - ٣٨٣ - ٣٨٤ - ٣٨٦ - ٣٨٨ - ٣٩١

٣٩٢ - ٣٩٤ - ٣٩٩ - ٤٠١ - ٤٠٤ - ٤٠٨

٤٠٩ - ٤١٩ - ٤٢٤ - ٤٢٥ - ٤٣٤ - ٤٣٩

٤٤٠ - ٤٤١ - ٤٤٣ - ٤٤٦ - ٤٤٧ - ٤٤٩

٤٥٠ - ٤٥١ - ٤٥٢ - ٤٥٤ - ٤٥٦ - ٤٥٧

٤٥٨ - ٤٥٩ - ٤٦٠ - ٤٦١ - ٤٦٢ - ٤٦٣

٤٦٤ - ٤٦٥ - ٤٦٦ - ٤٦٧ - ٤٦٨ - ٤٦٩

٤٦٩ - ٤٧٠ - ٤٧١ - ٤٧٢ - ٤٧٣ - ٤٧٤

٤٧٥ - ٤٧٦ - ٤٧٧ - ٤٧٨ - ٤٧٩ - ٤٨٠

مكران ٦٧٥	٤٧٥ - ٤٧٤ - ٤٧٣ - ٤٧٢ - ٤٦٧ - ٤٦٦
الكلآ ١٣٠ - ١٣٦	٤٧٦ - ٤٧٧ - ٤٧٨ - ٤٨٠ - ٤٨١ - ٤٨٣
مكاس ٨٠٧ - ٨٠٨ - ٨٠٩	٤٨٤ - ٤٨٥ - ٤٨٨ - ٤٩٠ - ٤٩١ - ٤٩٤
مليلة ٧٩٦ - ٨٠٨	٤٩٥ - ٤٩٦ - ٤٩٩ - ٥٠٢ - ٥٠٣ - ٥٠٤
المملكة الأردنية الهاشمية ٧٦٣ - ٧٩١	٥٠٥ - ٥٠٦ - ٥٠٧ - ٥٠٨ - ٥٠٩ - ٥١٠
المالك الإيطالية ١٨٨	٥١١ - ٥١٢ - ٥١٤ - ٥١٥ - ٥١٦ - ٥١٩
المملكة المغربية ٨٠٨	٥٢٠ - ٥٢١ - ٥٢٥ - ٥٢٧ - ٥٢٩ - ٥٣٠
مق ١١٩ - ١٥١ - ١٧١ - ٣٢٩ - ٧٢١	٥٣١ - ٥٣٢ - ٥٣٤ - ٥٣٥ - ٥٣٦ - ٥٣٧
مق (منح) ١٧٢	٥٣٨ - ٥٣٩ - ٥٤١ - ٥٤١ - ٥٤٥ - ٥٤٦
منازل خزانة (قرب مكة) ٥٣٤	٥٤٧ - ٥٤٨ - ٥٥١ - ٥٥٢ - ٥٥٥ - ٥٥٦
منتدي فريش ٢٨٣	٥٥٧ - ٥٥٨ - ٥٥٩ - ٥٦٠ - ٥٦١ - ٥٦٢
المنصورية ٧٥٥	٥٦٣ - ٥٦٤ - ٥٦٥ - ٥٦٩ - ٥٧٠ - ٥٧١
مهد الذهب (جبل) ٥٢٩	٥٧٢ - ٥٧٣ - ٥٧٤ - ٥٧٥ - ٥٧٨ - ٥٧٩
المهدية ٧٣٠ - ٧٥٥ - ٨٠٣	٥٨١ - ٥٨٣ - ٥٨٤ - ٥٨٥ - ٥٨٦ - ٥٨٧
الموانء الإيطالية ١٣٧	٥٨٨ - ٥٩٠ - ٥٩٣ - ٥٩٤ - ٥٩٥ - ٥٩٦
الموصل ١٢٢ - ٧٦٠	٥٩٧ - ٦٠١ - ٦٠٢ - ٦١٤ - ٦١٨ - ٦٣٠
المولوية (س) ٧٣٢	٦٣١ - ٦٤٠ - ٦٤١ - ٦٤٢ - ٦٤٤ - ٦٤٦
ميفعة (غربي نجد) ٥١١	٦٤٨ - ٦٤٩ - ٦٥١ - ٦٥٤ - ٦٥٥ - ٦٦١
مينسك ٧٨٧	٦٦٣ - ٦٦٦ - ٦٧٤ - ٦٧٥ - ٦٨٦ - ٧٠٢

ن

نجد ٥٣ - ٦٤ - ٨١ - ٢٠٢ - ٢٠٣ - ٣٨٦	٧٧٩ - ٧٨١ - ٧٨٤ - ٧٩٢
٣٨٩ - ٤٠٩ - ٤١٠ - ٤٢٤ - ٤٤٦ - ٤٥٢	مكة (أخوان) ٣٨٩
٤٥٧ - ٤٥٨ - ٥١١ - ٥٢٩ - ٥٣٠ - ٦٠٤	مكة (القيم) ٨٢
٦٤٣ - ٦٤٥ - ٦٤٦ - ٦٤٧ - ٦٦٥ - ٧٢٧	مكة (الطاح) ٩٩
٧٧٧	مكة (بطحاء) ١٥١
نجد (أطراف) ٣٨٨ - ٤٤٦ - ٤٤٨ - ٤٥٧	مكة (طن) ١٠٤ - ١٠٥ - ١٤٢ - ١٦٥ - ١٧١
نجد (الصولي) ٦٩ - ٨١ - ٤١٠ - ٥٧٨ - ٦٠٣	مكة (حوب شرقي) ٨٢
٦٧٨	مكة (شرقي) ٨١
نجد (مداخل) ٤٤٨	مكة (شمال) ٨٠ - ٨٢ - ٨٣ - ١٠٢
نجد (مرتفعات) ٦٧٨	مكة (الطاح) ٨١ - ١٦٧
نجد (غربي) ٣٨٤	مكة (عربي) ٦٨ - ٨٠
	مكة (قلب) ٧٣

مجد (مطالع) ٤٠٨

سحران ١٥٤ - ١٥٨ - ١٩٢ - ٥٦٨ - ٥٩٦

٦٠٣ - ٧٥٠

سحله ٣٧٩

الطاقة ١٣٣ - ١٣٤

العود ١٨

التمود (جوي) ٨١

نهاوند ٦٣٣

النوبة ٤٩٣

بنوى ٦٥٣

بجيريا (شمال شرق) ٧٠٩

وادي مهرور ٤١٤

واسط ٦٨٣ - ٧٣٠

وحدة ٨٠٦

ورد ووع (جبل) ٤٦٧

وژان ٣٨٦ - ٤٦٥

الوطاء (أسفل أحد) ٣٦٨ - ٤١٨

الولايات المتحدة الأميركية ٧٧٢ - ٧٨٨

وليل ٧٢٦ - ٧٢٧ - ٧٢٩

وهران ٧٣٩ - ٧٤١

ي

يئرب ١٣٨ - ١٤٤ - ١٤٥ - ١٤٦ - ١٥٠ - ٢١١

٣٢٥ - ٣٣٥ - ٣٤٠ - ٣٥٢ - ٣٥٣ - ٤٠٣

٤٠٦ - ٤٥٣ - ٥٠٩ - ٥١٠ - ٥٢٨ - ٧٣٠

اليوموك ٣٤١ - ٤٨٤ - ٥١٨ - ٥٦٩

اليهامة ١٣٣ - ٤٦٩ - ٤٨٨ - ٥٤١ - ٥٧٢

٦٠١ - ٦١٠ - ٦١٤ - ٦٤١ - ٦٥٤ - ٧٦٣

٧٦٤

البحس ٢٢ - ٢٥ - ٣٩ - ٤٠ - ٤١ - ٤٣ - ٤٥

٥٣ - ٥٤ - ٧٨ - ٩٦ - ٩٨ - ١٠٧ - ١٢١

١٣٨ - ١٤١ - ١٤٦ - ١٥٥ - ١٥٩ - ١٦٠

١٦١ - ١٦٣ - ١٦٦ - ١٨٢ - ١٨٧ - ٢٠١

٢٢٤ - ٢٢٥ - ٢٤٩ - ٢٥٢ - ٢٨٠ - ٤٠١

٤٤٦ - ٤٦٢ - ٤٧٣ - ٥٢٨ - ٥٢٩ - ٥٤٧

٥٨٣ - ٥٩٦ - ٦٠٣ - ٦٤٣ - ٦٤٤ - ٦٥٤

٦٦٤ - ٦٧٥ - ٦٩٤ - ٧١٧ - ٧٤٥ - ٧٤٦

٦٤٧ - ٧٤٩ - ٧٥٠ - ٧٥١ - ٧٥٢ - ٧٥٣

٧٦٦

اليمن (جوي) ١٣٢

اليمن (شمال) ١٣٣

اليمن (وسط) ١٣٣

يغ ٨٢ - ٧٦١ - ٧٧٤ - ٧٩٣ - ٧٩٧ - ٨٠٧

اليونان ٣٨ - ٧٨٩

هـ

الحاشية ٧٣٠

هجر ١٣٠ - ١٣١ - ١٣٢

هرا ٦٧٨

الضج (ما بين نهر وفندق) ٤٥٢ - ٤٥٣

الهند ٢٩ - ١٢١ - ١٢٤ - ١٣٥ - ١٣٦ - ١٦٠

٢١٩ - ٢٤٩ - ٦٠٧ - ٧٧٣ - ٧٧٥

الهند البريطانية ٧٨٣

هوازن (جنوب وشرق) ٨١

و

الواحات الكبرى والصغرى ١٣٠

وادي تبران ٢٦٢

وادي الخزان ٤٦٦

وادي سؤرة ٨٠٣

وادي السغرى ٣٩ - ٤٠ - ٤١ - ٨٢ - ٤٤٩

٥٢١ - ٥٣٣ - ٧٦١

وادي غرة ١٧١

وادي محسر ١٧١

وادي المحازن ٧٩٩ - ٨٠٠

وادي المكتب ٢٦٢

القرش

٩ - ٧

مقدمة

٢٣٢ - ١١

القسم الأول: قرش قبل الإسلام

٨٣ - ١٣

الفصل الأول: ظهور قرش وأوليات تاريخها

١٥

مدخل

١٧

أوليات تاريخ العرب: العرب البائدة

٢٥

العرب العاربة: الجمل

٣٣

العرب العاربة: النخلة

٣٥

البدو والبدواة: الجمل في حياة البدو.

٣٨

مشكلة فضاعة

٤٣

العرب المستعربة (الاسماعيلية): الخليل

٥٨

فرع قيس عيلان بن مضر

٦٦

فرع إلياس بن مضر: كنانة - أول ظهور قرش

٦٩

مشاكل تتعلق بأصل قرش

بدايات ظهور قرش وانفصالها عن كنانة

٧٣

من بني إلياس بن مضر

٧٥

خزاعة: أصولها ومورفولوجيتها

٧٧

خزاعة وقرش

٨٠

الوضع السكاني في الحجاز قبل البعثة

الفصل الثاني: بناء قرش سياسياً واجتماعياً واقتصادياً

٢٣٢ - ٨٥

ودينياً

٨٧

تمهيد

قصي بن كلاب والبناء العسكري والسياسي لقرش:

٩٢

أخبار قصي حتى توليه زعامة قرش

٩٦

الصراع بين قصي وخزاعة

٩٠٧

٩٨	قصي يستولي على مكة
	عبد مناف بن قصي
١١٠	إكمال البناء السياسي والاجتماعي لقريش
١١٥	هاشم بن عبد مناف ومناء التجارة المكية
١٢٨	الأسواق والمواي وطرق التجارة
١٣٧	كلمة ختامية عن هاشم وأعماله
	عبد المطلب بن هاشم ودوره في بناء الركن
	الرابع من أركان قوة قريش قبل الإسلام
١٣٩	وهو الدين
١٥٤	محقق في تاريخ عام الفيل
١٥٩	قريش في أوج قوتها قبل الإسلام
١٧٠	انقسام قريش إلى معسكرين ودخول الفساد إليها
١٨٤	حروب الفجار وأثارها على قريش
١٩١	المجتمع القرشي في أوجه قبل الإسلام
	أثر انتظام التجارة والحج
١٩٧	في النمو الحضاري لقريش وتطور اللغة العربية
٢٠٦	قريش والكتابة العربية
٢١٣	مورفولوجية قبيلة قريش قبل البعثة النبوية
٢١٣	القسم الثاني: قريش بعد الإسلام
٢٣٤ - ٣٥٦	الفصل الأول: قريش والإسلام في مكة
	الفترة الملكية الأولى: من نزول الوحي إلى
٢٣٧	الخروج من دار الأرقم
٢٦٤	قريش ودورها في النهوض
٢٦٥	فترة دار الأرقم
٢٧٢	الفترة المكية الثانية
٣٠٢	حصار بني هاشم وبني المطلب في الشعب
٣٢٦	ساء قريش والدعوة الإسلامية
٣٣١	المستهرون - الخروج إلى الطائف
٣٣٨	المرحلة الثالثة الأخيرة من الفترة المكية
	أبو سفيان صخر بن حرب ونو عبد شمس
٣٤٤	يتولون قيادة قريش في صراعها مع الإسلام

٣٤٧	قريش تلجأ إلى سلاح القول بأن محمد ساحر
٤٢٩ - ٣٥٧	الفصل الثاني: قريش وأمة الإسلام في المدينة
	الدور الأول من الصراع بين قريش والإسلام
٣٥٩	من الهجرة إلى موقعة بدر
	الدور الثاني من الصراع بين قريش والإسلام
٣٦٣	من بدر إلى أحد
	الدور الثالث من الصراع بين قريش والإسلام
٣٨١	من حراء الأسد إلى الخندق
	الدور الرابع من الصراع بين قريش والإسلام
٣٨٩	من بدر الموعد إلى غزوة الأحزاب أو الخندق
٣٩٥	دروس وعبر
٣٩٩	يهود المدينة والإسلام
٤٠٥	قريش وأحلافها يسبرون إلى المدينة
٤١٤	بنو قريظة ينقضون العهد
٤١٦	الأحزاب أمام الخندق
٥٢٣ - ٤٣١	الفصل الثالث: قريش في الطريق إلى الإسلام
٤٤٥	فتح خيبر
٤٥٦	التمهيد للحديبية
	غزوة الحديبية - بنو عامر بن لؤي
٤٦٢	يتولون قيادة مكة
٤٦٦	قريش قبل الحديبية
٤٩١	المفاوضة والصلح
	الوضع في الحجاز وشمال الجزيرة ووسطها
٥٠٦	بعد الحديبية
٥٠٧	فتح خيبر ونتائجه
٥١٠	ملاحظات على عمرة القضية
٦٢١ - ٥٢٥	الفصل الرابع: فتح مكة ودخول قريش في الإسلام
٥٢٧	فتح مكة
٥٧٤	موقف كبار القرشيين من الإسلام بعد الفتح
٥٨٧	رسول الله وقريش
٥٩٠	ضعف مركز القرشيين في الأمة عقب فتح مكة

٥٩٥	قريش تتجه إلى الاشتراك في قيادة أمة الإسلام
٥٩٧	القرشيون يخرجون الأنصار من الرياسة والقيادة
٦٠٢	أبو بكر يستدعي رؤساء مكة ويسند إليهم الرياسات
	أبو بكر يدعو أشرف قريش من أهل مكة
٦١٤	ليستعين بهم في الفتوح
٦٦٩ - ٦٢٣	الفصل الخامس: قريش تفقد قيادة أمة الإسلام
٦٢٥	قريش والرياسة في أمة الإسلام
٦٢٩	نهاية الوحدة القرشية
	فتنة عثمان:
٦٣١	ثورة من جماعات كبيرة من العرب على رياسة قريش
٦٤٠	التصدع الخطر في القيادة القرشية
٦٤٤	قريش تهدم قريشاً
	انتقال ولاء المسلمين إلى قريش بني هاشم
٦٤٩	ونهاية قريش بني عبد شمس
٦٥٩	أبو بكر كان يعرف مطامع القرشيين ويحذرهم منها
٦٦٢	مسؤولية علي بن أبي طالب
٦٦٥	بنو أمية ونصيبهم في القضاء على هبة قريش
	الفصل السادس: الأمويون والعباسيون، ونصيبهم
٦٩٥ - ٦٧١	في القضاء على هبة قريش وبقاء الفرع العلوي
٦٧٣	بنو أمية ومسؤوليتهم في إضعاف قريش
٦٨٨	العلويون آل البيت
	الفصل السابع: عبوض البيت العلوي وإحياؤه لقريش
٨١١ - ٦٩٧	وأهم الدول التي أنشأتها قريش على طول التاريخ
٦٩٩	تمهيد
٧٠٢	الدولة الأموية الأندلسية
٧١٤	دولة الإدارة في المغرب الأقصى والسليانيين في غرب المغرب
٧٣٦	الدور الثاني من تاريخ الإدارة
٧٣٩	الدولة العلوية من بني سليمان بن عبد الله المحض
٧٤٢	العلويون الحسنيون وإسلام بلاد الدلم ودهستان وجرجان

٧٤٥	الزيدون في اليمن
٧٥٢	الدولة الفاطمية في افريقية ومصر والشام
٧٦١	دول الشرفاء في مكة والمدينة والحجاز
٧٩٢	دول الشرفاء في المغرب الأقصى : السعديون والعلويون
٨٠٥	ظهور الشرفاء العلويين
٨١٣	مصادر الكتاب
٨٧٤ - ١٣	الفهارس العامة
٨١٥	١ - فهرس الأعلام
٨٤٣	٢ - فهرس الأسم والقبائل والجماعات
٨٥٩	٣ - فهرس الأماكن

